

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم التاريخ
مكة المكرمة

الدولة العثمانية من خلال كتابات المستشرقين في دائرة المعارف الإسلامية عرض ونقد وتحليل

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراة في التاريخ الحديث

إعداد الطالبة
أمانى بنت جعفر بن صالح الغازى

الجزء الأول

إشراف
أ.د / أميرة بنت علي مداح

2010هـ / 1431م

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ

ملخص المادة

الحمد لله والصلوة والسلام على سيدنا محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد ...

هذه الرسالة بعنوان "الدولة العثمانية من خلال كتابات المستشرقين في دائرة المعارف الإسلامية" عرض ونقد وتحليل . وهي تشمل على مقدمة وتمهيد وأربعة فصول بالإضافة إلى التوصيات، وعدد من الملحق وقائمة المصادر والمراجع.

تضمنت المقدمة أسباب اختياري للموضوع، وأهميته من منطلق أهمية دراسة الاستشراق، وأوضحت المقدمة أهم مصادر الدراسة، والمنهجية التي سارت عليها.

أما التمهيد فقد اختص بشرح منهجية المستشرقين في كتابة التاريخ الإسلامي قبل العهد العثماني.

وتناولت الدراسة في الفصل الأول أثر قيام الدولة العثمانية في ازدياد الاستشراق، من خلال أربع مباحث ، أختص المبحث الأول بتناول مسألة تسامي أعداد كراسى الاستشراق في الجامعات الأوروبية ، أما المبحث الثاني فقد ركز على دعم البابوية لحركة الاستشراق ، بينما أختص المبحث الثالث بتوضيح أصداء الفتوحات العثمانية في أوروبا. ودور المستشرقين في إرقاء روح العداء ، وأخيراً تناول المبحث الرابع مسألة أثر سياسة التسامح الديني في نمو حركة الاستشراق.

أما فيما يختص بالفصل الثاني فقد ركز على دائرة المعارف الإسلامية نفسها، حيث عرف المبحث الأول بدائرة المعارف الإسلامية، وأهتم المبحث الثاني بتناول حياة المستشرقين الذين ستكون مoadهم موضع نقض في الدراسة. وأختص المبحث الثالث بتوضيح دور اليهود في توجيه منهجة الكتابة عن الدولة العثمانية.

وعالجت الدراسة في الفصل الثالث آراء المستشرقين في كتابة التاريخ العثماني، من خلال ثلاث مباحث، الأول منها ناقش آراء المستشرقين في قيام الدولة العثمانية، بينما أختص المبحث الثاني بتحليل ونقد رؤية المستشرقين لسلطان العصر الذهبي للدولة العثمانية.

وتناول المبحث الثالث نظرية المستشرقين لسلطان عصر الضعف.

أما الفصل الرابع والأخير فقد ركز على رؤية المستشرقين للنظم العثمانية، من خلال اختيار ثلاثة نماذج الأول منها النظم العسكرية "نظام الإنكشارية نموذجاً" ، والمبحث الثاني النظم الاجتماعية "نظام الحرير نموذجاً" ، وأخيراً المبحث الثالث النظم الشرعية "نظام شيخ الإسلام نموذجاً"

وخلصت الدراسة بعدد من التوصيات، جاءت في خاتمة الدراسة، ودُلّلت الرسالة ببعض الملحق التي احتوت على الخرائط والوثائق، وقائمة المصادر والمراجع.

والله من وراء القصد

أمانى جعفر الغازى	المشرفة	الطالبة
أ.د. سعود إبراهيم الشريم	أ.د. أميرة علي مداح	

Abstract

Praise is to Almighty Allah, peace and prayers may be upon his messenger, Mohammad, the son of Abdullah, and upon his followers as all.

This research is titled “Othman State Through Orientalist Writing within Islamic Encyclopedia” presentation, criticism and analysis. The research is divided into an introduction, preface, four chapters, additional recommendations, appendix and references.

Introduction includes reasons for choosing such a subject and its importance emanating from the importance of studying orientalism. It indicated the most important sources of the study and it's Methodism.

Preface was specified to explain orientalism Methodism in drafting Islamic history before Othman era.

In the first chapter, the study dealt with the effect of Othman state in increasing orientalism. It is divided into four sections. The first section discussed the increasing number of the increasing the number of the orientalism chairs in European universities. The second focus on baptisms support for orientalism. The third talked about Othman conquests echoes in Europe and orientalists role in increasing enmity spirit. The last section was concerned with the effect of religious forgiveness policy on orientalism growth.

The second chapter concentrated on the Islamic encyclopedia itself, the first section defined the Islamic encyclopedia, the second section discusses the Orientalist's life that will be a subject of criticism in this study. The third section indicates the Jewish role in directing writing Methodism about Othman state.

The third chapter treated the Orientalist's opinions in drafting Othman history in three section, the first section discussed the Orientalist's opinions in establishing Othman state, the second section includes a criticism and analysis of the Orientalist's point of view for the golden age of Othman sultans and the third section dealt with Orientalist's point of view for the sultans of weakness age.

The last chapter concentrated on the Orientalist's point of view for Othman systems through three examples, the first which is the military system "Inkshari system" as an example, the scond is social system "Harem system" as an example and the third is religious system "Shaikh al-Islam system" as an example.

The study summarized a number of recommendations mentioned at the study conclusion. There are some appendixes that contained maps and documents, and the research's references.

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله والصلوة والسلام على سيد المرسلين والهادي الأمين وأشرف خلق العالمين
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابَ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَا تَعْبُدُ إِلَّا اللَّهُ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلُّوْا فَقُولُوا اشْهُدُوْا بِأَنَّا مُسْلِمُوْنَ ﴾⁽¹⁾

قال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوْلِي لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾⁽²⁾

عن أبي هريرة رض أن الرسول ص قال : "من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى الضلال كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه ، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً" (رواه مسلم) .⁽³⁾

عندما ظهر الهلال العثماني في سماء الشرق الإسلامي ، كان العثمانيون قد صدموا أوروبا أكبر صدمة تلقتها على مر تاريخها عندما سقطت القدسية في قبضتهم وكان للعثمانيين تجربة رائدة في حركة الفتوحات الإسلامية في أوروبا ، حيث عملوا على تطبيق المبدأ القرآني بنشر الإسلام ، فأقاموا مراكز مهمة في اليونان ، وبلغاريا ، والصرб ، وجنوب شرق أوروبا ، ووسطها ، والقرم ، وبلاط المجر. أما على الصعيد الشرقي فقد دخلوا وضموا مصر ، والشام ، والجاز تحت الحكم العثماني ، وامتدت حدود الدولة العثمانية من الدانوب حتى الخليج العربي ، ومن أراضي آسيا الصغرى إلى مصر ، فوطئت جيوشها أقاليم لم تخضع قط لحكم المسلمين من قبل ، وأحرزت باسم الإسلام انتصارات خاطفة وباهرة ، فضمت دولاً أوروبية ، وبذلك وصلت حدودها إلى فيما . وأدركت أوروبا حقيقة دور العثمانيين في الدفاع عن الدين ، وعن بلاد المسلمين ، لا يفرقهم وطن ، ولا لون ولا جيش. وتغير ميزان القوى بخساره أوروبا لسيادتها العسكرية التي بدأت منذ الحملات الصليبية حتى ظهور الهلال العثماني ، وانقلب الحال على أيدي العثمانيين الذين توسعوا في الفتوحات وأرسلوا الجيوش، وصارت أوروبا تعمل لهم ألف حساب ؛ ففرضوا الحماية على

⁽¹⁾ سورة آل عمران : آية 64 .

⁽²⁾ سورة الزمر : آية 22 .

⁽³⁾ صحيح مسلم ، باب من سن سنة حسنة أو سيئة ، ج 13 ، ص 1640 .

العالم الإسلامي تحت رايهم ، وبدأوا في صد الخطر الاستعماري عنه . وهنا يمكن السبب الرئيس للعداء ؛ لأن أوروبا ظلت في حالة حروب صلبيّة مستمرة.

ولتاریخ الدولة العثمانیة أهمیة خاصة ، تکمن هذه الأهمیة في كونها الدولة الإسلامية الكبرى في التاریخ الحديث التي قامت في أساسها على الشريعة الإسلامية ، مما أکسبها قوّة وتماسك حتى في عصر ضعفها حملت الإسلام إلى أوروبا ، ودقّت به على أبوابها ، ففرزت الحكومات والشعوب الأوروبيّة من هذه الدولة الإسلامية التي هاجمتها في عقر دارها ، وبعد نهاية القرن 10هـ / 16م، بدأت أوروبا تفكّر جدياً ، وتخطّط لإيقاف هذا الزحف الإسلامي؛ إذ إنَّ لانتصارات العثمانية الإسلامية بلا شك تأثير على سياستها ، فكان للعامل الديني أثر في فزع أوروبا ، وجعلها تختبط في القهر وحب الانتقام ، وزاد من فزعهم أيضاً انتشار الإسلام في أجزاء من أوروبا ، مما أدى إلى وقوفها ونهوضها ضد الدولة العثمانية بكل الطرق الحربية والفكريّة ، ولم يعد همها إلا استرداد ما أخذه العثمانيون منها بل ونفتّحت شهيتها على مناطق جديدة ، فعقدت المؤامرات والتحالفات الصليبيّة والتكتلات الحربية ضدها بمساندة الكنيسة وبابا روما. ويصدق فيهم قول الله : ﴿ وَمَا تَقْمُّ مِنْهُمْ إِلَّا أُنْيَمُّوا بِاللهِ الْعَزِيزِ ﴾ الحٰيدر⁽¹⁾

ثم إنَّ اهتمام العثمانيين بنشر الإسلام جعل كل أوروبا ب الرجال الدين فيها والسياسيين يقفون ضد هذا الانتشار ، فعملوا على تطويق العالم الإسلامي بأكمله ، وإخراج الإسلام من المناطق التي انتشر فيها ، مثل رودس ، اليونان ، وبلاد المجر ، وغيرها .

وتاتعت أوروبا عدوانها على الدولة العثمانية المسلمة حتى تحقق لها ما تريد في بداية القرن 14هـ / 20م ، حيث كسرت شوكة القوة العثمانية ، وتدفع الاستعمار بعد هذا الإنكسار كالسيول الجارفة تقضي على الأخضر واليابس ، ونالتهم البلاد الإسلامية بضراوة وقسوة .

هذا الانتقام جاء من أوروبا ؛ لأنَّ الدولة العثمانية عوضاً عن نشرها للإسلام ، كشفت عن وجه أوروبا القائم والمخزي أثناء استعمارها للبلاد الأخرى. وذلك من خلال سياسة التسامح الديني التي اتبعتها الدولة العثمانية ، وكانت سبباً في نشر الإسلام ، وترحيب أهالي البلاد بالحكم العثماني في الوقت الذي كانت فيه أوروبا تبني حضارتها على امتصاص خيرات ودماء الشعوب المستعمرة .

⁽¹⁾ سورة البروج : آية 8 .

كلّ هذه العوامل جعلت أوروبا تفكّر في كيفية الكيد للدولة العثمانية والقضاء عليها ، إلى جانب المواجهة العسكرية ، وخوض المعارك الدامية ، لذا لجأت إلى أسلوب ومنهجية قديمة في مواجهة الخطر الإسلامي تمثل في الاستشراق .

حقيقة أن الاستشراق نشأ قبل ظهور الدولة العثمانية ، إلا أنه لم يُعُّ بـشكل قوي وظاهر وحضور واضح في عهد الدولة العثمانية ، خاصة بعد فتح القدسية وهز عروش المسيحية . ومن أجل ذلك لجأت أوروبا إلى الفكر ، والأفلام الحادة التي تسبّبت في صراع محموم لصنع الافتراط حول الدولة العثمانية سواء في رموزها الإسلامية أم تصوير حكمها في الولايات العربية بصورٍ قاتمة مظلمة ، يتخللها الاستبداد والظلم والقهر . ومن تلك الصور : مذابح الرعايا ، إعدام المتفقين ، عزل الولايات العربية عن الحضارة والتقدم ، وما إلى ذلك من التهم .

وتسبّق المستشرقون في نسج الافتراط حول فتوحات الدولة العثمانية في الأقاليم التي لم يدخلها الإسلام يوماً . ولذلك جاء تاريخها متاثراً في كثير من الحالات بروح العداء للإسلام ، فانبرت أفلام المستشرقين لها ، حيث اعتبروا ذلك التاريخ مادة خصبة ثرية للكتابة عنها وتشويه أمجادها وأماضيها ، وذلك عندما عجزوا عن غزوها عسكرياً ، فلجموا لغزوها فكريًا ، ومن ضمن وسائل الغزو الفكري تلك الأفلام الاستشرافية التي شوهت التاريخ الإسلامي . ولحبك خيوط المؤامرة لا بد من إيجاد مساحة حرّة لهذه الأفلام تبّث من خلالها أفكارها المشوهة وافتراطاتها ، ليس على الدولة العثمانية فقط ، وإنما على كل ما هو إسلامي . هذه المساحة ترتدى لباس العلم والبحث العلمي ، فكانت المؤلفات الاستشرافية ، ومن أبرزها دائرة المعارف الإسلامية التي كانت مناسبة لأداء هذا الدور ضد الإسلام والمسلمين . فدائرة المعارف الإسلامية موسوعة ألفها أساطين المستشرقين في بداية

ق 14هـ/20م على هيئة أبحاث منفصلة مرتبة فيها المواد حسب الحروف الهجائية ، وصدرت في عدة طبعات ، تُرجم منها طبعتان إلى اللغة العربية ، واحتوت الموسوعة على ترجم للكثير من الشخصيات المشهورة في التاريخ ، وعلوم الدين والنظم والقبائل والواقع ، كتب فيها 486 مستشرق تقريرياً في مختلف فروع المعرفة .

خاض المستشرقون فيها صولات وجولات ؛ لاختلاق أحداث وهمية مدعاة بمصادر خيالية ، والكتابة عن أحداث تَمَّت بالفعل مع إضافة الكثير من التشويه والكذب والافتراء ، والبحث الدائم عن مواضع الضعف في التاريخ والحضارة الإسلامية ، وإبرازها لأجل غاية

سياسية أو دينية ، من شأن ذلك أن يزعزع إيمان وثقة القارئ بكل ما هو إسلامي ، وبإسلامية وعدل الدولة العثمانية على الخصوص .

وقد لفت نظري ، وشد انتباهي ما كُتب في هذه الموسوعة عندما كنت أدرس في السنة المنهجية، حيث وقفت على أعمال المستشرين، ومنهجهم في تشويه التاريخ الإسلامي عامة ، والدولة العثمانية خاصة ، فحرضت على التخصص في دراسة الاستشراق ؛ لكشف شبهاتهم ، والرد عليهم بما في كتب المسلمين من ثروة علمية تصب في هذا الاتجاه .

ومن هنا جاءت أهمية الدراسة ؛ إذ تجمع خيوط كتابات المستشرين عن الدولة العثمانية في دائرة المعارف الإسلامية ، وآرائهم المغرضة من عدة أوجه، بداية بقيام الدولة العثمانية ، وسلطان عصر القوة الذين أثروا بشكل مباشر في تاريخ أوروبا، وسلطان عصر الضعف والافتراءات التي لحقت بهم ، وأخيراً تعرض أو تقدم أمثلة عن النظم الإسلامية وتعدياتها عليها .

والدراسة تلقي الضوء على خلفيات وآفاق كتاباتهم غير المنصفة في دائرة المعارف الإسلامية ، والتي اتخذت أسلوباً جديداً بدلاً من التشويه المباشر، ويظهر بوضوح في الأسلوب الرقيق الناعم الذي يشكك في الحقائق عن بعد عند تناوله لموضوعات الدولة العثمانية بشكل غير معلن ، لا سيما عند تناول سير السلاطين العثمانيين خاصة .

ولتكون هذه الدراسة جديرة بالاهتمام سأحاول - بعون الله- تفنيد افتراءات المستشرين على الدولة العثمانية من خلال تحضير آرائهم بالأدلة والبراهين الدامغة ، والمدعمة بالمصادر الموثوقة والصادقة في تناول تاريخ الدولة العثمانية، للوقوف على الحقائق التاريخية من خلال الوثائق التي تثبت عدم صدق ادعاءاتهم الواردة في دائرة المعارف الإسلامية .

وأحسب أنَّ هذه الدراسة هي الأولى من نوعها التي تتناول تاريخ الدولة العثمانية من خلال دائرة المعارف الإسلامية ، وتلقي الضوء عليها والأكاذيب التي احتوتها بين صفحاتها، إضافة إلى أنني أتوقع أنها أول دراسة علمية تناقش الافتراط والأخطاء التي أُصبت بتاريخ الدولة العثمانية .

ولا شك أن دائرة المعارف الإسلامية جعلت كثيراً من المؤرخين يصدرون أحكاماً جائزة ، وسم بها التاريخ العثماني ، وفيها كثير من الجور والمغالاة ، رغم أن الدولة العثمانية قدمت كثيراً من الخدمات الجليلة للأمة الإسلامية ؛ ولذا لم يكن تاريخها شرًّا كله ،

ولا خيراً كله ، فهي دولة إسلامية مثل بقية الدول الإسلامية ، وسلطينها بشر يصيرون ويخطئون ، وهذه سنة الحياة .

وتعتبر دائرة المعارف الإسلامية وعاءً كبيراً حوى أكثر آراء المستشرقين عن الإسلام ، وبالتالي عن العثمانيين ، وهي في الواقع تردّد لآراء المستشرقين اليهود والنصارى في قوالب مختلفة وجديدة .

لكن هذا لا يعني أن دائرة المعارف الإسلامية لم تقدم شيئاً من الفائدة للثقافة الإسلامية ، فمن خلالها عرف الناس في أوروبا عن ماهية الإسلام ، وتاريخ رموزه وكفاءتهم وإن كان هناك تشويه لذلك كله ، قد أظهروا تعاليم الإسلام في بعض المواقع دون تحريف .

لكن خطورة دائرة المعارف تلك تكمن في انجراف أغلب المؤرخين العرب بشتى انتماطاتهم واتجاهاتهم والمؤرخين الأتراك أنفسهم - إلا من رحم ربى - وراء آرائهم الخاطئة، وبذلك سعوا إلى إدانة فترة كبيرة جداً من تاريخهم ، مرتبطة بالإسلام وبهم وبتاريخنا في الشرق الإسلامي .

ومؤرخون العرب في ذلك ساروا في ركب الاتجاه المهاجم لفترة الدولة العثمانية مدفوعين بانبهارهم بالحضارة الأوروبية، والتبعية البحثية لمدارس التاريخ الغربي على اعتبار أنها الأفضل مكانةً والأكثر تقدماً، والأمر على العكس تماماً؛ لأن المدارس الغربية ليس لها أيّ منهجية علمية ثابتة وتسير وفق أهداف معينة ، وإنما تسير وفق هواها وأغراضها. ومدفوعين أيضاً بحب نقلية المؤرخين الغربيين دون تحمل المشقة والعناية للتأكد من صحة المعلومات التي يرددوها المستشرقون ، والأخذ بها كأنّما حدثت فعلاً ، بل والتمسك بها وعدم التنازل عنها .

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا فَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحُ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيمًا﴾⁽¹⁾

ومن منطلق الآية الكريمة اختارت تلك القضية لتكون عنواناً وموضوعاً لأطروحتي لمرحلة الدكتوراه . ومن الأسباب التي دعتني إلى اختيار هذا الموضوع ما يلي :

١) وجدت نفسي مدفوعة لأن أقول كلمة حق في دائرة المعارف الإسلامية ؛ للحدّر من الأخذ منها ، خاصة وأن أكثر كتابها تعود أصولهم إلى جذور يهودية، أو لهم ميول

⁽¹⁾ سورة الأحزاب الآية 70 ، 71 .

صهيونية ، وأن الحقبة التاريخية التي كتبت فيها هذه الموسوعة هي الحقبة التي تکالب فيها الاستعمار على البلاد العربية .

(٢) وقد درست مادة (حركة الاستشراق) مع مشرفتي في السنة المنهجية ، ووقفت على أعمالهم المشوهة للتاريخ الإسلامي، ولا سيما التاريخ العثماني، فحرضت على التخصص في الاستشراق لدحض آرائهم وإظهار عدم صحتها وصدقها ، إضافة إلى رد الافتراء عن الدولة العثمانية، التي لها واجب علينا فقد قامت بحماية البلاد الإسلامية والإسلام لستة قرون ، فلتاريخها منا كلمة حق وإنصاف ، حيث لم ينصفها إلا القليل، مع الأخذ في الاعتبار أنه تخصص لا يزال البحث فيه بكرأً وغير مطرود. ومن واجب المؤرخين أصحاب المنظور الإسلامي إعادة النظر في أهم جوانب تاريخ الدولة العثمانية، أملأاً في النئام تلك الشروخ والفجوات التي كانت نتاج صياغة المستشرقين للتاريخ العثماني الإسلامي .

(٣) اختياري لهذا الموضوع هو تحدي للاستشراق والمستشرقين ، لأن طريقة عرضهم للمعلومة، وتعصبيهم الملحوظ حفز لدي روح الدفاع عن الإسلام، وأصالحة شخصياته المميزة، الأمر الذي دفعني لاستخدام البحث العلمي في تحليل ونقد كتاباتهم بشكل موضوعي ، ليس لكشف زيف أقوالهم فقط، وإنما لإصلاح القائم والاحتراس منه ، وإثبات أن عقلية المسلمين واعية لا تصدق كل ما يقال لها دون إخضاعه للتحليل والمنطق ومن منطلق التخصص أردت تصحيح صورة الدولة العثمانية المفترى عليها.

(٤) حاجة المكتبة التاريخية الإسلامية العثمانية لكتب المحايدة التي تؤرخ لهذه الفترة من مصادر موثوقة لا يشوبها شائبة ، وتذكر الأحداث التاريخية بصدق وحقيقة واضحة.

(٥) إن دائرة المعارف الإسلامية أصبحت-لأسف-مرجعاً لكثير من الباحثين والباحثات، ومعلوماتها في نظرهم لا تقبل الشك، وقد وجدت أن دائرة المعارف تلك لا تخلو منها أي مكتبة عامة داخل البلاد الإسلامية أو خارجها، حتى إنها متوفرة في المكتبات الأوروبية ، ويعدونها حجة فيما تتكلم عنه، ولذا أردت أن أقول كلمة حق في هذه الموسوعة؛ للحذر عند الأخذ منها، ولا يمنع ذلك وجود كثير من المعلومات الصادقة. ويعتبر لها الأسبقية فيها.

(٦) على الرغم من تعدد مؤلفيها ، واختلاف أهوائهم الشخصية ، وأهداف كل واحد منهم، إلا أن الأهداف الأساسية واحدة ، وهي :

- أ) زعزعة ثقة المسلمين بدينهم الإسلامي .
- ب) تشويه الإسلام لصد الغربيين عنه .
- ج) تهيئة المعلومات الازمة والأجواء ؛ لخدمة الاستعمار والمنصرين .
- د) تهيئة العقول المسلمة لاستقبال آراء الغرب وتقاليدهم وقوانينهم عوضاً عن الشريعة الإسلامية .
- ٧) هذه الدائرة الإسلامية رغم ما قيل عنها من مزايا، إلا أنها مليئة بالأخطاء التي أفقدتها قدرًا كبيرًا من فائدتها بسبب التشويه المتمعمد ، مع الواقع في أخطاء كثيرة لجهل الكثرين من كتابها باللغة العربية، وبحقائق الإسلام ونظمه ، فوجدت أنه من الواجب بيان ذلك حتى لا يظهر أن ما كتبوه هو الصواب بإقرار المسلمين وسكتهم على ذلك.
- ٨) إن وفرة معلومات هذه الدائرة الإسلامية حيث جمعت بين جنباتها تخصصات مختلفة، وتم صياغة معلوماتها بأسلوب سهل يستفيد منه الجميع ، فضلاً عن سهولة الرجوع إليها لحسن ترتيبها ، واغترار بعض الناس بأسماء كتابها ، وقبول كل ما كتب فيها ، حيث أطلق عليها لفظ "إسلامية" أي أنها مرجع لكل العلوم الإسلامية، هذه العوامل مجتمعة جعلتني أفكر ملياً في اختيارها موضوعاً للدراسة.
- والحق يقال إن علماء الأزهر وأساتذة دار العلوم والجامعات المصرية أسدوا للترجمة العربية خدمات جليلة بتعليقاتهم، وإبداء ملحوظاتهم على الأخطاء التي كتبت عن الشريعة الإسلامية، ولكن هذه التعليقات لم تخرج عن حيز الموضوعات الخاصة بالعقيدة الإسلامية، وأحكام الشريعة، وبعض المفاهيم الخاصة بالإسلام. ولم يقدموا أي تعليق على الموضوعات الخاصة بالتاريخ الإسلامي، وتاريخ الدولة العثمانية والذي احتوى على كثير من الأخطاء والشبهات ، وذلك للحط من قدر الدولة العثمانية ، ولم يعلق أي مُترجم على مدى صحة المعلومات التي أوردوها ، إضافة إلى أن المתרגمين والمستشرين - على حد سواء - اعتمدوا على مصادر ومراجع أجنبية فقط، ولم يدخلوا مصادر إسلامية وعربية إلا فيما ندر .
- وقد حرصت في هذه الدراسة على استقاء المادة العلمية من منابعها ومصادرها الأصلية؛ إمعاناً في أصالة المعلومة، حيث تمكنت - بفضل من الله وتوفيقه - من القيام برحلتين علميتين إلى إسطنبول، قمت خلالهما بجمع المصادر والمراجع الازمة للدراسة ، وزيارة أرشيف رئاسة الوزراء واستخراج الوثائق ذات الصلة الوثيقة بالموضوع ، كما زرت

أرشيف طوب قابي سراي ، واستفادت من الوثائق والفرمانات والدفاتر الموجودة في الأرشيف، وتمت ترجمة هذه الوثائق خصيصاً للاستفادة منها في الدراسة .

كما جمعت عدة مخطوطات عثمانية قديمة أسهمت بشكل كبير في إثراء معلومات الدراسة. إضافة إلى عدد من دوائر المعارف التركية والمعاجم ذات الصلة بالموضوع ، واعتمدت في أغلب المباحث التي تتناول النقد والتحليل لمواد الدائرة الإسلامية على مصادر عثمانية ومراجع تركية؛ وذلك لوجود المعلومات الصادقة والدققة والحيادية فيها ، وأغلبها عبرت عن وجهة نظر إسلامية؛ لأن أغلب المصادر كانت معاصرة للأحداث، فأخضعتها للدراسة والتحليل للخروج بمعلومات أحسب أنها ستخدم الدراسة .

عوضاً عن المصادر العربية ذات الصلة بالموضوع مثل تاريخ الدولة العلية العثمانية لمحمد فريد المحامي، وتاريخ الدولة العثمانية ليلمازا وزتونا ، وتاريخ الدولة العثمانية وحقائق الأخبار عن دول البحار لإسماعيل سرهنوك ، وغيرهم من المصادر التي أثرت معلومات الدراسة .

أما المراجع العربية فلا يمكن إنكار فضلها على الدراسة ، سواء ما كتب عن تاريخ الدولة العثمانية بصفة عامة ، ولكن بطريقة حيادية موثوقة. أم ما كتب عن الاستشراق ومواجهته من الناحية الشرعية .

ولكن يعبّر على بعض المراجع وخاصة المستشرقون لنجيب عقيقي أنه لم يذكر المراجع التي رجع إليها وترك أغلب صفحات كتابه دون هوامش وبذلك يفوت على القارئ الاستفادة من المراجع والعودة لها .

على الرغم من أن كثيراً من المؤرخين والمفكرين كتبوا عن الدولة العثمانية إلا أن أغلب كتاباتهم جاءت مكررة ولم تأت بجديد ، وينقصها الدقة في أكثر الأحيان ، خاصة أنهم اعتمدوا على ما كتبه من سبقهم من المؤرخين أو ما ترجم منذ مدة طويلة ، ولم يتحمل المؤرخ عناء البحث عن معلومات جديدة ، أو إعادة الترجمة لتجديد المعلومات وإنما اكتفى بالنقل عن السابقين فقط .

أما عن كتب المستشرقين فلم استعن بأي منها؛ وذلك لوجود الآراء الفاسدة نفسها التي جاءت في دائرة المعارف الإسلامية على الأغلب ، وأما الحقائق التي ذكروها فقد تناولتها أو عرضتها الكتب التركية والعربية .

ومن أهم الصعوبات التي واجهتني ندرة المعلومة الصحيحة التي تتسم بالوضوح والدقة، وسيوضح ذلك من خلال صفحات الدراسة، إذ اعتمدت في بعض المباحث على مصادر

ومراجع محدودة جداً؛ وذلك لعدم توفر المعلومة المقنعة في كتب أخرى، مما عرقل كثيراً من مسيرة الدراسة نظراً لتشابه الهوامش إلى حد كبير. وذلك لأن بعض الموضوعات لم تتناولها كتب التاريخ العثماني، أو كتب الاستشراق إلا بإشارات عابرة ، ومقطعات صغيرة مما شكل ندرة في وجود المعلومة، مثل دور الكنيسة في دعم حركة الاستشراق، وتنامي كراسى الاستشراق في جامعات أوروبا على إثر ظهور الدولة العثمانية، إضافة إلى دور اليهود في الحركة الاستشرافية ، وتوجيه الكتابة عن التاريخ العثماني .

ومن أكثر الصعوبات تأثيراً على مسيرة الدراسة عدم إيقانى للغة التركية مما سبب لي عائق عدم اختيار الوثائق والحصول عليها فاضطررت للأنتظار لشهور طويلة حتى وصول الترجمة من الخارج، حيث تمت في إسطنبول والقاهرة ؛ لعدم وجود مترجمين متخصصين في المملكة. كما أن عدم توفر الكتب داخل المملكة جعلني أتحمل مشقة السفر إلى الخارج لإحضار الكتب المطلوبة ، وذلك أن المعلومات المحايدة ليست متوفرة في كل الكتب وإنما في القليل جداً منها.

أضف إلى ذلك صعوبة الحصول على الوثائق من أرشيف رئاسة الوزراء بإسطنبول نفسها ، فالأمر يتطلب إجراءات طويلة تمتد لعدة شهور، تبدأ من الفصلية التركية في جدة ، واستخراج الإذن، إضافة إلى صعوبة إجراءات الدخول إلى أرشيف طوب قابي سراي ؛ لأن له إجراءات مختلفة وإن آخر، مما زاد الأمر تعقيداً .

عوضاً عن غموض بعض مواد الدائرة الإسلامية ، وتدخل معلوماتها بشكل كبير، مما زاد من صعوبة تفنيـد المعلومـة، ليتم نقضـها وكذلك عدم الالتزام بالـتسلسل التـاريـخي للأحداث ، وخـير مـثال عـلـى ذـلـك مـادـة التـرك التـي قـدـمـها كـرامـز ، وـمـادـة شـيخ إـلـاسـلام ، وـهـي أـيـضاً مـن عـمل كـرامـز ، وـهـذه السـمـة غـلـبت عـلـيـه فـي أـكـثـر المـوـاد التـي كـتـبـت عـنـها فـي الدـائـرة إـلـاسـلامـية.

وأخـيراً فـإن كـثـرة أـسـماء الشـخـصـيات وـالـمـوـاـقـع كـانـت سـتـشـكـل عـبـئـاً ثـقـيلاً عـلـى صـفـحـات الـدـرـاسـة لو تـمـت التـرـجـمة لـهـم جـمـيعـاً فـي الهـوـامـش ، لـهـذا اـكـتـفـت الـدـرـاسـة بـتـرـجـمة الأـسـماء وـالـمـوـاـقـع المـهمـة فـقـط .

أـمـا عـنـ الـمـنـهـجـيـة وـالـطـرـيـقـة التـي اـتـبـعـتـها الـدـرـاسـة فـي نـقـض آـرـاء الـمـسـتـشـرـقـين فـي موـادـ دـائـرةـ الـمـعـارـفـ إـلـاسـلامـيـة ، فـتـمـتـ فـي نـقـيـمـ الـدـرـاسـة لـلـآـراءـ التـي تـرـدـ فـيـ المـادـة ، وـالـمـرـادـ نـقـضـهاـ عـلـى هـيـئةـ نـقـاطـ يـشارـ إـلـيـهاـ أـوـلـاً وـثـانـيـاً ... ثـمـ يـتمـ نـقـضـ كـلـ نـقـطةـ حـسـبـ تـرـتـيبـ المـادـة ، معـ ذـكـرـ النـصـ كـامـلاً لـتـلـكـ المـادـة .

قد يلاحظ المطلع على الدراسة بأن هناك عدم التزام بالسلسلة التاريخية للحدث في المادة المقدمة عن أي سلطان ، مثلاً على ذلك مادة السلطان عبد الحميد الثاني ، حيث قدمت المادة ولادته ووفاته ثم أهم الأحداث في عهده ، وذلك مخل بالسياق التاريخي لأن الوفاة لابد وأن تأتي في نهاية السيرة الذاتية للسلطان مما اضطرني إلى السير على نفس المنهجية التي سردت بها دائرة المعارف الإسلامية السير الذاتية للسلاطين حتى يسهل على القارئ تتبع وتحليل النقد .

ويجب التنويه إلى أن هامش دائرة المعارف الإسلامية المترجمة يكتب بالعربية ، أما هامش دائرة المعارف الإسلامية الغير مترجمة والتي ترجمت موادها للدراسة فقط تكتب بالإنجليزية.

وتمثل هذه الدراسة إعادة لكتابة التاريخ العثماني من منظور إسلامي ، في عصر القوة بعكس ما هو متعارف عليه من الرجوع إلى كتب مستشرقين أوروبيين ، وذلك بالرجوع إلى وثائق عثمانية ومخطوطات قديمة ، بالإضافة إلى كتب عثمانية وكتب تركية ، وهي في الواقع أكثر قرباً للحدث وإدراكاً لجوانبه . وليس كتاباتي هنا عبارة عن نقد وتحليل فقط للمادة العلمية .

فمن الأهمية بمكان أن توجد كتب صادقة تلقي الضوء على عصري القوة والضعف في الدولة العثمانية بمصداقية وحيادية وكان ذلك هدفي من اختياري لهذا الموضوع. وفيما يتعلق بالخطة التي سارت عليها الدراسة فهي تتضمن تمهيداً وأربعة فصول ، إضافة إلى الخاتمة والملاحق وثبت المصادر والمراجع .

وقد تضمن التمهيد شرح منهجية كتابة المستشرقين للتاريخ الإسلامي بصفة عامة قبل العهد العثماني ، بدءاً بالسيرة النبوية الشريفة والصحابة ووصولاً إلى الدول الإسلامية عامة. وناقشت الفصل الأول أثر قيام الدولة العثمانية في ازدياد الاستشراق من خلال زيادة أعداد كراسى الاستشراق في الجامعات الأوروبية ، وبالتالي زيادة أعداد الخريجين منها الذين كان لهم الدور الأكبر في قيادة الفكر الاستشرافي في الكتابة عن التاريخ العثماني. وأدى إنشاء هذه الكراسي إلى زيادة مراكز الاستشراق في الجامعات الأوروبية ، وتأسيس وإصدار العديد من المجلات التي تخدم أفكارهم وتروج لأبحاثهم .

وتطرق هذا الفصل إلى دور الكنيسة والبابوية في تشجيع حركة الاستشراق ، وما تبعه من دعم مادي ومعنوي على جميع الأصعدة ، حيث رصدت الميزانيات الضخمة لدعم

الكتابة ضد كل ما هو إسلامي ، وذلك بهدف التغلب على الإسلام وتعويض خسارة الحروب الصليبية .

وناقش هذا الفصل ردود فعل أوروبا على الفتوحات العثمانية ، وتجسدت في الدعوة لتكوين الأحلاف الصليبية ضد الدولة العثمانية ، كان للبابوية والكنيسة دور كبير فيها ، بالإضافة إلى ترأسها لهذه الأحلاف بدعة دينية .

وأختم هذا الفصل بسياسة التسامح الديني التي كان لها الأثر الأكبر لدعم حركة الاستشراق ضد المسلمين ؛ وذلك لأنها فتحت المجال والأبواب أمام المستشرقين واليهود ليتوغلوا في الأراضي العثمانية ، مما أعطاهم الحرية في الكتابة عن الدولة العثمانية ، بل والعمل على بث الفتن داخل أراضيها .

والفصل الثاني ركزت الدراسة فيه على تاريخ دائرة المعارف الإسلامية ، فتناول التعريف بالدائرة ، وتاريخ طباعتها ، إضافة إلى التعريف بالترجمات التي اتبعت من النسخة الأصلية ، عوضاً عن توضيح عدد الطبعات المتوفر منها حالياً، واحتوى على أبرز الأقوال حول الدائرة الإسلامية ، والتعريف بأهم مُترجميها . ثم تطرق هذا الفصل أيضاً إلى التعريف بالمستشرقين الذين تناولت الدراسة موادهم التي دارت حول تاريخ الدولة العثمانية وسلطانها، واحتوى هذا التعريف على سمات أسلوبهم ، وأفكارهم وأهم أعمالهم ومؤلفاتهم . وأخيراً اهتم هذا الفصل بدور اليهود في توجيه الكتابة عن التاريخ العثماني ، والأسلوب الذي اتبعوه في ذلك من وسائل وخطوات للوصول إلى الصورة التي أرادوها لتاريخ الدولة العثمانية ، مستغلين في ذلك الأوضاع التي نالوها فيها ، وسيطرتهم على المصارف والأمور المالية ، إضافة إلى تدخلهم في الشؤون السياسية والاقتصادية .

واختص الفصل الثالث بمناقشة رؤية المستشرقين عن بعض سلاطين الدولة العثمانية، ومعالجة أسباب قيامها، وسلطان التأسيس مروراً بسلطانين العصر الذهبي، أمثال محمد الفاتح ، سليم الأول ، سليمان القانوني ، وانتهاءً بسلطانين عصر الضعف أمثال سليم الثالث ، عبد الحميد الثاني ، عبد العزيز ، محمد وحيد الدين ، عبد المجيد الثاني ، وذلك من خلال مناقشة آرائهم وافتراطهم ، والرد عليها من الوثائق والمصادر العثمانية والتركية الحديثة الموثوقة ، وهذا الرد يوضح إسلامية الدولة العثمانية في المقام الأول . وفي نهاية كل فصل استخلصت الدراسة عدة نتائج مهمة تلقي الضوء على عدم صدق معلوماتهم التي أوردوها.

والفصل الرابع، يعالج ويناقش رؤية المستشرقين عن النظم العثمانية ، وقد أخذت الدراسة أمثلة على بعض النظم العثمانية مثل نظام الإنشارية ، وذلك للرد على قضية ضريبة الغلمن والاتهامات التي وجهت نحو الدولة العثمانية في هذا الأمر. تناول الفصل كذلك نظام الحريم الذي يكاد يكون مجهولاً للمؤرخين والمستشرقين على حد سواء ، ومع ذلك خاضوا فيه من خلال شخصيات مهمة في الحريم، أمثال خرم سلطان ، ومه بيكر كوسن ، الواقع خيالهم المريض، وحياة النساء في قصور أوروبا، وإلقاء الشبهات والإفتراءات حول نظام الحريم ، بل صياغة القصص الخيالية عنهن دون دراية ، مما يؤدي إلى خروج الحريم بصورة مخالفة عن الواقع تماماً، وقد عالجت الدراسة في هذا المبحث الإفتراءات حولهن، ومحاولة نقل النمط الذي كان سائداً في حياتهن .

وأخيراً تطرق الفصل للنظم الشرعية من خلال نظام شيخ الإسلام أنموذجاً وناقشه آراءهم حول منصبه، والتهم التي وجهت إلى شخصياتهم، والرد عليها .

ويختتم كل فصل بعدد من النتائج التي توصلت إليها. وفي الخاتمة خرجت الدراسة بعدة توصيات تتأمل من خلالها الباحثة أن تصل بالقارئ إلى الصورة الحقيقة للدولة العثمانية، بعيداً عن افتراءات المستشرقين، وذلك من خلال نتائج، وحقائق تاريخية ثابتة غفل عنها التاريخ ، وترك المجال مفتوحاً لأقلام حاذقة ، تصوغ تاريخ دولة من أكثر الدول الإسلامية خدمةً للإسلام والمسلمين والعالم الإسلامي .

وإذا كان العهد العثماني قد مضى وانقضى ، فإن واجب الإنفاق يقتضي أن نزيل من الأذهان التهم المغرضة التي أُصبت بالتاريخ الإسلامي .

إن الحكم على دولة أمتد عمرها نحو ستة قرون من الزمان يقتضي آفاقاً أبعد ، وتفاصيل أشمل .

وآخرًا : أود أن أشير إلى أن ما قمت به من عمل هو محاولة علمية لطلبة علم مبتدئة في مشوار البحث العلمي ، فإن أصبت فيما قمت به فهو توفيق من الله ﷺ وإن أخطأت فمن نفسي ، فأستغفر الله ﷺ من الخطأ ، وجّل من لا يخطئ .

وإنني بعد هذا الجهدأشكر الله ﷺ أن وفقني للقيام بهذا العمل. ومن باب الوفاء والتقدير أشكر كل من له علاقة بإنجاز هذا الجهد ، وأبدأ بوالدائي الكريمين فلهما الشكر والتقدير، لتشجيعهما المتواصل باستكمال دراستي وكرمهما الدائم معى ، ودعائهما المتواصل لي بال توفيق والهداية ، ودعمهما المستمر الذي لا حدود له .

والشكر موصول إلى أستاذتي المشرفة سعادة الأستاذة الدكتورة أميرة علي مداح التي تابعت مسيرة الدراسة منذ اختيار الموضوع ووضع الخطة ، ولم تدخل وسعاً في توجهي والمراجعة المتواصلة لي ، وتقديم النصائح والإرشاد ، والتقويم الذي أنار طريقي في البحث فلها مني كل الشكر والتقدير على ما بذلته من جهد وقت ، ولا أنسى أن أتقدم بجزيل الشكر والعرفان لأخي سليم وأختي نهلة على دعمهما لي ومساعدتي المتواصلة لإخراج الدراسة بهذا الشكل ، واجتياز الصعاب والعقبات . ولا يفوتي أنأشكر منسوبي قسم التاريخ، على دعمهم وتشجيعهم لي في كل ما يخدم مصلحة طلاب وطالبات القسم ، كما أود أن أتقدم بالشكر الجزيء إلى سعادة القنصل العام باسطنبول الأستاذ عبد الوهاب الشيخ على مساعدته لي في تسهيل الإجراءات الالزمة لزيارة دور الأرشيف والمكتبات ، وأود أنأشكر سعادة الدكتور تحسين أوغلي الذي أسهم بشكل كبير في إنجاز الترجمة الالزمة للدراسة في وقت قياسي .

كما أتوجه بالشكر والاحترام لقسم التاريخ بجامعة الملك عبد العزيز بجدة على دعمه المتواصل لي، وتقديم المساعدة الدائمة ، وعلى رأسهم سعادة الدكتور عمر يحيى ، وسعادة الدكتورة ثريا دمنهوري ، وكافة منسوبي القسم الذين حرصوا دائماً على تقديم العلمي . وأعرب عن شكري لأرشيف رئاسة الوزراء باسطنبول ، وأرشيف طوب قابي سراي، والمكتبة السليمانية ، ومكتبة الملك فهد الوطنية بالرياض ، ومركز الملك فيصل الإسلامي بالرياض ، وكل من قدم لي المساعدة سواء بالكلمة والتشجيع أم بالمعلومة المفيدة . وأشكر الأستاذين الفاضلين عضوي لجنة الفحص والمناقشة ، راجية من الله تعالى أن يكون هذا العمل المتواضع إسهاماً علمياً يستفيد منه المتخصصون في مجال التاريخ الحديث والتاريخ العثماني .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

التمهيد

منهج المستشرقين في كتابة التاريخ الإسلامي

قدّم العثمانيين

الحمد لله ، والصلوة والسلام على أشرف المرسلين ، وخاتم النبيين الهاדי الأمين ،
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

إنطلاقاً من قوله تعالى : « وَدُولَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَنَكُونُونَ سَوَاءٌ » ⁽¹⁾

وقوله تعالى : « وَلَا يَزَّ الْوَنِ يَقْتَلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَذْكُرُ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ اسْتَطَاعُو » ⁽²⁾

وقوله تعالى : « وَرَدَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضْلُونَكُمْ وَمَا يُضْلُونَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ » ⁽³⁾

وقوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بَنِي فَيَسِّرُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَنَصْبُحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلُمُنَا نَادِيْنَ » ⁽⁴⁾

ندرك أنَّ التاريخ الإسلامي في واقع الأمر هو الإسلام مطبقاً منفذًا واقعاً ، فتشويه التاريخ الإسلامي يعني تشويه الإسلام ، لأنَّ الإسلام منهاجٌ ربانٍ سماويٌّ مثاليٌّ التطبيق لجميع فئات البشر .

وهدف الاستشراف الحقيقي هو تغيير المسيحيين من الإسلام ، وإبعاد المسلمين عن جوهر دينهم ، والآيات السابقة توضح تماماً موقف أهل الكتاب من الإسلام والمسلمين ، وبالتالي موقف المستشرقين في كتابتهم عن الإسلام ، فلم يأتوا فيها بجديد ، بل رددوا ما لاكته السن المشركون منذ أكثر من خمسة عشر قرناً ، مع إضفاء لونٍ من العلمية والمنهجية بأسلوب متطور وحديث وهدف المستشرقين الأساسي إصابة أجيال الشباب بالشك والكراهية والانتقاد من أمجاد تاريخ الإسلام ؛ لينصرفوا عنه ويقع الشك واليأس في نفوسهم .

وتعتبر دائرة المعارف الإسلامية من أكبر الجهود الاستشرافية العالمية ، فقد تناولت موضوعات مختلفة ، إلا أنَّ تركيزهم جاء بالدرجة الأولى على الإسلام والمسلمين ، بهدف تشويه وإضعاف المسلمين ، والكيد لهم ، والطعن في تعاليم دينهم ، وهي الصورة الحقيقة للتطبيق العملي ، والناطق الرسمي لكل مناهج الاستشراف وأساليبه . وقد حوت في صفحاتها

⁽¹⁾ سورة النساء ، آية 89 .

⁽²⁾ سورة البقرة ، آية 217 .

⁽³⁾ سورة آل عمران ، آية 69 .

⁽⁴⁾ سورة الحجرات ، آية 6 .

تطبيقاً لكل منهج وأسلوب وطريقة. ولهذا تعتبر مرآة حقيقة لفكر وأسلوب وطريقة ونفسية المستشرقين ، وما الاستشراق إلا صورة من صور ممارسة القوة الثقافية على الشعوب .

ولأهمية التاريخ الإسلامي وأثره في الأمة اتجه المستشرقون في أبحاثهم إلى التاريخ، حتى جاء معظم نتاجهم في مجال التاريخ سواء أكان أبحاثاً أم تحقيقاً أم نشرًا أم ترجمة. ولعل هذا يقودنا إلى ضرورة تعريف الاستشراق.

أولاً : لغة

لم ترد الكلمة الاستشراق في معاجم اللغة العربية القديمة . فهذه الكلمة مترجمة عن الكلمة (Orientallsm) وهي مشتقة من الكلمة (Orient) التي تعني الشرق . فيقال : أشرقت الشمس شرقاً وشروقاً إذا طلعت . واستشرق أدخل نفسه في أهل الشرق ، وصار منهم . وتعني أيضاً : طلب الشرق ؛ لأن "السين والتاء" للطلب .

ثانياً : أما اصطلاحاً

طلب علوم أهل الشرق ولغاتهم. ويوصف بذلك لمن يُعنى به من علماء الإفرنجة . وهو حركة فكرية غربية ، تُعنى بدراسة علوم الشرقيين ، ودياناتهم ، ولغاتهم ، تواريختهم ، أوضاعهم الإجتماعية ، ونحو ذلك .

وبدأ الاستشراق لدراسة الإسلام واللغة العربية ، وبعد ذلك توسيع ليشمل جميع ما يتعلق بالشرق .

"فالمستشرق" مصطلح واسع يشمل طوائف متعددة ، تعمل في ميادين الدراسات الشرقية المختلفة، وتدرس العلوم والأداب الخاصة بالهند والفرس والعرب وغيرهم من أمم الشرق .

والمستشرق اسم يطلق على عضو الكنيسة الشرقية، إلا أنه في القرن 11هـ / 17م أصبح يطلق على من لديه معرفة بدراسة الشرق .

ويرجع السبب في تعلق الغرب بالشرق وعلومه ما شهدوه من تقدمه في العلوم والمعارف، وامتلاكه لخيرات الأرض، وكونه مهبط الوحي، وبعث الرسالات .⁽¹⁾

⁽¹⁾ سهيل صابان : الأوضاع الثقافية في تركيا في القرن الرابع عشر الهجري ، رسالة دكتوراة لم تطبع ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ، 1415هـ / 1994م ، ص 132 ، 133. مانع حماد الجهنوي : الموسوعة الميسرة في الأديان = والمذاهب والأحزاب المعاصرة ، ط 3 ، الرياض : دار الندوة العالمية للطباعة ، 1418هـ / ج 2 ، ص 697 . أحمد عبد الله الرغبي : العنصرية اليهودية وأثارها في المجتمع الإسلامي وال موقف منها ، ط 1 ، الرياض : مكتبة العبيكان ، 1418هـ / 1998م ، ج 3 ، ص 546 .

بعد الاستشراق ظاهرة فريدة في تاريخ الفكر الإنساني ، فلم يعهد أن طوائف متباعدة العقائد والثقافات والجنسيات أطبقت كلمتها على دراسة دين لا تؤمن به كما فعل المستشرقون. ⁽¹⁾

والدراسات الاستشرافية مستمرة إلى وقتنا الحالي، إذ تطلق في دراساتها للعالم الإسلامي عبر العقيدة والشريعة والتاريخ والأخلاق ، وغير ذلك من المجالات. مستندة إلى الجهود الاستشرافية الأولى (الجولد زيه)، و (شاخت)، و (بيكر)، و (نولدك)، و (توماس أرنولد) وغيرهم. ولا يزال البحث في كل قضايا المسلمين قائماً وإن تغيرت بعض مناهج الدراسات ، أو أساليبها أو طريقة عرضها. ⁽²⁾

وقد ارتفعت أصوات الدراسات الاستشرافية بالسخرية من تاريخ الإسلام، وأحدثت من الأساليب ما أوغر الصدور نحو الصفحات المشرقة منه، في محاولة لتحطيم روح الثقة والاعتزاز في صدور شبابنا بأمجاد أمتهم المسلمة. ⁽³⁾ وتمثل منهاج المستشرقين في تناول التاريخ الإسلامي لتنفيذ مخططاتهم وتحقيق مآربهم في التالي :

أولاً : المنهج من حيث الشكل الخارجي (اختيار الموضوعات ترتيب الاهتمام بها وطريقة تناولها) .

ثانياً : المنهج من حيث استكمال شروطه والالتزام بقواعده .

أولاً : المنهج من حيث الشكل الخارجي

(1) حاولت الدراسات الاستشرافية الفصل بين العقيدة الإسلامية، والواقع التاريخي للدولة الإسلامية مع التركيز على نشوء الفرق الإسلامية تركيزاً واضحاً، والاهتمام بالصراع بين هذه الفرق ، وعوامل نشأتها ، ومحاولة إثارة أخبارها، ووضعها في دائرة الاهتمام ، مع إعطاء فكرة أن هذه الفرق سياسية بحتة، وذلك مثل تاريخ الشيعة وخلافاتهم مع السنة، والمرجئة والمعترضة، وإعطاء هذه الموضوعات أهمية قصوى، كما اعتنى بتاريخ الزندقة

⁽¹⁾ محمد الدسوقي : الاستشراق والفقه الإسلامي ، بحث ضمن حولية كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، جامعة قطر ، ج 5 ، 1407هـ / 1987م ، ص 701 .

⁽²⁾ مازن مطبقاني : الاستشراق المعاصر من منظور الإسلام ، ط 1 ، الرياض : دار أشباه الله ، 1421هـ ، ص 13 .

⁽³⁾ أنور الجندي : كيف يحطم المسلمون قيد التبعية والحرصار ، ط 1 ، لبنان : مؤسسة الكتب الثقافية ، 1405هـ / 1985م ، ص 75 . لمزيد من التعرف على نشأة الاستشراق وأهدافه الرجوع إلى : أحمد عبد الله الزغبي : مرجع سابق ، ج 3 ، ص 547 ، 550 .

والزنادقة ، وإبرازهم في صورة أصحاب الفكر الحر وقادته ، مع تتبع واضح لمواضع الضعف في التاريخ الإسلامي . فكان هناك تركيز شديد على أخبار الفتن والصراع ، وتضخيم والإكثار من الحديث عنها ؛ حتى تصبح الصورة العامة لتاريخ الإسلام ، معتمدة في ذلك على الروايات الضعيفة والواهية ، وما عُرف بالإسرائيليات بغية خدمة أغراضهم في تحوير الحدث بصورة مزارية مخالفة للواقع تماماً . في حين أن هذا المنهج يصلح لدراسة المسيحية في أوروبا ، حيث نشأت بيئه دينية حفت بعوامل مؤثرة خارجية ، ارتكز تاريخ أوروبا في العصور الوسطى على الفرق والصراعات الدينية .⁽¹⁾

وبهذا نجد أن أبحاث المستشرقين ودراساتهم ارتكزت داخل الإطار الذي يحقق أهدافهم ، ويتبين من خلالها مدى التحيز ل نوع معين من الموضوعات دون أي نوع آخر ، موحية بأنها الأصل في حقيقة التاريخ الإسلامي .

فجاءت جميع دراساتهم التاريخية في صورة واحدة ، وهي أن العصور الإسلامية عصور دامية مليئة بالحروب والصراعات الخارجية ، والنزاعات السياسية والمذهبية الداخلية ولطفي لومينان يصور ذلك في قوله: "إن تاريخ الإسلام كان سلسلة مخيفة من سفك الدماء والحروب والمذابح "⁽²⁾

وبالتأكيد هذه الموضوعات لا تعطي صورة واضحة كاملة عن التاريخ الإسلامي فلم يكن هناك تناول لقضايا تظهر الإسلام على حقيقته ، ومدى التسامح الديني في الإسلام ، بل اعتمدوا على أحداث فردية صغيرة تم تضخيمها لتغطي التاريخ الإسلامي كله ، وهذه الحقيقة واضحة في أبحاثهم ، فلم تتناول الأبحاث موضوعات تتعلق بالتكامل الاجتماعي مثلًا ، أو أهمية النظام الاقتصادي ، ودوره في معالجة الفقر ، وإقامة التوازن المالي بين أفراد المجتمع المسلم ، كما لم يتناولوا مثلًا فوائد الصيام الصحية ، أو الاستشهاد بسيرة القواد المسلمين ، والجوانب الإنسانية المضيئة لشخصياتهم مثلًا ، وبذلك عمدوا إلى حجب المواقف الحاسمة المشرقة التي تبرز عظمة أبطال التاريخ الإسلامي .

⁽¹⁾ نخبة من العلماء المسلمين : الإسلام والمستشرقون ، ط 1 ، جدة : عالم المعرفة ، 1405هـ / 1985م ، ص 282 . محمد جلاء الدين إدريس : الاستشراق الإسرائيلي في المصادر العبرية ، ط 1 ، القاهرة : العربي للنشر والتوزيع ، 1416هـ / 1995م ، ص 39 .

⁽²⁾ لطفي لومينان نقلًا عن : شوقي أبو خليل : أصوات على موقف المستشرقين والمبشرين ، ط 2 ، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية ، 1999م ، ص 9.

فغضوا البصر مثلاً عن ما كشفته البرديات مؤخراً عن مدى سماحة الإسلام وعدالته في معاملة أهل مصر ، وتحريرهم من حكم الرومان الظالم المستبد ، لقد كان الفتح عملاً كريماً بالغ الأثر في نفوس أهالي مصر ، ولم يكن الفاتحون مجرد غزاة جياع مغامرين من البدو راكبي الجمال ، وإنما كانوا قوة مهارة منظمة ، يحملون أسلحة من الحديد والرصاص ، يقاتلون ببسالة في سبيل الله، وأوضحت البرديات كيف أنهم حرروا مصر من الظلم البيزنطي ، وحموا دماء وأملاك المصريين ، واحترموا شخصية البلد النابعة من حضارة قديمة ، وقد أشار الأسقف يوحنا إلى أن عمراً بن العاص لم ينزع شيئاً قط من أملاك الكنيسة. ⁽¹⁾

(2) الفرز وراء العصر الإسلامي ، والاهتمام بالتاريخ القديم لأقاليم دار الإسلام كإحياء التاريخ الفرعوني في مصر ، وتشجيع حركة كشف الآثار القديمة وتصويرها على أنها أساس حضارة مصر ، والاهتمام بحضارة بلاد الرافدين القديمة (البابلية والآشورية) ، وتركيز أغلب مؤتمرات الاستشراق على حضارتهم ، وإبراز أهميتها ، وتجاهل تاريخ بلاد الرافدين الإسلامي ، وفي ذلك إثارة للنعرات الإقليمية ؛ لتمزيق جسد الأمة الإسلامية .
ومن المؤتمرات الدورية التي عقدتها المستشرقون وتأكد المعلومة السابقة:.

المؤتمر الخامس في كوبنهاجن 1326هـ / 1908م ، وجاء في جدول أعماله:
التاريخ البابلي ، آثار مصر التاريخية ، تاريخ مصر القديم واكتشاف البردي ، وقد بذلوا جهوداً كبيرة للإشارة بهذه الحضارات البائدة وإغراء كل إقليم بماضيه القديم حتى صارت الفرعونية في مصر تناطح العروبة .

مؤتمر المستشرقين الدولي الحادي والعشرين في باريس عام 1368هـ / 1948م :

من المحاور وأوراق العمل التي دارت في ردهات المؤتمر ما اختص بعلم الشؤون المصرية ، ودروس في السامية ، وعلم الشؤون الآشورية ، والتراث اليوناني في الشرق ، واهتم هذا المؤتمر بالقوميات والحضارات التي سبقت بعثة الرسول ﷺ ومن ذلك الاهتمام بالفراعنة وبالآشوريين والكلدانين والفينيقين وغيرها من القوميات القديمة .

⁽¹⁾ أنور الجندي : كيف يحطم المسلمون قيد التبعية والمحصار ، ص 77 . عدنان محمد وزان : الاستشراق والمستشرقون وجهة نظر - دعوة حق ، السنة الثالثة ، ربيع الأول 1404هـ / يناير 1984م ، العدد 24 ، ص 132 - 134 .

ومن أبرز توصيات المؤتمر إعادة النظر في دائرة المعارف الإسلامية ، وإقامة شعبة خاصة بالشرق المسيحي في المؤتمر المقبل .⁽¹⁾

إن نبش الحضارات القديمة وإحياء معارفها مجال تخصص فيه كثير من المستشرقين، فعكفوا على دراسة اللغات البائدة ، والتفتيت عن آثار الغابرين ، ولفقوا من رفات هش ما أسموه بالتاريخ الحضاري للعرب قبل الإسلام ، ثم مدوا آثار تلك الحضارات إلى العصر الحاضر ، فبدا الفتح الإسلامي وحضارته نشازاً في هذه السلسلة ، فبالإضافة للحضارات القديمة في مصر والشام وبلاد الرافدين اختلاقهم للاتجاه الطوراني لحساب الجمعيات السرية في تركيا .

فنتج عن ذلك نتائج خطيرة منها: تحسين سمعة الجاهلية وتمجيد طواغيتها، وبعث النعرات الانفصالية، وقطع صلة الأمة بماضيها الحقيقي، وتهيئة النفوس لتقبل إمكانية قيام الحياة المتحضرة دون إسلام ، كما عاشت تلك الحضارات قبله. والأهم من ذلك إلغاء الخلافة الإسلامية العثمانية التي كانت مثلاً لوحدة الأمة الإسلامية⁽²⁾.

وقد وقع المستشرقون الأوروبيون فريسة التحرب غير العلمي في كتاباتهم عن الإسلام ، وتظهر هذه الحقيقة واضحة في أبحاثهم ، وكأن الإسلام لا يمكن أن يعالج على أنه موضوع بحث علمي ، بل على أنه متهم يقف أمام القضاء .

(3) يسعى كثير من المستشرقين في دراساتهم التاريخية إلى وضع منهج لا ديني للبحث العلمي الذي يتمسح بالموضوعية والحياد العلمي، وهو أبعد ما يكون عندهما، وخير مثال على ذلك تناولهم لشخصية الرسول ﷺ ، فهم يذكرون لفظ " محمد " دون ذكر السلام أو الصلاة عليه، كما أنهم يتحكمون في المصادر التي يختارونها ، فهم ينقلون من كتب الأدب ما يحكمون به في تاريخ الحديث النبوي ، ومن كتب التاريخ ما يحكمون به في تاريخ الفقه ، ويذكرون ما يرويه الإمام مالك في الموطأ ، ويهاجمون صحيح البخاري ويجدون كتاب الأغاني، وألف ليلة وليلة .⁽¹⁾

(4) عمد المستشرقون إلى استخدام المنهج التحليلي الذي يعتمد على تفتيت الحدث التاريخي إلى مجموعة من المكونات والعناصر غير المترابط ، ويتم التأليف بينها بصورة غير

⁽¹⁾ مازن مطبقاني : مرجع سابق ، ص 182 . مانع حماد الجبني : مرجع سابق ، ج 2 ، ص 684 .

⁽²⁾ عبد الرحمن حبنكه الميداني : أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها : التشier . الاستشراف . الاستعمار ، ط 6 ، دمشق : دار القلم ، 1410هـ / 1990م ، ص 147 .

⁽¹⁾ عبد الرحمن حبنكه : مرجع سابق ، ص 175 .

متجانسة على الإطلاق ، وهذا المنهج يرجع العناصر والمكونات إلى الظروف الدينية والبيئة الاجتماعية أو السياسية ، وفي هذا تكمن حتمية تأثر المستشرق بدينه وثقافته وبيئته ⁽²⁾ . وهذا المنهج يظهر بوضوح في مواد دائرة المعارف الإسلامية .

وقد انبثت أقلام المستشرقين الحادة بكثير من التزييف والمغالطة لشخصية وأحداث حياة الرسول ﷺ فأخرجوا عشرات الكتب التي كان من أبرز مميزاتها التعصب والحدق والخصوصة بالرغم من ادعائهم للإنصاف والاعتماد على البحث العلمي ، فقد خضعوا للأهواء والظنون ، كاشفين عن هدفهم الحقيقي في إفساد الصورة الحية المشرقة لرسول الإسلام ⁽³⁾ .

إن ذلك السبيل المنهم من التشويه والافتراء على رسولنا الكريم مارسه رجال دين من قلب الكنيسة النصرانية باتجاهاتها كافة ، ومارسه أيضاً رجال علمانيون لا علاقة لهم بالكنيسة .

ونذكر على سبيل المثال لا الحصر ما يدل على تخبط المستشرقين وجهلهم بالإسلام وشخصية الرسول الكريم ﷺ .

كتب المستشرق (مرجليوث Margoliouth ⁽⁴⁾) مشككاً في نسب الرسول ﷺ الشريف وأنه غير معروف النسب ، لكنه في ثايا الكتاب يذكر أنه ابن عم علي بن أبي طالب ؓ وهذا يدحض قوله تماماً . ⁽¹⁾

وهذا يدل دلالة واضحة على كذبهم وافتراءهم فمن خلال كتاباتهم يستطيع الناقد أن يكشف خبثهم وكذبهم ، ويتحقق تلقيهم للأحداث. ومحاولات (جولدزيهير Goldziher ⁽²⁾)

⁽²⁾ محمد جلاء إدريس : مرجع سابق ، ص 45 .

⁽³⁾ أنور الجندي : كيف يخطم المسلمون قيد التبعية والحضار ، ص 75 ، 76 .

⁽⁴⁾ مرجليوث : دافيد صمويل : 1858 - 1859 هـ / 1940 م - درس الآداب الكلاسيكية في جامعة أكسفورد ، ومنها انتقل إلى اللغات السامية ، واهتم بالعربية بدأ دراساته عن الإسلام بكتاب " محمد ونشأة الإسلام ، ثم " الإسلام " ثم ألقى محاضرات عن تطور الإسلام في بيته ، وهو يعتبر من أكثر المستشرقين الإنجليز المتعصبين ضد الإسلام ، كما أن منهجه غير علمي في تناول موضوعاته . عين عضواً مراسلاً في المجمع العربي بدمشق عام 1339 هـ / 1920 م . انظر عبد الرحمن بدوي : موسوعة المستشرقين ، ط 4 ، الأردن : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، 2003 م ، ص 546 . عبد الحميد صالح حمدان : طبقات المستشرقين ، د. ط ، مصر : مكتبة مدبولي ، د. ت ، ص 199 .

⁽¹⁾ عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص 137 .

⁽²⁾ جولدزيهير : أجنثس ، مستشرق يهودي مجربي غزير النتاج ، ولد عام 1267 هـ / 1850 م في المجر ، وتعلم في بودابست ثم انتقل إلى برلين ، عاش في مصر فترة بحث عمله ، حضر دروس في الأزهر ، ثم عين في جامعة بودابست ، واهتمام بالدراسات

المستشرق اليهودي مثلاً إتهام الصحابي الجليل أبي هريرة عليه السلام بتلفيق الحديث دليل على ذلك.⁽³⁾

أما ما أورده (المونيسنيور كولي) في كتابه "البحث عن الدين الحق" قوله : "برز في الشرق عدو جديد ، هو الإسلام الذي أسس على القوة، وقام على أشد أنواع التعصب ، وفدي وضع محمد السيف في أيدي الذين تبعوه ، وتساهل في أقدس قوانين الأخلاق ، ثم سمح لأتباعه بالفجور والسلب ، ووعد الذين يهلكون في القتال بالاستمتاع الدائم بالملذات في الجنة".⁽⁴⁾

وتقابل معه في هذه الأفكار المريضة النابعة من الحقد الأعمى على الإسلام ورسوله الكريم عليه السلام (ول ديورانت) في كتابه "قصة الحضارة" إذ قال : أعاذه نشاطه وصحته على أداء واجبات الحب وال الحرب ، ولكنه أخذ يضعف حين بلغ التاسعة والخمسين من عمره ، وظن أن يهود خير قد دسوا له السم في اللحم قبل عام من ذلك الوقت ، فأصبح منذ ذلك الحين عرضة لحميات ، ونوبات غريبة ... "

أي إفتراء تمادى فيه هذا المستشرقان ، وكأنه قائد أمم عادي لجيش غزة ، وليسنبياً مرسلاً ، بل والأسوأ من ذلك أنه خان المنهج العلمي ، بقوله : " وظن أن يهود خير قد دسوا له السم في اللحم " فاستخدام هذا اللفظ "طن" يريد منه أن ينفي صحة الخبر ، ويبرى اليهود من جريمة محاولة قتل الرسول عليه السلام ، والصحابي الجليل الذي أكل معه .

وغمي عن التعريف أن هذا الخبر موجود في كل كتب السيرة والأحاديث الموثوقة ، مثل طبقات ابن سعد ، وابن هشام في سياق غزوة خير .⁽¹⁾

العربية والإسلامية ، ثم صار أستاذًا للغات السامية ، أهم كتبه عن الإسلام "دراسات إسلامية" وأشهر مؤلفاته "العقيدة والشريعة في الإسلام" و "اتجاهات تفسير القرآن عند المسلمين" توفي عام 1340هـ / 1921م . عبد الحميد صالح حمدان : مرجع سابق ، ص 115 ، عبد الرحمن بدوي : مرجع سابق ، ص 197 - 199 . لمزيد من المعلومات انظر : يوهان فوك : تاريخ حركة الاستشراق ، ترجمة عمر لطفي سالم ، ط 2 ، لبنان : دار المدار الإسلامي ، 2001م ، ص 236 - 241.

⁽³⁾ أنور الجندي : كيف يحطم المسلمون قيد التبعية والحضار ، ص 70 .

⁽⁴⁾ عماد الدين خليل : المستشرقون والسير النبوية ، ط 1 ، بيروت : دار ابن كثير للطباعة والنشر ، 1426هـ / 2005م ، ص 19 .

(1) ورواه البخاري في : 176/5 ، ومسلم 14/7 - 15 وكلاهما من حديث أنس بن مالك عليه السلام.

ورغم ثبوت هذا الحديث ، وكثرة مصادره أبى الأمانة العلمية لهذا المستشرق أن تذكر الحقيقة ، واتبع المنهج الخاص به .⁽²⁾ وفي هذا دليل واضح على أن المستشرق دائمًا غير مدرك لمعاني القرآن الصحيحة ، ولديه عدم فهم باللغة العربية ، كما أنه مقتطع بعدم صحة الدعوة المحمدية ، لهذا يبحث عما يبرر معتقده ، فهو إذن ليس باحث عن الحقيقة ، وإنما باحث عن شيء آمن به من قبل ، بينما نحن المسلمين نؤمن بسيدينا موسى عليه السلام ، وعيسى عليه السلام وغيرهما من الأنبياء ، وحين نتحدث عن اليهودية أو المسيحية نحمل في قلوبنا احترامًا لدعاتها وأنبيائهما .⁽³⁾

لهذا فإن كتاباتنا عن الأنبياء مختلفة عنهم ، فليس فيها ذلك التعصب الأعمى ، ولا الحقد الدفين ، بل على العكس من ذلك ، نكن لهم كل الحب والتقدير والإيمان الكامل بهم ؛ لأن ديننا الحنيف يأمرنا بالإيمان بالأديان السماوية والأنبياء والرسل كافة ، قال تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطَا لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾⁽⁴⁾

وهذه الكتابات عن الرسول ﷺ ما هي إلا انعكاس للصورة التي في داخلهم ، تمثل واقع مجتمع فاسد ليس به أخلاق أو قيم ، وديانة محرفة ليست معروفة تعاليها الأصلية ، وقصصاً ملفقة حول أنبيائهم ترتكز على محور واحد ، إضافة إلى كره وحد سلبي على الإسلام والمسلمين ليس له ما يبرره ، وهذا منهجهم في كتابة التاريخ الإسلامي .

(5) طبق المستشرقون منهج الشك قاعدة صلبة لتحليل ثوابت الشريعة الإسلامية ، فأخذوا يشككون في نصوص القرآن الكريم ، وفي صحة السنة النبوية ، وفي صدق الوحي ... ، ومن الغريب أنهم لم يطبقوا هذا المنهج على تراثهم التقافي ، ولو طبقوه لما وجدوا شيئاً ذا قيمة مثل الإسلام .

وكثير عندهم التعبير عن الحقائق التاريخية بصيغ الشك أو الظن ، مثل "من الممكن " ، "أظن " ، "يبدو " ، "لعله " وهذه الكلمات لها أبلغ الأثر في التشكيك وزعزعة الحقائق .⁽¹⁾ كما دأبوا على التشكيك في الروايات التاريخية الإسلامية ، والتحريف في النصوص عند الاستشهاد بها ، والطعن في علماء المسلمين الثقات الذين دونوا هذه الروايات ، والزعم

⁽²⁾ عبد العظيم الديب : المستشرقون والتراث ، ط 2 ، مصر : دار الوفاء للطباعة والنشر ، 1408هـ / 1988م ، ص 31-32.

⁽³⁾ عبد الجليل شلبي : الإسلام والمستشرقون ، د. ط ، مصر : مطبوعات الشعب ، د. ت ، ص 27 .

⁽⁴⁾ سورة البقرة ، آية 143 .

⁽¹⁾ محمد فتح الله الزيادي : الاستشراق أهدافه ووسائله ، ط 1 ، دار قتبة ، د. ت ، ص 123 .

باختلاقهم الأخبار وتلفيقها، إضافة إلى الطعن في الأسانيد والمتون. بمحاولات المستشرق (شاخت)⁽²⁾ في تزوير مفهوم الشريعة الإسلامية، والادعاء بأنها قامت على العرف البدوي الذي كان سائداً قبل الإسلام ، ويؤكد ذلك بكل وسائل المكر والخداع .⁽³⁾ كما درج (جولدزيهر) وكثير من جاءوا بعده على الإسقاط في الروايات التاريخية ، لتفسيرها وفق غایاتهم المدسوسة ، إضافة إلى تفسيرها تبعاً لواقع حياتهم ومجتمعاتهم .

أما (فان فلوتن vloten)⁽⁴⁾ يرى في كتابه "السيادة العربية" أن الصراع على الخلافة هو الذي فرق المسلمين أحراضاً وشيعاً ، ثم أخذ في تفضيل هذه الأحزاب وفق منهج خاص به ، فقسمها إلى أربعة أحزاب :

- أ) حزب بنى أمية ب) حزب أهل المدينة .
- ج) حزب الشيعة . د) حزب الخوارج .⁽⁵⁾

6) ناهيك عن تلقيك الافتراءات والأكاذيب والتزوير المعتمد ، مثل تقرير روايات تاريخية لم تحدث قط ، وإلخافاته هذه الجريمة العلمية ، يتعمدون عدم ذكر مصادرهم ، وهذا وحده خروج عن منهج البحث العلمي ، فضلاً عن التحريف والاختلاق . وقد امتلت كتبهم بأمثلة كثيرة عن هذا الأمر ، يكفي أن تجد الواقعة التاريخية مذكورة في كتاب أحد المستشرقين ، وينفرد بها دون غيره من المؤرخين ، فهذا دليل اختلاقه للحدث.⁽¹⁾ وخير مثال على ذلك كتاباتهم التي دارت حول الجهاد في سبيل الله ، وتصوирه على أنه حروب لنشر دين جديد بحد السيف والدماء ، طمعاً في الأموال والغنائم ، وإثبات صفة المستعمر على الدولة

⁽²⁾ شاخت : جوزيف 1320هـ - 1902م / 1389هـ - 1969م مستشرق ألماني تلقى الاهوت فيها ، ثم عمل في جامعة كينجسبرج ، ثم أستاذًا في جامعة القاهرة ، لفقه اللغة العربية ، وأشرف في ليدن على طباعة دائرة المعارف الإسلامية ، اهتم بدراسة المخطوطات الموجودة في استانبول ، وله عدة مؤلفات حول الفقه الإسلامي ، وعلم الكلام وتاريخ العلوم عند المسلمين خاصة الطب ، يعتبر من المستشرقين المتعصبين الذين وضعوا بصماتهم على كل ما يختص بالإسلام . للاستزادة عبد الحميد صالح حمدان : مرجع سابق ، ص 151 – 154 . عبد الرحمن بدوي ، موسوعة المستشرقين ، ص 366 – 371 .

⁽³⁾ أنور الجندي : كيف يحطم المسلمين قيد التبعية والحضار ، ص 71 .

⁽⁴⁾ فلوتن : فان ولد عام / 1903م ، مستشرق هولندي ، تتعلم على يد المستشرق الكبير (دي خويه) المشرف على تحقيق تاريخ الطبرى ، وفتح البلدان للبلاذري ، ومن أهم أعمال (فلوتن) في التحقيق والنشر: كتاب "مفاتيح العلوم للخوارزمي" ، كتاب البخلاء "للحاظ" ، رسائل صغيرة للحاظ ، وألف الأبحاث التالية "مجيء العباسيين إلى خراسان" "أبحاث في السيطرة العربية، التشيع والعقائد المهدوية في عهد الخلافة الأموية" إمستردام. انظر عبد الرحمن بدوي: مرجع سابق ، ص 410.

⁽⁵⁾ فان فلوتن : السيادة العربية ، ترجمة : حسن إبراهيم حسن ، د. ط ، مصر ، د. ت ، ص 15 .

⁽¹⁾ محمد فتح الله الزيادي : مرجع سابق ، ص 117-118 .

الإسلامية ، وذلك لكي يظهر الإسلام والحاكم المسلم والمسلمين عامة مثل شعوب أوروبا وحكامها المستعمرين الذين يسيرون على مبدأ البقاء للأقوى ؛ لكي لا تكون الأفضلية للأمة الإسلامية .

ولا شك أن تزيف أحداث التاريخ الإسلامي سيكون له الأثر البعيد في هدم مقومات الإيمان بالإسلام ، والأمة الإسلامية في نضالها الطويل في وجه الباطل ، وفتواهاتها في سبيل الله .⁽²⁾

أما عن حملاتهم المغرضة ضد أبطال الإسلام يبرز ما فعلوه بتاريخ الخليفة العباسي هارون الرشيد ، حيث صورته كتابات (جورجي زيدان) ، و(ول ديوانت) ، بمنتهى السوء والمجون وحب النساء والخمر .⁽³⁾ الواقع أن كل ما كتبه هؤلاء عنه ملتف ليس له أساس من الصحة ، قاموا بادعاء الحيادية والسير على المنهج العلمي ، لكنهم كتبوا من واقع حياتهم وعصرهم ، متأثرين بخلفياتهم الثقافية السوداء عن الإسلام والمسلمين ، إن تصويرهم للأحداث لا يعكس سوى منهجهم في الكتابة عن الإسلام ، من عدم معرفة به وبتاريخه ، ووصولاً إلى وضع الحكم المسبق على الحدث ، والحط من الشخصيات المشهورة ورموزها.

كما عمد الاستشراق إلى إيجاد الكثير من الشبه حول التاريخ الإسلامي في محاولة لحياءكة نسيج مؤامرة خطيرة على الإسلام لتغيير مفهومه الأصيل ، وتزيف قيمته الأساسية مع إنكار كامل لفضل الفكر الإسلامي على الحضارة والفكر العالمي المعاصر ، ومن ذلك الدخاع الشديد والادعاءات الباطلة بأن المسلمين والعرب هم مجرد نقلة لحضارة اليونان .⁽¹⁾

(7) استخدام المستشرقين دائمًا للتعيم وكلمة "كل" على جميع الأحداث التاريخية دون إيراد شواهد أو أدلة علمية ، وعدم ذكر المصادر والمراجع المعتمدة في البحث ، وتعتمد عدم إيراد أسماء من يستشهدون بآرائهم ، كأن يقال: ويذكر بعض العلماء ، أو قد قال بعض الباحثين ، أو تحدث مؤرخ مجهول عن الحدث. وبهذا تفقد الكتابة الصفة العلمية والدقة واليقين ، وتميل إلى المراوغة ، وهذه صفات تهدم أساس البحث العلمي. ودائرة المعارف الإسلامية حافلة بهذه النماذج ؛ لأنها في معظمها بحث غرضي يستهدف الوصول إلى أفكار وآراء محددة ،

⁽²⁾ أنور الجندي : كيف يحطم المسلمون قيد التبعية والحضار ، ص 75 .

⁽³⁾ للاستزادة الرجوع إلى : مرجع سابق ، ص 77 . عبد العظيم الديب : مرجع سابق ، ص 35 ، 36 .

⁽¹⁾ أنور الجندي : كيف يحطم المسلمون قيد التبعية والحضار ، ص 69 .

قد لا تكون لها صلة بالمنطق والنسق التاريخي .⁽²⁾ لذلك فالتعريم يساعد على الوصول إلى المراد دون عناء ، وإ يصلال الصورة التاريخية كما أراد المستشرق .

(8) تأليف الموسوعات التي عالجت تاريخ الإسلام بمنهج شمولي ، كدائرة المعارف الإسلامية التي حق لنا أن نطلق عليها " دائرة المعارف الاستشرافية " ؛ إذ حوت كثيراً من المغالطات التي تخص التاريخ الإسلامي، سواء في وقائعه أم رجاله ، أم سير أحداثه بشكل عام ، ناهيك بما ورد فيها من مغالطات أخرى عقدية وتشريعية وغيرها ، فكانت نظرة المستشرقين في هذه الموسوعة إلى التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية وفق مفهوم القيم الأوروبية الوسطوية باعتباره مكملاً أو مقابلاً لها ، ويلاحظ فيها التأكيد على الحروب الصليبية أو حركة الاسترداد النصراني في الأندرس ، إضافة إلى الفعاليات الأوروبية في آسيا وإفريقيا وهو ما عرف بـ " الاستعمار " ، وفي المقابل لم يكن لإنجازات المسلمين في التاريخ والحضارة إلا حيز ضيق .⁽³⁾

لقد جاءت تلك المؤامرة واضحة على كتابة التاريخ الإسلامي بأسلوب غربي يفتقر للمعنيويات الحقة التي صنعت التاريخ الإسلامي ، وأعطته الحيوية ، وأخضع للتفسيير المادي الذي لا يظهر عظمة هذا التاريخ بل يطمس حقيقته وهذا أخذوا أحداث التاريخ الإسلامي لآلية منظورهم الشخصي من خلال تاريخ بلادهم .

وامتدت خيوط تلك المؤامرة إلى تغيير بعض أحداث التاريخ الإسلامي، ليلائم الفلسفة الأوروبية ، متخذين أسلوب إلباش الباطل ثوب الحق ، والطعن في رجال الإسلام ، وإضعاف عقائد المسلمين عن طريق تعرضهم فقط لصفحات الضعف في الدول الإسلامية لبلوغ مآربهم .⁽¹⁾

(9) سار المستشرقون في مؤلفاتهم عن التاريخ الإسلامي على منهج إفحام المفاهيم والمصطلحات الغربية كإطلاق " العصور الوسطى " للتعبير عن فترة تاريخية تضبط من خلالها حركة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، مما يؤدي إلى إهانة الحقيقة العلمية والتاريخية ؛ إذ إنَّ تعبير العصور الوسطى إشارة إلى العصور الأوروبية المظلمة التي توسيطت بين إشراقات الحضارة الصينية وبين البعث الحضاري الأوروبي الحديث ، مما

⁽²⁾ محمد فتح الله الزيادي : مرجع سابق ، ص 123 .

⁽³⁾ عبد الرحمن حنكيه الميداني : مرجع سابق ، ص 175 .

⁽¹⁾ أنور الجندي : كيف يحطم المسلمون قيد التبعية والحضار ، ص 75 ، 76 .

يجعلنا حتماً ننتهي إلى جعل عصور النهضة الحضارية الإسلامية المضيئه عصور ظلام وتأخر حضاري ⁽²⁾ لما يلقيه هذا الاصطلاح من ظلال مظلمة .

ولهذا فإن طريقة الاستقراء والاستنتاج التي تتبعتها أغلب الدراسات الاستشرافية ، تذكرنا بوفائع محاكم التفتيش في أوروبا في العصور الوسطى التي أنشأتها الكنيسة الكاثوليكية لخصومها . تتلخص طريقتها في أنها لم تنظر قط للقرائن التاريخية بتجرد ، بل تبدأ باستنتاج متفق عليه من قبل ، أملاه عليها تعصباً لرأيها .

(10) محاولتهم إثبات عدم أصالة الدين الإسلامي ، بإرجاع الظواهر الإسلامية لعوامل خارجية مثل ردهم التوحيد الإسلامي إلى تأثير يهودي على الإسلام ، على الرغم من الفرق الشاسع بينهم ، وإرجاع الفلسفة الإسلامية إلى أصول يونانية ، والتصوف الإسلامي قالوا : إنه صدى لديانة الفرس والهنود. ⁽³⁾

ولكن ما فات على المستشرقين أنه لابد أن تتشابه الديانات السماوية اليهودية والمسيحية والإسلام ، وهذا ليس عيباً ولكنه ميزة لדיانات منزلة من السماء .

(11) توجيه نشر الكتب المخطوطة وإخراجها ، وبخاصة في العناية بأمر الطباعة والنشر ، ولعل ما ناله كتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني من عناية فائقة تنوّعت بين حسن الطباعة والإخراج ؛ لأن العين تبهر أولاً ، والتهذيب ، والتلخيص ، والتقديم ، والتعريف ، والتتويع ، والدراسة ، كل ذلك بتوجيه المستشرقين وعون منهم حتى صار هذا الكتاب من أكثر الكتب تأثيراً في الفكر التاريخي والدراسات الأدبية ، مع أنَّ أبي الفرج الأصفهاني معروف عند علماء الجرح والتعديل بأنه وضاع يأتي بالغرائب والعجائب بلفظ حدثنا وأخبرنا . فكيف يؤخذ التاريخ من مثل مرويات هؤلاء؟! ⁽¹⁾

ثانياً : المنهج من حيث استكمال شروطه ، والالتزام بقواعد :

⁽²⁾ جمال سلطان : الغارة على التراث ، ط1 ، مكتبة السنة ، 1410هـ / 1990م ، ص 48 .

⁽³⁾ محمد جلاء إدريس : مرجع سابق ، ص 44 .

⁽¹⁾ نخبة من العلماء : مرجع سابق ، ص 280 .

لمزيد من المعلومات عن تقديم كتاب أبي فرج الأصفهاني انظر : أنور الجندي : أصالة الفكر العربي الإسلامي في مواجهة الغزو التقافي ، ط3 ، القاهرة : دار الصحوة ، 1413هـ / 1993م ، ص 45 ، 46 .

إن منهج المستشرقين في الدراسات الاستشرافية بصفة عامة سواء أكان ذلك في التاريخ أم الدراسات الأدبية، أم القرآن أم السنة أم كل ما يتصل بالإسلام والערבية له سمات وملامح واحدة ، وهي كالتالي :

(أ) الخضوع للأهواء وعدم التجدد للبحث ؛ إذ إنه من المتعذر بل من المستحيل ، كما يؤكّد (أتيني دينيه) : "أن يتجرّد المستشرقون من عواطفهم وبيئتهم ونزعاتهم المختلفة. ولذلك بلغ تحريفهم لسيرة النبي والصحابة مبلغًا يُخشى على صورتها الحقيقة ؛ لشدة التحرير فيها، وبرغم ما يزعمون من اتباعهم لأساليب النقد البريئة، ولقوانين البحث العلمي الجاد، فإننا نجد من خلال كتاباتهم أنَّ محمدًا ﷺ يتحدث بالألمانية إذا كان المؤلف ألمانيًا ، وبلغة إيطالية إذا كان الكاتب إيطاليًا ... وهذا تغيير صورة محمد بتغيير جنسية الكاتب!"، وإذا بحثنا في هذه السيرة عن الصورة الصحيحة فإننا لا نكاد نجد لها أثراً .⁽²⁾

وهم بهذا يخضعون خضوعاً تاماً لأهوائهم ونزعاتهم الشخصية يحركهم حقدهم على الإسلام ورسوله ، وكرههم لحضارة المسلمين .

وقد عجز المستشرقون عن تمثيل الثقافة واللغة ، وهذا ما أكدّه (دينيه) في قوله السابق ؛ إذ وصف كتاباتهم بأنه يغلب عليها الطابع العلماني ، والرؤى المحدودة للمناهج الغربية في تعاملها مع تاريخنا. والأجدى بهم أن يكونوا أكثر تجرداً وموضوعية في تناول أحداث التاريخ الإسلامي ، فدينيه لا يطالبهم بأن يؤمنوا بالقرآن وأن الرسول ﷺنبياً من عند الله ، وإنما يريد كتاباتهم أكثر موضوعية .

ب) لم يستطع المستشرقون أن يكتبو بمنظار الزمن الذي يتناولونه بل كتبوا بعقلية أوروبية مسيحية ، وبذلك عجزوا عن تمثيل الثقافة واللغة العربية والإسلامية، حاولوا تفسير أحداث التاريخ الإسلامي انطلاقاً من خلفياتهم الثقافية ، ووفق مناهجهم ومقاييسهم الخاصة بظروف بيئتهم ، بدلاً من الاعتماد على المصادر التاريخية الصحيحة ، فعمدوا إلى وضع الفرضيات والمعيقات ، وأطلقوا عليها "نظريات" ووصفوها بالعلمية ، بل بذلوا جهوداً لترجمة ونشر تلك الافتراضات ، ومنح الدرجات العليا للباحثين فيها .

وقد تطور هذا الأسلوب مع مرور الوقت ؛ وذلك لأنهم كانوا يكتبون للجمهور الغربي المسيحي ؛ لينفروهم من الإسلام ، وتوارث المستشرقون النظريات نفسها بل وعملوا على تطويرها . فنصبوا أنفسهم قضاة يحاكمون أحداث التاريخ الإسلامي ورجالاته ، وذلك

⁽²⁾ عماد الدين خليل : مرجع سابق ، ص 27 .

لأن آراءهم وقراراتهم موجهة إلى قراء يفتقرن للتكوين الفكري اللازم لتقدير أعمالهم ونقدتها، وعدم تمكّنهم من سوق الحجج الازمة لدحض نظرياتهم وافتراضاتهم ونتائجهم ، وسايروا في كثير من الأحيان تقاليد معينة ، حيث مدوا القراء الغربيين بما يتوقع منهم أن يمدوهم به . ومن هنا جاءت مواقفهم مبنية على الوجهة العامة للاستشراق دون نقد أو تمحیص ؛ للتأكد على كماله ، أو باعتباره أمراً لا يأتيه الباطل أبداً .

وغالباً ما يقدم المستشرقون لنا صوراً خياليةً أبعد ما تكون عن الحقيقة والواقع الذي حدث؛ وذلك لأن هؤلاء يصورون أشخاصاً من أبناء قومهم ، ويلبسونهم رداء الشخصيات الإسلامية؛ لأنهم لا يستطيعون تقديم الصورة الحقيقية لرجالات الدول الإسلامية، فصوروهم حسب منطقهم الغربي وخيالهم العصري⁽¹⁾

ج) اعتمد المستشرقون الأوائل على منهج العكس في البحث ، يعملون وفق منهج خاطئ من أساسه ، إذ أنهم يبيتون فكرة مسبقة ثم يختارون من وقائع التاريخ ما يناسب أفكارهم حتى وإن كانت غير ثابتة تاريخياً ، ويستبعدون ما دون ذلك ، وهذا يعني أنهم يضعون رأياً وفكرة ثم يستعينون بكل خبر من الأخبار، ضعيفها وقويتها ، ولا يبالون بسند الخبر الضعيف، ثم يبنون النتائج ، ويصدرون الأحكام قاطعة بغير دليل أصلًا.⁽²⁾

إن دأب المستشرقين دائمًا أنهم يعيّنون لهم غاية ، ويسيرون في الطريق؛ لتحقيق هذه الغاية ، إذ يقومون بجمع المعلومات ، وغالباً لا يكون لها علاقة بالموضوع ، سواء أكانت تلك المعلومات مأخوذة من كتب التاريخ أم الأساطير أم من تصورات خاصة ، أم قصص من الشعر ينسجونها في نظرية لا يكون لها وجود إلا في نفوسهم. فأي منهج علمي هذا؟

(1) وخير دليل على هذا الأمر ما جاء في كتاب "محمد واليهود" لمؤلفه برکات أَحْمَد ، إذ اتضح أنهم يقومون بالاعتقاد قبل الدليل ، والاستنتاج قبل المقدمات، فيكون أحدهم صائغاً فكرة مسبقة ، ثم يحاول جاهداً أن يلتمس لها الأدلة ، ولو أدى ذلك إلى تشويه الحقائق أو بتر

(1) عماد الدين خليل : مرجع سابق ، ص 27 - 28 . محمود بن عبود : مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية ، ج 1 ، د. ط ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، د. ت ، ص 364 .

(2) محمد جلاء إدريس : مرجع سابق ، ص 44 - 45 . عماد الدين خليل : المراجع السابق ، ص 28 . محمد فتح الله الزيادي : مرجع سابق ، 116 ، 117 .

(1) برکات أَحْمَد : كاتب هندي مسلم ، لكن يبدو أنه لم يكن له نصيب من الكتاب سوى الاسم ، فإنه من فريق عمل بعض المأجورين الذين صاغوا الشبهات ، وبنوا سموهم . انظر إسماعيل علي محمد : مفتريات المستشرقين وعملياتهم على الإسلام ، رد على كتاب محمد واليهود ، ط1 ، مصر : دار النيل ، 1427هـ / 2000م ، ص 5 .

النصوص، أو استخدام أية وسيلة غير نزيهة. ومثال على ذلك كون بركات أحمد فكرة سابقة عن الرسول ﷺ فاعتقد أنه ليسنبياً - معاذ الله - ثم نزل ميدان البحث بهذا الاعتقاد السيء ، وكرّس كل جهده لإثبات هذا الاعتقاد .⁽²⁾

د) يكاد يكون الملمح الأساسي في مناهج المستشرفين التعسف في التفسير والاستنتاج والشكك في الدليل القاطع، إذ إنهم يمضون مع شكوكهم ، ويطرحون افتراضات لا رصيدها في الواقع التاريخي ، بل ينفون العديد من الروايات الثابتة ، ويتشبثون في المقابل بكل ما هو ضعيف وشاذ ، على سبيل الاختلاف والتمويه، مما يوضح الكذب وعدم تحري الأمانة. غالباً ما تفوح من آرائهم رائحة المخالفة المذهبية أو الدينية .

فأجهدوا أنفسهم في إثارة الشكوك ، حتى حول اسم الرسول ﷺ ولو تمكنا لأثاروا الشك حتى في وجوده ، ولكنهم مهما قالوا في نسبة ، فإن سيرة الرسول ﷺ أوضح وأنقى وأطول سيرة نعرفها بين سير الأنبياء والرسل.⁽³⁾ ، ومن الأخطاء الواضحة ذكر على سبيل المثال لا الحصر، ما يورده (مونتجمي وات) عن آيات الاستئذان في الدخول على المنازل، فسرها على أنها دلالة على تدني المستوى الأخلاقي الذي ساد عصر الرسول ﷺ وهذا يظهر عدم درايتهما بتفسير ألفاظ اللغة العربية ، أو حتى فهمها.⁽⁴⁾

ومثال على ذلك ما ردده المستشركون حول أن اسم "محمد" اتُخذَ بتأثير من القراءة في الإنجيل والاتصال بالنصارى ، كما شككوا في نفي أحداث السيرة النبوية ، طالما أنها لم ترد في القرآن الكريم ، وكأن القرآن كتاب تاريخي خاص بتفصيل حياة محمد ﷺ وبذلك يكون هدفهم التحرير والتزيف والإدعاء فقط .

لقد سلك المستشرق مسلكاً عجيباً في الكتابة ، فإذا كانت هناك رواية تتصادم مع فكرته التي كونها مسبقاً ، أو تتعارض مع هواه ، ردتها بكل بساطة ، وقال في جرأة عجيبة : إنها لا تصح ، وهكذا وبكل بساطة يهيل التراب على حقائق التاريخ ، وصحيح الروايات ، غير مكترث بمسلمة من مسلمات البحث ، وهي تقديم الدليل على ما يدعوه الباحث من

⁽²⁾ مرجع سابق ، ص 24 ، 25 .

⁽³⁾ عماد الدين خليل : مرجع سابق ، ص 24-26 . محمد فتح الله الزبيدي : مرجع سابق ، ص 119 - 120 .

⁽⁴⁾ محمد فتح الله الزبيدي : مرجع سابق ، ص 119 - 120 .

دعوى، سواء أكانت تصديقاً أم تكذيباً ، وهذا ما قرره القرآن الكريم في إيجاز وإعجاز ،⁽¹⁾
فال سبحانه: «قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ». ⁽²⁾

وكان الأجدى بالمستشرقين أن يبدأ بدراسة الموضوع بمنهجية علمية صحيحة ، وهي البحث عن جوهر الحقيقة دون أن يكون لهم رأي خاص في بادئ الأمر ، فالقراءة الوعية وجمع المادة العلمية وتقيمها ، ومقارنة بعضها بالبعض الآخر، ستوصله إلى الحقيقة، دون أن تتحكم به الأهواء ، أو توجهه الميول الخاصة. فالباحث يبدأ الدراسة لا ليبرهن على شيء ، بل ليكتشف شيئاً كان خافياً، وهو لهذا لا يتجاهل وسيلة تساعده على بلوغ هذا الهدف، ويكون على أتم الاستعداد لأن يغير رأياً قد يكون كونه مسبقاً ، إذا جد ما يستدعي هذا التغيير ، مهما استلزم ذلك التغيير من عناء .

هـ) دأب المستشرق على بتر النصوص ، واجتزاء الروايات ؛ لخدمة أغراض دفينة في نفسه تشوّه الحقيقة ، فهو يركب الأحداث تركيباً عشوائياً حتى يصل إلى مبتغاه ، مما يؤدي إلى ظهور الحدث التاريخي في صورة مبتورة مقطعة غير واضحة. ولعل خير مثال على ذلك اتهام بعض المستشرقين لعلماء السيرة والتاريخ بالتحامل على اليهود ، وافتراء الروايات الكاذبة عنهم .⁽³⁾

و) عدم دقّتهم في استعمال المصطلحات داخل البحث ، فيستعملون مصطلحات ذات علاقة بالإسلام ، ولكن يراد منها الإساءة والتشويه إلى الدين الإسلامي ومقوماته. فمثلاً يعبرون عن المسلمين بكلمة "الإسلام" وشتان ما بين المصطلحين في المعنى ، ولكن الغرض واضح يتجلّى في تقديم الإسلام من خلال سلوك المسلمين ، وتصرفاتهم ، مما يسمّهم في الحد من انتشار الإسلام ؛ لأنّه يعمل إلى إخفاء الحقائق، وكذلك استخدام "المحمدية" بدلاً من الإسلام ، وإرجاع كلمات عربية أصلية إلى العبرية مثل كلمة "قرآن" .⁽¹⁾

ز) ترك أغلب المستشرقين بصماتهم العميقـة على مناهجـهم في التعامل مع السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي عموماً ، مع العلم أنّ أغلب المستشرقين كانوا من رجال الدين، أو من خريجي كليات اللاهوت ، وهم عندما يتطرّقون لموضوعات الإسلام يحاولون جهدهم ردّها

⁽¹⁾ إسماعيل علي محمد : مرجع سابق ، ص 27.

⁽²⁾ سورة الأنعام ، آية 64 .

⁽³⁾ إسماعيل علي محمد : مرجع سابق ، ص 29 .

⁽¹⁾ محمد فتح الله الزيادي : مرجع سابق ، ص 122 .

إلى أصل نصراني. أما المستشرقون اليهود فإنهم يردونها لأصل يهودي، خاصة بعد تأسيس إسرائيل ، وتحكم الصهيونية في غالبيتهم ، وكلتا الطائفتين في هذا الأمر تتبع الأهواء والعواطف.⁽²⁾

ح) استخدامهم لطريقة مبتكرة في الكتابة عن التاريخ الإسلامي ، وهي منهج البناء والهدم ، ويظهر هذا المنهج بوضوح في كتاباتهم التي تناولوا فيها أحداث التاريخ الإسلامي ، حيث يقوم المستشرق بإطراء ومدح جوانب عديدة من الحدث الذي يتناوله ، ثم يبدأ في الهدم وتجريد أهم أركان موضوعه من كل مقوماته حتى يسقطه تماماً بضربات قاصمة له .⁽³⁾ هذه النقطة تظهر بوضوح في مواد دائرة المعارف الإسلامية ، خاصة التي تناولت ترجمة السلاطين العثمانيين .

ط) في أغلب الأحيان يذكرون عيباً واحداً ، ويضخمونه حتى يتمكن من نفس القارئ ، ويصبح كافياً لطمسم أي محسن ، ثم يذكرون عدة محسنات تافهة ليست ذات قيمة ؛ حتى يتتأكد القارئ من صدق نواياهم⁽⁴⁾. إنهم يدسون مقداراً معيناً من السم - لا يقتل ولكن يضعف - ويحرصون على عدم زيادته حتى لا يستوحش القارئ ، ولا تثار ريبة. إن كتابات هؤلاء أشدُّ خطراً من المؤلفين الذين يكافشون العداء، ويشحذون كتبهم بالكذب والافتراء ، لدرجة أنه يصعب على القارئ غير المتخصص الخروج منها دون الخضوع لها .⁽¹⁾

والواقع أن منهج المستشرقين المعموج في الكتابة لا يظهر إلا عند الكتابة عن الإسلام، وما يتصل به ، وكأنهم وضعوا منهجاً مصطنعاً خاصاً للدراسات الإسلامية ، أما حينما يكون مجال الدراسة شيئاً غير الإسلام ، أو تاريخ غير المسلمين ، فإن التزام الموضوعية والدقة والحياد ، والأمانة العلمية ، والسير في ركاب الأدلة والوصول إلى النتائج المقبولة هو خط سيرهم .⁽²⁾

والغريب في الأمر أن المستشرقين توأروا آراء معينة من بعضهم ، ينقلها أحدهم عن الآخر دون مراجعة أو تدقيق ، خاصة تلك المسائل التي لها علاقة بالقرآن الكريم ، أو

⁽²⁾ عماد الدين خليل : مرجع سابق ، ص 33 .

⁽³⁾ محمد جلاء إدريس : مرجع سابق ، ص 46 .

⁽⁴⁾ وخير من يمثل هذا المنهج غوستاف لوبيون في كتابه حضارة العرب .

⁽¹⁾ أبو الحسن علي الحسين الندوي : الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين ، د. ط ، مؤسسة الرسالة ، د.ت، ص 16 ، 17 .

⁽²⁾ إسماعيل علي محمد : مرجع سابق ، ص 33 .

السنة النبوية الشريفة ، أو غيرها مما له صلة بكل ما هو إسلامي ، مما جعل هناك ثوابت ومصادر في حركة كتابة المستشرقين لا تقبل الشك ، حتى صارت آراؤهم لا تناوش مطقاً ، وإنما يتفقها غيرهم من المستشرقين لترويجها فقط دون أن يدرسوها ، وربما نالت المعلومة المزيفة بعضاً من الزيادات والتلميع .⁽³⁾

و قبل أن نختم الحديث عن منهج المستشرقين في التاريخ الإسلامي ينبغي أن نشير إلى أن أعمالهم تسير وفق خطة مدروسة ، ولذلك فهي تتغير تبعاً لمقتضيات العصر . فقد احتفى من مؤلفاتهم ذلك الأسلوب الفج الاستفزازي ، والطعن المكشوف ، فبدأوا خطة احتواء الفكر الإسلامي ، بمعنى التفسير المادي للتاريخ ، بحيث يرفض وينفي ما لم ينسجم مع مطالب المنهج الجديد ، وتفضي الواقع لتحليلات قسرية .

ومواد التاريخ العثماني في دائرة المعارف الإسلامية توضح بشدة هذه المناهج والأساليب التي اتبعها المستشرقون في الكتابة عن التاريخ العثماني ، وتعتبر تطبيقاً عملياً حياً لكل منهج وطريقة وأسلوب .

لقد أدرك المستشرقون تحيزهم ضد الإسلام مؤخراً ، فأعادوا النظر في منهج كتاباتهم ؛ ليغيروا الفكرة السائدة ، ويصرفوا النظر عن أغراضهم الحقيقة . ويؤكد ذلك المستشرق (منتجمري وات) حيث أكد أنَّ كتابات المستشرقين خلال عصر النهضة كان يشوبها التشويه والافتراء على الإسلام ؛ لإحساسهم بالنقص ، لكن في ق 20م تغير الوضع حيث أصبح ذكر الحقائق دون تحريف السمة المميزة لكتابات المستشرقين ، خاصة بعد انتقال زمام المبادرة والسيادة لأوروبا.⁽¹⁾

ولكن هذا القول ليس إلا لذر الرماد في العيون ؛ ليوجه المسلمين بأنَّ أهدافهم قد تغيرت ، ونظرتهم للإسلام نظرة تقدير وإنصاف ، والحقيقة هي الخداع والتضليل ؛ لأنَّ حملات تشويه الإسلام لا تزال مستمرة إلى يومنا هذا ، فالمستشرقون أحسوا بعدم موضوعيتهم ، وتحيزهم ؛ فلجاجعوا إلى صنع جو من الاطمئنان بين المسلمين ؛ لخلق التفاهم بينهم ، ولتحقيق غایات بعيدة المدى.

فقد تراجعوا عن الأسلوب القديم المباشر في الافتراء والتشويه ، واستخدموه أسلوباً أشدَّ مكرًا ، وأسوأ سبيلاً ، وهو اتخاذ الإنصاف الجزئي مدخلاً للطعن في التاريخ الإسلامي ، إذ يدخلون في الموضوعات من باب التقدير والمدح حتى ينخدع القارئ ويكسبوا ثقته ، ثم لا

⁽³⁾ محمد فتح الله الزيادي : مرجع سابق ، ص 120 .

⁽¹⁾ عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص 134 .

يلبّوا أن يثروا الشبهات خفية في إطار هذا التقديم الكاذب بكلمات مقتضبة بين الجمل ، وأبلغ دليل على ذلك دائرة المعارف الإسلامية .⁽²⁾

ولا يقول بعضهم إننا نتصيد أخطاءهم ، فإنّ أخطاءهم واضحة ، ولا تحتاج إلى تصيد ، وهم ليسوا خطائين ، وإنما هم قاصدون التشويه ، وهذا أسلوبهم الاستشرافي الجديد .⁽³⁾

لا نستطيع أن ننكر أنهم نظموا تاريخنا ، وحفظوا مخطوطاتنا ، وكذلك وثق متقدون بأبحاثهم ظناً بأنهم يستخدمون المنهج العلمي السليم لكن مع تزايد الشعور بالاستقلال الفكري ، والشعور بشخصيتنا المسلمة ، استطعنا أن نكشف حقيقة هؤلاء وأبحاثهم .⁽⁴⁾

العوامل المفسرة لكتابات المستشرقين :

- (1) الوجدان النصراني المفعم بالحقد على المسلمين ، ومفاهيمه الثابتة ، والموروث التقافي الغربي في نفوسهم الذي يقع ضمن دائرة الصراع العرقي والديني مع المسلمين .
- (2) طبيعة الاستعلاء الغربي على الأمم نتيجة ما يسمى بالجنس الأبيض صانع الحضارات ، وما يتبع ذلك من انتهاك للحضارات الأخرى .
- (3) عجز المستشرقين عن امتلاك ناصية اللغة العربية ، واستيعاب البيان العربي والبلاغة ، خاصة في فهم معاني الكلمات ومجازاتها ، مما شكل عائقاً حقيقياً أمامهم في فهم وإدراك معاني الكلمات ، وخاصة في فهم النصوص القرآنية ، والأحاديث الشريفة .
- (4) انعدام الخلفية الثقافية الكافية في موضوع كتابة المستشرق ، والاعتماد على مصادر ثانوية لإثراء معلومات هي في الأصل ناقصة تماماً ، مما أدى إلى ابتعادهم عن المنهج العلمي الصحيح .⁽¹⁾

لا أشك أن الخوف من الإسلام من الأسباب التي أدت إلى نشأة الدراسات الاستشرافية، ومع كل التشويه الذي نال من شخصيات وأحداث التاريخ الإسلامي، إلا أنه لم تحظ أي دولة إسلامية بقدر ما حظيت به الدولة العثمانية من اهتمام أفلام المستشرقين إلى يومنا هذا. فقد عُدّت مادة خصبة ثرية للكتابة عنها ، وتشويه تاريخها ، واحتلاق الأكاذيب

⁽²⁾ عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص 134 – 136 .

⁽¹⁾ عبد العظيم الديب : مرجع سابق ، ص 40 – 41 .

⁽²⁾ مصطفى السباعي : الاستشراف والمستشرقون ما لهم وما عليهم ، ط 1 ، لبنان : دار الوراق ، 1420هـ / 1999م ، ص 83 .

⁽¹⁾ أنور الجندي : كيف يحطم المسلمون قيد التبعية والحضار ، ص 71 . محمد فتح الله الزبيادي : مرجع سابق ، ص 115 .

حول أحداثها. فكُتِّبَتْ عن الدولة العثمانية مئات الكتب ، وعن سلاطينها أكثر على اعتبار أنهم قادوا الفتوحات الإسلامية في العصر الحديث ، فكانوا بحق أهل السنة والجماعة اعتقداً وعملاً .

إن المحاولات التي تمت في عهد تركيا الحديثة لتشويه التاريخ العثماني لم يقع مثلها في أي دولة من دول العالم ، ونتج عن ذلك أنَّ الجيل الذي تربى على الثقافة الغربية في عصر الجمهورية أصبح من أَدَاء الدين والتاريخ الإسلامي والعثماني .⁽²⁾ وبالتأكيد يعود ذلك إلى أنَّ الدولة العثمانية حملت الإسلام إلى أوروبا ، إضافة إلى افتقار أوروبا نفسها لسمات لم تستطع على مر تاريخها إلى يومنا هذا أن تتحلى بها ، في الوقت الذي كانت تمارسها الدولة العثمانية بشكل طبيعي ، ولعل من أبرزها سياسة التسامح الديني التي ميزت الدولة العثمانية في فتوحاتها .

وسلطان الدولة العثمانية هم أقل السلاطين حظاً في التاريخ ، حيث إنهم اتهموا كثيراً في الكتب والدراسات التاريخية ، فتأريخهم تعرض لكثير من الافتراءات والأكاذيب ، ولذلك لابد من توضيح خصائص حكمهم ، ومجاهدتهم في سبيل الله ؛ لنشر الإسلام في آفاق جديدة .

كان عصر الدولة العثمانية العصر الذهبي للإسلام بعد اختفاء نوره فترة من الزمن ، إذ كان العثمانيون إذا فتحوا بلداً احتضنهم سكانه ، ولم يهاجر منه أحد ، وإذا انسحبوا منه فر الأهالي وراءهم .⁽¹⁾

ومحاولات التشويه والهجوم التي تعرض لها تاريخ الدولة العثمانية لم تقتصر على المؤرخين الأوروبيين واليهود ، بل انجرف وانساق في التيار نفسه أغلب المؤرخين العرب بشتى انتماءاتهم واتجاهاتهم ، إضافة إلى المؤرخين الأتراك أنفسهم الذين استخدموها هذا الأسلوب ؛ لنشر الأفكار القومية العلمانية في تركيا الحديثة .

ومن الشواهد على ذلك ما شاع في أواسط المتعلمين عن المناهج الجديدة من حرص على إنكار الماضي ورفضه ، واعتبار ذلك من مقتضيات التحضر والمعاصرة ، وبات الحديث عن العثمانيين وتشويه تاریخهم من الأمور التي يتباھي بها كثیر من المتفقین ،

⁽²⁾ سهيل صابان : مرجع سابق ، ص 291 – 292 .

⁽¹⁾ عبد القادر ده ده أوغلو : ألبوم العثمانيين ، ترجمة : محمد جان ، د. ط ، إستانبول : الدار العثمانية للنشر ، د. ت ، ص 5 .

إضافة إلى تصوير السلاطين العثمانيين بصورة أقرب إلى الخيال ؛ فنسجت حولهم قصص عن حياة مليئة بالمجون . وكتب عنهم ما ينافي الأخلاق والتربية الإسلامية ، وأصبحت كلمة "عثماني" مرادفة لكل أنواع السيئات .⁽²⁾

وجاءت الكتب المترجمة من اللغات الغربية إلى العربية ذات المعلومات المشوهة أصلاً عن التاريخ العثماني ، هي المراجع الأساسية التي ينبغي الرجوع إليها في كل شاردة وواردة .⁽³⁾

إن موقف المؤرخ الأوروبي جاء متأثراً بنزعة الحقد والمرارة الموروثة نتيجة للدور الذي قامت به الدولة العثمانية على الساحة الأوروبية ، فقد أسقط السلطان محمد الفاتح الجدار الشرقي المسيحي للإمبراطورية البيزنطية ، وأخذ عاصمتها القدسية 857هـ / 1453م عاصمة له باسم جديد "إسلامبول" أي دار الإسلام. ولم يكتف الفاتح بهذا ، بل سعى إلى إعلاء كلمة الله في الأرض ، والجهاد في سبيله ، وإسقاط الإمبراطورية المسيحية في أوروبا ، أي روما. وأقسم على مواصلة الجهاد حتى يقدم الطعام لفرسه في مذبح الكنيسة الرومانية ، لكن الأجل المحتمم وافاه قبل البر بقشه ، ولو حدث هذا لتغير وجه التاريخ . في تلك الأيام سادت فكرة السعي لاختراق أوساط أوروبا بالإسلام ؛ للوصول إلى الأندلس ، وإنقاذ المسلمين فيها ؛ فعاشت أوروبا في فزع ورعب ، لم ينchezها منه سوى نبأ وفاة محمد الفاتح. لكن الجهاد في سبيل الله استمر بتولي السلطان سليمان القانوني حتى أصبح شرق أوروبا كله ترفرف عليه ريات الإسلام. ففتحوا بلغراد 927هـ / 1520م ، وبودابست ، 932هـ / 1525م وحاصروا فينَا عاصمة النمسا في قلب أوروبا 935هـ / 1529م ، وسنة 938هـ / 1531م .⁽¹⁾

في الأزمنة السابقة لم يكن معروفاً من هو المسلم بالنسبة لعامة الأوروبيين بشكل مباشر منذ الفتح الإسلامي الأول حتى جاء الفاتح العثماني ، إذ إنّ المسلم معروف عنه - طوال هذه القرون - ما يردده رجال الدين المسيحي من صيحات داعية إلى حشد الأموال

⁽¹⁾ سهيل صابان : مرجع سابق ، ص 292 .

⁽²⁾ المرجع السابق ، ص 292 .

⁽³⁾ جميل عبد الله المصري : حاضر العالم الإسلامي ، ط 8 ، جدة : العبيكان ، 1423هـ / 2002م ، ص 114 . زكريا سليمان بيومي : قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين ، ط 1 ، جدة : عالم المعرفة ، 1411هـ / 1991م ، ص 7 . محمد محمود السروجي : أثر الاستعمار في تشويه تاريخ الأمة العربية والإسلامية ، مجلة التاريخ العربي ، جمعية المؤرخين المغاربة ، العدد الأول - رجب 1417هـ / نوفمبر 1996م ، ص 85-86 .

والمتطوعين ؛ لمهاجمة المسلمين الكفرة البرابرة ، وكلما مُنيت هذه الجموع بالهزيمة على يد المسلمين ازدادت موجة الكره والحدق على المسلمين. فقد تصوروا أن المسلمين قراصنة ومتغتصبون لمقر الدين المسيحي، ومهبط المسيح (بيت المقدس). وقد دعم المستشرقون هذا التصور من أجل مكاسب سياسية ومادية نعمت بها عدة أسر ، ظلت قابعة على صدر المجتمع الأوروبي في الحكم فترة زمنية طويلة. وحقق رجال الدين مكاسب ، وأثروا من وراء هذه الإدعاءات الباطلة ثراءً كبيراً ، ورسموا حول أنفسهم هالة كبيرة اعتمدت في مجلتها على الضلال والتضليل ⁽²⁾.

هذا بالتأكيد يبرز مدى الدور الذي قام به رجال الدين المسيحي في دعم الفكر الاستشرافي ضد الإسلام ، ورغم دخول أوروبا عصر النهضة ، ومرحلة جديدة من تاريخها، إلا أنها لم تخلص من تلك الرواسب الموروثة تجاه العالم الإسلامي عامه ، والدولة العثمانية خاصة. وبقدر اندفاع الحملات الصليبية المشحونة بقوات عسكرية هائلة لتصفية الحساب مع الشرق الإسلامي ، كان اندفاع المؤرخين الأوروبيين لتشويه التاريخ الإسلامي والدور الإسلامي للدولة العثمانية موازيًا لها . ⁽¹⁾

وزادت مهاجمة الكتاب الأوروبيين للدولة العثمانية زمن السلطان عبد الحميد الثاني ؛ لتبنيه حركة الجامعة الإسلامية التي كانت تهدف إلى توحيد صفوف المسلمين حول السلطان العثماني للدفاع عن الإسلام والمسلمين ضد أطماع أوروبا.

ولموقفه المشرف ضد أطماع الحركة الصهيونية ، ومحاولاتها المستمرة بالسماح لليهود بالهجرة إلى فلسطين، بسبب هذا الموقف الصلب الذي لا يلين ، قام دعاة الصهيونية وكتابها بمهاجمة وتشويه صورته أمام العالم الخارجي. ⁽²⁾

لم تختلف إستراتيجية كتابة المستشرقين في التاريخ العثماني ، بل زادت فجاجة أسلوبهم، وأحكامهم قاصرة تدل على الحقد الموروث على الإسلام والفاتحين ، فحاولوا إضفاء القدسية ، وهيبة العلم على أبحاثهم ، مدعين قدرتهم على البحث والتحقيق والتدقيق ، وتجردتهم للبحث العلمي ، لكنهم أخفوا وراءه كل أغراضهم وأهوائهم ، وقد رد ذلك أبوافق

⁽²⁾ ذكرى سليمان بيومي : مرجع سابق ، ص 7 .

⁽¹⁾ ذكرى سليمان بيومي : مرجع سابق ، ص 8 .

⁽²⁾ محمد محمود السروجي : أثر الاستعمار في تشويه تاريخ الأمة العربية والإسلامية ، ص 87 ، 88 .

المستشرقين ، والذين لو وضعوا هذه الغشاوة عن أعينهم لرأوا الحقيقة واضحة كضوء الشمس .⁽³⁾

وزعموا أن الهدف من دراساتهم للحضارة والتاريخ العثماني العمل على تمحيص الإسلام بوجهة نظر علمية تتسم بالموضوعية التي تخضع لقواعد المنهج العلمي في نظرهم، والنتيجة معلومات محرفة ومشوهة ، ومخالفة للحقائق الثابتة.

وفي كتاباتهم هذه ظهر الكذب والتناقض في الحقائق بوضوح، فضلاً عن الأخطاء المنهجية ، ولم يكن تفكيرهم منطقياً قط ، أو متسلسلاً ؛ لأنهم لو فعلوا ذلك لتوصلوا لنتائج عكسية. ولم يحاولوا الرجوع إلى أي مصادر إسلامية، بل ضربوا بها عرض الحائط، واستبدلوا بها مصادر أجنبية عن التاريخ العثماني الإسلامي .

كيف لمن لا يتقن اللغة العربية الوقوف على أسرارها، وتمييز أحکامها الشرعية ؟
كيف لمن يجهل الدين الإسلامي أن يدللي بدلوه فيه ؟ أليس هذا أكبر تهاون في شروط المنهج العلمي للبحث ؟ أليس الأجدى بهؤلاء المستشرقين أن يعملا النظر في أنظمتهم ، وقوانينهم ، وتطبيق المعايير النقدية عليها . إن مثل هذه الأمور تدل على فساد منهجهم وعدم موضوعيته؛ لأنه ليس للمستشرقين علم ودرأية بحقيقة الإسلام سوى أنه دين يهدد عرش المسيحية وعقائدها الزائفة .⁽¹⁾

وهكذا نجد أن المؤامرة واسعة النطاق ، أحد أطرافها إنكار فضل المسلمين وعظمة تاريخهم وتزييف الحقائق ، وبتر النصوص التاريخية ، واختيار بعض الواقع والأحداث حسب الهوى والغرض ، وظهر لنا هذه الخصومة الشديدة ضد الدولة العثمانية ، لما لهم معها من علاقات لمدة أربعة قرون ، أُوقدت خلالها نيران الحقد على العثمانيين بسبب اقتحام الإسلام لقاربة أوروبا .⁽²⁾

ثم إنّ حرب الجيوش تحرق وتدمّر ، لكن حرب الأفكار والكلمات تكون ضربتها أخف وأرق ولكن أوقع أثراً ، وكلما تباعدت الضربات والطعنات ، وغلفت بغلاف كاف من الحقائق الملفقة كان الأمر أوقع وأوجع وأخطر .⁽³⁾

⁽³⁾ عبد العظيم الديب : مرجع سابق ، ص 27 .

⁽¹⁾ عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص 125 – 127 .

⁽²⁾ أنور الجندي : كيف يحطّم المسلمون قيد التبعية والحصار ، ص 78 .

⁽³⁾ عبد العظيم الديب : مرجع سابق ، ص 27 .

الفصل الأول

أثر قيام الدولة العثمانية في ازدياد حركة الاستشراق

المبحث الأول :

**تنامي أعداد كراسي الاستشراق في الجامعات الأوروبية
والجامعات الأمريكية .**

المبحث الثاني :

دور البابوية في تشجيع حركة الاستشراق

المبحث الثالث :

**أصداء الفتح العثماني في أوروبا ، ودور المستشرقين في
إذكاء روح العداء .**

المبحث الرابع :

أثر التسامح الديني لل المسلمين في نمو حركة الاستشراق .

المبحث الأول :

تنامي أعداد كراسي الاستشراق في الجامعات الأوروبية :

أوج ظهور العثمانيين ثم فتوحاتهم في أوروبا ما يمكن تسميته بالوجود الإسلامي في أوروبا ، وهي تجربة رائدة لنشر الإسلام في أوروبا ، مما ولد شعور بالكراهية والضغينة والرفض للإسلام ، وبدأ الاستعداد لمواجهة أوروبا المسيحية للخطر الإسلامي الذي أخذ يدق بشدة على بوابتي أوروبا الشرقية والغربية على السواء . ولم تقتصر مواجهة الغرب المسيحي للشرق الإسلامي على الحروب وساحات القتال التي عجزوا عن مواجهتهم فيها ، وإنما كانت مواجهة من نوع آخر لا تقل خطورة أو أهمية عن المواجهة العسكرية ، وهي من أكثر وسائل الغرب قوة وفتاكاً ، ألا وهي الدراسات الاستشرافية .

انطلقت حركة الاستشراق بباعث ديني ، فكان أول المهتمين بدراسة العربية هم الرهبان ورجال الكنيسة الذين أرادوا أن يعيروا قومهم على الشعوب الإسلامية بفهم اللغة العربية والشريعة الإسلامية ، مما أدى إلى تعلم رجال السياسة الأوروبية ورجال الدين اللغة العربية بهدف خدمة أغراضهم في الاستشراق ، وخاصة اليهود لأنهم الأربع في اللغة العربية .

ولعل هذه الصورة تتضح أكثر في أيام الدولة الأموية في الشام حيث نشط الراهن يوحنا الدمشقي 132هـ-749م في نشر أفكاره من خلال كتابين ، الأول: "حياة محمد" ، والثاني : "حوار بين مسيحي ومسلم" ، وكان هدفه الأساسي إرشاد النصارى في جدل المسلمين. كما أن الاستشراق له نشاط واضح أثناء حركة الاسترداد المسيحي في الأندلس، وبذلك يتضح أن حركة الاستشراق انطلقت بباعث ديني استهدف خدمة الاستعمار وتسهيل عمله ونشر المسيحية .⁽¹⁾

وعلى اعتبار أن الاستشراق تعبير يدل على الاتجاه نحو الشرق ، فطبعي أن يعبر عن اتجاه فكري يعني بدراسة الحياة الحضارية لأمم الشرق بصفة عامة، مع بحث أمورهم وثقافتهم وتاريخهم ، ودراسة حضارة الإسلام والعرب بصفة خاصة ، وقد تناولت حضارته وأديانه وآدابه ولغاته وثقافته ، ثم امتدت الدراسات الاستشرافية للتاريخ الإسلامي مسهمة في صياغة التصورات الغربية عن الشرق عامة وعن العالم الإسلامي بصورة خاصة وعبرة عن الخلفية الفكرية للصراع الحضاري بينهما .⁽²⁾

⁽¹⁾ البدايات الأولى للاستشراق . سلسلة كتاب الأمة ، 2008/5/24م . <http://www.Islam.gov.ga>.

الاستشراق . الندوة العالمية للشباب الإسلامي 2009/5/19م ، <http://www.Saad.net> .

⁽²⁾ عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص 15 .

ليس الاستشراق خيالاً أوروبياً متوهماً عن الشرق ، بل إنه كيان له وجوده النظري والعملي ، وقد استثمرت فيه استثمارات مادية كبيرة على مر الأجيال وقد أدى استمرار هذا الاستثمار وضخ الأموال إلى أن أصبح الاستشراق شبكة متفرعة ومقبولة ، تسمح منافذها بتسريب صورة الشرق إلى الغرب ، وتحوله إلى مصدر رزق حقيقي للإنتاج والكسب ، مما أدى إلى زيادة الأقوال والأفعال التي تتسرب من الاستشراق إلى الثقافة العامة .⁽¹⁾

ولنلقي نظرة في البداية على وصول الدولة العثمانية إلى العالمية، ووصول الفتوحات إلى شرق أوروبا ، مما أدى إلى إثارة الشعور الأوروبي المعادي للدولة العثمانية وبالتالي إلى نشاط حركة الاستشراق .

لقد تولى الحكم السلطان أورخان سلسلة من الفتوحات أولها فتح غاليبولي ، في عام 755هـ/1354م ، وكان قائداً الجيش في هذا الفتح سليمان بن أورخان الذي خاض عدة معارك وحروب أسقط خلالها عدداً من الحصون والمدن الصغيرة الواقعة على ضفة البوسفور وأهمها غاليبولي ؛ وذلك لأنها أول مدينة أوروبية وأقوى مركز استراتيجي لحماية القسطنطينية سقط بآيدي العثمانيين .⁽²⁾

ولما سقطت مراكز المقاومة البيزنطية التي كانت بمثابة حلقات في سلسلة دفاعهم وفتحها العثمانيون ساعدتهم ذلك على ترسيخ وجودهم فوق أراضي الحدود البيزنطية .⁽³⁾

وعندما تولى السلطان مراد الأول 764هـ/1362م وبدأ الحركة الجهادية ، فتح أدرنة⁽⁴⁾ عام 761هـ / 1362م ثم سالونيكا⁽⁵⁾ وفليينو ، ومقدونيا ومعظم بلغاريا ، وموناستر⁽⁶⁾ ونيش⁽⁷⁾ ، وأجزاء من صربيا حتى غدت القسطنطينية محاطة بالفتح

⁽¹⁾ إدوارد سمير : الاستشراق . المفاهيم العربية للشرق ، ترجمة : محمد عناني ، ط1 ، لبنان : دار رؤية ، 2006م ، ص50.

⁽²⁾ يوسف علي التقفي: موقف أوروبا من الدولة العثمانية ، ط1، الطائف:دار الحارثي، 1417هـ، ص17.انظر الخريطة في الملحق إسماعيل سر هنك: تاريخ الدولة العثمانية،مراجعة:حسن الزين، د. ط، لبنان:دار الفكر الحديث، 1408هـ/1988م ، ص17، 18.

⁽³⁾ أكمل الدين إحسان أو غلي : الدولة العثمانية تاريخ وحضارة ، ج 1 ، ترجمة : صالح سعداوي ، ط 1 ، إستانبول : مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة ، 1999م ، ص 12 .

⁽⁴⁾ أدرنة : تقع في تراقيا في أوروبا ، قال عنها الدمشقي إنها من أعظم مدن الدنيا ، كثيرة البساتين تجري فيها ثلاثة أنهار. انظر: يوسف علي التقفي : مرجع سابق ، ص 19 .

⁽⁵⁾ سالونيكا : تقع في شمال شرق اليونان على خليج سالونيكا ، كانت تحت الحكم الروماني وبيزنطية ثم دخلت تحت الحكم العثماني . انظر : مرجع سابق ، ص 19 .

⁽⁶⁾ موناستر : وتكتب أيضاً مناستر ، مدينة في تركيا الأوروبية ، في مقدونيا ، بنيت عند السفح الشرقي لجبل بريستي ، ويعبرها نهر دراغور . انظر : س . موستراس : المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية : ترجمة : عصام محمد ، ط 1 ، بيروت : دار ابن حزم ، 1423هـ/2002م ، ص 483 .

⁽⁷⁾ ونيش : تأني نيسا ، مدينة في تركيا الأوروبية ، تقع على نهر نيشاوه ، مقر أسقفية يونانية تتبع بطريركية القسطنطينية . =

العثماني ، وبهذا تحقق الوجود الإسلامي في الولايات البلقانية " البوسنة والهرسك والصرب " وصارت القسطنطينية في متناول أيدي العثمانيين .⁽¹⁾

ثم بدأت إطلاة الإسلام على أوروبا وبشكل يفخر به المسلمين ، فقد توجت الفتوحات العثمانية بفتح القسطنطينية ، وهي أهم ثغر للدولة البيزنطية على الحدود مع المسلمين وهي قلعة الروم المنيعة ، ومركز المسيحية في الشرق ، وفي عام 857هـ / 1453م فتحت هذه المدينة على يد السلطان محمد الفاتح ، وفرزعت أوروبا لهذا الخبر وبدأت في التصدي لهذا الخطر ، ثم تقدمت الفتوحات العثمانية في بلاد الصرب ، وضمت نهائياً الدولة العثمانية ، ثم فتحت أنينا عام 860هـ / 1456م ، وفي العام نفسه فتحت باقي بلاد شبه جزيرة المورة ، وبعدها بعام تم فتح طرابزون وما أن حل القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، حتى تمكن الجيش العثماني من فتح إقليم الأفلاق والبغدان والبوسنة والهرسك وسينوب.⁽²⁾

أما السلطان سليمان القانوني 1520م - 974هـ - 1566م فقد بدأ حركته الجهادية بفتح بلغراد عام 1520هـ / 927م ، ثم فتح رودوس عام 929هـ / 1522م ، كما أتم فتح بلاد المجر عام 932هـ / 1526م ، وتوقفت فتوحاته عند أسوارينا ، واستعانت عليه⁽³⁾ وأصبح الجيش العثماني في نظر الأوروبيين الجيش الذي لا يقهـر .
فكان رد الفعل الطبيعي لهذه الفتوحات خوف أوروبا جميعاً من الدولة العثمانية، لذا فكرت في المواجهة العسكرية ، وعندما فشلت وتأخرت نتائجها فكرت في الغزو الفكري⁽⁴⁾، ومنه

= س. موستراس : مرجع سابق ، ص 469 .

(1) وديع أبو زيدون : تاريخ الإمبراطورية العثمانية من التأسيس إلى الاستقلال ، ط 1 ، الأردن : الأهلية للنشر والتوزيع ، 2003م ، ص 38 ، عبد المنعم الهاشمي : الخلافة العثمانية ، ط 1 ، لبنان ، دار ابن حزم ، 1425هـ / 2004م ، ص 46 ، 47 . يوسف التقى : مرجع سابق ، ص 19 - 25 .

(*) سينوب : سينوب ، مدينة في تركيا الآسيوية " الأناضول " في ولاية قسطموني ، على البحر الأسود ، كانت من المستعمرات اليونانية على البحر الأسود . في عام 1270هـ / 1853م هاجمت مجموعة من الأسطول الروسي ميناء سينوب ودمرت فيه قسماً من الأسطول العثماني . انظر : س. موستراس : مرجع سابق ، ص 317 .

(2) يوسف علي التقى : مرجع سابق ، ص 34 . علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ط 3 ، مصر : المكتب الإسلامي ، 1415هـ / 1994م ، ص 39 . أنظر الخريطة في الملحق .

(3) عبد المنعم الهاشمي : مرجع سابق ، ص 275 ، 920 . يوسف التقى : مرجع سابق ، ص 45 .

(4) الغزو الفكري : الغزو مصدر غزا ، يغزو ، ويعني هنا الهجوم الذي يشن على المسلمين وبلادهم في صورة مفاجئة ولم يحسب له حساب ، فيه مد أجنبى واحتياج خارجي وهجوم مخطط . والفكري : يشمل كل ما ينسب إلى الفكر من أعمال العقل والدين من قيم معنوية وروحية وخلقية ، وعلى ذلك فإن الغزو الفكري : يعني هجمات فكرية متلاحقة ذات صلة بتاريخ المسلمين =

انبقت الدراسات الاستشرافية ؛ إذ شكل لهم الإسلام مشكلة بعيدة المدى على مستوى العالم المسيحي . وحتى وإن نجحت أوروبا في القضاء على الدولة العثمانية فيما بعد إلا أنها - على المدى البعيد - ضمنت عدم قيام حركة جهادية إسلامية أخرى تُدخل أوروبا مرة أخرى في دائرة الخسران .

وفي عام ٩٧٦هـ / ١٥٦٨م أصبح من السهل طباعة الكتب العربية في أوروبا ، عن طريق المطبع التي أقامها الكاردينال (Frenand Elmedesi فريند المديسي) وتم فيها طباعة كتب عربية مختلفة من بينها كتب ابن سينا في الطب والفلسفة ، ثم أعقب ذلك نشاط ملحوظ للاستشراق في القرن ١٣هـ / ١٩١م في جمع المخطوطات الإسلامية ، ومع حلول نهاية ذلك القرن أصبحت الدراسات الإسلامية تخصصاً قائماً بذاته داخل الحركة الاستشرافية العامة .

وأنشأت في مختلف بلدان أوروبا وأمريكا جمعيات (١) لمتابعة الدراسات الاستشرافية التي نشطت في إصدار المجلات والمطبوعات المختلفة . كما شهد هذا القرن بداية المؤتمرات (٢) الدولية للمستشرقين ومع بداية القرن ١٤هـ / ٢٠٢٠م لم يعن إنحسار المستعماري عن العالم الإسلامي القضاء أو نهاية الحركة الاستشرافية ، إنما عدّ الاستعمار العسكري مرحلة ارتبطت بها جهود بعض المستشرقين . وهكذا كان القرآن ١٣هـ-١٤هـ / ١٩١٩م-٢٠٢٠م فترة ازدهار الدراسات الاستشرافية وجيل العمالقة من المستشرقين . (٣)

= وحاضرهم تطرح شبهات وأفكار مزيفة حول تراث الإسلام وال المسلمين . انطلقت من بلاد غربية بأقلام مستشرقين وأعمال المستعمررين بعيدة عن العمل العسكري المسلح . انظر: أميرة مراح : نظرة متأنية في تاريخ الدولة العثمانية ، ط١ ، الطائف : دار الحارثي ، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م ، ص ٦٩ .

(١) الجمعية : هو إجراء عملي تقوم فيه منظمة مخولة ، بتقييم برنامج أو مؤسسة استوفت المتطلبات ، وتتألف من طائفة من الناس أصحاب تخصص واحد لأغراض علمية .

(٢) المؤتمر : مجمع علمي للتشاور والبحث في موضوع ما ، وعرض آراء حوله . المعاني - قاموس متعدد اللغات ، مصطلحات عربي عربي ، ١/٢١٤٣٢هـ .

(٣) محمود حمدي زقزوق : الأرمنة التي نشط فيها الاستشراق ، المنهل ، العدد ٤٧١ ، السنة ٥٥ ، المجلد ٥٠ ، رمضان - شوال ١٤٠٩هـ / إبريل ١٩٨٩م ، ص ٢٠٤-٢٠٢ . الاستشراق . الموسوعة الحرة لخلق وجمع المحتوى العربي ، المعرفة ، http://www.Almaany.com .

يوسف الباز بلغيث . ماهية الاستشراق ، أسواق مربد ، ٢٦/١/٢٠٠٨م .

http://www.Marefa.org . ٢٠٠٨/٦/٢٨ .

http://www.Merbad.net .

وبالتأكيد لم تكن هذه بداية الاستشراق ، فقد ظهر بداية لمحاربة الإسلام في أواسط القرن 7هـ / 1314م حين أدرك الغرب الأوروبي ضرورة الاتصال ثقافياً بالحضارة الإسلامية وتعلم اللغة العربية ، بل والتسليح بأفكار المسلمين وطرائفهم في المحاجة للرد عليهم ، وظل هذا الاتجاه يتّنامي إلى أن ظهرت شخصية (Raymond Lull) رaimond LOL 633هـ - 714هـ / 1235م - 1314م. وهو فيلسوف مسيحي قضى تسع سنوات من حياته 665هـ - 674هـ / 1275م في تعلم اللغة العربية ودراسة القرآن الكريم وقد وضع كتاباً في عام 706هـ / 1306م شرح فيه الطريقة المثلثة للقيام بحرب صليبية جديدة ضد المسلمين ودعا فيه إلى التنصير ، وذهب إلى أبعد من الحرب الصليبية ، حيث شدد على ضرورة تعلم اللغات الشرقية ، ولا سيما اللغة العربية فكان أول من نادى بإيجاد كراسى للدراسات الشرقية في الجامعات الأوروبية ، وذلك لتنظيم تخريج مستشرقين قادرين على محاربة الإسلام ، وهو بذلك نادى بوجوب استبدال الحملة الصليبية ببعثة تصيرية، وقد استحسن البابا والمجمع المنعقد فيينا^(١) عام 712هـ / 1312م هذا الكتاب وأوجب العمل به ، وقرر المجمع أمران:

١) القيام بحملة صليبية جديدة ضد الدولة العثمانية .

٢) قرر المجمع إنشاء كراسى لدراسة اللغة العربية ، وفعلاً تم إنشاء كراسى تدرس اللغة العربية لتنظيم تخريج مستشرقين قادرين على محاربة الإسلام، بل والعمل على إقناعهم ببطلان الإسلام واستحبابهم للمسيحية .

^(١) اختلفت مدينة فيينا في شهر مارس من عام 1983م بالذكرى الثلاثمائة لتراث العثمانيين أمام أسوارها عام 1683م ، وذلك بمساندة بابا الفاتيكان الذي ذهب لفيينا في ذلك التاريخ. وفيينا منطقة تقع جنوب فرنسا بالقرب من ليون . محمد العبد : تعليق على التصبع الأوروبي أم التصبع الإسلامي - مئة مشروع لتقسيم الدولة العثمانية ، ط١ ، الرياض : دار طيبة ، 1416هـ / 1995م، ص 35 . كان هذا الأسلوب الذي استخدمه (Raimond Lull) لتنفيذ مشروعه الاستشراق داخل المنطقة العربية ، هو الوسيلة المفضلة للعديد من المستشرقين في أوروبا الذين فكروا في التوجه نحو البلاد الإسلامية ، فمنهم من جاء في شكل رحلة علمية أو طيبة ، ومنهم من تعدى ذلك وتذكر تحت اسم مسلم ، ليتوغل بين المسلمين العرب ، ولمزيد من التفصيل. انظر: عبدالله بن عبد الرحمن الريبيعي : السياسة الصليبية تجاه البحر الأحمر . من عام 492-584هـ / 1099-1188م ، دراسة في التاريخ العسكري والاقتصادي مقال مشور في مجلة الدارة ، العدد 3 ، السنة 29 ، 1424هـ ، ص 79 - 120 . مانع حمد الجنهى : مرجع سابق، ج 2 ، ص 675 - 698 .

أما بالنسبة للخلف الصليبي فلم يتم في أمره شيء⁽¹⁾. فقد أوصى المجمع بأن يتم إنشاء كراسي لتدريس اللغة العربية في أكبر خمس جامعات أوروبية ، تعد مراكز علمية ، وهي : باريس ، وأكسفورد ، وبولونيا بإيطاليا ، وأفينيون وسلمانكا بإسبانيا ، بالإضافة إلى جامعة المدينة البابوية بروما .

تعد هذه الخطوة بداية محاولات الكنيسة الأوروبية رسمياً للاهتمام باللغة العربية، إضافة إلى أن هذا المجمع يعد نقطة تحول وانتصار للاتجاه الأوروبي الداعي إلى حرب المسلمين تقافياً.⁽²⁾

وعلى أثر ذلك قرر الفاتيكان تعليم اللغة العربية إلى جانب اليونانية والدراسات الشرقية في مدارس إسبانيا ومدارس الأديرة والكاتدرائيات ، وما أن حل القرن 8هـ / 14م حتى كانت كراسي اللغة العربية تؤدي عملها على أكمل وجه ، وتم تكليف أسانتتها بترجمة الكتب العربية إلى اللاتينية ترجمة علمية ، مستعينين في هذه الترجمة بمن يجيد اللغة العربية من النصارى واليهود ، الذين يترجموها ترجمة حرفية ، ثم يعيد رجال الدين صياغتها في أسلوب لاتيني رصين.⁽³⁾

وفي القرن 11هـ / 17م كان أهم كراسي الاستشراق على الإطلاق كرسي اللغة العربية في جامعة كمبردج الذي أنشأ عام 1046هـ- 1636م.⁽⁴⁾ ولم يظهر مفهوم الاستشراق orientulism في أوروبا إلا مع نهاية القرن 12هـ / 18م ، إذ ظهر في البداية في إنجلترا 1193هـ / 1779م ، وفي فرنسا 1214هـ / 1799م ، وأدرج في قاموس الأكاديمية الفرنسية عام 1254هـ / 1838م .⁽⁵⁾ وهذا يعني أنه بعد توجه العثمانيين إلى أوروبا ، واتضاح الرؤيا لأوروبا والكنيسة بضرورة القضاء على الدولة العثمانية كان ذلك حافزاً لزيادة الحركة الاستشرافية ، الأمر الذي أدى بدوره إلى ظهور العلاقات السياسية والثقافية مع الدولة العثمانية، مما أعطى شحنة

⁽¹⁾ إدوارد سعيد : الاستشراق . المعرفة - السلطة - الإنشاء ، ترجمة : كمال أبو الديب ، ط 6 ، لبنان : مؤسسة الأبحاث العربية ، 2003م ، ص 80 . محمد العبد : مرجع سابق ، ص 34 ، 35 . محمود حمدي زقروق : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، ط 1 ، مصر : دار المعرفة ، 1997هـ / 1417م ، ص 16 . مانع حماد الجهي : مرجع سابق ، ج 2 ، ص 684.

⁽²⁾ إسماعيل أحمد عميرة : المستشرقون وتاريخ صلتهم باللغة العربية ، مجلة المنهل ، العدد 471 ، السنة 55 ، المجلد 50 ، رمضان - شوال 1409هـ / إبريل - مايو 1989م ، ص 88 .

يوسف الباز بلغيث ، ماهية الاستشراق ، أسواق مربد ، 26 ، 2008/1 م . http://www.Merbad.Net .

⁽³⁾ محمد عبدالفتاح عليان : أصوات على الاستشراق ، ج 2 ، ط 1 ، الكويت : دار البحث العلمية ، 1400هـ / 1980م ، ص 25 .

⁽⁴⁾ محمود حمدي زقروق : الأزمنة التي نشط فيها الاستشراق ، ص 204 .

⁽⁵⁾ http://sauid.net/Lferaq.Forums.showpost ، 2008/2/17 م

مضاعفة للدراسات الاستشرافية للوصول إلى أبعد مدى في القرن 12هـ / 18م ، بغية القضاء على العثمانيين بل وتشويه تاريخهم.

وقد نشطت بذلك الحركة الاستشرافية في أمريكا ، ودول أوروبا مثل: إنجلترا وألمانيا وإسبانيا وفرنسا وهولندا وإيطاليا وروسيا، وساعد على هذا النشاط زيادة حركة الطباعة التي أصدرت الكتب العربية .

ومما ساعد على توسيع آثار الدراسات الاستشرافية أن الطلاب المسلمين أخذوا يفضلون الدراسة في الجامعات الأوروبية والأمريكية ، مما أدى إلى تأثر أغلبهم بآراء المستشرقين ، وأخذوا يرددون هذه الآراء كالأبواق دون محاولة الرجوع لأصلها أو التأكد من مدى صحة المعلومات التاريخية ، إضافة إلى استعانة المستشرقين ببعض النصارى العرب لنشر أفكارهم السامة بين المسلمين. فضلاً عن أن بعض المستشرقين تسللوا إلى الدوائر العلمية والجامعات في الدول الإسلامية ، بل في الماجامع العلمية في القاهرة ودمشق وبغداد . أمثل: هاملتون جب ، مرجليوث ، من إنجلترا ، وماسينيون من فرنسا وهارتمان من ألمانيا .⁽¹⁾

ومما يصدق هذا الأمر ، أن الدراسات الاستشرافية لم تكن لتصل إلى هذا التقدم والعمق دون وجود الدعم المادي السخي ، فقد رصدت لها الميزانيات الضخمة من الحكومات والمؤسسات الخيرية ، ففي الولايات المتحدة الأمريكية قامت مؤسسات خيرية كبيرة مثل : كارينجي للسلام الدولي التي أسست عام 1328هـ / 1910م ، ومؤسسة فورد الأمريكية ، بالإضافة إلى مؤسسة روكللي ، بدفع مبالغ مالية كبيرة ؛ لدعم هذه الدراسات والمستشرقين أنفسهم ، ووضعت المؤسسات الدينية والاقتصادية كافة التسهيلات أمامهم ، فضلاً عن التبرعات من شخصيات أمريكية عادلة وثرية . وفي عام 1372هـ / 1952م صدر مرسوم حكومي خصصت بموجبه مبالغ كبيرة لإنفاقها على هذه الدراسات في أكثر من عشرين جامعة أمريكية ، وحتى تتأهل الجامعات لهذه المعونة كان لابد من أن تقدم برامج توافق عليها الحكومة الأمريكية ، ولا تتعارض مع المرسوم الحكومي المذكور . ولا يزال الدعم المادي للجامعات الأمريكية ينال الحظوة عند الحكومة الأمريكية على الرغم من مرور أكثر من 40 عاماً على صدور المرسوم الحكومي .⁽²⁾

⁽¹⁾ محمد عبد الفتاح عليان : مرجع سابق ، ج 2 ، ص 15 . التعريف بالمستشرقين سيأتي لاحقاً .

⁽²⁾ مرجع سابق ، ج 2 ، ص 15 . نجيب عفيفي : المستشرقون ، الجزء 3 ، الطبعة الثالثة ، د.م ، د.ت ، ص 391 . مازن مطبقياني : مرجع سابق ، ص 24 .

وتسعى الجامعات الغربية إلى الحصول على دعم كبير من الدول الأجنبية بإنشاء كراسي للدراسات العربية والإسلامية ، بتمويل سخي من المؤسسات الخيرية ، وعلى رأسهم مؤسسة (فورد) الأقدم في تقديم الملايين لتشجيع الدراسات العربية والإسلامية . ومن أهم مصادر التمويل وكالة الاستخبارات المركزية (CIA) التي تموّل مؤتمرات خاصة بدراسة الحركات الإسلامية ، ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد بل إن شركة البترول البريطانية ، والبنك البريطاني للشرق الأوسط من أبرز الممولين . ويتم أيضًا استقبال التبرعات من شخصيات عربية إسلامية درست في جامعات الغرب ، وقد يكون التمويل لندوة معينة أو مؤتمر دولي .⁽¹⁾

هذا عن تمويل المؤسسات والحكومات ، ولم يتوقف الأمر على هذا فقد كان للأفراد والملوك أيضًا دور في دعم الدراسات الاستشرافية ، فقد وفر الحكم الميزانيات للتعليم والبعثات ، مما ساعد على إقامة كراسي الاستشراق ، وتنظيم مكتباتها ومتاحفها ، وإنشاء المطبع الخاصة ، وإصدار المجلات والدوريات ، والمساهمة في تشجيع عقد المؤتمرات ، وإيفاد البعثات الأثرية إلى مواطنها ، ثم جمع تراثها وترجمته لعدة لغات ، وبذلك أصبح كراسي الاستشراق أساتذة ، ومناهج وشهادات عليا .⁽²⁾

وبإمعان النظر في مرتبة دراسة التاريخ وفق مناهج كراسي الاستشراق نجد أنه احتل المركز الرابع بعد الدين واللغة والأدب ، وله الأهمية نفسها من حيث الدراسة والبحث والتدقير .⁽³⁾

عدّ المستشرقون الدراسات الاستشرافية مادة علمية خصبة معترفًا بها عالميًا وأكاديميًا ، ويکاد يكون في كل جامعات الغرب ممثلاً عنها ، مع وجود أعداد كبيرة من المحاضرين والمعلمين والباحثين في كافة مجالات التخصص الاستشرافي ، وهؤلاء تدفع لهم أموال بقصد تأمين مستقبളهم وضمان استمرار عطائهم ، مع شعور العاملين في هذا المجال بكامل الولاء والتقدير للحكومات وال المجالس النيابية، وللكنيسة التي لا تدخر وسعاً في دعم المستشرقين ، وتوفير الإمكانيات اللازمة لإجراء البحوث والاطلاع والدرس ؛ للحفاظ على حيوية هذا العلم ونشاط العاملين فيه ، لما له من فوائد عظيمة سياسية وفكرية تعود على

⁽¹⁾ مازن مطبقاني : مرجع سابق ، ص 71 ، 77 .

⁽²⁾ محمد عبدالفتاح عليان : مرجع سابق ، ج 2 ، ص 15 . نجيب عفيفي : مرجع سابق ، ج 3 ، ص 391 .

⁽³⁾ فؤاد احمد فرسوين : المسافة بين الدراسات الإقليمية والدراسات الاستشرافية ، المنهل ، العدد 471 ، السنة 55 ، المجلد 50 ، رمضان شوال / إبريل مايو ، 1409هـ / 1989م ، ص 128 .

الدول الأوروبية . إضافة إلى جهود الحكومات الغربية ممثلة في وزارات التعليم التي تسعى لتوجيه طلبة الثانوية على الالتحاق بأقسام الدراسات الاستشرافية بالجامعات .⁽¹⁾

وإذا ألقينا نظرة على المقررات الدراسية يتضح مدى ارتكازها على متابعة التاريخ الإسلامي ، وفيما يلي نماذج للمواد الدراسية التي تقدمها مراكز أو أقسام دراسات الشرق الأوسط ، وأقسام الأديان في بعض الجامعات الأمريكية .

أ) مادة تاريخ 561 " دراسات عليا " قضايا وأدبيات في تاريخ الشرق الأوسط .
أطلق على المادة في تفاصيل المقرر مادة تاريخ الشرق الأوسط ، مع أن المقصود هو التاريخ العربي الإسلامي ، والمراجع الأساسية للمادة هي المصادر المكتوبة باللغة الإنجليزية أو المترجمة إليها ، مع ملاحظة أن ما يترجم في العادة إلى اللغة الإنجليزية هو ما يتبنى الفكر الغربي أو المناهج الغربية في التفكير .

ب) مادة في التاريخ أيضاً ولكن تختص بالمرأة والجنسيات 668 " دراسات عليا " أو " العنوسية "
تهتم المادة بدراسة موضوع المرأة في الشرق الأوسط ، والكتابات الحديثة حول العلاقة بين الجنسين ، ومن الملاحظ أن مراجع المادة هي من كتابات مؤلفاتٍ عربياتٍ ومسلماتٍ عُرف معظمهن بتبني قضية ما يسمى بتحرير المرأة .⁽²⁾

وبالرغم من كثرة القراءات في هذه المادة لكنها لم تتضمن قراءات لكتاب إسلاميين أو كتب مهمة في موضوع المرأة ، ومثل هذه المادة تبدأ بمعرفة موقف الإسلام من المرأة ، وهل لها قضية حقيقة أم أن هذه القضية إنما هي من تأثير الغرب والفكر الغربي .⁽³⁾

الأولى بهذه المادة أن تدرس المسألة من وجهة نظر الإسلام الصحيحة نحو المرأة المسلمة ، وليس من وجهة نظر قضية المرأة في الغرب .

ولعل ما يصدق هذه المعلومات رأي الدكتور فهد السماري حول مراكز دراسات الشرق الأوسط إذ قال : " يتضح من خلال استعراض معظم المواد الدراسية التي تقويم بتدريسيها معظم تلك المراكز ، وجود تركيز معتمد على بعض القضايا الصغيرة والجزئيات البسيطة في العلوم الإسلامية وإعطائها حجماً كبيراً وبعداً عن طبيعتها على حساب القضايا

⁽¹⁾ عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص 16 .

⁽²⁾ مازن مطبقاني : مرجع سابق ، ص 58 .

بحث الاستشراق والمستشرقين ، شذرات ، 2008/11/15م . <http://www.Shatharat.net> .

⁽³⁾ مازن مطبقاني مرجع سابق ، ص 58 - 59 .

العامة . فمثلاً يتم التركيز على قضايا الصوفية وعلم الكلام والفتن وقضايا الخلاف بين المسلمين إلى درجة أنها تأخذ عناوين مواد دراسية كاملة في المرحلة الجامعية أو مرحلة الدراسات العليا".⁽¹⁾

ولا شك أن هذا ما دأب عليه المستشرون ، إذ يركزون دائمًا على الأحداث الصغيرة وتضخيمها على أنها تصور التاريخ الإسلامي كله ، فليس من المستغرب إذن أن يوظفوا المناهج وفق أهوائهم ورغباتهم الشخصية ؛ حتى ينتجوا جيلاً من المستشرين يحملون أفكاره موجهة .

ومن الانتقادات الأخرى التي وجهها السماري لهذه الدراسات مستشهدًا بتقرير (لامبيرت Lambert) أن من السمات التي تسسيطر على معظم المهتمين بهذه الدراسات قلة العارفين باللغة العربية ، بالإضافة إلى عدم ارتباط الغالبية من خبراء دراسات الشرق الأوسط بالمنطقة التي يقومون بدراستها من حيث الدرائية بأحوالها الاجتماعية والفكرية والثقافية بصورة جيدة . وهذه المراكز تحاول دائمًا الحصول على المعلومات التي تتماشى وفق أهدافها ، وليس بالضرورة أن تكون معلومات صحيحة ، وذلك خشية من إنحراف عملها .⁽²⁾

وبناءً على ما سبق يتضح أن هذه المراكز تخرج الطلاب ؛ ليترفوا في أعلى المناصب القيادية في دولهم ، وبالتالي يحققوا الأهداف المطلوبة منهم من عمل في وزارة الخارجية أو وزارات المستعمرات ، وزارة الدفاع ، وامتد الأمر إلى المدارس الخاصة ، والمكتبات العامة والمطابع الوطنية ، ومنحوا ألقاب شرف عضوية المجامع العلمية ، وعملوا في حاشية الملوك مترجمين وأمناء سر ومستشارين وغير ذلك من الوظائف التي تخدم سياسة الاستعمار في البلاد الإسلامية .⁽³⁾ وعلى سبيل المثال لا الحصر : المستشرق الفرنسي (لويس ماسينيوس Louis Massingon)⁽⁴⁾ فقد كان من أشد الحاقدين على

(١) فهد عبدالله السماري : مراكز دراسات الشرق الأوسط وعاليتها بال المسلمين ، بحث قدم للمؤتمر الإسلامي الثاني في لندن ، ربيع الآخر 1414هـ ، ص 20 .

(٢) فهد السماري : مرجع سابق ، ص 20 - 21 .

(٣) خلف خضر الوديناني : الدولة العثمانية والغزو الفكري ، ط 1 ، مكة المكرمة ، 1417هـ / 1996م ، ص 181 .

(٤) ماسينيوس : لويس مستشرق فرنسي عظيم ، أمتاز بنفوذ النظرة وعمق الاستيطان ، ولد في ضاحية نوجان إحدى ضواحي باريس ، درس في بداية حياته الطب ثم عدل عنه ودرس الفن ، في أثناء دراسته للثانوية عام 1314هـ / 1896م ، التقى بهنري ماسبيرو الذي يعد من كبار المهتمين بالدراسات الشرقية فالتحق بالمدرسة " الوطنية الشرقية الحية ". حصل على البكالوريا في =

الإسلام، وعمل مستشاراً في وزارة الخارجية الفرنسية ، وكان تابعاً في عمله لوزارات الاستعمار ، عمل جاهداً في مجال التصوير معتمداً على اسمه اللامع في مجال الثقافة والتدريس الجامعي والأبحاث العلمية .⁽¹⁾

وبهذا نجد أن الدول الغربية جندت بعضهم أو اتخذت منهم أعوناً ليمهدوا لها السبيل لاستعمار البلاد العربية المسلمة ، وأصبحوا مثل ما يقال: (الطابور الخامس) ؛ فقد عملوا على خدمة الاستعمار ونشر المسيحية بشكل خفي بعملهم في الوزارات وإدارة المستعمرات - كما سيتضح فيما بعد - .

ثم جاءت المرحلة التي نشط فيها المستشركون في النصف الأول من ق 19م / 13هـ في مختلف أنحاء أوروبا وأمريكا بإنشاء جمعيات لمتابعة الدراسات الاستشرافية ، إذ أسسوا جمعيات في باريس وبريطانيا وإيرلندا وأمريكا وسرعان ما قامت تلك الجمعيات بإصدار المجلات والمطبوعات المختلفة .

وقد كان (هامر برجشتال Hammer Berjechtal) أول من أصدر مجلة استشرافية متخصصة في أوروبا ، وهي مجلة ينابيع الشرق صدرت فيينا من عام 1224هـ- 1809م / 1818م ، ثم ظهرت مجلة الإسلام في باريس ، ومنتحت اهتماماً بصفة خاصة للعالم الإسلامي، وهكذا شهد القرن 13هـ/19م بداية المؤتمرات الدولية للمستشرقيين

= الآداب والفلسفة عام 1318هـ / 1900م ثم تابع دراساته الجامعية ، فحصل على ليسانس الآداب عام 1320هـ / 1902م ثم درس اللغة العربية بالفصحي والعامية ، ثم بدأ حياته الاستشرافية بحضور المؤتمر الدولي الرابع عشر للمستشرقين في الجزائر عام 1323هـ / 1905م ، وهناك تعرف على جولديزير وأسين بلايتوس . ثم التحق بالمعهد الفرنسي للأثار الشرقي بالقاهرة عام 1324هـ / 1906م ، وبدأت من وقتها صلته بمصر وبدأ أولى أبحاثه عن الآثار الإسلامية ، سافر إلى بغداد والقدس وببيروت وحلب ودمشق وإستانبول ، وعين أستاذًا لناريخ الفلسفة في الجامعة المصرية ، ثم عاد إلى باريس وعين معيدها في معهد فرنسا ثم أستاذًا ومديراً للدراسات في المدرسة العلمية العليا . تولى تحرير مجلة العالم الإسلامي ثم مجلة الدراسات الإسلامية ، حصل على الدكتوراة في كتابات الحاج ، وله دراسات عديدة في التصوف الإسلامي وأغلب مواد التصوف في الدائرة خطت بقلمه ، انتخب عضواً في عدة مجتمعات علمية منها المجمع اللغوي بمصر والمجمع العلمي العربي في دمشق ، وحاز عدة أوسامة رفيعة ، وله كثير من المؤلفات والأبحاث ، أهمها المؤلفات عن التصوف ، ومؤلفاته في نهاية حياته عن أهل الكهف حيث جمع عدة صور لآثارهم وطبق بينها وبين المسيحية . وله أبحاث عن الفاطميين عوضاً عن مقالاته الكثيرة في دارة المعارف الإسلامية، وتوفي عام 1382هـ / 1962م . بعد حياة حافلة بكثير من المؤلفات والأبحاث . انظر : عبد الحميد صالح الحمدان : مرجع سابق ، ص 190 - 193 . نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 263 - 268 . عبد الرحمن بدوي : مرجع سابق ، ص 529 - 535 . مدارس الاستشراف . المدرسة الفرنسية ، 2009/2/1 . .
⁽¹⁾ عمر فروخ : الاستشراف ما له وما عليه ، مجلة المنهل ، العدد 471 ، السنة 55 ، المجلد 50 ، رمضان - شوال 1409 / إبريل - مايو 1989م ، ص 20. مجدى عبد المجيد الصافوري : سقوط الدولة العثمانية وأثره على الدعوة الإسلامية ، ط 1 ، القاهرة : دار الصحة ، 1410هـ / 1990م ، ص 330 .

التي أتاحت الفرصة لزيادة التنسيق وتوثيق أواصر التعاون بينهم والتعرف على أعمال بعضهم ، لتجنب إزدواجية العمل .⁽¹⁾

وهنا لابد من إمعان النظر في وصول الاستشراق والمستشرقين إلى مركز الخلافة الإسلامية - في ذلك الوقت - إسطنبول ؛ إذ حصلت بعض الدول الأجنبية على امتيازات خاصة لرعاياها المسيحيين من كاثوليك وأرمن وبروتستانت وأرثوذكس ، الفاطنين ضمن حدود الأرضي التابعة للدولة العثمانية، إلى حد أن القنصليات جعلت من المسيحيين العثمانيين مواطنين متميزين عن الآخرين ، فمثلاً إذا أخطأ المسيحي لا يحق للدولة العثمانية أن تحاكمه بل يحاكم في قنصلياته بلاده ، ناهيك عن حصولهم على امتيازات في حرية التجارة والثقافة وحتى الشؤون السياسية .⁽²⁾

ومع مرور الوقت تحول ولاء المسيحيين العثمانيين من السلطان العثماني إلى أصولهم الأوروبيية ، وأصبحوا منفصلين عن الدولة العثمانية ، ولهم معاملة خاصة فلا يحق للسلطات العثمانية تفتيش مسكن أحد الأجانب دون إذن من القنصل الأوروبي وبمعرفة الباب العالي ، ولا يحق لها جباية أية ضرائب من المتاجر والمصانع والبنوك الأجنبية .⁽³⁾ وكان من الطبيعي جداً بعدها حصلت الدول الأوروبية على هذه الامتيازات أن تطلق العنوان للمستشرقين حتى يصلووا ويجلووا في الأرضي العثمانية الإسلامية ، جامعين كافة المعلومات التي تساعد حكوماتهم ، وبذلك قدموا أكبر دور للمستشرقين لكي يتقلوا عبر الأقاليم في خدمة الدول الاستعمارية. وهكذا فإن تلك الامتيازات أعطت حرية مطلقة للمستشرقين لكي يتقلوا بمنتهى السهولة لعمل الدراسات ، مما كان له أسوأ الأثر على الدولة العثمانية .

من الملاحظ أن أغلب المستشرقين الذين مرروا في هذه الدراسة كان لهم دور فعال في الاستعمار ، والتنصير - كما سيتضح فيما بعد - حيث قدموا خدمات عظيمة للاثنين ، فمن

(1) محمود حمدي زقزوق : الإستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، ص43 ، 44 .

(2) أصبحت الدول الأوروبية تتدخل بشكل مباشر في سياسة الولاة والباشاوات في الأقاليم ، وتشجيع الحروب بينهم وتعيينهم بالمساعدات المالية والعسكرية لمن يرغب في الانفصال عن الدولة العثمانية ، مما شجع أقاليم أخرى على الإنفصال ، مثل نصارى البوسنة وزاد عصيانهم ، وقد ساعدت الامتيازات على إشعال بؤر الفتن وأربكت الدولة وشغلتها عهوداً طويلاً ، مما جعل أوروبا تتخذ هذه التمرادات ذريعة للتدخل بحججة حماية الرعايا وبالتالي العداون . وقد فعلت ذلك بوضوح في مساندة الحاكم النصراوي في لبنان وتشكيل حكومة مستقلة تحت السيادة العثمانية زمن السلطان عبد المجيد الأول . سلمى أحمد : وعد بالغور - وقفة تأمل ، مجلة المنطق ، العدد 7 ، محرم 1400هـ ، ص64 . مجدي عبد المجيد الصافوري: مرجع سابق ، ص161 ، 162 ، قيس جواد العزاوي : الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط ، ط1 ، الدار العربية للعلوم ، 1414هـ/1994م ، ص25 .

(3) قيس جواد العزاوي : مرجع سابق ، ص 25 .

الملحوظ أن الدول الغربية عندما قويت شوكتها ، تطاعت لاستعمار الشرق الإسلامي ، وهنا برع دور المنصر بين المستشرقين الذين أتقنوه وتقنوا فيه ، فقد انتفعت منهم الحكومات أيماء منفعة ، حيث قدموا لهم الدعم الكافي ، وبالتالي وضع المنصرون كل أبحاثهم وأفكارهم في خدمة الاستعمار ، وأيضاً حرصوا على أن يبقوا حراساً للمؤسسات الإرسالية مدعمين لها حتى تتم مهمتها ، وتركز أقدامها بحيث يصبح من المستحيل بعد ذلك إجلاؤها عن قواعدها.⁽¹⁾

وقد استطاع الاستعمار أن يجند طائفة من المستشرقين لخدمة أغراضه وتحقيق أهدافه وتمكن سلطانه في بلاد المسلمين ، فعمل بعضهم موظفين في الدوائر الاستعمارية ، وجدب عدداً من الضباط والجنود والمتجمدين الذين وظفوا خبراتهم لخدمة الاستعمار ، فجمعوا بين العمل الاستشرافي والعمل الاستعماري، وانساق في هذا التيار عدد من المستشرقين ارتضوا أن يقوموا بدور مهم في إذلال المسلمين ، ومن الأمثلة على هؤلاء : (كارل هينريش بيكر Carl Henrich Becke⁽²⁾) الذي أسس مجلة " الإسلام " في ألمانيا التي قدمت دراسات عديدة تخدم الأهداف الاستعمارية الألمانية في إفريقيا ، والمستشرق الروسي (بارتولد Bartold⁽³⁾) مؤسس مجلة " عالم الإسلام " ، وقد تم تكليفه من الحكومة الروسية ل القيام بأبحاث تخدم مصالح السيادة الروسية في آسيا الصغرى ، وكان أشهر من قدم خدمات للاستعمار المستشرق الهولندي (سنوك هرخونيه Snouk Hourkhrona⁽⁴⁾) ، ففي

(1) محمد عبد الفتاح العليان : مرجع سابق ، ج 2 ، ص 25 ، مصطفى الخالدي ، عمر فروخ : مرجع سابق ، ص 57 .

(2) بيكر : كارل هينريش مستشرق ألماني ، له نزعة لدراسة الأديان عاش في القاهرة ، درس اللغة العربية وأتقنها ، اتصل بالشيخ محمد عبده ثم عمل أستاذًا ، وزار إسطنبول وإيطاليا واليونان ، وشغل عدة مناصب في الحكومة الألمانية أثناء الحرب العالمية الثانية ، وتدرج في المناصب حتى وصل إلى مستشاراً في وزارة المعارف ، ثم وكيل وزارة ثم وزير عام 1921م ، غادر ألمانيا بعد ذلك ليعنى بالكتابات الاستشرافية خاصة في مجال الاقتصاد والحضارة الإسلامية ، والتاريخ الحضاري لل المسلمين توفي عام 1933م . انظر : عبد الحميد صالح حمدان : مرجع سابق ، ص 99 ، عبد الرحمن بدوي : مرجع سابق ، ص 313-316 . محمود حمدي زقزوقي : مرجع سابق ، ص 48-49 .

(3) بارتولد : ف . ف مستشرق روسي . تخرج من جامعة بطرسبرج 1891م وعين أستاذًا لنتاريخ الشرق الإسلامي فيها 1901م ، أول من درس تاريخ آسيا الوسطى ، وعين بالشرق الإسلامي وحقق المصادر العربية المتعلقة به ، انتخب عضواً . في مجمع العلوم الروسي 1912م . سهيل صابان ، مرجع سابق ، ص 142 . الاستشراف الروسي : مصادر الإستعراب الروسي ، . http://www.Awu-dam.org 2009/5/7

(4) هرخونيه سنوك مستشرق هولندي له مكانة عالية بين المستشرقين ، درس اللاهوت على يد أستاذ توراة ، ثم درس العربية ، تعلقت أغلب دراسته بالإسلام ، دينًا وشريعة ، حصل على الدكتوراة في موضوع " موسم الحج في مكة " وانتهى بأن الحج من بقایا الوثنية . وفي عام 1303هـ / 1885م سافر إلى جدة وأظهر إسلامه احتيالاً ، ودخل مكة ، ومكث فيها ستة أشهر ونصف، واتخذ لنفسه اسم " عبد الغفار " كما حضر مجالس العلماء وشيوخ التعليم ووطد علاقاته بكثير من علماء مكة ، وخاصة شيخ العلماء في مكة : أحمد زيني دحلان ، ثم طرد من مكة لأسباب مجهولة ، أو ربما لاكتشافهم حقيقة الكاذبة ، وكان بارعاً في تمثيل دور المسلم براعته في إخفاء إسلامه الاحتیالي على الأوروبيين ، فقد استطاع أن يخدع أحد أمراء جاوه المسلمين بإسلامه وتزوج =

سبيل إستعداده للعمل في خدمة الإستعمار توجه أولاً إلى مكة المكرمة عام 1302هـ / 1885م، ثم قام بدور بارز في تشكيل السياسة الاستعمارية والثقافية في المناطق التابعة للحكومة الهولندية في الهند الشرقية ، وشغل مناصب قيادية في السلطة الاستعمارية الهولندية في إندونيسيا .⁽¹⁾

أما المستشرق (هانوتو Hanoto) فقد كشف بوضوح عن مقتراحاته لتجييه سياسة فرنسا في مستعمراتها الإفريقية الإسلامية ، وما تهدف إليه هذه المقترنات من إضعاف عقيدة المسلمين حتى يسهل قيادتهم .

أما الحكومة البريطانية فقد كانت ترسم سياساتها الاستعمارية في الشرق بعد التنسيق والتشاور مع فريق من المستشرقين الذين يقدمون الدراسات المطلوبة.⁽²⁾

لا شك أن نشأة الاستشراق وتطوره في ظل الصراع الغربي ضد الإسلام سلاح فكري من أسلحة الغرب الموجهة ضد الإسلام ديناً وحضاراً ، وقد ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالحركة الاستعمارية الأوروبية في بلاد العالم الإسلامي ، وتركزت وظيفة المستشرق في التعريف بالأوضاع السياسية والدينية والاقتصادية والاجتماعية الخاصة بالبلاد الإسلامية ، للقائمين على شؤون الحركة الاستعمارية في أوروبا ، مما يسهل عملية الاستعمار ، وتيسير طرق التعامل مع أهل البلاد المستعمرة .⁽³⁾

=بابته وأجب منها أولاً ، ثم بدأ الاختلاط بالمجاهدين ، وجمع المعلومات التي يمكن أن تفيد في وضع خطط الاستعمار ، ثم أقام في تافيا في رحلة تجسسية عجيبة تتصف بالخسنة والخيانة والكذب ، إذ جاء تقريره يفيض بالحق والترويف والكذب على العلماء ، الذين حملوا راية الجهاد في وجه الاستعمار الهولندي وأسماهم "العصابة" وأوصى الحكومة الهولندية باتباع سياسة العنف والإفقاء لهم . وقد حاول أن يلقن المسلمين كيف يكونوا خاضعين خانعين قابلين للاستعمار في سلسلة من المقالات أبدى فيها الوجه الاستعماري . وانصب خطته فيربط المستعمرات في إندونيسيا بروابط تقافية أوروبية بهولندا ، وقصده إيدال الإسلام بتقافية أوروبية ، وعندها تسهل التبعية السياسية والدينية فهو يمثل بالفعل سياسة الاستشراق ، في هولندا ، عمل مستشاراً في الشؤون الإسلامية في إندونيسيا ، وأهم كتابه "مدينة مكة" في جزئين ، والذي يعتبر صورة حية لوجهة النظر الاستشرافية ، على الرغم من أنه شرح العديد من جوانب الحياة في مكة لكن بشكل مشوه وكاذب ، والكتاب الثاني (محاضرات على الإسلام) . انظر: عبد الرحمن بدوي : مرجع سابق ، ص 353 ، 354 . جميل عبد الله المصري : مرجع سابق ، ص 465 ، 466 . قيس الأنصارى . منجزات الاستشراق في ظل المعلومانية ، الصباح ، 13 ، 2009م . <http://www.Alsabaah.com> . لمزيد من المعلومات الرجوع إلى : سток هرخرونيه : صفحات من تاريخ مكة المكرمة ، ترجمة : علي عوده الشيوخ ، ج 1 ، 2 ، الرياض : دارة الملك عبد العزيز ، 1419هـ / 1999م .

⁽¹⁾ عبد القادر طاش : الجذور التاريخية للصورة النمطية للإسلام والعرب في التراث الغربي ، مجلة المنهل ، العدد 471 ، السنة 55 ، المجلد 50 ، رمضان - شوال 1409هـ / إبريل 1989م ، ص 303 .

⁽²⁾ محمود حمدي زقزوق : الإستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، ص 48 - 49 .

⁽³⁾ محمد خليفة حسن أحمد : آثار الفكر الإستشرافي في المجتمعات الإسلامية ، ط 1 ، القاهرة : عين للدراسات والبحوث الإنسانية ، 1997م ، ص 37 .

ولم ينحصر عمل المستشرقين بانحسار الاستعمار ، بل عمل أغلب المستشرقين خبراء في وزارات الخارجية الأوروبية والأمريكية ، وفي مجالات السياسة والاقتصاد والدين ؛ لتقديم المعرفة الازمة عن شعوب المسلمين للدوائر السياسية في بلادهم ، فساعدوا في إعداد التقارير السياسية والاقتصادية عن البلد التي تخصصوا فيها ، وشاركوا في وضع استراتيجيات بلادهم والتخطيط السياسي لبلاد المسلمين .⁽¹⁾

وقد أدت الأطماع الاستعمارية إلى حرص دول أوروبا على الوقوف على التاريخ الإسلامي ، والكشف عن الحضارة الإسلامية ، فالاستشراق والغزو الاستعماري وجهان لعملة واحدة ، فإذا كان الاستعمار غزا بلاد المسلمين تلك الغزوات العسكرية التي ندركتها ، فإن المستشرقين غزوا التاريخ الإسلامي وأخذوا يتذمرون عليه ويألفوا فيه الكثير من الكتب ، وساعدوا على تحقيق كثير من المخطوطات الإسلامية ، ونقلوها إلى مكاتبهم ، وبناءً عليه قامت صناعة نشر التراث الإسلامي في عدد من العواصم والمدن الكبرى في أوروبا .⁽²⁾

ثم تمعت الاستشراق في ظل حماية الاستعمار بعصره الذهبي ؛ إذ فتحت أمام المستشرقين أبواب البلاد الإسلامية على مصراعيها يصلون ويحولون بحرية تامة . وقدم الاستشراق عدة فوائد لأوروبا ، أهمها المعلومات الازمة لاستعباد الشعوب المستعمرة ، وعمل المستشرقين تحت خدمة السيد الجديد فقدم لهم الدعم لمزيد من الدراسات وتهيئة الأذهان لأحقيقة الرجل الأوروبي في البلاد الإسلامية .

تحكمت الدول الاستعمارية في توجيه التعليم ، وحظي المستشرقون بحرية تامة في التجول بين مكتبات الشرق الإسلامي ، يسطون على مخطوطاتها وكتبها ، وينبشون الآثار القديمة في الأراضي الإسلامية ، ويسلبون معظمها ، وظهر المستشرقون بمظهر البراءة والعلم ، مؤكدين حسن نوایاهم ، وأنهم يريدون دراسة التاريخ على المنهج العلمي الحديث ، فنتج عن هذا الأمر أن المؤرخين العرب لم يجدوا أمامهم إلا أبحاث المستشرقين ، لذلك يجب علينا أن ندرك أن أبحاث هؤلاء موجهة لغاية معينة .

وهكذا اتسعت دائرة الاستشراق في ظل حماية الاستعمار ، إذ توفر له الجو المناسب والعون المادي والأدبي ، فتدخل المستشرقون في مجالات التدريس الجامعي وجمع

⁽¹⁾ محمد خليفة حسن أحمد : المرجع السابق ، ص 385 .

⁽²⁾ علي حسن خربوطلي : المستشرقون والتاريخ الإسلامي ، مصر : مطبع الأهرام ، د. ط ، 1970 ، ص 52 .

المخطوطات وحرية فهرستها وتحقيقها ونشرها وترجمتها إلى اللغات الأوروبية ، وأتيح لهم وضع مناهج دراسية لتسير دفة الحكم فيها على النظام الأوروبي . حتى أن الساسة في شؤون الشرق الأوسط يجتمعون بالمستشارين قبل اتخاذ أي قرار ، ويستمعون إلى آرائهم ثم يقررون في ضوء ما سمعوه .⁽¹⁾

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل امتد إلى تسلل هؤلاء إلى المجامع اللغوية العربية ، وغرس مبادئ التربية الغربية في نفوس المسلمين حتى يشبووا مستغربين في الوقت الذي يحرفون فيه التاريخ الإسلامي . بالإضافة إلى ذلك كانوا يدعون إلى مؤتمراتهم بعض الشخصيات البارزة في الدراسات الإسلامية ؛ ليتحدثوا في موضوعات يدسوها من خلالها أفكارهم المعروفة ، وانطلت هذه الخدعة على الكثرين ، مع مراعاة جمال الإخراج وجودة الطباعة في دورياتهم ؛ لجذب النظر واسترقاء الانتباه ، لأن العين تتبهّر أولاً قبل العقل ، وبهذه الأبحاث تغلغل المستشركون في مجال التعليم الجامعي ، وصار منهم أساتذة نستقدمهم ، وننفق عليهم أموالاً طائلة في جامعاتنا .⁽²⁾

يظهر هذا الجانب بوضوح في مراحل الاستعمار الأخيرة خلال القرنين 19 - 20 م وتعود هذه المرحلة من أهم مراحل الاستعمار وأخطرها فكريًا وسياسيًا على المسلمين ؛ إذ لم يكتفى المستعمر بنهب الموارد الاقتصادية وفرض السيطرة السياسية والفكرية ، بل اتجه إلى تنفيذ هدف أكبر وهو إحداث التغيير في التفكير السياسي عند المسلمين ، وإجبارهم على تبني النظم السياسية الغربية والتخلّي عن النظم الإسلامية .

وبدأت الدعاية ضد النظم الإسلامية ، بوصفها بالجمود والتخلف وعدم الصلاحية وفي المقابل شرح النظم الغربية وإظهار محسناتها وتزيينها في أنظار المسلمين ، ومحاولة فرضها بالقوة ، واندسَّ المستشركون بين العلماء المسلمين يروجون للنظريات السياسية الغربية ونشرها بين المسلمين .⁽³⁾

وللأسف لم يكن عمل هؤلاء المستشارين تشويه التاريخ الإسلامي فقط أو خدمة الاستعمار ، وإنما عمل أغلب المستشارين في التصوير ، وأخذوا يستخدمون الطعن في الإسلام أداة للتوصير ، واختاروا الموضوعات التي تثير الأوروبيين على المسلمين ،

⁽¹⁾ مجدي عبد المجيد الصافوري : مرجع سابق ، ص 327 .

⁽²⁾ نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج 3 ، ص 612 . مجدي عبد المجيد الصافوري : مرجع سابق ، ص 325 - 326 .

⁽³⁾ محمد خليفة حسن أحمد : مرجع سابق ، ص 37 - 38 .

بالإضافة إلى أنهم كانوا يضعون الاتهام أمامهم أولاً ثم يبحثون عن الأدلة التي تقوي وتعضد هذا الاتهام ، وكانت الحروب الصليبية بمثابة المنهل الذي أخذ منه الغرب ، وقاموا من خلالها بحركة تصوير على نطاق واسع ، فالتصوير هو ثمرة الحروب الصليبية ؛ حيث نجح التصوير في تنظيم الحروب الصليبية حتى صارت أشبه بحركة مقاومة علمية للإسلام ، عن طريق الهدم المعنوي ، ظاهرها حركة علم وبحث وباطنها مكر وخداع وخبث .⁽¹⁾

لم ينفصل عمل المستشرقين عن عمل المنصريين يوماً ، فالاستشراق أداة من أدوات التصوير ، وفي بداية الأمر كان مصدرهما واحداً وطابعهم الديني واحد ، ثم اختلفا في الطريق ، لكن التعاون والتنسيق بينهما ظل مستمراً وقائماً ، ويمكن القول بأن الاستشراق المصنع ، والتصوير موزع للمعلومات التي يضعها الاستشراق .

ومن أهم المستشرقين والمنصريين في آنٍ واحد :

مرجليوث ، وماستنيون ، وهنري لامسن ، فنسك ، وجولدزيهير . وهم من أشد المستشرقين تعصباً وعداوة للإسلام .⁽²⁾

ومن الجدير بالذكر إن التصوير والاستشراق يلتقيان في أسباب واحدة وهي الحيلولة دون وحدة المسلمين ؛ باستمرار تمزيقها ، وإثارة الشبهات حول الإسلام والطعن فيه ، وإذا كانا قد التقى في وحدة الأسباب فإنهما أيضاً التقى في الوسائل؛ للتعرف على عقائد وحضارات الشرق ، إذ يحتم التصوير ضرورة معرفة اللغة العربية أو لغات من يراد تصويرهم ، وقد ظهرت دعوة لتعلم لغات المسلمين من قبل دعاة التصوير في القرن 7هـ / 13م إذا أرادوا لعملهم النجاح ، وقد ترجمت هذه الدعوة لحظة ظهورها إلى عمل ، وكانت عاملاً مهماً في تطور الاستشراق ، ومن أبرز الدعاة لهذه القضية (Roger Bacon) روجر بيكون وهو من أبرز المستشرقين أيضاً ، وقد وضع ثلاثة شروط لبلوغ أهدافه :

(1) معرفة اللغات الضرورية .

⁽¹⁾ نجيب عفيفي : مرجع سابق ، ج 3 ، ص 612 ، 613 . عبد المجيد الصافوري : مرجع سابق ، ص 328 .

⁽²⁾ محمد عبدالفتاح عليان : مرجع سابق ، ج 2 ، ص 24 - 25 . خلف الوزيناني : مرجع سابق ، ص 180 . عبدالمجيد الصافوري : مرجع سابق ، ص 328 - 329 . محمود حمدي زقزوق : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، ص 28 . الاستشراق . الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، 19/5/2009م . <http://www.Said.Net> .

⁽³⁾ بيكون : روجر 611هـ - 692هـ / 1292م ، مستشرق إنجليزي تلقى تعليميه من أكسفورد ، وباريس حيث نال شهادة الدكتوراه في اللاهوت . تعلم العبرية ودرس الطب وكون علاقات متميزة مع الرهبان والقساوسة ، ونشط في التصوير ، له عدة كتابات حول اللاهوت والعلوم . نجيب عفيفي : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 120 .

٢) دراسة أنواع الكفر وتميز بعضها عن الآخر .

٣) دراسة الحجج المضادة حتى يمكن دحضها .

وي يمكن أن يقال أن حركة التصوير اعتصمت بعد الحرب العالمية الثانية بحركة الاستشراق بعد أن اسودت صفحتها ونفر الناس منها ، لذلك خلعت حركة التصوير أثوابها في السنوات الأخيرة واختفت وراء ستار الاستشراق .^(١)

وقد حرص الاستشراق ومعه التصوير على إنشاء جيل متأنٍ تماماً بالأفكار الاستشرافية ، فركز المستشرقون على إنشاء المعاهد والجامعات والمدارس التابعة للفنون الأجنبية ، وإرساليات التصوير في العالم الإسلامي التي حرصت على صياغة فكر الأطفال المسلمين ، والعمل على تقبلهم آراء التغريب ، وتقبل النفوذ الإستعماري على أنه حضارة ، وتقدير فضل الغرب على العالم الإسلامي . وإن كان التصوير قد ركز جهوده على جهات التعليم والملاجئ والمستشفيات ، فإن المستشرقين عملوا في مجال البحث والكتابة عن الإسلام ، والتدريس في الجامعات الإسلامية . ثم إن التصوير اليوم تطور وأصبح يصل إلى الأجيال عن طريق السينما وأفلام الأطفال ، والألعاب ، وكذلك المقالات التي تقدم الآراء في مرونة ولباقة .^(٢)

وأبلغ مثال على ذلك الكلية الإنجيلية التي تحولت إلى الجامعة الأمريكية التي لها فروع في كل من القاهرة وبيروت وإسطنبول .^(٣)

والاستشراق من أول الأسلحة التي وجهت إلى الدولة العثمانية ، ودفعت الكنيسة إلى التخصص في الدراسات العثمانية ، بهدف تحليل أوضاع الخلافة العثمانية في الداخل ومعرفة أحوالها في البلاد الأوروبية التي تحت حكمها ، وتأثيرها أيضاً في البلاد الأوروبية الواقعة على حدودها ، وببدأ المستشرقون في تغطية الأوضاع السياسية والاقتصادية والدينية والاجتماعية لبلاد الدولة العثمانية ، للتعرف على مواطن الضعف ، وسبل تقويض دعائم الخلافة من الداخل والخارج ، بإثارة النعرات القومية ، واستقطاب الشعوب العربية والإسلامية ضدها . إلى أن نجح الاستشراك في التمهيد لوضع نهاية سياسية للخلافة العثمانية من خلال الدراسات المجتمعية التي قدمها الاستشراك لدول الغرب ، والتي استخدمت

^(١) عبد المجيد الصافوري : مرجع سابق ، ص 329 . محمود حمدي زقزوق : الاستشراك والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، ص 28. لمزيد من المعلومات عن الاستشراك والتصوير الرجوع إلى مانع حماد الجهني : مرجع سابق ، ج 2 ، ص 675 – 330 .

^(٢) عبد المجيد الصافوري : مرجع سابق ، ص 330 .

^(٣) بحث الاستشراك والمستشرقين ، شذرات ، 15/11/2008م . <http://www.Shatharat.Net> .

استخداماً جيداً في تحقيق مأرب الدول الأوروبية من إضعاف الخلافة العثمانية وتغريب المجتمع التركي المسلم .⁽¹⁾

عندما لجأت أوروبا إلى عقد الامتيازات مع الدولة العثمانية كان واضحاً السبب في ذلك أنها لم تستطع الانتصار على الدولة العثمانية خلال تحالفات الصليبية القوية التي عقدتها ضدها ، فلجأت إلى أسلوب اقتصادي يمكنها من هزيمة المسلمين فكريًا وعقائديًا حتى يسهل احتلال بلادهم ، بل ويصبح دخولهم مطلبًا أساسياً لمصلحة أهل البلاد .

وقد أعطت الامتيازات الحرية للمستشرقين للاندماج في المجتمعات الإسلامية بل والكتابة عنها بمنتهى الحرية ، وادعاء الحيادية في الكتابة ، وكانت تلك حجتهم ، عوضاً عن دراسة اللغة العربية والإطلاع على التراث الإسلامي ، أما أهدافهم الحقيقية فيمكن تلخيصها فيما يلي :

- ١) التجسس على المسلمين في بلادهم ومعرفة وجوه التأثير فيهم .
- ٢) وضع الخرائط ودراسة طبيعة البلاد الجغرافية لتكون في خدمة الجيوش القادمة .
- ٣) زرع أكبر عدد من الشكوك والإشكاليات في أوساط المسلمين حول الإسلام والقرآن الكريم والرسول ﷺ.⁽²⁾

ونشط المنصرون الأميركيان بعد دخولهم الساحة في سياسة الدولة العثمانية بين عام 1256هـ - 1840م / 1267هـ - 1850م وكثير تدخلهم في شؤون البلاد الإسلامية التي تحت حكم الدولة العثمانية ؛ تنفيذاً لسياسة استعمارية بعيدة المدى . وعندما عزمت الدولة العثمانية على التصدي لهم أثارت الولايات المتحدة أمام العثمانيين مشاكل كثيرة صرفتهم عن أمر المنصرين وأعوانهم المستشرقين.⁽³⁾

ويمكن تقسيم الأعمال التي قام بها الاستشراق فيما يخص الدولة العثمانية إلى ثلاثة أقسام :

- ١) تأليف الكتب الخاصة بتركيا والأترال .

⁽¹⁾ محمد خليفة حسن أحمد : مرجع سابق ، ص 44 .

⁽²⁾ سلمى أحمد : وعد بالغور ، ص 64 .

⁽³⁾ محمد عبدالفتاح عليان : مرجع سابق ، ج 2 ، ص 25 .

(٢) التشجيع على الحفريات والاكشافات الأثرية والقيام برحلات استكشافية.

(٣) التدريس في الجامعات التركية .

أولاً: بالنسبة لتأليف الكتب الخاصة بتركيا والأتراك ، ارتكزت على إظهار محاسن اللغة التركية والحس التركي بصفة عامة ، ومن أبرز رواد هذا المجال (آرثر ليملي ديفيدس^(١)) الذي كان له دور كبير في التأثير على المفكرين الأتراك. Arthur Lumley Davids لقد أدى إظهار مزايا الأتراك وأمجادهم ، ودور القبائل التركية في آسيا الوسطى إلى تعزيز روح القومية التركية في الدولة العثمانية ، إذكاء روح الطورانية ، وبالطبع بعد سقوط الدولة العثمانية لم يخف الاستشراق فرحته بما حصد من نتائج ، أهمها إبعاد الأتراك عن الإسلام والارتباط به عقيدة وثقافة وتاريخاً ، وإلغاء الخلافة الإسلامية واتخاذ الإجراءات الكثيرة المنافية لها . وقام عدد من المستشرقين في أوروبا وأمريكا بامتداح من أطلق عليهم المصلحون في تركيا ، وكتبوا فيهم كتبًا ومقالات مجدها فيها الانقلابات في تركيا والابتعاد عن الإسلام ، وشبهوا أتاتورك بـ (بمارتن لوثر) في إصلاحاته ، وبـ (جورج واشنطن) في علمانيته^(٢) .

وقد عرضت هذه الكتب الحياة التركية الجديدة بأسلوب المدح والإشادة بمزايا النظام الجديد ، والتركيز على ما اعتبروه من مساوى النظام القديم ، وترجمت هذه الكتب إلى اللغة التركية ، وما زالت متداولة حتى الآن مثل : الإسلام في تركيا الجديدة لـ (جارتارد جاسكي) .

Yeni Turkiyede Islamilik / Gottard Jaschke

ونشأة تركيا الحديثة لـ (برنارد لويس)^(٣)

(١) سأني الحديث عنه لاحقاً .

(٢) سهيل صابان : مرجع سابق ، ص 139 .

(٣) لويس : برنارد مستشرق إنجليزي ولد في لندن عام 1335هـ/1916م وحصل على الليسانس من جامعة لندن عام 1355هـ/1936م ثم دبلوم الدراسات السامية من جامعة باريس عام 1356هـ/1937م ، والدكتوراة من جامعة لندن عام 1358هـ/1939م ، وهو أستاذ الدراسات الخاصة بالشرق الأدنى في جامعة برنسون ، وعضو دائم بمعهد الدراسات المتقدمة في برنسون . تدرج ودرس في عدد من الجامعات منها جامعة لندن وكولومبيا ، عوضاً عن عضويته في عدد من المعاهد والجمعيات التاريخية مثل الجمعية التاريخية التركية ، وعضوأً أيضاً في وزارة الثقافة التركية . وله عدة مؤلفات ومقالات وأبحاث مثل: إسطنبول وحضارة الإمبراطورية العثمانية ، ملاحظات ووثائق من المحفوظات التركية ، والإسلام من النبي محمد حتى أسر=

ثانياً: أما بالنسبة للتشجيع على الحفريات والاكتشافات الأثرية ، فمنذ العقد الأول من عهد الجمهورية التركية أصبحت حفريات الآثار القديمة علمًا مستقلًا ، ينحصر فيه الطلاب، ويُعرف بالأنتوغرافيا Entografyia ، أي العلم الذي يدرس السلالات البشرية ، ومع زيادة حركة الكشوف الأثرية تحول من علم الآثار والمسكوكات القديمة إلى علم يدرس العلاقة بين الجماعات البشرية التي عاشت في الأناضول في الزمن السحيق من التاريخ ، وذلك من خلال الآثار التي ظهرت من الحفريات .⁽¹⁾

ومع تقدم الحفريات والاكتشافات الأثرية أصبح لهذا العلم مجلات متخصصة مثل مجلة أبحاث العالم التركي - الثقافة التركية - ومجلة بلتن التي تصدر منذ أكثر من نصف قرن وعلى درجة عالية من إتقان المعلومات ، وقد ارتكزت أهداف هذه المجلات على التعريف على أعمال الحفر في مختلف أنحاء الأناضول وبخاصة التي يقوم بها المستشرقون ، ونشر أبحاث مطولة عن أصل الترك .⁽²⁾

والهدف الأساسي للقائمين على هذه الحفريات إقناع الشعب التركي ، بما أراد (برنارد لويس) إقناعهم به ، وهو أن الإسلام حدث طارئ في حياة هذا الشعب ، وأن الحضارة التي أقامها الترك قبل الإسلام كانت حضارة عظيمة ، وبالتالي فإن الإسلام ليس عنصراً أساساً في تاريخ هذا الشعب .⁽³⁾

وهدف آخر يكمن في أن بعض المستشرقين يتيسر لهم القيام بأعمال جاسوسية لبلادهم بحجة الحفريات والبحث عن الآثار العتيقة ، فيتوصلون إلى المعلومات بسهولة واطمئنان ، وفي هذا الصدد ذكر السلطان عبد الحميد الثاني أن الإنجليز طلبو منه السماح لهم بالبحث عن الآثار القديمة في سوريا والهجاز ، وأن الحكومة الإنجليزية ستتكلف بتكليف

= القسطنطينية. عوضاً عن الأبحاث الكثيرة في الأدب والاقتصاد والسياسة في الإسلام ، ومقالات متعددة في دائرة المعارف الإسلامية عن التاريخ الإسلامي والدول الإسلامية . ولouis مستشرق معاصر جمع بين اليهودية ، وميله الشديد إلى الصهيونية وتكريس نفسه وأبحاثه لخدمتها ، ظل يتعامل مع النص التاريخي العربي والقديم ، وسجلات الضرائب العثمانية ، وعينه على الزحف الصهيوني المعاصر على الأراضي العربية ، ولم يدري من الإسلام وحضارته غير المفهوم الأمريكي للشرق الإسلامي. اتسمت كتاباته عن التاريخ العثماني بالعنصرية وتلقيق الأحكام . نجيب عفيفي : مرجع سابق ، ج 2 ، 143 – 145 . محمد جلاء إدريس : مرجع سابق ، ص 91 – 92 .

⁽¹⁾ سهيل صابان : مرجع سابق ، ص 142 .

⁽²⁾ لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامي ، تحقيق : شبيب أرسلان ، ج 4 ، د. ط ، القاهرة : الفكر العربي ، د.ت ، ص 175 .

⁽³⁾ سهيل صابان : مرجع سابق ، ص 142 . نقرأ عن برنارد لويس :نشأة تركيا الحديثة .

الحفر ، ثم طلبو السماح لهم بحفر آبار المياه للشعب الفقير في الحجاز ، ففطن السلطان عبد الحميد إلى أن غرضهم البترول .⁽¹⁾ ولم يوافق على الأمر ، إذ لم يهتموا يوماً بحفر آبار المياه للشعب الفقير .

ثالثاً : قام المستشرقون بالتدريس في الجامعات التركية وبخاصة في أقسام حساسة ، مثل (أرنست فون أستر Ernest Von Aster) في قسم الفلسفة بجامعة إسطنبول و (فون كاباين Von Kapayn)⁽²⁾ في جامعة أنقرة وكان متخصص في اللهجات التركية ، وعقب إنشاء جامعة إسطنبول شغل (اثنان وثلاثون) أستاذًا من الألمان اكثريتهم يهود مناصب قيادية في الجامعة .

ويقوم عدد آخر من المستشرقين بين الحين والآخر بإلقاء محاضرات دورية ، ويشارك في مؤتمرات لغوية وعلمية ، أمثال (برنارد لويس) الذي حاز على نفوذ كبير في الأوساط العلمية بتركيا ، فضلاً عن الدور الذي أداه في خدمة المخابرات البريطانية ، والدبلوماسية الغربية والاتصالات الوثيقة مع إسرائيل .⁽³⁾

إن اشتراك مثل هؤلاء المستشرقين في الجامعات التركية ساعد الاستشراق على نشر نفوذه الفكري في الأوساط العلمية وأعانه على قبول رأيه ومبادئه . أما الموضوعات التي تناولها هؤلاء المستشرقون فليست أعمالاً علمية قيمة تستحق المدح من قبل الأتراك ، وإنما موضوعات تافهة ، تلعب بمشاعر الناس وعواطفهم ، وتشجع على الانتماءات القومية وتقترب المجتمعات الإسلامية . وقد نتج عن هذه الموضوعات أن أنشيء في جامعة إسطنبول معهد التركيات 1342هـ/1924م ، وفي أنقرة مجمع اللغة التركية ، ومجمع التاريخ التركي ، وأنشئت في بعض الجامعات الأخرى مؤسسات مثل : معهد أبحاث الثقافة التركية ، ومؤسسة الحقوق التركية وغيرها من المؤسسات التي تبحث في ثقافة الأتراك وتاريخهم ، من خلال دراسات مجردة من الإسلام وأثر العثمانيين .

⁽¹⁾ السلطان عبد الحميد : مذكرات السلطان عبد الحميد ، ترجمة : محمد حرب ، ط 4 ، دمشق : دار القلم ، 1419هـ / 1998م ، ص 77 .

⁽²⁾ كاباين : فون مستشرق ألماني درس في جامعة برلين وتخصص في التركيات ، وبخاصة بعد أن درس في جامعة أنقرة ، وعندما عاد إلى ألمانيا درس في جامعة هامبورج اللغة والأدب التركي ، يعتبر من أكثر المستشرقين نتاجاً في تخصصه ، له كثير من المؤلفات في مجال التركيات باللغة الألمانية . سهيل صابان : مرجع سابق ، ص 145 .

⁽³⁾ سهيل صابان : مرجع سابق ، ص 145 .

ولا يزال المستشرقون على صلة وطيدة بما يجري على الساحة في تركيا اليوم ، وخاصة ما يخص المظاهر الإسلامية ، فمثلاً استغرب المستشرقون الألمان إصرار بعض الطالبات على ارتداء الحجاب ، وتفوق خريجي معاهد الأئمة والخطباء في الجامعات التركية ، وتخصيص حافلات النقل الجماعي للطالبات في مدينة قونيه ، وتخصيص بعض المستشفيات للنساء .⁽¹⁾

ويتضح مما سبق أن دور المستشرقين لم يتوقف عند تشويه التاريخ الإسلامي للدولة العثمانية ، والعمل على إسقاطها وإلغاء الخلافة الإسلامية ، بل إن أعمالهم تتطور باستمرار متذكرة أشكالاً جديدة ؛ للعمل على إسلامخ تركيا من الإسلام حالياً ، وإلحاقيها بالركب الأوروبي ، وكان ما حدث لم يخفف من حقدم على العثمانيين .

ونظراً لأهمية الدراسات الاستشرافية فقد كرست الدول الأوروبية جهوداً متواصلة لزيادة أعداد كراسي الاستشراق في كبرى الجامعات ، وبذلت الكثير لتطويرها وزيادة أعدادها بشكل مستمر ، وستنقى الدراسة - بإذن الله - الضوء على أعداد هذه الكراسي في الدول الغربية مرتبة حسب أهمية الدراسات الاستشرافية في الدول الأوروبية .

أولاً: فرنسا

إن علاقة الشرق بفرنسا تعود إلى فترة قديمة في التاريخ الإسلامي ، عندما وصلت جيوش المسلمين إلى جنوب فرنسا ، ومنها قامت علاقات تجارية وسياسية وعسكرية وأخيراً ثقافية ، ثم تطورت العلاقة في عهد الخليفة هارون الرشيد والملك شارلمان .⁽²⁾

ثم بدأت فرنسا تتقى الثقافة العربية في مدارس الأندلس وصقلية منذ القرن 12 م ثم جاء العهد الذي بدأ فيه إنشاء المدارس والمعاهد الخاصة بالدراسات الاستشرافية في فرنسا ، مثل مدرسة ريمس Reims بأمر من البابا (سفستر الثاني) ، ومدرسة شارتير Chartes ، ثم مدرسة الطب في مونبلييه التي وصلت شهرتها الآفاق وتوافد عليها الطلاب من كل صوب ، ثم جاءت مدارس أديرة الرهبان على تعدد رهبانهم ، واعترفت باريس بنقاية الأساتذة ، وهم نواة جامعة باريس .⁽³⁾

⁽¹⁾ سهيل صابان : مرجع سابق ، ص ص 145 – 147 .

⁽²⁾ عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص 104 – 105 .

⁽³⁾ نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 138 . الاستشراق . الموسوعة الحرة لخلق وجمع المحتوى العربي ، المعرفة ، =. http : // www. Marefa . org . 2008/6/28

هذه نواة المدارس والمعاهد في الفترة القديمة ، وقد شكلت الأساس الذي قامت عليه بعد ذلك الجامعات التي حوت بين كراميها كراسى لدراسة اللغات السامية والتراث الإسلامي.

ثم دعم البابا (هونوريوس الرابع) معهداً لتعليم اللغات الشرفية 1285هـ/1284م ، وقضى البابا (إكليمنس الخامس) في مجمع فينا 712هـ/1312م بإنشاء كراسى لدراسة اللغة العربية والعربية والكلدانية في العاصمة باريس ، روما ، أكسفورد ، بولونيا .

وبعدهما أنشأ في جامعة باريس كرسى للغات السامية ، وهو تتمة للقسم العربي في السوربون ، ثم أنشأت كرسى للدراسات الإسلامية وتاريخ حضارة العرب والفقه الإسلامي ، وأُلحق بالجامعة معهد للدراسات الإسلامية .

ثم أُسست جامعة تولوز 1217هـ/614م التي أنشأها رجال الدين ، وجامعة بوردو 1441هـ/845م إذ يوجد بها معهد الآداب للغة العربية والتمدن الإسلامي .

هذا بجانب جامعة السوربون Sorbonne 1258هـ/600م التي بدأت بهبة الأدب (روبرى سوربون) كاهن القديس (لويس) ، ثم جدد (الكردينال ريشليو) بناءها عام 1036هـ / 1626م ثم ضمها (نابليون) إلى جامعة باريس 1223هـ/1808م ، وعني معهد الآداب فيها Institut de literatures بتاريخ الفن الإسلامي ، وتاريخ الشعوب الشرقية ودراسة اللغة والحضارة العربية ، ثم أُلحق بمعهد الآداب معهد الدراسات الإسلامية معهد الدراسات Isianiques ودرس فيه التاريخ والدراسات الدينية .⁽¹⁾

وفي ما بين عام 1080هـ / 1670م - 1091هـ / 1680م ظهر اهتمام باللغ في الأدب الفرنسي بالدراسات العثمانية ، وبدأ الرحالة في نشر رحلاتهم لأراضي الدولة العثمانية.⁽²⁾

= ناظم الديراوي : صورة الإسلام في الاستشراق المبكر ، الحوار المتمدن ، العدد 1846 ، 2008/2/27 .
http://www.Ahewat.org..

⁽¹⁾ نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 138 – 139 . الاستشراق . الموسوعة الحرة لخلق وجمع المحتوى العربي ، المعرفة ، 2008/6/28 م ، http://www.Marefa.org.. بحث الاستشراق والمستشرقين ، شذرات ، 15 ، 2008/11/15 م ، http://www.Shatharat.net..
⁽²⁾ سهيل صابان : مرجع سابق ، ص 138 .

ثم جاء عصر الازدهار الحقيقي للاستشراق في القرن 13هـ - 14هـ / 19م - 20م ، ففي نهاية القرن 12هـ / 18م قامت الحكومة الثورية في باريس 1210هـ / 1795م بإنشاء مدرسة اللغات الشرقية الحية ، وبدأت حركة الاستشراق في فرنسا تأخذ طابعاً علمياً على يد (سلفستر دي سياسي) ت 1250هـ / 1838م والذي أصبح عميد المستشرقين في عصره ، وإليه يرجع الفضل في جعل باريس مركزاً للدراسات العربية ، وهدفاً للتلاميذ والعلماء من مختلف البلاد الأوروبية ليتلقوا على يديه .

لقد لون الاستشراق الأوروبي بصبغة فرنسية ، وشملت دراسة اللغة العربية وآدابها ، والتاريخ والجغرافيا في فترة لم يكن التخصص معروفاً في تلك الفترة ، فكان المستشرق يستطيع أن يكتب في كل ما يخص الإسلام والمسلمين.⁽¹⁾

وأصبحت مدرسة اللغات الشرقية في عهده الأنماذج الأمثل لمؤسسة الاستشراق العلمي والعلمي .⁽²⁾

وفي عام 1223هـ / 1808م أُسست جامعة ليون Lyon ، وفيها كراسي لغة العربية والأثار المصرية والتمدن الإسلامي .

كما وجد في السوربون قسم العلوم الدينية التابع للمدرسة العلمية للدراسات العليا في باريس الذي أسس عام 1285هـ / 1868م ، وهذا المعهد مختص بدراسات الإسلام والأديان السابقة لشبه الجزيرة العربية والفقه .

وأخيراً جامعة سترابورج عام 1289هـ / 1872م ودرس فيها Strasbourg تاريخ الشرق ، ثم تحولت إلى ألمانيا 1288هـ / 1871م فأشتهرت بكبار مستشرقيها كـ

⁽¹⁾ قاسم السامرائي : الفهرس الوصفي للمنشورات الاستشرافية ، جامعة الإمام سعود ، 1408هـ ، ص 9 . مدارس الاستشراق المدرسة الفرنسية ، 2009/2/1 . <http://www.Madinacenter.com>

⁽²⁾ محمود حمدي زقزوق : الأزمنة التي نشط فيها الاستشراق ، ص 205 .

(نولدكه Noldecka⁽¹⁾ وغيره من الأعلام حتى استعادتها فرنسا مرة أخرى عام 1336هـ / 1918م .⁽²⁾

يتضح مما سبق أن أغلب المعاهد والكراسي التي تناولت تاريخ الشرق والإسلام أسست بدعم من الكنيسة والباباوات ، وذلك يظهر بوضوح تام في إخضاع الدراسات لمقاييس معينة حتى تعطي النتيجة المطلوبة منها ، ثم إن تأثير القساوسة والباباوات على تأسيس هذه الكراسي يعطينا صورة واضحة عن أهدافهم في تشويه الإسلام والتاريخ الإسلامي .

ونشط الاستشراق الفرنسي قبل الحملة الفرنسية على مصر وبعدها ، فقد اصطحب نابليون بونابرت معه عدداً كبيراً من العلماء في المجالات المختلفة ليحدث موجة انبهار لدى المسلمين وعلمائهم بالحضارة الغربية ، ولزيزد في دراسة أوضاع المجتمعات الإسلامية ، وقد صدر عن هذه الحملة كتاب ضخمٌ بعنوان (وصف مصر) كما أنه زاد نفوذ البعثات العلمية في عهده ، وكانت تحت إشراف المستشرق الفرنسي (جومار Jomar) ، وقد أرسلت إلى تركيا وإيران والمغرب الأقصى بعثات مماثلة، ويقول الأستاذ (محمد الصباغ) في كتابه عن الابتعاث ومخاطرها إنَّ السبب في أن أولى البعثات العلمية قد وجهت من قبل إلى فرنسا أنها كانت أول الدول الأوروبيَّة التي اتخذت العلمانية منهج حياة ، وأن الفساد الأخلاقي كان ينتشر فيها أكثر من غيرها من الدول الأوروبيَّة .⁽³⁾

حتى إنَّ المشرف على البعثة المغربية كتب إلى السلطات الفرنسية لتسريح للمبعوثين بالبقاء في فرنسا مدة من الزمن بعد انتهاء مهمتهم ؛ ليتشبعوا بالحضارة الفرنسية وعظمة فرنسا ، ويقول المستشرق الإنجليزي (برنارد لويس): إنَّ المعلمين الفرنسيين الذين بعثتهم فرنسا لتدريب الجيش التركي حملوا معهم كتاباً مختاراً في الأدب والفكر ، كما أنَّ الطلاب المبعوثين شجعوا على قراءة كتب الأدب والثقافة.⁽⁴⁾

⁽¹⁾ تيودور : نولدكه يعتبر شيخ المستشرقين الألمان ، تمنَّع بذهن صافٍ له نشاط دائم واطلاع واسع على الآداب اليونانية ، وله كتابات عن تاريخ إيران وتركيا ، حصل على الدكتوراه في تاريخ القرآن ، ثم قام برحلات علمية ، وعكف على دراسة المخطوطات العربية ، تولى عدة وظائف مهمة منها أستاذًا في جامعة سترايبورج . توفي بعد أن ترك عدة أبحاث عن اللغات السامية القيمة . عبد الرحمن بدوي : مرجع سابق ، ص 595 – 598 عبد الحميد صالح حمدان : مرجع سابق ، ص 208 – 209 . يوهان فوك : مرجع سابق ، ص 225 – 228 .

⁽²⁾ نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 138 – 140 . عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص 105 .

⁽³⁾ مدارس الاستشراق . المدرسة الفرنسية ، 2009/2/1 . http://www.Madinacenter.com .

⁽⁴⁾ قاسم السامرائي : الفهرس الوصفي للمنشورات الاستراتيجية ، نفلاً عن المنوني في كتابه " يقطنة المغرب العربي الحديث " . Said Orientalism . مرجع سابق ، ص 9 .

أما عن دعم ملوك فرنسا ، فقد بذلوا بسخاء على الدراسات الاستشرافية لخدمة مصالحهم الاستعمارية ، فنجد الملك (فرانسوا الأول) أنشأ كرسياً للعربية والعبرية في ريمس عام 925هـ / 1519م وعهد إلى (جوستينيان) أسقف نيبوبيه، بإدارة هذا الكرسي والتدريس فيه ، وحاز الأخير على مكانة عالية ، ولم يكتف الملك بذلك ، بل أنشأ معهد فرنسا - كولبيج دي فرنس 937هـ / 1530م في السوربون College de France وأعد فيه كرسين للعبرية واليونانية ، وأضاف إليهما الملك هنري الثالث كرسياً للعربية 996هـ / 1587م ، ثم كلف الملك (لويس الثالث عشر) (جبرائيل) الصهيوني بتنظيم كرسي للعربية والسريانية فيه، وقدّه الأستاذية عليها . وإلى يومنا الحالي تقدم دراسات علمية عالية عن اللغة العربية والتاريخ الإسلامي .

ثم رأت حكومة فرنسا أن مقتضيات الدولة باتت في حاجة إلى علماء يتقنون اللغات السامية كتابة وخطابة ، طبقاً لخدمة أهدافهم الاستعمارية ، فألفت بعثة من فتيان فرنسا ، عرفت بفتیان اللغات وذلك بقرارات رسمية وقع عليها الملك (لويس الرابع عشر) خلال الأعوام التالية 1111هـ 1699م - 1131هـ 1718م / 1721م ، فأنفق هؤلاء الفتیان اللغات السامية من معاهد فرنسا ، ثم درسوا في مدرسة الشباب الملحقة بمعهد لويس الكبير على نفقة الملك الخاصة ، ثم أرسلوا إلى إسطنبول عاصمة الخلافة العثمانية للاستزادة ، وليختلطوا بال المسلمين حتى يسهل عليهم الكتابة والدرس فعمل هؤلاء في السلك الدبلوماسي ، وفي مجال الترجمة ، وعيّنا في المعاهد الفرنسية أساتذة للغات السامية .⁽¹⁾

وبجانب هذه الجامعات أنشئت عشرات المعاهد الدينية والقومية التي لم تخل من أقسام للدراسات العربية والإسلامية ، وهي من أهم المراكز الاستشرافية وعلى سبيل المثال :

(1) المدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية في باريس 1210هـ / 1795م Ecole Nationale des Langues Orientales Vivantes, Paris .

وكانَت خاصَّة بسفراء وقناصل وتجار الدول المتعاملة مع بلدان الشرق أسوة بالمدرسة التي أنشأتها الإمبراطورة (ماريا تيريز) في فيينا ، ثم أصبحت مركزاً علمياً لاماً في أوروبا يتواجد إليها الطلاب من ألمانيا وإنجلترا والسويد وإسبانيا وغيرها .⁽²⁾

⁽¹⁾ نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 139 . الاستشراف . الموسوعة الحرة لخلق وجمع المحتوى العربي ، المعرفة ، 2008/6/28 م ، http://www.Marefa.org . مؤتمرات المستشرفون . وسائل المستشرفين ، http://www.Eltwhed.com.

⁽²⁾ عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص 105 . نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ص 140 .

٢) معهد اللغات الشرقية بباريس 1303هـ / 1885م وكانت مهمته الأساسية الحصول على معلومات عن البلدان الشرقية وبلدان الشرق الأقصى ، مما شكل أرضية خصبة تسهل على المستشرقين عملهم ، وبالتالي تسهيل عملية الاستعمار في تلك المناطق .

٣) المدرسة الشرقية في إسطنبول 1217هـ / 1802م التي عنيت بخريج رجال السلك السياسي .

٤) معهد مصر بباريس أسسه (نابليون بونابرت) 1213هـ / 1798م Institut d Egypt .

٥) المعهد الكاثوليكي في باريس 1292هـ / 1875م ودرست فيه اللغة العربية ، واللغتان السريانية والقبطية. (١)

٦) معهد البحوث والدراسات حول العالم العربي والإسلامي .

Institut De Recherches Et D' Etudes sur le monde Arabe Et musnan :

ويعد هذا المعهد من أهم مراكز البحث العلمي حول العالم الإسلامي والعربي في فرنسا ، يشارك فيه عدد كبير من الأساتذة والباحثين ، وتعتمد ميزانية هذا المركز على المركز القومي للبحوث ووزارة البحث العلمي والتعليم العالي وبعض الوزارات المختلفة ، وذلك لتشجيع برامج البحث التي تهتم بالمجلات السياسية والتاريخ واللغات وغيرها ، ويهدف المعهد بهذه الدراسات إلى التعمق في المعرفة والتعريف بالأبعاد السياسية والتحديات والتطورات المتعلقة بالعالم العربي ، وبالأبعاد الثقافية والتاريخية أيضاً . (٢)

بالإضافة إلى تأسيس الجمعيات الخاصة بالمستشرقين ، حيث أُسست عام 1202هـ / 1787م جمعية فرنسية للمستشرقين ، وألحق بها أخرى عام 1236هـ / 1820م .

وكما أن السلطات الفرنسية أوجدت في بعض الدول الإسلامية والعربية التي احتلتها مدارس ومعاهد ، وزودتها بالمكتبات والمطبع و العلماء ، فأصدرت الكتب والمجلات بلغاتها ، وبالفرنسية في تونس والجزائر وهي :

(١) نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 104 . الإستشراق . الموسوعة الحرة لخلق وجمع المحتوى العربي ، المعرفة ، http://www.Marefa.org . 2008/6/28

(٢) بسام عمار . تدريس العربية في الجامعات الغربية ، 15/12/2008م http://www.Awu-dam.org مازن مطبقي : مرجع سابق ، ص 46 .

(٣) محمد البهبي : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ، ط 12 ، القاهرة : مكتبة وهبة ، د. ت ، ص 432 .

(١) المعهد الفرنسي للآثار الشرقية في القاهرة ، أنشأه ماسبيرو عام 1298هـ / 1880م

Institut Francais d' Archeologie oriental , au caire .

(٢) كلية (بورجاد) في تونس 1257هـ / 1841م أنشأها الأب بورجاد من الرهبان البيض ، ثم تحولت إلى معهد الأدب العربية عام 1356هـ / 1937م.

. Inst . des Belies letters Arabes .

(٣) معهد قرطاجنه عام 1313هـ / 1895م . Inst. Des Garthaga

(٤) معهد الدراسات العليا في تونس 1945 / 1365م Institut des Hautes

Etudes de Tunis .

أما الجزائر فقد أُسست فيها :

(١) مدرسة الآداب العالية عام 1299هـ / 1881م ، أنشأها Unirersite d' Alger تحولت إلى جامعة عام 1327هـ / 1909م تعنى باللغة العربية العصرية وعلم الآثار الإسلامية والتاريخ ، ثم أُلحق بها معهد للدراسات الشرقية .

وفي المغرب عملت فرنسا على تأسيس العديد من المدارس والمعاهد فيها: أُسست معهد للدراسات المغربية في الرباط عام 1350هـ / 1931م .

Institut des Houtes Etudes marocaines

كما أُسست المعهد الفرنسي في طهران عام 1368هـ / 1948م .

Institut franco - iranien de Teheran

وأُسست المعهد الفرنسي في دمشق عام 1341هـ / 1922م .

Institut Francais de Damas

ثم عملت فرنسا على تطوير التعليم الثانوي وأدخلت بعض المواد الجديدة عن حضارات الشرق ، وقد أصاب العرب والإسلام منها حظاً وافراً .^(١)

هذه المراكز التي أُسستها فرنسا في البلاد التي احتلتها يدل على حرص فرنسا على إخراج جيل مشبع بآراء وأفكار الغرب ، وحتى يكون تربة خصبة صالحة لزراعة أفكار الدراسات الاستشرافية ، وذلك لزعزعة قيم ومبادئ الإسلام الأصلية ، وبالتالي يفقد هذا

^(١) نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 141 . عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص 105-106 . الاستشراق . الموسوعة الحرة لخلق وجمع المحتوى العربي ، المعرفة ، 2008/6/28م ، . http : // www. Marefa . org .

الجيل إعجابه بالماضي وثقته بالمستقبل فيسير في ركب الحضارة الفرنسية دون اختيار ، وهو ما حدث اليوم وما نعانيه من حرب للأفكار الإسلامية ، ويجانب تلك المعاهد والمراکز الجامعات وجدت المكتبات المشهورة التي تقدم كثير من الخدمات للدارسين وتضم بين أروقتها كثيراً من المصادر الإسلامية والرسائل العلمية المتخصصة بالإضافة للمخطوطات والوثائق المهمة. ⁽¹⁾

لقد أنتجت فرنسا جيلاً من المستشرين ، وقد أتضح ذلك في تنصيب أعداد كبيرة منهم مستشارين في وزارة المستعمرات الفرنسية في شؤون شمال إفريقيا. ⁽²⁾

ثانياً: بريطانيا

يعد شعب بريطانيا من أكثر أمم الغرب توبيعاً واهتمامًا بحضارة الإسلام، وقد بدأ ذلك بشكل واسع منذ اتصال بريطانيا بالشرق الإسلامي والشرق الأقصى، اتصالاً عسكرياً استعماريًّا وثقافياً فكريًّا واقتصادياً ، في القدس والهند، والعراق ، ومصر ، والصين ، وأثناء ذلك اتخذ طابعاً علمياً ، بتوفير كل السبل للمستشرين.

ويرجع تاريخ حركة الاستشراق البريطاني إلى عام 1553هـ/158م أي بعد الحملة الصليبية الثانية بعده سنوات ، وبالأصح عندما وفد الفيلسوف الأسباني إبراهيم بن عزرا - يهودي - من مدينة طليطلة إلى لندن ودرس فيها ، إضافة للعلماء الذين قصدوا صقلية والأندلس ودرسووا الثقافة العربية ، مثل (توماس براون Thomas Bron) الذي عمل قاضياً في صقلية ، و (Roger Bacon) ، وهؤلاء درسووا العربية وأفادوا من صلتها باللغات السامية لتقسيم الكتاب المقدس ، مما حمل كبير الأساقفة (لود Laud) على إنشاء كرسي للغة العربية في جامعة أكسفورد ، و (إدموند كاستل Edmond Castel) من أوائل أساتذة اللغة العربية في كمبردج ، ومن أشهر مؤلفاته "قاموس مجمل للغات السامية" قضى في جمعه 18 عاماً ونشر عام 1080هـ / 1669م ، وتعمل جامعة كمبردج حالياً على تشجيع الجامعات لتوفير الدراسات الشرقية وتعديها .

⁽¹⁾ مثل مكتبة باريس الوطنية ، مكتبات الجامعات والمعاهد ، مكتبات المستشرين أنفسهم ، مكتبة الجامعة الآسيوية في باريس . وتصدر هذه المكتبات المجلات والدوريات والتي تتعلق بالدراسات الاستشرافية ومنها : المجلة الآسيوية ، مجلة تاريخ الأديان ، نشرة الجمعية اللغوية ، مجلة الشرق المسيحي ، الدراسات الإسلامية ، انظر : عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص 106 محمد البهري : مرجع سابق ، ص 432 .

⁽²⁾ عبد القادر طاش : الجذور التاريخية للصورة النمطية للإسلام والعرب في التراث الغربي ، ص 303 . يوسف الباز بلغيث . ماهية الاستشراق ، أسواق مربد ، 2008/1/26م ، <http://www.Merbd.net>

إن حركة الاستشراق في بريطانيا قوية ونشطة على مر السنين وكانت موجهة توجيهًا علميًّا مقتنًا لخدمة مصالح استعمارية وتصيرية ، وذلك بفضل ما توفر لها من تشجيع ودعم مادي ومعنوي .

وفي مطلع القرن 12هـ / 18م ، زاد ازدهار الاستشراق وخطا خطوات واسعة بفضل إنشاء كرسين جديدين للعربية في جامعتي أكسفورد وكمبردج على يد السير توماس آدمز ، واستدعاى التوسيع الاستعماري الأوروبي اهتمام العلماء لمعرفة كيفية استعمار الشعوب ، وقد أُنشئت في الهند عدة مدارس استشرافية لتدريب الموظفين للتعامل مع أهل تلك البلاد .⁽¹⁾

ويعد السير (وليم جونز) رائداً للدراسات الهندية في أوروبا ، بالإضافة إلى جمعيات استشرافية مثل الجمعية البنغالية التي أسست في بداية القرن 13هـ / 19م ، عندما زاد إقبال الطلاب على دراسة النصوص السنسكريتية⁽²⁾ في إنجلترا وفرنسا ، مما حثّ على مديرى الجامعات إنشاء قسم خاص بها في العلوم الشرقية ، وامتد أثر هذا القسم إلى ألمانيا في القرن 19م وغيرها من العواصم الأوروبية ، ومع نهاية القرن 19م استمر ازدهار الدراسات الاستشرافية مع زيادة كراسي الاستشراق ، وإصدار المجلات المتخصصة ، وتأسيس الجمعيات الآسيوية ، وإتاحة الفرصة لمعظم المستشرقين في زيارة الشرق الإسلامي ، فتوافد عليه أعداد كبيرة من الدارسين والرحالة والعلماء. وقد تناولت دراسة هؤلاء شتى الموضوعات في اللغات والأداب والفنون والعقائد والتاريخ والجغرافيا ، بالإضافة لحل رموز الآثار .⁽³⁾

وقد أسست مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية في أوائل القرن 20م عام 1335هـ / 1916م ، وقد انقل إليها بعض كبار المستشرقين مثل (توماس ووكر أرنولد) وغيرهما وقد استمرت هذه المدرسة في النمو والازدهار ، حتى أصبحت المركز الاستشرافي الأول في بريطانيا ، بل وتنافس أكبر المراكز الاستشرافية في العالم .⁽⁴⁾

⁽¹⁾ نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج 2 ، ص 429 ، 430 . عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص 112 .

⁽²⁾ السنسكريتية : أقدم لغة منطوقة اكتشفت إلى الآن ، تكلم بها أقوام العصر الحجري . أنور محمود زناتي . التحقيق من آراء المستشرق البريطاني مرجيليوث في اللغة العربية والشعر الجاهلي ، 31 / 10 / 2009م . <http://www.Doroob.com>

⁽³⁾ نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج 2 ، ص 430 – 431 .

Alastair Hamilton : William Bedwell The Arabist 1563 – 1632 . Leiden : 1985 – P . 69 .

⁽⁴⁾ ناصر عبد الرزاق الملا جاسم . تأسيس مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية ، جامعة الموصل ، 1 / 4 / 2009م . Alastair Hamilton : William Bedwell The Arabist – P 69 . www.Adabihail.com

وفي عام ١٣٦٥هـ / ١٩٤٥م شكل وزير الدولة للشؤون الخارجية لجنة لبحث وسائل وبرامج تعليم اللغات والثقافات الشرقية ، وقد أفادت الدراسات الشرقية من تنفيذ توصيات تلك اللجنة بفضل الزيادة الكبيرة التي أدخلتها على هيئات التدريس ، والمنح التي خصتها بالأقسام الشرقية .

وفي عام ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م انبثقت عنها لجنة أخرى طورت التدريس الجامعي وأوصت بتدريس تاريخ وجغرافية واقتصاديات دول آسيا وإفريقيا ، تدريساً مستوياً بدلاً من الاقتصاد على تعليم لغاتها ، واقترحت زيادة دراسات هذه المناطق دراسة خاصة ، ومما أسف عن تنفيذ التوصيات إنشاء مركز لدراسة هذه المناطق .^(١)

ويمكن ملاحظة نشاط حركة الإستشراف في بريطانيا بما توفر لها من تشجيع ودعم مادي ومعنوي ، وما صاحب هذه الحركة من إنشاء العديد من المراكز الاستشرافية ، وأهمها كراسى اللغات الشرقية .

ومن أبرز الجامعات التي تحتوي على كراسى الاستشراف :

(١) جامعة أكسفورد ٥٦٣هـ / ١١٦٧م Univ. of oxford

أنشئت على غرار جامعة باريس ، خصصت أول كرسي فيها للعبرية والعربية والكلDaniّة والسريانية ؛ وذلك نزولاً على قرار البابا (إكلينيكتس الخامس) في مجمع فيينا ، ثم أنشأ كبير الأساقفة (لود) كرسيّاً للغة العربية عام ١٠٤٦هـ / ١٦٣٦م. وفي القرن ١٨ أُضيف إليها كرسي آخر ، درس فيه اللغة العربية ، وتاريخ الشرق الأدنى الحديث والدراسات الإسلامية . لا زالت وهذه الكراسي تؤدي عملها إلى اليوم .^(٢)

(٢) جامعة كمبريدج ٦٥٥هـ / ١٢٥٧م Univ. of Cambridge

بدأت عملها في عام ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م عندما غادر ثلاثة طالب أكسفورد إلى كمبريدج ، وتعلموا اللغات الشرقية فيها. ثم استحدث السير (توماس أدامز Thomas) كرسيّاً للغة العربية فيها عام ١٠٤٣هـ / ١٦٣٣م ، وفي مطلع القرن ١٤هـ / ١٨ أُضيف إليها كرسي آخر تخرج منه كثير من المستشرقون ، ويوجد فيها

^(١) نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج ٢ ، ص ٤٣١ ، ٤٣٠ .

^(٢) نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج ٢ ، ص ٤٣٢ .

يوسف الباز بلخيث . ماهية الاستشراف ، أسواق مربد ، ٢٠٠٨/١/٢٦ . http://www.Merbad.het بحث الإستشراف والمستشرقين ، شذرات ، ٢٠٠٨/١١/١٥ . http://www.Shatharat.net

اليوم أساتذة ومحاضرون وقارئون نصوص عربية، ومحاضرون في التاريخ الإسلامي ، كما أنشيء فيها مركز للدراسات الحديثة عن الشرق الإسلامي ، وخصصت اللغة العربية الحديثة بأحد كراسيها عام 1381هـ / 1961م .

(3) جامعة لندن 1344هـ / 1828م Univ. of London أنشأت للغة العربية كرسيّا ، بالإضافة للوظائف الخاصة بالدراسات الشرقية ، وتصدر عن الجامعة مجلة تقافية اسمها أصوات ، تصدر باللغة العربية أربع مرات في السنة.

(4) جامعة دينام 1254هـ / 1838م Univ. of Dunam مدرسة الدراسات الشرقية وفيها أستاذة اللغات السامية ، وباحث للغة التركية . وهذه الجامعة تؤدي عملها إلى اليوم .

(5) جامعة فيكتوريا 1297هـ / 1880م في مانشستر Victoria Univ. of Manchester وفيها كرسي للغات الشرقية ، وكرسي للغات السامية .

(6) جامعة ليفربول 1321هـ / 1903م Univ. of Liverpool فيها كرسي للآثار المصرية ، وعنيت بآثار الشرق الإسلامي ، حيث أوفدت بعثة تنقيب إلى تركيا .⁽¹⁾

(7) جامعة برسيل 1327هـ / 1909م Univ. of Bristol

(8) مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية . 1335هـ / 1916م .

The School of oriental and African Studies

درست اللغات الشرقية ، ودرس فيها كبار المستشرقين ، وتصدر بإسمها نشرة كل ثلاثة شهور .

(9) جامعة هال 1374هـ / 1954م Univ. of Hull

أما عن إسكتلندا فقد وجدت فيها أيضاً الجامعات التي اهتمت بالدراسات الشرقية .

(10) جامعة سانت أندروز 814هـ / 1411م Univ. sant Andrews درست العربية لغة وأدباً .

⁽¹⁾ نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج 2 ، ص 432 - 434 . يوسف الباز بلغيث . ماهية الاستشراق ، أسواق مرید ، 2008/1/26 . ناظم الدبراوي : صورة الإسلام في الاستشراق المبكر ، الحوار المتن Denis ، http://www.Merbad.het . العدد 27 ، 2008/2/1846 ، http://www.Ahewar.org .

- (11) جامعة جلاسكو 1451م / Univ. of Glasgow يوجد بها محاضر للدراسات الإسلامية والعربية .
- (12) جامعة أدنبرة 991هـ / Univ. Edinburg وفيها باحث للعربية ، ومحاضر للتركية .⁽¹⁾

ومن أهم المراكز الحديثة في لندن التي تعنى بدراسات الشرق الإسلامي "مركز دراسات الشرق الأدنى والأوسط" ، و "مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن" وأنشئ هذا المركز عام 1386هـ / 1966م بهدف تشجيع الدراسات والبحوث وتبادل الرأي حول الشرق الإسلامي.⁽²⁾

وبالتأكيد هذه الدراسات والأبحاث كثيرةً ما أفادت المستشرقين ، وقدمت لهم المعلومات اللازمة لأعمالهم الاستشرافية ، وبالتالي تقديم خدمات عظيمة للاستعمار . وعنيت بريطانيا بتأسيس كثير من المراكز الاستشرافية في المقاطعات الاستعمارية ودول الكومنولث التابعة لها ، حيث يوجد مراكز في كلٍ من كندا ، واستراليا ، ونيوزلندا ، وماليطا ، والسودان ، وجنوب إفريقيا ، والهند ، ومصر ، وتحوي بريطانيا أكبر مجموعة من مصنفات العلوم الإسلامية والعبرية ، وما يتعلّق بتاريخ الشرق وحضارته ، بالإضافة إلى مجموعات الكتب في المتحف البريطاني ، ومكتبة لندن ، بالإضافة إلى تأسيس بعض من المستشرقين البريطانيين لعدد كبير من الجمعيات الاستشرافية ، وإصدار الحوليات والمجلات الاستشرافية ؛⁽³⁾ وذلك نظراً لعدد البلاد التي ابتعتها في الاستعمار ونهبت ثرواتها . إن الاستشراق البريطاني والفرنسي خاصة كان هدفه تشويه صورة الحكم العثماني ؛ لتهيئة أذهان الشعوب بعدم أهلية العثمانيين لحكم البلاد الإسلامية وبذلك تخف المقاومة للاستعمار ، ولا يعني هذا عدم وجود مقاومة وإنما يعني أن الشعوب لا يناسبها الحكم العثماني ، بالإضافة إلى أنها لا تستطيع حكم نفسها ، وبالتالي تأتي بريطانيا وفرنسا في صورة الفارس المنقذ ، كما حدث في بلاد الشام ودخول فرنسا إليها ومصر وبقاء البريطانيين فيها .

⁽¹⁾ نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج 2 ، ص 434 . يوهان فوك : مرجع سابق ، ص 296 . مؤتمرات المستشرقون . وسائل المستشرقين ، 25/12/2008م ، <http://www.Eltwhed.com> .

⁽²⁾ مازن مطبقاني : مرجع سابق ، ص 47 .

⁽³⁾ عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص 113 . مدارس الاستشراق . المدرسة البريطانية ، 1/2009م . <http://www.madinacenter.com>

ثالثاً : روسيا

بدأت الصلات الروسية ببلاد الإسلام منذ العصر العباسي الأول عن طريق التجارة في بغداد وعن طريق الزوار الروس النصارى إلى بيت المقدس ، وبعد سقوط إمبراطورية المغول اتصلت روسيا بال المسلمين ودخلت أعداد كبيرة منهم في دين الإسلام ، وبعدها ازداد الاهتمام بالإسلام واللغة العربية .⁽¹⁾

ومع قيام روسيا القيصرية وبداية سياستها التوسعية زادت رغبتها في اقتناص ممتلكات الدولة العثمانية ، ودخولها في معارك وأحلاف صلبة ضد العثمانيين ، ولم تصل إلى مبتغاها فظهرت الحاجة بوضوح للدراسات الاستشرافية لوضع الخطط لكيفية ضرب العثمانيين فكريًا وعقائديًا فأدخلت الجامعات السوفياتية عام 1219هـ / 1804م مراكز الاستشراف ضمن كلياتها المعترف بها ، وأدرجت اللغات العربية والفارسية والتركية في مناهجها .

ومن الجامعات التي تحتوي على كراسى الاستشراف :

(1) جامعة خاركيف 1219هـ / 1804م Univ. Kharkov

تعتبر أول جامعة روسية تطبق النظام الجامعي بتدريس اللغة العربية ، وأشرف عليها كبار المستشرقين أمثال (كريمسكي).⁽²⁾

(2) جامعة قازان 1219هـ / 1804م Univ. Kazan

بدأت بتدريس العربية 1222هـ / 1807م عندما استدعى قيصر روسيا المستشرق الألماني (فران Fran) ، وعهد إليه بقسم اللغات السامية ، وتطور الكرسي حتى انبقت عنه عدة كراسى للعربية والتركية والفارسية ، وتدرس فيها اليوم اللغة العربية وآدابها وتاريخها .

(3) جامعة موسكو 1169هـ / 1755م Univ. moscon

أنشئ فيها معهد الألسنية عام 1226هـ / 1811م فوجه عنايته إلى اللغات الشرقية والأدب العربي ، وازدهرت الدراسات العربية فيه ازدهاراً فريداً.

(4) كلية لازاريف 1230هـ / 1815م Univ. Lazarev

⁽¹⁾ عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص 115 . أغناطيوس كراتشوفسكي : من تاريخ الاستشراف في الاتحاد السوفيتي ، ترجمة : أنا دولينينا ، سلسلة كتب الثقافة المقارنة ، العدد 2 ، فبراير 1987م ، ص 56 - 59 .

⁽²⁾ كريمسكي : 1288هـ - 1360هـ / 1871م - 1941م . ولد في أوكرانيا ، وتخرج من جامعة موسكو عام 1314هـ / 1896م ، رحل إلى سوريا وأهتم باللغات العربية والتركية والفارسية ، عين أستاذًا للعربية وآدابها في كلية لازاريف ، وللعربية في قازان ، وترأس الدراسات العربية في فاركوف ، له عدة مصنفات عن العرب واللغة والتاريخ والدين والنقد الأدبي. نجيب عقيلي : مرجع سابق ، ج 3 ، ص 81 .

في موسكو ، حيث أنشأتها عائلة (دي لازاريف) ، وهي من أعرق أسر الأرمن ، حيث اتصلوا ببلاط روسيا القيصرية فشملوها برعايتها ، وفي البداية كانت مدرسة فقط لتعليم أبناء الأرمن لغتهم ، ثم طارت شهرتها إلى تركيا وإيران والهند ، وانحصرت رسالتها في إعداد موظفين وترجمة للشرق الأدنى ، ودرست العربية بجانبالأرمينية .

(5) جامعة بطرسبرج 1235هـ / 1819م Univ. Petersbourg

تدرس العربية لمدة أربع سنوات ، يتقى فيها الطلاب سوراً من القرآن الكريم وقواعد اللغة العربية وأمثال لقمان ، ثم يتعلمون من خلال مختارات كتب المستشرق دي ساسي التي كانت مشوهة ومدسوساً عليها الكثير من الافتراء، فهي لا تعبر عن صدق أصالة الإسلام ، أمثال ملخصات رسائل إخوان الصفا ، وألف ليلة وليلة ، ومقامات الحريري ، وكليلة ودمنه وغيره .

وأنشئت فيها كلية للغات الشرقية – العربية والتركية والفارسية والعبرية – ثم أنشئت فيها شعبة لتدريس تاريخ الشرق الإسلامي .⁽¹⁾

وقد اهتمت روسيا بالدراسات الاستشرافية ، ووفرت لها الدعم المادي والمعنوي ، وذلك لرغبتها الشديدة في اقتناص ممتلكات الدولة العثمانية والقضاء عليها ، وبالإضافة للجامعات أسست روسيا المعاهد مثل معهد اللغات الشرقية في ليننغراد ، وجمعية المستعربين ، ومعهد المركز للغات الشرقية الحية بموسكو عام 1338هـ / 1920م ، وجمعية المستشرقين الروسية في موسكو أيضاً 1341هـ / 1922م التي تصدر مجلة الشرق الجديد ، ثم توسيع كلية التاريخ واللغة والأدب بجامعة موسكو بتدريس التاريخ واللغات والأداب العربية والتركية والفارسية . ويوجد في روسيا أيضاً الكثير من المكتبات التي تضم مئات الكتب العربية والإسلامية .⁽²⁾

⁽¹⁾ نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج 3 ، ص 55 – 56 . الاستشراق . الموسوعة الحرة لخلق وجمع المحتوى العربي ، المعرفة ، 2008/6/28 م . . http://www.marefa.org . . أغناطيوس كراتشوفسكي : مرجع سابق ، ص 59 . الاستشراق الروسي . الاستشراق الجامعي ببطرسبورغ ، كراسي الاستشراق في روسيا ، 2008/8/20 ، 132 – 135 . 85 . 20g .

الاستشراق الروسي . مصادر الاستشراق الروسي ، 2009/5/7 ، www.Awa-dam.org . . محمد سليمان حسن . كراتشوفسكي والشرق الإسلامي ، 2008/8/17 . http://www.awu-dam.org . . مثل المكتبة الإمبراطورية العامة ، المتحف الأسري ، ومكتبة ليننغراد . نجيب عقيقي: مرجع سابق ، ج 3 ، ص 56 . الاستشراق الروسي . الاستشراق الجامعي ببطرسبورغ ، كراسي الاستشراق في روسيا ، 2008/8/20 ، 132 . 85 . 20g .

واهتم المستشرقون الروس بإصدار عدد كبير من المجلات والfolios التي تعنى بالإسلام ولغة العربية وآدابها .⁽¹⁾

رابعاً إيطاليا

قامت حركة علمية واسعة تعنى بدراسة حضارة الإسلام في إيطاليا عن طريق الترجمة والحفظ والتأليف والنشر وتعليم اللغات الشرقية ، وذلك بتوجيهه من الفاتيكان ومقام البابوية المعادية للإسلام التي قدمت الدعم المادي الكبير لإنشاء الجامعات والمعاهد والمدارس ، وعملت على تأسيس المطبع وإصدار الكتب والدوريات ، ومن هذه الجامعات والمعاهد :

(١) جامعة بولونيا 1118هـ / 1706 م Univ. Bologna واحتضنت بالاهتمام بعلوم العرب والمسلمون .

(٢) جامعة نابولي 261هـ / 1224 م Univ. Napili التي اهتمت بثقافة المسلمين والعرب .

(٣) جامعة روما 646هـ / 1248 م Univ. Roma التي اهتمت بدراسة الآثار والتاريخ واللغة والأدب العربية .

(٤) جامعة فلورنسا 721هـ / 1321 م Univ. Firenze .

(٥) الجامعة الغريغورية 961هـ / 1553 م التي ركزت على الدراسات الإسلامية والقانون الإسلامي .⁽²⁾

أما عن المدارس والمعاهد فقد أُسست من قبل البابوات ، وأدت عملها تحت إشراف كنسي صرف لتوجيه الدراسة لمصلحة الكنيسة في روما التي كان شغلها الشاغل القضاء على الإسلام ، ووأد الفتوحات العثمانية ، وقد قادت الحملات الصليبية ضد العثمانيين ، وأيضاً دعمت الاستشراق للقضاء على الوجود الإسلامي العثماني في أوروبا ؛ ولله الحمد من انتشاره .

⁽¹⁾ مثل عالم الإسلام ، والآداب العالمية ، العالم الشرقي. انظر : عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص 116 .

⁽²⁾ نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 405 . عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص 109 . الاستشراق الروسي . الاستشراق الجامعي ببطرسбурغ ، كراس الاستشراق في روسيا ، 2008/8/20 م . http://20g.85.135.132 . الاستشراق المدرسة الإيطالية ، 2009/2/1 م . http://www.Madinacenter.com .

وبالنسبة للمدارس :

(١) أنشأ البابا (غوريغوريوس الثالث عشر) المدرسة المارونية في روما ٩٩٢هـ / ١٥٨٤ م .

(٢) كلف مجمع الإيمان الراهبات بتأسيس مراكز للغات الشرقية في روما فعين الأب (جارديان الفرنسيسكاني) من القدس أول أستاذ للعربية .

(٣) مركز نابولي عام ١١٤٠هـ / ١٧٢٧ م .

وفي عام ١٣٠٦هـ / ١٨٨٨م أسس فيها كرسي لتدريس العربية والتركية .

أما المعاهد :

(١) معهد الدراسات الشرقية بكلية الآداب بجامعة روما ١٣٢٣هـ / ١٩٠٥م . ولها مجلة الدراسات الاستشرافية .

(٢) المعهد الإيطالي لإفريقيا ١٣٢٤هـ / ١٩٠٦م ، وهو خاص بحفظ الوثائق .

(٣) المعهد البابوي لكتاب المقدس ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م ، وبه كلية لدراسات الشرقية .

(٤) المعهد البابوي للشرق ١٣٣٧هـ / ١٩١٨م .

ويعنى بدراسة التركية والنظم الإسلامية ، وألحقت به مكتبة غنية بالمخطوطات العربية النادرة .

(٥) المعهد الشرقي ١٣٣٩هـ / ١٩٢٠م .

يعنى بتعريف الشرق الإسلامي ، ولديه مكتبة ثمينة وفصول لتعليم العربية والتركية .

(٦) مؤسسة كاباني ١٣٤٣هـ / ١٩٢٤م .

تعنى بالدراسات الإسلامية ، وتعاون مع مجمع لنشأي لنشر المصنفات والمدونات والأبحاث المتعلقة بالشرق الإسلامي .^(١)

إن هذه المؤسسات التعليمية توضح مدى الاهتمام بالاستشراق في إيطاليا خلال القرن ١٨ - ١٩م حيث ازداد تنظيم الدراسات الشرقية ، وخصوصاً في تدريس اللغات الذي عهد به إلى كبار المستشرقين ، كما كان هناك اهتمام بالحوليات التي تهتم بالشرق.^(٢)

^(١) نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٤٠٧ - ٤٠٨ .

^(٢) مثل الشرقيات ١٣٣٩هـ / ١٩٢٠م ، مجلة فلسطين ١٣٤٢هـ / ١٩٢٣م ، Orientalia Pulestina ، مجلة الشرق والغرب . East and West ١٣٥٤هـ / ١٩٣٥م .

ونتيجة لهذا الاهتمام بحركة الاستشراق وجدت الحاجة إلى إنشاء المطبع الشرقي

(¹) مثل مطبعة البندقية 874هـ / 1469م ، ومطبعة فانو 920هـ / 1514م.

ونلاحظ أن الاستشراق في إيطاليا نشأ أولًا بتدعم الكنيسة والبابوية ؛ وذلك لدعم اتجاهها في القضاء على الدولة العثمانية ، وإيقاف المد الإسلامي إلى أوروبا ونشر نفوذ المسيحية ، وبالتالي نفوذ البابا المنحرف .

خامسًا: هولندا

بدأ اتصال هولندا بالعالم الإسلامي عندما نشط الغرب في الدراسات الاستشرافية ، فاستعان الهولنديون بتحقيق تراثه وتاريخه ، فتخرج المستشرقون الذين وضعوا المؤلفات ، وتعاونوا على إصدار المجموعات الخاصة ، وقد آثروا نشر مؤلفاتهم في مطبعهم الخاص ، حتى غدت هولندا ولا سيما جامعة ليدن بمكتبتها ومطبعتها من أشهر مراكز الاستشراق العالمي . (²) وهذه الأخيرة تولت الإشراف على طباعة دائرة المعارف الإسلامية ، حتى إن أول المشرفين على المواد العثمانية كانوا هولنديين .

وأولى المحاولات العلمية الجادة للتعرف على الإسلام جاءت على يد المستشرق الهولندي (هادريان ريلاند Hadrian Renald) ت 1131هـ / 1718م " فقد وضع كتاباً باللاتينية عن الإسلام في جزءين بعنوان " الديانة المحمدية " ، وصدر الكتاب في عام 1117هـ / 1705م ، وقد أثار هذا الكتاب اهتماماً عظيماً لدرجة أدت إلى إثارة الشبهات حول المؤلف بأنه يريد القيام بعمل دعائي للإسلام ، ومن أجل ذلك أدرجت الكنيسة الكاثوليكية الكتاب في قائمة الكتب المحرّم تداولها . (³)

وعلى الرغم من تحريم الكنيسة لتداول هذا الكتاب ، إلا أنه بلا شك احتوى على كثير من الافتراضات والتشويه والدس على الإسلام ، وأول نقد يوجه إليه تسمية الكتاب بالديانة المحمدية ؛ فهي لم تكن ديانة باسم سيدنا محمد ﷺ أو لقومه العرب فقط وإنما للبشر جميعاً ، وهي رسالة سماوية من عند الله ﷺ ، وسيدنا محمد نبي مرسى ، وعليه لم تكن قط ديانة محمدية باسمه ، وإنما دين الإسلام ، أي السلام بين الناس ، وهو ما تفقده أوروبا.

(¹) عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص 110 .

(²) نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج 2 ، ص 644 .

(³) محمد حمدي زقزوقة : الأزمنة التي نشط فيها الاستشراق ، ص 204 . مدارس الاستشراق . المدرسة الهولندية ، 2009/2/1
<http://www.Madinacenter.com>

ثم إن الكنيسة عندما حرمت تداول الكتاب أصبح ذلك أقرب إلى الدعاية للكتاب ، فتسابق الناس للحصول عليه وقراءته ، وربما وصل الأمر إلى التأثر بما جاء فيه .

ومما يميز الاستشراق الهولندي وجود مؤسسة برك التي تولت طباعة الموسوعة الإسلامية ونشرها في طبعتيها الأولى والثانية ، وتقوم هذه المؤسسة بطباعة كثير من الكتب حول الإسلام والمسلمين .⁽¹⁾

انتشرت كراسى الاستشراق في الجامعات الهولندية :

(1) جامعة ليدن 983هـ / 1575م :

أنشأت كرسياً للعربية عام 1022هـ / 1613م ثم استحدثت وظيفة مترجم للتراث الشرقي ، ويوجد في الجامعة اليوم كرسى للعربية والدراسات الإسلامية ، ومدرس للعربية الحديثة ، وأستاذ للتركية .⁽²⁾

ومن أهم المستشرقين في هولندا في القرن 17م (توماس أرينيوس Thomas Arineous 992هـ - 1034هـ / 1584م - 1624م) ، كان أول أستاذ يشغل كرسى اللغة العربية في جامعة ليدن 1022هـ / 1613م ، والذي كان لجهوده العلمية ومؤلفاته في النحو العربي الأثر في جعل هولندا في مكان الصدارة في الدراسات العربية في أوروبا ما يقرب من قرنين .⁽³⁾

(2) جامعة جروننجن 1023هـ / 1614م Univ. Groningen

وفيها أستاذ للعربية واللغات السامية ، ومن بينها الآداب العربية وتاريخها .

(3) جامعة أمستردام البلدية 1042هـ / 1632م Univ. Amsterdam وبها أستاذ للعربية.

(4) جامعة أوترخت 1043هـ / 1633م Univ. Utrecht

ويوجد بها محاضر للعربية والدراسات الإسلامية .

(5) جامعة أمستردام الكلفنية الحرجة 1297هـ / 1880م . Univ. Amsterdam يوجد بها كرسى لتدريس العربية وتاريخ الإسلام .

⁽¹⁾ قاسم السامرائي : الاستشراق بين الموضوعية والافتراضية ، ط1 ، الرياض ، 1403هـ ، ص103 .

⁽²⁾ نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج2 ، ص 645 .

⁽³⁾ محمود حمدي زقزوق : الأئمة الذين نشط فيها الاستشراق ، ص 204 .

(6) جامعة نيجميجن الكاثوليكية 1342هـ / 1923م Univ. Nijmeyen

و فيها كرسي للعربية والدراسات الإسلامية .

هذا عن الجامعات أما المعاهد فيوجد :

(1) المعهد الشرقي لدراسة الشرق والإسلام .⁽¹⁾

ومع اقتراب القرن الواحد والعشرين أصبح لهولندا مركز للبحوث والدراسات العربية والإسلامية في مصر ، وقد تولت جامعة ليدن تنظيم مؤتمر عالمي حول الإسلام في القرن 15هـ / 21م بالتعاون مع وزارة الشؤون الدينية الإندونيسية ، وقد بحث المؤتمر أوضاع العالم الإسلامي في القرن 21م .⁽²⁾

سادساً: ألمانيا

بدأ اهتمام ألمانيا بحضارة الإسلام منذ الحملة الصليبية الثانية 542هـ-544هـ / 1147م - 1149م وعودة حجاجها من بيت المقدس واصفين وناقلين شيئاً من حضارة الإسلام ، ثم جاءت مرحلة ترجمات الرهبان ورجال الدين - وبعضهم ألمان - للكتب العربية، وميل (فردرريك الثاني) ملك صقلية ثم إمبراطور ألمانيا للإسلام وتفضيله على الكنيسة ، وقد لمس العلماء الألمان أهمية الحضارة الإسلامية وفائدة دراستها عن طريق النمسا عندما أنشأت مدرسة على غرارها في برلين 1305هـ / 1887م ، وجمعت المخطوطات العربية في مكتباتها واهتمت بمخطوطات التاريخ الإسلامي ، فظهر كتاب المغازي للواحدي محققاً بالألمانية ، بالإضافة إلى تحقيق كتاب الطبرى ، ثم ظهرت جهود بروكلمان في كتابة " تاريخ الأدب العربي " .

كما ظهر تأثر المفكرين الألمان بالدراسات العربية الإسلامية منذ فترة مبكرة فقد ثبت أن (مارتن لوثر) كان من الذين تأثروا بالفكر الإسلامي حينما تمرد على الكنيسة الكاثوليكية في روما ، ولكن موقف (لوثر) كان عدائياً جداً من الإسلام وبخاصة. الدولة العثمانية .⁽³⁾

⁽¹⁾ نجيب عققي : مرجع سابق ، ج 2 ، ص 645 - 646 . مدارس الاستشراق . المدرسة الهولندية ، 1/2009م .
<http://www.Madinacenterr.com>

⁽²⁾ قاسم السامرائي : الاستشراق بين الموضوعية والافتراضية ، ص 103 .

⁽³⁾ نجيب عققي : مرجع سابق ، ج 2 ، ص 268 . عبد الكريم علي الباز : افتراطات فيليب حتى وكارل بروكلمان على التاريخ الإسلامي ، د. ط ، جدة: تهامة للنشر ، 1403هـ / 1983م ، ص 28 . مدارس الاستشراق . المدرسة الألمانية ، 1/2009م ،
<http://www.Madinacenter.com> .

ثم تأثر كثير من المستشرقين الألمان بمنهج المستشرق الفرنسي (رينان دي ساسي Renan De Sasi) ولكن مصطبع بالصبغة الألمانية ، وتتلمذ على يديه كثير من مؤسسي الدراسات الاستشرافية العربية في ألمانيا ، ومن أشهرهم (فلايشير Flaysher) . الذي عمل أستاذًا للغات الشرقية في جامعة جوتجين ، وقد تخرج منها كبار المستشرقين الذين أسهموا بنصيب وافر في توسيع أفق الدراسات الاستشرافية في ألمانيا وفهروسو المخطوطات التي تناولتها الدراسات الشرقية الإسلامية في المكتبات ، وأسسوا المطبع والجمعيات والمجلات ، وعملوا على نشر أعمالهم.^(۱)

ومن كراسي اللغات الشرقية في الجامعات الألمانية ما يلي :

(۱) جامعة هايدلبرج 788هـ / 1386م

(۲) جامعة كلون 790هـ / 1338م

(۳) خورز بورج 508هـ- 990م/ 1402هـ- 1582م.

(۴) جامعة بون 1201هـ- 1320هـ / 1786م - 1902م

(۵) جامعة برلين 1224هـ / 1809م .

(۶) جامعة مونستر 1320هـ / 1902م .

(۷) جامعة ارنجبين 1156هـ / 1743م

(۸) جامعة ليزيج 812هـ / 1409م

(۹) جامعة رستوك 822هـ / 1419م .

(۱۰) جامعة جرافسفالد 861هـ / 1456م .

(۱۱) جامعة ميونيخ 877هـ / 1242هـ / 1472م - 1826م .

(۱۲) جامعة ماينس 881هـ - 1366هـ / 1476م - 1826م

(۱۳) جامعة توبنجين 882هـ / 1477م

^(۱) نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج 2 ، ص 678 - 679 . ظاهر يوسف . الاستشراق الألماني إلى أين ، مجلة التراث العربي ، العدد 68 ، 68 ، 2008/4/21م . <http://www.Dahsha.Com>

الاستشراق . الموسوعة الحرة بخلق وجمع المحتوى العربي ، المعرفة ، 2008/6/28م . <http://www.marefa.org>

(١٤) جامعة هاله 908 هـ - 1502 م / 1694 م Univ Halle

(١٥) جامعة ماربورج 934 هـ / 1527 م Univ. Mabburg

(١٦) جامعة جينا 966 هـ / 1588 م . Univ. Jena

(١٧) جامعة جيسن 1016 هـ / 1607 م . Univ. Giessen

(١٨) جامعة كيل 1076 هـ / 1665 م . Univ. Kiel

(١٩) جامعة جوتجين 1149 هـ / 1736 م Univ. Gottingen

إن هذا العدد من كراسى الاستشراق له دلالة واضحة على مدى اهتمام ألمانيا بالدراسات الاستشرافية ؛ لما تعود به من معرفة كاملة عن كيفية استعمار الشعوب الإسلامية، وإزالة أي أثر للدولة العثمانية في أذهان المسلمين حتى لو كان معنوياً .

ومن المعاهد والمدارس التي اهتمت بتعليم اللغة العربية وبعض اللغات الشرقية :

(١) معهد اللغات الشرقية 1305 هـ / 1887 م

أسسه (زاخاو) في برلين ، فأصدر سلسلة من الكتب المدرسية أرست القواعد الأساسية لتعليم اللغة العربية . ومن أهم من تخرجوا منها (مارتن هارتمان)^(٢) ، وله عدة مقالات في دائرة المعارف الإسلامية خاصة بالتاريخ العثماني .

(٢) مدرسة للدراسات الإسلامية والإفريقية في هامبورج .

(٣) وتهتم مراكز الاستشراق في ألمانيا بإصدار عدد كبير من الholiات والنشرات . اهتم المستشرقون الألمان بإعداد الفهارس وحفظ المخطوطات ، وإعداد قوائم عامة للمراجع والكتب الإسلامية والعربية ، وهي موجودة في معظم مكتبات المراكز الاستشرافية ،

^(١) نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج 2 ، ص 678 ، 679 . ظاهر يوسف . الإشتراق الألماني إلى أين ، مجلة التراث العربي ، العدد 68 ، 2008/4/21 م . http://www.Dahsha.Com

الاستشراق . الموسوعة الحرة بخلق وجمع المحتوى العربي ، المعرفة ، 2008/6/28 م . http://www.Dahsha.Com

^(٢) سيتم تعريفه لاحقاً .

^(٣) أصدر المستشرقون الألمان مجلة خاصة بهم عام 1258 هـ / 1842 م ، المجلة الآشورية التي أسسها (كارل بستولد) ، مجلة الآداب الشرقية 1316 هـ / 1898 م أسسها (فيликس باير) ، مجلة الجمعية الألمانية للدراسات الفلسطينية تصدر عن معهد اللغات في برلين ، مجلة الإسلام 1339 هـ / 1920 م ، أنشأها الوزير (كارل هنريش بيكر) وهي تصدر عن الجمعية الألمانية في هامبورج . انظر : محمد البهبي : مرجع سابق ، ص 432 . عدنان محمود وزان : مرجع سابق ، ص 108 .

أمثال مكتبة برلين الوطنية في جوتجين ، وفي هايدلبرج.⁽¹⁾

إن هذه القوائم تتيح لهم سرعة الرجوع لأي موضوع من أي كتاب ، وهذا يعني سهولة في الآراء ، وسرعة في الإنتاج ؛ لأن كل شيء في متناول أيديهم .

وقد ازدهرت الدراسات الاستشرافية في أعقاب الحرب العالمية الثانية وازداد الإقبال عليها ، مع زيادة عدد المشغلين بها من طلاب ومدرسين وباحثين ، وأصبح لها في جامعات ألمانيا الغربية وحدها 35 أستاذًا و 36 مدرساً، 15 محاضراً ، ومجلسان علميان ، ويقبل الطلاب على اختلاف مناهجهم ، ولا سيما الخاصة بالعالم العربي ، والشرق الأدنى ، ولا أدل على ذلك من تزايد الجمعيات الشرقية في ألمانيا مثل الجمعية الشرقية الألمانية التي تأسست عام 1262هـ / 1845م .⁽²⁾

سابعاً: الولايات المتحدة الأمريكية

دخلت الولايات المتحدة الأمريكية مجال الدراسات الاستشرافية متأخرة فهي لم تعرفه إلا في القرن 19م ، وقد غلب عليها الطابع الديني ، مع عدم إغفال الأطامع السياسية ؛ إذ إنهم عرفوه عن طريق اليهود ، فقد تمكّن اليهود من السياسة الأمريكية وخدمة أهدافهم عن طريق أمريكا ، وأول ظهور كان في عام 1246هـ / 1830م ، ورغم قصر المدة الزمنية لحركة الاستشراف في أمريكا إلا أن المستشرقين الأمريكيان نجحوا في تنشيط هذه الدراسات، وإعطائها الصبغة العالمية بما أنشأوا من محافل استشرافية وإصدار المجلات والكتب ، حتى توجّوا هذه المجهودات بتأسيس أول جمعية استشرافية أطلقوا عليها الجمعية الشرقية الآسيوية عام 1258هـ / 1842م التي تصبوا إلى تحقيق هدفين ، هما :

تحقيق المطامع الاستعمارية لأمريكا ، والقيام بدراسات الاستشرافية لمساعدة هذه الأطامع على الخروج إلى حيز التنفيذ . لذلك بدأت الجمعية في إرسال بحثيها إلى العالم العربي والإسلامي ، وقد اهتمت بإصدار دوريات عن الأدب العربي والإسلامي وترجمة بعض الكتب العربية الإسلامية .⁽³⁾

⁽¹⁾ عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص 109 .

⁽²⁾ نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 681 . عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص 108 .

⁽³⁾ عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص 114 . محمد قطب : المستشرقون والإسلام ، د.ط ، القاهرة : مطبعة وهبه ، 1999 ص 226 - 230 . محمد البهبي : مرجع سابق ، ص 432 .

كما نشطت البعثات التصديرية الأمريكية في بلاد الشام فأسست المدارس والمعاهد العلمية وأرسلت البعثات إليها ، أشهرها بعثة (صموئيل زويمر)⁽¹⁾ عام 1307هـ / 1889 م . ومنذ منتصف القرن 20 م شهد الاستشراق الأمريكي نهضة شاملة وذلك عندما أخذت بريطانيا موقعها للنفوذ الأمريكي ، وعندما أحس الأمريكيون أنهم بحاجة إلى عدد كبير من المتخصصين في شؤون الشرق الإسلامي ، فأصدرت الحكومة الأمريكية مرسوماً عام 1372هـ / 1952 م خصص بموجبه مبلغ مالي ضخم لتشجيع الجامعات على افتتاح أقسام الدراسات العربية والإسلامية .⁽²⁾

وأصبحت تلقي دروس عن العربية والعلوم الإسلامية واللغات السامية لطلبة الماجستير والدكتوراة ، وفتح المجال لجميع التخصصات في الدراسات العربية والإسلامية .

واستمرت هذه الحركة في الظهور والازدهار حتى بلغت شأنها بعد الحرب العالمية الثانية ، حيث ظهر الاهتمام بتكتيف عدد مراكز الاستشراق وتأسيس الكراسي الاستشرافية في الجامعات الأمريكية .⁽³⁾ وزاد الاهتمام بحضارات وديانات آسيا وإفريقيا ، فأعدت جامعة كولومبيا بالاتفاق مع ثمانية عشر معهداً وجامعة منهاً شرقياً حديثاً تسهم الحكومة في نصف نفقاته لتدريس لغات الشرق الأوسط وآسيا ، فأصبح عدد الجامعات المعنية بالعربية 16 جامعة و 5 جامعات معنية بالتركية ، ثم أعدت برامج عن الشرق الإسلامي درست في 21 جامعة وكلية . ومن أبرز أساتذتها العرب (جورج حوراني) أستاذ العلوم الإسلامية بقسم دراسات الشرق الأدنى في جامعة ميشيغان وفيليب حتى في جامعتي كولومبيا وبرنستون وقد تجنس بالجنسية الأمريكية .⁽⁴⁾

ومن أبرز الجامعات التي تحتوي على كراسي للاستشراق :

(1) جامعة هارفارد 1046هـ / 1636 م كانت كلية ثم تحولت إلى جامعة Univ. Harrfard 1194هـ / 1780 م ، يبلغ عدد طلابها عشرات الآلاف وأساتذتها بالمئات وفيها مجموعة متاحف تضم نفائس حضارة الآشوريين والبابليين والعربانيين والفينيقين

⁽¹⁾ سيتم التعريف له لاحقاً .

⁽²⁾ محمد قطب ، مرجع سابق ، ص 230 – 235 . الاستشراق . الموسوعة الحرة لخلق وجمع المحتوى العربي ، المعرفة ، http://www.Marefa.Org . 2008/6/28

⁽³⁾ يوجد اليوم (1300) جامعة ما بين حكومية وأهلية . نجيب عقيقي ، مرجع سابق ، ج 3 ، ص 120 .

⁽⁴⁾ نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج 3 ، ص 121 – 120 . عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص 114 . بحث الاستشراق والمستشرقين ، شذرات ، 15/11/2008 م . http://www.Shatharat het .

والعرب ، وتعتبر هارفارد أكبر الجامعات الأمريكية التي عنيت بتاريخ الشعوب السامية ولغاتها وتاريخها ولا سيما العربية، وقد رصد على كرسيها مبلغ وقدره مائتا ألف دولار ، ثم أنشأت ثلاثة مراكز مستقلة ، الأول للشرق الأوسط درس فيه 28 برنامجاً أشرف عليه السير (هاملتون جب) باللغات العربية والتركية والفارسية ، أما الثاني فلشعوب آسيا ، والثالث للأبحاث الروسية.

(2) جامعة بيل Univ. Bul 1113هـ / 1701م كانت كلية ثم حولت إلى جامعة 1299هـ / 1881م في نيويورك ، وهي تعنى بالشرق الأدنى ، وبها مطبعة خاصة لنشر ذخائر الكتب العربية .⁽¹⁾

(3) جامعة برنسون Univ. Princeton 1159هـ / 1746م

بدأت بتعلم اللغات السامية وآدابها ، ثم أنشئ فيها قسم اللغات والأدب الشرقية ، وأسهمت فيه مؤسسات : روكلاند ، كاليفلاند ، وأرامكو ، وقد عمّ الدكتور (فيليپ حتى) ، منذ كان أستاذًا مساعدًا للأدب السامي بتجهيز مطبعة عربية خاصة بالجامعة ، ويعود له الفضل في جعل الدراسات العربية والإسلامية ذات مكانة رفيعة في الجامعة ، وذلك عندما عين رئيسًا لقسم اللغات والأدب الشرقية فقد تولى في فترة رئاسته 16 عاماً متخصصاً كانوا يدرسون برامج الاستشراق.

تستغرق دراسة هذا البرنامج سنتين يتقن الطالب خلالها - على الأقل - لغة تخص بلاد إسلامية واحدة ، ومعظم الطلبة يختارون العربية ، وتشتمل الدراسات الإسلامية على : التاريخ الإسلامي القديم ، وعالم الإسلام من العصر العباسي حتى الدولة العثمانية ، والشريعة الإسلامية ، وتعطي الجامعة شهادة الدكتوراه بعد أربع سنوات من الدراسة مع إتقان لغتين تخص بلاد إسلامية - واللغات المقررة عربية وتركية وفارسية - وسياحة عامة في ربوع الشرق الأدنى.

ولم تقتصر دراسة برامجها على الأمريكيين وإنما أتيحت لجميع طلاب الشرق الأدنى ، ويعقد القسم مؤتمراً سنوياً يدعو إليه الأقطاب ، العلمية لمعالجة موضوعات الشرق الأدنى ،

⁽¹⁾ نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج 2 ، ص 121 .

وتعزيز التفاهم بينه وبين الولايات المتحدة ، ولطالما اشترك (فيليب حتى) بنفسه في حلقات الدراسات الاستشرافية .⁽¹⁾

لقد أسس (فيليب حتى) هذا البرنامج " برنامج دراسات الشرق الأوسط " عام 1927م بدعم من الرئيس (ويلسون) من الجامعة الأمريكية في بيروت ، ومن أشهر أساتذة هذا القسم (مانفرد هالبرن Manfred Halpern) و(برنارد لويس Bernard Lewis) المؤرخ اليهودي المتصلين ، على أن الجامعة تضم بين أروقتها ثاني أكبر مجموعة للمخطوطات العربية في الغرب . ولديها فهرسان لهذه المخطوطات ، بالإضافة لمكتبة عامة للكتب تضم قسماً كبيراً للكتب العربية والاستشرافية ، وثمة مكتبة قسم دراسات الشرق الأدنى ، وأخيراً مكتبة خاصة بالرسائل الجامعية .

أما النشاط الأهم لهذا البرنامج فهو الندوة الأسبوعية التي تعقد كل يوم أربعاء ، ويحضرها طلاب الدراسات العليا ، وأعضاء هيئة التدريس ، وبعض الضيوف المهتمين بقضايا الشرق الأوسط ، وتتناول هذه الندوة مختلف⁽²⁾ القضايا الفكرية والثقافية والسياسية والاجتماعية ، أما عن الرسائل الجامعية فتنوعت موضوعاتها بين سياسية وعقائدية واقتصادية واجتماعية ، وهناك تعاون وثيق بين هذا القسم والأقسام الأخرى في الإشراف على هذه الرسائل . ومن الأمثلة على هذه الرسائل رسالة عن " التنصير في الخليج العربي " ورسالة عن " الفكر السياسي الإسلامي "⁽³⁾

ومن أعمال (فيليب حتى) في تعميق الدراسات الاستشرافية يتضح الدور الذي أدته الولايات المتحدة في دعم ودفع حركة الدراسات الاستشرافية بالشكل الذي يخدم أغراضها في تسويف التاريخ الإسلامي بما فيه التاريخ العثماني ، وأيضاً سياستها الاستعمارية في ثوبها الجديد .

(4) جامعة كولومبيا 1168هـ / 1754م Univ. Colombia

⁽¹⁾ نجيب عقيلي : مرجع سابق ، ج 2 ، ص 121 – 122 . الاستشراف . الموسوعة الحرة بخلق وجمع المحتوى العربي ، المعرفة ، 2008/6/28

⁽²⁾ ومن الأمثلة على هذه الموضوعات " تركيا والديمقراطية " ، " الإصلاح اللغوي في تركيا : الإصلاح الكارثة " .

⁽³⁾ مازن مطبانى : مرجع سابق ، ص 33 – 35 . بسام عمار . تدريس العربية في الجامعات الغربية ، 15/12/2008م ، <http://www.awa-dam.org>

في نيويورك وهي للغات السامية ، ثم أعدت مع ثماني عشرة جامعة ومعهداً منهاجاً شرقياً حديثاً للغات الشرق الإسلامي . وعيّنت سبعة عشر أستاداً لتدريسها في معهد الشرق الأوسط .

(5) جامعة بنسلفانيا 1282هـ / 1765 م Univ. Pennsylvania

لقيت اللغات الشرقية فيها ازدهاراً.

(6) جامعة ميشيغان 1233هـ / 1817 م Univ. Michigan

ويدرس في قسم دراسات الشرق الأدنى ولغاته 25 برنامجاً ، منها : التاريخ عموماً، وتاريخ الإسلام وعلومه واتجاهاته السياسية .

(7) جامعة بوسطن 1287هـ / 1870 م Univ. Boston

أنشئت لدراسة اللاهوت والفلسفة ، وتضم اليوم منظمات الطلبة التي تمثل الطوائف الدينية الرئيسية في الولايات المتحدة الأمريكية ، وتدرس الإسلام وغيره من الأديان العالمية ويحلق طلاب اللاهوت بالمعاهد الأمريكية للأبحاث الشرقية في القدس وبغداد .

(8) جامعة شيكاغو 1310هـ / 1892 م Univ. Chicago

عنيت بالدراسات السامية ، وأصدرت لها مجلة ، وأنشأت معهداً شرقياً .

(9) جامعة جونز هوبكنز 1310هـ / 1892 م Univ. Johns Hopkins

(1) تأسست في جامعة بالتيمور ، وفيها قسم للغات الشرقية .

(10) جامعة إنديانا – بلومنجتون : Indiana Univ. – Bloomington

تأسست عام 1820 م ومن أبرز الأقسام فيها أقسام اللغات الأجنبية وقسم دراسات الشرق الأوسط ؛ إذ إن هذا القسم هو أحد الأقسام التي تحصل على معونة مالية من الحكومة الأمريكية .⁽²⁾

(11) جامعة جورجتاون: مركز الدراسات العربية المعاصرة Univ. Jorge Town

⁽¹⁾ نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج 2 ، ص 123 – 124 . مؤتمرات المستشرقون . وسائل المستشرقين ، 25/12/2008 م ، <http://www.Eltwhed.com>

⁽²⁾ مازن مطبانى : مرجع سابق ، ص 41 وسائل الاستشراق . شذرات ، 24/8/2009 م ، <http://www.Shatharat.net>

تعد هذه الجامعة أقدم معهد كاثوليكي للتعليم العالي في الولايات المتحدة الأمريكية وقد تأسست عام 1797هـ / 1212م ، وتضم الجامعة بين ردهاتها مركز الدراسات العربية المعاصرة ، ومكتب العلاقات الإسلامية النصرانية ، وللمركز نشرة شهرية تتناول نشاطاته من ندوات ومحاضرات وإصدارات مختلفة، ومن أهم الموضوعات التي يتناولها المركز " الفن والثقافة الشعبية في التاريخ العثماني ، وتحت هذا العنوان يتم إلقاء عدد من المحاضرات والندوات باستمرار. ⁽¹⁾

وإضافة إلى هذه الجامعات انتشرت المعاهد في أنحاء الولايات الأمريكية ، مثل:

1) معهد السلك الخارجي 1367هـ / 1947م .

أنشأته وزارة الخارجية بناء على توصية من الكونгрس الأمريكي ، ودرست فيه سبعون لغة ، منها العربية الفصحى ولهجاتها العامية كالشامية والعراقية والسعوية والمصرية وغيرها .

ثم أوصى الكونгрس بتوسيع برامجه ، فأشرف على برنامج الشرق الأوسط الذي يدرس نشأة الإسلام وعلاقته باليهودية والنصرانية والتاريخ الإسلامي والحضارة العربية الإسلامية والتراث التركي . ⁽²⁾

إن تدريس اللهجات العامية له دلالة واضحة على أن خريجي هذا المعهد سيعملون في السلك السياسي ، وسيرسلون إلى البلاد العربية فيكونون أقدر من غيرهم على الاختلاط بالشعوب والأهالي ، والتغلغل داخل عاداتهم وتقاليدهم وتاريخ الدول الإسلامية بحكم إنفائهم للهجرات المحلية ، مما يعطي فرصة لتنفيذ المخططات الاستعمارية ، وتدمير التراث التاريخي الإسلامي .

2) معهد الشرق الأوسط :

تأسس هذا المعهد في واشنطن عام 1366هـ / 1946م مركزاً على مكتبة ضخمة وغنية بالكتب المتنوعة ، وذلك لملء الفراغ في حاجة الأميركيان لفهم مستوى عب للشرق الأوسط . وقد تم افتتاحه بموجب مراسيم حكومية ، وفي عام 1375هـ / 1955م بدأ مشروعه في نشر الكتب .

⁽¹⁾ مازن مطباني : مرجع سابق ، ص 39 .

⁽²⁾ نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج 3 ، ص 123 - 124 .

والهدف الرئيس لهذا المركز على مر السنين هو إصدار مجلة الشرق الأوسط ، وعقد مؤتمر سنوي في واشنطن بالإضافة إلى مؤتمرات وحلقات دراسية ، ودورات ابتدائية في لغات المنطقة ، وترتيب محاضرات في واشنطن ومدن أخرى .

ويعمل المعهد حالياً متعاوناً مع الجامعات ومجموعات سياسات الشرق الأوسط في تنقيف نطاق واسع من مواطني أمريكا حول الشرق الأوسط ، والتي تنشر بالتبعية في محاضرات المعهد ، أو بالكتابة الصحفية ، أو تقديم آراء على وسائل الإعلام ، كما تصدر مجلة للمعهد تتناول المسائل الشائكة للبلاد الإسلامية.⁽¹⁾

3) معهد بروكنجز Brookings Institution

يعتبر هذا المعهد مؤسسة خاصة ، تهدف بالدرجة الأولى إلى تحليل مشكلات السياسة العامة الحالية وزيادة الوعي بها ويقدم هذا المعهد ثلاثة برامج بحثية ، وهي :

الدراسات الاقتصادية ، الدراسات الحكومية ، ودراسات السياسية ، ويقوم المركز حالياً بإدارة مركز لسياسة التعليم العام ، ومركز لقواعد المعلومات حول العلوم الاجتماعية ، ويوجد أيضاً قسم لدراسات الشرق الأوسط .

4) معهد الولايات المتحدة للسلام .

هو معهد حكومي يتم تمويله من الكونجرس ، يدعوه إلى تقوية قدرات الأمة على الحلول السلمية للمشكلات الدولية ، وتحقيق سلام عادل مبني على الكرامة الإنسانية والحرية، يهتم المعهد بالحركات الإسلامية ، ويعطي اهتماماً خاصاً بالدول الإسلامية.⁽²⁾

هذا بالإضافة إلى الجامعات والمعاهد التي اتفقت مع جامعة كولومبيا على المنهج الشرقي الحديث - السابق الذكر - ومن بينها : جامعات نيويورك وويسكونسن ، ومن أهم أساتذتها (وسترمن) الذي عينه الرئيس الأمريكي (لوسون) في أثناء الحرب العالمية الأولى مستشاراً في الشؤون العثمانية ، وأيضاً جامعتي كانساس وواشنطن ، وأبرز طلابها وأساتذتها (ستانفورد) الذي له طابعه ونشاطه الخاص ، وإن خضعت جميعها لاتجاه واحد وهو دراسة كل السبل لإمكانية الدخول في الإسلام لتشوييه وهدم أنسه جميعها ، بالإضافة إلى

⁽¹⁾ مثل المسألة الكردية ، مسألة الديمقراطية التركية ، انظر : مازن مطبقاني ، ص36 ، 37 .

⁽²⁾ مازن مطبقاني : مرجع سابق ، ص 38-39 . وسائل الاستشراق . شدرات ، 2009/8/24 .

معهداً أمريكياً يدرس في أقسامها العادلة تاريخ الشرق الأوسط ، وجغرافيته، وعلومه السياسية ولغاته بالإضافة إلى تاريخه .⁽¹⁾

أما عن المكتبات فأهمها :

١) مكتبة الكونгрس 1215هـ / 1800م .

٢) مكتبة نيويورك العامة 1272هـ / 1855م .

٣) مكتبة جامعة برنسون 1318هـ / 1900م .

٤) المكتبة الحشية 1322هـ / 1904م .

وجميع هذه المكتبات تضم على رفوفها الكثير من المصنفات والكتب التي تُعنى بالشرق وحضارة الإسلام .⁽²⁾

فضلاً عن ذلك هناك الكثير من الجمعيات التي تركز على الشرق الإسلامي .⁽³⁾

وأصدر المستشرقون الأميركيان عدة مجالات.⁽⁴⁾

كلها لها طابع الاستشراق والتتصير ، وأخطر المجالات التي يصدرها المستشرقون الأميركيان في الوقت الحاضر هي مجلة "العالم الإسلامي" The World Muslim أنشأها (صموئيل زويمر) عام 1329هـ/1911م وطابع هذه المجلة تصيري سافر .⁽⁵⁾

كما أسست أمريكا جامعات في العالم العربي لها الاتجاه والأسلوب نفسه ، مثل:

١) الجامعة الأمريكية في بيروت 1283هـ / 1866م .

٢) الجامعة الأمريكية في القاهرة 1337هـ / 1919م .

٣) مدرسة الدراسات الشرقية الأمريكية في القدس .

٤) المدرسة الأمريكية للأبحاث الشرقية في بغداد .⁽⁶⁾

⁽¹⁾ نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج 3 ، ص 124 .

⁽²⁾ عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص 115 .

⁽³⁾ مثل جمعية دراسات الخليج ، رابطة الشرق الأوسط لدراسة المرأة ، انظر : مازن مطبقاني ، ص 42 ، 43 .

⁽⁴⁾ أ) مجلة جمعية الدراسات الشرقية ، وتصدر من مدينة جامبier Gambier بولاية أوهايو Ohio ، ولها عدة فروع في لندن وباريس وليبيزج ، وطابعها العام - على كل حال - طابع الاستشراق السياسي .

ب) مجلة شؤون الشرق الأوسط . ج) مجلة الشرق الأوسط

⁽⁵⁾ محمد البهري : مرجع سابق ، ص 432 .

⁽⁶⁾ نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج 3 ، ص 125 .

وإذا أمعنا النظر نجد أن الاستشراق لم ينشط بوصفه حركة علمية في أمريكا إلا في القرن الماضي والقرن الحالي ، وذلك أكثر من أي بلد آخر ؛ لما للقضايا السياسية المتعلقة بالشرق الإسلامي من تأثير بالغ ، وخصوصاً المنطقة العربية منه ، ولما لليهود من تأثير على هذه الحركة ، حيث تركز اهتمامهم على دراسة اللغة العربية فصحى وعامية ؛ وذلك لكي يتغللوا داخل الوجدان الإسلامي لتشويهه .

ثاماً: إسبانيا

بدأ الوجود الإسلامي في الأندلس منذ عام 92 هـ / 710 م بدخول القائدين المسلمين طارق بن زياد وموسى بن نصیر ، ومن لحظتها بدأ الحقد الصليبي على المسلمين الذي ترجم - بعد ذلك بمئات السنين - في حركة الاسترداد المسيحي التي حققت أول مخططاتها بإسقاط مملكة غرناطة آخر معاقل المسلمين في شبه الجزيرة الإيبيرية عام 897 هـ / 1491 م ، ثم عملت القوة الصليبية على انتزاع الإسلام من الأندلس ، فاتخذت سبيلين لذلك ، أولهما : القوة الحربية في القضاء على ما تبقى من تاريخ المسلمين ، وثانيهما : تشويه هذا التاريخ لزعزعته من نفوس المسلمين في الأندلس .

وقد انتشرت ثقافة المسلمين في إسبانيا وحضارة الإسلام واللغة العربية ، فأقبل الإسبان على دراسة وترجمة وتصنيف المخطوطات واللغة العربية ، وعملوا على إنشاء المكتبات ومكاتب الترجمة والمدارس الخاصة بها .

وإذا ألقينا نظرة على نشأة الاستشراق في إسبانيا نجد أنه نشا في أحضان حركة عدائية لكل ما هو مسلم وعربي ، وهدفها دائماً التحقير والانتقام والتشويه .

وقد اختلط الدافع الديني الحاقد بالدافع الاستعماري حينما بدأت حركات الاحتلال الأوروبي للعالم الإسلامي ، فطمعت إسبانيا في المناطق المجاورة لها فجندت مستشارقيها لإعداد الدراسات لمعرفة مواصفات السكان وطبائعهم ولغاتهم، وقد أنشأت الحكومة الإسبانية العديد من المراكز لتعليم اللغة العربية والعامية والمغربية ، تجاوزت الخمسين مدرسة .⁽¹⁾

⁽¹⁾ خوان غويستولو : في الاستشراق الإسباني ، ترجمة : كاظم جهاد ، د. ط ، بيروت ، 1987 م ، ص 165 . عبد العالى المتنقى ، حركة الاستشراق الإسباني والإهتمام بالتراث العربي ، 11/11/2009 م . <http://www.Doroob.com>

أما عن كراسى الاستشراق فى إسبانيا فهى على التوالى :

- (١) جامعة سلامنكا Salamanca ١٢٢٧هـ / ١٤٣٥ مـ ، المراكز العلمية الأربعـة في أوروبا ، فاشتملت على ٢٥ كرسياً منها العربية ، وما زالت في اطراد مستمر حتى بلغت في القرن ١٧ مـ سبعين كرسياً .
- (٢) جامعة إشبيلية Univ. Sevilla ١٢٥٤هـ / ١٤٨٠ مـ
- (٣) جامعة بالما Univ. Palma ١٢٨٠هـ / ١٤٦٩ مـ
- (٤) جامعة لريدا Univ. Lerida ١٣٠٠هـ / ١٤٧٠ مـ
- (٥) جامعة برشلونة Univ. Barcelona ١٤٥٠ مـ / ٨٥٤هـ .
- (٦) جامعة بلنسـيه Univ. Valecia ١٤٧٤هـ / ١٤٧٤ مـ
- (٧) جامعة سرقسطـه Univ. Zaragoza ١٤٧٤هـ / ٨٧٩ مـ
- (٨) جامعة مدريد Univ. Madrid ١٥٠٨هـ / ٩١٤ مـ
- (٩) جامعة غرناطة Univ. Granada ١٥٤٠هـ / ٩٤٧ مـ
- (١٠) جامعة سانتيا جودي كومبو تسـيلا ١٥٤٤هـ / ٩٥١ مـ
- Univ. Santiago de Univ.Gompostela
- (١١) جامعة أوبـيادو Univ. Oviedo ١٥٥٧هـ / ٩٦٥ مـ
- (١٢) جامعة لا لاجونـه Univ. Lalaguna ١٩٥٠هـ / ١٣٧٠ مـ
- وقد نشـطت حركة العناية بالعربية في عـهد الملك (كارلوس الثالث) "١١٢٩هـ/١٢٠٣هـ - ١٧١٦م - ١٧٨٨م " الذي وسـع المكتـبة الملكـية ، ونظم مكتـبة دير الأـسكوريـال Dibliothe~ca Del Escorial التي كان قد أـنشأها الملك (فـلـيـبـ الثـانـيـ عـشـرـ) ، وجعل من مـعرفـةـ العـربـيـةـ مـبرـراـ لـترـقـيـةـ المـوـظـفـيـنـ ، وـشـجـعـ عـلـىـ التـضـلـعـ فـيـ الـلـغـةـ الـعـربـيـةـ ، وـنـشـرـ تـرـاثـهـ ، وـفيـ أـواـخـرـ النـصـفـ الـأـوـلـ مـنـ القـرنـ ١٩ـ مـ أـصـلـحـ شـأنـ

^(١) نجيب عـقـيقـيـ : مـرـجـعـ سـابـقـ ، جـ ٢ـ ، صـ ٥٧٣ـ .

الجامعات فدرست اللغة العربية رسمياً في كراسيها ، وأفاد طلابها من مخطوطاتها الفنية في المكتبات العامة والخاصة فنشروا الكثير منها مترجمًا ومصنفًا .⁽¹⁾

ويوجد اليوم في إسبانيا عدد كبير من المكتبات الشرقية إضافة إلى المكتبة الوطنية ومكتبة الأسكوريال التي تحفظ فيها الكثير من المخطوطات العربية والإسلامية ، مثل مكتبة مدريد الوطنية Madrid Biblioteca Nacional de Madrid 1129هـ / 1716 م .

مكتبة جمعية الأبحاث العلمية
Junta de Ampliación de Estudios 1325هـ / 1907 م .

كما أُسست عدد من المطابع التي تهتم بطباعة ما يكتب المستشرقون من مجلات .⁽²⁾

تاسعاً : الدانمرك

يرجع تاريخ الاستشراق في الدانمرك إلى عهد الإصلاح الديني ، وذلك عندما انفصلت عن الفاتيكان لتأسيس كنيسة إنجليلية متأثرة بألمانيا يومئذ ، وتم تدريس بعض اللغات الشرقية ، والآثار الآشورية والمصرية والفارسية في جامعة كوبنهاغن Copenhagen 884هـ / 1479 م ، وفي مطلع القرن 11هـ / 17 م، صارت إليها أستاذًا للغات السامية تشبهًا بالدول الكبرى التي أخذت في تعليمها .

إلا أن الاستشراق في الدانمرك ظل ضيق الحيز ، بطيء العطاء ، ضعيف الأثر ، حتى شعبت العلاقات بين الدانمرك وألمانيا والتحقت الأولى بالثانية في ثقافتها ، فبدأ الطلاب الدنمركيون يسافرون لألمانيا طلباً للعلم وخاصة الآداب الشرقية ، ثم ساعد الاتصال التجاري بين الدانمرك والشرق الإسلامي على ازدهار الدراسات الشرقية .⁽³⁾

وانتسمت بداية القرن 18م بالرحلات التي أخرجت جزءاً كبيراً من الدراسات الاستشرافية الدنمركية ، ومن أشهر هذه الرحلات بعثة إلى جنوب الجزيرة العربية^(*)

⁽¹⁾ نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج 2 ، ص 573 – 574 . عبد العالي المتقى . حركة الاستعراب الإسباني والاهتمام بالتراث العربي ، 2009/11/11 م .

⁽²⁾ مثل مجلة إفريقيا ، مجلة الأندرس ، مجلة مدينة الله ، مجلة الشرق الأوروبي ، وقد تم وضع الكثير من الفهارس وقوائم بأسماء الكتب والمصادر التي تتعلق بالشرق خاصة منذ عام 1343هـ / 1924 م عندما ازداد الاهتمام بالاستشراك . انظر : عدنان محمد وزان ، ص 165 . خوان غويستولو ، مرجع سابق ، ص 165 .

⁽³⁾ نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج 2 ، ص 835 .

^(*) هذه البعثة اقترحها (ميختانيليس) على (فرديك الخامس) ملك الدانمرك ، فأمر بالإنفاق عليها ، وقام رئيس وزرائه بتدريبها وتجهيزها فضلت خمسة من العلماء المتخصصين على رأسهم المستشرق (فون هافين) . وهو عالم متخصص يدرس اللغات =

واقتصر الاستشراق الدانمركي في أواخر القرن 12هـ / 18م على علماء اللغات السامية والآثار والتاريخ الإسلامي .⁽¹⁾

عاشرًا : البرتغال

إن اهتمام البرتغال بدراسات العربية الاستشرافية يبدأ بقيام دولة البرتغال، ففي عهد (ألفونسو هنري) كان في شنتمره وهو مجلس الأعيان من المسلمين يستشيرهم الملك في الشؤون الخطيرة مستعيناً بالمترجمين العرب والبرتغاليين ، ثم أنشأ الملك (دينيس) جامعة لشبونة 1290هـ / 1290م ، وبها اشتغلت العناية بالعربية بعد استيلائهم على مناطق في المغرب ، ومع أواخر القرن 12هـ / 18م نشطت الدراسات العربية بفضل أعمال الأب (مانويل فيلاس بواس) ، فأنشأ في دير يسوع لفرنسيسكانيين بلشبونة كرسياً للعربية ، عنى بهذا الكرسي من ناحية تدريس اللغة العربية وتاريخ الإسلام ونشر المصنفات ، وذلك لتحديد الصلات بين البرتغاليين والعرب ، وتخرج من هذا الكرسي مתרגمون لوزارة الخارجية ونلاحظ هنا أن أغلب من عملوا بتدريس اللغة العربية في ذلك الدير رهبان وفاسوسة .⁽²⁾

ويتضح بجلاء أن الغرض من الدراسات الاستشرافية في البرتغال خدمة الاستعمار مع دعم الكنيسة والرهبان ، لدرجة أنهم عملوا في تدريس اللغة العربية لتوجيه الطلاب حسب رغباتهم ومصالحهم الشخصية ، ويتبين هذا الأمر في أن خريجي الكراسي العربية عملوا بوزارة الخارجية والترجمة لتنفيذ مخطط الاستعمار .

الحادي عشر : النمسا

بدا واصحاً تماماً أن الدراسات الاستشرافية في النمسا نشأت لمواجهة الخطر العثماني الذي بلغ قمته في عهد السلطان سليمان القانوني ، وحصاره لفينسا عاصمة النمسا ، ثم طفت الدولة العثمانية تتدخل في سياسة أوروبا تدخلًا أشعر أقطارها جميعاً بأن توازنها يتوقف على

= السامية في جامعة جوتينجن بألمانيا لعلوم الاستشراق ، ثم عادت البعثة كوبنهاغن في 1175هـ / 4 يناير 1761م ، وعلى متن طراد دانمركي حربى إلى أزمير فايستانبول مصر ، ثم اليمن ، حيث عزمت على قضاء بضع سنوات ثم العودة عن طريق البحر ، كما اتجهت البعثة إلى حلب إلا أن هذه لم يكتب لها النجاح ، ولو حدث ما خططت له لأعطتنا كمية من الدراسات الاستشرافية المشوهة . نجيب عقبي : مرجع سابق ، ج 2 ، ص 835 – 836 .

⁽¹⁾ مرجع سابق ، ص 836 .

⁽²⁾ مثل الأب دوروزا ريوبا تستا Fr. A. Dor . Baptista ، الأب جان دي صوصه Fr. J. de Souza ، والأب مانويل ريبيلودي سيلفا Fr. M.R. De Silva ، الأب خوسه مورا Fr. J. de Santo Amorta وقد شغل منصب المترجم الرسمي . انظر : نجيب عقبي : مرجع سابق ، ج 2 ، ص 618 ، 619 .

قوة النمسا في رد الهجمات العثمانية والتفاهم معهم ، عن طريق البعثات الدبلوماسية إلى إسطنبول والعمل على التفاهم السلمي ، ثم بدأت النمسا في إرسال بعثات لجمع المعلومات ، أهمها على الإطلاق بعثة (فون بوشبيك) إلى الآستانة ، وأقام فيها سبع سنوات ، جمع أثناءها عدداً وفيراً من المخطوطات الشرقية الفريدة .⁽¹⁾

دخلت النمسا في حروب طويلة ضد الدولة العثمانية ، في محاولة من الأولى للقضاء على الثانية ، وعندما تأخرت نتائج هذه الحروب ، أو على الأقل لم تقض على الوجود الإسلامي العثماني في أوروبا ، اتجهت إلى تسوية تاريخ هذه الدولة الإسلامية وإلى غزوها فكريًا حتى يتسرى لها القضاء عليها .

ورغم أن الدراسات الاستشرافية في النمسا لم تكن وفيرة العطاء وواسعة النطاق كما في فرنسا وبريطانيا على سبيل المثال ، إلا أنها دخلت هذا المجال من أوسع أبوابه .

وقد أسست النمسا كرسيًا للغات الشرقية ، في جامعة فيينا 1364هـ / 1766م ، وزاد الاهتمام باللغات الشرقية منذ قيام الأسرة المالكة بتدعم هذه الدراسات وتشجيعها مادياً ومعنوياً ، فقد بدأت تنشر بعض من أبحاثها باللغة العربية ، وأضيف بعد ذلك تدريس اللغة التركية والدراسات الإسلامية ، واللغات السامية ، في المعهد الشرقي التابع للجامعة . ثم أنشأت النمسا قسمين شرقيين في جامعتها : جراتس Graz 1995هـ / 1586م و إنسبروك Innsbruek 1088هـ / 1677م .

كان سفراء أوروبا لدى الدولة العثمانية يستعينون في البداية بنصارى الدولة العثمانية مתרגمين لهم ، على الرغم من ثبوت خيانتهم في وقت لاحق ، وأنهم عملوا لمصلحتهم الخاصة ، أو ثبت أنهم جواسيس ضد الدولة العثمانية ولمن يدفع أكثر ظهر ذلك بوضوح نتيجة لثراء بعضهم الفاحش ، هنا قررت الإمبراطورة (ماريا تيريزيا) 1153هـ - 1740م - 1780م إنشاء مدرسة اللغات الشرقية فيينا عام 1167هـ / 1753م للسفراء والقناصل والتجار والعلماء ، وانضم لها أعلام المستشرقين وبعض الشرقيين ، وتخرج منها سفراء وقناصل ومتُرجمون وقد طارت شهرتها لأرجاء أوروبا ، فأنشئت على

⁽¹⁾ نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج 2 ، ص 623 . الاستشراق . الموسوعة الحرة لخلق وجمع المحتوى العربي ، المعرفة ، http://www.Marefa.Org . 2008/6/28

غرارها مدارس في كل من روسيا وإيطاليا وألمانيا وإنجلترا ، وأصبحت اليوم تسمى بأكاديمية الفناصل .⁽¹⁾

وهكذا عاش الاستشراق عصر ازدهاره منذ القرن 19هـ / 19م والنصف الأول من القرن 14هـ / 20م بصفة عامة ، وشهدت تلك الفترة جيل العمالقة من المستشرقين ، وقد ظهرت الآن أجيال جديدة تسير على الدرب نفسه وتترسم خططها السابقة .

ويكاد يوجد - اليوم في كل جامعة أوروبية وأمريكية - معهد خاص للدراسات العربية والإسلامية .

وقد بلغ عدد المؤلفات التي ألفها المستشرقون عن الشرق منذ بداية القرن 13هـ / 19م حتى منتصف ق 14هـ / 20م حوالي ستين ألف كتاب بالإضافة للموسوعات الكبرى ، وأهمها دائرة المعارف الإسلامية ، والمعاجم الحديثة واللغوية ، ولا يزال نشاطهم العلمي متواصلاً ، فهم يعملون جميعاً لخدمة أهداف مشتركة .

إن هذه الحقبة الزمنية هي التي شغل العثمانيون فيها مساحة من تاريخهم وخاصة عصر الضعف وسيطرة العوامل الخارجية على سياسة الدولة العثمانية ، وهي الحقبة نفسها التي قررت فيها الدول الأوروبية اقتسام ممتلكات الدولة العثمانية ، بل وتشويه كل ما هو جميل في الحكم العثماني ، وإظهار مساوى العثمانيين في أبشع صورة ، وإلصاق عدد من الافتراطات مع طمس وتجاهل واضح للجوانب المضيئة في تاريخ العثمانيين ، كما تعرضوا لأكثر الحملات المغرضة منذ بدايات القرن 14هـ / 20م وإلى الآن ، وأصبح لهذه الحملات الريادة في تشويه كثير من القضايا العثمانية وخاصة العقائدية ، مما أدى إلى مسخ الجوانب الحسنة ، ونقلها بصورة مبتورة ، وإلقاء علامات الاستفهام حولها، بسبب الأحقاد الصليبية والصهيونية التي تعود إلى أربعة عوامل :

أولاً : وصول الفتوحات العثمانية لقلب أوروبا ونشر الإسلام بها . حيث فتحت بلاد المجر ، وببلاد الموراء وشبه جزيرة البلقان .

ثانياً : التزام معظم السلاطين العثمانيين بمبادئ الإسلام والجهاد في سبيل الله وتطبيقهم لسياسة التسامح الديني التي اتباعوها اتجاه الذميين ، وإصرارهم على أن يكون الانتقام الإسلامي هو الأساس .

⁽¹⁾ نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج 2 ، ص 623 - 624 . الاستشراق . الموسوعة الحرة لخلق وجمع المحتوى العربي ، المعرفة ، 2008/6/28 م . <http://www.Marefa.Org> .

وثالثاً : موقفهم تجاه فلسطين ومحافظتهم عليها وتمسكهم بها وعدم التفريط فيها مطلقاً .
رابعاً : أسممت هذه الكراسي الاستشرافية ومن قبلها بابوات روما في نشر الدعاية الكاذبة حول سوء الحكم العثماني في الولايات الأوروبية .

وقد عمدت الدول الغربية منذ وقت بعيد إلى أن تدخل في مناهج كتب التاريخ التي تدرس في المدارس الوطنية في العالم الإسلامي كله صورة قاتمة مظلمة للدولة العثمانية وأعمالها في العالم الإسلامي ؛ وذلك لضمان استمرار البغض والكره للدولة العثمانية ، وهذا أبلغ دليل على الحقد الصليبي .

إن قضية الاستشراق تحتاج منا إلى وقفة نفهمها ونستوعبها وننفعها ، فنعطي كل ذي حق حقه ، ونكشف النقاب عن هؤلاء الذين دخلوا حركة الاستشراق بقصد الهدم والمسخ والتدمير لتاريخنا الإسلامي المشرق .

ولم تصل حركة الاستشراق وتطور الكراسي الاستشرافية إلى هذا الحد من الازدهار والانتشار وغزاره العطاء إلا بفضل دعم وتشجيع الكنيسة - كما ظهر من العرض السابق - وعلى رأسها البابوات ، بالإضافة للتسهيلات المادية والمعنوية التي حصل عليها المستشرون من الكنيسة ؛ بهدف الأخذ بالثأر من الإسلام والمسلمين .

المبحث الثاني :

دور البابوية في تشجيع حركة الاستشراق :

لقد ظهرت كراسى الاستشراق في أوروبا لأول مرة بدعم مادى ومعنى من الكنيسة والبابوية ، وكان لهذا الأمر أبلغ الأثر في ازدهار وتطور الدراسات الاستشرافية ، وقبل الخوض في دور البابوية وتشجيعها لحركة الاستشراق العالمية وخاصة في أوروبا ، لابد من التعرف على ظهور الاستشراق لأول مرة في أوروبا بدعم من الكنيسة حينذاك .

بداية لم تظهر الدراسات الاستشرافية في أوروبا دفعة واحدة وإنما اختلفت بداياتها من جهة أخرى ، ومن بلد لآخر تبعاً لاحتلال هذا البلد أو ذاك بالعالم الإسلامي ودنوه منه أو بعده عنه . وفي ضوء هذا نستطيع أن ظهور الإسلام وإعتناق كثير من المسيحيين له جعل الدافع الأول للاستشراق ديني .

عندما ظهر الإسلام في شبه الجزيرة العربية كانت تدين بالوثنية والبلاد العربية وبالخصوص بلاد الشام ومصر كانت تدين بال المسيحية ، وسرعان ما انتشر الإسلام في هذه البقاع وأخرج منها المسيحية وأنحسر على فئة ضئيلة في البلاد العربية مما ولد شعور بالكراهية والحقد على هذا الدين جعل من الأهمية بمكان ، مواجهته بالقوة الفكرية بجانب القوة العسكرية.

ويتبين من هذا أنَّ الباущ الأول والأساسي للاستشراق باعثُ ديني هو التعرف على الدين الإسلامي وعلى عالم الإسلام ؛ في محاولة لتحطيمه. وخير مثال على ما سبق ما حدث في الأندلس .

ظهر الاستشراق في الأندلس خلال القرن 7 هـ / 13 م ، حينما قام الأسبان بتشديد حملتهم الصليبية على المسلمين في إسبانيا وأوروبا بصفة عامة ، حيث قام الفونس (ميشيل سكوت Michel Scot) ملك قشتالة بالدعوة لحث مسيحي أوروبا على القيام بالبحث في علوم المسلمين وحضارتهم وجمع المخطوطات الإسلامية .⁽¹⁾

ومما لا شك فيه ، أن هذه الدعوة بالرغم من العداوة الدينية والسياسية التي كانت تخفيها المسيحية الأوروبية لل المسلمين ، إلا أن ظاهرها يختلف عن باطنها ، حيث تدل دعوة

⁽¹⁾ محمد عبد الفتاح عليان : مرجع سابق ، ص7 . عبد العالى المنقى . حركة الاستشراق الإسباني والإهتمام بالتراث العربى ، http:// www. Doroob. Com . 2009/11/11

هذا الملك الأسباني على مدى التفوق العلمي والحضاري الذي وصل إليه العرب المسلمين ، وكان سبباً في وصولهم ل تلك القوة العسكرية والعلمية والحضارية التي أدت بهم إلى قطع مسافات طويلة في المناطق الإسلامية المختلفة ، وركوب البحار والسفر الطويل ، إلى أن سيطروا على تلك البقعة من الأرض الأوروبيّة ولفتره طويلاً .

وعليه فإنَّ التعرف الأوروبي على الإسلام وعالمه وليد فترة مجابهة بين العالم الإسلامي والعالم المسيحي أمّا الهدف منه فمحاربة الإسلام والإساءة إليه ، والحد من انتشاره، ف موقف الغرب المسيحي من الإسلام يقوده الغليان والمشاحنة، حتى إنَّ البابوات والمستشارين - في تعرضهم للإسلام - كانوا مقيدين بأحكام سابقة خلصتها أن هذا الدين الإسلامي معادٍ للمسيحية ، ولا يمكن أن يكون خيراً.

وأول الطرق التي سلكها الملك (سكوت) لتنفيذ مخططاته جمع مجموعة من الرهبان ، وهياً لهم الإقامة الازمة في إحدى الأديرة ، وشرعوا في ترجمة بعض الكتب المؤلفة باللغة العربية إلى لغة الفرنجة ، ثم قدم تلك الترجمة لملك صقلية الذي قام بدوره بتوجيه أوامره لاستنساخ هذه الكتب، وبعث بها هدية إلى جامعة باريس التي كانت تعد منارة التعليم والحضاره العلمية في أوروبا عموماً وفرنسا خاصة .⁽¹⁾

والحقيقة أن ما فعله ملك صقلية أدى إلى أن تكون باريس - المتمثلة في جامعتها بمثابة الحاضنة التي اهتمت بالاستشراق .

وأبلغ دليل على ما سبق أن أوائل المستشرقين والرجال لم يكونوا إلا رهاناً وقساؤسه، ارتدوا زياً العلم المزيف للطعن في الإسلام وتشويه تاريخه ورموزه .

كما ظهرت أول دعوة للاستشراق في أوروبا على لسان البارون (Doits دويتز 1075هـ / 1664م) إذ طالب هذا البارون بتأسيس مدرسة أو كلية ، تكون قاعدة لتعليم التصوير ، ويُعلم فيها لغات الشرق كالعربية والتركية والفارسية وغيرها للطلاب الذي يناظر بهم أمر التصوير ، وقد ارتئى أحد بابوات الكنيسة أن يعهد إلى الروم بمسؤولية تصوير الأتراك، لكن البارون فشل في مشروعه .⁽²⁾

⁽¹⁾ محمد عبد الفتاح العليان : مرجع سابق ، ص 7 . ناظم الديراوي . صورة الإسلام في الاستشراق المبكر ، الحوار المتمدن ، العدد 1846 ، 2008/2/27م ، <http://www.Ahewar.arg>.

⁽²⁾ خلف الوزينياني : مرجع سابق ، ص 177 ، 178 .

وعلى الرغم من هذه الحرب الشرسة الموجهة من المستشرقين والنصارى عامة إلى الإسلام والمسلمين ، إلا أنها باهت بالفشل ، بل وكان تأثيرها عكسيًّا تماماً ، حيث كان

للعربية تأثير مباشر على اللغات العالمية نفسها ، وهو ما أشاد به (Mariobill)

(¹) بأن العربية هي اللغة العالمية في حضارات العصور الوسطى ، وكانت رافداً عظيماً للإنجليزية في نهضتها وكثير من اللغات الأوروبية ، وقد أورد قاموساً أحتوى على قوائم بما اقتبسته هذه اللغات من مفردات عربية ، وكانت أولها الإسبانية ثم الفرنسية والإيطالية واليونانية وال مجرية وكذلكالأرمنية والروسية وغيرها ، ومجموعها 27 لغة ، وتقدر المفردات بالألاف . (²)

وكانت النتيجة في ذلك أنه بالرغم من الجهد الذي بذلها المنصرون ، ومكانة الحضارة التي جاءت بها الشعوب النصرانية ، لم يخرج أحد من الإسلام إلى النصرانية ، ولم تبق لغة أوروبية واحدة لم يصلها شيء من العربية ، وانقلب الاستشراق على نفسه - كما رأينا سابقاً - . (³)

وهنا أصبحت الأمور واضحة تماماً ، فأسباب الحروب الصليبية كان ظاهرها ديني ، وغايتها تخليص بيت المقدس من يد المسلمين ، بينما كانت في حقيقتها سبيلاً للسيطرة على الشرق الإسلامي ، بما يتمتع به من ثروات طبيعية وخيرات كثيرة . والحقيقة التي لا شك فيها أنه منذ أن انتهت الحروب الصليبية بالفشل من الناحية العسكرية والسياسية ؛ بل والفشل التام في محاولة التنصير التي سعت لها البابوية لتحويل مسلمي الشرق من الإسلام وجعلهم يعتنقون المسيحية الكاثوليكية ، ويصبحون أتباعاً لكنيسة روما ، منذ ذلك الوقت لم ينقطع تفكير الغرب في الانتقام من الإسلام والمسلمين بطرق أخرى ، فكانت الطريقة الأولى هي دراسة الإسلام ونقده ، وفي جو هذا التفكير الذي ساد البيئة المسيحية في الغرب خلال القرون الوسطى نشأت فكرة الاستيلاء على البلاد الإسلامية عن طريق القوة والغلبة ، حتى بدأ العالم الإسلامي يتدحرج سياسياً وعسكرياً واقتصادياً وثقافياً ، فأخذ الغرب يسطو على العالم

(¹) هو مؤلف كتاب قصة اللغات The Story of Language .

(²) إبراهيم بدوي البيلاني : فن الترجمة وعلوم العربية ، القاهرة ، د.ط ، 1973 م ، ص 91 .

(³) عبد العزيز بن سعد الدغيتر : المستشرقون والعرب ، مقال منشور في المجلة العربية ، العدد 3344 ، السنة 29 ، ذو القعدة 1425 هـ / يناير 2005 م ، ص 86 .

الإسلامي مرة بعد مرة وعلى بلدٍ تلو الآخر، وجاءت ردّة فعل الكنيسة – ترجمة لما سبق –

(١) متمثلة في أمرتين ؛ أولهما: الاستعمار ، وثانيهما : الاهتمام بالثقافة الإسلامية .

وبالنسبة للاستعمار فإن الحروب الصليبية ودوافعها الدينية التصويرية كانت وراء الحركة الاستعمارية والسياسية التي دفعت ملوك أوروبا إلى غزو الشرق واستعماره ، خصوصاً بلاد الشام والأراضي المقدسة التي كانت تتمتع بطمأنينة روحية ظلهم بها الدين الإسلامي ، وحضارة مدنية عظيمة لا عهد للنصارى واليهود بها أو بمثلها في بلادهم ، إضافة إلى الجو المناخي الذي يسود هذه المنطقة . كل هذه الأمور خلقت لدى الصليبيين التصميم على الاستيلاء على هذه البلاد مهما طال الزمن وكثُرت التكاليف . وكانت هناك كرارات وفرات طالما انتصر فيها المسلمين ، وبعد أن أخفق الغرب عسكرياً في الحروب الصليبية ، لجأ الغرب كله مجتمعًا إلى حرب الفكر لنيل من الإسلام والمسلمين ، وليسهل المهمة الاستعمارية والتي هي إمتداد للحروب الصليبية فيما بعد. (٢)

وفي سبيل تحقيق هدف الاستعمار تبرعت الكنيسة والبابوية بمساندة الرحلات الاستكشافية للأراضي الإسلامية ؛ وذلك لتوفير المعلومات الازمة التي تخدم كتابات المستشرقين ، وبالتالي تخدم الأمر الثاني وهو الاهتمام بالثقافة الإسلامية ، ودعم الغزو الفكري الذي قادته الكنيسة .

والدليل على ذلك ازدياد الرحلات الاستكشافية المتعددة الأغراض والأهداف والأسلوب.(٣) وكان أغلب الرحالة من القساوسة والرهبان ، ومنهم ما يلي :

-هربردي أوريلاك 394هـ/1003م-: وهو أحد المرسلين من الرهبانية البندكتية ، حيث قصد الأندلس وقرأ على أسانتتها هناك ، ثم انتُخب – بعد عودته – حبراً أعظم باسم (سلفستر الثاني 390 Selvester) / 999 م - 1003 م فكان بذلك أول بابا فرنسي.(٤)

(١) مصطفى السباعي : مرجع سابق ، ص78-79 . سهام عبد العظيم : التحضر الإسلامي والبربرية الصليبية ، بحث منشور في مجلة الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة المنيا ، العدد 46 ، أكتوبر ، 2002م ، ص 11-12 .

(٢) عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص 33 .

(٣) بيتر برنبيت : بلاد العرب القاسية رحلات المستشرقين إلى بلاد العرب ، ترجمة : خالد أسعد عيسى ، أحمد غسان سبانو ، ط1، بيروت : دار قتنية ، 1411هـ / 1990م ، ص 89 .

(٤) مانع حماد الجهي: مرجع سابق ، ج 2 ، ص 698 .

- بطرس المكرم "المجل" Prerre le 1156 م - 487 هـ - 551 هـ / 1094 م

Venerable الفرنسي الذي كان ينتمي لإحدى الكنائس ال Benedictine ، وأحد رهبانها حينذاك ، وكان في الوقت نفسه يشغل رئيساً لدير كلوني ، قام بتشكيل جماعة من المترجمين للحصول على معرفة موضوعية عن الإسلام، وكان وراء أول ترجمة لمعاني القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية عام 1143 هـ / 538 م التي قام بها الإنجليزي (Robert of Ketton) .

- جيرار دي كريمونا Gerard de Gremona الإيطالي الذي قصد في رحلة علمية إلى طليطلة،

وترجم أيضاً ما لا يقل عن (87) مصنفاً في الفلسفة والطب والفلك .

- رoger Bacon Roger Bacon وهو

إنجليزي الأصل وقد تلقى علومه في أكسفورد وباريس ، حيث نال الدكتوراة في اللاهوت وترجم عن العربية مرآة الكيمياء .

- يوحنا الإشبيلي Juan de Sevilla ، وهو يهودي الأصل متصر ، وقد ظهر في

منتصف القرن الثاني عشر ، وعني بعلم التجيم ، وقد نقل إلى العربية أربعة كتب

لأبي معشه البلخي 1133 م ، وقد كان ذلك بمساعدة (أدلر أوف باث) .

- وفي عام 1130 هـ / 1717 م قام رئيس أساقفة طليطلة بترجمة بعض الكتب العلمية

العربية التي تركها المسلمون العرب في تلك الأماكن ، وكانت تعد تراثاً علمياً أنار

وأضاء الساحة العلمية والثقافية الأوروبية كلها.⁽¹⁾

وهناك وثيقة خطيرة تلقي الضوء على تحول الصليبيين من الغزو العسكري إلى الغزو الفكري ، وهي وصية القديس (لويس التاسع) ملك فرنسا ، وقائد الحملة الصليبية الثامنة التي انتهت بالفشل والهزيمة ووقوعه شخصياً أسيراً في أيدي المصريين في مدينة المنصورة إحدى مدن الوجه البحري وشرق الدلتا بمصر ، ولم يطلق سراحه إلا بعد تقديم فدية عظيمة استطاع بها الخلاص من الأسر ، وبعد أن عاد إلى فرنسا أيقن أنه لا سبيل إلى النصر والتغلب على المسلمين عن طريق القوة الحربية ؛ لأن تدينهم بالإسلام دفعهم للمقاومة والجهاد وبذل النفس والنفيس في سبيل الله ؛ لحماية دار الإسلام وصون أرضهم ومقدساتهم

⁽¹⁾ حماد مانع الجهنمي : مرجع سابق ، ج 2 ، ص 698 . الاستشراق : الموسوعة الحرة لخلق وجمع المحتوى العربي ، المعرفة ، 2008/6/28 . <http://www.Marefa.org>

وأعراضهم ، فالمسلمون قادرون دوماً للانطلاق من عقيدتهم إلى الجهاد ودحر الغزاة ، من هنا فلابد من سبيل آخر وهو تحويل التفكير الإسلامي ، وترويض المسلمين عن طريق الغزو الفكري ، وذلك بأن يُجند الأوروبيون بدراسة الحضارة الإسلامية ، ليأخذوا منها السلاح الجديد ، ثم يغزون به الفكر الإسلامي.⁽¹⁾ ويعدُّ (لويس التاسع) ملك فرنسا رائد حركة الغزو الفكري .

وقد سار الأوروبيون في طريق تفزيذ هذه الوصية للوصول إلى الهدف المرسوم، وبخاصة عندما تأكّدوا من فشلهم في الحروب الصليبية ، وعدم تحقيق أهدافهم ، واجتمع لديهم رجال الكهنوت والسياسة والفكر لمناقشة طرد المسلمين من الأراضي المقدسة ، ووضع الخطط التي تكفل لهم تخليص بيت المقدس من المسلمين ، وإعادة الأراضي الإسلامية إلى السيطرة النصرانية ، والمناداة بالغزو الفكري بدلاً من الحروب الصليبية .⁽²⁾ ولعل الكنيسة لم تكتف بهذا الأمر بل لجأت إلى المهاجمة بالجدل تارة ، والمناظرات في أسس العقيدة الإسلامية تارة أخرى ، وهذه أسلحة فكرية تحمل في موضوعاتها العديد من الدسائس والشبهات ، سواء أكانت في أسلوب الحكم الإسلامي ، أم في تطبيقه بين المسلمين ، مستخدمين بعض الظروف أو الأحداث السياسية السيئة التي مررت بها الدولة العثمانية ، أو بعض هفوات سلاطينها ، متذرعين بها لشن حربهم الشعواء على العثمانيين . وهكذا تحولت المعركة من ميدان السلاح إلى معركة في ميدان العقيدة والفكر ؛ بهدف تزييف عقيدة المسلمين الراسخة التي تحمل معنى الجهاد ، وتدفع المؤمنين إلى الاستشهاد في سبيل الله .

أما عن إهتمامهم بالثقافة الإسلامية فمما لا شك فيه أن نشأة الاستشراق في أحضان الكنيسة شجعت على قيام العديد من الدراسات ، وهيئات لها الإمكانيات المادية لمساعدتها على الانتشار. فبدأت الجهود الاستشرافية المتعددة ، وأوّلعت إلى رجال الفكر والمبشرين بتكتيف العمل والعكوف على دارسة الإسلام والشرق؛ لمعرفة حقيقة الإسلام والمسلمين ، وبالتالي رسم الخطط المناسبة للهجوم على الإسلام والقضاء عليه ، فتوصل قدول الرحلة الغربية

⁽¹⁾ خلف الوزيناني : مرجع سابق ، ص 178 .

⁽²⁾ مرجع سابق ، ص 179 . على محمد جريشه آخرون : *أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي* ، دار الاعتصام ، د. ت ، ص 19 .

إلى الجزيرة العربية في أوائل القرن 13هـ / 19م ؛ وتميز من بينهم (جون لويس بوركهارت ⁽¹⁾ John L. Burckhardt) والكثير غيره .

كانت سمة القرن 10هـ / 16م ازدهار تجارة المعلومات أو التجسس ، وكان للمستشرقين دور مهم في ذلك الصراع بين القوى الإسلامية والأوروبية ، وقد وصل إلى قمته في منطقة الشرق الإسلامي عموماً ، بل إنَّ حركة الكشوف الجغرافية - في حقيقة أمرها - هي حركة لجمع المعلومات عن كل الطرق المؤدية إلى موطن الثروة والرخاء الاقتصادي في الشرق الإسلامي ، حيث كان الهاجس الاستخباري يسيطر على العقلية الأوروبية ، وخاصة الكنيسة وحكوماتها في ذلك الوقت ؛ وذلك لجمع المعلومات الازمة للدراسات الاستشرافية التي - وبالتالي - ستغدو المستعمر بالدرجة الأولى ، وتشويه التاريخ الإسلامي العثماني مما يسهل القضاء على الدولة العثمانية .

وكان التجسس أحد هذه الوسائل التي استخدمتها الكنيسة داخل أراضي الدولة العثمانية - وخصوصاً العربية منها - كما توضحه تلك التقارير المرسلة إلى مركز الدولة العثمانية بإسطنبول ، وهي تكشف التوايا الخفية والوسائل المستترة التي استخدمتها الكنيسة لمعرفة المزيد من المعلومات عن هذه المناطق الإسلامية العثمانية ؛ حتى تكون هناك الاستعدادات الازمة لضربها فكريًا وثقافياً، ومن ثم العمل على هدمها إن أمكن . وهكذا عرفت البلاد الإسلامية منذ فترة بعيدة وخاصة خلال فترة العصور الحديثة زيارة العديد من الرحالة الأوروبيين ؛ لتحقيق أهداف محددة ومختلفة في آن واحد ، ما بين التنصير والتجسس ، والبحث الدقيق في أحوال المجتمعات الإسلامية التي ظلت عبر عصور طويلة مشعل الحضارة .

فألمانيا وحدها أرسلت ما يقرب من أحد عشر مواطناً ألمانياً رحلوا واستكشفوا وسط الجزيرة العربية خلال الفترة من 1009هـ - 1318هـ / 1600م - 1900م ذكر منهم الرحالة (ستيفن وايلد Steven Willd) 1013هـ - 1020هـ / 1604-1611م الذي

⁽¹⁾ من أهم الأعمال التي ترجمت لجون لويس بوركهارت : رحلات في شبه جزيرة العرب . ترجمة . عبد العزيز الهلابي ، وعبد الرحمن الشيخ : بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ط 1 ، 1413هـ .

رحل إلى المجر في شبابه ، ثم بيع في سوق النخاسة بمصر ، واشترى تاجر إيراني ، وأخذه للحج في مكة المكرمة والمدينة المنورة ، وقد نشر روايته عام 1022هـ / 1613م.⁽¹⁾

وهناك أيضاً (كارستن نيبور Carsten Niebuhr) 1175هـ - 1181هـ / 1761م - 1767م ، وقد أرسله ملك الدنمارك (فردرิก الخامس) مع مجموعة من ستة أشخاص إلى الجزيرة العربية وكان (كارستن) الناجي الوحيد بينهم .⁽²⁾

ومن الذين استخدمو أسماء إسلامية ليتسلدوا خلفها الرحالة الإسباني (دومينجو باديا أي ليبليش⁽³⁾ Domingo Badia Y lebich) الذي دخل منطقة الحجاز عبر مدينة جدة تحت اسم (علي باي العباسي) حيث قام في ذي الحجة 1216م / 7 إبريل 1801م بتقديم مذكرة إلى الحكومة الإسبانية تحمل مخططاً لرحلته الاستكشافية والعلمية والسياسية ، وأشار في هذه المذكرة إلى أن رحلته لا يمكن أن تكلل بالنجاح في البلدان الإسلامية ، وأنه لا يستطيع تخطي الصعوبات والعقبات التي قد تعرّض طريقه عند الشعوب الإسلامية إلا إذا تقدم إليهم في صورة مسلم؛ يحمل اسمًا إسلاميًّا ، وينحدر من عائلة مسلمة تنتهي إلى شجرة الأشراف؛ حتى يحوز على الحظوة والمكانة لدى المسلم الآخر ، ومن أجل مشروع كهذا لا ينبغي فقط أن يلبس ويقلد الزي الإسلامي ، وإطالة اللحية – من وجهة نظره –

⁽¹⁾ كارل شميدت كورته Karl Schmitt Korte : الرحالة الألماني في الجزيرة العربية (1600-1900) بحث ضمن بحوث ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية الرياض 24-27 رجب 1421هـ / 21-24 أكتوبر 2000م ، تحت إشراف دارة الملك عبد العزيز الرياض ، ص 5-6.

⁽²⁾ كارل شميدت كورته : مرجع سابق ، ص 30-24 . جاكلين بيرين : اكتشاف جزيرة العرب ، ترجمة : فريقي قلوجي ، د.ط ، د.ت ، ص 146 - 178 . وانظر أيضًا .

Zahra Freeth and H.V.E. Winstone : Explorers of Arabia , londan . George Allen and unwin, 1978, PP.86-87 .

⁽³⁾ ولد دومينجو باديا في برشلونة سنة 1766م ، من أم ذات أصل بلجيكي ، ومن أب كان يعمل أميناً في الجهاز المالي للمدينة ، وبعد زواجه نُقل إلى قرطبة ليشغل مدير الاحتكارات الملكية للتبغ ، وكان لهذه المدينة تأثير كبير عليه ، دفعه إلى التأمل وحب المعرفة ، للقيام برحلات استكشافية كانت انطلاقتها الأساسية موجهة نحو البلدان الإسلامية ، فكان تركيزه واهتمامه على تعلم اللغات الشرقية وخاصة العربية وغيرها التي يمكن أن تساعده في رحلته ، انظر : G . Spillmann : Napoleon et L Islam Paris , Edit . L . / A.P. 1969 , P. 275 .

وبغية تنفيذ ذلك قرر (دومينجو باديا) تفاصيل شخصية أمير عربي من أصل سوري ، ولد بمدينة حلب، ينتمي إلى سلالة العباسين ، ولقب نفسه باسم (علي باي العباسي) فأخذ تحت ستاره يتحول داخل الأقطار الإسلامية . انظر : El . Abbassi Ali Bay : Voyages d' Ali Bay el Abbassi en Alrique et en Asie Pendant les Annes, 1803 – 1807 , Paris, 1814, Tome I , P. 15 ,

والتكلم بالعربية فحسب ، بل ينبغي بالأساس أن تثبت أنك عربي المولد والمنشأ ، وهذا هو المفتاح لكل أبواب إفريقيا .⁽⁴⁾

ومن فرنسا قام (ليون روش الفرنسي Leon Roches) بـ رحلة إلى الحجاز خلال الفترة 1257هـ - 1841م / 1258هـ - 1842م متყراً في زي حاج مسلم يدعى (عمر بن عبدالله) ، وكان هدفه الظاهري مقابلة شريف مكة عندئذ محمد بن عون ، والحصول من علماء الحرم على موافقة على نص فتوى شرعية جاء بها من الجزائر ، وتلك الفتوى تجعل الجهاد ضد الفرنسيين من باب إلقاء النفس إلى التهلكة ، ومن ثمة ضرورة الرضا بحكم الفرنسيين في الجزائر ، وعدم شرعية حركة المقاومة التي كان يقودها الأمير عبد القادر الجزائري حينذاك.⁽¹⁾

أما الرحالة النمساويين في جنوب الجزيرة العربية فقد أخذوا نصيبهم أيضاً من تلك الرحلات العلمية والاستكشافية التي جاءت لدراسة المنطقة ، ولاستكمال دراساتهم وأبحاثهم الاستشرافية التي كانت بدعم من الكنيسة ومن المحافل العلمية والجامعات الأكاديمية في النمسا.

وقد وفّر هؤلاء الرحالة النمساويين على المنطقة الجنوبية من الجزيرة العربية خلال القرن 13هـ / 19م ، ونذكر منهم على سبيل المثال :

- أدولارد جليز Eduard Glaser 1272هـ - 1855م / 1908م -

الذي قام بعده رحلات إلى اليمن في الفترة ما بين الأعوام 1299هـ - 1312هـ / 1882م-1894م ، ونجح في وضع الأسس لتطوير دراسة اللغات القديمة في جنوب الجزيرة العربية في حقل دراسة اللغات السامية .⁽²⁾

⁽⁴⁾ H.De . Castires : " Napoleon et le maroc " dans Revue Hebdomadaire , N Ib , 8 avril, 1908 . P.4.

⁽¹⁾ بلقاسم سعد الله : رحلة ليون روش إلى الحجاز 1841 - 1842م ضمن بحوث ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية ، مرجع سابق ، ص5 .

⁽²⁾ ولوثر دوستال : الرحالة النمساويون في جنوب الجزيرة العربية ، ضمن بحوث ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية ، مرجع سابق ، ص6-7 .

- ويلهم فيرهرفون 1243هـ / Wilhelm Freiherr von Tegetthoff

1288هـ / 1827م - ذلك المستشرق الذي كان يختلف عن بقية المستكشفين ، وخاصة على الساحل الجنوبي لجزيرة العرب وجزيرة سومطرة .

- الدكتور هـ . مولر David Heinrich Muller المستشرق في جامعة فيينا ، والذي كرس أبحاثه ودراساته الاستشرافية لجنوب الجزيرة العربية ، حتى إنه أصبح أحد الشخصيات القيادية في البعثة الأكاديمية للعلوم بجامعة فيينا ، والمرسلة إلى جنوب الجزيرة العربية في سنة 1317هـ / 1899م.⁽¹⁾

لقد كانت هناك عوامل عدة ساعدت الأوروبيين على تحقيق أهدافهم، التي تتمثل في جمع أكبر قدر من المعلومات عن العرب والمسلمين على الرغم من الصعوبات التي واجهتهم ، ومن هذه العوامل - على سبيل المثال - الحصول على التوصيات من الحكم والولاية العثمانية إلى أمراء وشيوخ المناطق العربية التي قام هؤلاء الأوروبيين بالسياحة فيها ؛ للسماح لهم بحرية التجول ، وتزويدهم بمرشدين محليين على درجة عالية من المعرفة الجغرافية بهذه المناطق العربية .

ولقد كانت دراسة أهالي المنطقة العربية والقبائل التي تعيش فيها من بين الأهداف التي سعى إليها المستشرون ، حيث قام هؤلاء باقتناص المعلومات الازمة لهم عن القبائل المختلفة ؛ وقدراتها العسكرية والاقتصادية ، وكذلك نجحوا في تقصي العلاقات بين الأفراد في القبيلة الواحدة أو بين القبائل المختلفة . وسيتبين من خلال الوثائق العثمانية ذلك القدر الهائل من الرحلات الكشفية والعلمية والجغرافية المتعلقة بطبيعة المنطقة العربية ؛ وهي تشكل دليلاً واضحاً على مدى الخطأ الفادح الذي وقعت فيه الدولة العثمانية دون قصد ، ودون الانتباه إلى المخاطر التي ستجم عن هذه الاتصالات التي لم تسلم منها لا الدولة ولا الولايات العربية نفسها ، حيث كانت عاملاً من عوامل سقوطها ، وسقوط العديد من الولايات العربية في أيدي الدول الأوروبية ، لاسيما إنجلترا وفرنسا ، ومن هذه النماذج ذلك الالتماس المقدم من أحد الأطباء الإنجليز ، ويدعى (شارلز بيري Charles Perys) إلى السلطات العثمانية بتاريخ جمادى الأولى عام 1151هـ / سبتمبر 1738م يطلب فيه القيام

⁽¹⁾ وولتر دوستال مرجع سابق ، ص4-10 .

برحالت سياحية في مناطق يافا - القدس - الشام - القاهرة ، ويطلب منه تصريحاً للمرور في هذه المناطق ، وحمايته فيها .⁽²⁾

وهناك التماس آخر مقدم من السفير الروسي في إسطنبول إلى السلطات العثمانية بتاريخ 21رمضان 1217هـ / 7 نوفمبر 1802م يطلب فيه التصريح بالمرور وحماية أحد بقوات روسيا ، ويدعى (ج. شافيوكى J. Shaveskoy) ، وبصحبته ثلاثة من المساعدين له ، للقيام برحلات إلى مناطق الشام طرابلس مصر الجزيرة العربية والمناطق المحيطة بها ، والمطلوب تقديم كل عون ومساعدة له خلال رحلته .⁽¹⁾

وما يبلور المعلومات السابقة الأوامر الصادرة من الباب العالي بخصوص الجواسيس الأجانب ، وهي :

- أمر صادر إلى رجال الدولة العثمانية بتاريخ 24 ذي الحجة 1236هـ / 20 سبتمبر 1821م ، يتضمن تبيهات الباب العالي وتحذيراته الحازمة بضرورة تأديب كل من يتم القبض عليه من الجواسيس الأجانب بالوسائل السرية ، وبالاعترافات أو يستخدم أي أساليب لنشر الفساد والفتنة بين المسلمين في أنحاء الدولة العثمانية.⁽²⁾
- التقرير المرسل من ولاية الحجاز إلى الدولة العثمانية بتاريخ 27 جمادى الأولى 1265هـ / 19 إبريل 1849م ، يقول فيه : " مثلاً حدث في بلاد الهند ، فإن الدولتين العظمتين (إنجلترا وفرنسا) تقومان منذ مدة بإرسال بعض قناصلهم ليقوموا بالتجول والسياحة في المنطقة العربية ، وترسلان موظفيهما أيضاً إلى هذه الأماكن ، ويصرف لهم بدل سفر ، حتى إن وكيل الفنصلية الفرنسية الموجود في (جدة) يقوم بالتجسس لحساب بلاده ، ولابد من ضرورة المطالبة بالتحقيق في هذا الأمر ، وعدم تسهيل مهامهم أو مساعدتهم في ذلك ".⁽³⁾
- وفي تقرير مرسل بتاريخ 7 شوال 1328هـ / 10 أكتوبر 1910م يتضمن إجراء التحقيق وتقسي الحقائق في قيام بعض جواسيس إنجلترا في مصر بالتزين والتخي

⁽²⁾ أحمد سالم : الاتصالات الأوروبية وتأثيراتها على المنطقة العربية ، ص 210 ، 211 .
BoA. Cavdet Tasnifi , Hariciye , No : 9111 , Tarihli , Ca . 1157 H .

⁽¹⁾ أحمد سالم : الاتصالات الأوروبية وتأثيراتها على المنطقة العربية ، ص 211 .
A.G.e No : 8748 , Tarihli , 1213 . 1217 H .

⁽²⁾ أحمد سالم : الاتصالات الأوروبية وتأثيراتها على المنطقة العربية : ص 217 .
BoA. " Cavdet Tasnifi , Dahiliyel , No : 6599 , Tarihli , 24 Z. 1236 H .

⁽³⁾ أحمد سالم : الاتصالات الأوروبية وتأثيراتها على المنطقة : ص 217، 218 . عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص 162 .
BoA. " IR.DH. Tasnifi " No : 11063 , T . 27 Ga . 7265 H .

- في لباس بدوي وذلك للدس بين القوافل المنتشرة في المدن المصرية (القناطرة - الإسماعيلية - السويس) ثم توجههم من هناك إلى منطقة القصيم بالجزيرة العربية ، ولابد من وقف هذه الرحلات والتحقيق فيها.⁽⁴⁾
- برقية بتاريخ 16 جمادى الأولى 1330هـ / 2 مايو 1912م بشأن التحقيق في المعلومات العسكرية والسياسية التي يحتفظ بها الدنماركي (بركيليرا انكيار) التي أدلّى بها خلال قيامه بإجراء أبحاث في المناطق العربية (الهوفوف - بغداد - البصرة)⁽¹⁾
 - وبرقية أخرى بتاريخ 24 جمادى الآخرة 1330هـ / 9 يونيو 1912م حول التحقيق بشأن قيام اثنين من اليونانيين بالدخول إلى جدة وهما متخفيان في ملابس نسائية ، وقيامهما بتصرفات غير لائقة في الشوارع ، وقد تم إبلاغ سفارتهم بذلك ، والتبيّه على بقية السفارات الأجنبية في الدولة العثمانية بعدم تكرار مثل هذه التصرفات حتى لا تتسبّب في مشكلة سياسية مع بلدانهم .⁽²⁾
 - وبرقية أخرى في التقرير المرسل بتاريخ 3 جمادى الآخرة 1331هـ / 8 مايو 1913م بشأن الجواسيس العاملين لصالح إيطاليا ، والذين يقومون بإفساد العربان في مناطق بيروت وسوريا والجaz ، وينشرون أخباراً كاذبة ، ويثيرون بها الأهالي للقيام بتمردات في وجه الدولة العثمانية .⁽³⁾
- وهكذا نجد أن دعوات الاستشراق التي بدأت في أوروبا وبتشجيع من الكنيسة ، بل ونشأت في أحضانها ، تتوّعّت أهدافها ما بين حق الممارسة التجارية، والرحلات العلمية والكشفية والتجسس وإثارة الفتنة وتقسيم الحدود وبيع الأراضي وتهرّب الأسلحة وبيعها ... ، مع توفر الدعم المادي اللازم لهذه الرحلات .
- ويتضح هنا أن هؤلاء كانت تصرف عليهم أموالاً طائلة ، ويمولون بدعم من الكنيسة حتى تدخل رغباتها حيز التنفيذ ، وبهذا يظهر تحول فكرة الكنيسة والدول الأوروبية

⁽²⁾ A.G.e . No : 1166317 , Tarihli , IB 1265 H .

⁽¹⁾ BoA. " DH. Mul. Tasnifi " , No : 911 – 129 T . 16 Ca 1330 H .

⁽²⁾ BoA . DH.ID. Tasnifi " No : 421116 " Tarihli , 24 c.

⁽³⁾ BoA . DH . SYS . Tasnifi , No : 2127 , Tarihli , 19 m . 1332 H .

من فكرة الغزو العسكري والاستعماري إلى الغزو الفكري والثقافي للمنطقة العربية والإسلامية ومنذ فترة بعيدة ، وهذا ما نلمسه من خلال ازدياد البعثات الاستكشافية والإرساليات التصويرية إلى تلك المناطق .

ولعله من المعروف أن المستشرين كانوا يعتمدون في تحقيق أهدافهم وتسويير نشاطاتهم على ما يجدونه من التمويل الكافي سواء أكان من المؤسسات الدينية أم السياسية التجارية في الغرب .

كما أن ملوك وأمراء أوروبا وأثرياء أمريكا ، والمؤسسات الخيرية ينفقون الغالي والنفيس في سبيل النهوض بالدراسات الاستشرافية ، ويوفرون المنح الدراسية للمساهمة في هذا المضمار.⁽¹⁾ وهذا ما يقرره أحد المستشرين في قوله:

" الاستشراق في ألمانيا حالياً وفي العالم الأوروبي الحديث كله مادة علمية معترف بها من الجميع ، ولا حاجة بها وإن قل عدد المشغلين بها إلى البرهنة على أنها مادة علمية جديرة بالوجود ، فقد تم لها هذا ، وتوشك أن تكون ممثلاً في كل جامعة من الجامعات بكرسي رسمي يشغلها أستاذ ، ثم هناك عدد عظيم من وظائف المدرسين والمعيدين في تخصص الاستشراق إلى جانب الأساتذة ، ويعني هذا أن الناشئة من المستشرين يلقون ما يؤمن مستقبليهم من الناحية المالية نوعاً ما. ونحن جميعاً المتمتعون بهذه النظم نعرف بأن المجتمع ممثلاً في الحكومات والمجالس النيابية يضع تحت تصرفنا الإمكانيات اللازمة لإجراء بحوث الاستشراق ، وللحفاظ على نشاطنا التعليمي في هذا المضمار . ويسرنا أن نرى كل عام أفراداً من الحاصلين على شهادة إتمام الدراسة الثانوية يدفعهم اهتمامهم بالمادة وتحفزهم موهبتهم اللغوية إلى الاتجاه لدراسة العلوم العربية أو الإسلامية أو أي فرع من فروع الاستشراق الأخرى".⁽²⁾

وقد شاهدنا وسائلهم فيه من إقامة معاهد ومكتبات ومتاحف ومطابع دور نشر ومؤتمرات وبعثات علمية ، وما خُصت به كلها من هبات الأفراد ، إذ وصلت هبات الأفراد فقط على كرسي اللغة العربية في جامعة هارفارد إلى أكثر من نصف مليون دولار سنوياً،

⁽¹⁾ عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص 141.

⁽²⁾ عدنان محمد وزان ، مرجع سابق ، ص 142. ظاهر يوسف ، الاستشراق الألماني إلى أين ، مجلة التراث العربي ، العدد 68 ، <http://www.Dahsha.com> .. 2008/4/21 م .

عوضاً عن مساعدات المؤسسات التي تصل سنوياً إلى 35 مليون دولار ، إضافة إلى ميزانيات الحكومات التي لا سبيل إلى تقديرها .

ولنلقي نظرة على وضع الكنيسة عندما بدأت الدولة العثمانية فتوحاتها في أوروبا ، فالصراع المذهبية الذي دار بين الكاثوليكي والأرثوذكسي مزق الكنيسة داخلياً وجعلها مشتلة ، وهذا هو الذي مهد الأرض لفتح العثماني في أوروبا كلها، فمنذ أن حدث الانفصال التام بينهما عام 1058هـ / 446م - حيث السياسة والسلطة تشكل جوهر الخلاف - أصبح الانشقاق أمراً طبيعياً وازدادت الهوة بينهما شيئاً فشيئاً .⁽¹⁾

واستمر الصراع الكنسي وساد معه عصر الظلم والاستبداد ، ومارس أتباع كل مذهب على الآخر السلب والنهب ، مما حدا بهؤلاء إلى تفضيل المسلم التركي على قبرة الكاردينال ، وعندما أحاط الخطر العثماني الإسلامي بالقدسية حاول البابا ضم الكنيستين والاعتراف بالذنب ، إلا أنَّ المساعي باعت بالفشل ، وزادت الفجوة بين الكنيستين ، وتعالت صيحات العامة والخاصة ، الترك ولا اللاتين.⁽²⁾

لدرجة أنه أثناء حصار القدس صاح الدوق (نوتاراس) - ثاني رجل في الدولة بعد الإمبراطور من حيث المكانة - صيحته المشهورة : لأن نرى في القدس عامة الأتراك خير من أن نرى فيها قبرة الكاردينال . وذلك بسبب أنه أثناء الحصار أديت الصلاة في كنيسة آيا صوفيا على الطريقة الكاثوليكية، وبحضور الإمبراطور تمهدًا لتوحيد الكنيستين مما آثار سخط الأهالي الأرثوذكسيين.⁽³⁾

وفي هذا العمل دلالة واضحة على التلميح بأن أصحاب المذهب الأرثوذكسي سي تعرضون للاضطهاد والقتل في حال ضمت الكنيستين . في المقابل كان الإسلام يوعدهم بالحرية والتسامح الديني .

ولم يتوقف هذا الأمر على القدس بل تعداه إلى صربيه ؛ إذ إنَّ حاكمتها (هيلين) أرادت أن تحمي بلادها من الأتراك ، ولم تعتبر بما حدث في القدس من فتن وثورات حينما أراد إمبراطورها ضم الكنيستين ، فأرسلت إلى البابا (كاليكست الثالث) تطلب منه الحماية ، ولم يكن عداء أهل صربيا للكاثوليكية أقل من عداء أهالي القدس للكنيسة لها ، بل

⁽¹⁾ علي حسون : مرجع سابق ، ص 93 .

⁽²⁾ مرجع سابق ، ص 94 .

⁽³⁾ سالم الرشيدى : محمد الفاتح ، ط1 ، مصر : دار البشير ، 1420هـ / 2000م ، ص 77 ، 78 .

صاحب أهالي صربيا وهاجوا في وجه هيلين وقالوا " لأن نكون من الأتراك خير من أن نكون من الرومان الكاثوليك ".⁽⁴⁾

وهكذا آثروا الحكم العثماني المتسامح ، وفتحوا أبوابهم للأتراك على أن يفتحوها لبابا روما ؛ لأنهم كانوا على يقين تمام بأنهم سينالون الحرية الدينية في ظل العثمانيين المسلمين. وقد وصل الأمر بأن أحد بابوات روما قال لبعض الأمراء: " إذا ما وصل الترك إلى راجوسا ⁽¹⁾ فإننا سنضع أنفسنا بين أيديهم ".⁽²⁾ أي دليل أكثر من هذا يعبر عن مدى كرههم للاضطهاد الديني الذي تمارسه الكنيسة عليهم ، ومدى إرهاقهم من حياة القسوة والمذلة والاضطهاد .

في الوقت نفسه كانت الدولة العثمانية قد أكملت نشأتها وبدأت بوضع أقدامها على البر الأوروبي ، ثم فتحت القدسية ، وانضم البعض من الأرثوذكس إلى الجانب العثماني نتيجة لهذا الانشقاق ، وقد نسب إلى رهبان الصرب أنهم ساعدو سليمان القانوني وهو يحاصر قلعة بلغراد لتسهيل فتحها ، وهم لم يفعلوا ذلك إلا كرهاً للكثافة وأهلها .⁽³⁾ ولم يقتصر الأمر على الشناق المذهبي الكاثوليكي - الأرثوذكسي ، وما نجم عنه من كوارث ، بل والأهم من ذلك هو وصول شخصية الحكم إلى درجة كبيرة من انحلال الأخلاق.

كما وصف المؤرخ (لوبيتراند) القدسية بقوله : " إن هذه المدينة التي كانت غنية وزاهدة من قبل ، هي الآن مستقر العار والذب ، وبؤرة الخيانة والمداجنة والشدة ، ومستودع البخل والزهو ، حتى إنهم لما عقدوا مجلساً للتباحث في كنيسة آيا صوفيا عندما حاصرها السلطان العثماني محمد الفاتح ، تزاحموا على التقدم بالجلوس ، تزاحماً أوصلهم إلى التضارب بالكراسي " .⁽⁴⁾

ولا شك أن هذه الخصومة والعداوة التي اتخذت إطاراً دينياً وسياسياً بين الكاثوليك والأرثوذكس حينذاك ، قد أضعف من قوة الحملات التنصيرية وتماسكها سواء داخل أوروبا

⁽⁴⁾ مرجع سابق ، ص167 .

⁽¹⁾ راجوسا : إقليم يقع على الساحل الشرقي للبحر الأدربيطيكي ، دفعت الجزية للدولة العثمانية وأبرمت معها عدة معاهدات تجارية، تتبع حالياً دولة النمسا بموجب مؤتمر ويانه . محمد فريد المحامي ؛ مصدر سابق ، ص 202 .

⁽²⁾ أحمد سعيد نونو : الأكلة حول القصعة ، ط1 ، مصر : الروضة الثقافية ، 1420هـ / 1990م ، ص40 .

⁽³⁾ علي حسون : المرجع السابق ، ص94 .

⁽⁴⁾ مرجع سابق ، ص95 .

أم خارجها ، مما سمح للقوة الإسلامية التي بدأت تظهر ملامحها آنذاك - وهي القوة العثمانية
- بالتقدم والانتصار .

ولعل أتعجب ما في هذه الخصومة أن يختار بابا الفاتيكان يوم 1 ذي الحجة
1404هـ / 15 سبتمبر عام 1983م موعداً لزيارة النمسا ، وي تعرض في خطابه إلى
انتصار القوات المسلحة في القرن 11هـ / 17 على العثمانيين الذين كانوا يحاصرون فيينا
في ذلك الوقت ، هذه المناسبة هي المعركة التي دارت أحدها في مرتفعات فيينا
عام 1095هـ / 1683م بين الجيوش المسيحية في أوروبا وبين الجيش العثماني في عهد
السلطان محمد الرابع، وهي مناسبة لها ظروفها وتاريخها ، وليس كالمناسبات التي تثار
اليوم بغرض إثارة الأحقاد والكراهية ، دون أن يكون لها ظروف وأوضاع خاصة بها ^(١).
وبدأت المؤامرات من داخل الكنائس الأوروبية ضد الدولة العثمانية ، وسعت إلى
خلق العديد من المشاكل داخل الدولة العثمانية ، ولا سيما المشاكل الدينية ؛ لظهورها أمام
العالم المسيحي والأوروبي كله على أنها غير جديرة بالقيادة للعالم كله ، سواء الإسلامي أم
غيره ، وخاصة في أوروبا ولنرى ذلك الخطاب الذي وجهه الأسقف (جرمانوس) - أسقف
باتراس، ورئيس تنظيم الجمعية السرية في المورة - لفهم منه ما يحمله خطابه من حقد
وضغينة ضد المسلمين الممثلين في العثمانيين وحكامهم ، إذ أراد بخطابه هذا أن يثير الفتنة
داخل اليونان، فخطب في شعبها قائلاً :

" يا أيتها الأمة اليونانية ، هي أفيقي واقتلي الأتراك العثمانيين " ، ثم قام بالدعوة
العامة لكل الروم للقيام بالحرب ضد العثمانيين .

وكان خطبة هذا الأسقف، الأثر البالغ في بداية التمرد الذي قام به اليونانيون
عام 1237هـ / 1821م ، مكتسباً لهذا التمرد شخصية وطنية ودينية ، وقاده رجال الدين
بأنفسهم ، مما جعله يأخذ في الاتساع والانتشار على نطاق واسع. حيث قال : " ربما تعلمون
أن الكنيسة قادت تمرد اليونان ضد العثمانيين عام 1237هـ / 1821م ، وكان القساوسة هم

^(١) أنور الجندي : كيف يحطم المسلمون قيد التبعية والحصار ، ص81

الذين أخذوا بزمام المبادرة ، أي أنهم أول من رفع راية التمرد ، وعن طريقهم حصلت اليونان على استقلالها من الدولة العثمانية ... " ⁽²⁾

واستمرت دعوة الكنيسة للمطالبة بالمواجهة العسكرية مع العثمانيين بل والقضاء عليهم لخطورتهم على مستقبل الكنيسة في العالم وأوروبا ، لكن ما كتبه البطريرك (جريجوريوس) في رسالته إلى القيسar (الكسندر) تشير إلى أن خطة الكنيسة بدأت تتوجه للمواجهة بشكل آخر غير الشكل العسكري ، فيقول: " من المستحيل سحق وتدمير الأتراك العثمانيين بالمواجهة العسكرية ؛ لأن الأتراك العثمانيين ثوريون جداً ومقاومون ، وواقون من أنفسهم ، وهم أصحاب عزة نفس واضحة ، وهذه الخصال التي يتمتعون بها إنما تتبع من ارتباطهم بدينهم ، ورضائهم بقضاء الله وقدره ، وتشبثهم بهذه العقيدة ، وأيضاً من قوة تراثهم وتاريخهم ، وطاعتهم ومؤازرتهم لسلطنهم وقادتهم واحترامهم لكتابهم الأتراك العثمانيون أذكياء ، وهم مجدون مجتهدون متباينون مع رؤسائهم الذين يوجهونهم ويقودونهم في الطريق الإيجابي الصحيح ، مما يجعلهم قوة هائلة يخشى منها ، فهي تتميز بالقناعة والتصميم وشدة المراس والثبات عند المواجهة . إن كل مزايا الأتراك العثمانيين هذه بل وبطولاتهم وشجاعتهم إنما تأتي من قوة تمسكهم بدينهم ، وارتباطهم بأعرافهم وتقاليدهم وصلابة أخلاقهم" . ⁽¹⁾

وبعد أن عدد البطريرك (جريجوريوس) المزايا التي يتمتع بها العثمانيون والصفات التي أرسست قواعد ثباتهم واستمرارية نجاحاتهم العسكرية وتفوقهم في أي مواجهة عسكرية مع أوروبا ، بعد ذلك كله فطن هذا البطريرك إلى الحلول غير العسكرية التي يمكن أن تساعد على هدم هذه الصفات . وإسقاط تلك المزايا لدى العثمانيين ، والبدء في تخريب عقيدتهم الراسخة في نفوسهم، فأشار على القيسar (الكسندر) بهذه الحلول التالية: أولاً : لابد من كسر شعور الطاعة عندهم تجاه سلطانهم وقادتهم وتحطيم روحهم المعنوية وروابطهم الدينية ، وأقصر الطرق لتنفيذ هذا تعويدهم التعايش مع أفكار وسلوكيات غريبة لا تتواءم مع تراثهم الوطني والمعنوي .

⁽²⁾ ثريا شاهين : دور الكنيسة في هدم الدولة العثمانية ، ترجمة : محمد حرب ، ط 1 ، جدة : دار المنارة للنشر والتوزيع ، 1418هـ / 1997م ، ص 64 .

⁽¹⁾ ثريا شاهين : مرجع سابق : ص 70-71 .

ثانياً : لابد من إغراء الأتراك العثمانيين لقبول المساعدات الخارجية التي يرفضونها بداعي من إحساسهم بعزمهم ، وتعويدهم عليها ، حتى لو أدى ذلك إلى إعطائهم قوة وقدرة ظاهريتين فقط ولمدة محدودة .

وفي الوقت واليوم الذي تهتز فيه روابطهم ومعنوياتهم ستهتز قدراتهم الذاتية ، فهذه المعنويات والروابط هي التي تدفعهم نحو النصر ، إضافة إلى قدراتهم الأخرى وكثرة العدديّة التي تبدو في الشكل أكبر مما هي عليه في الواقع ، الأمر الذي مكّنهم من السيطرة والحكم والوجود في المجتمع الدولي .

ذلك يمكن هدمهم وتدميرهم بإعلاء قيمة الأمور المادية وأهميتها في تصوراتهم وأذهانهم - أي إفسادهم بالإغراءات المادية - ولهذا فإنه ليس بكاف إحراز انتصارات عليهم في ميدان الحرب العسكرية فحسب ، ولكن العكس هو الصحيح ؛ لأن اتباع طريق الحرب - وحده - لتصفية الدولة العثمانية ، من شأنه أن يمس أحاسيس ومشاعر الوفاء لدى الأتراك العثمانيين ، فيكون سبباً في تتبّعهم وسرعة إيقاظهم ، ووصولهم لمعرفة حقيقة ما يُخطط ويُبيّن في الخفاء لهم ولوطنهم من تخريب وتدمير .

إن ما يجب عمله هو إكمال هذه التخريبيات في بنائهم الذاتية والاجتماعية ومكانتهم الدولية دون أن يشعروا بشيء .⁽¹⁾

وهكذا أورد التقرير السابق الذي تضمنه رسالة البطريرك إلى القيسار (الكنسنا) كل الحلول والأساليب غير العسكرية التي يمكن أن تضعف من قوة العثمانيين وتماسكهم ، بل إنها قد تقضي على الأسس التي تقوم عليها تلك القوة ، كالبنية الاجتماعية والدولية ، وقبلها البنية الدينية والعقائدية ؛ وبذلك رسم البطريرك الخطوط الأساسية لحركة الدراسات الاستشرافية ، ورمى العثمانيين بكثير من الشبهات الكاذبة والافتراضات المغرضة ؛ للوصول إلى هدم الدولة العثمانية داخلياً وخارجياً ، والتخلص من أي بقايا لها أو محاولة إعادة حكمها مرة أخرى .

والرسالة تبين بوضوح تام المنهج الذي سار عليه المستشرقون بدعم من الكنسية والبطريرك الذي أقسم على عدم خيانة الدولة العثمانية ، فكسر شعور الطاعة عند العثمانيين وتحطيم روحهم المعنوية ، وإغراهم بقبول التدخل الخارجي ، لا يأتي إلا بتشويه تاريخهم

⁽¹⁾ ثريا شاهين : مرجع سابق ، ص 8 . علي محمد الصلاحي : الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط ، ط 1 ، دار البيارق ، 1420هـ / 1999م ، ص 576 - 577 .

والافتراء على حاضرهم لضمان المستقبل بيد الكنيسة. وهكذا فإن التسامح الديني للعثمانيين أعطى المجال لتشويه صورة العثمانيين بدعم من المسيحيين أنفسهم .

لقد كان البطريرك (جريجوريوس) بطريرك إسطنبول عضواً فعالاً في خدمة الجمعية التي أسست لخدمة قيام دولة اليونان الكبرى ، على اعتبار أن البطريركية أصبحت الوراثة الشرعية لحقوق الإمبراطورية البيزنطية على الرغم من عدم وجود أي صلة سواء تاريخية أم عرقية بينهم وبين الدولة البيزنطية ، وكان يستخدم كل موظفيه وكل نفوذه لتنفيذ أوامر الجمعية السرية التي تسعى لقيام دولة اليونان الكبرى ، وكانت خطوات الجمعية كالتالي :

- (١) إنشاء جمعيات سرية في كل مكان في الدولة العثمانية ، والقيام بتسجيل أغنياء الروم وأكثرهم نفوذاً في هذه الجمعيات ؛ لضمان المساعدات المادية والمعنوية .
- (٢) تعيين المشهورين من الهيلينيين من رجال الكنيسة رؤساءً للجمعية .
- (٣) تأسيس شركات تجارية لتأمين مصدر مالي للجمعية السرية .
- (٤) الإفادة من الشباب الهيلينيين الذين يدرسون في أوروبا .
- (٥) العمل على تأمين مساعدة الدول الكبرى .^(١)

ومنذ ذلك الحين بدأت البطريركية تنفذ مخططاتها لتشويه صورة الدولة العثمانية والقضاء عليها ، ففي عام 1337هـ / 1918م بدأت جمعيات بالظهور مرتبطة بالبطريركية التي أمدتها بالمساعدات المالية ، وهذه الجمعيات كانت تستغل في شن الحملات الصحفية المضادة ، وتقديم تقارير وإحصاءات غير صحيحة عن الدولة العثمانية للدول الأجنبية ، وذلك مساعدة لها للقضاء على الدولة العثمانية . فعلى سبيل المثال كانت البطريركية تنشر رسائل ضد الأتراك موجهة للعالم الغربي ، مفادها . " تعالوا لتنقذونا نحن المسيحيين من بين براثن ظلم الأتراك الظالمين القاتلة المتوحشين " ^(٢) ، كما أنها كانت دائمًا تحت أوروبا على مؤازرة المسيحيين ومساعدتهم عسكرياً ، وهذا ما يفسر لنا بوضوح أن أعمال العنف

^(١) علي محمد الصلاibi : مرجع سابق ، 577 . محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ط 2 ، دمشق : دار العلم ، 1419هـ / 1999م ، ص 131 .

^(٢) محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 139 - 141 .

والمجازر في اليونان ضد العثمانيين جاءت قوية ومنظمة مما يدل على أنها مدعمة تدعي
جيداً .

وكانت علاقات البطريركية والروم مع الروس أفضل منها مع غيرهم ، لذا كانوا
يعملون معهم ، واتضح ذلك من خلال رسالة البطريرك (جريجوريوس) إلىقيصر روسيا
- كما سبق أن أوردناها - بين له فيها كيفية القيام بهدم الدولة العثمانية من الداخل ، دون
استخدام القوة العسكرية ، اعتماداً على هدم البنية الاجتماعية والدينية للدولة .

وذكر الجنرال (أغاثاتيف) - السفير الروسي المشهور الذي بذل مساعي كثيرة
وكبيرة ضد العثمانيين في عهد السلطان عبد الحميد الثاني - ، عندما كان سفيراً لروسيا في
إسطنبول في مذكراته ما يلي :

" توجّهت إلى البطريركية في ذلك اليوم الذي استقال فيه (محمود نديم باشا) من
رئاسة الوزراء ، والتقيت هناك بالبطريرك (يرمانوس) ، وأثناء حديثنا قرأ لي مسودة خطاب
كان في صندوق عشر عليه أثناء عمليات بناء وإنشاءات البطريركية. مسودة هذا الخطاب
كانت لرسالة أرسلها البطريرك (جويجوريوس) - هذا الذي أُعدم شنقاً في عهد السلطان
محمود الثاني بتهمة تقديم العون لانفصال اليونان - إلى قيصرنا في ذلك الوقت القيصر
(الكسندر) وقد كان هذا الخطاب يحمل توصيات جديرة بالاهتمام كما رأينا .⁽¹⁾ "

وقد صرّح السفير الروسي بكل هذه المعلومات التي عرفها عن الأتراك العثمانيين
من خلال قيامه بعمله السياسي الرسمي لدى الدولة العثمانية في إسطنبول ، حيث دون كل ما
عرفه وشرحه حول تشخيصاته عن صفات وأخلاقيات الأتراك العثمانيين التي يمكن عن
طريقها الدخول إلى ذلك الكيان القوي ، ومن ثم العمل على هدمه .

ومن الجدير بالذكر أن هذه الآراء ووجهات النظر التي صرّح بها السفير الروسي
 بإسطنبول - من خلال مذكراته تجاه سياسة بلاده نحو الدولة العثمانية ، واتفاق سياستها
 العدائبة مع سياسة الكنيسة - لأمر غير غريب ولا مفاجئ من رجال السياسة والدولة في
 روسيا ؛ فمن المعروف أن روسيا كانت تتحين الفرصة منذ قديم الزمان لتوجيه ضرباتها
 للدولة العثمانية ، فمنذ أن دخلت فارس في حرب طاحنة مع الدولة العثمانية - بحكم الحدود

⁽¹⁾ ثريا شاهين : مرجع سابق ، ص70

الجغرافية المشتركة والجوار – كانت روسيا تقدم المساعدات العسكرية لنجدتها ، ولا شك أن مساعدة روسيا لفارس ضد الدولة العثمانية يعود من جهة لمعاداة روسيا للدولة العثمانية ، ومحاولتها السيطرة على الولايات الإسلامية في وسط آسيا من جهة أخرى . ونتيجة لذلك الضغوط السياسية والعسكرية تنازلت الدولة العثمانية لروسيا عن مناطق إقليمية مهمة ، كمنطقة البحر الأسود الإستراتيجية التي سهلت لها الوصول إلى البحر المتوسط ، وإلى فارس والخليج .⁽²⁾

وكانت روسيا تدرك تماماً مدى أهمية النشاط الاجتماعي ، فهو أحد الأنشطة التي يجب ممارستها في المنطقة العربية والإسلامية الخاضعة للدولة العثمانية للسيطرة عليها . فأدركت أهمية مهنة الطب ودورها في تحقيق التفاهم بين الشعوب الشرقية والإسلامية ، واتخذت ذلك ذريعة للتدخل في شؤون فارس والخليج . والحقيقة أن هذه المهنة الجليلة ذات منحى سياسي خطير ⁽¹⁾ ؛ إذ إن للطبيب إمكانية واسعة وصلاحية في الدخول إلى البيوت ، والتعامل مع العامة من الناس البسطاء بكل سهولة قد لا تتوافر لدى الآخرين ، لهذا آثرت روسيا أن يكون الموظفون الروس من الأطباء، وبدأت في إرسالهم في بعثات طبية إلى المنطقة للتأثير فيها.⁽²⁾

وحيث انتشر وباء الطاعون في الهند استغلت روسيا الفرصة ، وبدأت الوفود الطبية زيارة مناطق الخليج ، وأهمها بندر عباس والبصرة بحجة دراسة المرض المنتشر الذي لم يتتأكد انتشاره بعد .

⁽¹⁾ نادية وليد الدوسرى : محاولات التدخل الروسي في الخليج العربي 1297هـ - 1880م / 1325هـ - 1907م ، مطبوعات دارة الملك عبدالعزيز بالرياض ، 1422هـ ، ص 39 .

⁽²⁾ جمال ذكريا قاسم : الخليج العربي دراسة لتاريخ الإمارات العربية ، 1840 - 1914م ، القاهرة : جامعة عين شمس ، 1966م ، ص 78 . مانع حمد الجنهى : مرجع سابق ، ص 683 .

⁽³⁾ الأرشيف الروسي في مركز أرشيف الدولة ، موسكو ، ملف 3 ، د. 346 القنصلية العامة للإمبراطورية الروسية ، بغداد 2/26/1890م ، موجهة إلى القسم الآسيوي في الخارجية للإمبراطورية الروسية .

British Documents on Foreign Affairs , Part I, Volum 13, Doc. 50 , report on the British Indian Commercial mission to south – eastern Persia during , (1904 – 1905) .

وقد أثارت زيارتهم شكوك السلطات البريطانية حينذاك في الخليج ، وبدأت تطلق الشائعات بأن هؤلاء ليسوا أطباء ، وإنما لهم أهداف أخرى قدموا لتنفيذها ، وخاصة بعد أن استقر بعضهم وبصحبته الضباط الروس في بندر عباس وبوشهر .⁽³⁾

فأعلنت روسيا ردها على الشائعة التي روجها الإنجليز بأن هدفها من إرسال هؤلاء الأطباء هو خوفها على رعاياها من فتك هذا المرض المخيف وحمايتهم صحيحاً منه ، الأمر الذي جعلها تكتثر من إرسال البعثات الطبية فأرسلت روسيا طبيبين روسيين خبريين في الطب ، هما المستر (أوست Ost) ، والمستر (مير Mair) ، وكان الأخير طبيب البعثة الدبلوماسية الروسية في طهران ، وقد أُرسل إلى بوشهر لدراسة الطاعون ، كما تبعهما طبيان آخران هما (Rod Zevitch) ، والطبيب (باسكوفسكي Baskoveski .

ولقد قام جميع هؤلاء الأطباء بزيارات متواصلة إلى البصرة وبندر عباس وبوشهر ، وبقية مناطق الدولة العثمانية ، وكان من أهم الأطباء الروسيين أيضاً الطبيب البري (شاني فسكي Shan Veski) الذي يعد من كبار أطباء مستشفى تقليس ، كما أنه كان مستشاراً ، وكان موجوداً في الخليج بتكليف من لجنة مكافحة وباء الطاعون المرخص لها من السلطات العليا ، وكانت مهمته تحصر في مراقبة سير الأوبئة في الخليج.⁽¹⁾

ومهمما يكن من أمر فإن الطبيب الروسي (مارك Mark) كان يرسل التقارير السياسية الرسمية من بندر عباس إلى الحكومة الروسية بمساعدة روسي آخر يدعى (أداموف Adamov) ، الذي ثبت أنه كان ضابطاً في المدفعية الروسية ، وكان يزور بانتظام بوشهر والبصرة ، أما الدكتور (أبو سكوريسكي Boskareski) فيعد أحد

(3) طارق نافع الحمداني : العثمانيون والروس في الخليج العربي ، دراسة في العلاقات السياسية بينهما 1878 – 1907م الوثيقة ، العدد 16 ، جمادى الآخرة 1410هـ / يناير 1990م ، ص98 .

(1) الأرشيف الروسي في مركز أرشيف الدولة ، موسكو ، ملف ب – ب5 – أب ث ر – ف – الأرشيف السياسي – د – 183 – 183 – د – 41 – 105 – 106 ، تقرير مفصل عن مهمة القنصل الروسي في بغداد والمستشار كروغloff واستقباله للباخرة الحربية جيليان في رحلتها إلى البصرة والمحمراة وبغداد ، 17 إبريل ، 1900 .

الأرشيف الروسي في مركز أرشيف الدولة ، موسكو ، ملف السفارة الإمبراطورية في إسطنبول ، الإضمارة 1244 ، بلاغ كروغloff إلى إسطنبول ، بتاريخ 10/9/1900 رقم 282 . وانظر أيضاً ، ريزقان : الحج قبل مائة عام ، الرحلة السرية لضباط الروس عبد العزيز دولتشين إلى مكة المكرمة 1898 – 1899م ، ط2 ، بيروت : دار التقرير بين المذاهب الإسلامية ، 1414هـ / 1993 ، ص9-11 .

الأطباء الروسيين النشطين ، وقد قام بنشاط بارز أثناء انتشار الوباء في بوشهر وبندر عباس طوال مدة إقامته فيهما ، وقد انتهت برحلته إلى روسيا ليحل محله طبيان آخران .⁽²⁾ وهكذا صدق رؤية البطريرك (جريجوريوس) في رسالته السابقة التي أشرنا إليها ، والتي أرسلها إلى القيسar الكسندر ، والمتضمنة الأساليب والخطط غير العسكرية نحو هدم الدولة العثمانية والولايات العربية والإسلامية ، والخاصة بالشكل الاجتماعي والطبي كما رأينا.

والحقيقة أن مثل هذا الاهتمام البالغ بالدراسات الاستشرافية من قبل الحكومات والمجالس النيابية والأوساط الكنيسية ، يعد مؤشراً مهماً لما يهدف إليه الاستشراق وما يمثله من خطورة ، وهذه الخطورة تتمثل في كتابات المستشرقين التي تهدف إلى تشويه حقيقة الإسلام وحضارته .

إضافة إلى أن الكنيسة الغربية قد شرعت في اتخاذ سبيل جديد هو خلق جو ومناخ من التعصب الديني ، أشعّلته في نفوس الشعب الأوروبي وذلك باختلاف الأكاذيب حول اضطهاد المسلمين للمسيحيين وادعاءاتهم عن تخريب الكنائس والأديرة .⁽³⁾ متذمرين من تحويل كنيسة آيا صوفيا إلى مسجد نموذجاً بارزاً لهذا التخريب ، فقد قام المسلمون بإزالة الصور من آيا صوفيا ، وتغطيتها بالجص ؛ امثلاً للشريعة الإسلامية التي تحرم التصوير ونحوه . وذلك لتشويه صورتهم في الغرب . والتبرير لاستخدام العنف ضدهم ، ولتأييد حربها ضد الأتراك أطلقـت على تلك الحرب اسم (العنف المسيحي المقدس) ، فتعاونوا القساوسة مع الأدباء والمصلحين على تحريض الشعوب الأوروبية ضد الأتراك ، بالتحذير منهم تارة ، وتشويه صورتهم وأفعالهم في عقول العامة تارة أخرى . فأعادوا إلى الأذهان روح الحرب الصليبية ، ومن أشهر هؤلاء (مارتن لوثر) الذي أكد أن التقدم العثماني ما هو إلا أن الشيطان سينطلق من سجنه ، وهذا الأمر يحقق رؤيا القديس (يوحنا) الذي قال: " انظروا أنا أسلط عليكم السيف ، سأطي بأحاط الشعوب لتحتل بيوتكم ".⁽¹⁾ وإنما نشروا هذه الأقوال لتبرير حقدـهم على المسلمين وهجومـهم المتواصل عليهم .

⁽²⁾ Russian Plague doctors in the Gulf , seeretE ., may 1898 , Nos . 73 – 103 . Secret E., April 1899 , Nos . 145 – 163 , Seeret E ., September 1899 , Nos . 203 – 213 .

⁽³⁾ سهام عبد العظيم : مرجع سابق ، ص 9 .

⁽¹⁾ أحمد سعيد نونو : مرجع سابق ، ص 40 . محمد سليمان العبد : مرجع سابق ، ص 13 .

ومع ذلك كانت البابوية تترقب بفزع دائم مجيء العثمانيين إليها ، وفي قراره نفسها تعزم الاستسلام لها .

وكما سبقت الإشارة وجذنا أن الكنيسة والمحافل العلمية والثقافية والحكومات المختلفة في أوروبا كان لها هدف واحد ، هو الاتفاق على ترك القوى العسكرية ، وإحلال الغزو الفكري والثقافي في هدم الدولة العثمانية. واستغلت الدولة العثمانية هذا الخلاف فسيطرت على معظم أراضي أوروبا الشرقية بما فيها القسطنطينية .⁽²⁾

وبدأت بعدها الكنيسة الأوروبية تعيد اتحادها مرة أخرى وتنتمس ثانية لهدم أركان الدولة العثمانية بشتى الطرق والوسائل سواء العسكرية منها أم الفكرية والثقافية التي تبنتها الكنيسة الأوروبية منذ زمن بعيد .

ومن خلال التقارير الواردة يمكن لنا معرفة الأساليب الخفية التي استخدمتها الكنيسة في أوروبا ، وخاصة تلك الكنائس التي تعيش تحت إدارة الحكم العثماني ، وذلك استعداداً للمواجهة العسكرية المسيحية الإسلامية مع الدولة العثمانية ، نذكر منها على سبيل المثال : جاء في أحد التقارير المرسلة : " وقد وضعوا في صناديق المواد الغذائية والمعدات العسكرية من ملابس عسكرية وأسلحة وذخيرة فأرسلوها إلى الكنائس على أنها مليئة بالمساعدات الغذائية والمعونات - من طعام وملابس - للفقراء لتوزيعها عليهم ، وقد استطاعت الحكومة العثمانية كشف هذا المكر والخدعة ومعرفة ذلك وتسجيله ".⁽¹⁾

وفي تقرير آخر ، تضمن ذلك المعنى الذي يطالب بالانتقام من كل ما هو عثماني ومسلم في أوروبا عموماً ، واليونان على وجه الخصوص ، حيث يقول : " لقد حرض (خيروستوموس) الجنود اليونانيين والأروام المحليين على ذبح الأتراك المسلمين خلال خطابه الذي قال فيه : " إن شرب دماء التركي ثواب ، فبقدر كمية الدماء التي تشربونها من جسد الأتراك بقدر ما تقتربون من الجنة !! اقتلوا كل من يلبس الطربوش - الأتراك حينذاك - ولم يكن هذا الشعور مليء بالكراهية والأحقاد للعثمانيين نابعاً من داخل الكنيسة الأوروبية فحسب ، بل نجد أيضاً تدخل الدول العظمى والمجاورة لدعم الكنيسة اليونانية والأروام ، وقد شعرت روسيا بالخيانة التي يدبرها الأروام ، وزكمت أنفها رائحة ما يحدث

⁽²⁾ Kemal Pasa Zade : Tevarih – I Al- I Osman , Ankara, 1957 , P. 540 .

⁽¹⁾ ثريا شاهين : مرجع سابق ، ص16 .

فأرادت أن تأخذ شيئاً من الغنيمة ، ودخلت لسرقة ثورة الأروام لحسابها ، فاضطررت الدولة العثمانية إلى مجازاة روسيا ومنها امتيازات ، فبدأ عندئذ التدخل كل دولة تريد أن ترعى مصالح طابورها الخامس".⁽²⁾

والحقيقة أن خلفيّة الصراع بين المسيحية والإسلام ليس قصة للصراع بين المسيحية والإسلام أبداً ، فالإسلام والمسيحية دينان سماويان نزلان من عند الله لإخراج البشرية من ظلمات التتعصب والجهل والأنانية ، ومن ظلمات التآمر والكيد والمكر الشيطاني الذي يستغلّ أسوأ استغلال لإثارة النعرات الدينية ، لتحقيق المصالح الخاصة ، بل إن هذا الصراع سياسي من الدرجة الأولى ، وتدعيمه العصبية الدينية الموجهة ضد الإسلام والمسلمين المتمثّلين في الدولة العثمانية .

وعلى الجانب الآخر ، تسبّب اليونانيون في عدة ثورات في منطقة "الأناضول" كالتي أحدثوها في "تمردات المورة" و "حرب البلقان" سواء أكان ذلك أثناء تقدمهم نحو "أنقرة" أم انتشارهم في منطقة "مرمرة" أو انسابهم ، أو أثناء العمل على إحياء مبدأ جمهورية "بوسطنوس" من جديد.⁽¹⁾

ولا شك أن كل ما حدث هو دليل قاطع على ذلك الحقد الدفين من الأروام واليونانيين تجاه المسلمين وخاصة الأتراك ، وتأكيد على أنهم يقومون بتنفيذ تعليمات ووصايا الكنيسة لهم الدولة والأهالي معاً.

وإنه لمن النادر - في التاريخ - أن يحدث مثلاً حدث من الروم المحليين تجاه مواطنיהם الذين عاشوا معهم في سلام وأخوة ، وتجاه دولة هي الدولة العثمانية ، هم تابعون لها واستقادوا منها بكل أنواع النعم، ونعموا فيها بحياة آمنة حرّة هيأتها لهم دولتهم العثمانية ، فقد نسوا كل هذه النعم ، وجدوا الإحسان ، وقاموا بمنكرات لا يمكن تخيلها .

ونخص بالذكر رجال الدين الذين قاموا بتحريض الشعب ل القيام بهذه التصرفات، بل إن تطبيقهم لهذه الأمور باسم الدين وباسم رجاله لأمر يبعث على الخجل .

⁽²⁾ مرجع السابق ، ص 16 لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع انظر : وثائق وزارة الخارجية البريطانية ، مكتب السجل العام ، رقم 874/78 ، رقم 20 بتاريخ 1851/11/7 وهي رسائل مدونة بخط يد الملكة فيكتوريا .

⁽¹⁾ ثريا شاهين : مرجع سابق ، ص 110 .

والدليل على تلك النفسية التي يتعامل بها رجال الدين المسيحيين الأرورام تجاه الأهالي المسلمين ، وبؤكد - وبالتالي - ما نرمي إليه ، هو اعتراف المنصفين من كتاب النصارى بالحوادث المفجعة والمجازر التي قام بها الروم المحليون واليونانيون ومنهم على سبيل المثال : الكاتب اليوناني (ديمتري كيتسيكيس) الذي يعترف بهذه الحوادث المفجعة ، وكذلك (جي بيرين) والبروفيسير (جيشكه) ، فهؤلاء تحدثوا وكتبوا عن هذه حوادث الإجرامية بشكل واقعي يتسم بالموضوعية.

وقد قامت لجان تقصي الحقائق المكونة من ممثلي البلاد المحايدة بتسجيل هذه الحوادث المفجعة مدعاة بالوثائق من أماكن حدوثها ومن ثم إبلاغ المسؤولين في تلك الدول بتقارير من قبل ممثليهم في هذه اللجان .⁽²⁾

وبهذا نرى كيف تعاملت الكنيسة في اليونان مع أهالي الدولة العثمانية وخاصة الموجودين منهم في اليونان والأناضول ، وكيف قاموا بالدعوة للنهوض ضد الأتراك بل والقضاء عليهم، وإثارة الأرمن ضد الدولة العثمانية في كل مكان.

إن الصالحيات التي حصل عليها البطريرك والكنيسة - كما سيتضح لاحقاً - وراءه كانت من المساحة بحيث أساء الظرفان استخدامها ، وتحول البطريرك لمجرد جاسوس وعين للبابا في روما على الدولة العثمانية ، لنقل الأخبار أولاً ، ولتحين الفرصة لإثارة الفتنة والقلق ثانياً ، ولدعم الرحالة والمستشرقين الذين ارتدوا رداء العلم ، وهم في الأصل جواسيس للكنيسة لنقل الأخبار والمعلومات .

إن صالحيات البابا في توجيهه حركة الاستشراق ضد الدولة العثمانية مهد لها الصالحيات الممنوعة للبطريرك الذي بدوره قدم الدعم المادي وسهل المرور بأراضي الدولة العثمانية لكتاب الدراسات الاستشرافية .

ويقوم مجلس الكنائس العالمي والفاتيكان وهيئات أخرى بتقديم التوجيه والدعم المالي لكافة الأنشطة الاستشرافية والتصيرية ، وتتوفر مصادر تمويل ثابتة من مختلف الحكومات والمؤسسات في الدول الغربية ، فضلاً عن المشاريع الاقتصادية والأراضي الزراعية والأرصدة في البنوك والشركات والموقفه لتمويل هذه الأنشطة ، بالإضافة إلى حملات جمع التبرعات التي يقوم بها القساوسة من حين لآخر .

⁽²⁾ مرجع سابق ، ص 111 .

وتوجد مراكز للبحوث والتحطيط لهذه الأمور ، وهي تابعة للكنائس والبابوية في الفاتيكان ، ومن أهمها :

(١) مركز البحث التابع للفاتيكان .

(٢) مركز البحث التابع لمجلس الكنائس العالمي .^(١)

ومن خلال العرض السابق لأعمال الكنيسة في تدعيم الدراسات الاستشرافية ، وتوفير كافة المعلومات اللازمة إضافة للدعم المادي ، يتضح مدى الدور الذي أدته الكنيسة وعلى رأسها البابا والبطريرك لتشويه التاريخ العثماني ، حفزاً على ذلك إندفاع الفتوحات الإسلامية العثمانية في مناطق كانت خاضعة لنفوذهم فبدأت في المواجهة الفكرية والعسكرية عن طريق تكوين الأحلاف الصليبية.

^(١) مانع حماد الجهني : مرجع سابق ، ج 2 ، ص 685 .

المبحث الثالث :

أصداء الفتح العثماني في أوروبا ، ودور المستشرقين في إذكاء روح العداء:

إن فتوحات الدولة العثمانية في أوروبا قد غيرت التاريخ الأوروبي وأرغمت الكنيسة وملوك أوروبا أنفسهم على التصدي لهم بل والقضاء عليهم ، كما أنَّ أصداء الفتح العثماني في أوروبا جاءت قوية وجلية ، وساعدت الكتابات الاستشرافية على إذكاء روح العداء والحدُّ على الإسلام المتمثل في العثمانيين .

والحقيقة التي لا شك فيها ، أنَّ الفتوحات العثمانية في أوروبا قد توغلَّت في وقت كانت فيه موجة التيار الإسلامي تتحسر عن الأندلس ، وذلك بسقوط غرناطة في أيدي الأسبان عام 1492هـ / 1498م ، لكن خسارة المسلمين في غرب أوروبا عوضها العثمانيون دينياً ومعنوياً على شرق أوروبا ووسطها .

والواقع أنَّ للفتح العثماني عدة خصائص يمكن إيجازها في التالي :

(1) في الوقت الذي انطلقت فيه الفتوحات العثمانية في قلب أوروبا خاصة في القرن 11هـ / 17م كانت أوروبا تنعم بالبيضة القومية ، وتتنفس عنها عالم الحياة الإقطاعية التي سادت في العصور الوسطى ، مع تطور ملحوظ في النظام العسكري وتسلیح الجيوش ، وظهور واضح للتنظيم الاقتصادي ، والتزود بأسباب النهضة التي أشرفت على أوروبا .⁽¹⁾

وعلى الرغم من هذه الظروف غير المواتية بالنسبة للعثمانيين إلا أنَّ أوروبا وقفت موقف المدافع عن كيانها وأراضيها ، وانهارت مقاومتها أمام الفتح الإسلامي العثماني الذي انتقل من نصر إلى آخر ، وتوغلوا في قلب أوروبا حتى إنَّ العثمانيين فتحوا جبهة بحرية في حوض البحر المتوسط ، حيث فتحوا ردوس وقبرص وكريت .⁽²⁾

(2) علاوة على ذلك عندما شقت الفتوحات العثمانية طريقها وسط الشعوب المسيحية في الحوض الغربي للبحر المتوسط كانوا يحاربون في مناخ وبيئة صحية ؛ إذ ضم الحوض الغربي هذا شعوباً إسلامية تعاونت مع العثمانيين في الحرب ضد خصومهم ، كما أنَّ شمال

⁽¹⁾ إسماعيل ياغي : الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث ، ط 2 ، الرياض : العبيكان ، 1419هـ / 1998م ، ص 16 .
محمد فؤاد كوبربيلي : قيام الدولة العثمانية ، ترجمة : أحمد السعيد ، د. ط ، القاهرة ، 1967م ، ص 118 – 119 ، سيد محمد السيد محمود : إنهاياد الدولة العثمانية "الأسباب" ، ط 1 ، القاهرة : مكتبة الآداب ، 2003م ، ص 46 .

⁽²⁾ أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ط 2 ، مصر : دار الشروق ، 1413هـ / 1993م ، مرجع سابق ، ص 20-22 .

إفريقيا الذي يدين سكانه بالإسلام أرادوا أن يثأروا لإخوانهم في الدين الذين طردوا من الأندلس.⁽¹⁾

لكن لم يكن هذا سبب نجاح العثمانيين وتفوقهم على أوروبا ، إنما تمكن الإسلام من قلوبهم هو الذي جعلهم يتقوون في حروبهم على أوروبا ، ولا يمنع ذلك تلقيهم المساعدة من المسلمين ، وزاد من قوتهم أيضاً أن الشعور الديني كان متراجعاً عند العثمانيين وحافظاً قوياً للاستبسال في القتال وطلب النصر أو الشهادة.

(3) وما تجدر الإشارة إليه أنه في الوقت الذي كانت الفتوحات العثمانية الإسلامية تسير داخل مناطق مسيحية ، كانت تسبقها أخبار سياسة التسامح الديني ، فتجد كل العون والترحيب من شعوب أتبعها طول الاضطهاد الديني ، مما ساعد على استقرار الحكم العثماني بها ، وسرعان ما انهارت مقاومة أوروبا أمام الجهاد الإسلامي للعثمانيين الذين انتقلوا من نصر إلى آخر .

وظهرت الدولة العثمانية بمظهر الحامية للكنيسة الأرثوذكسية ، وملايين المسيحيين الأرثوذكس ، فقد ضمن الإسلام للشعوب المسيحية حماية حياتهم وممتلكاتهم مقابل دفع الجزية ، وطبقت سياسة التسامح الديني بأقصى درجاتها خلال العهد العثماني⁽²⁾ ، إذ اتبعوا سياسة استهدفت تحقيق النهج الإسلامي في معاملة أهل الديانات الأخرى ؛ لكسب ثقة المسيحيين وغيرهم .

هذا التسامح اتضح من التزام السلاطين بالشريعة حيال الديانات الأخرى وخاصة فيما يتعلق بأهل الذمة ، حيث عاش الرعايا المسيحيون واليهود في أمن وسلام جنباً إلى جنب داخل الدولة العثمانية .⁽³⁾

ونتيجة لهذه الانتصارات وأمام هذا العملاق العثماني المسلم الذي لا يخربوا ولا يهدم له بال في نشاطه الحربي ، اختبأت أوروبا خلف الفكرية الصليبية لتعمل على استمرار ضراوتها وعنفها ، وتكونت الأحلاف الدولية ضد العثمانيين، تعذيبها وتدفعها روح صليبية

⁽¹⁾ كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة : منير بعلبكي ، ط 12 ، دار العلم ، 1993م ، ص 401 – 410 .

⁽²⁾ خلف دبلان الوديناني : مرجع سابق ، ص 84 .

لمزيد من التفاصيل الرجوع إلى : محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 128 ، 129 .

⁽³⁾ خلف الوديناني : مرجع سابق ، ص 84 .

وباركها البابوية الأوروبية التي وجدت الفرصة سانحة للانتقام من الوجود الإسلامي المتمثل في الوجود العثماني داخل أوروبا ، مما دفع العثمانيين للتصدي لهذه الحملات .⁽¹⁾

(4) ويجب تسليط الضوء على العوامل التي تضافرت وساعدت العثمانيين على تحقيق هذه الانتصارات ، وأولها الشعور الديني المتاجج ، فالعامل الديني كان له أكبر الأثر في استبسال الجنود العثمانيين بجانب القوات الكافية ، والموارد المالية التي أوقفتها الدولة العثمانية على الجهاد . وانعكس هذا الأمر بوضوح في تزايد دخول أعداد كبيرة من البيزنطيين والأرمن والأرناؤوط في الإسلام ، وقد حرص العثمانيون على فتح قلوبهم وأراضيهم لهؤلاء المسلمين الجدد . كما فتحوا أمامهم المجال لمشاركة أعباء الجهاد وإدارة الدولة بدون آية حدود ، ولم يكن لانتماءاتهم العرقية أو القومية السابقة أي تأثير يمنع من ارتقائهم في مناصب الدولة سواء العسكرية منها أم المدنية ، ونذكر من هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر : الأمير (خوسيه ميخائيل) الذي أسلم في عهد السلطان عثمان ، وأصبح فيما بعد من قادة الدولة العثمانية المرموقين ، ثم تبعه أبناؤه وأحفاده على الطريق نفسه . والقائد البيزنطي (أفرنيوس) حاكم مدينة بورصة الذي عهد إليه السلطان (أورخان) بقيادة أحد جيوشه ، ثم خلفه ابنه علي بن إفرنيوس في قيادة الجيوش الإسلامية ، إذ عهد له السلطان العثماني محمد الفاتح بقيادة أحد جيوشه في أوروبا.⁽²⁾

وكان الأمير أحمد إستيفان- ابن ملك البوسنة - من قادة الجيوش ، بالإضافة إلى الصدر الأعظم محمود باشا في عهد السلطان محمد الفاتح الذي بلغ من شدة تدينه وحسن إسلامه أنه لقب بالولي .^{(*) (3)}

⁽¹⁾ إسماعيل ياغي : مرجع سابق ، ص 16 .

⁽²⁾ زياد أبو غنيمه : مرجع سابق ، ص 60 . أحمد سعيد نونو : مرجع سابق ، ص 46 .

^(*) فيما يلي إحصائية تعتبر دليلاً دامغاً على رفض العثمانيين الواقع في متأهلات العصبية العرقية أو القومية ، فقد بلغ عدد الذين تولوا منصب الصدر الأعظم من الذميين الذين أعلنا إسلامهم حوالي مائتين واثنتين وتسعين شخصاً وتوزعوا حسب انتماماتهم القومية على النحو التالي :

من أصل تركي (132) ، ومن أصل أرناؤطي "سكان ألبانيا" (49) ، ومن أصل بيزنطي (23) ، ومن أصل سلافي (6) ، ومن أصل يوغسلافي "بوشنق" (13) ، ومن أصل شركسي (14) ، ومن أصل شيشاني (1) ، ومن أصل عربي (4) ، ومن أصل أرمني (3) ، ومن أصل روسي (1) ، ومن أصل يهودي (1) ، وينتمي البقية إلى قوميات مجهرة غير التركية .

زياد أبو غنيمه : مرجع سابق ، ص 61 . نقاً عن :

Ismail Hami Danismend izahli osmanli Tarihi , Istanbul , 1950 , P . 92 .

⁽³⁾ مرجع سابق ، ص 61 .

و لا يمكن للتاريخ الإسلامي نسيان فضل الدولة العثمانية ، لا سيما دور العثمانيين الأوائل في نشر الإسلام داخل الأراضي الأوروبيّة ، فالدولة العثمانية تعد آخر وأقوى دولة إسلامية تمكنت من التصدي للغزو الأوروبي داخل أراضي و مياه عربية وإسلامية ، بل تمكنت من نقل المعركة العسكرية والدينية إلى أراضي أوروبا نفسها لأكثر من ثلاثة قرون عاشتها أوروبا في رعب وقلق دائم من الخطر العثماني الذي كان من الممكن أن يداهم أراضيها في أي وقت من الأوقات .

كما أن فتوحاتهم في أوروبا كانت لنشر الإسلام فيها وليس لاستعباد شعوبها، ولذلك كانت روح المقاومة في أوروبا تجثوا عاجزة تحت سيف الدولة العثمانية ؛ فالعثمانيون كانوا ينظرون لأنفسهم على أنهم مسلمون قبل كل شيء ، وأنه لا يهم أولاً الدين الإسلامي ، ثم للسلطان العثماني ، فالدولة العثمانية ، رافعين بذلك راية الجهاد . ، وقد ازدادوا قوة وصلابة عندما كانوا في الأنضوص قرب حدود العالم المسيحي (الدولة البيزنطية) ، واحتفظوا بهذه الروح أيضًا في مسيرتهم الحربية لأوروبا ، وفي أثناء مواجهتهم لـ التكتلات الصليبية ، وفي فتحهم القسطنطينية فتحًا إسلاميًّا 857هـ / 1453م .⁽¹⁾

لذلك عَدَ الأوروبيّون الدولة العثمانية الرمز الحي المجسد للإسلام ، وأمست عبارة " الدولة العثمانية " مرتبطة بالدين الإسلامي ، مما أدى إلى تصاعد موجات الحقد والعداء الصريح بين الغالبية العظمى من الدول والملوك والباباوات في أوروبا تجاه الدولة العثمانية ؛ بصفتها دولة الخلافة الإسلامية التي تحكم شعوبًا مسيحية أوروبية .

وتعد أيضًا موجات العداء هذه إلى أن الدولة العثمانية نشرت الإسلام في أوروبا ، قضت على نظام الإقطاع ، و انهت بذلك مرحلة العبودية التي عاشتها أوروبا ، وقد مثلت مشكلة اجتماعية وسياسية بين الأهالي ؛ فقد اهتم السلاطين بتقديم الصدقات والعطايا والمساعدات للأهالي والفالحين من الشعوب الأوروبيّة التي دخلت تحت الحكم العثماني .

إن الحروب الصليبية التي شهدتها العالم الإسلامي في القرن 5هـ / 11م وساندتها البابوية لم تختلف في مضمونها وأهدافها عن التكتلات الصليبية التي واجهت الدولة العثمانية ، فقد نالت الدعم المادي والمعنوي بما فيه الكفاية لكي تنفذ في وحدة الصف الإسلامي

⁽¹⁾ أميره علي مداح : نظرة متأنية في تاريخ الدولة العثمانية ، ط 1 ، الطائف : دار الحارثي ، 1419هـ / 1998م ، ص 99-100 . إسماعيل ياغي : مرجع سابق ، ص 249 .

العثماني ، لكن الحركة الصليبية لم تجد هذه الثغرة فكان النصر حليف العثمانيين في أغلب الأحيان .

إن الدولة العثمانية تعد تجربة رائدة لنشر الإسلام في أوروبا ، فقد انتشر سريعاً في بعض الأقاليم الأوروبية ⁽¹⁾ وغدت العواصم الأوروبية التي فتحها العثمانيون مدنًا إسلامية عثمانية ، ⁽²⁾ حتى إن العثمانيين تقدموا بالمساعدة لعرب الشمال الإفريقي خلال الصراع الصليبي الذي احتدم بينهم وبين الأسبان والبرتغاليين ؛ لتفوقة الجهاد الإسلامي ضد خطر القوى الأوروبية المسيحية المتصاعدة على ديار الإسلام في شمال إفريقيا ، ومحاولة تحويل سكانها إلى المسيحية بعد تسييد الاستعمار في المنطقة ؛ إذ نشطت العمليات البحرية الإسلامية العثمانية التي يقوم بها ربانة مسلمون في البحر الأبيض المتوسط بهدف تخليص المسلمين من الحكم الإسباني الاستبدادي ، والانتقام للMuslimين الذين طردوا من الأندلس . ⁽³⁾

لذلك نجد أن الدول الأوروبية سعت بقوة لتصفية الوجود العثماني والإسلامي من أراضيها ، بل وأسهمت معها دول أوروبية أخرى لم يتمتد إليها الحكم العثماني ، وإنما جمعت بينهم وحدة الهدف ، والقضاء على الإسلام المتمثل في العثمانيين ، ودعم مصالحها الاستعمارية بتوزيع الممتلكات العثمانية . ويظهر ذلك بوضوح في التحالفات الدولية ضد الدولة العثمانية التي سادتها الروح الصليبية المتعصبة .

وقد طبق هذا القول بصدق (جوستاف لوبيون) في كتابه " حضارة العرب " ذكر " أن الأتراك العثمانيين قد اكتسبوا أسباب العظمة في ساحات الحرب ، وقد ارتعت فرائص أقوى ملوك أوروبا أحقاباً طويلة فزعاً من سلاطين الدولة العثمانية الذين قاموا مقام القياصرة ، وأحلوا الهلال محل الصليب البيزنطي فوق كاتدرائية القديسة صوفيا في القسطنطينية " ⁽⁴⁾ .

ومن ضمن الأساليب التي استخدمها الغرب إذكاء روح العداء ضد الدولة العثمانية ، وتحريض بعض الدول الأوروبية رعاياها على الثورة والتمرد داخل أراضي الدولة العثمانية ، مع مدتهم بالأسلحة والذخيرة والأموال ؛ طمعاً في إحداث مذابح عامة بين الرعايا العثمانيين

⁽¹⁾ مثل قونيه وبروسه وأدرنه وإستانبول التي أصبحت مركزاً للدراسات الإسلامية والحياة الإسلامية ، إسماعيل ياغي : مرجع سابق ، ص 250 .

⁽²⁾ مرجع سابق ، ص 250 .

⁽³⁾ إسماعيل ياغي : مرجع سابق ، ص 215 ، محمد سهيل طقوش : العثمانيون من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة ، ط 1 ، لبنان : بيروت المحروسة ، 1415هـ / 1995م ، ص 208 ، 209 .

⁽⁴⁾ إسماعيل ياغي : مرجع سابق ، ص 19

ال المسلمين أصلًا ؛ لنشر الفزع والرعب وإلصاق التهمة بالدولة العثمانية وسلطانها ، حتى إن الدول الأوروبية كانت تكافئ هؤلاء بالهدايا والعطایا إذا نجحوا في تحقيق مرادهم ، وذلك لأن انتصارات العثمانيين العديدة أعادت للأذهان فتوحات العرب المسلمين الأوائل في الأندلس.⁽¹⁾

وخير مثال على ذلك مساعدة الدول الأوروبية للحركات الانفصالية وتقديم الدعم المادي والتشجيع اللازم لتحقيق ذلك ، بل والثورة على الدولة العثمانية ، في محاولة لتفكيك أجزائها ، وإثارة النعرة القومية خاصة في الولايات العربية ، على الرغم من أن العناصر الوطنية كانت تقف ضد هذه الحركات إذا لمست العداء لدولة الخلافة والتعاون مع الدول الأوروبية ، الأمر الذي يؤدي في النهاية إلى فشل أغلب الحركات الانفصالية ، فقد عرضت روسيا المساعدة على علي بك الكبير في مصر في حالة رغبته الحرب ضد الدولة العثمانية.⁽²⁾

وحصل الأمير فخر الدين المعني على معونة من دوق تスکانیا في إيطاليا؛ وذلك بغية تحقيق أهداف دينية تعبر عن العداء المتمكن من النفوس الأوروبية ، وليس المسألة أهداها اقتصادية ؛ إذ إن الأطماع الاقتصادية – في ذلك الوقت – لم تكن قد تبلورت في تلك المنطقة. ومن شدة رغبة الأمير فخر الدين في التعاون مع الدول الأوروبية سمح ببناء العديد من الأديرة والكنائس ، حتى إنه مول عمل البناء بنفسه ، لدرجة أن أحد الرحالة الإنجليز ظن أنه مسيحي ، وأن إظهاره الإسلام صوري أمام العثمانيين فقط ، وقد أعطاه هذا الأمر القوة لأن يطلب من البابا تولي أمر المسيحيين الموارنة في لبنان ومعاونته .⁽³⁾

ويظهر دور فرنسا بوضوح في تشجيع الصراع ما بين الدروز والموارنة عن طريق الفصل الفرنسي في بيروت ، فنتج عنه مذابح بين المسلمين والمسيحيين عام 1277هـ / 1860م ؛⁽⁴⁾ وذلك لتوجّد لنفسها مبررًا لتدخلها العسكري في لبنان بحجة حماية الموارنة الكاثوليك من المذابح ، وقد حرصت طوال مدة استعمارها لبلاد الشام على تمكين الموارنة

⁽¹⁾ يوسف التقفي : مرجع سابق ، ص 9.

⁽²⁾ زكريا سليمان بيومي : مرجع سابق ، ص 116.

⁽³⁾ عمر عبدالعزيز عمر : تاريخ المشرق العربي ، د. ط ، مصر : دار النهضة العربية ، د.ت ، ص 167 ، 168 . أحمد عزت عبدالكريم : دراسات في تاريخ العرب الحديث ، د. ط ، بيروت ، 1970م ، ص 75 .

⁽⁴⁾ زكريا سليمان بيومي : مرجع سابق ، ص 118.

المسيحيين من الحكم، وفرضت على الدولة العثمانية ضرورة تعيين حاكم مسيحي يساعد مجلس إداري يمثل بقية الطوائف .⁽¹⁾

ومما يلقي الضوء على المعلومات السابقة ما حدث من روسيا لدعم الثوار والحركات التمردية في بلاد البلقان من البوسنة والهرسك ، ثم بلاد المجر وصولاً إلى صربيا ، حيث ساعدو على إثارة البلبلة والفتنة ، وإضعاف الدولة العثمانية والتهديد بسلخ الدولة من جميع الولايات العثمانية في أوروبا ، وتقسيمها بين روسيا وفرنسا والنمسا .⁽²⁾

وقد جُنِّ جنون رجال الكنيسة لسرعة انتشار الإسلام في أراضيها ، واعتناق كثير من المسيحيين الإسلام في بلاد أوروبية مسيحية صافية ، ولو لا انتشار الإسلام لما قامت الأوساط البابوية بالمناداة بالأحلاف الصليبية .⁽³⁾

ومن رحلة فتوحات الدولة العثمانية يتضح أنها اتخذت سياسة المهادنة والمسالمة ، فعندما فتح السلطان (أورخان) مدينة أزنيق 731هـ/1330م اتخذها عاصمة له ، وهادن شعبها ، ثم فتح (مدريني - كمليك) فأرسل له قيصر الروم جملة من الهدايا ، وعقدت بين الطرفين هدنة لمدة عشرين سنة ، واستمرت الهدنة لا يشوبها شائنة ، حتى إنها جددت عام 746هـ / 1345م ، إلا أنه بعد فتح (إسكوندار) ظهر ما كانت تبطنه دولة الروم من عداوة للعثمانيين ؛ إذ كانت تتهزء الفرصة للإيقاع بهم ، فخالفت شروط المعاهدة بعد مضي عشر سنوات من توقيعها ، واتحد القيصر مع البنادقة الذين كانوا في أغلب الأوقات يهاجمون حدود الدولة العثمانية من جهة البحر ، لذلك أصدر السلطان (أورخان) أوامرہ بالاستعداد والزحف على أرض الروملي وعبروها وأدخلوا المناطق المحيطة بها في دائرة الإسلام ، واقتربوا من غاليبولي ، ومع تطور الفتوحات العثمانية ، قام الروم بالاتفاق مع أهالي المجر والصرب والبلغار والأفلاقي والبغدان ، بالتصدي للعثمانيين ومحاربتهم ؛ وذلك لعدم درايتهم بحقيقة الإسلام والعثمانيين ، إلا أن الحلف انتهى لصالح العثمانيين .⁽⁴⁾

وفي حقيقة الأمر أن القرن 15هـ / 15م يعُد فترة خصبة جداً في تكوين الأحلاف الصليبية الأوروبيية العسكرية ضد الدولة العثمانية ، حيث كونت تحالفات صليبية متماضكة

⁽¹⁾ رأفت الشيخ : تاريخ العرب الحديث ، د. ط ، القاهرة ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، 1991م ، ص 56-57 .

⁽²⁾ يوسف التقى : مرجع سابق ، ص 87 ، 88 .

⁽³⁾ يوسف التقى : مرجع سابق ، ص 9 .

⁽⁴⁾ إسماعيل سرهنوك : مصدر سابق ، ص 18 ، 19 . محمد سهل طقوش : مرجع سابق ، ص 30-33 عبد المنعم الهاشمي : مرجع سابق ، ص 35 - 38 .

للقضاء على الحكم الإسلامي في أوروبا، والانقضاض على جزء عظيم من كيان الدولة العثمانية .⁽¹⁾

وقد اجتمعت على الدولة العثمانية عدة جبهات عسكرية كثيرة العدد والعدة ظلت متربصة بالدولة العثمانية فرون طويلاً براً وبحراً ، وعلى الأخص دولتا روسيا والنمسا اللتان استمرتا في حروب متقطعة لمدة قرن ونصف من الزمان بناء على اتفاق بينهما .⁽²⁾

وقد قام التحدي الأوروبي على مقومات ثلاثة هي :

أولاً : امتداد العداء القديم المستحكم بين الإسلام الذي تمثله الدولة العثمانية ، والمسيحية التي تمثلها أوروبا ، واعتبار الصراع بين الطرفين جولة ، هي امتداد لما مضى من جولات .

ثانياً : الرغبة القوية في استعادة المناطق التي فتحها المسلمون عموماً ، والعثمانيون خصوصاً ، ويأتي في مقدمتها مركز الكنيسة الشرقية في القدس سابقاً وبيت المقدس . ثالثاً : الحرص على تخلص المسيحيين في أنحاء العالم من الحكم الإسلامي ، وخاصة مسيحي أجزاء الولايات العثمانية ، والسعى لتحويل المسلمين إلى أكثرية مستضعفة .

وقد أدرك الغرب أنه لا يمكن تحقيق هذه الأهداف طالما أن هناك تشكيلاً سياسياً وعسكرياً قوياً للدولة العثمانية ، إذاً لابد من إضعاف هذين التشكيلين بالقوة العسكرية والمعنوية في محاولة لتفكيك الدولة .⁽³⁾

إن ما يترجم أصداe الفتح العثماني في أوروبا بوضوح شديد التحالفات الصليبية المبكرة التي كونت ضد الدولة العثمانية ، ومن اللافت للنظر أن أغلب هذه التحالفات الصليبية كونت تحت رعاية ودعم الكنيسة ، وعلى رأسهم البابا الذي بارك جميع التحالفات .

ولاشك أن فكرة القضاء على العثمانيين ولدت منذ فترة مبكرة لم تكن الدولة العثمانية حينها متراة الأطراف ، وقد ظهرت بوضوح وشراسة إلا أنها لم تتطور إلى حروب وأحلاف صليبية ، ولكنها ولدت كأفكار على ورق لم تخرج لحيز التنفيذ .

⁽¹⁾ سيد محمد السيد : مرجع سابق ، ص 46 .

⁽²⁾ إبراهيم حليم : تاريخ الدولة العثمانية العلمية "التحفة الحليمية" ط1 ، لبنان : مؤسسة الكتاب التقافي ، 1408هـ/1988م ، ص 9 .

⁽³⁾ سيد محمد السيد : مرجع سابق ، ص 47 ، 48 .

ومنذ بداية القرن 8هـ/14م بدأت الأحلاف الصليبية ضد العثمانيين والمسلمين حيث قدم (مارينو سانوتو Marino Sanoto) - ينسب هذا الرجل إلى إحدى الأسر النبيلة في البندقية - مشروعًا للبابا (يوحنا الثاني والعشرين) في عام 721هـ/1321م، وقد تضمن المشروع توحيد الكنسيتين الشرقيّة والغربيّة لمحاربة المسلمين .⁽¹⁾

ثم تقدم الراهب (بروكارد Brocard) عام 733هـ / 1332م بتقرير إلى ملك فرنسا يشير عليه بحرب صليبية ضد العثمانيين ردًا على فتوحات السلطان (أورخان) ، وبذل في مشروعه الشرح الوافي للطرق وأهم السبل للوصول إلى الهدف المرجو، فنال استحسان الملك ، وعرضت عليه البندقية المساعدة ضد الأتراك ، ودخل في التحالف إمبراطور القسطنطينية وفرسان القديس يوحنا ، وأعلن البابا (يوحنا الثاني والعشرين) بدء الحملة ، ولكن لم تثبت أن قامت الحرب بين إنجلترا وفرنسا ، ثم تداعت بيزنطة أمام قوات العثمانيين ، وعقدت الصلات والمعاهدات بين جنوه والبندقية والدولة العثمانية ، وأصبحت العاصمة البيزنطية في خطر وانتصارات العثمانيين في ارتفاع .⁽²⁾

ثم واصل السلطان مراد الأول فتوحاته حتى وصلت حدود دولته إلى القسطنطينية ، فاضطرب ملوك أوروبا وأكثر من استشعر الخطر الإمبراطور البيزنطي (يوحنا باليلوغوس) الذي استصرخ البابا لنجدته ، فاشترط الأخير أن يمثل الإمبراطور أمامه ليعلن الولاء والطاعة ، ويعلن أنه تخلى عن مذهبه الأرثوذكسي واعتنق المذهب الكاثوليكي .⁽³⁾

ويتضح أن الكنيسة لم تكن تساعد الملوك والأباطرة إلا إذا حققت شيئاً من رغباتها ، فكانت تستغل مساعدة إمبراطور بيزنطة مثلاً في مقابل أن تضم كنيسة الشرق أو تسيطر عليها وعلى خيراتها ، وهذا الموقف سيتكرر لاحقاً أثناء حصار السلطان محمد الثاني للقسطنطينية ، ثم إن البابا يحاول دائمًا أن يستغل الظروف ولا يكسب أمراً واحداً وإنما أكثر من ذلك ، وال نهاية الخسارة التامة .

وكان البابا (أوربان الخامس) زعيم الصليبية المعادية للإسلام قد دعا إلى حلف صليبي في أعقاب سقوط أدرنة في يد المسلمين العثمانيين ، واستجابة لدعوته ملوك أوروبا لإخراج العثمانيين من أدرنة ، لكن البابا لم ينتظر جواب الملوك واستعان بأمراء الصرب

⁽¹⁾ محمد العبد : مرجع سابق ، ص 37 .

⁽²⁾ مرجع سابق ، ص 45 - 47 . عبد المنعم الهاشمي : مرجع سابق ، ص 36 .

⁽³⁾ محمد العبد : مرجع سابق ، ص 47 .

⁽¹⁾ وملك البلغار ، حيث كونوا جيشاً كبيراً عام 765هـ / 1364م تقدموا به إلى أدرنة ، ممنين النفس بالانتصار على العثمانيين ، ومستفيدين من انشغال السلطان مراد الأول بمحاصرة (بيجا) بالقرب من بورصة بآسيا الصغرى.

وعندما وصل خبر تقدمهم للعثمانيين واجهوهم بقوة كبيرة أُلقت الرعب في قلوبهم ، ووقعت مذبحة مروعة اضطرب على إثرها الجيش الصليبي المتحالف ولاذا بالفرار . كما غرق الأميران الصربيان في نهر مارنيزا ، ونجا ملك المجر بأعجوبة ، لكن هذه المعركة تم خضت عن ضم باقي إقليم تراقيا ومقدونيا وصولاً إلى جنوب بلغاريا وشرق صربيا .⁽²⁾

أما ثانى هذه التحالفات القوية فالتحالف الصليبي الذي قاده لازار ملك الصرب عام 790هـ / 1387م ضد السلطان مراد الأول ، إذ أثارت فتوحات السلطان مراد الأول توغله في بلاد البلقان مخاوف لازار ملك الصرب ، فانتهز فرصة انشغال مراد الأول بالحروب في آسيا الصغرى ، وتزعم حلفاً صليبياً من الأمم المسيحية في الجنوب الشرقي من أوروبا حيث تحالف الصرب مع البوسنة والألبان والجريبيين والبلغار خاصة .⁽³⁾

قاد هذا الحلف لازار إلى هزيمة منكرة في معركة "قصوه" أو "الطيور السوداء" عام 791هـ / 1389م ، ودفع الاثنين حياتهم ؛ الأول ثمناً لهزيمته ، واستشهد السلطان مراد في أرض المعركة كما تمنى.⁽⁴⁾

ترتب على هذا الانتصار الإسلامي العظيم :

(1) انتشار الإسلام في منطقة البلقان وزوال استقلال بلاد الصرب ، ودخول بلاد البلغار والروملي ورومانيا وال مجر تحت الحكم العثماني .

(2) اضطررت كثير من الدول الأوروبية إلى خطب ود الدولة العثمانية ، فبادرت بدفع الجزية ، وأعلن البعض الآخر الولاء والطاعة للعثمانيين خشية قوتهم.⁽⁵⁾

⁽¹⁾ إبراهيم حليم : مصدر سابق ، ص 42 . محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص 130. شبيب أرسلان : مصدر سابق ، ص 62 ، 63 . أميرة مداح : مرجع سابق ، ص 23 .

⁽²⁾ محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص 130 . وديع أبو زيدون : مرجع سابق ، ص 39 ، 40

⁽³⁾ عندما علم بانهزام رفيقه ملك البلغار قرر الميل بجيشه جهة الغرب للانضمام إلى أمراء ألبانيا لمحاربة العثمانيين ، وديع أبو زيدون : مرجع سابق ، ص 42 .

⁽⁴⁾ إبراهيم حليم : مصدر سابق ، ص 43 . عبد المنعم الهاشمي : مرجع سابق ، ص 49-54 . علي محمد الصلايبي : مرجع سابق ، ص 103 - 107 . أميرة مداح : مرجع سابق ، ص 24 .

⁽⁵⁾ علي محمد الصلايبي : مرجع سابق ، ص 110 .

وباستشهاد السلطان مراد الأول تولى الحكم السلطان بايزيد الأول الملقب بالصاعقة⁽¹⁾ ، وقد سار على خطأ والده حيث أسقط آخر ممتلكات البيزنطيين في آسيا الصغرى (لاشهر) ، وأرسل جيوشه إلى بلغاريا فاكتسحها وفتح إقليم (لاشيا) عام 795هـ / 1393م .

والواقع أن هذه الانتصارات العثمانية التي حققها السلطان بايزيد قد أفرزت أوروبا ، وخاصة ملك المجر (سيجموند Segsemond) الذي تأهب للحرب واستصرخ فرنسا والبابا لمساعدته ، فدعا البابا (بونيفاس التاسع) إلى حرب مسيحية ضد المسلمين ، وأعلنت الحرب الصليبية على العثمانيين المسلمين ، ويعتبر هذا التحالف الصليبي من أكبر التحالفات الصليبية التي واجهتها الدولة العثمانية في القرن 8هـ / 14م ؛ إذ ضم مقاتلين من ألمانيا والمجر وفرنسا وإنجلترا وأسكتلندا وسويسرا ولوكمبروج والأراضي المنخفضة الجنوبية وبعض الإمارات الإيطالية ، لكن هذه الجموع المسيحية منيت بهزيمة نكراء في معركة (نيقوبولي) 798هـ / 1395م ، وتفتت جموعهم وأصبحت أسلحتهم ومعداتهم غنيمة للجيش العثماني ، ووقع أغلب أمرائهم في الأسر ودفعوا الفدية لفك أسرهم ، كما قتل البعض الآخر وكان الانتصار بسبب يقين العثمانيين بالله وإصرارهم على نشر الإسلام .⁽²⁾

ومع استمرار الإمبراطور البيزنطي في طلب نجدة أوروبا أعلن البابا (غريغوريوس الثاني عشر) الحرب الصليبية على المسلمين في عام 810هـ / 1407م إلا أنه فشل تماماً.⁽³⁾ وعلى الرغم من مرور الدولة العثمانية في تلك الفترة بكارثة أنقرة إلا أن الحملات الصليبية كانت تهتز أمام العثمانيين .

ومع تولي مراد الثاني الحكم واستتباب الأوضاع في أعقاب كارثة أنقرة على يد السلطان محمد الأول ، استهل الأول حكمه بإخضاع التمرد الذي قام به شعوب البلقان ، وأخضع إقليم لاشيا وفرض الجزية عليه .

⁽¹⁾ لقب بايزيد "يلدرم" أي الصاعقة ، لحمله على أعدائه بطريقة سريعة وخطففة . أميره مراح : مرجع سابق ، ص 26 .

⁽²⁾ محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص 52 ، 53 . شكيب أرسلان : مصدر سابق ، ص 65 ، 66 . أميره مراح : مرجع سابق ، ص 26 / 27 . محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص 141 - 144 . علي محمد الصابي : مرجع سابق ، ص 114 ، 113 .

⁽³⁾ محمد العبد : مرجع سابق ، ص 47 .

في الوقت نفسه كانت صرخات إمبراطور القسطنطينية إلى دوق بورغونيا (فليب لوبيون) الذي جهز أسطولاً عاث نهباً وقام بأعمال القرصنة ، إلا أنه لم يحقق نصراً يذكر ، ثم وطد دعائمه الحكم في بلاد اليونان ، ولكن عندما حاولت القوات العثمانية التوغل في إقليم ترانسلفانيا المجرية ، وجدت مقاومة عنيفة من حاكمها (حنا هينادي Hanna Henadi) الذي كان كاثوليكياً متعصباً هدفه الوحيد في الحياة إخراج العثمانيين من البلقان وأوروبا ، وقد كون تحالفاً صليبياً برعاية الكنيسة شمل المجر وبولندا ، والصربيا ، وبلاط الأفلاق والبندقية والإمبراطورية البيزنطية ، وقد ترأس هذا التحالف البابا ، ودعا ملك أراغون ونابولي ، وهم أقوى الشخصيات الأوروبية في حوض البحر المتوسط آنذاك .

وقد درس (حنا هينادي) تكتيكات الحرب العثمانية بصورة جيدة ، وتمكن من هزيمة بضعة جيوش عثمانية سارت إليه ، فاضطر على إثراها السلطان مراد الثاني خلع نفسه وتولى ابنه محمد الثاني الحكم للتصدي لهذه المهمة الصعبة ، لكن ما لبث أن اقتربت الجيوش المتحالفة من أدرنة ، فعاد السلطان مراد الثاني مرة أخرى للحكم وقاد الجيش بنفسه ليحقق الانتصار على (حنا هينادي) مرتين الأولى 848هـ/1444م ، والثانية 852هـ / 1448م ، وبذلك تصدى السلطان مراد الثاني لهذا التحالف بعد عناء .⁽¹⁾

إن أصداء الفتوحات العثمانية في أوروبا استمرت بقوة أكبر في القرون التالية ، حيث إنه أثناء استعداد السلطان محمد الثاني فتح القسطنطينية وتحويلها إلى إسطنبول أي مدينة الإسلام ، بدأ في العمل على تحديد مواقف الدول المجاورة من تحركاته السياسية والعسكرية في شرق أوروبا ، ولذلك نجده يبدأ في عقد الهدنة مع القوى المجاورة مثل القائد (حنا هينادي) المجري ، ومع صاحب صربيا ، أمير ولاشيا ، حتى يضمن عدم تحرك تلك الفئات ضده في وقت من الأوقات ، ثم اتجه بعد ذلك إلى عقد معاهدة مع حاكم البندقية وأمراء الأفلاق والبوسنة ، بالإضافة إلى أنه عقد معاهدة مع فرسان القديس يوحنا في رودوس ، وغيرها من الدول المجاورة له ، وحتى البعيدة .⁽²⁾

⁽¹⁾ محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص 159 . أميرة مراح : مرجع سابق ، ص 29 ، 30 . عبد المنعم الهاشمي : مرجع سابق ، ص 92 ، 93 . يوسف التقفي : مرجع سابق ، ص 28 ، 29 . محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص 78 ، 79 .

⁽²⁾ علي محمد الصالبي : مرجع سابق ، ص 150 . محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص 89 . محمد العبدة : مرجع سابق ، ص 49 لمزيد من التفاصيل حول هذه المعاهدات التي عقدتها الدولة العثمانية في عهد السلطان محمد الفاتح ومع غيره من حكام الدول الأوروبية حينذاك ، انظر أكمال الدين إحسان أوغلي : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 25-75 . أميرة مراح : مرجع سابق ، ص 35 . محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 71 .

وعلى الرغم من عقد هذه المعاهدات وال تحالفات إلا أن هذا لم يمنع هذه الدول والبابا من محاولة إعادة تكوين حلف صليبي جديد ؛ لأنه في أثناء حصار القدسية من قبل السلطان محمد الثاني "الفاتح" أرسل الإمبراطور مئات الرسائل والمبوعين إلى الملوك والأمراء في أوروبا ؛ يدعوهم لشن حرب وحملة صليبية جديدة على العثمانيين لصد هجومهم على القدسية ، لكن فكرته لم تلق نجاحاً كبيراً في تلك الفترة ؛ لأن فكرة الحروب الصليبية كانت قد ضعفت تماماً في أوروبا . وعلى الرغم من ذلك فقد أرسلت البندقية له مساعدات بحرية ، واشترك عدد كبير من الجنود المسيحيين من مختلف دول أوروبا في جيش الإنقاذ القدسية ، وعندما طلب معونة عاجلة من بابا روما لإنقاذ القدسية اشترط البابا (نيقولا الخامس) لمساعدة الإمبراطور البيزنطي خضوع الكنيسة الشرقية لسلطته هو ، وقد وافق قسطنطين على ذلك مرغماً على الرغم من أن رئيس حكومته كان معارضًا للكاثوليكية ومسمىًّا من ضمن الكنيستين الأرثوذكسية والكاثوليكية معاً ؛ لأن البيزنطيين كانوا لا يزالون يتذكرون الأعمال الوحشية التي قام بها اللاتين عندما احتلوا القدسية عام 601هـ / 1204م ، ومع ذلك فقد أرسل الكنيسة موجات المتطوعين إلى القدسية بناء على طلب إمبراطورها ، لكن الأمر لم يأت بنتيجة لأن القدسية سقطت فعلاً في يد العثمانيين المسلمين وفتحت على يد الفاتح محمد الثاني في 20 جمادى الأولى 857هـ / 29 مايو 1453م .⁽¹⁾

إن سقوط القدسية 857هـ / 1453م أحدث دويًا هائلاً على مستوى الأوساط السياسية والدينية الثقافية ، فمن ناحية البلاد الإسلامية زفت البشرى إلى جميع المسلمين في أنحاء العالم الإسلامي ، فأرسل إلى صاحب مصر ، والجاز وبلاط فارس والهند والذين عادوا ، وأرسلوا له مراسلات يهنئونه بالفتح العظيم، ومن هذه المراسلات يستطيع القارئ أن يلمس صدق العاطفة الإسلامية وحب الجهاد في سبيل الله عند العثمانيين .⁽²⁾

أما أصداres سقوط القدسية على أوروبا ، فقد كان النبأ كوقوع الصاعقة على رؤوس ملوكهم وأوقعهم في حيرة واندهاش شديدين ، فانحصرت ردود أفعالهم في البداية على العاطفة والحماسة الدينية ، إذ طفق المستشرقون ومؤرخوهم على التقليل من شأن

⁽¹⁾ أميرة مراح : مرجع سابق ، ص35 . محمد حرب : مرجع سابق ، ص 71 . يوسف التقى : مرجع سابق ، ص33 .

⁽²⁾ محمد بن أحمد بن أياس الحنفي : بداع الزهور في وقائع الدهور : تحقيق : محمد مصطفى ، ج2 ، د. ط ، مصر : الهيئة العامة لقصور الثقافة ، د. ت ، ص316 . ولمراجعة نصوص الرسائل الرجوع إلى . سالم الرشيدى : مرجع سابق ، ص ص 141 – 156 .

العثمانيين ، بزعم أن استيلاءهم على المدينة لم يتم بسبب قوتهم وشجاعتهم بل بسبب كثرةهم العددية ، وتمادوا في غيّبهم حتى إنهم رددوا أن العثمانيين ما كان لهم أن يدخلوا القسطنطينية لو لا أن حامية إحدى الأبواب نسيت أن تغلق الباب فانتهز العثمانيون الفرصة ودخلوا من ذلك الباب .⁽¹⁾

أيعقل أن تكون مدينة محاصرة من الأعداء وتتسى الحامية أن تغلق الباب؟! إن هذه ترهات لا ينخدع بها القارئ العادي .

إن أكثر مؤرخي الغرب وخاصة مؤرخي اليونان أو همّوا الغرب والأهالي بصورة مغايرة للحقيقة إذ وصفوا الحكم العثماني بالخشونة والقسوة والجبروت ، ونسبوا له أفعالاً لم يرتكبها ،⁽²⁾ وهذا يدل دلالة واضحة على زيادة حركة الاستشراق ونشاطه ضد الفاتح .

وقد حرصت كتابات المستشرقين على تضخيم أمر الخلافات المذهبية بين الكنيسة الأرثوذكسية البيزنطية ، والكنيسة الكاثوليكية البابوية ، فروجوا لفكرة أنه لو انضمت الكنيستين وأغلقت صفحة هذه الخلافات لما تمكن العثمانيون من اقتحام المدينة مطلقاً .⁽³⁾

إن هذا الأمر مخالفة للواقع لأن الإمبراطور البيزنطي قد وافق على اتحاد الكنيستين ، لكن الأمر لم يتم نتيجة لتمسّك البابا برغبات محددة لم يقبل التنازل عنها ، إضافة إلى أن الخلافات امتدت لمئات السنين وليس في زمن الفاتح فقط . ومع هذا لا نستطيع أن ننكر أن الكثرة العددية والخلافات المذهبية من العوامل المساعدة ، والعامل الأول هو الإيمان بالله وقوّة الجهاد الإسلامي .

وبعد فتح القسطنطينية تفتحت للسلطان محمد الفاتح جبهات لمزيد من الفتوحات والجهاد ، حيث فتح أكثر مناطق البوسنة عام 858هـ / 1454م ، وأعلن أحد أمراء الصرب (برنوكوفيتش Branco Vetch) الخضوع للسلطان العثماني ، ثم قصد بلاد الموراء وطلب من شقيق الإمبراطور (دimitrios Tomas) أن يكونوا تابعين له ويلتزموا بدفع الجزية السنوية (Qustantine 1200) من الذهب فقبلوا ذلك .⁽⁴⁾

⁽¹⁾ زياد أبو غنيمه : السلطان المجاهد محمد الفاتح ، ط 1 ، الأردن : دار الفرقان ، 1403هـ / 1983م ، ص 102 .

⁽²⁾ إسماعيل سرہنک : تاريخ الدولة العثمانية ، ص 46 ، 47 . شکیب ارسلان : مصدر سابق ، ص 87 .

⁽³⁾ زياد أبو غنيمه : السلطان المجاهد محمد الفاتح ، ص 102 .

⁽⁴⁾ محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص 97 - 99 .

كما عقد معاہدة تحالف مع البنادقة وفك أسر ابراهيم مقابل فدية رمزية ، ومنهم امتيازات تجارية في الموانئ العثمانية ، وتعهد بحماية البنادقة بينما وجدوا داخل حدود الدولة العثمانية ، في مقابل دفع مبلغ مالي سنويًا مقداره مئتا ألف دوقيه ذهبية ، وحماية الرعایا العثمانيين .⁽¹⁾

وقد قبل أمراء الأفلاق والبغدان السيادة العثمانية بعد أن تأكدوا من عدم تعرض الدولة العثمانية لشعائرهم الدينية .⁽²⁾

وحتى أثناء الفتوحات - السابقة الذكر - التي لم يثبت فيها أي تخريب أو تعدي على المقدسات المسيحية ، استمرت ردود الفعل والأصداء على الفتح العثماني للقسطنطينية ، فبدأت تبرير الأقلام لتصوير الفتح بعكس ما كان في الحقيقة ، فهذا راهب دير (أجراشوس) سجل الفتح " بأنه أسوأ مما حدث ولن يحدث مثله".⁽³⁾

ويعتبر (جورج فرانتز) George Phrantzes صديق الإمبراطور قسطنطين وأمينه وصاحب مشورته ،⁽⁴⁾ وأبرز من كتب عن فتح القسطنطينية وما أعقبه من أحداث ، ونفت في كتاباته كل سموه وأحقاد المغلوب المهزوم ، ونسج الأكاذيب خاصة حول السلطان محمد الفاتح .⁽⁵⁾

وكان للبنادقة دور مهم في التأليف عن فتح القسطنطينية وتشويهه ، إذ استولى الربع على جمهوريتهم ، وبعثوا برسالة إلى البابا (نيكولا الخامس) ، طالبوا فيها باتحاد البابوية مع الدول المسيحية ضد العثمانيين ، ووصفوا أن القتل والنهب في المدينة لم يرحم أحداً ، وأنه تم ذبح كل سكانها ابتداءً من ست سنين وما فوق.⁽⁶⁾

والأحداث التي جرت بعد ذلك توضح كذب ادعاءاتهم ، حيث بقي أهل المدينة فيها ومارسوا حياتهم اليومية صبيحة يوم الفتح بمنتهى السكينة والطمأنينة .

(1) زياد أبو غنيمه : السلطان المجاهد محمد الفاتح ، ص 108 .

(2) محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص 165 . محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص 97 .

(3) محمود محمد الحويري : مرجع سابق ، ص 148 .

(4) أسر هو وأهله بعد الفتح ثم خرج من القسطنطينية بعد إطلاق سراحه ، وعاش في بلاد المورة ثم إيطاليا ، واستقر به الحال في جزيرة كورفو حيث ترهب وشرع في كتابة تاريخه عن الدولة البيزنطية في سنة 1258م إلى 1476م وخصص منه عدة أقسام عن فتح القسطنطينية . سالم الرشيدی : مرجع سابق ، ص 8 .

(5) سالم الرشيدی : مرجع سابق ، ص 8 .

(6) محمود محمد الحويري : مرجع سابق ، ص 148 .

ومن أشهر البنادقة الذين كتبوا عن حصار القسطنطينية (نيكولو باربارو Nicolo Barbaro)⁽¹⁾ وقد كان شديد العداء للعثمانيين بسبب قضائهم على المركز التجاري للبنديقية، وقد ترجم كرهه وحقده على العثمانيين في كتابه خاصة على السلطان الفاتح .⁽²⁾

وتناول الكاردينال (إسیدور Isidore) حادثة فتح القسطنطينية بكتابات مشوهة، حيث تواجد داخلها أثناء الحصار ، وهو المبعوث من البابا لمناقشة مسألة توحيد الكنسيتين الشرقية والغربية ، وقد كان أول ما فعله بعد خروجه من القسطنطينية ووصوله إلى إيطاليا أن استئنف الدول النصرانية إلى حرب العثمانيين .⁽³⁾

هذا فضلاً عن الفارين الذين طفقوا ينشرون خبر سقوط القسطنطينية مرددين الأخبار الواهية والأكاذيب دون الانتظار لمعرفة ما ستنفر عنه الأحداث.⁽⁴⁾

وقد كتب عن هذا الحدث المهم طائفة من المؤرخين النصارى عاصروا الحدث لكنهم لم يكونوا على مقربة منه ، فلم يشهدوا القتال أو الصراع والحصار ، واعتمدوا على قصص الفارين أو المقهورين والأسرى ، وبالتالي جاءت كتاباتهم مطبوعة بنزعة الانتقام والحدق الصليبيي .⁽⁵⁾

ومن أبرز الكتب التي أذاع فيها المستشرقون أفكارهم عموماً عن الحكم العثماني ، كتاب " معاناة المسيحيين المحكومين والمستعبدين من قبل الأتراك " لمؤلف الكرواتي (بارثولوميو جوفيتش Partholomio Jovetch) عام 951هـ / 1544م الذي أثار حملات ضد العثمانيين لما احتواه من تشويه وكذب وافتراء .⁽⁶⁾

هذا على صعيد التاريخ للحدث وإظهاره بشكل مشوه ومغاير للحقيقة ، أما على صعيد الأحلاف الصليبية والحملات المعادية للعثمانيين والإسلام فهي كثيرة نكاد لا تحصى ، وأول هذه الأحلاف على مستوى النصارى تلك المؤامرات والحركات التي تزعمتها إمارة

⁽¹⁾ هو نبيل بنديقي كان بالقسطنطينية أثناء حصارها وكتب يوميات خاصة عن حوادث الحصار والقتال . سالم الرشيدی : مرجع سابق ، ص 8 .

⁽²⁾ سالم الرشيدی : مرجع سابق ، ص 8 .

⁽³⁾ مرجع سابق ، ص 8-9 .

⁽⁴⁾ محمود محمد الحويري : مرجع سابق ، ص 149 .

⁽⁵⁾ سالم الرشيدی : مرجع سابق ، ص 9 .

⁽⁶⁾ محمد العبد : مرجع سابق ، ص 13 .

طرابزون .⁽¹⁾ وإمبراطورها يوحنا الذي أخذ في حيادة المؤامرات والدسائس ضد السلطان محمد الفاتح ؛ في محاولة منه لوقف زحف المسلمين على مناطق حكمه ، لكن سقط في يده بعد اكتشافه تفوق المسلمين العثمانيين عليه ، واضطُر أن يكون تابعاً للسلطان محمد الفاتح ويدفع له الجزية السنوية ويطلق ما في يده من أسرى ، واستمر يوحنا بعد العدة ويرسم الخطط للقضاء على الفاتح حتى باعْتَه الموت فجأة وقضى عليه قبل أن يشهد شيئاً مما أعده ودبر له .⁽²⁾

هذا من ناحية آسيا فقط ، أما في أثناء ذلك فكانت دعوة البابا (نيقولا الخامس) قد نشطت تماماً ضد الدولة العثمانية ، وكان من أشد الذين تأثروا بنهاً سقوط القسطنطينية وفرز بشدة ؛ بسبب تحول ملايين من سكان جنوب شرق أوروبا للإسلام ، فعمل بكل جهده في تزعيم حملة دعائية نشطه لدعوة نصارى الغرب من حكام أوروبا والإمارات الإيطالية إلى نبذ خلافتهم ، وتوجيه كافة طاقاتهم لمواجهة العدو المشترك ، وتكوين حلف صليبي وتشجيعه على قتال المسلمين ، وفي سبيل ذلك ترأس مؤتمراً عقد في روما ، أعلن فيه قتال العثمانيين . وقد شارك الأدباء والشعراء في بذل الجهد المضني لتأجيج نار الحقد وبراكيين الغصب في نفوس النصارى ضد المسلمين ، وسار المستشركون من بعدهم على نفس الخطى ، وقد تحمس لهذا الحلف الأمير فليب الطيب دوق بورجونديا وألهب حماساً وحمية ، واستقر ملوك النصارى في شتى أنحاء أوروبا إلى قتال المسلمين الذين يمثلهم العثمانيين وقوتهم العسكرية ، والذي زار إمبراطور ألمانيا (فرديريك الثالث) في تجاوباً كبيراً في المساهمة في أي حملة صليبية ضد العثمانيين ، وهذا حذوه البارونات والفرسان والمحامون والمعتصبون للنصرانية، وتحولت فكرة قتال المسلمين إلى عقيدة مقدسة تدفعهم لغزو بلادهم ، وقد قدم الأمير فليب كافة الدعم اللازم لقيادة حملة دعائية ضد العثمانيين ، لكن السلطان محمد الفاتح كان بالمرصاد لكل تحركات النصارى سواء في أوروبا أم في داخل إسطنبول وما حولها ، وقد خطط ونفذ ما رآه مناسباً لقوية دولته وتدمير أعدائه ، واضطُر النصارى الذين يجاورون السلطان أن يكتموا شعورهم الحقيقي ، لكن سرعان ما بدأت تخبوا آثار هذا

⁽¹⁾ طرابزون : إمارة رومية نصرانية تقع في شمال شرق آسيا الصغرى وتطل على البحر الأسود ، حظيت هذه البلدة بموقع حسن وثروة طبيعية مما جعلها هدفاً للغزاة ، وعلى إثر سقوط القسطنطينية في يد الصليبيين عام 601هـ ، 1204م فر كثير من أمراء الروم إلى آسيا الصغرى واستقر بها (داودوكوينين) وأسس دولة صغيرة في طرابزون أطلق عليها إمبراطورية طرابزون ، حاول مراد الثاني فتحها عام 846هـ / 1442م لكن أسوارها ردته ومنعنه . سالم الرشيدی : مرجع سابق ، ص215 .

⁽²⁾ سالم الرشيدی : مرجع سابق ، ص216 - 217 .

الحماس والحملات الدعائية إثر وفاة البابا (نيقولا الخامس) في 859هـ / 1455م بعد معاناة طويلة مع المرض من جراء صدمة سقوط القسطنطينية التي تسببت في همه وحزنه (1).

تولى البابوية بعده البابا (بيوس الثاني) وأراد أن يكمل ما بدأه البابا (نيقولا الخامس) فحاول أن يذكي نار الحقد الصليبي مرة ثانية ضد العثمانيين ، بكل ما لديه من مقدرة خطابية ، وحنكة سياسية ؛ لتأجيج الحقد الصليبي في نفوس النصارى داخل شعوب وملوك أوروبا قادة وجندًا ، لكن الحamas في الدول الأوروبية كان قد خف وضعف ولم يستجب له سوى دوق بورغونيا - السابق الذكر - الذي بدأ في تجهيز حملة لكنه فشل في إرسال مقاتلين ، وكذلك ملك المجر - الكاثوليكي - (Ladeslass VI) الذي أعد جيشًا كبيرًا بقيادة القائد المجري (هونيادي) ، ليكون في طليعة الدول النصرانية التي ستقاتل الدولة العثمانية، وقام بإغراء ملك الصرب (برانكوفيتش) الذي كان يتحين الفرصة للانتقام من العثمانيين ، أما باقي الدول فقد اعتذر بسبب متابعتها الداخلية ، ومشاكلها وحروبها الأهلية ومذاهبها ، فمثلًا بريطانيا منهكة من مشاكلها مع الدستور ، والأسبان منشغلين بالقضاء على مسلمين الأندلس ، والجمهوريات الإيطالية تهم بتوطيد علاقاتها بالدولة العثمانية مكرهة ؛ وحجاً في المال وحفظاً على سيادتها التجارية، وفي النهاية فشل هذا الحلف عام 859هـ / 1455م بسبب تصدي الفاتح له ، وحال نزاعات ملوك أوروبا دون تحقيق هدفه. (2)

وعندما أدرك البابا (بيوس الثاني) فشل دعايته وحملاته الصليبية ركز جهوده في محاولة إقناع الأتراك العثمانيين باعتناق الدين النصراني ، وفي إطار هذه المحاولة أرسل خطاباً إلى السلطان العثماني يطلب منه أن يعتصم النصرانية كما عضد قبله قسطنطين ووعده بأنه سيكفر عنه خطياً إن هو اعتنق النصرانية (3) مخلصاً ووعده بمنحه بركته واحتضانه ، ومنحه صكًا بدخول الجنة، ولما فشل البابا - بالتأكيد - في خطته تلك لجأ إلى التهديد والوعيد واستعمال القوة إن اضطر إلى ذلك ، وقد فشلت هذه الخطة أيضًا. (4)

(١) علي محمد الصلايبي : مرجع سابق ، ص 189 . خلف الوزيناني : مرجع سابق ، ص 116 ، 117 . زياد أبو غنيمه :

السلطان المجاهد محمد الفاتح ، ص 108 ، 109 . محمد محمود الحويري : مرجع سابق ، ص 157 .

(٢) علي محمد الصلايبي : مرجع سابق ، ص 190 ، 191 . زياد أبو غنيمه : السلطان المجاهد محمد الفاتح ، ص 110 . محمد العبدة : مرجع سابق ، ص 49 .

(٣) وقد أرسل كذلك بعده البابا سيلفيو بوس يطلب الطلب نفسه إلا أنه فشل . محمد العبدة : مرجع سابق ، ص 34 .

(٤) زياد أبو غنيمه : السلطان المجاهد محمد الفاتح ، ص 110 . علي محمد الصلايبي : مرجع سابق ، ص 192 .

طبيعي أن لا تجد هذه الرسالة أي صدى في نفس الفاتح ؛ إذ إنه عرض ساذج مضحك ، غير مجد مع شخصية مثل الفاتح التي تعد مثلاً يحتذى به في الدولة الإسلامية ، وانتهى هذا المشروع بوفاة البابا .

ثم واجه الفاتح بعد ذلك حلفاً صليبياً جديداً مكوناً من ملك نابولي وحاكم ألبانيا (إسكندر بك) مع البندقية التي سعت لدعم بابا روما ؛ لاستعادة ما أخذته منها العثمانيون من أملاك ونقط اقتصادية ، لكن هذا الحلف فشل وانتصر العثمانيون ، واضطر البندقية إلى عقد معاهدة صلح مع السلطان محمد الفاتح تنازلوا فيها عن مزيد من الأماكن المهمة التابعة لهم ، وتبعه انتصار جديد للعثمانيين على فرسان القدس يوحنا في رودس وكل هذه الانتصارات في عام واحد ، (١) مما أدى إلى إذكاء روح العداء ضد الدولة العثمانية .

بدأ الجيش العثماني بقيادة السلطان محمد الفاتح في الاستعداد لحصار بلغراد عام 860هـ / 1456م ، وما إن انتشر الخبر في أوروبا حتى ثارت حملة صليبية جديدة ودعامية لشن الهجوم على العثمانيين المسلمين ، وطفق الراهب المجري (جيوفاني دي كابسترانو) يجوب إسبانيا وفرنسا وألمانيا وال مجر يلهب الحماس ضد العثمانيين بخطاب بلغة ، ويدعو لشن حملة صليبية ضدهم وتزامن ذلك مع هوى البابا (الكلكتس الثالث) الذي أعلن منذ لحظة إعلانه كرسي البابوية أنه سيبذل قصارى جهده في إعلان الحرب على العثمانيين ، فبدأ البابا في مشروعه لتكوين حلف صليبي ضد العثمانيين ، وأرسل الرسل إلى أنحاء أوروبا وحتى أمراء الشرق ، مثل إمبراطور طرابزون وأوزون حسن ، وقد استقبلوا بحفاوة باللغة من المدن الأوروبية التي زاروها ، واختار البابا الكلكتس لقيادة هذه الحملة القائد المجري (هونيادي) يعاونه الراهب (كابسترانو) وكثير من رجال الدين قاموا بحملة صليبية على حدود الدولة العثمانية ، لكن السلطان محمد الفاتح تصدى لهم ، وتقدم لحصار بلغراد إلا أن جماعة الراهب أبدوا مقاومة عنيفة للحصار وقام القائد (هنا هونيادي) بمهاجمة الأسطول العثماني أثناء الحصار ، واستطاع أن يتلف جزءاً منه ، فاضطر الفاتح إلى رفع الحصار بعد إزالته هزيمة ساحقة بهم ، وتوفي على إثرها القائد المجري (هنا هونيادي) . (٢)

(١) محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 87 . شبيب أرسلان : مصدر سابق ، ص 90 ، زياد أبو غنيمة : السلطان محمد الفاتح ، ص 114 .

(٢) إسماعيل سرهنوك : تاريخ الدولة العثمانية ، 47 . محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص 98 - 113 . محمد محمود الحويري : مرجع سابق ، ص 157 - 161 . سليمان الرشيدى : مرجع سابق ، ص 218 ، 219 . محمد العبد : مرجع سابق ، ص 50 .

وأثناء هذه الأحداث توفى البابا (كالكستس الثالث) وجاء بعده البابا (بي الثاني) الذي فاق سلفه في الحماس إلى قتال الأتراك ، فغضض الحلف وقدم له المساعدة وجعل مهمته الأولى نشر النصرانية ، وقد كان رجلاً واسع المعرفة ذا خبرة وإطلاع ، تدرج في كثير من الوظائف الدينية ، وألمه بشدّه فشل الحملات الصليبية ، وكان يدرك مدى تسامح السلطان محمد الفاتح فرأى أن يدعوه للنصرانية كسابقه وطبعاً هذه الخطوة لم تأت بنتيجة مطلقاً فشلت .⁽¹⁾

وما كاد السلطان محمد الفاتح ينهي فتح البوسنة 867هـ / 1463م حتى تناول إليه الأنباء بأن البندقية وال مجر قد تحالفتا لقتاله ، وأن البابا (بي الثاني) كان له الدور الفعال في هذا التحالف حيث دعا إلى حرب مقدسة ضد العثمانيين بالخطب البلاغية والمنشورات الحمساوية، ولم يكن الفاتح غافلاً عما يدبره البابا ، فأرسل إلى (إسكندر بك) أمير الأرناؤوط يذكره بالعهد والميثاق المعقود بينهم لكن الأخير سخر منه ولم يكرث ، فاعتمد على نفسه لمواجهة هذا الخطر الصليبي الجديد ، وخرج البابا (بي الثاني) بنفسه لقيادة الحملة لأول مرة في تاريخ البابوية والنصرانية ، لكن في الطريق واجه عدة مشاكل وعراقل ، آخرها وفاة البابا (بي الثاني) 868هـ / 1464م الذي انتهت حياته دون أن يستطيع حتى مواجهة الفاتح ، وبعد وفاته ضاعت الآمال وفشلت الحملة ، وتملأ النصارى اليأس من نجاح إعداد حملة صليبية أخرى .⁽²⁾

أسفرت حملة السلطان محمد الفاتح على ثغور النصارى عام 875هـ / 1471م إلى وقوع خسائر فادحة مما زاد من مخاوف نصارى أوروبا من الخطر العثماني ، فبعثت الروح الصليبية مجدداً ، وببدأ البابا (بول الثاني) يستحدث دول أوروبا لتشكيل حلف صليبي جديد ، فاستجابت له البندقية بتراثها الضخم ، وزعماء نابولي والأragون ، وفلورنسا وسيتي لوكونس ، وزعماء دوقيات ميلانو ، ولم يكتف البابا بذلك بل حاول استغلال الخلاف بين المماليك في مصر والعثمانيين ، بالإضافة إلى محاولة استئالة حسن الطويل حاكم إقليم آك كوبنلو وعاصمته سيوواس ، أما المماليك فقد خسروا من هذا التحالف في أن يثير استياء المسلمين ضدهم ، فيزداد انخفاض شعبيتهم ، ويتطور الأمر إلى تفاقم شعور النقمـة ضدهم فيثور الأهالي مما يغرـي العثمانيين بدخول مصر والشام .

⁽¹⁾ زياد أبو غنيمه : مرجع سابق ، ص 139 . سالم الرشيدـي : مرجع سابق ، ص 228 ، 229 .

⁽²⁾ سالم الرشيدـي : مرجع سابق ، ص 229 - 235 .

أما حسن الطويل فقد استطاع البناقة استمالتهِ مستغلين طموحاته الشخصية وخيانتهِ لأبناء دينه ، معتمداً على بعض المنافقين المسلمين لإضفاء الشرعية على تصرفاته ، وهكذا واجهت الدولة العثمانية خطرًا حقيقياً بهذا التحالف ، فبدأ السلطان محمد الفاتح في اتخاذ الإجراءات السريعة لصد هذا الخطر ، فأمر بتحصين المراكز الدفاعية في إسطنبول وحشد الأسطول في خليج (جنالقعة) تحسباً لأي هجوم ، وأخذت الاستعدادات العسكرية تحتشد من كلا الطرفين ، والتقى الجيشان في مكان يقال له كيرالي بقرب بحيرة بيشهر في الأناضول عام 877هـ / 1472م ، وأسفرت المعركة عن انتصار العثمانيين ، وهزم حسن الطويل في معركة لاحقة ، وبهذا اهتزت أوروبا غضباً عندما علمت أنها فشلت في تكوين جبهة نصرانية إسلامية ضد العثمانيين .⁽¹⁾ لدرجة أن قائد الأسطول البندقي (الأميرال بيترو موسينيفو Petro Mosenefo) صبَّ جام غضبه على مدن أنطاليا وأزمير وميدللي ، وخاصة أزمير حيث هدم مساجدها وأحرقها ، ولم تسلم الكنائس من التخريب وأعمال القتل والسلب والنهب وانتهاك الأعراض ضد المسلمين ،⁽²⁾ وفي نهاية المطاف تولى كرسي البابوية (سيكست الرابع) الذي واصل جهود سلفه في تأليف جبهة صليبية ضد العثمانيين لكن جهوده باعدت بالفشل نتيجة لعدم قدرته على استئصال الخلاف بين ملوك أوروبا وحكامها⁽³⁾ .

ومن خلال العرض السابق تتضح الجهود التي بذلتها الكنيسة والبابوية للقضاء على الدولة العثمانية ، وهذا بسبب فتوحات السلطان محمد الفاتح ونشر الإسلام ، فقد تركز في عهده كثير من الأحلاف انتهت كلها بفشلها ، ولم تستطع قوة البابوية أن تقف أمام المد الإسلامي ، وظبيعي جداً أن تتجه البابوية وحليفاتها إلى التشويه والافتراء واصطناع مستشرقين للنيل من أعدائهم .

وقد فشل آخر حلف صليبي في عهد السلطان بايزيد الثاني الذي سعى لتحقيقه جُمُّ أخو السلطان ، ودخل مع أخيه في صراع على الحكم ، حيث توجه إلى رودس وحاول أن

⁽¹⁾ زياد أبو غنيمه : السلطان المجاهد محمد الفاتح ، ص ص 153 – 166 . سالم الرشيدی : مرجع سابق ، ص 258 – 260 .

⁽²⁾ زياد أبو غنيمه : السلطان المجاهد محمد الفاتح ، ص 168 . نقلًا عن إسماعيل حامي دنشمدن . سالم الرشيدی : مرجع سابق ، ص 273 .

⁽³⁾ زياد أبو غنيمه : السلطان المجاهد محمد الفاتح ، ص 168 .

يتحالف مع ملوك أوروبا وأمرائها ليووجه حملة صليبية ضد أخيه ، لكن جهوده باعدت بالفشل في رودس مع فرسان القديس يوحنا ، وانتهى الأمر بوفاته .⁽¹⁾

وحتى السلطان سليم الأول الذي تركزت في عهده حركة الضم العثماني على بلاد المشرق الإسلامي ، لم يسلم من مؤامرة البابوية والكنيسة ؛ حيث قام البابا (ليون العاشر Leon) بمحاولة تجميع ملوك أوروبا على كلمة واحدة لمحاربة الأتراك ، حيث كتب إلى ملك إنجلترا وإمبراطور روما وملك بولونيا وملك فرنسا وملك المجر ، ودعاهم لحملة صليبية ، وانتدب عليها (لويس الثاني عشر) ملك فرنسا لقيادة الحملة حتى إن البابا راسل ملك البرتغال ، وقام البابا بالاستعداد التام لهذه الحملة ، إلا أن إمبراطور روما (مكسيميليان) مات 925هـ / 1519م ، وانتهت هذه الحملة قبل أن تبدأ .⁽²⁾

أما في عهد السلطان سليمان القانوني فقد قامت عدة مشاريع لمحاربة العثمانيين واسترداد القدسية ، فهناك مشروع (كوسينانوس Cospenanos) الألماني عام 948هـ / 1541م الذي وضع أفضل خطة للهجوم على القدسية ، وأورد الأدلة لنجاح الهجوم ، وفي عام 949هـ / 1542م وجه (كوسينانوس) شخص اسمه (جيورجيتس Jror gnetz) إلى أرشيدوق النمسا (مكسيميليان Maximilian) يدعوه إلى الاشتراك في هذه الحملة الصليبية التي لم يكتب لها الخروج لحيز التنفيذ .⁽³⁾

ونتيجة لسياسة الدولة العثمانية الإسلامية واتباعها للشرايع بدأت الشعوب الأوروبية الدخول في الإسلام أفواجاً ، رغم أن تلك الشعوب وقفت في بداية الأمر ضدّ الدولة العثمانية ، خاصة البلقان التي تشمل (يوغوسلافيا ورومانيا واليونان وألبانيا والصرب والجبل الأسود) وقد ارتبطت بعض شعوب البلقان مثل ألبانيا بالعاصمة إسطنبول - على الرغم منبعد الجغرافي - إذ دخل شعبها في الإسلام وترقوا في وظائف الدولة الإدارية والعسكرية وظهر منهم قادة ومجاهدون وولاة، ولا يزال الإسلام حيًّا في كثير من المدن البلقانية ، حتى بعد الهجمات الشرسة الصليبية لهدم الخلافة العثمانية والقضاء على الإسلام فيها ، ولن يست مسألة البوسنة والهرسك إلا امتداد للصراع الذي كان بين الدولة العثمانية والدول المسيحية في تلك

⁽¹⁾ أميرة مراح : مرجع سابق ، ص 39 . أحمد عبد الرحيم مصطفى مرجع سابق ، ص 102 علي محمد الصلاي : مرجع سابق ، ص 268 . محمد العبد : مرجع سابق ، ص 53-54 .

⁽²⁾ محمد العبد : مرجع سابق ، ص 54-59 .

⁽³⁾ مرجع سابق ، ص 62-64 .

المنطقة ، واستغلال الدول الصليبية عدم وجود قوة كبرى تحمي هذه المناطق الإسلامية ، كما كانت تحميهم الدولة العثمانية. ⁽¹⁾

كان الأوروبيون ينظرون إلى الدولة العثمانية وسلطانها على أنهم أعادوا الصراع الإسلامي المسيحي الصليبي إلى الأذهان ، بعد أن توقفت سطور التاريخ السياسي والديني عن الكتابة فيه وسرد أحداثه فترة طويلة من الزمن .

وقد أفاقت حكومات وشعوب دول أوروبا التي خضعت للدولة العثمانية لتجد نفسها تخضع لأول مرة في تاريخها لحاكم مسلم ، بعد أن كانت هي التي تغزو ديار المسلمين ، ومن ثم عملت جاهدة على تصفيته هذا الوجود الإسلامي من أراضيها ، وساعدتها دول أوروبية أخرى جمع بينهما وحدة الهدف ، وهو الانتصار للمسيحية والقضاء على الإسلام ودعم حركة الاستعمار بتوزيع ممتلكات الدولة العثمانية ، ولو لا اهتمام الدولة العثمانية بنشر الإسلام لما أخذت هذه المواقف كل هذه الحدة . ⁽²⁾

هذه نظرة أوروبا ، لكن في المقابل كانت الدولة العثمانية تعامل مع هذه الشعوب بحكمة سياسية ، ومثال على ذلك أن الجزية ومجموع الضرائب التي فرضها العثمانيون على رعاياهم المسيحيين أقل بكثير من التزاماتهم تجاه الإقطاعيين في بعض فترات الحكم البيزنطي ، ومنح العثمانيون العمال والمزارعين المسيحيين حرية شخصية ، وإمكانية التمتع بنتائج عملهم على غير ما كانوا عليه في ظل الإقطاع البيزنطي ؛ حرصاً على تدعيم النواحي الاقتصادية بشكل عام .

وحينما فتح العثمانيون امتيازات موسعة للمسلمين الذين ينخرطون في سلك الجيش من ناحية الرواتب والعطايا ، أو في مرافق الدولة لم يتقيدوا بالجنسية التي ينتمي إليها المسلم ، مما أدى إلى تشجيع كثير من العناصر المسيحية على اعتناق الإسلام . ⁽³⁾

⁽¹⁾ أحمد سعيد نونو : مرجع سابق ، ص 46 ، لمزيد من المعلومات عن المسلمين في هذه المناطق البلقانية الرجوع محمد حرب : العثمانيين في التاريخ والحضارة ، ص 204 – 208 .

⁽²⁾ مجدي عبدالمجيد الصافوري : مرجع سابق ، ص 59 . يوسف التقفي : مرجع سابق ، ص 8 ، 9 .

⁽³⁾ زكريا سليمان بيومي : مرجع سابق . ص 48 . أمانى جعفر الغازى : دور الانكشارية في إضعاف الدولة العثمانية ، ط 1 ، مصر : دار القاهرة ، 2007م ، ص 80 ، 81 . جورجي زيدان : تاريخ الجندي العثماني ، مجلة الهلال ، ج 8 ، 1326هـ ، 1909م ، ص 461 .

وقد سلك العثمانيون سبلاً كثيرة لإغراء المسيحيين في الدخول في الإسلام :

(١) الاحتفال بمن يعلن إسلامه ، وإمداده بكل السبل التي تعينه على الحياة الدينية الجديدة

، ونشر ذلك في المساجد مع تبسيط أداء الشعائر الدينية حتى يتسعى للمسلم الجديد
أداءها بسهولة ويسر .

(٢) سلكوا سياسة اللين في معاملة الأسرى من المسيحيين ، وخير دليل على ذلك معاملة

السلطان محمد الفاتح للأسرى في القسطنطينية ، حيث كانوا يعتقدونهم إذا ما ثبتت
إخلاصهم حتى لو ظلوا على دينهم ، ويتولون رعايتهم وبخاصة كبار السن منهم بعد
العنق ، سواء أكان مسلماً أم لا ، مما كان له الأثر البالغ في نشر الإسلام ، كما أن
السلطان أعطاهم الأمان لحظة أن وطأت قدماه أرض إسطنبول ، ولم يثبت أن قام
جندي واحد بالقتل أو النهب .^(١)

(٣) حاول الكثير من الذين أعلنوا إسلامهم سحب ذويهم للإسلام ، مما دفع بعض الكتاب

المسيحيين لأن يعدوهم مثلاً وقدوة سيئة دفعت عدداً كبيراً للتغيير ديانتهم ، ومساعدة
الدولة العثمانية بذلك .

(٤) وحينما أقبل كثيرون من الأتراك على الزواج من مسيحيات حرمت الكنيسة دخولهن

فيها ، مما دفع ببعضهن إلى اتباع دين أزواجهن ، أما اللاتي بقين على المسيحية ،
و فمن بتعميد أبنائهن في الكنيسة فلم يلاقين في الغالب أية معارضة من الأزواج
العثمانيين مما خلق روحًا من الود بعيد عن التعصب ، الأمر الذي أثار إعجاب
بعضهم فتشجعوا على الدخول في الإسلام .

(٥) وأخيراً أسمم الصراع المذهبي بين الطوائف المسيحية والمذاهب التي أدت إلى

تصفيتهم ، أسمم في دفع جموع غفيرة منهم لاعتناق الإسلام.^(٢)

إذا عدنا بذاكرة التاريخ إلى الوراء قليلاً ، فسنجد أنه بمجرد أن أصبحت المسيحية
الدين الرسمي للإمبراطورية البيزنطية عام 315م ، دمرت العصابات المسيحية الكثير من
المعابد الوثنية وقتلوا الكهنة الوثنيين ، وتمت مذابح كثيرة بعد ذلك حتى القرن 6 م.

^(١) زياد أبو غنيمه : السلطان المجاهد محمد الفاتح ، مرجع سابق ، ص 75 ، 76 .

^(٢) زكريا سليمان بيومي : مرجع سابق ، ص 48 ، 49 . علي محمد الصلايبي : مرجع سابق ، ص 179 . خلف الودينياني
ص 14 ، محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 74 ، 75 .

أما بعد القرن 6م فقد اختلف الوضع وأصبحت تقام المذابح ضد من يرفض أن يعتنق المسيحية ، لدرجة أن من يعجز من الفلاحين منهم عن دفع الضرائب الباهظة يكون نصبيه الذبح ، ولم يسلم أحد سواء أكانوا رجالاً أم نساء أم أطفالاً . وكانت تتم هذه المذابح بناءً على أوامر الكنيسة .⁽¹⁾

وقد استمر هذا الأمر حتى عهد شارلمان في القرن 2هـ / 8م إذ قام بمذابح مروعة ضد (الأفار) وهم شعب رعوي تركي ، بالإضافة لمذابح عنيفة ضد (السكسون) إحدى قبائل الجerman ، في محاولة منه لنشر المسيحية بينهم.⁽²⁾

ونتيجة لفشل هذه التحالفات الصليبية العسكرية ضد الدولة العثمانية فقد صرفوا النظر عن المواجهة العسكرية ، واتجهوا بتفكيرهم إلى مواجهتها فكريًا ومحاولة تشويه تاريخها وحضارتها الإسلامية ، حيث ظهر هذا الحقد بوضوح في هذا الأمر ، وعملوا على إلصاق التهم والافتراءات والخزعبلات بها ، وإحاطتها بالأساطير .⁽³⁾

وقد جرب الاستشراق جميع الطرق التي قد تساعد في إبعاد المسلمين عن دينهم ، مثل إثارة القضايا والنعرة العصبية ، أو بث الشبهات في كثير من الموضوعات الحساسة ، وعمل المستشرقون على نشر الأفكار المعارضة للإسلام ، وفي مرحلة لاحقة كانوا مصدرًا وجهاً للسياسة الغربية ، والمتخصص الجاهز لخدمة الاستعمار.⁽⁴⁾

إنَّ كل نصر حققه العثمانيون هو في نظر أوروبا نصر إسلامي ، لذلك فإن التحالفات الأوروبيية والتكتلات جاءت كلها ضد الإسلام في صورة الدولة العثمانية ، ويتبين ذلك بجلاء عندما طلب ملوك أوروبا من البابا (أوربانوس الخامس) دعوة المسيحيين لإعداد حملة ضد العثمانيين في إطار حروب أوروبا المقدسة ضد الدولة العثمانية لوقف زحفها الإسلامي إلى وسط أوروبا .⁽⁵⁾

ومن ناحية أخرى فإن الانتصارات العسكرية الرائعة التي أحرزها العثمانيون ، أضفت عليهم حالة من المجد في أرجاء العالم الإسلامي كله ، ونظر المسلمين للسلطان

⁽¹⁾ word press . 19 march 2009 , http://islame ofy . Wordpress.com .

⁽²⁾ سهام بيومي : التحضر الإسلامي والبربرية الصليبية ، ص 7 .

⁽³⁾ محمد عبدالفتاح العليان : مرجع سابق ، ص 19 .

⁽⁴⁾ سهيل صابان : مرجع سابق ، ص 137 .

⁽⁵⁾ أحمد سعيد نونو : مرجع سابق ، ص 5 .

العثماني على أنه الأمل المرتجل في إعادة المجد للإسلام والمسلمين . في هذا الوقت المبكر لم تكن فكرة القومية قد تكونت بعد ، وكان الإسلام هو الرابط بين الولايات العثمانية .

وكانت النتيجة حركة استرداد مسيحية شرسة على نطاق واسع ، قبضت على الإسلام تماماً وأرجعتها مسيحية لحمّاً ودمّاً ، ولم يبق للإسلام فيها أثر إلا القليل جداً .

ونأتي لموقف السلطان عبد الحميد الثاني الذي واجه تاريخه وسيرته موجة من الحقد والتشويه أكثر من أي سلطان آخر ، فالحملة الهجومية على الدولة العثمانية ، جزء من خطة التغريب والغزو الفكري ، وما زالوا يطلقون على الحكم العثماني الاستعمار العثماني أو التركي ، بينما لم تكن كلمة استعمار قد وجدت في تلك المرحلة من التاريخ .

وقد أثار المستشرقون بعض الشبهات على الدولة العثمانية ؛ لإذكاء روح العداء ، بدعة أن هذا الحكم العثماني - في نظرهم - أدخل البلاد في عزلة وضعف وتخلف فترة طويلة ، غافلين عن أن الدولة العثمانية هي التي حمت البلاد العربية والإسلامية من الغزوات الأوروبية المسيحية والاستعمار الأجنبي لمدة طويلة .

إن موقف السلطان عبد الحميد الثاني من الصهيونية هو العامل القريب الذي دفعهم إلى تلك المحاولات ، حيث وقف شامخاً وصادماً أمام مؤامرات الغرب والدول المسيحية للسيطرة على بيت المقدس ، بالرغم من الإغراءات التي قدموها له لمعالجة مشاكله المادية .

(1)

وحينما رفض السلطان عبد الحميد رغم احتياجه للمال هذه العروض تألبوا عليه ، وخططت المحافل الماسونية وحزب الاتحاد والترقي لإسقاط حكمه ، وقد حبكت خيوط تلك المؤامرة بعد وقت طويل ، وبدأوا في صب سمومهم في كل الأنحاء .

ولما اكتشفت هذه الحقائق اليوم اعترف المجتمع المسلم للدولة العثمانية بذلك الدور التاريخي . ولا أدل على أصواء الفتوحات العثمانية إلا نشاط الإرساليات التصديرية وخاصة إرساليات الولايات المتحدة الأمريكية ، ودورها في إشعال الفتنة الطائفية سواء المسيحية أو اليهودية التي كانت توزع على الكنائس والمدارس المسيحية في زي رجل الدين المسيحي ،

⁽¹⁾ السلطان عبد الحميد : مذكرات السلطان عبد الحميد ، ترجمة : محمد حرب ، ط 4 ، دار القلم : دمشق : 1419هـ / 1998م ، ص 31-28.

ولكن في حقيقة الأمر كانوا يخططون لتنفيذ أغراضهم السياسية والاستعمارية عن طريق
عملاء يأتون في زي سياح أو تجار .⁽¹⁾

ومن أهم الأهداف التي حققتها البعثات التصويرية العمل على تغذية الفكر القومي في
البلاد العربية ، حيث بثت هذه الأفكار من المدارس التابعة للدول الاستعمارية المنتشرة
خاصة في بلاد الشام ، إذ أصبحت هذه المدارس المسبّب والمحرّك الأول للحركة القومية
العربية في الدولة العثمانية ، فهي التي حضرت على انفصال العرب عن الدولة العثمانية ،
ويظهر هذا الأمر بوضوح في عهد السلطان عبد الحميد الثاني ؛ إذ أمر بإغلاق المدارس
الأجنبية حين اكتشف أنّهم يثيرون الفتنة ضد الدولة ، ويتجسسون لحساب دولهم ، وأمر
 بإغلاق الصحف التي تعمل على بث هذه الأفكار .⁽²⁾

وبالتأكيد فسرت هذه الأعمال على أنها حكم عبد الحميد الاستبدادي ، ورغبتة في
السيطرة والحكم المركزي ، وما إلى ذلك من تشويه وافتراء ، ولم يتوقف المؤرخ لسؤال
نفسه عن سبب هذه الأعمال !

أما عن تدبير الدول المسيحية واليهود للمذابح فحدث ولا حرج ، فقد كانوا سبباً في
تدبير إنجلترا لمذبحة الإسكندرية والفتنة الطائفية ؛ حتى تجد ذريعة للتدخل العسكري ، وقد
وجد قتلى مسيحيين في لباس المسلمين ، يعني أنّهم يتذمرون في زي المسلمين فيقتلون
المسيحيين ، وذلك لإثارة المسيحية على المسلمين .⁽³⁾

وما يصدق المعلومة السابقة ما أورده السلطان عبد الحميد الثاني بشأن الفتنة التي
أشعلتها الدول المسيحية لتسقط أرمينيا عن الدولة العثمانية ، فقد ذكر أنّ الأرمن كانوا
يلبسون زي الأتراك ويقتلون الأرمن المسلمين ابتغاء الفتنة بين المسلمين والأرمن ؛ ليطلبوا
تدخل الدول المسيحية لإنقاذ الأرمن ، كما أنشأ الأرمن جمعيات هدفها ارتكاب المذابح بين
المسلمين والأرمن بهدف إثارة الرأي العام في أوروبا .⁽⁴⁾

⁽¹⁾ أحمد سعيد نونو : مرجع سابق ، ص 82 . ربيع عبدالرؤوف الزواوي : الدولة التي ظلمها التاريخ ، ط 1 ، قطر : دار الثقافة ، 1425هـ / 2004م ، ص 194 . محمود حسن منسي ، مرجع سابق ، ص 86 .

⁽²⁾ هدى درويش : العلاقات التركية اليهودية وأثرها على البلاد العربية ، ج 1 ، ط 1 ، دمشق : دار العلم ، 1423هـ / 2002م
محمد حرب : مذكرات السلطان عبد الحميد ، ص 115 . محمود حسن منسي : مرجع سابق ، ص 87 ، 88 .

⁽³⁾ أحمد سعيد نونو : مرجع سابق ، ص 23 .

⁽⁴⁾ محمد حرب : مذكرات السلطان عبد الحميد ، ص 126 . محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص 472 .

وحقيقة قضية الأرمن ، تتمثل في نجاح مساعي اليهود في إفساد العلاقة بين الدولة العثمانية والأقليات النصرانية ، فقد سعت طائفة اليهود في الإيقاع ما بين العثمانيين والأرمن ؛ وذلك لتسهيل دخولهم مجال السيطرة والنفوذ على الاقتصاد ، واعتمد اليهود والراسون على الدس المتواصل بينهم ، وإظهار الأرمن أمام الحكومة العثمانية بمظهر المتآمرين على سلامة الدولة العثمانية مع أوروبا ، بينما في الوقت ذاته أوحوا إلى الأرمن بأن السلطات التركية تزيد الفتى بهم في أول فرصة ، وسهلا لهم الاتصال بدول أوروبا لضمان حمايتهم ، ولما كان من طبعهم التجسس ، فقد كانوا ينقلون كل تحركات واتصالات الأرمن للدولة العثمانية، مما وسع هوة الخلاف بينهم ، ووقعت أحداث مؤسفة بينهم ، استغلتها الصحفة الأوروبية أ بشع استغلال للتشهير بالدولة العثمانية وتحريض الأقليات عليها ، فبدأت شقة الخلاف تتسع بين العثمانيين والأرمن يوماً بعد يوم .⁽¹⁾

وجاءت معركة نوارين البحرية ترجمة واضحة على غدر الدول الأوروبية بالدولة العثمانية ، حيث حدث تحالف بين نصارى الدولة العثمانية وبين روسيا وإنجلترا وإنجلترا ، وذلك لمساعدتهم ضدّها ، فعندما رفض إبراهيم باشا بن محمد علي والي مصر إنذار الدول الغربية بشأن سحب أسطوله وجنوده دخلت قوات هذه الدول البحرية نوارين 1827هـ/1243 وأغرقت السفن الحربية العثمانية ، وفي هذا وصمة عار على جبين الحضارة الأوروبية ، وذلك لأن الأساطيل الغربية دخلت مرفأ نوارين دون أن ترفع أعلام الحرب ، فباغتت الأسطول العثماني المصري وغدرت به .⁽²⁾

إن كتابات مؤرخي الغرب تعطينا انطباعاً واضحاً عن وجهة النظر السائدة عن أعداء الإسلام ، ومدى ما يكنونه من بغض للإسلام والمسلمين ، وقد حفظت السجلات التاريخية لنا

⁽¹⁾ أحمد عبد الله الزغبي : مرجع سابق ، ج 2 ، ص 618 - 619 . لمزيد من المعلومات عن فتنة الأرمن الرجوع إلى : فرج عبد الباري أبو عطا الله : الاختراق اليهودي في المجتمعات الإسلامية نشأته وتطوره ، ط 1 ، القاهرة ، 1412هـ / 1992م . ص 216 - 219 .

⁽²⁾ هدى درويش : الإسلاميون وتركيا العلمانية - نموذج الإمام سليمان حلمي ، مصر : دار الآفاق العربية ، ط 1 ، 1418هـ / 1998م ، ص 166 . وديع أبو زيدون : مرجع سابق ، ص 231 .

شواهد كثيرة من كلام رجال الغرب ومشروعاتهم الداعية إلى استخدام كافة الوسائل لمقاومة الوجود الإسلامي في أوروبا .⁽¹⁾

وأبرز هذه المشروعات في عام 1202هـ / 1788م قدم (دوبريون ولاتور Dobrion Lator) مشروعًا سماه " اقتسام جلد الذب " وهو يهدف إلى تقسيم أملاك وأراضي الدولة العثمانية في أوروبا . وفي عام 1293هـ / 1876م نشر (جلادستون Gladstone) وزير المستعمرات البريطاني كتاباً بعنوان " الأحوال البلغارية والمسألة الشرفية " وأنه مت指控 يمقت الإسلام والمسلمين فقد حث في كتابه الأوروبيين على طرد المسلمين من أوروبا وبالأخص من البوسنة والهرسك ، وقام مدفوعاً بشعوره الديني المت指控 ضد المسلمين بجولات في المدن الإنجليزية وألقى فيها خطب الحماسية ، مستغلًا ببلاغته وقدرته الخطابية ، وهاجم المسلمين في كل مكان ، وكان يرى أن يعقد مؤتمراً لتصفية الوجود الإسلامي والعثماني في أوروبا ، وأفاض في ذكر مذابح البلغاريين وادعى أن المسلمين ظلمواهم ، ونسى المذابح التي تعرض لها المسلمون في كل مكان في بلغاريا نفسها وغيرها ، ولم يذكر أن البلغاريين هم الذين أخذوا زمام المبادرة بذبح المسلمين ، وكان المسلمون يدافعون عن أنفسهم عندما أصابوهم البلغاريين ، ومع الأسف كان لحملات (جلادستون Gladstone) أثرها السلبي والسعي على المسلمين ؛ حيث ساد الاعتقاد في أوروبا بأن المسلمين هم الذين فتكوا بالبلغاريين ، مما أدى إلى إثارة الرأي العام وإحداث البلبة ساعد على ذلك مناداته بين حين وآخر بضرورة إبادة المسلمين والعثمانيين وطردهم من أوروبا كافة.⁽²⁾

(1) يقول المنصر (ستيفان نيل) في كتابه " تاريخ الإرساليات المسيحية : إن الصليبيين يعتقدون أن سحقهم - أي سحق المسلمين - أمر ضروري وخلقي أيضًا ، أما من يسمح له بالحياة منهم فإلى عبودية دائمة ، وحيث انهم - يقصد المسلمين - كفار ، فليس لهم الحق في الوجود ، فلا عهد معهم ، وينبغى أن يذبحوا بلا رحمة ، أو شفقة ؛ تمجيداً لإله المسلمين " في عام 900هـ / 1494م قال (كارلين الثامن) ملك فرنسا ما يلي :

" قد أخذنا على أنفسنا أن لا نضن بنفسنا ولا بشيء من وسائلنا في دفع الطواغيت الأتراك والاستيلاء على الأرض المقدسة وغيرها من الممالك التي انتزعوها من أيدي المسيحيين " . دعا أحد أدباء الغرب ويدعى (إيرازم) إلى طرد العثمانيين من كل الأراضي الأوروبية وقال : " إن المسيحي لا يمكنه أن يعيش إن لم يصرع الترك ، ولا تهولنكم عظمة السلطنة العثمانية ، فإن السلطنة الرومانية والفتوات الإسكندرية ، كانت أيضًا بمنتهى العظلمة " .

ولمزيد من هذه المشاريع انظر : يوسف التقفي : موقف أوروبا ، ص 99 - 101 .

(2) يوسف التقفي : مرجع سابق ، ص 101 . جميل المصري : مرجع سابق ، ص 620 . محمد العبد : التعصب الأوروبي أم التعصب الإسلامي مئة مشروع لنقسيم الدولة العثمانية ، ط 1 ، الرياض ، 1416هـ / 1995م ، ص 150 .

وفي واقع الأمر لم يكن هذا المشروع الوحيد لاقتسم ممتلكات الدولة العثمانية ، فقد ثبت من الوثائق المحفوظة في دور الوثائق العثمانية عبر أوروبا أن هناك ما لا يقل عن مئة مشروع لاقتسم ممتلكات الدولة العثمانية وتفتيت جميع أجزاءها تتخل هذه المشاريع الروح الصليبية ، وقد تمت برعاية الكنيسة ومبركة البابا ، وبعض هذه المشاريع كانت من شخصيات عادية تملك القوة والبلاغة الخطابية ، أما البعض الآخر فكانت من البابوات مباشرة .⁽¹⁾

والحقيقة أنَّ كل هذه الشواهد لا تدع مجالاً للشك بأنَّ أعداء الإسلام منذ زمن طويل وهم يخططون ويعملون ما استطاعوا من أجل الحيلولة دون قيام كيان إسلامي مستقل في القارة الأوروبية ؛ إذ لا يروق لأعداء الإسلام أن يشاهدواآلاف المساجد والمدارس الإسلامية تنتشر في الأراضي الأوروبية ، ويتم تطبيق القوانين الإسلامية فيها ، وتنشر دعوة التوحيد في قرى ومدن البلقان . وليس من السهل عليهم أيضاً أن يشاهدوا حوالي ثلاثة آلاف مسجد ، تنتشر في البلقان ، منها 1092 مسجداً في مدينة سراييفو واحدها .

ولهذا وقفت الدول الغربية، تلك المواقف السلبية من تقدم الدولة العثمانية في أوروبا، ثم إنها سعت حثيثاً لضعفها وتمزيقها واقتسم أملاكها فيما بينهم.

إن ذاكرة التاريخ لا تنسى أبداً المذابح التي ارتكبها الحملة الصليبية الأولى؛ إذ كانت مذابحهم من البشاعة بحيث شملت كل الفئات والأعمار ، ولم يسلم منهم المسيحيون أصحاب المذاهب الأخرى ؛ فقد ارتكبوا في دالماشيا الفطائع ضد السلاف من تكيل لهذه القبائل وتشويه أسراهם ببتر أطرافهم وجدع أنوفهم ، إضافة إلى إنزالهم الخراب والدمار بهنغاريا ، فضلاً عن اتباعهم السلوك الوحشي نفسه في إنطاكيَا ومصرة النعمان .⁽²⁾

أما عن المجازرة الوحشية التي اقترفها الصليبيون عند دخولهم أنطاكيا 490هـ / 1097م إبان الحروب الصليبية ، فغنية عن التعريف ؛ مما حدث فيها من أسر ونبي المسلمين ونسائهم وأطفالهم لا يدركه الحصر ، فقد ارتعب الأهالي من مجرد وصول أخبار طلائع الصليبيين، أما ما حدث بعد ذلك فيعجز القلم عن وصفه ، إذ حدثت مذبحة رهيبة راح ضحيتها أعداد كبيرة من النساء والرجال ولم يرحم حتى الأطفال.⁽¹⁾

⁽¹⁾ لمزيد من المعلومات انظر محمد العبد : مرجع سابق ، ص150

⁽²⁾ سهام عبدالعظيم بيومي : التحضر الإسلامي والبربرية الصليبية ، مرجع سابق ، ص 8 .

⁽¹⁾ الموسوعة الحرة ، معركة ساحة الدم ، 12/9/2008م ، [htt : // ar . wikipedia. Org.](http://ar.wikipedia.org)

وكان من نتائج أصداe فتح العثمانيين لكثير من البلد الأوروبية كثرة المذابح وبشاعتها ، فمثلاً نجد أن القائد المجري (هونبادي) بعد أن هزم جيشاً من جيوش العثمانيين المسلمين في زمن السلطان مراد الثاني ، قام بقتل جميع الأسرى المسلمين وكان عددهم يربو على عشرين ألفاً ، ويتلذذ أثناء تناوله لوجبات طعامه بمشاهدة جلاديه وهم يقطعون رؤوس الأسرى المسلمين ، ويأمر بتجميع الرؤوس على شكل أكواام حتى تصبح أهدافاً له ولحاشيته التسلية .⁽²⁾

وقد عانى مسلمو الأندلس من التعذيب والاضطهاد نتيجة أصداe الفتح العثماني ، فقد مارست محاكم التفتيش عليهم صنوف العذاب إذ ساقت المسلمين مكبلين بالحديد للموت ، ثم تخيرهم بين النصرانية أو الموت ، حتى لم يبق أي مسلم واحد ينطق بالشهادة ، وبلغت بهم الوحشية والحد إلى محو مقابر المسلمين، من على وجه الأرض، هذا فضلاً عن حركات التهجير الإجبارية وطردهم إلى بلاد المغرب العربي ، وقد اتبع نصارى إسبانيا كل الوسائل للقضاء على الروح الدينية لمسلمي الأندلس وتحويلهم للمسيحية ، فلجأوا إلى العنف وحرموا على المسلمين التحدث بالعربية ، والاتصال بال المسلمين في الشمال الإفريقي ، ومنعوا النساء من الخروج إلى الشوارع متحجبات ، وحطموا الحمامات ، ومنعوه من إقامة احتفالاتهم الدينية .⁽³⁾

ثم إن طبيعة شعوب أوروبا الوحشية المتمردة لم تقتصر على الشعوب الإسلامية بل تعدتها إلى كل المذاهب المخالفة لهم ، إذ عدوا مسيحيي الشرق هراطقة فنهبوا كنائسهم وأملاكهم ، ومنعوا النصارى من الحج إلى بيت المقدس ، وهم أنفسهم الذين دعا البابا (أوربان الثاني) من أجلهم الحركة الصليبية للدفاع عنهم ، وهذا الموقف تكرر مع البيزنطيين ، فعند مرور الحملة الصليبية بالقدس قاموا بأعمال همجية ولصوصية، فهدموا القصور وأشعلوا النيران في الكنائس بعد نهبها . وبهذا ساعدت الكنيسة على خلق جو عدائي صليبي ضد المسلمين .⁽¹⁾

كان ذلك قطرة من غيث من الفظائع التي ارتكبها المسيحيين في بلاد الإسلام . ولم تكن الأحداث والتصرفات السيئة التي ارتكبها الإيطاليون أقل مما فعله غيرهم من الدول

⁽¹⁾ زياد أبو غنيمه : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين ، ص 90 ، 91 .

⁽²⁾ علي محمد الصالabi : مرجع سابق ، ص 408 . عبد اللطيف بن محمد الحميد : موقف الدولة العثمانية تجاه مأساة المسلمين في الأندلس ، ط 1 ، الرياض : العبيكان ، 1414هـ / 1993م ، ص 42 .

⁽³⁾ سهام بيومي : التحضر الإسلامي والبربرية الصليبية ، ص 13 .

الأوروبية والمسيحية بل فاقت المجلدات ، إذ ارتكب جنود إيطاليا الكثير من الموبقات طوال عشرين سنة في طرابلس أثناء الاحتلال الإيطالي للبيضاء بين القرن 12هـ / 20م ، ومن ضمن هذه الفظائع إخراج ثمانين ألف عربي من الجبل الأخضر من أوطانهم وإسكانهم في صحراء قاحلة ، مات أغلبهم ، وجمعوا أطفالهم ما بين 4 سنوات و 15 سنة وحملوهم إلى إيطاليا لينشؤوا تشنئة مسيحية .⁽²⁾

من العرض السابق يتضح أن الدول الأوروبية ارتكبت الكثير من الفظائع والمجازر ، ولا زالت ترتكب هذه الأعمال الوحشية إلى يومنا الحالي بوسائل غير مشروعة لإبادة الشعوب المسلمة ، فأين كتابهم ومؤرخوهم من هذه الأحداث ، لماذا لا يتناولونها ويتشدقون بها في كل محفل ؟! فهي على الأقل صحيحة ، وليس افتراءات وأكاذيب يبثونها ثم يصدقونها . لكن مما يكتنف من أمر فإن التاريخ لا ينسى أحداً أبداً .

فلا يحق لهم إذن الكتابة عن أمورٍ هم أصلاً ارتكبوها على مر تاريخهم ففائد الشيء لا يعطيه .

ثم إنهم استخدموا كافة الأساليب للانتقام من الإسلام والدولة العثمانية ، فلما لم تأت معهم الحملات بنتيجة مثمرة اتجهوا للكتابة عن التاريخ الإسلامي والدولة العثمانية ، فأذاعوا عدة حملات تشويهية وتشهيرية بالدولة العثمانية ، وقاموا بعدة رحلات لبلاد الدولة العثمانية ، وسجلوا ملاحظاتهم بدقة ، وكتبوا عيوب الشعوب الإسلامية وضخموها ، وتحسسوها علاقة هذه الشعوب بالدولة العثمانية سواء أكانت علاقة مودة أم بغض تجاه مركز الخلافة، كما أنشأوا علاقات مع زعماء القبائل والحكام المحليين، وبدأوا في الضغط على مسألة الخلافة الإسلامية وكيف أنها بدأت في العرب وانتهت في يد الأتراك ، وغيرها من الأمور التي تؤدي إلى انفصال العرب عن الترك ؛ وذلك لتفتت الخلافة العثمانية الإسلامية والقضاء على الوحدة الإسلامية ليسهل احتلالهم ،⁽¹⁾ وخير مثال على ذلك تلويعهم بمنصب الخلافة الإسلامية للشريف حسين بالحجاج .

إن التمويل المستمر لحركة الاستشراق هو الباعث على استمرارية هذه الحركة منذ ماضيها وحتى حاضرها . ولا زالت حركة الاستشراق مستمرة إلى يومنا هذا ، وأبرز

⁽²⁾ مصطفى محمد حلمي : مرجع سابق ، ص 76 ، 77 .

⁽¹⁾ أحمد سعيد نونو : مرجع سابق ، ص 117 .

صورها التدخل الدائم بصورة أو بأخرى في سياسة الحكومات الإسلامية ، والعمل على قتل روح الدعوة الإسلامية داخل البلدان الإسلامية والعربية ، أما على المستوى الخارجي فيكون في تدخل القوى الاستعمارية ، كما حدث في الأمس القريب وما زالت هذه السياسة متبعة حتى اليوم .⁽²⁾ ثم إن الاهتمام بالدراسات الاستشرافية في الغرب وتمويلها مادياً ومعنوياً ، جعلها في حالة حركة دائمة ومستمرة .

والحقيقة أن الغرب عندما لجأ إلى الاستعمار وقهر الشعوب الإسلامية ، كان للأذى بالثأر ، وما لحق بهم أيام الحروب الصليبية ، ولم يكتفوا بالقوة وكثرة السلاح ، بل ذهبوا إلى استخدام الفكر والدراسات المكثفة عن الإسلام ، والتي عكف المستشرقون عليها منذ أن وجهت الكنيسة نداءها لدراسة الشرق الإسلامي ، إن من أهداف المستشرقين العمل على الوقوف في وجه الشعوب التي لا تدين بالإسلام ، ليمنعواهم من الدخول في دين الله ، مع العمل على تشويه صورة الإسلام الحقيقة ، لزعزعة ثقة المسلمين بدينهم ، واعتمد المستشرقون في ذلك على استغلال الكراهية والتتعصب الموجود بين الغربيين وأتباعهم منذ الحروب الصليبية ، كما عملوا على رد المسلمين عن الإسلام ، وإجبارهم على الكفر وقبول النصرانية أو اليهودية ديناً أمثل وأفضل من دين الإسلام ، وهذا ما يشهد به معظم المستشرقين أنفسهم .⁽³⁾

إن المستشرقين هم من أبناء اليهود والنصارى ، أو من يعتقدون على الإسلام ، لذا فهم يعملون على تشويه صورته ، وزعزعة أفكار المسلمين وإشعارهم بالنقض أمام اليهودية والنصرانية .

وأداب المستشرقون على تشويه صورة الفتح العثماني في أوروبا ، وصبوأ أفكارهم وسمومهم في دائرة المعارف الإسلامية ، ولكن بشكل مستتر ، ومغلف بروح البحث العلمي،^(*) وهذا ما سيوضح من خلال عرض مادة الدولة العثمانية في الفصول القادمة .

أما عن سياسة التسامح الديني التي سار عليها العثمانيون فإن الصفحات التالية ستعالج هذه القضية .

⁽²⁾ عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص 142 ، 143 .

⁽³⁾ عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص 37 ، 38 .

^(*) وصل تأثيرهم على تشويه العثمانيين في اللغات الأوروبية فمثلاً كلمة تركي في اللغة الهولندية تعني غبي . محمد العبد : مرجع سابق ، ص 14 .

المبحث الرابع :

أثر التسامح الديني لل المسلمين في نمو حركة الاستشراق :

ورد في القرآن الكريم العديد من الآيات القرآنية التي تأمر المسلمين بمعاملة أهل الكتاب معاملة احترام لديانتهم ، وهو ما يتضح من خلال بعض تلك الآيات التي تحت المسلمين على معاملة أهل الذمة معاملة تسامح وأخاء وحب ، وهي الداعمة الأساسية التي جعلت حكام وسلطانين الدولة العثمانية منذ تأسيس دولتهم يتذمرون من هذه الآيات والقرآن الكريم منهاجاً لهم في تعاملهم مع أصحاب الديانات الأخرى .

فقد بين المولى ﷺ كيفية التعامل مع أهل الذمة معاملة الرحمة والعدل بقوله تعالى:

لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الدِّينِ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبْرُوْهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ⁽¹⁾.

وورد أيضاً في هذا المعنى قوله تعالى : « وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمِنَهُ بِقُنْطَارٍ يُؤْدِي إِلَيْكَ »

(2).

وكذلك قوله تعالى: « لَيْسُوا سَوَاءٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَاتَمَةٌ يَلْوَنُ آيَاتِ اللَّهِ أَنَّاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ »

(3)

كما يأمر القرآن الكريم المسلمين بالكف عن مجادلة أهل الذمة إلا بالتي هي أحسن ، ومعاملتهم المعاملة الكريمة ، ويتمثل ذلك في قوله تعالى : « وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَّمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آتَنَا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ »⁽⁴⁾ (4) ويأتي أمر الله ﷺ بدعة المسلمين إلى الاستقامه ، وأن يحكموا بالعدل بينهم وبين أهل الكتاب⁽⁵⁾، فيقول سبحانه وتعالى : « فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا

⁽¹⁾ سورة الممتحنة آية : 8 .

⁽²⁾ سورة آل عمران آية: 75: .

⁽³⁾ سورة آل عمران آية: 113-114: .

⁽⁴⁾ سورة العنكبوت آية : 46.

أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأَمْرَتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَمَّا أَعْمَالْتُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَعْلَمُ
بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ»⁽¹⁾.

بل ويحث الله المسلمين أيضاً على الصبر عليهم ، ومعاملتهم بالحسنى كما في قوله تعالى «وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا»⁽²⁾.

ويحث القرآن الكريم المسلمين للوصول إلى أقصى درجات التسامح مع أهل الكتاب ، ويظهر هذا أيضاً في قوله تعالى : «قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ آيَةَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ»⁽³⁾.

كما يحل القرآن الكريم للمسلمين طعام أهل الذمة ، من الذبائح ، ويتبين ذلك في قوله تعالى : «وَطَعَامُ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ»⁽⁴⁾.

ولقد أثبت التاريخ الإسلامي ذلك الاضطهاد الذي واجه اليهود في الأندلس ، وما تعرضوا له من حرق صحف التوراة أكثر من مرة ، في الوقت الذي كان فيه نبينا الكريم يأمر المسلمين بتسليم اليهود صحائفهم في غزوة خيبر .

ومما يدل أيضاً على تسامح الدين الإسلامي مع أهل الذمة أنه سمح لزوجة المسلم سواء كانت يهودية أم نصرانية أن تذهب إلى الكنسية ، ولا يحق لزوجها أن يمنعها من ذلك⁽⁵⁾.

وقد أجمع جمهور العلماء على أن قتل المسلم للذمي يعد من الكبائر ، ويظهر ذلك في قول الرسول صلى الله عليه وسلم : "من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها

⁽⁵⁾ أهل الكتاب : اليهود والنصارى . أهل الذمة : هم المعاهدون من اليهود والنصارى وغيرهم ممن يقيم في دار الإسلام ويقررون على كفرهم بشرط بذل الجزية والالتزام بأحكام الإسلام . وعليه فلا تلازم بين أهل الذمة وأهل الكتاب فقد يكون ذميًّا غير كتابي وقد يكون كتابي غير ذمي وهم من كان في غير دار الإسلام من اليهود والنصارى .

الموسوعة الفقهية : وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، ط 2 ، الكويت : دار السلاسل ، 1427هـ ، ج 7 ، ص 141 .

⁽¹⁾ سورة الشورى آية : 15.

⁽²⁾ سورة المزمل آية : 10.

⁽³⁾ سورة الجاثية آية : 14.

⁽⁴⁾ سورة المائدah آية : 5 .

⁽⁵⁾ هدى درويش : العلاقات التركية اليهودية ، ج 1 ، ط 1 ، دمشق : دار القلم ، 1423هـ / 2002م ، ص 152 .

ليوجد من مسيرة أربعين عاماً " .⁽⁶⁾ وقد اتخذت الدولة العثمانية من هذه الآيات والأحاديث منهاجاً لها ، وحرمت قتل الذمي ، وعدت دمه كدم المسلم وديته مثل دية المسلم .⁽⁷⁾

فإلاسلام أقر لأهل الذمة التمتع بالحرية في ظل مجتمع من التسامح والإخاء والعدل والمساواة ، فلهم حق حماية أعراضهم ودمائهم ، وعدم إكراههم على اعتناق الإسلام ، والسامح لهم بممارسة شعائرهم في كنائسهم ومعابدهم ، ولم يثبت في التاريخ الإسلامي كله أن قام المسلمون بهدم كنيسة أو معبد يهودي أو دير نصراني ، بل إن ما نراه من أعداد هائلة من هذه الكنائس والمعابد لأكبر دليل على ذلك التسامح .

وقد رأينا من خلال عرضنا للعديد من آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة أن الأمر واضح من حيث حث المسلمين على معاملة أهل الكتاب - من يهود ونصارى - المعاملة الحسنة التي كفلت لهم جميع الحقوق الإنسانية ، من حقوق دينية أو مدنية أو حتى سياسية ، ويحكم الإسلام على المسلم أن تقطع يده إذا سرق مال الذمي ؛ لأنه مال محرم .⁽¹⁾

وقد خاض الكثير من الباحثين في مسألة التسامح الديني، وخاصة فيما يتعلق بصلة ذلك التسامح الذي تعامل به العثمانيون مع غير المسلمين في الدولة ، وإن الأساس في هذه القضية الذي اعتمد عليه العثمانيون في ذلك النهج الذي ساروا عليه هو العقد الشرعي الذي أقره الشرع والسنّة النبوية المطهرة ، حتى إذا حدثت بعض المضایقات التي تعرضت لها بعض الطوائف الذمية من حين لآخر ، فإن هذا لا ينفي قاعدة التسامح الديني الذي تعاملت به الدولة العثمانية مع رعاياها غير المسلمين الذين يتمتعون بالحماية والرعاية الكاملة من حكامها⁽²⁾.

وهناك لبس خطير في مادة الذمة في دائرة المعارف الإسلامية حيث عرَّفَ (ماكدونالد) الذمة بأنها : " العهد الذي يعطى للمسلمين الذين دخلوا في الإسلام حديثاً بعد الفتح الإسلامي لبلادهم ".⁽³⁾ وهذا خطأ لأن الذمة في حقيقتها العهد الذي يعطى لأهالي البلاد

⁽⁶⁾ أخرجه البخاري ، رقم (3166) ، وابن ماجة رقم (2686) .

⁽⁷⁾ هدى درويش : العلاقات التركية اليهودية ، ج 1، ص 152 .

⁽¹⁾ هدى درويش : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 153 ، انظر على سبيل المثال ، ما فعله اليهود تحت ستار أنهم مسلمون في الدولة العثمانية ، محمد عمر : يهود الدونمة ، مؤسسة الدراسات التاريخية ، 1984.

⁽²⁾ حسن عزوzi : ملاحظات حول مسألة التسامح الديني في العهد العثماني ، ج 1، بحوث المؤتمر الدولي حول العلم والمعرفة في العالم العثماني ، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية ، ط 1 ، استانبول ، 2000م ، ص 343 .

⁽³⁾ ماكدونالد : الذمة ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 1 ، ص 390 .

المفتوحة حديثاً ولم يدخلوا في الإسلام ، حيث يطلق عليهم أهل الذمة ، مما يضمن لهم حرية ممارسة شعائرهم الدينية ، وحرية الحياة بالنسبة لهم.

فضلاً عن ذلك فإن مادة الذمة جاءت مختصرة ركيكة جداً ومفككة ، ولم تعطِ أي نسبة عن صورة التسامح الديني التي تمنع بها أهل الذمة في ظل الإسلام.

وقد اعترفت أقلام المستشرقين بسياسة التسامح الديني التي سار عليها السلاطين العثمانيون ، وبالرغم من ذلك فهناك العديد من المستشرقين الأوروبيين الذين ذكروا - عرضاً ضمن كتاباتهم - مدى التزام السلاطين العثمانيين بسياسة التسامح الديني ، لكنهم كالعادة أدخلوا فيها بعضاً من التشويه ؛ لأنهم لم يستطيعوا ذكر الحقيقة كاملة قط .

وعلى سبيل المثال (السير توماس أرنولد Sir Th . Arnold) الذي قال في حق العثمانيين كلاماً يعد شهادة في التسامح الديني والإسلامي الذي تعامل به العثمانيون مع غيرهم من الملل والطوائف المسيحية داخل أراضيهم بعد فتح القدسية ، وهي من الأقوال المنصفة للمسيحيين الذين تعايشوا داخل المجتمع العثماني ، حيث يقول : " إن المعاملة التي أظهرها العثمانيون للرعايا المسيحيين - على الأقل بعد غزو بلاد اليونان بقرنين - لتدل على تسامح لم يكن مثله حتى ذلك الوقت معروفاً في سائر أوروبا ، وإن أصحاب calvin في المجر ترانسلفانيا ، وأصحاب مذهب التوحيد Unitarians من المسيحيين الذين كانوا في ترانسلفانيا ، لطالما آثروا الخضوع للعثمانيين على الواقع في أيدي أسرة هابسبورغ المتعصبة ، ونظر البروتستانت إلى العثمانيين بعيون الرغبة ، وتمنوا بسرور أن ينشدوا الحرية الدينية بالخضوع للحكم الإسلامي ".⁽¹⁾

كتب (جين بودن Jean Bodin) في كتابه⁽²⁾، مبدياً إعجابه واحترامه الشديد بالتسامح الديني الذي كان أحد الشعارات الأساسية للدولة العثمانية ، حيث كتب في وصف التسامح الديني الذي نهجه السلطان العثماني : "إن ملك (سلطان) العثماني الذي يحكم جانبًا كبيرًا من أوروبا يحمي شعائر الأديان بطريقة أفضل من أي أمير في هذا العالم ، أضف إلى هذا أنه لا يجبر أحدًا ، بل على العكس أنه يسمح لكل فرد أن يعيش وفقاً لما يمليه عليه ضميره ، ويسمح بممارسة شعائر أربعة أديان مختلفة، منها شعائر اليهودية ، وشعائر

⁽¹⁾ توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة : حسن إبراهيم حسن ، ط1 ، القاهرة ، 1957م ، ص181.

⁽²⁾ كان اسم الكتاب هو "كتب الجمهورية الستة" وقد ألفه وصدر عام 1576مـ/984هـ ، خلال الحقبة المريمية التي يمكن تسميتها بحقبة الحروب الفرنسية الدينية . محمود محمد الحويري : مرجع سابق ، ص 235 ، 236 .

المسيحية وفقاً لطقوس الكنيسة الرومانية، وشعائر المسيحية وفقاً لطقوس الكنيسة الأرثوذك司ية ، وشعائر الإسلام بطبعية الحال " .⁽³⁾

وبشهادة المستشرق (جون سوندرز Jhon Sonders) كانت الولايات العثمانية أكثر تسامحاً، وأفضل حكماً وازدهاراً من معظم دول أوروبا .⁽¹⁾

وذكر المؤرخ المسيحي (ألبرت حوراني فيري) ما يلي :

" أنه بعد سقوط القسطنطينية فقد تمنت الطوائف المسيحية واليهودية بالاعتراف بها رسمياً ، فقد أقرت السلطنة العثمانية في عهد السلطان محمد الفاتح للبطاركة والأرثوذكس والأرمن وللخامن العاصمة الأعظم ، بأنهم ليسوا رؤساء طوائفهم الروحيين فحسب ، بل رؤساوها السياسيون كذلك ، أما الطوائف الأخرى ، كالأقباط في مصر والموارنة والناطرة والسريان والأرثوذكس في لبنان وسوريا والعراق فكانت على اتصال أقل ؛ لإقليمتها بعيداً عن العاصمة. ومع ذلك ، فقد كان بطاركتها ينالون اعتراف السلطان بهم من وقت لآخر ، وكان السلطان العثماني يقوم بتنصيب البطاركة والخامن رسمياً ، وكان هؤلاء يتعاملون مع حكومته في جميع الشؤون العائدة لأبناء طوائفهم⁽²⁾ . وكان للقرارات والأحكام الصادرة عنهم في نطاق الطائفة صفة القانون النافذ ، وكانت تسرى عليها في الأحوال الشخصية والداعوي المدنية القانونية لأحكام قانونهم الديني وعرفهم " .

والحقيقة التي نراها أن تمسك السلاطين العثمانيين بمبادئ الإسلام وتعاليمه يعد أكبر دافع لاحترام حقوق الذميين ، وإيادة العطف اللازم تجاههم، يدفعهم إلى ذلك هاجس وجوب حفظ حقوقهم ، والالتزام بتنفيذ الأحكام كما نصت عليها التشريعات الإسلامية. وهناك كثير من الوثائق المحفوظة في أرشيفات إسطنبول تدل على سياسة التسامح الديني مع أبناء الملل الأخرى .

وقد أحسن المستشرقون أنفسهم وصف تعايش المسلمين مع المسيحيين في ظل الدولة العثمانية ، ويصف (روبير منتران) حياة الإسطنبولي اليومية خلال القرنين 10هـ-11هـ/16-17م للتأكيد على ذلك ، فيقول: " لقد كان التركي⁽³⁾ المسلم ، قانعاً بما عنده ، يسعى إلى العيش حسب طاقته وإمكاناته ، وكان حريراً على أن يكون على علاقة جيدة مع

⁽³⁾ محمود محمد الحويري : مرجع سابق ، ص 236 .

⁽¹⁾ أحمد سعيد نونو : مرجع سابق ، ص 42 .

⁽²⁾ قيس جواد العزاوي : مرجع سابق ، ص 38، 82 .

⁽³⁾ المقصود به العثماني سواء كان من الأتراك أم غيرهم .

أصدقائه وجيرانه ولو كانوا غير مسلمين ، فهو ليس متعصباً ، ولهذا لم نعثر على أي أثر لاعتراض أو معاداة للمسيحيين خلال هذه الفترة ، وبال مقابل فإن اليهود واليونان والأرمن من جهتهم كانوا يتذمرون كل ما قد يثير غضب المسلمين " .⁽¹⁾

وأخيراً لابد من الاختتم باستشهاد أخير نورده (لاندريه ميكال Andreai Mechail) الذي يقول فيه: " لقد قدمت الدولة العثمانية لكل هؤلاء كيان الوطن ضماناً ، أي أنها قدمت لهم كفالة الأمة المنظمة والحماية اللازمة تحت سيطرتها الخاصة ، وبذلك أصبح كل يهود الدولة العثمانية خاضعين للحاخام باشي ، أي رئيس الحاخامات ، المقيم في إسطنبول ، ويعتبر شخصية رسمية في الدولة. أما الطائفة الأرثوذكسية فكان وضعها أكثر اعتباراً ؛ لأنها كانت خاضعة للبطيريك اليوناني للقسطنطينية . أما الطائفة الأرمنية فلم تكن أقل مكانة ؛ إذ إن البطيريك كان له نفوذ على الكاثوليك والنسطوريين واليعقوبيين ، وبشكل عام كان له نفوذ على جميع الطوائف المسيحية غير الأرثوذكسية "⁽²⁾

وقد أشاد كل مؤرخي الدولة العثمانية - وحتى اليهود منهم - بالمركز الذي احتله الذي في الدولة العثمانية والعيش تحت إدارتها ، حيث كانت إدارة الدولة وسلطانها لا تتدخل في قضايا الدين ولا ممارسة الشعائر الدينية، فقد انتهت في الواقع إلى أن تصبح ملجاً للحرية الدينية بالنسبة لليهود المطرودين من أسبانيا ، وذلك بعد أن صدر قرار ملكي من هناك بتاريخ 1492/3/30هـ - 898/6/10هـ يقضي بطرد اليهود الذين لم ينتصروا من أراضي (قشتالة) خلال أربعة أشهر من تاريخه ، وألا يعودوا إليها أبداً ، وي تعرض المخالف للموت ويقضي أيضاً بمصادرته أموالهم.

وقد سرى الأمر نفسه على المسلمين الذين أكرهوا على الطرد أو التنصير، وارتكبت بحقهم المجازر المرهقة ، وكانت الدولة العثمانية وإسطنبول عاصمتها ملجاً لليهود الهاجرين من مذابح القياصرة ، والقادمين من النمسا وبولندا ، حتى بلغ عدد السكان اليهود في الحي اليهودي بإسطنبول عام 999هـ / 1590م نحو عشرين ألفاً⁽³⁾ ؟

وعلى هذا نجد أن المهتمين والمختصين بالتاريخ العثماني والمستشرقين اعترفوا بما كان لأهل الذمة من مكانة دينية وقوانين خاصة ، فضلاً عن اندماجهم التام داخل المجتمع العثماني وبين شرائح الدولة ، على نحو لم يعرفوا مثله خلال الحكم البيزنطي ، كما رأينا

⁽¹⁾ روبيرو ماتريلان : مرجع سابق ، ج 1، ص 22 .

⁽²⁾ قيس جواد العزاوي : مرجع سابق ، ص 84 .

⁽³⁾ مرجع سابق ، ص 84 .

أراء المستشرقين أنفسهم في سياسية التسامح الديني تجاه طوائف الدولة العثمانية وملهم والرعايا غير المسلمين فيها .

هؤلاء هم بعض من المستشرقين الذين ذكروا الحقيقة كاملة ، أمّا بعضاً منهم الآخر فظهر في كتاباتهم بوضوح مدى التخبط وعدم القدرة على وصف سياسة التسامح الديني ، فعلى الرغم من ذكرهم للحقيقة شبه كاملة ، إلا أن طبعهم الحاقد على العثمانيين لابد وأن يطغى فيدفعهم إلى إضافة شيء من التشويه والدس ؛ فهذا دأبهم لا يستطيعون تغييره . وخير من يمثل المعلومة السابقة رأي (برنارد لويس B.Lewis) فقد قال : " لقد فتح محمد الفاتح نافذة على الغرب ، وأعطى حظوة وامتيازاً لليونانيين واليهود ، وجعل نفسه حامياً للفانين والعلماء القادمين من أوروبا المسيحية " لكنه عاد واستدرك مدحه للعثمانيين بقليل من الافتراء . أما ابنة السلطان بايزيد الثاني الذي كان معروفاً بكثرة تقواه وشدة تأثيره بكلام شيوخ الإسلام والعلماء ، إلا أنه تعامل مع اليهود والنصارى بأسلوب مختلف ، إذ طرد الموظفين اليهود والنصارى وحسب بعض المصادر اليهودية ، أنه أمر بإغلاق معظم المحلات التجارية في إسطنبول ، وهذا ما يناقص الشريعة الإسلامية " .⁽¹⁾

والحقيقة أن (لويس) قد ذهب إلى ما ذهب إليه اقتناعاً منه بأن طريقة بايزيد الثاني المتشددة دفعته لا محالة إلى التعصب للمسلمين ضد غيرهم ، ثم إن عدم افتتاحه على الغرب على غرار ما فعله والده قد يكون في ذلك كراهية للمسيحيين واليهود بصفة عامة ، وهذه أحكام اعتباطية لا أساس لها من الصحة ، واعتمد هنا على مصادر يهودية ، ومن المفروض أن يقابلها بمصادر عثمانية إسلامية ويحلل الحدث نفسه حتى يصل إلى حكم نهائي منصف ، وليس من خلال كتب أعدائهم ، كما أن السلطان بايزيد الثاني قد عرف عنه تمسكه الشديد بتعاليم الدين الإسلامي ، حتى سماه بعض المؤرخين الأتراك "بايزيد الصوفي" ، ومدحه بعضهم الآخر وأثنوا على عدالته وزهده وتدينه ، بل واعتبروه من الأولياء⁽²⁾، ولذلك لم يكن له أي صلة تضر بتسامحه مع الطوائف الأخرى الدينية، بل عكس ذلك، فالرجل بحكم نزعته الصوفية مثال للسلم والمسالمة ، ولم يثبت بالدليل الصحيح عدم التسامح الديني الذي تعامل به السلطان العثماني بايزيد الثاني مع الطوائف والملل الدينية الأخرى من غير المسلمين ، لذلك

⁽¹⁾ حسن عزوzi : ملاحظات حول مسألة التسامح الديني في العهد العثماني ، ص 346 ، نقاً عن برنارد لويس .

⁽²⁾ أكمل الدين إحسان أوغلي : مرجع سابق، ج 1، ص 30 .

فإن تلك اتهامات باطلة لا أساس لها من الصحة، وليس هناك دليل على هذا التسامح أكثر من قيامه باستقبال اليهود الأسبان الفارين من المذابح والمظالم في إسطنبول على عهده⁽¹⁾. ويقول عنه (توماس أرنولد) : " إن المؤرخ البيزنطي الذي خلف لنا قصة سقوط القسطنطينية ، يحدثنا كيف كان بايزيد الصارم⁽²⁾ نفسه رحب الصدر ، كريم الخلق مع رعاياه المسيحيين ، وكيف جعلهم يألفونه ألفة تامة بأن سمح لهم بالتردد على مجلسه في حرية كاملة".⁽³⁾.

ويمكن القول بأن فكرة (برنارد لويس) السابقة التي مفادها أن شدة التقوى لدى بعض سلاطين الدولة العثمانية كانت حافزاً على التهوين من شأن الذميين والإخلال بحقوقهم ، هي نفسها التي تتكرر في كثير من كتابات الغربيين وخاصة المستشرقين غير المنصفين منهم ، وخاصة حينما يتناولون السلاطين العثمانيين من الناحية الدينية والإسلامية ، وأثرها على التعامل مع غير المسلمين داخل أراضي الدولة العثمانية ، فنجد مثلاً في كتاب (هاملتون جب Gibb) و (هارولد بووين Hamltton. Boween) " المجتمع الإسلامي والغرب " ما يلي: "لقد أصبحت أعداد المسلمين أكثر من أعداد الذميين بعد أن كان العكس هو الصحيح قبل ذلك ، وقد أثر هذا في اتجاه المسلمين بوجه عام ، فمن ناحية كان غالبية رعايا السلاطين الجدد يفوقون سابقيهم في تشددهم السنوي ، مما أدى إلى ازدياد الاتجاه إلى السنوية المتشددة التي كانت قد تجلت على السلاطين وحكومتهم لمدة تزيد على قرن ، وترتب على ذلك نمو الاتجاه إلى عدم التسامح مع غير المسلمين ".⁽⁴⁾

ونظراً لبعض الظروف السياسية والاقتصادية التي مرت بها الدولة العثمانية، طرأت بعض المضايقات للطوائف غير المسلمة والذمية فستغل ذلك من طرف الكتاب والمستشرقين ليكون ذريعة لاتخاذ بعض المواقف المتشددة ، والكتابات الجارحة ضد المسلمين . وبالرغم من ذلك فإنها لا تلغي قاعدة التسامح والتعايش بين المسلمين والذميين ؛ لأن ما حدث هو استثناءات طبيعية تحدث في كل الحضارات وداخل كل الدول سواء في التاريخ القديم أم الحديث ، وخاصة إذا تعلق الأمر بكيان سياسي بهذا الاتساع والتوع العرقي والديني.

⁽¹⁾ أكمل الدين إحسان أوغلي : المرجع السابق ، ج1، ص 222.

⁽²⁾ وهي بالتركية العثمانية (يلديرم بايزيد) ومعناها بايزيد الصاعقة أو الصارم ، انظر: شمس الدين سامي: قاموس تركي ، مرجع سابق ، ص 1553.

⁽³⁾ توماس أرنولد : مرجع سابق ، ص 173 .

⁽⁴⁾ H.A.R. Gibb- Harold Bowen : Islamic Society and the west, landom , 1969. vol.I-II.

والحقيقة التي لا شك فيها أنَّ الدولة العثمانية كان يعيش على أرضها وتحت حكمها العشرات من ملابين المسيحيين والذميين والطوائف غير المسلمة الأخرى ؛ نظراً لأنَّ فتوحاتها كانت في أوروبا ، وقد تمنع هؤلاء بالعديد من الامتيازات الكثيرة خلال عمل سلاطين الدولة العثمانية وساستهم بالشريعة الإسلامية وتطبيقها في شتى بقاع الدولة وأراضيها. وحينما سقطت الدولة العثمانية، وانتهى عصر الخلافة الإسلامية الممتدة لقرون طويلة ، وجاءت بدلاً منها الجمهورية التركية الحاضرة ، وتُرك العمل بالشريعة الإسلامية ، وبدأ العمل بالعلمانية الغربية، حينها أخذ الأتراك يتبعون خطأ الأوربيين وقلدوهم في كل شيء ، وساروا على سياسة التغريب ، فلم يبق في جميع أراضي تركيا الحديثة - وخاصة مناطق الأناضول - إلا فئة قليلة جداً من المسيحيين، بعد أن كانوا ينعمون بحماية الدولة الإسلامية وصيانته حقوقهم. وفي هذا دليل قاطع ، وبرهان ساطع على سماحة الشرع الإسلامي، وإمكانية معايشة المسلم للذميين في ظل الإسلام وهم يعيشون بأمان وطمأنينة ، دون المساس بحقوقهم الدينية ، أو الاجتماعية أو السياسية .

بينما نرى عكس ذلك تماماً ونقشه في المسيحية والديانات الأخرى ، حيث تتبرم كل ديانة من الأخرى ، وترسم سياستها الظاهرة والباطنة لإبادة خصومها أو تحقييرهم وحرمانهم من أبسط حقوقهم ؛ حتى ترغمهم على ترك دينهم وتجبرهم على النصرانية جبراً ، وهو ما يفسر انتشار البعثات التنصيرية في كل أنحاء العالم وخاصة العالم الإسلامي ، سواء بالشكل الجماعي وال رسمي أم بالشكل الخاص والفردي.

وبينما يحثنا القرآن الكريم على عدم الإكراه في الدين تنسب الكتب المقدسة إلى المسيح أنه قال لحواريه : أجبروهم على اعتناق دينكم .⁽¹⁾

إن الإسلام والشريعة الإسلامية لا تعرف في تاريخها كله التعصب الديني ، حتى إن توظيف اليهودي والنصراني في الوظائف والمناصب الكبيرة والصغرى أمر شائع في البلاد الإسلامية إلى عصرنا الحاضر ، أما التعصب المسيحي فهو لم يتوجه إلى اضطهاد أهل الأديان الأخرى فحسب ، بل إلى تحريم تولي الوظائف والمناصب لمن هم على غير المسيحية .

⁽¹⁾ محمد الغزالى : التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام ، د.ط ، الكويت : دار البيان ، د.ت ، ص53.

من المعلوم أنه عندما كانت تدخل إحدى البلدان تحت سيادة الدولة الإسلامية، كان لغير المسلمين المقيمين فيها ، الحرية بين ترك أراضي الدولة الإسلامية ، أو الرضا بالإقامة فيها تحت إدارتها ، وداخل أراضيها التي يسكنونها وذلك ضمن إطار من الأسس المعينة المبنية على التفاهم والاتفاق بين الطرفين، أي بين هؤلاء الرعايا غير المسلمين من جهة ، وبين إدارة الدولة الإسلامية الجديدة وحكامها من جهة أخرى ، وكان يطلق على هذا الاتفاق الذي يعقد بين الطرفين اسم "عقد الذمة" ، ويطلق في هذه الحالة على غير المسلم الذي هو أحد طرفيه اسم "ذمي" . وبناءً على هذا الاتفاق ، يتعهد الذمي في هذا العقد بقبول ما تنص عليه القوانين والشريعة الإسلامية من حيث الأسس القائمة عليها في تلك الأحوال ، والتعهد بدفع ضريبة على كل شخص عاقل بالغ ، والتي تعرف باسم "الجزية" ، مقابل إعفاء الذمي من الدخول في الجندية والاشتراك في الحروب. ⁽¹⁾

وتنعهد الدولة الإسلامية الحاكمة مقابل ذلك بتأمين رعاياها الذميين الذين يعيشون على أراضيها تحت حكمها وإدارتها ، وذلك بالحفظ على أرواحهم وأموالهم ، والسماح لهم بالعيش على الدين والمذهب الذي هم عليه ، دون تدخل من الدولة الإسلامية وإدارتها الحاكمة ، لفرض مذهب أو دين معين ، أو حتى محاولة تغييره ، بل يترك للذمي حرية الاختيار والتذهب بما يريد ، وهو ما أثبته التاريخ الإسلامي خلال عهوده المختلفة ، وخاصة في أوائل عهد الدولة الإسلامية، حيث إنها أكدت دائمًا على تلك النقاط الثلاث الأساسية في كل عقود الذمة التي كانت تعقدها دائمًا مع المسلمين . ⁽²⁾

وهذا بلا شك يعطي نوعاً من الاستقرار السياسي والاجتماعي والديني داخل الدولة الواحدة ، ما دام الجميع يعرف ما له من حقوق ، وما عليه من واجبات ، فقد سمح لهم الاختيار منذ البداية على العيش بشروط الدولة الإسلامية الحاكمة ، أو تركهم لأراضيها والبحث لهم عن أراضي غيرها يعيشون فيها ، وفي حالة قبولهم العيش تحت إدارة وشروط الدولة الإسلامية فإنهم يأمنون بأمنها ، ولهم حرية المذهب والدين وممارسة شعائرهم الدينية ، لقوله تعالى : « لَا إِكْرَاهٌ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيْرِ فَمَنْ يَكْفُرُ بِالظَّاغُوتِ وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا إِنْقِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلَيْمٌ » ⁽³⁾

⁽¹⁾ أحمد سالم : الرحلات الأوروبية وتأثيراتها على المنطقة والجزيرة العربية ، ص 227.

⁽²⁾ أكمل الدين إحسان أوغلي : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 497.

⁽³⁾ سورة البقرة ، آية 256.

وقد أتيح لغير المسلمين أن يتولوا هم أنفسهم تنظيم حياتهم القانونية بما يتفق وأديانهم وعاداتهم وتقاليدهم ، أو بمعنى آخر اعترف لهم بالاستقلال الذاتي في الحقوق والقضاء .
ونلاحظ أن حدود هذا الاستقلال كانت واسعة في البداية ، ثمأخذت في الانحسار تدريجياً مع مرور الزمن ؛ (١) وربما يعود السبب في ذلك لاستخدام غير المسلمين حرية الشريعة والتسامح الديني المنوح لهم بشكل خاطئ، فكان لابد من انحسار مفهوم التسامح الديني من قبل الدولة الإسلامية لرعاياها الذميين حتى لا يترك أثراً خطيراً ومبالغاً فيه على بقية طبقات المجتمع المسلم ، وحتى لا يؤثر على علاقاتها السياسية مع الدول غير المسلمة الأخرى .
وكما رأينا فإن تطبيق الشريعة الإسلامية على غير المسلمين - خاصة في الأمور والمسائل الفقهية - لم يكن نوعاً من الضغط الديني والسياسي على هؤلاء، بل إن غير المسلمين هم الذين سعوا إليها للبحث في نصوصها الفقهية عن حل لمشاكلهم الدينية والاجتماعية ، ومشاكل الزواج والطلاق ومسائل الأسرة والتبني والحضانة والإنفاق وغيرها ... كذلك للهروب من أعرافهم وقوانينهم الوضعية التي تحكم بها مذاهبهم الدينية التي كانت تتميز بالقسوة والجمود أحياناً ، والتطبيق والتعصب في أحيان كثيرة ، فكان لجوء غير المسلمين إلى المحاكم الإسلامية والبحث في قوانينها الفقهية والشرعية هو لجوء رغبة وليس لجوء اضطراري سياسي أو ديني ، بل نتج من السماحة الدينية التي كانت تتميز بها الشريعة الإسلامية في مختلف عصورها الأولى ، فقد تميزت بالأمان الذي عاش فيه الذهمي وغيره من الطوائف غير المسلمة ، وشعروا فيها بأن القانون والشريعة الإسلامية على الجميع ، والتاريخ الإسلامي مليء بالأدلة والبراهين والأمثلة على ذلك .

كان المسيحيون قبل وصول العثمانيين للأضصول قد انقسموا على أنفسهم هناك بين كنائس عدة صغيرة وكبيرة تابعة للأرثوذكسية - مذهب الدولة الرسمي عند البيزنطيين - (٢) . وفي الوقت نفسه كان المسلمون على علاقة دائمة بالطوائف المسيحية التي تعيش إلى جوارهم. (٣) ولوحظ نتيجة لهذه العلاقات أنه كانت تجري بين هذه الطوائف مع مرور الزمن

(١) أكمل الدين إحسان أوغلي : مرجع سابق ، ج 1 ، ص498 .

(٢) C. Cahen : le probleme du shiisme dans l'Asie mineure pre – ottomane, le shiisme imamate (colloque de Strasbourg), paris,1970, p.125.

(٣) للمزيد من المعلومات حول هذه القضية ، نظر : A. y . Ocak : Ba21 Menakib Aamelere Gore xIII – XV yu2yillardaki ihtidalarda heterodiks . Seyh ve Dervislein Ralin , Archivum ottamaricum, wiesbaden, 1981, Vol . II, p. 31-42

عمليات تحول إلى الإسلام بقدر معين ؛ بسبب ذلك التسامح الذي شعرت به تلك الطوائف، والاختلاف في المعاملة بين ما كانوا عليه وبين تلك الحريات التي شعروا بها خلال وجودهم تحت الإدارة والحكم العثماني ، بالرغم من الكراهية المسبقة التي كانوا يقابلون بها ذلك التسامح الإسلامي الذي لقوه على يد العثمانيين وحكامهم ، إلا أن الرهبان والقساوسة في كثير من الأماكن كانوا يتزينون بزي الأتراك العثمانيين ، بل إنهم كانوا يقرؤون كل أدعيةهم وأناشيدهم الدينية الأخرى باللغة التركية العثمانية عدا الإنجيل ،⁽¹⁾ وهناك بعض البحوث التي تشير إلى أن هذه الطوائف المسيحية كانت تتزين بزي الأتراك وتستخدم اللغة التركية في عباداتها ، إلا أن هذه الدراسات لم تتعقب بالشكل الكافي ولم تؤكد هل هم من المسيحيين الذين كانوا يعيشون في الدولة العثمانية أم لا ؟.⁽²⁾

وهذا دليل على مدى التسامح الديني الذي كانت تعامل به الدولة العثمانية وإدارتها مع الطوائف، ونتيجة لهذا التسامح الديني الذي مارسه العثمانيون مع الطوائف غير المسلمة في الأراضي العثمانية الأوروبية لم تعد هذه الطوائف ترتبط بالكنائس الكبرى كما كان الحال في القرن 7هـ / 13م ؛ لأن أغلب الأسقفيات والمطرانيات الكبرى في القرن 8هـ / 14م كانت قد اختفت منذ زمن ، وذلك بعد تضاؤل عدد المسيحيين نتيجة إسلامهم وانسحاب رؤسائهم الروحانيين، إما إلى القسطنطينية "إسطنبول" وإما إلى الجزر المقابلة لها ، مما يعني أن التسامح الديني أدى إلى تضاؤل المسيحيين في تلك المناطق إلى مستوى متواضع كما وكيفاً. إلا أن حركات الفتح العثماني ، وقيام الدولة العثمانية بضم العديد من الأراضي في القرنين التاسع والعشر الهجريين ، والقرنين 9هـ-10هـ/15-16م ، قد حولت العديد من السكان المسيحيين في أراضي آسيا وأفريقيا وأوروبا إلى رعايا عثمانيين يحتفظون ببياناتهم ومذاهبهم الطائفية التي هم عليها ، حتى إنهم انتشروا في أنحاء الدولة لا يمنعهم مانع أو قانون ، فلهم الحق في استخدام كافة الحريات الدينية دون أن يوقفهم أحد ، فمثلاً نجد الروم اليونانيين يعيشون في وسط الأناضول، بينما يعيش القسم الأصلي على سواحل البحر الأسود وبحر مرمرة وببحر إيجة ، أما الطوائف المسيحية التي يشكلها الأرمن فيعيشون في شرق الأناضول⁽³⁾، بينما الموارنة في سوريا والعراق ولبنان ، ثم الأقباط الذين كانوا

⁽¹⁾ Paul wittek : mentese Beyligi , Aakara , lg44, p. 112-115 .

⁽²⁾ الأرشيف العثماني - رئاسة الوزراء باسطنبول - تصنیف دفاتر الطابور (سجلات الأراضي) ، دفتر (بوزاووق) المؤرخ في 1556 م.

⁽³⁾ OP. Cit , P. 56-60

يعيشون على أرض مصر ثم الألبان والبوشناق والكروات الذين يتبع الغالبية منهم المذهب البوجوميليه⁽¹⁾ في البلقان، ومعهم الصرب والأرثوذكس والرومانيين والبلغار وغيرهم . ومن خلال هذا التعدد الطائفي السابق ، يمكن لنا أن نتصور مدى التعدد العرقي والتتنوع المذهبي الذي ضمته أراضي الدولة العثمانية ، بجانب رعايا الدولة وأهلها من المسلمين والعرب ، كما يعكس مدى قدرة الدولة لاستيعاب هذه الطوائف والمذاهب. وكان الأصل في ذلك يعود إلى هذا المنهج الإسلامي والتشريع الديني الذي يكفل الحرية والتسامح للجميع ، مادام الكل يعرف حقوقه وواجباته أيضاً، واستمر هذا المنهج بشكل مستقر تقريرياً على مدى تاريخ التشريع الإسلامي، وهو الذي استمدت منه الدولة العثمانية منهجها ونظامها القانوني والتشريعي ، وخاصة مع الطوائف غير المسلمة، مما زاد عدد أهل الذمة الذين كانوا موجودين في الأساس منذ قيام الدولة العثمانية ، حتى شكل قدرًا لا يستهان به من مجموع الرعايا إلى نهاية عهد الدولة العثمانية⁽²⁾.

ولولا التسامح الديني وحرية العبادات التي مارستها الدولة العثمانية مع الرعايا غير المسلمين ، لما قبل هؤلاء الرعايا بالاستمرار تحت إدارتها والعيش في أراضيها ، بل وتزايد أعدادهم ، ولم يفكروا يوماً في الهجرة أو الهروب من أراضي الدولة العثمانية والتوجه إلى أوروبا أو غيرها من البلاد والأراضي البعيدة عن إدارة الدولة العثمانية ، إن الشعوب كانت ترحب بالفتحات العثمانية كالبلقان وجزر اليونان ، حتى إن أهالي إقليم "ترانسلفانيا" المسيحيين رفضوا الدخول كقطاع في الإمبراطورية المسيحية الألمانية ، وفضلوا البقاء تحت حكم العثمانيين ، وذلك بعد اتفاق العثمانيين مع النمسا على ترك العثمانيين للإقليم ، كما لجأ أهل المجر إلى العثمانيين لتخلصهم من حكم النمسا المستبد في الوقت الذي كانت فيه شعوب قلب أوروبا وألمانيا ترتد خوفاً من حكم النمسا⁽³⁾. حتى إن هذه الزيادة شكلت نقطة ضعف وضغط على سياسة الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية ، بل كانت تعد أحد العوامل الأساسية لسقوط الدولة العثمانية نفسها .

⁽¹⁾أخذت البوجوميلية اسمها من حركة بلغارية هرتقية أسسها في ق 10م ، في عهد الملك بطرس 968-927م قس بلغاري يدعى بوجوميل Bogomil "حبيب الرب" وقد جاءت عبر آسيا وانتشرت في القسطنطينية ومناطق البلقان، تناهيا بالتحرر من المادة، وقد واجه أهلها الكثير من الاضطهاد حتى إنهم استغاثوا بالعثمانيين ولجأوا لهم. انظر محمود محمد الحويري ، مرجع سابق ، ص 237، 236.

⁽²⁾أكمل الدين إحسان أوغلي : مرجع سابق ، ج 1، ص 500 .

⁽³⁾أحمد سعيد نونو : مرجع سابق ، ص 40 .

وقد قال في ذلك (ماريشال فون مولنكة) : " لا يمكن تعريف التسامح الذي كان يظهره الأتراك تجاهنا نحن المسيحيين ، ولا يمكن أن يكون سبب ذلك إلا إيمانهم الذي لا يتزعزع بالإسلام ".⁽¹⁾

ومما يدعو إلى الدهشة أن مقاومة اختلاف الدين لدى الشعب المسيحي المحلي كانت محدودة للغاية ؛ إذ إن الشعب المسيحي كان شاكراً للعثمانيين نتيجة للحرية الدينية التي منحها له حكام وسلطانين الدولة العثمانية التي كانت مجهرولة في أوروبا خلال تلك الفترة . فقد كان الأمن مختلاً قبل مجيء العثمانيين ، واتسم بعد مجئهم بالهدوء والأمان لكل المناطق التي سيطروا عليها ، وعادت الشعوب البلقانية تعيش في أمن وحرية كانوا قد نسوها منذ فترات بعيدة ، حتى إن المجريين لم يعصوا العثمانيين سوى مرة واحدة فقط خلال العهد العثماني ، ولم يكن ذلك التمرد منهم تجاه الإدارة العثمانية ، وإنما كان تجاه الإقطاعيين المجريين الذين أذاقوهم الأمر من قبل ، حتى إن الدولة العثمانية كانت قد خفت عليهم الضرائب مقارنة بما كان يجب عليهم أثناء حكم الدولة البيزنطية ، فتأخذ منهم ما يفرضه الشرع وهو الجزية ، وغفوا من الجنديمة مقابل تلك الجزية ، فلا تسيل دماؤهم كما كانت في العهد البيزنطي ، الأمر الذي أدى إلى تكاثرهم بطمأنينة تامة داخل الدولة العثمانية، ولم يكن المسيحيون يشترون في الإدارة العثمانية ، لكن في الوقت نفسه كان ينال هذا الحق في حالة اعتناقهم للإسلام ، حتى إنه كان يصل في هذه الحالة إلى منصب الصدر الأعظم ، وهو أعلى منصب قيادي بعد منصب السلطان العثماني ، وبعادل رئيس الوزراء في الوقت الحالي . وفي التاريخ العثماني العديد من الصدور العظام الذين تتطبق عليهم هذه الحالة ، ولما أسلموا شغلو تلك المناصب العالية التي تعتبر من الأهمية بمكان داخل الدولة العثمانية⁽²⁾.

فالعثمانيون شعب فاتح بطبيعته من ناحية السمات التاريخية، وحينما واته الفرصة لبسط نفوذه على أكبر بقاع الأرض وببلادها وفي شرقها وغربها لم يستغل الفرصة في الإساءة للآخرين ، وخاصة غير المسلمين ، ولم يمسوا أراضي الفلاحين المسيحيين ، لكنهم أخذوا الأراضي الواسعة التي كانت تحت سيطرة الإقطاعيين المسيحيين وأعطوها إلى خيالتهم (جنود السباهية أصحاب التيمار) ، ولم يقم العثمانيون بمس مخزن غلال واحد أو محل يخص المسيحيين في المدن الكبيرة التي دخلوها وسيطروا عليها ، وخاصة إستانبول .

⁽¹⁾ يلماز أورنونا : المصدر السابق ، ج 2 ، ص 468 .

⁽²⁾ مصدر سابق ، ج 2 ، ص 469 .

وكان يعيش تحت الحماية العثمانية الكثير من جماعة المسيحيين الذين تمتعوا بكل المميزات إلى درجة أنهم كانوا يعيشون حياتهم في غاية الرفاهية. ⁽¹⁾

ولم ينظر إليهم المجتمع العثماني نظرة سوء ، وكان هناك مسيحيون من كبار التجار ، وأصحاب السفن التجارية ، وأصحاب المصارف ، حتى إن الإدارة العثمانية خصصت لهؤلاء حرساً من جنود الإنكشارية الذين يقومون على صيانة ممتلكاتهم .

هذا في الوقت الذي نرى النقيض منه تماماً في الدول المسيحية التي تناح لها فرصة السيطرة والاستعمار على البلد الإسلامية ، وحينما احتل البنادقة بعد هزيمة فيينا جزيرة " ساقيز " لفترة قصيرة ، وجزيرة " مورا " لمدة أطول، ارتكبوا خلالها ظلماً شديداً ومذابح راح ضحيتها عشرات المسلمين ، إلى درجة أنه عند عودة الإدارة العثمانية إلى تلك الجزر قام شعبها باستقبال العثمانيين بمزيد من السرور والبهجة الصادقة التي دعمتهم لإقامة الاحتفالات والأفراح ترحيباً بهم ⁽²⁾

وقد وصل التسامح الديني الذي كانت تعامل به الإدارة العثمانية مع رعاياها غير المسلمين إلى أن الكثير من الأوروبيين من غير رعايا الدولة يعيشون آمنين في الموانئ والسواحل العثمانية ، وكانت الدولة كفيلة بحماية جميع حقوقهم ، ويتجرون بحرية تامة ، ويتجولون ويزورون الأماكن الدينية ، وقد كتب أحدهم وهو (John Moritt of Rokeby) بأنه قدم إلى إسطنبول عام 1209هـ / 1794م، وكان عمره حينذاك 22 عاماً، وتتجول بين أهالي الدولة العثمانية بحرية تامة ، كتجواله في لندن، ولقي مساعدة كبيرة ممن حوله ⁽³⁾. وهكذا تعاملت الإدارة العثمانية مع كافة فئات وطبقات المجتمع العثماني من رعاياها غير المسلمين ، سواء أكانوا القادة ورؤساء الطوائف والبطاركة أم المسيحيين أنفسهم الذين هم من عامة الشعب العثماني ، فزأول الجميع حريته ومارسها دون أي ضغوط داخلية أو خارجية ، كما زاولوا أنشطتهم الدينية والسياسية والاجتماعية وحتى التجارية بحرية تامة دون تدخل من الدولة في شؤونهم ، بل وعدت الدولة رؤسائهم من البطاركة ضمن قوائم تشريعات الدولة العثمانية ، ومنح الكثيرون منهم العديد من الأوسمة والنياشين المختلفة وبكافية درجاتها ، وهذا يدل دلالة واضحة على هذا التسامح .

⁽¹⁾ يلماز أوزتونا : مصدر سابق ، ج 2 ، ص 469 .

⁽²⁾ يلماز أوزتونا : مصدر سابق ، ج 2 ، ص 469 ، نقلأ عن Grandeur de l'Asie Fernard Grenard, P. 8-126.

⁽³⁾ يلماز أوزتونا : مصدر سابق ، ج 2 ، ص 469 ، نقلأ عن The letters , op.cit, London , 1914, p. 67,70 .

إن الأقليات المسيحية اندمجت في المجتمع الإسلامي لدرجة أنه في بعض الأحيان كانوا يلجأون إلى المحاكم الإسلامية لفض النزاع بين أفرادهم مؤمنين بنزاهة وصدق هذه المحاكم ، مثلما حدث في عهد (أديسيدي باشا الرومي) نائب أزمير حيث قال : " إن لهذه داراً للفتوى تفصل في المسائل المعروضة عليها ، بموجب القوانين الشرعية ، فأحالوا الأمر على رأي تلك الدار ، ونحن الأروام راضون بما ستصدره من القرار ".^(١)

ومن هنا نجد أن الباشا الرومي احتمم إلى دار الفتوى المسلمة في الدولة العثمانية ، في نزاع بين المسيحيين وعلى أحقيـة كل طرف في امتلاك بعض الكنائس فيها ، وهو موقف تماماً أن ما ستصدره من فتوى في فض هذا النزاع هو الصواب.

والحقيقة أن الباحث في تاريخ الدولة العثمانية لا يسعه إلا الإقرار بأن التسامح الديني وحرية الدين على أراضيها هو أحد الظواهر اللافتة للأنظار ، وخاصة الأوربيين والمستشرقين منهم ، وتعكس صورة السلاطين العثمانيين وحرصهم على تنفيذ ما جاء به الإسلام بروحه ونصوصه .

ومن الجدير بالذكر أن سياسة التسامح الديني لم تبدأ منذ عهد الفاتح ، فقد سبقه إلى ذلك جميع سلاطين الدولة العثمانية ؛ إذ بدأت سياسة التسامح الديني منذ تأسيس الدولة العثمانية حيث تروي معظم المراجع التركية التي أرخت للدولة العثمانية أن أرطغرل عهد لابنه عثمان - مؤسس الدولة العثمانية - بولالية القضاء في مدينة (قرة جي حصار) بعد فتحها في عام 684هـ / 1285م ، وخلال تلك الفترة ، أثبتت التاريخ العثماني أن الأمير عثمان حكم لبيزنطي ضد مسلم تركي ، فاستغرب البيزنطي ، وسأل الأمير عثمان والقاضي في الوقت نفسه : كيف تحكم لصالحي وأنا من غير دينك ؟ فأجابه عثمان قائلاً : " بل كيف لا أحكم لصالحك ، والله الذي نعبده ، يقول لنا ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤْدُوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْمَدْلِ﴾^(٢) . وكان التسامح الذي تعامل به الأمير عثمان مع الرجل البيزنطي سبباً في اهتداء الرجل البيزنطي وقومه إلى الإسلام^(٣) ، مثله مثل الكثيرين من غير المسلمين الذين كانوا يعيشون داخل الدولة العثمانية تحت إدارتها ، فرأوا بأعينهم ،

^(١) مصطفى محمد حلمي : الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية ، ط1 ، مصر : دار ابن الجوزي ، 1426هـ/2005م ، ص 102 .

^(٢) سورة النساء ، آية 58 .

^(٣) زياد أبو غنيمة : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين ، ط2 ، إربد : دار الفرقان ، 1406هـ / 1986م ، ص 75 .

ولمsoا بأنفسهم كيف كان العثمانيون يستخدمون المنهج الإسلامي وتشريعيه بين رعایاه بالمساواة والعدل سواء أكانوا مسلمين أم غير ذلك.

واستمرت سياسة التسامح الديني في عهد مؤسسها عثمان الأول حيث اتصف بالتسامح الديني ، وعلى الرغم من حماسته الدينية إلا أنه استطاع أن يجذب إليه كثير من المسيحيين الذين أعلنوا إسلامهم وكونوا الركيزة الأساسية للدولة الناشئة .⁽¹⁾

وأتصف أورخان بالتسامح وعدم الإكراه على الإسلام ، حتى غدت سمة التسامح الديني من أهم سمات عصره ؛ إذ لم يحاول أورخان مطلقاً فرض الإسلام على رعایاه غير المسلمين، بل لجأ إلى سياسة الاستمالة وترك لهم حرية ممارسة شعائرهم الدينية . مما جعل المسيحيين يتلمسوا مدى تسامح الإسلام وبالتالي أقبلوا عليه حتى في المدن المفتوحة حديثاً ، وكان يعامل الأهالي معاملة رقيقة ولينة ، فنجد أنه مثلاً عند فتح أزنيق يجذب إليه قلوب الأهالي بأن عاملهم معاملة طيبة باللين والرفق ، حيث ترك لهم حرية ممارسة شعائرهم الدينية ، وأنذ لمن يريد الخروج من المدينة بأخذ كافة منقولاته ، وسمح لهم ببيع عقاراتهم وأخذ ثمنها معهم، مع تمعتهم بكل حرية .⁽²⁾

وقد ذُكر هذا الحدث في الموسوعة اليونانية جاء فيها : " إن النصارى البيزنطيين آثروا البقاء في مدينتهم وأملاكم تحت سيادة العثمانيين ، عندما خيرهم أورخان بين البقاء فيها أو أخذ كل ما يريدون من أموالهم ومتاعهم والذهب إلى أية منطقة بيزنطية أخرى إن أرادوا البقاء على ولائهم للإمبراطورية البيزنطية ".⁽³⁾

وسجل أيضاً التاريخ العثماني والإسلامي ذلك الموقف الكريم الذي تعامل به الأمير العثماني سليمان باشا ، ففي عام 755هـ / 1354 م سجل التاريخ في صفحاته أول عبور عثماني إسلامي إلى البر الأوروبي للإمبراطورية البيزنطية ، حين تسلل الأمير (سليمان باشا) على رأس ثمانين من أقوى المجاهدين في جيشه، إلى ميناء (جيمنوك) ، فأخذ جميع السفن الحربية والتجارية التي وجدها راسية في الميناء الأوروبي ، واستعملها في جلب

(1) أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ط 2 ، القاهرة : دار الشروق ، 1993م / 1413هـ ، ص36 .

(2) محمد فريد المحامي : تاريخ الدولة العثمانية العلية ، تحقيق : إحسان حقي ، ط 7 ، بيروت: دار النفائس ، 1414هـ / 1993م ، ص124 . صبيح عبد المنعم ، عبد الحميد سليمان : دراسات في تاريخ الدولة العثمانية ، ط 1 ، الرياض : مكتبة الرشد ، 1425هـ / 2004م ، ص32 . أحمد عبد الرحيم مصطفى : مرجع سابق ، ص 39 . زياد أبو غنيمة : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين ، ص79 . نقلأ عن أحمد رفيق : بيوک تاريخ عمومي ، د. ط ، إستانبول ، د.ت ، ص95 .

(3) الموسوعة اليونانية المعروفة باسم " megalia Elliniki Engiklopedia " المطبوعة في أثينا عام 1932م .

(4) زياد أبو غنيمة : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين ، ص81 .

الإمدادات العثمانية من البر الأسيوي للعثمانيين ، وبالرغم من التفوق الحربي الذي مكنته من الاستيلاء على هذه السفن ، وبالرغم من طبيعة الحرب بين الأطراف المتحاربة حينذاك التي تتيح لأي طرف الاستيلاء بالقوة على ما عند الطرف الآخر ، إلا أن هذا الأمير العثماني وتربيته الإسلامية التي نشأ عليها ، هو وغيره من أمراء الدولة العثمانية سلطانها منذ دخولهم الإسلام و حتى نهاية الدولة العثمانية وسقوطها ، لم يرد أن ينتفع بالسفن دون أجور مجزية ، فدفع لهم أجراً استخدامها ⁽¹⁾ وقد كان بإمكانه كمنتصر أن يصادر تلك السفن المدينة مع غيرها من السفن الحربية.

واستمرت هذه السياسة التي هي أساس الدولة العثمانية في عهد مراد الثاني ، فحينما استعاد (سلانيك) من حاكم البندقية ، ونال أهلها حرية الدين وممارسة شعائرهم ، سمع بذلك أهل مدينة يانيا ⁽²⁾ فأرسلوا وفداً يطلب من السلطان مراد الثاني أن يضم مدinetهم للدولة العثمانية لما سمعوه عن عدالتهم ، وعدم ظلمهم للرعية ؛ والتسامح الديني الذي تميزوا به ، خاصة الرحالة والتجار الذين زاروا ممتلكات الدولة العثمانية في ذلك الوقت. ⁽³⁾

فما كان من السلطان مراد الثاني ، إلا أن استجاب لرجاء أهل مدينة "يانيا" وأرسل أحد قواده على رأس جيش إلى هذه المدينة ، وتم فتحها في السنة نفسها ، أي في عام 1435هـ / 1431م ، دون أن يجد أية مقاومة من الأهالي أو اعتراض على حكمهم كما وعدوه في المقابلة ⁽⁴⁾. كان هذا هو عهد مراد الثاني السلطان العثماني الذي تعامل بالتسامح الديني دون إرغام أو إكراه للأهالي في أوربا، بل إن المفاجأة هي رغبة هؤلاء الأهالي وخاصة في "يانيا" بأن يسمح السلطان مراد الثاني بدخول بلادهم تحت حكمه العادل والشريعة الإسلامية السمحاء التي سمعوا كثيراً عنها قبل اللقاء به.

⁽¹⁾ زياد أبو غنيمة : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين ، ص 128 .

⁽²⁾ كانت مدينة "يانيا" ، تحت حكم عائلة "توكو Tocco" الإيطالية وعندما مات (كارلو توکو لأول) عام 1430م ، ولـي الحكم بعده ابن أخيه (كارلو توکو الثاني) . ولكن أبناء (توکو الأول) غير الشرعيين ثاروا وطالبوا بالحكم ، فبدأ عهد الاضطراب والفوضى والقتال ، عانى منه الشعب الأمرئين ، وعندما سمعوا بأن السلطان (مراد الثاني) بالقرب منهم في مدينة (سلانيك) قرروا إرسال وفد للتفاوض معه . ولمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع ، انظر أورخان محمد على : مرجع سابق ، ص 34 .

⁽³⁾ أورخان محمد علي : مرجع سابق ، ص 32 - 33 .

J. Anagnostis : Selanik (Thessalonikilin son zohti Hakkında Bir Tarih ctc. M. dellibasi), Ankara , 1989, P.103-106 .

⁽⁴⁾ أورخان محمد علي : مرجع سابق ، ص 34 .

إن هذا الحديث يدل دلالة واضحة على السمعة الطيبة التي سبقت العثمانيين عن تسامحهم الديني ، وأن لهم الفضل الكبير بعد الله عَزَّ وَجَلَّ في ظهور الإسلام في أوربا بهذا الشكل المثير للدهشة بين الأهالي هناك ، وخاصة تلك الأماكن البعيدة عن الصراعات المذهبية والطائفية ، حتى إن هذا الوفد قدم المنهج الإسلامي الذي ينجزه العثمانيون في البلاد التي يفتحونها في أفضل صورة من حيث التعامل الديني والاجتماعي ، فالعدل سائد بين الرعية ، ولا إكراه في الدين ، بل للجميع حق مكفول من الدولة العثمانية لاعتراض ما يريد من دين ، والقانون فوق الجميع ولا فرق بين مسلم وغيره أمام العدالة الإسلامية ، وكانت هذه الشهادة والقول الحق بشهادة كل من تعامل مع هؤلاء العثمانيين سواء من الداخل أم الخارج ، وسواء بالتقى بين بلادهم أم عن طريق التجار الذين لهم معاملات ومعاملات مالية وتجارية معهم ، ولذلك فليس من الغريب أن يطلب هؤلاء الأشخاص وعائلاتهم الحماية السياسية والدينية ليعيشوا تحت حماية الإدارة العثمانية ، أو بمنح العثمانيين الإذن للدخول إلى بلادهم لسيطرة عليها دون أدنى مقاومة منهم ؛ ليخلصوهم من جور حكامهم . وهذا يعكس صورة شرفة عن هذا التسامح الذي تميزت به الدولة العثمانية ، وهذا التمييز نابع من تمسكها بالتشريع الإسلامي الصحيح .

وهكذا شهد التاريخ الأوروبي والعثماني والإسلامي أيضاً للسلطان مراد الثاني ولسماته الدينية التي كان يتعامل بها مع الأهالي غير المسلمين والطوائف النصرانية فيها ، مثله في ذلك مثل أسلافه من إخوانه وأعمامه سلاطين الدولة العثمانية منذ أن أصبحت دولة كبيرة تدعمها سياسة العدل بين الناس ، والتسامح الديني ، والحرية الكاملة المكفولة للجميع ، سواء أكان في العمل الديني أم السياسي أم الاجتماعي أم الاقتصادي ، وكذلك في تطبيق شعائر الدين والمذاهب والعبادة وممارستها .⁽¹⁾

وهذا الأسلوب الذي نهجه مراد الثاني هو نوع من السعي والجهد لحل المشاكل العديدة بين الأهالي ، فكانت أيام سلطنته بمثابة بداية جديدة مشرفة للدولة العثمانية ، فغفوه وحبه للتسامح الديني قد يسر له فتح البلدان الواحدة تلو الأخرى ، وعلى الرغم من توافق أهالي البلاد مع حكامهم في الديانة إلا أنهم فضلاً حكم العثمانيين الإسلامي المتسامح على حكم أمرائهم ، لأن التعايش مع العثمانيين يضمن لهم الحرية والأمان الديني . ولم تكن هذه الحادثة الوحيدة من هذا النوع فحسب بل تكرر هذا الأمر كثيراً بعد ذلك .

⁽¹⁾ أورخان محمد علي : مرجع سابق ، ص35 .

فأين كتابات المستشرقين من هذه الأحداث وما يشابهها ، لم تذكر حتى في كتبهم ؛ لأن مجرد ذكرها يدحض كثير من الشبهات التي يلقوها دائمًا على سياسة السلاطين العثمانيين ، فيسمحوا لأقلامهم بطمسم هذه الروائع .

إن تعامل العثمانيين بسياسة التسامح الديني جعل الأقلام الحافظة تحاول أن تطمس هذه الميزة الإيجابية التي تعاملت بها كل الدول والخلافات الإسلامية على مر التاريخ الإسلامي ، وتنسب إليها بفرية ظالمة تزعم أن العثمانيين كانوا يضطهدون غير المسلمين ، ويجبونهم على اعتناق الإسلام قسرًا ، ولكن الحقيقة التي لا يمكن أن يغفلها التاريخ العالمي عموماً ، والإسلامي على وجه الخصوص ، تلك الحقيقة التي تنهوى أمامها افتراءات الحاذقين تؤكد أن العثمانيين جسدوا بصدق أخلاق الإسلام السمحاء في معاملتهم ولغير المسلمين ، والأدلة على ذلك كثيرة وممتعدة ، لا يمكن أن يغفل عنها مؤرخ أو مستشرق .

وقد سارت الدولة العثمانية على نهج التسامح نفسه ، وهو عدم الإكراه على الإسلام ، وذلك منذ قيامها وحتى فتح القدسية على يد السلطان محمد الفاتح .

وظهر ذلك بشكل جلي بعد فتح القدسية ، وما قرر وقتها أصبح نظاماً كاملاً يجري العمل به فيسائر الولايات العثمانية ، والنظام الذي وضعه السلطان محمد الفاتح للتسامح الديني وللتعامل مع الأسرى هو المتبع ، عده بعض المؤرخين المسؤول الأول عن بقاء شعوب دول أوروبا التي كانت خاضعة للعثمانيين على دياناتهم المسيحية واليهودية ، فلو أنه فعل معهم ما فعله الأسبان ب المسلمين وب اليهود الأنجلوس ل كانت دول شرق أوروبا بلاد إسلامية لا أثر فيها لأهل الكتاب .⁽¹⁾ وكانت بقيت أوروبا الشرقية وشرق النمسا وجنوب بولندا على الإسلام ، لكن تطبيق الشريعة الإسلامية السمحاء حال دون ذلك .

فما فعله السلطان العثماني محمد الفاتح فور دخوله القدسية فاتحاً يعد قمة العدالة والتسامح الديني التي لا تنفصل عن جوهر الإسلام ، وقد سبقه إليه الخلفاء الراشدون حينما دخل عمر بن الخطاب بيت المقدس ، ولم يحاول أن يفرض الدين الإسلامي على أهلها كما هو معروف في التاريخ الإسلامي ولكن وبالرغم من العداء الأوروبي المسيحي للعالم الإسلامي ، وبالرغم من تعدد وتكرار الحروب الصليبية على البلدان الإسلامية ، وبالرغم من كراهية الكنيسة للدولة العثمانية والعثمانيين أنفسهم ، ودعوتها للنهوض ضدها ، سواء في

⁽¹⁾ قيس جواد العزاوي : مرجع سابق ، ص 81 ، 82 . ثريا شاهين : مرجع سابق ، ص 25 .

أوروبا أم داخل الدولة نفسها، فإن السلطان محمد الفاتح تعامل بما تعلمه وأمره به دينه الإسلامي، وهو التسامح مع الآخرين، بشرط أن يعرفوا حقوقهم وما عليهم من واجبات تجاه الدولة، فترك لهم ممارسة حقوقهم الدينية ، وترك إدارة كنائسهم لرجالهم، ولم يحاول التدخل أو فرض القوة عليها .

إن سياسة السلطان محمد الفاتح هي النبراس الذي سار عليه السلاطين العثمانيين من بعده ولو لا معاملته السمحاء مع أهالي البلاد المفتوحة لما أقبل الناس على الإسلام بسرعة .

لقد سلك الفاتح سياسة التسامح والرأفة مع أهل القسطنطينية ، وأمر جنوده بحسن معاملة الأسرى والرفق بهم ، وافتدى عدداً كبيراً من الأسرى بماله الخاص، واجتمع مع الأساقفة وهذا روعهم وطمأنهم على حرية عقائدهم وممارسة شعائرهم الدينية ، كما أمر النازحين بالعودة إلى أوطانهم وبحرية معتقداتهم وأصولهم الدينية، وأمنهم على حياتهم .⁽¹⁾

كما وقع الرعب في قلوب جميع سكان ممالك اليونان ، حتى إنهم خرجوا من مناطقهم هائمين على وجوههم لا يدركون أي جهة يقصدون ، حتى إن البحر المتوسط اكتظ بالسفن التي تحمل الأموال ، ولجأت الأسر الإغريقية إلى الجبال والأديرة والجزر التي تسكنها البدناقة والجنويون .

لكن السلطان محمد الفاتح أنعمهم على أنفسهم وأموالهم وحرية عبادتهم ، وأصدر السلطان فرماناً يصرح لهم فيه بحكم أنفسهم ، فشكلوا طائفة منفصلة عن الأمة العثمانية تماماً.⁽²⁾

إن ما فعله السلطان العثماني محمد الفاتح لهو نهج المسلمين الأوائل ، فمن من الخلفاء كان يفتدي الأسرى بماله الخاص ، إلا من رحم ربى ، إن هذه صورة من صور كثيرة للتسامح الديني التي عجز المؤرخون الإفرنج عن إدراكها ، وأثبتت نفسهم المريضة أن تسبها لصاحبها ، وبدلًا من ذلك حاولوا بقدر إمكانهم تشويه ، صورته ، ونسب أفعال مشينة له ؛ حرصاً منهم على طمس تاريخ محمد الفاتح الناصع البياض.

وأول عمل قام به السلطان محمد الفاتح بعد فتح القسطنطينية مباشرةً إعلانه لكافة الجهات أنه لا يعارض إقامة شعائر ديانة المسيحيين ، ثم جمع المسيحيين ورؤسائهم طوائفهم وطلب منهم انتخاب بطريرك لهم فاختاروا (جورجيوس سكولاريوس

⁽¹⁾ زياد أبو غنيمه : السلطان المجاهد محمد الفاتح ، ص93 . يوسف التقفي : مرجع سابق ، ص33 .

⁽²⁾ إسماعيل سر هناك : تاريخ الدولة العثمانية ، 45 ، 46 .

(Gorgros Scolaries على بطريركية الروم الأرثوذكس ، ومسئولاً عن جميع شؤون إخوانه في الديانة، وقد قام الأخير بأداء القسم أمام السلطان محمد الفاتح ، قوله : " أقسم أن أظل مخلصاً للسلطان العثماني ، وأن أنفذ قوانين الدولة العثمانية واحترامها " .⁽¹⁾

ونتوقف هنا عند هذا القسم ففيه ما يسترعي الانتباه ، فقد أقسم البطريرك على أن يظل مخلصاً للسلطان وينفذ قوانين الدولة العثمانية ويحترمها ، وهذا القسم الذي يسمى "يمين نامه" تلاه البطريرك في حضور خمسة أشخاص ، ولكن الأحداث والأعمال التي قام بها البطريرك بعد ذلك أوضحت أنه خان الدولة العثمانية⁽²⁾.

فبمجرد ما بدأ يمارس سلطته السياسية بدأ يظهر سوء نيته اتجاه الدولة العثمانية ، فقد تناهى المسؤولية الواقعية عليه جراء قسمه الذي أداه أمام السلطان محمد الفاتح والتعهد بعدم خيانة الدولة العثمانية ، وليس هذا فحسب ، بل ترك البطريرك وهو رئيس الكنيسة واجبه الديني واحتفل بالسياسة والتأمر ، وبذلك خان الدولة التي يتبعها ، بل والتشجيع على تشويه سياساتها وتاريخها ، ومد يد المساعدة للمتمردين لإثارة الفتنة ، مستغلًا فكرة الاستقلال عن الدولة العثمانية في إطار الحرية التي يتمتع بها . وبذلك تحول التسامح الديني الذي منحه له السلطان محمد الفاتح إلى تسامح سياسي قضى على الدولة العثمانية ، حيث تحولت البطريركية إلى مركز مقاومة وتوجيه لمناهضة الدولة العثمانية .⁽³⁾

وعقد الفاتح مع البطريرك (جورجيوس) عقد ذمة يتضمن العديد من البنود بين الطرفين ، يمثل العقد النموذج الأول من العقود التي رأيناها فيما بعد مع الطوائف غير المسلمة لكنه لم يصل إلينا ، بينما وصلنا العقد الذي عقد مع أهل الذمة في حي غلطة - من أحياء استانبول القسم الأوروبي - وتحتوي بوجه خاص أحكام مشابهة في موضوع حرية الدين والعبادة المكفولة لغير المسلمين ، ونص ذلك العقد على عدم التعرض بوضع اليد على كنائس أهل الذمة في تلك المنطقة المشار إليها ، أو تحويلها إلى مساجد ، وعدم التدخل في

⁽¹⁾ هدى درويش : الإسلاميون وتركيا العلمانية ، ط 1 ، القاهرة : دار الآفاق العربية ، 1418هـ / 1998م ، ص 165 . قيس جواد العزاوي : مرجع سابق ، ص 82 - 83 . ثريا شاهين : مرجع سابق ، ص 25 . شكيب أرسلان : تاريخ الدولة العثمانية ، تحقيق : حسن السماحي سويدان ، ط 1 ، دمشق : دار ابن كثير ، 1422هـ / 2001م ، ص 86 - 87 . Ahmed Ozel : Islam Hukukunda Milletlerarası, Munasebetler ve ulke Kavramı , Istanbul , 1982 , P200.

⁽²⁾ ثريا شاهين : مرجع سابق ، ص 28 .

⁽³⁾ محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 129 .

شُؤون عبادتهم ، أو السماح لأي ذمي بالتحول عن دينه إلى الإسلام إلا عن طواعية أو تراض منه ، ودون أدنى ضغوط سياسية أو دينية أو حتى اجتماعية تقع عليه.

أمّا المرسوم المقدم للمطران أنذاك فقد كان يشير إلى الاستمرار بالعمل داخل الكنائس الموجودة على أرض الدولة العثمانية وتعيش تحت إدارتها ، بالشكل نفسه الذي كانت عليه من قبل ، وحتى في عهد الدولة البيزنطية ، سواء من ناحية الشكل العام للبطريركية الأرثوذكسيّة أو غيرها ، أم من الناحية الوظيفية التي كان يقوم بها المطران نفسه أو الشكل الذي جرى عليه الرؤساء الروحانيون قبله .⁽¹⁾

ولكي يعبر السلطان العثماني محمد الفاتح للبطريرك عن أهمية ذلك المنصب ، ومنحه كامل احترامه وتقديره لدى الإدارة العثمانية ، قال له أثناء تنصيبه في 1454هـ/854م : "كن بطريركاً، وتقبل كل تهانيه الحارة، كن أيضًا على يقين من صداقتني، وبتمتعك بكل الصلاحيات المخولة للبطاركة الذين سبقوك".⁽²⁾ ثم منحه مرسوماً يضمن له ولأتباعه من بعده وللأساقفة حق التمتع بالامتيازات القديمة ، والموارد والهبات التي كانوا يتمتعون بها من قبل.⁽³⁾ وقد سلمه السلطان محمد الفاتح شارات وظيفته مع الثياب الطقوسية والعصا والصليب الرعوي ، ومنحه "رتبة الباشوية"⁽⁴⁾ الرفيعة ذات الشارات

(١) نلاحظ أن كل الشروط والبنود التي عقدتها الدولة العثمانية مع أهل الذمة والرعايا غير المسلمين الذين يعيشون على أراضيها. وتحت إدارتها تشبه إلى حد ما ما فعله الصحابة الأوائل ، وخاصة عمر بن الخطاب حينما دخل فلسطين القدس وبيت المقدس ، وهو ما فعله أيضاً عمرو بن العاص حينما دخل مصر ، وغيرهما الكثير من الصحابة الذين تعاملوا مع هذا الواقع بسماحة دينية ، ولمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع ، انظر : أكمـل الدين إحسـان أوـغـلي : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٥٠٠ . هذه المعاهدة المؤرخة في أواخر جمادى الأولى 857هـ / 1453م ، وانظر نصها في :

Ismail Hakkı Uzuncarsili : Osmanli Tarihi , Ankara , 1983 , Vol II , P. 7-8 .

يقول (شحاته) إن الصلاحيات القضائية لرؤساء الطوائف غير المسلمة منها إياهم السلطان سليم الأول عام 1515م ، غير أنها لا تصادف تلك المعلومة في مصدر آخر ، ولدينا مبررات كافية لذلك في صحة ذلك ، انظر :

Chehata : Precis de Orot Musulman , Paris , 1970 , P. 31 .

وسوف نرى أيضاً فيما بعد ، أن المعلومة التي أوردها الباحث المصري حول أن هذه الصلاحية القضائية جرى حصرها عام 1856م في الأحوال الشخصية ، لا تتفق والواقع التاريخي ، انظر المصدر السابق ، ص 31-32 وانظر أيضاً : شفيق شحاته : تاريخ حركة التجديد في النظم القانونية في مصر منذ مطلع القرن التاسع عشر ، ط ١ ، القاهرة ، 1961م .

(٢) حسن عزوzi : مرجع سابق ، ص 351 .

(٣) ثريا شاهين : مرجع سابق ، ص 27 .

Ahmed Akgunduz : Osmanli Kanunnameleri ve Hukuki Tahlilleri , Istanbul , 1993 , Vol . I , P. 406 .

(٤) "باشا" هي كلمة تركية كانت تستخدم في الدولة العثمانية طوال تاريخها ، ويعتبر من يلقب بها ضمن أصحاب المناصب العالية ووزراء الدولة ، وكبار رجالاتها وهي تعادل لقب وزير حالياً . شمس الدين سامي : قاموس تركي ، د. ط ، إسطنبول : دار السعادة ، 1317هـ ، ص 345 .

الثلاث عند خروجه من الكنيسة، وامتطى البطريرك صهوة جواد أهداه إياه السلطان محمد الفاتح ، وطاف به مدينة إسطنبول مع الرهبان ، ثم توجه إلى مكان إقامته ⁽¹⁾.

لقد حاز على عدّة أوسمة ، وحمل رتبة وزير ، كما نال الأساقفة في إسطنبول مكانة عالية ، وحظوة لا بأس بها . ⁽²⁾

ومنذ ذلك الحين أصبح البطريرك - رسمياً على المستوى العثماني - رجل الدولة الرفيع والرئيس الديني والروحي والمدني على طائفة الأرثوذكس ، في جميع بقاع الدولة العثمانية وخاصة أوروبا ، وصار له الحق في إدارة شؤونهم ومنح لقب " رئيس الملة " ⁽³⁾ ، وهذا اللقب يعني الرياسة المدنية مع الدينية . وبذلك اتسعت صلاحياته ، واعترفت به الدولة العثمانية كياناً دينياً مستقلاً ، يدافع عن حقوق النصارى ويضمن عدم تدخل السلطات العثمانية فيها ، وبالتالي فهو المسؤول الذي يجب أن تخاطبه الدولة فيما يخص شؤون طائفته ، وباعتباره على درجة منصب وزير ، فقد غدى مرجعاً للأرثوذكس في الدولة العثمانية ، ليس في مسائلهم الدينية فقط ، بل حتى في شؤونهم الحقوقية والجزائية ، وكان تحت يده مجلس يساعدته في حكم طائفة الأرثوذكس ، وفي إطار سلطته كان له حق التحدث في ديوان السلطان العثماني في أي وقت يشاء ، وفي أي موضوع يرى فائدة من طرحه على الديوان وأمام السلطان العثماني . ⁽⁴⁾ ولم ينقص من صلاحيات البطريرك شيء بل زادت ، والدليل على ذلك أن المؤرخ (كريتوفولوس Kritovoulos) الذي عاصر السلطان محمد الفاتح ، ذكر أن الصلاحيات التي منحت لبطريركية الروم آنذاك لم تكن بأقل مما كان في العهد البيزنطي ⁽⁵⁾ ، وهذه شهادة من أهلها بسماحة الدولة العثمانية ، والتسامح الذي تعاملت به مع الأديان والمذاهب الأخرى .

⁽¹⁾ يلمازا وزتونا : مصدر سابق ، ج 2 ، ص 470 . حسن عزوzi : مرجع سابق ، ص 351 ، 352 .

⁽²⁾ يلمازا وزتونا : مصدر سابق ، ج 2 ، ص 470 .

⁽³⁾ وكلمة " ملة " كانت تستخدم بمعنى يختلف كثيراً عن المعنى الاجتماعي المستخدم حالياً . حيث أن كلمة " ملة " حسب نطقها بالتركية تؤدي إلى معانٍ متعددة ، فمعناها : الدين ، المذهب ، ومعناها أيضاً الجماعة أو الأمة ، مثل " ملت إسلام " أي "الأمة الإسلامية " ، " ملت مختلفة رؤسائي " أي رؤساء الأمم المختلفة ، ولذاك فليست كلمة " ملة أو ملت " تعني المذهب أو الدين فقط كما رأينا . شمس الدين سامي : مصدر سابق ، ص 1400 .

⁽⁴⁾ محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 128 ، 129 . محمود محمد الحويري : تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوسطى ، ط 1 ، مصر : المكتب المصري ، 1421هـ / 2001م ، ص 232 . حسين عزوzi : مرجع سابق ، ص 351 .

⁽⁵⁾ Benjamin Braude : Foundation Myths of millet system , Christians and Jews in the Ottoman Empire, New York 1982 , Vol. I . P. 78 .

وهناك شهادات من مستشرقين لهم باع طويلاً في التشويه والافتراء ، تشهد على التزام السلطان محمد الفاتح بسياسة التسامح الديني ، فهذه كاتبة أمريكية ⁽¹⁾ عاشت في إسطنبول في بداية القرن 20 م وسطرت في كتاباتها ونفثت كمّا هائلاً من العداء للإسلام والمسلمين على مدى قرونٍ طويلة ، لكنها وصفت السلطان محمد الفاتح قائلة في كتابها ⁽²⁾ : "الواقع أن السلطان محمد ⁽³⁾ قد أظهر تسامحاً عظيماً مع المسيحيين ، وليس أولى على تسامحه معهم من قوله لهم: "إنني أقسم بحرمة مساجد الله التي نعبد بها ، أن أضمن لكم أن تجتمعوا في كنائسهم للصلوة والتضرع إلى الله" . ⁽⁴⁾

ويشير المؤرخ الفرنسي (كارا دوكو) في كتابه "مفكرو الإسلام" إلى العديد من الأدلة التي تؤكد هذا الأثر الطيب الذي تركه العثمانيون عند تعاملهم بالتسامح الديني مع رعاياهم غير المسلمين فيقول : " حين دخل السلطان محمد الفاتح كنيسة آيا صوفيا ، أراد أن يراعي شعور النصارى ، فلم يشاً أن يمحو العديد من صور الفسيفساء التي امتلأت بها جدران الكنيسة ، وقد كان بإمكانه كمنتصر أن يفعل ذلك ، ولكنه اكتفى بأن أمر رجال دولته بأن تغطى ؛ لأن الإسلام يحرم الصور " . ⁽⁵⁾

ويكفياناً أن نقارن بين وضع البطريقي الديني والسياسي في ظل الحكم العثماني، بوضعه السابق تحت حكم الدولة البيزنطية فالأشياء بالأضاد تعرف ، إذ كان مجرد متلقٍ لأوامر الإمبراطور البيزنطي ، ولعل (قول كمال قاربات K.Karpat) يدعم المعلومة السابقة إذ قال: "خلافاً للفترة البيزنطية ، لم يعد البطريرك خادماً صاغراً للإمبراطور، بل أصبح عضواً معترفاً به ، ومحترماً من أعضاء السلطان العثماني ، ويتمتع بسلطة كاملة على أتباع ملته" . ⁽⁶⁾

⁽¹⁾ الكاتبة الأمريكية الدكتورة "ماري ملز باتريック" .

⁽²⁾ كتاب " سلاطين بنى عثمان " الذي ترجم إلى العربية في عام 1933م ، من قبل المترجمين : حنا غصن ، وكامل مروءة ، وكامل صموئيل مسيحة .

⁽³⁾ المقصود به السلطان محمد الفاتح (1418-1444م)

⁽⁴⁾ ماري ملز باتريック : سلاطين بنى عثمان ، ترجمة: حنا غصن ، وكامل مروءة ، وكامل صموئيل مسيحة ، د. ط ، د. م ، 1933م، ص 51 .

⁽⁵⁾ زياد أبو غنيمة : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين ، ص 82 .

⁽⁶⁾ حسين عزوzi : مرجع سابق ، ص 351 .

ومن السهل جدًا إدراك هذا ، عند قراءة الفرمانات العثمانية المنظمة لشؤون الكنيسة ؛ فهي تتضمن على أنه "لابد من النظر في كل أنواع الأمور والمسائل الخاصة بهم ، بمعرفة البطريرك المذكور".⁽¹⁾ وهي توضح الاستقلال التام والحرية المطلقة التي يتمتع بها البطريرك في تنظيم أموره الدينية.⁽²⁾

هذا هو التسامح الديني الذي عبر به السلطان محمد الفاتح عن منهجه ومنهج الدولة العثمانية خلال عصورها ، والمرونة السياسية والاجتماعية بين رعایا الدولة وخاصة غير المسلمين .

وقد عدوه أهالي المدن البيزنطية المفتوحة حديثًا منقذًا ومخلصًا لهم من ظلم البيزنطيين ، وليس مجرد حاكم جديد ، حيث بدأوا يشعرون لأول مرة بالأمن والثقة.⁽³⁾ والحقيقة التي لا شك فيها أن هؤلاء البيزنطيين لم يكن ليعدوا العثمانيين المسلمين وإدارة دولتهم وسلطانهم منقذين ومخلصين لهم من ظلم وبطش الحكم البيزنطي والبيزنطيين ، لو لا أنهم وجدوا منهم كل تسامح ، ومعاملة طيبة كريمة ، شجعتهم على التصريح بهذا القول ، وساعدتهم على العيش داخل الدولة فترة طويلة .

يمكن القول إن هذا النهج الذي سار عليه سلاطين الدولة العثمانية في زمن انعدم فيه مبدأ التسامح ، مما كان له أكبر الأثر في تيسير الفتوحات ، وهو الذي أدى إلى امتداد سياسة الدولة العثمانية إلى الشرق والغرب مدة تزيد على خمسة قرون متواصلة.

وكان المغامر (يوحنا هونيادي) إبان قتاله العثمانيين قد طلب إليه (جورج برانكوفتش) ملك الصرب أن يمضي في قتالهم ، فسألته برانكوفتش : "وماذا تصنع بديننا إذا أنت انتصرت على الأتراك؟! فأجابه هونيادي : "أحمل الناس على اعتناق الكاثوليكية ، وأقيم الكنائس الكاثوليكية في كل مكان".⁽⁴⁾

والحقيقة أن ما صرّح به (هونيادي) لملك الصرب هو الواقع التاريخي الذي كانت تعيش فيه الطوائف المسيحية مع بعضها البعض ، فكل طائفة كانت تريد فرض سيطرتها ومذهبها ومعتقداتها الدينية والمذهبية على الطوائف الأخرى ، وتكون لها السيادة الدينية

⁽¹⁾ ثريا شاهين : مرجع سابق ، ص 27 .

⁽²⁾ Ahmad Ozel : Islam Hukukunda milletle rarasi , manase betlerr ve Wlke kavrami , P200 .

⁽³⁾ أحمد رفيق : مصدر سابق ، ص 190 .

⁽⁴⁾ محمود محمد الحويري : المرجع السابق ، ص 235 . سالم الرشيدی : مرجع سابق ، 128 .

والسياسية ولو بالقوة ، وكلما أتيحت لها الفرصة لفرض ذلك ، وفي المقابل نلمس التسامح الديني مع هذه الطوائف من سلاطين الدولة العثمانية وخاصة السلطان محمد الفاتح ، وبالرغم من انتصاراتهم العسكرية التي تفرض أن تكون لهم القوة والسيطرة ، إلا أن منهج هؤلاء السلاطين يمنع هذا والدليل على ذلك المواقف السابقة نفسها ، وما شابها فحينما وجه ملك الصرب السؤال نفسه إلى السلطان العثماني محمد الفاتح أجابه : " أقيم إلى جنب كل مسجد كنيسة ، والناس أحرار في دينهم ، فمن شاء ذهب إلى المسجد ، ومن شاء ذهب إلى الكنيسة ".⁽¹⁾

وعلى العموم ، فإن العثمانيين ما كانوا استبداديين أو طغاة إلا نادراً ، رغم قسوتهم في أحيان كثيرة ، وذلك إذا ما قارناهم بأوروبا المعاصرة لهم حينذاك ، حيث كان الهوس الديني والتعصب المذهبي ، بينما كان الرعاعي العثمانيون المسيحيون في أوروبا يتمتعون بأقصى درجات التسامح الدينية .⁽²⁾

هذه السياسة الحكيمة من السلطان العثماني محمد الفاتح تجعلنا نشير هنا إلى الفروق الشاسعة بين ما فعله هذا السلطان المسلم والكثير غيره من سلاطين الدولة العثمانية ، وبين التصرفات السيئة المناقضة له من ملوك أوروبا مع المسلمين أنفسهم ، عندما كان هؤلاء غير المسلمين في موقف المنتصرين ، والأمثلة على ذلك كثيرة ومتعددة ، ومنها تلك الانتصارات المدمرة للمسيحيين خلال الحرب الصليبية الأولى ، وكانت انتصاراتهم أيضاً على المسلمين في إسبانيا خلال عهودهم الأخيرة ، وكالانتصارات الزائفة لليهود ضد العرب في فلسطين ، فقد كانت دائماً عبارة عن انتصارات مليئة بالحقد والظلم والدمار وملوثة بدماء كثيرٍ من المسلمين الأبرياء .⁽³⁾

وفي إطار التسامح الديني العثماني قام السلطان محمد الفاتح بإلحاق مجموعة من الشبان أولاد نبلاء الروم⁽⁴⁾ بالقصر السلطاني ، وعمل على تربيتهم تربية عثمانية تقوم على المنهج الإسلامي الصحيح ، ثم عيّنهم بعد ذلك في بعض مناصب الدول المهمة ، وكان من أشهر هؤلاء : محمد الرومي ، و حاجي مراد باشا وأخوه مسيح باشا ، وهما من أسرة

⁽¹⁾ محمود محمد الحويري ، مرجع سابق ، ص 235. بول كولنر : العثمانيون في أوروبا ، ترجمة : عبد الرحمن عبد الله الشيخ ، ط 1 ، القاهرة ، 1993 ، ص 160 .

⁽²⁾ محمود محمد الحويري : مرجع سابق ، ص 236 .

⁽³⁾ Melek colak : Osmanli devletinde mormonlar, Tarih ve toplum, 35 No 210 Jun 2001 P 23-27 .

⁽⁴⁾ كانت تطلق كلمة (الروم) في الدولة العثمانية على البيزنطيين الذين بقوا ضمن رعاعي الدولة العثمانية في إسطنبول بعد فتح السلطان محمد الفاتح القسطنطينية. انظر : شمس الدين سامي ، مصدر سابق ، ص 675 .

(باليولوج) المشهورة في القسطنطينية قبل فتحها . واشتغل هؤلاء النصارى في الأعمال المالية والإدارية المهمة داخل الدولة العثمانية، وقد عاد إلى إستانبول بعد الفتح الإسلامي العثماني بعض كبار الشخصيات الرومية الذين فروا إلى الغرب وعاشوا فيه حياة اتسمت بالفقر وال الحاجة والتشرد ، ومنهم على سبيل المثال (مانويل باليولوج) الذي عين على جمارك إستانبول عقب الفتح الإسلامي العثماني للقسطنطينية ^(١) .

ومن أهم المناصب التي تولوها كانت في الجمارك وكتابة رسائل السلطان ، إذ إن المراسلات السياسية التي يرسلها السلطان محمد الفاتح من ديوانه إلى الغرب ، والمعاهدات التي يعقدها ، كانت تكتب باللغة الرومية، مما كان يستدعي بطبيعة الحال أن يكون العاملين في المجال الإداري والمكتبة من الروم ، وهم الذين يكتبون هذه الرسائل وتلك المعاهدات ^(٢). مما يلفت انتباها إلى المكانة السياسية والإدارية العالية والتقة التي تعامل بها هذا السلطان الفاتح مع هؤلاء الرعايا المسيحيين في مركز الدولة .

كما أن بعضهم أتقن اللغة العربية ، فعملوا مתרגمين في الديوان السلطاني العثماني، يديرون العلاقات بين الصدر الأعظم ومساعده من ناحية ، وبين سفراء الدول الأجنبية من ناحية أخرى . ولمّا كان الروم التابعين للكنيسة يحتلون كل مناصب أعمال الترجمة تقريباً ، فقد كان لهم الدور الخطير في خيانة الدولة العثمانية والعمل على هدمها ، فأثروا تأثيراً خطيراً على مصيرها ومستقبلها السياسي والديني الداخلي والخارجي ، وخاصة في عهد ضعفها وصراعاتها الداخلية ، وحالات الاستقلال والثورة في الولايات العربية ، والصراعات الخارجية مع الدولة الأوروبية ، وخاصة العظمى منها كإنجلترا وفرنسا حينذاك ، واقتراب موعد سقوطها النهائي ، ومن ثم تقسمت ولاياتها وخاصة العربية والإسلامية منها ، وانحصرت الدولة العثمانية في تركيا والحدود الغربية منها فقط . وقد تركزت أعمالهم في الآتي :

(١) إثارة شعوب البلقان ضد الدولة العثمانية ، عن طريق خروج الشعرا والمثقفين

بكتابات تشوه الحكم العثماني واتهامه بجميع التهم .

(٢) الوقوف عقبة أمام الاتفاقيات التي تعود بالمنفعة على الدولة العثمانية .

(٣) العمل على استغلال المشكلات الخارجية .

^(١) ثريا شاهين : مرجع سابق ، ص 41 .

^(٢) محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 129 .

٤) عدم تمكين الدولة العثمانية من اتخاذ قرار مفيد للدولة العثمانية .

٥) العمل على إخراج الترجمة بشكل مخالف للحقائق في علاقة الدولة بمن حولها .⁽³⁾

وهكذا رأينا أن إدارة الترجمة المشار إليها كان لها دور كبير في هذه اللعبة السياسية الخطيرة التي أدت إلى سقوط الدولة العثمانية . وبجانب إدارة الترجمة في الديوان السلطاني ، كانت هناك إدارة للترجمة في قيادة الأسطول السلطاني التي أوكلت جميعها إلى الروم أيضًا ، تحت مسمى ولقب " ترجمان الترسانة "⁽¹⁾ ، كما أنهم عملوا في إدارة الأخلاق والبغدان التي كانت تسمى "المملكتين "⁽²⁾ إبان الحكم العثماني لها ، ونرى بذلك أن إدارة كل الأراضي التي يقيم فيها الروم قد أسندها الدولة العثمانية إلى هؤلاء الأشخاص الذين عرفوا في اللغة العثمانية باسم "هوسبودار" عين الأمير ⁽³⁾ .

وعلى الخطوات نفسها سار السلطان الفاتح مع اليهود ، حيث وجدوا التسامح والتقدير نفسه ، وعين على رأس الطائفة اليهودية حاخام كبيراً (حاخام باسي) أي رئيس الحاخams (موسى كابسالي Mosses Kapsali) ، وقد منحه سلطات وامتيازات البطريرك الأورثوذوكسي نفسها ، وتمتع بسلطات واسعة كما نظمت شؤون تلك الطائفة في كافة أنحاء الدولة العثمانية ، حتى تحسن وضع اليهود ، وأضحت الدولة العثمانية ملجأً لليهود الفارين من اضطهاد روسيا وأوروبا ، خاصة بولونيا والنمسا وإسبانيا ، واحتلوا في إسطانبول وغيرها أهم المراكز الاقتصادية والتجارية⁽⁴⁾.

وعن الملة الأرمنية ، فيمكننا القول إنها أيضًا مرت بتطورات مشابهة ، إذ يدور الجدل حول أن البطريرك الأرمني الذي عينه السلطان محمد الفاتح ، كان ذا سلطة على كافة الطوائف الأرمنية وعلى كنائسها ، فهناك من يذهبون إلى أن "بواكيم" مطران إحدى

⁽³⁾ مرجع سابق ، ص 129 - 130 .

⁽¹⁾ "الترسانة" : كلمة مأخوذة في الأصل من "دار الصناعة" وهي المكان المخصص لإنشاء وتعمير جميع السفن والمراتب الخاصة بأعمال الدولة ، سواءً كانت حرية أم خاصة بالمراتب التي يركبها الخليفة أو السلطان العثماني ، أم من المراتب .

⁽²⁾ الأخلاق والبغدان : إحدى المراكز التي كانت تتشكل فيها الدولة الرومانية في أوروبا ، وهما من السهوب الواقعة في شمال البحر الأسود ، وبعد ضم العثمانيين إليها كانت بمثابة مستودع لتغذية عاصمة الدولة العثمانية إسطانبول . انظر :

M. Brendei –G. Veinstein : Reglements fiscaux et fiscalité de province de Bender- Aqkerman 1570, cahiers du Monde Russe et Sovietique , XXII, 1981, P.251-328 .

⁽³⁾ ثريا شاهين : مرجع سابق ، ص 43 .

⁽⁴⁾ Mark A. Epstein : " The leadership of the Ottoman jews in fifteenth centuries , Christians and Jews in the Ottoman Empire , New York , 1982 , Vol . I , P. 104 .

الكنائس في بورصة جرى تعيينه بطريركاً ، فأصبح الزعيم الروحي والقضائي على كافة الأرمن ، وأن نظام الملة الأرمنية تأسس عام 866هـ / 1461 م .⁽⁵⁾

وفي هذه الحالة ، يمكننا القول إن البطريركية الأرمنية كانت تتضم الطائفة الأرمنية بكمالها منذ ذلك القرن 11هـ / 17 م على الأقل . وأدى هذا النوع من التنظيم إلى أن أصبح الرؤساء الدينيون رؤساء الملل ، وممثلي لطوائفهم في أمور الدين والقضاء على السواء ، ومن ثم فهم المسؤولون عن طوائفهم ، والممثلون لها أمام السلطات العثمانية⁽¹⁾ ، ولهذا استطاعت تلك الطوائف أن تتمتع بقدر معين من الحكم الذاتي .

ورداً لجميل الدولة العثمانية شوء الأرمن علاقتهم بها ، من إدعاء للمذابح الأرمنية التي راح بسببها على حد قولهم - ضحايا كثُر ، وردد تلك الافتراط المستشرقون على أنها حقائق واقعة لا مراء فيها ، بل حاولوا إيجاد الأدلة والبراهين الواهية الضعيفة لتأكيد الحدث .

ومن ناحية أخرى ، كانت هناك طوائف مسيحية أخرى - عدا تلك الطوائف الثلاث - لم يكن معترف بها كاملة ، أو جرى الاعتراف بها بعد مدة طويلة ، مثل الكاثوليك والبروتستانت وغيرها . ولكن وبالرغم من تأخر هذا الاعتراف ، إلا أنها كانت تمارس شعائرها الدينية وطبقوها بكمال حريتها في ظل التسامح الديني الإسلامي العثماني ، وجرى الاعتراف بطاقة الأرمن الكاثوليك على أنها ملة مستقلة في عام 1246هـ / 1830 م .⁽²⁾

وال تاريخ خير شاهد على التزام سلاطين آل عثمان الذين أعقبوا السلطان محمد الفاتح بكل الامتيازات التي منحها هذا السلطان العثماني للنصارى والمسيحيين عامه ، بل إن امتيازات النصارى في الدولة العثمانية زادت بسبب بعض الظروف السياسية ، ونتيجة بعض الضغوط الخارجية ، حتى وصل الأمر بأن أصبحت البطريركية " دولة داخل دولة " ، وبتعبير آخر فإن البطريرك وأعوانه لم يكتفوا بالحفظ على كيان الكنيسة وكيانهم فقط ، بل أصبح مدى النفوذ والسلطة للذين يتمتعون بهما في ظل الحكم والإدارة العثمانية المسلمة أكبر بكثير مما تمعنوا به في ظل أعظم عهود بيزنطة النصرانية قوة ، وقام البطريرك في داخل الدولة العثمانية المسلمة بدور أكثر أهمية من ذي قبل ؛ ويرجع ذلك إلى تلك الامتيازات التي

⁽⁵⁾ Gibb – Bowen , Op . cit , Vol, II, P. 221 .

⁽¹⁾ Gibb – Bowen ; OP . Cit , Vol II , PP. 212 – 213 .

⁽²⁾ Op.Cit , Vol II P. 247 .

منحتها الدولة العثمانية وإدارة سلاطينها للكنيسة وأتباعها، وقد شهد الغربيون على هذا واعترفوا به⁽³⁾.

وخير شاهد على تسامح السلاطين العثمانيين وتمسكهم بتعاليم الشريعة - بعد الفاتح - هذا الموقف ، فقد أراد السلطان سليم الأول تخدير المسيحيين في إسطنبول بين الإسلام أو الرحيل خوفاً من ثورتهم يوماً ما ، فاستفتى شيخ الإسلام في ذلك ، فقام له شيخ الإسلام وقال له : " لا يحق لك هذا ، والمسيحيون واليهود متى خضعوا ودفعوا الجزية فقد عصموا منك دمائهم وأموالهم " ، وأصدر فتوى بعدم جواز التعرض لأديانهم وأرواحهم ، فأذعن السلطان لالفتوى ولم يفعل ما عزم عليه.⁽¹⁾

وهنا كان لابد لنا من وقفة قصيرة لنشير إلى أن عدد أهل الكتاب ما كان ليزداد تلك الزيادة التي سجلها التاريخ الإسلامي ، لو لم يكونوا يتمتعون في كنف العثمانيين المسلمين سواء أكانوا حكامًا أم حكميين وأهالي بالحرية الكاملة في عقيدتهم ، وعبادتهم وحرياتهم الشخصية ، ولو لم يكونوا أيضًا يتمتعون بالأمان والاستقرار الذي وفره لهم عدل الإسلام وسماحة الشريعة الإسلامية .

لكن هذا التسامح مع أهل الذمة قوبل بالإساءة للدولة العثمانية المسلمة ؛ لأنهم أصبحوا النواة التي تدعم الثورات وتأجج نارها ، وربما لو خرجوا في تلك الأيام لتغير الحال ، الأمر الذي جعل التسامح الديني قد يتتحول إلى تسامح سياسي جلب الوبر على الدولة العثمانية وأدى إلى سقوطها في نهاية الأمر .

ولنعرض صوراً للتسامح الديني في ترميم الكنائس مثلاً ، فقد كانت البطريركية تراعي عند القيام بترميم أي كنيسة أو ما شابهها من دور العبادة عندهم، أن يكون هذا الترميم في شكل يناسب شكل بنائهما القديم ، وألا يزاد عند الترميم أي إضافات معمارية عليها ؛ حتى لا يتغير الشكل الذي اعتادت عليه. أما عند إنشائهما كنيسة جديدة فالقانون العثماني كان يشترط الاستئذان في ذلك ؛ لا شيء سوى التنظيم الإداري والديني لدور العبادة داخل الدولة العثمانية .

⁽³⁾ ثريا شاهين : مرجع سابق ، ص 27 .

⁽¹⁾ مصطفى محمد حلمي : مرجع سابق ، ص 104 . شبيب أرسلان : مرجع سابق ، ص 328 . أحمد سعيد نونو : مرجع سابق ، ص 43 . زياد أبو غنيمة : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين ، ص 77 .

ودرجت السلطات العثمانية على الموافقة الفورية لطلب إنشاء كنيسة أو دير في بعض مناطق الدول ، وكان من بين الحقوق العديدة التي منحتها الدولة العثمانية والسلطان على مدار عصورهم للنصارى ، الحق في إنشاء كنائس لهم في الأماكن التي لا يوجد فيها كنيسة ، بمعنى أنه يمكن إنشاء كنيسة في كل مكان فيه نصارى⁽²⁾، وكانت هذه الحقوق والامتيازات التي حصلوا عليها داخل الدولة العثمانية ، ضمن الاتفاقيات والمعاهد التي بين السلاطين العثمانيين وبين بطاركة الروم الأرثوذكس في أواخر جمادى الأول 857هـ/1453م ، وكانت تلك الاتفاقيات تنص على حرية الدين والعبادة المكفولة لغير المسلمين وعدم التعرض بوضع اليد على كنائسهم، أو تحويلها إلى مساجد وعدم التدخل في شؤون عباداتهم، والسماح لأي منهم بالتحول عن دينه إلى الإسلام ، وغيرها من الصالحيات والامتيازات والحقوق التي لم تكن منحوة لهم في عهد الدولة البيزنطية⁽¹⁾.

قال الأمير (فان ديميري) أمير الأفلاق - في كتابه " تاريخ الدولة العثمانية" - كلمة درجت وذهب بين الروم ، وأخذوا يتناقلونها فيما بينهم ، ما مفاده: " لقد قام الوزير العثماني - الصدر الأعظم حينذاك مصطفى فاضل باشا - ببناء كنائس أكثر مما أقام جستنيان "⁽²⁾.

ولا يمكن إنكار أن هذا التصرف قد تسبب في أضرار كبيرة؛ لأن الأحساس القومية لدى النصارى قد هاجت بعد الفعاليات الثقافية وغير الثقافية ، مثل الإرساليات التنصيرية التي تجمعت كلها حول الكنائس ، هذا الشعور الذي أثر تأثيراً واسعاً المدى في الدولة العثمانية وكان سبباً في هدمها ، والدليل على ذلك ما نتج عن ثورة اليونان التي كانت تدور حول فكرة اليونان الكبرى ، وهي أحد أسباب ضعف الدولة العثمانية وسقوطها .

وكانت الدولة العثمانية تحترم كذلك الآثار الحضارية الموجودة في أراضيها وخاصة خلال القرن 13هـ/19م ، حيث قاموا بطلاء جدران وسقف جامع أيا صوفيا - زالت معالم الكنيسة فيها بالداخل حتى الآن ، بالرغم من هدم الصليبان من على قبتها وتزويدها بمنارات وماذن خارجية - كما فعلوا ذلك في بقايا كنيسة القديسة (هيلينا) الموجودة بالقرب من أحد جوامع حلب ، حيث قاموا بزخرفتها بعد ترميمها وصيانتها من الدمار والخراب ، فوقف عليها

⁽²⁾ ثريا شاهين : مرجع سابق ، ص 29.

⁽¹⁾ Ismail Hakki uzuncarsili : Osmanli Tarihi, Ankara , vol . 4 , P.7-8 .

⁽²⁾ أحد بطاركة الروم الأرثوذكس في إسطنبول خلال العهد البيزنطي قبل دخول السلطان محمد الفاتح والسيطرة عليها عام 1453هـ/1453م . انظر ثريا شاهين ، مرجع سابق ، ص 30 .

ال المسلمين يشاهدون ذلك التسقیف الفنی والجمال المعماري بكل سرور ، حتى إن القناصل الأجانب المتواجدین على أرض الدولة العثمانية طلبوا شراء الحجارة المتساقطة من تلك الکنیسة التي أوشكت على الهدم لولا الإدارة العثمانية وما قامت به من جهود في الترمیم ، وبما يعادل ثمنها وزنها ذهبًا ، وقد أفاد والي حلب في تلك الفترة (بکر باشا) بأن الحجارة المتبقیة هناك من هذه الکنیسة باقیة فيها منذ عهد قسطنطین الكبير ، وأنها ستستمر في مكانها بالکنیسة ما دامت الإدارة العثمانية تشرف على صیانتها ⁽³⁾.

كما حصلت الکنیسة على الحق في بناء كنائس جديدة في المناطق التي لا يوجد فيها كنائس من قبل ، مما أدى إلى إثارة الروح القومية لدى النصارى ، واستخدام الكنائس في أغراض غير مشروعة ؛ كثیام أتباعها بأعمال الجاسوسية لحساب الدول الأجنبية لإثارة الرأي العام ضد الدولة العثمانية على اعتبار أنهم أقلية مظلومة . ⁽¹⁾

و حریة إنشاء المدارس الدينیة في الکنیسة جعلها تكون أول مؤسسة يقوم بتجنیدها البطريرک "مدارس الکنیسة" ، وطبقاً للقانون العثماني كان البطريرک وأساقفته هم الذين يفتحون تلك المدارس ويدیرون شؤونها التعليمية والإدارية ، حتى إنه بدأ بافتتاح المدارس بعد فتح القسطنطینیة مباشرة ، ولم يكن للسلطات العثمانية الحق في التدخل في هذه المدارس أو حتى برامجها التعليمية ، وقد ألحقت المدارس بالکنائس ، وكان القساوسة هم من يقوم بالتدريس في هذه المدارس ، وقد أسس (جورجیوس) مدرسة الشعب الكبرى ، كما فتح الأساقفة الآخرين في مناطقهم مدارس للعلم ، وهكذا استغلوا هذه المدارس في نشر اللغة اليونانية وجعلها لغة رسمية لهم ، واستبعدوا اللغة العثمانية عن برامج التعليم في مدارسهم .

كما بدأوا في إرسال النصارى إلى أوروبا للدراسة ، ثم تحويلهم إلى رهبان ومستشرقين على حد سواء . وقد قابل هؤلاء المنصريين هذا التسامح بهدم مساجد المسلمين ومدارسهم ، بالإضافة إلى أن البعثات التصیریة نالت حریتها في ممارسة نشاطها التعليمي في يسر وسهولة ، حتى إن بعض الولاة العثمانيین قدموا لهم التصریح بالعمل على أنها بعثات لتعليم النصرانیة . ⁽²⁾

⁽³⁾ يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، مصدر سابق ، ج 2 ، ص 470 .

⁽¹⁾ محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 130 .

⁽²⁾ محمود محمد الحویری : مرجع سابق ، ص 232 . محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 128 . M.H.M. Sarkar : The muslim world, op. cit, p. 22-24 .

وهذا يعتبر من الأخطاء التي لم تستطع الدولة العثمانية تداركها حيث تركت لهم حرية التعليم ، فوجّه للوجهة التي أرادتها الكنيسة ، فأنشأت جيلاً من المفكرين والمستشرقين قادرًا على اختراق جدار الدولة العثمانية والعمل على هدمها.

وقد استغلت البطريركية أيضًا عدم تدخل السلطات العثمانية في الكنيسة وأن لها حماية ضد أي تفتيش ، ونتيجة لهذه الحرية المطلقة التي نعمت بها الكنيسة من قبل الحكومة العثمانية، فقد استغلتها في تخزين الأسلحة والذخيرة والمعدات الحربية داخل ردهاتها وسراديبها ، وكانت تصل إليها الأسلحة داخل صناديق المواد الغذائية والإعانات التي تقد إلى الكنائس المنتشرة في كل منطقة.⁽³⁾

وبالتالي تستخدم هذه الأسلحة في مساعدة المتمردين والثوار ضد الدولة العثمانية ، وللفتاوى المسلمين ، ومن ثم يأتي دور المستشرقين الذين يسعون إلى قلب الحقيقة ، وتصوير الصراع على أنه قتل وتعذيب من العثمانيين للنصارى والأقليات الدينية .

ولم يكن توجيه الكنيسة لرعاياها للعمل على الاستقلال عن الدولة العثمانية فقط، بل تعدى ذلك الأمر إلى توجيه دعوتها لرعاياها في الداخل والخارج للعمل على تغيير أفكار الدولة، وتغيير مفاهيمها الدينية والسياسية ، والتغلب داخل أراضيها للعمل على هدمها وإسقاطها ، فتنوعت الأساليب وتعددت الأهداف ، وانفق الجميع على العمل في شكل و قالب واحد ، فخرجت الرحلات والاستكشافات لمعرفة المزيد من المعلومات عن بقية أهالي الدولة العثمانية وأراضيها وخاصة العربية والإسلامية ، وخاصة الجزيرة العربية التي تعد بمثابة مركز الدين الإسلامي المتمثل في مكة المكرمة ، وهذه المعلومات تدعم المستشرقين في كتابتهم، فكان لابد من السعي وبهمة للتوجه إلى تلك المناطق وبدعم من الكنيسة والحكومات الغربية والأوروبية المسيحية للبحث عن سبل لتنفيذ مخططاتهم لهدم كيان الدولة العثمانية .

واستمر هذا المنهج بشكل مستقر تقريباً على مدى تاريخ الدولة العثمانية وكان عدد أهل الذمة الموجودين في الأساس منذ قيام الدولة قد أخذ في الزيادة، حتى شكل قدرًا لا يستهان به من مجموع الرعايا ، واستمر ذلك إلى نهاية عهد الدولة العثمانية . ويبدو أن

⁽³⁾ محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص144 . ثريا شاهين : مرجع سابق ، ص29 .

الدولة العثمانية في تلك الفترة كانت تجري على هذا النهج المستقر الذي رأيناه في الدول الإسلامية التي سبقتها.

من جهة أخرى ، فقد ساعد على توفير أجواء التسامح تجاه أبناء الطوائف الدينية الأخرى ؛ كون اجتهادات الفقه الحنفي في مجال أحكام أهل الذمة تتسم باليسر والمرونة ، مقارنة بغيرها من المذاهب ، وهو ما لاحظه - فضلاً عن الباحثين المسلمين - كثيرٌ من الباحثين الغربيين خلال حديثهم عن بعض القضايا والمسائل المرتبطة بالذميين ، (توماس أرنولد) تحدث عن بناء الكنائس في الدولة الإسلامية فقال : " ويختلف فقهاء المسلمين في هذه المسألة اختلافاً واضحاً ، ومن أكثر المذاهب تسامحاً ، المذهب الحنفي الذي يعلن أنه على الرغم من أن بناء الكنائس ومعابد اليهود مخالف للشرع ، إلا أنه يمكن إصلاح ما كان قائماً إذا ما ضرب أو اعتراه القدم ، كما يجوز بناء كنائس ومعابد يهودية جديدة في القرى والضياع التي لا تظهر فيها الشعائر الإسلامية " .⁽¹⁾

وفيما قاله (توماس) دلالة واضحة على التسامح الديني الذي تعاملت به الشريعة الإسلامية مع غير المسلمين ، حتى إنه يشهد بقيام الإدارة الإسلامية العثمانية الحاكمة في الدولة الإسلامية - وطبقاً للمذهب الحنفي - بالترميمات الازمة والإصلاحات الضرورية للكنائس ، أو حتى معابد اليهود التي أشرف على الهدم والخراب ، مع أن بناءها يعد مخالفًا للشريعة الإسلامية، إلا أن الشريعة - وطبقاً لهذا المذهب أيضًا - لا تمانع من بناء الكنائس والمعابد اليهودية الجديدة ، ولكن بشرط أن تكون في القرى والضياع التي لا تظهر فيها الشعائر الإسلامية كما تم توضيحه .⁽¹⁾

وإن هذه الأحكام الفقهية والتشريعات الإسلامية وخاصة القضائية منها ، لتدلنا دلالة واضحة على مدى التيسير الذي تعاملت به الشريعة الإسلامية ومذاهبها الفقهية وخاصة المذهب الحنفي حتى مع الطوائف غير المسلمة سواء أكانوا يهوداً أم مسيحيين ، واضحة في الاعتبار العامل النفسي الذي يتعامل به غير المسلم مع الدين الإسلامي والمسلمين ، في الوقت الذي يشدد فيه الدين الإسلامي بأحكامه الفقهية وتشريعاته القضائية على عدم خروج المسلمين عن النهج الذي وضعه الدين الإسلامي في التعامل بلين ورفق مع أهل الديانات

⁽¹⁾ توماس أرنولد : مرجع سابق ، ص84 .

⁽¹⁾ توماس أرنولد : مرجع سابق ، ص84 .

الأخرى والذميين ، أليست هذه الفروق التشريعية والأحكام الفقهية لتدل على التسامح الديني الإسلامي مع الرعايا غير المسلمين؟!.

في ذات الوقت عانى المسلمون في المناطق التي كانت تحت الحكم المسيحي الكثير من الاضطهاد ، ولم يقابل المسلمون فيها أقل درجة من التسامح الديني الذي تعاملت به الدولة العثمانية مع رعاياها غير المسلمين والذميين والطوائف الأخرى ، فأين كتابات المستشرقين المتعلمين المتفقين عن مثل هذه الأمور والمذابح التي كانت تتم في حق المسلمين ؟ .

لقد كان علماء الإسلام رحمة على الشعوب جميعها ، بينما ببابوات الكنائس نسمة حتى على شعوبها ،⁽²⁾ ومحاكم التفتيش وأفعالها المشينة خير دليل على ذلك .

إن سلاطين الدولة العثمانية كانوا يعتمدون في تنفيذ أوامرهم وأحكامهم الصادرة منهم على القضاة الشرعيين الذين توزعوا على الولايات العثمانية ، وهؤلاء كانوا ذوي قدر وحظوة بين رجال الدولة العثمانية ، ولشيخ الإسلام والمفتى دور كبير في حماية وتنفيذ التعاليم الصادرة من السلطان وفق النصوص الشرعية، وخاصة فيما يتعلق بفقه أهل الذمة ، وفي هذا حرص من السلاطين العثمانيين على تطبيق الأحكام الشرعية في البلاد وحماية الذميين ، وحتى تقوت الفرصة أمام أية تدخلات أجنبية في شؤون البلاد .⁽¹⁾

وإذا كان السلطان محمد الفاتح قد سعى إلى استعماله الكنيسة الأرثوذكسية - كونه راعيها وحاميها ضد البابا في روما - فقد سارت الدولة العثمانية بعد ذلك على هذه السياسة نفسها التي عرفت في التاريخ العثماني باسم " الاستمالة " . ويمكن تعريف سياسية الاستمالة هذه بأنها تقوم على جذب الأهالي والسكان المحليين من غير المسلمين ، واستعمالهم لطاعة الإدارة العثمانية ، وذلك بتقديم الامتيازات المختلفة لهم، ثم إرساء دعائم الحكم العثماني في مناطقهم بعد ذلك⁽²⁾.

والحقيقة أنه بناء على هذه السياسية التي انتهجتها الدولة العثمانية مع غير المسلمين من رعاياها ، كانت أيضاً تتکفل الإدارة العثمانية بحماية هؤلاء في ممارسة كافة شعائرهم الدينية ، وهذا المسلك القويم من الدولة العثمانية جعل لها مكانة وصيتها له تأثير إيجابي بين

⁽²⁾ أحمد سعيد نونو : مرجع سابق ، ص 43 .

⁽¹⁾ حسن عزوzi : ملاحظات حول مسألة التسامح الديني ، ص 350 .

⁽²⁾ محمود محمد الحويري : مرجع سابق ، ص 233 .

السكان المسيحيين ، ودعاهـة سياسية كبيرة بين الدول الأوروبية التي ترعى هذه الطوائف دينياً ، ودل على نزاهة سلاطين الدولة العثمانية .

والحقيقة أن الأتراك العثمانيين كانوا أقوياء ، فحكم الدولة العثمانية الإسلامية الجديدة سلسلة من الحكام والسلطانـين العثمانيـين القـادـرين الذين اتـبعـوا سيـاسـة التـسامـح الـديـني نحو رعـاـيـاهـمـ منـ غـيرـ المـسـلـمـينـ ، فـاستـطـاعـواـ بذلكـ أنـ يـسـتـمـيلـواـ الـكـثـيرـينـ منـ الـأـمـرـاءـ الـمـسـيـحـيـينـ المنـشـقـينـ عـلـىـ حـكـومـاتـهـمـ .⁽³⁾

وإن من يرى هؤلاء المسيحيـينـ فيـ عـهـودـهـمـ السـابـقـةـ عنـ الدـولـةـ العـثـمـانـيـةـ يـسـتـشـعـرـ الفـرقـ الـكـبـيرـ بـيـنـ تـلـكـ الـحـقـبةـ مـنـ الزـمـنـ ، وـبـيـنـ عـهـدـ الدـولـةـ العـثـمـانـيـةـ الـذـيـ بدـأـ مـعـ دـخـولـ السـلـطـانـ مـحمدـ الفـاتـحـ الـقـسـطـنـطـنـيـةـ ، حـيثـ تـحرـرـواـ مـعـهـ مـنـ النـظـامـ الـإـقـطـاعـيـ وأـعـبـائـهـ ، وـعـاشـ الـمـسـيـحـيـونـ الـذـيـنـ كـانـواـ يـتـحـصـنـونـ خـافـ الـقـلـاعـ لـدـفـعـ هـجـمـاتـ الـغـزـاـةـ فـيـ ظـلـ حـمـاـيـةـ دـوـلـةـ إـسـلـامـيـةـ ذـاتـ نـظـمـ سـمـحةـ، وـسـيـاسـةـ دـيـنـيـةـ مـرـنـةـ.

وعـلـوةـ عـلـىـ ذـلـكـ ، كـانـتـ هـنـاكـ مـظـاـهـرـ أـخـرـىـ مـهـمـةـ لـسـيـاسـةـ الـاسـتـمـالـةـ الـتـيـ اـتـبـعـهـاـ العـثـمـانـيـونـ ، تـتـمـثـلـ فـيـ حـمـاـيـةـ لـكـنـائـسـ الـأـرـثـوذـكـسـ وـأـدـيرـتـهـمـ وـإـعـلـانـهـمـ الـعـفـوـ عـنـ بـعـضـ الـضـرـائـبـ الـتـيـ كـانـتـ مـفـروـضـةـ عـلـيـهـمـ ، أـوـ عـنـهـاـ كـلـهـاـ فـيـ بـعـضـ الـأـحـيـانـ ، وـالـعـمـلـ عـلـىـ تـرـكـ مـمـتـكـاتـهـمـ الـدـيـنـيـةـ فـيـ تـلـكـ الـمـنـاطـقـ كـمـاـ هـيـ ، بـالـإـضـافـةـ إـلـىـ إـلـغـاءـ الـامـتـيـازـاتـ الـخـاصـةـ بـالـطـبـقةـ الـعـسـكـرـيـةـ الـمـحلـيـةـ الـإـقـطـاعـيـةـ ، وـضـمـ هـذـهـ طـبـقـةـ إـلـىـ النـظـمـ الـعـسـكـرـيـةـ الـعـثـمـانـيـةـ⁽¹⁾.

وـهـكـذاـ نـجـعـ الـعـثـمـانـيـونـ فـيـ اـسـتـمـالـةـ الـمـسـيـحـيـينـ وـالـكـنـيـسـةـ وـالـطـبـقـاتـ الـعـسـكـرـيـةـ الـتـيـ كـانـتـ مـوـجـودـةـ فـيـ الـمـنـاطـقـ الـمـفـتوـحـةـ ، حـيثـ وـطـدـتـ هـذـهـ إـلـيـرـاءـاتـ أـفـدـامـهـمـ هـنـاكـ حـتـىـ إـنـ الـعـثـمـانـيـونـ فـيـ كـثـيرـ مـنـ غـزوـاتـهـمـ فـيـ الـمـنـاطـقـ الـمـخـتـلـفـةـ ، كـانـواـ يـلـقـونـ كـثـيرـاـ مـنـ التـرـحـيبـ مـنـ جـانـبـ الـمـسـيـحـيـينـ أـنـفـسـهـمـ نـتـيـجـةـ هـذـاـ التـسـامـحـ الـدـيـنـيـ ، فـقـدـ كـانـتـ سـمـعـتـهـمـ الـحـسـنـةـ تـسـبـقـهـمـ ، بـلـ وـيـعـدـونـهـمـ مـخـلـصـيـنـ لـهـمـ مـنـ الـحـكـمـ الـظـالـمـ الـمـسـتـبـدـ ، حـتـىـ إـنـهـ عـنـدـمـ يـخـرـجـ الـحـكـمـ الـعـثـمـانـيـ مـنـ مـنـطـقـةـ يـطـالـبـ أـهـلـهـاـ بـعـودـةـ حـكـمـهـمـ ، مـثـلـمـاـ حـدـثـ عـنـدـمـ أـخـذـ أـمـرـاءـ الـبـنـدـقـيـةـ جـنـوبـ الـيـونـانـ ، فـقـدـ

⁽³⁾ زيـادـ أـبـوـ غـنـيمـةـ :ـ جـوانـبـ مـضـيـئـةـ ،ـ صـ 79ـ ،ـ نـقـلاـًـ عـنـ الـدـكـتـورـ فـاضـلـ حـسـينـ :ـ مـحـاـضـرـاتـ عـنـ مـوـتـمـرـ لـوزـانـ فـيـ الـبـلـادـ الـعـرـبـيـةـ (ـ دـ.ـ طـ)ـ ،ـ 1958ـ .ـ

⁽¹⁾ مـحـمـودـ مـحـمـودـ الـحـوـيرـيـ :ـ مـرـجـعـ سـابـقـ ،ـ صـ 234ـ .ـ

ثار أهلها المسيحيون على البنادقة لمنعهم من إقامة شعائرهم الأرثوذكسية وطردوهم ، وطالبووا بالرجوع إلى حمى الدولة العثمانية لعدم تعرض هؤلاء لشعائرهم الدينية ⁽²⁾.

ولعل انتشار المدارس التصصيرية داخل أراضيها يعتبر من أكثر الآثار سلبية للسياسة التسامح الديني التي اتبعتها الدولة العثمانية ، فإن تسامحها وسماحها بوجود تعليم للمدارس التصصيرية داخل أراضيها أدى إلى أن يجوبها كثير من المستشرقين طمعاً في كتابة المزيد عنها ، وكان ذلك أحد الأسباب التي أضفت كيان الدولة ، بل أدى إلى سقوطها في النهاية .

وقد انتشرت البعثات التصصيرية الكاثوليكية ، وقد انضمت إليها البعثات البروتستينية والتابعة للعديد من دول أوربا حينذاك ؛ نتيجة للتساهل السياسي ، والتسامح الديني ، وأنشأت مدارسها الابتدائية والثانوية للبنين والبنات ، في أنحاء معظم الولايات العربية والإسلامية ، وبصفة خاصة في المناطق التي تجمع فيها الطوائف النصرانية ، مثل لبنان ، وشمال العراق ، ومصر ، وتعودتها إلى بعض مدن تونس وطرابلس الغرب ليبيًا حالياً وتغلغلت أحياناً إلى أعماق الريف ⁽³⁾.

وقد ترك لهذه البعثات - بادئ ذي بدء - حرية العمل ، أي دون تدخل من الدولة الحاكمة ، إلا أن الدولة العثمانية ما لبثت أن أحضنتها لنظرارة المعارف (وزارة التربية والتعليم) ، وألزمتها بتدریيس اللغة العثمانية مادة مستقلة بجانب المواد الأخرى ⁽¹⁾.
ولم ينته الأمر عند هذا الحد من التسامح الذي جاء بهدم الدولة تدريجيًّا من الداخل ، بل تعداه إلى أكثر من ذلك ، حيث إن هذه البعثات كان اهتمامها بالتعليم الأساسي بالإضافة إلى إنشاء مؤسسات تعليمية عالية ، وقد ابتدأ هذه الطريق "البعثة البروتستينية الأمريكية" التي قدمت إلى بلاد الشام في الرابع الأول من القرن 13هـ/1914م ، فبعد أن أنشأت عدداً من المدارس الابتدائية والثانوية ، ودور المعلمين في بيروت ، وقرى لبنان ، دمشق وحمص وحماة؛ وحلب ⁽²⁾، قررت إنشاء "كلية بيروت الإنجيلية السورية" في بيروت ، وافتتحت عام

⁽¹⁾ أحمد سعيد نونو : مرجع سابق ، ص 44.

⁽²⁾ محمود حسن منسي : تاريخ المشرق العربي الحديث ، د. ط ، مصر ، د.ت ، ص 88 .

Ekmeleddin ihson : osmanli penleti, tarih ne medeniyet , 1998, vol .II , p.398

⁽³⁾ فاضل مهدي بيات : التعليم في العراق في العهد العثماني ، دراسة تاريخية على ضوء السالنامات العثمانية ، المجلة التاريخية ، العدد 57-58 ، تموز 1990م ، ص 141-142 .

⁽⁴⁾ نور الدين حاطوم : نشاط البعثات الأجنبية الدينية في العالم العربي ، محاضرات أقيمت على طلاب قسم الدراسات التاريخية ، معهد الدراسات العربية العالمية، 1959-1960م ، ص 18-19.

1283هـ / 1866م، وتحولت رسمياً عام 1338هـ / 1920م إلى "جامعة بيروت الأمريكية" ، وقد أنشئت فيها الكليات المختلفة واحدة بعد الأخرى كالطب والصيدلة والتجارة والتمريض ، مع إنشاء مستشفى . ثم طب الأسنان وكلية الهندسة ثم الزراعة ، وكانت لغة التدريس فيها اللغة العربية حتى عام 1292هـ / 1875م ، ثم استعيض عنها بالإنجليزية ، وقد وفد إليها الطلاب من مختلف الجنسيات ، وبصفة خاصة من الولايات العربية المجاورة كالعراق والشام ومصر ، وألحق بالجامعة مكتبة ضخمة ، ومستشفى ضخم في بيروت وأنشأت البعثة التصديرية مستشفى آخر في دير الزور ، وثالثاً في طرابلس ، وأسست أيضاً كلية للاهوت ، ومجلة سنوية ونشرة دينية دورية ، ومطبعة .⁽³⁾

ووسعَت دائرة عملها بإنشائها كليات تعليمية أخرى في بيروت ، وصيدا ، والنبطية ، وطرابلس ، وحلب ، وكان من جملة النشاطات الثقافية لهذه البعثة ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة العربية ، وكتب في العلوم والرياضيات والفلسفة ، ونشر مؤلفات عربية ومعاجم لغوية عربية⁽⁴⁾ ، وكان لخريجيها دور كبير في دعم الحركة التصديرية داخل هذه المناطق العربية .

الحقيقة أن الدولة العثمانية - وحتى عهد التنظيمات - تركت التدخل في شؤون العناصر غير المسلمة فيما يتعلق بموضوع التعليم والمدارس الخاصة بهم ، ولم تحرك ساكناً إلا بعد أن استغلت بعض الدول الغربية والأوروبية هذه العناصر؛ لنفرض حمايتها عليها ، مما جعل الدولة تضع بعض الضوابط على القوانين والأنظمة والقرارات للحد من نشاطاتها المعادية، ففرمان الإصلاحات الذي صدر في سنة 1269هـ / 1852م وضع لأول مرة شروطاً على مدارس الطوائف الدينية ، ومما جاء فيه : " يحق لكل طائفة في إقامة مدارس خاصة بها في مجال التربية والحرف والصناعة ، على أن تخضع المناهج الدراسية في مثل هذه المدارس ، واختيار معلميها وأعضاءها لمراقبة وتفتيش من قبل مجلس مشترك يعين أعضاؤه من قبلنا " .⁽¹⁾

وبعد إعلان التنظيمات قامت الطوائف غير الإسلامية بإحياء مدارسها وإصلاحها في داخل الدولة ، كما قام أفرادها بإرسال أولئك إلى الخارج لأجل الدراسة والتحصيل .

⁽³⁾ Edmon Howie : the American university ad Beirut , Beirnt 1951, ph.k. Hilti : lebanan in Histery , 1957, P. 454 .

⁽⁴⁾ OP. cit Osmanli penleti, OP .cit . P. 399 .

⁽¹⁾ فاضل مهدي بيات: التعليم في العراق في العهد العثماني ، ص 415 ، 416 .

أمّا القرارات والأنظمة التي أصدرتها بهذا الخصوص فقد كانت محاولة منها لتنظيم هذه المدارس بالشكل الذي تتمكن هي من الإشراف عليها أو مراقبتها على أقل تقدير ، فعندما أصدرت في سنة 1286هـ / 1896م نظام المعارف العام خصصت بعض مواده لتدريس في هذه المدارس ، منها على سبيل المثال المادة رقم 129 التي عرّفت المدارس الخاصة بأنها : المدارس التي تقام من قبل الطوائف الدينية ، أو من قبل أفراد من رعايا الدولة ، أو من قبل أجانب في الدولة يعيشون فيها .⁽²⁾

غير أن الدولة في حقيقة الأمر ، كانت تتوجس خيفة من هذه المدارس ، وذلك في الوقت الذي كانت تمر فيه الدولة العثمانية بظروف غاية في الحساسية، بل ومهدهة من الناحية الأجنبية ، وكانت إدارة الدولة على علم بالنوايا المبيبة للقائمين على هذه المدارس ، وكذلك بالدور الذي تقوم به هذه المدارس سواء من الناحية السياسية أم الأمنية أم الثقافية أم الاجتماعية، فضلاً عن دورها في العمل على تبعة الرأي العام ضد توجهات الحكومة ، فقيدت دور هذه المدارس بإصدار بعض الأوامر التي من شأنها أن تحد النشاط المعادي لهذه المدارس تجاه الدولة العثمانية وإدارتها في كل ولاية من ولاياتها ، ومن الأوامر حظر تدريس المواد المخالفة للآداب الإسلامية وما يعارض سياسة الدولة بصفة عامة ، ولهذا ألزمت الدولة هذه المدارس تصديق مناهجها الدراسية وكتابها المقرر في وزارة (نظارة المعارف) ، أو في الولايات التي بها تلك المدارس نفسها .⁽¹⁾

والحقيقة أن المدارس الخاصة في الإمبراطورية العثمانية كانت عبارة عن قسمين : أحدهما يضم المؤسسات التعليمية التي أقامها الرعايا العثمانيون غير المسلمين ، ارتكازاً على حق الاستقلال القانوني والقضائي الذي ظلوا يتمتعون به في إطار أحكام الشريعة على مدى التاريخ ، أما القسم الثاني فيضم "مدارس التنصير الأجنبية" التي أقيمت أول مدرسة منها في عهد السلطان سليمان القانوني في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي بامتياز خاص منحه لملك فرنسا (فرانسوا الأول) .⁽²⁾

وظل التعليم لدى الرعايا غير المسلمين في الدولة العثمانية مختلفاً بما لدى الأهالي المسلمين حتى إعلان فرمان التنظيمات ؛ إذ كانت عبارة عن مدارس رهبانية يديرها الزعماء

⁽²⁾ مرجع سابق ، ص415 ، 416 ،

⁽¹⁾ فاضل مهدي بيات : التعليم في العراق في العهد العثماني ، ص416 .

⁽²⁾ أكمل الدين إحسان ، مرجع سابق ، ج 2 ، ص590 .

الرومانيون للطائفة بقصد التعليم الديني وتنشئة رجال الدين ، ولم تكن الحياة التعليمية والثقافية لدى غير المسلمين فيما قبل التنظيمات موضعًا جرى البحث فيه كثيراً ، ويمكنا القول إن المفهوم الحديث للعمل والتعليم الذي تطور في أوروبا بعيداً عن التعليم الموجه لتخريج رجال الدين لم يكن موضوعاً ذا أهمية كبيرة بين أقليات الرعايا العثمانيين حتى أواخر القرن 12هـ/18م ، ومع الثراء الذي بدأ يظهر في النصف الثاني من القرن 12هـ / 18م على طائفتي الروم الأرثوذكس والأرمن بوجه خاص بسبب نشاطهم التجاري المتزايد، وبداية ظهور طبقة اجتماعية جديدة أخذت في النمو ، زادت أعداد المؤسسات التعليمية الابتدائية والمتوسطة التي ليس لها علاقة بالرهبنة وارتفع المستوى التعليمي بين هذه الطوائف ، كما أقيمت إلى جانب ذلك مدارس عالية موجهة للتخصص في مجالات الإدارة والطب والحقوق والتجارة والصناعة والهندسة والعمارة وغير ذلك .⁽³⁾

وكانت المدارس الخاصة التي أسستها الطوائف غير المسلمة في الدولة العثمانية قد أقيمت من قبل الأغنياء وأرباب المال من غير المسلمين فيها ، وكانت تدار من قبلهم ، كما كانت تتخذ عادة إحدى الغرف الملحقة بالكنائس ، لتكون بمثابة مدرسة يقوم الرهبان بالتدريس فيها ، أي على غرار المدارس الدينية الإسلامية الأولى التي كانت تقام في الجوامع والمساجد المنتشرة في الولايات العربية والإسلامية ، أو في أماكن قريبة منها .

ويستدل من التعليمات المتعلقة بمهام مدير المعرفة التي أصدرتها وزارة المعارف العثمانية في 8 رجب 1314هـ / 14 ديسمبر 1896م أن هذه المدارس كانت على قسمين :

أ) **المدارس الملكية** : وتعود ملكيتها إلى الطوائف الدينية (المسيحية بالدرجة الأساسية) ، وتغطي نفقاتها من الأوقاف المخصصة لها ، وتدار من قبل الطوائف والبطريركيات التي تتبعها .

ب) **المدارس الخاصة** : وهي التي تقام من قبل الأشخاص ، وقد انتشرت المدارس الخاصة غير الإسلامية في معظم أرجاء الدولة العثمانية ، ولم تكن الدولة تتدخل في شؤونها أو في مناهجها مطلقاً . وبعد أن دخل السلطان محمد الفاتح إسطنبول (

⁽³⁾ مرجع سابق ، ص 592 .

القسطنطينية) عام 857هـ/ 1453م ترك المدارس الموجودة هناك بيد الرؤساء

الرومانيين ، فكان لهم مطلق الحرية في إدارتها .^(١)

ولم تشرع الدولة العثمانية أي قانون من شأنه أن يقيد التعليم في المدارس غير الإسلامية في بداية الأمر ، ولكن بعد أن ازداد التدخل الغربي في شؤون الدولة العثمانية ، وبرزت إلى الوجود مسألة الطوائف غير الإسلامية وخاصة المسيحية ، قامت الدولة بسن بعض التشريعات والقوانين للحيلولة دون قيام هذه المدارس بما يتعارض مع سياسة الدولة العثمانية العليا ، غير أنها لم تتمكن دائمًا من أن تتحقق ما تصبو إليه ، بل جاءت هذه المدارس وسيلة للضغط الفكري والثقافي على الدولة العثمانية ، ووسيلة لتغيير أفكارها ومبادئها الإسلامية التي قامت عليها .

وليس هذا فقط بل أخذت البطريركية في إسطانبول تعمل على تشجيع شعوب البلقان على إقامة مدارس رومية والعمل على نشرها ، وقد أصدرت بطريركية إسطانبول أوامرها أن تصبح اللغة اليونانية هي اللغة الوحيدة التي تستعمل في العبادات والتعليم ، وقد اتخذت بذلك سياسية ترويج جبرية لمناطق البلقان في أوائل القرن 13هـ/ 19م ، ومع الوقت صار نهج الكنيسة بعد فتح القسطنطينية يدور في فلك تنظيم الروم تحت ستار العملية التعليمية في الكنائس متخفيين بأداء الطقوس الدينية .^(٢)

وبذلك إتسعت صلاحيات البطريركية ، لدرجة أنها كانت تصدر الأوامر دون مراجعة من قبل الحكومة العثمانية ، فألغت بذلك اللغة العثمانية ولم تدرسها مطلقاً .

وبالتأكيد لم يختلف اليهود عن ركب إنشاء المدارس الخاصة بهم وجعلها تحت إشرافهم المباشر ، حيث يبدأ صبيانهم وبناتهم في تلقي تعليمهم الأولي في مدارس دينية محافظة ، يتبعها مبادئ القراءة والكتابة وأجزاء من التلمود ، ثم بدأ في منتصف القرن 13هـ/ 19م تطوير التعليم عن طريق تبرعات العائلات اليهودية الثرية في أوروبا ، مثل عائلة (روتشيلد) والبارون (هيرش) ، فبدأت حركة واسعة في إنشاء المدارس التي تتناول مناهج دراسية موجهة ، ساعد في ذلك منح الدولة العثمانية الحرية المذهبية والمدرسية للطوائف الأخرى في الدولة العثمانية مما أثر في بث روح القومية ، وإشعاعتها في أرجاء الدولة العثمانية وساعد على تقويضها بعد ذلك .

^(١) فاضل مهدي بيبيات : التعليم في العراق في العهد العثماني ، نقلًا عن سالنامة ، وزارة المعارف العثمانية لسنة 1317هـ— 0 مديرية المعارف في الولايات العربية مادة 27 .

^(٢) محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 132 .

أول مدرسة افتتحت لليهود في إسطنبول هي (خاص كوي) في الفترة ما بين 1287هـ - 1306هـ / 1870م - 1888م ، ثم زاد العدد حتى بدأ يستوعب كل أطفال الجالية اليهودية ، فضلاً عن افتتاح مدرسة ثانوية ، بمساعدة (جمعية الإليانس) التي أنشئت في باريس ؛ بهدف الدفاع عن حقوق اليهود في جميع أنحاء العالم ، وبالطبع الممول الرئيس لهذه المدارس عائلة (روتشيلد) المعروفة بثرائها .

ومن ثم انتشرت المدارس التي تدعمها جمعية (الإليانس) في جميع أنحاء الدولة العثمانية .

على أن أهم مؤسسة تعليمية في الدولة العثمانية قامت بدور كبير كانت كلية (روبرت) الأمريكية التي أنشئت عام 1863هـ / 1280م ، تميزت هذه الكلية بأنها تضم عدة تخصصات مختلفة ، ما بين تخصصات علمية ولغات وطب ، وكان خريجو هذه الكلية يعينون في المدارس التصديرية الأمريكية المنتشرة في أرجاء الدولة العثمانية ، ومن خلال ذلك يعملون على التأثير في الطلاب الأتراك بتغيير أفكارهم وعاداتهم ، والعمل على اتباع الأساليب الغربية في شؤون حياتهم ، وما يجده المعلومة السابقة أن كلية (روبرت) قامت بدور مهم من خلال طلبتها ، حيث ساعدت الطلاب البلغاريين على تربية روح القومية لديهم ، مما جعل هؤلاء الطلاب يقومون بالثورة و التمرد على الدولة العثمانية ، بل وقتل كثير من المسلمين في بلغاريا ، ومن ثم إعلان قيام دولة بلغاريا ، ولعبوا الدور نفسه مع الطلاب الأرمن ، الذين كانوا يعملون موظفين في الدولة العثمانية، ووصلوا إلى أعلى المناصب فيها ، لكن كلية (روبرت) ساندتهم ، على الرغم من أن الدولة العثمانية كثيراً ما تحملت رعونة الأرمن ، حيث أنه أثناء تمرداتهم - مثلاً - كانوا يحرقون قرى بأكملها .⁽¹⁾

وهكذا استخدم اليهود المؤسسات العلمية لأغراضهم الشخصية في إثارة الفتن حول الدولة العثمانية.

أما عن أوضاعهم الاقتصادية ، فالحقيقة أن الدولة العثمانية لم تفرق بين الروم وبين أبنائها في الوظائف المتاحة للمسلمين والذميين على حد سواء ؛ لأنها وقّت بهم ، فخصّصَهم السلطان محمد الفاتح بالمناصب الحيوية ، وأسندت إليهم الكثير من الأعمال المهمة كالعمل في الترجمة - كما سبق وأن أوضحت - ودائرة الجمارك ، وفي مجال العلاقات الدولية ،

⁽¹⁾ هدى درويش : العلاقات العربية التركية ، ج 2 ، ص 72 - 88 .

ولم تشک فيهم ، فرغم أنه كان فيهم من ظل مخلصاً في ولائه وعمله وخدم الدولة بنزاهة واستقامة إلا أنه كان فيهم أيضاً - وبكل أسف - من استخدم تلك الثقة التي أولتها الدولة العثمانية إليه استخداماً سيئاً ، وكان هؤلاء لا يشكلون أغلبية الروم .

وكان بعضهم يحتل بالفعل مراكز نافذة ومهمة في الدولة العثمانية ، ويقوم بدورٍ جوهري في حياة الدولة الاقتصادية والاجتماعية بل والسياسية أيضاً ، ومنهم على سبيل المثال: صرافي إسطانبول الأرمن ، وصرافي بغداد اليهود ، وعائلات الفنار اليونانية بإسطانبول ، والتي كانت تقوم بأعمال الترجمة في كثير من المفاوضات الأجنبية مع الدولة العثمانية ، أو منح هذه الأقليات حكم بعض الولايات الرومانية التي تحت حكم الدولة العثمانية .⁽²⁾

إلى جانب ذلك ، سيطر الروم على التجارة البرية والبحرية إضافة إلى الاستيراد والتصدير ، وبذلك أحکموا الطوق حول التجارة العثمانية بالسيطرة على التجارة البحرية والبرية ، وخير دليل على أن هذه السيطرة كانت ضد مصلحة الدولة العثمانية ، حينما حصلت كلاً من جنوه والبنديقية على امتيازات تجارية عام 1453هـ / 1857م ، إذ كانت رغبة الدولة العثمانية من هذه الامتيازات هو نمو التجارة الذي سيزيد من دخل الدولة ، لكن الأمر لم يسير وفق هذه الرغبة ؛ إذ إنه حينما نشطت تجارة أوروبا في البحار الشرقية تراجعت وضمرت التجارة العثمانية مع مرور الوقت لاعتمادها على التجار الأوروبيين وضمائرهم .

وقد تعابش المسلمون مع غيرهم من أهل الذمة ؛ لأن هؤلاء أصبحوا أعضاء في طوائف الحرف الصناعية والتجارية ، يقفون جنباً إلى جنب مع المسلمين ، وقد اشتهر (المارانوس) بوجه خاص كونهم صانعي أسلحة الحرب ، في حين اشتد إنخراط آخرين في التجارة البرية والبحرية ، كما ازداد الطلب على المتخرجين من مدارس الطب في سلمنكا ، وكان قدر كبير من المزايا التي تتمتعوا بها حتى عام 1700هـ / 1112م ناتجاً عن نفوذ أطباء البلاط العثماني ، كما كان من المعتمد جداً أن يشغل اليهود وظائف المترجمين في الدولة العثمانية بصف رسمية، نتيجة لارتباطهم بأوروبا ومعرفتهم بها .

كما اشتغلوا على وجه الخصوص بالطباعة فكانوا السباقين إلى إدخال مبادئها إلى البلاد والولايات العثمانية . ولكل ذلك قبول اليهود النازحون من إسبانيا بحماسة شديدة ، وتم تقديرهم واحترامهم لما جلبوه معهم من تقاليد ثقافية قيمة وصناعات مهمة ، ولعل ما جعلهم

⁽²⁾ قيس جواد العزاوي : مرجع سابق ، ص 85 .

يحظون بالاهتمام والتقدير كون حدث الطرد الذي طال المسلمين واليهود قد صادف سقوط إمارة غرناطة التي كانت آخر معاقل الحكم الإسلامي بالأندلس .⁽¹⁾

ولم يقتصر تعايشهم على الناحية السابقة بل شمل التعايش الثقافي والفكري، حيث توفر وثائق عديدة تشهد بقى التبادل الفكري والثقافي بين الطوائف الدينية الثلاث ، إذ نجد في معاجم الطب التي كتبها المسلمون الأتراك ترجمات لأطباء مسلمين ومسيحيين ويهود مجتمعة من غير تميز ، وبفضل هذه الكتب نستطيع تكوين فكرة دقيقة عن نشاط الوظيفة الطبية في ذلك الوقت.

وفي المستشفيات كان أطباء الطوائف الدينية الثلاث يبذلون جهودهم مجتمعين ، ويقرأ بعضهم كتب بعضهم الآخر ويتبادلون التلاميد⁽²⁾.

كان التسامح الديني الذي تعاملت به الإداره العثمانية وسلطانها هي بداية الامتيازات الممنوحة للرعايا غير المسلمين في الدولة العثمانية ، في كافة نواحي الحياة سواء السياسية أم الاقتصادية أم الاجتماعية وحتى الدينية ، وبالإضافة إلى التسهيلات البحرية والتجارية التي كانت تمنحها الدولة العثمانية للبنديقية⁽¹⁾.

وقد ظهرت الاستقلالية في الحقوق والقضاء المعترف بها لأهل الذمة في الدولة العثمانية ، ليس نتيجة لمعاهدة دولية جرى عقدها ، ولكن نتيجة لتنظيم حقوقي داخلي على مدى السنين ، والتسامح الديني الذي اتسمت بها إدارة الدولة العثمانية منذ بداية عهودها الأولى ، وذلك ضماناً لاستقرارها السياسي والاجتماعي بالداخل .

إن حدود الاستقلال الحقوقي والقضائي المعترف به لأهل الذمة ، كانت واسعة في أوائل عهد الدولة العثمانية ثم أخذت في الانحسار على مدى مرحلة تاريخية معينة ، حتى اقتصرت على الأحوال الشخصية من حيث الأساس ، كالنكاح والطلاق والوصية والميراث وغير ذلك ، ومع هذا فالملاحظ أيضاً أن الرؤساء الروحانيين كانوا يتمتعون بصلاحيات تجيز لهم توقيع العقوبات الدينية في الغالب على من يقترف جرمًا معيناً ، مثل الإخلال براحة الطائفة المنسوب إليها ، أو الإخلال بالقواعد الدينية ، وأن يمنعه من دخول الكنيسة ، أو يرفض استقبال جنازته فيها ، كما كان يتمتع الرؤساء بصلاحيات توقيع العقوبات المادية من

⁽¹⁾ حسن عزوzi : ملاحظات حول مسألة التسامح الديني ، ص364 .

⁽²⁾ مرجع سابق ، ص 364 .

⁽¹⁾ قيس جواد العزاوي : مرجع سابق ، ص85 .

حين آخر ،⁽²⁾ وذلك بسبب سوء استغلالهم لهذه الصلاحيات وعدم وقوف الدولة العثمانية على حقيقة نواياهم .

ويمكنا أن نرى بوضوح في الفرمانات والمراسيم السلطانية العالية الممنوحة لرؤساء الطوائف عند تعينهم ، تلك الصلاحيات القضائية التي كانت ممنوعة لهم كامتيازات من الدولة.⁽³⁾

والملاحظ أن الأحكام الإسلامية التي يتقرر تطبيقها على أهل الذمة في حالة رجوعهم إلى المحاكم العثمانية ، سواء أكان المرجع القضائي جبرياً ، أم كان اختيارياً ، كانت تختلف بين الحين والآخر بما جرى تطبيقه على المسلمين ، فلا يعاقب الذمي الذي شرب الخمر ما دام دينه لا يمنع ذلك ، وما دام لا يخل بالنظام والأمن العام .⁽¹⁾

كما لم يجر تطبيق حكم الرجم على الزاني غير المسلم ، حتى ولو كان متزوجاً ؛
نظرًا لأنه لا يعد محسناً لكونه ليس مسلماً .⁽²⁾

وقد أسفر ذلك الوضع مع مرور الزمن عن نتائج انتقصت من حقوق الدولة العثمانية في السيادة ، فشاعت رفع الصلاحيات القضائية المخولة لمحاكم القنصليات ، غير أن ضعف الدولة المستمر وتراجع قوتها في الصمود لمواجهة الغرب لم يسمح لها بتحقيق ذلك ، وفي النهاية أصدرت قراراً عام 1333هـ / 1914م من جانب واحد ألغت به كافة الامتيازات ، وفي ظروف لم تكن تسمح لها بذلك أبداً ، وأنهت الصلاحيات القضائية المخولة لمحاكم القنصليات⁽³⁾.

⁽²⁾ إن وجود قوة شرطة صغيرة تابعة ل الكبير الحاخامات ، ووجود سجن داخل البطريركية يدلنا على أن الرؤساء كانوا يتمتعون بصلاحيات توقيع العقوبات في مجالات معينة ولمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع انظر : Christians and Jews in the Ottoman Empire , New York , 1982 , Vol I. P. 440 .

⁽³⁾ للإطلاع على فرمان لأحد البطاركة الأرمن المؤرخة في 27 رجب 1248هـ 22 ديسمبر 1832م انظر : دفاتر الطوائف غير المسلمة في أرشيف الدولة العثمانية رئاسة الوزراء بإسطنبول ، دفتر 1 ، ص 25-26 . وهي تتعرض للأحوال الشخصية لدى هذه الطوائف .

⁽¹⁾ محمد أبو زهرة : الجريمة ، د.ط ، القاهرة ، د.ت ، ص 338 - 339 ، وانظر أيضاً : أحمد فهمي بهنسى : الحدود في الإسلام ، ط 1 ، القاهرة د.ت ، ص 26 ، 30 .

⁽²⁾ Ahmed Ozel : Islam Hukukunda Milletlerarasi Munasebetler ve ulke kavrmi , Istanbul . 1982 , P.219.

⁽³⁾ M.Akif Aydin : Batililasma , Dia, istanbul . 1992, vol ,5 , P.166-167 .

وهكذا نرى بأنه ولأول مرة في التاريخ الإسلامي تسمح سلطنة دينية وخلافة إسلامية ، بأن يحكم المسيحيون أنفسهم ، بل ويعملوا كيما شاعوا في أغلب الولايات والإمارات التي كانت تابعة للسلطنة العثمانية وتعد من ديار الإسلام ، ومع ذلك فروح السماحة العظمى للإسلام المنتشر في كيان وإدارة وسلطان الدولة العثمانية ، ومنهجها التشريعي المستمد من الروح الإسلامية السمحاء ، جعلت من نظام الملل مثلاً فريداً لنظام تعددي تعجز الأنظمة القائمة اليوم على ما يسمونه بالديمقراطية الدستورية أن تلحق به ، والدليل على ذلك التعامل الذي كان يتعامل به السلطان العثماني مع رعاياه من غير المسلمين طوال عهود الدولة منذ نشأتها وحتى نهايتها ، حيث كان ينبع من طبيعة نظام الملل الإسلامي الذي قسم سكان السلطنة والدولة العثمانية إلى مسلمين يدفعون الزكاة بكلفة أنواعها والخمس والعشر وغيرها ، ورعايا آخرين من غير المسلمين يقدمون الخضوع للسلطان العثماني والإدارة العثمانية ويدفعون الجزية ، مقابل الانتفاع بكافة حقوق المواطنين المسلمين فيها وحماية الدولة لهم في الداخل والخارج. ورغم ذلك فقد قابلوا هذه النعمة بالاشتراك في التمردات ، مثل تمرد بلاد المورة عام 1237هـ/1821م. ، وهذا الأمر يعد من الآثار السلبية لسياسة التسامح الديني .

فعندما قبضت السلطات العثمانية على رئيس المتمردين في بلاد المورة وبعض رفاقه وجدت معهم خطابات خطيرة ، فارسلت هذه الخطابات إلى الباب العالي⁽¹⁾، ولم يكن موظفو الباب العالي يعرفون اللغة اليونانية ، فأرسلوا هذه الخطابات إلى الديوان السلطاني لترجمتها ، وقام المترجمون الروم بتأويل ما في الخطابات وإخفاء حقيقتها ، وبالتالي لم يفهم أحد مضمون هذه الخطابات بشكل قاطع ، وقد اتضح هذا الموقف الخبيث الذي اتخذه المترجمون فيما بعد ، فلقو جزاءهم ، وقد ثبت أيضاً أن الترجمة والأمراء النصارى الأرثوذكس

⁽¹⁾ الباب العالي : هو قصر رئيس الوزراء أو مقر الحكم في الدولة العثمانية ، وقد أنشأه السلطان محمد الرابع سنة 1654م ، وأطلق فيما بعد اسم المكان على ساكنه ، وهو يعني الوزير الأعظم ، وكان للباب العالي في الدولة العثمانية أهمية كبيرة في القرن الثالث عشر الهجري، التاسع عشر الميلادي ، وعلى وجه الخصوص في عهد السلطان عبد العزيز والسلطان عبد الحميد الثاني وكان يطلق عليها قديماً اسم "باب الباشا" وهو الاسم الرسمي لمقام الصدر الأعظم ، وقد سمى به "قصر البasha" و"الباب الأصفر" ، و"باب الصدر الأعظم" ، و"قصر الميري" ، و"باب الوزير" ، وذلك حتى نهايات القرن الثامن عشر الميلادي ، إلا أنه في عهد السلطان عبد الحميد الأول (1774 - 1789م) أطلق عليه "الباب العالي" حيث أصبح علمًا عليه وألغى ما قبله ، انظر :

Ismail Hakki uzuncarsili : Osmanli Devletinde merkez ve Bahriye teskilati , isdabul , 1979, P.249-261

المحليين قد تعاونوا معًا ، وبذلوا الجهد لضمان عون فعلي من الدول الأوروبية ومن روسيا وفرنسا ، مدعين أن الروم يتعرضون للاضطهاد في الدولة العثمانية .⁽²⁾

لقد بدأت فكرة طرد العثمانيين من أراضي "بيزنطة" في الديوع والانتشار بداية هادئة، وأخذت تعمل عملها في التنفيذ ببطء دراسة ، وبدأ الروم في وضع الأسس والقواعد ، وعملوا الاستعدادات اللازمة لوضع الفكر العظمى ، يعني بدء إقامة دولة اليونان الكبرى موضع التنفيذ .

بعد هذه المكانة المتميزة التي وصل إليها المسيحيون في إسطنبول ، أصبحوا- خاصة بعد سيطرتهم على أعمال وزارة الخارجية العثمانية - هم العناصر الرئيسة لأعمال الشغب والتحريض ، حتى إنهم أطلقوا على تلك الفترة مصطلح "فترة الأفلاق الرومي" ، وهي الفترة التي أعدت بمهارة فائقة ، وبتفاف من الكنسية وتوصف هذه الفترة بأنها الملطخة بالدماء وبالسوء وبالوحشية على أهالي الدولة العثمانية وخاصة المسلمين منهم .

والحقيقة أن الهدف الذي سعى إليه المسيحيون وركزوا جهودهم عليه في إسطنبول ، هو ضمان استقلال اليونان ، وقد ثبت أن هؤلاء متعاونون مع البطريركية ، بل كانوا أيضًا في خدمتها وخدمة أهدافها سواء الخفية منها أم المعلنة.

وقد ثبت هذا ، عندما تعرضت البطريركية للتفتيش ، وقع في يد المسؤولين في الحكومة العثمانية وثائق مهمة ، وأوراق تحتوي على الاستعدادات السرية التي تقوم بها الدولة العثمانية في بعض الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية وحتى الدينية ، وقد حصلت الكنيسة على هذه الوثائق السرية الخطيرة من "أمراء الروم" ، الذي كانوا تابعين لكنيسة إسطنبول . وقد كانت الأكثرية من هؤلاء الروم التابعين لكنيسة إسطنبول ، ينتمون إلى جمعية "أتينك اتيريا"⁽¹⁾ التي أسست بهدف العمل على استقلال اليونان⁽²⁾

وهكذا نجد أن التخطيط المسيحي الأوروبي بدأ من داخل عاصمة الدولة العثمانية نفسها ، وبدأ بالتسامح والتهاون الديني والسياسي وخاصة مع الطوائف المسيحية الموجودة في الدولة ، ونتيجة الامتيازات التي حصلوا عليها سواء من الناحية الإدارية والقانونية والعمل

⁽²⁾ ثريا شاهين : مرجع سابق ، ص43 . محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص134 ، 135 .

⁽¹⁾ هي جمعية ثورية انتمى لها أغلب الروم وهدفها الأساسي الاستقلال عن حكم الدولة العثمانية بل العمل على تفتتها. ثريا شاهين: مرجع سابق ، ص46
⁽²⁾ مرجع سابق ، ص 46 .

والتنظيم داخل كنائسهم وبحرية كاملة ، أم تلك المناصب المهمة التي شغلوها داخل الإدارة العثمانية والقصر السلطاني بحيث استطاعوا من خلالها الوصول إلى أهدافهم السياسية والدينية ، والسعى لتحقيق تلك الأهداف ؛ نتيجة للثقة التامة التي نالوها من السلاطين العثمانيين على مر الزمان والعصور .

والواقع أن الدولة العثمانية قد أخطأت عندما وقعت في أتباع كنيسة إستانبول ، وأخطأ كذلك عندما لم تخضعهم لتفتيشها ورقابتها ، ولم تنتبه الدولة إلى ذلك الخطأ إلا بعد وضوح الرؤية تماماً من ناحية الخيانة التي سبق أن تم توضيحها وكشف خطوطها العريضة ، وعلى هذا كانت الدولة والإدارة العثمانية مضطرة لاتخاذ التدابير الازمة ، فمنعت تعين النصارى في إدارة الترجمة داخل الديوان السلطاني ، واستبدلت بهم العثمانيين ، ولكن كانت الدولة العثمانية قد خسرت الكثير من التسامح السياسي ولم تستطع الصمود أمام هذا التخطيط المسيحي واليهودي ، فاضطررت وضفت بدت حتمية سقوطها من أوائل القرن العشرين .

ومما لا شك فيه أن ذلك التسامح الديني أدى إلى تسامح سياسي من شكل آخر ونوع مختلف ، مما جعل هؤلاء الرعايا والأقليات غير المسلمة تظن أنها نالت استقلالها السياسي والديني داخل الدولة ، وكأنَّ من حقها التدخل في شؤون الدولة ، كما ظهر ذلك على الساحة السياسية منذ بداية القرن 13هـ / 19م ، فقد ازدادت حركة الاتصالات الأوروبية وتوغلها داخل أراضي الدولة العثمانية العربية والإسلامية وعلى سواحلها المختلفة .

وحاولت أوروبا وبشكل غير مباشر التدخل في شؤون الدولة العثمانية من خلال ذلك التسامح السياسي والسياحة والتجول في أراضيها ، والحقيقة أن التسامح الديني والسياسي كان له دور كبير و مباشر في مساعدة الدول الأوروبية للفكر في التدخل والتجول في الأراضي العربية بإذن وتصريح منها ، وقد استطاعت هذه الدول الحصول على المعلومات المطلوبة ، سواء في نشاطها التجاري الواسع ، أم الاكتشافات العلمية والبحث عن الثروات والمعادن داخل الأراضي العربية والإسلامية ، أم في إثارة الفتن للضغط السياسي على الدولة العثمانية وإضعافها من الداخل ، وبذلك يمكن لهذه الدول وبسهولة بالغة القيام بتقسيم حدودها ، كما أنها فرصة أيضاً لتدخل الفنادق في الشؤون الداخلية لهذه الولايات العربية ،⁽¹⁾ بالإضافة لتدخل القوى الأوروبية وتوجه سفنها ناحية السواحل العربية الإسلامية ،⁽²⁾ فكانت تلك السلبيات التي

⁽¹⁾ أحمد سالم : الرحلات الأوروبية وتأثيراتها على المنطقة والجزيرة العربية ، ص 227 .

⁽²⁾ مرجع سابق ، ص 227 .

ترتب من جراء التسامح الديني الذي انقلب فيما بعد إلى تسامح سياسي لهذه الأقليات وتدخلها في شؤون الدولة .

وتعتبر الامتيازات من أهم الآثار السلبية لسياسة التسامح الديني ، فمثلاً بذلك فرنسا مساعيها وجهودها الكبيرة لزيادة نفوذها وتقربها من الدولة العثمانية ، وخاصة تلك المساعي التي بذلتها في عام 942هـ / 1536هـ التي نالت فيها تصديق السلطان العثماني سليمان القانوني على الاتفاقيات والمعاهد التي تمت وأبرمت بين الدولتين ، ونالت فرنسا أيضاً من السلطان سليم الثاني 974هـ- 1566م / 1574م خلال حكمه على تأييده للامتيازات الفضلى لها ، أضف إليها بعض المواد الأخرى، ومنها إعفاء كل فرنسي يعيش داخل الأراضي العثمانية ، أو يمر عليها من خارجها من دفع الضريبة الشخصية المفروضة من الدولة ، وأن يكون لقناصل فرنسا - على وجه الخصوص - حق البحث عنمن يكون لدى العثمانيين في حالة الرق من الفرنسيين ، وإطلاق سراحهم، ومنها أن يقوم السلطان سليم الثاني برد ما تغتصبه سفن الممالك العثمانية التابعة له من السفن الفرنسية ومعاقبة المعتمدي ، ومنها أيضاً أن تقوم السفن العثمانية ، بمساعدة السفن الفرنسية متى أصابها أي خطر أو ضرر على سواحل الدولة العثمانية .⁽¹⁾ ومن هذه الامتيازات أيضاً ، أن يكون للفرنسيين جميع ما لأهل البناقة من الامتيازات التي حصلوا عليها سابقاً .

ولزيادة توثيق العلاقات والاتحاد بين الدولتين - العثمانية وفرنسا - اتفقا على ترشيح (هنري دوكالو) آخر ملك فرنسا للحكم في بلاد "بولونيا" ، ليكون للدولتين ظهيراً ونصيراً على النمسا وروسيا ، اللتين اتخذتا موقف العداء من الدولتين وخاصة العثمانية ، ولمّا تم ذلك دخلت "بولونيا" تحت حماية الدولة بالفعل.

هذه الامتيازات التي نالتها فرنسا جعلتها تقبض على موارد التجارة ومصارفها بالبحر الأبيض المتوسط وجميع البلاد التابعة للدولة العثمانية ، وأخذت ترسل بناء على هذه الامتيازات عدة إرساليات دينية تصيرية ، حيث يوجد المسيحيون ببلاد الدولة ، خصوصاً إلى بلاد الشام وأمدتهم بالنقود ، وأظلتهم بنفوذها ، ليسعوا في جلب القلوب نحوها ، وخاصة من الأهالي المسلمين في المناطق التي يتعايشون معهم ، ويجهدون في تعظيم اسمها و شأنها لديهم⁽²⁾.

⁽¹⁾ قيس جواد العزاوي : مرجع سابق ، ص 25-17 .

⁽²⁾ إسماعيل سر هناك : تاريخ الدولة العثمانية ، ج 1 ، ص 111 . محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص 225 - 226 .

والحقيقة أن هذه الامتيازات ، وما فيها من زيادة المواصلات والتسهيلات والتعارف كانت من الأسباب التي أدت بالدولة العثمانية إلى حالة من الضعف ، وذلك بسبب قيام القناصل والسفراء بالتدخل في أعمال الدولة الداخلية ؛ بدعوى رفع المظالم وإجراء العدالة ومحو التوحش وإبادة التعصب ، وغير ذلك من الألفاظ والأقوال التي اتخذوها سلاحاً لهم في بلاد المشرق العربي عموماً وفي الدولة العثمانية على وجه الخصوص .

و كان من نتائج هذه الامتيازات أن ضمّت كل دولة من دول أوروبا إليها طائفة من نصارى الشرق تحركها عند اللزوم ، وتصرّفها في منفعتها متى شاءت وحيث شاءت ، دون مانع يمنعها ، أو اعتراض من الدولة أو إدارتها .

وكانت هذه هي المرة الأولى ، التي استطاعت فيها دولة أوروبية وأجنبية - خاصة فرنسا - الحصول على ترخيص رسمي للعمل داخل أراضي الدولة العثمانية وبإرادتها وموافقتها الرسمية ، ومما لا شك فيه أن الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية لن تتأخر أبداً في استغلال هذا الترخيص المنووح من الحكومة العثمانية بعد أن انتظرته كثيراً ، وبناءً على ذلك قامت فرنسا تحت ظل هذه المعاهدات بإرسال عدة إرساليات دينية وبعثات كاثوليكية إلى كافة بلاد الدولة الموجود بها مسيحيون - خصوصاً من أتباع هذه المذاهب والطائفة في بلاد الشام - لتعليم أولادهم وتربيتهم على محبة فرنسا .⁽¹⁾

وأصبحت من عادة الدول الأوروبية استغلال الأحداث التي تلم بالدولة العثمانية ، لتحرير شروط خاصة بالحماية الدينية والسياسية على المسيحيين التابعين لطوانفهم ومذاهبهم عموماً . وبعد أن خسرت الجيوش العسكرية العثمانية أمام الجيش النمساوي ، وفرضت معاهدة "الكارلوفتش" عام 1111هـ / 1699م، اشترطت النمسا إضافة بند للمعاهدة المشار إليها ، وهو البند الثالث عشر ، الذي كان ينص على " السماح للنمسا وإدارتها بحراسة الأماكن المقدسة في القدس وغيرها" . وهذا يبين مدى خطورة الوصاية الأوروبية والغربية على المسيحيين الذين يعيشون داخل أراضي الدولة العثمانية وتحت ظل حمايتها وإدارتها . ووفقاً لمقتضيات نظام الامتيازات بين الدول ، فإن الفصلية الأجنبية تمتلك صلاحيات قانونية وسياسية ومحاكم خاصة على أعلى المستويات وهو أمر من الطبيعي أن يتبع للمسيحيين المتعاملين معها امتيازات حماية ، ويضمن لهم أعمالاً تجاريةً مربحة، وإعفاء من

⁽¹⁾ قيس جواد العزاوي : مرجع سابق ، ص86 .

الضرائب المختلفة في الدولة ، و إمكانية التعليم لهم ولأسرهم في مدارس الإرساليات التصيرية ، والسفر المجاني إلى أي دولة أوروبية . ولكي نتعرف على مدى الدور الخطير الذي أدته فرنسا في المشرق العربي والإسلامي، كان لابد من الإطلاع على المرسوم الصادر من (لويس الرابع عشر) الذي يقضي بوضع الطائفه المارونية تحت الحماية الفرنسية ، وقد صدر هذا المرسوم بتاريخ إبريل 1059هـ / 1649م .⁽²⁾ وقد عَدَ (لويس الرابع عشر) نفسه بإذن من السلطان - مسئولاً عن رعاية المسيحيين الكاثوليك في البداية ، وتطورت هذه الامتيازات مع الوقت مع ضعف الدولة العثمانية ، لتصبح حقوقاً مكتسبة للفرنسيين خاصة ، وللأوروبيين الذين دخلوا فيما بعد أطرافاً مشاركة في هذه اللعبة بشكل عام ، حتى بات السلطان العثماني ليس له سلطة إلا على المسلمين فقط ، فالحماية قد نالت كل المؤسسات الدينية والعلمية والاقتصادية المسيحية داخل الدولة العثمانية ، وفي شتى بقاع أراضيها وولاياتها العربية والإسلامية ، وكذلك المتعاونين مع الفنصليات حتى لو كانوا مسلمين ، وتم احتكار التجارة الداخلية والخارجية على حساب التجار العثمانيين الوطنيين ، وأصبح للسلع الأوروبية سيادة على السلع الوطنية ، وتراجع نظام الحرف والصناعات التقليدية أمام غزو السلع الأجنبية ، وازدهرت أحوال المتعاونين مع الفنصليات . ولنا أن نستدرك ونحن نسوق الأمثلة تلو الأخرى بأنه ينبغي لنا - حتى لا نغفل أثر عامل على حساب عامل آخر - الإمام بما آل إليه وضع الملل في السلطنة العثمانية ، والاعتراف بأن هذا الوضع لم يتشكل بسبب قوة العامل الخارجي، أو قدرة المسيحية الأوروبية على استقطاب المسيحيين الذين يعيشون على الأراضي العثمانية لخدمة مصالحها، من خلال تحقيق مصالحهم الذاتية والمادية فقط ، وإنما أيضاً بسبب مواقف السلاطين العثمانيين وسماحتهم وفرماناتهم المتناقضة حول مصير المسيحيين الشرقيين ، وهم الأكثر ولاءً للسلطنة بوجه عام ، دون الإقلال من أهمية التحولات الدولية الاقتصادية وانعكاساتها على السلطنة العثمانية وإدارتها الحكومية ، وهناك العديد من العوامل الأخرى التي لا يتسع البحث لذكرها . كل هذا ساهم في نجاح الاختراق الأوروبي للساحة الإسلامية .

ولا شك أن هذه الامتيازات ساعدت بشكل كبير على ازدياد الفكر الاستشرافي ؛ إذ قامت فرنسا بإرسال إرساليتها الدينية الكاثوليكية إلى كافة بلاد وولايات الدولة العثمانية التي يعيش فيها مسيحيون - وخصوصاً الولايات العربية وبلاد الشام - لتعليم أبنائهم وتربيتهم

⁽²⁾ مرجع سابق ، ص86 .

على حب فرنسا ، وكان من أهم نتائج هذه البعثات حفظ جنسية ولغة كل شعب مسيحي ، حتى إذا ضعفت الدولة العثمانية داخلياً وخارجياً استطاعت هذه الشعوب وطوائفها المسيحية الاستقلال والانفصال عن الدولة العثمانية وإدارتها ، وبمساعدة الدول الأوروبية والمسيحية ، وهذا ما حدث منذ القرن 12هـ-13هـ / 18م - 19م ، حيث ازدادت الحركات التمردية والانفصالية لهذه الطوائف ، وازدادت معها مشاكلها بالنسبة للدولة العثمانية ، مما زاد من ضعفها وسقوطها حينذاك .

إن هذه الامتيازات الأجنبية أتاحت سبيلاً لاختراق الأوروبي للبنية العثمانية ، وذلك بتحويلها لنظام الملل العثماني من نظام مثالي للتعديدية والحرفيات الدينية والسياسية في عصر عرف بحدة الصراعات والاضطهادات الدينية إلى نظام أسمهم بفضل تسامحه وخصوصيته في تسهيل ربط هذه الملل بالدول الأوروبية.

فقد تحول ولاءً أعداد كبيرة من المسيحيين الذين يعيشون على أراضي الدولة العثمانية إلى أوروبا ؛ نتيجة المنافع التي كانوا يتمتعون بها عن طريق القنصليات الأوروبية ، والارتباطات الكنسية ، ومع مرور الوقت فقد هؤلاء هويتهم العثمانية ، ليتحقوا بالهوية الأوروبية التي يؤكدتها قانون الوصاية ونظام الامتيازات الأجنبية .

وإن الامتياز الذي منح لفرنسا اتساع ليشمل دولاً أوروبية أخرى مثل النمسا وألمانيا وروسيا ، كل هذه الدول أدعت حقوقاً لها في حماية المسيحيين الشرقيين ، فقد ارتبطت مصالح المسيحيين الكاثوليك بفرنسا والنمسا ، ومصالح الروم الأرثوذكس بروسيا القيصرية والبروتستانت بأمريكا .⁽¹⁾

وعند هذا الحد بدأ التحول في بنية العلاقات العثمانية الأوروبية ، فقد تمكنت القنصليات الأجنبية في الدولة العثمانية من تحويل نظام الحماية الدينية إلى شبكة من المصالح والحماية الاقتصادية والسياسية والثقافية للطوائف المسيحية ، وكانت القنصليات بأمر وتشجيع من الحكومات تمنح البراءات لموظفيها والعقود لمترجميها المحليين وعائلاتهم ، بحيث يمكن أن ينعم هؤلاء بالحماية الفرنسية أو النمساوية أو السويدية أو غيرها .

وقد كان لقناصل الدول الأوروبية وموظفيها الدور المؤثر في تنفيذ مخططات بلادهم في المنطقة العربية والإسلامية ، فمنهم من كان يعمل على جمع أكبر قدر من المعلومات

⁽¹⁾ قيس جواد العزاوي : مرجع سابق ، ص89 .

السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، ومنهم من كان يعمل أيضاً عن إثارة الفتن وإشاعة الأخبار الكاذبة ، وهو ما توضحه الوثائق العثمانية المحفوظة في أرشيف رئاسة الوزراء بإسطنبول ، حيث ورد تقرير في إحداها بتاريخ غرة رجب 1265هـ / 22 مايو 1849م يتضمن أن القنصل الفرنسي الموجود في (جدة) لا عمل له إلا التجسس وتقصي أحوال المنطقة ، وقد تم التأكيد والتحقق من ذلك ، فالقنصلية الفرنسية هناك تقوم بتجنيد بعض الأشخاص العاملين على بعض السفن التجارية القادمة إلى ميناء (جدة) ؛ ليكونوا تحت الحماية الفرنسية ، ويسهل عليهم تنفيذ المهام الموكل بها إليهم لتزويد القنصلية بالأخبار مباشرة .⁽²⁾

وكان آخر نتائج هذا التدخل أن استعملت دول أوروبا الإرساليات الدينية لحفظ الجنسية واللغة عند كل شعب مسيحي ، حتى رأوا من الدولة ضعفاً ، سمح لهذه الشعوب طلب الاستقلال بمساعدة تلك الدولة أو الانضمام إليها ، كما حصل ذلك مراراً ، وقد ساعد على ذلك إغفال الدولة العثمانية وإدارتها أمر هذه الطوائف في كل ولاياتها وخاصة العربية والإسلامية ، وعدم التعرض لها فيما تشيعه من الدسائس ، وتبثه من المبادئ الفاسدة ، وهناك العديد من التقارير العثمانية التي تدل على ذلك وتكشفه ، فمنها تقرير بتاريخ 20 محرم 1309هـ / 24 أغسطس 1891م يفيد قيام إنجلترا بتأييد ومساعدة حركات التمرد والعصيان التي زادت بشكل كبير في مناطق مختلفة من الحجاز والجزيرة العربية ، والعمل على إثارة الفتن بين الأهالي هناك ، والسعى لفصل العرب عن الدولة العثمانية⁽¹⁾

ونتيجة آخر بتاريخ 27 رمضان 1322هـ / 4 ديسمبر 1904م ، بشأن قيام نائب الحاكم العام للهيئة ، ويدعى اللورد كرزون Lord Corazon ، التحول في خليج البصرة ، والتدخل في شئون البحرين ، وإفساد عشائر نجد بأفكاره⁽²⁾.

وبمجيء السلطان محمد الثالث كان على العثمانيين وهم حكام دولة شاسعة الأطراف ، أن يكيفوا وضع التوسع العرقي والديني على إيقاعات ، لم يسبق أن توفرت في بلدان إسلامية أخرى ، لا سيما وأن مجيء الحكم العثماني قد اصطدم بوجود طوائف دينية ذات كثافة سكانية أكبر وأضخم مما كان عليه المسلمون أنفسهم ، لذلك كان من واجب العثمانيين

⁽¹⁾ مرجع سابق ، ص 89 ، 91 . BoA "IR.DH. Tasnifi" No: 1106317 , IIB. 7265H.

⁽¹⁾ BoA . " Y. DRK . AZJ . Tasnifi" No: 53 / 51 , T.7.Z . 1323 H .

⁽²⁾ إسماعيل سرهنوك : تاريخ الدولة العثمانية ، ص 112 . 1309m . T . 20 . " Y.DRK. EsA. Tasnifi " No : 45 / 14 , H .

أن يوفروا لتلك الطوائف الدينية المتباعدة في مذاهبها كامل حقوقهم التي تكفلها لهم الشريعة الإسلامية ، وقد سار السلطان محمد الثالث على هذا النهج الذي تأمر به الشريعة الإسلامية ، فجاء في أحد فرماناته التي أصدرها السلطان محمد الثالث عام 1011هـ / 1602م ، مما يوضح تأكيد السلطان العثماني على أن الله رب العالمين قد أمر في كتابه المنزل حماية وضمان أمن واحترام أهل الذمة من اليهود والنصارى ، وهو ما يعده واجباً جماعياً ودائماً يفرض على المسلمين كافة ، وهو وبالتالي ضرورة ملحة يتحملها جميع السلاطين ، ثم يستطرد قائلاً : "إنه إذن من المهم الضروري أن تهتم عنايتك الملزمة بتعاليم الشريعة بكافة أفراد هذه الطوائف الدينية التي تقوم بسداد ما عليها من ضرائب ، حيث تعيش في كف حكمنا وخلافتنا السعيدة في أمن وأمان ، لا يضايقهم أحد ، ولا يمنعهم أو يمس حياتهم وأموالهم أحد..."⁽³⁾

وإن ما نهجه السلطان محمد الثالث ، هو الدليل القوي على أن هذا النهج استمر مع كل سلاطين الدولة العثمانية نحو الطوائف غير المسلمة .

وإذا كانت وضعية الذميين تحت أي حكم إسلامي تختلف من جهة لأخرى ، ومن زمان آخر ، فإن وضعيتهم خلال العهد العثماني ، قد اتسمت إلى حد كبير بالاستقرار والعيش في أمن ورخاء وتعايش مع المسلمين .

وقد سعى العثمانيون وسلاطين الدولة العثمانية على وجه الخصوص إلى تأمين الاتحاد مع جميع شعوب وطوائف ولايات الدولة العثمانية ، وبموجب مرسوم "كلخانة"⁽¹⁾ ،

⁽³⁾ حسن عزوzi : ملاحظات حول مسألة التسامح الديني في العهد العثماني ، ص348 .

⁽¹⁾ كلخانة : هي الساحة التي تمتد من قصر (بورنو) إلى أسوار (طوب قابي) ، والمطلة على البحر بباستانبول وسميت بذلك نظراً لكونها كانت حدائق للزهور . أما المرسوم الملكي الذي أطلق عليه "خط شريف كلخانة" ، فهو نسبة لقصر كلخانة (قصر الزهور) الذي قرأ فيه الصدر الأعظم "مصطفى رشيد باشا" فرمان السلطان عبد المجيد (1839-1861م) المشهور الذي أعلن فيه رسميًا البدء بإجراء تغيرات جذرية في جميع مؤسسات الدولة العثمانية ، وعدم التفرقة بين المواطنين في الحقوق ، دون النظر إلى أديانهم أو مذاهبهم أو انتمائهم القومي ، وذلك بحضور السلطان والوزراء وكبار علماء الدين والإدارة والجيش ، كما حضره بطاركة النصارى وحاخامات اليهود ورؤساء الطوائف وممثلو الدول الأجنبية في 3 نوفمبر 1839م (26سبتمبر 1255هـ) ، وجرى فيه التأكيد على ثلاثة نقاط رئيسية ، نوردها كما يلي :

أ) ضرورة إيجاد ضمانات لأمن جميع رعايا الدولة على حياتهم وأموالهم .

ب) ضرورة إيجاد نظام ثابت للضرائب يحل محل الإلتزام .

ح) ضرورة توفير نظام ثابت للجندية ، بحيث لا تستمر مدى الحياة . الواقع أن منشور (كلخانة) كان أول عهد دستوري في تاريخ الدولة العثمانية وضع قواعد الإصلاح على المبادئ الأوروبية ، من حيث أنه كفل تأمين شعوب الدولة على أرواحهم وأموالهم وأعراضهم ، مهما توالت ديانتهم وجنسياتهم ، كما أنه قرر نظماً جديدة لتقدير الضرائب وجباتها حسب الثروة والربح

فإن جميع رعايا الدولة العثمانية أياً كان جنسهم أو ديانتهم يوفر لهم الأمان التام فيما يتعلق ب حياتهم وكرامتهم مع احترام حقوقهم الشرعية ، جاء في مستهل الفرمان: "لا يخفى على عموم الناس أن دولتنا العلية من مبدأ ظهورها وهي جارية على رعايا الأحكام القرآنية الجليلة ، والقوانين الشرعية المنيفة بتمامها، ولذا فإن قوة ومكانة سلطتنا السنوية ، ورفاهية أهلها ، قد وصلت حد الغاية، ثم انعكس الأمر مائة وخمسين سنة ؛ بسبب عدم الانقياد والامتثال ، لا للشرع الشريف، ولا للقوانين المنيفة " ⁽²⁾

ثم يضيف الفرمان السابق ، ما نصه : " وتمتازسائر تبعية دولتنا العلية من المسلمين وسائر الملل الأخرى بمساعدتنا هذه الملوكية بدون استثناء ، وقد أعطيت من طرفنا الملوكى الأممية التامة في الروح والعرض والناموس ⁽¹⁾ والمال ، بمقتضى الحكم الشرعي لكل أهالي ممالكنا المحروسة " . ⁽²⁾

وهكذا أصدر الأمر العالى والتوجيهات الرسمية من الدولة وسلطانها بأن كل الطوائف والملل التي تعيش على أراضي عثمانية ، ويحكمها إدارة عثمانية ، هي تحت مظلة الحماية والأمن والحفظ على الأرواح والأموال ، بمقتضى الأحكام الشرعية ، ومثلهم في ذلك مثل بقية أهالي الدولة العثمانية سواء من المسلمين أم غيرهم .

ويعد ذلك التسامح الذي انتهجه السلطان محمد الثالث مثال يحتذى ، لكن ردة الفعل الأوروبية وخاصة المسيحية كانت عنيفة ضده ، والدليل على ذلك أنه لما وقعت في عهده بعض الأحداث على الحدود العثمانية الأوروبية عام 996هـ / 1587م ، وعلى حدود البوسنة عام 997هـ / 1588م مما دفع العثمانيين إلى توجيه أنظارهم نحو المجر ووقعت الحرب عام 1002هـ / 1593م ، واستمرت أربعة عشر عاماً ، حاول آل هابسبورغ استغلالها

، وكذلك نظماً جديدة لتقدير للخدمة العسكرية (التجنيد) وتحديد مدتها بخمس سنوات . وما يلفت النظر أن استصدار (خط شريف كلخانة) كان الثمن الذي حصلت عليه بريطانيا والدولة الأوروبية من السلطان العثماني في مقابل تسوية النزاع بينه وبين والي مصر (محمد علي باشا) ، الذي كان يريد الاستقلال والانفصال عن الدولة .
وينبغي ألا يفهم من ذلك أن الضغط الأوروبي بوجه عام والإنجليزي بوجه خاص ، كان هو وحده منشأ حركة التجديد والإصلاح العثمانية خلال القرن التاسع عشر ، فقد أسرهم في هذه الحركة عامل آخر ، هو افتتاح رجال الدولة المتأثرين بالثقافة الغربية ، بضرورة إصلاح جهاز الدولة وتتجديده على أساس اقتباس النظم الأوروبية . ولمزيد من التفاصيل انظر : Ismail Hamid Danismend : Osmanli Tarihi , volu 4, P127.

⁽²⁾ حسن عزوzi : ملاحظات حول مسألة التسامح الديني في العهد العثماني ، ص 348 .

⁽¹⁾ الناموس : معناها الفقه والاستقامة والعصمة والشرف . انظر: شمس الدين سامي : قاموس تركي ، مرجع سابق ، ص 1452

⁽²⁾ حسن عزوzi : ملاحظات حول مسألة التسامح الديني ، ص 349 .

لصالحهم في أوربا وسعوا لتصويرها على أنها صراع إسلامي مسيحي ، حتى إنهم نجحوا في استقطاب العديد من المتطوعين من بروتستانت وكاثوليك للانضمام إلى جبهة المجر المعادية للعثمانية، وأعلن الإمبراطور (رودلف الثاني) أن جيوشه هي الدرع الواقي لجميع المسيحيين، مما دفع السلطان محمد الثالث أن يقود الحرب بنفسه ، ونجح بجيشه في إلحاق الهزائم الواحدة تلو الأخرى بالألمان والجريبيين عام 1005هـ / 1596م⁽³⁾.

فإن ما فعله المسيحيون في أوربا من اضطهاد للمسلمين ، ووقوع الحرب السابقة في الوقت الذي تعامل فيه السلطان محمد الثالث بمنهجية التسامح مع الطوائف المسيحية داخل دولته لهو أبلغ دليل على ردة الفعل العنيفة .

ونتيجة لهذه الأوضاع المشابكة ، فإن أغلب الطوائف غير الإسلامية لجأت إلى تحويل ولائها إلى خارج الدولة العثمانية ؛ وذلك لارتباطها بالمصالح الأجنبية وانتقاعها بها ، ولكن ذلك لم يكن العامل الوحيد ، وإنما هناك عوامل أخرى كان لها تأثيرها على سياسة الدولة العثمانية الداخلية ، يمكن تلخيصها في عاملين :

أولاً : إن نظام " الملل العثماني " ، ومواد التنظيمات قد أسهمت بشكل كبير في الوقت نفسه في ازدياد التكتل الطائفي ، عندما منحت رجال الدين صلاحيات كثيرة، مكنتهمن من صيانة مفاهيم الطائفة ، فسهلت بذلك مهمة الاختراق الغربي للمجتمع العثماني بشتى فئاته .

ثانياً : ارتباك السياسة العثمانية ، إزاء الطوائف غير الإسلامية ، هذا بالإضافة إلى صراعاتها الأخيرة فيما بينها بعد أن أصبحت كل طائفة مرتبطة بدولة أوروبية، مما جعل الباب العالي يشغل بعمليه الفصل بين الخلافات التي تنشأ بين الطوائف والمنازعات التي تقوم بين الروم والكاثوليك والتابعين للكنائس الشرقية ، من جهة ، وبين البطريركية من جهة أخرى ، مما أعطى فرصة لتدخل الدول الأوروبية في هذا ، مثل مسألة القضية الأرمنية في الولايات التابعة للدولة العثمانية ، وفي مسألة طائفة البلغار الأرثوذكس.⁽¹⁾

ومهما يكن من أمر حول الاختلاف في إدارة الدولة العثمانية ، وما تضمنته هذه الإدارة طوال تاريخها الطويل من سلبيات وإيجابيات ، إلا أن الحقيقة تشير وبقوة إلى أن

⁽³⁾ J. Schmidt: The Egri Campaign od 1596, Military History and the Problem of sources . Habsburgische – Osmanische Beziehungen , ciepo , Vieme , 1985, P.125-144.

⁽¹⁾ قيس جواد العزاوي : مرجع سابق ، ص96 .

العثمانيين وسلطانهم قد بذلوا جهداً كبيراً لنشر الإسلام في أوروبا ، وكانوا يقيمون الأفراح إذا ما دخل فرد من المسيحيين في الإسلام طوعاً ، وهذا إن دل على شيء ، فإنما يدل دلالة قاطعة على غيرة هؤلاء العثمانيين على الدين الإسلامي والسعى في نشره بكل السبل ، أسوة بالصحابة الأوائل كانوا يحيون فيها من دخل طوعاً من المسلمين الجدد في الإسلام .

فكان المسلم الجديد يمتطي حصاناً ، ويطاف به في طرقات المدينة ، وهم في نسوة النصر ، فإذا توسموا فيه خلوص النية في تغيير دينه ، وعرفوا أنه دخل بمحض إرادته في حياض الإسلام ، أو كان شخصاً ذا مكانة طيبة ، استقبلوه بتكرييم عظيم ، وأمدوه بما يعينه في الحياة الاجتماعية الطيبة .⁽²⁾

ومما لا شك فيه أنه مع مرور الزمن ، وبسبب هذه الامتيازات التي سبق وأن حصل عليها الذميون في الدولة العثمانية ، والعديد من الطوائف المسيحية ، أسفرا ذلك الوضع عن نتائج تنتقص من حقوق الدولة العثمانية في السيادة ، وأرادت الأقليات رفع الصلاحيات القضائية المخولة لمحاكم الفنصليات ، لكن المحاولة باعت بالفشل ، حتى عندما أصدرت الدولة العثمانية قراراً عام 1333هـ/1914م من جانب واحد ، وألغت به كافة الامتيازات ، وأنهت الصلاحيات القضائية المخولة لمحاكم الفنصليات ، لم يلق هذا القرار القبول المناسب من الدول الأوروبية والغربية، فصار حبراً على ورق ، وكأنه لم يكن ، وكان هذا الأمر دليلاً على ما وصلت إليه الدولة العثمانية وسلطانها من عدم التصرف في أمورها السياسية الداخلية ، حتى في السيطرة على رعاياها من غير المسلمين ، وبذلك وأعطت الفرصة للكنيسة الأوروبية ودولها للتدخل في شئونها وشؤونها وشئونهم ، مما عجل بسقوطها⁽¹⁾ .

من الأدلة التي تثبت لنا مدى التسامح الذي كان يتعامل به سلطان الدولة العثمانية مع الطوائف المسيحية ، وبشكل رسمي في الدولة حتى في عصر الضعف، أنه كان لغير المسلمين في مجلس "المبعوثان" ⁽²⁾ خمسة عشر مقعداً للنصارى الأرثوذكس ، وخمسة

⁽²⁾ إسماعيل ياغي : مرجع سابق ، ص 253 .

⁽¹⁾ Seha L. Meray : Devletler Hukukuna Giris, Ankara, 1968, vol .I. P. 242 .

⁽²⁾ هو مجلس النواب العثماني ومقره إسطنبول ، وكان يتشكل من أعضاء الدولة العثمانية في مختلف الولايات التي يشملها التقسيم الإداري العثماني ، انظر : شمس الدين سامي : قاموس تركي ، مرجع سابق ، ص 1270 .

عشر مقعداً للنصارى الأرمن ، وخمسة مقاعد لنصارى العرب ، وبالإضافة إلى هؤلاء ، كان في المجلس عدد من النواب اليهود.⁽³⁾

أثبت التاريخ - فيما بعد - أن مبدأ التسامح الديني الذي تعاملت به الدولة العثمانية مع رعاياها من غير المسلمين ، قد أدى إلى تسرب عدد من المنافقين الذين يظهرون الإسلام ، ويبطون الحقد والكراهة له ، إلى مراكز ومناصب الدولة العليا ، مما عاد على المدى البعيد بالضرر الشديد على الدولة العثمانية ، وخاصة في ولاياتها العربية والإسلامية ، بل كان أحد الأسباب الرئيسية في انهيارها والقضاء عليها ، لذا فإن هذا التسامح ينبغي أن يسجل على أنه نقطة إيجابية لصالح العثمانيين الأتراك المسلمين ، تؤكد صدق التزامهم بالإسلام ومنهجه وشريعته ، الذي جعل رابطة الدين ، وأواصر العقيدة ، فوق أية روابط عنصرية أو عرقية أو قومية .

فلا ينبغي أن يوجه اللوم إلى العثمانيين المسلمين الذين التزموا بما يفرضه عليهم إسلامهم ، فترفعوا عن العصبية القومية والعنصرية والعرقية ؛ امثلاً لهدي نبيهم ﷺ القائل : " دعواها فإنها منتة " ، وقد كان بإمكانهم أن يظهروا تعصباً لانتسابهم القومي كأتراك ، لكنهم أثروا الالتزام بما يفرضه عليهم الإسلام من معاملة جميع المسلمين على قدم المساواة ، وتوفير الفرص أمامهم من غير استثناء ، ليعطوا بذلك الدليل الساطع على أنهم ارتفعوا بأنفسهم فوق مستوى عصبية الانتفاء القومي ، وارتقا بها إلى رحاب الانتفاء العقائدي الشامخ⁽⁴⁾.

ولم يكن العثمانيون لينجحوا لولا سياسة المساواة والتسامح الديني التي مارسوها بين جميع رعايا الدولة ، وخاصة رعايا الدولة من غير المسلمين ، حيث قام العثمانيون بالتنظيم المالي بينهم ، وسنت القوانين بشأنهم ، وانتظمت الطوائف تحت قانون وسيادة عثمانية واحدة . وأدى هذا النوع من التنظيم إلى أن يصبح الرؤساء الدينيون رؤساء الملل ، وممثلين لطوائفهم في أمور الدين والقضاء على السواء ، ولهم صلاحيات الإدارة ، ومن ثم فهم المسؤولون عن طوائفهم ، والممثلون لها أمام السلطات العثمانية⁽¹⁾ ، ولهذا استطاعت تلك الطوائف أن تتمتع بقدر معين من الحكم الذاتي .

⁽³⁾ زياد أبو غنيمة : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين ، ص85 ، نفلاً عن الأمير شبيب أرسلان الذي كان نائباً في هذا المجلس.

⁽⁴⁾ زياد أبو غنيمة ، مرجع سابق ، ص 64 .

⁽¹⁾ H.A.R . Gibb – Harold Bowen : Islamic Society and the west, volum III, P.212-213 .

على أن أهم نتائج سياسة التسامح الديني عدم فرض الإسلام على المسيحيين في أوروبا ، والحقيقة أنه لم تنجح الدولة العثمانية ولا إداراتها المنتشرة في معظم أراضي العالم شرقه وغربه نجاحاً كلياً في نشر الإسلام بين جميع رعاياها المسيحيين ، في ولاياتها الأوروبية على وجه الخصوص، بل حققت نجاحاً محدوداً في مجال الدعوة الإسلامية ، وإن كانت قد تركت الدولة العثمانية بصماتها قوية وواضحة في مجال نشر الدعوة الإسلامية في أوروبا ، فعلى امتداد قرون وتعاقب عصور ودهور ، ظلت جماعات إسلامية تعيش حتى اليوم في أوروبا، ولم تغير دينها بأي شكل من الأشكال رغم الضغوط التي بذلت من قبل الدول الأوروبية لتحويلها إلى المسيحية ، ولم ترض هذه الجماعات الإسلامية عن دينها بديلأً . الواقع أن الوجود العثماني في أوروبا قد عجز عن أن ينبع جذوراً راسخة في الأرض بسبب إتباعه لسياسة التسامح الديني ، خاصة حين بدأ الضعف يتسلل إلى الدولة وإدارتها، ومن هذه الجذور الاندماج والانصهار ونشر اللغة العربية والثقافية الإسلامية التي تحفظ للإسلام وجوده إذ لا يوجد روابط حضارية تربط بين العثمانيين وبين تلك الشعوب الأوروبية ، المختلفة في اللغة والأديان والمذاهب وحتى الطوائف ولكن سياسة التسامح الديني حالت دون ذلك .

فاما زال أثر الوجود العثماني من أوروبا كلها ، لم يخلف من بعده أثراً ذا بال ، وأهمية تذكر سوى بصمات في بعض الأقاليم البلقانية⁽²⁾.

ولعل أبرز دليل على انقلاب نتائج سياسة التسامح الديني على الدولة العثمانية الثورة اليونانية ، حيث يتضح أن أوروبا كانت حريرصة على تمزيق الدولة العثمانية من كافة جوانبها السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والدينية وتجير الثورات الداخلية بدعمها المادي والمعنوي ، وذلك بإثارة الفتنة الطائفية والدينية داخل ولايات الدولة العثمانية المختلفة ، وكانت بلاد اليونان تشكل جزءاً من ديار الإسلام، ويؤذن في مدنها وقرائها للصلوات الخمس في اليوم والليلة قروناً طويلاً، وكانت تحكم بالشريعة الإسلامية، لذلك شرع زعماء النصارى في تأسيس جمعيات سرية في داخل بلاد اليونان وفي روسيا وغيرها، وكان الهدف من تأسيسها هو إحياء الإمبراطورية البيزنطية القديمة، على أن تكون تحت إدارة البطريركية والأرثوذكسية الرومية في إسطنبول، حتى أصبح كثير من البطاركة والقساوسة ورجال الدين، أعضاء أصلبيين في هذه الجمعيات السرية المناهضة للدولة العثمانية، وقام رجال الدين

⁽²⁾ إسماعيل ياغي : مرجع سابق ، ص 252-253.

باستخدام نفوذهم على الشعب وتحريكم للثورة ضد الدولة العثمانية ؛ لما للقساوسة ورجال الدين من صلاحيات وثيقة بزعماء الدولة الأوربية وخصوصاً روسيا⁽¹⁾.

هذه هي سياسة التسامح الديني التي كانت تعامل بها الدولة العثمانية مع كل أهل الذمة الذين عاشوا في أرضها وتحت إدارتها وحكم سلطانها ، فحصلت الكنيسة على العديد من الامتيازات داخل الدولة ، وحصل رجالها على العديد من الصلاحيات والامتيازات التي كانت سبباً في هدم الدولة العثمانية في أواخر عهدها، فانقلب ذلك التسامح ضدها ، وبدأ رجال الكنيسة وساسة أوروبا في العمل معاً لإسقاط الخلافة العثمانية ، وإنهاء الدولة الإسلامية من الوجود العالمي ، وأصبحت ذكرى بعد أن كانت تأريخاً - كما سنرى في السطور القادمة - كذلك التسامح الديني مع اليهود والمسيحيين جعل أقلامهم الاستشرافية تتبرى للكتابة عنها ، وتشويه تاريخها ، وكان هذا اعترافاً منهم بالجميل الذي تمثل في الحرية الدينية التي تتمتعوا بها في ظل الخلافة العثمانية !! .

⁽¹⁾ علي محمد الصلايبي : الدولة العثمانية ، عوامل النهوض وأسباب السقوط، الطبعة الأولى، دار البيارق، 1420هـ - 1999م، ص574.

لا شك أن ظهور الدولة العثمانية على مسرح الأحداث السياسية أوجد ردة فعل عنيفة لدى أوروبا ليس فقط على الصعيد العسكري وإنما أيضاً على الصعيد الفكري مما ساعد على إزدهار حركة الاستشراق الذي اتضح فيما يلي:

- (١) ظهور عدة شخصيات منذ ق ٧ / ١٣١ م ساعدت على دفع عجلة الاستشراق باتجاه تحقيق أهدافها ، مما نتج عنه نشاط حركة التجسس ، وجمع المعلومات التي أفادت الاستعمار فيما بعد حيث قدمت المستعمر ما يريد عن البلاد التي يضعها نصب عينيه .
- (٢) وصول المستشرقين تباعاً إلى داخل مركز الخلافة العثمانية الإسلامية بعد حصول الدول الأجنبية على امتيازات خاصة لرعاياها المسيحيين فيها ، مما أدى إلى تخصص بعض المستشرقين فيما بعد في تاريخ الدولة العثمانية مثل (برنارد لويس) و(ستانفورد شو) واتخاذهم من الكتابة التاريخية وسيلة للطعن في الدولة العثمانية .
- (٣) حصول الدراسات الاستشرافية على الدعم المادي الضخم من الكنيسة متمثلة في البابوية والحكومات وحتى المؤسسات الخيرية ، فنتج عنه تمنع مادة التاريخ الإسلامي بمكانة مميزة بين المقررات الدراسية في الجامعات الأوروبية ومراكز دراسات الشرق الأوسط .
- (٤) تمامي أعداد كراسى الاستشراق في الجامعات الأوروبية بشكل كبير ، وما صاحب ذلك من زيادة مراكز للدراسات الشرق أوسطية مع زيادة أعداد المجلات والدوريات العلمية التي تنشر الأبحاث الاستشرافية وتروج لها.
- (٥) الباعث الأول والأساس كان للاستشراق باعثاً دينياً ، للتعرف على الدين الإسلامي ومن ثم محاولة تغيير المسيحيين منه ، لذلك نشأ الاستشراق في أحضان الكنيسة ، وما شجع الدراسات الاستشرافية أيضاً وجود الدعم المادي والمعنوي الدائم والمستمر .
- (٦) عملت الكنيسة بكل جهدها على تشجيع الاستعمار ، وفي سبيل تحقيق هذا الهدف شجعت الرحالة القساوسة والرهبان على الرحلات الاستكشافية في البلاد الإسلامية

لجمع المعلومات اللازمة للمستشرقين ودعمًا للغزو الفكري، وتواصل هذا الدعم طوال القرون الماضية حتى توج في عصر الدولة العثمانية .

(٧) تفكك الكنيسة داخلياً ، إذ أن الصراع المذهبي الذي دار بين الكاثوليك والأرثوذكس جعلها تفقد كثير من مكانتها عند الشعوب المسيحية ، مما أدى إلى ترحيب هذه الشعوب المضطهدة بالعثمانيين المتسامحين .

(٨) وضع البابا (جريجوريوس) الشروط التي لابد للدراسات الاستشرافية من بدايتها حتى تصل إلى مبتغاها ، متخذًا من الكنيسة مقرأً لحياء المؤامرات والدسائس ، والتجسس بكافة الوسائل على الدولة العثمانية .

(٩) روح الإسلام التي تحلت بها الدولة العثمانية ساعدت على زيادة الأعداد المسيحية التي دخلت في الإسلام ، مما أدى إلى زيادة العداء من أوروبا يتقدمها البابوات والكنيسة فجاءت ردة فعلهم عنيفة وقوية تمثلت في الأحلاف الصليبية بعد انتصارات العثمانيين وتفوقهم عسكريًا ، والكتابات الاستشرافية التي ساعدت على إذكاء روح العداء على الإسلام .

(١٠) بدأت ردود الفعل العنيفة في أوروبا منذ عهد السلطان أورخان ، وتصاعدت موجة الأحلاف الصليبية منذ عهد السلطان مراد الأول ووصولاً إلى محمد الفاتح و سليم الأول و سليمان القانوني . وأغلب هذه التحالفات تكونت بدعم من الكنيسة وعلى مرأى من البابا الذي باركها جميعاً ، بشرط أن تقدم له خدمات وتحقق طموحات معينة له .

(١١) بدأت الكتابات الاستشرافية في الظهور ونفت سموها في أحداث التاريخ العثماني ، خاصة في أعقاب سقوط القسطنطينية وكأنها حجة المغلوب ، ثم صُقلت الكتابات الاستشرافية التي هاجمت الدولة العثمانية وسلامتها وأخذت طابعًا سافرًا وردئًا .

(١٢) تجلى هذا الطابع عندما تناولوا تاريخ السلطان عبد الحميد الثاني في أعقاب إسقاط حكمه ، واتخاذهم لكثير من التدابير حتى يشوهوا صورته أمام شعبه، بأحداث خيالية لم تحدث إلا في ردهات عقولهم ، ونسوا تاريخهم الأسود مليء بالفظائع والمذابح والتعصب .

(١٣) جاءت سياسية التسامح الديني في الإسلام ضمن الشرائع الأساسية ، وقد انتهجتها الدولة العثمانية في تعاملها مع أهل الذمة .

(١٤) عاش على الأرض العثمانية كثير من المسيحيين واليهود وغيرهم من الطوائف التي تمنتت بكافة امتيازاتها منذ بداية عهد الدولة العثمانية وتوجت وصفلت سياسة التسامح الديني وبلغت ذروتها في عهد محمد الفاتح ، فنالوا وظائف عليا في الدولة ، ومارسوا شعائرهم الدينية بمنتهى الأمان وزادت أعدادهم بشكل ملحوظ وحظي أهل الذمة بمكانة إقتصادية عالية و إمتيازات تجارية لم ينالوا مثلها في ظل دولة أخرى .

(١٥) أساءت الكنيسة استخدام هذه الحرية الدينية ، وذلك لتحقيق مأربها ومخططاتها السياسية، فانتشرت المدارس التصويرية ، وحظي أهل الذمة بمكانة إقتصادية عالية و امتيازات تجارية لما ينالوها في ظل دولة إسلامية أخرى وتحولت دور الفنصليات إلى تنفيذ مخططات بلادهم في الولايات العثمانية ، مما نتج عنه إثارة النعرات القومية لتشجيع الانفصال عن الدولة العثمانية .

(١٦) في الوقت الذي كانت فيه الدولة العثمانية تمارس سياسة التسامح الديني بمنتهى البساطة، حتى بات جزءاً أساسياً من سياستها فشلت أوروبا في تخطي عقبة التسامح الديني ، ولو على الأقل مع أصحاب المذاهب الأخرى من الديانة نفسها ، ولو لا أن الدولة العثمانية طبقت سياسة التسامح الديني مع الأقليات المسيحية في البلاد التي فتحتها، لما وجدنا أي مسيحي في هذه البلاد ، ولا خفت المسيحية من اليونان وبلاط المجر مثلاً ، كما اخترق الإسلام من الأندلس .

الفصل الثاني

تاريخ دائرة المعارف الإسلامية

المبحث الأول :

التعريف بدائرة المعارف الإسلامية

المبحث الثاني :

**المستشرقون الذين كتبوا في دائرة المعارف الإسلامية عن
الدولة العثمانية ، دراسة وتحليل .**

المبحث الثالث :

**دور المؤرخين اليهود في توجيه منهج الكتابة التاريخية عن
الدولة العثمانية .**

المبحث الأول :

التعريف بدائره المعارف الإسلامية

عمل الأوروبيون متكتلين على مهاجمة الإسلام عامة والدولة العثمانية خاصة بحملات صليبية عسكرية ، وعندما لم تنجح هذه الحملات لجأوا إلى الجوانب الفكرية وتشويه الإسلام وتاريخه وثوابته.

العداء للإسلام من الناحية العلمية يأتي من تجاهل هؤلاء المستشرقين لحقيقة الإسلام وجهلهم باللغة العربية ، والعداء ظاهرة إنسانية صادرة من الحقد والحسد والضغينة ، وهذه الأمور عادة ما تدفع الإنسان إلى الظلم والتعسف ، وعدم الإنصاف بقصد قهر الطرف المعادي والاستعلاء عليه . ونحن ندرك أهداف المستشرقين وأغراضهم ، ومن أجل ذلك لن ينصفوا الإسلام ويقولوا الحق ؛ ومن هنا يمكننا القول بأن الموضوعية لا يمكن أن تقوم لها قائمة في ظل العداء والحدق؛ لأن التفكير العدائي الموروث من الصليبية القديمة مستحوذ على اتجاهات المستشرقين وطريقة تفكيرهم ، لذا فهم ليسوا من العدل في شيء ؛ ولهذا فمنهجهم ليس منهجاً علمياً ؛ لأن موجه حسب التفكير القديم عن الإسلام . أما من لهم إمام ببلاغة وبيان اللغة العربية - وهم قلة - فهم سكوت عن المفتريات ضد الإسلام من قبل المستشرقين ، ولذا فهم ليسوا أفضل حالاً من غيرهم ، وقد كان من المفترض أن تخفي ظاهرة التعصب الديني والعداء المبني على ظواهر غير حقيقة ، بناء على هزيمتهم في الحروب الصليبية ، لكنهم اتجهوا إلى الحرب الفكرية والتشويه بجانب الحرب العسكرية .⁽¹⁾

إن الدراسات الاستشرافية الحديثة تسعى دائماً إلى بث الشعارات البراقة التي تأخذ النفس ، وتأثير فيها ، مثل شعارات القومية والحرية الفكرية والتحرر والديمقراطية ، وهذه الحرية الفكرية يقصد بها التحرر من أي التزامات وقوانين سماوية ونظم اجتماعية فاضلة ،

⁽¹⁾ عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص122 ، 123 .

إنما تسعى جاهده إلى التعديل التقافي لشعوب البلدان الإسلامية ، بل وتطمح إلى تعديل النظم السياسية لإدخال الخطط السياسية ، والاقتصادية والاجتماعية التي تحقق أهداف الاستعمار ؛ ليتمكن بعد ذلك من إخضاع البلاد الإسلامية لهيمنة الغرب وسلطانه .

و عمل المستشرقون على هدم الثقافة الإسلامية ، فاتخذوا عدة وسائل لتزييف التاريخ ، و تصوير حملات الباطنية والقراطمة على أنها حركات ثورية إصلاحية ؛ فيؤدي ذلك لهدم الصحوة الإسلامية بما توجده من خلافات في صفوف المسلمين بسبب مناداة أهل الباطل بصحبة هذه الحركات ؛ فتثور ثائرة أهل الحق فيتصدى الحاكم لهم ، ويتخذ الإجراءات العنيفة في قمع الحق (التمرد) بما يذيعه من تدليس ، وتشويه لحقيقة الصحوة الإسلامية ، وبذلك تكون الغلبة لظهور هذه الحركات . ولعمل الدعاية اللازمة لهذه الحركات العقائدية الفاسدة وسخرت أقلام المستشرقين لتأليف الكتب والمقالات التي تركزت على وصف الحركات السيئة في صورة جيدة وكأنها حركات نقدمية .⁽¹⁾

ومع ظهور الدولة العثمانية وفتحاتها في أوروبا ونشر الإسلام دخل الاستشراق مرحلة مميزة ولامعة حيث ازدادت روح التتعصب الصليبية ، ويوضح هذا الأمر أكثر من خلال ما قاله جوستاف لوبيون: " لا جرم أن أتباع محمد ﷺ كانوا خلال قرون طويلة من أخوف الأعداء الذين عرفتهم أوروبا، فكانوا بتهديدهم للغرب في عهد شارل مارتل وفي الحروب الصليبية ، وبعد دخول العثمانيين الآستانة ، يذلوننا بحضارتهم السامية الساحقة ، وقد تركت الأوهام الموروثة المتسلطة علينا والناقمة على الإسلام وأشياعه عدة قرون حتى أصبحت جزءاً من نظامنا "⁽²⁾

ومما يصدق المعلومة السابقة قول المؤرخ الهندي المسلم خودا بخش عن أثر حقد الأوروبيين على العثمانيين في ازدياد الاستشراق وروح كراهيته للإسلام والمسلمين : " حينما ظهر العثمانيون بمظاهر حماة الإسلام بعد سقوط الخلافة في بغداد بدأ دور جديد من صراع الإسلام والمسيحية ، أما الكنيسة الغربية فقد دفعها حرصها على انتشار العقيدة الكاثوليكية ، وخوفها وغیرتها على الدولة البيزنطية إلى تنظيم حملات صليبية للانتقام من

⁽¹⁾ عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص 146 ، 147 .

⁽²⁾ علي حسين الخربوطي : مرجع سابق ، ص 46 . نقلًا عن جوستاف لوبيون : تاريخ الحضارة الإسلامية .

الأتراك لما اقتربوه ضد المسيحيين ، وكان غرض هذه الحملات الحقيقي مقاومة الإسلام المتزايدة " ⁽³⁾

يرسم كرد على صورة لأحقاد أوروبا على العثمانيين مما أدى إلى تعصب فكري وديني وقومي في كتابه " : وبديهي بعد هذه الأحقاد خصوصاً بعد أن هزت الدولة العثمانية في العصور الأخيرة أعصاب أوروبا زماناً أن يقول الخصم في خصمه ما قد يحظر من قدره ، ويصغر من أمره . ولا يفوتنا أن الجهل كان فاشياً في الغرب ، وأن الدين كان مسيطرًا على كل عالم وباحث ، وأصبحت آراء المؤرخين تختلف في الجوهر والعرض في الحادثة الواحدة، وكان من مظاهر هذا العصر اشتداد سلطان التعصب القومي " ⁽¹⁾

هذه باختصار نظرة المستشرقين للعثمانيين ، ومدى حقدهم وكراهيتهم للإسلام والمسلمين بصفة عامة ، وتتجلى هذه الصورة في أهداف المستشرقين الدينية والسياسية التي كان أثرها واضحًا على جميع كتابتهم ومن أهم أهدافهم التي تتطبق على طريقة تناولهم للتاريخ العثماني:

١) محاربة الإسلام ، والبحث عن نقاط الضعف فيه وإبرازها ، والمحاولة من الحط من قدره ومنزلته على أساس أنه مأخوذ من اليهودية والنصرانية .

٢) حماية المسيحيين من الإسلام بحجب الحقائق عنهم ، واطلاعهم على نفائص مزعومة، وتحذيرهم من خطر الاستسلام للإسلام.

٣) العمل على تصوير المسلمين . ⁽²⁾

٤) إضعاف ثقة المسلمين بدينهم ، وبث روح الشك في كل ما بين أيديهم من عقيدة وقيم ومثل عليا ؛ ليسهل على الاستعمار تشديد وطأته عليهم ، ونشر ثقافته الحضارية فيما بينهم .

٥) إضعاف روح الإباء الإسلامي بين المسلمين في مختلف أنحاء العالم الإسلامي بإحياء القومية التي كانت موجودة قبل الإسلام، وإثارة الخلافات والنعرات لمنع

⁽³⁾ خودابخش : الحضارة الإسلامية ، ط1 ، مصر : مطبعة الحلبي ، 1960م ، ص39 .

⁽¹⁾ محمد كرد علي : الإسلام والحضارة العربية ، ج 1 ، ط3 ، مصر ، 1968م ، ص30 .

⁽²⁾ محمود حمدي زقزوق : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، ص75 .

اجتماع شمل شعوبها ووحدة كلمتها ، وتصيد الأحداث الفردية في التاريخ؛ ليضعوا تاريخاً جديداً يناسب أهدافهم .⁽³⁾

٦) تسيطر على كتاباتهم البدع الدخيلة على الدين الإسلامي ، باستفاضة مثيرة ، وباستخدام أساليب الكذب المقنعة ، حتى يظن القارئ أنها من أصول الإسلام ، وحقائقه الثابتة وليس دخيلاً. وهناك قصد متعمد في الجمع بين الأساطير والبدع وحقائق وثوابت الشريعة الإسلامية .⁽¹⁾

ولتحقيق هذه الأهداف المشوهة ، عملوا بشتى الوسائل لنشر سموهم بين المسلمين وفي الكتب حتى لا يصبح للحقيقة مكان ، فقد دأبوا بمنتهى الصبر على العمل للوصول إلى أهدافهم ، ومن هذه الوسائل :

- ١) إصدار المجالات الخاصة ببحوثهم حول الإسلام وببلاده وشعوبه .
- ٢) إرساليات التصدير إلى العالم الإسلامي لتزاول أعمالاً إنسانية في الظاهر كالمستشفيات والجمعيات والمدارس والملاجئ ، ودور الضيافة كجمعيات الشباب المسيحية .
- ٣) إلقاء المحاضرات في الجامعات والجمعيات العلمية ، ومن المؤسف أن أشدhem خطراً وعداءً للإسلام تتم دعوتهم إلى الجامعات العربية والإسلامية في القاهرة ودمشق وببغداد وكراشي ولاهور وغيرها ؛ ليتحدثوا عن الإسلام !
- ٤) استطاعوا شراء عدد من الصحف المحلية في بلادنا ؛ ليبيتوا سموهم بين المسلمين . وخير مثال على ذلك استغلال الصحافة المصرية للتغيير عن الآراء المسيحية أكثر مما استطاعوا في أي بلد إسلامي آخر مستغلين وجود الأقلية المسيحية بها .
- ٥) عقد المؤتمرات لإحكام خططهم في الحقيقة ، ولنشر أبحاثهم العلمية في الظاهر ، وما زالوا يعقدون المؤتمرات منذ عام 1198هـ/1783م حتى الآن .
- ٦) تأليف الكتب في موضوعات إسلامية شتى ، في علوم القرآن الكريم ، والعقيدة ، وعن الرسول ﷺ والسنة النبوية المشرفة ، وفي التاريخ الإسلامي . وجاء أكثرها محرفاً تحريفاً متعمداً في نقل النصوص أو بترها ، وفي فهم الواقع التاريخية ، والاستنتاج

⁽³⁾ مصطفى السباعي : مرجع سابق ، ص30

⁽¹⁾ الإستشراف . الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، 2009م . <http://www.SaadNet.com>

منها . وعلى رأس هذه الكتب إنشاء دائرة المعارف الإسلامية⁽²⁾ التي تعتبر تتويجاً لجهود المستشرقين على مر أعوام طويلة ، فقد تناولت الإسلام بكل ما فيه من عقبة ، ونظم وتشريع ، وتاريخ ولغة وآداب . وكتب أساطير المستشرقين الذين تنوّعت أهدافهم وتدخلت عن التاريخ الإسلامي ، لكن النتيجة التي وصلوا إليها أنهم كانوا الفئة الأشد عداء للإسلام . وملئت هذه الموسوعة بالأباطيل عن الإسلام وما يتعلّق به .

وهي موسوعة أخرجت للقراء في بداية القرن 14 هـ / 20 م على هيئة أبحاث منفصلة ، مرتبة فيها المواد حسب الحروف الهجائية ، وصدرت منها طبعتان ، ترجمت إلى اللغة العربية . وقد احتوت هذه الموسوعة على كمٌ هائل من المصطلحات في العقائد والفقه ، واللغة والفرق ، والتصوف والفلسفة ، وحوّلت أيضًا ترجم لعامة الشخصيات المشهورة في تاريخ الإسلام ، وتوفّرت بها معلومات كثيرة عن اللغة والتاريخ والبقاء والقبائل .⁽¹⁾

وتحمل هذه الموسوعة في صفحاتها صورة سيئة ومشوهة عن الإسلام والمسلمين والعرب . ومثل هذا النتاج يشكل خطراً كبيراً على الدعوة إلى الإسلام ؛ لأنها تجعل مهمة الداعية أمراً ليس يسيرًا في تغيير صورة الإسلام المشوهة والسيئة التي رسّمها المستشرقون عن الإسلام بقصد الحيلولة دون قبول الإسلام واعتنقه من قبل غير المسلمين ، ناهيك عما تقوم به الحملات التصويرية ذات الصلة القوية بالاستعمار والاستشراق من تصوير المسلمين.⁽²⁾

وقد اعتبرت الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة دائرة المعارف الإسلامية من أبرز وأهم مؤلفات المستشرقين ؛ لما احتوته من آراءهم وأفكارهم المشوهة لكل ما يتصل بالإسلام .⁽³⁾

تعد دائرة المعارف الإسلامية من أهم مؤلفات المستشرقين على الإطلاق ، ويرجع ذلك لأسباب متعددة ، منها :

⁽²⁾ مصطفى السباعي : مرجع سابق ، ص34، 35 . وسائل المستشرقين . التوحيد . 2008/8/17 م .

. http://www.Eltwhed.com

⁽¹⁾ خالد عبدالله القاسم : العقيدة الإسلامية في دائرة المعارف الإسلامية ، رسالة دكتوراه لم تطبع ، كلية الشريعة ، جامعة أم القرى ، ص 17 ، 18 .

⁽²⁾ عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص17 .

⁽³⁾ مانع حماد الجنهي : مرجع سابق ، ج 2 ، ص702 .

- (١) العدد الكبير من أساطين المستشرقين المساهمين فيها .
- (٢) كبر حجمها ، وتنوع المعارف فيها .
- (٣) استمرارية إخراجها وانتشارها ، وتنوع لغاتها حيث خرجت بالإنجليزية والفرنسية والألمانية ، وقد ترجمت إلى العربية والأردية والتركية وغيرها من اللغات .^(٤)
- (٤) أنها تحمل اسم الإسلام (دائرة المعارف الإسلامية) مما يجعل الجميع يطلع عليها ، وهي بعيدة كل البعد عن صفة الإسلام .

ونتيجة لهذه الأسباب أصبحت هذه الموسوعة مرجعًا لكثير من الباحثين ، وذلك :

- (١) لوفرة المعلومات التي احتوتها ، وقد جمعت من مصادر شتى في تخصصات مختلفة .
- (٢) صياغة المعلومات فيها بأسلوب سهل يستفيد منه الجميع .
- (٣) سهولة الرجوع إلى المعلومات المطلوبة ، وذلك لحسن ترتيبها .
- (٤) محاولة كثير من كتابها إظهار عملهم بمظهر المنصف الموضوعي .
- (٥) اغترار بعض الناس بأسماء أولئك المستشرقين ، وقبولهم لكل ما يكتبوه .

ولهذه الأسباب وغيرها أصبحت الموسوعة مرجعاً للعلوم الإسلامية ، وكل ما يتعلق بال المسلمين وتاريخهم خاصة العرب . كما أنه لا تكاد تخلو منها مكتبة عامة سواء كانت عربية أم إسلامية أم غربية.^(١)

يضاف إلى ما سبق أنه بعد ترجمتها إلى التركية عام ١٣٥٨هـ / ١٩٣٩م من قبل وزارة المعارف التركية أصبحت مصدرًا لكثير من المتعلمين في تركيا . يتم تداولها بصورة واسعة بسبب رخص ثمنها . وبما أنها مليئة بالافتراءات والدسائس على الإسلام يتضاعف الخطر حين يتم انتشار مثل هذه الكتب في الأوساط العلمية ، فتعامل بوصفها كتبًا موضوعية ، وبذلك يقع المتعلم فريسة سهلة لما فيها من دسائس وافتراءات ، في ظل غياب الكتب الإسلامية الصحيحة.^(٢)

^(٤) خالد عبدالله القاسم : مرجع سابق ، ص ٥٥ .

^(١) خالد عبدالله القاسم : مرجع سابق ، ص ١٨ .

^(٢) سهيل صابان : مرجع سابق ، ص ١٤٣ .

وعلى هذا فهي وفيرة المعلومات التاريخية سواء في التاريخ الإسلامي أم الحديث أم المعاصر. ولكنه تاريخ مشوه ومغلوط . وجاءت بفهارس مميزة وسهل الرجوع إليها .

إن هذا التشويه متعمد ، إضافة إلى أخطاء كثيرة متفاوتة وقعوا فيها إما تعمداً وكذباً أم لجهلهم باللغة العربية وبحقائق الإسلام . وأغلب موضوعات التاريخ الإسلامي – وبالتالي العثماني – تجد فيها التخبط ؛ مما يفقد المادة سياقها وتناسقها وجاذبيتها . ولا يظنون أن ما كتبوه هو الصواب بإقرار المسلمين لهم بالسكتوت ، بل ستكون الردود عليهم مستمرة – بإذن الله – بوجود النخبة المستبررة من علماء وشباب الأمة الإسلامية .

جمعت الدائرة بين خلاصة ما كتب عن الإسلام في الكتب التي ألفها ووضعها المستشرقون وبين أبحاثهم المنتشرة بين الجامعات. والسمة الغالبة عليها الهجوم بشراسة على الإسلام طوال سنين طويلة ، وكانت هذه الكتابات متفرقة في المؤلفات ، ولم يكن يقرأها إلا بعض الغربيين الذين اختيروا للعمل في البلاد الإسلامية ، فوضعوا الدائرة ؛ لتضم هذه المقالات ، وتصبح مصدرًا إسلاميًّا يرجع إليه كل المسلمين بسهولة ويسر .

أما عن لجنة تحرير مواد الدائرة فقد ضمت بين صفوفها كبار المستشرقين وأخطرهم فكرًا ، وقد كلف المستشرق الهولندي المتعصب مارتن تيودور هوتسما Martin Tiodor Hotsma ⁽¹⁾ بإنشائها وترأس لجنة التحرير. وقامت مطبعة جامعة ليدن ⁽²⁾ بإصدارها، ودار نشر هولندية تسمى برايل تولت Brail أمر توزيعها ، ثم استعين بالجامع ومؤسسات نشر العلم في أوروبا للإنفاق عليها فامتدتها بالمال 1309هـ / 1891م، وابتدأ في

(١) هوتسما : مارتن تيودور مستشرق هولندي من أشد المتعصبين ضد الإسلام ، ولد عام 1851م ، تخرج من جامعة ليدن وحصل على درجة الدكتوراه في عام 1875م في اللاهوت بر رسالة عنوانها "النزاع حول العقيدة في الإسلام " بالهولندية ، ثم عمل مساعدًا لقسم المخطوطات الشرقية في مكتبة جامعة ليدن ، ثم مدرساً للغتين الفارسية والتركية في المعهد الإسلامي بليدين ، ثم أستاذًا للعربية ، قام بنشر فهرس للمخطوطات الشرقية في مكتبة جامعة ليدن ، وحقق عدة مخطوطات عربية ، وكان عضواً بمجمع اللغة العربية بالقاهرة ، على أن أهم أعماله الإشراف على إصدار دائرة المعارف الإسلامية ، وباسمها ارتبطت طبعتها الأولى . انظر: عبد الرحمن بدوي : مرجع سابق ، ص616 . عبد اللطيف حمدان : مرجع سابق ، ص211 . مدارس الاستشراق . المدرسة الهولندية 1/2009م . <http://www.Madinacenter.com> .

(٢) مكتبة جامعة ليدن : تقع في هولندا ، أنشئت بأمر من أميرها ولیام في ذو القعدة 982هـ / فبراير 1575م ، مكافأة لليدين على دورها الوطني في مقاومة الاستعمار الإسباني ، ساهمت بفاعلية في نشر دائرة المعارف الإسلامية . تضم المكتبة أجنحة ضخمة عن الحضارات والمخطوطات القديمة ، بالإضافة إلى الكتب العربية والإسلامية ، ولا زالت جامعة ليدن تواصل تدريس العلوم الشرقية والإسلامية واللغة العربية وآدابها وتاريخها . تقدم خدماتها لجميع الطلبة من كل الأجناس ، وتواصل نشاطها التفاعلي والعلمي بإقامة المؤتمرات والندوات الثقافية . حسين الأنصاري . منجزات الاستشراق في ظل المعلوماتية ، الصباح ، <http://www.Alsabaah.com> . 10/13/2009م .

عام 1324هـ / 1906م تأليف مواد الدائرة ، ومن أوائل من بادر بها (هوتسما) ، وقد حرر الدراسات المتعلقة بالدولة العثمانية وفارس والهند ، ثم حل محله في الإشراف على الدائرة (فنسنك Vensink)⁽³⁾ وبعد من أشد المتعصبين ضد الإسلام عام 1343هـ / 1913م . وقد صدرت في الفترة ما بين 1331هـ / 1913م - 1357هـ / 1938م . وقد قامت الدائرة في الأصل على أساس من التعاون العالمي ، وقد اشترك في التخطيط لها اشتراكاً حاسماً المستشرق (سنوك هرخرونيه Snouk Hourkhronaih)⁽²⁾، ثم خلفه على كرسى ليدن في التنفيذ المستشرق (أدنت يان فينسنك) ، ومن الملاحظ أنه كان للمستشرقين الألمان دور مميز في الطبعة الأولى من الدائرة حيث اشترك ليفيف منهم في كتابة عدد كبير من المواد . وفي الجزء الأول من الدائرة ، الذي طبع عام 1331هـ / 1913م ظهر منهم (أرتور شاده Artor Scheade)⁽³⁾ و(هارتمان Hartmann)⁽⁴⁾ وأما الجزء الثاني الذي ظهر عام 1346هـ / 1927م كان (أرتور شاده) أيضاً في الإشراف ، و(هانس يارو Hans Yaru) ، (فيلي هيفينج Velly Hevening)⁽⁵⁾، واشترك الأخير في نشر الجزء الثالث والرابع والمجلد التكميلي . تلك المجلدات جرى فيها العمل في

⁽³⁾ أدنت يان فنسنك : مستشرق هولندي ، وكان تلميذاً لهوستما ، وسنوك هورخرونيه ، حصل على الدكتوراه برسالة " محمد واليهود في المدينة " وترأس مشروع مجمع الأحاديث النبوية حسب الحروف الهجائية . وله عدة أبحاث عن العقيدة الإسلامية نشأتها وتطورها وكان عضواً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة وفصل منه نتيجة مؤلفاته التي هاجمت الإسلام والقرآن = والرسول ﷺ . أشرف على كتابة الدائرة في فترة من فتراتها . انظر : عبد اللطيف حمدان : مرجع سابق ، ص 164 .
عبدالرحمن البدوي : مرجع سابق ، ص 417-418 . مدارس الاستشراق . المدرسة الهولندية . 2009/2/1 .
<http://www.Madinacanter.com>

⁽¹⁾ نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج 3 ، ص 371 .

⁽²⁾ تم التعريف لسنوك هرخرونيه في الفصل الأول ، المبحث الأول .

⁽³⁾ شاده : أرتور 1300هـ - 1371هـ / 1883-1952م . تخرج من قسم اللغات الشرقية من ليزيج ، وعين أستاداً في هامبورج والجامعة المصرية ، ثم مديرًا لدار الكتب بالقاهرة ، ركز في كتاباته على السيرة النبوية والأدب العربي الإسلامي . وله في الدائرة كثير من المواد عن الأدب العربي والإسلامي . نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج 2 ، ص 448 ، 445 .

⁽⁴⁾ هارتمان : ريتشارد 1299-1385هـ / 1881-1965م . درس في جامعتي برلين وتوبنجن ، بدأ حياته المهنية مساعد أمين مكتبة جامعة توبنجن ، ثم بدأ في الإشراف على إصدار دائرة المعارف الإسلامية ، عام 1331هـ / 1913م ثم عين في كلتا الجامعتين السابقتين ، ومديراً لمعهد اللغات الشرقية ، كما أنتخب عضواً في مجامع كثيرة منها المجمع العلمي العربي بدمشق وصنف كتاب لتكريمه ، ومن أهم مؤلفاته : تفسير القرآن ، ودراسات وافرة عن تركيا وترجم لكتاب المستشرقين . انظر . نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج 2 ، ص 445 ، 446 . مدارس الاستشراق . المدرسة الألمانية . 2009/2/1 .
<http://www.Madinacenter.com>

⁽⁵⁾ هيفينج : فيلي 1387هـ-1392هـ / 1908-1967م . له عدة أبحاث عن المسلمين العرب والأئم والمذاهب العربية .
انظر نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج 2 ، ص 139 .

وقت واحد، وخرجت في الأعوام على التوالي 1355هـ - 1356هـ - 1357هـ / 1936م ، 1937م ، 1938م . وقد أعدوا سجلاً عاماً لها ، لكنه لم ينشر. وقد ظهرت الطبعة الأولى بثلاث لغات : الألمانية الفرنسية وإنجليزية . أما الجانب الفرنسي فكان منه (دينيه باسه Deniah Passah⁽¹⁾) الذي أشرف أيضاً على جميع المواد المحررة لشمال إفريقيا .

أما من الجانب الإنجليزي فقد اشتراك في تحرير مواد الدائرة (أرنولد توماس Arnold Tomas⁽²⁾) الذي أشرف على جميع المواد المتعلقة بالبلاد المتصلة ببريطانيا ما عدا مصر .

وقد كانت المواد في غالبيتها بقلم المتخصصين في موضوعاتها، وكل مستشرق يوقع على ما يكتبه . وكانت المواد تترجم من لغتها الأصلية إلى اللغتين الآخرين .⁽³⁾ أما الطبعة الثانية فقد جاءت في ضوء ما صدر من أبحاث جديدة ، وما نشر واكتشف من مخطوطات ووثائق ، فأدت الطبعة الجديدة مشتملة على النتائج الأخيرة للبحث العلمي، وذلك تحت إشراف لجنة جديدة مكونة من (كرامرز) Hamilton⁽⁴⁾ (هاملتون جب

(١) دينيه باسه : ولد في مدينة لوينفل في فرنسا ، عام 1272هـ / 1855م ، تخرج من مدرسة اللغات الشرقية بباريس ، ثم أجيز من معهد فرنسا ، وأسند إليه كرسى اللغة العربية في مدرسة الآداب العالية بالجزائر ، درس فيها الحبشية والتركية والبربرية، طاف تونس منقباً عن الآثار الإسلامية عام 1306هـ / 1888م . وكان في طبعة محري المجلة الإفريقية ، وأسهم في مجلات علمية دورية كثيرة ، ترأس مؤتمر المستشرقين عام 1323هـ / 1905م ، عمل في وزارة الخارجية فترة إلا أنه آثر التدريس ، ثم انتخب من مديرى دائرة المعارف الإسلامية ، وكان عضواً بارزاً في كثير من المجامع العلمية . ارتكزت كتابته على تاريخ المغرب العربي ، والشعر الجاهلي . انظر نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ص 216-218 .

(٢) أرنولد : توماس Arnold Thomas Walker مستشرق إنجليزي ، تميزت كتاباته بخفة حيتها على الإسلام ، تخرج في كبردرج ، وعاش في الهند فترة طويلة أستاذًا في جامعة عليكرا ، وأستاذًا للفلسفة في لاهاور ، وأستاذًا للدراسات العربية في مدرسة اللغات الشرقية بلندن ، ثم صار عميداً لها عام 1340هـ / 1921م ، وكان محباً للإسلام حتى أنه في فترة وجوده في الهند كان يرتدي الزي الإسلامي الهندي ، وضع عدة أبحاث في الإسلام والعلوم الإسلامية ، وحاضر في الجامعة المصرية عن التاريخ الإسلامي . له عدة دراسات على كثير من المخطوطات الإسلامية التاريخية . أهم كتابه " الدعوة إلى الإسلام " ، وكتب عن تاريخ الفن الإسلامي ، على أن أهم كتابه على الإطلاق كتاب " الخلافة " الذي ألفه عام 1343هـ / 1924م ، وقد وضعه بمناسبة زوال الخلافة العثمانية ، تناول فيه تدرج الخلافة من الخلفاء الراشدين إلى إلغاء الخلافة على يد كمال أتاتورك . انظر . عبد الرحمن بدوي : مرجع سابق ، ص 9-11 . عبدالحميد صالح حمدان : مرجع سابق ، ص 86 . نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج 2 ، ص 84، 85 .

(٣) عبدالعظيم المطعني : الإسلام في مواجهة الاستشراق العالمي ، ط ١ ، جدة : دار الوفاق ، 1407هـ / 1987م ، ص 68 . روسي بارت : الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية ، ترجمة : مصطفى ماهر ، ط ١ ، مصر دار الكتاب العربي ، 1967م ، ص 38 . محمد حمدي زقوق : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، ص 70 .

(٤) كرامرز سيتم التعريف له في المبحث القادم .

(⁵) gepp (ليفي بروفنسال) ، وبدأ ظهورها عام 1370هـ/1954م منقحة ومزيدة ، وتوقف إصدارها عام 1398هـ/1977م حيث أصدر منها ستة طبعات . (⁶) ويتبين من المعلومات السابقة أن أول من ترأس الكتابة عن الدولة العثمانية كانوا من هولندا على الرغم من عدم وجود علاقات بين الدولة العثمانية وهولندا ، فبسبب الحقد الصليبي اتجهوا للطعن في تاريخها ، بل وأسهموا في إصدار الدائرة نفسها ، والعمل على تحقيق الهدف منها .

وقد أصيّبت لجنة الدائرة بعد الحرب العالمية الثانية ، بشيء من الفتور والاضطراب ؛ فتوقف عملها ، حتى أن بعض أعضائها لقوا حتفهم في ساحاتها . ثم أستأنف نشاطها مرة أخرى ، واجتمعت اللجنة في مؤتمرهم الحادي والعشرين في باريس عام 1368هـ / 1948م ، وقرروا إصدار دائرة معارف إسلامية جديدة في طبعة حديثة ، تعاد كتابة المقالات فيها بناءً على المستجدات الحديثة ، ولم تستكمل ، وقد تغيرت لجنة التحرير عدة مرات مع بقاء الهدف الأساسي . (⁷)

وخلال مسيرة الدائرة الطويلة تعرضت لعدة مشاكل ، من أهمها التكاليف المادية ومدى استمرارها للوصول إلى الهدف المرجو منها ، فاعتمدت على جمع التبرعات من

(⁵) جيب : هامتون مستشرق إنجليزي ذاتي الصيت ، ولد في الإسكندرية بمصر عام 1313هـ / 1895م ، تعلم في إسكتلند ، وتخرج في جامعة أدنبره حيث تخصص في اللغات السامية ، عمل بداية حياته في الجندي ، ثم حصل على الماجستير من جامعة = لندن ، وعيّن مدرساً للغة العربية فيها ، ثم بدأ زيارة للشرق طويلاً منذ عام 1345-1346هـ / 1926-1927م. درس خلالها الأدب العربي ، وأصبح شاغله الشاغل ، خلف أرنولد على كرسى اللغة العربية بجامعة لندن ، وأيضاً محراً لدائرة المعارف الإسلامية ، وفي عام 1370هـ / 1954م أصبح أحد المشرفين على إصدار الطبعة الثانية من دائرة المعارف الإسلامية ، كما درس في جامعة أكسفورد وهارفرد ، وصار مديرًا لمركز دراسات الشرق الأوسط فيها . له سلسلة مقالات عن تاريخ الأدب العربي ، أما عن التاريخ الإسلامي فكتابه الجدير بالذكر هو الذي وضعه مع هارولد بوون "المجتمع الإسلامي والغرب" ، حيث صدر في جزئين ، تناول فيه النظم الاجتماعية في تركيا والبلاد العربية الخاضعة للحكم العثماني قبل النفوذ الأوروبي في تلك البلاد ، عوضاً عن عدد كبير من المقالات في ميدان التاريخ الإسلامي ، وترجمة لرحلة ابن بطوطه . انظر . عبد الرحمن بدوي : مرجع سابق ، ص 174، 175 . عبد الحميد صالح حمدان : مرجع سابق ، ص 111 . مدارس الاستشراق . المدرسة الإنجليزية ، 2009/2/10 . http://www.Madinacenter.com .

(⁶) سيتم التعريف له في المبحث الثاني .

(⁷) محمود حمدي زقزوقي : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، ص 70 .

(⁸) نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج 3 ، ص 372 . محمود حمدي زقزوقي : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، ص 71 .

الأثرياء والمؤسسات الكبرى ، وأهمها مؤسسة روكلر التي منحت لجنة الدائرة مبلغًا سخياً قدره 45 ألف دولار أمريكي لاستكمال عملها عام 1382هـ / 1962م .⁽²⁾

وتعتبر الطبعة الثانية تجاوزاً للمستشرقين عن الطبعة المتداولة ، حيث أعيدت كتابة بعض المقالات بناءً على ما صدر من بحوث علمية حديثة ، وما نشر أو اكتشف من مخطوطات . وظهرت الطبعة الثانية باللغتين الإنجليزية والفرنسية .⁽¹⁾

ولا شك أن أبرز المستشرقين كتبوا في الدائرة ، ولكل واحداً منهم أهداف خاصة من وراء الكتابة بها . وفي مواد التاريخ العثماني يظهر بجلاء تحريم الحقيقة التاريخية للحدث ، دون التقيد بذكرها كاملة ، بل ينقصون منها ، أو يضيفون آراءهم الخاطئة دائمًا والمشوهة للحدث وتكامله بشكل يخدع القارئ ، و يجعله يوقن تماماً بصحة ما جاء بالمادة التاريخية المقدمة ، ومنهم من صرّح بالعداء دون حياء . وكثُرت بذلك أخطاؤهم في التاريخ العثماني .

وبما أن الدائرة إسلامية ، وكل ما تناولته يختص بالإسلام والمسلمين فقد أسست لجنة علمية لترجمة الدائرة إلى العربية ، مكونة من خريجي الجامعة المصرية ، وقام إبراهيم زكي خورشيد ، أحمد الشنتاوي ، عبد الحميد يونس⁽²⁾ بالإشراف على لجنة الترجمة ، وقد عهد المתרגمين لبعض أساتذة الأزهر ودار العلوم أو الجامعة المصرية بالتعليق عليها في أعقاب الكثير من المقالات؛ لتصحيح الأخطاء التي وقع فيها المستشرقون.⁽³⁾

لكن هذه التعليقات والتصحيح لم تكن سوى قطرة في بحر ، وقد خرجت للنور الطبعة الأولى العربية عام 1352هـ / 1933م في خمسة عشر مجلداً ، كل مجلد يقارب خمسمائة صفحة ، اشتغلت على المواد من الألف حتى أجزاء من حرف العين ، وتحديداً انتهى الجزء الخامس عشر بمادة "عارضي باشا" ، وطبعتها دار الفكر بالقاهرة .

⁽²⁾ خالد عبدالله القاسم : مرجع سابق ، ص 56-58 .

⁽¹⁾ عبد العظيم المطعني : مرجع سابق ، ص 68 .

⁽²⁾ عبد الحميد أحمد يونس : 1328هـ - 1409هـ / 1910م - 1988م . مصرى المولد والنشأة - أستاذ جامعي في الأدب الشعبي ، وبعد أول أستاذ كرسي للأدب الشعبي في الجامعات العربية - عمل على إنشاء مراكز بحثية ومعاهد دراسية ، تدرج في وظائف جامعة القاهرة حتى وصل إلى أستاذ كرسي للأدب الشعبي في كلية الآداب بجامعة القاهرة . حاز على عدة جوائز تقديرية من الدولة . أبرز مؤلفاته : "الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي" . "الموسوعة العربية العالمية": ج 27 ، ط 2 ، الرياض : مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر ، 1419هـ / 1999م ، ص 417 .

⁽³⁾ خالد عبد الله القاسم : مرجع سابق ، ص 66 ، 67 ، عبد العظيم المطعني : مرجع سابق ، ص 68 .

ثم توقف مشروع الترجمة فترة ليست بقصيرة من الزمن ، وتعثر كثيراً ، ثم جرت عدة محاولات من اللجنة العربية خلال الفترة الماضية لترجمة باقي الحروف ، وخرجت الطبعة الثانية للنور عام 1389هـ / 1969م في ستة عشر مجلداً ، كل مجلد يقارب ستمائة صفحة ، بدأت من حرف الألف حتى أجزاء من حرف الخاء ، وانتهت بمادة " خدا بخش "(¹) وهي مشتملة على ما وجد في الدائرة الأصل .

وقد بلغ عدد كتاب الدائرة في كلا الطبعتين 486 كتاباً ، حرروا 3930 مادة، شكلت المادة العثمانية حوالي 50% من مجموع المواد.⁽²⁾

لكن الطبعة الثانية لم تنتشر في دور الكتب كما حدث مع الطبعة الأولى ، ربما يعود ذلك لانتشار الطبعة الأولى على مستوى العالم الغربي والإسلامي أكثر . وقد احتوت على المواد المترجمة من الموسوعة الأصلية مضافاً إليها المواد المستحدثة في الطبعة الثانية التي صدرت عن دار برين الهولندية . لكن للأسف الشديد لم يقدر لهذه المحاولة الالكمال ، حيث توقفت بعد صدور ستة عشر مجلداً ، وقد اشترك في ترجمة هذه الطبعة أساتذة آخرون ، ترجموا من الطبعة الثانية الأصلية من حرف الألف إلى بداية حرف الخاء .

ورغم اشتداد المطالبة باستكمال هذا المشروع الضخم إلا أن ضخامة الموسوعة ، ورحيل رواد ذلك المشروع والكثير من شاركوا في ترجمته وقف حائلاً دون ذلك ؛ لأنه من البديهي أن ترجمة مثل هذا العمل لا تحتاج لمترجم عادي ملم باللغة العربية وإنجليزية ، بل لمترجم خاص يكون متسبعاً بالثقافة الإسلامية ، ومطلعًا على تراثها ⁽³⁾ ، ومقتنعاً بها عقيدة وفكراً .

ومما زاد الأمر صعوبة صدور طبعة من دائرة المعارف الإسلامية باللغة الإنجليزية في مطلع الثمانينيات ضاعت من حجم الموسوعة . وقد تألفت هذه الطبعة من عشرة مجلدات ، يحتوي كلّ مجلد على ما يقرب من مليون ونصف كلمة تقريباً ، أي أنها سوف تحتوي على خمسة عشر مليون كلمة ، وإعداد هذه الطبعة سوف يستغرق حوالي عشرين عاماً تقريباً .⁽⁴⁾ وبما أن العشرين عاماً قد مضت فقد تكون هذه الطبقة قد ظهرت .

⁽¹⁾ رجل قانون هندي محب للكتب وجمعها . توفي سنة 1908م . خالد عبدالله القاسم : مرجع سابق ، ص 66.

⁽²⁾ مرجع سابق ، ص 66 .

⁽³⁾ موجز دائرة المعارف الإسلامية ، ج 1 ، ط 1 ، الإمارات : مركز الشارقة للابداع الفكري ، 1418هـ / 1998م ، ص ٢ ، ح .

⁽⁴⁾ موجز دائرة المعارف الإسلامية : مرجع سابق ، ص ٢ ، ط .

وعلى الصعيد العربي فقد بدأ في أواسط التسعينات من القرن العشرين التفكير الجدي في استكمال مشروع ترجمة دائرة المعارف الإسلامية بعد حرف العين وانتهاء بحرف الباء ، وتصدرت دائرة الثقافة والإعلام بحكومة الشارقة بالتعاون مع الهيئة المصرية العامة للكتاب لهذا المشروع ، فصدرت الموسوعة في 32 جزءاً مرتبة ترتيباً أبجدياً ، ومزودة بالكتشافات التحليلية للأعلام والأماكن والواقع والأحداث التاريخية ؛ كي يتيسر على القارئ الوصول إلى المعلومة المطلوبة في أي جزء منها .

أخرج هذه الدائرة كوكبة من كبار العلماء والمترجمين المتخصصين العرب والمسلمين ، وقد اقتربن اسم المترجم بالمستشرق كاتب المادة في الأصل الأجنبي ، وأضافت لجنة التحرير بعض التعليقات والشروحات ، مع تحديد بعض المعلومات القديمة .⁽¹⁾

اعتمدت هذه الدائرة على الترجمة القديمة حتى حرف الحاء ، ثم أكمل فريق المترجمين والباحثين والمراجعين باقي الحروف ، وهذه الطبعة أطلق عليها "موجز دائرة المعارف الإسلامية" ، إذ قاموا بحذف بعض المواد التي تبدو في نظرهم غير ذات أهمية في الوقت الحالي ، مثل أسماء بعض الشخصيات ، أو الأماكن ، وغير ذلك مما أفقد هذه الدائرة الكثير من أهميتها وكمال موضوعاتها . وقد نال جزء تاريخ الدولة العثمانية (موضوع بحثنا) الكثير من حذف شخصياته وأهم أحداثه ، إلا أن هذا لا يمنع من أنها طبعة ممتازة من ناحية الإخراج والطباعة ، وسهولة الوصول إلى المعلومة المطلوبة ، وتعتبر فخرًا لمركز الشارقة للإبداع الفكري .

أما عن طريقة المستشرقين في بث المطاعن والسموم في دائرة المعارف الإسلامية فتتركز على أن أغلبهم كان دأبه البحث عن مواطن ضعف التاريخ الإسلامي ، والتمسك بالأحداث الفردية، وتعيمها. وهذا ليس غريباً على أسلوبهم، فإن طريقتهم دائماً واحدة لا تتغير. يضعون لهم غاية ، ثم يقررون تحقيق تلك الغاية بأي طريقة ، فيجمعون لها المعلومات من أي كتاب حتى ولو كان غير ذي صلة بالموضوع ، أو يحتوي على معلومات تافهة يبنون عليها نظرية لا وجود لها إلا في نفوسهم وأذهانهم .

⁽¹⁾ موجز دائرة المعارف الإسلامية : مرجع سابق ، ص ط .

ومن ذلك أنهم يتحدثون عن السلطان العثماني بكل صدق وأمانة ، إلا أنه في وسط الكلام يذكرون عيباً واحداً ، ويدللون عليه بالأدلة لإقناع القارئ مع ذكر عشرات المحسنات التي ليست لها أهمية كبيرة ؛ وذلك ليظهروا حيادهم .

وقد قدم لنا المستشرق النمساوي المسلم محمد أسد تلخيصاً لكرههم للإسلام ، وما ينتج عنه من محاولات للنيل منه ، فيقول : " كره عميق الجذور يقوم في الأكثر على صدور من التعصب الشديد ، وهذا الكره ليس عقلياً فحسب ، ولكنه يصطبغ أيضاً بصفة عاطفية قوية قد لا تتقبل أوروبا تعاليم الفلسفة البوذية أو الهندوكية ، ولكنها تحتفظ دائماً فيما يتعلق بهذين المذهبين بموقف عقلي متزن ، ومبني على التفكير ، إلا أنها حالما تتجه إلى الإسلام يختل التوازن ، ويأخذ الميل العاطفي بالتسرب ، حتى إن أبرز المستشرقين الأوروبيين جعلوا من أنفسهم فريسة التحرب غير العلمي في كتاباتهم عن الإسلام . ويظهر ذلك في جميع بحوثهم على الأكثر ، كما لو أن الإسلام لا يمكن أن يعالج على أنه موضوع بحث علمي في البحث العلمي ، بل على أنه متهم يقف أمام قضايته. إن بعض المستشرقين يمثلون دور المدعى العام الذي يحاول إثبات الجريمة .. إنهم ينتشرون بشيء من السرور الخبيث حينما تعرض لهم فرصة - حقيقة أو خيالية - ينالون بها من الإسلام عن طريق النقد "⁽¹⁾

ومن العرض السابق يتضح أن وصفه جاء على مستوى عالٍ من الدقة ، فهو خبير بهم ، وكان منهم ، أعطانا صورة واضحة عن مشاعرهم نحو الإسلام ، التي جاءت عنها ترجمة واضحة في مواد دائرة المعارف الإسلامية .

وأخيراً فقد صدرت طبعة جديدة بالإنجليزية " مختصر دائرة معارف الإسلام " Shorter Encyclopedia of Islam.) وهي عبارة عن اختصارات لمقالات دائرة المعارف الإسلامية ، مع مختارات لبعض المقالات ذات الأهمية الموجودة في الموسوعة الكبيرة بقصد تقديم فكرة عن الإسلام بصورة أسرع لمن لا يجد الوقت الكافي لقراءة الأجزاء الكبيرة في الموسوعة الكبرى . ⁽²⁾

ولم يقف الأمر عند دائرة المعارف الإسلامية ، بل استمر المستشرقون في تنصيب أنفسهم وصاة على التاريخ الإسلامي ، والعمل على تأسيس المتاحف ، وعقد المؤتمرات

⁽¹⁾ محمد أسد : الإسلام على مفترق الطرق ، ترجمة : عمر فروخ ، لبنان : دار العلم للملايين ، د.ط، 1398هـ / 1978م ، ص 52 ، 53 .

⁽²⁾ عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص 100 .

الدولية، وتصنيف مجموعات تتناول ما لل المسلمين من آداب وعلوم وفنون في إطار العنصر التاريخي والجغرافي ، إضافة إلى تناولهم الإسلام بكل ما يشتمل من عقيدة وتعاليم ومذاهب وفرق .⁽³⁾

وتتضح أهداف المستشرقين من خلال أقوال بعض المفكرين الإسلاميين في العالم العربي :

١) قال محمد رشيد رضا⁽¹⁾ : "إن في هذه الدائرة عيوبًا علمية وتاريخية، أهمها : أنها لم تكتب لتحقيق المسائل التاريخية والعلمية لذاتها، بل لأجل بيان آرائهم وأهوائهم ، والإعلام بما سبق لهم وعلمائهم فيها من بحث وطعن في كتبهم ورسائلهم المتفرقة^{(2)"}

٢) أما فريد وجدي⁽³⁾ فقال عنها : "إن أكثر كتاب الدائرة قساوسة منصرون، يهمهم أن يتهموا الإسلام لا أن ينصفوه ، وقليل منهم من يتصف بالشجاعة العلمية ، فيتغلب على عناصر التعصب"⁽⁴⁾

٣) قال محمد عبدالله مليباري : " ومن المؤلفات الاستشرافية التي حاولت إغراق التراث الإسلامي : دائرة المعارف الإسلامية التي نشرت بثلاث لغات ... واشترك في تأليفها عدد كبير من كبار المستشرقين . إن كل ما نشر في هذه الدائرة حاول كاتبوا أن يشكوا فيه بإعادة جذوره إلى المسيحية . "⁽⁵⁾

٤) وقال محمد أحمد دياب : " إن نشر هذا المعجم المسمى دائرة المعارف الإسلامية يضر بالإسلام ؛ لأنه يقلّ فيه من يفرق بين الحق والباطل ، ويقلّ فيهم من يعلم أن مؤلفي هذه الدائرة من خصوم العرب والمسلمين وللغة العربية " ⁽⁶⁾

⁽³⁾نجيب عقيقي: مرجع سابق ، ج 3 ، ص372 ، 373 .

⁽¹⁾محمد رشيد رضا المصلح المشهور 1282هـ - 1354هـ بغدادي الأصل ، له مؤلفات عده ، أشهرها تفسيره للقرآن الكريم ، كما أصدر مجلة المنار ، وتحوي الآن على 24 مجلداً . خير الدين الزركلي : قاموس الأعلام وترجم ، ج 6 ، ط 6 ، بيروت : دار العلم الملايين ، 1984م ، ص126 .

⁽²⁾أنور الجندي : سوم الاستشراف والمستشرقين ، ط 3 ، بيروت : دار الجبل ، 1405هـ / 1985م ، ص19.

⁽³⁾محمد فريد مصطفى وجدي : 1295هـ - 1373هـ / 1878م - 1953م ، كاتب مصرى إسلامى فاضل ، له العديد من المؤلفات ، أشهرها وأهمها " دائرة المعارف " ، ونقد كتاب " الشعر الجاهلى لطه حسين " ، وردد على قاسم أمين " المرأة المسلمة " . خير الدين الزركلي ، مصدر سابق ، ج 6 ، ص329 .

⁽⁴⁾أنور الجندي : سوم الاستشراف والمستشرقين ، ص18 .

⁽⁵⁾خالد عبدالله القاسم : مرجع سابق ، ص 76 ، نقلاً عن المستشرقين والدراسات الإسلامية ، محمد عبدالله مليباري .

⁽⁶⁾محمد أحمد دياب : أصوات على الاستشراف والمستشرقين ، دار المنار ، الطبعة الأولى ، 1410هـ/1989م ، ص 125 .

(٥) وقال عنها شكري النجار : " تعتبر المرجع الأساسي لفكرة المستشرقين ، وتصدر تحت رعاية عدة مجاميع علمية غربية ، وتحوي مقالاتها خلاصة ما توصل إليه الدارسون من نتائج في مختلف الموضوعات الإسلامية ، فهي مستودع علمهم وخزانة معارفهم ".^(٧)

(٦) وقد وصفها أنور الجندي حق الوصف إذ قال : " وضع دائرة المعارف باللغات الأوروبية في دوائر الاستعمار والاستشراق والتصير بهدف أساسي هو أن تكون مادة في أيدي الخبراء والمبعوثين الذين ترسلهم دوائر وزارات الاستعمار إلى عالم الإسلام والعروبة ، ولذلك فهي تتضح بالحقد والتتعصب والشكوك والاضطراب ، وقد كتبها جهابذة التنصير والاستشراق وحملوها كل خصوماتهم وأحقادهم . "^(١)

وقد لفت الباحثون المنصفون النظر إلى أخطاء دائرة المعارف عندما أراد أن يترجمها نفر من الكتاب في الثلاثينيات من القرن الماضي ، فقد تصدى لهم أكثر من باحث منصف يعارض خطتهم ، ويطالبهم بتصحيح تلك الأخطاء في صلب البحث لكنهم اكتفوا بالتعليق على هذه الشبهات في الهوامش ، ففوتوها كثيراً من الحقائق على القارئ المتعجل الذي لا يعني بالرجوع إلى الهاشم .^(٢)

(٧) وقال عنها علي عبد العليم محمود : " ولعل أخطر ما قام به المستشرقون حتى الآن هو إصدار " دائرة المعارف الإسلامية " بعدة لغات ، وكذلك إصدار موجز لها بنفس اللغات الحية التي صدرت بهادائرة ، ومصدر الخطورة في هذا العمل هو أن المستشرقين عبأوا كل قواهم وأقلامهم لإصدار هذه دائرة ، وهي مرجع لكثير من المسلمين في دراستهم على ما فيها من خلط وتحريف وتعصب سافر ضد الإسلام والمسلمين . "^(٣)

(٨) وقال عنها رئيس مركز الدراسات الإسلامية بوقف الديانة التركى باستانبول طيار آلتى قولاج ، معللاً تبني المركز لتأليف " الموسوعة الإسلامية " : " كنت اتصف

^(٧) شكري النجار : لم الاهتمام بالاستشراق ، مجلة الفكر العربي ، بيروت ، العدد 31 مارس ، 1983م ، ص62 ، ص63 .

^(١) أنور الجندي : سوم الاستشراق والمستشرقون ، ص 17 ، 18 .

^(٢) خالد عبدالله القاسم : مرجع سابق ، ص 78 .

^(٣) علي عبد العليم محمود : الغزو الفكري والتغيرات المعاذية للإسلام ، بحث ضمن مجموعة أبحاث مقدمة لمؤتمر الفقه الإسلامي، بإشراف جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بـالرياض عام 1396هـ ، إصدار الجامعة 1404هـ / 1984م ، ص102 .

أحياناً دائرة المعارف الإسلامية في طبعتها التركية المنقحة ، وبالإضافات التي كتبها العلماء الأتراك ، غير أنني أجد فيها نقصاً كبيراً من حيث المعلومات ونوعيتها وعرضها ، إضافة إلى أن الموسوعات التي ينشرها علماء الغرب لا تعكس الروح الإسلامية ومؤسساتها ، لأن العالم الغربي ينظر إلى هذه المؤسسات في إطار نظرته الخاصة التقليدية ، وتتسم هذه النظرة غالباً بالتحيز والتعامل ، ولا شك أن تصحيح هذه الأخطاء وصيانته الجيل الجديد من تلك التشویهات أمر مهم ؛ فكان إنشاء الموسوعة. " ⁽¹⁾

٩) وقد وصفها زيد بن أحمد العبلان بقوله : " ⁽²⁾ من أبرز الأعمال التي تكافف المستشرقون على تأليفها وإخراجها للعالم أجمع " دائرة المعارف الإسلامية" ... وقد ترجمت أجزاء منها إلى اللغة العربية ، وعرض المترجمون ما ترجموه على عدد من المفكرين المسلمين ، وكتبت عليها هوامش وتعليقات وردود ، وإن كانت هذه الردود غير كافية ، لأن المستشرقين قد أسفروا فيها عن خبثهم ومكرهم . " ⁽³⁾

وفي ظل المعلومات السابقة تتضح أهدافهم بقوة ، حيث إنها لم تكتب مطلقاً لخدمة المسائل التاريخية والعلمية ، وإنما لإظهار آرائهم ونتائج أبحاثهم ورسائتهم. فإن غرضها لم يكن يوماً علمياً ؛ لأن أغلبهم منصرون حاذدون على الإسلام ، فقد حاولت إغراق التراث الإسلامي في جذور المسيحية ، وقد أضرت بالإسلام أكثر مما أفادته ، حيث أحقت الباطل وأبطلت الحق . ولمكانتها في المجامع العلمية حاول كاتبوها أن تحوي خلاصة فكرهم من نتائج ، وهي بذلك مستودع علمهم وخزانة معرفتهم .

ومن أهم أهدافها أن تكون مادة خصبة في أيدي خبراء الاستعمار؛ كي يستقيدوا منها، لذلك جاءت محملة بالكراه والحق والتعصب والشكوك ضد الإسلام .

وقد عبأوا أقلامهم بكل الأفكار الممكنة وغير الممكنة ضد الإسلام بحقد سافر ، ومع الأسف أصبحت مرجعاً لكثير من الباحثين المسلمين غير مدركين لخطورة معلوماتها وما فيها من خلط زائف وخطأ متمعد. إذ إنها لا تعكس روح الإسلام ومؤسساته ، بل تعكس

⁽¹⁾ خالد عبد الله القاسم : مرجع سابق ، ص 89 ، 90 .

⁽²⁾ حاصل على درجة الماجستير من جامعة الإمام سعود برياض ، قسم عقيدة ، برسالة بعنوان : " الدراسات الاستشرافية في ضوء العقيدة الإسلامية " سنة 1406 هـ .

⁽³⁾ زيد أحمد العبلان : الدراسات الاستشرافية في ضوء العقيدة الإسلامية ، رسالة ماجستير لم تطبع ، 1406 هـ ، ص 120 .

نظرة المستشرقين لهذه المؤسسات التي تتسم غالباً بالتحيز والتحامل. وقال مازن مطبقاني عندما تعثرت ترجمة هذه الدائرة إلى العربية حيث قال : "الحمد لله أن ترجمتها تعثرت فهي دائرة خطيرة ".⁽⁴⁾

وإذا دققنا النظر في المستشرقين الذين حرروا أغلب مواد الدائرة نكتشف أن ميلهم أصلاً ضد الإسلام ، فهم لم يتحلوا مطلقاً بأخلاق البحث العلمي المجرد ، ولم يم باع طويل في كراسى الاستشراق ، ودور كبير في التصوير والعمل على نشر المسيحية ، كما إنه كان من بين صفوفهم قساوسة ورجال دين لهم الفضل في التحايل غير العلمي للحصول على المعلومات حتى يشكلوها في القالب الذي يريدونه.

وبنظرية سريعة على هذه الأسماء نجد أنهم مجموعة من المستشرقين اليهود والقساوسة وعلماء اللاهوت والمنصريين ، جمعهم هدف واحد يرمي إلى تشويه الإسلام ، والقضاء عليه وتصير المسلمين. ومن أبرز الذين شاركوا في كتابة الدائرة المستشرق الفرنسي (لويس ماسينيون Louis Massignon⁽¹⁾) الذي يعتبر رائد الحركة التصيرية في مصر ، وقد بذل جُلّ حياته في تصير الأميين من خلال خداعهم بتحوير آيات القرآن الكريم ؛ لإيهامهم بموافقتها للنصرانية .⁽²⁾ بالإضافة إلى مشاركة عدد ليس بقليل من اليهود أمثال (جوزيف شاخت Joseph Schecht⁽³⁾) وإناس جولدزيهر

(4) مازن مطبقاني . أسئلة وأجوبة حول الإشتراك . http://medinacenter.org . 2008/8/17م .

(1) تم التعريف له في الفصل الأول ، المبحث الأول .

(2) مدارس الاستشراك . المدرسة الهولندية 2/1 2009م . http://www.Madinacenter.com .

(3) شاخت : جوزيف مستشرق ألماني ، متخصص في الفقه الإسلامي ، ولد عام 1320هـ / 1902م راتيبيور بألمانيا ، ودرس اللاهوت واللغات الشرقية في جامعة برسلو وليبيتسك ، وحصل من الأولى على الدكتوراه عام 1342هـ / 1923م ، ثم حصل على دكتوراه ثانية للتأهيل في التدريس الجامعي ، عين للتدريس في جامعة فرايبورج وكونسبرج ، وفي الجامعة المصرية ، وعمل محاضراً للدراسات الإسلامية في الجامعة المصرية ، وأستاذًا في جامعة ليدن ، وأنباء الحرب العالمية الثانية عمل لحساب إنجلترا ، وخان وطنه ألمانيا ؛ وذلك لأنه يهودي ، ولكن خيانته لم تتصفه ، ولم يدرس بعدها في أي جامعة ، فعمل حينها في ليدن بهولندا ، وأهم أعماله اشتراكه في الإشراف على الطبعة الثانية من دائرة المعارف الإسلامية ، وآخر أعماله كان أستاذًا في جامعة كولومبيا في أمريكا ، عكف على دراسة المخطوطات القديمة العربية ، وخاصة المخطوطات الموجودة في القاهرة وإستانبول وتونس وفاس وله دراسات في علم الكلام ، ومؤلفات في الفقه الإسلامي ، وفي تاريخ العلوم والفلسفة الإسلامية . توفي عام 1389هـ / 1969م . انظر نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج 2 ، ص 469 - 471 . عبد الحميد صالح حمدان : مرجع سابق ، ص 151 - 154 . عبد الرحمن بدوي : مرجع سابق ، ص 366 ، 368 . مدارس الاستشراك . المدرسة الألمانية 2009/2/1.

(Giorgio Levi Della Vida⁽¹⁾ . والمستشرق الذائع الصيت (Bernard Lewis⁽²⁾ والذي يعتبر من أشد المناصرين للحركة الصهيونية، وهو صاحب مصطلح "صراع الحضارات" الذي أعلنه عام 1411هـ/1990م ، وقصد به الصراع بين الغرب والإسلام كعدو قائم. وجاءت كل كتاباته عن الإسلام داعية لمحاربته .⁽³⁾

ولاستخدام الدائرة وسيلة للتنصير فقد اشتراك في كتابتها كثير من القساوسة وعلماء اللاهوت ، وأشهر المنصريين أمثال (دان肯 بلاك ماكدونالد Duncan Black⁽⁴⁾ منصر أمريكي شهير عرف بحقده الشديد على الإسلام، وتركزت مؤلفاته حول كيفية تنصير المسلمين، فأنشأ معهداً متخصصاً لهذا الأمر . وأيضاً (أدوين

http://www.Madinacenter.com .

⁽⁴⁾ جولدزيهير : إجنس ولد عام 1267هـ / 1850م بمدينة أستوليفسبرج المجرية ، في أسرة يهودية ذات مكانة عالية ، عاش حياة متوفقة ظهر أثرها على آرائه السياسية وانتقامه لبلاده وعلو الروح القومية عنده . تخرج في قسم اللغات السامية من بودابست ، ودرس في برلين في جامعة ليبيتسك ، وحصل على الدكتوراه عام 1287هـ / 1870م ، ثم عاد إلى بودابست وعين مدرساً مساعداً في جامعتها ، ثم ارحل إلى الشرق ، ووجه اهتمامه للدراسات الشرقية خاصة الدينية ، وانتخب عضواً مراسلاً للأكاديمية المجرية ، وصار أستاذًا للغات السامية ، وأصبح يحضر مؤتمرات المستشرقين ، إما للاشتراك أو لإلقاء محاضرة ، وجه عنايته إلى نشر الكتب المهمة ، مثل كتاب "التوحيد" لمحمد بن تومرت ، وكتاب "محاضرات في الإسلام" الذي ترجم إلى العربية . = انتخب عضواً في المجمع المجري ، جاءت أغلى كتاباته متحاملة على الإسلام وضده ، مليئة بالتشويه والافتراء على القرآن والسنة النبوية ، له عدة مواد حررها في الشريعة الإسلامية . انظر عبد الرحمن بدوي : مرجع سابق ، ص 197 . يوهان فوك : مرجع سابق ، ص 236 - 241 . نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج 3 ، ص 40-42 .

⁽¹⁾ دلاقيدا : جورجيوليوفي مستشرق إيطالي ولد عام 1304هـ / 1886م في أسره يهودية استقرت في إيطاليا ، درس في جنوه ، ثم انتقل إلى روما ، ودرس الجامعة بها ، وحصل على لسان الآداب منها عام 1327هـ / 1909م ، زار مصر عدة مرات ، وقد درس اللغة العربية في "المعهد الشرقي" ، وتدرج في عدة وظائف حتى صار من كبار الباحثين في تاريخ الدين الإسلامي واللغة العربية ، اشتغل فترة طويلة في مكتبة الفاتيكان حيث قام بفهرسة المخطوطات العربية بها ، ثم غادر إيطاليا إلى جامعة بنسفانيا ، ثم عاد إلى روما ، وشغل بجامعتها كرسى اللغات العربية والسامية ، له عدة مؤلفات ومقالات عن تاريخ الأديان والإسلام والأدب العربي ، كتب في دائرة المعارف الإيطالية والإسلامية عن حياة الرسول ﷺ، وعن الخارج وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان - رضوان الله عليهم - ، وعن الأميين . اشتراك في تحرير مجلات عديدة مثل : الدراسات الشرقية والشرق الحديث والعلوم والعالم الإسلامي . كانت زوجته مسيحية وأبناؤه ، أما هو فبقي على اليهودية حتى مات عام 1387هـ/1967م.

أنظر نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 440 ، 441 .

⁽²⁾ تم التعريف له في الفصل الأول – المبحث الأول .

⁽³⁾ الاستشراف . الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، 19/5/2009م ، http://www.Saaid.net .

⁽⁴⁾ سيتم التعريف له في المبحث القادم .

الغرلي **Edwin Calverley** (5) المنصر الأمريكي المتعصب جداً الذي ترأس مجلة العالم الإسلامي التصويرية لمدة من الزمن . (6)

وغنى عن التعريف أن من أشهر القساوسة الذين كتبوا فيها القس (ديفيد صموئيل مرجليوث **David Samuel Margaliouth**) (1) ، وهو قسيس في الكنيسة الإنجليزية، عرف عنه التعصب الشديد ضد الإسلام والمسلمين ، وكذلك عالم اللاهوت المستشرق (هنري لامسن **Henry Lammans**) (2) الذي عمل بالتصوير في بيروت ، وكان من أشد الحاقدين على الإسلام.

إن طريقة هؤلاء كانت تهدف دائماً إلى زرع الشك في صحة سماوية الدين الإسلامي، وصحة نزول الوحي على سيدنا محمد ﷺ ، فقد حوت مجموعة من الأخطاء والدسائس الناشئة عن التعصب الأوروبي ، ولا يستغرب ذلك حيث إن أغلب كتابها قساوسة منصرون وعلماء لاهوت ويهود ، لا يفهمهم سوى الافتراء على الإسلام وتشويه حقيقته .

(5) كالغرلي : ألوين تخرج في قسم اللغات الشرقية بجامعة برنس頓 ، وعين بعدها عضواً في البعثة العربية التي نظمتها الكنيسة في الولايات المتحدة الأمريكية 1327هـ / 1909م ، عمل محاضراً وأستاداً للعربية والإسلاميات في مدرسة كيندي للبعثات ، ثم محرراً لمجلة العالم الإسلامي ، ومستشاراً للشؤون العربية في شركة الزيت العربية الأمريكية . ثم أستاداً زائراً لجامعة الأمريكية في القاهرة ، وقد تولى بذلك عدة مناصب أثاحت له رؤية على بلاد المشرق الإسلامي أكثر ، وضع عدة مؤلفات اهتمت بالتصوير وتحول المسلمين إلى النصرانية. انظر نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج 3 ، ص 143 ، 144 .

(6) مدارس الاستشرق ، المدرسة الأمريكية 10/2009م . <http://www.Madinacenter.com> .
(1) مرجليوث : ديفيد صموئيل ولد عام 1275هـ / 1858 ، وهو مستشرق إنجليزي مشهور ، اهتم بالدراسات الأدبية الكلاسيكية في أكسفورد ، ثم درس اللغات السامية ، وازداد اهتمامه باللغة العربية. ثم عين أستاداً في نفس الجامعة ، وأول نتاجه عن الإسلام كتاب "محمد ونشأة الإسلام" ، ثم كتاب "الإسلام" ، ثم ألقى محاضرات عن تطور الإسلام في بدايته ، ثم أصبح في 1339هـ / 1920م عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق ، كتب في الدائرة عدة مقالات عن الإسلام كلها غير علمية ، وتسرى فيها روح التحيز والبغض الشديد للإسلام . بوهان فوك : مرجع سابق ، ص 285 - 289 . نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج 2 ، ص 77 - 79 . عبدالحميد صالح حمدان : مرجع سابق ، ص 199 . عبدالرحمن بدوي : مرجع سابق ، ص 546 . أنور محمود زناتي . التحقق من آراء المستشرق البريطاني مرجليوث في اللغة العربية والشعر الجاهلي ، 31/10/2009م .

<http://www.dovoob.com> .

(2) لامسن : هنري مستشرق بلجيكي ، وراهب يسوعي شديد التعصب ضد الإسلام ، يفتقر إلى التزاهة في البحث ، والأمانة العلمية في نقل النصوص ، وبذلك يعد نموذجاً سيئاً جداً للباحثين في الإسلام بين المستشرقين . ولد في بلجيكا ، عام 1279هـ / 1862م ، تعلم في الكلية اليسوعية في بيروت ، ثم دخل حياة الرهينة عام 1296هـ / 1878م في دير لليسوعيين في جبل لبنان ، ثم أصبح معلماً في الكلية اليسوعية ببيروت للتاريخ والجغرافيا، ثم أستاداً للتاريخ الإسلامي في معهد الدروس الشرقية ، ثم تولى إدارة مجلة "الشرق" ، ومجلة "البشير" ، وكلتا المجلتين دينية تصويرية لليسوعيين . ونتاجه ترك حول السيرة النبوية ، وبداية الخلافة الأموية وتاريخ سوريا وأثارها . توفي عام 1356هـ / 1937م ، ويتبخر من كتاباته التحامل الشديد على الإسلام خاصة السيرة النبوية ، دون أدنى سند علمي ، وكل كتاباته افتراء وتشويه وكراهية وقد لحد يفوق الوصف. انظر عبدالرحمن بدوي : مرجع سابق ، ص 503 ، 505 . عبدالحميد صالح حمدان : مرجع سابق ، ص 184 ، 185 .

وسيتضح ذلك من خلال المبحث التالي الذي يترجم لمؤلفي هذه الموسوعة خاصة المستشرقين الذين حرروا المواد عن الدولة العثمانية موضوع البحث .

المبحث الثاني :

المستشرقون الذين كتبوا في دائرة المعارف الإسلامية عن الدولة العثمانية ، دراسة وتحليل .

ظلت مرارة فشل الأحلاف الصليبية ضد الإسلام والمسلمين تقدر صفو أوروبا ، وتذكرها بخسارتها الجسيمة التي حلت بها أمام الجهاد الإسلامي والوحدة الإسلامية في عهد الدولة العثمانية عندئذ ظهرت طائفة من الصليبيين تفكرون في كيفية القضاء على هذا الدين الصامد ، ومن يمثله ، والانتقام من المسلمين الممثّلين في العثمانيين ، واستخدام أسلحة ضد الإسلام غير الأسلحة العسكرية المعروفة . إن الحملات العسكرية والحروب الصليبية لم تصل إلى هدفها ؛ لذلك كان لابد لهم من وقفه ودراسة قبل الإقدام على أيّ عمل عسكري قد يؤدي إلى زيادة قوة المسلمين ، بل وزيادة فتوحاتهم .⁽¹⁾

وهذا أصل ظهور المستشرقين ، ولعدم استطاعة الجيوش الأوروبية القضاء على الإسلام كان لابد من استخدام وسائل أخرى غير تلك ، وأن يتسلحوا بسلاح جديد . فقد جاءوا إلى بلاد الإسلام وفيهم نفس المقدار من الحقد والكراهة والمكر والدهاء والخدعه والتزيف الذي كان في نفوس الصليبيين القدامي ، بهدف وقف زحف العثمانيين الإسلامي في أوروبا ، والقضاء على الخلافة العثمانية الإسلامية ، وجعلها تحت الحكم الأوروبي المسيحي .

نشأت طبقة المستشرقين ، وجاءوا قادة ، لكن ليسوا قادة جيوش ، فهم الذين يوجهون الجيوش ، وينصحون الملوك في أوروبا باحتلال البلاد الإسلامية ، ويضعون لهم الخطط في سياستهم الخارجية ، ثم يصاحبون الجيوش عند دخولهم؛ ليعرفوهم كيفية التعامل مع الشعب

⁽¹⁾ أحمد سعيد نونو : مرجع سابق ، ص95 .

ال المسلم سياسياً واجتماعياً ودينياً وفكرياً ، وخير مثال على ذلك الحملة الفرنسية على مصر التي صاحبها عدد كبير من الباحثين والعلماء الذين هم في الأصل مستشرقون .⁽²⁾

استخدمو المكر والدهاء والتستر من أجل التجسس ، لبسو زمي الرحلات العلمية والتجارة أو طلب العلم ، في حين أن الهدف الرئيس توجيه الضربات للعالم الإسلامي ، وتحطيم الخلافة العثمانية ، واحتلال القدس .

ثم بدأت معظم دول الغرب عقد الصلات السياسية بدول الشرق الإسلامي ، والاعتراف من تراشه ، والتزاحم على استعماره ؛ فجندت كل دولة مستشرقها وسخرتهم لخدمتها ، فعملوا في حاشية الملوك وترجماته ، وفي الوزارات كالخارجية ، وانتدبوهم للعمل في سلكي الجيش والسفارات إلى بلدان الشرق ، وسمحوا لهم بتولي كراسى الاستشراق في كبرى الجامعات والمدارس والمطبع الوطنية . كل ذلك مع البذل عليهم بسخاء ووفرة ، ومنحوهم ألقاب الشرف ، وعضوية المجتمع العلمية .⁽¹⁾

إن معظم المستشرقين عملوا منصرين من خلال كتاباتهم وأعمالهم الخيرية . كما أن الرحالة وموظفي الحكومات الاستعمارية كالضباط وأصحاب الوظائف المدنية الرفيعة والأطباء في الدول الأوروبية أدوا نفس الغرض ، فعاشوا في البلاد الإسلامية ، وتعلموا الشيء القليل من اللغة العربية مع احتلاطهم بالسكان للتعرف على عاداتهم وتقاليدهم .⁽²⁾

وقد تحكمت بأقلامهم خلفيات معادية للإسلام ، والتعصب ضده باعتباره ديناً سماوياً ، والدليل على ذلك محاواتهم نصف الإسلام أصلاً من خلال كتاباتهم ، وتتضح بعدم موضوعيتهم ، وبعدهم عن النزاهة والحيادية .

وكتب في دائرة المعارف الإسلامية عدد كبير من المستشرقين ومن ضمنهم من كتب عن تاريخ الدولة العثمانية وسلطانينها وأنظمتها ، ولكن الدراسة ستكتفي بترجمة المستشرقين الذين ستتناول مoadهم بالنقد والتحليل ، إضافة إلى من توفرت لهم ترجمة عن حياتهم وأهم أعمالهم .

⁽²⁾ مرجع سابق ، ص ص 96 ، 102 .

⁽¹⁾ نجيب عقيقي: مرجع سابق ، ج 3 ، ص 604 .

⁽²⁾ عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص 131 .

تبينت كتابات المستشرقين عن التاريخ العثماني ، فمنهم من جاءت كتاباته متحاملة مشوهة ، مليئة بالكذب والافتراء الصريح دون تغليف ، أما البعض الآخر فاتسمت موادهم بالدّس بين الكلام دون الاستناد إلى وقائع تاريخية صريحة لإثبات أقوالهم ، وإيراد لفظ مشوه ومغاير للأحداث في منتصف الحدث بحيث لا يفطن القارئ إلى مغزى الكلام ، والقلة منهم من جاء في كتاباته بعض الإنفاق .

فمن المعروف أن الحضارة الغربية قامت على أنقاض الحضارة الرومانية الوثنية ، وجعلت المسيحية ثوباً للتستر على الحقيقة . وبناءً على هذا فإن المستشرق هو بمثابة الجزء المكمل للحضارة المادية في أوروبا القائمة على الاستعمار والاستشراق ، وقد يبدو لمعظم الناس وكأنه اتجاه أكاديمي يعمد إلى دراسة الشرق وحضارته عموماً ، والإسلام والحضارة الإسلامية خصوصاً ، لكن الأمر ليس كذلك ، بل يتعدى ما يراه المطلع العادي ، فهو جزء من التنصير وحركته الاستعمارية ، وجاء من الحروب الصليبية الحديثة التي أخذت صيغة جديدة، وصارت حرباً فكرية بدلًا من الحرب العسكرية .⁽¹⁾

و سنلاحظ من خلال مواد الدائرة أن المستشرقين نصّبوا أنفسهم ولاة مسؤولين عن الإسلام ، والبحث في حقائقه ، والحديث عن تاريخه بما يملئه عليهم فكرهم ، وبما توحّي به مشاعرهم صدقاً أو كذباً ، وهذا ما يقرره نظام الاستعمار المعتمد على اغتصاب الحق وإنكاره .⁽²⁾

إن سياسة الاستشراق تهدف في المقام الأول إلى القضاء على الإسلام والمسلمين أولاً، وإهانته وتشويه محاسنه والافتراء عليه ثانياً ، والإبقاء على الحياة المادية المجردة من الروح كما تمثلها حضارة الغرب. وفي النهاية الاستشراق ليس سوى كهانة جديدة تلبس ثوب العلم والبحث ، وهي أبعد ما تكون عن العلم والتجدد .

وهكذا يتّضح أن معظم المهتمين بالدراسات الاستشرافية من المستشرقين ومن شاعرهم انصب اهتمامهم على تحريف الإسلام وتشويه جماله ، والسبب واضح ؛ لأن أغلبهم من رجال الدين اليهود والنصاري ، أو رجال الاستعمار الذين يسهلون عمله .⁽³⁾

⁽¹⁾ محمد أسد : مرجع سابق ، ص41.

⁽²⁾ عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص18 ، 19 .

⁽³⁾ عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص19 .

ومع استطلاع آراء بعض المؤرخين والمفكرين عن الدولة العثمانية والاستشراق يرى المؤرخ ابن خلدون أن مجيء الأتراك العثمانيين بـرهاناً على عناية الله المتواصلة بالإسلام وال المسلمين ، إذ إنه عندما ضعفت الخلافة الإسلامية، وفسد أمرها ، ولم تعد قادرة على صد أعدائها قيَّض الله للإسلام حكاماً وحاماً جدداً؛ لينفثوا من جديد روح الجهاد الإسلامي .⁽⁴⁾

أما رأي أحمد فارس الشدياق فقد انصب على جعل المستشرقين بلاءاً لا نفع منهم ولا دفع ، إذ وصفهم بأنهم لم يأخذوا العلم عن شيوخه ، وإنما تطفلوا عليه طفلاء ، وتوثبوا تواثباً ، وتوهُّم أنهم يعرضون شيئاً هم في الأصل يجهلونه تماماً ، وإذا درس أحدهم لغة شرقية ، أو ترجم شيئاً ، تراه يخطب فيها خطباً عشوائياً ، مما اشتبه عليه رقه بما شاء.⁽¹⁾

أما عن رأي الدكتورة بنت الشاطئ فقد قالت عن المستشرقين: "إنهم اتخذوا من التراث ثغرات ينفذون منها إلى عقولنا ونفوسنا ، رجاءً أن يشوهوا في عيوننا صورة أمسنا ، ويطفئون نوراً لنا أضاء للبشرية طريقها وسط الظلمات ، وحتى نقطع فلابد لنا من التذكر لشرقيتنا وعروبتنا ، وتعلقنا برركاب رسل الحضارة ، وسادة العصر " . كما أوضحت لنا دور اليونسكو. ⁽²⁾ في دعم الاستشراق حتى يصير الأمر أكثر وضوحاً ، إذ إنها تصدر مجلداً ضخماً عن الإسلام تقول فيه ما نصه :

(١) "إن الإسلام احتفظ في ركن الكعبة بالوثن المهم لأهل مكة وهو الحجر الأسود " .

(٢) "الإسلام كان توفيقاً بين نظريات مسيحية ويهودية ووثنية " .

(٣) "إن القرآن تأليف بشري ، وإنه ذو مراتب مختلفة في نسقه ، وفي طريقة تعبيره " .

وهكذا يتضح لنا أن اليونسكو جمع مختلف مفتريات الاستشراق ؛ ليضمها في كتاب عالمي عن الإسلام ؛ وذلك لحبك مؤامرة تدمير التاريخ الإسلامي .

وإدوارد سعيد يرى أن دعم الكنيسة لرجال الفكر من النصارى ودعوتهم للاهتمام بالشرق الإسلامي أخرج لنا دراسات موجهة ومنتظمة ، متمثلة في كراسى الدراسات

⁽⁴⁾ عبد الرحمن بن محمد بن خلدون : مقدمة ابن خلدون – الجزء الأول من كتاب العبر ، وديوان المبتدأ أو الخبر ، تحقيق المستشرق: م . م . كاتمير ، مجلد 2 ، بيروت : مكتبة لبنان ، عن طبعة باريس 1858م ، ص 117 .

⁽¹⁾ أحمد فارس الشدياق : ذيل الفارياق ، د.ط ، د.م ، د.ت ، ص 2 .

⁽²⁾ المنظمة العالمية للتربية والثقافة والعلوم .

الاستشرافية ، والمؤتمرات التي تعقد ، إضافة إلى الكتب والدوريات والمجلات التي تصدر في هذا الشأن ، وتعنى بدراسة الإسلام ، وظهر هذا الاتجاه بوضوح في عام 712هـ/1312م .⁽³⁾

ويمكن حصر صفات المستشرقين فيما يلي :

- (١) سوء الظن والفهم لكل ما هو إسلامي في أهدافه ومقاصده .
- (٢) سوء الظن ب الرجال المسلمين وعلمائهم وعظمائهم .
- (٣) تصوير المجتمع الإسلامي في مختلف العصور، وخصوصاً في العصر الأول مجتمعاً متفككاً تقتل الأنانية رجاله وعظماءه .
- (٤) تصوير الحضارة الإسلامية تصويراً دون الواقع ، وتهوين شأنها، واحتقار آثارها ومساهماتها .
- (٥) الجهل بطبيعة المجتمع الإسلامي وحقيقة ، والحكم عليه من خلال ما يعرفه المستشرقون من أخلاق شعوبهم وعادات بلادهم.
- (٦) إخضاع النصوص للفكرة التي يفرضونها حسب أهوائهم ، والتحكم فيما يفرضونه ويقبلونه من النصوص . وتفسير النصوص وإخضاعها للتحليلات المادية العلمانية .
- (٧) تحريفهم للنصوص في كثير من الأحيان تحريفاً مقصوداً لخلق جو الشك والبلبلة ، كما أنهم يسيئون فهم العبارات لجهلهم بذلك ، وهذا مجال آخر للتحريف .
- (٨) تحكمهم في المصادر التي ينقلون منها ، فهم ينقلون مثلاً من كتب الأدب ما يحکمون به في تاريخ الحديث النبوي الشريف والسنة المطهرة ، ومن كتب التاريخ ما يحکمون به في تاريخ التشريع الإسلامي والفقه ، ويحللون الأحداث التاريخية من كتب الطرائف والغرائب .^(٤)

لقد ظهرت أهواء ونزعات هؤلاء المستشرقين في "دائرة المعارف الإسلامية" لأنها مؤلفة بالكامل من قبل باحثين أوروبيين ، فهي لا تعبّر ولا تنقل إلا النزرة والمفهوم

⁽³⁾ أنور الجندي : كيف يحطم المسلمون قيد التبعية والحضار ، ص 73 ، 74 .

⁽⁴⁾ مصطفى السباعي:السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ، ط 2 ، بيروت:المكتب الإسلامي ، 1978م ، ص188، 189 .

الأوروبي عن الحضارة الإسلامية بمفاهيم تختلف اختلافاً كبيراً عن المفاهيم التي يؤمن بها ويتبعها المسلمون أنفسهم .

إن المستشرقين منساقين وراء الهوى والانحراف عن الحق ، فكيف يمكن والأمر كذلك أن تتأتى الموضوعية والمنهج العلمي المزعوم إذا كنا نحكم ونقول على فن من الفنون بما هو موجود في كتب ومراجع فن آخر؟ كيف يكون القول صحيحاً إذا نقلنا من كتب الطب مثلاً كلاماً نريد به اطلاع القارئ عن حقيقة لغوية تتعلق بال نحو ؟ فشتان ما بين الطب والنحو !

ترجم لبعض مستشرقي دائرة المعارف الإسلامية :

(1) جان، ديني Denj 1297هـ - 1879م - 1383هـ - 1963م .

يعدُّ من أهم المستشرقين الفرنسيين ، له اهتمام ملحوظ باللغة والمخطوطات التركية والأنظمة العثمانية ، واهتمامه هذا جعله أستاذًا ومدير مدرسة اللغات الشرقية في باريس ، في عام 1345هـ/1926م قام بإنجاز فهرس للمخطوطات التركية استغرق عمله أربع سنوات ، ثم عمل في جامعة برنستون أستاذًا .⁽¹⁾

له العديد من الكتابات في اللغة والنحو التركي ، وضع كتاباً أوضح فيه التطور التاريخي للغة التركية ، كما وضع فهرسة بالأنظمة الإدارية ، وقانون "نامه" ، والمحفوظات العربية التركية لدى حكومة الجزائر ، وله عدة كتابات في الخطبة باللغة التركية ، ووثائق تركية غير منشورة عن الجزائر ، و"دليل المترجم في سوريا" ، و"مدربون عسكريون أتراك في المغرب" ، "الوثائق التركية في القاهرة" ، "ووصف المخطوطات العثمانية في مكتبة القصر الملكي بمصر" ، "الوثائق التركية في مكتبة مرسيليا" ، "الفرمانات السلطانية العثمانية إلى ولاة وخديو مصر" ، وكتاب "علاقة الدولة التركية بأوروبا" كتبه بالاشتراك مع أحد المستشرقين .

إضافة إلى كتاباته عن التوسيع التركي في آسيا حتى ق 11هـ والأمثال التركية. كما كتب عن البعثة البحرية للسلطان سليمان القانوني بقيادة أمير البحر خير الدين باشا ، وأخيراً

⁽¹⁾ خالد عبدالله القاسم : مرجع سابق ، ص 121 . نجيب عقيقي: مرجع سابق ، ج 1 ، ص 258 .

له موضوع عن السلطان العثماني أحمد الأول .⁽²⁾ عوضاً عن كتاباته ومواده في دائرة المعارف الإسلامية حيث حرر في الدائرة "النسخة العربية" 11 مادة عن التاريخ العثماني فقط ، تتوعد ما بين ألقاب ومناصب في الدولة العثمانية ، أما في النسخة الإنجليزي ، فستتناول الدراسة مادتين من كتاباته، وهي مادة السلطان عبد الحميد الثاني ، والسلطان عبد المجيد الثاني . واتسمت كتاباته بالافتراء المغلف بحقائق خفيفة ، وإن لم تخلُ من حقيقة إلا أنها مشوهة إلى حد لا يأس به .

2) فرانس بابنر Fr . Babinger 1309 هـ - 1891 م - 1387 هـ / 1967 م .

مستشرق ألماني الأصل ، ولد في فيدين ببافاريا ، تخرج من ميونخ بعد دراسته للغتين التركية والعربية ، ثم حاز على وظيفة أستاذ اللغات السامية في جامعة برلين . عمل في التدريس في العديد من الجامعات العالمية أستاداً زائراً في جامعة بوخارست لبعض الوقت ، ثم أستاداً للتركية وتاريخ البلقان في جامعة جامي برومانيا ، وأستاداً للتاريخ والثقافة عن الشرق الأدنى والتركية في ميونيخ ، ثم مديرًا للجامعة ومعهد دراسات الشرق الأدنى في ميونيخ .⁽¹⁾

تعلم اللغة التركية وأنقذها ، وعندي بالتاريخ العثماني ، أهم كتبه في هذا المجال كتابان : الأول "مؤرخو العثمانيين وأعمالهم" 1346 هـ / 1927 م ، ويعتبر كتاباً أساسياً في هذا المجال ، وكتاب "محمد الفاتح وعصره" 1373 هـ / 1953 م ، أما أهم المقالات القصيرة ، فمقالة مفيدة جداً نشرت في بعض المجلات تحت عنوان "الإسلام في آسيا الصغرى" ، وبهذه المقالة يعتبر ممثلاً للدراسات الاستشرافية .⁽²⁾

إضافة إلى العديد من الكتب الأخرى مثل : "سوق الكتب في إسطنبول في القرن الثامن عشر الميلادي" ، و"الدراسات التركية في أوروبا" ، "سلیمان القانوني جاء في مجموعة عظماء من السياسة" ، إضافة إلى "فهرست المصادر التاريخية التركية" ، وهذا

⁽²⁾ نجيب عقيقي: مرجع سابق ، ج 1 ، ص 259 ، 258 . مدارس الاستشراق ، المدرسة الفرنسية ، 1/2009 م ، <http://www.Madinacenter.com>

بحث الاستشراق والمستشرقين ، شذرات ، 2008/11/15 م . <http://www.Shatharat.net>

⁽¹⁾ نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج 2 ، ص 458 . خالد عبدالله القاسم : مرجع سابق ، ص 104 .

⁽²⁾ روبي بارت : مرجع سابق ، ص 43 .

يعتبر سجلاً لجميع الكتب المتعلقة بالأخبار العثمانية ، وفيه 377 ترجمة عن المؤرخين من نهاية القرن الثامن الهجري حتى عام 1354هـ ، الرابع عشر الميلادي حتى عام 1935 ، والكتاب الأخير من أفضل كتبه ، ثم " فهارس بعض المخطوطات العثمانية في القصر الملكي المصري ".⁽³⁾

جاءت أغلب المواد التي حررها في الدائرة وتصل إلى 35 مادة النسخة العربية - عن شخصيات صدور عظام وولادة أقاليم ، إضافة إلى تعريف لبعض الولايات البلقانية واليونانية التي كانت تحت الحكم العثماني ، مع تناوله بعض المناصب والألقاب . أما المادة التي ستتناولها الدراسة فهي مادة السلطان أورخان من النسخة العربية ، وعلى ذلك لا يظهر في كتاباته كثير من التحامل إلا القليل .

(3) جوهان ، هنريغ موردمان 1269هـ - 1351هـ / 1852م - 1932م . Mordtmann, J.H.

مستشرق ألماني ولد في الأستانة ، أبوه من المهتمين بالثقافة البيزنطية فأرسله لدراسة الاستشراق في هامبورج وليبزيج ، وبرلين ، ونتيجة لبراعته وتفوقه كان ينتظره مستقبل لامع، حيث التحق بالسلوك الدبلوماسي ، وبدأ حياته العملية في إسطنبول ، إذ عين فنصلاً بها، ثم أستاذًا مساعدًا في فيينا ، وعندما استقر في ألمانيا بدأ في دراسة الكتب التي جمعها من رحلاته الطويلة من جنوب شبه جزيرة العرب وعني بدراستها وفحص محتوياتها ، وانصب اهتمامه الأول على التاريخ العثماني .⁽¹⁾

ومن أهم مؤلفاته : مجموعة المخطوطات الشرقية التي قدم ترجمة فيها لصور الأقاليم للاصطخري ، وكتب عدة مقالات عن التاريخ العثماني وتركيا .⁽²⁾ حرق في الدائرة أكثر من 34 مادة ارتكز السواد الأعظم منها على شخصيات من التاريخ العثماني ، واتسم أسلوبه بالتحامل والتشويه ، واختلاف الأحداث لمجرد الافتراء . وستتناول الدراسة مادته عن السلطان أرطغرل ، وإبراهيم الأول إضافة إلى مادة دوشمة والقسطنطينية .

⁽¹⁾ نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج 2 ، ص 459.

⁽²⁾ نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج 2 ، ص 398 . خالد عبدالله القاسم : مرجع سابق ، ص 154 . مدارس الاستشراق . المدرسة الألمانية ، 2009/2/1 م . <http://www.Madinacenter.com>

⁽²⁾ نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج 2 ، ص 745 . بسام عمار . تدريس العربية في الجامعات الغربية . 2008/12/15 م . <http://www.awu-dam.org>

(4) كرامز 1309هـ 1891م - 1371هـ / 1951م

Kramers , J.H.

من أشهر المستشرقين الهولنديين ، عمل مترجماً للسفارة الهولندية في إسطنبول، ثم عُين أستاداً للتركية والفارسية في جامعة ليدن ، ثم تولى كرسي اللغة العربية فيها .⁽³⁾ له عدة كتابات في التاريخ العثماني ، منها فن التاريخ عند الأتراك العثمانيين، كما أن له عدة مقالات عن التاريخ العثماني في دائرة المعارف الإسلامية ، إضافة إلى عدة مقالات عن الجغرافيا والتشريع في الإسلام ، وترجمة لقرآن الكريم .

حرر في الطبعة الأولى من الدائرة 75 مادة غالباً في الجغرافيا والتاريخ ، ويظهر في كتاباته بعض الحيادية والإنصاف وعدم التعصب ، وأشهرها مادة حررها باسم السلطان سليمان القانوني ، وأبرز ما جاء في هذه المادة نقد للمصادر الأوروبية التي تناولت شخصية السلطان سليمان القانوني حيث وصف المصادر بأنها أكثر نقداً وأقل معلومات ، وتنسم في الغالب بالغرض .⁽¹⁾

5) إيز نبرغ " أوهير شبرج " J.Eisenber

مستشرق روسي متخصص بتاريخ اليهود في شبه الجزيرة العربية، يظهر بوضوح ميله الشديد لليهود ، ومحاولة دعم قضياتهم دائماً حيث جاءت أغلب كتاباته لإنصاف اليهود ، وإعطائهم حقوقاً ليست لهم ، من أهم كتاباته " اليهود في الجزيرة العربية " ، تناول فيه تاريخهم من خراب بيت المقدس إلى الحملات الصليبية ، ومن أهم المقالات " اليهودية في الجاهلية ".⁽²⁾ حرر في الدائرة أربع مواد عن أنبياء اليهود ، ومادة عن يهود الدونمة وهي ما ستشير الدراسة إليها .

(6) كارل فيلهلم ، زتر ستين 1283هـ - 1866م / 1373هـ - 1953م KARL VILHELM ZETTERSTEEN

مستشرق سويدي ، تلقى تعليمه بالسويد ، أهم أعماله فهرس بعنوان "المخطوطات العربية والفارسية والتركية في المكتبة " حيث قام بوصف وفهرسة المخطوطات الموجودة في

⁽³⁾ خالد عبد الله القاسم : مرجع سابق ، ص143 ، نجيب عقّيق : ج 2 ، ص670 .

⁽¹⁾ خالد عبدالله القاسم : مرجع سابق ، ص102 .

⁽²⁾ مرجع سابق ، 143 ، 144. الاستشراق الروسي. مصادر الاستعراب الروسي . http://www.awu-2009/5/7 dam.org

مكتبة جامعة أسبالا ، وقد أصدره في جزئين عام 1349هـ - 1354هـ / 1930 م - 1935م . كما نشر هذا الفهرس في المجلة التي كان يحررها وعنوانها Le monde Oriental . أما عن إصداراته في ميدان التاريخ الإسلامي فقد أخرج "إسهامات في تاريخ السلاطين المماليك في السنوات من 690هـ إلى 741هـ ، وفقاً لمخطوطات عربية " . وله إسهامات في تاريخ ولغات وآداب أوروبا وآسيا عن طريق مقالات في مجلته . أما بالنسبة لدائرة المعارف الإسلامية فله كثير من المواد التي تتناول الخلفاء والولاة وسائر الشخصيات السياسية البارزة في التاريخ الإسلامي .⁽³⁾

كتب مادة عن السلطان عبد العزيز ستتناولها الدراسة خاصة وأن أغلب المواد التي حررها تناولت حياة أبرز الشخصيات الإسلامية ، أسهم بشكل كبير في دس الافتراء والتشویه على سيرة هؤلاء العظماء .

7) دنكان بلاك ، ماكدونالد : 1280هـ - 1363هـ / 1863م-1943م .

Duncan Black Madonald

من أشهر المستشرقين المتعصبين ضد الإسلام على الإطلاق، داعم نشط لليهود ، والصهيونية ، أمريكي بالإقامة وبريطاني المولد ، ولد في جلاسكو عام 1280هـ / 1863م، شديد التقوى ، صرف نشاطاً كبيراً في التنصير المسيحي، وفي إعداد المنصرين .⁽¹⁾ يعتبر ممثلاً اسكتلندياً للدراسات العربية والعلوم الإسلامية في أمريكا .⁽²⁾

كان صديقاً وتلميذاً للمستشرق نيكولسن في الدراسة ، تعلم في جلاسكو ثم في برلين ، أتقن اللغات الشرقية ، ثم تعلم اللغات السامية في حلقة اللاهوت بمدينة هارتفورد إلى جانب دراسة اللغة العربية ، وتفسير التوراة . واهتم اهتماماً خاصاً باللغة العربية حيث عكف على دراسة اللغة العربية نظراً لأهميتها بالنسبة لعمله التنصيري المسيحي في الشرق .⁽³⁾

وأبلغ دليل على أنه منصر وأنه لم يتخذ الكتابة في التاريخ الإسلامي إلا لتشويه ودس السموم في التاريخ الإسلامي وستاراً لعمله الأساسي ألا وهو الدعوة إلى المسيحية والتنصير

⁽¹⁾ عبد الحميد صالح حمدان : مرجع سابق ، ص144 ، 145 .

⁽²⁾ عبدالرحمن بدوي : مرجع سابق ، ص538 . الاستشراق . الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، 19/5/2009م . <http://www.Said.Net>

⁽³⁾ يوهان فوك : مرجع سابق ، ص 298 .

⁽⁴⁾ مرجع سابق ، ص298 . نجيب عقيقي: مرجع سابق ، ج 3 ، ص136 .

، عوضاً عن تأسيسه لمدرسة كندي للبعثات بعد طوافه في الشرق الأدنى عام 1330هـ / 1911م في جامعة هارفارد ، كما إنه أشرف على القسم الإسلامي فيها لمدة طويلة .⁽⁴⁾
 وأنشأ بمعاونة صمويل زويمر اليهودي مجلة العالم الإسلامي ، وهي مجلة دورية ،
غرضها الأساسي التصوير ، حيث عمل ناشراً بها لخدمة هذا الغرض .⁽⁵⁾
نال عضوية المجمع العلمي العربي ، وكان من أوسع المستشرقين اطلاعاً على الدين
الإسلامي .⁽⁶⁾

اتّسم نتاجه العلمي بالوضوح في العرض ، لكنه جاء خالًّ من التعمق في الحديث
وتحصيل الباحث إلى جانب الاهتمام بالحياة الدينية في الإسلام ، اهتم بتاريخ العلوم عند
العرب في الإسلام . ووجه اهتماماً خاصاً بدراسة كتاب الحكايات والأساطير "ألف ليلة
وليلة".⁽¹⁾ وله العديد من المؤلفات أهمها :

كتاب "سمات الإسلام" لأغراض التصوير ، "كيفية تقديم المسيحية إلى المسلمين"
عام 1335هـ / 1916م⁽²⁾ ، "أوجه الإسلام" وطبع في نيويورك ،

"فهرس المخطوطات العربية والتركية في مكتبة نيوبوري" بشيكاغو . جمع كتاب الحكايات "ألف ليلة وليلة" في نسخة فريدة ، وكتب أيضاً عن "التصوف الإسلامي والمسيحي" . و"علم الكلام في الإسلام" ، وهي دراسة اشتغلت على مصطلحاته، وما جاء عنه في القرآن
والحديث والتفسير والمؤلفات الدينية واللغوية .⁽³⁾

وقام بزيارة إلى الشرق الإسلامي ، كانت مصر أبرزها ما بين 1325هـ - 1907م / 1326هـ - 1908م ، ثم فلسطين وسوريا . وناقش نتائج رحلته العلمية وتجارب

⁽⁴⁾ نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج 3 ، ص 136 . يوهان فوك : مرجع سابق ، ص 298 ، خالد عبدالله القاسم : مرجع سابق ، ص 150 .

⁽⁵⁾ المرجع السابق ، ص 150 . يوهان فوك : مرجع سابق ، ص 298 .

⁽⁶⁾ خالد عبدالله القاسم : مرجع سابق ، ص 150 . مدارس الاستشراق . المدرسة الأمريكية ، 2009/2/1
<http://www.Madinacenter.com> .

⁽¹⁾ عبد الرحمن بدوي : مرجع سابق ، ص 538 . نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج 3 ، ص 136 ، 137 .

⁽²⁾ يوهان فوك : مرجع سابق ، ص 298 .

⁽³⁾ نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج 3 ، ص 136 ، 137 ، عبد الرحمن بدوي : مرجع سابق ، ص 538 . الاستشراق . الندوة العلمية للشباب الإسلامي ، 2009/5/19م ، <http://www.Said.net> .

ال المسلمين الدينية في كتابه "الموقف الديني والحياة في الإسلام" عام 1327هـ / 1909م.
(4)

اعتمد في كتابته على بصيرته في الكتابة ، والاتكاء على النصوص والشواهد الواهية وغير الثابتة التي تؤكد أقواله ، ويستخلص نتائج تسير وفق رغباته . وذلك في تناول الأحداث التاريخية الإسلامية ، ودون الجزء الأكبر من نتاجه في مقالات صحفية ، ومشاركات علمية ، أهمها على الإطلاق "دائرة المعارف الإسلامية" .⁽⁵⁾

وعندما تقاعد عن التدريس كرس وقته لتحقيق مشروع خطط له طوال حياته ، ألا وهو دراسة "العهد القديم" من الكتاب المقدس . فأصدر المجلد الأول "العقربية الأدبية العبرية" ، ثم المجلد الثاني "العقربية الفلسفية العبرية"⁽⁶⁾

يدل نتاجه الغزير عن اللغة العبرية واليهودية على مدى ميله لليهودية، وظهر ذلك بوضوح تام في كتاباته المتحاملة على الإسلام والمسلمين خاصة المواد التي حررها في دائرة المعارف الإسلامية التي فيها تجني واضح وصريح على الإسلام . وستنتقده الدراسة في موضع وصف أهل الذمة .

8) إيوار "أوهيوار" ، كليمان cl. Huart

1271هـ - 1854م :

مستشرق فرنسي ولد في باريس ، وتلقى تعليمه في مدرسة اللغات الشرقية، ومدرسة الدراسات العليا حيث تخرج منها ، ثم عُين مترجماً في فصلية فرنسا بدمشق ، ثم مترجماً في سفارة الدولة العثمانية ، وبعدها ترقى إلى قنصل، ثم انتقل إلى باريس للعمل في وزارة الخارجية أمين سر ، وانتدبه لتمثيلها في مؤتمر المستشرقين بالجزائر عام 1323هـ / 1905م ، وقد عُين قنصلاً عاماً عام 1331هـ / 1912م .⁽¹⁾ يلاحظ مما سبق أنه تدرج في الوظائف الدبلوماسية ، ويدل ذلك على براعته من الناحية السياسية ، مما أعطاه خلفية ثقافية عالية ساعدته على الكتابة في التاريخ الإسلامي .

(4) يوهان فوك : مرجع سابق ، ص298 .

(5) مرجع سابق ، ص299 .

(6) عبد الرحمن بدوي : مرجع سابق ، ص538 .

(1) خالد عبدالله القاسم : مرجع سابق ، ص103 . مدارس الاستشراق . المدرسة الفرنسية 10/2/2009 .
<http://www.Madinacenter.com> .

لم يمض عليه وقت طويل حتى آثر العلم على الوظيفة ، وانصرف إلى التدريس والتصنيف ، إذ أصبح أستاداً للعربية والفارسية في مدرسة اللغات الشرقية ، ومديراً لمدرسة الدراسات العليا حيث كان يلقي محاضراته في تفسير القرآن الكريم بالفصحي ، إذ أتقن العربية الفصحي تماماً إضافة إلى التركية والفارسية ، وشغل منصب نائب رئيس مجمع الكتابات والأداب ، ثم انتخب رئيساً للمجمع ، ونال عضوية عدة مجامع علمية ومعاهد ، منها عضواً في المعهد الفرنسي، والجمعية الآسيوية ، والمجمع العلمي العربي بدمشق ، كما منح أوسمة من فرنسا وتركيا واليونان وتونس والجزائر وإيران .⁽²⁾

تعلم اللغة العربية جعل نتاجه غزيراً في الكتابات الاستشرافية التي تهتم بالعلوم الإسلامية، خاصة وأنه تدرج في وظائف مهمة أدت إلى غزاره ثقافته وعطائه .

وضع عدة كتب عن التاريخ العام ، أهمها "تاريخ العرب" جاء في جزأين ، وقد ترجم إلى الألمانية .⁽¹⁾ "تاريخ بغداد في العصر الحديث". والكثير من الترجمات الأدبية ، عوضاً عن عدة مقالات عن التاريخ الإسلامي مثل : "أصول الدولة في الإسلام" ، و"الخلافة والجهاد" ، و"الحج إلى مكة" ، و"مهد الإسلام".⁽²⁾ كما قام بفهرسة الكتب العثمانية والعربية والفارسية المطبوعة في إسطنبول . ووضع كتاباً عن تاريخ حملة السلطان سليمان الأول على بلغراد .⁽³⁾

يعد أكثر من حرر مواداً عن العثمانيين في دائرة المعارف الإسلامية حيث كتب عن الإنكشارية ، وعن السلاطين بايزيد الأول ، بايزيد الثاني ، واتصفت كتاباته بالبعد عن الحقيقة، ولا تخلو من الافتراء والسطحية في المعلومات ، وعدم صدق أغلبها ، وتخلو من العمق والتحليل للحدث التاريخي .

- (9) ليفي بروفنسال LEVI PROVENCAL 1312هـ-1375هـ / 1894م - 1956م .

⁽²⁾ نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 213 . بسام عمار . تدريس العربية في الجامعات الغربية ، 2008/2/15 .
<http://www.Awu-dam.Org> .

⁽¹⁾ نجيب عقيقي : مرجع سابق : ج 3 ، ص 500 .

⁽²⁾ خالد عبدالله القاسم : مرجع سابق ، ص 103 .

⁽³⁾ نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 215 ، 216 .

من أكثر المستشرقين الفرنسيين الذين اشتهروا بكتابه أبحاث عن تاريخ المسلمين في إسبانيا . ولد في الجزائر عام 1312هـ / 1894م من أسرة يهودية ، نال تعليمه الأول في الجزائر ، ثم دخل جامعة الجزائر، وتلّمذ على يد رينيه باسه .⁽⁴⁾

نال الليسانس من كلية الآداب عام 1331هـ / 1913م ، وأنشأ الحرب عمل ضابطاً بالجيش ، واشترك في الحرب العالمية الأولى ، ونقل إلى مصر ومنها إلى فرنسا ، ثم المغرب إذ عمل في معهد الدراسات العليا المغربية في الرباط، ثم أستاذًا به ، ثم مديرًا له ، وهنا وقع في غرام مدينة مراكش ، وخطفت لبه ، ونال درجة الدكتوراة في موضوعات تخصها، ثم عمل في جامعة الجزائر في كلية الآداب أستاذًا لتاريخ العرب والحضارة الإسلامية . درس في عدد من الجامعات ، مثل جامعة السوربون بفرنسا ، وألقى محاضرات في جامعة القاهرة، ومعهد الدراسات الإسلامية في السوربون ، وعمل أستاذًا للعربية والحضارة الإسلامية بجامعة باريس . وله نشاط ملحوظ في إدارة المطبعة الفرنسية لدائرة المعارف الإسلامية ، وأنشأ مجلة " أرابيكا للدراسات العربية " التي أصبحت أهم مجلة متخصصة في الآداب العربية والعلوم الإسلامية .⁽¹⁾

ولا شك أن رحلاته الكثيرة وتقاعده قد أعطته خلفية جيدة عن البلاد الإسلامية خاصة إذا وضعنا في الاعتبار ميله للمغرب العربي ، ومعرفته للغة العربية . هذه الحياة الحافلة جعلته ينال رضا الحكومة الفرنسية ، ويقدم لها خدمات خطيرة في مهام سرية بين لندن والقاهرة القدس ودمشق.⁽²⁾

وهذه كانت أعمال تجسسية بحثة ؛ لأنها كوفئ على ذلك ، وعلى جهوده في الاستشراق؛ فعد المرجع الأكاديمياً عن تاريخ المغرب والأندلس . وأتمَ عمله في دائرة المعارف الإسلامية بأوسمة رفيعة ، وعضوية جمعيات عديدة ، إذ إنه وجده اهتمامه الخاص بتاريخ إسبانيا الإسلامية ، وأصدر فيه العديد من المؤلفات والكتب عن تاريخ هذه الحقبة .⁽³⁾

⁽⁴⁾ عبد الرحمن بدوي : مرجع سابق ، ص 520 .

⁽¹⁾ نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 293 . عبد الحميد صالح حمدان : مرجع سابق ، ص 188 .

⁽²⁾ مرجع سابق ، ج 1 ، ص 293 .

⁽³⁾ مرجع سابق ، ص 293 – 300 . عبد الرحمن بدوي : مرجع سابق ، ص 520 – 522 . عبد الحميد صالح حمدان : مرجع سابق ، ص 188 ، 189 .

وأبرز كتبه عن تاريخ إسبانيا الإسلامية كتاب "تاريخ المسلمين في إسبانيا"، وعلى الرغم من إسهامه في إبراز تاريخ تلك الفترة إلا أن كتابه في حاجة إلى مزيد من الدراسة من عدة نواحٍ ، فبعض الافتراضات التي وضعها المؤلف مطعون في صحتها من الأساس .⁽⁴⁾

كتب في دائرة المعارف عدة موضوعات لكن ما يهم الدراسة مادته عن السلطان محمود الثاني التي اتسمت بالواقعية أكثر من اللازم ، وإيراد أحداث ليست لها أهمية في سياق الدولة العثمانية ، بل والتركيز عليها دون داعٍ .

١٠) خليل إيناليجك :

برغم أنه لا يعتبر من المستشرقين إلا أن المادة التي قدمها لنا وهي مادة محمد الفاتح تحتاج إلى إعادة نظر ومن هذا المنطلق ستتقد الدراسة بعض الموضع في المادة لأهميتها . كان مؤرخاً تركياً ، ولد عام ١٣٣٥هـ / ١٩١٦م في إسطنبول ، تلقى تعليمه الأساسي فيها ، وأتم دراسته الجامعية في أنقرة ، نال شهادة الدكتوراة في التاريخ من كلية الآداب بجامعة أنقرة عام ١٣٥٩هـ/١٩٤٠م ، ويعمل حالياً في جامعة بيلكنت بأنقرة أستاذًا للتاريخ العثماني، وهو مؤسس دائرة التاريخ فيها ، عمل في عدة جامعات أوروبية وأمريكية ، منها جامعة كولومبيا ، وبرنستون ، وبنسلفانيا ، إضافة إلى جامعة شيكاغو ، له أكثر من ٢٠٠ مقالة بحثية ، والعديد من الكتب المتعلقة بالتاريخ العثماني منها :

(١) سليمان الأول وعصره .

(٢) مصادر ودراسات عن البحر الأسود العثماني .

(٣) مقالات في التاريخ العثماني ، إسطنبول ١٩٩٨م .

(٤) الشرق الأوسط والبلقان تحت حكم الإمبراطورية العثمانية : مقالات في الاقتصاد والمجتمع .

(٥) دراسات في التاريخ العثماني الاجتماعي والاقتصادي .

(٦) الإمبراطورية العثمانية : الفتوحات والتنظيم والاقتصاد .

(٧) الحضارة العثمانية : مجلدات أنقرة ، ٢٠٠٥م .

⁽⁴⁾ محمد بن عبود : مرجع سابق ، ص ٣٥٤ ، ٣٥٥ .

(٨) العثمانيون 12 مجلداً بالتعاون مع أكمل الدين أوغلو وغيرهم .

(٩) كمال أتاتورك مع برنارد لويس ، ميلانو ، 1998 م .^(١)

وشارك في دائرة المعارف الإسلامية بعده كثير من المواد والمقالات . ارتكز أسلوبه في مواد الدائرة على منهجية المستشرقين معتمداً على المعلومات التي سبق وأن قدموها ، ولم يحاول التأكيد من مدى صحة هذه المعلومات ، وتميز بإضافة القليل من التهويل ، والاعتماد على ألفاظ أكبر من الحدث ، وصياغة أحداث غير واقعية ، تعتمد على خيال المستشرقين الذين سبقوه ، بل وعدم إيراد أدلة عليها ، وهو بذلك سار على منهجية المستشرقين تماماً دون أن يحيد عنها مع أنه تركي ، وعاش في إسطنبول قلب الخلافة العثمانية ؛ والأجدى به أن يكون فاهماً لأحداث العهد العثماني أكثر .

وللأسف لم تستطع الدراسة الحصول على نبذة عن حياة وأسلوب ثلاثة من المستشرقين الذين كتبوا في الدائرة عن الدولة العثمانية .

(١) كافد بايسون الذي قدم للدائرة مادة مهمة جداً ، وهي مادة "بيكر كوسن" ، وجاء أسلوبه مشوشًا للمعلومة وخارقًا للحقائق .

(٢) E.D ، وهو الاسم المختصر للمستشرق ، وللأسف لم تستطع الدراسة الحصول على اسمه أو حتى على تعريف عنه ، رغم أهمية المادة التي قدمها للدائرة ، وهي عن الحريم "المنطقة المحرمة" .

(٣) المستشرق جيس الذي كتب مادة "جندرة لي" في دائرة المعارف الإسلامية . لم يكن عمل هؤلاء المستشرقين سطحياً ، أو غير منظم ، فقد كان هناك دائمًا مساحة لنشر أبحاثهم في المجلات والدوريات العلمية ، إضافة إلى عقد المؤتمرات الدورية ، لعرض أبحاثهم ، وآخر دراساتهم الاستشرافية . وعقد لهم أول مؤتمر دولي في باريس عام 1290هـ / 1873م ، وتتابعت المؤتمرات بعد ذلك حتى بلغت أكثر من ثلاثين مؤتمراً دولياً ، فضلاً عن الندوات واللقاءات الإقليمية الكثيرة الخاصة بكل دولة من الدول ، كمؤتمر المستشرقين الألمان الذي عقد في مدينة درسدن بألمانيا سنة 1266هـ / 1849م ، وما تزال هذه المؤتمرات تعقد إلى وقتنا الحالي .

^(١) خليل إينالجيك : تاريخ الدولة العثمانية من التشوه إلى الانحدار ، ترجمة : محمد . م . الأرناؤوط ، ط 1 ، بيروت : دار المدار الإسلامي ، 2002م ، ص 2 .

ويحضر هذه المؤتمرات مئات من العلماء المستشرقين حيث حضر مؤتمر أكسفورد تسعمئة عالم من خمس وعشرين دولة ، وثمانين جامعة ، وتسع وستين جمعية علمية .⁽¹⁾

وكما مر بنا في الدراسة إن أغلب المستشرقين يهود ، أو يميلون لليهودية ، فجاءت أعمالهم جزءاً من مخطط كبير ، ألا وهو المخطط الصهيوني والصليبي لمحاربة الإسلام وتشويه تاريخه ، بل والقضاء عليه إن أمكن . إن فهم حقيقة المستشرقين لا يمكن أن نراه إلا في إطار ذلك المخطط الذي يهدف إلى تخریج أجيال لا تعرف عن الإسلام إلا الشبهات ، وقد تم انتقاء أفراد من هذه الأجيال؛ لتتبوا أعلى المناصب ، ومرانة القيادة للتوجيه المستمر في خدمة الاستعمار .

ولا تزال هذه الأفلام والمجلات ترد إلى العالم الإسلامي من مختلف دول العالم باسم التبادل الثقافي من دول أساساً لها أطماء استعمارية في العالم الإسلامي، فلا تقدم إلا أنواعاً معينة من السينما والكتب والقصص ؛ لتفذ إلى أعماق النفس العربية والإسلامية وتروج لمفاهيم خاطئة تصبح حقائق موصى بها بعد ذلك .

إن أهم ما ارتكز عليه التصوير مع الاستشراق هو دراسة التاريخ وآدابه والنفاذ داخله، ودراسة نفسية هذه الأمم ؛ ليكفيوا موقفهم معها ، ويعروفوا من أي جهة يستطيعون إخضاعها ، وما هي جوانب الضعف فيها للانتفاع بها ، وجوانب القوة للقضاء عليها .⁽¹⁾

كما اتخذوا من اللغة العربية مجالاً واسعاً للخوض فيه ، فعملوا على الحط من اللغة العربية الفصحى ، وتهوين قدرها ، بل واعتبار استخدامها تخلفاً ورجعية، وإحلال العامية مكانها . وقد أقبل القساوسة أنفسهم على دراستها ؛ لفهم أغوارها وقواعدها ؛ فانتشر تعليمها في المعاهد الدينية ، وأنشئت مطابع عربية ، وجمعت لها الكتب العربية حتى أن مكتبة الفاتيكان في روما ضمت إليها مجموعات ضخمة من الكتب العربية ، فقد جاء هدف دراسة رجال الدين التابعين للفاتيكان للغة العربية ، لتخريج أهل جدل يقارعون فقهاء المسلمين ، ويردون عليهم بأدلة ضعيفة من الكتب الإسلامية .⁽²⁾

⁽¹⁾ مؤتمرات المستشرقون . وسائل المستشرقين ، 2008/12/25 م . <http://www.Eltwhed.com> .

⁽¹⁾ عبدالمجيد الصافوري : مرجع سابق ، ص 331 .

⁽²⁾ محمد عبدالفتاح عليان : مرجع سابق ، ج 2 ، ص 24 ، 25 خلف الوديناني : مرجع سابق ، ص 180 . بسام عمار . تدريس العربية في الجامعات الغربية ، 2008/12/15 م . <http://www.Awu-dam.Org> .

وتسلي المنصرون داخل الدولة العثمانية تحت ستار نشر العلم والخدمات الإنسانية مستفيدين من التسهيلات المتاحة لهم للتنقل عبر المناطق ، ينشئون المراكز التصديرية ، ومدارس للتعليم على الطريقة الغربية بحجة تعليم أبنائهم ، ولكن الحقيقة هدفها التنصير ، مع إقامة علاقات واسعة وحميمة مع أبناء البلاد المحليين ، وتعليم أطفال الأقليات غير المسلمة ، وتقديم المساعدات والإغراءات المالية لأبناء المسلمين الذين يتعلمون في مدارسهم .

وعندما أحست الدولة العثمانية بتحركات المنصرين راقبتهم مراقبة شديدة ، وضيقوا الخناق عليهم ، وكان العثمانيون يرتابون بالمنصرين البروتستانت ، لأن هؤلاء يتوارون وراء العلم البريطاني ، وبالمنصرين الذين يعملون للسياسة الفرنسية ، ووصل الأمر إلى بذل الدولة العثمانية لجهود كبيرة لعزل المنصرين عن شبه الجزيرة العربية ، راقبتهم بشدة ، ووضعت أمامهم العراقيل حتى لا يصيرون أي نجاح ، فمثلاً نجد أنه عندما تم افتتاح الجمعية التصديرية لبعض مدارس في لبنان لأطفال الدروز حوالي عام 1292هـ / 1875م اضطرت الجمعية إلى التخلي عنها أمام إصرار الدولة العثمانية . والحقيقة أن الدولة العثمانية تتخذ تلك الإجراءات دون الإعلان عنها ؛ وذلك لأن المنصرين يأتون رعايا أجنب ، وما أن يستقرروا حتى يأخذوا في التنصير سراً .⁽¹⁾

وكثيراً ما كان يتلقى هؤلاء الدعم والرعاية والاهتمام من قناصلهم ورغم ذلك كانت الدولة العثمانية تراقبهم بشدة ، فقد ظلت تمنع الأطفال من دخول مدارسهم قبل أن ينهوا التعليم الابتدائي في المدارس الرسمية ، وعمدت في عام 1306هـ / 1888م إلى إغلاق مدارس المنصرين الأمريكية ؛ لأن هذه المدارس فتحت أبوابها دون رخصة من الحكومة . وهذا اتخاذ المنصرون أسلوباً جديداً عندما أدركوا أن الحكومة العثمانية قد سدت جميع الأبواب في وجوههم ؛ فلجأوا إلى الاحتماء خلف الامتيازات الأجنبية ، فكانوا يجوبون البلاد كأجانب ، ويعملون كمنصرين . وتخلى هؤلاء عن تعاليم المسيحية ، وأخذوا يثيرون الفتنة واللائل والحراب بين طوائف البلاد العثمانية كما حدث في بلغاريا واليونان ولبنان وغيرها .⁽²⁾

وعند هذا الحد يتضح لنا أن نشأة الدراسات الاستشرافية أساسها ديني محض ، ولم يكن هناك بد من ارتباط التنصير بالاستشراق حيث إن المنصرين يحتاجون في عملهم إلى ما توصل إليه المستشرقون ؛ ليسهل لهم المهمة في التعامل مع المسلمين وغير المسلمين .

⁽¹⁾ مجدي عبدالمجيد الصافوري : مرجع سابق ، ص 333 سلمى أحمد : وعد بالغور ، ص 64 .

⁽²⁾ مصطفى الخالدي ، عمر فروخ : التبشير والاستعمار في البلاد العربية ، ط 1 ، القاهرة ، د. ت ، ص 134 ، 135 .

وظل التصوير مقروراً بالاستشراق حتى القرن 12هـ / 18م ، وأسهمت في هذا المجال الكنائس البروتستانتية لمساندة الكاثوليك .⁽³⁾ اعتبر عام 1326هـ / 1908م لدى المنصرين من الأعوام الحاسمة في حركة التصوير ؛ لأنه فصل بين عهدين: عهد التطبيق ، وعهد حرية الحركة؛ لأن الانقلاب الذي قاده الاتحاديون ضد السلطان عبد الحميد كان له أبعد الأثر في توسيع حركة التصوير في الدولة العثمانية كلها ؛ لأن تجولهم في أراضيها أتسم بالحرية والنشاط الزائد، غير ممنوع أو محظور ، ويتبين هدف المنصرين في أن السيادة الغربية في أي قطر إسلامي معناها تسهيل انتقال المسلمين إلى النصرانية .⁽⁴⁾ وظللت العلاقة بين الطرفين أخذًا وعطاءً ، ولم تفصل يوماً وإن تستر المنصرون خلف المستشرقين إلا أن هذا لا يعني اختفاء أحد الطبقتين.

إن أغلب المستشرقين كانوا يهودون الدراسات الاستشراقية ، ثم يتذذونها مهنة كأي مهنة حرة في المعاهد والمكتبات والمتاحف ، ولها مطابع خاصة إضافة إلى دور نشر ومجلات .

إن الحقيقة العلمية والموسوعية لا يمكن أن تتتوفر في كتابات المستشرقين ؛ لأننا لو بحثنا عن حقيقة الغالبية العظمى من المستشرقين لوجدنا أن أكثرهم ليسوا من أهل العلم أو المتخصصين في حقول الدراسات الإنسانية من تاريخ وآداب ، وإنما نصبووا أنفسهم علماء وأساتذة جامعات ، و مع مرور الزمن أصبحوا مصادر ومراجع موثوقة عن تراث الإسلام وحضارته في الوقت الذي افتقدو فيه أي شيء عن فهم العلم وعن أخلاقيات العلماء ، وعجزوا عن فهم البلاغة العربية مما أعقدهم عن تقصي الحقائق ، والوصول إليها ، وتدوينها بطريقة صحيحة في كتاباتهم ، والسبب بسيط جداً ، لأنهم في حقيقة أمرهم يهود ، أو ميولهم صهيونية واضحة في كتاباتهم . لذلك فإن لليهود دوراً منذ القدم في توجيه الكتابة عن التاريخ عامه ، والتاريخ الإسلامي خاصة . وما يهم الدراسة هو توجيههم للكتابة عن التاريخ العثماني بالذات ، و يأتي في المقام الأول السبب في ذلك ؛ للدور الذي قامت به الدولة والخلافة العثمانية للوقوف أمام أطماع اليهود والصهيونية في فلسطين . لذلك كان لهم دور كبير في إخراج التاريخ العثماني بهذه الصورة المظلمة والموحشة .

⁽³⁾ محمد عبدالفتاح العليان : مرجع سابق ، ج 2 ، ص 25 .

⁽⁴⁾ مصطفى الخالدي ، عمر فروخ : مرجع سابق ، ص 146 .

المبحث الثالث :

دور اليهود في توجيه منهج الكتابة التاريخية عن الدولة العثمانية

اتضح مما سبق أن الاستشراق منهج فكري ديني ، طوره المستشرقون اليهود وال المسيحيون للتعبير عن وجهة نظر دينية يهودية أو مسيحية ضد الإسلام . وقد جاء القرآن الكريم بالدليل القاطع لإثبات كراهية اليهود للإسلام ، وذلك في قوله تعالى : ﴿لَيَحِدَّ أَشَدَّ
النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ ظَاهَرُوا مِنَ الْيَهُودِ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ .⁽¹⁾

فالمدرسة اليهودية في الاستشراق مدرسة دينية هدفها الدفاع عن اليهودية ضد الإسلام ، والرد عليه ، بمعنى أنه هدف ديني يوجه المستشرق نحو الدين اليهودي . ثم انتقلت المدرسة اليهودية من الدفاع عن ديانتهم إلى الهجوم على الإسلام ، ونقده من منطلق ديني خالص .

وعندما يتحدث الاستشراق عن إحدى الديانات الوضعية كالبودية والهندوسية وغيرها تخلو كتاباتهم من الهجوم والافتراء والتحدي والصراع الذي يوجه كتاباتهم في الإسلام ، بل نجد أحياناً بعض التعاطف مع ديانات الشرق الأقصى لغرائبها من ناحية ، ولعدم وجود

⁽¹⁾ سورة المائدة : آية 82 .

صراع مباشر بينها وبين اليهودية ، أو لعدم تشكيل هذه الديانات خطورة على اليهودية مقارنة بالإسلام .

عندما أحس اليهود أن الاستشراق باب خطير، ويخدم أهدافهم في التسلل إلى البلاد التي يأملون السيطرة عليها وفق طريقتهم، ويريدون أن يتخدوا لأنفسهم أبواباً من أبنائهما ففقد تخصص منهم عدد لا بأس به في الدراسات الاستشرافية ، ضمن المدرسة الاستشرافية اليهودية؛ خدمة لأهدافهم الصهيونية في العالم الإسلامي. ⁽²⁾

فقد دفع اليهود بالكتابة التاريخية عن الدولة العثمانية ، وقاموا بتشجيع المستشرقين في أوروبا بعمل دراسات كثيرة عن العثمانيين ، وكانوا يقولون: إن خير ضمان لبقاء أوروبا وتغلبها على العثمانيين القيام بمثل هذه الدراسات الاستشرافية لا بالحروب والثورات ، حتى إنه ظهر في فرنسا وحدها في أقل من قرنين من الزمان أكثر من ثمانين كتاباً عن الدولة العثمانية ، بينما لم يصدر في نفس الفترة عن الأميركيتين المكتشفة حديثاً إلا أربعون كتاباً فقط. ⁽¹⁾

اهتم الاستشراق اليهودي بالدراسات العثمانية ، وببدأ اليهود في خدمة أوروبا؛ لإضعاف الخلافة العثمانية من الداخل ، وظهر دورهم القوي في إسقاط السلطان عبد الحميد الثاني ، والإيقاع بين العرب والأتراك ، ونشر العثمانية في تركيا ، ودورهم الأكبر ظهر في التمهيد لإقامة كيان صهيوني في فلسطين مستغلين ضعف الخلافة العثمانية . ⁽²⁾

إن الدولة العثمانية عبر تاريخها الطويل تعرضت لكثير من حملات التشويه المتمعة ، تولى قيادتها الاستعمار الأوروبي ، تقوده روح صليبية ، مع الصهيونية الحاقدة على الدولة العثمانية التي وقفت أمام تحقيق أطماعها في فلسطين .

تكمن خطورة دور اليهود في الاستشراق في أنهم هم الذين أمدوا الكتابات الاستشرافية والرأي العام في الغرب بكل الصور المشوهة والمغلوطة عن الإسلام ، وبالتالي عن الدولة العثمانية . ⁽³⁾

ورسم المتحاملون على الدولة العثمانية صورة حالكة الظلام لتاريخها ، وألحقوا بها وبحكمها في ولاياتها الأوروبية والعربية كل المساوى من استبداد ، وظلم ، وجهل ،

⁽²⁾ أحمد عبد الله الزغبي : مرجع سابق ، ج 3 ، ص 551 ، 552 .

⁽¹⁾ أحمد سعيد نونو : مرجع سابق ، ص 48 ، 49 .

⁽²⁾ محمد خليفة حسن أحمد : مرجع سابق ، ص 45 .

⁽³⁾ محمد جلاء إبريس : مرجع سابق ، ص 868 .

ومصادر لاموال الرعایا إلى القيام بمذابح عامة وصولاً إلى فرض العزلة والستار الحديدي على البلاد العربية بالأخص ، مما أدى إلى تخلفها عن ركب الحضارة والتقدم .

وأغفل هؤلاء الناقمون والمحاملون الخدمات الجليلة التي قدمتها هذه الدولة لولاياتها العربية ، ويكفيها فخراً أنها حملتها من الاستعمار الأجنبي .⁽⁴⁾

وقد ارتكزت كتابات اليهود عن الدولة العثمانية على عدة نقاط:

(١) روح العداء اليهودي نحو الخلافة الذي ظل حياً لم يخدم ، وظهر بوضوح في إشعال نار المعارك العسكرية والغزو التفافي المتواصل.⁽⁵⁾

(٢) التفوق العسكري الغربي الذي أخذ اليهود يعملون لتحقيقه منذ صدمة الغرب في الحروب الصليبية ؛ فدعم اليهود روح الانتقام والتصميم ؛ فطوقوا العالم الإسلامي بالسيطرة على المحيطات .

(٣) لم يحقق أتاتورك أغراضه إلا بكسر إرادة المسلمين التي خدعها في البداية ثم تتمر عليها ، فقمع ثورات المسلمين وعلمائهم بأشد أنواع القوة والقسوة ، وتاريخ حركة الجهاد الإسلامي شاهد على ذلك. فقد قمع أتاتورك الحركات الإسلامية الشعبية بالقوات العسكرية والمحاكم الثورية الظالمة التي لا تحمل من حقيقة المحاكم إلا الاسم ؛ لأنها كانت تتفذ حكاماً صدرت قبل انعقادها.

(٤) الترويج الدائم من أعداء الخلافة العثمانية لأفكار وأباطيل من مصادر معنادلة لا تحمل من حقيقة الأحداث شيئاً .⁽¹⁾

(٥) استغلال اليهود القاطنين في أراضي الدولة العثمانية ، والادعاء أنهم يتعرضون للتعذيب والاضطهاد ، حتى يثيروا الرأي العام لدى يهود أوروبا، وشعب أوروبا نفسه ضد الدولة العثمانية .

(٦) استخدام الأساليب الملتوية والمراوغة والتضليل البشع في الكتابة عن الدولة العثمانية، ظهر من يهود الدونمة مجموعة من الضباط ورجال السياسة المختصين

⁽⁴⁾ ليلى عبد اللطيف أحمد : موقف الدولة العثمانية من مطامع اليهود في فلسطين ، ط ١ ، مصر : دار الكتاب العربي ، ١٩٨٧م ، ص ٧ .

⁽⁵⁾ مصطفى محمد حلمي : مرجع سابق ، ص 71 ، 72 .

⁽¹⁾ مصطفى محمد حلمي : مرجع سابق ، ص 72 .

بترويج الإشاعات والأكاذيب ؛ لضرب السلطنة العثمانية ، وإشغالها بكل الأمور المتناقضة بداخلها ، ثم بدأوا بالوشية بين المسيحيين والدولة العثمانية ، وشوهو إسلام ، وتلاعبوا بسمعة السلاطين العثمانيين ، وبعض من هذه النماذج والقصص الكاذبة كانت تنشر في الصحف النمساوية والإيطالية والفرنسية والألمانية المعهودة للجاليات اليهودية ، ودعمت جمعية تركيا الفتاة حتى استطاعت أن تقف على قدميها أمام السلطان العثماني .⁽²⁾

- (7) محاولة استعطاف الرأي العام العالمي من خلال التباكي على معاناة اليهود عبر تاريخهم الطويل ، واتخاذ ذلك ذريعة يهودية لإقامة وطن قومي لهم في فلسطين .
- (8) استخدام أسلوب التكرار الإعلامي لترسيخ الأفكار التي يروجون لها ، وتقديمها إلى الرأي العام العالمي بكل الأشكال .⁽¹⁾

وقد شارك اليهود مع الكتاب الأوروبيين في نزعتهم العدائبة تجاه الدولة العثمانية بعد أن فشلت كافة مخططاتهم في اغتصاب أيٍّ من أراضي هذه الدولة؛ لإقامة كيان سياسي لهم طوال أربعة قرون برغم من الضعف الذي أصابها ، في حين استطاع اليهود بمعاونة الاستعمار الغربي أن يحققوا هذه الأهداف بمنتهى اليسر والسهولة ، وصار اليهود يروجون ويتهمنون الدولة العثمانية على طول تاريخها بالخلف والرجعية والجمود ، واعتبرت المحافظة المسئولة تشويه هذه الفترة التاريخية من أهم أهدافها.⁽²⁾

إن العداء التقليدي بين اليهود والإسلام يعود في جذوره إلى ظهور الإسلام، وإجلاء الرسول ﷺ لهم عن المدينة المنورة ؛ لخيانتهم المتكررة وعداوتهم الدائمة، ومنذ ذلك الوقت بدأوا في الكيد للإسلام ، والتظاهر باعتنقه ، وبث السموم في جسم الأمة الإسلامية، وما عداء اليهود للعثمانيين إلا باعتبارهم خلفاء المسلمين ، ورمز وحدتهم وقوتهم ، وذلك عداء تقليدي ؛ لأن اليهود يرون في الخلافة العثمانية شيئاً مخيفاً خطراً على مستقبلاهم .

⁽²⁾ محمد سرحان : النظام العثماني " الهجرة اليهودية إلى فلسطين " ، ط 1 ، دمشق ، 1993م ، ص 20 .

⁽¹⁾ غازي محمد فريح : النشاط السري اليهودي في الفكر والممارسة ، ط 1 ، بيروت : دار الفائق ، 1411هـ / 1990م ، ص 277 ، 278 .

⁽²⁾ زكريا سليمان بيومي : مرجع سابق ، ص 108 ، ص 109 .

وقد رأى اليهود أن أفضل الطرق لتحقيق أهدافهم في العالم الإسلامي هو أن يعملا وسط المسلمين بشكل مباشر ، ولكن تحت شعار النصرانية ، فتظاهرروا باعتناقها لدخول الساحة فقط ، ولكن الحقيقة هي تحقيق رغباتهم .⁽³⁾

ومن هنا بدأ الصراع اليهودي مع الخلافة العثمانية ، وتميز بطول مده ، ولدغاته القاتلة التي أدت إلى هدم ذلك الصرح الشامخ الذي كان المسلمين يلتفون حوله ، ويعتبرونه رمز وحدتهم وقوتهم وحربيتهم.⁽⁴⁾

وبقيت أوضاع اليهود في إسطنبول على ما كانت عليه منذ أيام الدولة البيزنطية بل أفضل منها ، إذ منح اليهود إبان حكم الدولة العثمانية كثيراً من التيسيرات في إسطنبول وغيرها ، فكان لهم حي خاص يطبق الإجراءات الخاصة بحكمهم الذاتي .⁽⁵⁾

وبقاوهم في عاصمة الخلافة العثمانية يعتبر بعد نظر للشرع في عمليات بث السموم ، ورغم الحماية والمعاملة الحسنة التي ظفروا بها في ظلال الدولة العثمانية في أعقاب طردهم من إسبانيا إبان القرن ق 9هـ / 15م ، إلا إن اليهود اعتبروا هذه المعاملة واجباً مفروضاً على غير اليهود .

ومع ما تبذله تلك الشعوب في خدمتهم لا يمنع ذلك اليهود من الحقد عليها والتأمر على سلامتها ، واغتصاب أموالها ، والبطش بقادتها ، وتشويه سمعة الزعماء ورجال الفكر والسياسة من أجل زعزعة ثقة الشعب بقادته بتشويه سيرته وتاريخه .

بدأت هذه المجموعات اليهودية تنشط وتفكر وتعمل على إحداث التغيرات لصالحها ، إذ وجدت أنه لابد من اعتناق الإسلام حتى تتمكن في المستقبل القريب والبعيد من تحقيق أهدافها . فأعلن المتعصبون للיהودية والمطعون على الإسلام الدخول فيه كذباً ورياءً ؛ وذلك لتحقيق أول هدف وهو المساعدة على تسهيل مهام الجماعات اليهودية ، للتغلغل في السلطنة ، فتمكنوا من شراء الذمم ورشوة البعض ، ومن خلال إشهار إسلامهم حققوا مكاسب سياسية ، عوضاً عن الحنكة التجارية التي تميزوا بها ؛ وأدت إلى تدفق الأموال على ميزانية الدولة العثمانية ، مما زاد الثقة فيهم ، وزادهم خبثاً وتستراً لتحقيق أهدافهم .⁽¹⁾

⁽³⁾ أحمد عبد الله الزغبي : مرجع سابق ، ج 3 ، ص 552 ، 553 .

⁽⁴⁾ مجدي عبد المجيد الصافوري : مرجع سابق ، ص 78 .

⁽⁵⁾ محمود محمد الحويري : مرجع سابق ، ص 226 .

⁽¹⁾ لمزيد من المعلومات عن دورهم التجاري الرجوع إلى : محمد سرحان : مرجع سابق ، ص 15-16 .

إن هذه نفسية وخلفية اليهود ، إنهم اليهود في كل زمان ومكان ، يخونون الشر والحداد في أعماق أنفسهم .⁽²⁾

والحادثة التالية توضح أنهم وراء كل عقبة واجهت الدولة العثمانية والسلطان العثمانيين ، عوضاً عن استغلالهم لحسن رعاية وضيافة الدولة العثمانية ، مستغلين أيّ وضع سيء تمرّ به الدولة العثمانية أو مشكلة كبيرة ، ففي أعقاب كارثة أنقراة ، وأثناء عهد السلطان محمد الأول 806هـ-1421م / 1403هـ-825هـ ، قضى جلّ عهده في محاولة إعادة تنظيم أمور الدولة العثمانية ، وتركيز فتوحاتها ، والعمل على استتاب الامن قام اليهود باستغلال الأمر ، والضعف الذي تمر به الدولة العثمانية ، فدست بين صفوف الناس شخصاً يدعى بدر الدين السيماوي متخفياً في الدين والعلم ، ولكنه في الحقيقة يشكل خطراً حقيقياً على صفاء ونقاء الدولة العثمانية .

كان بدر الدين السيماوي رجلاً متستراً خلف العلم إذ إنه ادعى أنه عالم مشهور ، وله عدة مؤلفات في الصرف والنحو ، عوضاً عن الفقه والتفسير ، ومن أشهر هذه المؤلفات "واردات" أي بمعنى الإلهام ، فسطّر فيها كل أفكاره ومبادئه ، تولى منصب قاضي العسكر ، ثم فر هارباً بعد مقتل موسى بن بايزيد ، وبدأ في دعوته الهداة التي يقوم أساسها على المساواة بين الأديان ، ووحدة الوجود ، وإنكار الجنة والنار ، ويوم القيمة والملائكة والشياطين ، وقصر الشهادة على نصفها الأول أي "أشهد أن لا إله إلا الله" ، وحذف " وأن محمداً رسول الله"⁽¹⁾

ويبدو أن حركة الشيخ قد لقيت تأييداً كبيراً في المجتمع العثماني ، نظراً لوجود عدد كبير من النصارى واليهود الذين تلقفواها أملأاً في تقويض الدولة العثمانية من أساسها ، وما الآراء التي نشرها إلا آراء اليهود المعروفة ، فقد شكل خطراً كبيراً على الدولة العثمانية لدرجة أن القوى الأوروبية استغلت هذه الثورة ، ودعمتها مادياً ، مثل دعم أمير الأفلاق له ؛ فكثر أتباعه ، وأخذوا في نشر مذهبِه بالقوة ، فتعرضوا للناس وأموالهم بالأذى بسبب وبغير

⁽²⁾ فاضل مهدي بيات : دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني ، ط1 ، دار المدار الإسلامي ، 2003م ، ص 427،428.

⁽¹⁾ علي حسون : مرجع سابق ، ص 22 . إبراهيم حليم : مصدر سابق ، ص 53 . محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص 69،70 .

سبب ، وقتلوا من الأهالي الكثير ، وقد تنبه السلطان محمد الأول له ، وقبض عليه ، وأعدم بتهمة الخيانة عام 1423هـ/823م ، وانتهت الدعوة بمقتله رغم انتشارها السريع .⁽²⁾

لقد اندسَّ بين أتباعه الكثير من النصارى واليهود الذين بدأوا في إذكاء نار الفتنة وأُججها حتى نقضى على الدولة العثمانية ، وهذه حادثة توضح مدى حقدهم على العثمانيين ، إذ إنهم في عهد محمد الأول ترجموا هذا الحقد بالثورة على الدولة العثمانية ، أما في العهود اللاحقة ف تكون الترجمة أفسى وأكثر استمرارية ، وهي تشويه صورة الحكم العثماني .

فقد كانت الدولة العثمانية هي الدولة الوحيدة التي فتحت أبوابها لليهود إذ آواهم السلطان بايزيد الثاني عام 1492هـ/898م ، وذلك بعد أن أغلقت كل المدن الأوروبية أبوابها في وجههم . وقد سكنوا إسطنبول وسالونيك اللتين كانتا تضمان في الأصل طائفة يهودية ، وزاولوا مهنة التجارة ، وقد أنقذوا عدة لغات منها الإسبانية والعربية والعبرية ونادرًا التركية .⁽¹⁾

وعندما زاد تعرض اليهود للاضطهاد والحرق والظلم والقتل في روسيا وتشردوا بسبب أعمالمحاكم التفتيش⁽²⁾ استطاعوا الهجرة بأعداد صغيرة إلى البلد العثماني ، وأخذوا مواضع وأماكن مهمة . وانتشروا في كافة الأقطار العثمانية ، وتجنسوا بالجنسيات الأجنبية للاستفادة من الامتيازات المعطاة لهم ، وتحينوا الفرص لمساعدة الجمعيات السرية في البلد ، كما أنهم أُغفوا من الخدمة العسكرية ، وحصلوا على امتيازات كثيرة ، كل هذا وأكبر دو لهم بقي العثمانيون ؛ لأن فلسطين تحت حكمهم .⁽³⁾

ورغم حصولهم على العلم والمال في بلدان العالم الإسلامي، إلا أنهم لم يحصلوا على الراحة والاستقرار إلا في ظل الدولة العثمانية .⁽⁴⁾

فقد جذبهم الحياة الفكرية والفرص الاقتصادية في العاصمة العثمانية؛ فهاجروا إليها ، واستقروا بها ، وكونوا مجتمعات خاصة بهم في ظل التسامح العثماني .

⁽²⁾ محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص150 . خلف الوزيناني : مرجع سابق ، ص277 . يلمازا وزرتونا : مصدر سابق ، ج 1 ، ص118 ، محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص 70 ، 71 .

⁽¹⁾ حسن عزوzi : ملاحظات حول مسألة التسامح الديني ، ص 353 . أحمد نوري النعيمي ، اليهود والدولة العثمانية ، ط 2 ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، 1418هـ / 1998م ، ص 15 - 21 .

⁽²⁾ لمزيد من التفاصيل حول أعمال العنف ضد اليهود الرجوع إلى : أحمد نوري النعيمي : مرجع سابق ، ص15-21 .

⁽³⁾ مجدي عبد المجيد الصافوري : مرجع سابق ، ص80 . أحمد نوري النعيمي : مرجع سابق ، ص 30-21 .

⁽⁴⁾ هدى درويش : العلاقات التركية اليهودية وأثرها على البلاد العربية ، ج 1 ، ص33 ، 34 .

قدمت لهم الدولة العثمانية الأرض الآمنة التي طالما حلموا بها ، ورحب العثمانيون باليهود ، وقدموا لهم المعاملة الحسنة ، وحموهم من أي ضغوط ومنحوه استقلالاً ذاتياً ، وتسامحوا معهم في ممارسة شعائرهم الدينية ، كما عملوا في كافة المرافق الصناعية والتجارية ، وبذلك تعتبر الدولة العثمانية هي الدولة الوحيدة التي لم يحدث فيها اضطهاد لليهود⁽⁵⁾ حتى إن السلطان سليمان القانوني عندما فتح حصن شوكزيم في بلاد المجر وجد أن اليهود يعلنون فيه من البؤس والفاقة الكثير ، فقدم لهم المساعدات ، وأرسل جماعات منهم إلى المدن الرئيسية في الدولة العثمانية كأدرنة وأزمير وإستانبول .⁽⁶⁾

ومن عطف السلاطين العثمانيين على رعاياهم خاصة اليهود أنهم كانوا يقدمون الحماية والأمن لليهود حتى ولو كانوا خارج حدود الدولة العثمانية ، وفي هذا الصدد أشار التاريخ الإسلامي العثماني للعديد من البراهين التي تؤكد المعنى السابق فثبت أنه لم تتخذ أي إجراءات رسمية تستحق الذكر تجاهض اليهود ، أو تميز بينهم وبين باقي السكان ، وحدث أن أضطهد اليهود الذين يتاجرون في ميناء أنكون⁽¹⁾ ، وكانوا يخفون أصلهم الديني ، وذات مرة أوقفهم بابا الميناء وصادر أموالهم ، وتوعدتهم بالفتاك بهم وقتلهم إن لم يعتنقوا المسيحية ، وتفاقم أمر هؤلاء إلى أن تدخل السلطان العثماني سليمان القانوني وتمكن من التدخل لدى البابا ، وانتزاع عفواً عاماً عن أولئك اليهود .⁽²⁾

وسرعان ما وصلت هذه الأنباء لبقية اليهود بأن الدولة العثمانية ترحب باليهود ، وهذا نفس ما أشار إليه (Gallante) في خطاب أرسله حاخام اليهود في ألمانيا إلى اليهود في العالم ، يحثهم فيه على الهجرة إلى أراضي الدولة العثمانية ، مشيداً بجمال الدولة العثمانية ومزاياها الخاصة سواء السياسية أم الاجتماعية التي تتمتع بها الأقليات غير المسلمة. وفعلاً توافد اليهود من أوروبا الشرقية والقرم وأجزاء من آسيا حتى قبل دخولها تحت الحكم العثماني إلى أراضي الدولة العثمانية .⁽³⁾

⁽⁵⁾ محمود محمد الحويري : مرجع سابق ، ص226 ، 227 . رفيق شاكر النتشه : السلطان عبد الحميد الثاني وفلسطين ، ط 1 ، دم د.ت ، ص29 .

⁽⁶⁾ أحمد نوري النعيمي : مرجع سابق ، ص 30-29 .

⁽¹⁾ أنكون " Ancone " مركزاً تجارياً على البحر المتوسط ويقع تحت قبضة الدول الكاثوليكية المسيحية .

⁽²⁾ حسن عزوzi : ملاحظات حول مسألة التسامح الديني ، ص 353 . رفيق شاكر النتشه : مرجع سابق ، ص 30 .

⁽³⁾ حسن عزوzi : ملاحظات حول مسألة التسامح الديني العثماني ، ص 353 ، ص 353 .

ومما يجواه المعلومة السابقة ما كتبه الباحث اليهودي (موسى كسبالي Moses Gaspali) في عام 930هـ / 1523م عن تاريخ الأسرة العثمانية حيث ذكر أنه في عهد السلطان محمد الفاتح دعى اليهود إلى الإقامة في إسطنبول ، وقدم لهم مزايا خاصة ، وأصدر مرسوماً يحمي مصالحهم ، وأعفاهم من الضرائب، ونالوا مكانة عالية .⁽⁴⁾ كما أوردت بعض المصادر التاريخية رسالة ليهودي يدعى (إسحاق السرفاني Issac Zarfati) سكن مدينة أدرنة في النصف الأول من القرن 9هـ / 15 م حيث دعى أبناء دينه إلى ترك البلاد المسيحية في أوروبا حيث يعاني اليهود ويلات الاضطهاد والقمع والتشريد الديني والسياسي إلى البلاد العثمانية التي سينعمون فيها بالحماية وبين أهلها المسلمين بالأمان والاطمئنان .

وفي موقف آخر أظهرته هذه المصادر التاريخية المختلفة بعد الحادثة السابقة بقرن من الزمان كتب يهودي آخر برتغالي كتاباً سماه "مواساة عن محن إسرائيل" ، ضمن جانباً منه تحريض أبناء ملته على الهجرة إلى الأراضي العثمانية التي وصفها بأن أراضيها مفتوحة، فيها الحرية على مصراعيها لليهود.⁽¹⁾

وقد وصف المؤرخون أن العصر الذهبي لليهود بدأ من القرن 8هـ / 14م ، 711هـ / 1311م حيث كان اليهود يعيشون متمتعين بالنفوذ والاحترام تحت السلطة الإسلامية في بلاد الأندرس ، وفي أراضي الدولة العثمانية .⁽²⁾

وللتوضيح الصورة أكثر يكفياناً أن نقارن بين دخول الصليبيين للقدس ، وبين فتح العثمانيين للقدسية ، وذلك فقط فيما يختص باليهود ، إذ قام الصليبيون بتجميع اليهود في الكنيست وأحرقوهم أحياء .⁽³⁾ أما السلطان محمد الفاتح فعين لهم حاخام ، وأعطاهم حرية ممارسة الشعائر الدينية .

وبعد استقرار اليهود في الدولة العثمانية طبقت عليهم أحكام الشريعة الإسلامية حيث تتمتعوا بقدر كبير من الاستقلال الذاتي والرفاهية والحرية التامة – كما سبقت الإشارة – في عهد السلطان محمد الفاتح في عام 857هـ / 1453م عين أول

⁽⁴⁾ محمود محمد الحويري : مرجع سابق ، ص 228 .

⁽¹⁾ حسن عزوzi : ملاحظات حول مسألة التسامح الديني العثماني ، ص 353 .

⁽²⁾ هدى درويش : العلاقات اليهودية التركية ، ج 1 ، ص 159 .

⁽³⁾ رفيق شاكر النتشة : مرجع سابق ، ص 30 ، 31 .

حاخام باشي⁽⁴⁾ لطائفة اليهود ، وهو موسى قيزالي الذي تتمتع بسلطات واسعة في ممارسة السلطة في الشؤون الدينية والحقوق المدنية بحيث إن مراسيم وقرارات الحاخام يصدق عليها من قبل الحكومة إلى درجة أن تحولت إلى قانون يخص اليهود . وفي نفس الوقت أعلن السماح لليهود بالبقاء في إستانبول ، وأعطاه أسبقية بروتوكولية على البطريرك . وإذا كان موسى قيزالي احتاج إلى براءة السلطان لممارسة مهامه كأول حاخام باشي ، فإن خلفاءه لم يكونوا بحاجة إلى ذلك ، إذ كان يقع الاختيار عليهم بمعرفة أبناء الطائفة أنفسهم ، فقد تعاملت الدولة العثمانية مع اليهود أفضل معاملة في القرن 10-16 م حتى إنهم في عهد السلطان سليمان القانوني منحوا حق تعيين كخيا " وكيلًا " لهم ؛ ليتمثلهم أمام الحكومة المركزية⁽⁵⁾ .

كما شارك اليهود في الحياة السياسية في إستانبول إذ كانوا يشاركون في بعض الأحيان فيبعثات الدبلوماسية المرسلة إلى الأقطار الأوروبية المسيحية.⁽¹⁾

وفي هذا دلالة واضحة على مدى تتمتع اليهود بالتسامح الديني والحرية السياسية .⁽²⁾
والرفاهية ، فمارسوا جميع حقوقهم بمنتهى الحرية حتى في فرض الضرائب والنواحي التشريعية من زواج وطلاق ونفقة وحقوق مدنية ، أما ممارسة الطقوس الدينية فلم يحدث أن منعهم أحد عنها .

هذا عوضاً عن الوضع الاقتصادي الذي حاز عليه اليهود فأتيحت لهم الفرصة بالسيطرة على المفاصل الاقتصادية في الدولة العثمانية ، فقد شكلوا قوة اقتصادية عظمى لا يستهان بها في ظل الرخاء العثماني ، فما أن وطئت أقدامهم الدولة العثمانية حتى بدأوا في العمل على تطوير علاقاتهم التجارية الخارجية ، وإثارة الفتنة والسيطرة على أسواق المال والذهب . وسمح لهم السلاطين بنقل تجارتهم إلى الأراضي العثمانية ، إلى جانب ذلك معرفة اليهود للغات الغربية وميلهم للتجارة أتاها لهم الفرصة لشغل وظائف مهمة في الدولة العثمانية .⁽³⁾

⁽⁴⁾ باشي : بمعنى رئيس الحاخamas . شمس الدين سامي ، مرجع سابق ، ص 265 .

⁽⁵⁾ محمود محمد الحويري : مرجع سابق ، ص 226 . أكمل الدين إحسان أوغلي : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 502 . أحمد نوري النعيمي : مرجع سابق ، ص 36-37 .

⁽¹⁾ أحمد نوري النعيمي : مرجع سابق ، ص 37 .

⁽²⁾ لمزيد من المعلومات عن أوضاع اليهود بعد خروجهم من الأندلس ، الرجوع : هدى درويش : العلاقات التركية اليهودية ، ج 1 ، ص 157-161 .

⁽³⁾ هدى درويش : العلاقات التركية اليهودية ، ج 1 ، ص 35 .

صحيح أنهم جُرّدوا من ثرواتهم وممتلكاتهم على أيدي حركة الاسترداد المسيحي ومحاكم التفتيش ، لكنهم أتوا بقدراتهم ودرایتهم بأوروبا وطرقها ، تلك الدرایة شكلت دعمهم الثقافي ومهاراتهم الاقتصادية.

ويتبّع من خلال الوثائق التركية أن من أهم الأعمال والمناصب التي شغلوها في الدولة العثمانية العمل في جمع الضرائب خلال عهدي السلطانين محمد الفاتح ، وبابايزيد الثاني ، كما عمل بعض اليهود في تجارة الحرير والتوايل وسلع أخرى في بروسة وإستانبول وغاليبولي وقد نبغ منهم الحرفيون والصناع أيضاً.⁽⁴⁾

وقد شكلوا في هذه المدن الصغيرة مجتمع يهودية صغيرة ، وقاموا بنشر اللغة الإسبانية والعبرية ، وتمركزوا في سلانيك التي تعتبر مركز تموين اقتصادي للبلقان العثماني، حيث تحكموا بالتجارة فيها. ⁽¹⁾

ويعدُ (أبراهام كاموندو) من أبرز قادة اليهود في إستانبول في منتصف ق 13 هـ/ 19 م ، فهو من أثرياء اليهود ، قدمت عائلته كثيراً من المساعدات المالية لعدد من المستوطنين اليهود في فلسطين ، أسس عدداً من المدارس في إستانبول ، وجمع مساعدات مالية لإنشاء مدرسة "مكفيه إسرائيل" في فلسطين ، أطلق عليه لقب "روتشيلد الشرق" لثرائه ومساعداته الكبيرة لليهود . ⁽²⁾

ولا شك أن الدولة العثمانية قد استفادت من الأنشطة والخبرات الاقتصادية التي جلبها اليهود معهم . ومن أهم المفاصل الاقتصادية التي سيطر عليها اليهود فرض أنفسهم على دور لسك العملة ، فتولوا سك العملة في الدولة العثمانية رحراً من الزمان ، وبالتالي كانت العملة بصفة دائمة تسك مغشوشه أو ناقصة القيمة ، خاصة في فترة ضعف الدولة العثمانية ، وكثيراً ما أدى هذا الأمر إلى تمرد الإنكشارية على سبيل المثال . ⁽³⁾

⁽⁴⁾ محمود محمد الحريري : مرجع سابق ، ص228-229 . ولعل سيرة اللاجي اليهودي "يوسف ناسي" تعطي صورة واضحة عما يمكن أن يصل إليه الأجنبي ذو الموهبة والطموح من مكانة عالية. مرجع سابق ، ص230 .

⁽¹⁾ هدى درويش : العلاقات التركية اليهودية ، ج 1 ، ص34 ، 35 .

⁽²⁾ هدى درويش : مرجع سابق ، ج 2 ، ص 43 .

⁽³⁾ أمانى جعفر الغازى : مرجع سابق ، ص118 . أحمد نوري النعيمي : مرجع سابق ، ص 31 .

ولا شك أن المكانة التي وصلت إليها طائفة اليهود وليدة حصولهم على العديد من الامتيازات التي جاءت من خلال المعاهدات التي وقعتها الدولة العثمانية مع الدول المختلفة ، والخاصة بحقوق الأقليات الذين يقيمون بالدولة ، تلك الحقوق وتケفل لهم الحماية وحرية التنقل والتجارة والملاحة التي جعلتهم أكثر تميزاً من العثمانيين أنفسهم . وقد استفاد اليهود من هذه الامتيازات خاصة التجار ، فكان كل تاجر يستفيد من المعاهدة التي عقدتها دولته مع الدولة العثمانية ⁽⁴⁾

ويعدّ أبرز ما أدخلوه اليهود الأسبان معهم إلى إسطانبول المطبعة ، ففي عام 854هـ / 1450م تمت تجربة حروف الطباعة لأول مرة ، وفي عام 857هـ / 1453م دخلت المطبعة إسطانبول في الوقت الذي لم تنتشر فيه المطبع بعد في كثير من بلدان أوروبا ، وبعدها بأربعة سنوات دخلت المطبعة أدرنة على أيدي اليهود ، وبدأت هذه المطبع بطبع الكتب المختلفة ، ونشرها باللغات العبرية واللاتينية واليونانية . وأصبحت إسطانبول مركزاً للطباعة العبرية بين القرنين 11هـ - 12هـ / 17م - 18م ، وازداد عدد هذه المطبع مع مرور الزمن فأصبح في إسطانبول ثلاثة ، وواحدة في سالونيك، وفي عهد السلطان سليمان القانوني طبع اليهود الترجمة الفارسية للتوراة وذلك ليهود إيران . ولكن مع الأسف لم تستند الحكومة العثمانية من هذه المطبع رغم توفرها وانتشارها وعدم منعها ، ولم تدخل المطبعة الحكومة العثمانية إلا عام 1139هـ / 1726م . ⁽¹⁾

ونتيجة طبيعية لسيطرة اليهود على المطبع فقد استطاعوا بمنتهى السهولة توجيه الكتابة عن الدولة العثمانية وفق هواهم ، ونشرها بالعبرية . وخطأ الدولة العثمانية هنا أنها لم تحكم السيطرة على تلك المطبع ، أو تفرض سيطرتها ورقابتها عليها وعلى المطبوعات التي تخرجها ، إضافة إلى أن الدولة العثمانية نفسها لم تستخدم المطبع إلا متأخراً . من جهة أخرى فقد فرض اليهود أنفسهم على البلاط بالدرجة الأولى بوصفهم أطباء مهرة أتقنوا اللغات الأوروبية مع الطب .

ويعتبر يوسف ناسي أحد الشخصيات اليهودية التي قامت بدور مهم في الدولة العثمانية، اتصل بالسلطان سليم الأول بعد هجرته من البرتغال إلى إسطانبول سنة 924هـ / 1518م حاملاً معه ثروة ضخمة وعلم وافر في الأعمال المصرافية والمالية ، امتلك شركات

⁽⁴⁾ هدى درويش : العلاقات التركية اليهودية ، ج 1 ، ص 177-181 .

⁽¹⁾ فاضل بيات : مرجع سابق ، ص 428 . هدى درويش : العلاقات التركية اليهودية ، ج 1 ، ص 34

تجارية بحرية ، وشكّل عنصراً في الحياة السياسية الأوروبيّة ، بفضل علاقاته القوية بأوروبا قدم معلومات استخباراتية للدولة العثمانيّة عن هذه البلاد ، وشارك في اجتماعات الديوان على اعتبار أنه مستشار في الدولة عوضاً عن تقديم تقارير مالية واقتصادية عن الدول الأوروبيّة ، وعن تشكيّلاتها العسكريّة . نال نفوذاً قوياً في عهد سليم الأول ، وأعلى المناصب في عهد سليمان القانوني .⁽²⁾ ومنذ أواخر القرن 9 هـ / 15 م حتى نهاية 11 هـ / 17 م أتى الكثير من الأطباء اليهود الفارين من إسبانيا أمام ضغط الكاثوليكيّ ، وخدموا في بلاط العثماني ، ولا شك أن النجاح الذي حققه من سبقهم مهدّ لهم الطريق ليشغلوا مناصب متميزة ، وأشهرهم في هذه الفترة (الطبيب أماتوس لوسبيتانوس) الذي يعدّ من أعظم أطباء أوروبا في القرن 11 هـ / 17 م ، وقدم خدمات طيبة رائعة في سالونيك وتوفي بها.⁽³⁾

وأول طبيب معروف يهودي في التاريخ العثماني الطبيب (مايسنر جاكوب) الذي أخفى يهوديته تحت اسم يعقوب باشا ، وأصبح طبيباً للسلطان محمد الفاتح .⁽¹⁾ لكن الطبيب حكيم يعقوب استرعى الانتباه نظراً للمكانة الفريدة التي احتلها في بلاط السلطان سليمان القانوني وكسب صداقته وثقته ، إضافة إلى إتقانه بعض اللغات ، مما وضعه في مكانة متميزة ، وأصبح صاحب مشورة ، كما نجد الطبيب (ناثان سلمون أشكنازي) الألماني الأصل الذي استطاع أن ينال حظوة عالية عند الصدر الأعظم محمد صوقلي باشا .

كما استفاد اليهود من حرية العبادة ، وممارسة شعائرهم الدينية ، وبناء الكنائس ، واحترام مساكن الأجانب وغير ذلك .

وتعد حرية التعليم لطائفة اليهود من أبرز مظاهر الحرية التي تتمتعوا بها ، حيث أسسوا العديد من المدارس التي تولت تعليم ابنائهم . وعلى سبيل المثال لا الحصر :

١) مدرسة الإليانس الإسرائيليّة الثانوية والابتدائية .

٢) مدرسة أزيل .

٣) مدرسة التعاون اليهودي .⁽²⁾

⁽²⁾ هدى درويش : العلاقات التركية اليهودية ، ج 2 ، ص 42 - 43 .

⁽³⁾ محمود محمد الحويري : مرجع سابق ، ص 231 ، أحمد نوري النعيمي : مرجع سابق ، ص 44 .

⁽¹⁾ أحمد نوري النعيمي : مرجع سابق ، ص 44 .

⁽²⁾ فاضل مهدي بيات : مرجع سابق ، ص 435 ، 436 . نقلًا عن سالنامة بغداد الصادرة 1329 هـ / 1911 م .

ويمكن وضع عدة ملحوظات لوضع اليهود تحت ظل الدولة العثمانية:

(١) لم يندمج اليهود في المجتمع العثماني ، مما أدى ذلك إلى تكتلهم وتمركزهم في أحياط معينة ، أصبحت مع مرور الوقت مغافلة تماماً على اليهود .

(٢) عند هجرة اليهود من أوروبا إلى الدولة العثمانية اتبع اليهود الأساليب نفسها التي استخدموها في القارة الأوروبية ، حيث قاموا بالتأمر على بعض السلاطين وقتلهم ، كما فعلوا في روسيا عندما قتلوا الكسندر قيصر روسيا مع فارق أن العثمانيين لم يتبعوا سياسة العنف ضد اليهود .

(٣) ومع هجرة اليهود إلى الدولة العثمانية نقلوا تجارب الشعوب الأوروبية إلى الدولة العثمانية ، ونتيجة هذه التجارب نشوء بعض الأفكار السياسية والفلسفية التي لا تمت بصلة إلى تقاليد هذه الدولة العثمانية.

(٤) إن جزءاً من المسؤولية يقع على عاتق العثمانيين في استقرار هؤلاء في الدولة العثمانية ؛ فالسلاطين لم يعرفوا المخاطر اليهودية في المستقبل ، وذلك لأنهم انطلقوا من المفاهيم الإسلامية في مساعدة هؤلاء ، وإنقاذهم من مواقف الشعوب الأوروبية لهم ، وهذا يعني من جانب آخر أن السلاطين لم يكونوا على معرفة حقيقة الواقع الشخصية اليهودية المليئة بالنقص والعقد الاجتماعية .

(٥) إن العلاقات اليهودية الأوروبية التي اتصفت بالسلبية انعكست على العرب في الوقت الحاضر ؛ لأن الوطن العربي كان جزءاً من ممتلكات الدولة العثمانية .

صحيح أن الدولة العثمانية شهدت بعض الحوادث التي لم يسلم منها المسلمون أنفسهم وحتى السلاطين ، لكن هذا لا ينفي المكانة المرموقة التي وصل إليها اليهود .^(١)

إن هذه الهجرات المتتالية من اليهود كان مخططاً لها ، فأصبح العثمانيون العدو التقليدي لليهود منذ سيطرتهم على فلسطين ، ويعتبرون خلفاء المسلمين ورمز وحدتهم وقوتهم، وقد رأى اليهود في العثمانيين خطراً محدقاً بهم ، لابد من القضاء عليه .^(٢)

^(١) أحمد نوري النعيمي : مرجع سابق ، ص45، 46 .

^(٢) مجدي عبد المجيد الصافوري : مرجع سابق ، ص78 .

على مر العصور تطلع اليهود إلى فلسطين إقليماً يجمع شتاتهم ، وقد نجحت الحركة الصهيونية في استقطاب الدول الكبرى ، ونالت مساعدتها ، وكان على الدولة العثمانية أن تخوض دفاعاً مريضاً عن فلسطين ضد القوى الصهيونية ، وقد نجح الصهاينة في اختراق كيان الدولة العثمانية في توقيت متاز يمثل فترة الضعف والاضمحلال التي كانت تمر بها الدولة العثمانية. رغم ذلك عملت في حدود إمكانياتها على الحد من الهجرة إلى فلسطين مقاومة بذلك الحركة الصهيونية.⁽³⁾

والحقيقة أن الحفاوة التي قوبل بها اليهود في الدولة العثمانية لم تثر إلا عن زيادة الحقد اليهودي على الدولة العثمانية متناسين المكانة والتسامح والاستقرار الذي حظوا به .

على أنه لم تدرك الدولة العثمانية نوايا اليهود إلا متأخراً بعد طرد اليهود من روسيا بخمس سنوات ، فبدأت في التحرك للحد من هجرات اليهود للقدس، وأول من تحرك كان السلطان سليم الأول في أعقاب ضم مصر عام 923هـ/1517 ، وضم فلسطين للدولة العثمانية ، ورفض السماح لليهود بالهجرة إلى سيناء فسد الطريق أمامهم بإصدار فرمان يؤكّد ذلك .⁽¹⁾

لكن البلاد العثمانية فتحت أمام اليهود نتيجة لتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية مع الأقليات ، ومعاملة الحسنة التي تلقاها اليهود من سياسة التسامح الديني حتى أنهم تولوا مناصب مرموقة في الدولة العثمانية مثل (جوزيف ناسي) - السابق الذكر - الذي كان مقرباً من السلطان ، وكانت له بعض الأعمال المصرافية التجارية والبحرية ، وبفضل شركاته وعلاقاته بالأوروبيين كان يعطي للحكومة العثمانية معلومات مهمة من تقارير مالية وتشكيّلات عسكرية وغير ذلك تختص بدول أوروبا .⁽²⁾

ثم جاء عهد السلطان سليمان القانوني ليعيد المحاولة مرة أخرى ويحد من هجرة اليهود ، حيث أصدر فرماناً لاحقاً أكد فيه ما جاء في فرمان السلطان سليم الأول لأنه أدرك

⁽³⁾ إسماعيل ياغي : مرجع سابق ، ص 248 ، 249 .

⁽¹⁾ أميره علي مداح : مرجع سابق ، ص 98 . ليلي عبد اللطيف أحمد : مرجع سابق ، ص 25 .

⁽²⁾ هدى درويش : العلاقات العربية التركية ، ج 1 ، ص 211 ، 212 .

مدى تمسك اليهود بسيناء على أساس قربها من فلسطين .⁽³⁾ وطوال فترة قوة الدولة العثمانية لم يجرؤ اليهود على مد نفوذهم السياسي وبقوا منكمشين في أماكنهم .⁽⁴⁾

وعلى الرغم من هذا الانكماش إلا أنهم استطاعوا الحصول على إذن مؤقت من السلطان سليمان القانوني - ويقال إنه بمساعدة زوجته روكسانة - باللجوء إلى الأراضي العثمانية ، وزادت الهجرة اليهودية بذلك.⁽⁵⁾

إلا أنَّ الباحثة ترى أن زوجته روكسانة لم تكن يهودية بل مسلمة ، إضافة إلى أن هذا القرار جاء في أعقاب موجة التشريد والظلم والقمع التي تعرض لها اليهود في روسيا وبالتالي يأتي هذا الإذن في صورة حق لجوء سياسي ، وليس محاولة لإدخال اليهود لأغراض غير سوية .

وبنهاية عهد السلطان سليمان القانوني تنفس اليهود الصعداء وأدرکوا أن الفرصة سانحة لهم لتحقيق حلمهم في الهجرة ، فبدأت المigrations بشكل متقطع ، وظهر ذلك بوضوح في عهد السلطان سليم الثاني حيث بدأ الضعف يدب في أوصال الدولة العثمانية ، فحاول اليهود انتهاز هذه الفرصة لاستطيان سيناء ، فبدأوا بالنزوح إليها في هجرات متقطعة وعلى فترات متقاربة ، وركزوا إقامتهم في الطور؛⁽¹⁾ لأهميتها التجارية بالنسبة لهم ، وقد تزعم اليهود رجل يدعى إبراهام اليهودي ، الذي استوطن الطور مع أولاده ، وسائل أفراد أسرته. وكان من الممكن أن تمر هذه الهجرة بهدوء لكن اليهود تعرضوا بالأذى لرهبان دير سانت كاترين ؛ فتضاييق الرهبان من أعمالهم ، واستجدوا بالسلطات العثمانية في مصر ، وقد اهتم البشاور العثمانيون بهذا الأمر ، ووصل الأمر إلى إسطنبول ، فصدرت الفرمانات بضرورة إخراجهم من سيناء ، ومنعهم بتاتاً من العودة إليها مرة أخرى، وهكذا تصدت الدولة العثمانية لأطماع اليهود في سيناء ، وأخرج إبراهام وأسرته نهائياً من سيناء .⁽²⁾

⁽³⁾ تضم فلسطين في نظرهم المقدسات اليهودية ، مثل الوادي المقدس طوى ، الذي كلام الله سبحانه فيه موسى - عليه السلام - ليلي عبد اللطيف أحمد : مرجع سابق ، ص25 . أميره مراح : مرجع سابق ، ص98 .

⁽⁴⁾ أميرة مراح : مرجع سابق ، ص98 . لمزيد من المعلومات عن وضع اليهود في عهد السلطان سليمان القانوني . أحمد نوري التعيمي : مرجع سابق ، ص28-34 .

⁽⁵⁾ مجدي عبد الحميد الصافوري : مرجع سابق ، ص79 .

⁽¹⁾ الطور تقع على الساحل الشرقي لخليج السويس ، وبها ميناء يصلح لرسو السفن التجارية القادمة من بنبع ، جدة والعقبة ، كما إنها ترتبط برياً بخطوط قوافل مع القاهرة ، وبذلك كان يسهل عمل اليهود للاتصال بالعالم الخارجي . ليلي عبد اللطيف أحمد : مرجع سابق ، ص26 .

⁽²⁾ صدر في هذا الصدد ثلاثة فرمانات ديوانية من باشاوات مصر ، الأول 149 م برقم 989هـ / 1581م ، والثاني 991هـ / 1583م برقم 151 ، أصدرهم حسن باشا الخادم ، الفرمان الثالث أصدره سنان باشا عام 993هـ / 1585م ، ويحمل

ورغم ذلك فإن أغلب المؤرخين يعتبرون أن العصر الذهبي لليهود كان خلال عهد السلطانين سليمان القانوني ، وسليمان الثاني حيث تأقلم اليهود في الدولة العثمانية إلى حد كبير على اعتبار أنهم عاشوا في حرية تامة ، وحصلوا على العديد من الامتيازات. رغم محاولات السلطان سليمان القانوني المستمرة للحد من الهجرة اليهودية إلى فلسطين .

واستمر الأمر في شد وجذب بين اليهود والعثمانيين ، ففي عام 1301هـ/1883م أصدر مجلس الوزراء العثماني قراراً بمنع استيطان اليهود الروس في فلسطين ، إلا إنه أمام ضغط الدول الأوروبية تراجع الباب العالي عن قراره ، وأرسل تعليمات جديدة عام 1302هـ / 1884م تفيد بالسماح لليهود بدخول فلسطين من أجل زيارة الأماكن المقدسة بشرط أن لا تزيد فترة إقامتهم عن ثلاثة أيام ، لكن عادت الدول الأوروبية وزادت ضغطها من أجل زيادة فترة الإقامة أكثر في فلسطين من ثلاثة أيام إلى ثلاثة شهور ، ثم وافقت الحكومة العثمانية على هذا الطلب في عام 1305هـ / 1887م .⁽³⁾

لكن ردة فعل اليهود جاءت أشد ما يكون بعد موقف السلطان عبد الحميد الثاني ، الذي رفض بمنتهى الإباء والكرامة عرض اليهود المغربي ؛ فكانت النتيجة بث الدعايات الكاذبة والافتراءات حوله ، وتصویر تاريخه بمنتهى السوء .

والواقع أن جمعية الاتحاد والترقي التي أسقطت السلطان عبد الحميد الثاني هي التي أقامت الاستبداد بعد ذلك ، وشهدت البلاد من المأساة ما لم تشهده خلال ثلاث وثلاثين سنة من حكم السلطان عبد الحميد الثاني حيث قتل العديد من المخلصين للبلاد ، ووُقعت البلاد تحت النفوذ الماسوني اليهودي .⁽¹⁾

وقد قدم (تيودور هرتزل) عرضاً مغررياً للسلطان عبد الحميد الثاني لكن رفض السلطان للمال الوفير جعل (هرتزل) يستقر تماماً على ضرورة تغيير الحالة السياسية للدولة

رقم 160 . انظر : ليلى عبد اللطيف أحمد : مرجع سابق ، ص 26 ، 27 . أميره علي مداح : مرجع سابق ، ص 99 . علي محمد الصلاي : مرجع سابق ، ص 470 ، 471 .

⁽³⁾ هدى درويش : العلاقات العربية التركية ، ج 1 ، ص 249 .

⁽¹⁾ سعيد عبدالكريم زيد : واقع العالم الإسلامي بين تغريب التعليم وكشف تخريب المتأمرين ، ط 1 ، مصر : مكتبة وهبه ، 1418هـ / 1998م ، ص 299 .

العثمانية .⁽²⁾ ورغم من المغريات والوساطات العديدة التي قدمها للسلطان مستغلًا فترة الضعف التي كانت تمر بها الدولة العثمانية. إلا أن السلطان رفض كل ذلك .⁽³⁾ ودفع ذلك السلطان عبد الحميد الثاني إلى إصدار قانون يمنع الهجرة وإقامة مستعمرات لليهود في فلسطين ، وقد دفع ثمن ذلك غالياً وهو العزل والنفي بل وتشويه سيرة حياته .⁽⁴⁾

ثم أعقب ذلك إصدار الحكومة العثمانية تعليمات للمتصرين في القدس ويافا بالسماح لهم بالدخول إلى فلسطين بصفة حاج أو سائح . علاوة على ما سبق فإنها أكدت أن اليهودي الذي يصل يافا عليه أن يموّل الخزينة العثمانية بخمسين ليرة تركية ، واعتبرت ذلك بمثابة تعهد من اليهودي على تركه فلسطين في مدة لا تتجاوز الواحد والثلاثين يوماً .⁽⁵⁾

ويكتب على جواز التنقل اليهودي إذن للدخول إلى الأرض المقدسة ، وعبارة تشير إلى أن صاحب هذا الجواز ذاهب إلى القدس للزيارة والعبادة ، ولا ينوي الإقامة في فلسطين ، حتى أن اليهود المقيمين في أراضي الدولة العثمانية كمصر وسوريا لم يكن لهم الحق في الهجرة إلى فلسطين ، بل الزيارة فقط ولمدة محدودة وبإذن خاص ، وقد أيدت الحكومة العثمانية هذه القرارات بقرارات أخرى مماثلة ومؤكدة لها سنة 1318هـ/1900م مما أدى إلى احتجاج إيطاليا التي أكدت أنها قرارات تعتبر فاسدة ، ولا تميز بين رعاياها المسيحيين واليهود ، كما قدم سفير الولايات المتحدة الأمريكية مذكرة احتجاج في عام 1319هـ 1901م.

فأعلن الباب العالي أنه ليس من أهدافه أن يمنع اليهود من الصلاة والعمل في القدس ، ولكن الحقيقة أن المتصرف قام بمنعهم من الاستيطان فيها فقط ، وأكّدت على غلق فلسطين أمام رجال الأعمال اليهود ، والسماح للأوروبيين بممارسة التجارة البحرية .⁽¹⁾ إضافة إلى

⁽²⁾ يتضح سوء نيته في الخطاب الذي وجهه إلى لجنة الأعمال الصهيونية حيث أقر أنه لابد من زج الدولة العثمانية في حروب أو مشاكل دولية ، أو الاثنين معاً . ليلي عبد اللطيف أحمد : مرجع سابق ، ص 42 ، 43 .

⁽³⁾ أميرة مراح : مرجع سابق ، ص 99 .

⁽⁴⁾ أميرة مراح : مرجع سابق ، ص 99 . لمزيد من المعلومات حول موقف السلطان عبد الحميد الثاني من تيودور هرتزل ، والحركة الصهيونية الرجوع إلى مجدي عبدالمجيد الصافوري : مرجع سابق ، ص 82-87 . ليلي عبد اللطيف أحمد : مرجع سابق ، ص 42-45 .

⁽⁵⁾ وفي هذا الشأن بعثت الحكومة العثمانية مذكرة رسمية إلى رؤساءبعثات الدبلوماسية بقرار عام 1301هـ / 1883م ينص بمنع اليهود من استيطان القدس . أحمد نوري النعيمي : مرجع سابق ، ص 64 .

⁽¹⁾ أحمد نوري النعيمي : مرجع سابق ، ص 64 ، 65 .

أن الحكومة العثمانية حاربت انتقال الأراضي لليهود ، حيث صدرت العديد من فتاوى من شيوخ الإسلام تحرم بيع الأراضي لليهود ، وتكررت تلك الفتوى عام 1310هـ / 1892م مما كان سبباً في تدخل بريطانيا التي استطاعت التقليل من فاعلية هذه القرارات .⁽²⁾

ونظراً لوجود هذه الأعداد الكثيرة من اليهود واستمرار الهجرة غير الشرعية والتحايل للدخول إلى الأراضي العثمانية كان لابد لهم من أن يضعوا الخطط للقضاء على الخلافة العثمانية وإسقاطها بل وتشويه التاريخ العثماني بأكمله حتى لا تقوم لهم قائمة بعد ذلك ، فقد حددوا الطرق التي رغبوا بها ، وسلكوا عدة دروب للوصول إلى هذه النتيجة .

من الصعب تماماً تحديد الدور الذي قام به اليهود في إطار الكتابات الاستشرافية ؛ وذلك لأن المراجع التي تتحدث عن الاستشراق وتطوره أغلقت الحديث عن هذه الناحية ، ويحتمل أن يعود ذلك إلى أن المستشرقين اليهود قد استطاعوا أن يكيفوا أنفسهم ليصبحوا عنصراً أساسياً في إطار الحركة الاستشرافية ، فقد وجد اليهود في الاستشراك خدمة لأهدافهم الحاكمة ؛ فاندرجوا تحته متخفين أحياناً ، وسافرین أحياناً أخرى حيث دخلوا الميدان بوصفهم أوروبيين ليسوا يهوداً ، أمثال (Goldizher) وهو يهودي مجري ، استطاع أن يصبح زعيم الإسلاميات في أوروبا بلا منازع ، وصل إلى هذه المكانة عن طريق التشويه ، وبث السموم في التاريخ الإسلامي . إضافة إلى (مونتجميри وات Montgomery Watt) و (برنارد لويس Bernard Lewis)، الذين اتخذوا مكانة رفيعة في الاستشراك دون أن يعرف أنهم يهود ، ليكون تأثيرهم أشد .

وهكذا كانت بداية الاستشراك على موائد الاستشراك الأوروبي ، وأسهم في خلق الجو العدائي ضد كل ما هو إسلامي وبالتالي العثمانيين ، وبذلك جاء الاستشراك اليهودي متميزاً ، وذا نكهة خاصة عدائية حيث استخدموه وقائع التاريخ العثماني بعد تحريفها وتزييفها بل وتضخيمها كأداة لبناء مفاهيم تخدم مصالحهم الشخصية ، وتصويرها لل المسلمين والعرب على أنها حقائق تاريخية ثابتة . ولهذا لم يرد اليهود أن يعملوا داخل الحركة الاستشرافية بوصفهم مستشرقين يهود حتى لا يعزلوا أنفسهم وبالتالي يقل تأثيرهم ، فقد عملوا بوصفهم مستشرقين أوروبيين وبذلك كسبوا التالي:

أولاً : فرض أنفسهم على الحركة الاستشرافية كلها .

⁽²⁾ إسماعيل أحمد ياغي : جهاد شعب فلسطين ضد الهجرة اليهودية والصهيونية مقال منشور مجلة الدارة ، الرياض ، السنة 14 ، العدد الثاني ، محرم ربيع الأول 1409هـ / أغسطس - أكتوبر 1988م ، ص314-286 .

ثانياً : تحقيق أهدافهم في النيل من الإسلام ، وهي أهداف غالبية المستشرقين . استطاع اليهود الدخول إلى حلبة الاستشراق خاصة في أعقاب تحرير يهود أوروبا الوسطى والجنوبية ، ثم دخولهم الجامعات ، فقد وجدت فيهم حركة الاستشراق ما لم تجده في سائر المستشرقين ألا وهو أنهم أكثر فهماً للتراث الإسلامي والعربي من غيرهم من الأوروبيين ؛ وذلك لتقارب اللغة العربية مع اللغة العبرية ، ويكتفينا أن آراءهم هي التي سيطرت على جميع آراء المستشرقين ، ولها التأثير الأول في كتاباتهم .⁽¹⁾

فقد وجد اليهود في الاستشراق خدمة لأهدافهم الحاقدة ، وأقبلوا على الاستشراق لأسباب دينية وسياسية ، وقاموا بدور كبير لا يخفى مطلقاً.

أما الأسباب الدينية فقد تلخصت في محاولة إضعاف الإسلام والتشكيك في قيمته بآيات فضل اليهود عليه ، وذلك من خلال ادعاء أن اليهودية في نظرهم هي مصدر الإسلام الأول .⁽²⁾

ولا شك في أن اليهودية تختلف عن المسيحية كون الأخيرة تسعى إلى التنصير دائماً ، إلا أن اليهودية تعتمد أساساً على فكرة العنصرية ، وعدم السعي لتهويد الآخرين ، بل تضع القيود أمام من يرغب في الدخول إليها ؛ وذلك لأنه سيكون من غير نسلبني إسرائيل ، ولا يدخل في إطار شعب الله المختار .

ولكن اليهودية تملك من الأساليب والوسائل ما تقاوم به الديانات الأخرى ، التي تشكل خطراً عليها ، أو تقف عقبة أمام تحقيق أطماعها ، لذلك عادت اليهودية المسيحية ؛ لأنها تهدم فكرة العنصرية ، والإسلام لأنه فضح فسادهم وانحلالهم وتحريفهم للشائع والكتب .⁽¹⁾

أما عن الأسباب السياسية التي دفعت اليهود إلى ركوب وخوض حركة الاستشراق فهي عادتهم الدائمة في استثمارحركات الاستعمار ل لتحقيق مصالح اقتصادية من ناحية ، ومساعدة الحركة الصهيونية للظهور بتسيير البحوث والدراسات الاستشرافية لخدمتهم من ناحية أخرى .⁽²⁾

⁽¹⁾ محمد جلاء إدريس : مرجع سابق ، ص 83 ، 85 . صلاح الصيفي . المستشرقون اليهود في الغرب ومحاولات هدم الحضارة الإسلامية ، برلين : على نقه ، 2009/5/25 م . <http://www.Said.net> .

الاستشراق . الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، 2009/5/19 م . <http://www.Said.net> .

⁽²⁾ محمد قطب : مرجع سابق ، ص 49-50 . محمود حمدي زقزوق : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، ص 52,53 .

⁽¹⁾ محمد جلاء إدريس : مرجع سابق ، ص 84 .

⁽²⁾ مرجع سابق ، ص 85 .

وذلك لخدمة تحقيق هدفهم وهو إثبات أن لهم حقاً في فلسطين برسم هيكلة المنطقة العربية والإسلامية وفق هذا المنظور الاستشرافي اليهودي ، وعملوا على تأجيج عوامل الصراع بين الشرق والغرب مستخدمين آلاف المطبوعات الصادرة باللغتين الإنجليزية والفرنسية التي تصل بسهولة ويسر للباحثين الغربيين في سنوات دراساتهم الأولى، مما يجعل التحرر من هذه الأفكار صعباً جداً. ومن هنا يكون الاستشراف اليهودي مكملاً للاستشراف الغربي .⁽³⁾

ورغم ذلك فمن وجهة نظر أخرى نجد أن الاستشراف ارتبط باليهود منذ فترة مبكرة؛ وذلك لأنهم يكرهون ويحقدون على الإسلام والمسلمين . وقد ظل اليهود طوال تاريخهم يتحينون كل فرصة متاحة ليكيدوا للإسلام والمسلمين . وقد وجدوا في مجال الاستشراف باباً ينفتحون فيه سومهم ضد الإسلام والمسلمين ، فدخلوا هذا المجال متخفين تحت رداء العلم ، كما وجدوا في الصهيونية باباً آخر يفرضون منه سيطرتهم على العرب والمسلمين .⁽⁴⁾

ولعل ما يصدق المعلومة السابقة ظهور شخصية رجل يهودي اعتنق المسيحية في الظاهر ، وأخفى اليهودية سراً ، (يوحنا الإشبيلي) الذي ظهر في منتصف القرن 12هـ / 12م ، والذي ابتدع فكرة الاختفاء والارتداء أي إخفاء ديانته اليهودية وارتداء كل ما من شأنه توصيلهم لأهدافهم .⁽¹⁾

وقد قام (يوحنا الإشبيلي) بترجمة مؤلفات ابن سينا الطبية ، ونسب طرق العلاج الطبية لنفسه ، وهذا دأب اليهود في الترجمة سرقة جهود غيرهم ونسبها لأنفسهم حيث قاموا مثلاً بترجمة الكثير من كتب الطب العربية ، ونسبوها لأنفسهم مثل أعمال أسرة ابن طبون الشهيرة في مجال ترجمة كتب الطب .⁽²⁾ ومن خلال ذلك استطاع تشويه الحقائق كما أراد .

فقد مكنتهم هذه الخدعة التاريخية التي هي أصل ملازم للشخصية اليهودية عبر السنين من تغيف أكبر قدر من الدس والهدم والتحطيم للتاريخ الإسلامي ، إن هذه الخدعة أشهر ما استخدمنه اليهود في صراعهم التاريخي ضد المسلمين ، لأنهم يدركون أن الإفصاح

⁽³⁾ صلاح الصيفي . المستشرقون اليهود ومحاولات هدم الحضارة الإسلامية ، برلين : علي نتفه ، 25/5/2009م ، محمد جلاء إدريس : مرجع سابق ، ص86 . <http://www.saad.net>.

⁽⁴⁾ محمد قطب ، مرجع سابق ، ص50 .
⁽¹⁾ محمد حمدي زقروق : مرجع سابق ، ص39 .
⁽²⁾ أمانى الغازى : مرجع سابق ، ص65 .

عن الهوية اليهودية سيعزلهم ، وسيثير الحفاظ ضدهم، وبالتالي يقل أثرهم الهدام ، وارتدوا لذلك عدة أثواب للوصول إلى أهدافهم الخبيثة.⁽³⁾

إذا كانت الحروب تبقى آثارها لعشرات الأجيال اللاحقة فإن المناخ الفكري الملوث الذي أوجده اليهود سيستمر إلى عشرات الأجيال اللاحقة ما لم يتم تصحيحة. وأبرز من مثل هذه الخدعة التاريخية هم يهود الدولة.⁽⁴⁾ الذين قدموا للدولة العثمانية للقيام بالتخريب والهدم، وبقيت آثار أفكارهم الملوثة التي بثوها في عقول المثقفين في عالمنا الإسلامي إلى يومنا هذا. إذ حاولوا جهدهم إيجاد أي ثغرة ليدخلوا منها ، أو إرسال وكلاء لهم ، أو شراء ضعاف النفوس لنشر أفكارهم من خلالها ، ساعدتهم على ذلك وصولهم إلى أعلى مناصب الدولة مما سهل عليهم مهمة التخريب ، والتمهيد للقضاء على الخلافة العثمانية الإسلامية بخلق الكثير من حالات الفوضى والهرج والمرج في تاريخنا الإسلامي .

قدم مادة يهود الدولة⁽¹⁾ في دائرة المعارف الإسلامية المستشرق (إيزنبرغ J.Eisenber) وركزت فقط على أصل ونشوء هذه الفئة ، والمعتقدات التي تسير عليها ، وأماكن ترکزهم ، واحتوت على نبذة من حياة مؤسس هذه الفئة .

⁽³⁾ محمد أبو زهره : تاريخ المذاهب الإسلامية ، د. ط ، مصر ، 1419هـ ، ص 86 .

⁽⁴⁾ الدولة كلمة تركية من المصدر التركي Donmek أي العودة ، أو دونمة Donme مصدر مخفف بنفس المعنى ، وتأتي أيضاً صفة ، تعني عودتي ، أما اصطلاحاً فهي تعني اليهود الذين اتخذوا أسماء إسلامية وتمسكون بهويتهم ، لكنهم في الضرورة يؤدون بعض العبادات الإسلامية من دخول مساجد وصيام وحج ، وبهود الدولة هم اليهود الذين هاجروا من الأندلس إلى أراضي الدولة العثمانية ، على إثر الاضطهاد ومحاكم التفتيش ، تركزوا في سالونيك وإستانبول ومؤسس هذه الطائفة هو شبتساي زفي ، والذي وضع وثيقة مهما مكونة من 18 مادة تنص المادة 16 منها على أنه يجب على يهود الدولة تطبيق عادات الأئراك المسلمين بدقة لصرف أنظارهم عنا ؛ ليستطيعوا القيام بعملهم وكان ليهود الدولة دور في تأسيس المحاكم الماسونية التي لها مؤامرات لتقويض الحكم ، وتحالفا مع القوة الخارجية لإثارة النعرات الطائفية، وارتکز عملهم السياسي في مجال الحركة الصهيونية والاستعمار ، إضافة إلى دورهم البارز في الاتحاد والترقي ،ولهم دور في نشر الجاسوسية ، واسقاط السلطان عبد الحميد الثاني . انظر . هدى درويش : الإسلاميون وتركيا العلمانية ، ص 169 – 170 . مجدي عبدالمحيد الصافوري : مرجع سابق ، ص 88 . كما ذكر المستشرق إيزنبرغ Eisenberg J. في مادة دونمة في دائرة المعارف الإسلامية ، ج 9 ، ص 330 ، أنهم فرقة من اليهود المسلمين في سالونيك . وإنه لتعتير لا ينطلي على الأطفال وليس على قارئ عادي ، وذلك لأنه لا يمكن الجمع بين ديانتين سماويتين حتى إنه لم يذكر ذلك في أي كتاب سماوي ، عوضاً على أنه أراد إلحاечهم بال المسلمين فقد دون معرفة اختيار لفظ يساعدك للتعمير عن فكرته ، إن ذلك لمضحك جداً ، على الرغم من أنه أعطى عنهم تعريفاً ممتازاً بعد ذلك إلا أنه لم يخف حقده على المسلمين بدعوى أنهم فرقة من اليهود المسلمين . لمعرفة المزيد عن يهود الدولة الرجوع إلى : أحمد عبد الله الرغبي : مرجع سابق ، ج 2 ، ص 615 ، 616 .

⁽¹⁾ إيزنبرغ : مادة يهود الدولة ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 9 ، ص 330 .

ولم تشر المادة ولو بإشارة صغيرة عن دورهم في المسرح السياسي أثناء عهد الدولة العثمانية ، أو دورهم في إسقاط الخلافة العثمانية ، كما إن المادة لم توضح دور اليهود الواضح تماماً في توجيه الكتابة عن التاريخ الإسلامي العثماني.

لقد كان للاليهود دائماً التفوق في المجال الإعلامي معتمدين في ذلك على رجالهم الأثرياء ، والممولين الرئيسيين لخدمة أغراضهم . والصحافة أقدم وسيلة إعلامية فتوجهوا لها لتحقيق أهدافهم ، وإيصال الأحداث التي يرغبون في توصيلها إلى الناس . وقد استخدموها من أهم الوسائل التي أدت إلى تقوية علاقة اليهود في أوروبا بيهود الشرق ، وبذات الدعاية الإعلامية اليهودية جهودها في القضاء على الخلافة الإسلامية والدولة العثمانية عن طريق عدة وسائل منها السيطرة على دور سك العملة وبالتالي التدخل في اقتصاد الدولة ، عوضاً عن إثارة الفتنة والقلائل في أراضي الدولة العثمانية .

وقد وضع اليهود عدة نقاط ، ووضعوا خططاً ساروا عليها لتشويه صورة الحكم العثماني مستغلين مرحلة الضعف التي أغرت الحاقدين من صليبيين ويهود بالقضاء على الإسلام في تركيا . والمحور الأساسي الذي ارتكزوا عليه هو الدعاية والصحافة :
أولاً : تحالفت اليهودية مع الصليبية الغربية الحاقدة في دول أوروبا فرنسا وروسيا واليونان وإيطاليا والنمسا لمحاربة الدولة العثمانية وحرمانها من الهدوء والاستقرار والتفرغ للبناء ، وقد أدى الضغط الصليبي المستمر إلى تضييق رقعة الإسلام في أوروبا .⁽²⁾
ثانياً : عملوا على إفساد الشباب ، وجعلهم يقدون الدونمة في كل أمور حياتهم ، وسعوا إلى دعوة المجتمع إلى الاختلاط ، ونزع حجاب المرأة المسلمة ، واستخدمو المقالات في الصحف لنشر هذه الأفكار. وأهم الدعوات التي روجوا لها الدعوة إلى الاختلاط في التعليم الجامعي ، لمعرفتهم بأن التدريس المختلط سيعمل على إزالة الحياة من وجه الشباب ، وتعدم البراءة في الأسر الإسلامية ، ويتحول دون ظهور شباب متقيين من أسر متماسكة .

وزاد الدونمة من دعایتهم الهدامة ، فنشروا الكتب والرسائل التي أعلنوا فيها الحرب على حجاب المرأة ، وتشجيع السفور في المجتمع العثماني المحافظ ، وطرحوا قضية الاختلاط في الجامعات ، وتبناوا فكرة مسابقة ملكة جمال تركية إلى اليوم ، وقد ألبوا

⁽²⁾ مجدي عبدالمجيد الصافوري : مرجع سابق ، ص88 ، 89 .

الاتحاديين على مصادر الصحف والمجلات التي تعرّض سبيل الدونمة والتكميل بأصحابها ، فقد كانت علاقـة الـدونـمة بالـاتـحادـيين عـلـاقـة وـثـيقـة وـثـابـتـة.⁽¹⁾

ثالثاً : العمل على تصوير الأتراك المسلمين ورجالات الدولة العثمانية بمنتهى السوء ، حيث أظهـرـتـهم كـتابـاتـ اليـهـودـ بمـظـهـرـ المـتوـحـشـينـ سـفـاكـيـ الدـمـاءـ ،ـ المـنـغـسـينـ فـيـ الـفـسـادـ وـالـانـحلـلـ ،ـ بـقـصـدـ إـذـكـاءـ الـحـقـ الـصـلـبـيـ الـأـورـوبـيـ ضـدـ الـأـتـراكـ الـمـسـلـمـينـ ،ـ وـسـعـتـ أـيـضاـ إـلـىـ تـشـويـهـ صـورـةـ الـعـربـ لـدىـ الـأـتـراكـ .

وـجـاءـ ذـلـكـ فـيـ صـورـةـ دـعـاـيـةـ مـشوـهـةـ مـغـرـضـةـ ،ـ صـورـتـ الـحـكـمـ فـيـ عـاصـمـةـ الـخـلـافـةـ أـبـشـعـ تصـوـيرـ ،ـ وـكـانـتـ دـعـاـيـةـ الـيـهـودـ مـاهـرـةـ فـيـ قـلـبـ الـحـقـائـقـ ،ـ وـإـبـراـزـ الـمـساـوىـ وـطـمـسـ الـمـحـاسـنـ ،ـ وـنـجـحـتـ الدـعـاـيـةـ فـيـ أـورـوـباـ وـالـعـالـمـ بـأـسـرـهـ ،ـ حـيـثـ غـداـ مـنـ الـأـمـرـ الـمـسـلـمـ بـهـاـ أـنـ الـمـسـلـمـينـ الـأـتـراكـ مـتـوـحـشـونـ قـسـاءـ يـرـتـعـونـ فـيـ الـفـسـادـ وـالـانـحلـلـ .ـ وـفـيـ نـفـسـ الـوقـتـ بـدـأـتـ الدـعـاـيـةـ الـيـهـودـيـةـ وـكـاتـبـهـمـ فـيـ تصـوـيرـ مـدـحـتـ باـشاـ الـيـهـودـيـ الـمـاـكـرـ بـطـلاـ منـ أـبـطـالـ الـعـالـمـ ،ـ وـسـمـتـهـ أـبـاـ الـأـحـرـارـ ،ـ وـسـخـرـتـ صـفـحـ أـورـوـباـ إـذـاعـاتـهـاـ لـتـمـجـيدـ مـدـحـتـ باـشاـ حـاـمـلـ لـوـاءـ الـحـرـيـةـ وـالـإـصـلـاحـ فـيـ الـدـوـلـةـ الـعـثـمـانـيـةـ ،ـ وـهـوـ فـيـ حـقـيـقـةـ أـمـرـهـ يـهـودـيـ مـتـآـمـرـ عـلـىـ الـإـسـلـامـ وـالـمـسـلـمـينـ ،ـ وـآلـةـ مـخـرـبةـ مـؤـذـيـةـ بـأـيـديـ الـيـهـودـ .⁽²⁾

رابعاً : اعتمد اليهود في كتاباتهم عن الدولة العثمانية على تأثيرهم بالظروف السياسية العالمية، كظهور الحركات التحررية في العالم الإسلامي ، واستقلال معظم دوله ، مما بالمستشرقين وخاصة اليهود التركيز على دراسة قضايا فكر الأمة الإسلامية وعقيدتها ، بل ودراسة أسباب تحررها ، والتركيز في ذلك على دراسة الخلافة العثمانية ، ومحاولة دس التشويه عليها من خلال هذه الدراسات، مدعين أنهم يدرسون الفكر السياسي في الإسلام .⁽¹⁾

خامساً : تحريك غرائز الطمع الاستعماري الصليبي ، وإغراء الأوروبيين بسهولة الانقضاض على الدولة العثمانية ، وإذكاء الأحقاد الصهيونية ضد الإسلام ، وبدأت الصحافة الصهيونية بنشر قصة فتنة 1277هـ / 1860م الشهيرة التي حدثت بين الدروز⁽²⁾

⁽¹⁾ ربيع عبدالرؤوف الزواوي : مرجع سابق ، ص104 ، 105 . هدى درويش : العلاقات العربية التركية ، ج 2 ، ص17 .

⁽²⁾ زياد أبو غنيمه : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك، ص 47 . مجدي عبد الحميد الصافوري : مرجع سابق ، ص 89

⁽¹⁾ صلاح الصيفي : المستشرقون اليهود في الغرب ومحاولات هدم الحضارة الإسلامية ، برلين : علي نتفه ، 25/5/2009م .
<http://www.Said.net>.

⁽²⁾ كانت الصفة المميزة للدروز في النصف الثاني من ق 19م – وأوائل ق 20م هي إعلان عصيانهم وإشعال الثورات ضد الولاة العثمانيين ، وذلك حتى لا يدفعون الضريبة المفروضة عليهم . هدى درويش : العلاقات التركية اليهودية ، ج 2 ، ص16 .

والنصارى في سوريا ولبنان وما صاحبها من مذابح حرصت الدعاية والكتابة اليهودية على رمي المسؤولية على العثمانيين المسلمين ، وتننت بمكر ودهاء المناداة بضرورة تدخل الدول الأوروبية النصرانية بحجة حماية الرعایا المسيحيين في سوريا ولبنان من مذابح أخرى . وذلك تمهيداً لحصول الدول الأوروبية على مزيد من الامتيازات . وقد نجحت كتابات اليهود أئمّا نجاح في ذلك؛ إذ رضخت الدولة العثمانية لمطالب الدول الأوروبية .

كما نجحت الدعاية اليهودية في إغمار صدور المسيحيين في أوروبا كلها حين زوروا وقائع التاريخ المتعلقة بالفتنة التي أثارها البلغار ضد الدولة العثمانية وارتكبوا فيها أبغض الجرائم والمذابح في حق المسلمين، فاضطررت الدولة العثمانية، إلى إخماد الثورة بالقوة ، فاستغلت أبواق اليهود هذا الموقف لتشويه الحقائق ، وإظهار العثمانيين بمظهر سفاكي الدماء ، وجعلت تنادي شعوب أوروبا لنصرة الشعب البلغاري المظلوم ، وتخلصه من أيدي وحشية العثمانيين الذين لا يرحمون مع أن الحقيقة عكس ذلك ، وكان لتلك الدعاية اليهودية أبعد الأثر عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى .⁽³⁾

سادساً : توجّهت جهود الصهيونية نحو الإعلام لمعرفتهم بقوّة دوره في المجتمعات الإسلامية؛ فعملوا على امتلاك أهم المؤسسات الإعلامية في العالم ، وتوجّيّها نحو أغراضهم المشوّهة ، وذلك لخدمة قضيتهم في الاستحواذ على الرأي العام ، مما يسرّ لهم أن يضمنوا دعماً لمخططاتهم، وتحكّماً أوسع لتنفيذ مآربهم .

ويُعتبر أخطر دور قامّت به كتابات اليهود والدعاية الإعلامية اليهودية من خلال الصحف والكتابات التي كانت تسيطر عليها في أوروبا وفي تركيا نفسها هو تشويه سمعة رجالات الدولة العثمانية ، وتصويرهم في صورة الحكام المستبدّين ، المستهتررين بمصالح شعوبهم المنغمسيّن في الفساد والانحلال ، ولسنا ننكر أن البعض منهم خاصةً آخر عهد الدولة العثمانية كانوا على جانب من التسلط والشدة والانحلال ، إلا إن اليهود عمّوا حجّتهم لتشمل جميع رجالات الدولة العثمانية مهما بلغوا من صلاح .

ويعد السلطان عبد الحميد الثاني أبرز من تعرضت له أفلام اليهود بالتشويه والافتراء ، فشوّهت صورته ، وأطلقت عليه عدة ألقاب ظلماً وبهتانًا ، منها السلطان الأحمر ، السلطان البخيل ، وأطلقت على عهده عهد الاستبداد الحميدي؛ لترسيخ أكذوبتها الكبرى التي لفّتها

⁽³⁾ مجدي المجيد الصافوري : مرجع سابق ، ص 89 ، 90 . زياد أبو غنيمة : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ، ص 49 . ليلى عبداللطيف أحمد : مرجع سابق ، ص 43 ، 44 . هدى درويش : حقيقة يهود الدولة في تركيا ، "وثائق جديدة" ، ط 1، عين للدراسات والبحوث ، 2003م ، ص 52 .

ضده، وقصصاً أخرى كاذبة عن عمليات اغتيال مزعومة أمر بها ضد رجال المعارضة . ومن أبرز من قاموا بالهجوم إعلامياً على السلطان عبد الحميد الثاني ، جورجي زيدان ، وفارس نمر ، ويعقوب صروف ، وشاهين مكاريوس ، وسليم مركيس ، ولويس صابونجي . والهدف من هذه الحملة الإعلامية الشعواء ضد زعماء الدولة العثمانية التمهيد وتبيئة الرأي العام التركي لقبول فكرة التخلص من هؤلاء الزعماء ؛ ليسهل على اليهود وحلفائهم الأوروبيين بعد ذلك الانتقال إلى الخطوة التالية ، وهي القضاء على كيان الدولة العثمانية ذاتها.⁽¹⁾

سابعاً : إن تشويه صورة السلاطين العثمانيين يتبعه بالتأكيد تشويه صورة دولة الخلافة الإسلامية كدولة ، وذلك بإطلاق وصف " الرجل المريض " عليها ، وهذا الوصف من ابتكار يهود روسيا ، والهدف الأول من وصف الدولة العثمانية بهذا الوصف في كتابات اليهود إنما يرمي إلى تهيئة الرأي العام التركي والعالمي لقبول فكرة استبدال هذا الكيان المريض الذي هو دولة الخلافة بكيان قوي متتطور عصري يكون على شاكلة الدول الأوروبية .⁽²⁾ وهذا أحد مناهج الاستشراق .

ثامناً : وبينما كانت الدعاية وكتابات اليهود تشوه صورة الدولة العثمانية ، كانت في الوقت نفسه تنشر فكرة الدولة التركية العلمانية الحديثة المرتبطة بأوروبا ، وذلك كديلاً للدولة العثمانية ، ولكنها لم تكن تجرؤ على الجهر بذلك صراحة ، وإنما كانت تدس هذه الفكرة دسماً من خلال ما تضيفه من حسنات على النظم الحاكمة الأوروبية ، وتصويرها على أنها بلغت درجة الكمال .

وحين كانت الدعاية والصحف اليهودية تشوه صورة زعماء الدولة العثمانية كانت في الوقت نفسه تضفي حالات زائفه من البطولة على بعض الشخصيات التركية التي كانت الصهيونية وال MASONIYAH بالتحالف مع القوى الأوروبية تعدتها لتسلم مقاليد الأمور في تركيا ، وأهم تلك الشخصيات - كما سبق الذكر - مدحت باشا الذي استخدمته في هجماتها ضد السلطان عبد الحميد الثاني .⁽¹⁾

⁽¹⁾ زياد أبو غنيمة : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ، ص 50 ، 51 . ليلي عبداللطيف أحمد : مرجع سابق ، ص 44 . هدى درويش : العلاقات التركية اليهودية ، ج 2 ، ص 18 .

⁽²⁾ زياد أبو غنيمة : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ، ص 51 . هدى درويش : حقيقة يهود الدونمة في تركيا : ص 52

⁽¹⁾ ليلي عبداللطيف أحمد : مرجع سابق ، ص 45 .

على أن النجاح الكبير الذي حققه الدعاية اليهودية كان من نصيب مصطفى كمال أتاتورك الذي صورته بصورة المنقذ المنتظر لتركيا ، سخررت بذلك كل مكرها وخبثها وكذبها في حملتها الدعائية لمصلحته خاصة في فترة الحرب العالمية الأولى ضد الحلفاء ، فانهزمت فرصة هزيمة الدولة العثمانية للمناداة بأن الوطن يحتاج إلى زعامة جديدة قادرة على إنقاذه ، وبذلك ظهر أتاتورك المنقذ ، ولحبك الصورة التي تسمح بإظهار أتاتورك بأنه المنقذ تظاهر الحلفاء بالتراء والانهزام أمامه ، وبذلك يفتحون المجال أمام كتابات اليهود لإضفاء صفات البطولة والإقدام عليه .

وقد نجحت الكتابات للأسف الشديد بإيقاع الأتراك بزعامة أتاتورك ، ساعدتها في البداية تسره بالإسلام حيث أتقن الدور ، وطقق يخطب خطبة الجمعة في مساجد المدن والقرى ، وأخذ الصور الفوتوغرافية بين العلماء وأئمة المساجد ، وكانت الصحافة اليهودية تبرز هذه النشاطات لنفع الأتراك بتقبيل زعامتهم بديلاً للخليفة العثماني ورجاله التي صورتهم بمنتهى البشاعة والوحشية⁽²⁾.

تاسعاً : أخذت الدعاية اليهودية على عاتقها العمل على نشر الدعوة القومية المغرضة ، وأوزعت الصليبية لبعض نصارى العرب المناداة بها ، وهذه الفكرة أسهمت بشكل كبير في تحقيق مأرب اليهود في القضاء على الخلافة العثمانية ، وتشويه صورة الحكم العثماني . وصورت القومية على أنها الخلاص من فساد الخلافة العثمانية وظلم رجالها ، ونشرت هذه الدعاية على نطاق واسع على أنها تحرير للعرب ، وفصلهم عن الخلافة مقلدين بذلك النزعات القومية التي اجتاحت دول أوروبا في القرن 13هـ / 19م ، وسيأتي الحديث عن أفضل كتاب يتحدث عن فكرة القومية ، وهذا الظلم والفساد كان السبب الرئيس فيه رجال الاتحاد والتراقي الذين هم علماء لليهود .

وتطورت القومية العربية حتى غدت أسفيناً مزقت به اليهودية والصليبية وحدة الجسم الإسلامي . ويعرف مؤرخو العرب من النصارى بأن الرواد الأوائل لحركة القومية العربية كانوا من النصارى ، وأنهم تعاونوا مع المسؤولية الأوروبية ومحالفها في المشرق العربي ، وقد استغلوا مساوى الحكم العثماني فأيد العرب الحركة القومية بحسن نية .⁽¹⁾

⁽²⁾ زياد أبو غنيمة : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ، ص 53 ، 54 .

⁽¹⁾ زياد أبو غنيمة : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ، ص 54 ، 55 . مجدى عبدالمجيد صافوري : مرجع سابق ، ص 92 .

ويتضح من خلال الدراسة أن اليهود أمسكوا بحبل القومية العربية ومصطفى كمال أتاتورك ووجهته الوجهة التي تريدها حتى استطاعت- للأسف- تحقيق رغباتها بسبب توجيه الكتاب نحو ما تريده .

عاشرأً : دور الجمعيات السرية وخاصة الماسونية الصهيونية التي دخلت ميدان الاستشراق لتحول دون اجتماع كلمة المسلمين في وحدة تقاوم اليهودية العالمية ، وعمل المستشرقون اليهود من خلال محافل الماسونية والكتابات المشوهة على تحقيق هذا الهدف .⁽²⁾

وقد استخدم اليهود محافل الماسونية في فرنسا وإيطاليا لنشر الدعاية الكاذبة ضد الخلفاء خاصة السلطان عبد الحميد الثاني ، ولم تترك عيباً واحداً إلا وألصقته بحكمه وبشخصيته حتى غدا رمزاً للظلم والفسدة والاستبداد . وهم الذين نجحوا في الانقلاب على السلطان عبد الحميد الثاني ، ونقل السلطة إلى أيدي اليهود المتمركزين هناك.⁽³⁾

وقد عاصر السلطان عبد الحميد الثاني عدة شخصيات ماسونية ، أسهمت لأبعد حد في خلعه وتسويه صورته مثل :

(1) (جاك سهامي) :

كتب كتاباً عن أسس الماسونية باللغة التركية اقتبس من مبادئ محفلي فرنسا وبريطانيا إلى جانب كتابات كثيرة أخرى عن الماسونية .

(2) (عمانويل قره صو) :

يعدّ من أبرز زعماء اليهود الماسون ، وأحد قادة الاتحاد والترقي ، انتخب عضواً في البرلمان التركي عام 1333هـ / 1914م . شارك في الثورة الاتحادية ضد السلطان عبد الحميد الثاني عن طريق إصدار المنشورات المضادة لحكمه . وكان أحد رجال الوفد الذين أبلغوا السلطان عبد الحميد الثاني قرار عزله .

(3) (حاييم ناحوم) :

⁽²⁾ محمد عبدالفتاح العليان : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 17 .

⁽³⁾ مجدي عبدالمجيد الصافوري : مرجع سابق ، ص 90 ، 91 .

كبير حاخامات إستانبول قام بدور بارز في خلع السلطان عبد الحميد الثاني ، يعتبر مثل الحركة الصهيونية ، عُين سفيراً لتركيا في الولايات المتحدة الأمريكية ، بذل جهداً مضاعفاً ضد السلطان عبد الحميد الثاني الذي منع الهجرة إلى فلسطين ، وحاول مهاجمة القوانين التي ت Kelvin اليهود في هجرتهم إلى فلسطين.⁽¹⁾

أما الماسونية فقد ظلت مذهبًا لم تقنن معالم نظامه ، إذ ظل طابع السرية يلف هذه الحركة في المجتمعاتها وتحركاتها حتى تجرأت وأظهرت نشاطها في إستانبول. وذلك لأن كثيراً من تعاليمها كانت تجري بصورة شفهية ، ولم ينشر بعد محتوى أرشيفات المحافظ الكبرى والمحافظ المحلية ، ومن المحتمل أن تكون قد عقدت له عدة مؤتمرات لم يذكر عنها شيء ، وشعارها المزيف الحرية والإخاء والمساواة . وقد بقيت محاضر وأعمال تلك الاجتماعات سرية أو محدودة التداول، وذلك لما تحمله من مكائد وشرور ضد الأمة الإسلامية.⁽²⁾

الحادي عشر : العمل على تحسين صورة اليهودي أمام الرأي العام خاصة المجتمع التركي ، وفي الوقت ذاته يتم تشجيع هجرة اليهود الأتراك إلى فلسطين مع جمع التبرعات اللازمة لدعم الجمعيات والمراکز الخاصة باليهود والأتراك.⁽³⁾

الثاني عشر : و يأتي دور الاتحاديين والكماليين - أي أتباع مصطفى كمال أتاتورك - الذين ارتكبوا شتى أنواع الظلم باسم الدولة العثمانية ، وقد استأجرروا أفلام الكتاب والصحفين لنشر الأعمال الوحشية والترويج لها حتى يكره الأتراك والمسلمين والعرب الحكم العثماني ، والدليل القاطع على تعاونهم مع اليهود هو أنه لم يسلم من بطشهم إلا اليهود في حين وقع الاضطهاد على جميع الفئات بما فيهم الأتراك، وأبلغ دليل على استخدامهم الأشخاص لتشويه صورة الحكم العثماني استخدامهم جمال باشا وإلي دمشق الذي كان أحد أعضاء جمعية الاتحاد والترقي وشمل اضطهاده الأتراك والعرب والمسلمين عامة .⁽¹⁾

(1) هدى درويش : العلاقات التركية اليهودية ، ج 2 ، ص 47 .

(2) خلف الوزيناني : مرجع سابق ، ص 270 .

للاستزادة عن نظام ومحافظ الماسونية وبداية ظهورها في الدولة العثمانية الرجوع إلى . خلف الوزيناني : مرجع سابق ، ص 270-287. سهيل صابان : مرجع سابق ، ص 161 – 171 . أما عن شروط الانضمام لها وأهدافها الرجوع إلى . سعيد عبدالكريم زيد: مرجع سابق ، ص 293-296 .

(3) هدى درويش : حقيقة يهود الدونمة في تركيا ، ص 52 .

(1) مصطفى محمد حلمي : مرجع سابق ، ص 62-64 .

واستخدمت كتابات اليهود في الصحف والمجلات لرفع شأن مصطفى كمال أتاتورك ، وإظهاره بمظهر البطل الذي تراجع أمامه الحلفاء بعد انتصارهم في الحرب العالمية الأولى ؛ وذلك لينسجم هذا الوضع مع تحقيق أهدافهم وكذلك روجت الكتابات اليهودية لأعمال جمال باشا "السفاح" في الشام ، وعملت على نشرها إمعاناً في تشويه التاريخ العثماني .

وقد نشروا مقالاتهم في عدة مجلات ذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :
مجلة "معمارستان" ، "مجلة ماسون التركية" ، "مجلة أفاسيا" ، "مجلة بيوك شرق".⁽²⁾

الثالث عشر :

تسلل اليهود إلى أجهزة الإعلام في تركيا وامتلكوا كثيراً من الصحف والمجلات ، ومن أشهر العائلات التي تموّل دور الصحف الكبرى في تركيا عائلة "قبانجي" ، و "كبار" و "أبيكجي" اليهودية ، وقد اشتهرت هذه العوائل لتأثيرها الواسع على الإعلام التركي ، ودعمه مادياً .⁽³⁾

إضافة إلى تأثيرهم في الإذاعة والتلفزيون وامتلاكهم لدور نشر الكتب والصحف التي توزع بعضها يومياً وتنشر كل إدعائهم وكذبهم . واستطاع اليهود التحكم في الإعلام التركي طبقاً لأهدافهم من خلال بعض المجلات والصحف ، وقد مارس اليهود سيطرتهم على الصحافة من خلال طريقتين :

- (1) شراء أو إنشاء الصحف والمجلات ووكالات الأنباء .
- (2) التغلغل في الصحف والمجلات الكبرى ، والاستحواذ على مراكز قيادية فيها .
وعلى سبيل المثال نجد أن اليهود أسسوا وكالة "هاشيت" الفرنسية عام 1268هـ / 1851م ، وأسس اليهودي الألماني المولد البارون (فون رويتز Von Royter) وكالة "رويتز" للأخبار عام 1275هـ / 1858م في لندن ، أما عن الصحف فإن صحيفتي "نيويورك تايمز" New York Times ، و "واشنطن بوست" Washington Post تمتلكها عائلات يهودية وهي أكثر الصحف انتشاراً في الولايات المتحدة الأمريكية والعالم . يأتي في المركز الثاني بعدهم من حيث الانتشار "نيويورك بوست" New York Post ، و "ول ستريت جورنال" Wall Street Journal ، وجميع مدراء تحريرها من اليهود أما عن المجالات الثقافية فأغلبها يتولى تحريرها يهود ، مثل مجلة "

⁽²⁾ سهيل صابان : مرجع سابق ، ص169 .

⁽³⁾ هدى درويش : حقيقة يهود الدونمة في تركيا ، ص49 .

كومناري

"Commentary" ، عوضاً عن المجالات التي تناول الدعم المادي من المصادر اليهودية .
(1)

أما الصحف التي مارست ضغوطاً على الرأي العام العثماني فكانت صحف أسسها اليهود في الدولة العثمانية مثل: صحيفة "الأزمان" ، "صحيفة الأمل الطيب" ، صحيفة "جون ترك" ، صحيفة "عثمانيستنلر لويد" ، صحيفة "العصا" ، صحيفة "المستقبل" ، صحيفة "لاناسيون" ، صحيفة "طنين" ، صحيفة "شفق" ، صحيفة "أورور اليهودية" ، صحيفة "أبواب الشرق" ، مجلة "بني مجموعة" ، "مجلة كرمي" ، مجلة "اجتهاد" المعادية للإسلام ، صحيفة "تركيما الفتاة" الناطقة بلسان حال الاتحاديين ، صحيفة "العصا لمن عصى" التي أسست في مصر ، ونادت بهجرة اليهود إلى فلسطين ، صحيفة "اللونار" أهم صحف سالونيكي التي أسسها "يهود لخما" عام 1281هـ / 1864 م . بالنظر إلى الفترة الزمنية الممتدة بين سنتي 1141هـ - 1322هـ / 1728 م - 1904 م نكتشف أن اليهود وحدهم أصدروا حوالي 975 مطبوعة ، ما بين صحيفة ، ومجلة ، ونشرة يومية ، ونصف أسبوعية ، وأسبوعية ، وشهرية ، وفصilia ، ونصف سنوية ، وسنوية ، ترجمت هذه المطبوعات إلى 17 لغة ، صدرت في 25 بلداً ، منها 579 مطبوعة في أوروبا وحدها ، وتوزع الباقي على بلدان العالم . هذه الإحصائية لها دلالة واضحة على النشاط الإعلامي الملحوظ لليهود الذي انطلق مع بداية النهضة الأوروبية الحديثة ، وقدم خدمات جليلة لليهود وللحركة الصهيونية ، خاصة عن طريق الصحافة التي سيطروا عليها بطريقة تامة .
(2)

وقد تجلى دور الصحافة اليهودية في تركيا لخدمة الأهداف الصهيونية التالية :

- ١) تحسين صورة اليهودي في المجتمع التركي .
- ٢) تشويه صورة العرب لدى الأتراك ، وذلك لتسهيل الانفصال بينهم .
- ٣) إزكاء روح القومية التركية .
- ٤) جمع التبرعات لدعم الجمعيات والمراکز الخاصة باليهود الأتراك .

⁽¹⁾ غازى محمد فريج : مرجع سابق ، ص 278 ، 279 .

⁽²⁾ مرجع سابق ، ص 271 - 272 .

٥) تشجيع تأسيس المراكز والجمعيات الخاصة بهم مع تشجيع الهجرة إلى فلسطين .

٦) الهجوم على كل من يعادي الصهيونية .^(١)

وأهم أهدافهم إحياء اللغة العبرية ، وتوثيق علاقة يهود الدولة العثمانية مع يهود أوروبا .^(٢) وزاد النفوذ اليهودي في الإعلام خاصة مع ظهور جمهورية تركيا الحديثة، حيث امتلك اليهود أكبر وأكثر الصحف والمجلات انتشاراً ، مثل جريدة " حرية " التي كانت من متزعمي الرأي العام التركي لقبول فكرة إقامة دولة صهيونية في فلسطين ، وقادت الهجمات على حجاب المرأة المسلمة . ويملك يهود الدولة أيضاً جريدة " كون أيدن " ، وجريدة " ترجمان " التي يمتلكها عثمان كبار من عائلة " كبار " اليهودية . وتمتلك عائلة (إبيكجي) جريدة " ميلليت " . وجميع هذه الصحف قد نادت بضرورة التعاون مع إسرائيل ، وألصقت التهم بالعرب ، وجردتهم من الصفات الإنسانية .^(٣)

ومن ألمع الصحفيين اليهود في تركيا الذي يروج دائمًا لآرائهم وتشويهاتهم ضد العثمانيين (عبدي إبيكجي) الذي كان ناشطاً في مجال الصحافة والكتابات ضد الإسلام والعثمانيين عبر جريدة " ميلليت " ، كان عضو هيئة تدريس في معهد الصحافة بجامعة إسطنبول . وعمل رئيساً لنقاية الصحفيين الأتراك وعضوًا في اللجنة التحضيرية لقانون أخلاق الصحافة ، والأمين العام لديوان الشرف الصحفي.^(٤)

إضافة إلى (أحمد أمين يالمان) يهودي من الدونمه ، أسس عدة صحف ومجلات مهمة ، أهمها صحيفة " الصباح " التركية عام 1325هـ / 1907م ، وهو رئيس تحرير صحيفة " طنين " أسهم في الدفاع عن قيام دولة أرمينية ودولة كردية تستقلان عن الدولة العثمانية ، وتقطعن من أراضيها . ناصر الصهيونية في المجالات والصحف التي أسسها ، واشترك في المؤتمرات الصهيونية بالولايات المتحدة الأمريكية ، ومن أبرز آرائه مناداته بضرورة قبول تركيا للحماية الأمريكية في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، وناصر (أحمد يالمان) من خلال كتاباته قضايا الماسون الأتراك ، دافع عن الصهيونية بضراوة ، وظهرت معاداته ل الإسلام والمسلمين بوضوح ، قام دور بارز في حركة الأتراك الشبان في سالونيك

^(١) هدى درويش : العلاقات التركية اليهودية ، ج 2 ، ص 28 .

^(٢) محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 113 – 115 . هدى درويش : حقيقة يهود الدونمة في تركيا ، ص 49.

^(٣) هدى درويش : حقيقة يهود الدونمة في تركيا ، ص 50 ، 51 . محمد حرب العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 115 ، 144 .

^(٤) هدى درويش : العلاقات التركية اليهودية ، ج 2 ، ص 55 . محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 115813 .

حيث طالبت بالتحديث ، وتغريب الدولة العثمانية. وشارك في ثورة تركيا الفتاة ، وقد هاجمته صحف المعارضة ، وحملت الحكومة إعطاءه حرية الهجوم على الدولة⁽¹⁾.

وعن طريق هذه الأقلام استطاع يهود الدونمة أن يجدوا رأياً عاماً في تركيا مؤيداً لقيام إسرائيل ، وغير متعاطف مع العرب والمسلمين . وعملت الأجهزة الإعلامية على خدمة اليهودية ، ودفع الأتراك عن طريق الإعلام إلى العطف على إسرائيل واليهود .⁽²⁾ وقد نشط المستشرقون اليهود في أوروبا حيث كان لهؤلاء المستشرقين المبادرة في صقل فكرة القومية التركية بكتاباتهم ونشراتهم ، ولمعت عدة أسماء برعوا في الكتابة عن أصول فكرة القومية الطورانية في الغرب أمثال (أرمينيوس)، (ليون كوهين) و (فامبرى)⁽³⁾ (وارثر ليملي ديفيدس) ، وهؤلاء أسهموا بالفكر والتأييد لجمعية الاتحاد والترقي ، وجميعهم كانوا داخل إسطنبول.⁽⁴⁾

ومن أبرزهم (وارثر ليملي ديفيدس Arthur Lumley Davids⁽⁵⁾) الذي وضع مؤلفاً عن " العلم النافع في تحصيل صرف اللغة التركية " كتب فيه مقدمة طويلة عن وصف التاريخ والحضارة التركية حيث شجع الأتراك على التمسك بالقومية التركية، وأظهر مزايا اللغة التركية وتعظيم شأنها في هذا الكتاب وقد كان للمؤلف دور كبير في التأثير على المفكرين الأتراك ، واعتزازهم بالقومية التركية ، حيث أظهر الكتاب بعض الجوانب عن تاريخ التمدن التركي ما قبل الإسلام ، وأكد على ضرورة الرجوع إلى معرفة التاريخ التركي القديم، وبيان مفاخر هذا الشعب في التاريخ والحضارة.⁽⁶⁾

ومن أشهر يهود الداخل في الدولة العثمانية (ليون موئيز كوهين Leon Kooken⁽¹⁾) ، وكان يكتب جميع مقالاته باللغة التركية في الصحف والمجلات ،

⁽¹⁾ محمد حرب: العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 113-115 . هدى درويش : العلاقات التركية اليهودية ، ج 2 ، ص 55. هدى درويش : حقيقة يهود الدونمة في تركيا ، ج 2 ، ص 55 .

⁽²⁾ محمد حرب: العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 117 .

⁽³⁾ فامبرى : عمل مستشاراً للسلطان عبد الحميد الثاني ، ولم يكن في الواقع سوى جاسوس لبريطانيا ، ولم تخفَ حقيقته يوماً عن السلطان عبد الحميد .

⁽⁴⁾ محمد حرب : السلطان عبد الحميد الثاني آخر المسلمين العثمانيين الكبار ، ط 1 ، دمشق : دار القلم ، د. ت ، ص 231 .

⁽⁵⁾ ديفيدس : آرثر ليملي مستشرق بريطاني يهودي ، اتضحت آراؤه من خلال مقدمة كتابه التي وصف فيها التاريخ ، والحضارة التركية . سهيل صابان : مرجع سابق ، ص 139 .

⁽⁶⁾ سهيل صابان : مرجع سابق ، ص 139 .

⁽¹⁾ كوهين : ليون موئيز Leon cohen ولد في سلانيك عام 1301هـ / 1883م ، وتخرج من مدرسة الحقوق ، وهو مؤرخ وكاتب من أصل فرنسي يهودي ، بدأ حياته العلمية بنشر مقالات في المجالات المشهورة ، من أهمها جريدة " روم أيلي " ، وكان

وله ضلع في الاتحاد والترقي ، ودور كبير في المذكرة التي قدمها الصهاينة للاحاديدين وضحاوا فيها رغبتهم باعتراف هذه الجمعية بفلسطين وطنًا قوميًّا لليهود في أعقاب الإطاحة بحكم السلطان عبد الحميد الثاني .

يعتبر (ليون موئيز كوهين) موجد فكرة القومية الطورانية في الدولة العثمانية ، وأسهم بشكل فعال في التخطيط لسياسة العنصرية الطورانية التي سارت عليها فيما بعد حكومة الاتحاد والترقي بعد خلع السلطان عبد الحميد الثاني. وكتابه "توران" يعتبر الكتاب المقدس لسياسة الطورانية ، والمرجع الأساسي لهذا الأمر ، وتدرج في عدة وظائف سياسية لها أبلغ الأثر في الدعاية لسياسة العنصرية الطورانية ، أخذ على عاتقه التعريف بحركة الاتحاد والترقي والدعاية لها في الصحف الأوروبيّة باعتباره عضواً أساسياً فيها ، حيث أسهم بكتاباته في صياغة سياسة الاتحاد والترقي ، وهي السياسة التي أثّرت على العلاقات التركية العربية ، خاصة في بلاد الشام ، شكى منها العرب خاصة إبان حكم جمال باشا الاتحادي.⁽²⁾

وحتى لا يثير ريبة وحساسية القراء العثمانيين عامة والأتراك المسلمين خاصة لم يستخدم اسمه الحقيقي في الكتابة إلا فيما ندر من المقالات. وكتاب واحد فقط نشره بالتركية ، وأسمه المستعار (تكين ألب- مؤنس ألب)، وذلك ليخدع قراءه بأنه مسلم وعربي خاصة وأن أغلب القراء يتصورون أنه عربي مسلم .⁽³⁾

وجاء (ليون كوهين) باسمه المستعار (تكين ألب) بكتاب جديد اسمه "مدخل لتاريخ آسيا" ، وقد أوضح فيه دور القبائل التركية في آسيا الوسطى ، وأظهر اهتمام واضح بمزايا الأتراك وأمجادهم ، فأصبح منهاً فكريًّاً للقوميين الأتراك فيما بعد . وركز كوهين على التاريخ التركي القديم في محاولة لتجريد الشعب التركي من الإسلام ، واعتباره حدثاً طارئاً

يصدرها يوتس نادي وهو من يهود الدونمة ، وجريدة الاتحاد والترقي التي كان يصدرها الاتحاد والترقي ، ثم عين مديرًا لمكتبة مازارين، ثم أرسل إلى الدول الشرقية في رحلات البحث العلمي ، فأجرى بحوثاً شاملة على اللغة والأدب التركي ، وبخاصة ما يتعلق بلهجات أتراك آسيا الوسطى ، له مؤلفات كثيرة في هذا الصدد . وقد ذكر في كتابه أن الذين نقلوا الحضارة إلى أوروبا هم الأتراك ، وأن الشعب التركي عنصر عريق على وجه الأرض . ألقن عدة لغات أوروبية بجانب العبرية والتركية . سهيل صبان : مرجع سابق ، ص 139 ، 140 . محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 120 . أحمد نوري النعيمي : مرجع سابق ، ص 166 ، 167 . هدى درويش : العلاقات التركية اليهودية ، ج 2 ، ص 50 .

⁽²⁾ محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 119- 121 .

⁽³⁾ مرجع سابق ، ص 121 . محمد حرب : السلطان عبد الحميد الثاني آخر السلاطين العثمانيين الكبار ، ص 232 .

في حياتهم لابد من التخلص منه ، ممثلاً في الخلافة العثمانية. ويرجع له الفضل في نشر الفكر القومي التركي بين المتعلمي الأتراك من خلال تأكيده على تفوق العنصر التركي .⁽¹⁾ والكتاب الوحيد الذي وضع عليه اسمه الحقيقى هو كتاب " ماذا يمكن أن يكسب الأتراك من هذه الحرب " ،تناول فيه الحرب العالمية الأولى حيث دعا الشباب التركى إلى فكرة العنصرية التركية ، واتحاد الأتراك بدلاً عن الوحدة الإسلامية التي دعت لها فكرة الجامعة الإسلامية .⁽²⁾

وكان تأثيره خطيراً لا سيما في الجيش العثماني خاصة فيما يتعلق بضرورة قيام دولة تركية طورانية تجمع أتراك العالم في دولة واحدة. ومناداته بضرورة تتربيك البلدان التابعة للدولة العثمانية ، وهذه الفكرة هي أول سبب جوهري في نفور العرب من الأتراك . وللليون كوهين كتاب "سياسة التتربيك" الذي صدر في إسطنبول عام 1347هـ / 1928م ، ويعتبر دليلاً صريحاً على أن اليهود هم أول من نادى بسياسة التتربيك و إثارة النعرات العرقية ، وتحدى فيه عن تتربيك الشعوب غير التركية في الدولة .⁽³⁾ وهنا نستطلع حقيقة واضحة للذين يلصقون تهمة التتربيك بالدولة العثمانية ، هي أنها فكرة يهودية صافية أما بالنسبة لليهود في الخارج الذين لهم دور في تثبيت الفكر القومي فأشهرهم (إميل دور كايم Emeal Dor Caym) اليهودي الفرنسي صاحب المذهب الاجتماعي الذي ترك آثاراً في فكر رائد القومية التركية وفيلسوفها (محمد ضيا كوك ألب) .

ولم تقطع صلة المستشرقين اليهود في أوروبا بالمفكرين القوميين داخل الدولة العثمانية ، إذ أثروا في تشكيل الفكر المدبر للاحتجاد والترقي .⁽⁴⁾ ومن أبرز الشخصيات التي نالت الدعم والمساعدات من جمعية الاتحاد والترقي ، (أبراهام بن أروية Ibrahim ben Auraih) الذي يعد من أبرز مؤسسي الحركة العمالية اليهودية في سالونيك ، حيث قام بنشر الفكر الاشتراكي فيها ، ونال المساعدة من الاتحاد والترقي من أجل نشر أفكاره بين أوساط المجتمع التركي ، وهو من أشد المتحمسين للحركة الصهيونية ، حيث هاجر إلى فلسطين في أعقاب الحرب العالمية الثانية .⁽¹⁾

⁽¹⁾ سهيل صابان : مرجع سابق ، ص 139 ، 140 .

⁽²⁾ هدى درويش : العلاقات التركية اليهودية ، ج 2 ، ص 50 .

⁽³⁾ مرجع سابق ، ج 2 ، ص 51 .

⁽⁴⁾ محمد حرب : السلطان عبد الحميد الثاني آخر السلاطين العثمانيين الكبار ، ص 232 .

⁽¹⁾ هدى درويش : العلاقات التركية اليهودية ، ج 2 ، ص 52 .

ولم تختلف النساء عن ركب الطورانية فإن أبرز شخصية نسائية يهودية في الأدب التركي الحديث المعاصر خالدة أديب ، وهي يهودية من يهود الدونمة ، والدها أديب أفندي ، عرف عنها ميولها القومية والطورانية المتعصبة ، تبوأ مكاناً بارزاً في جمعية الاتحاد والترقي ، خريجة كلية روبرت الأمريكية ، وكانت على صلة وثيقة بقيادة الاتحاد والترقي وعلى رأسهم (جمال باشا) كانت تقف دائماً خلف كمال أتاتورك تساعد وتسانده ، اتجهت إلى مدح اليهود والدفاع عنهم في كل كتابتها ، والدفاع عن حقوقهم المزيفة ، بل ودعت لقيام إسرائيل ، اشتهرت بمعاداتها للإسلام ولعلماء الدين الإسلامي الذين عارضوا الحركة الكمالية، ساندت الدعوة إلى الطورانية ، وتعليم العرب اللغة التركية إلى جانب دعوتها إلى نشر القومية التركية عن طريق روایاتها ومسرحياتها التي قدمتها ، ومن أشهر روایاتها "اضربوا الغانية" وكان هدفها معاداة الدين الإسلامي ومن روایاتها "طوران" التي تدعو لل الفكر الطوراني ، و "قميص من نار". وقد أخرجت أوبرا "رعاة كنعان" في سوريا التي مثلت أمام الولاة والقادة العسكريين ، ومديري الشرطة، وقاده الاتحاد والترقي ، وتهدف المسيرية إلى إعلان بشري قرب قيام دولة إسرائيل .⁽²⁾

أما (صموئيل زويمر) المستشرق اليهودي الذي كتب العديد من المؤلفات الإسلامية ، وأسس مجلة "العالم الإسلامي" عام 1329هـ / 1911م ، فهو أحد كبار المستشرقين الذين قاموا بدور في المنطقة العربية، حيث ترأس وأدار العديد من مؤامرات التنصير من إنجلترا في أقصى الغرب إلى الهند في أقصى الشرق ، وقد بقي على يهوبيته حتى مات عام 1371هـ / 1952م ، واستطاع أن يمارس الخدعة اليهودية المعروفة حيث ارتدى ثوب النصرانية ، واعتلى المناصب المهمة في الوظائف المسيحية ، وتلقى الدعم الكافي من الكنيسة الإصلاحية الأمريكية .⁽³⁾

جاء في طليعة المستشرقين اليهود (إبراهام جايجر Ibrahim Gaygar) الذي قام بدور بارز في الحركة الاستشرافية وتقديمها . أبرز آرائه اتهام الرسول ﷺ بالاعتماد على التوراة وإنجيل ، ولا شك أنه ردد ما سبق أن قاله أجداده ، حيث أصبحت آراءه القاسم المشترك بين المستشرقين في الغرب الذين وجدوا فيها سندًا ودعماً قوياً .⁽¹⁾ (الخاخام

⁽²⁾ هدى درويش : حقيقة يهود الدونمة في تركيا ، ص 52 ، 53 . هدى درويش : العلاقات التركية اليهودية ، ج 2 ، ص 52 ، 53.

⁽³⁾ عبدالله الثل : جذور البلاء ، ط 1 ، مصر ، المكتب الإسلامي ، 1408هـ ، د. ت ، ص 25 .

⁽¹⁾ محمد جلاء إبريس : مرجع سابق ، ص 91 . عبد الرحمن بدوي : مرجع سابق ، ص 222 ، ص 223 .

اليهودي نحما 1242هـ - 1317هـ / 1826م - 1899م " ترجع أصوله إلى سلانيك ، ومن أبرز القضايا التي اشتغل بها قضية تعليم اللغة العبرية ، اهتم بجمع المخطوطات والكتب الدينية اليهودية القديمة ، كان حلقة وصل لنقل الثقافة الأوروبية إلى يهود تركيا عن طريق إمامه الجيد باللغات الأجنبية ، يعتبر من رواد الصحافة في تركيا حيث أصدر عام 1281هـ / 1864م صحيفة اللونار . وأخيراً (إيزيدور باروخ Izedour Baroukh) أبرز شخصية يهودية عملت في مجال الإعلام ، حيث كان يمتلك شركة إعلان في تركيا، كانت الشركة الوحيدة الرائدة لسنوات طويلة.

ومن أشهر المستشرقين اليهود الذين لهم باع طويلاً في الكتابة عن التاريخ العثماني (برنارد لويس Bernard Lewis) الذي اسهم بجهد فعال في الترويج لكثير من المفاهيم والأفكار ضد الدولة العثمانية . كانت له قدرة عجيبة على تطوير الحقائق وبترها وإضفاء عليها الكلام والجمل الإنسانية والحماسية التي تخفي الحقيقة وتقنع القارئ برأيه .

فهو صهيوني متغصب ، أصبح أستاذًا للتاريخ الإسلامي في جامعة لندن ، كما عمل في جامعة برنسون بالولايات المتحدة الأمريكية ، تتلمذ على يديه كثير من الأساتذة العرب ، وله العديد من المؤلفات في مختلف نواح التاريخ الإسلامي .⁽²⁾

وقد وجه تخصصه في التاريخ الإسلامي لخدمة الدراسات اليهودية والبحث في المسائل التي تخص اليهود في العالم الإسلامي . وله في هذا الصدد العديد من المؤلفات والدراسات التي ترضي اليهود ، ومنها كتابه " اليهود في الإسلام " الذي صور فيه اليهود على أنَّ لهم الدور الأكبر في بناء الحضارة الإسلامية فضلاً عن إيجاد دور مهم لهم في بناء الدين الإسلامي نفسه .⁽³⁾

وقد اتجه (برنارد لويس) في السنوات الأخيرة إلى البحث والكتابة عن الدولة العثمانية وتركيا الحديثة ، وهو رائد الاتجاه الاستشرافي اليهودي الجديد في استبعاد الطعن المباشر في تاريخ الدولة العثمانية وعهد السلطان عبد الحميد الثاني . فإن طريقة الجديدة تتلخص في اللجوء عند صياغة أفكاره وتشوييهه وافتراضاته إلى الحذر والدقة وافتعال حسن النية في الكتابة ، وإلى المغالطة باستخدام تحريف النص ، والعبث بذهن القارئ ، واستخدام

⁽²⁾ محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 103 . محمد حرب : السلطان عبد الحميد الثاني ، ص 232 .

⁽³⁾ محمد جلاء إبريس : مرجع سابق ، ص 91 ، 92 . صلاح الصيفي: المستشرقون اليهود في الغرب ومحاولات هدم لحضارنة الإسلامية ، برلين: علي نتفه ، 25/5/2009م . <http://www.SaadNet.com>

مصادر ضعيفة ليسهل له الطعن في الإسلام والافتراء عليه ، وهو باحث مجد ودؤوب ، لكنه سيء النوايا. إنه يجيد بعضاً من اللغات الشرقية ، ومن ضمنها التركية ، ويعرف جيداً المصادر العثمانية الأصلية ، ولكنه يلوي الحقائق ، فمثلاً لم يرد أن تتسن فكرة إنشاء أول جامعة في إسطنبول لزمن محمد الفاتح ، على الرغم من وجود مصدر ثابت لهذه المعلومة وهو وقفيّة إنشاء الجامعة إلا أنه ردّها إلى مصدر تركي حديث عن العهد الجمهوري لطمس مآثر العثمانيين الأوائل بنسبيها إلى السلطان عبد الحميد .⁽¹⁾ ويدعو في كتاباته إلى العنف لتحقيق أهداف الصهيونية . ولهذا نجد أن كتاباته العلمية ملوثة دائماً بأهدافه السياسية ، وموقفه واضح تجاه التاريخ الإسلامي والمسلمين ، حيث تتسم أهدافه بالعنف والتحامل . ومن أشهر دراساته عن اليهود تلك التي تخص الوجود اليهودي في الدولة العثمانية وفلسطين بالذات .⁽²⁾

كما تأثر برنارد بما رأه من آثار الحرب العالمية الثانية ، وظهور حركات التحرر في العالم الإسلامي ؛ فركز على هذه الحركات وقضاياها الفكرية ، ووجه اهتمامه الخاص بدراسة ظهور تركيا الحديثة والحركة العلمانية فيها التي أدت إلى تغريب تركيا . وقد خطط بالاتفاق مع (دنيال بايس) و (ناداف سافران) على إقامة ندوة عن الحركات الإسلامية في جامعة هارفارد بتمويل مشترك مع المخابرات المركزية الأمريكية ، لكن هذه الندوة ألغيت بسبب افتضاح أمرها وانكشاف مأربها.⁽³⁾

أما الدكتور (ستانفورد شو) فمن أشهر المستشرقين اليهود الذين كتبوا عن الدولة العثمانية ، إذ له كتاب شهير عنها اسمه "تاريخ الإمبراطورية العثمانية" .

احتوى كتابه على عدد كبير من الافتراط والتشویهات التي لا حصر لها ، والغريب في الأمر أن كثيراً من المؤرخين المسلمين يرجعون له في التاريخ العثماني على الرغم من أنه مستشرق يهودي لم يذكر معلومة صادقة ، تعاونه في ذلك زوجته (أزرل شو) . فهو مستشرق يهودي أمريكي يعمل أستاذًا للتاريخ الإسلامي في جامعة كاليفورنيا " لوس

⁽¹⁾ محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 104 . محمد حرب : ليس بالاستشراق نفهم تاريخنا ، المجلة العربية ، رجب - مارس 1407هـ / 1987 ، ص 74 .

⁽²⁾ محمد بن عبود : مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية ، ج 1 ، ص 363 .

⁽³⁾ صلاح الصيفي: المستشرقون اليهود في الغرب ومحاولات هدم لحضارة الإسلامية ، برلين: علي تنفه ، 25/5/2009م .
http://www.Saadid.Net .

أنجلوس" ، أما زوجته فهي أيضاً يهودية من يهود الدونمة في تركيا ، وتعمل في قسم التاريخ في الجامعة نفسها .

تخصص في البداية في تاريخ مصر العثمانية ، ثم تدعها إلى تاريخ الدولة العثمانية ويعد مستشراً يهودياً مثابراً متميزاً في مدرسة الاستشراق اليهودي، عوضاً على أنه يمثل العنصر الأكثر حيوية بين المستشرقين اليهود ، يتقن اللغتين العربية والتركية ، قدم أطروحته في الدكتوراه عن النظم المالية والإدارية في مصر العثمانية . اعتمد في رسالته على وجوده في مصر فعلياً ، كما أن له باعاً طويلاً في البحث في دور الأرشيف والوثائق الرسمية في إسطنبول وأنقرة وباريس وفيينا، وأنه كاتب يهودي يهوى الدس والافتراء ، والتحايل على الحقائق بل والاعتماد على أفكار واهية وأحداث ليست واقعية فإنه نال مساعدات سخية من مؤسسات "فورد" ، و "روكفلر" ، و "جو جنهaim" ؛ فلا ننتظر من كتاباته إنصافاً للعثمانيين .⁽¹⁾

المستشرق اليهودي المجري (إجنس جولد زيهير) من أبرز المستشرقين الذين زاروا مصر وسوريا ، عمل أستاذاً في جامعة بودابست ، وله 592 مؤلف وبحث ، اشتهر بمنهجه في التشكيك بالحديث الشريف ، وبأسلوب الأخذ بالأحكام السابقة ، ثم محاولة تطوير النصوص وفقاً لهذه الأحكام ، عوضاً عن إهماله لدراسة حاضر العالم الإسلامي ، وعرف عنه عدم الدقة في نقل النصوص وتحريفها .⁽²⁾

وكان متاكداً من أن المجتمع المسلم سيقبل أفكاره وكتاباته لو كان مسيحياً أكثر من منه لو كان يهودياً ، فسلك هذا الأسلوب ، وقد أدخل بذلك أفكار بروتوكولات صهيون من بوابة الاستشراق التي تحققت على مر السنين وتظهر بوضوح في وقتنا الحالي . وبقي (صموئيل زويمر) مثلاً لكل المستشرقين اليهود.⁽³⁾

ولا شك أن جميع الأسماء السابقة قد قدمت الكثير من الخدمات الجليلة للمشروع الصهيوني ، ونشرهم لأفكار معينة خدمت الصهيونية لأبعد حد .

⁽¹⁾ محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 105 ، 106 . محمد حرب : ليس بالاستشراق نفهم تاريخنا ، ص 75 . مدارس الاستشراق . المدرسة الأمريكية ، 2009/2/1 . http://www.Madinacenter.com .

⁽²⁾ محمد جلاء إدريس : مرجع سابق ، ص 89 ، 90 . عبد الرحمن بدوي : مرجع سابق ، ص 197 – 199 .

⁽³⁾ عبد الرحمن بدوي : مرجع سابق ، ص 117 ، 118 . صلاح الصيفي: المستشرقون اليهود في الغرب ومحاولات هدم حضارة الإسلامية ، برلين: علي نتفه ، 2009/5/25 . http://www.SaadNet..

ومن خلال هؤلاء الكتاب الصهابية يمكن القول بأن هناك ثلاًث عوامل رئيسة سُبّطت على اتجاهات الحركة الاستشرافية منذ النصف الثاني من القرن 13 هـ / 19 م وهي :

(١) استمرارية حركة التصوير .

(٢) زيادة مد النفوذ الاستعماري .

(٣) تفكيك الحركة الصهيونية لمخططاتها وقد استطاعت الأخيرة أن تكيف التصوير
والاستعمار لتحقيق أهدافها .^(١)

وبالتالي نجد أن كل هؤلاء المستشرقين والكتاب خدموا هذه الأهداف الثلاثة، وكانوا أدلة لتحقيقها ، وأبواؤها لترديد آرائها .

إن عمل الاستشراف اليهودي الآن يقوم على تبني كل الدراسات الاستشرافية ذات الطبيعة العدائية للإسلام والعرب ، والقيام بنشرها وتعيمها ، وتشجيع أصحابها ، وتقديم الدعم المالي لهم ، الهدف من ذلك هو إسكات أي صوت أو دعوة تنادي بضرورة النظر باعتدال تجاه الإسلام والمسلمين بمن فيهم العثمانيين ، معتمدة في ذلك كله على الافراء والتشويه والتحريف وسحب أي مجد أو حق من العرب ونسبته إلى اليهود ، ومثال على ذلك تضخيمهم لدور اليهود في الجزيرة العربية ، واستيطانهم فيها ، وعلاقاتهم بالعرب في محاولة جادة لتزوير وقائع التاريخ وأحداثه . بل وتحريف النصوص المقدسة.^(٢)

ويتضح مما سبق الكيفية التي استطاع بها اليهود وبدعائهم الإعلامية وكتابتهم الاستشرافية أن يوجهوا الكتابة عن التاريخ العثماني بالاتجاه الذي خططوا له ورغباً فيه ، فقد صبت في عدة روافد تعاونت جميعها على الوصول إلى الهدف ألا وهو تشويه صورة الحكم والتاريخ العثماني بل والتأثير على أكثر كتابات المؤرخين المسلمين ، وتبئنة الرأي العام ضدها إلى يومنا الحالي .

ورغم خطورة الاستشراف اليهودي باتجاهاته المختلفة ودوره البارز في الحركة الاستشرافية إلا أنه لا يوجد تركيز عليه في الكتب التي تتناول دراسة الاستشراف إلا في جملٍ

^(١) محمد جلاء إدريس : مرجع سابق ، ص 85 .

^(٢) صلاح الصيفي: المستشرقون اليهود في الغرب ومحاولات هدم لحضارة الإسلامية ، برلين: علي تنفه ، 25/5/2009م .
<http://www.Saadid.Net> .

صغيرة وفقرات محدودة ، فقلما نجد دراسة منفردة عن الاستشراق اليهودي إلا قلة ، رغم عمقه في تاريخ الاستشراق ، وهنا تكمن الصعوبة في اكتشاف مدى تغلغل اليهود في الاستشراق .⁽¹⁾ لم يكن ليحقق الإستشراق اليهودي كلّ أهدافه ، وتتجح تشويهاته في التغلغل في كتب التاريخ العثماني لو لم يجد أبواً من أبناء المسلمين الذين يرددون أفكارهم بقصد ، أو دون قصد .

وإذا استطعنا دورهم في الكتابة عن السلاطين العثمانيين تتضح الرؤيا أكثر ، ويظهر تأثيرهم بوضوح في مواد دائرة المعارف الإسلامية ، حيث دسوا التهم والافتراضات بين السطور حتى لا يفطن لها القارئ العادي ، إذ رموا السلاطين بالتهم جزافاً دون الاستناد إلى مصدر تاريخي موثق ، وذلك وصولاً للرغبة الدفينة داخلهم .

لم يتركوا سلطاناً واحداً إلا ووصموه بتهمة واحدة على الأقل باطلة، وللأسف أصبحت هذه التهم حقائق مسلمة بها ، لا تقبل النقاش حتى على مستوى المؤرخين المسلمين . ولم يكن كتاب دائرة كلهم يهود ، بل شكلوا نسبة ضئيلة ، لكنها جاءت ترجمة لأفكارهم بشكل لا يُصدق . وسيتضح من سيرة سلاطين الدولة العثمانية كيف أنهم شوهدوا صورتهم جزافاً معتمدين على قوة الإقناع ، وعلى الخافية السوداء للحكم العثماني التي كانوا سبباً فيها ، والمساعدة على نشرها ، وهذا هو موضوع الفصل القادم بإذن الله .

⁽¹⁾ محمد جلاء إدريس : مرجع سابق ، ص 85 .

تجلی حقد الأوروبيين على الدولة العثمانية وكرههم لها ، في كتابات المستشرقين وأبحاثهم عن تاريخها ، وخير من يمثل ذلك مواد الدولة العثمانية في دائرة المعارف الإسلامية لأنها تعد من أهم مؤلفات المستشرقين :

- (١) تحمل في طياتها صوراً مشوهة وسيئة عن الإسلام والمسلمين والعرب وصولاً إلى العثمانيين . لأن أغلب محرري مواد الدائرة من المستشرقين كانوا من دارسي اللاهوت والديانة اليهودية ولهم عدة أبحاث فيها ، عوضاً عن أن أغلب رسائلهم التي قدمت لنيل الدرجات العلمية كانت عن الإسلام وسيدهنا محمد ﷺ مما يدل على مدى تعمقهم في تشويه الإسلام . ولم يكن لكتاب العرب نصيب فيها إلا ضئيلاً . حيث حرروا مواد قليلة جداً .
- (٢) تخطي منهجية الرجوع إلى المصادر حيث كثيراً ما يترك المستشرقون الاستدلال بالكتاب والسنة ، ويلجأون إلى كتب القصص والعجائب والغرائب والطرائف ، لذلك يجب الحذر بما ينسبونه من معلومات للمصادر الإسلامية حيث أنهم عند إرجاع أي معلومة لمصدر ما فإن بعضهم ينسبون إلى نفس المصدر ما يصلون إليه من نتائج خاصة بهم ؛ فيظن القارئ أنه كذلك في المصدر ، وهذا الاستنتاج ليس بالضرورة أن يكون صحيحاً، بل يكون وليد خيالهم المريض ، وفي النهاية يكون الاستنتاج خاطئ جملة وتفصيلاً .
- (٣) عندما وضع المستشرقون دائرة المعارف الإسلامية وضعوها من وجهة نظرهم الخاصة عن الإسلام التي تختلف في جوهرها ومضمونها عن نظرة المسلمين ،

صحيح أنها جاءت بمعلومات جديدة وصحيحة في بعض الأحيان تكاد تكون مجهولة لل المسلمين والعرب وقت تأليفها ، خاصة في الترجم والجغرافيا والمعرفة بشكل عام، وهذه من وجهة نظر الدراسة- الحسنة الوحيدة للدائرة ، لكنها خدمت في إطار خاطئ، ووضعت أساساً للتأثير على إتجاه الباحثين المسلمين ، حتى تأتي أبحاثهم بعد ذلك مشوهة ومخالفة للواقع والحقيقة . وبذلك يصل المستشرق لأهدافه دون عناء أو مشقة ، والحقيقة أن الوقت الذي ألفت فيه الدائرة قبل الحرب العالمية الأولى واستمرار المشروع حتى منتصف القرن 14 هـ / 20 م ، هو ذات الوقت الذي كانت ترذخ فيه الأرضي الإسلامية تحت نقل الاستعمار، ما نتج عنه خلخلة فكرية وتأخر ثقافي وضعف في إرتباط المسلمين بدينهم وتشويهه في نظرهم ، ساعد على ذلك مقالات الدائرة التي قدمت خدمات للدول الاستعمارية ساعدهم على إحكام سيطرتها على الشعوب المستعمرة.

(٤) لم تورد الدائرة في بعض الأحيان الأسماء الكاملة لبعض المستشرقين ، أو حتى قامت بعمل جداول تعريفية لهم ، مما أسهم في صعوبة اكتشاف إسم المستشرق ، وهو ما تكرر مع الدراسة في اثنين منهم . وكأن المستشرق الذي قدم المادة ليس لها مكانة علمية كبيرة . وإصرار مترجمي مواد الدائرة على عدم ذكر نبذ شخصية عنهم ، وعدم تصحيح الخطأ التاريخي أو حتى التعليق بالهامش على الاقتراءات والمطاعن التي وضح أمرها جلياً ، وترك الأمور على علاتها ، ويعتبر هذا أكبر وأشد ضرراً ؛ لأن هذا يعني نشوء جيل من المتعلمين يعتبرها مرجعاً موسوعياً أساسياً يستقي معارفه الأولى منها . لهذا لن يكون جيلاً صحياً فكريأً وثقافياً ، وقد تضافت جهود المستشرقين لإخراج هذا العمل ، فيستقي الباحث منها ، ويعتمد عليها دون أن يفرق بين الحق والباطل فيها ، أو يعلم أن مؤلف هذه الدائرة من ألد خصوم الإسلام والمسلمين ، لذلك فالنسخة العربية لم تقم بالدور المطلوب منها ، وهو تقديم المعلومة الصادقة الصحيحة ، ولم يعلقوا إلا على بعض الشبهات حول الشريعة الإسلامية في الهامش فقط.

(٥) زيادة نشاط المستشرقين ، بعد فشل أوروبا في التصدي للجهاد الإسلامي العثماني . فعملوا على تقديم المساعدة للجيوش حيث كانوا القادة الحقيقيين الذين يقفون خلف

الستار في توجيهها ، وقدموا كافة المعلومات لكيفية تعامل المستعمر مع أهالي البلاد المستعمرة .

٦) اتصافهم بعدة صفات تظهر بوضوح من خلال ثابياً موادهم في دائرة المعارف الإسلامية ، وهي بصفة عامة سمة أغلب المستشرين الذين ارتكزت أكثرية كتابتهم على التشويه المتعمد والطعن في الإسلام ورموزه وتاريخه حيث طبع آرائهم بهذه الصفات .

٧) عمل أغلب مستشرقي الدائرة في التدريس الجامعي ، وخاصة في الجامعات العربية ، ونالوا عضوية الماجموع اللغوية في البلاد العربية ، عوضاً عن عملهم في وزارة الخارجية ، ودوائر الترجمة مما يسهل عليهم التعرف على حياة البلاد الإسلامية ، بالإضافة إلى عملهم في المكتبات العامة والمتحف ودور الأرشيف ، ساعدتهم على ذلك إتقانهم اللغة التركية بجانب العربية مما مكنتهم من إدخال سموهم بسهولة في النصوص التي كتبوا فيها.

٨) أغلب من كتبوا في الدائرة يتميزون بغزاره نتاجهم في الأبحاث والكتب ، وإلى يومنا هذا لا يزال عطائهم مستمر .

٩) دفع اليهود للكتابة التاريخية عن الدولة العثمانية بمنتهى الدقة ووفق هدف مدروس ودعائم أساسية ، وبما أن عداوتهم للإسلام انتقلت إلى الدولة العثمانية على اعتبار أنها خير ممثل للإسلام في تلك الفترة ، فقد أهتموا بتشويه صورة الحكم العثماني خاصة أثناء عهد السلطان عبد الحميد الثاني ، الذي تجلى دورهم الحاقد على الدولة العثمانية في عهده .

١٠) صعوبة توثيق دورهم في الكتابات الاستشرافية لإغفال أغلب المراجع لهذه المسألة ، إضافة إلى عزوف الكتاب عن تناول دورهم في الحياة الثقافية والاكتفاء بالجوانب الأخرى . حيث دخلوا ساحة الاستشراف ليسوا بصفتهم (يهود صهاينة) ، وإنما بصفتهم (مسيحيين أوروبيين) ؛ وبذلك لا ينفروا القراء المسلمين منهم .

١١) اهتمامهم بتشويه صورة الحكم العثماني عن طريق وسائل الإعلام . فظهرت عدة شخصيات تركية يهودية في مجال الصحافة أسهمت بشكل كبير في إثارة الرأي العام ضد العثمانيين ، مثل أفراد أسرة إيبكجي ، والصحفى البارز (أحمد يالمان) . أما

المرجون لفكرة الطورانية التي تخدم مصالح الصهيونية فهم (آرثر لي ملي ديفيدس ، و (خالدة أديب) ، ومن داخل كيان الدولة العثمانية (ليون موئيز كوهين) .

(١٢) أما عن أشهر الصهابنة الذين لهم باع طويل في الكتابة عن التاريخ العثماني (صموئيل زويمر) مؤسس مجلة " العالم الإسلامي " ، و (برنارد لويس) ، و (ستانفورد شو) ، و (إجنس جولدزيهر) ، والذين - للأسف الشديد - تعتبر كتبهم المصدر الرئيس للدولة العثمانية لبعض المؤرخين .

وتنتضح آراء المستشرقين اليهود والصهابنة بوضوح في مواد دائرة المعارف الإسلامية.

الفصل الثالث

آراء المستشرقين في كتابة التاريخ العثماني

المبحث الأول :

رؤيه المستشرقين في تناول قيام الدولة العثمانية .

المبحث الثاني :

**رؤيه المستشرقين في الكتابة عن العصر الذهبي
والشخصيات العثمانية التي أثرت في تاريخ أوروبا.**

المبحث الثالث :

**رؤيه المستشرقين في الكتابة عن ضعف الدولة العثمانية
واضمحلالها.**

المبحث الأول :

رؤيه المستشرقين في تناول قيام الدولة العثمانية .

لقد أغفلت المصادر والمراجع المعلومات الأساسية عن الأتراك قبل دخولهم الإسلام ، فلم يحظَ تاريخ الأتراك العثمانيين باهتمام جاد سواء من المؤرخين المسلمين أم غير المسلمين ، إلا إشارات عابرة .

ولكن تغير الوضع تماماً عندما دخل الأتراك في الإسلام ، وأصبحوا محط أنظار المؤرخين المسلمين وغير المسلمين ، وزاد اهتمام المستشرقين بتاريخ الأتراك العثمانيين خاصةً بعد بدء الفتوحات العثمانية في أوروبا .

لكن هذا الاهتمام كان وراءه أغراض في نفوسهم وليس الأمانة العلمية وحب البحث والتحقيق ، بل أطلقوا العنوان لأحقادهم ، يلصقون التهم والافتاءات جزافاً دون أي دليل أو سند تاريخي .

- ولعل المؤرخين المسلمين حذوا حذو المستشرقين إذ لم تركز - أغلب الكتابات على بداية ظهور الأتراك العثمانيين ، واكتفت بإشارات عابرة عن بداية القائد عثمان وهجرة قبيلته ، على الرغم من وجود عدد من المؤرخين العثمانيين الذين أرخوا لبدايات ظهور العثمانيين على مسرح الأحداث ، لكن لا المؤرخين المسلمين تحملوا عناء الترجمة للرجوع لها ، ولا المستشرقين أيضاً ، فعدوها فترة غامضة ، واكتفوا بحياكة الأساطير حولها .

وهذا الأمر كان سبباً في ترك المستشرقين يتجولون بحرية في مساحة الكتابة عن بداية ظهور العنصر العثماني وقوته السياسية ، مما أدى إلى أن الخلفية عن بدايات العثمانيين لا يمكن أن تأتي إلا عن طريق المستشرقين ، في الوقت الذي زاد فيه نفور المسلمين والعرب من العثمانيين ؛ بسبب كتابات المستشرقين التي ألصقت بهم كافة التهم المنطقية وغير المنطقية ، فقد أخرجوا لنا التاريخ العثماني محاطاً بالأساطير والأكاذيب الملفقة ، حتى أصبح القارئ المسلم ينفر لا شعورياً من كلمة عثماني ؛ فقد التصقت في ذهنه بالدماء والقسوة والتخلف والركود .

وخير دليل على ذلك دائرة المعارف الإسلامية ، فقد وضع كرامرز في مادته عن الترك كل أفكار المستشرقين وسمومهم عن بداية العثمانيين . وقد قسمتها إلى عدة أقسام ، أهمها قسم التاريخ ، وأهم ما جاء في المادة عدة نقاط تخص الدراسة :

أولاً : محاولة إثبات أن قيام الدولة العثمانية لم يتيسر إلا بسقوط وزوال الخلافة العباسية .⁽¹⁾

ثانياً : اتخذ كرامرز كل السبل لإقناع القارئ بأن إسلام العثمانيين " الأتراك " لم يأت مبكراً ، وأن ديانة الإسلام التي اتخذوها على المذهب السنوي لم تكن سوى جزء من سياستها الخارجية تجاه الدول النصرانية . ولدليل كرامرز على ذلك أنها دخلت الإسلام أثناء حكم السلجوقة السنوي وعلى مذهب أبي حنيفة ، وقد أكد كرامرز على أنها احتفظت بالسنن القديمة والشعائر الدينية العجيبة المشووبة بالنصرانية ، بالإضافة إلى أن بعضًا من أسمائهم تعد من من التقاليد الشيعية الصوفية القديمة ، ووجه لهم كرامرز الاتهام بشدة حين زعم بأن إيمانهم لم يخلُ من الشك وقد زال مع الوقت بين الطبقات العليا .⁽²⁾

ثالثاً : ظهر في كتابته التخبط بين الحقيقة والدَّس ، فتارة يكتب الحقيقة وأخرى تشدّد الحقيقة بين الوهم والخيال والدس حيث ذكر أن فتوحاتهم السريعة في القرنين 8هـ - 9هـ / 14-15م لم تكن غزوات همجية أو أحلاماً للبدو وإنما، تحقيق لخطط طافت بأذهان غزاة عظام ، مثل بايزيد الأول ومحمد الثاني وسليمان الأول ، ويعود فيما يقتضي نفسه في موضع آخر إذ يقول: إن الغارات والفتحات في ألبانيا وبلاط المورة لم تكن تفيضاً لمشيئة السلاطين ، وإنما كان أمراء التخوم يضططون بها من تقاء أنفسهم .⁽³⁾

رابعاً : محاولة إثبات أن العادات والتقاليد البيزنطية وجدت طريقاً لها إلى آل عثمان منذ فترة مبكرة جداً ، ولديله على ذلك التعاون المبكر بين آل عثمان وبين نصارى اليونان .⁽⁴⁾

خامساً : أكد أن ما روی من مختلف أخبار أرطغرل وعشيرته فيه كثير من سمات الأساطير ، وهذا شأن ما قيل عن عثمان نفسه في بداية حياته ، حيث اعتمد على رواية تاريخية مفادها أن عثمان لم يكن ابنه ، بل في الغالب من جماعات السكان غير المتدينين الذين كانوا أكثر اتباعاً للسنة الإسلامية من التركمان .⁽⁵⁾

⁽¹⁾ كرامرز: مادة الترك ، دائرة المعارف الإسلامية ، ترجمة : أحمد الشنناوي ، إبراهيم زكي خورشيد ، عبد الحميد يونس ، ط1، القاهرة : دار الفكر ، 1933م ، ص 160 – 164 .

⁽²⁾ كرامرز : مادة الترك ، دائرة المعارف الإسلامية : مادة الترك ، ج 5 ، ص 170 – 173 .

⁽³⁾ كرامرز : مادة الترك ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 5 ، ص 160 ، 171 .

⁽⁴⁾ كرامرز : مادة الترك ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 5 ، ص 168 .

⁽⁵⁾ كرامرز : مادة الترك ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 5 ، ص 167 .

ثم ناقض نفسه وعاد يثبت أنه استعان ببني عشيرته ، ووثق صلته ببعض الرجال باصطناع الحيلة في بسط ملكه .⁽¹⁾

سادساً : محاولة كرامرز إثبات أن العثمانيين لم يقابلوا جيشاً بيزنطياً نظامياً في غزواتهم منذ عام 701 هـ - 1321 م ، وإنما صادفوا قادة الحصون المحاصرة فقط .⁽²⁾

ويتضح من خلال استعراض النقاط السابقة أنها مليئة بالأخطاء التاريخية المتمعة التي بنيت على مصادر تاريخية لم يذكرها مطلاً ، ومعلوماته تناقض بعضها بعضاً ، على الرغم من ذلك اتسم كرامرز بخفة قلمه على العثمانيين .

كما احتوت المادة على عدة حقائق ومعلومات قيمة اعتبرت الأولى من نوعها عن تاريخ العثمانيين ، ومع ذلك تضمنت معلومات خاطئة بهدف التشويه وقلب الموازين ، وقد جاءت كالتالي :

أولاً : محاولة إثبات أن قيام الدولة العثمانية لم يكن لتسيير إلا بسقوط الخلافة العباسية .

" وقد لوحظ أن قيام دولة قوية جديدة في منطقة البحر المتوسط لم يكن ليتيسير إلا بعد زوال الخلافة العباسية وتقاليدها السياسية عام 1258 م وانحلال الإمبراطورية البيزنطية ".⁽³⁾

وبتناول هذه الفقرة يتضح أن ما ورد فيها محض افتراء ؛ لأن العالم كان يسوده جو من الاضطراب والفوضى السياسية ، ليس فقط في المشرق الإسلامي ، وإنما حتى الغرب الأوروبي وأسيا الصغرى ، فمع بداية القرن 7 هـ / 13 م ساد آسيا الذعر والرعب والفوضى والاضطراب نتيجة لضغط المغول المخرب على القبائل المسلمة في التركستان ، في الوقت الذي سيطرت فيه الفكرة الصليبية على أوروبا ، ونتج عن ذلك كله كثير من آثار الحرق والنهب بصورة همجية ، وقد كان من الصعب إزالة آثار الهدم والتخريب التي أحدثتها هجمات المغول والحملات الصليبية على حد سواء .⁽⁴⁾

⁽¹⁾ كرامرز : مادة الترك ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 5 ، ص 167 م .

⁽²⁾ كرامرز : مادة الترك ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 5 ، ص 168 .

⁽³⁾ كرامرز : مادة الترك ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 5 ، ص 159 ، 160 .

⁽⁴⁾ محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 9 .

فهذه السنوات التي مرت بين سقوط بغداد وظهور آل عثمان سادها الفوضى والاضطراب ، ولو كان أرطغرل ينتظر سقوط بغداد لسارع فوراً عام 656هـ / 1258م بإعلان دولته وبسط سيادته على المناطق التي حوله ، لكنَّ العثمانيين في تلك الفترة كانوا عشيرة صغيرة ليس لها كيان وتأثير سياسي ، ولم تظهر قوة إسلامية مهابة الجانب إلا في عهد أورخان ، أي عام 727هـ / 1326م.

بالإضافة إلى أن المساحة الجغرافية كبيرة جدًا بين المشرق الإسلامي بما فيه العراق والشام وأسيا الصغرى مقر عشيرة أرطغرل ، فكيف وبأي وصف تسقط دولة في العراق فتسارع دولة أخرى في آسيا الصغرى باحتلال مناطقها وإعلان نفسها دون أن يكون لها جيش أو حتى تنظيم سياسي أو عمله ؟!

على الرغم من وجود المماليك في مصر وبلاط الشام إلا أنهم لم يستطيعوا أن يعالجووا الصدح الذي تركه سقوط الدولة العباسية ، صحيح أنهم أوقفوا الزحف المغولي على البلاد الإسلامية إلا أنهم انشغلوا بخلافاتهم الداخلية ، ولم يضموا إليهم المسلمين في شتى البقاع .

أما القسم الغربي من أوروبا ، فكان تحت حكم دولة بنو الأحمر "أموي الأندلس" حيث كانت في أوج قمتها وعظمة الحضارة الإسلامية ، وكانت بعيدة عن أي أحداث تقع في المشرق الإسلامي أو الأناضول .

وفي تلك الأثناء قام الأوروبيين عام 601هـ / 1204م أي قبيل استيطان عشيرة قابي التي ينتمب إليها آل عثمان في شمال غرب الأناضول بحملة عسكرية على الدولة البيزنطية ، حيث استولوا على عاصمتها القسطنطينية وأسسوا فيها دولة لاتينية . وقد شهد البيزنطيون أكبر عملية غزو ونهب في تاريخهم على أيدي جيوش ينتمب أفرادها إلى دينهم نفسه وأضطر منتسبيها أسرة باللاجوس التي كانت تحكم بيزنطة إلى الهروب والفرار بحياتهم إلى أذنيق حيث عاشوا هناك فترة من الزمن ، ونجحوا أخيراً في إنقاذ بيزنطة من الغزو الأوروبي عام 660هـ / 1261م .⁽¹⁾

= Colin Imber , Osmanli Imparatorlugu 1300 – 1650 , Cev . Siar Yalcn , Istanbul 2006 , Safha 8-9 Abdurrahman Seref , Osmanl Devleti Tarihi (Tarih – I Devlet – I Osmaniye) , Hazirlayan Musa Duman , Istanbul 2005 , Safha 54 – 57 .

⁽¹⁾ Ernst Werner , Buyuk Bir Devletin Dogusu , Cev . Orhan Esen – Yilmaz Oner , Istanbul 1986 . Safha66 ; Serif Bastay , Bizans Imparatorlugu Tarihi (Son devir 1241 – 1461) , Ankara 1989 , Safha VII ; Herbert Adams Gibbons , Osmanli Imparatorluguun kurulusu , Cev . Huseyin Dag – Bulent Ari , Ankara 1998 , Safha , 34 .

ثم بدأت الإمبراطورية البيزنطية تشعر بأمان كبير إثر سقوط الدولة السلجوقية في الأناضول 641هـ - 1243م ، لكن لم يمض وقت طويل حتى تزعزع هذا الأمان وذلك بانتقال السيادة في الأناضول من السلاجقة إلى العثمانيين الذين أصبحوا في فترة وجيزة جيراناً مع بيزنطة .

أما عن أوروبا فقد كان الخلاف فيها والنزاع يجري على قدم وساق بين فرنسا وإنجلترا منذ أكثر من مائة عام ، فضلاً عن أن الأوروبيين كانوا يعيشون فترة ظلام وجهل قاتل ، حيث انشغلوا بقضايا الهدف منها السيطرة على الشعوب من طبقة البابوات والقساوسة والرهبان ، فاشتغل الناس في مسألة الخلافات المذهبية والرّق والتفرقة العنصرية ، حتى إنهم انشغلوا بمعاملة النساء مثل الحيوانات وربطهن بالسلال في السجون ، بالإضافة إلى الخلافات بين الطبقة الحاكمة البرجوازية والطبقات الاجتماعية الأخرى .⁽¹⁾

وفي تلك الأثناء قام الإلخانيون " مغول إيران " بمحو آثار سلاجقة الأناضول من مسرح التاريخ وسيطروا على كافة باقى الأناضول ، لكن حكمهم لم يدم طويلاً بسبب النزاع الداخلي الذي نشب بين أمراء المغول .⁽²⁾

وبعما ذلك تأسست عدة إمارات تركية في الأناضول إثر سقوط الدولة السلجوقية ، كالإمارة القرمانية والمنشاوية والإرتاوية والأيدينية والصاروخانية وغيرها . كما أن نفوذ الدولة البيزنطية امتدت سيادته إلى بعض الأقسام الغربية من الأناضول وأجزاء من البلقان ، بالإضافة إلى وجود إمبراطورية رومانية صغيرة في طرابزون الواقعة على ساحل البحر الأسود من الأناضول.⁽³⁾ التي كان لها دور كبير في بعض الأحلاف الصليبية التي كُونَت ضد السلطان محمد الفاتح ، وكثيراً ما زادت الخلافات بين الإمارات في الأناضول مما أدى - أحياناً - إلى نشوب معارك دامية بينها ، وذلك لتحقيق السيادة على كافة أراضي الأناضول ، وقد استمرت تلك المعارك حتى قيام الإماراة العثمانية بتأسيس دولة قوية متaramية الأطراف من جهة الغرب في فترة وجiza نحو حدود الدولة البيزنطية ودول البلقان .

⁽¹⁾ Enver Behram Sapolyo , Osmanli – Inklap ve Avrupa Tarihi Ozu , Ankara 1946 , Safha 21 Omer Faruk Yilmaz , Belgelerle Osmanli Tarihi , 2 baski , Istanbul 1999 , Safha 2 .

⁽²⁾ Abdurrahman Seref, Osmanli Devleti Tarihi (Tarih – I Devlet – I Osmaniye) , Hazirlayan : Musa Duman , Istanbul 2005 , Safha 59 .

⁽³⁾ Omer Faruk Yilmaz , Belgelerle Osmanli Tarihi , 20 baski , Isatanbul 1999 , Safha. 3 .

وذلك بطلب من أهالي المنطقة نظراً للتمزق الحاصل في تلك الآونة فرغبوا بان تكون هناك قوة تجمعهم تحت راية واحدة .⁽¹⁾

ومن هنا يلقى الضوء على الوضع السياسي في الأناضول قبيل قيام الدولة العثمانية ، ويدل ذلك على أنه لم يكن هناك دولة حاكمة تسيطر على كل أنحائه ، فكل فئة تحاول ضم تلك البقاع إلى سيادتها ، فلم يكن ممكناً تأسيس وحدة إسلامية تركية بين تلك الإمارات ، خاصة مع انقطاع فكرة الجهاد الإسلامي ، مما سهل قيام الدولة العثمانية في تلك البقعة ، وقد خضعت أغلب تلك الإمارات لسيادة العثمانية دون أن تدخل في حرب معها ، فيما أعلنت بعضها الحرب ضد العثمانيين ولكنها فشلت في التغلب عليهم ، ودخلت تحت الحكم العثماني مستسلمة ، وهكذا وحدت الأناضول تحت سيادة العثمانيين ، وليس السبب تتحي الخلافة العباسية عن الساحة السياسية في بغداد – كما ذكر كرامرز –.

ثانياً : محاولة إثبات عدم دخول قبائل الأتراب مبكراً في الإسلام ، وأن اتخاذهم المذهب السنوي ليس إلا جزءاً من سياستهم الخارجية ، وأن إسلامهم جاء مشوباً بالنصرانية والشيعية . فقد ورد بالدائرة النصوص التالية :

"نشأت الدولة العثمانية في محيط يبني بعيد عن موطن أهل السنة فما ثبت أن اتجهت إلى السنة ودخلت في مذهب أبي حنيفة ، بيد أنها احتفظت بأثار من السنن القديمة".⁽²⁾

"اختلاط الجنود بكثير من السكان الأصليين ، وهذا الاختلاط يفسر تلك الانظار والشعائر الدينية العجيبة المشوبة بالنصرانية التي قيل بعد ذلك إنها وجدت بين الطبقات الدنيا في الأناضول ، وأنها كانت شائعة بصفة خاصة بين أتباع الطريقة البتاشية الصوفية في عهد الدولة العثمانية".⁽³⁾

"بعض أسماء السلاطين الأول كمراد وبايزيز فيها محافظة على التقاليد الشيعية الصوفية القديمة ، ويمكننا أن نرد إلى هذا العهد المتقدم أيضاً تقليد السلطان سيفاً يتمتنق به".⁽⁴⁾

⁽¹⁾ أميرة مراح : نظرة متأنية في تاريخ الدولة العثمانية ، ص 15 .

⁽²⁾ كرامرز : مادة الترك ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 5 ، ص 160 .

⁽³⁾ كرامرز : مادة الترك ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 5 ، ص 164 .

⁽⁴⁾ كرامرز : مادة الترك ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 5 ، ص 170 .

" وكان الترك قد آمنوا أول الأمر بالسنة الإسلامية إيماناً لم يخل من شك ، ثم زال هذا الشك بين الطبقات العليا رويداً ، وغدت هذه الطبقات تستمسك في حياتها بأهادب السنة لا تتحول عنها ، وظل التعلق بالطوائف والمذاهب الصوفية مستمراً وإن استتر بهذا الستار السنوي ".⁽¹⁾

أما بالنسبة للنقطة الثانية التي تناول فيها كرامرز مسألة إسلام العثمانيين وأنه لم يكن مبكراً وأن اتخاذهم المذهب السنوي لم يكن سوى جزء من سياستهم الخارجية تجاه الدولة النصرانية ، مستدلاً على ذلك بأن إسلامهم تم في أيام السلاجقة لذلك كان على مذهب أبي حنيفة النعمان فلم يورد كرامرز أي دليل واقعي على هذا الحديث ، أو على أي سند أو مصدر تاريخي اعتمد عليه ، بل إن افتراضاته تلك لم تستند إلى أدلة مطلقاً . وفي هذا الرأي دلالة واضحة على عدم مصداقيته وتظهر أغراضه المدروسة ، لأنه لو رجع إلى أي مصدر موثوق عن التاريخ العثماني لاكتشف إدعاءه ، لأن الأتراك انحدروا من موطنهم الأصلي⁽²⁾ إلى قرب شواطئ نهر جيحون في مطلع القرن 1 هـ / 7 م ، حيث استقرت هناك جماعات من الترك ، التي هاجرت إما بحثاً عن سبيل للعيش الأفضل ، أو بسبب ضغط القبائل المغولية عليها التي أجبرتها على ترك موطنها الأصلي لتبث عن مكان أكثر أمناً واستقراراً ، واستقرت في طبرستان وخراسان وجرجان ، وهكذا اقتربوا من الأراضي الإسلامية التي فتحها المسلمون بعد معركة نهاوند وسقوط الدولة السasanية في بلاد فارس عام 21 هـ / 641 م .⁽³⁾ وهذا كان بداية اتصالهم بالعالم الإسلامي إذ ثبت إسلامهم منذ هذه الفترة المبكرة جداً في التاريخ الإسلامي ، ففي عهد الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ وصلت طلائع الجيوش الإسلامية عام 22 هـ / 642 م إلى الأراضي التي استقر بها الترك الذين طلبوا الصلح مع المسلمين بل والانضمام للجيش الإسلامي لمحاربة الأرمن ، وبذلك لم تقم حرب بين الترك والمسلمين وساروا معاً إلى بلاد الأرمن لمحاربتهم ونشر الإسلام فيها .⁽⁴⁾ كانوا غير لما استطاعوا الانضمام للجيش الإسلامي والدفاع عنه ، وهذا دليل واضح على إسلامهم المبكر .

⁽¹⁾ كرامرز : مادة الترك ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 5 ، ص 173 .

⁽²⁾ موطنهم الأصلي : يقع في منطقة بلاد ما وراء النهر التي يطلق عليها حالياً التركستان ، والممتدة من هضبة منغوليا وشمال الصين شرقاً إلى بحر قزوين غرباً ، ومن السهول السiberية شمالاً إلى شبه القارة الهندية وفارس جنوباً ، إذ عاشت فيه قبائل رحل من عشائر الغز الكبرى عرفت بالترك . مؤلف مجهول : الأتراك العثمانيون ، ورقة 2 ، أميرة مراح : مرجع سابق ، ص 7 .

⁽³⁾ أميرة مراح : مرجع سابق ، ص 7 .

⁽⁴⁾ مرجع سابق ، ص 8 . أنظر الخريطة في الملحق .

وفي ذلك الوقت تقدمت الجيوش الإسلامية تفتح بلدان شمال شرق بلاد فارس وتعمل على نشر الإسلام فيها ، وساعد على ذلك زوال الدولة الساسانية الفارسية على يد المسلمين ، والتي كانت بمثابة حاجز منيع أمام تحركات شعوب تلك المناطق وخاصة الترك ، فزادت أعداد الترك الذين دخلوا الإسلام لافتتاح الباب أمامهم للاتصال بالشعوب الإسلامية والانضمام لصفوف المجاهدين والمدافعين عن الإسلام ، وأصبحوا من المشاركين في نشر الإسلام .⁽¹⁾

ومع زيادة تقدم الجيوش الإسلامية في عهد الخليفة عثمان بن عفان رض دخل الكثير من الترك في الإسلام ، وانضموا بأعداد كبيرة لجيوشه .⁽²⁾

وزاد دخول الأتراك في الإسلام في عهد الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك ، حيث توغلت الجيوش الإسلامية في بخارى ومرو وسمرقند بقيادة قتيبة بن مسلم الباهلي عام 98هـ / 717م ، ثم نشطت الدعوة إلى الإسلام في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك وأسلم عدد كبير ، ومع مرور الزمن أسلم زعماؤهم ، ومن أبرزهم ملك أرشروسنه كاووس وأسلم معه قومه ، ثم أسلم زعيم الترك قره خان زمن الخليفة المطيع لله ابن المقتدر 349هـ/954م .⁽³⁾

وهكذا يتضح لوي الحقائق وتحريفها من قبل كرامز حيث إنهم أسلموا منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب رض وليس أيام السلاغقة كما ذكر في دائرة المعارف الإسلامية.

أما عن مسألة تمسكهم بالعادات النصرانية ، والشك الذي شاب إسلامهم ، وميلهم للعادات والتقاليد الشيعية فلم يثبت تاريخياً ولو بحادثة واحدة ميلهم للعادات النصرانية ؛ لأنهم لم يدينوا بها قط وإنما الوثنية كانت ديانتهم قبل الإسلام .

وقد اتهمهم كرامز بأن أسماءهم تعبّر عن تقاليد شيعية ، فاستدل بهذا على أن لهم ميلاً شيعية ، ولم يذكر أي اسم من هذه الأسماء أصله شيعي ، فهل تعد أسماء كمحمد أو عثمان أو سليم أو حتى سليمان أسماء شيعية؟! ، ولو أردنا الدقة أكثر فلنجد عندهم أسماء

⁽¹⁾ محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي ، د. ط ، القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ب . ت ، ص 12 ، 13 .

⁽²⁾ عبد اللطيف بن دهيش : قيام الدولة العثمانية ، ط 1 ، مكة المكرمة : النهضة الحديثة ، 1409هـ / 1988م ، ص 11 .

⁽³⁾ زياد أبو غنيمه : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ، ص 18 . لمزيد عن معرفة متى أسلم الأتراك الرجوع إلى : يلمازا أزتنا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج 1 ، ص 45 ، 46 .

كعلي وجعفر ، بل على العكس من ذلك ، فأسماؤهم منذ عهد عثمان تدل على إسلامهم المبكر ، ولا تدل على ميولهم الشيعي .

ومن واقع رحلة الهجرة التركية على الخريطة ، نجد أنهم انتقلوا من وسط آسيا إلى غربها في الأنضوص ، فكان لابد لهم أن يمروا بمناطق شاسعة ساد فيها المذهب الشيعي ، ومع ذلك لم يتأثروا بها مطلقاً وفضلوا الإسلام بمذهب أهل السنة بل وتحمسوا للجهاد ونشر الإسلام ، وظلوا في قرارة أنفسهم يحملون عداءً مستحکماً تاريخياً للشيعة .⁽¹⁾ لكن لا شك أن هناك تأثيرات حضارية فقط وليس مذهبية ، وأبلغ دليل على ذلك موقف السلطان سليم الأول من الخطير الشيعي الصفوی ومحاولاتة المستمرة للتصدي له وإيقافه والحد منه .

ويظهر هنا بوضوح كيف أن كرامر قد استخدم أسلوب المستشرقين ومنهجهم في وضع فكرة مسبقة والسير نحو إثباتها ، حيث عَدَ الأوروبيون أي نصر عسكري تحققه القوات العثمانية إنما هو نصر للإسلام وهزيمة للمسيحية ، وبما أن الإسلام يهزم المسيحية فلا بد من القضاء عليه وتشويهه ، وهذه ليست فكرة كرامر فقط وإنما جميع المستشرقين . وأخيراً فقد اعترف كرامر في مادة عثمان الأول بذلك .

"أيضاً نجد أن القائد عثمان قد جعل الإسلام له منهاجاً وساعدته ذلك البيئة التي تتكون من مجتمع مسلم في تركيا " .⁽²⁾

وفي هذا دلالة واضحة على أن إسلامهم جاء مبكراً بدليل أنه كان منهجاً للقائد عثمان والقبائل التركية التي أسلمت مبكراً وظهرت آثاره على البيئة المحيطة .
ثالثاً : مسألة حقيقة فتوحات العثمانيين الأوائل .

" ومن ثم فإن فتوح العثمانيين السريعة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر لم تكن طلائع غزوات قوم من الهمج أو أجلال البدو وإنما كانت تحقيقاً لخطط طافت بأذهان غزاة عظام أمثال بايزيد الأول ومحمد الثاني وسليمان الأول وبعض ساستهم " .⁽³⁾

" ولم تكن معظم هذه الغارات والفتواح ومثيلاتها في ألبانيا والمورة تنفيذاً لمشيئة السلاطين ، وإنما كان أمراء التخوم يتطلعون بها من تلقاء أنفسهم " .⁽⁴⁾

⁽¹⁾ أميرة مراح : نظرة متأنية في تاريخ الدولة العثمانية ، ص 9.

⁽²⁾ Kramrs : Othman 1 , the Ecyclopaedia Of Islam , Leaden , 1930 volume III , S. 1007 .

⁽³⁾ كرامر : مادة الترك ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 5 ، ص 160 .

⁽⁴⁾ كرامر : مادة الترك ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 5 ، ص 171 .

هذا سيتم الرد عليها في مواضع المسلمين في المبحث القادم - بإذن الله -⁽⁵⁾.

رابعاً : محاولة إثبات أن العادات البيزنطية وجدت طريقها إلى آل عثمان مبكراً وأن الأساطير تطفى على أخبار أرطغرل وعشيرته .

"وهذا التعاون المبكر بين آل عثمان وبين نصارى اليونان يجيز لنا أن نقول إنه كان منذ البداية سبيل السنن والعادات البيزنطية إلى الدولة العثمانية."⁽¹⁾

"على أن ما روی من مختلف أخبار أرطغرل وعشيرته فيه كثير من سمات الأساطير، وهذا هو شأن ما قيل عن شباب عثمان نفسه وغزواته الأولى."

"ونستطيع أن تقييم من هذه المصادر المختلفة رواية تاريخية مؤداها أن عثمان لم يكن في الواقع الأمر ابناً لأرطغرل ، بل هو في الغالب من جماعات السكان غير المبدئين الذين كانوا أكثر اتباعاً للسنة الإسلامية من التركمان ."

" واستعلن عثمان ببني عشيرته ووثق صلته ببعض الرجال واصطنع الحيلة في بسط ملكه "⁽²⁾

إن المصادر العثمانية قد أعطت صورة واضحة - وإن شابها بعض النقص - عن بداية ظهور العثمانيين ، و أخرجت الحدث في صورة علمية صحيحة أقرب إلى الحدث التاريخي فلم يختلط بالأساطير والغيبيات كما ادعى كرامرز وحاول بشتى الطرق أن يثبت أن عثمان ليس ابناً لأرطغرل وإنما من جماعات السكان الأكثر اتباعاً للسنة من التركمان .

واعتمد في هذه المعلومة على مصادر مختلفة لم يذكرها طبعاً ، ثم عاد ورد على نفسه في الفقرة نفسها عندما ذكر سنة وفاة أرطغرل حيث قال : " حتى إذا توفى عنه والده أرطغرل عام 1265هـ / 1664م " ، وبهذا فإنه اعترف ضمنياً ببنوة عثمان لأرطغرل .⁽³⁾

وقد أعاد هذه القصة مرة أخرى في موضع آخر من الدائرة ، حيث كتب "وفقاً للإجماع التقليدي كان عثمان أحد أبناء أرطغرل والذي نجح في قيادة العشيرة"

⁽⁵⁾ السلطان بايزيد الأول ص 371 . السلطان محمد الثاني ص 403. السلطان سليمان القانوني ص 449

⁽¹⁾ كرامرز : مادة الترك ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 5 ، ص 168 .

⁽²⁾ كرامرز : مادة الترك ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 5 ، ص 167 .

⁽³⁾ كرامرز : مادة الترك ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 5 ، ص 167 .

وكلمة الإجماع التقليدي تدل على عدم افتتاح الكاتب بذلك ، فهو يصر إصراراً عجيباً على التشكيك في بنوة عثمان لأرطغرل ، ليس هذا فحسب بل زاد عليه أن أورخان لم يكن ابن أرطغرل أيضاً وإنما رفيق درب له في المعارك فقط .⁽¹⁾

والغريب في الأمر أن هذه التهمة التي ألقاها بالتشكيك في نسب عثمان وأورخان ليس لها أي سند تاريخي واضح ، ولم يذكر المصدر الذي يؤكد هذه التهمة ، وإنما أُقيمت جزاً بهدف زرع الشك في نفس القارئ حتى يظن أنهما ليسا من سلالة أرطغرل ؛ وذلك للتشكيك في نسب آل عثمان وإفادتهم الهيبة والمكانة التي حازوا عليها ، والتشكيك أيضاً في مدى جدية الإسلام والسنة النبوية الشريفة عند العثمانيين .

أما مورمان⁽²⁾ فقد أكد على مسألة أن أرطغرل والد عثمان الأول ، معتمداً في ذلك على مصدر عثماني موثوق وهو عاشق باشا زاده ، وهذا رد واضح على تشويه كرامرز ، لكنه نسب أرطغرل إلى سليمان شاه وليس كوندور ألب ، وهو بذلك زاد الافتراء عليهم .⁽³⁾ كما أن كرامرز اعترف بنفسه - في الفقرة نفسها - بأن عثمان استعان ببني عشيرته ووثق صلته ببعض الرجال ليصل إلى مبتغاه ، فلو أنه كان ليس ابن أرطغرل لما نال مساعدة العشيرة أبداً على اعتبار أنه ليس من صلب حاكمهم . وهو بذلك رد على نفسه ، وقد وقع في الخطأ لمجرد أنه أراد أن يضيف افتراءً جديداً على عثمان ، وهو أنه اصطنع الحيلة لبسط نفوذه .

وإذا دققنا النظر في مادة عثمان الأول نجد أن كرامرز أصر على التهم نفسها التي وجهها لنسب عثمان الأول .⁽⁴⁾ وقد زعم كرامرز ذلك باستناده إلى أقوال بعض المستشريين بأن عثمان ليس من أبناء أرطغرل وبحجة أن أسماء الأولاد الآخرين لأرطغرل هي أسماء تركية ، ما عدا عثمان الذي يحمل إسماً عربياً .⁽⁵⁾ وبتشكيكه في نسب مؤسسي الدولة العثمانية ظهر مدى تحاملهم على الدولة العثمانية وحكامها .

ولا شك أن هذه المعلومات ليس لها أساس من الصحة ، والدليل على ذلك أن السلطان عثمان الأول هو السلطان الأول للدولة العثمانية ومؤسسها ، وهو الذي أعطى اسمه

⁽¹⁾ Kramrs : Othman 1 , the Ecyclopaedia Of Islam , Leaden , 1930 volume III , S. 1006 .

⁽²⁾ مورمان أحد المستشريين الذين قدموا عدة مواد عن العثمانيين في دائرة المعارف الإسلامية .

⁽³⁾ مورمان : مادة أرطغرل ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 1 ، ص 624 .

⁽⁴⁾ Kramrs : Othman 1 , the Ecyclopaedia Of Islam , Leaden , 1930 volume III , S. 1005 . 1006 .

⁽⁵⁾ كرامرز : مادة الترك ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 5 ، ص 167 .

لدولة عاشت أكثر من ستة قرون وعرفت بقوتها وعظمتها ، ووصلت الحضارة الإسلامية إلى أوج قمتها زمن هذه الدولة ، وهو الابن الأصغر لأرطغرل من مجموع ثلاثة أبناء ، وينتسب إلى عشيرة قابي من فرع بوزوق المنحدر من أصل الغز التركية ، وإن وجود سكة - عملة - للسلطان عثمان الأول كتب عليها " عثمان بن أرطغرل بن كوندورز ألب " لخير دليل على دحص هذا الزعم ،⁽¹⁾ كما أنه رد واضح على مورتمان واتهامه .

هذا بالإضافة إلى أن بعض أبناء عثمان يحملون أسماء تركية - أيضاً - بجانب الأسماء العربية ، فمثلاً نجد أبناءه جوبان بك ، باظارلي بك ، وحوجي بك ، وفي المقابل نجد لديه - أيضاً - حامد بك ، وعلاء الدين ، وعلى بك ، وملك بك ، وكان لديه ابنه واحدة هي فاطمة خاتون .⁽²⁾

أما بالنسبة إلى بداياتهم المبكرة التي أحاطتها الأساطير بالغموض فإنَّ المؤرخين لم يتركوها مجهرة ، بل أضافوا عليها أنَّ السنن والعادات البيزنطية وجدت الطريق إلى آل عثمان مبكراً ، مستدلاً على التعاون المبكر بين آل عثمان وبين نصارى اليونان .

ولنشاهد الآن الصورة واضحة عن بداية العثمانيين من خلال المصادر التركية والمراجع العربية المنصفة ، فقد اتفق معظم المؤرخين المسلمين على أنَّ الأتراك ينتسبون إلى يافث ابن سيدنا نوح عليه السلام ، وبعد وفاة يافث خلفه في الزعامة ابنه ترك ابن يافث ، الذي كان أفضل إخوانه وأرشدهم ، فسار بقومه إلى تركستان حيث أصبحت الموطن المستقر للأتراك ، وهناك تناسل قوم الترك بمرور الزمن ، وتشعبوا إلى عدة أقوام ، جاء في مقدمتها شعب الغز ويطلق عليه بالتركية Oguziar ، وشعوب أخرى مثل التatar والمغول ، والخزر ، والفق ، والجنك .⁽³⁾

إنَّ معظم الأتراك الذين استوطنوا في الأناضول على إثر الهجرة المذكورة سابقاً كانوا ينتسبون إلى أسرة الغز ، وكان لزعيم الأسرة أوغوز خان ستة أبناء وأربعة وعشرون حفيداً ، تکاثروا بمرور الزمن فنتج من ذلك أربع وعشرون عشيرة تركية ، وإحدى هذه العشائر هي عشيرة قابي التي كانت تسكن في قصبة مهان⁽⁴⁾ ، ثم هاجروا نحو الغرب على

⁽¹⁾ Ahmed Akgunduz – Said Ozturk , Bilimyeten Osmanli , Istanbul 1999 , Safha 30 ; Atilla Cetin , "Osman Gazi nin sikkesini bulan adam " Tarih ve Medeniyet Dergisi , 12 , 1995 , S . 49 .

⁽²⁾ عبالقادر ده ده أوغلو : مرجع سابق ، ص 33 .

⁽³⁾ زياد أبو غنيمه : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ، ص 17 .

⁽⁴⁾ قصبة مهان : تقع بالقرب من مدينة مرو في مقاطعة خراسان . انظر : س . موستراس : مرجع سابق ، ص 485 .

إثر ضغط المغول عليهم وعلى بلادهم ، واستوطنت عشيرة قابي المسلمة التي عددها يتراوح بين ثلاثة وأربعين خيمة في موقع أخلاق الواقع بالقرب من بحيرة وان .⁽¹⁾

وتشير بعض المصادر إلى أن منتبني هذه العشيرة كانوا يقومون في تنظيم هجمات متواصلة على أراضي الإمبراطورية الرومانية في طرابزون⁽²⁾ ، وبمرور الوقت انتشر أفراد العشيرة على أرض منطقتي أرضروم⁽³⁾ وأرزنجان⁽⁴⁾ ، ثم هاجروا نحو الجنوب حتى وصلوا إلى ضواحي حلب⁽⁵⁾ واستقروا بجوار قلعة عبر⁽⁶⁾ وهذا رد واضح وصريح على أن إسلامهم كان مبكراً جداً لأنهم كانوا يشنون الهجمات على أعدائهم في الدين وهي أراضي الدولة البيزنطية ، وهذا دليل على أن البيزنطيين ناصبوهم العداء المستحكم نتيجة لاختلاف الملة ، فكيف بقوم يعتدون عليهم فيرد عليهم الآتراك بهجمات متواصلة فيتأثرون بهم وكأنهم أحباب لهم ، فليس هناك تأثير من البيزنطيين عليهم في أي شيء سوى الطراز المعماري بعد فتح القسطنطينية وبعض الأنظمة السياسية .

وفي هذه الأثناء تعرض الكثير منهم للخطر المغولي فعبروا المنطقة حتى اقتربوا من أرضروم ، وهنا آثر بعض أفراد العشيرة العودة إلى وطنهم القديم ، حيث رحلوا إلى مقاطعة خراسان ، وبعضهم استقر في العراق الشمالي ، والبعض الآخر في غرب إيران ، أما

⁽¹⁾ بحيرة وان : تقع في الأناضول قريباً من مدينة وان . شكلها مثلث غير متساو للأضلاع ، ومياها مالحة ومدينة وان Van مدينة تركية أسيوية في الأناضول ، على الضفة الشرقية من البحيرة ، تعد مركزاً ولواء وبها أسواق جميلة وقلعة حصينة . انظر س. موستراس : مرجع سابق ، ص 486 .

Munecimbasi Ahmed b. Lutfullah , Camiu'd – Duvel , Hazirlayan : Ahmet Agirakca , Istanbul 1995,
محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 9 . Safha 58 .

⁽²⁾ طرابزون Trabizoun مدينة تركية في الأناضول مركز الولاية ولواء وتقع على البحر الأسود ، مركز تجاري مهم ، وكانت مقر أسقفية يونانية تتبع بطريركية القسطنطينية وهي مدينة قديمة حكمت على مر التاريخ من عدة أسر وتعرضت للتدمير ، وفي العصور الوسطى أعلن فرع من أسرة الكومنيس استقلاله فيها عن الإمبراطورية اليونانية ، فجعلتها عاصمة لإمارة عاشت حتى سقوط القسطنطينية ، ولم تسقط أمام ضربات السلطان محمد الفاتح إلا عام 1460هـ / 1859 م . س. موستراس : مرجع سابق ، ص 345 ، 346 . . 346 Istanbul 1968 , Varak 12b .

⁽³⁾ أرضروم : مدينة تركية في الأناضول ، تقع على سفح جبل غير بعيد عن نهر الفرات ، وهي مقر أسقفية يونانية تتبع بطريرك أنطاكيا ، فتحها العثمانيون عام 923هـ / 1517 م ، وقد ضربها زلزال مدمر عام 1276هـ / 1859 م . س. موستaras : مرجع سابق ، ص 445 .

⁽⁴⁾ أرزنجان Erzinguan : مدينة تركية في الأناضول تقع في الشمال الشرقي منه ، في ولاية ولواء أرضروم ، بالقرب من الفرات ، مرجع سابق ، ص 41 .

⁽⁵⁾ حلب Haleb : مدينة في شمال سوريا حالياً ، تقع في السهل الذي يمتد من نهر العاصي حتى نهر الفرات ، فتحها المسلمون في 1هـ / 7 م ، حاصرها الصليبيون عام 518هـ / 1124 م ، ثم خربها المغول ، وأعيد بناؤها مرة أخرى ، وقد ظلت حتى اكتشاف رأس الرجاء الصالح مستودع التجارة الأوروبية في الهند . س. موستراس : مرجع سابق ، ص 251 ، 252 .

⁽⁶⁾ Cenabi EL – Eylemu'z – Zahir Nuruosmaniye Kutuphanesi, No : 3102 / II , Varak 178 a ; Ali , Kunhu; 1-Ahbar , V. Istanbul 1277 , Safha 20 .

عشيرة قابي الصغيرة فقد واصلت المسير حتى استقرت في هضبة قريية من أرضروم ، واستقرت بها العشيرة بقيادة رئيسها كوندوز ألب مع أفراد أسرته والبقية المتبقية من العشيرة وابنيه أرطغرل غازي ودوندار بيك ، وعدتهم 400 خيمة وحوالي 4000 تركي مسلم ، وقد تمت هجرتهم من جنوب غرب تركستان إلى شرق الأناضول على مدى عشر سنوات،⁽¹⁾ وبعد وفاة كوندوز ألب تولى أرطغرل غازي رئاسة العشيرة ، ثم بعث ابنه صاري باطي إلى السلطان السلجوقي علاء الدين الأول ليطلب منه منحهم مكاناً أنساب للاستيطان .⁽²⁾

وهذا يدل على علاقتهم المبكرة والحسنة مع السلجوقية المسلمين ، وقد اكتفى هذه العلاقة الحب والود والمنفعة المتبادلة ، والدليل على ذلك أن هذا الطلب قد لاقى قبولاً حسناً ، إذ منحهم منطقة قراجا داغ⁽³⁾ لتكون مقرًا صيفياً وشتوياً لهم⁽⁴⁾ وكان ذلك ما بين عامي 1230هـ - 1231هـ / 630م - 631م.⁽⁵⁾

ونعود مرة أخرى إلى مادة عثمان الأول ، حيث وصف بداية حياته بأنها مغلفة بالغموض والإبهام ، وأن تاريخه مفعم بالبطولات الأسطورية ، وأنه زُين بعدد من الشخصيات الأسطورية التي تبرز عظمة وقوة هذه السلالة ومصدره الأدب التاريخي التركي القديم ، مستندًا في ذلك على الرؤيا المتعلقة بالقائد عثمان الأول التي ترفع قدره بشيء من الشك ، واستند إلى تاريخ عاشق باشا زاده :

" يوضح لنا دراسة التاريخ القديم أنه وبالرغم من أنه يحتوي على بعض التقاليد التاريخية القديمة فهو يحتوي على مزيد من الشخصيات الأسطورية
وعلى أية حال فإن التاريخ المبهم للسلالة العثمانية قد تم تزيينه بعد من الشخصيات الأسطورية ".⁽⁶⁾

⁽¹⁾ محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 9 ، 10 . علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ط 3 ، المكتب الإسلامي ، 1415هـ / 1994م ، ص 11 ، 12 مؤلف مجهول : الآثار العثمانية ورقة 3-2 ، Nesri , Tarih , I . S . 60-61 ; Ali , Kunhu; 1 – Ahbar , V. Istanbul 1277 , Safha 20-21

⁽²⁾ Muneccimbasi Almed b. Lutfullah , Camiu'd – Duvel , Hazirlayan : Ahmet Agirakca, Istanbul 1995 , Safha 64 .

⁽³⁾ قراجا داغ : مدينة تركية أسيوية ، تقع قرب أنقرة حالياً . انظر :

Sukrallah , Behcetu't – Tevaarih , Nuraosmaniye Kutuphanesi , NN . 3059 , VARAK 307a – 308 .

⁽⁴⁾ Sukrallah , Behcetu't – Tevaarih , Nuraosmaniye Kutuphanesi , NN . 3059 , VARAK 307a – 308 .

⁽⁵⁾ Muneccimbasi Ahmed b. Ahmed b. Lutfullah , Camiu'd – Duvel , Hazirlayan : Ahmet Agirak,ca , Istanbul 1995 , Safha 64 .

⁽⁶⁾ Kramrs : Othman 1 , the Ecyclopaedia of Islam , Leaden , 1930 volume III , S. 1005 , 1006.

" هناك نزعة وهدف ... يدفع باتجاه العظمة ، وذلك في تاريخ عاشق باشا زاده لتسهم في الأحداث العثمانية التي تنسب إلى تقاليد أرطغرل مثل الأحلام النبوية المتعلقة بعظمة وسمو عثمان وكذلك ابنه شيخ أديبالى " .⁽¹⁾

والقصة الحقيقة بعيدة عن الأسطورة ، وهي أن عثمان ولد في سكود عام 656هـ / 1258م وهو العام نفسه الذي غزا فيه المغول بغداد بقيادة هولاكو ، ويتبين أن هذه من تبشير الرحمن أن تولد البذرة الإسلامية والتي ستتحمل راية الإسلام بعد ذلك في عام سقوط الخلافة الإسلامية ، وقد نشأ عثمان على أسس التربية الإسلامية ، كما أنه تربى على فنون القتال وركوب الخيل واستخدام السيف على يد قادة والده ، حيث شارك في الفتوحات وحاز على صفات القيادة ، كالشجاعة والصبر والعدالة والحكمة السياسية والوفاء والإخلاص للله في فتوحاته⁽³⁾ ، وعقب وفاة أبيه أرطغرل غازي 680هـ / 1281م تولى عثمان رئاسة الإمارة ،⁽⁴⁾ فبدأ حياته السياسية والإدارية والعسكرية رئيساً للعشيرة والإمارة التي تحولت على مرّ الزمن إلى دولة عالمية كبرى ، وقد اجتهد عثمان في تأسيس الدولة العثمانية على أسس ودعائم جلية ، وبذل جهده في حمايتها والحفاظ عليها من التجزئة مهما كانت الأسباب ، ونال مساندة جميع العلماء والمشايخ وفي مقدمتهم علماء الدولة السلجوقية ،⁽⁵⁾ وساعده في ذلك إحساسه قبل وفاته بأن أولاده سوف يشكلون دولة متراحمية للأطراف ، وينشرون العدالة والإنسانية في العالم .⁽⁶⁾

⁽¹⁾ Kramrs : Othman 1 , the Ecyclopaedia of Islam , leaden , 1930 volume III , S . 1005 – 1006 .

وقد احتوت بعض الكتب التركية الحديثة على أفكار المستشرقين دون التكليف بمراجعة مدى صدق المعلومة ولمزيد من المعلومات الرجوع إلى الآتي :

H.inalc,k : Turkler (Osmani.lar) , i A , Islam Ansiklopedesi , Istanbul , 1977 , CiltX11/2 , S,286-293
E.Zachariadou : Pachymeres on the Amourioi of Kastamoun , III , Byzantine and modern Greed Stubies , 1977 , p . 57 – 70 .

P. Wittek : The Rise of the Ottoman Empire , London 1988 , P . 17-19 .

Nesri : Kitab – 1 Cihannuma (nsr . Fr . Taeschner) , Leipzig , 1951 , S , 59 - 60 .

⁽²⁾ سكود : Suyud مدينة تركية أسيوية ، في ولاية خداوندكار لواء كوتاهية ، وهي أول مدينة يعطيها سلطان قونيه إلى أرطغرل والد عثمان . س . موستراس : مرجع سابق ، ص 299 ، 300 .

⁽³⁾ عبد المنعم الهاشمي : مرجع سابق ، ص 17 ، علي محمد الصلاي : مرجع سابق ، ص 55 ، 56 .
Nisancizade Mehmed ramazan , Mir'at – kainat , II , Istanbul 1290 , Safha 1-9

⁽⁴⁾ Dervis , Mehmed b . Seyh Ramazan , Subhatu'l – Ahbar , Tipkibasim , Istanbul 1968 , Varak 13 b.

⁽⁵⁾ Muneccimbasi Ahmed b. Lutfullah , Camiu ' d – Duvel , Hazirlayan ; Ahmet Agirakca , Istanbul 1995 , S. 56 .

⁽⁶⁾ Ali , Kuhu 1 – Ahbar , V. Istanbul 1277 , Safha 24 .

ومن الملاحظ أنه بعد وفاة أرطغرل انتخب منتسوباً للإمارة والعشيرة عثمان الأول ليكون رئيساً للإمارة رغم أنه أصغر أبناء أرطغرل سنًا؛ ولعل السبب في ذلك ما عُرف به من الشجاعة والجرأة والمشاركة في الغزوات زمن والده.⁽¹⁾

وقد نسج كرامرز رواية الرؤيا التي رأها عثمان في منزل الشيخ إده بالي ، مشيراً إلى الاحتفال المهيّب الذي أقيم لتولية عثمان مقاليد الرئاسة ، ففي ذلك الاحتفال العظيم قام الشيخ الفاضل المؤمن العالم إده بالي - وهو والد زوجة عثمان - بتسليم عثمان سيف والده ، وأطلق عليه لقب الغازي . عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : " من مات ولم يغزو ، ولم يحدث نفسه بالغزو ، مات على شعبنة من نفاق " ⁽²⁾ أخرجه مسلم .

أمّا عن السبب الذي دعا كرامرز أن ينسج تلك الرواية فهو تعزيز قوله بأن بداية الدولة العثمانية اعتمدت على الأسطورة والخيال . وقد وصل به الافتراء أن نسبها إلى تاريخ عاشق باشا زاده ، دون مراعاة للأمانة والدقة العلمية ، وليس ذلك بغرير على المستشرقين الذين اعتادوا نسج الأحداث ونسبتها إلى كتب لم ترد فيها ، بل إنهم قد يعتمدون على كتب لا تعدُّ مصادر للتاريخ الإسلامي ، ككتب الأدب التي اعتمد عليها كرامرز في جمع مادته .

سادساً : - تأكيد كرامرز على أن العثمانيين في فتوحاتهم ما بين 701هـ / 1301م - 721هـ / 1321م لم يقابلوا جيشاً بيزنطياً نظامياً وإنما صادفو قادة الحصون المحاصرة فقط . فقال :

"الأملاك الجديدة انتزعت من البيزنطيين ، وجُل هؤلاء من قادة الحصون ، إذ قلما صادف الترك في غزواتهم من عام 1301م إلى 1321م جيشاً بيزنطياً نظامياً" ⁽³⁾

يعدُّ عام 699هـ / 1300م عاماً حاسماً في تاريخ بنى عثمان ، حيث وضع فيه عثمان بن أرطغرل الحجر الأساسي في بناء الدولة العثمانية ، حيث أغارت جموع المغول على سلطنة قونية السلجوقية ، وانتهى الأمر بمقتل علاء الدين كيقباذ الثالث ، وولي عهده الأمير غياث الدين ، فخلا موقع حاكم السلطنة ، وأمست السلطنة بدون سلطان ، وكانت رغبة السكان في الانضمام إلى قوة تحميهم السبب الأساسي في تمكين عثمان من المنطقة ،

⁽¹⁾ Nesri , Tarih , 1 , Ankara 1949 , Safha 28 – 29 .

⁽²⁾ أخرجه مسلم في صحيحه من حديث ابن المبارك ، كتاب شعب الإيمان ، الباب 26 ، باب الجهاد ، ج 6 ، ص 91 .

⁽³⁾ كرامرز : مادة الترك ، دائرة المعارف الإسلامية ، ص 168 .

وحيثما وجد عثمان الفرصة ليعلن زعامته على السلطنة تحت اسم "بادي شاه آل عثمان" معلنًا بذلك ولادة إمارة بنى عثمان .⁽¹⁾

ومنذ عام 1300هـ / 1969م بدأت مخاوف البيزنطيين فقاموا بحربة المؤامرات وتدبير الدسائس ضد هذه الدولة الناشئة .

ويرجع أول نشاط عسكري للعثمانيين على الحدود البيزنطية إلى زمن السلطان عثمان الأول، وتخلله العديد من الأحداث السلمية تارة وال Herb طرية تارة أخرى. وللرد على هذه النقطة . يقودنا ذلك إلى الفقرة الثالثة في مادة السلطان عثمان ، حيث ركز كرامرز النقطة نفسها ، وهي أن فتوحات عثمان الأول لم تكن إلا لتأمين الأهمية العسكرية ، وليس لفتح الإسلامي ، بالإضافة إلى اتهامه بالضعف ، ولم يكن من القوة بحيث يستطيع فتح المدن ، وإنما اكتفى العثمانيون بالنهب والتخييب للمناطق المجاورة ، حيث قال :

"**يبدو أن فتح المناطق الأخيرة كان لها أهمية عسكرية عندما أصبحت أساساً لعمليات الفتوحات** " ، و " **ولم يكن الأتراك أقوىاء لدرجة تكفي احتلال هذه المدن ولكنهم اكتفوا بنهب وتخييب المناطق المجاورة** ".⁽²⁾

عندما تولى السلطان عثمان رئاسة الإمارة كانت عشيرة قابي تقطن على الحدود البيزنطية لدولة سلاجقة الأناضول ، وكانوا يحكمون الأراضي الواقعة بين سوكود ودمانيج ، فحاول عثمان أن يقيم علاقات سلمية مع جيرانه البيزنطيين ، ولكن لم يتم هذا طويلاً ، إذ قام الحكم البيزنطي نيقولا في منطقة ابنه جول الذي خشي من تصاعد نفوذ السلطان عثمان بعقد حلف مع ولاة المقاطعات البيزنطية الأخرى ضد العثمانيين ، حيث جمعوا قوة عسكرية في " بازار كوي " للوقوف في وجه تحركات عثمان غازي ، لكن والي " بيله جيك " الذي كانت له علاقات ودية مع السلطان عثمان قام بإخبار الأخير بخطبة نيقولا ، فقام السلطان بالاستشارة مع قادته العسكريين ، وقرر مbagata الأعداء والهجوم عليهم .

وقد استشهد باي قوجا ابن أخي السلطان عثمان في المعركة التي وقعت في بازاركوي ، وهي تعد أول معركة بين السلطان عثمان والولاة البيزنطيين ، ثم قام نيقولا بإيقاع والي قراجا حصار بالتحرك ضد العثمانيين ، لكن السلطان عثمان أسرع في الهجوم

⁽¹⁾ زياد أبو غنيمه : جانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ، ص 19 .

⁽²⁾ Kramrs : Othman 1 , the Ecyclopaedia of Islam , leaden , 1930 volume III , S . 1006 .

واستولى على مرتفعات دومانيج ، وانتصر الجيش العثماني على الجيش البيزنطي في المعركة التي وقعت في أربجا (أكيرجة) بالقرب من دومانيج عام 685هـ / 1286م ، كما استشهد صاري باطى أخو عثمان في هذه المعركة .⁽¹⁾

لقد قام السلطان السلاجوفي غياث الدين مسعود الثاني بمكافأة عثمان غازي تقديرًا له في انتصاره على البيزنطيين في معركة أكيرجة ، فأرسل له فرماناً ، كما بعث إليه الطبل والراية والريشة التي تعد من علامات الإمارة ، هذا إضافة إلى أنه أقطعه منطقتي أينونو وأسكي شهر ، وأعفاه من الضريبة الميرية التي كان يدفعها سنويًا إلى الدولة السلاجوقية ، وبعد وصول هدايا السلاجوفي وقراءة الفرمان ، قام عثمان غازي بإرسال قسم من الغنائم ، وكذلك الأسرى البيزنطيين ومن ضمنهم أخت الحاكم البيزنطي وابنته إلى السلطان غياث الدين مسعود الثاني. ومن جهة أخرى كانت الإمارات التركية الأخرى في الأناضول تقوم بتتابع أخبار عثمان غازي الذي ذاع صيته وشهرته في حربه مع البيزنطيين .

وقد أدت انتصارات عثمان العسكرية إلى مخاوف القادة البيزنطيين القاطنين في المناطق المجاورة ، وبصفة خاصة حكام المدن الكبرى مثل بروسة وأزنيق ، فقاموا بعقد تحالف ضد العثمانيين ، فجمع عثمان قواته العسكرية وتحرك نحو معقل القوات البيزنطية المتحالفة في قلعة قراجا ، حيث استطاع أن يستولي على القلعة سنة 690هـ / 1291م وذلك بعد حصار طويل ،⁽²⁾ وقد أسر قائد القلعة ، كما غنموا غنائم كثيرة أثناء المعركة ، حيث قام عثمان بإرسال القائد البيزنطي المأسور مع قسم من الغنائم إلى السلطان السلاجوفي الذي قام بدوره بإرسال الفرمان والطبل وشارقة الرأس (طوغ) ، وهدايا أخرى إلى عثمان مع وفد رسمي برئاسة بليان جاوיש ، وقد وصف أحد المؤرخين هدايا السلطان السلاجوفي إلى عثمان غازي بأبيات من الشعر ،⁽³⁾ وجاء في الفرمان الذي يتضمن مدحًا وثناءً لعثمان ما يلي :

"لقد أخذ عثمان غازي الجهاد في سبيل الله ضد الذين عصوا عن الأوامر الإلهية شعارًا له ، وقام بأداء الفريضة الإلهية ، كما بذل جهودًا عظيمة لإقامة العدالة ونصرة

⁽¹⁾ Nesri , Tarih , 1 Ankara 1949 , Safha 84 .

⁽²⁾ Feridun Bey Munsebat , I , Safha 64 .

⁽³⁾ Hadidi , Tevarih – 1 Al – i Osman , Suleymaniye Kutuphanesi , Esad Dfendi , No , 2081 , Varak 24a; arak 25 a – 25b Halife , Vakiat – I Ruz – I Merre , Suleymaniye Kutuphanesi , Esad Efendi , No . Varak 25a – 25 b .

المظلومين ، ودفع شرور الظالمين من على وجه الأرض " . كما تضمن الفرمان دعاءً وحمدًا لله تعالى . بعد فتح قلعة قراجا من الأحداث المهمة في تاريخ الدولة العثمانية ، ولأول مرة تحولت الكنيسة الكائنة في القلعة إلى مسجد عقب الفتح ، إذ قام الفقيه طورسون بإلقاء أول خطبة لصلاة الجمعة في هذا المسجد باسم السلطان عثمان ، ثم توجه السلطان عثمان نحو وادي صقاريا ، وفتح على ضواحي طراولي وجويونوك وذلك بمساعدة صمسا جاويش رئيس إحدى العشائر في مودورنو ⁽¹⁾ . وقد قام عثمان بتشكيل النظم الإدارية في الأماكن التي فتحها ، كما قام بتعيين رجال الدين والسياسة في مناصب الإمارة . وفي الوقت الذي بدأت فيه مخاوف قادة بيزنطة من فتوحات وتوسعات عثمان غازي ، كان السلطان عثمان يقوم بتكتيف التنظيمات الإدارية في الأراضي المفتوحة ، وبإسكان العدد الهائل من المجاهدين والمشايخ والعلماء الذين قدموا من الأناضول للانضمام إلى العثمانيين ، ومن جهة أخرى فإن قادة بيزنطة الذين فهموا بأنهم لن يتمكنون من التغلب على العثمانيين في ميادين الحرب ، بدأوا بتدبير المؤامرات والحيل لقتل السلطان عثمان ⁽²⁾ سنة 698هـ / 1298م . وكان كوسة ميخال الحاكم البيزنطي على خارمان قايا صديقاً لعثمان غازي ، فبذل جهوداً كبيرة للمصالحة بينه وبين بقية القادة والحكام البيزنطيين ، فقام بدعاوة كل من عثمان والقادة إلى حفل زفاف ابنته ، لكن القادة استغلو هذه الفرصة وخططوا لاغتيال السلطان الذي نجا من كيدهم في آخر لحظة ، ومع ذلك لم يتخلوا عن خيانتهم فدبروا مؤامرة أخرى لاغتيال السلطان عثمان ، إذ خططوا لقتله هذه المرة في حفل الزفاف الذي أقيم بمناسبة زواج ابن قائد بيله جيك من ابنة قائد قلعة يار ، وقد دعي السلطان عثمان إلى حفل الزفاف ، وعلى الرغم من أن كوسة ميخال كان بيزنطياً ، إلا أن صداقته مع عثمان غازي دفعته إلى إخباره بهذه المؤامرة الثانية وأن الدعوة خطة للإطاحة به ، فقام عثمان بأخذ التدابير اللازمة وأرسل مجموعة من رجاله المسلمين لمبايعة البيزنطيين في قصر العرس ليلة الزفاف فانتصر على العدو وهزمهم ،

⁽¹⁾ Asikpasazade , Tarih , Miralay Ali Bey Nesri , Istanbul 1332 , Safha , 12-13 ; Muneccimbasi Ahmed b. Lutfullah , Lutfullah , Camiu'd – Duvel , Hazirlayan : Ahmet Agiraqkca , Istanbul 1995 , S . 74 ; Nesri , Tarih , 1 , Safha 88 .

⁽²⁾ Muneccimbasi Ahmed b. Lutfullah , Camiu'd – Duvel , Hazirlayan : Ahmet Agirakca , Istanbul 1995 , S. 75 .

وفتح بيله جيك ووقعت العروس الجميلة في الأسر فقام عثمان بتزويجها لابنه أورخان ، وأطلق عليها اسم نيلوفر خاتون⁽³⁾، قام السلطان باتخاذ بيله جيك مركزاً للإماراة .

وقد قتل القائد البيزنطي ومعظم رجاله أثناء المعركة وأسر عدد كبير من البيزنطيين ومن بينهم العروس ابنة قائد قلعة يار⁽¹⁾ ، وقد تشرفت نيلوفر خاتون بالإسلام وأنجبت ولدين هما سليمان ومراد (السلطان مراد الأول) ، حيث أصبحت زوجة لسلطان ووالدة لسلطان آخر⁽²⁾، كما أنها قامت بأعمال خيرية كثيرة . ولم تكن هذه المؤامرات لتحاك إلا لحصول القادة البيزنطيين على الدعم الكافي من الإمبراطور البيزنطي في القسطنطينية . ومن ثم واصل السلطان عثمان فتوحاته ، حيث قام كل من طورغود ألب وعبدالرحمن غازي وهما من قادة عثمان غازي المحنكين بفتح أينه جول ، وقام السلطان بنفسه بحصار مدينة أزنيق ، لكنه لم ينجح في فتحها بسبب كثرة الوحش في الأراضي المحيطة بالمدينة من جهة ، والمساعدات العسكرية القادمة من بيزنطة من جهة أخرى . وبعد فترة وجيزة تم فتح قلعة يني شهر على يد الجيش العثماني ، حيث جعلها السلطان مركزاً لحكمه ،⁽³⁾ وقام بتشييد المؤسسات الإدارية والاقتصادية والاجتماعية والدينية، مثل الدور السكنية وال محلات التجارية والأسواق والخانات والحمامات دور الطعام والمساجد . كما قام السلطان عثمان بتشكيل النظم الإدارية في المناطق المفتوحة ، حيث عين على كل قلعة محافظاً ومديراً للأمن وقاضياً ، فعين القيق طورسون - وهو أحد تلاميذ الشيخ أده بالي (أب زوجة السلطان عثمان - قاضياً على قلعة قراجا ، ومنحه صلاحية إصدار الأحكام والفتاوی الشرعية .⁽⁴⁾)

وفي الوقت الذي كان فيه السلطان عثمان منشغلًا بالفتحات على التغور البيزنطية ، قام المغول بالاستيلاء على الأناضول ، وقام الحاكم اليلخاني محمود غازان بأسر السلطان السلجوقي ونقله إلى إيران ، فانتقلت كافة الأراضي التابعة للدولة السلجوقية في الأناضول إلى حوزة المغول ، مما أدى إلى تشريد أمراء السلجقة وعساكرهم والتجائهم إلى أماكن

⁽³⁾ Asikpasazade , Tarih , Miralay Ali Bey Nesri , Istanbul 1332 , Safha 12-14 ; Nesri , Tarih , I , Ankara 1949 , Safha 96 – 97 . M. Qagatay ulucay : Padisatllartn kadirlari ve kizlari , Ankara : Turk Tarih kurumu Yayınlari , 1980 , 2.3 -4 .

⁽¹⁾ Ali , Kunhu 1 – Ahbar , V . Istanbul 1277 , Safha 33 ; Mehmet Nesri , Tarih , I , Ankara 1949 , Safha 105 .

⁽²⁾ Sem danizade Findiklili Suleyman Efendi , Murii't – Tevarih , Istanbul 1338 , I , Safha 382-383.

⁽³⁾ Muneccimbasi Ahmed b. Lutfullah , Camiu'd – Duvel , Hazirlayan : Ahmet Agirakca , Istanbul 1995 , S. 77-78 .

⁽⁴⁾ انظر الخريطة في الملحق .

بعيدة خارجة عن سيطرة المغول ، حيث قام معظمهم بالذهاب إلى المنطقة التي كان يحكمها السلطان عثمان الذي كان منشغلًا بالفتحات الإسلامية وتجمعوا حوله .⁽⁵⁾

وكان (أحمدى Ahmedi) صاحب كتاب التاريخ المشهور (إسكندرنامه) الذي يعد المصدر الأول في التاريخ العثماني ، قد ذكر إطراء خاصاً لصفة الجهاد هذه ووضعها على رأس الأمور ، إذ أشار إلى أن حساسية العثمانيين حول نشر العدالة⁽¹⁾ ، كانت من الأسباب التي مهدت السبيل - كما أكد على ذلك (شكر الله) في كتابه (بهجة التواريخ) إلى انضمام المحاربين القادمين المناطق المجاورة إلى صفوف (عثمان بك) ،⁽²⁾ وبدأت نتيجة لذلك مرحلة استقطاب القوات العسكرية في الإمارات المجاورة واستقطاب الطبقات الشعبية الموالية لها .

ومما يسترعي الانتباه جهود العثمانيين في سياسة الفتح التي جروا عليها إزاء الإمارات المجاورة لها ، لا سيما محاولاتهم تطبيق النظم الشرعية عليها ، فقد كانوا يكشفون من ناحية سمو تقاليدهم القديمة وتفوق عشيرتهم ، ويسعون من ناحية أخرى لتطبيق المفهوم الإسلامي على دار الحرب⁽³⁾ ، وهذه النقطة الأخيرة بعينها قد شكلت النموذج على تمسكهم بالشريعة الإسلامية .

لقد تجمع الأمراء والعساكر ورؤساء القبائل والعلماء والمشايخ الذين خابت آمالهم في الدولة السلجوقية ، وأخذوا القرار الآتي : "استولى المغول على بلادنا وسقطت الدولة السلجوقية التي كانت تقوم بحمايتنا ، ولم يستطع أحداً من أفرادها إعادة ملکهم من المغول ، فعليينا بالبحث عن شخص ذي قوة ودرأية ولباقة ليتمكن من القيام بحماية البلاد والدفاع عنها وعن الإسلام ، وطرد الظالمين والأعداء ، وقررنا بأن عثمان بك هو أنسب رجال لهذه المهام؛ لأنه ذو حسب ونسب بين العشائر والأقوام التركمانية ، وأنه ذو أخلاق عالية وكرامة وشهامة وشجاعة ، وهو يليق للرئاسة ، وأنه ينتمي إلى عشيرة قابي التركمانية العربية ، إضافة إلى أنه رجل مسلم ومتندين " ثم أجمعوا بالبيعة له ".⁽⁴⁾

⁽⁵⁾ Dervis , Mehmed b. Seyh Ramazan , Subhatu'l – Ahbar , Tipkibasim , Istanbul 1968 , Varak 13 a.

⁽¹⁾ Ahmedî : Iskendername , (nsr , Istanbul universite Ankara , 1983 , vr . 656 – 66a,) .

⁽²⁾ Behcetu't Tevarih , (Trc. N. Atsiz) , Istanbul 1949 , S . 53 .

⁽³⁾ A . Ozel : Islam Hukukunda ulke kavrami , Darulislam – Darulharb , Istanbul , 1988 , S , 135 – 139.

⁽⁴⁾ M.T.Gokbilgin , Osman Gazi Islam Ansiklopedisi , IX , Safha 442 .

والسلطان عثمان حتى ذلك الحين مرتبط بالدولة السلجوقية في تحركاته، إذ كان يقوم بإعلام السلطان السلجوقي بالفتحات والأعمال التي يقوم بها ، ولكنه اكتسب بعد البيعة له الشرعية في حكمه ، وأعلن استقلاله، وذلك إثر إنهيار الدولة السلجوقية بذلك تأسست الدولة العثمانية بصورة رسمية سنة 969هـ / 1299م ، وأصبح عثمان غازي أول سلطان للدولة، والسبب الرئيس في اختيار عثمان غازي والتوجه إليه يكمن في نشاطاته وأعماله العسكرية وغزواته وجهاده منذ زمن أبيه، ثم في زمن رئاسته للعشيرة ، ولأنه كان الشخص الوحيد الذي كان يدافع عن الإسلام ويقوم بالجهاد والغزوات ضد أعداء الإسلام ، حيث قام بتوسيع أراضيه منذ 680هـ / 1281م ، وكان لتصاعد قوته يوماً بعد يوم وذلك بالتحاق الغزاة المجاهدين المسلمين تحت رايته أثره في ذيوع صيته في الأناضول .

ومن المعلوم أن الأمارات التركية الأخرى في الأناضول أعلنت استقلالها في فترة ضعف الدولة السلجوقية ، لكن عثمان بقي مرتبطاً بالدولة وموالياً لها ، ولم يعلن الاستقلال حتى سقوط الدولة وقيام أعيانها بمبأعته .

ويمكن القول بأنه كان للمشيخ والعلماء دور كبير ومهم في تأسيس الدولة العثمانية وتطورها وتقديمها ؛ إذ تجمع حول السلطان عثمان وحول من جاء بعده من السلاطين العثمانيين نخبة طيبة من رجال الدين والعلماء الأفاضل ، وعلى رأسهم الشيخ أده بالي الذي كان عثمان يستشيره دائماً في كل الأمور ، كما أنه أوصى أولاده بتقديم الطاعة والاحترام للشيوخ والعلماء المسلمين واستشارتهم في كافة الأمور .⁽¹⁾

وبعد أن توسيع رقعة الدولة العثمانية قام السلطان عثمان بعمل التقسيمات الإدارية وتوزيع إدارات المناطق المفتوحة بين رجاله وقادته ، إذ منح إدارة مدينة بيله جيك إلى والد زوجته الشيخ أده بالي ، فيما منح إدارة أوني إلى ابنه أورخان غازي ، وإدارة أسكى شهر إلى القائد جوندوز ألب ، وإدارة أينونو إلى القائد آيقوت ألب ، وإدارة قلعة يار إلى القائد حسن ألب ، وإدارة أينه جول إلى القائد طورغود ألب .

ومن جهة أخرى قام السلطان عثمان بمواصلة فتوحاته ، حيث تم فتح يور حصار ويني حصار عام 701هـ / 1301م ، كما تم فتح قلعة كوبري 702هـ / 1302م ، ثم قام

⁽¹⁾ انظر نص وصية السلطان عثمان لابنه أورخان ، ص 353،352 علي محمد الصلايبي ، مرجع سابق ، ص 72-60 . عبد المنعم الهاشمي ، مرجع سابق ، ص 24 . محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 12 . ربيع الزواوي ، مرجع سابق ، ص 50 .

السلطان بإعمار المناطق المفتوحة وإسكانها ، وإرسال العلماء والشيوخ إليها لنشر الإسلام فيها وإقامة شعائر الدين الإسلامي الحنيف .

وقد قام السلطان عثمان بتشكيل التنظيمات الإدارية للدولة على أساس الدين الإسلامي الحنيف ، كما قام بتطبيق فريضة الجهاد في الإسلام ، فصار مثلاً يحتذى من قبل السلاطين الذين خلفوه في الحكم .⁽¹⁾

والسؤال الذي يطرح نفسه أمام تلك الفتوحات ، هل كانت بيزنطة ستقف مكتوفة الأيدي أمام هذا التوسيع؟! طبعاً بدأت باتخاذ الإجراءات التي من شأنها تحد من هذه الفتوحات ، وأخذ البيزنطيون في إيجاد اتفاقيات جديدة في مواجهة التوسيع العثماني السريع ، حيث تجمع ولاة مقاطعات إترانوس وكته وكستل وبدينوس البيزنطية في بروسة بدعة من حاكم بروسة البيزنطي ، كما وجّهت الدعوة للإمبراطور البيزنطي (أندرونيقوس بالالاغوس الثاني Negos Palagose Second Andrew) مع أحد قادته المدعو (موسولون) للمشاركة في ذلك الاجتماع الذي ألقى فيه حاكم بروسة الكلمة الآتية : " إن الأتراك أعداء قدماء لنا ، وقد أخذوا مسكنهم حولنا ، فهم يخرجون فجأة كالسيول ويدمرون الأرض التي يمرون منها ، وفي حالة عدم تعاوننا واتفاقنا سوف يقضون علينا جميعاً ". ثم قرروا تجهيز جيش ضخم تشارك فيه جميع القوات القادمة من المقاطعات البيزنطية للوقوف ضد تحركات الجيش التركي العثماني ، فتقابل الجيشان في قلعة قويون الواقعة شمال شرق ازنيق ، وكان الجيش العثماني أقل عدداً وعدة من الجيش البيزنطي المتحالف ، ولكن تواجد السلطان عثمان في مقدمة جيشه في تلك المعركة الدامية أعطى الجرأة والروح المعنوية والحماسة لجنوده فحاربوا بشجاعة وبسالة وبطولة مما أسفر عن انتصارهم وإلحاق الهزيمة بالقوات البيزنطية ، واستشهد في هذه المعركة (آيدوغدي) ابن أخي السلطان عثمان ، وفر كل من حاكم بروسة واترانوس من ساحة المعركة ، بينما التجأ حاكم كاته إلى حاكم أولوباط الذي لم يشارك في المعركة ، فقام بتسلیمه إلى السلطان عثمان مشترطاً عدم مرور الجيش العثماني من قنطرة أولوباط وعدم قيامهم بإلحاق الضرر بأهاليها ، فوافق السلطان على ذلك ، وأصبح هذا الاتفاق بمثابة أول معاهدة بين الدولة العثمانية ودولة أجنبية ، واعتاد منتسبي الأسرة العثمانية على عدم المرور من على تلك القنطرة في الفترات الزمنية اللاحقة وإن اضطروا إلى ذلك

⁽¹⁾ Muneccimbasi Ahmed b. Lutfullah , Camiu d – Duvel – Hazirlayan : Ahmet Agirakca , Istanbul 1995 , S . 79 .

كانوا يعبرون عبر القوارب ، وفي هذا دلالة واضحة على التزامهم بالعهد والوفاء ببنوته، ثم واصل السلطان عثمان فتوحاته العسكرية، فانتصر على البيزنطيين في معركة دينبوز ، حيث فتح قلعتي كته وكتل .⁽¹⁾

لقد عجز الإمبراطور البيزنطي إندرونيوس من صد فتوحات العثمانيين الذين امتدت سيادتهم من صقاريا وحتى سواحل بحر مرمرة ، وببدأ يبحث عن طرق التخلص منهم ، ومن جهة أخرى قامت الإمارات التركية الأخرى الحاكمة في مختلف بقاع الأنضول ، بمتابعة انتصارات السلطان عثمان على البيزنطيين ، إذ أعلنه مجاهداً للإسلام ، وجاء الناس أفواجاً للانضمام تحت لوائه ، ويمكن القول بأن قيام السلطان عثمان بحربه ضد بيزنطة وبفتحاته في الغرب دليل على شعوره الإسلامي وبصيرته في إدارة الدولة .

وقد أدى قيام السلطان عثمان غازي بتحويل الإمارة إلى دولة وبتشكيل الدولة العثمانية بعد سنوات قليلة إلى قيام بيزنطة بطلب الدعم من الغرب ، حيث وصل جيش ضخم من المرتزقة لأجل الوقوف ضد الدولة العثمانية التي صارت تشكل خطراً كبيراً تهدد الإمبراطورية البيزنطية ، ولكن سرعان ما تحول أفراد هذا الجيش المتعدد الجنسية إلى كتلة معادية لبيزنطة نتيجة للفوضى والاضطرابات التي قاموا بها في العاصمة القسطنطينية ، وتسببو في خلق النزاعات الداخلية بين شخصيات الأسرة البيزنطية الحاكمة .⁽²⁾

أما عن الفقرة الرابعة والأخيرة في مادة عثمان ، فقد وضع كرامرز في نهاية مادة السلطان عثمان قصة عداء عثمان الأول والأميرة البيزنطية ماريا ، أخت الإمبراطور أندروسنكس الذي عاش في سنيكا ، فذكر " وجود عداء شخصي بين عثمان والأميرة البيزنطية ماريا " ،⁽³⁾ ولم يذكر مطلقاً سبب هذا العداء وأرجعه فقط لأسباب شخصية تثير في خيال القارئ أفكار ساحرة مبهمة ، وذلك في إطار تعزيز فكرة أن تاريخ عثمان أحبط بالأساطير والغموض .

لقد اتضح - مما سبق - كيف أن علاقة السلطان عثمان الأول كانت متأرجحة ما بين السلم تارة وال الحرب تارة أخرى ، لكن العلاقة العدائبة كانت نتيجة حتمية بالنسبة للطرفين

⁽¹⁾ Muneccimbasi Ahmed b. Lutfullah , Camiu'd – Duvel , Hazirlayan : Ahmet Agirakca, Istanbul 1995, S , 79 – 80 .

⁽²⁾ Omer farak Yicmaz , Belge erle Dsmanli Tarihi , 2 . baski, Istanbul , 1999 , Safha 8-10 .

⁽³⁾ Kramrs : Othman 1 , the Encyclopaedia of Islam , leaden , 1936 , Volume III , S. 1007 .

، ولعل الأحداث القادمة ستلقي الضوء على حقيقة هذه العلاقة والعداء بين عثمان الأول والأميرة ماريا .

وإذاء هذه الانتصارات لم يبق أمام الإمبراطور البيزنطي أندرونيقوس سوى اللجوء إلى الدسائس والمؤامرات لأجل تحقيق أهدافه التي تتمثل في منع القوات العثمانية من الانتشار ، فقام هذه المرة بتقديم الأميرة ماريا إلى الإمبراطور المغولي أولجايتوج خدا بنده الذي ورث غازان خان في الحكم ، طالباً منه القضاء على العثمانيين والسلطان عثمان على وجه الخصوص ، وقد جاءت الأميرة ماريا إلى أزنيق وقامت بتهديد السلطان عثمان ، ولم يكن هذا عداءً شخصياً بين الأميرة ماريا والسلطان عثمان - كما يزعم كرامرز - ⁽¹⁾ إنما كان يرجع إلى حقد الأميرة البيزنطية تجاه العثمانيين ودورها في حماية أسرتها من التوسيع العثماني ، لكن السلطان عثمان سار في طريقه بغض النظر عن تلك التهديدات ، وقد لفتت الإدارة العادلة التي أسسها السلطان عثمان على الحدود البيزنطية انتباه الأهالي النصارى الذين يئسوا من مظالم الولاة البيزنطيين ، ومن دفع الضرائب المفروضة عليهم ، فبدأوا تدريجياً بالانضمام إلى إدارة العثمانيين . وقد قام كوسة ميخائيل القائد البيزنطي على خارمان قايا بإعلان إسلامه عام 713هـ / 1313م ، وبالاتحاق بالدولة العثمانية وقد سعد السلطان عثمان بهذا الخبر ، وقام بتعيين كوسة ميخائيل أميراً للسنجد في بلده ، كما قام بتعيين ابنه في خدمته الخاصة ، وقد شارك كوسة ميخائيل في الحروب بجانب العثمانيين ، وقدم خدمات كثيرة للدولة العثمانية . ⁽²⁾

إن المعاملة الطيبة والمشاعر الإنسانية التي كان يقدمها السلطان عثمان في المناطق المفتوحة كانت تؤثر تأثيراً كبيراً في نفوس الأهالي ، فكان العديد من الولاة البيزنطيين يستسلمون للعثمانيين إما طوعاً من أنفسهم ، أو نتيجة خسارتهم في المعركة ، وكان السلطان عثمان يحاول إبقاء هؤلاء الولاة في إدارة بلدتهم باسم الدولة العثمانية ، ومن جهة أخرى قام السلطان بتعيين أحد رجاله يدعى (صمسا جاويش) مراقباً عاماً على تلك المناطق .

ثم واصل العثمانيون فتوحاتهم من سواحل بحر مرمرة حتى امتداد البحر الأسود ، وتمكنوا عام 713هـ / 1313م من فتح قلاع آق حصار وجبيوا ولبليجي ولفكة (عثمان

⁽¹⁾ Kramrs : Othman 1 , the Ecyclopaedia of Islam , leaden , 1930 volume III , S. 1007.

Ziya Nur aksun . Osmanli Tarihi , 1 , Istanbul 1994 , Safha 25 .

⁽²⁾ Lutfu Pasa , Tarih , Istanbul 1341 , Safha 19 -21 .

إيلی) وحصار جيك وتكفور بناري ويني قلعة وقراجوز وقلعة يانفيجه . وتمكن أورخان بن السلطان عثمان مع القائد قونور الب من فتح قلاع (فراتكين وأبه صويو وقراجه بيك وطوزبازاري وقابوجوك وكرسته جي) الممتدة من صقاريا حتى البحر الأسود ، وإلهاقها إلى ممتلكات الدولة العثمانية وذلك في سنة 717هـ / 1317م . وقام القائد آفجه قوجا بفتح كافة المناطق الواقعة بين أزنيق والقسم الغربي من صقاريا ، فسميت هذه الأماكن فيما بعد (قوله إيلی) نسبة إلى ذلك القائد .⁽¹⁾

إن قيام السلطان عثمان منذ شبابه بخوض الحروب ضد البيزنطيين ، وكذلك قيامه بالنشاطات الإدارية والسياسية لإرساء أسس الدولة قد أتعبته بعد الستين من العمر ، هذا بالإضافة إلى معاناته من مرض إلتهاب المفاصل مما جعله يرسل ابنه أورخان غازي على رأس الحملات العسكرية البعيدة في السنوات الأخيرة من عمره ، كما كان يرغب كذلك في أن يرى بعينيه جرأة ولده وشجاعته وغزواته وإخلاصه للإسلام وخوف الأعداء منه وتقدير المسلمين له وقابليته لإدارة الدولة ليطمئن على ذلك قبل أن يوافيه الأجل ، حيث اجتهد على أن يكتسب أنباء الدين سوف يقومون بإدارة هذه الدولة الكبرى من بعده لقرون طويلة تجربة وخبرة في السياسة والإدارة وال الحرب ، إضافة إلى كسب رضا المسلمين عنهم ، وخوف الأعداء منهم.

فخرج أورخان غازي على رأس حملة عسكرية إلى مو丹يا التي تقع على ساحل بحر مرمرة عام 721هـ / 1321م وفتحها ، وقد غنم الجيش العثماني غنائم كثيرة في المعارك التي جرت مع البيزنطيين خلال فتح مو丹يا ، وأدى هذا الفتح إلى تمهيد الطريق لفتح بروسة التي تعد من أكبر المعاقل البيزنطية في المنطقة ، وترتب على فتح مو丹يا دخول بيزنطة في مضائقات كبيرة من الناحية المالية والاقتصادية ثم واصل العثمانيين غاراتهم في قلب الأراضي البيزنطية ففتحوا جمليك وآق يازى وآيان كوي 723هـ / 1323م وقرا مورسيل عام 725هـ / 1324م ، وقد عمرت المناطق المفتوحة ونقسمت إداراتها بين القادة والمجاهدين ، كما أقيمت فيها المؤسسات الإدارية للدولة ، وطبقت القوانين ذات العلاقة بأهل الذمة التي نصت عليها الشريعة الإسلامية على النصارى القاطنين في الدولة العثمانية ، كما فرضت عليهم الضرائب وفقاً لتلك القوانين .⁽²⁾

⁽¹⁾ إسماعيل سرهنوك : حقائق الأخبار في دول البحار ، ج 1 ، د. ط ، القاهرة ، 1946م ، ص 487 .

⁽²⁾ Osmanzade ahmed Taib, Hadikatu'l – Muluk , Bayezid Kutuphanesi, Veliyuddin Efendi, No. 1414/1 , Varak 3b – 4a .

ونتيجة لحركة الفتوحات العثمانية أصبحت بروسة التي تعد من أهم القلاع البيزنطية المستحكمة في منطقة مرمرة محاصرة تماماً بعدما دخلت ما حولها من المعاقل البيزنطية إلى حوزة العثمانيين ، إذ لم تعد تصلها المساعدات من العاصمة القسطنطينية ، كما أن سكانها صاروا يعيشون في رعب وخوف بسبب الاستعدادات العسكرية البيزنطية المستمرة في القلعة.

وكَلَّ السلطان عثمان ابنه أورخان لفتح بروسة التي كان يريد فتحها منذ زمن طويل نظراً لأهميتها الاستراتيجية ، فقام أورخان بحصار هذه المدينة التي تقع في وسط الأراضي العثمانية ، إذ قام بتشييد قلعتين 714هـ / 1314م أحدهما بجانب قابلجا (المياه المعدنية) ، وعين على قيادتها أحد أبناء عمه واسمه آق تيمور ، والأخرى بجانب أولو داغ (الجبل الكبير) ، وعين على قيادتها القائد بالابان ، وقد أعطيت للقلعتين اسم القائدين .

ولكن لم يكن من السهل فتح هذه القلعة المنيعة عن طريق الحصار فحسب ، نظراً لكثرة سكانها والجنود البيزنطيين المرابطين فيها ؛ هذا بالإضافة إلى أن الأرضي التي تحيط بها عbara عن أراضي موحلة يصعب السير عليها ، ولكن أفراد الجيش العثماني كانوا على أهبة الاستعداد ليلاً ونهاراً بكل عزم وصبر وينتظرون الإشارة من قائدتهم أورخان غازي لشن الهجوم على المدينة .⁽¹⁾

وفي الوقت الذي كان الجيش العثماني يستعد لفتح بروسة ، جاء خبر وفاة السلطان عثمان غازي في شهر أغسطس 727هـ / 1326م بمدينة سوكود ،⁽²⁾ ويتبيّن من أبيات الشعر التي كتبها الشاعر أحمدي في تحديد تاريخ وفاة السلطان عثمان بأنه توفي فبيل فتح بروسة بفترة قصيرة جداً ،⁽³⁾ ونقل جثمانه فيما بعد ودفن داخل القبة الفضية التي شيدتها ابنة أورخان في بروسة عقب فتحها تتفيداً لوصية السلطان عثمان نفسه ،⁽⁴⁾ وكان السلطان عثمان كان واثقاً من نفسه بأن عساكره سوف يفتحون بروسة عاجلاً أم آجلاً ، حتى إنه كان يحلم بفتح القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية لينال شرف بشري الرسول الأعظم .

⁽¹⁾ Ahmedî , Tevarîh – I Muluk – i Al – 1 Osman , Safha 9 .

⁽²⁾ Osmanzade ahmed Taib , Hadikatu'l – Muluk , . Bayezid Kutuphanesi , Veliyuddin Efendi , No. 1414/1 , Varak 3b – 4a; انظر الخريطة في الملحق

⁽³⁾ Ahmedî , Tevarîh – I Muluk – i Al – i Osman , Safha 9 .

⁽⁴⁾ Solakzade Mehmed hemdemi Celebi , Tarih , I , Safha23 .

ويتبين من أبيات الشعر التي نظمها عالي يازيجي أوغلي بأن فتح إسطنبول كان في مقدمة أهداف السلاطين العثمانيين منذ السنوات الأولى لتأسيس الدولة العثمانية .⁽¹⁾

من العرض السابق تتضح الصورة الحقيقية لقيام الدولة العثمانية ليتأكد أنها لم تكن كما صورتها مادة الترك أو حتى مادة السلطان عثمان ، لقد أسلموا منذ أيام الخليفة عمر بن الخطاب وحسن إسلامهم ، ولم يعتدوا على أي محرمات ، بل ساروا بالفتحات في طريق ناصع البياض ، وأصبحت الدولة العثمانية المتنفس الوحيد للحماس الديني في الإسلام .

كما أن تاريخها واضح لم يكتفه العموم ، وإنما التقصير من المؤرخين المسلمين في الكتابة عن هذه الفترة المبكرة من تاريخ الأتراك وندرة المصادر الموثوقة في هذا الأمر ، وعدم المعرفة الجيدة باللغة التركية .

وقد اتضح حماسهم الديني في علاقتهم بالدولة البيزنطية وكيف أن الأخيرة ناصبتهم العداء ، بسبب ملتهم الإسلامية ، وتجلت هويتهم الإسلامية في أن الأتراك أطلقوا على الجندي التركي اسم Mahmatcik أي الجندي المحمدي ، والعديد من المراسيم والفرمانات التي كانت تصدر عن الدولة العثمانية كانت تصدر باسم الدولة العليا المحمدية ؛ تيمناً باسم النبي الكريم محمد ﷺ سيد المجاهدين .⁽³⁾

أما عن مادة السلطان أرطغرل ، فقد قدم مادته المستشرق مورتمان الذي بدأها . وبالتالي :
أولاً : التشكيك في نسب أرطغرل ونسبه إلى سليمان باشا ثم صاغ الأحداث كما رسمها هو في خياله المريض وليس الحقيقة .

ثانياً : قام مورتمان بنسبة بعض الفتوحات إلى أرطغرل ولم يذكر تفصيلاتها فضلاً عن أنه نسب له استيلاءه على قرة حصار وكتاهية ، ولم يوضح الأحداث العسكرية المصاحبة أو المصادر لمادته .

غلب على المادة كثرة الاختلافات التي أوردها على أمور لا تقدم جديداً في صلب الموضوع وإضاعة الجهد في الكتابة عنها ، وإدخال القارئ في متاهات غير مفيدة مطلقاً ، كتاريخ وفاته وعمره وغير ذلك ، ولم يذكر الأحداث المهمة في عهده .

⁽¹⁾ Omer Faruk Yilmaz , Belgelerle Osmanli Tarihi , 2 baski , Istanbul 1999 , Safha 38 .

⁽³⁾ زياد أبو غنيمه : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ، ص 25 .

وهذا ديدن المستشرقين في التوسع فيما لا نفع فيه والاختصار الشديد في الأحداث المهمة ، كما اتصفت المادة بالقصر الشديد فلم يذكر الأحداث التفصيلية بينه وبين سلطان السلجقة ، على الرغم من الوفاء الذي أظهره لهم طوال حياته . ومع هذا فالمادة تخلو من التحامل الشديد .

" ابن سليمان شاه ووالد عثمان الأول مؤسس أسرة آل عثمان ودولتهم .. هاجر مع أربعين أسرة من بدو التركمان من ياسين أوواسي وسورمه لي جقور إلى آسيا الصغرى حيث أقطعه علاء الدين السلاجقى إقليم سوكود ".⁽¹⁾

ومن الملاحظ غالباً أن منهجية المستشرقين - دائماً عند الكتابة عن السلاطين العثمانيين في الدائرة - التشكيك في نسب السلطان ، على الرغم من أنها ثابتة تاريخياً وموثقة، ولكن ذلك لزرع الشك في نفس القارئ ، فنجد أن مورتمان - كما ذكر سابقاً - قد شك في نسب أرطغرل فنسبة سليمان شاه . والحقيقة أنه والد مؤسس الدولة العثمانية السلطان عثمان بن غازي ، ووالده هو كوندورز ألب ، وليس سليمان شاه كما ورد في دائرة المعارف الإسلامية ، والدليل على ذلك هو اكتشاف سكة للسلطان عثمان كتب عليها العبارة "عثمان بن أرطغقول بن كوندورز ألب " وهي محفوظة في المتحف الأركيولوجي في إسطنبول.⁽²⁾

ويرجع ذكر سليمان شاه في بعض المراجع إلى الالتباس أو الخلط الذي وقع فيه بعض المؤرخين ؛ لأن سليمان شاه كان مؤسس الدولة السلاجقية في الأناضول .⁽³⁾

ولد أرطغقول سنة 584هـ / 1188م ، ثم هاجر مع عشيرته نحو الغرب نتيجة ضغوط المغول ، إذ انتقلوا من مرو إلى الأخلاط ، وبعد وصول المغول إلى هذه المنطقة - أيضاً - انتقلوا إلى أرذنجان ومنها إلى هضبة باسين ووادي سورمه لي.

وفي هذه الفترة دارت في منطقة أرذنجان معركة سميت باسم ياسي جمن بين سلطان قونيه السلاجقى علاء الدين وبين جلال الدين خوارزم شاه خاقان تركستان ، وكاد سلطان قونيه المسلم أن ينهزم ، فإذا بعشيرة قابي تتدخل لنصرة سلطان قونيه - وهو الجانب

⁽¹⁾ مورتمان : مادة أرطغرل ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 1 ، ص 624 .

⁽²⁾ Atilla Cetin" Osman Gazi nin sikkesini bulan adam " Tarih ve Medeniyet Dergisi , 12 , 1995 , S. 49; Rifat Okyay , Osmanli Devleti nin Kurulusu , Istanbul 1996 , Safha 11 .

⁽³⁾ Ahmed Akgunduz – Said Ozturk , Bilinmeyen Osmanli , Istanbul 1999 , Safha 30 .

الأضعف - بكل حماسة واندفاع لنجد إخوانه المسلمين ، فتسرب كوندوز ألب والد أرطغرل في انتصاره .⁽¹⁾

وهنا لابد من التوقف قليلاً عند سبب اختياره جانب سلطان قونيه ، هل نجدة للملهوف ونصرة للضعيف أم أنه أحسَّ بأنهم أخوته في الدين الإسلامي؟ لا شك أنَّ انضمامه إلى جانب سلطان قونيه يدل على إدراكه أنه مسلم ، فمن المحتمل أن يكون قد رأى ما يدل على أن هذا الجيش مسلم من الرأيات التي ير Fultonها أو الإشارات التي يحملونها .

بناء على ما سبق يتضح أنهم مسلمون منذ أوائل القرن الأول الهجري وليس منذ عهد عثمان بن أرطغرل - كما ذكر سابقاً.-

فإِسلام متصل في نفوسهم تأسله في نفوس العرب تماماً. وبعد نهاية المعركة عرف سلطان قونيه أن عشيرة قابي ساعدته في تحقيق الانتصار وضم قلعة كوتاهية ، وعرف أنها تبحث عن موطن لها ، فاستدعى قادتهم ووقف على حاله وأظهر لهم عظيم الكرم والارتياح ، فقد أحس منهم القوة والبراعة في القتال، فأقطعهم ثغراً على الحدود بين سلطنة السلجوقية والدولة البيزنطية وهي المنطقة الواقعة بين جهتي إسكي شهر وبيلا جيك وكوتاهية عام 685هـ / 1286م وتلك منطقة إستراتيجية مهمة ، واستقرت فيها العشيرة وكانت نواة تكوين إمارة عثمانية صغيرة ما لبثت أن أصبحت دولة ذات شأن عظيم في التاريخ الإسلامي .⁽²⁾

ثم لم يلبث أن بدأ أرطغرل في مساعدة علاء الدين السلجوقي في أكثر وقائعه الحربية ضد المغول والدولة البيزنطية ، وكان له أثر واضح ومكانة عظيمة عند السلطان علاء الدين لدرجة أنه زاده في الإقطاعات وتنازل له عن قطعة من بلاده الأصلية التي فتحها من الدولة البيزنطية وهي الجهات من قونيه حتى سكود، ومنحه لقب أمير الغزاة وولاه أمر حماية قلعة كوتاهية التي استولى عليها المغول، واستعادها أرطغرل بعد قتال شديد ، فعلت منزلة أرطغرل عند السلطان علاء الدين ولم يزل على هذا الأمر حتى توفاه الله .⁽³⁾

⁽¹⁾ محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، مرجع سابق ، ص 10 ، علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ط 3 ، المكتب الإسلامي ، 1415هـ / 1994م ، ص 12 . زياد أبو غنيمه : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ، ص 36 .

⁽²⁾ أميرة مراح : مرجع سابق ، ص 14 . محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 10 إسماعيل سرہنک : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج 1 ، ص 483 ، 484 . يلماز أوزتونا : مصدر سابق ، ج 1 ، ص 87 .

⁽³⁾ يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج 1 ، ص 87 إسماعيل سرہنک : حقائق الأخبار في أعلى البحار ، ج 1 ، ص 484 .

هذه حقيقة ظهور أرطغرل على مسرح الأحداث السياسية أما ما جاء في الدائرة فإنه مختصر جداً ، ومادته قصيرة قليلة المصادر والمراجع ، اهتم المستشرقون فيها بالأحداث الأولى لحياته ، ولم يذكروا سبب هجرة القبيلة أو حتى أصلها بل اكتفوا بالإشارة فقط إلى الهجرة ، وكأنها هجرة البحث عن الغذاء وليس لفرار بديهم ، ونسبوا المعلومة لكتاب عاشق باشا زاده . والذي ذكرها في كتابه كاملة تعبّر عن الأحداث بصدق ، أمّا ما ورد في الدائرة فأجزاء مبتورة من الأحداث الحقيقة ، وينقصها الدقة والشمولية .

" حيث أقطعه علاء الدين السلاجقى إقليم سوكود الواقع بين قرة حصار وبيله جك للرعى فيها شتاءً .. وكانت قرة حصار وبيله جك لا تزال في حوزة الروم ، وكانوا يدفعون الجزية إلى علاء الدين " ⁽¹⁾

وعاد مورمان مرة أخرى للتخيّل واصطناع الأحداث حيث ذكر أن علاء الدين اقطع لأرطغرل مناطق لا تزال في حوزة الروم ويدفعون عنها الجزية للسلاجقة وهي تلال أرمحين بلي ودوماينج وذلك للرعى . ⁽²⁾

وهو بهذه الطريقة صور الأمر وكأنه خدعة من علاء الدين حتى وضعه في مواجهة البيزنطيين ، على الرغم من أنه لم يثبت - تاريخياً - أي خلاف بينهم ، بل ساد علاقاتهم الحب والمودة والوفاء الصادق من جانب الأتراك . ولا شك أن مثل هذه المسألة تتبرأ حفيظة البيزنطيين خاصة وأن عقائدهم مختلفة ، وهو يعد حليف أعدائهم السلاجقة . وأخيراً فلم توضح المادة الدور الفعال الذي قام به أرطغرل في الدفاع عن السلاجقة ومساعدتهم ، بل والتصدي للمغول وأغفلت هذا الجانب تماماً ولم توضحه ، واكتفت فقط بالإشارة إلى أن المؤرخين نسبوا له فتوحات أخرى غير قرة حصار وكتاهيه ، دون ذكر هذه الفتوحات أو المصادر التي أخذت منها ؛ وذلك للتقليل من أهميتها تماماً . " على أن المؤرخ نشري ... يروي أن أرطغرل ... استولى على قرة حصار وكتاهيه " . ⁽³⁾

أما بالنسبة للنقطة الثانية التي عرض فيها مورمان فتوحات أرطغرل ، واستيلاءه على قره حصار وكتاهيه ، فإنه لم يعط الحقيقة كاملة أو حتى نصفها بل أخفى أكثر من نصفها واختصرها لدرجة أنها اخللت بالواقع التاريخي .

⁽¹⁾ مورمان : مادة أرطغرل ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 1 ، ص 625 .

⁽²⁾ مورمان : مادة أرطغرل ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 1 ، ص 624 ، 625 .

⁽³⁾ مورمان : مادة أرطغرل ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 1 ، ص 624 .

لقد منح السلطان السلاجوقى علاء الدين الأول وطنًا لأرطغرل غازي بجوار قراجاداغ بالقرب من أنقرة ، فقام بنشاطاته على الأراضي الواقعة بين أنقرة وأسكي شهر ، كما منحه السلطان سنة 630هـ - 1232م لقب "أوج بيك" أي "أمير الثغور" ، وهذا ما يتفق عليه معظم المؤرخين .⁽¹⁾

وفي هذه الأثناء كانت القسطنطينية تحت قبضة اللاتين ، واضطرب البيزنطيون إلى نقل مقرهم إلى أزنيق ، ومن هنا كان الإمبراطور البيزنطي يحاول إخضاع الأناضول مرة أخرى لحكمه .

أما السلطان السلاجوقى علاء الدين الأول ، فقد وصل مع جيشه أمام منطقة سلطان أونى للوقوف في وجه تحركات الإمبراطور البيزنطي ، وهنا التحق أرطغرول غازي مع رجاله إلى جيش السلطان السلاجوقى ، وقد تقابل الجيشان في موقعة "دربند" التي انتصر فيها الأتراك على البيزنطيين ، وكان لأرطغرول غازي وعشيرته دور كبير في هذا النصر ، فقدر السلطان السلاجوقى تقديرًا كبيرًا وأناط إليه منصب قائد قوات الثغور .⁽²⁾

ثم توجه الجيش التركي نحو قلعة قراجا ، وفي هذه الأثناء جاء خبر تقدم جيش المغول في داخل الأناضول ، فاضطر السلطان السلاجوقى للعودة إلى العاصمة قونية ، وعين أرطغرول غازي لمهمة فتح القلعة⁽³⁾ فتم فتحها ، وقام أرطغرول بإرسال القائد البيزنطي الذي أسره خلال الفتح مع خمس الغنائم التي حصل عليها إلى السلطان علاء الدين ومعه هيئة يترأسها أخيه دوندار بيك ، وهنا قام السلطان السلاجوقى بضم أرطغرول إلى قائمة أمرائه تقديرًا لبسالته وشجاعته وانتصاراته ، وأقطعه منطقة سوكود ودومانيج⁽⁴⁾، فصار أرطغرول قائداً عاماً ووالياً على الحدود في سكود وضواحيه .

وعقب وفاة علاء الدين الأول عام 634هـ / 1236م تولى غيات الدين كيخسرو الثاني عرش السلطنة السلاجوقية في الأناضول ، وفي هذه الأثناء تصاعدت ضغوط المغول

⁽¹⁾ Munecimbasi Ahmed b . Lutfullah , Camiu'd – Duvel , Istanbul 1995 , Safha 64 ;
مورستان : مادة أرطغرل ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 1 ، ص 624 ، 625 .

⁽²⁾ Dervis, Mehmed b . Seyh Ramazan , Subhatu'l – Ahbar , Tipkibasm , Istanbul 1968 , Varak 12 b .

⁽³⁾ Nisanci Mehmet Pasa , Tevarihi's – Selatini'l – Oamaniye , Turk . terc . Konyali Ibrahim Hakki, Osmanli Tarihleri , I , Safha 344 .

⁽⁴⁾ Dervis , Mehmed b . Seyh Ramazan . Subhati 1 – Ahbar , Tipkibasim , Istanbul 1968 , Varak 13a .
Munecimbasi , 1 Ahmed b. Lutfullah , Camiu'd – Duvel , Hazirlayan : Ahmet Agirarkca , Istanbul 1995 , Safha 64 .

على المنطقة ، فقام معظم ولاة الدولة السلجوقية وأمراء الثغور بالانفصال عن السلطان السلجوقي ، حيث خرجن عن طاعته وبدأوا بتشكيل إمارات خاصة بهم ، لكن أرطغرول غازي لم ينفصل عن السلطان ولم يتخل عنده في تلك الفترة العصبية ، بل بقي ولاءه وصداقه وإخلاصه للسلطان ، فقبول ذلك بالترحيب والتقدير من قبل السلطان ومن قبل أركان الدولة السلجوقية ، وكذلك من قبل عامة الناس في الأناضول ، مما أدى إلى تجمع عدد هائل من الغزاة والمقاتلين والعلماء الذين قدموا من كافة أنحاء الأناضول تحت راية أرطغرل غازي، وذلك بهدف الجهاد في سبيل الله والدفاع عن الإسلام .

وقد قام أرطغرل بحماية الحدود الشمالية الغربية للدولة السلجوقية بصورة جيدة ، كما قام بتحقيق الأمن والسلام في المنطقة ، بالإضافة إلى إخماد الفوضى التي أحدثها أبناء جرميان في المنطقة فضمن بذلك سلامة وأمن الأهالي ، وبناء عليه ، منحه السلطان غياث الدين كيخسرو الثاني رتبة القيادة ورجل الدولة . لقد كان أرطغرل غازياً كبيراً في العمر ، فبدأ بإعطاء الأمور تدريجياً إلى ابنه الأصغر عثمان الذي كان يتمتع بذكاء حاد وشجاعة باسلة، كما كان متوفقاً على سائر أخوه في الدرية والزعامة - كما وضح سابقاً - وتميزت شخصية أرطغرل بالتدين والطهر والوفاء والصبر ، إضافة إلى دهائه العسكري . ولا شك أن التراممه مع السلاطين السلجوجة إلى نهاية عمره دليل على ذلك الوفاء .

توفي أرطغرل غازي في سوكود عام 1280هـ / 680م في الثالثة والستين من العمر ، (1) وخلف ثلاثة أولاد ، هم صاويجي بييك (صاري باطي) وجوندوز بييك وعثمان غازي الذي خلفه في الحكم ، وترك أرطغرول لابنه عثمان إمارة صغيرة وقدوة عسكريين محنكين وأرضية مناسبة للجهاد ، ومن أبرز هؤلاء القادة آفجه قوجا وجوندوز ألب وقونور ألب وقره أوغلان وقره مورسيل ، وعاش بعضًا من هؤلاء القادة في زمان عثمان غازي ، ومن ثم في زمان أورخان غازي ، حيث قدموا خدمات جليلة للدولة العثمانية .

وقد وصلت مساحة الأراضي التي حكمتها الدولة العثمانية في عهد أرطغرل غازي إلى (4800) كيلو متر مربع . (2)

(1) Hoca sadeddin Efendi , Tacu't – Tevarih , 1 , S . 12

Lutfu Pasa , Tevarih – 1 AL – 1 Osman , S . 19 Solakzade Mehmed Hemdemi Celebi , Tarih , S.7

(2) Nisanci Hazma , Takdim – 1 Zikr – 1 Ensab ve Tefhim – 1 Intisab , Suleymaniye Kutuphanesi , Esad Efendi , No . 2362 , Varak : 84a – 86a .

وبوفاة أرطغرل تولى الإمارة من بعده ابنه عثمان الذي كان مندفعاً بروح دينية جياشة، وطبيعة عسكرية من الطراز الأول ، كما تميزت إمارته بموقع جغرافي مميز ، فضلاً عن أن الظروف المحيطة به كانت تفتح المجال والطريق أمامه لفتح ونشر الدين الإسلامي .

لكنَّ مادة أرطغرل ظلتْ كثيرةً ولم تعط فكرة واضحة عن ظهور العشيرة العثمانية ، على الرغم من اعتماده على مصدر عاشق باشا زاده ؛ وسبب ذلك أن المستشرقين لم يأخذوا المعلومة كاملة بل مقتضبة وصغيرة ، وأضاعوا الجهد والمادة في اختلافات لا تضييف للحدث أي قيمة ، والهدف واضح ألا وهو إيهام القارئ بأنهم يتحرروا الدقة في سبيل الحقيقة .

أما ما كتب عن السلطان أورخان في الدائرة والتي قدمها المستشرق فرانس بابنجر ، فإنها حوت بعض المغالطات أو الإفتراءات على تاريخ السلطان ، وإنما جاءت قليلة وليس ظاهرة وواضحة حيث سجلت المادة سلسلة الفتوحات التي قام بها السلطان أورخان وإن حاولت المادة تصغير دوره الإسلامي في هذه الفتوحات والتركيز على ضعف الدولة البيزنطية وتحالفه معهم ، وهو السبيل الذي مهد لانتقال إمارة آل عثمان إلى الرومالي .

وقد احتوت مادة أورخان على النقاط التالية :

أولاً : إرجاع حياته الأولى إلى الغموض وقلة المصادر . وهو دأبهم حيث أرجعوا حياة العثمانيين الأولى إلى الأساطير وعدم وضوح الأحداث .

ثانياً : إرجاع علاقته بأخيه إلى جمل مطاطة كثيرةً ما يستخدمها المستشرقون كمنهج أساسي في كتاباتهم كقولهم " جاء في بعض الروايات "أو" يقال ".⁽¹⁾ وهذه إحدى أشهر مناهج المستشرقين وهي نسب المعلومة إلى بعض الروايات أو قول أحد المؤرخين .

ثالثاً : التقليل من جهود فتح بروسه وذكرها بشكل عابر ، ونسبة الفتوحات العظيمة إلى قادة الجيش وليس لتنظيم أورخان .⁽²⁾ وذلك محاولة للتقليل من شأن أورخان .

رابعاً : صياغة أحداث متداخلة عن فتوحاته دون الالتزام بالترتيب الزمني . وذلك لإدخال القارئ في متألة يخرج منها غير مدرك لحقيقة الأحداث .⁽³⁾

⁽¹⁾ فرانس بابنجر : مادة أورخان ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 3 ، 126 .

⁽²⁾ بابنجر : مادة أورخان ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 3 ، ص 127 .

⁽³⁾ بابنجر : مادة أورخان ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 3 ، ص 127 ، 128 .

خامساً : تصوير فتح إمارة قرة سي على أنه تلبية لاستجاد من الأخ الأصغر للحاكم ليعينه على الأخ الأكبر ، فيتقدّم أورخان لغزو إمارة قرة سي بعد أخذ المواثيق .⁽¹⁾

سادساً : إعطاء المادة صورة مختلفة عن الواقع في علاقة أورخان بالبيزنطيين وكيف كانت تتارجح بين السلم وال الحرب .⁽²⁾

ولد السلطان أورخان عام 680هـ / 1281م ، وهو ثالثي أبناء الأمير عثمان ، خلف والده الذي أوصى له بالحكم لشجاعته ، وإقدامه ومحبة الجيش له ، وقد اتبع سياسة أبيه في الفتوحات والحكم ، ويعتبر المؤسس الثاني للدولة العثمانية . أدى دوراً رائداً في الفتوحات خلال حياة أبيه ، لما يتمتع به من عقلية تنظيمية وشجاعة وجرأة ، وتميز بعلو الهمة وسداد الرأي ، استلم أورخان الحكم في 21 رمضان 726هـ / 1326م ، وسلم أخيه علاء الدين تدبير أمور الدولة الإدارية ، وهو بذلك يعتبر أول وزير في تاريخ الدولة العثمانية ، وتفرغ هو للفتوحات والجهاد في سبيل الله . فبدأ رحلت فتوحاته بفتح بروسه واتخاذها عاصمة لحكمه ، وتصدى للحملات الصليبية البيزنطية ضده وضد الإسلام المتمثل في الدولة العثمانية .⁽³⁾

يعد تأسيس جيش الإنكشارية من أهم أعماله التنظيمية ، وضرب عمله من الذهب والفضة باسمه ، رمزاً لاستقلاله وسيادته على دولته الجديدة . وتحمل على وجهها الأول عبارة : (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وفي هذا تأكيد على الهوية الإسلامية للدولة العثمانية . حيث جعلت من كلمة التوحيد شعاراً لها . واهتم باستتاب الأمان والتعمير وفتح المدارس ، وقد ترك الدولة بحدود واضحة بفضل فتوحاته في آسيا الوسطى وشرق أوروبا ، وتنظيمات عديدة أعلنت شأن الأمة الإسلامية .⁽⁴⁾

⁽¹⁾ بابنجر : مادة أورخان ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 3 ، ص 128 .

⁽²⁾ بابنجر : مادة أورخان ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 3 ، ص 129 .

⁽³⁾ أميرة مدادح : نظرة متأنية في تاريخ الدولة العثمانية ، ص 17 ، عدنان العطار : مرجع سابق ، ص 23 .

⁽⁴⁾ أميرة مدادح : نظرة متأنية في تاريخ الدولة العثمانية ، ص 21 .

وفيما يلي نقد النقاط التي أحتوت عليها المادة :-

أولاً : إرجاع حياته الأولى إلى الغموض وقلة المصادر

" ولا نعرف العام الذي ولد فيه والحق أن علمنا بتاريخ حكمه لا يزال ناقصاً نقصاً كبيراً " ، " ولسنا نعرف إلا القليل عن شباب أورخان " .⁽¹⁾

وكمادة المستشرقين دائماً يدخلون القارئ في جو من الغموض والشك في المعلومات التي يذكروها بعد ذلك ، حيث بدأت المادة باختلاف لا طائل منه على سنة الولادة ، على الرغم من أن المصادر لم تغفل هذا الجانب مطلقاً .

أورخان هو السلطان الثاني للدولة العثمانية ، ولد في سوكود عام 680هـ / 1281م ، أي في العام الذي أصبح والده عثمان غازي أميراً على الإمارة العثمانية ،⁽²⁾ ويعد أورخان غازي أول أمير عثماني يحمل لقب سلطان ، وهو "السلطان ابن سلطان الغزاة ، والغازي ابن الغزاة ، وحاكم الأفق ، وسيد العالم ، وشجاع الدين ، و اختيار الدين ، وسيف الدين "⁽³⁾ ، كما أنه يعد المؤسس الثاني للدولة العثمانية لأنه نظمها وعمل على زيادة مساحتها⁽⁴⁾ . وقد تربى أورخان تربية ممتازة منذ طفولته على يد جده الشيخ أده بالي ، ثم خاض غمار الفتوحات والغزوات في سن مبكرة ، وبعد أن تولى السلطنة عام 727هـ / 1326هـ سار على سياسة والده عثمان غازي ، وطريقته في إدارة أمور الدولة ، وهي سياسة تتميز بالعدل والضرب على يد الظالم ، وقد تربى أورخان على استخدام السلاح وفنون القتال على يد قادة والده أمثال : آفجا قوجا وقونور آلب وسلجوق آلب وعبدالرحمن غازي ، مما أكسبه تجربة عسكرية عالية ، فتمكن من قيادة الجيش وفتح القلاع في سن مبكرة وذلك في زمن والده ، كفتح قلاع قرب أزنيق في 716هـ / 1316م ، كما شارك في فتح كوبري حصار ، وفي الغارات التي شنها الجيش التركي على أزنيق .⁽⁵⁾

⁽¹⁾ فرانس بابنجر : مادة أورخان ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 3 ، ص 126 .

⁽²⁾ Nisancizade Mehmed ramazan , Mir'at - I kainat , II ., Istanbul 1290 , S . 10-15 ; Gazi Orhan Bey Vakfiyesi , belleten , 1941 , V / 19 , S. 277-279 .

⁽³⁾ محمود محمد الحريري ، مرجع سابق ، ص 41 .

⁽⁴⁾ عبدالقادر ده أوغلي : مصدر سابق ، ص 35 . أميرة مدام ، مرجع سابق ، ص 17 .

⁽⁵⁾ Lutfi Pasa , Tevarih - I Al - I Osman , S . 23 .

عبدالرحمن شرف: تاريخ دولة عثمانية ، ج 1 ، ط 1 ، إسطنبول : معارف نظارات جلية سنك ، مطبعة سي ، 1309هـ ، ص 68 .

وفي هذا رد -أيضاً- على المقوله التي جاءت في مادة عثمان الأول : "أن أورخان كان رفيق درب للسلطان عثمان غازي" ؛⁽¹⁾ لأنه لم يكن رفيق درب وإنما ابنه وقائد جيوشه.

امتاز أورخان بالدقة في أداء أعماله ، بتفكير منظم ماهر غير مرتبك ، واتصف بلين الطبع والشفقة والمرءة والرأفة ، وعامل كل أهالي البلاد المفتوحة معاملة حسنة طيبة حتى غير المسلمين ، وتقرب منهم بالشفقة والحسنى وليس بالسلاح ، مع اتصافه بكثير من الشجاعة والبسالة ، وكان يحب الفقراء ويحترم مشاعرهم ، حتى أشار المؤرخون إلى أنه لم يبق في أواخر عهده فقير يحتاج إلى الزكاة ، اهتم بالعلم والعلماء واحترمهم وجالسهم ، ويعود ذلك طبعاً إلى تربيته التي كانت على حب العلم والعلماء ، بالإضافة إلى أنه كان غاية في التقوى والعدالة ، ويعرف جيداً التحبيب إلى رعيته ، فكان يدخل بين عامة الشعب ويتناول معهم الطعام ويساركهم مأساتهم . وقد ورث الشجاعة عن والده عثمان ، بالإضافة إلى أنه مقنعاً ومدرراً ومفكراً ، ولم يكن متعصباً مطلقاً .⁽²⁾

ثانياً : إرجاع علاقته بأخيه إلى جمل مطاطة كثيراً ما يستخدمها المستشرقون كمنهج أساسي في كتاباتهم كقولهم : " جاء في الروايات " و " يقال " حيث ذكر في الدائرة .

" جاء في بعض الروايات أن أورخان أعطى لأخيه علاء الدين جزءاً من ممتلكاته أجداده ، ويقال كذلك إن علاء الدين اكتفى بالوزارة ".⁽³⁾

والصحيح أن علاقة السلطان بأخاه علاء الدين معروفة تماماً ومذكورة في أكثر كتب التاريخ العثماني قديماً وحديثاً ، فلماذا يرجعونها إلى بعض الروايات أو يقال ؟! إنما ذلك للتشكيك في المعلومات الواردة والتقليل من شأن هذه العلاقة التي تعد بالطبع غريبة عنهم تماماً ؛ وذلك لأنها تصور افتتاح الأخ الأكبر بأنه رجل علم ودين فقط وأنَّ أخيه الأصغر هو الأنسب للحكم والفتوحات الإسلامية ؛ نظراً لما يتميز به السلطان أورخان منذ حياة والده بحسن القيادة العسكرية والعقلية الحربية المنتظمة ، واتصافه بعلو الهمة والشجاعة والإقدام ، مما جعل والده عثمان يوصي له بالملك من بعده ، وذلك لميل ابنه البكر علاء الدين إلى

⁽¹⁾ Kramers : Othman I , the Encklopaedia of Islam , Leeden , 1936 , volame III , S. 1005 .

⁽²⁾ عبدالقادر ده ده أوغلي : مصدر سابق ، ص35 أورخان محمد علي : مرجع سابق ، ص10 .
Mehmed Sakir : Yeni osmanli Tarihi , s 795 , 796 .

⁽³⁾ بابنجر : مادة أورخان : دائرة المعارف الإسلامية ، ج 3 ، ص126 .

الورع والعزلة والعلم ، ومن حسن الحظ أن علاء الدين لم يعارض هذه الوصية بل صادفت هوئ نفسه في التفرغ للعبادة والزهد ، وقبلها مقدماً الصالح العام على مصلحته واكتفى بمنصب الوزارة ، وهو المنصب الذي تطور لاحقاً للصدررة العظمى ، فكان أول وزير في تاريخ الدولة العثمانية .⁽¹⁾

بالإضافة إلى خبرة أورخان الطويلة في قيادة المعارك وخوض الحروب ، حيث اشتراك فيها منذ أن كان يافعاً في عمر الخامسة عشرة ، فكان يرأس الجيوش بنفسه مستفيداً مما تتميز به من حنكة عسكرية ، وعقلية حربية ، تاركاً تنظيم شؤون الدولة الداخلية إلى أخيه علاء الدين .⁽²⁾

ثالثاً : التقليل من جهود فتح بروسيا وذكرها بشكل عابر ، ونسبة الفتوحات العظيمة إلى قادة الجيش وليس لتنظيم أورخان .

يقول : " كان أورخان قد فتح بروسيا دون سفك الدماء وصارت نيقية "إزنيق" ونقوصيه هدفين توجه إليهما سيف آل عثمان ، وكان يعاونه فريق من القادة المحنكين أشهرهم كوسة ميخائيل ... وبمعاونة هؤلاء القادة قام بتنفيذ الخطط التي أرادها ووفق أعظم توفيق ".⁽³⁾

إن الأحداث التي مرت بفتح بروسيا قوية وعظيمة تعكس الصورة التي كان عليها القائد العثماني المسلم أورخان ، ولا يعبر عنها في كلمتين أو تنسب لقادته .

كانت بروسيا قلعة منيعة ومستحکمة في منطقة مرمرة ، تابعة إلى الدولة البيزنطية ، وقد حوصلت منذ زمن السلطان عثمان ، حيث قام أورخان بعملية الحصار نيابة عن والده السلطان الذي كان مريضاً ، ثم توقفت العمليات العسكرية نتيجة وفاته ، وبعد الانتهاء من مراسيم تشبيع دفن السلطان عثمان واعتلاء أورخان للسلطنة ، بدأ بمواصلة الحصار إذ أقام معسكراً في موقع يقطع ارتباط المدينة مع العالم الخارجي .

وعلى الرغم من أن قائد الحامية البيزنطي أراد الدفاع عن المدينة ، إلا أنه أدرك عدم وصول الدعم والمعونة من الخارج ، ومن جهة أخرى حرص السلطان أورخان على

⁽¹⁾ محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص122 . أميرة مداح : مرجع سابق ، ص17 .

⁽²⁾ عبدالقادر ده ده أوغلي : مصدر سابق ، ج35 .

⁽³⁾ بابنجر : مادة أورخان ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج3 ، ص127 .

دخول المدينة بدون إراقة الدماء ، فبعث قائد كوسة ميخال سفيراً إلى قائد بروسة البيزنطي ليطلب منه تسليم المدينة ، فاضطرر الأخير إلى تسليم المدينة على شرط أن لا يلحق به وبأسرته أي ضرر ، فدخل أورخان إلى المدينة مع عسكره ، وتم بذلك فتح هذه القلعة البيزنطية المهمة بشكل سلمي عام 727هـ/1326م ، دون سفك للدماء .⁽¹⁾

وأرسل القائد البيزنطي مع أسرته إلى جمانك⁽²⁾ بموجب الاتفاق بينهم ، ثم سافر منها إلى القسطنطينية عن طريق البحر ، وبعد خروج رجال الإدارة البيزنطية من المدينة حسب شروط التسلیم ، دخل المدينة أولًا المؤذن الشيخ أخي حسين بن شمس الدين وبدأ بإقامة الأذان ، ثم دخل السلطان أورخان وحاشيته ببروسة حيث قاموا بأداء أول صلاة للجمعة في أحد الأديرة التي تحولت إلى مسجد⁽³⁾.

ومن أهم النتائج لفتح بروسة هو رفض أهاليها النصارى مغادرة المدينة ورغبتهم في البقاء تحت الإدارة العثمانية ، لأنهم وجدوا أن الشعب العثماني يعيش في رفاهية وسعادة ، ولذلك لم يذهبوا إلى بلاد البيزنطيين الذين ينتسبون إلى نفس دينهم وقوميتهم ، ويدل هذا على المعاملة الإنسانية والتسامح الديني والعدالة والأخلاق الرفيعة للعثمانيين تجاه سكان قلعة مفتوحة حديثاً ، ولم يقتصر هذا التسامح على النصارى فحسب ، بل شمل جميع أهل الذمة ، حيث سمح لليهود أيضاً بإقامة حارة ومعبد خاص لهم في بروسة⁽⁴⁾ ، وقد أصدر السلطان أورخان أوامره للجنود بعدم إلحاق الأذى بسكان المدينة والحفاظ على أموالهم . وفي الوقت الذي رحل فيه قائد بروسة البيزنطي إلى القسطنطينية ، بقي قائد أورتوس في بروسة ودخل في خدمة الدولة العثمانية بعد إعلان إسلامه⁽⁵⁾.

وانطلق مركز الإمارة العثمانية إلى بروسة عقب فتحها ، حيث شيدت فيها المباني الدينية والاجتماعية ، واكتسبت المدينة هوية إسلامية خلال فترة قصيرة جدًا ، ثم قام السلطان أورخان بنقل جثمان والده السلطان عثمان إلى بروسة تتفيداً على لوصيته .

⁽¹⁾ Asikpasazade , Tarih , S . 29- 31 .

⁽²⁾ جمانك Djemenik : بلدة في تركية الأسيوية " الأناضول تابعة للواء قيصرية . س . موستراس : مرجع سابق ، ص 234 .

⁽³⁾ Nesri , Tarih , I . , S . 132 – 133 .

⁽⁴⁾ هدى درويش : العلاقات اليهودية التركية ، ج 1 ، ص 161 .

⁽⁵⁾ Nesri , Tarih , I . , 133 – 135 .

لقد أدى فتح بروسة إلى تصاعد قوة العثمانيين بحيث قطعوا الارتباط الشكلي بالإدارة في الأناضول وانفصلوا عنها بشكل تام ، إذ بدأت الإمارة العثمانية في السنوات الأولى من حكم أورخان تتحول تدريجياً من إمارة إلى دولة .

وفي الفترة التي فتحت فيها بروسة عام 727هـ / 1326م تمكن القائد قونور ألب من فتح القلاع المحيطة بها ، كما استطاع القائد آفجا قوجا إلحاقي قلعة قاندرا إلى الأراضي العثمانية .⁽¹⁾

ثم تقدم القائدان قونور ألب وعبدالرحمن غازي نحو صماندرا وأنقذوها من البيزنطيين ، وبعد ذلك تقدما نحو قلعة آيدوس⁽²⁾ حيث قاما بإلحاقة إلى الإدارة العثمانية ، وقد غنم الجيش العثماني غنائم جمة وحصل على عدد من الأسرى أثناء فتح آيدوس ، وكانت ابنة القائد البيزنطي من بين الأسرى ، فقام السلطان أورخان بتزويجها من القائد عبد الرحمن غازي ، ونتج عن هذا الزواج قرا عبد الرحمن الذي اشتهر فيما بعد بشجاعته وجرأته .

ثم فتح القسم الجنوبي من خليج إزميد⁽³⁾ المتفرع من بحر مرمرة ، وأصبح العثمانيون حاكاماً على سواحل بحر مرمرة ، إذ أصبحت كل القلاع البيزنطية تحت إمرتهم فيما عدا إزميد وإزنيق .⁽⁴⁾

رابعاً : صياغة أحداث متداخلة عن فتوحاته دون الالتزام بالترتيب الزمني ؛ وإنما ذلك لتشويش ذهن القارئ حتى يخرج غير مدرك لحقيقة الأحداث .

كما تحدثت المادة عن فتح مدن كثيرة دون توضيح - مطلقاً - لخط سير الفتوحات بشكل جيد .⁽⁵⁾

⁽¹⁾ Hoca Sadedin Efendi . Tacu t Tacu t , I .. Istanbul 1279 , S. 44- 47 .

إسماعيل سر هنك : حقائق الأخبار في أعلى البحر ، ج 1 ، ص 489 .

⁽²⁾ آيدوس : Aldos : مدينة في تركية الأوروبية ، في منطقة تراقيا ، في ولاية أدرنه . س . موستراس : مرجع سابق ، ص 127 .

⁽³⁾ Izmid – Kieurfuzi : خليج إزميد يقع في جانب الشرقي من بحر مرمرة . س . موستراس ، مرجع سابق ، ص 52 .

⁽⁴⁾ Solakzade Mehmed Hemdemi , Celebi , Solakzade Tarihi , I .. Ankara 1989 , S . 24 – 26 .

⁽⁵⁾ بابنجر : مادة أورخان ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 3 ، ص 127 ، 128 .

لقد ذكرت المادة فتوحات أورخان بشكل متداخل تماماً ، ورغم صحة وقوعها - كما ذكر بابنجر - لكنها كانت أكثر وضوحاً في المصادر العثمانية من معلومات المادة ، ولم يسر على الخط الزمني للفتوحات بشكل صحيح .

لكن مما يذكر لبابنجر أنه ردد دائماً في مادته أن أغلب فتوحاته تمت دون قتال ، وذلك يرجع لسبب واحد وهو تسامح أورخان مع غير المسلمين وحسن معاملته لأهالي البلاد الأصليين ، فترقبوا فتحه .⁽¹⁾

عقب الفتوحات الواسعة بدأ السلطان أورخان في السير نحو إزنيق التي كانت تعد من أهم المدن البيزنطية بعد القسطنطينية ، وقد حوصلت هذه المدينة منذ زمن السلطان عثمان سنة 702هـ / 1302م ، ولكن القوات العثمانية اضطرت إلى الانسحاب وفك الحصار إثر الدعم العسكري القادم من بيزنطة ، واكتفى الحصار بتشييد قلعة بالقرب منها لقطع المعونة الخارجية إليها كما حدث عند فتح بروسة ، ويمكن القول أن فتح العثمانيين لإزنيق التي تعد من أهم المراكز الكائنة في حوض بحر مرمرة يعني خروج هذا المركز المهم من حوزة البيزنطيين ، ولذلك فقد أدى سير السلطان أورخان صوب إزنيق إلى قلق ومخاوف الإمبراطور البيزنطي أندروني코س الثالث ، فقام بتجهيز جيش ضخم لإنقاذ إزنيق التي كانت محاصرة منذ فترة طويلة ، ولاسترداد القلاع التي وقعت في حوزة العثمانيين ، وعندما علم السلطان أورخان بتحرك الإمبراطور البيزنطي ، تحرك هو الآخر لمواجهة الجيش البيزنطي ، فتقابل الجيشان في موقع بيله كانون بين داريجة واسكي حصار ، وفي هذه المعركة الحاسمة انتصر العثمانيين وانهزم الجيش البيزنطي وفرّ الإمبراطور⁽²⁾ الذي جُرح أثناء المعركة إلى معسكره ، ثم التجأ إلى القسطنطينية وكان ذلك عام 730هـ / 1329م ، وبعد هذا الانتصار الحاسم الذي أحرزه السلطان أورخان على الجيش البيزنطي في هذه المعركة عاد مع جيشه مرة أخرى على مشارف إزنيق ، حيث اضطر قائد إزنيق البيزنطي تسليم المدينة بعد أن قُطع أمله في الحصول على الدعم الخارجي ، على شرط الأمان لنفسه وأسرته والسماح لمن يرغب من الأهالي بمغادرة المدينة .

وقد طُبقت سياسة التسامح الديني والرعاية تجاه أهالي إزنيق مثلما طبقت عند فتح بروسة ، حتى إن السلطان أورخان سمح للذين غادروا المدينة إلى القسطنطينية بأن يأخذوا

⁽¹⁾ بابنجر : مادة أورخان ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 3 ، ص 128 .

⁽²⁾ Hoca Sadedin Efendi , Tacu t Tevrih , 1 .. , Istanbul 1279 , S . 43 .

معهم أمتعتهم وحاجياتهم ، كما وافق على أن يقوم الأهالي الذين لم يتركوا المدينة ببطقوسهم الدينية وعاداتهم الاجتماعية ⁽¹⁾ ، وقد غادر القائد البيزنطي إزنيق إلى القسطنطينية عن طريق البحر مع عدد ضئيل من الأهالي ، إذ بقي معظمهم تحت الحكم و الرعاية العثمانية .
⁽²⁾

وقد بدأت الحركة المعمارية تسود المدينة إذ شيدت مدرسة على أنقاض دير مهجور في المدينة ، وعين عليها الشيخ داود القيصري ، هذا بالإضافة إلى حركة إسكان وإعمار مكثفة في المدينة ، فأصبحت خلال فترة قصيرة مدينة عثمانية تركية إسلامية غنية ، وصارت من أرحب مدن الدولة العثمانية وأكثرها رخاء بعد أن مر عليها عصر عانت فيه الشدة والضيق ، كما اشتهرت بأنها مركز العلوم العقلية الإسلامية . لقد أقام السلطان أورخان وزوجته نيلوفر خاتون معظم حياتهما في مدينة إزنيق ، وقد استقبل أورخان غازي في هذه المدينة الرحالة الشهير ابن بطوطة ، وقادت نيلوفر خاتون بتشييد دار لاطعام الفقراء والمساكين " دار المرق " فيها . ولا شك أن فتح إزنيق من قبل السلطان أورخان يعد من الأحداث المهمة في التاريخ العثماني ؛ حيث استخدمت كقاعدة دفاع ضد البيزنطيين ، ولهذا اهتم السلطان بإعمارها وإسكانها اهتماماً كبيراً .
⁽³⁾

أما عن إزميد فقد كانت مركزاً تجارياً مهماً تابعاً للإدارة البيزنطية ، ولذلك كانت موضع اهتمام السلطان أورخان الذي أرسل قائديه آفجا قوجا وقونور الب لفتحها، فقام القائدان أولًا بفتح شبه جزيرة قوجا ايلي وضم القرى والقلاع المجاورة حتى وصل إلى مشارف قلعة إزميد. وقام آفجا قوجا بفتح المنطقة المعروفة اليوم باسمه ، ثم توجه صوب إزميد وحاصرها، ولكن لم يتحقق فتح المدينة نظراً لوفاة هذا القائد عام 729هـ / 1328م ، مما اضطر الجيش العثماني إلى التراجع فدخلت الأماكن الواقعة بجوار إزميد مرة أخرى تحت الحكم البيزنطي ، ولكن قام الجيش العثماني بحصار إزميد ثانية بقيادة السلطان أورخان نفسه مما حدا بالإمبراطور البيزنطي أندونيقوس الثالث بالتوجه مع جيشه لحماية المدينة ، فأمر السلطان أورخان بفك الحصار والتفاوض مع الإمبراطور البيزنطي سنة 734هـ / 1333م ، ويعد هذا التفاوض أول معايدة دبلوماسية بين السلطان أورخان والإمبراطور

⁽¹⁾ هدى درويش ، العلاقات اليهودية التركية ، ج 1 ، ص 161 .

⁽²⁾ عبد الرحمن شرف : مصدر سابق ، ص 70 . Tarih , 1 .. S . 158 – 159 . Nesri . نظر الخريطة في الملحق .

⁽³⁾ Ibn Batuta Seyahatnamesi , I .. Istanbul 1291 , S . 341 – 347 .

Ibn Kemal , Tevarih – i Al – i Osman , Millet Kutup . Ali Emiri , No . 26 , Varak 23 a – 24 b .

أندرونيقوس الثالث ، وبموجبه رضي البيزنطيون بدفع (120.000) مائة وعشرون ألف ذهباً سنوياً إلى العثمانيين مقابل تخليلهم عن دخول إزميد .

وفي هذه الأثناء قام سكان بعض المناطق الواقعة بجوار إزميد بالاستسلام للعثمانيين طوعاً بعدما وجدوا المعاملة الحسنة والتسامح الديني من السلطان أورخان وابنه سليمان باشا تجاههم . وتم كذلك فتح جمليك التي كانت مستودعاً للعتاد والمؤن في السنة نفسها أي في 734 هـ / 1334 م .⁽¹⁾

لقد كانت بيزنطة تريد إبادة الدولة العثمانية من حيز الوجود في كل فرصة مواتية لذلك قبلت دفع المال مقابل خروج العثمانيين من المنطقة ، لكن قام العثمانيون بحصار إزميد للمرة الثالثة عام 738 هـ / 1337 م ، مما أدى إلى قيام حامي القلعة يوانيس الذي ينسب إلى أسرة باللاغوس البيزنطية بالتنازل عن إدارة المدينة إلى أخته الأميرة ماريكا ، والهروب إلى قلعة قويون الواقعة قرب إزميد .

وفي الوقت الذي واصل السلطان أورخان وعساكره حصار إزميد ، قامت فرقه مسلحة بقيادة آيقوت ألب وقرا علي بيك بالاستيلاء على قلعة قويون ، وقد لقي القائد البيزنطي حتفه في المعركة التي دارت بين الطرفين ، فاضطررت الأميرة ماريكا إلى تسليم المدينة إلى السلطان أورخان سنة 738 هـ / 1337 م بشرط إطلاق سراحها والسماح لها بالرحيل إلى القسطنطينية ، وقد وافق السلطان على ذلك ، فرحلت مع حاشيتها ، ولم يتعرض الجنود العثمانيون إلى الأهالي أو حتى أموالهم ، بل سمحوا لهم بمواصلة حياتهم تحت الإدارة العثمانية وبأداء شعائرهم الدينية كما هو الحال في بروسة وإزنيق ، ثم عاد السلطان أورخان إلى بروسة بعد أن عين ابنه سليمان باشا على إدارة إزميد والمناطق المجاورة .⁽²⁾

لقد دخلت جميع أرجاء شبه جزيرة قوجا ايلي في حوزة العثمانيين عقب فتح مدينة إزميد ، إذ بقيت في يد البيزنطيين سواحل البحر الأسود المتدة . وكانت هذه المناطق تقع على مسافات طويلة وبعيدة في نقاط متفرقة ، فلم تشكل خطراً على العثمانيين ، ويمكن القول بأن الدولة العثمانية أصبحت أقوى دولة بين الإمارات التركية في غرب الأناضول وذلك بفضل الله ثم بفتحهم بروسة وإزنيق وإزميد .

⁽¹⁾ Omer Faruk Yilmaz Belgelerle Osmanli Tarihi , 1 .., Istanbul 1999 , S . 55 .

⁽²⁾ Asikpasazade , Tarih , S.43 – 44 ; Nesri , Tarih , 1 .., S . 164 .

خامساً : تصوير فتح إمارة قرة سى على أنه تلبية لاستجاد الأخ الأصغر بالسلطان أورخان ليعينه على الأخ الأكبر دون ذكر الملابسات مطلقاً . فقال :

" وأول ما فتح من الأناضول هي بلاد قرة سى ... وكانت وراثة الملك فيها سبباً في أن قام سنة 736هـ / 1335م نزاع بين الأخوين ، كان أصغرهما طورسون يعيش في قصر أورخان فطلب منه أن يعينه على أخيه الأكبر ، فغزا أورخان قره سى بعد أن أخذ مواثيق معينة ".⁽¹⁾

وحقيقة الأمر أن القوات العثمانية وصلت فتوحاتها صوب القسطنطينية بعد فتح إزميد مباشرة حتى سنة 743هـ / 1342م ، وكان الأهالي القادمين من شرق الأناضول يسكنون في الأقاليم المفتوحة . لينعموا بالأمن والاستقرار ، وقد رأى أورخان أنه من الضروري أن تجتمع جميع الإمارات التركية تحت إدارة واحدة ، وطبعاً كانت الدولة العثمانية هي الأنسب لذلك نظراً لأنها دولة إسلامية سنية ، والأقوى في المنطقة ، فأخذ أورخان يتسع بجيشه حتى استطاع أن يفتح قلعة أولوباد⁽²⁾ ثم القلعة التي بقربها قيرماستي ميخاليج⁽³⁾ التابعة لبيزنطة ، وهكذا أصبحت الدولة العثمانية جارة لإمارة قره سى ، وقد كان حاكمها عجلان بك على صلة طيبة بالعثمانيين واتبع سياسة الود والتقارب معهم ، حتى إنه أرسل ابنه طورسون إلى عثمان بن أرطغرل ليشارك معه في الغزوات والفتوحات ، ثم توفي عجلان بك حاكم إمارة أثناء الفتوحات عام 736هـ / 1335م ، وبدأ النزاع بين ابنائه لوراثة العرش ، فتولى بعده ابنه دمورخان الذي كان ظالماً قاسياً اشتد في الحكم على الأهالي ، واتبع سياسة مغايرة لأبيه ، مما دعا قومه إلى طلب المساعدة من أورخان ، وأن يولي عليهم ابن الثاني طورسون الذي كان قد لجا للعثمانيين ، فتوجه أورخان عام 737هـ / 1336م إلى إمارة قره سى بناء على طلب أهلها وليس للتدخل في نزاع داخلي ، ولم يأخذ أي مواثيق من طورسون ، وإنما اصطحبه معه ليتولى الحكم بعد الفتح ، لكن شاءت إرادة

⁽¹⁾ بابنجر : مادة أورخان ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 3 ، ص 128 .

⁽²⁾ أولوباد : Ouloubad : مدينة في تركية الآسيوية ، تقع على نهر يحمل الاسم نفسه . تطل على الضفة الشمالية لبحيرة أبو ليونت شرق مدينة قرقباي حالياً . س . موستراس : مرجع سابق ، ص 123 .

⁽³⁾ ميخاليج : Muhalidi : مدينة في تركية الآسيوية ، وهي اليوم مدينة قرة كابي ، تقع غرب بحيرة أبو ليونت . س . موستراس : مرجع سابق ، ص 474 .

الله أن يتوجه طورسون لأخيه دمورخان في القلعة المنيعة "برغمة" (٤) التي تحصن فيها ، يطلب الصلح ، فرمأه أخوه بسهم وقتلـه ، فحاصر العثمانيون القلعة حتى اضطرت إلى التسلـيم ، وأرسل دمورخان إلى بروسـة حيث مكـث هناك إلى أن توفي بعد سنتـين من الفتح ، وألحقـت هذه الأراضـي بالدولـة العثمانـية ، وقام أورخـان بتعيين ابنـه سليمـان باشا علـيـها ، ثم توـالـى انضـمام العـديـد من أمرـاء قـرة سـي إلى الدولـة العـثمانـية ، أمـثال إيجـه خـليل والـحاج إـليـك وغـازـي فـاضـل بـيك الذين قـدمـوا خـدمـات جـليلـة للدولـة العـثمانـية . (١)

وهكذا يتضح لنا أن المحرك الرئيس للسلطان أورخان ليضم هذه الإمارة هو مساعدة الأهالي الذين استجدوا به لينعموا بالتسامح والأمن والاستقرار . والدليل أنهم لم يقاوموا أبداً وإنما دخلت دون إراقة دماء وهذه سمة أورخان ، التي حاول بانجر طمسها بشتى الطرق .
سادساً : بدأت المادة في الحديث عن علاقة أورخان بالبيزنطيين وكيف كانت تتأرجح بين السلم وال الحرب . فقال :

"أنه لم يكن الباعث على هذه الغزوات فكرة ترمي إلى تأسيس إمبراطورية عثمانية على الجانب الغربي للدرنيل ... ولكن نشأت بمرور الزمن من هذه الغزوات العارضة حملات منظمة على يد دوليات الأناضول".⁽²⁾

خاض بابنجر في مسألة العلاقة بين العثمانيين والبيزنطيين وشرح ذلك من منظور خاص به ، لكن المسألة أعمق من ذلك بكثير ، حيث فتوحات الدولة العثمانية التي نظم لها أورخان وليس دوiyات الأناضول ، وكان الбаृث الحقيقی وراء تلك الفتوحات هو نشر الإسلام في المناطق المحيطة بأورخان ، هذا الباृث الذي زاده قوة وجعله يوسع حدود مملكته، بالإضافة - كما سبق ورأينا - إلى أن المناطق كانت تتتسابق لتنضم إلى رعاية الدولة العثمانية حتى تنعم بالاستقرار والأمن بعدما سئمت حياة الذل والصراعات ، وكانت حتمية الفتوحات العثمانية تتجه نحو القسطنطينية.

⁽⁴⁾ برغمة : Berghama : مدينة تركية أسيوية أسسها البيزنطيين من لواء قرة سي ، على نهر باقر جابي . بلد جميلة وبها آثار كثيرة . س . موستراس : مرجع سابق ، ص 153 .

⁽¹⁾ Hola Sadedin Efendi : Tacut Tevrin , I . Istanbul , 7279 , S . 47 – 57 .

صحي عبد المنعم ، عبد الحميد سليمان : دراسات في تاريخ الدولة العثمانية ، ط 1 ، الرياض : الرشد ناشرون ، 1425هـ/2004م ، ص 33 ، 34 .

⁽²⁾ فرنس بابنجر : مادة أورخان ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 3 ، ص 128 .

إن دخول المناطق التابعة لإمارة قرة سي تحت الحكم العثماني كان مهمًا جدًا بقدر بفتح المناطق البيزنطية ؛ لأن ذلك يعني بأن العثمانيين أصبحوا حكامًا على جميع سواحل بحر مرمرة ، بالإضافة إلى السواحل الشمالية من بحر إيجه .

وهذا يعني - أيضًا - بأن العثمانيين بدأوا يستقدون من تجارب هذه الإمارة في فن الملاحة ، إذ بدأوا بالتحرك صوب روميلي عن طريق البحر ، وقد كان لإمراء قارة سي دور مهم في تقوية الخط الهجومي للجيش العثماني وفي فتح روميلي بصفة خاصة .

وقد ساعدت النزاعات الداخلية التي نشبت بين الأمراء البيزنطيين حول عرش الدولة البيزنطية على نجاح العثمانيين في تكثيف غاراتهم على منطقة الرومي وليس فتحها بالكامل. وفي الحقيقة أن منطقة الرومي لم تكن مكانًا غريبًا عن السلطان أورخان الذي كان قد قام بغارات عديدة على سواحل تراقيا منذ زمن والده السلطان عثمان ، ويعود الهجوم الذي تم على سواحل تراقيا الشرقية عقب فتح مودانيا أول تحرك عثماني نحو منطقة الرومي ، والحقيقة أن الحملة التي أرسلها السلطان أورخان عام 748هـ / 1347م كانت قوة عسكرية تركية منظمة ، وهي تعد قوة عثمانية كبيرة تدخل لأول مرة في التاريخ العثماني شرق أوروبا ، وكان الهدف الحقيقي للسلطان من هذا الدعم العسكري هو التعرف على بلاد أوروبا وأجوائها وطبيعتها لأجل القيام بنشر الإسلام فيها فيما بعد ، (١) حيث قامت باستطلاعات أولية في المنطقة .

وتقسيل ذلك أنه بعد وفاة الإمبراطور أندرونيقوس الثاني عام 746هـ / 1345م اعتلى العرش ابنه يوانيس الخامس الذي كان في الخامسة من العمر ، وعيّن ناظر البلاط البيزنطي كانتاكوزينوس وصيًّا عليه ، وبعد فترة وجيزة قام الوصي كانتاكوزينوس بإعلان نفسه إمبراطورًا في ديماطوقا ، ولكن أهالي القسطنطينية وأدرنه لم يعترفوا به ، وقاموا بطلب النجدة من الملك البلغاري الكسندر ، وفي المقابل حاول الإمبراطور كانتاكوزينوس تأمين الدعم العسكري من ملك الصرب ستيفان دوشان بعد أن وعده بمنحه مقدونيا ، ولكن لم يتحقق بينهما التعاون المنشود ، فاضطر كانتاكوزينوس هذه المرة إلى طلب المساعدة من أمير الأمارة الآيدينية أوموربيك الذي أمد بقواته عسكرية لمرات عديدة ، ولكن بعد وصول الأسطول الصليبي إلى أزمير واستيلائه على المدينة عام 647هـ / 1346م بقي

(١) أميرة مراح : مرجع سابق ، ص 27 . عبد اللطيف بن دهيش : مرجع سابق ، ص 30 .
Omer Farak Yilmaz , Belgeerle osmanli Tarini , 2 . baski , Istanbul 1999 , Safha 8-10 .

كانتاكوزينوس وحيداً في مواجهة الخطر الصليبي ، وأم الإمبراطور المخلوع ، وانقطعت الإمدادات العسكرية القادمة من أوموريبيك ، فاضطر أن يلجاً هذه المرة إلى طلب العون من السلطان أورخان متعهداً له بتزويج ابنته تيودورا منه ، فقام أورخان الذي كان ينتهز الفرص للعبور إلى منطقة الرومي بتبليه هذا الطلب بإرسال قوة عسكرية قوامها (6-5) ألف مقاتل لدعم كانتاكوزينوس ضد الملكة آننا أم الإمبراطور الصغير يوانيس الخامس ، وكانت النتيجة أن استطاع كانتاكوزينوس الاستيلاء على مدينة أدرنة سنة 747هـ / 1346م بفضل هذه القوة العسكرية التركية ، وأعلن نفسه إمبراطوراً ولبس تاج الإمبراطورية ،⁽¹⁾ ثم قام بالوفاء بوعده ، فأرسل ابنته تيودورا إلى السلطان أورخان ، حيث قام الوفد التركي الرسمي الذي أرسل من قبل أورخان باستقبال العروس في سيليوري⁽²⁾ وتسليمها من الوفد البيزنطي ضمن ولائم واحتفالات رسمية ، فما لبثت ما لبثت أن أعلنت إسلامها ، وكانت الأثيرة إلى نفس السلطان أورخان .⁽³⁾

ثم دخل كانتاكوزينوس القسطنطينية من العام نفسه وذلك بدعم من السلطان أورخان أيضاً ، واعترف بالحكم شراكة مع الإمبراطور الصغير يوانيس الخامس ، وقد تقدم السلطان أورخان في تلك الأثناء ، ووصل اسكتار التي تقع على الشاطئ الآسيوي من إسطانبول عام 748هـ / 1347م ، والتقى مع كانتاكوزينوس الذي طلب منه هذه المرة دعماً ضد الصرب. ويتبين أن هذه المساعدات العسكرية أعطت فكرة كبيرة للقادة العثمانيين عن طبيعة المنطقة ومدى قوتها لإعداد الخطط من أجل نشر الإسلام في أوروبا .⁽⁴⁾

ونلاحظ بعد هذا التاريخ بأن الإمبراطور كانتاكوزينوس بدأ يحيك مؤامرة أخرى ، بحيث يعمل ضد العثمانيين تارة ، ويطلب منهم العون كلما وقع في الضيق تارة أخرى . وعلى سبيل المثال لا الحصر ، تمكن الإمبراطور من إنقاذ سالونيك من الحصار الذي قام به ملك الصرب ستيفان دوشان عام 750هـ / 1349م بفضل القوة العسكرية التركية بقيادة سليمان باشا ابن السلطان أورخان . ومن جهة أخرى قام الإمبراطور نفسه بتحريض بابا

⁽¹⁾ إسماعيل سر هناك : حقائق الأخبار في أعلى البحار ، ج 1 ، ص 490 . يوسف التقفي : مرجع سابق ، 16 ، 17 .

⁽²⁾ سيليوري : Siliwri ، مدينة وميناء في تركية الأوروبية ، على بحر مرمرة ، في ولاية أدرنة ، س . موستراس : مرجع سابق ، ص 304 .

⁽³⁾ M . Gagatay ulugay : Padis Ahlarin Kadinlari VE Kizlari , Ankara : Turk Trih kupumu Yarinlari, 1980 , S . 314 .

⁽⁴⁾ عبدالرحمن شرف : مصدر سابق ، ص 73 أميرة مدام : مرجع سابق ، ص 18 . صبحي عبد المنعم ، عبد الحميد سليمان : مرجع سابق ، ص 34 .

الفاتيكان لتجهيز حملة صليبية ضد العثمانيين ، وعندما شعر السلطان أورخان بخيانته كانتاكوزينوس بدأ في التعاون مع أعداء البنادقة حلبة الدولة البيزنطية ، فتمكن بهذه الطريقة من التحكم بالمناطق المجاورة للقسطنطينية عام 753هـ / 1352م واقترب بذلك من قلب العاصمة البيزنطية .

وبعد فترة وجيزة بدأ الصراع مرة أخرى بين كانتاكوزينوس وشريكه في الحكم يوانيس الخامس الذي استعان بالبلغار والصرب ، فقام كانتاكوزينوس بطلب العون من سليمان باشا ، وو عده بأن يمنحه قلعة في شبه جزيرة غاليبولي ، فقام سليمان باشا بالعبور مجدداً إلى الرومي، وانتصر على الجيش البلغاري والصربي في موقعة ديموتينا ، وأنفذ أدرنه والأمير مثوس ابن الإمبراطور كانتاكوزينوس الذي كان محاصراً في أدرنه ، ولكن كانتاكوزينوس بدأ كعادته القديمة في التفكير لطرد الأتراك من منطقة الرومي وشبه جزيرة غاليبولي فحاول التحالف مع الصرب والبلغار بحجة الدفاع عن البلقان ضد الأتراك ، فلم يؤد هذا التحالف إلى نتيجة إيجابية لأن كانتاكوزينوس كان منبوذاً من قبل الأهالي لقيامه بتسليم البلاد إلى الأجانب البلغار والصرب ، ثم حاول التفاهم مع الإمبراطور يوانيس الخامس ، ولكن دون جدو ، وأخيراً أُطيح به وأُبعد عن العرش سنة 755هـ / 1354م إثر الثورة التي قام بها مؤيدو الإمبراطور يوانيس الخامس ، وبهذا صار الإمبراطور يوانيس الخامس الحاكم الوحيد على بيزنطة ، ولكنه لم يكن من القوة التي يستطيع بها إخراج الأتراك من الرومي ، فاضطر أن يقيم علاقات طيبة مع السلطان أورخان .

وبفضل الغارات السابقة استطاعت القوات التركية ضم سواحل بحر مرمرة حتى أطراف غاليبولي ، وبعد أن علم الحامي البيزنطي في غاليبولي بسقوط هذه المناطق على يد العثمانيين تخلى عن دفاعه عن المدينة وسلمها إلى الأتراك سنة 757هـ / 1356م حيث غادرها مع أسرته إلى القسطنطينية على متن باخرة .

وفي الوقت الذي دخلت فيه غاليبولي وضواحيها تحت السيادة العثمانية دون حرب وباستسلام حاكمها ، كانت دول البلقان في صراع دائم فيما بينها ، إضافة إلى الفوضى التي سادت بيزنطة ، مما شكل عائقاً أمام تشكيل حلف مشترك ضد العثمانيين ، وبذلك دخلت أول مدينة أوروبية في حوزة الدولة العثمانية وتمكن العثمانيون من نقل فتوحاتهم الإسلامية إلى قارة أوروبا عقر دار المسيحية .

لقد قام العثمانيون بمعاملة سكان غالبيولي والروملي والمناطق الأخرى معاملة حسنة وطيبة ، ومن جهة أخرى وطن أورخان العنصر التركي المسلم القادم من الأناضول في المنطقة ، بحيث أصبحت المنطقة بممرور الزمن تزخر بالعادات والتقاليد التركية الإسلامية (1).

ومن الصورة السابقة يمكن دحض ورد مقوله كرامز في مادة الترك أن "أسباب نجاح حملات السلطان أورخان ترجع للتحالف بينه وبين كاناكوزينوس" (2) ؛ إذ إن كاناكوزينوس كان دائم الغدر بالسلطان أورخان ونافقاً للعهد ، ولم يثبت على سياسة التحالف.

أما عن أنقرة فقد كانت مركزاً مهماً في الأناضول تابعاً إلى أبناء أرتانا ، ولكن الصراع الذي نشب بين أولاد أرتانا يك عقب وفاة الأخير عام 753هـ / 1352م أدى إلى ضعف مقاومة المدينة مما شجع السلطان أورخان على فتحها ، فأرسل ابنه سليمان باشا لفتحها، فتحرك سليمان بجيشه من بروسة وضم في طريقه كل المناطق المجاورة لأنقرة ، ثم وصل إلى أنقرة ففتحها بدون مقاومة تذكر سنة 755هـ / 1354م نظراً لرغبة السلطان بالحكم العثماني ، وبهذا دخلت المنطقة الواقعة من صقاريا وحتى نهر قيزيل إرماق تحت السيادة العثمانية . (4)

وبعد فتح شبه جزيرة غالبيولي واصل العثمانيون تقدمهم إلى داخل منطقة ترافيا عن طريق ثلاث قوات عسكرية ، حيث تحركت كل قوة في اتجاه ، وفي فترة قصيرة دخل الشريط الساحلي تحت الحكم العثماني ، فقطع بذلك الطريق بين أدرنة والقسطنطينية . وفي الوقت الذي واصل فيه سليمان باشا فتوحاته في اتجاه أدرنة سنة 758هـ / 1357م عبر فيه أخوه مراد بيك الذي أصبح قائداً على الجناح الأيمن للجيش العثماني إلى منطقة الرومي

(1) Asikpasazade , Tarih , S . 48 – 50 ; Nesri , Tarih , 1 . , S . 180 – 182 .

G.Ostrogorsky : Bizans Devleti Tarihi , (Trc . F . Isiltan) , Ankara , 1981 , s , 479 .

عبدالرحمن شرف : مصدر سابق ، ص 73 ، 74 .

(2) كرامز : مادة الترك ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 5 ، ص 169 .

(3) أنقرة : Ankara . مدينة في تركية الأسيوية ، بها آثار يونانية ورومانية جميلة ، تعاقب على حكمها الرومان والفرس والعرب والسلجقة ، ثم الفرنجة الذين جاءوا مع الحملة الصليبية الأولى ، وقد خسر أمام أسوارها السلطان بايزيد يلدريم موقعته المشهورة ضد تيمور لنك ووقع في الأسر . س . موستراس : مرجع سابق ، ص 115 – 116 .

(4) Enveri , Dusturname , Mukrimin Halil nesri , Istanbul 1929 , TTE kulliyatindan , Evkaf Matbaasi . S. 82 . H . iakik : Edirnenin Fethi 1361 , Edirne 600 . Fethi Yildoumu Armagan Kitabi , Ankara , 1965 , 1965 , S . 137 – 159 . انظر الخريطة في الملحق .

وتقىم صوب سفوح استرانجا ، وفتح قلعة بيريفاتوس ، وفتح جورلو⁽¹⁾ بعد معركة دامية سنة 759هـ / 1358م ، وفي هذه الأثناء قام سليمان باشا بفتح خيره بولي⁽²⁾ ، وكان الجيش العثماني يهدف بهذه الفتوحات ضد المخاطر القادمة من بيزنطة وأوروبا وواصلت القوات العثمانية فتوحاتها إلى ديموتوكا وأدرنة ، حيث تمكّن مراد بيك والجاج إلبي بفتح لوله بورغاز⁽³⁾ ، وهنا بدأ سليمان باشا بجمع شمل قواته وإعداد العدة لفتح أدرنة ، ولكنّه وقع من صهوة جواده خلال قيامه برحلة صيد ، واصطدم ببعض الأشجار أثناء جريه مما أدى إلى وفاته عام 760هـ / 1359م ، ونقل جثمانه إلى بولايير ودفن في الضريح الكائن بجوار المسجد الذي شيده في حياته .⁽⁴⁾

كان الموت المفاجئ لفاتح الروملي سليمان باشا سبباً في توقف الفتوحات العثمانية في المنطقة ، وقد تأثر السلطان أورخان كثيراً بوفاة ابنه سليمان باشا فقام بإسناد ولاية العهد لابنه الآخر مراد بيك الذي كان قائداً على القوات المرابطة في منطقة الروملي .⁽⁵⁾

و قبل وفاة سليمان باشا قام القراسنة القادمين من فوجا⁽⁶⁾ ، بأسير الأمير خليل ابن السلطان أورخان والبالغ من العمر أحد عشر عاماً ، وذلك خلال تجوله على القارب في بحيرة إزنيق ، وقاموا بإرساله إلى فوجا سنة 759هـ / 1357م ، وكانت الدولة البيزنطية تدعى بأحقيتها في حكم هذه المنطقة ، فطلب السلطان أورخان من الإمبراطور البيزنطي يوانيس الخامس إنقاذ ابنه الصغير خليل من أيدي القراسنة ، وعلى الرغم من خوف الإمبراطور البيزنطي من غضب السلطان أورخان إذا لم ينفذ مطلبها ، إلا أنه كان سعيداً بإيانته هذه الوظيفة إليه ، ولكنه في الوقت نفسه اشترط على السلطان مقابل ذلك أن يقوم بمساندته ودعمه ضد مثيوس بن كانتاكوزينوس الذي أعلن التمرد والعصيان ضده ، ثم توجه على رأس أسطوله نحو فوجا ، وأعطى مائة ألف قطعة ذهبية إلى قائد الجنويز في فوجا مقابل إطلاق سراح الأمير العثماني الصغير ، فوافق القائد على ذلك ، وأخذ الإمبراطور

⁽¹⁾ جورلو : مدينة في تركية الأوروبية في ولاية أدرنة . س . موستراس : مرجع سابق ، ص 244 .

⁽²⁾ خيره بولي : kheire bolou : تقع في تركية الأوروبية ، في ولاية أدرنة ، س . موستراس : مرجع سابق ، ص 260 .

⁽³⁾ بورغاز : تقع على ضفاف نهر المريج بقرب أدرنة .

⁽⁴⁾ E.Zachariadou : the conquest ed Adrianople by the Turks , studi veneziani , 1970 , P . 211 – 210 .

ربيع عبد الروّافد الزواوي : مرجع سابق ، ص 22 .

⁽⁵⁾ محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص 127 .

⁽⁶⁾ فوجا : Fotscha ، مدينة تركية أسيوية ، في البوسنة ، تقع على ضفتي نهر تشيوتينا ، عند مصبها في نهر درينا . س - موستراس : مرجع سابق ، ص 378 .

معه إلى القسطنطينية ، وخطب للأمير خليل ابنته البالغة من العمر عشرة أعوام ، وجاء بهما شخصياً إلى إزميد وسلمهما إلى السلطان أورخان ⁽¹⁾ ، وعلى الرغم من أن هذه الحادثة لم تذكر كثيراً في كتب التاريخ ، إلا أن لها أهمية كبيرة في تاريخ علاقة السلطان أورخان بالإمبراطور البيزنطي ، لأنها تثبت مدى خوف الإمبراطور البيزنطي وخشيته من السلطان العثماني ، وتبعيته له منذ ذلك الزمن .

وبعد وفاة سليمان باشا قام السلطان أورخان بإرسال ابنه الشاب مراد بيك إلى المنطقة الغربية التي تعد من أهم مناطق الحدود مع الروملي ، فقام مراد بيك أولاً بزيارة قبر أخيه سليمان باشا ، ثم بدأ بالعمليات العسكرية مع قادته المحنكين للاشاهين باشا والجاج إليبي وأورنوس غازي ، وكان الهدف الرئيس من هذه العمليات العسكرية هو فتح مدينة أدرنه التي كانت تعد المعلم البيزنطي الثاني بعد القسطنطينية ، ولأجل تحقيق هذا الهدف تم فتح قلعة بنتور التي تقع على الطريق أولاً ؛ وذلك لصد المعونة والمساعدات البيزنطية الآتية من القسطنطينية .

وكان من أهم السياسات التي اتبعتها الدولة العثمانية خلال هذه الفتوحات سياسة المعاملة الحسنة والتسامح تجاه أهالي المدن والقرى المفتوحة ، بحيث فتحت قلوبهم إلى الإسلام مما جعلهم يستقبلون الفاتحين بكل قبول وترحيب .

ومن جهة أخرى قام القائد الحاج إليبي بفتح بعض القلاع الصغيرة الواقعة على ضفاف نهر المريج ، ثم توجه صوب قلعة ديموتوفا واستطاع أسر قادتها البيزنطي الذي كان يخطط في الهجوم على الجيش العثماني ليلاً ، وفتح القلعة ، كما تمكن القائد أوره نوس بيك من فتح كشان وأيسبالا قرب أدرنه ، ثم اجتمع هذان القائدان مع مراد بيك بن السلطان أورخان في لولة بورغاز ، وقاموا بالتخطيط لفتح أدرنه التي كانت تعد من أكبر المدن البيزنطية بعد القسطنطينية ، فأرسلوا قوة نحو أدرنه بقيادة القائد للاشاهين باشا لاستكشاف المنطقة ، وبعد أن علم القائد البيزنطي في أدرنه باقتراب العثمانيين من المدينة ، خرج من قلعته وبدأ بالإعدادات الحربية في موقع قريب منها لأجل حماية المدينة . ولكنه فر من ميدان المعركة إثر الهزيمة التي لحقت به وبجيشه ، ولجا إلى داخل المدينة واحتى بها ، فأصر القائد للاشاهين باشا على ملاحقته ، فأقام معسراً أمام أسوار المدينة ، ثم بعث خبر

⁽¹⁾ Iskender Hoci , "Sehzade Halil' in Serguzesti " TOEM , 1/4 , S. 239-252 . 11/7, S. 436-445 .

الانتصار إلى مراد بيك المرابط في لولة بورغاز ، فقام مراد بيك بالسير مع جيشه وقادته صوب أدرنه،⁽¹⁾ إلا أن مشيئة الله لم تأذن بفتح أدرنه إلا في عهد مراد الأول .

إذ توفي أورخان في الوقت نفسه عام 762هـ / 1360م عن عمر يناهز 79 عام ، ودفن في بروسة بجوار ضريح والده السلطان عثمان غازي ، توفي السلطان أورخان بعد أن شهد أول استقرار إسلامي في أوروبا جهة البلقان ، وتوسعت الإمارة العثمانية حتى غدت دولة عثمانية من أنقرة إلى تراقيا ، مخلفاً وراءه دولة تقدر مساحة أراضيها بـ (95000) كيلو متر مربع ، أي ستة أمثال المساحة التي ورثها عن أبيه .⁽²⁾ وقد تحقق الفتوح العثمانية ليس عن طريق القوة أو إراقة الدماء بل كان أغلبها باتباع سياسة الوفاق والسلم والاستمالة حفناً لدماء الأهالي ، وهذا الأمر ساعد على بقاءها، و مما ساعد على ذلك - أيضاً - الصفات التي اتصف بها أورخان نفسه في التعامل مع الأهالي والرعاية وكان من الواجب ذكرها من خلال أقوال المؤرخين .

فاللوا عنه : " كان أورخان غازي شجاعاً مثل والده ومقنعاً ومدبراً ومفكراً ، ولم يكن متعصباً مفرطاً "⁽³⁾

كما قالوا : " أن التسامح الذي أبداه أورخان غازي لأهالي المدينة النصارى أثناء فتح أزنيق والمعاملة الطيبة الحسنة أدى إلى إسعاد الأهالي فلم يتركوا المدينة حيث قرروا البقاء في حماية العثمانيين والعيش معهم بشكل سعيد . وكان أورخان يدرك النتائج المترتبة من المعاملة الطيبة والشفقة الإنسانية تجاه أهالي أزنيق النصارى ، إذ أصبح ذلك عاملاً مهماً في نجاحه في كثير من الإنجازات في المستقبل ، بحيث انتشرت شهرته في كافة البقاع فمهدت الطريق إلى فتوحاته الواسعة ".⁽⁴⁾

وقيل : " لم يكن أورخان متوحشاً ولا فاتلاً ، بل كان عادلاً وشجاعاً ومحارباً ماهراً ، وأنه حكم خمسة وثلاثين عاماً ، وبعد من أكبر سلاطين آل عثمان ، وأن العثمانيين ليسوا

⁽¹⁾ I . Sahin , Y. Holasoglu , F.M.Emecen : Turkish Settle . ments in Rumelia (Bulgaria) in the 15 th and 16 th Centuries , Town and village population , JTC . IV / 2 , 1989 , P . 39 – 42 .

O.L.Bakan : Osmanli imperator lugunda bir islcan ve kolonizasyon metodu olarak vakiflar ve temlikler , istila dewinin kolonizatir Turk Dervisli , vakillar Dergisi , II , 1942 , S , 279 – 386 .

⁽²⁾ Enveri , Dusturname , S. 84 ; Asikpasazade , Tarih , S. 29 – 31 ; Nesri , Tarih , I ., S . 132 – 136 .

عبدالقادر ده ده أوغلو : مرجع سابق ، ص35 .

⁽³⁾ Yorga , Osmanli Tarihi , 1 ., S. 162 .

⁽⁴⁾ De la Croix , Osmanli Takvim – i Tevarihi ., S. 90 – 92 .

ظالمين بالفطرة ، بل إنهم ودودون وحليمون حسب أقوال الرحالة الذين عرفوا العثمانيين وحالطوهم ، ويجب القول بأن العثمانيين هم أفضل الحكام إذا ما قورنوا مع العناصر البيزنطية أو العناصر المنتسبة إلى دول البلقان ، ولو كان أورخان رجلاً مهاجماً وظالماً لوقع قتل الناس وسفك الدماء فلا يمكن في هذه الحالة أن تدوم سلطنته ، إنه لم يكن جباراً ولا طاغياً⁽¹⁾

" وأظهر أورخان تساهلاً وتسامحاً كبيرين مع أهل المدينة المفتوحة الذين استسلموا ، الأمر الذي دفع الكثير من سكانها إلى اعتناق الدين الإسلامي. "⁽²⁾

" وبعد عهد أورخان هو العصر العثماني الذي شهد أول استقرار إسلامي في أوروبا وخاصة في بلاد البلقان ، كما شهد عصر أورخان ظهور نظام عسكري جديد سيلقي الرعب في قلب الشعب الأوروبي لمدة أربعة قرون متالية ، كما شهد ظهور نظام الدولة العثمانية أو الإمارة العثمانية المترامية الأطراف والتي تمتد من أنقرة إلى تراقيا بعد أن ضاعف الأرضي التي ورثها عن والده السلطان عثمان ست مرات ، ويحسب لأورخان بأنه أول من أرسى نظاماً عسكرياً للدولة العثمانية ".⁽³⁾

لقد وصف الرحالة ابن بطوطة عهد السلطان أورخان على النحو الآتي : " كان السلطان أورخان بن عثمان من أكبر سلاطين التركمان من حيث سعة الأرضي والعسكر والأموال ، كانت هنالك حوالي مائة قلعة تحت حكمه ، وكان يقضي معظم أوقاته في التجوال بالمرور على هذه القلاع ، حيث كان يمكث في كل منها فترة ما وينشغل بشؤونها وإتمام نوافصها ومتطلباتها ، على أنه لا يقيم أكثر من شهر واحد في مكان واحد ، كما كان يشارك في الحروب ضد الكفار بشكل متواصل ، إذ كان يحاصر قلاعهم ويفتحها واحدة تلو الأخرى ، فمنا برحلة من بروسة إلى قلعة إزنيق ، حيث تحيط بالقلعة بحيرة إزنيق من أحدى الجهات ، ويعسكر قسمٌ من جيش السلطان في هذه المدينة ، وتعيش في القلعة نيلوفر خاتون ، وهي زوجة السلطان ، وتتصف بالنضوج والدين ، أصبحنا ضيوفاً على الإمام الخواجة الحاج علاء الدين أسكى شهير لي في إزنيق ، الذي يعرف بالسخاء والكمال ، متى ما زرته لا يقبل

⁽¹⁾ Gibbons , Osmanli Imparatorlugu nun kurulusu , S. 40 – 60 .

⁽²⁾ محمد سهل طقوش : مرجع سابق ، ص 31 .

⁽³⁾ عبد المنعم الهاشمي ، مرجع سابق ، ص 42 .

أن أتركه إلا ويحضر الطعام وكان ذا أخلاق طيبة بقدر جمال وجهه ، وبعد وصولنا إلى أذنيق بعدة أيام جاء أورخان غازي لزيارة الخواجة علاء الدين ومسامرته " ⁽¹⁾

لقد كان لسياسة التسامح الديني التي مارستها الدولة العثمانية وطبقها السلاطين العثمانيين في بداية عهدهم وخاصة في عهد أورخان أبرز الأثر في تمهيد الطريق للفتوحات العثمانية ، وفتح المدن والقلاع برغبة من أهلها دون سفك دماء. لقد كانت السمعة الحسنة تطير في الآفاق قبل وقع حوافر الجيوش العثمانية الإسلامية .

ولا شك أن العناية الكبيرة التي بذلها العثمانيون عند تطبيق الشريعة الإسلامية على العناصر غير المسلمة ، جعل جميع المسيحيين ينحون تحت الحكم العثماني ، خاصة بعد أن عاشوا حياة الفقر والذل والاضطراب في ظل الصراع والتاحر بين الطوائف الدينية من ناحية، وبين الاضطرابات السياسية من ناحية أخرى ، مما جعل الهلال العثماني هو الملجأ والمأمن الوحيد لهم .

وقد اتضحت علاقة البيزنطيين مع العثمانيين من خلال العرض السابق والتي تمثلت في محاولة بيزنطة دائماً خطب ود العثمانيين والتحالف معهم ، كما حدث بين السلطان أورخان و كانتاكوزلينوس ، وذلك باعتبار أنهم الأقوى مما يثبت عكس ادعاءات المستشرقين في موادهم بأن الدولة العثمانية بها كثير من العادات والسنن البيزنطية . كيف يقلدون من يريدون التحالف معهم ، والأولى أن يقلد البيزنطيين الدولة العثمانية على اعتبار أنهم الأضعف، فمن الطبيعي أن يميل الأضعف إلى تقليد الأقوى لا العكس .

وتتبlier علاقة الدولة العثمانية مع البيزنطيين بمجيء السلاطين الأقواء إلى سدة الحكم العثماني ، وفتح القسطنطينية ، والتي ستقلب شكل العلاقة بين الطرفين كما سيتضيّح في البحث القادم.

⁽¹⁾ Ibn Batuta Seyahatnamesi , I .., Istanbul 129 , S . 20-23 .

المبحث الثاني :

رؤية المستشرقين في الكتابة عن العصر الذهبي والشخصيات العثمانية التي أثرت في تاريخ أوروبا .

إن التطورات السريعة التي مرت بالدولة العثمانية خلال القرنين 14هـ / 19 و 15هـ .

قد أدت إلى استيقاظ أوروبا تجاه الدولة الإسلامية الناشئة التي نمت ووصلت حدودها بنهائية القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي إلى ثلاثة قارات - أوروبا وأسيا وإفريقيا - متحكمة بذلك في مناطق استراتيجية ، فضلاً على الهيمنة الروحية على جميع مسلمي العالم بضمها للحجاج .

وما أن شارف عهد سليمان القانوني على الانتهاء حتى كانت الدولة العثمانية تحكم مناطق واسعة الأطراف ، تمتد من الدانوب حتى الخليج العربي ، ومن أوكرانيا حتى جنوب مصر .

ولا شك بأن من قام بهذه الفتوحات هم سلاطين عصر القوة في الدولة العثمانية الذين تركوا بصمات واضحة في تاريخ العالم الإسلامي وتاريخ أوروبا ، ومن خلال فتوحات السلاطين الأوائل سُجل تاريخ أوروبا بمنتهى الدقة بكل ما فيه من خلافات مذهبية وما يتبعها من مذابح مروعة ، وخلافات سياسية على الحكم وتعسفات داخل الكنيسة ومؤامرات الباباوات ورجال الدين ، ولهذا فإن سلاطين عصر القوة يعدون من الشخصيات الأساسية التي صاغت تاريخ أوروبا الحديث ، وكان لفتحاتهم ونشر الإسلام في أصقاع أوروبية ومسيحية صلبة أبلغ الأثر في تشكيل السياسة الأوروبية آنذاك .

وما يجواه المعلومة السابقة أن مركز ثقل الدولة العثمانية الإسلامية كان في أوروبا ، مما زاد من تأثيرها المباشر على تشكيل الاتجاهات السياسية في أوروبا .
وبناء على ما سبق فإن أفلام المستشرقين الحاذقة على الدولة العثمانية انبثت لتزييف حقائق سلاطين العصر الذهبي ، محاولةً تشويبها والبالغة في بعض الأحداث بما يتاسب مع أهدافهم للطعن في سيرة السلاطين وفتحاتهم التي أثرت بشكل مباشر في تاريخ أوروبا .
فجاءت مواد سلاطين عصر القوة في دائرة المعارف الإسلامية من أفلام مستشرقين لا يزالون سجناء الإشتراك ، فاستخدمو كل وسائلهم في الكتابة عنهم طامسين للحقيقة ومدلسين لها ، مما أخرج مواد السلاطين وكأنها لا تمت الواقع التاريخي بصلة .

بعد السلطان مراد الأول أول الفاتحين العثمانيين للأراضي الأوروبية وأعظمهم ، وجاءت مادة السلطان مراد في دائرة المعارف الإسلامية بقلم المستشرق كرامرز ، وأسلوبه واضح من قبل حيث يستخدم معلومات خاطئة ويركب عليها الأحداث تركيباً ، فضلاً عن اختلاقه لأحداث لم تقع ، بالإضافة إلى تركيزه الواضح على أمور لا تفي في السياق التاريخي.

وإذا ألقينا نظرة على مادة السلطان مراد الأول في دائرة المعارف الإسلامية نجد أنها احتوت على العديد من الأخطاء التاريخية وصفها :

أولاً : التشكيك في سنة الولادة ، بالإضافة إلى وصف والدته نيلوفر خاتون بالسيدة البيزنطية.⁽¹⁾

ثانياً : محاولة التشكيك في فكرة الفتوحات وأهدافها ونتائجها ، ونسب نجاح كل فتوحات السلطان مراد الأول إلى انقسام البيزنطيين والتنافس بين بلدان البلقان للسيطرة السياسية .⁽²⁾

ثالثاً: إرجاع كرامرز فشل الحلف الصليبي الذي دعا له البابا أوربان الخامس إلى العداء المستحكم بين البيزنطيين والبلغار⁽³⁾.

رابعاً : اتهامه بالاستيلاء على أراضٍ بغرض أن تقدم كهدية زواج ، أو شرائها بالمال دون رغبة أصحابها .⁽⁴⁾

خامساً : تلقيق الافتاءات والأكاذيب حول مقتل السلطان مراد الأول في معركة قوصوة ومقتل لازار ملك الصرب .⁽⁵⁾

وعليه ستدأ الدراسة بالرد على كل نقطة بمفردها لتوضيح عدم صدق ادعاءاتهم .

⁽¹⁾ Kramers : murad I , the Encyclopaedia of Islam , Leiden , 1993 , volume VII , S. 592 .

⁽²⁾ Kramers : murad I , the Encyclopaedia of Islam , volume VII , S. 592 .593 .

⁽³⁾ Kramers : murad I , the Encyclopaedia of Islam , volume VII , S. 593 .

⁽⁴⁾ Kramers : murad I , the Encyclopaedia of Islam , volume VII , S. 592 .

⁽⁵⁾ Kramers : murad I , the Encyclopaedia of Islam , volume VII , S. 592 .

تولى السلطان مراد الأول السلطنة بعد وفاة والده السلطان أورخان عام 762هـ / 1630م ، وملأ حكمه 35 سنة ، قضاها في الفتوحات وترتيب أمور الدولة .⁽¹⁾ اتصف بالشجاعة والكرم مع جنوده ، شديد الحماس للإسلام ، بنى الكثير من المساجد والملاجئ ، وتمكن بقدرته الحربية ومهاراته العسكرية الاستمرار في الفتوحات الحربية في أوروبا وآسيا الوسطى .⁽²⁾

فاتحة أعماله حملة أنقرة ثم فتح أدرنة سنة 762هـ / 1360م واتخذها عاصمة له لموقعها المميز وبذلك نقل العاصمة من آسيا إلى أوروبا ، والتي تميزت باستحكاماتها الحربية وقربها من مسرح الأحداث العسكرية ، وتحولت من مدينة بيزنطية إلى مدينة إسلامية عثمانية ، وقد أولاها اهتمام خاص فأنشئت بها دور المحاكم والمدارس والمساجد والمعاهد العسكرية .⁽³⁾

واجه حلفاً صليبياً قوياً دعا إليه البابا أوروبان الخامس ، تكون من حكام شبه جزيرة البلقان ، والذي واجهه بقوة وشجاعة عام 765هـ / 1364م ، وواصل فتوحاته في أملاك الدولة البيزنطية مما آثار مخاوف (لazar) ملك الصرب ، والذي استغل فرصة انشغال السلطان مراد الأول بحروب في آسيا الصغرى ، وتزعم حلفاً صليبياً قوياً ضد السلطان مراد الأول نتج عنه المواجهة العسكرية في معركة "قوصوه" والتي انتصر فيها العثمانيون ، لكنهم دفعوا ثمن هذا الانتصار غالياً ، حياة سلطانهم مراد الأول .⁽⁴⁾

بدأ كرامز مادته - كدأبه دائمًا - بالاختلاف حول تاريخ ولادة السلطان مراد الأول ومحاولة إدخال القارئ في هذا الاختلاف دون داعٍ ؛ وذلك ليزرع الشك في نفس القارئ بصحة المعلومات التي وردت .

وفيما يلي نقد النقاط التي وردت في المادة :-

أولاً : التشكيك في سنة الولادة ووصف والدته نيلوفر خاتون بالسيدة البيزنطية . فقال :

"بحسب التقاليد المتعارف عليها كان الحكم الثالث للدولة العثمانية ابن أورخان وسيدة بيزنطية" "نوفر" وبالرغم من أن بعض المصادر العثمانية تدعى معرفتها بالعام

⁽¹⁾ عدنان العطار : مرجع سابق ، ص 29 .

⁽²⁾ أميرة مراح : نظرة متأنية في تاريخ الدولة العثمانية ، ص 22 .

⁽³⁾ إسماعيل سرهنوك : تاريخ الدولة العثمانية ، ص 19 .

⁽⁴⁾ محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص 130 ، أميرة مراح : نظرة متأنية في تاريخ الدولة العثمانية ، ص 23 ، 24 .

الذي ولد فيه *Sidjill-l Othmani* تشير إلى عام 726هـ / 1326م إلا أن هذا التاريخ مثله مثل كافة التواريχ المقدمة من مصادر تركية ذات الصلة بهذه الحقبة من الزمن لا يوجد ما يؤكد صحته⁽¹⁾

لقد ثبت واتفقت جميع المصادر العثمانية والערבية على تاريخ ولادة السلطان مراد الأول ولا يوجد بينها أي اختلاف مطلقاً ، فمن أي جاء بهذا الافتراض؟!

السلطان مراد الأول ابن السلطان أورخان هو السلطان الثالث للدولة العثمانية ، ولد في بروسه عام 726هـ / 1326م وهي السنة التي فتحت فيها بروسه وتوفي فيها جده السلطان عثمان⁽²⁾.

وقد تربى منذ صغره تربية دينية عالية على يد أفاضل علماء عصره ، ثم بدأ في تعلم فنون الإدارة والقتال من القائد المحنك للاشاهين باشا ، وكتطبيق عملي على الحياة السياسية ، عينه والده السلطان أورخان والياً على أحد السناجق القريبة من بروسه ليكسب خبرة في الشؤون الإدارية⁽²⁾ ثم عين وليناً للعهد عقب وفاة أخيه سليمان باشا عام 762هـ / 1360م ، ثم منح قيادة الجيش العثماني المرابط في منطقة الرومي ، ولم يلبث فترة قصيرة حتى رجع مراد إلى بروسه إثر وفاة والده السلطان أورخان عام 762هـ / 1360م وتولى عرش السلطنة العثمانية⁽³⁾.

كان محارباً شجاعاً ، كريماً وعادلاً مع رعاياه وجنوده ، شديد الحماس للإسلام شغوفاً بالغزوات ، كان يصطحب معه في الفتوحات خيرة القادة والخبراء العسكريين ، وشكل منهم مجلساً لمشورته ، توسع في آسيا الصغرى وأوروبا في وقت واحد . على الرغم من أنه قضى جل حياته في الجهاد ، وساحات المعارك ، إلا أنه وجد الوقت الكافي لإشادة الأبنية الجميلة والنفيسة كالمساجد والمدارس ، والملاجئ والتكميات لإطعام الفقراء في بروسه⁽⁴⁾.

⁽¹⁾ Kramers : murad I , the Encyclopaedia of Islam , volame VII , S. 592 .

⁽²⁾ محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص 129 . عبد المنعم الهاشمي : مرجع سابق ، ص 44 . Nisanci Zade Mehmed Ramazan : Mir at – I Kainat, II , Istanbul, S . 15-22 .

⁽²⁾ As Kpasazade , Tarih, s. 43 .

⁽³⁾ محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 18 . Nesri : Tarih , I , S. 197 .

⁽⁴⁾ أميرة مراح : مرجع سابق ، ص 22 . علي محمد الصالبي : مرجع سابق ، ص 101 . عبد المنعم الهاشمي : مرجع سابق ، ص 45 .

أما عن والدته نيلوفر خاتون فقد وصفها كرامرز بسيدة بيزنطية ، وهي كلمة حق أربد بها باطل ، هي فعلاً سيدة بيزنطية لكن منذ زواجها بالسلطان أورخان أعلنت إسلامها ، والدليل على ذلك أنها كانت تحب أعمال الخير ، حيث شيدت مسجداً ، وتكية لإطعام الفقراء في بروسه ، إضافة إلى القنطرة التي أمرت ببنائها على النهر الصغير الذي يمر من هضبة بروسه ، حتى عُرف هذا النهر باسم نيلوفر ،⁽¹⁾ فلا شك إذن أن أعمال البر التي قامت بها تدل على حسن إسلامها واهتمامها بتنفيذ تعاليمه السمحاء .

ثانياً : محاولة التشكيك في فكرة الفتوحات وأهدافها ونتائجها ، ونسب نجاح كل فتوحات السلطان مراد الأول إلى انقسام البيزنطيين والتنافس بين بلدان البلقان للسيطرة . فقال:

"لم يتسرّ بعد الحصول على فكرة جلية عن سلسلة الإنجازات العسكرية التي أدت إلى نجاح الأتراك في ترسّيخ وجودهم بشبه جزيرة البلقان ، وحتى الانتصارات البارزة تدحض بعضها البعض في المصادر العثمانية والغربية ، كما أن الحصول على التاريخ الدقيق حتى للأحداث المهمة تعريه صعوبات جمة " .

وقال أيضاً "أن نجاحات الدولة العثمانية كانت نتيجة للتنافس الذي كان قائماً بين بلدان البلقان والبيزنطيين وممالك البلغار والصرب ، علاوة على الرغبة الجامحة لقساموسة الكنيسة الكاثوليكية في استعادة اليونان إلى روما ، واستطاع العثمانيون أن يجدوا لأنفسهم على الدوام حلفاء لهم في عقر دار المسيحيين ، كذلك يتعرّف تحديد الحملات العثمانية التي خطط لها فعلاً مراد ومستشاروه ، وتلك التي كانت مجرد غارات ناجحة نفتها عصابات تركية" .⁽²⁾

بداية نقول : إن كرامرز عندما كتب هذه المادة لم يطلع مطلقاً على أي مصدر أو مرجع عثماني ؛ لأنّه لو فعل لاكتشف أنّ أخبار فتوحات مراد الأول ملأت صفحات المخطوطات والكتب ، بالإضافة إلى أنه ناقض نفسه تماماً بهذه المعلومات ؛ لأنّه ذكر في بداية المادة أن مراد الأول أعظم الفاتحين العثمانيين للأراضي الأوروبيّة ، فكيف يصفه بهذا الوصف الجميل ، ثم يعود ويقول أنه لا توجد مصادر لهذه الفتوحات ومعلوماتها غير واضحة؟!

⁽¹⁾ M.Qagatay ulucay : Padisahlarin kadinlari VE Kizlari , s 4 .

⁽²⁾ Kramers : murad 1 , the Encyclopaedia of Islam , volume VII , S. 593.

إن السلطان مراد سار على خطوات والده في الفتوحات ونشر الإسلام ، ويرجع تفوق العثمانيين ونجاحهم في الفتوحات الإسلامية ليس لضعف الحكم البيزنطي ولا الخل الذي انتاب الكنيسة وإنما قوة الإيمان والإسلام في قلوب العثمانيين ، وأبلغ دليل على ذلك وصية السلطان عثمان لابنه أورخان :

يابني : إياك أن تشتغل بشيء لم يأمر به الله رب العالمين وإذا واجهتك في الحكم معضلة فاتخذ من مشورة علماء الدين موئلاً .

يابني : أحط من أطاعك بالأعزاز ، وأنعم على الجنود ، ولا يغرنك الشيطان بجندك وبمالك ، وإياك أن تبتعد عن أهل الشريعة .

يابني : إنك تعلم أن غايتنا هي أرضاء الله رب العالمين ، وأنه بالجهاد يعم نور ديننا كل الأفاق ، فتحت مرضات الله جل جلاله.

يابني : لسنا من هؤلاء الذين يقيمون الحروب لشهوة حكم أو سيطرة أفراد ، فنحن بالإسلام نحيا وللإسلام نموت ، وهذا يا ولدي ما أنت له أهل .

أعلم يابني : أن نشر الإسلام ، وهدایة الناس إليه ، وحماية أعراض المسلمين وأموالهم ، أمانة في عنقك سيسألك الله بعله عنها .

يابني ، إنني انتقل إلى جوار ربي ، وأنا فخور بك بأنك ستكون عادلاً في الرعية ، مجاهداً في سبيل الله ، لنشر دين الإسلام .

يابني ، أوصيك بعلماء الأمة ، ادم رعايتم ، وأكثر من تبجيلهم ، وانزل على مشورتهم ، فإنهم لا يأمرون إلا بخير .

يابني ، إياك أن تفعل أمراً لا يرضي الله بعله ، وإذا صعب عليك أمر فاسأل علماء الشريعة ، فإنهم سيدلونك على الخير .

وأعلم يابني أن طريقنا الوحيد في هذه الدنيا هو طريق الله ، وأن مقصتنا الوحيد هو نشر دين الله ، وأننا لسنا طلاب جاءوا ولا دنيا .

وصيتي لأبنائي وأصدقائي ، اديموا على الدين الإسلامي الجليل بإدامه الجهاد في سبيل الله ، أمسكوا راية الإسلام الشريفة في الأعلى بأكمل جهاد ، اخدموا الإسلام دائمًا ؛ لأن الله بعله قد وظف عبده ضعيفاً مثلي لفتح البلدان ، أذهبوا بكلمة التوحيد إلى أقصى البلدان

بجهادكم في سبيل الله ، ومن أنحرف من سلالتي عن الحق والعدل حرم من شفاعة الرسول الأعظم يوم المحرر .

جَلَّ

يا بني : ليس في الدنيا أحد لا يخضع رقبته للموت وقد اقترب أحلي بأمر الله أسلمك هذه الدولة واستودعك المولى يُجَلِّكَ أَعْدَلَ فِي جَمِيعِ شَوَّونَكَ .. ^(١)

لقد كانت هذه الوصية منهجاً سار عليه العثمانيون ، واتضح تماماً في حركة الفتوحات الإسلامية العثمانية ، فهي لم تكن غارات لعصابات تركية مطلقاً وإنما فتوحات إسلامية .

ومن تتبع الفتوحات الإسلامية في عهد مراد الأول نكتشف عدم صدق ادعاء ذلك المستشرق دعواه ، وبعد تولي مراد الأول الحكم مباشرة عام 1360هـ / 672هـ واجه عداءً من أولاد قرمان في أنقرة ، حيث استغل سلطان هذا الإقليم وهو علاء الدين فرصة وفاة السلطان أورخان وتولي ابنه السلطان مراد الأول الحكم ، لإثارة حمية الأمراء المستقلين وتحريضهم على قتال العثمانيين ، فاضطرر السلطان مراد الأول إلى التفكير في إرسال حملة إلى أنقرة في الأناضول للقضاء على هذا التمرد ، خاصة وأنها كانت قد ضمت للدولة العثمانية في عهد أخيه سليمان باشا عام 1354هـ / 755م ، وما قوى موقف علاء الدين تحالفه مع أولاد جرميان ضد الدولة العثمانية ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك باقتراح تحالف مع ملوك الصرب والبيزنطيين ضد السلطان مراد الأول ، وعندما استشار السلطان مراد أركان دولته وعلمائه لحل هذه المشكلة ، حصل على فتوى شرعية من العلماء بجواز الحرب ، ومن فوره توجه صوب أنقرة مع حملة لإخضاعها ، وتم له ذلك دون مقاومة تذكر ، وبذلك صد الخطر القادم من الشرق وكان عاقبة عمل علاء الدين أن فقد أهم مدنه . ^(٢)

ولما كان السلطان مراد الأول شجاعاً ومحارباً من الطراز الأول ومحظياً لنشر الإسلام ، فقد واجه الدولة البيزنطية عندما بدأ الجيش العثماني في هاجمة أملاك هذه الدولة في أوروبا ، وفتحت أدرنة عام 1361هـ / 754م وهي بحق أهم المدن البيزنطية .

^(١) زياد أبو غنيمه : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين ، ص 3 - 21 . محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 16 - 26 .

^(٢) محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص 129 . إبراهيم حليم : مصدر سابق ، ص 309 .. عبد الرحمن شرف : مصدر سابق ، ص 76 . مؤلف مجهول: الأتراك العثمانيون ، ورقة 7. صحي عبد المنعم عبد الحميد سليمان: مرجع سابق، ص 35 ، 36 . Sukrullah , Behcetu't – Tevarih , Nuruosmaniye Kutup , 3059 , Varak : 314a Nesri , Tarih , I ., S. 190-192.

لقد كان الهدف الأول للسلطان في منطقة الرومي هو فتح أدرنه التي كانت تتمتع بأهمية إستراتيجية كبيرة ، فأرد أو لا أن يقطع الصلة بينها وبين العاصمة البيزنطية القسطنطينية .

وتمهيداً لهذا الفتح بدأ في فتح الحصون المحيطة بها والقرى مع توطين المهاجرين الأتراك في تلك المناطق ، من استقدمهم في الأناضول .⁽¹⁾

ثم اجتمع مع قادته العسكريين في لولة بور غاز حيث قرروا في نهاية الاستشارات الحربية إرسال القائد للاشاين باشا⁽²⁾ على رأس قوة عسكرية نحو مشارف أدرنه للإعداد لعملية الفتح ، وإرسال قوة عسكرية أخرى من جهة اليمين نحو ساحل البحر الأسود لفتح قري لرلي⁽³⁾ وقطع الدعم البلغاري للبيزنطيين ، وإرسال قوة عسكرية ثالثة بقيادة أوره نوس بيك من جهة اليمين نحو غرب ديموتوفقاً بذلك لصد الهجوم المحتمل للصرب ، ثم التقى الجيشان التركي مع القوات البيزنطية والبلغارية في موقع قريب من أدرنه واستطاع الجيش العثماني أن ينتصر على القوات المتحالف ، فتم بذلك فتح أدرنه في سنة 765هـ/1363م⁽⁴⁾.

وبعد بقاء السلطان مراد في أدرنه لمدة من الزمن غادرها إلى ديموتوفقاً التي جعلها مسكوناً له ، وأرسل القائد للاشاين باشا لفتح فيلبية⁽⁵⁾ وزاغرا⁽⁶⁾ كما أمر أوره نوس بيك بالتجهيز نحو جومولجينه⁽⁷⁾.

⁽¹⁾ للاستزادة عن مسألة التوطين والتهجير في الدولة العثمانية الرجوع إلى :

H.Kaleshi: Turklerin Balkanlara Girs ve islamlastirma (Trc . K . Beydilli) ,TED , Say , 10-11 , (1981) , P. 177-194 .

⁽²⁾ للاشاين باشا : من أعظم قادة المعارك في الدولة العثمانية زمن السلطان أورخان ، له عدة مؤسسات خيرية ، حيث أقام مدرسة في مدينة بروسة وخانقاه وجسرًا وفي عهد السلطان مراد الأول أولى الدول العثمانية أعظم الخدمات في حروب الروملي ، وكان له أكبر دور في إدخال كثير من مناطق الروملي في حوزة الدولة العثمانية . وفتح كثير من الحصون والقلع وأصبح بكلر بك الروملي وتوفي عام 778هـ / 1376م . حسين مجتب المصري : مجمع الدولة العثمانية ، ط 1 ، القاهرة : الدار الثقافية النشر 1425هـ / 2004م ، ص 119 .

⁽³⁾ قرق لرلي : irklareli تقع شرق أدرنه ، في تركية الأوروبية ، تابعة لولاية أدرنه . س . موستراس : مرجع سابق ، ص 389 .

⁽⁴⁾ Gelibolulu Mustafa ali , Kunhu'l – Ahbar , V., S. 67 .

⁽⁵⁾ فيلبية : مدينة فيليب نسبة إلى مؤسسها فيليب والد الإسكندر الأكبر . تقع في جنوب شرق صوفيا وأدرنه . محمد فريد المحامي: مصدر سابق ، ص 130 .

⁽⁶⁾ زاغرا : تقع في الشمال من أدرنه .

⁽⁷⁾ جومولجينه : تقع في تراقيا الغربية إلى الجنوب الغربي من أدرنه ، على نهر يحمل الاسم نفسه . شمال بحر أيجي . محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص 130 .

ونتيجة دخول أدرنه وفيليبة وجومولجينة وضواحيها في حوزة العثمانيين في فترة قصيرة من الزمن ، انقطعت ارتباطات البيزنطيين مع البلغار والصربيين الموجودين في Макدونيا مما أدى إلى أن تقرر دول البلقان بضرورة استرداد فيليبة وأدرنه فقاموا بتجهيز الجيوش للحرب ، ولكن السلطان مراد خطأ خطوة مهمة إذ قام بالعمل على استيطان عدد كبير من المسلمين في البلاد المفتوحة ، ومن جهة أخرى فقدت الدولة البيزنطية مساندة الأهلية النصارى ودعمهم لأن تلك الشعوب أصبحت تعيش حياة أفضل في ظل الإدارة العثمانية التي تميزت بالتسامح ومحنتهم حرية الحياة والعبادة .⁽¹⁾

واتخذ مراد الأول من هذه المدينة عاصمة للدولة العثمانية منذ عام 1366م وبذلك انتقلت العاصمة إلى أوروبا ، وغدت أدرنه عاصمة إسلامية :
أما عن أسباب انتصار العثمانيين :

(١) كانت الشعوب البلقانية منقسمة على نفسها إنقساماً شديداً وتعانى من التناحر والتناقض فيما بينهم بسبب الخلافات المذهبية .

(٢) في الوقت الذي كانت فيه الجيوش العثمانية متراكمة ومحقة لهدف واحد هو انتشار الإسلام والشعور بحلوة الجهاد الإسلامي.⁽²⁾

ولا شك أن فتح أدرنه لم يكن مجرد فتح لبلد في طريق الفتوحات ، وإنما كانت للسلطان مراد الأول رؤية سياسية مهمة تقوم على أساس وهي :

(١) أهمية موقعها الاستراتيجي ؛ إذ تقع على ثلاثة أنهار .

(٢) استغلال مناعة استحكاماتها الحربية ، وقربها من مسرح الأحداث والعمليات الجهادية.

(٣) ساعد فتح أدرنه واتخاذها عاصمة للعثمانيين على تأمين المركز المسيطر إدارياً وعسكرياً على تراقيا ؛ إذ إنها القلعة الرئيسية بين القسطنطينية والدانوب ، فضلاً عن أنها تحكم بطريق الحملات العسكرية عبر جبال البلقان ، وبهذا الموقع فهي تكفل الاحتفاظ بالفتحات العثمانية في أوروبا ، وتؤمن وسيلة للتوسيع نحو الشمال .⁽³⁾

⁽¹⁾ Mehmed Mazhar Fevzi, Haber – I Sahih, 1. S. 99 .

⁽²⁾ مؤلف مجهول : الأئمك العثمانيون ، ورقة 8 .

⁽³⁾ عبد المنعم الهاشمي : مرجع سابق ، ص 46 . أميرة مراح : مرجع سابق ، ص 23 .

٤) رغبة السلطان مراد الأول في ضم الأقاليم الأوروبية والعمل على هضمها، ثم

(١) مواصلة الحركة الجهادية وثبتت أقدامهم في المنطقة .

٥) وضع مراد الأول في هذه العاصمة كل مقومات النهوض بالدولة العثمانية ، حيث أراد من موقعها وسط منطقة يدين أهلها بال المسيحية ، أن يجعلها مركزاً لنشر الإسلام وقاعدة للتوسيع في أوروبا .

٦) قام السلطان مراد الأول ، بجعل أدرنه حاضرة لملك آل عثمان ، فشيد بها مجموعة من المباني الرفيعة الجميلة ، وأنشأ بها مجمع الخيري والذي يحتوي عادة على مسجد ومدرسة وتكية وحمام وضريح في بعض الأحيان . (٢)

٧) ظلت أدرنه على هذا الوضع السياسي والعسكري والإداري والثقافي والديني ، حتى فتحت القسطنطينية 857هـ / 1453م وانتقلت إليها العاصمة . (٣)

وهكذا أصبحت القسطنطينية محاطة من جهة أوروبا بأملاك الدولة العثمانية، وفصلت عن باقي الإمارات المسيحية الصغيرة في البلقان ، وصارت الدولة العثمانية متاخمة لبلاد الصرب والبلغار وألبانيا . (٤)

ثالثاً: إرجاع كرامر فشل الحلف الصليبي الذي دعا له البابا أوربان الخامس إلى العداء المستحكم بين البيزنطيين والبلغار . فقال :

"إن العداء الذي كان مستحکماً بين البيزنطيين والبلغار أتاح الفرصة لمراد الأول الاستيلاء على نيقوبولي، كما أن العداء ذاته أدى إلى إخفاق الحملة الصليبية المنفذة بتحريض البابا أوربان الخامس" . (٥)

لا شك أن إرجاع كرامر سبب نجاح حملات السلطان مراد الأول إلى العداء بين البيزنطيين والبلغار هو من إرهادات حقد أوروبا على الدولة العثمانية حيث أن أوروبا أصابها الفزع الشديد من نبأ سقوط أدرنه في يد العثمانيين المسلمين.

لقد حاول الصليبيون تجميع أنفسهم مرة أخرى ، لكن العثمانيين تابعوا فتوحاتهم الإسلامية حتى فتحوا ميليبوليس عاصمة الروملي الشرقي و الواقع جنوب غرب أدرنه ،

(١) علي محمد الصلايبي : مرجع سابق ، ص 102 ، 101 . عبد المنعم الهاشمي : مرجع سابق ، ص 46 .

(٢) عبد الرحمن شرف : مصدر سابق ، ص 79 .

(٣) أميرة مداح : مرجع سابق ، ص 23 .

(٤) محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص 130 .

(٥) J.H.Kpamers : mup ADI , S. 593 .

بالإضافة إلى سيطرة العثمانيين على نهر مارتيزا الذي تم ضفافه القسطنطينية بالحرب والأرز ، وفصلت فتوحات العثمانيين بلغاريا عن الممتلكات البيزنطية .⁽¹⁾

إن استمرار فتوحات مراد الأول والدعوة إلى الإسلام في الأراضي البيزنطية أدى إلى إحاطة القسطنطينية بخطر عظيم ، فأصبحت بين شقي الرحمي العثمانية ، مما دعا القوى المسيحية إلى تأليف حلف صليبي جديد .

لا شك أن تقدم القوى العثمانية وتقوتها كان له الدواعي الهائل في أوروبا مما دفع البابا "أوربان الخامس" زعيم الصليبية المعادية للإسلام والمسلمين إلى الدعوة إلى حلف صليبي جديد ضد مراد الأول ، وفي الوقت نفسه استشعر الإمبراطور البيزنطي "يوحنا باليلوغوس" الخطر القادم فتوجه إلى أوروبا لحشد القوى لإشعال حرب ضد العثمانيين ، لكن اشترط عليه البابا أن يمثل أمامه ويعلن فروض الطاعة والولاء ، وبالفعل توجه الإمبراطور يوحنا إلى البابا ليقدم فروض الطاعة ، وليس ذلك فحسب بل أعلن أنه كاثوليكي المذهب وتخلى عن الأرثوذوكسية .⁽²⁾

فبدأ البابا في لعب الدور الذي طالما لعبته البابوية ضد الإسلام وهو الدعوة إلى حرب صليبية وحلف صليبي ضد الدولة العثمانية ، وبدأت رحلة مكاتبات ملوك أوروبا والبلقان لدعوتهم لحرب صليبية .

وفي الوقت الذي كان السلطان مراد الأول منشغلًا بإقامة المؤسسات الإدارية وتنظيمها التجأ القائد البيزنطي الذي هرب خلال فتح فيليبة إلى ملك الصرب "أوروش الخامس" حيث أبدى مخاوفه من توسيع الدولة العثمانية وخطورتها على العالم النصراني والدول الأوروبية ، وحرض الملك على إيجاد حل لمنع تحركات العثمانيين ، فتجمعت مملكة الصرب والمملكة البوسنية وإمارة الأفلاق الرومانية ودول البلقان - حول مملكة المجر التي كانت تعد أقوى دولة في أوروبا آنذاك - للحرب مع الدولة العثمانية وذلك بإشارة من البابا أوربان الخامس ودعمه.⁽³⁾

⁽¹⁾ عبد المنعم الهاشمي : مرجع سابق ، ص 47 .

⁽²⁾ إسماعيل سرهنوك : تاريخ الدولة العثمانية ، ص 19 . صبحي عبد المنعم . عبد الحميد سليمان : مرجع سابق ، ص 36 . أميرة مراح : مرجع سابق ، ص 23 . عبد المنعم الهاشمي : مرجع سابق ، ص 47 .

⁽³⁾ Hoca Sadreddin Efendi , Tacu; t Tevarih , I . S . 76 – 79 ; Munecimbasi , Tarih , Istanbul 1258 , III.,S293 – 295 .

وكان القائد الأعلى لهذه الحرب الصليبية هو ملك المجر لايوش الخامس ، وكان بجانبه ملك الصرب أوروش الخامس وبعض أمراء دول البلقان ، ويقول بعض المؤرخين بأن عدد قوات الجيش الصليبي وصلت إلى ستين ألف جندي ، ويرى آخرون بأن هذا العدد وصل إلى مائة ألف جندي .⁽¹⁾

تجمع الصليبيون في صوفيا ثم دخلوا بجميع قواتهم العسكرية من جنوب نهر المريج إلى الأراضي العثمانية واستطاعوا استرداد فيليبة من أيدي العثمانيين واقتربوا من أدرنه ، وأقاموا معسراً لهم في موقع جيرمن في صيف سنة 766هـ / 1364م .⁽²⁾ ، وكانت هدف التحالف الصليبي هو طرد العثمانيين من منطقة الرومي وال Estridge مضيق جاناق قلعة وأدرنه وحماية القسطنطينية من الخطر .

وبعد ما علم لالشاھین باشا الوالي العام (بكلر بيكي) لأدرنه بخبر وصول الجيش الصليبي إلى مشارف أدرنه اضطر إلى طلب النجدة من السلطان مراد الأول الذي قام بتجهيز جيش ، وقد حدث أن قام أولاد جرميان بتجهيز حملة عسكرية ضد العثمانيين مما أدى إلى عرقلة وصول جيش السلطان إلى أدرنه ، فاضطر لالشاھین باشا إلى المقاومة والصمود لوحده للدفاع عن أدرنه ، ثم طلب العون من أحد ولاة السنافق وهو الحاج إليبي الذي كان لديه مجموعة متنوعة من الجنود والفرسان الخيالة المدربين على القتال تدريباً متقدماً ، فقام على رأس عشرة آلاف من هؤلاء المتطوعين وتوجه نحو جيرمن على نهر مارتيزا من غرب وادي المريج على امتداد الشمال الغربي ، حيث استمر السير من الصباح إلى المساء بشكل صامت إلى أن اقتربوا من الجيش الصليبي في جيرمن ، وكانت القوات الصليبية تتكون من الصرب والبلغار والمجر والروماني والبوسنة ، وبما أن القوات الصليبية كانت خليطاً ، فقد بدأ الجنود بالتعرف على بعضهم البعض في ساحة المعركة كما كانوا يتظاهرون بقوتهم وشجاعتهم داخل المعسكر بدون أخذ التدابير الأمنية ، إيماناً منهم بأنهم سوف يطردون العثمانيين من الرومي ويستولون على أدرنه وذلك اعتماداً على عددهم وعدتهم العسكرية . فاستفاد الحاج إليبي الذي كان قائداً عسكرياً محظياً من هذه الفرصة وقام بتقسيم قواته إلى أربع فرق وعين على كل فرقة قائداً ، باغت الأعداء ليلاً وهم نائم داخل

⁽¹⁾ Oruc Bey , Tarih , S . 22 ; Luftu Pasa , Tevarih – I AL – I Osman , S . 34 .

⁽²⁾ Tevarih – I AL – I Osman , S. 34 ; Asikpasazade , S. 56 .

معسركهم ، واستمر الهجوم العثماني حتى الصباح حيث قتل عدداً كبيراً من جنود الجيش الصليبي وفر الباقيون وغنم الحاج إلى المعسكر .

وقد قتل في هذه المعركة كل من ملك البلغار وملك الصرب وملك البوسنة وعدد كبير من النساء ، وهرب كل من ملك المجر لايوش الخامس الذي كان القائد الأعلى للجيش الصليبي والقائد الروماني ميرجة من ميدان المعركة .

وبعد انتصار الحاج إلى في هذه المعركة على جيش يفوق جيشه أضعافاً مضاعفة من الأحداث النادرة في التاريخ العسكري في العالم . وقد مهد هذا الانتصار الطريق أمام العثمانيين بالتقدم والتغلب السريع في منطقة الرومي وتساقط مدنها الواحدة تلو الأخرى كحبات الفاكهة الناضجة ، بالإضافة إلى فتح إقليم تراقيا ومقدونيا حتى وصلوا إلى جنوب بلغاريا ، وإلى شرق صربيا .⁽¹⁾

إن ظهور هذا التحالف المسيحي الصليبي ، وتجمع ملوك أوروبا ضد العثمانيين ، له مغزى مهم جداً ، إذ يكشف عن ضحالة إدعاءات كرامرز بأن العداء بين البيزنطيين والبلقان هو السبب في فشل هذا الحلف ، ولو كان العداء بينهم على أشدّه لما تجمعوا تحت راية صليبية واحدة ضد العثمانيين ، إنما السبب الرئيس لفشل هذا الحلف هو قوة العثمانيين بإيمانهم وإسلامهم ، والعداء بينهم لم يكن بقدر ما كان ضد الإسلام والمسلمين .

بعد الانتصار الذي أحرزه الجيش العثماني في جيرمن عام 766هـ / 1364م قرر السلطان مراد الأول نقل مركز الدولة إلى ديموتوكا ليستطيع الإشراف على كل مناطق الرومي بسهولة ، وحدث في الوقت نفسه أن فررت جمهورية راجوزا (دبر وفنيق) الدخول تحت حكم الدولة العثمانية سنة 767هـ / 1365م ، وكانت هذه الجمهورية عبارة عن دولة صغيرة للسلاف في القسم الأسفل من ساحل دالماجيا الواقع جنوب غرب البوسنة . وكانت أراضيها قليلة المساحة وسكانها يشتغلون بالتجارة البحرية ، واستناداً على المعاهدة التي أبرمت بين الطرفين دخلت جمهورية راجوزا في حماية الدولة العثمانية وتعهدت بدفع ضريبة سنوية للدولة مقدارها خمسمائة دوقة .⁽²⁾

⁽¹⁾ Nesri , Tarih , 1 .. S . 203 .

إبراهيم حليم : مصدر سابق ، ص 39 ، 40 . يلمازا وزتونا : مصدر سابق ، ج 1 ، ص 98 . أميرة مراح : مرجع سابق ، ص 23 . أورخان محمد علي : مرجع سابق ، ص 18 .

⁽²⁾ دوقة : Duke هو النقد الذهبي المضروب في البنديقية قديماً ، وهي محرفة لكلمة دوكاتو Ducato الإيطالية . وكان يزن بين عشرة إلى اثني عشر فرنكاً . انظر سهيل صابان : المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية ، مراجعة : عبد الرازق =

وهي بذلك دخلت طواعية دون أي ضغوط وذلك لما لمسته من حماية وحرية في أداء الشعائر الدينية في المناطق التي تحت الحكم العثماني .

ثم قام السلطان مراد الأول بتجهيز حملة عسكرية للهجوم على الصليبيين ، فتقدم الجيش العثماني في منطقة الرومي بسرعة فائقة ، واستطاعت الفرقة التي كانت بقيادة قراتيمور طاش من فتح مناطق جديدة في الأراضي البيزنطية ، وقد دخلت أغلب القلاع والأراضي البيزنطية في منطقة تراقيا تحت النفوذ العثماني بين عامي 769هـ - 770هـ / 1367-1368م نتيجة هذه الفتوحات .⁽¹⁾

رابعاً : اتهامه بالاستيلاء على أراضي بغرض تقديمها كهدية زواج ، أو شرائها بالمال دون رغبة أصحابها .

فقال : " تم امتلاك جزء من أراضي " خيرميان أو غلو " كهدية زفاف للأمير بايزيد حينما تزوج من ابنة ذلك الحاكم في حوالي 1381م ، وقد أعقب هذا التعاظام في السيطرة على الأراضي ببيع الجزء الأكبر من أراضي " حامد أو غلو " لمراد " .⁽²⁾

وقد كرر كرامرز الفكرة نفسها في مادة الترك فقال : " استولى مراد الأول على قسم كبير من أملاك بيت خيرميان ، كهدية عرس لابنه وأشتري بالمال بلاد الحميد أو غلي " .⁽³⁾

إن الصورة الحقيقة للحدث بعيدة عن تشويه وافتراء كرامرز ، وهي أن الإمارة الجرميانية بقيادة سليمان بن محمد وليس خيرميان أو غلو ، كانت على علاقة جيدة مع العثمانيين وفي الوقت نفسه كانت تتنافس مع إمارة آل قرمان ، فأراد أن يكسب ود وصداقة العثمانيين فقام بتزويج ابنته " دولت خاتون " إلى ابن السلطان مراد الأول بايزيد " يلدريم " ، وقد صادف هذا الأمر هو في نفس السلطان مراد إذ أراد أن يكون جبهة تحالف إسلامي ضد التحالف الصليبي ، مع من بقي من أمراء آسيا الصغرى وتوثيق عرى الصداقة والود

= محمد حسن برकات ، د. ط ، الرياض : مكتبة الملك فهد الوطنية ، 1421هـ / 2000م ، ص 61 . حسين محيب المصري : مرجع سابق ، ص 115 .

⁽¹⁾ Heyet , mufassal Osmanli Tarihi , I ., Iskit yayinevi , Istanbul 1957 , S. 128 – 129 ; Asikpasazde , S.56 – 58 ; Munecimbasi , tarih , s . 108 .

صحي عبد المنعم ، عبد الحميد سليمان : مرجع سابق ، ص 36 ، 37 . محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص 131، 132 .

⁽²⁾ Kramers : murad 1 , S. 593 .

⁽³⁾ كرامرز : مادة الترك ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 5 ، ص 169 .

بينهم ، فتم الزواج، وتعبرّا عن المحبة والود بين الصهرين الجدد قدم أمير كرميان للسلطان بايزيد يلدرم مدينة كوتاهية⁽¹⁾ وطوشاني وأجريجوز مهراً وجهازًا للعروس.⁽²⁾

وسلمت مفاتيح هذه القلاع المهمة إلى السلطان مراد الأول ، وبذلك دخلت هذه المناطق الاستراتيجية في الأناضول تحت الحكم العثماني ، أما بالنسبة لآراضي قلاع إمارة حميد أوغلو فقد تنازل عن خمس القلاع التي تحت سلطانه إلى السلطان مراد الأول مقابل مبلغ من المال ، وبعدها تم التحالف بين هاتين الإمارتين والدولة العثمانية.⁽³⁾ وعليه فقد ضمت المناطق ليس بالحرب وإنما بالسلم ولم يرغم أمير كرميان على التنازل عن كوتاهية ، إنما قدمها الأخير عن طيب خاطر ليثبت حسن نواياه ، خاصة وأن العلاقات كانت متواترة في بداية حكم مراد الأول .

وبالنسبة لآراضي حميد أوغلو فقد تنازل عنها ودفع له السلطان مراد الأول ، فلم يضغط عليه ولم يأخذها بثمن بخس وإنما كانت أيضًا تعبرّا عن المحبة والوفاق. ومن جهة أخرى قرر السلطان مراد الأول تأسيس علاقة قربى مع الإمارة القرمانية التي كانت تشكل تهديداً كبيراً له من جهة الأناضول ؛ كي يحقق الأمن والاستقرار في الأناضول بأكمله ، ويتسنى له مواصلة فتوحاته في منطقة الرومي براحة تامة ، فقام بتزويج ابنته نفيسة خاتون من علاء الدين علي بيك بن صاحب الإمارة القرمانية .⁽⁴⁾ ثم أحرزت الجيوش المظفرة للسلطان مراد الأول انتصارات عظيمة في منطقة البلقان، فقام السلطان بإعلام أخبار هذه الانتصارات إلى الدول الإسلامية المجاورة عن طريق الرسائل ، وفي هذه الأثناء قام السلطان المملوكي في مصر الملك الظاهر سيف الدين برقوم بإرسال خطاب تهنئة إلى السلطان مراد الأول ، إضافة إلى الهدايا الثمينة المكونة من الخيول الأصيلة والسيوف والأقمصة الفاخرة، بدأ السلطان الظاهر خطابه بعبارة (سلطانة الغزا)⁽⁵⁾

⁽¹⁾ كوتاهية : Kutahia ، مدينة تركية آسيوية في الأناضول س . موستراس : مرجع سابق ، ص 428 ، 429 .

⁽²⁾ إن مسألة تقديم العروس مهراً للعربي عادة منتشرة إلى يومنا هذا ، فنجد لها موجودة إلى اليوم في اليونان حيث تؤمن العروس سكن الزوجية ، بالإضافة إلى وجودها في الهند والباكستان وهي تقديم الدوطه من أهل العروس إلى العريس .

⁽³⁾ يلمازا وزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج 1 ، ص 99. صبحي عبد المنعم . عبد الحميد سليمان : مرجع سابق ، ص 37 ، 38.

⁽⁴⁾ Feridun Bey , Munseat , 1 .. S . 103 .

⁽⁵⁾ Hoca Sadedin Efendi , Tacu't – Tevarih , 1 .. S . 104 .

، كما قام السلطان العثماني بإرسال رسالة للرد على التهنئة عبر عن شكره للسلطان الظاهر مع ممثله الذي حمل معه الهدايا .⁽⁶⁾

وفي الوقت الذي كان الجيش العثماني مستمراً في الفتوحات في دول البلقان، قام السلطان مراد الأول بإعمار البلاد المفتوحة وذلك بتشييد المساجد والقصور وغير ذلك من المباني .⁽¹⁾

خامساً : تلقي الأفتراءات حول مقتل السلطان مراد الأول في معركة قوصوه ومقتل لازار ملك الصرب . فقال :

"أن الصرب قد انهزموا لأسباب مردها جزئياً للخيانة بين صفوفهم ... إن الكيفية التي قتل بها مراد أثناء أو بعد المعركة ليست واضحة من المصادر القديمة ، بيد أن الروايات التي تناقلتها الأجيال الصربية تشمل القصة الشهيرة أن ميلوس أوبرانوفيتش الذي هو صهر "لازار" قد اغتال مراد بعد أن ادعى أنه هارب من الجيش ، وحينما أتيحت له الفرصة للجلوس بمعية مراد عقب المعركة قام بقتله مستخدماً سيفه ".⁽²⁾

ولتعرف على سبب هزيمة الصرب ومقتل لازار وانتصار العثمانيين ، لابد من معرفة الأجواء التي صاحبت هذه المعركة الشهيرة ، ففي الوقت الذي كان السلطان مراد الأول منشغلًا بفتحاته في البلقان كان يتواجد على رأس الإمارة القرمانية علاء الدين علي بيك الذي كان قد تزوج من ملك نفيسة خاتون ابنة السلطان مراد الأول ، وكان للتغلغل العثماني في داخل الأناضول وضمه لأجزاء كبيرة منه أثره على علي بيك ، فبدأ في تحريض ملوك وأمراء البلقان ضد السلطان العثماني ، ثم قام بالاستيلاء على بيشهير وضواحيها عام 788هـ / 1386م ، في الوقت الذي كان فيه السلطان منشغلًا بالفتحات في الرومي ، مما اضطره إلى الهجوم عليه بجيشه الذي كان يضم قادته المحنكين ، إضافة إلى ابنه وولي عهد بايزيد ، وتغلب الجيش العثماني على الجيش القرمانى في المعركة التي دارت بينهما قرب قونية ، حيث فر علاء الدين علي بيك إليها .

⁽⁶⁾ Nesri , Tarih , 1 ., S . 238 .

⁽¹⁾ Asikpasazade , S. 61 .

⁽²⁾ Kramers : Murad I , Volume VII , S. 593 .

وقد منح الأمير بايزيد لقب (يلديريم) أي الصاعقة أو الرعد ؛ وذلك للشجاعة والبسالة التي أبدتها في هذه المعركة ،⁽³⁾ ثم حاصر الجيش العثماني قونية لأجل القبض على علاء الدين علي بيك الذي اضطر أن يبعث زوجته نفيسة خاتون إلى أبيها السلطان مراد الأول ليطلب منه العفو ، فعفا عنه السلطان ، وجاءه علاء الدين قبل يده وأبدى ندمه ووعده على أن لا يعود لهذه الأعمال التمردية مرة أخرى ، كما وعده على أن يمد العثمانيين بالجنود والعساكر عند الحاجة في حملاتهم العسكرية .⁽¹⁾

صاحب هذه الأحداث توغل القوات العثمانية أكثر في بلاد البلقان ، فآثار هذا الأمر حفيظة أوروبا وخاصة الصربي ، فحاولوا استغلال غياب السلطان عن أوروبا أكثر من مرة بالهجوم على الجيوش العثمانية في البلقان وما جاورها ، ولكنهم فشلوا في تحقيق أي انتصارات على العثمانيين ولو كانت ضئيلة ، فتحالف الصربي مع البلغار والبوسنيين وأعدوا جيشاً صليبياً كبيراً ، في الوقت الذي وصل السلطان مراد الأول بجيشه إلى المنطقة التي أعدها إعداداً قوياً على أعلى مستوى.⁽²⁾

وعسكر الجيش العثماني والصليبي في سهل يعرف بسهل "كوسوفو" أو "قصوه" أو "ميدان الطيور السوداء" حيث تتبع ثلاثة أنهار (نهر إيبار ونهر فاردار ، ونهر درينه).⁽³⁾

وقد قاد جيش العثمانيين السلطان مراد الأول بنفسه ، وصحبه أبناءه بايزيد ويعقوب ، وقد وصل جيشه أولاً وعسكر على أفضل التلال المشرفة على الميدان ، وصحبه أيضاً القائد المخنكي أوره نوس بيك والقائد يخشى بك ، لقد أعد لازار لهذه المعركة جيشاً جراراً تجاوز عدده عشرة آلاف مقاتل ، وعشية الليلة التي سبقت المعركة رفع السلطان مراد الأول بيده إلى السماء ودعا بدعا حفظته كتب المؤرخين وهذه مقتطفات منه :-

" يا الله ، يا رحيم يا رب السموات ، يا من تتقبل الدعاء لا تخزمي ، يا رحمن يا رحيم ، واستجب دعاء عبدي الفقير وأرسل السماء علينا مدراراً ، وبدد سحب الظلام فنرى عدونا ... اعن بنصرك أهل الإسلام ، وتجاوز عن أخطائنا يا رب ، ولا تشتم المقاتلين

⁽³⁾ Solakzade , Tarih , I , S. 53 .

⁽¹⁾ Nesri , Tarih , I ., S. 221 – 233 .

⁽²⁾ محمد علي الصالبي : مرجع سابق ، ص 104 .

⁽³⁾ عبد العزيز العمري:الفتوح الإسلامية عبر العصور، ط1، دار إشبيليا،1418هـ/1997م ، ص389 .أنظر الخريطة في الملحق

في سبائكك ، ولا تسود وجوهنا بين الناس ، واجعلني فداءً للدين وارزقني الشهادة يا رب ...
واسمع لي يا إلهي هذه المرة ، أن استشهد في سبائكك ومن أجل مرضاتك .. " ⁽⁴⁾

وقد تقبل الله تَبَّاعَ دُعَاءُهُ ، فسرعان ما أكفر الجو وتلبدت الغيوم في السماء ، وانهم
المطر الغزير ، وتصاعدت سحب الدخان والغبار مما أدى إلى إرباك الجيشين ، لكن الله
ثبت أقدام المسلمين ، وربط على قلوبهم بحب الجهاد. ⁽⁵⁾

أما عن طلب الشهادة فقد استجاب الله له أيضاً في هذا الأمر ، حيث قتل بخنجر
سموم غادر بعد نهاية المعركة في 15 شعبان 791هـ / 1388م . ⁽¹⁾

وهنا نلمس سبب نجاح العثمانيين في المعركة وهي استجابة الله لدعائكم وليس لخيانة
أحد القادة ، وإنما بتوفيق من الله تَبَّاعَ دُعَاءُهُ وكل ما حدث أن أحد قادة لازار قد لمس القوة
والانتصار بجانب مراد الأول ، ووجد جانب لازار خاسر لا محالة ؛ فهم اتصفوا بالجبن
والخسنة ، فانضم بجيشه المكون من عشرة آلاف مقاتل إلى جانب المسلمين ، مما أربك
التحالف الصليبيي . ⁽²⁾

وقد جرت وقائع المعركة الحاسمة ، وخسر التحالف الصليبيي خسائر فادحة في العدة
والجنود ، وانتصر العثمانيون انتصاراً ساحقاً ، وتعد هذه المعركة إحدى أهم المعارك
التاريخية في تاريخ الحروب الإسلامية ، وقد قتل الملك لازار في أثناء المعركة ، والعديد
من الأمراء والقادة الصليبيون وهرب كثير من الجنود من ساحة المعركة ⁽³⁾.

وبعد أن حقق الجيش العثماني النصر قام السلطان بالتجوال في ميدان المعركة لنفقد
الجرحى وقراءة الدعاء على أرواح الشهداء والعمل على دفنهما ، وفي هذه الأثناء قام أحد
الجرحى الصليبيين من الأرض وطلب الاقتراب من السلطان بحجة التحدث معه وإعلان
إسلامه ولم يُرِد السلطان رده ، فسمح له بالاقتراب منه وسماع حديثه ، فما كان من الجندي

⁽⁴⁾ أورخان محمد علي : مرجع سابق ، ص 19 .

⁽⁵⁾ أورخان محمد علي: مرجع سابق ، ص 19. عبد المنعم الهاشمي: مرجع سابق، ص 52. عبد العزيز العمري: مرجع سابق، ص 391.

⁽¹⁾ علي محمد الصلايبي : مرجع سابق ، ص 105 .

⁽²⁾ عبد العزيز العمري : مرجع سابق ، ص 391 .

⁽³⁾ عبد الرحمن شرف : مصدر سابق ، ص 83 - 85 . أورخان محمد علي : مرجع سابق ، ص 19 . Ahmed Refik , Sahaif – I Muzafferiyat – I Osmaniye Istanbul 1325 , S . 65 – 114 ; Hayrullah Efendi , Tarih , IV ., S. 94-100 ; Sabahettin Doras , Osmanli Zaferleri, Istanbul 1992 , S. 21-27 .

إلا أن أخرج خنجره المسموم الذي كان قد أخفاه تحت ذراعه وطعن به قلب السلطان ، فوقع على الأرض فقام مرافقي السلطان بقتل هذا الخائن فوراً ، والذي تبين فيما بعد أنه الأمير الصربي " ميلوش كوبا وفتش " وهو يمت بصلة القرابة للملك لازار . وكان المصاب عظيماً بمقتل السلطان مراد الذي لم يلبث أن نقل إلى خيمته واستشهاد في غضون دقائق ، وتوفي عام 791 هـ / 1388 م .⁽⁴⁾

ولعل الكلمات الأخيرة للسلطان مراد الأول توضح للمستشرقين مدى تقواه وحبه للإسلام والجهاد في سبيل نشره ، فكلماته كانت منهاجاً اقتدى به بعد ذلك ابنه السلطان بايزيد يلدرم .

وعندما بدأ السلطان مراد في الاحتضار قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة دعا ربه قائلاً : " لقد كنت طيلة حياتي أتضرع وأصلي إلى الله - العلي القدير - أن يمنعني فرصة الاستشهاد في سبيله ، إذا ما كان نصر الإسلام يتحقق بموتي ، ومن حسن حظي أنني لا يسعني أثناء رحيلي إلا أننيأشكر الله ، إنه علام الغيوب المتقبل دعاء عبده الفقير ، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وليس يستحق الشكر والثناء إلا هو ، لقد أوشكنا حياتي على النهاية ، ورأيت نصر جند الإسلام ، أطيعوا ابني بايزيد ، لا تعذبوا الأسرى ولا تؤذوهم ولا تسليوهم وأودعكم منذ هذه اللحظة ، وأودع جيشنا الظافر العظيم إلى رحمة الله فهو الذي يحفظ دولتنا من كل سوء ".⁽¹⁾

وقد أسرع أركان الدولة وقادتها الحاضرون في ميدان الحرب بمبايعة بايزيد يلديرم لتولي عشر السلطنة العثمانية لتنفيذ وصية والده أولاً ، ولا تتصفه بصفات القائد المحنك سياسياً وعسكرياً ثانياً . وانتهت الحرب بانتصار العثمانيين ورجع السلطان الجديد بايزيد مع جيشه إلى العاصمة أدرنة بعد أن تحقق ضم الأراضي البلقانية إلى الحكم العثماني ، ونقل جثمان السلطان مراد الأول إلى بروسه حيث دفن في ضريحه الكائن مقابل مسجده المعروف باسم جامع مراد خداوندكار .⁽²⁾

⁽⁴⁾ علي محمد الصلاibi ، مرجع سابق ، ص 104 . أورخان محمد علي : مرجع سابق ، ص 20 ، 21 . Nesri , Tarih , I .. S. 300 – 308 .

⁽¹⁾ يلماز أورتونا : مصدر سابق ، ج 1 ، ص 101 . حليم إبراهيم بك : مصدر سابق ، ص 41 .

⁽²⁾ Omer Faruk Yilmaz , Belgelerle Osmanli Tarihi , 1 .. Istanbul 1999 , S . 130 .

وقد اتفقت جميع الروايات بالإضافة إلى المؤرخين المسلمين على أن السلطان مراد استشهد في هذه المعركة ، والأحداث السابقة تدحض رواية كرامرز على أنه قتل بسيف ميلوش داخل الخيمة بعد انتهاء المعركة ، فلماذا يبقى السلطان مراد الأول داخل الخيمة في حين أن عليه أن يتقد الجرحى والقتلى في ساحة المعركة ، وينظر في تتبع فلول الجيش الهارب .

ومن الثابت تاريخياً أنه خرج يتقد الجرحى خاصة أنه كان محارباً شجاعاً ومقداماً .

إن حقد كرامرز طغى عليه حتى في تدوين معلومة ملأ كتاب التاريخ ، فلم يستطع ذكرها صحيحة وإنما حاول طمسها بذكره أنه قتل في خيمته لأن في ذلك مذلة وإهانة للسلطان، وتصويره على أنه هارب من المعركة مختبئ في خيمته ، أما إذا ذكر الحقيقة وهي أنه قُتل أثناء تقاده الجرحى في ساحة المعركة فإنه يدل على شجاعة السلطان مراد الأول وإقدامه وأنه مجاهد إسلامي بحق ، ويدل أيضاً على عدم استطاعة الصرب الوصول للسلطان أثناء المعركة ؛ لأنه دائمًا في المقدمة ، وفي تظاهر الجندي الصربي بإعلان إسلامه ليصل إلى السلطان مراد الأول تأكيد لصفة الغدر التي اتصف بها أعداء الإسلام .

وأخيرًا فقد رد كرامرز على نفسه في المادة حيث أوضح أن سبب نجاح الفتوحات العثمانية الإسلامية وانتصارهم في المعارك هو تعاملهم الرحيم مع أهالي المناطق المفتوحة حدثاً ، بقوله : "أن نجاح الإجراءات يعزى بشكل أساسى إلى التعامل الإنساني مع السكان الأصليين بعد احتلال المنطقة" .⁽¹⁾

ومن الجدير بالذكر أن السلطان مراد الأول اشترك في 37 معركة خلال مدة حكمه وانتصر في جميعها بقوه الإيمان والإسلام وإن كان المستشرقون يعزون هذه الانتصارات إلى ضعف الدولة البيزنطية ، وإلى الخلافات القائمة بين البيزنطيين وحكام البلقان كالصرب والبلغار وغيرهم ، ومن لم يتمكنوا من منع الانتصارات الإسلامية التي حققت فتوحات عظيمة على يد ذلك السلطان العظيم ، وكشفت عن مدى فساد الأنظمة المسيحية الداخلية ، وكان سلطاناً محبوباً من قبل شعبه وجنوده ، ويحمل القاباً مختلفة مثل : سلطان الغزاة والمجاهدين ، ملك المشايخ ، غياث الدنيا والدين ، شهاب الدين ، الغازي ، خنكار ،

⁽¹⁾ Karmers : murad I , Volume VII, P. 594 .

خداوندكار ، ليث الإسلام ، أبو الفتح ، غياث المسلمين ، السلطان العادل ، السلطان المعظم والملك العادل.⁽²⁾

وقد حول الدولة الصغيرة التي ورثها عن والده إلى دولة مترامية الأطراف اشتغلت على أجزاء من أوروبا ، وكان ذا عزم وثبات وإرادة ووفار ، كما اتصف بالشفقة على الرعية بغض النظر عن دينهم ، كما أدخل تنظيمات جديدة في الشؤون المالية والعسكرية ، وكان يستشير أركان دولته في الأمور المهمة كما كان يستمع إلى الآراء المخالفة له حيث أصبح ذلك عاملاً مؤثراً في نجاحه في مدة حكمه التي قضاها في ميادين الحروب ، وقام السلطان مراد الأول بحركة إسكان واسعة للعشائر التركمانية التي جلبهم من الأناضول في المناطق التي فتحها في الروملي ، مما أدى إلى ازدياد عدد المسلمين في هذه المناطق ، وأقام علاقات قرابة مع العديد من الإمارات الأناضولية ، وذلك لغرض تأمين الدولة بسيادة السلام بالمنطقة ليتسنى له الانشغال بالحرب مع الصليبيين ، وقد نقل السلطان مراد الأول عاصمة الدولة من بروسه إلى أدرنه ، وشيد فيها المساجد والقصور والأسواق والحمامات فتحولت إلى مدينة تركية إسلامية ، كما بني مسجداً ومدرسة وداراً لإطعام الفقراء وداراً للضيافة في بروسه ، ومسجدًا في بيلجيك ، ومسجدًا وزاوية في يني شهير.⁽¹⁾ وداراً لإطعام الفقراء "دار المرق" في إزنيق باسم والدته نيلوفر خاتون.⁽²⁾

أما عن مادة السلطان بايزيد الأول التي قدمها المستشرق هيوار ، فجاء فيها كثير من الأحداث المخالفة للواقع ، حتى إن المصادر التي اعتمد عليها قليلة جداً وأجنبية ولم يكتبها تركية أو عثمانية .

وقد اختصر في الأحداث بشدة خاصة أحداث الفتوحات ، ووصفها بأنها كانت سبباً في تخريب المناطق أكثر من إصلاحها ، كما أنه نعته بالسلطان الجبان الذي يهرب من ساحة

⁽²⁾ Mecdi Efendi , Sakayik Tercumesi , Istanbul 1269 , S , 37 ; Ali , "Birinci Murad' in Sikkeleri" TOEM , XIV / 4 (81) , S. 244 – 256 . Nesri , Tarih , I .. S . 307 – 309 . TY6225 .

وقفيه السلطان مراد الأول : مكتبة جامعة استانبول ، مرجع سابق ، رقم TV 6225 .

⁽¹⁾ Mecdi Efendi , Sakayik Tercumesi , Istanbul 1269 , S , 37 ; Ali , "Birinci Murad' in Sikkeleri" TOEM , XIV / 4 (81) , S. 244 – 256 . Nesri , Tarih , I .. S . 307 – 309 . TY6225 .

وقفيه السلطان مراد الأول : مكتبة جامعة استانبول ، مرجع سابق ، رقم TV 6225 .

⁽²⁾ Memduh Turgut Koyunluoglu , Iznik ve Bursa Tarihi , Bursa 1935 , S . 185 .

أكمل الدين إحسان أوغلي : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 15 .

المعركة ويترك جنوده ، ولم يُظهر السلطان بايزيد بالمظهر اللائق به ، وإنما صوره على أنه رجل حرب فقط وليس سلطاناً لدولة إسلامية .

ويمكن ترتيب الاتهامات التي وجهت للسلطان بايزيد من خلال مادته في دائرة المعارف الإسلامية كما يلي :

أولاً : أنه استن قانون قتل الإخوة .⁽³⁾

ثانياً : الحملات التي أرسلها السلطان كانت مهمتها التخريب وحصاره للقسطنطينية وعدم تمكنه من فتحها .⁽⁴⁾

ثالثاً : انضمام الأمراء الذين جردهم العثمانيون من ممتلكاتهم لتيمور لنك .⁽⁵⁾

رابعاً: صور لأسر السلطان بايزيد بمنتهى القسوة والتشويه، وبشكل لا يليق بسلطان محارب.⁽¹⁾

خامساً : صورة بايزيد يلدريم في أسر تيمور لنك وأسباب وفاته .⁽²⁾

لقد غالى هيوار كثيراً في مادته لدرجة أن الأحداث جاءت مخالفة ل الواقع تماماً .

بايزيد الأول هو السلطان الرابع للدولة العثمانية ، ولد سنة 762هـ / 1360م في بروسه ، وتولى السلطة عام 791هـ / 1388م ولم يكن عمره قد تجاوز تسعة وعشرون عاماً ، وذلك في أعقاب استشهاد أبيه في معركة قوصوه ، حيث بايعه قادة الجيش والمشاركون في المعركة بالإضافة إلى كبار رجال الدولة والوزراء وتمت المبايعة بناءً على وصية والده السلطان مراد الأول الذي نطق بها في أنفاسه الأخيرة ، بالإضافة إلى شجاعته وبسالته في المعركة ، لقد أتصف بايزيد بالشهامة والكرم والشجاعة العسكرية والتحمّس للفتوحات الإسلامية، وقد استحق لقب يلدريم أي الصاعقة ؛ وذلك لأن تحركاته كانت سريعة كالبرق.⁽³⁾

⁽³⁾ هيوار : مادة بايزيد الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 3 ، ص 328 .

⁽⁴⁾ هيوار : مادة بايزيد الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 3 ، ص 328 .

⁽⁵⁾ هيوار : مادة بايزيد الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 3 ، ص 329 .

⁽¹⁾ هيوار : مادة بايزيد الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 3 ، ص 329 .

⁽²⁾ هيوار : مادة بايزيد الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 3 ، ص 329 .

⁽³⁾ Hoca Sa deddin Efendi , Tacu't – Tevarih , I , S . 94 – 98 ; Nisanci Mehmed Ramazan , Mir'at – Kainat II . Istanbul 1290 , S . 22 – 36 .

عبد المنعم الهاشمي : مرجع سابق ، ص 55 . علي محمد الصلاحي ، مرجع سابق ، ص 111 .

كان السلطان بايزيد الأول سياسياً ومحارباً وإدارياً ، قضى عمره في ميادين القتال منذ صغر سنه ، وكان ذا شخصية قيادية فتأسس الأسطول البحري العثماني في زمنه ، كما حاصر القدسية لأول مرة في عهد الدولة العثمانية .

وقد أخذ العلم منذ صغره من علماء عصره المشهورين ، أمثال قاضي بروسه قوجا محمود والقاضي عسکر جاندارلي خليل والملا رستم القراماني ، كما درس القرآن الكريم على يد العالم الشهير محمد الجزري وتدرّب على السلاح على يد القادة المحنكين زمن والده ، أما عن السياسة والإدارة فقد تلقى أصولها من أركان الدولة المرموقين في عهد والده .

وقد اهتم السلطان بايزيد الأول اهتماماً بالغاً بالأعمال العمرانية ، إذ شيد أضخم مسجد في بروسه المعروف باسم (أولو جامع) أي الجامع الكبير ، وبنى حوله داراً لإطعام المساكين والفقراء وداراً للضيافة ومدرسة وحمامًا ، وداراً للشفاء ؛ حيث استقدم الأطباء من القاهرة للعمل فيها ، كما بني السلطان مساجد أخرى في كوتاهية وأدرنة ، وقد خصص أوقافاً كثيرة لهذه المؤسسات الخيرية .⁽⁴⁾

ولنأتي لأول افتراء واضح على السلطان بايزيد يلديرم .
أولاً : أنه استن قانون قتل الإخوة . فقال :

" وقد أمر بقتل أخيه الوحيد يعقوب لأنه خشي من تعلق الشعب به ، وأصبحت الجريمة سنة جرى عليها سلاطين آل عثمان حتى عهد الإصلاح "⁽¹⁾

ولم تكتف الدائرة بذلك بل ردّ كرامرز هذه المسألة في مادة الترك حيث كتب :
وسنة قتل الإخوة التي اشتراكها بايزيد الأول ، وهي النتيجة المحتملة لذلك الفتنة .⁽²⁾
إن الجرم بهذه المسألة لهو أمر خطير فعلاً ؛ وذلك لأنها تهمة لا تشمل سلطاناً واحداً وإنما عممت على سلاطين الدولة العثمانية . فكيف تعمم تهمة كهذه ولا يوجد لديه دليل أو نص في المراجع العثمانية ، أو وثيقة تؤكد قتل الإخوة ، أليس من مقتضيات البحث العلمي والأمانة التاريخية التي أرتضى هيوار حملها أن يقدم لنا دليلاً على صدق أقواله ، أم يلقي التهم جزافاً دون تميز .؟!

إن عباراته مبهمة وغير واضحة ، صورها على أنها جريمة عادية ، لكنه مدرك لمعناها الحقيقي ومغزاها ؛ إذ إنه لا داعي لقتل بايزيد لأخيه يعقوب طالما أن وصية السلطان

⁽⁴⁾ Hoca Sa' deddin Efendi , Tacu't – Tevarih , I , S .

⁽¹⁾ هيوار : مادة بايزيد الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 3 ، ص328 .

⁽²⁾ كرامرز : مادة الترك ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 5 ، ص174 .

مراد - في أنفاسه الأخيرة - هي مبايعة بابايزيد الأول سلطاناً دون منازع ، ولم يأت على ذكر يعقوب نهائياً ، والسبب الذي أدخله هيوار في سباق الحدث تافه جداً ، هو خوفه من تعلق الأهالي بالأمير يعقوب مما دفعه لقتله .

إن الأهالي كانوا متعلقين ببابايزيد لأنه كان شجاعاً ومحارباً مقداماً ، و العصر الذي جاء فيه كان عصر جهاد إسلامي بالإضافة إلى اتصافه بالمرءة وحسن الخلق . فلماذا يرفضه الشعب ؟

و لو افترضنا ارتكاب السلطان بابايزيد لهذه الجريمة البشعة فهو وحده يتحمل وزرها ، وليس من العدل أو الإنصاف تعيمها على جميع السلاطين العثمانيين ، أو وصفها بأنها سنة ارتضاها شيوخ الإسلام والعلماء .⁽³⁾

إضافة إلى أنه كيف سيترك العلماء السلاطين يقومون بهذه الفعلة الشنيعة دون اتخاذ موقف تجاههم وكيف سيطلب السلطان بابايزيد الأول من العلماء أن يغضوا الطرف عن هذه الفعلة ، وهو الذي رفض الإمام والقاضي شمس الدين فناري ⁽¹⁾ شهادته في المحكمة عندما أفتضى حضوره للإدلاء بشهادته في أمر من الأمور ، وعندما وقف أمام القاضي ، رفض شهادته وذلك لأنه لا يؤدي صلاته جماعة ، فتركه السلطان بابايزيد الأول وخرج من القاعة بمنتهى الهدوء ، وأصدر أمراً في نفس اليوم ببناء جامع ملاحق لقصره ، ليؤدي فيه الصلاة جماعة دون تأخير .⁽²⁾

وقد وقع تحت تأثير هذا الافتراء أكثر المؤرخين والمصادر والمراجع إلا من رحم ربى ، حتى إنَّ المؤرخين الحديثين الثقات وقعوا في هذا الخطأ، وذلك نتيجة لحبك خيوط الافتراء حول الحدث ، أو نتيجة للنقل دون التحليل والتمحيص في المعلومة وهي من أهم مهام المؤرخ الناقد الأمين .

أما ما حدث فعلاً في مقتل الأمير يعقوب فقد أورده المؤرخ عاشق باشا زاده ، في كتابه تاريخ عاشق باشا زاده ، وقد اكتملت صورة الحقيقة برأي خواجة سعد الدين أفندي مؤرخ القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، ومفاد الرواية أنه لم يكن قد خنق

⁽¹⁾ زياد أبو غنيمه : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ، ص 172 .

⁽²⁾ هو شمس الدين محمد بن حمزة الفناري ، كان عارفاً بالعلوم العربية ، وعلمي البيان والمعانوي ، وعلم القراءات ، أخذ عن علماء بلاده ، ثم ارتحل إلى مصر طلباً للعلم ، ثم تولى قضاء بروسة ، وأدى فريضة الحج مررتين وزار القدس ، وله كتاب " فصول البداع في أصول الشرائع " وغيرها: شكيب أرسلان : مصدر سابق ، ص 67 ، 68 .

⁽³⁾ أورخان محمد علي : مرجع سابق ، ص 25 ، 26 .

يعقوب بأمر من السلطان بايزيد الأول ، وإنما رأى هذا الأمر لازماً أمراء الدولة وقادة الجيش الموجودين في ساحة المعركة ، وهم من أمروا بقتل يعقوب ، حيث خافوا من عاقبة حب الجنود له ، وأنه من الممكن أن يطالب بالحكم فتحت فتنة ترافق مئات الأنفاس ، فرأوا تنفيذ القتل فيه في الخيمة نفسها التي لفظ فيها مراد الأول أنفاسه الأخيرة ، قبل وصول بايزيد الأول إلى الخيمة ، خاصة إذا ما علمنا أن أبناء السلطان مراد الأول كانوا متفرقين بعيدين عن ساحة المعركة يتبعون فلول الجيش المهزوم ، وعندما أدركوا الوفاة السلطان مراد الأول أرسلوا في طلب بايزيد الأول الذي عاد مسرعاً ، فاكتشف مقتل أخيه .⁽³⁾

ولا شك أن مسألة اتخاذ القادة وأمراء الدولة قراراً مثل هذا يعد تعدياً على حدود وظائفهم ؛ لأن السلطان بايزيد الأول هو الوحيد الذي يملك زمام القرار في أمر أخيه ولا يحق لهم مثل هذا الأمر ، لكن حين وصول بايزيد للخيمة أدرك أن السهم نفذ ولا فائدة من الحديث ، ومن الممكن أن يتخذ سعاده الأيمن ومستشاره لعلمه وحب الناس له ، بالإضافة إلى أنه عرف عن بايزيد الشجاعة والإقدام مما يرجح كفة تولية الحكم له.

وفي رأي الدارسة أن هذه المعلومة قد برأت السلطان بايزيد الأول تماماً من دم أخيه.

ثانياً : الحملات التي أرسلها السلطان كانت مهمتها التخريب ، وحصاره للفلسطينية وعدم تمكنه من فتحها .

الحقيقة أن هiyor قد أغفل تماماً الجانب العسكري والحضري في حياة السلطان بايزيد ، واقتصر بإشارات عابرة لفتواته ، ولم يذكر السبب الحقيقي لضم بعض الأقاليم ، فمثلاً نجده عندما ضمت إمارات صاروخان ومنتشه للدولة العثمانية لم يذكر سبب ضمها قائلاً : "والحق إمارات صاروخان ⁽¹⁾ ومنتشه ⁽²⁾ بالدولة العثمانية ".⁽³⁾

والسبب لضم هذه المناطق أن الإمارات الأناضولية قد تحالفت ضد العثمانيين بمجرد توسيع السلطان بايزيد يلدرم الحكم ، فقد قامت الإمارات التركية الحاكمة في الأناضول

⁽³⁾ عبد القادر ده ده أوغلو : مرجع سابق ، ص 25 .

⁽¹⁾ صاروخان : Saroukhan اسم لواء في ولاية أيدين ، تقع في الأناضول ومركزها مدينة مغنسيا . س . موستراس : مرجع سابق ، ص 325 .

⁽²⁾ متنشه : أحد ألوية ولاية أيدين في الأناضول ، مركزها مدينة موغلة . مرجع سابق ، ص 469 .

⁽³⁾ هiyor : مادة بايزيد الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 3 ، ص 328 .

بالتحالف ضد السلطان الجديد بايزيد الأول برئاسة علاء الدين بيك القرمانى الذى تعود أن يتمرد على العثمانيين كلما ساحت له الفرص ، خاصة أثناء اشغال السلطان في جبهة معينة مثلاً ، فقام السلطان أولاً بأخذ التدابير الضرورية في الجانب الأوروبي (الروملي) حيث عين على المناطق المفتوحة أهون قادته ، ثم توجه عام 793هـ / 1390م صوب الأناضول على رأس جيش كبير ، واستطاع أن يخمد تمرد الإمارات المتحالفه مثل إمارات أبناء جارميان وأبناء آيدين وأبناء صاروخان وضم أراضيهم ، فقطع الطريق بينهم وبين علاء الدين بيك ليبقى الأخير دون الدعم العسكري القادم من تلك الإمارات ، حيث أجل الهجوم عليه في وقت آخر ، ونتيجة لهذه الحملة العسكرية دخلت كافة المناطق الواقعة غرب الأناضول تحت الحكم العثماني فيما عد أزمير التي كانت في حوزة اللاتين ، وقد عين السلطان بايزيد الأول ابنه سليمان جلبي والياً على صاروخان ، وإنه الآخر أرطغرل جلبي والياً على آيدين ، كما عين قرا نيمير طاش باشا والياً عاماً على الأناضول ، وجعل كوتاهية مركزاً لها .⁽⁴⁾

ثم إن ضم السلطان بايزيد الأول لغرب الأناضول جعله يتملك شريطاً ساحلياً طويلاً على بحر إيجه والبحر الأبيض المتوسط ، مما أدى به أن يولي اهتماماً كبيراً للبحرية ، وتشكيل القوات البحرية ، فتأسس أول أسطول عثماني مكون من ستين سفينه ، وعين على قيادتها صاروجاً باشا الذي قام بحملات بحرية على جزر ساقيز وأجرى بوز وعلى شواطئ بحر أيجه استعداداً لفتح القسطنطينية .

كما قام هذا القائد أيضاً بتشييد قلعة غاليبولي وبتأسيس ترسخانة (مصنع السفن) في المنطقة لغرض مراقبة مضيق جناق قلعة (الدردنيل) ، وهذا الأسطول ساعد في ضم الإمارات الصغيرة على البحر الأسود ، حتى أستحق لقب "سلطان المجاهدين من مماليك مصر".⁽¹⁾

⁽⁴⁾ عبد الرحمن شرف : مصدر سابق ، ص 92 ، 93 .

Asikpasazade . S. 72 – 73 ; Nesri , Tarih , I , S . 314 ; Ahmed Refik , Osmanli Kumandanlari , S. 34 .

=

= - H. Inakik : " Bayezid " Diyanet Islam Ansiklopedisi , Istanbul 1997 , Citt 5 , S , 231-234 .

- A.Ozel : Islam Hukukunda Tilke Karram , Darulislam – Darulharb , Istanbul 1988 , S, 135-139 .

محمد سعيد طقوش : مرجع سابق ، ص 48 – 50 .

⁽¹⁾ S. Tekindag : Berkuk Derrinde memluk Sultandig , Istanbul 1961 , S, 102 .

Asikpasazade , S . 72 , Nesri , Tarih , IS . 344 ; Hoca Sa' deddin Efendi , Efendi , Tacut – Tevarih, I – S.729 .

وبذلك تم تأسيس أول أسطول بحري عثماني مما جعل السلطان بايزيد يضع حصار القسطنطينية نصب عينيه ، " وأرسل بايزيد عدة حملات خربت جزيرة فيوس وإبيه وأنطاكا ، ثم حاصر القسطنطينية مدة سبعة أعوام ، وأسرع يوحنا باليولوج في تحصينها " .⁽²⁾

إن الحملات التي قام بها السلطان بايزيد لم تقم بتخريب أي شيء على الإطلاق ، وإنما قامت بفتح المدن والقلاع لنشر الإسلام فيها ، والدليل على ذلك أن سياسة السلطان بايزيد في الفتوحات وتسامحة الدينية المطلق جعل هيوار نفسه يعترف بذلك في المادة نفسها حينما كتب : " وفضل أهالي توفات ⁽³⁾ وسيواس ⁽⁴⁾ وقيصرية أن يسلموا بلادهم إلى بايزيد على أن يتولى عليها ابن القاضي برهان الدين "⁽⁵⁾ ، وفي هذا اعتراف صريح منه بمروءة السلطان بايزيد وتسامحة .

لقد قام الجيش العثماني بتنظيم الغارات على سالونيك وجزر المورا (اليونان) ، حيث تم فتح أغلب جزر المورا ولم يقم بتخريبها ، كما استمرت على أراضي المجر والأفلاق ، وأخيراً استطاعت القوات العثمانية في يوليو 1393هـ/796م من فتح طرنوفا في الأفلاق وذلك بعد حصار دام ثلاث سنوات ، فسقطت بذلك دولة البلغار ووقع أميرها مانيس معاهدته يعترف فيها بسيادة الدولة العثمانية على بلاده ، ودفع مبلغاً من المال سنوياً مقابل أن يحكم البلاد بقوانينها ، فصارت الدولة العثمانية جارة مع دولة المجر .⁽¹⁾

ثم جهزَ السلطان جيشاً كبيراً وسار للمرة الثانية نحو الأناضول بهدف إخماد عصيان علاء الدين بيك صاحب الإمارة القرمانية الذي قام بالاستيلاء على بعض المدن العثمانية في المنطقة ، فقضى أولاً على إمارة أولاد حميد ودخل أنطاليا حيث جعلها سنجقاً تابعاً للدولة العثمانية عام 1391هـ / 794م ، ثم توجه صوب الأراضي القرمانية فاضطر علاء الدين إلى الفرار ، وأخيراً قام السلطان بحصار قونية ، مما جعل علاء الدين يطلب الصلح والعفو من السلطان كعادته في كل مرة، حيث تعهد أن ينسحب من الأراضي العثمانية ويعيد المدن

⁽²⁾ هيوار : مادة بايزيد الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 3 ، ص 328 .

⁽³⁾ توفات : Tokat مدينة تركية في الأناضول في ولاية سيواس . س . موستراس ، مرجع سابق ، ص 222 .

⁽⁴⁾ سيواس : Sirass مدينة تركية في الأناضول تقع على نهر قزل إرماق . مرجع سابق ، ص 317 .

⁽⁵⁾ هيوار : مادة بايزيد الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 3 ، ص 328 .

⁽¹⁾ Hoca Sa' deddin Efendi , Tacut – Tevarih , I , S . 140 ; Nesri , I , S . 122 .

عدنان العطار : الدولة العثمانية من الميلاد إلى السقوط ، ط 1 ، دمشق : دار وهي القلم ، 1427هـ / 2006م ، ص 35 ، 36 . A.S. Atiye : Nigbolu Haclilor Seferi Ctvç . E. urasl , Ankara 1956 , P . 140 .

التي أخذها إلى العثمانيين ، وقد قام السلطان بايزيد الأول بتعيين صاري تيمور باشا على إدارة هذه المناطق ، ثم رجع إلى بروسه.

ومن جهة أخرى قامت بعض الإمارات الأناضولية بفسخ المعاهدات التي عقدتها مع العثمانيين وسيطرت على الأراضي الواقعة على الحدود العثمانية عام 795هـ / 1392 م مستغلة انشغال السلطان بايزيد الأول في الفتوحات في أوروبا ، وكان على رأس المتمردين سليمان باشا رئيس إمارة أولاد جاندار الذي كان يحكم قسطموني⁽²⁾ ، إذ تحالف مع القاضي برهان الدين ضد الدولة العثمانية ، فقام السلطان بالهجوم على قسطموني وفتحها وقتل سليمان باشا في ساحة المعركة ، فدخلت قسطموني تحت السيادة العثمانية ، ولكن الجيش العثماني خسر في المعركة التي دارت بينه وبين القاضي برهان الدين في 795هـ / يوليو 1392 م في موقع جوروم في الأناضول ، حيث استشهد فيها قائد أرطغرل بن السلطان بايزيد الأول ، وانسحب القاضي برهان الدين إلى سivas ، وتمكن الجيش العثماني من الدخول إلى أماسيا عام 796هـ / 1393 م ، وأصبح محمد جلبي بن السلطان بايزيد الأول⁽¹⁾ والياً عليها.

وبالنسبة لحصار القدس فقد حاصرها السلطان بايزيد الأول مرتين ، حاصرها المرة الأولى عام 796هـ / 1393 م ، لمدة ستة أشهر كاملة ، لكن الحصار كان به كثير من الثغرات في التدابير العسكرية فلم يتم فتحها ورفع الحصار .⁽²⁾

وفي السنة التالية ضرب الحصار مرة أخرى على القدس عام 797هـ / 1394 م ، حيث قام الجيش العثماني بحصار القدس للمرة الثانية إثر قيام الإمبراطور البيزنطي مانويل الثاني بطلب الدعم العسكري من أوروبا ضد الدولة العثمانية كعادته كلما سُنحت له الفرص ، وقد استمر الحصار حتى عام 798هـ / 1395 م .

ولا شك أن تقوية الوجود الإسلامي في الأناضول - بفضل جهود العثمانيين ووصولهم إلى هذه الدرجة من التقدم ، وحصارهم للقدس للمرة الثانية التي هي محطة أطماء جميع ملوك أوروبا - قد أيقظ الحمية المسيحية ، مما أدى إلى إثارة مخاوف الدولة البيزنطية

⁽²⁾ قسطموني Kastamouni ولاية في الأناضول ، تتكون من أربعة ألوية وهي جزء من منطقة باللغونينا القديمة وهي المنطقة الساحلية في شمال آسيا الوسطى . س . موستراس : مرجع سابق ، ص 399 .

⁽¹⁾ Asikpasazade , S. 72 ; Nesri , Tarih , I , S. 314 ; Hoca Sa'deddin Efendi , Tacu;t – Tevarih, I,S. 129.

⁽²⁾ عبد الرحمن شرف . مصدر سابق ، ص 95 .

والبابوية ، فقام البابا بتحريض ملك المجر وحثه ضد العثمانيين ، وتم إعداد جيش صليبي من أفضل الجيوش المسلحة في أوروبا .

تجمعت هذه القوة الصليبية الكبيرة بقيادة ملك المجر " سيموند " والإمبراطور البيزنطي " مانويل الثاني " الذي طلب الدعم العسكري من الدول الأوروبية ، ودعا البابا لتجهيز حملة صليبية كبيرة ضد العثمانيين تكونت من عساكر المجر وألمانيا وبريطانيا وسويسرا وفرنسا وبولندا وبعض الإمارات الإيطالية ، حتى إن البندقية قدمت سفناً لتلك القوات بلغ حجم تلك القوات مائة وعشرين ألف مقاتل يمثلون تلك الدول المسيحية ، لقد كان هذا الزحف الصليبي من أخطر التحركات الصليبية ضد الدولة العثمانية ، لكن السلطان بايزيد كان لهم بالمرصاد ، فجهز قوة كبيرة تقارب قوات التحالف الصليبي وأمتازت بحسن تنظيمها وإيمانها القوي بالله تعالى ونشر الإسلام ، والتقت هذه الجيوش في موقع قرب نهر الدانوب نيقوبولي Nicopolis عام 798هـ/1395م وانتصر العثمانيون انتصاراً باهراً وهزم الصليبيون وتقتلت جموعهم ، وغنم الجيش العثماني كل معداتهم وأسلحتهم ، وقد وطدت هذه المعركة مركز الدولة العثمانية في منطقة البلقان بأكملها .⁽¹⁾

وعقب انتصاره في المعركة أرسل أنباء هذا الانتصار إلى الخليفة المتوكل العابسي في القاهرة ، فرد عليه بأن أرسل إليه تشريفاً وخليعاً وسيفاً وهذا يعني الاعتراف ببايزيد سلطاناً على إقليم الروم ، وفي هذا تأكيد رسمي لواقع العثمانيين .⁽²⁾ وبدأ السلطان بايزيد يركز جهوده على حصار القسطنطينية مرة أخرى والعمل على فتحها ، غير أن الإمبراطور البيزنطي نادى بحركة تطهير واسعة لطرد العثمانيين من المنطقة وتخلص القسطنطينية من الحصار .

غير أن هذه القوة الصليبية الضخمة التي أحشدت في (بودا) قد أمكن إبادتها خلال مدة قصيرة عند مشارف نيكتولي Nicpoli عام 799هـ / 1396م .⁽³⁾

وكانت تلك القوة الصليبية خلال زحفها نحو هذه الأماكن تحرق وتهدم ما يصادفها في الطريق ، وتوقع أنواع المظالم بالسكان الأرثوذكس المحليين ، فلما منيت بالهزيمة تأكيد الرأي القائل باستحالة طرد القوة العثمانية من الروملي ، كما عملت على ذيوع شهرة

⁽¹⁾ شبيب أرسلان : مصدر سابق ، ص 65 ، 66 . عبد الرحمن شرف : مصدر سابق ، ص 65 ، 96 . محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص 50-54 . عدنان العطار : مرجع سابق ، ص 36 ، 37 . أميرة مراح : مرجع سابق ، ص 27 ، 26 .

⁽²⁾ محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 22 .

⁽³⁾ A.S.Atiye Nigbolu Haclilar Seferi , 1956 , 1956 , P. 755 .

السلطان العثماني (بايزيد الأول) الصاعقة في العالم الإسلامي ، فهو مجاهد كبير ومتسامح دينياً .

هذا الانتصار هيأ الجو للسلطان بايزيد أن يضرب الحصار حول القسطنطينية ، أما الإمبراطور البيزنطي ، فقد كان يعتقد عن إيمان أن إنقاذ القسطنطينية قريب المنال .⁽⁴⁾

وقد صدق حدس الإمبراطور البيزنطي ؛ إذ أنقذ القسطنطينية من الحصار الخطر المغولي الداهم القادم من الشرق على العثمانيين وتأخر فتح القسطنطينية 50 عاماً .

لقد قام السلطان بايزيد الأول ببناء قلعة محكمة على الشاطئ الآسيوي من مضيق البوسفور ؛ لقطع الإمدادات القادمة إلى بيزنطة عن طريق هذا المضيق ؛ لأنّه قرر بشكل حاسم أن يفتح عاصمة الدولة البيزنطية ، ولهذا قام أولًا بفتح قصبة شيلة الواقعة على البحر الأسود ، ثم تغلغل صوب البحر الأسود على امتداد مضيق البوسفور ، حيث فتح كل المناطق الواقعة على الساحل الآسيوي للبوسفور حتى أستقر في موقع القلعة التي قام بتشييدها ، وقد بدأت أعمال البناء⁽¹⁾ في سنة 800هـ / 1397م ، وعرفت هذه القلعة باسم "أناضولي حصار" بمعنى قلعة الأناضول ، و"ذلك كوزلاجة حصار" بمعنى القلعة الجميلة ، كما عرفت أيضًا باسم "ينيجه حصار" بمعنى القلعة الجديدة ، وقد شيدت القلعة في أضيق نقطة من مضيق البوسفور إذ تبلغ المسافة بين الشاطئين الآسيوي والأوروبي في هذه النقطة سبع مائة متر ، وبعد هذه الإعدادات العسكرية طلب السلطان بايزيد الأول من الإمبراطور البيزنطي أن يسلم له القسطنطينية عن طريق السلم والصلح ، لكن الإمبراطور رفض الطلب اعتماداً على الدعم العسكري الفرنسي المكون من ستمائة خيالة ، كما أن الدول النصرانية الأخرى التي لم تتسّ هزيمتها أمام الجيش العثماني في معركة نيكوبوليس قامت هي الأخرى بدعم بيزنطة ، فأرسلت البندقية عشر سفن حربية ، والجنويز خمس سفن حربية .⁽²⁾

لكن السلطان بايزيد الأول لم يصل إلى تحقيق هدفه في فتح القسطنطينية على الرغم من أخذة للاستعدادات اللازمة لذلك ، لسببين : الأول هو أن القسطنطينية كانت تحتمي وراء الأسوار المرتفعة المحكمة ، والثاني والأهم اضطرار السلطان لفك الحصار والتوجه نحو

⁽⁴⁾ H.Inalcik : Turkler , Islam Ansiklopedisi , 2, S, 293-294 .

⁽¹⁾ Ali , Kunhu'l – Ahbar , V , S . 81 ; Hayrullah Efendi , V, S. 54 ; Ibn Kemal , Tarih , Nuruosmaniye Kutuphanesi , Nr . 3078 , Varak 96 a

⁽²⁾ Dursun Bey , Tarih – i Ebu; 1 – feth , S. 39-40 .

الشرق لمواجهة الخطر المغولي بقيادة تيمور لنك (تيمور الأعرج) الذي أجتاح القسم الشرقي من الأناضول .

أما بالنسبة لظهور الخطر المغولي واحتياجه للمنتكرات العثمانية ، ومن ثم المواجهة التي تمت بين السلطان بايزيد الأول وتيمور لنك ، فإن ما جاء في مادة هيوار قد جاب الحقيقة والصواب .

ثالثاً : انضم الأماء الذين جردهم العثمانيين من ممتلكاتهم لـ تيمور لنك . فقال :

" انضم إليه الأماء الذين جردهم العثمانيون من ممتلكاتهم " .⁽³⁾

ما ذكره هيوار حدث خاطئ تماماً وغير موثق بمصادر معينة ، أو ذكر لأسماء تلك الشخصيات أو مناطق نفوذهم .

إن العلاقة بين السلطان بايزيد الأول وتيمور لنك كانت علاقة متواترة منذ البداية، وشابها كثير من الخلافات ، أولها وأهمها الخلاف المذهبى ، حيث إن السلطان بايزيد سنى ، أما تيمور لنك فشيعي ، مما ولد الخلاف بينهم تلقائياً ، عوضاً عن احتياج تيمور لنك نفسه لكل المناطق التي خضعت للدولة العثمانية سابقاً في سبيل بناء دولة كبيرة .

وينسب تيمور لنك (تيمور الأعرج) إلى الأسرة المغولية ، وكان يحكم في سمرقند ، امتلك جيشاً قوياً من حيث العدد والعدة ، فقام بموجة من التوسيع ، فاستولى أولاً على شمال إيران ودخل شيراز ، ثم واصل مسيرة صوب بغداد التي كان يحكمها السلطان أحمد الجلائري الذي اضطر إلى الفرار فاستسلمت المدينة إلى تيمور لنك ، وحاول السير نحو روسيا ، وفي الوقت الذي كان منشغلًا في حملته على جورجيا رجع السلطان أحمد الجلائري إلى بغداد واستعادها ، فغضب تيمور عليه وعاد مرة أخرى إلى بغداد ، مما حدا بأحمد الجلائري أن يخرج مرة أخرى ، وقد طلب الالتجاء إلى الدولة المملوكية في مصر . ولكن لم يحصل على موافقة من والي حلب على طلبه ، فاضطر اللجوء إلى الدولة العثمانية ، حيث وافق السلطان بايزيد الأول على ذلك ، كما وافق السلطان على لجوء قرا يوسف حاكم دولة الخراف السود الذي فرّ هو الآخر نتيجة الاحتياج المغولي لبلاده ، ولم يكتف السلطان بايزيد الأول بهذا فحسب ، بل قام بتعيين أحمد الجلائري واليَا على كوتاهية ، وتعيين قرا يوسف على آقراي ، وقام السلطان كذلك بإلحاق أرزنجان إلى الأراضي العثمانية وبتعيين

⁽³⁾ هيوار : مادة بايزيد الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 3 ، ص 329 .

ابنه سليمان جلبي والياً على سيواس ، مما أغضب حكام الأمارات الأناضولية مثل حاكم إمارة جرميان وحاكم إمارة آيدين وحاكم إمارة منتشة ، فذهبوا إلى تيمور لطلب الدعم منه لأجل إعادة أملاكهم ، كما قاموا أيضاً بتحريض تيمور ضد السلطان بايزيد الأول بالإضافة إلى تلقيه المساعدة من أمراء التركمان ⁽¹⁾ ، وهذا الأمر وجد صدى في نفس تيمور لنك ، ووافق خطته في القضاء على السلطان العثماني ، بالإضافة إلى أن حكام الإمارات الأناضولية كانوا دائمي الثورة على العثمانيين حتى وإن خضعوا للحكم العثماني لفترة من الزمن ، إلا أنهم يعودون دائماً للتمرد عليهم ، ويحتاجون إلى حليف قوي يساندهم ضد السلطان العثماني .

ومن جهة أخرى فإن الحكام الذين هربوا من اجتياح تيمور لنك والتجأوا إلى العثمانيين حفزوا السلطان بايزيد الأول ضد تيمور لنك ، فقام كل من تيمور لنك وببايزيد الأول بحماية اللاجئين إليهما وبالدفاع عن حقوقهم .

ثم بدأت المراسلات بين الجانبين المغولي والعثماني ، وقد تضمنت هذه المراسلات التي دامت سنتين الاتهامات والاحتقارات المتبادلة بين الطرفين ، وطلب كل طرف من الآخر الاستسلام والاعتراف بالتبغية للأخر .

لقد طلب تيمور من السلطان بايزيد الأول أن يعيد إليه بعض الأشخاص الذين هربوا منه والتجأوا إلى الدولة العثمانية ، مثل قرا يوسف وأحمد الجلائي ، وكان السلطان في تلك الأثناء منشغلًا بفتحاته في البلقان وبحصار القسطنطينية ، فلم يرد على مطالب تيمور على الرغم من تخمينه مدى الخطورة التي سوف يواجهها .

ومن جهة أخرى كان تيمور - على الرغم من قوته وانتصاراته المتواصلة في كافة حروبه - يهاب جانب بايزيد الأول ، إلا أن المحرضين وأصحاب الفتنة عملوا كل ما بوسعهم لسحب الحاكمين المسلمين إلى ميدان القتال .⁽¹⁾

وأخيرًا تحرك تيمور على رأس جيشه القوي والضخم نحو سيواس ، إذ وصل إلى مشارف المدينة 803هـ / 9 أغسطس 1400م وحاصرها ، فأرسل بايزيد الأول ابنه محمد

⁽¹⁾ Omer Faruk Yilmaz , Belgelerle Osmanli Tarihi , Istanbul 1999 , S . 175 .

محمد عبد اللطيف هريدي : الحروب العثمانية الفارسية وأثرها في إنحسار المد الإسلامي عن أوروبا ، القاهرة : دار الصحوة للنشر ، ط 1 ، 1408هـ / 1987م ، ص 26 .

⁽¹⁾ Feridun bey , Munseat , I , S. 118 .

جلبي على رأس قوة استطلاعية إلى المنطقة ، ولكن قبل أن يصل إلى المنطقة استسلمت المدينة وقلعتها إلى الجيش المغولي ⁽²⁾ ، ثم توجه تيمور لنك صوب الشام ، حيث قابل الجيش المملوكي بالقرب من حلب فهزمه ، ودخل المدينة ثم استولى على دمشق ، وتوجه نحو بغداد واستولى عليها مرة أخرى ، ثم انتقل إلى صحراء قرطاج ، وهذا بدأ تيمور بـ تكرار طلباته من السلطان بايزيد الأول ، وكان يذكره بانتصاراته المتواصلة في الحروب التي خاضها . ⁽³⁾

فقد تضمنت إحدى رسائل تيمور لنك إلى بايزيد الأول العباره الآتية : "سأقضى هذا الشتاء في قرطاج ، وسوف أكون في الربيع على الحدود العثمانية ، وانتظر السفير العثماني ، وفي حالة عدم استلامي جواباً إيجابياً لطلباتي ، سألتقى معك في ميدان القتال ، وأقوم بإذابتاك كالشمع حتى لو كنت حجراً" ⁽⁴⁾ وقد نفذ تهديده بـ حذافيره حيث أذابه من الهم والحزن حتى مات في الأسر .

⁽²⁾ عبد الرحمن شرف : مصدر سابق ، ص100 .

Ali , Kunhu l – Ahbar , III S. 96 – 100 : Solakzade , 1 . S. 91-96 .

⁽³⁾ Nizameddin Sami . Zafername , Cev . Necati Lugal , TTK . Ankara 1949 , S. 297 .

⁽⁴⁾ Omer Faruk Yilmaz , Belgelerle Osmanli Tarihi , Istanbul 1999 , S . 180 .

وفي هذه الأثناء قام تيمور لنك بتجديد جيشه وتجهيزه للحرب ، وانضم إليه أيضًا حفيده محمد مرزا مع جيشه المختار مع العساكر المحنكين والمبربين ، وكان تيمور واتقاً من نفسه إذ لم يبق أي خطر يمكن أن يهدده من الطرف الآسيوي ، ولكن السلطان بايزيد الأول كان موقفه أكثر خطورة ؛ إذ أنه يواجه تهديداً من جبهات مختلفة مثل البلقان وبىزنطة ، إضافة إلى بعض الأمارات الأناضولية التي انضم حكامها إلى تيمور .

ثم أرسل تيمور لنك إلى بايزيد الأول رسالته الأخيرة التي تضمنت بأنه لا يريد سفك الدماء ولكنه يريد قبول شروطه وطلباته ، وإذا لم يتم القبول فإن المسؤولية عن نتائج الحرب تقع على عاتق بايزيد الأول ، كما تضمنت الرسالة أيضًا تسلیم قرا يوسف وأحمد الجلائري إليه ، وانسحاب العثمانيين من قلعة سيواس .⁽¹⁾

وكان تيمور لنك يقدم مع جيشه بشكل سريع ويتأذل داخل الأناضول من جهة ، ويعلن بأنه لا يريد سفك الدماء من جهة أخرى ، وبهذا نجح في تأمين انضمام أغلب حكام الإمارات الأناضولية إليه بعد أن وعدهم بإخراج العثمانيين من أراضيهم وبمنحهم امتيازات أخرى ، وبالتالي سينضم له هؤلاء بمنتهى البساطة خاصة إذا ما أدركنا أن علاقة تلك الإمارات سيئة مع العثمانيين على طول فترة التاريخ العثماني ، وكانوا دائمي الثورة والتمرد عليهم .

وفي الوقت الذي وصل فيه تيمور إلى هضبة سيواس بعث إليه السلطان بايزيد الأول رسالة تضمنت بأن تيمور لنك هو المسؤول عن الحرب التي سوف تقع بين الطرفين ، وقد كتب السلطان اسمه بالحروف الكبيرة وباللون الذهبي ، فيما كُتب اسم تيمور بالحروف الصغيرة وباللون الأسود مما أغضب تيمور لنك فقام بتظيم استعراض عسكري أمام السفير العثماني الذي حمل الرسالة إليه وذلك لأجل بيان قوة جيشه له ، وبعد أن رجع السفير وأخبر السلطان بقوة جيش تيمور لنك من حيث العدد والعدة قام القواد وأركان الدولة العثمانية بإيقاع السلطان للعدول عن الحرب مع تيمور لنك ، لكن السلطان أبى ذلك وأصر على خوض الحرب ليثبت شجاعته وعدم خوفه من تيمور لنك ، وليدافع عن أراضيه لآخر قطرة ، خاصة وأن تيمور لنك هو المعتمدي والمغتصب ، فجهَّز جيشه وسار صوب هضبة جوبوقي القرية من أنقرة ليقابل الجيش التيموري ، وكان الجيش العثماني يتكون من مائة وخمسين

⁽¹⁾ Hoca Sa' deddin Efendi , Tacu't – Tevarih , I , S . 165 – 172 .

ألف مقاتل، بينما كان الجيش المغولي مؤلفاً من سبعمائة ألف مقاتل حسب بعض المصادر ، فيما حضرت بعض المصادر عددهم ما بين ثلاثة وخمسين ألف وخمسمائة ألف مقاتل . وقد أخذ السلطان بايزيد الأول مكانه في مركز الجيش العثماني ، كما أخذ القادة مثل الصدر الأعظم علي باشا وتيمور طاش باشا ومراد باشا وحسن آغا وقرا يوسف أمكنتهم على رأس قواتهم في المقدمة والأجنحة والمؤخرة ، إضافة إلى موسى وعيسى ومصطفى سليمان ومحمد أولاد السلطان بايزيد الأول ، إذ أخذ كل واحد مكانه على رأس قوة مقاتلة وضم الجيش العثماني قوة مهمة ، وهي مؤلفة من التتار السود الذين قاموا بدور مهم في تحديد كفة النصر .

وكان تيمور لنك في مركز الجيش المغولي ، ومعه حاكم جغطاي محمود خان ، وأخذ حكام الإمارات الأناضولية مثل اسفنديار بيك حاكم اسفنديار ومحمد بيك حاكم منتشة ويعقوب بيك حاكم جرميان الذين انضموا إلى جيش تيمور أمكنتهم في صفوف الجيش المغولي ، وإضافة إلى تفوق الجيش المغولي على الجيش العثماني من حيث العدد والعدة فقد استخدم الجيش المغولي عدداً من الفيلة في مقدمة الجيش ، وترواح عددها بين أربعين - خمسين فيلاً.⁽¹⁾

وقد بدأت الاشتباكات الأولى بين الجيشين صبيحة يوم 19 ذي الحجة 804هـ / 20 يوليو 1402م ، وكانت المعركة تسير بشكل متوازن بين الطرفين في البداية ، ولكن الجيش العثماني تعرض للخيانة الداخلية ، حيث بدأت قوات التتار السود بضرب العثمانيين من الخلف والانضمام إلى جيش تيمور لنك ، ثم قام تيمور لنك بحيلة حربية أدت إلى تخلل قوة وانضباط الجيش العثماني ؛ إذ وضع حكام الإمارات الأناضولية في الصفوف الأولى من جيشه فقام هؤلاء بدعاوة قادة الجيش العثماني للانضمام إلى جانبهم ، مما أدى إلى الانفعال والفتنة في صفوف الجيش العثماني ، وبالفعل أنضم قسم منهم إلى الطرف الآخر ، وانسحب قسم آخر منهم من ساحة الحرب ، و ذلك بعد أن اشتد القتال فتقهقر الجيش العثماني وانفرط عقد تماسته وتنظيمه .⁽²⁾

⁽¹⁾ عبد الرحمن شرف : مصدر سابق ، ص 101 – 104 .

Hoca Sa' deddin Efendi , Tacu't – Tacu't – Tevarih , I . S . 169 – 171 .

⁽²⁾ Nesri , Tarih , I . S . 350 – 351 : Hoca Sa' deddin Efendi , Tacu't – Tevarih , I , S . 171 – 172 .

لمعرفة المزيد عن ملابسات العلاقة بين السلطان بايزيد الأول وتيمور لنك الرجوع إلى المراجع التالية :

1- P. Wittek : Ankara Bozgunundan Istanbul / un Zaptin " trc . H.inalcik 1 , Belleten , 1943 , VII/27 P.557-589 .
أنظر الخريطة في الملحق ..

رابعاً : صور أسر السلطان بايزيد بمنتهى القسوة والتشويه وبشكل لا يليق بسلطان محارب. فقال :

"حارب بايزيد إلى أن أرخى الليل سدوله ، تحيط به جنوده من الانكشارية الذين قُتل أكثرهم في تلك الموقعة ، ثم حاول الهرب ولكن جواهه كبا به فوقع أسيراً في يد العدو".⁽¹⁾

لقد تعدى هيوار كثيراً على السلطان بايزيد الأول عندما اتهمه بالجبن والخوف والهروب من وسط ميدان القتال ، إنّ في ذلك كشفاً لحقده الشديد على شجاعة هذا السلطان الذي تناول حياته في المادة ، لم يتبع أي منهج علمي سليم ، ولم يتصرف بصفات المؤرخ التي من أولها وأهمها الأمانة في نقل المعلومة ، وإنما تتبع هواه وصاغ الحدث من منطلق مفهومه الخاص .

ولنعود مرة أخرى إلى ساحة المعركة وبدأ تقهقر الجيش العثماني ، حيث بقي السلطان بايزيد الأول يقاتل حتى النهاية ، وحوله عدد قليل من رجاله المخلصين الذين نصحوه بالإنسحاب خشية على حياته لكنه رفض ذلك قائلاً بأن الانسحاب لا يليق بالسلطان ويعد هروباً من المعركة وهذا ليس من شيم المقاتلين المسلمين ، فواصل القتال بشجاعة وبسالة مع ذلك العدد القليل من عسكره .

وفي هذه الأثناء خطط تيمور لنك لأسر السلطان ؛ فكلف بهذه المهمة ابنه شاه رخ الذي هاجم السلطان على رأس قوة تبلغ خمسة وسبعين ألف مقاتل ، بينما لم يبق مع السلطان سوى ثلاثة آلاف مقاتل ، ومع هذا وصل السلطان القتال بشجاعة وبسالة ، فلم يحاول الهرب - كما زعم بذلك هيوار -⁽²⁾ إلى أن أصاب سهم من سهام الجيش المغولي ساق خيله فوق أرضًا ، فحاصره ذلك العدد الهائل من عساكر المغول بقيادة شاه رخ وقبضوا عليه وأخذوه أسيراً إلى خيمة تيمور لنك .⁽³⁾

وبعد انتهاء الحرب التي أسفرت عن انتصار المغول وهزيمة العثمانيين استقر تيمور في كوتاهية ، وقام بإعلان نصره في الرسائل التي أرسلها إلى ملك فرنسا جارلس السادس

2- E . Zachariadou : Suleyman Celebi in Rumelia and the Ottoman Chronicles , Derislam , LX , 1983 , P. 268 – 296 .

⁽¹⁾ هيوار : مادة بايزيد الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 2 ، ص 329 .

⁽²⁾ هيوار : مادة بايزيد الأول : دائرة المعارف الإسلامية ، ج 3 ، ص 329 .

⁽³⁾ Lutfu Pasa , Tevarih – I Al – I Osman , S . 56 – 58 : Asikpasazade , S . 78 – 80 .

وملك إنجلترا هنري الرابع ، وأكَد فيها انتصاره على السلطان العثماني الذي هزمهم في معركة نيقوبوليس ،⁽¹⁾ وفي هذا دلالة خطيرة على حقده وكرهه للسلطان بايزيد والعثمانيين وتشجيعه للصلبيين ، مما يلقي بظلاله على معاملته السيئة للسلطان بايزيد بعد ذلك .

ثم أرسل تيمور لنك ابنه مرزا على رأس ثلاثة ألف من العسكر إلى بروسيا ، حيث قاموا بأعمال العنف والنهب والسلب ، كما قاموا بالاستيلاء على خزينة الدولة العثمانية ، إضافة إلى أسر زوجة السلطان وابنته ، وقامت قوة مغولية أخرى بالاستيلاء على أذنيق ونهبها .⁽²⁾

كما قام تيمور لنك بمنح قونية والمناطق المحيطة بها إلى الحاكم القرامياني محمد بيك وفاءً بوعده وتقديرًا له في تحالفه معه ضد العثمانيين ، كما قام أيضًا بمكافأة حكام الإمارات الأناضولية الأخرى الذين تحالفوا معه في حربه ضد العثمانيين ، حيث أعاد إليهم الأراضي التي كانوا يحكمونها قبل ضم العثمانيين لها ، مما أدى إلى تأسيس الإمارات الأناضولية مرة أخرى .

وأخيرًا قام تيمور لنك بإرسال سفير إلى الإمبراطور البيزنطي طالبا منه أن يدفع إليه الضريبة التي كان يدفعها سابقاً إلى الدولة العثمانية ، وهدد أنه إذا لم ينفذ رغبته فإنه سيقوم بالهجوم على القسطنطينية ، فقام الإمبراطور بإرسال الضريبة فوراً مع السفير نفسه خوفاً على حياته وحماية دولته .

وفي ذلك الوقت قام كل من أولاد السلطان بايزيد الأول بتأسيس حكومات في مختلف المناطق التي فروا إليها نتيجة هزيمتهم في الحرب ، وكانت تلك المناطق بعيدة عن سيطرة المغول فلم يرغب تيمور الاصطدام معهم ، بل أعترف بهم لأن ذلك يسبب اقسام الدولة العثمانية وضعفها ، وهو ما يريده .

ثم قرر تيمور لنك العودة إلى وطنه سمرقند بعد أن حقق هدفه ، وهو الانتصار على السلطان بايزيد الأول في الحرب الذي عرفت في التاريخ " بكارثة أنقرة " ،⁽³⁾ مصطحبًا معه السلطان بايزيد الأول وغنائم الحرب المكونة من الأموال والأسرى ، بما فيهم موسى

⁽¹⁾ Cevdet Pasa , Tarih . Tertib – I Cedid I , Istanbul 1309 , S . 346 – 347 .

⁽²⁾ Nizameddin Sami , Zafername , Cev . Necati Lugal , TTK , Ankara 1949 , S . 313 – 314 .

⁽³⁾ Muneccimbası Ahmed b. Lutfullah , Camiu'd – Duvel , S . 39 – 147 ; Hadidi , Tevarih – 1 AL – IOsman , Istanbul 1991 , S . 126 – 132 .

جلبي ابن السلطان بايزيد الأول . وتعتقد الدراسة أن تيمور لنك قد تلقى مساعدات من الكنيسة والدول الأوروبية ، وذلك بناءً على أنه ما أن أوقع السلطان بايزيد في الأسر إلا وعاد إلى عاصمة ملكه دون إستكمال حركة التوسعية وكأنه أتى لانتصار على السلطان بايزيد ويلقاف حصاره للقدسية .

خامساً : صورة بايزيد يلدريم في أسر تيمور لنك وأسباب وفاته : فقال :

" عامل تيمور أسيره بالحسنى ، ولكنَّ بايزيد حاول الفرار من أسره ، فلم يسعَ تيمور إلى تقييده في أثناء الليل بالأغلال ووضعه أثناء السفر في قفص يجره جوادان . وكلمة قفص هي التي أوجدت الأعتقاد بأن بايزيد سُجن في قفص من الحديد ... وتوفي بايزيد بداء النقرس " .⁽¹⁾

وفيها أورده هيوار في بداية الجملة بعض من الصحة ، حيث أن تيمور لنك قد سعى لمعاملة السلطان بايزيد معاملة حسنة تليق بكونه سلطاناً لدولة كبيرة وقع في الأسر ، ولا تشعره بمرارة حاله ، لكن السلطان بايزيد تأثر تأثراً شديداً لوقوعه في الأسر على يد تيمور لنك ، وهذه مسألة طبيعية فهو أسير وكان من أعظم سلاطين آل عثمان ، فمهما كانت معاملة تيمور لنك الحسنة له فإنها لا تتعذر معاملة أسير من قبل قائد منتصر ، وهي معاملة لا تليق بسلطان عثماني ، وهذه المعاملة استمرت فترة قصيرة ، حيث بدأ بعد ذلك في تعذيبه واحتقاره ، ومن أهم وسائل احتقاره حبسه في قفص حديدي عند الانتقال من مكان إلى آخر .

فماذا ننتظر من تيمور لنك الذي وضع الخطط للإيقاع به ، أن يحبسه في قصر منيف ، بالطبع سيحبسه في قفص إمعاناً في إذلاله ، على الرغم من عدم اتفاق المؤرخين على مسألة القفص ، ووقوع كثيرٍ من المصادر في خطأ إنكار وجود هذا القفص ، إلا أن المصادر العثمانية والتركية جزمت بوجوده ، وهو الذي أسمهم بشكل كبير في مرض السلطان بايزيد الأول ، إضافة إلى الحزن والهم والكم الذي صاحبه في رحلة الأسر التي كانت قاسية على سلطان حال بفتحاته شرق الأرض وغربها ، فلم يتحمل قيد الأسر ووفاة الأجل المحتوم بعد ثمانية أشهر من الأسر.⁽²⁾

⁽¹⁾ هيوار : مادة بايزيد الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 3 ، ص 329 .

⁽²⁾ عبد الرحمن شرف : مصدر سابق ، ص 104 ، 105 .

Nizameddin Sami , Zafername , Cev . Necati Lugal , TTK , Ankara 1949 . S . 322 – 323 ; Hoca Sadreddin Efendi , Tacu't - Tevarih , I , S . 209 ; Munecimbasi Ahmed b. Lutfullah . Camiu'd , S.313 .

أما عن مسألة وفاته بداء النقرس ، فأي داء نقرس يأتي له وهو في الأسر ؟ إنه داء الملوك المرهفين وليس المأسورين ، كما أنهم كيف عرروا أنه داء النقرس وهو أسير ، وبالتالي أكد أنه لم يكشف عليه طبيب وإنما أكتفوا بإعلان وفاته فقط . إن الرواية الأقرب إلى الصحة هي وفاته نتيجة مرض عارض ألم به ، بسبب الحزن والغم الذي حاصره وأثر في نفسه .

وقد توفي السلطان بايزيد الأول بعد ثمانية أشهر من حياة الأسر ، وهو في الرابعة والأربعين من العمر ، حيث وفاه الأجل خلال مسيرة تيمور مع جيشه من آتشهير ^(١) ، وبقي جثمانه في هذه المنطقة ، ثم شيع بالشكل اللائق بالسلطانين ونقل إلى بروسه من قبل ابنه موسى جلبي الذي أطلق سراحه من قبل تيمور إثر وفاة والده ^(٢) . وإن من أهم النتائج المترتبة على كارثة أنقرة :

- (١) قيام جيوش تيمور لنك بناء على أوامره بغارات على أطراف الدولة ومناطقها ، فأعملوا فيها السلب والنهب على الخزائن والثروات وكبدوا العثمانيين خسائر فادحة ، وهذه سمة الجيوش المغولية القتل والسلب والنهب ، وإبادة الحضارة .
 - (٢) على الرغم من إرسال إمبراطور بيزنطة الهدايا والأموال لـ تيمور لنك إلا أن منطقة الرومي والأناضول لم تسلم من تخريبه وإفساده .
 - (٣) لم تسلم الممالك العثمانية من النهب والسلب حتى إنه لم يترك شجرة مغروسة على وجه الأرض إلا واقتلعها .
 - (٤) إحداث الوضيعة بين الأمراء وأبناء السلطان والعمل على تقويض دعائم الدولة العثمانية ، وكان ذلك من أخطر الأمور لأنه قضى مؤقتاً على الدولة العثمانية . ولا تختلف مادة السلطان محمد الفاتح عن سابقتها حيث قدم المادة خليل إينالجيك وجاءت ممتئلة لدرجة التخمة بالافتراءات والأكاذيب وعدم تحري الصدق في معلومة الحدث التاريخي . وقد احتوت المادة على عدة أخطاء ، ومنها :
- أولاً : الخوض في مسألة والدته ونعتها بالجارية . ^(٣)
- ثانياً : اختلاق أسباب وأحداث خاطئة وملفقة عن الفترة الأولى لتوليه الحكم ^(٤) .

^(١) آتشهير : Schehir - Ak- مدينة في الأناضول في ولاية قره من ، على مسافة ساعتين من البحيرة التي تحمل الاسم نفسه . س. موستراس : مرجع سابق ، ص 83 .

^(٢) Oruc Bey , Tarih , S . 37 – 38 ; Hoca Sa' deddin Efendi , Tacu't – Tevarih , I . S. 209 – 210 .

^(٣) Halil Inalcik : menemmed II . the Engyclopa Edia of Islam , Volume VI LEIDEN , 1991 . P. 979 .

^(٤) Halil Inalcik : menemmed II . the Engyclopa Edia of Islam , Volume VI . P 979 .

ثالثاً : حصار القدسية وأحداثه .⁽⁵⁾

رابعاً : مسألة الدمار الذي أصاب القدسية جراء الفتح .⁽⁶⁾

خامساً : محاولة تصويره على أنه حاكم مستبد مطلق الصالحيات .⁽¹⁾

سادساً : اتهامه بأنه جعل من القضاء أداة لتنفيذ رغباته .⁽²⁾

سابعاً : محاولة تحديد أهداف أخرى لفتوحاته غير نشر الإسلام وتأمين الجبهة .⁽³⁾

وسيتم - بإذن الله - الرد على كل نقطة على حدة ، لكن في البداية لابد من توضيح أن آخر ثلاث نقاط لا تختص بعيشه أو معلومة ذكرها صاحب المادة وإنما استخرجت من السياق العام للمادة ، ومن بعض الجمل التي وردت فيها .

بعد السلطان محمد الثاني "الفاتح" من مؤسسي الدولة العثمانية ، وأعظم سلاطينها إذ توج حياته في الحكم بفتح القدسية .

والسلطان محمد الثاني "الفاتح" هو السلطان السابع للدولة العثمانية وابن السلطان مراد الثاني ، ولد في أدرنه يوم الأحد 6 شعبان 836هـ / 30 مارس 1432م⁽⁴⁾ ، وتلقى العلم منذ صباه من أبرز علماء عصره ، ومن أهمهم الشيخ آق شمس الدين ، عينه والده وإليه على مغنيسيا لتنشئته على الشؤون الإدارية ، وقد تلقى العديد من الدروس في مختلف علوم الفقه وتعلم على يد الملا خسرو ، أمّا التفسير والحديث فتقاوه من الملا جوراني⁽⁵⁾ ، والرياضيات من علي القوشى وعلم الكلام والتاريخ من الخواجزاده وعلى الطوسي ، بالإضافة إلى أنه تعلم اللغات العربية والفارسية والإيطالية واليونانية والصربيّة⁽⁶⁾ ، كما كان شاعرًا وأديبًا وله ديوان شعر باللغة التركية ويقول في أحد أبيات شعره :

⁽⁵⁾ Halil Inalcik : menemmed II . the Engyclopa Edia of Islam , Volume VI . P 979 .

⁽⁶⁾ Halil Inalcik : menemmed II . the Engyclopa Edia of Islam , Volume VI . P 979 .

⁽¹⁾ Halil Inalcik : menemmed II . the Engyclopa Edia of Islam , Volume VI . P 979 .

⁽²⁾ Halil Inalcik : menemmed II . the Engyclopa Edia of Islam , Volume VI . P 980 .

⁽³⁾ Halil Inalcik : menemmed II . the Engyclopa Edia of Islam , Volume VI . P 979 .

⁽⁴⁾ Mustafa Ali , Kunhu I – Ahbar , V , S. 246 ; Hoca Sadreddin Efendi , Tacu t – Tevarih , I S . 345 ; Nisancizade Mehmed Ramazan , Mir' at - I Kainat , II , Istanbul 1290 , S. 55-80 .

⁽⁵⁾ علي محمد الصالبي : مرجع سابق ، ص 219 . زياد أبو غنيمه : محمد الفاتح ، ص 14-15 .

⁽⁶⁾ يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج 1 ، ص 145 .

نيتي هي الامتثال للأمر الإلهي " جاهدوا في سبيل الله " وحماسي إنما هو حماس في سبيل الله⁽⁷⁾

أحب اللغة العربية وشجع حركة الترجمة من العربية إلى التركية ، وأنقذ عدّة لغات ، وكان يستمتع بجمع العلماء والشعراء من حوله ، اتصف بالوفار والجسارة والإدارة المحنكة والثانية في اتخاذ القرار ، حتى إنه كان يخفي الأسرار حتى على أقرب المقربين إليه ، أمضى أغلب حياته في الفتوحات ، أهمها إسقاط الدولة البيزنطية جدار المسيحية العتيد .⁽¹⁾

أولاً : الخوض في مسألة والدته ونعتها بالجارية

"ابن الرابع للسلطان مراد الثاني الذي أنجبه من بنت جارية كانت تقيم بالحريم العثماني".⁽²⁾

لقد ادعى خليل إينالجيك بأن والدة السلطان محمد الثاني كانت جارية تقيم في الحريم السلطاني بطريقة تشعر القارئ وضاعة أصلها ، وأنها لم تكن زوجة رسمية ، وذلك لكي يزرع في نفس القارئ أن مهداً الفاتح العظيم كان ابن جارية فقط ، ولكن لا ضير في ذلك لأنّ أمّهات معظم السلاطين العثمانيين كنّ من الأجنبيات الجواري ثم أسلمن بعد زواجهنّ من السلاطين العثمانيين ، والمعروف أن والدة السلطان اسمها حُما خاتون وهي مدفونة داخل التربة الخاتونية في بروسه. والسيدة التي ادعى خليل إينالجيك أنها جارية ، كانت زوجة شرعية للسلطان مراد الثاني .

وهي أم السلطان محمد الفاتح ، ويذكر المستشرق باينكر أن اسم أم السلطان محمد الفاتح لم يرد في أي مكان أو مصدر ، حيث أعطيت لها فيما بعد بعض الأسماء مثل : حُما ، وستيلا ، وأسثر ، ولا تشير المصادر العثمانية المعاصرة لذاك الزمان ، إلى موضوع أم السلطان محمد الفاتح ، وتقول مصادر القرن السادس عشر الميلادي وفي مقدمتهم المؤرخ بجيوي أن أم السلطان محمد الفاتح أميرة فرنسيّة ، وقد قيلت مثل هذه الأسطورة عن أم السلطان بايزيد الثاني أيضًا ؛ حتى يوضّحوا أن السلاطين الذين قاموا بالأعمال العظيمة تجري في عروقهم دماء أوروبية ، وهذا ما لا يصدقه القارئ المتأني ، أما المؤرخون

⁽⁷⁾ محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 46 .

⁽¹⁾ عبد القادر ده ده أوغلو : مرجع سابق ، ص 45 . علي حسون : مرجع سابق ، ص 45 .

⁽²⁾ Halil Inalcik : Menemmed II , thk Engylopadia of Islam. Volume VI , P978 .

المتأخرون في زمننا مثل إسماعيل حامي دانشمند وعلى همّت برقي وعلى رضا صاغمان ، فيزعمون أن أم السلطان محمد الفاتح هي خديجة حليمة خاتون بنت إبراهيم بيك بن اسفنديار بيك ، أما عن أن والدة السلطان محمد الفاتح كانت أجنبية تؤكد المصادر البيزنطية أيضاً وتنبئ الدراسة إلى أن والدة السلطان محمد الفاتح كانت جارية أجنبية غير مسلمة ولكنها ليست أميرة فرنسية ؛ إذ لا توجد إشارة إلى ذلك في أي مصدر أوروبي ، وما يؤكّد ذلك وجود وقفيّة غير مؤرخة في أرشيف طوب قابي سراي تؤيد هذا الرأي ، ونشاهد على القسم العلوي من الوقفيّة طغراء السلطان محمد الفاتح ، فيما نشاهد على القسم السفلي من الوقفيّة في اليمين توقيع القاضي عسّكر " علي بن يوسف الفناري " ، وفي اليسار توقيع قاضي عسّكر الأنضول " علي بن الشيخ أحمد بن الشيخ محمد " ، كما نقرأ في الوقفيّة العبارة الآتية المكتوبة عن والدة السلطان محمد الفاتح : "... على تربة أمّة الله التي صارت درة تاج النساء في العالمين ، وغرة جبهة الإسلام والمسلمين ملكة الملّاک ، مسدلة ثياب الحسنات والمبرات ، السيدة الجليلة المؤيدة بتأييد الملك الله ... خاتون بنت عبد الله الكائنة في محروسة بروسه الحميّة عن العصاب ... بالإمارة المرادية أسكنها الله - تعالى - في أعلى طبقات جنانه ، وألبسها حلّ عفوه وغفرانه ، ولا زالت ترتبّتها المشرقة بالأنوار مملوءة ، وروضتها بالأيات المقدّسة متلّوة ، فوقف وحبس بنية خالصة عن قيم الريا ، ورهبة صادرة عن أصل الإخلاص ونهجه في حل تلّاّت شموس آرائه الكريمة عن مشارق العز والإجلال وطلعت بدور آرائه المستقيمة عن مطالع المجد..."⁽¹⁾

إن عبارة " بنت عبد الله " الواردة في الرقفيّة تدل على أن هذه المرأة كانت غير مسلمة ، وأعتقدت الإسلام فيما بعد ، ويؤيد المؤرخ بجيوبي هذا الرأي ، حيث يقول أن أم السلطان محمد الفاتح أسرت في إحدى الحملات وبيعّت إلى حرم السلطان مراد الثاني ، وأنها لم تقبل اعتناق الإسلام بادئ الأمر ، لكنها قبلت ذلك بعد أن حملت بجنينها وقد أسلمت وحسن إسلامها ، توفيت أم السلطان محمد الفاتح في بروسه عام 1449هـ / 1449 م ، ودفنت داخل حديقة تبعد عن ضريح السلطان مراد الثاني بمسافة مائة متر ، ثم قام السلطان محمد الفاتح بتشييد قبة على قبرها ، وتقيد كتابة الضريح على أنها والدة السلطان محمد الفاتح ، وأن الذي شيد القبة هو السلطان محمد الفاتح ، على الرغم من أن اسمها لم يكتب في المصادر وفي الوقفيّة وفي كتابة الضريح ، لكن المنطقة التي توجد فيها التربة الخاتونية

⁽¹⁾ وثيقة مسجلة تحت رقم 8361 في أرشيف طوب قابي سراي بإسطنبول .

تعرف باسم " حي حُما خاتون " ، كما أن المعلومات المنتشرة بين الناس في المنطقة تؤيد بأن التي ترقد في هذه التربة (الضريح) هي " حما خاتون " ، هذا بالإضافة إلى أنه لم تكن توجد في القرن الخامس عشر الميلادي أمراً بهذا الاسم سوى حما خاتون نفسها ، كما أن سجلات بروسيه تؤيد كذلك بأن والدة السلطان محمد الفاتح هي حما خاتون .⁽²⁾

أما عن مسألة الابن الرابع للسلطان مراد الثاني ، فذلك محض افتراض لأن السلطان محمد الفاتح الابن الثاني للسلطان مراد الثاني ، وهو ولد العهد ، فترتيب أبنائه علاء الدين علي ، محمد الثاني ، أحمد ، حسن ، أحمد الثاني ، فكيف يتجمى ويقول أن ترتيبه الرابع وتوفي علاء الدين في حياة مراد الثاني ، وطبعاً يكون محمد الثاني هو المرشح الأول لولاية العهد .⁽¹⁾

ثانياً : اختلاف أسباب وأحداث خطأه وملفقة عن الفترة الأولى لتوليه الحكم . فقال :

" في الثانية عشرة من عمره تم استدعاؤه من قبل والده ليعلنه سلطاناً حيث تنازل والده عن الحكم لصالحه وذلك لضمان خلافته منعاً لمنافسته " أورخان " الذي كان موجوداً في القسطنطينية " .⁽²⁾

اعتلى عرش السلطنة العثمانية عقب وفاة والده في يوم 16 محرم 855هـ/1451م، وفي الحقيقة أن والده تنازل له عن السلطنة عام 848هـ/1444م ، ولكنه كان في الثانية عشرة من العمر فلم يستطع أن يتحمل أعباء الدولة ، إضافة إلى أن الدول الأوروبية عندما سمعت بأن السلطان الجديد في حداثة السن انتعشت آمالهم في طرد المسلمين من أوروبا، فجهزوا حملة صليبية ضد الدولة العثمانية اشتراك فيها كل من ألمانيا وإيطاليا والمجر وبولونيا ورومانيا وبلاط المجر ، فطلب من والده العودة على رأس الدولة ، وكانت النتيجة أن قام السلطان مراد الثاني بمقاومة الجيوش الصليبية حيث أحرز انتصاراً عليهم، ثم استمر في الحكم حتى وفاته ،⁽³⁾ وقد فسر بعض المستشرقين هذه الحادثة - أي قيام السلطان مراد الثاني بالتخلي عن السلطنة لابنه الصغير محمد - ليضمن استمرار سلطنته ، ومنع منافسة أورخان الذي كان يطالب بالسلطنة ويتوارد في القسطنطينية ويسعى للوصول إلى حكم الدولة

⁽²⁾ زياد أبو غنيمه : محمد الفاتح ، ص 13-14 .

M.Gagatay ulucayy Padisahlarim Kadinlari ve Kizlari , Ankara , 1980 , S , 14-15 .

⁽¹⁾ عبد القادر ده ده أوغلو : مرجع سابق ، ص 43 .

⁽²⁾ Halil Inalcik : menemmed II , the Engy glopadia of Islam , Volume VI P 978 .

⁽³⁾ Dursun Bey , Tarih – I Ebu'l – Feth , TOEM , Istanbul 1330 , S. 33 ; Oruc , Bey , Tevarih -1 AL-Iosman , nsr . Fransiz Babinger Hannover 1925 , S . 46 .

أورخان محمد علي ، روائع من التاريخ العثماني ، ص 40 .

العثمانية ، وأورخان هذا هو حفيد سليمان بن السلطان بايزيد الأول ،⁽⁴⁾ ولكن السبب الحقيقي لتنازل السلطان مراد الثاني عن الحكم لابنه محمد وهو في حداثة السن يرجع إلى وفاة ابنه الكبير علاء الدين علي ، حيث تأثر كثيراً وحزن عليه بشدة وزهد عن مواصلة الحكم ، فأراد أن يعتزل عن السلطة ويعيش حياة العزل والإنزواء ، إضافة إلى أنه رغب أن يرى ابنه سلطاناً وهو على قيد الحياة ، ولابد أن نشير هنا إلى أن التفرغ من الحكم يعد حركة سامية يرقى صاحبها إلى العلو والمجد ، ويدل على صفاء القلب والفكر المتتطور ، ولم يحدث ذلك في تاريخ العالم إلا نادراً .

وفي النهاية قام كل من الإمبراطور البيزنطي ، وإمبراطور طربزون ونائب ملك المجر هوندai يانوش ، وملك الصرب برانكويج وحاكم الأفلاق وحاكم الجنويز وساقر بإرسال سفراء لتهنئة السلطان الجديد محمد الثاني بعد توليه للمرة الثانية،⁽¹⁾ "نظراً لحداثة سن السلطان وعدم مقدرته في السيطرة على الصراع الدائر حوله، فإن الدولة العثمانية لم تستطع التعامل بحزم مع أزماتها الداخلية والخارجية ... كذلك في كل مكان من البلقان بدأ حكامها الإقطاعيين بالطالبة باستعادة استقلالهم وأرضهم".⁽²⁾

إن هذا ليس عيباً حتى يورده وكأنه ضعف في شخصية السلطان محمد الفاتح ؛ إذ إن ذلك شيء طبيعي جدًا ؛ لأن حداثة سن السلطان الحاكم تؤثر على السياسة من حوله فلا يستتب له أمر ، ويبدأ الولادة في إعلان التمرد والعصيان وطلب الاستقلال وذلك لاستضعافها الحاكم الصبي .

وقد استغل ملك المجر هذا الحدث وأغار على بلاد البلغار مخترقاً شروط الهدنة ومعاهدة الصلح مع الدولة العثمانية ، وذلك بتحريض من الكاردينال "سيزاريني" مندوب البابا الذي زين له خيانة العهد مع العثمانيين ، وأمام هذا الوضع الخطير لم يكن أمام السلطان محمد الثاني إلا أن يطلب مساعدة أبيه لعدم قدرته على مواجهة الموقف ، فأعذر السلطان مراد الثاني في البداية ، لكنه ما لبث أن اقتنع بصعوبة مواجهة السلطان الصغير في السن لهذا الموقف وعاد ليواجه الموقف .⁽³⁾

⁽⁴⁾ إبراهيم حليم : مصدر سابق ، ص 64 .

⁽¹⁾ وديع ابن زيدون : مرجع سابق ، ص 57 ، 58 . خلف الوزيناني : مرجع سابق ، ص 100 .

Omer Faruk Yilmaz , Belgelerle Osmanli Tarihi 1 . Istanbul 1999 , S . 268 .

⁽²⁾ Halil Inalcik : menemmed II , the Engyglopadia of Islam , Volumk VI , P 978 .

⁽³⁾ وديع أبو زيدون : مرجع سابق ، ص 58 . زياد أبو غنيمه : محمد الفاتح ، ص 17-18 .

وطوال هذه الأحداث لم يظهر أورخان ليترد السلطة - كما ذكر المستشرق خليل إينالجيك في مادته - رغم أن الفرصة كانت مواتية له تماماً ، فالسلطان صغير السن ، والمشاكل تحيط به من كل جانب ، فيستطيع أورخان تنفيذ مبتغاه ، لكن في هذا دليل على عدم صدق ادعاء المستشرق ، واكتفائه باختلاق أحداث كاذبة ليس لها أساس من الصحة .

توفي السلطان مراد الثاني عام 1451هـ / 850م عن عمر يناهز 49 عاماً ، ثم تولى ابنه محمد الثاني الحكم وهو في عمر السادسة عشرة وبدأ شاباً محنكاً سياسياً أعطته الأحداث التي مر بها الكثير من الخبرة والمزايا التي تؤهله ليصبح فاتح القسطنطينية .

وبعد أن استلم الحكم لم يكتف بشن الحروب على أعداء الإسلام والدولة الإسلامية فحسب ، إنما قام أيضاً بالتنظيمات الإدارية في الدولة ، وهو الذي أصدر النظام المعروف بـ "قانون نامه" الذي يضمن جميع أنظمة الدولة الإدارية والسياسية والعسكرية والعلمية ، وسارت الدولة العثمانية بموجب هذه الأنظمة مدة طويلة ، ولاسيما التنظيمات المتعلقة بالقضاة والعلماء والمدرسين حيث اعتمدت بها اعتماداً كبيراً .⁽¹⁾

ويذكر المؤرخون أن هذا القانون الذي يعد بمثابة دستور الدولة العثمانية بقيت مبادئه سارية المفعول حتى سنة 1255هـ / 1839م ، وكانت تلك المبادئ كلها مستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، إضافة إلى أقوال الفقهاء ، لا سيما مذهب الإمام أبي حنيفة⁽²⁾.

أما عن بداية دخوله معركة الحروب فقد بدأ عندما قام إبراهيم بيك حاكم الإمارة القرمانية بالاستيلاء على بعض الأراضي العثمانية مستغلًا جلوس السلطان الجديد على عرش الدولة العثمانية ، فاضطرر السلطان محمد الثاني إلى تجهيز حملة عسكرية ضد الحاكم القرماني ، فوصل مع جيشه إلى آقشمير وبيشمير ، فأنسحب إبراهيم بيك وسعى إلى الصلح ، فأبرم الصلح بين الطرفين بشرط منح آقشمير وبيشمير وسيدي شهير⁽³⁾ إلى العثمانيين ، بالإضافة إلى تعهد الإمارة القرمانية بإرسال العساكر للاشتراك في الحملات العثمانية .⁽⁴⁾

⁽¹⁾ شكيب أرسلان : مصدر سابق ، ص 918 .

⁽²⁾ ربيع عبد الرؤوف الزواوي : مرجع سابق ، ص 56 .

⁽³⁾ جميعها مدن في الأناضول ، تابعة لولاية قرة مان ، لواء قونية . س . موستراس : مرجع سابق ، ص 83-312 .

⁽⁴⁾ Asikpasazade , Tevarih – I Al – I Osman , Istanbul 1332 , S . 140 , Idris – I bitlisi , Hest Behist , Topkapi Sarayi , Bagdat Kutup . Nr . 196 , Varak 64 a – 65 b .

وفي هذه الأثناء قام إلياس بيك حاكم الإمارة المنتشاوية بمحاجمة الأراضي العثمانية ، فأرسل إليه محمد الثاني جيشاً بقيادة إسحاق باشا فاضطر إلياس بيك الفرار إلى جزيرة رودوس ، وبذلك خضعت الأراضي المنتشاوية عام 855هـ/1451م للسيادة العثمانية .⁽⁵⁾

وبعد أن أتم حل المشكلة القرامانية ، بدأ في توجيه نظره لتحقيق حلم كثيراً ما راوده كما راود سلاطين سابقين له ، لتحقيق البشارة النبوية الشريفة وهي فتح القدسية التي كانت أملاً يداعب مشاعره منذ أن كان فتى يافعاً ، حيث زرع في نفسه أستاذه ومربيه الفاضل الشيخ آق شمس الدين أنه هو المقصود ببشرة الحديث النبوي الشريف.⁽¹⁾

من ناحية أخرى فإن فتح القدسية سيهيئ له مكانة مهمة في السياسة الداخلية للدولة العثمانية ، ويدعم نفوذه وهو في بداية مشوار حكمه ، كما يكفل له القدرة على التطبيق الأمثل للإصلاحات الازمة ، والخطوة الأولى لتفريق القوات الخارجية المتربصة بالدولة العثمانية .⁽²⁾

تحدث خليل إينالجيك عن حصار القدسية وكان محمد الثاني ليس له دور فيه مطلقاً ، وركز على خلافات القادة فقط ، وأنهم هم الداعمة الأساسية للفتح .

ثالثاً : حصار القدسية وأحداثه . فقال :

" قرر أن يضع حدًا لتهديدات إمبراطور البيزنطيين وبدأ في الإعداد لاحتلال القدسية " ⁽³⁾

وقال أيضًا :

" إخفاق البحرية العثمانية في منع سفن التموين من الدخول إلى (القرن الذهبي) برزت إشاعات إنهزامية في أوساط القائمين على الحصار ، فنصح كاندرلي بفك الحصار . فبرز كلاماً من زغانوس وشمس الدين معارضين .. "⁽⁴⁾

⁽⁵⁾ Idris – I Bitlisi , Varak 65 ; Mustafa Ali , Kunhu'l – Ahbar V,S . 250 .

⁽¹⁾ زياد أبو غنيمه : محمد الفاتح ، ص 26 ، 27 .

⁽²⁾ H. Inakik : Fatih Devri , uzerinde Tetkikler ve Vesikalar , Ankara 1954 , S , 107- 136 .

⁽³⁾ Halil Inalcik : mehemmed II , the Engyglopadia of Islam , Volume Vi , P 978 .

⁽⁴⁾ Halil Inalcik : mehemmed II , the Engyglopadia of Islam , Volume VI , P. 979 .

لقد سبق توضيح السبب الرئيس لفتح القسطنطينية وهو تحقيق للبشرة النبوية الشريفة، بالإضافة إلى نشر الإسلام في بقاع جديدة ، ثم تحقيق الأهداف الاستراتيجية التي ذكرت في المادة .

لقد بدأ السلطان محمد الثاني الاستعداد لفتح القسطنطينية بمحاولة اكتشاف نقاط ضعف الدفاعات البيزنطية ، ونقاط ضعف أسوار القسطنطينية للاستفادة من ذلك في خطة الهجوم النهائية . فأحاط خطته بالسرعة المطلقة ، وحرص على اختيار معاونيه من ثقات الرجال ، وأخيراً وثق علاقاته بالقوى المجاورة وجمد خلافاته معهم حتى يؤمن ظهره .⁽⁵⁾

ثم بدأ التحرك من بروسه إلى أدرنه وتوقف في طريقة في شبه جزيرة غاليبولي ، حيث طرد منها البيزنطيين القاطنين في المنطقة⁽¹⁾ ، وكانت هذه الحركة الخطوة الأولى ضد البيزنطيين ، ثم قرر السلطان محمد الثاني تشييد روم إيلي حصار " بوغاز كسن " أي قاطعة المضيق على مضيق البسفور ناحية الجهة الأوروبيه⁽²⁾ ، وقد استهدف الفاتح من بناء هذه القلعة قطع المعونة والإمدادات التي قد تصل إلى بيزنطة عن طريق البسفور⁽³⁾ ، وبدأ البناء في 1452 / 856هـ حيث اختار السلطان بنفسه موقعه . وقام الوزير شهاب الدين بالإشراف على أعمال البناء الذي وضع مخططه المعماري مصلح الدين آغا .⁽⁴⁾

ويذكر أنه عمل في البناء عشرين ألف عامل ، وقد بني داخل الحصن مسجداً وسبيلان لشرب المياه ، وانتهى البناء بعد 4 أشهر ونصف من العام نفسه ، أي في فترة قصيرة قضيت في العمل المتواصل ، وقام السلطان بتعيين فiroz آغا على رأس حامية عسكرية قوامها أربعين ألفاً ، وكانت وظيفته هذه الحامية هي السيطرة على مضيق البسفور ومراقبة جميع السفن الأجنبية التي تمر منه وتفتيشها ، وإيقاف السفن التي لا تطيع الأوامر ، وبعد الانتهاء من أعمال بناء القلعة قام الجيش العثماني بحصار القسطنطينية ، وعلى الرغم من معارضة بعض أركان الدولة لفكرة بسبب الصعوبات التي سوف تحدث

⁽⁵⁾ زياد أبو غنيمه : محمد الفاتح ، ص 30 - 27 . الصحفاوي أحمد المرسي : إستانبول عبق التاريخ روعة الحضارة ، ط 1 ، القاهرة : دار الآفاق العربية ، 1999هـ / 1419 ، ص 27 .

⁽¹⁾ Selahattin Tansel , Fatih Sultan Mehmed in Siyasi ve Askeri Faaliyetleri , Istanbul 1971 , S . 39 .

⁽²⁾ Tacizade Cafer Celebi , Mahrusa – I Istanbul Fetihnamesi , TOEM , 1331 S . 5 – 8 : Cizyedarzade , Tarih , Sul . Kut . Esad Ef . Nr . 2403 , Varak 195 a – 195 b .

⁽³⁾ Tacizad Cafer Celebi , Mahrusa – I Istanbul Fetihnamesi , TOEM , 1331 S.6 – 8 ; Mustafa Ali , Kunhu'l Ahbar , V, S. 250 – 251 .

⁽⁴⁾ Ibn Kemal , Tarih , VII , Ha . Serafettin turan , Ankara 1991 , S . 32 – 36 ; Oruc Bey , Tevarih – I AL – I Osman , nsr . Fransiz Babinger , Hannover 1925 , S . 64 .

من الأسوار المستحکمة التي تحیط بالمدینة البيزنطیة ، إلا أن السلطان كان مصراً على الفتح .⁽⁵⁾

وقد أمر السلطان بصنع سفن جديدة للاشتراك في عملية الفتح ، حيث عین سليمان بیک بلطاجی أوغلي قائداً على الأسطول العثماني المكون من مائة وسبع وأربعين سفينة ، والذي تحرك من غالیبولي في ربيع عام 857هـ / 1453م⁽⁶⁾ ، أما القوة البرية العثمانية فت تكون من مائتي ألف من الخيالة والمشاة ، وتحرك الجيش العثماني بقيادة السلطان محمد الثاني في ربيع الأول 857هـ / مارس 1453م ، ووصل أمام أسوار القدسية في ربيع الثاني / إبريل من العام نفسه⁽¹⁾ ، وتصدى عساكر الإمبراطور البيزنطي قسطنطين در أغاز اس لحماية المدينة ، كما شارك في هذه الحماية العساكر المرتزقة من الإيطاليين والأسبان والفرنسيين والبنادقة وال مجر والروس بالإضافة إلى الأهالي الذين حملوا السلاح للج حماية مدينتهم .⁽²⁾ ، كما قام الإمبراطور بتقوية أسوار المدينة وإعادة إحكامها ووضع الأسلحة النارية على أبراج الأسوار ، ثم وضع سلسلة حديدية سميكه في خليج القرن الذهبي لسد الخليج أمام السفن العثمانية ، ووضع على كل باب من أبواب المدينة قوة عسكرية لحمايتها .

وقد أرسل السلطان وزيره محمود باشا إلى الإمبراطور يطلب منه تسليم المدينة دون حرب حقناً للدماء ، وذلك مقابل ضمان أرواح أهل المدينة وأموالهم ، وإرسال الإمبراطور وأسرته إلى المكان الذي يريد مع ضمان عدم التعرض له ، لكن الإمبراطور رفض ذلك الطلب لأنه كان واثقاً من نفسه ومعتمداً على الدعم العسكري الذي سيصله من أوروبا ، فلم يهتم بكلام الوزير العثماني .⁽³⁾

⁽⁵⁾ Ibn kemal , Tarih – I Feth – I Kostantiniyye , sul . kut . Sehid Ali Pasa , Nr . 2720 / 14 , Varak 14 a.

⁽⁶⁾ Ali , Kunhu'l – Ahbar , Nuruosmaniye Kutup . Nr . 3407 , Varak 97 a – 97 b .
أنظر الخريطة في . الملاحق .

⁽¹⁾ Idris – I Bitlisi , Varak 70 a .

⁽²⁾ Sari Abdullah Efendi , Munseat , Varak 34 a – 36 b .

⁽³⁾ Ahmed Muhtar Feth – I Celil – I Kostantiniyye , Istanbul 1340 , S . 140 .

بدأت الحرب بين الطرفين حيث بدأ الجيش العثماني بتنظيم هجمات على أسوار المدينة بوضع عشر سفن حربية كبيرة خلف السلسلة الحديدية التي وضعوها سابقاً على خليج القرن الذهبي ؛ وذلك لصد السفن العثمانية ومنعها من عبور المضيق .

وأخيراً دخل الأسطول العثماني إلى المضيق ودارت معركة دامية بين الطرفين نتج عنها ضحايا كثيرة من كلا الجانبين ، مما اضطر الأسطول العثماني إلى الانسحاب وذلك بأمر السلطان ، ثم فكر السلطان بإنزال السفن من البر إلى مياه المضيق وحقق فكرته بطريقة مبتكرة وحديثة ،⁽⁴⁾ فدارت معركة حامية بين الأسطول العثماني والأسطول البيزنطي ، حيث استطاعت السفن العثمانية إغراق أغلب السفن البيزنطية ونشرت سيطرتها على خليج القرن الذهبي ، وفي الوقت نفسه كانت المعركة البرية مستمرة على طول الأسوار ، ثم قام السلطان محمد الثاني بإرسال أسفنديار أوغلي سفيراً إلى الإمبراطور البيزنطي طالباً منه الطلب الأول نفسه ، وهو تسليم القسطنطينية ، وفي حالة رفضه هذه المرة سيكون هو المسؤول عن نتائج الحرب ، لكنَّ الإمبراطور رفض التسليم كعادته ، فقرر السلطان الهجوم على المدينة ، وعندما حل الليل قام الجيش التركي بإضافة المنطقة وذلك بإشعال النيران حول الأسوار .⁽¹⁾

كما بدأت فرقة الطلبل العثماني بدق الأناشيد الحماسية لرفع معنويات الجيش، وبدأ العساكر بالتكبير والتهليل ، وقام السلطان بعد منتصف الليل وتوضأ وصلى ركعتين ودعا الله تعالى أن يكتب له النصر ، واستمر بالدعاء حتى صلاة الفجر ، وبعد الصلاة تقلد سيفه وركب خيله وأمر الجيش بالهجوم من البر والبحر فجر يوم الثلاثاء 19 جمادى الأولى 857هـ / 29 مايو 1453م .⁽²⁾

وفي أثناء القتال جُرح القائد الجنويزي جستنيانوس فانسحب من ميدان الحرب وهرب عن طريق البحر إلى جزيرة ليمني ، ثم استطاع الجندي أولوباطلي حسن مع ثلاثة من رفاقه وضع العلم العثماني على أحد أبراج الأسوار ، واقتتح الجيش العثماني أبواب

⁽⁴⁾ Muneccimbasi , Tarih , Nuruosmaniye Kutup . Nr . 15 , Varak 115 a – 115 b ; Abdulgaffar Kirimi, Umdatul – Ahbar , Suleymaniye Kutup . Esat Efendi ; Nr . 2331 , Varak 20 a- 207b ; Solakzade , Tarih, S. 196 .

⁽¹⁾ Hoca Sadreddin Efendi , Tacu't – Tevarih , I , S . 324 .

⁽²⁾ Cafer Celebi , Mahrusa – I Istanbul Fetihnamiesi , Toem , 1331 S . 19 ; Mustafa Ali , Kunhu'l – Ahbar , V , S. 253 – 356 .

القسطنطينية بالقوة ودخلوها بعد حصار استمر ثلاثة وخمسين يوماً⁽³⁾ ، فسقطت القسطنطينية ومحيت الإمبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) من مسرح التاريخ ، وانتهت بذلك العصر الوسيط وبدأ العصر الحديث ،⁽⁴⁾ وبهذا الفتح حق السلطان محمد الثاني الحديث النبوى الشريف "تفتح القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش"⁽⁵⁾ ، وأخذ لقب (الفاتح) ، ودخل المدينة حيث قام بأداء الصلاة في كنيسة سانت صوفيا، وهي أكبر كنيسة في القسطنطينية وقد تحولت الكنيسة منذ ذلك الحين إلى مسجداً ، كما أطلقت على القسطنطينية منذ ذلك الحين أسماء تركية وإسلامية مثل: (إسلامبول) الذي يعني دار الإسلام، وقد حُرِّف فيما بعد إلى إستانبول أو أسطنبول ، وباب السعادة، ودر السعادة ، ودر السلطنة ، ودر الخلافة⁽⁶⁾.

وقد أمر الفاتح بمعاملة أهل المدينة معاملة حسنة كما أمر بحماية أرواحهم وأموالهم وبالسماح لهم بأداء طقوسهم وعبادتهم في كنائسهم ومعابدهم ، ودخل الفاتح المدينة وقت الظهر من يوم الثلاثاء ، وقال لعسكره : "أيها الغزاة أصبحتم فاتحوا استانبول بحمد الله ﷺ اقتلوا من يقاتلكم ولا تتعرضوا لمن لا يحمل السلاح ضدهم ، ولا تتعرضوا للأطفال والشيوخ والنساء والمرضى ، وخذوا من الغنائم التي أحلت لكم" .⁽¹⁾

وقد منح الفاتح كذلك امتيازات لليهود القاطنين في المدينة ، سمح لهم بممارسة طقوسهم الدينية والمحافظة على أماكن عبادتهم ، إضافة إلى سماحة لهجرة اليهود الساكدين في أسكوب⁽²⁾ وسلانيك⁽³⁾ وخاصة كوي⁽⁴⁾ إلى إستانبول، حيث أسكنهم في حيٍّ خاص بهم في المدينة نظراً لحاجة المنطقة إلى زيادة السكان ، وانتظم اليهود في إستانبول تحت زعامة

⁽³⁾ Kivami , Fetihname – I Sultan Mehmed , Hazirlayan : Fransiz Babinger , Istanbul 1955 , S . 41 – 104 .

مؤلف مجهول : الأتراك العثمانيون ، ورقة 12 .

⁽⁴⁾ محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص45 . يوسف التقفي : مرجع سابق ، ص32 .

⁽⁵⁾ Imam Ahmed b. Hanbel , Musned , Kahire 1313 ; Camiu's – Sagir , Lam Harfi .

⁽⁶⁾ يلمازا أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج 1 ، ص 140 ، 141 . الصفافي أحمد المرسي: مرجع سابق ، ص 34

⁽¹⁾ Omer Faruk yilmaz , Belgelerle Osmanli Tarihi , Istanbul 1999 , S . 368 .

⁽²⁾ أسكوب : Uskub مدينة في تركية الأوروبية ، في مقدونيا ، تشكل المدينة حدفاً فاصلاً بين مقدونيا وألبانيا وصربيا ، بها قلعة رومانية تسسيطر عليها من جميع الجهات : س . موستراس : مرجع سابق ، ص 67 .

⁽³⁾ سلانيك : Selanik مدينة في تركية الأوروبية في مقدونيا ، مركز تجاري مهم وبها عدد لا يأس به من اليهود . س . موستراس : مرجع سابق ، ص 302 .

⁽⁴⁾ خاص كوي : Haskieui بلدة في تركية الأوروبية في تراقيه ، ولاية أدرنه . س . موستراس : مرجع سابق ، ص 248 .

رئيس الحاخامات ، وفي عهد الفاتح قام رئيس طائفة اليهود المدعو إسحاق صفتى بدعوة يهود العالم بالهجرة إلى الدولة العثمانية ، مؤكداً لهم أن الوضع فيها يساعد اليهود على العيش بأمان وحرية .⁽⁵⁾

ومن جهة أخرى قام الفاتح بإعمار المدينة فشيد فيها المساجد والقصور والمدارس ودور الطعام وقنطر المياه والأسوق والحمامات والأسبلة ، حيث صارت إسطنبول مركزاً عالماً للثقافة والعلوم والفنون ، وذلك على اعتبار تاريخها العريق ومستقبلها كعاصمة للدولة العثمانية .⁽⁶⁾

وخلال حصار القسطنطينية اكتشف السلطان قبر الصحابي الجليل (أبو أيوب الأنصاري) الذي أستشهد أثناء الحصار الأول للقسطنطينية زمن الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان ، وقد بني له مسجداً وقبة على قبره بعد الفتح ، ويقع هذا المسجد على القرن الذهبي خارج أسوار القسطنطينية ، وقد جرت العادة أن يقوم كل سلطان عقب توليه العرش بتقليد سيف عثمان غازي - مؤسس الدولة العثمانية - في هذا المسجد ضمن احتفالات ومراسيم ، وأن هذه المراسيم تشبه إلى حد ما مراسيم التتويج لدى ملوك الإفرنج .⁽¹⁾ وقد كان لفتح القسطنطينية صدى عظيم في العالم الإسلامي ، إذ عم الفرح والابتهاج بين المسلمين في أرجاء آسيا وإفريقيا لهذا الفتح الإسلامي المبين ، وما أن وصلت أخبار الفتح إلى مصر والحجاز حتى هلل المسلمون وكtero وأذيعت البشائر من منابر المساجد وأقيمت صلوات الشكر وزينت المنازل والدكاكين والحوانيت بالزينة وعلقت على الجدران الأعلام والرايات والأقمصة المزرκكة الألوان ، وأمضى الناس في البلاد الإسلامية أيام أفراح وأعياد ، فكيف لا يغتبط كل مسلم وقد رأى تحقق النبوءة الكريمة ، فها هي القسطنطينية التي استعصت على المسلمين منذ قرون طويلة قد دانت للمسلمين ودخلت في حوزتهم .⁽²⁾

أما عن الغرب ، فقد كان تأثير فتح القسطنطينية كبيراً جداً على أوروبا ؛ فقد انتاب كل عرش في هذه القارة خاصة الملوك والأمراء شعور بالهلع والألم والخزي بعد أن سقط الحصن الذي طالما حمى أوروبا من آسيا لأكثر من ألف سنة ، وتجسم لهم خطر المسلمين

⁽⁵⁾ هدى درويش : العلاقات التركية اليهودية ، ج 1 ، ص 162 .

⁽⁶⁾ عبد العزيز سليمان نوار : مرجع سابق ، ص 32 .

⁽¹⁾ محمد فريد بك المحامي : مصدر سابق ، ص 162 .

⁽²⁾ الصفاري أحمد المرسي ، مرجع سابق ، ص 134 .

وتهديدهم وتوجسوا أن يكون انتصار السلطان العثماني بداية توغل العثمانيين في أوروبا ، فراحوا يتبعون خطواته وحركاته بقلق واهتمام بالغين .

وقد رأى البابوية التي حلمت بإخضاع جميع النصارى اليونان لحكم روما بفرز سرعة تحول الملايين من سكان جنوب شرق أوروبا إلى الإسلام ، وكتب البابا بنيفولا الخامس إلى جميع الحكام الأوروبيين يستجديهم طرح الخلافات وتوحيد الجهود ضد العثمانيين والعمل على تشكيل حلف صليبي جديد ، كما حاول خلفه البابا بيوس الثاني تجديد الأهم ، لكن النزاعات بين ملوك أوروبا وأمرائها حالت دون تحقيق الهدف .⁽³⁾

ولا شك أن فتح القسطنطينية من أعظم الفتوحات الجليلة حيث رام كثير من الخلفاء والملوك نواله فلم ينالوه مع ما صرفوه من الجهد والأموال ، وأما أفنوه من القادة والرجال . وقد أرّخ بعضهم هذا الفتح ببيت الشعر الآتي الذي يستخرج منه تاريخ الفتح على حساب الأبجدية ، وهو سنة (857) هجرية التي توافق سنة (1453) ميلادية .

(1) رام أمر الفتح قوم أولون حازه بالنصر قوم آخرون

ويحمل أيضاً هذا الحدث في طياته دلالات عديدة ، لعل أبرزها نقل عاصمة الدولة العثمانية من بروسه إلى القسطنطينية ، وهذا يعني أن الدولة أصبحت آسيوية أوروبية وانتقل مركز ثقلها إلى أوروبا ، مما يعني بداية انتشار الإسلام ليكون ديناً رسمياً في شرق أوروبا ، ورمزاً للدولة في التوسيع والانتقال نحو الغرب .

رابعاً : مسألة الدمار الذي أصاب القسطنطينية من جراء الفتح . يقول :

"أَسْفَ مُحَمَّدَ لِدَمَارِ الَّذِي حَلَّ بِتَلْكَ الْمَدِينَةِ ، فَأَعْنَاهَا عَلَى الْفُورِ عَاصِمَةً لَهُ".⁽²⁾

"ولما فتح الترك القسطنطينية فر الأهالي العزل إلى الكنيسة معتقدين أن العدو ما إن يبلغ عاصمة قسطنطين الأكبر حتى يظهر ملك من السماء يشتت شمل الظافرين ، لكن الترك اقتحموا أبواب الكنيسة ووقع اللاجئون غنيمة سائحة ، فأسرروا رجالاً ونساءً ، ولم

⁽³⁾ محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص 97 ، 98 .

S.Runciman : The Fall of Constantinople , Cambridge , 1965 .

Kemalpasazade : Teuarih – I Ali Osman , VII , Defter , (ha2 . S. Turan) , Ankara , 1957 , S, 540 .

⁽¹⁾ إسماعيل سرہنک : حقائق الأخبار في أعلى البحار ، ج 1 ، ص 511 . لمعرفة المزيد عن حقائق فتح القسطنطينية الرجوع إلى : زياد أبو غنيمه : محمد الفاتح ، ص 40 – 73 . عبد الرحمن شرف : مصدر سابق ، ص 153 – 160 .

⁽²⁾ Halil Inakik : mehemmed II – the Engyglopadia of Islam , Volume VI , P 79 .

يذكر لنا شهود العيان أنهم أغاروا أرض هذا المكان ، وإن كان الكتاب المتأخر من قد أولعوا بذكره وتمت المأساة وأسر اللاجئون التسعاء " .⁽³⁾

في البداية أورد نبذة بسيطة عن أخلاق السلطان محمد الفاتح ، لقد تربى على مائدة القرآن الكريم ، على يد خيرة علماء عصره في مقدمتهم الشيخ " آق شمس الدين " الذي درس القرآن الكريم والسنّة النبوية ، وفي الوقت نفسه كان دائمًا يحدثه بأنه المقصود بالحديث الشريف " .⁽⁴⁾ حدث بن بشر الخثمي عن أبيه أنه سمع النبي ﷺ يقول "تفتحن القدسية فلنعلم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش " .⁽⁵⁾

وبناءً على ذلك أوضح أن هذا الافتراض استند على عرف كان سائداً في حروب تلك العصور ، ويقضي بأنه إذا طلب من مدينة ما الاستسلام أثناء الحرب أو الحصار وترفض ، فإن من حق فاتحها أن يستبيحها لمدة ثلاثة أيام بلياليها يفعل هو وجنوده ما شاءوا بها .⁽⁶⁾

والحقيقة أن السلطان محمد الفاتح طلب من الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الاستسلام مرتين ، ولكن الأخير رفض ، ولكن هذا ليس معناه أن يستبيح السلطان محمد المدينة لثلاثة أيام .⁽¹⁾ كما أنه ليس من مبادئ شريعتنا الإسلامية التي تحرم القتل في الحرب إلا في ساحة المعركة أن تبيح للقائد والجنود المنتصرين استباحة مدينة مما كانت ديانة أهلها ، وانتهاك حرمات بيوتها ، فهذا قول مردود عليه تماماً ، بالإضافة إلى أنه لا يعقل أن نصدق أن السلطان محمد الفاتح الذي تحقق في مقولته الرسول ﷺ أن يتبع عرفاً سائداً في بلاد الكفر ويبيح لجنوده سلب المدينة وانتهاك أعراض النساء بعد ما أنعم الله ﷺ عليه بهذا الفتح المبين .

وقد أنعم الله على العثمانيين بفتح القدسية في يوم 19 جمادى الأولى 857هـ / 29 مايو 1453م ، وفي اليوم السابق لهذا التاريخ حث السلطان جنده على الصيام وذلك تقرباً إلى الله وتزكية لنفسهم قبل الهجوم الأخير ، وبعد الإفطار تعلالت أصوات التكبير ورددت الأناشيد الدينية وتلا الشيوخ آيات الجهاد ثم دعا إلى عقد مجلس حربه وخطب فيهم :

⁽³⁾ سو سليم : مادة آيا صوفيا ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 3 ، ص 175 .

⁽⁴⁾ علي محمد الصلايبي : مرجع سابق ، ص 181 .

⁽⁵⁾ أحمد بن حنبل: مسند الإمام أحمد بن حنبل ، د.م ، د.ت ، ج 4 ، ص 335 . الطبراني: المعجم الكبير ، د.م ، د.ت ، ج 2 ، 38 .

⁽⁶⁾ زياد أبو غنيمه : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ، ص 268 .

⁽¹⁾ زياد أبو غنيمه : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ، ص 270 .

"إذا تم لنا فتح القسطنطينية تحقق فينا حديث رسول الله ومعجزة من معجزاته ، وسيكون من حظنا ما أشاد به هذا الحديث من التقدير ، فأبلغوا أبناءنا العساكر فرداً فرداً أن الظرف العظيم الذي سنحرزه سيزيد الإسلام قدرًا وشرفًا ، ويجب على كل جندي أن يجعل تعاليم شريعتنا الغراء نصب عينيه فلا يصدر عن أحد منهم ما يجافي هذه التعاليم ، وليتجنوا الكنائس والمعابد ولا يمسوها بأذى ويدعوا القساوسة والضعفاء والعجزة الذين لا يقاتلون" ⁽²⁾. هذه الخطبة البليغة ترجع بذاكرتنا إلى خطبة سيدنا أبو بكر الصديق رض لجيشه.

وبعد أن من الله عليهم باختراق الأسوار المنيعة دخلها الفاتح القائد المسلم المنتصر ، وتوجه إلى كنيسة أيا صوفيا وقبل أن يصلها قال : " الحمد لله ليرحم الله الشهداء " ، وقرأ الحديث الشريف لجنوده ونهاهم عن السلب والنهب ، وأمرهم أن يكونوا أهلاً للشرف الذي حباهم به الرسول صل ثم ترجل عن فرسه واستقبل القبلة وسجد على الأرض شكرًا لله ، وحثا التراب على رأسه شكرًا على النعمة ، ولم يقم جندي واحد بأي عمل منافي للشريعة الإسلامية ، ثم توجه إلى كنيسة أيا صوفيا وصلى ركعتين شكرًا لله وأمر المؤذن بصلة الظهر ، ومنذ ذلك الوقت تحولت الكنيسة إلى مسجد . ⁽³⁾

ثم أصدر السلطان أمراً بتأمين الناس على حياتهم ، وعدم القيام بأعمال السلب والنهب في المدينة ، ونادي المنادي بكل مكان بأن الأمان على كل رومي يريد الرجوع إلى وطنه ، وترك لهم كثيراً من كنائسهم وحرية ممارسة شعائرهم الدينية ، وعَيْن لهم بطريركاً بعد مقتل السابق ، ثم أمر بburial قسطنطين الذي قتل أثناء الفتح بما يليق بمقامه . ⁽¹⁾

وقد أكد على هذه الحقيقة كثير من المؤرخين الأتراك مثل دورسون الذي عاصر الحديث في كتابه "موسوعة التاريخ العثماني" ، وأحمد رفيق في كتابه "التاريخ العمومي الكبير" إضافة إلى الصدر الأعظم كامل باشا في كتابه "التاريخ السياسي للدولة العثمانية" .

⁽²⁾ علي حسون : مرجع سابق ، ص 36-38 .

⁽³⁾ مرجع سابق ، ص 38 ، الصفصافي أحمد المرسي : مرجع سابق ، ص 32 .

⁽¹⁾ علي حسون : مرجع سابق ، ص 38 . الصفصافي أحمد المرسي ، مرجع سابق ، ص 32 .

أما المؤرخون النصارى المحايدون فقد أجمعوا على حسن تعامل محمد الفاتح مع نصارى القسطنطينية ، والتسامح الديني الذي نعموا به فلم يذبح أي لاجئ لأنّا صوفيا (٢) بل أطلق سراحهم جميعاً .

والحقيقة أن جموعاً غفيرة التجأت إلى آيا صوفيا خوفاً من الفاتح ، وعندما وصل محمد الفاتح إلى الكنيسة سجد كافة الناس وعلى رأسهم الرهبان على الأرض خوفاً منه ، إلا أنه قال : " انهضوا لا تخشوا بعد هذه اللحظة على حيائكم أو حرثيكم ". (٣)

وقد أكد هذه الحقيقة باول وتيك في كتابه " تأسيس الإمبراطورية العثمانية " ، وكارادكو المؤرخ الفرنسي في كتابه " مفكروا الإسلام " ، وماري ملز باتريك في كتابه " سلاطين بنى عثمان الخمسة " . (٤)

والواقع أن السلطان محمد الفاتح أظهر تسامحاً كبيراً (٥) مع الأسرى بخلاف معاصريه الذين كانوا يتلذذون وهم على موائد الطعام بمنظر الأسرى وقد اخترقت بطونهم أسنة الرماح وبرفعهم على الخوازيق ، وبالتالي ليس هناك مطلاً مجال للمقارنة بين أعمال محمد الفاتح مع نصارى القسطنطينية وبين أعمال هولاكو وجنكيز خان في مسلمي الشرق ، وهو ينادي و فلان الواashi من حكام أوروبا فأعمالهم عنوان تاريخهم ، فقد استباحوا كل ما هو إنساني ودمروا كل ما هو حضاري ، ولو كان محمد الفاتح استباح القسطنطينية و فعل ما فعل هؤلاء لما بقي فيها مسيحيًا واحدًا . (١) كما هو الحال الآن في إسبانيا التي كانت يوماً الأندلس .

(٢) تجمع الناس في آيا صوفيا في انتظار انطلاق الحدار وظهور ملك سيف ليخلصهم من الأتراك حسب أسطورتهم ويقول الأمير دوكاس أنه لو ظهر الملك في تلك اللحظة وسأل الناس عما يفضلون كاثوليك وينجون من الأتراك ، أم أرثوذكس ويعيشون حياة تحت إدارة الأتراك لفضل الناس الشق الثاني . سالم الرشيدى : مرجع سابق ، ص 122 .

(٣) الصفارى أحمد المرسى : مرجع سابق ، ص 32 . شبيب أرسلان : مصدر سابق ، ص 86 . يلمازا وزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج 1، ص 140 .

(٤) زياد أبو غنيمه : مرجع سابق ، ص 281-283 .

(٥) استمر بحارة كريت في المقاومة في باغجه قابو ، فأعجب السلطان محمد الفاتح بشجاعتهم وبطولتهم وأمر بعدم أسرهم والسماح لهم بالعودة إلى سفنهم بأسلحتهم ليعودوا إلى جزيرتهم ، وطبعاً هذا منتهى التسامح الديني ، ومخالف لعقلية العصور الوسطى السائدة يلمازا وزتونا : مصدر سابق ، ج 1 ، ص 140 .

(١) محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 54-55 .

ويكفي ثناء الرسول الكريم في الحديث الشريف على الأمير وجشه بأنه نعم الأمير الذي يفتحها ونعم الجيش الذي يدخلها ، فهذا دليل واضح وصريح لا يقبل الشك أبداً بأن القائد والجيش تحلوa بكل الأخلاق الإسلامية ولم يأتوا بما ينافيها ، وهذا الرد يغلق أفواه الحاقدين .

وبناء على ما سبق يتضح أن السلطان محمد الفاتح لم يستبع المدينة ثلاثة أيام مططاً على عكس ما ردده الكثيرون من المستشرقين الحاقدين ، وكل ما أقامه في ثلاثة أيام كانت وليمة فاخرة للجنود احتفالاً بالنصر .⁽²⁾

إذ إن السلطان محمد الفاتح أمر جنوده بحسن معاملة الأسرى والرفق بهم وافتدى عدداً كبيراً منهم بماله الخاص ، أو جعل فديتهم نظير أعمالهم في بناء المدينة أطلق سراحهم بعد ذلك ، وأهتم بافتداء أمراء اليونان ورجال الدين واستقبل البطريرك الجديد ببالغ الحفاوة والتكريم ، مما جعل صورته تتغير أمام البطريرك والمسيحيين من بعده ، فقد تصورا أن القتل من نصيبهم لا محالة ، واستأنف الناس حياتهم بسلام في ظل حكم عادل رحيم .

ولم يظهر السلطان محمد الفاتح ما أظهره من تسامح ديني إلا لأنّه مسلم مقدّسٌ سنة نبيه المصطفى ﷺ.⁽³⁾

وبهذا نكشف عدم صدق دعواه في استباحة القسطنطينية ، ولا صدق الرواية الملفقة من المستشرق سوسيهم من في مادة آيا صوفيا عن أن الدماء خضبت أرض آيا صوفيا ؛ فتلك أكاذيب ، وقد ذكر ذلك بنفسه ، حيث قال إنه لم يذكرها شهود العيان ، وإنما ذكرها المؤرخون المتأخرلون ، وهم المستشرقون الذين اعتادوا نسج الافتراءات . والحقيقة أن شهود العيان لم يذكروها لأنها لم تحدث أصلاً وما هي إلا ترهات من المستشرقين .

وقد اعترف بذلك بعض المؤرخين الغربيين أمثل "فيرنارد جرينارد" الذي أكد أن العثمانيين عندما دخلوا القسطنطينية لم يقاتلوا إلا من يحمل سلاحاً ، ومما يؤكّد هذه المعلومة المؤرخ الروسي "يوسبنكي" فقد ذكر أن معاملة العثمانيين لأهل القسطنطينية وحمائهم لآثارها الحضارية أفضل ألف مرة من ناحية الإنفاق والإنسانية من معاملة الصليبيين للمدن التي كانوا يستولون عليها .⁽¹⁾

خامساً : محاولة تصويره على أنه حاكم مستبد مطلق الصالحيات . يقول عنه :

⁽²⁾ الصفاصي أحمد المرسي : مرجع سابق ، ص 32 .

⁽³⁾ علي محمد الصلايبي : مرجع سابق ، ص 179-180 .

⁽¹⁾ زياد أبو غنيمه : السلطان المجاهد محمد الفاتح ، ص 75 .

"استخدم محمد الفاتح الأعراف والتقاليد الشرعية لاضفاء الشرعية على مجدهاته".⁽²⁾

إن القاريء ليشك في أن خليل إيناليجك قد قرأ ولو جزءاً يسيراً من سيرة محمد الفاتح الصحيحة؛ لأنه لو قرأ عنه ولو قليلاً لأدرك مدى تميز الفاتح بأخلاق الإسلام، ويكتفينا سياسة التسامح الديني التي أتبعها مع أهالي القدسية، فنرى مثلاً مقابلته مع البطريرك، حيث استقبله بحفاوة بالغة، وكرمه تكريماً عظيماً، حتى إنه تناول معه الطعام وتحدى في عدة موضوعات سياسية ودينية واجتماعية، حتى خرج البطريرك من لقاء السلطان بفكرة جديدة تماماً عن الدولة العثمانية والسلطان محمد الفاتح بل عن الإسلام بصفة عامة، ولم يكن الروم أنفسهم أقل دهشة من بطريركهم حيث ظنوا أن القتل والموت مصيرهم المحتمم، لكن لم يلبثوا أياماً حتى عادوا ليستأنفوا حياتهم اليومية بمنتهى السلامة واليسر.⁽³⁾

فلو كان حاكماً مستبداً لما وقر معلمه وأستاذه "الشيخ آق شمس الدين" حيث كان يكن له الكثير من الحب والاحترام والإجلال والتوقير، كان يزوره على الدوام ويستمع لنصائحه، وكان الفاتح لا يقوم من مجلسه لأحد، ولكنه كان يخف واقفاً إذا حضر آق شمس الدين حتى وصل به الأمر أنه يتلعم أثناء حديثه معه.⁽⁴⁾

وهنا يتكرر نفس أسلوب إيناليجك وهو التلاعب بالألفاظ حيث أورد لفظي الأعراف والتقاليد وهذه لا يمكن أن تضفي شرعية على حكمه لأنه سار وفق الشريعة الإسلامية وليس الأعراف والتقاليد.

ولنترك وصية الفاتح تتحدث عنه وتعكس سياساته الداخلية والخارجية، وهذه الوصية نطق بها وهو على فراش الموت، وهي تعبير أصدق التعبير عن منهجه في الحياة، وقيمته ومبادئه التي آمن بها، يتمنى من خلفائه من بعده أن يسيروا عليها : "ها أنتا أموت، ولكنني غير آسف لأنني تارك خلفاً مثلك كن عادلاً صالحاً رحيمًا، وابسط على الرعية حمايتك بدون تمييز، واعمل على نشر الدين الإسلامي ، فإن هذا هو واجب الملوك على الأرض ، قدم الاهتمام بأمر الدين على كل شيء ولا تفتر في المواظبة عليه ، ولا تستخدم الأشخاص الذين لا يهتمون بأمر الدين ، ولا يجتبن الكبار وينغمدون في الفحش ، وجانب البدع المفسدة ، وباعد الذين يحرضونك عليها وسع رقعة البلاد بالجهاد وأحرس أموال بيت

⁽²⁾ Halil inalcik : mehemmed II , the Engyglopadia of Islam , Volume Vi . P 979 .

⁽³⁾ زياد أبو غنيمه : السلطان المجاهد محمد الفاتح ، ص 94 .

⁽⁴⁾ أورخان محمد علي : مرجع سابق ، ص 46 .

المال من أن تتبدد ، إياك أن تمد يدك إلى مال أحد من رعيتك إلا بحق الإسلام ، وأضمن للمعوزين قوتهم ، وابذل إكرامك للمستحقين .

وبما أن العلماء هو بمثابة القوة المبثوثة في جسم الدولة ، فعظم جانبهم وشجعهم ، وإذا سمعت بأحد منهم في بلد آخر فاستقدمه إليك وأكرمه بالمال .

حذار حذار لا يغرنك المال ولا الجند ، وإياك أن تبعد أهل الشريعة عن بابك ، وإياك أن تميل إلى أي عمل يخالف أحكام الشريعة ، فإن الدين غايتنا ، والهدایة منهجاً وبذلك انتصرنا .

خذ مني هذه العبرة : حضرت هذه البلاد كنملة صغيرة ، فأعطاني الله تعالى هذه النعم الجليلة ، فاللزم مسلكي ، واحد حذوي ، واعمل على تعزيز هذا الدين وتوفير أهله ولا تصرف أموال الدولة في ترف أو لهو ، وأكثر من قدر اللزوم فإن ذلك من أعظم أسباب الها لاك " .⁽¹⁾

وقد جاء في وصيته هذه النقاط التي كانت النبراس الذي سار عليه في جميع فتوحاته ، لقد دخل الفاتح إلى قلب العاصمة البيزنطية وأعطى عالم النصرانية دروساً في العدالة والرحمة ، فأصبحت معلماً من معالم التاريخ العثماني .

سادساً : اتهامه بأنه جعل من القضاء أداة لتنفيذ رغباته . فقال : " أصبح القضاء المبدأ الذي يستمد منه السلطان العثماني شرعنته حتى ضد أعدائه"⁽²⁾ . هذه الكلمة حق أربد بها باطل ، حيث توحى للقارئ هنا أنه يستطيع استخدام القضاء في الظلم ، إذ صوره على أنه قوة يستمد لها لإيقاع الظلم بالرعايا .

يكفي للرد على هذا الاتهام توضيح قصة السلطان محمد الفاتح مع القضاء . حدث أن أمر السلطان محمد الفاتح ببناء جامع في إسطنبول ، وكلف أحد المعماريين الروم واسمي "إيسلانتي" بالإشراف على البناء ، لكنه لسبب ما اخطأ في إحد تعاليم السلطان في البناء ، غضب السلطان جداً حتى أعماه الغضب وأمر بقطع يد المعماري ، لكنه عاد وندم جداً على هذه الفعلة حيث لا ينفع الندم ، أما المعماري تقدم بشكوى للقاضي ، الذي لم يتردد وقبل الشكوى ونظر فيها ، وأستدعي السلطان للمثول أمامه ، فقبل الدعوة السلطان وذهب للقاضي والذي جعله يقف مع خصميه أمام القاضي على الرغم من أنه السلطان الذي أسقط عاصمة

⁽¹⁾ علي محمد الصلابي : مرجع سابق ، ص 237 ، 328 .

⁽²⁾ Halil Inalcik : mehemmed II , The Engylopadia of Islam , Volume vi , p 980 .

الإمبراطورية البيزنطية ، وعندما انتهى المعماري من عرض مظلمته أمن عليها الفاتح وانتظر حكم القاضي ، والذي حكم بالقصاص من السلطان وقطع يده أيضاً ، ففرع الرومي ، وتنازل عن الدعوة ، لأن أقصى أمنية له هو تعويض مادي ولم يحلم بالقصاص من السلطان الذي ترتفع أوروبا منه رعباً ، فحكم القاضي له بعشر قطع نقدية ، لكل يوم طوال حياته ، تعويضاً عن الضرر البالغ الذي لحق به ، لكن السلطان قرر أن يعطيه عشرين قطعة عن كل يوم ، تعبيراً عن فرحة من الخلاص من حكم القصاص وتعبيراً عن ندمه أيضاً.⁽¹⁾

إن في هذه القصة لتعبير واضح جداً عن معنى التزامه بالقضاء ونزعوله للأحكام الشرعية فلم يحدث أن وقف ملك من أوروبا أو إمبراطور أمام القضاء للعقاب على خطأ ارتكبه فسجونهم مليئة بالمظلومين وأصحاب الحقوق المسلوبة . لا يوجد أكثر من هذا دليلاً على خصوصة لقضاء الإسلامي وعدم اتخاذه مبدأ يستمد منه قوته لإيقاع الظلم على رعاياه .

سابعاً : محاولة تحديد أهداف لفتحاته غير نشر الإسلام وتأمين الجبهة . فقال :

"لكي يضفي طابع الشرعية على حملته لضم الدولة الصربية كان على الدوام يتحدث عن حقه الوراثي فيها ، عبر زواج الحكام الذين سبقوه من أميرة صربية ، من جانب آخر فإن إحياء الإمبراطورية العثمانية الأولى التي تأسست تحت حكم بايزيد يلدريم ، قد شجعت المحتل في حملاته الإحتلالية " .⁽²⁾

كيف يطلق عليه محتل وهو مسلم يعرف معنى نشر الإسلام والجهاد في سبيل الله ، من المؤكد أنه لم يطلع على سيرة الفاتح مطلقاً .

صربيا هذه التي ادعى خليل إينالجيك أن الفاتح أراد احتلالها ، إنما كان أهلها ينادون ويرغبون في الحكم العثماني للتخلص من الاستبعاد الكاثوليكي المتعصب.⁽³⁾

لقد خاض السلطان محمد الفاتح حروباً كثيرة تحقيقاً لمفهوم الجهاد الإسلامي، ولقد كان فتح القسطنطينية فتحاً عظيماً غير أن الفاتح لم يكتف بذلك، بل قام بسلسلة من الحملات العسكرية والفتح ، وقد أعطته المصادر الإسلامية لقب "أبو الفتح" لكثرة فتوحاته ، حيث استطاع أن يفتح أراضي تابعة لسبع عشرة دولة⁽¹⁾.

⁽¹⁾ أورخان محمد علي : مرجع سابق ، ص 47-49 .

⁽²⁾ Halil Inakik : mehemmed II , the Engyglopadia of Islam , VI , P 980 – 987 .

⁽³⁾ سالم الرشيد : مرجع سابق ، ص 167 .

⁽¹⁾ عبد المنعم الهاشمي : مرجع سابق ، ص 106

بعد أن حقق فتح القسطنطينية وجعل من الدولة العثمانية دولة عالمية بدأ ببحث السبل لتأمين السلام في البلقان ، وكانت الصرب وال مجر بمثابة حجر عثرة أمام تقدم العثمانيين في تلك المنطقة ، وقد قام ملك الصرب برانكوفيچ بإرسال سفير لتهنئة الفاتح ، كما قام بتسليمه مفاتيح بعض القلاع العثمانية التي سبق وأن استولى عليها الجيش الصربى ، ولكنه كان من جهة أخرى يخطط مع المجر لتجهيز حملة صليبية ضد الأتراك ، فقام السلطان بطلب مفاتيح القلاع العثمانية الأخرى التي بقيت في حوزة الصرب ، وعندما جاء الرفض قام السلطان بتجهيز حملة عسكرية في ربيع الأول عام 859هـ / 1454م حيث فتح بهذه الحملة مناطق واسعة من بلاد الصرب⁽²⁾ ، ولكن بعد أن عاد الجيش العثماني من المنطقة قامت القوات الصربية وال مجرية بالدخول إلى الأراضي العثمانية ، وأسر القائد التركي فيروز بيك المرابط في المنطقة ، فعاد الفاتح مرة أخرى للهجوم على المنطقة ، حيث اضطر ملك الصرب إلى إرسال سفير إلى السلطان يطلب منه الصلح ، وبموجب المعاهدة التي أبرمت بين الطرفين أعيدت القلاع العثمانية التي كانت في حوزة الصرب ، كما تعهد ملك الصرب بدفع جزية إلى الدولة العثمانية بمقدار ثلاثين ألف ذهبية ذهب⁽³⁾ ، ولكن بعد فترة وجيزة قام ملك الصرب بنقض العهد مما اضطر الفاتح لتجهيز حملة أخرى على الصرب عام 860هـ / 1455م استطاعت هذه الحملة من فتح منطقة شهيرة بالفضة وبالمعادن الأخرى ،⁽⁴⁾ وفي طريق عودة الفاتح زار الموضع الذي استشهد فيه جده السلطان مراد الأول (خداوندكار)⁽⁵⁾.

ولأجل الحفاظ على منطقة الصرب كان يتحتم على الدولة العثمانية السيطرة على سواحل نهر طونة "نهر الدانوب" لسد المخاطر الآتية من الشمال ، لذلك ظهرت الحاجة ماسة لفتح بلغراد ، فأعاد الفاتح جيشاً قوامه مائة ألف جندي وتحرك من أدرنه عام 861هـ / 1456م ، وفي الطريق انضم إلى السلطان الأسطول العثماني المرابط في فيدين والمكون من مائتي سفينة صغيرة .⁽¹⁾

⁽²⁾ idris – I Bitlisi , Varak 92 a – 92 b .

⁽³⁾ Hoca Sadreddin Efendi , Tacu't – Tevarih , I , s . 450 .

⁽⁴⁾ Hoca Sadreddin Efendi , Tacu't – Tevarih , I , s . 452 .

⁽⁵⁾ Asikpasazade , Tevarih – I AL – I Osman , Istanbul 1332 , S . 146 .

⁽¹⁾ Idris – Ibitlisi , Varak 97 a ; Hoca Sadreddin Efendi , Tacu;t – Tevarih , I , S . 455 .

وفي هذه الأثناء سارعت الدول الأوروبية في الوقوف ضد فتوحات السلطان العثماني ، فأرسلت كل من ألمانيا والبنديقية ستين ألف مقاتل متطلع إلى بلغراد لإنقاذها من الحصار العثماني ، مما أدى إلى تقهقر الجيش العثماني إثر هزيمة الأسطول العثماني أمام الأسطول المجري ، ووفاة والي الروملي داي قراجا بيك ، وأراد السلطان رفع الروح المعنوية للجنود فاشتبك في الصف الأمامي من جبهة القتال لرفع معنويات الجيش ، ولكنه أصيب ببعض الجروح فاضطر إلى فك الحصار عن بلغراد في العام نفسه .

وفي عام 1457هـ / 1457 م قام البابا كاليكسقوس الثالث بإعادة المحاولة لتكوين حلف صليبي ضد السلطان محمد الفاتح ، فأرسل أسطولاً قوياً إلى بحر إيجة ، وبدأ بالنقاوض مع أوزون حسن والكرجيين لغرض خلق المشاكل ضد العثمانيين ، ثم قام البابا بيوس الثاني المعروف بدعوته للعثمانيين – فيما بعد – بدعة الحكومات النصرانية لعقد مؤتمر لمناقشة سبل التحالف ضد العثمانيين .

ولكن على الرغم من تحالف الدول الأوروبية ضد العثمانيين فقد قرر الفاتح إنهاء القضية الصربية ⁽²⁾ ، حيث قام بإرسال الصدر الأعظم محمود باشا على رأس جيش قوي سنة 1458هـ / 1458 م ، وفتح عدة مناطق منها بحصار العاصمة الصربية سمنديرة ومنظماً لغارات عسكرية على الأراضي المجرية ، وأخيراً تمكن محمود باشا من فتح سمنديرة في عام 1459هـ / 1459 م ، حيث أصبحت سنجقاً تابعاً إلى ولاية الروملي العثمانية ⁽³⁾ .

ومع استمرار علو نجم السلطان محمد الفاتح ، طلبت منه الكنيسة الأرثوذوكسية مساعدتها في وضع حد للفوضى والنزاعات القائمة في منطقة المورا ، فأعدّ السلطان جيشاً قوياً وسار نحو المورا ففتحها وجعلها سنجقاً تابعاً إلى ولاية روملي العثمانية ، وحينها طلب أهالي أثينا التي تعدّ مركزاً للحضارة الإغريقية الالتحاق بالدولة العثمانية من تلقاء أنفسهم ، فقام الفاتح بزيارة تفقدية إلى أثينا ⁽⁴⁾ تمهدًا لإدخالها تحت الحكم العثماني .

⁽²⁾ Dursun Bey , Tarih – I Ebu'l – Feth , Toem , Istanbul 1330 , S . 33 ; Nesri , Tarih , II S. 721-725 .

عبد الرحمن شرف : مصدر سابق ، ص 161 ، 162 .

⁽³⁾ Asikpasazade , Tevarih – I Al – I Osman , Istanbul 1332 , S . 150 ; Dursun Bey , Tarih -1 Ebu'l – Feth , Toem Istanbul 1330 , S . 90 – 96 ; Nesri , Tarih , II , S . 737 – 741 .

⁽⁴⁾ Kivami , Fetihname – I Sultan Mehmed , Hazirlayan : Fransiz Babinger , Istanbul 1955 ,S. 104-121.

ثم أخضع الفاتح سواحل البحر الأسود وألحقها بالدولة العثمانية وذلك لتأمين وحدة الأناضول ، أما أماسرا الواقعة في هذه المنطقة فقد كانت مستعمرة تابعة للجنوبيز فقام الفاتح بإرسال الصدر الأعظم محمود باشا على رأس الأسطول العثماني إلى المدينة في 866هـ / 1461م فاضطررت إلى الاستسلام وألحقت بالدولة العثمانية دون قتال .⁽¹⁾

ثم توجه الفاتح صوب سينوب الواقعة على البحر الأسود أيضاً في 866هـ / 1461م وفتحها دون قتال ، ثم سار نحو طرابزون التي كانت تحت أمرة الإمبراطور ديفيد كومن فاستسلم الإمبراطور بدون حرب في 866هـ / 1461م ومحيت بذلك إمبراطورية طرابزون من مسرح التاريخ .⁽²⁾

واتجه السلطان بعد ذلك صوب مدينة الأفلاق حيث فتحها عام 1462م بفتح البوسنة والهرسك وميديلي .⁽³⁾

بلغت مساحة الأرضي التابعة للدولة العثمانية زمن الفاتح 2214000 كيلو متراً في الأناضول وأوروبا ، وكانت حدود دولته الشمالية تبدأ من جنوب موسكو ، أما البحر الأسود في عهده فقد تحول إلى بحيرة عثمانية ، وكان ينوي كما يقول بعض المؤرخين أن يفتح روما ، وأقسم أن يدخل مذبح الفاتيكان وكانت استعداداته البحرية توحى بذلك .⁽⁴⁾

وفاته :

لكن وفاه الأجل المحتوم قبل أن يبرأ بقسمه حيث انتابته وعكة صحية ألمته الفراش بضعة أيام أثناء توجهه على رأس حملة مجهلة الوجه عام 886هـ / 1481م إلى إسکودار على البر الآسيوي ، ولم يطُل أحد على وجهه الحقيقة ، على الرغم من أن بعض آراء المؤرخين ترجح توجهه إلى رودوس في البحر المتوسط ، ولقد أحس ببوارد الوعكة قبل مغادرة إسطنبول ، لكنه تحامل على نفسه حباً في الجهاد ونشر الإسلام ، ولم يستمع لنصائح أطبائه بتأجيل المسير ، واشتد عليه المرض في منتصف الطريق بين إسکودار وكبازا ،

⁽¹⁾ Nesri , Tarih , II , S . 739 – 741 .

عبد الرحمن شرف : مصدر سابق ، ص 163 .

⁽²⁾ Kivami , Fetihname – I Sultan Mehmed , Hazirlayan : Fransiz Babinger , Istanbul 1955 , S . 121-143 ; Hoca Sadreddin Efendi , Tacu't – Tevarih , I . S . 480 – 482 ; Nesri , Tarih , II S . 741-755 .

⁽³⁾ Nesri , Tarih , II , S . 841-843 ;Dursum Bey , Tarih – I Edu'l – Feth , Toem , Istanbul 1330, S. 171; Oruc Bey , Tevarih – Tevarih – I AL – I Osman , nsr . Fransiz Babinger , Hannover 1925 , S. 131 .

⁽⁴⁾ محمد حرب ، العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 88 .

وحاولوا فصد الدم من قدمهِ التي تورمت ، لكن داء النقرس كان قد اشتد عليه ، وأسلم الروح لبارئها في يوم الجمعة 3 ربيع الأول 886هـ / 3 يناير 1481م .⁽¹⁾

توفي بعد أن جعل أوروبا ترعد فرائصها من مجرد ذكر اسمه ، وأدخلها في دوامة الخوف التي لم تنتهِ إلا بموته ، لقد كاد أن يفتح روما لو أن الأجل أمهله . ويتبين مما سبق أنها لم تكن خططاً طافت بأذهان غزة عظام مطلقاً ، وإنما هي حركة فتوحات لنشر الإسلام وتأمين جبهات المسلمين .⁽²⁾

لقد عاش 49 عاماً وشهرًا واحدًا وخمسة أيام ، حارب في سنة 868هـ / 1463م وحدها 16 جيشاً صليبياً مكوناً من عشرين دولة ، بذل فيها البابا قصارى جهده لينتصر على الفاتح ، وأعلن أن من يشتراك في هذه الحرب تُغفر ذنبه لستة أشهر ، وأنهى خلال حكمه إمبراطوريتين وأربع ممالك وإحدى عشرة إمارة ، ودفن في فناء مسجده في إسطنبول ،⁽³⁾ وترك لابنه بايزيد الثاني خير وصية من سلف إلى خلف .

أما عن مادة القسطنطينية⁽⁴⁾ فقد قدمت من المستشرق مورتمان ، وجاءت ضعيفة جدًا ومختصرة وغير وافية ، ومجحفة في حق العثمانيين .

وللدراسة عدة ملاحظات عليها :

(١) لم تذكر المادة أبداً تفاصيل فتح العثمانيين للقسطنطينية ، وإنما اكتفت بإشارة باهته عن الفتح العثماني دون ذكر لتاريخ الفتح ، واكتفت أيضاً بإشارات عابرة فقط عن محاولات الخلفاء المسلمين الأوائل حصارها وفتحها .

(٢) أغفلت تماماً بناء العثمانيين للحضارة الإسلامية فيها من مساجد ومدارس وقصور وغيرها ، وشرح حضارة البيزنطيين فقط ، وكأن الحضارة الإسلامية التي خلفها العثمانيون لا تستحق الذكر .

(٣) عابت المادة على الخلفاء المسلمين تمسكهم بالحديث الشريف عن النبي ﷺ الذي يبشرهم فيه بفتح القسطنطينية . فقد جاء في المادة :

^(١) زياد أبو غنيمه : السلطان المجاهد محمد الفاتح ، ص 188 . رشاد أكرم قوجس : الإنكشارية ، د. ط ، إسطنبول ، 1964م ، ص 146 ، 145 .

^(٢) كرامز : مادة الترك ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 5 ، ص 160 – 171 .

^(٣) عبد القادر ده ده أوغلو : مرجع سابق ، ص 45 .

^(٤) مورتمان : مادة القسطنطينية ، موجز دائرة المعارف الإسلامية ، ج 27 ، ص 8313 .

"يقال إن النبي ﷺ قد تنبأ بفتح القدسية على يد المسلمين ، يورد المؤرخون العثمانيون أحاديث عن الرسول ﷺ - تفيد أنه دعا للجيش الفاتح وقائده " .⁽¹⁾

ولا يصح مطلقاً أن تكتب كلمة يقال ، لأنَّ أحاديث الرسول الكريم ثابتة في الكتب الموثقة ، ولم يكن حديث من بنات أفكار مؤرخي الدولة العثمانية كما ادعت المادة ، إنما هو صحيح حيث ذكر في كل الأحاديث الصحيحة "لفتح القدسية فلنعلم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش " .

أما مادة السلطان بايزيد الثاني فقد ارتكزت على صراعه مع أخيه جم ، وإبراد تفاصيل كثيرة عن هذا الصراع ، فجاءت مادته وعصره كله بشكل مليء بالفتنة والمشاكل الداخلية ، ولم يشر هيوار إلى أعماله الإسلامية أو فتوحاته إلا بتفن وبلغت تخريب المدن . ومن خلال استعراض مادة السلطان بايزيد الثاني والتي قام بإعدادها المؤرخ هيوار لاحظت التالي :

- أولاً : عمل هيوار على استعراض الأحداث التي صاحبت توليه العرش بشكل مبالغ فيه ، مستخدماً الأسلوب المعهود للمستشرقين وهو ذكر الحقيقة ولكن ليست كاملة ، بل دس الجمل الصغيرة والافتراءات غير المحسوسة التي تسمى الفكرة العامة للحدث التاريخي⁽²⁾.
- ثانياً : خاض هيوار في تفاصيل الصراع بين الأخوين جم وببايزيد الثاني بدون توضيح لتفاصيل مهمة تغير مجرى الأحداث⁽³⁾.
- ثالثاً : أتى على ذكر علاقته بمماليك مصر دون توضيح لأسس هذه العلاقة أبداً⁽⁴⁾.
- رابعاً : وصف فتوحاته بالتخريب ، وأن فتوحاته سلسلة من الهزائم⁽⁵⁾.
- خامساً : التحدث في مسألة نزاع ابنائه على العرش دون ذكر الأحداث بشكل سليم⁽⁶⁾.

⁽¹⁾ مورمان : مادة القدسية ، موجز دائرة المعارف الإسلامية ، ج 27 ، ص 8314 .

لقد اكتفت الدراسة بمادة القدسية من الطبعة الأخيرة من دائرة المعارف الإسلامية ، وذلك لتعذر الحصول عليها من النسخة الأجنبية وهي لم تختلف إطلاقاً عن النسخة الإنجليزية حيث ترجمت بجميع أخطائها .

⁽²⁾ هيوار : مادة السلطان بايزيد الثاني ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 3 ، ص 329 ، 330 .

⁽³⁾ هيوار : مادة السلطان بايزيد الثاني ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 3 ، ص 330 .

⁽⁴⁾ هيوار : مادة السلطان بايزيد الثاني ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 3 ، ص 329 .

⁽⁵⁾ هيوار : مادة السلطان بايزيد الثاني ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 3 ، ص 329 ، 330 .

⁽⁶⁾ هيوار : مادة السلطان بايزيد الثاني ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 2 ، ص 330 ، 331 .

اتخذ هيوار هذا الأسلوب في المادة ، فكان يذكر الحقائق دون ذكر أسباب أو أحداث صغيرة تغير شكل الحدث التاريخي ، وهذا الأسلوب معروف ومتبوع دائمًا من قبل المستشرقين.

وبایزید الثاني السلطان الثامن للدولة العثمانية والنجل الأكبر للسلطان محمد الثاني (الفاتح) ، ولد عام 852هـ / 1448م في إسطنبول⁽¹⁾ ، وقد تعلم بایزید على أيدي علماء عصره منذ صباه ، حيث تلقى دروساً في الفقه وكافة العلوم الإسلامية ، كما أهتم بعلم النجوم. وعين والياً على أماسيا وهو في سن السابعة وذلك تحت نظارة علي باشا ، وكانت أماسيا مركزاً مهماً للعلوم والفنون والثقافة منذ العهد السلجوقي ، وأخذ دروساً في الخط العربي من الشيخ حمد الله الأماسي ، كما تعلم اللغتين العربية والفارسية ، وشأن الإدارية وفنون القتال والفروسية من أركان الدولة وقاده والده المحنكين ، وقد دعي بایزید إلى إسطنبول إثر وفاة والده عام 886هـ / 1481م وبُويع له بالسلطنة .

عرف عن السلطان بایزید الثاني ميله للتصرف وحبه وتقديره للعلماء والأولياء ، وكان تقىً ورعاً عالماً وعادلاً وحليماً ولذلك كان يعرف بالولي ، وكان يستمع إلى آراء العلماء ونصائحهم ، كما كان كثير القراءة والمطالعة ، اهتم بالحركة العمرانية فبني مدرسة ومسجدًا وزاوية في أماسيا ، كما بني داراً لشفاء ومجمعاً معماريًا في أدرنه ، وأخيراً شيد مسجداً ومدرسة وداراً لإطعام الفقراء وحمامًا في إسطنبول وعمل على تحسين شبكة الطرق والجسور .

يميل دائمًا إلى السلم والصلح ، واهتم بتنظيم مؤسسات الدولة ، وكان دائم الإطلاع على مشاكل المسلمين في الشرق والغرب ، أحب الشعر وكان شاعراً وله ديوان باسمه المستعار (عدلي) ، وقد أمتاز شعره بعمق الإحساس بعظمة الله تعالى وقدرته وكانت له أشعار في الحكمة توصي بالاستيقاظ من نوم الغفلة والنظر في جمال الطبيعة التي أبدعها الله تعالى وفي ذلك يقول :

⁽¹⁾ Nisancizade Mehmed Ramazan , Mir'at – I Kainat , II , Istanbul 1290 , S . 80-103 .

⁽²⁾ Asikpasazade , Tevarih – I AL – I Osman , Istanbul 1332 , S . 198 .

(1)	وانظر إلى الزيينة في الأشجار انظر إلى رونق الأزهار حياة الأرض بعد الممات	استيقظ من نوم الغلة انظر إلى قدرة الله الحق وأفتح عينيك لتشاهد
-----	--	--

و نأتي إلى تفصيل النقاط :

أولاً : استعراض الأحداث التي صاحبت توليه العرش . فقال :

" توطد عرشه بفضل الفتنة التي قام بها الانكشارية فأحبطوا دسائس الصدر الأعظم محمد باشا قرمانى الذى كان يناصر أخاه الأصغر " جم " وكفأهم بايزيد على ذلك عند اعتلائه العرش .. ونفحهم بمنحة أصبحت تقليداً جرى عليه خلفاؤه ". ⁽²⁾

إن هذه الكلمة حق أريده بها باطل ؛ لأنه فعلاً تولى الحكم بمساعدة الانكشارية ، ولكن لأنه الأحق ، فهو ابن الأكبر وولي عهد السلطان محمد الفاتح، فطبعي جداً أن ترغب الانكشارية بتوليه الحكم ، ولكن الذي أدخل ابن الأصغر جم في المسألة هو الصدر الأعظم محمد باشا قرمانى الذي حاول إرسال خبر وفاة السلطان محمد لابنه جم قبل بايزيد الثاني بالإضافة إلى أن من كانوا حول جم زرعوا في نفسه حب السلطة والاستيلاء على العرش .

ومما يجهر المعلومة السابقة وصية السلطان محمد الفاتح التي تركها لأكبر أبنائه بايزيد الثاني وهو على فراش الموت ، التي تعبر أصدق تعبير عن منهجه في الحياة ، وفيه ومبادئه التي آمن بها وكان يتمنى من خلفائه من بعده أن يسيروا عليها وهي خير دليل على حرصه على عدم تعرض أبنائه للشقاق على الحكم من بعده لكن الذين حوله هم من أجج الصراع بين الأخوين .

وعندما توفي السلطان محمد الفاتح ترك ولدين أكبرهما بايزيد المولود عام 851ـ / 1447ـ ، وكان والياً على " أمسيا " أما الثاني فهو جمـ والمعروف في المراجع الأجنبية باسم زيزيم Zizim وكان والياً على قرمان ⁽³⁾ ، ومنذ وفاته بدأت التدخلات الخارجية لإفساد العلاقة بين الطرفين .

⁽¹⁾ علي محمد الصلاibi : مرجع سابق ، ص 288 . عبد المنعم الهاشمي : مرجع سابق ، ص 245 .

⁽²⁾ هيوار : مادة السلطان بايزيد الثاني ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 3 ، ص 329 ، 330 .

⁽³⁾ صبحي عبد المنعم ، عبد الحميد سليمان : مرجع سابق ، ص 81 .

كان جم النجل الأصغر للسلطان محمد الفاتح يطمع في السلطة منذ زمن والده ، فقد حدث عند خروج الفاتح إلى إحدى فتوحاته في أوروبا سنة 878هـ / 1473م أن أخذ معه ولديه بايزيد ومصطفى ، وبقي جم في العاصمة إسطنبول وكان عمره آنذاك 13 عاماً ، وطال غياب السلطان والجيش العثماني ولم تصل عنهم أخبار لمدة أربعين يوماً ، فقام بعض المحرضين وأصحاب الفتنة بنشر إشاعات سيئة تفيد تقهر الجيش العثماني في أوروبا مع الشكوك في مصير السلطان الفاتح ، وهنا واثت الفرصة بعض أركان الدولة في العاصمة لتحريض جم إذ قالوا له : " ماذا تنتظر ؟ إن مصير والدك مجاهد ، وأخوتك في مكان بعيد ، أعلن سلطنتك وكل أهالي البلد يتبعونك ، وهذه فرصة لا تتكرر " . وقد أدى هذا التحريض إلى غرس طمع السلطة والحكم في نفس جم دون أن يكلف نفسه بالتحقيق في صحة الأخبار والإشاعات ، حيث طلب من أركان الدولة ومن الحرس السلطاني البيعة له ، ولكن في هذه الأثناء وصل خبر انتصار الفاتح في معركة اولطوبيلي ، فخاب أمل جم في اعتلاء العرش ، وعندما وصل الفاتح إسطنبول سمع بما جرى في غيابه فقام بمعاقبة الذين حرضوا جم لفكرة السلطنة ، فقام بإرساله إلى سنجق قونية⁽¹⁾، ثم ظهرت المشكلة على السطح مرة أخرى بعد وفاة السلطان الفاتح حيث ظهر الوزير الأعظم محمد باشا القراماني⁽²⁾ الذي كان من مناصري جم، وأسرع بإرسال خبر الوفاة إلى جم سراً ودعاه إلى إسطنبول ليخلف أباه.

وفي الوقت نفسه بعث رسالة إلى بايزيد الذي كان في أماسيا يدعوه للحضور إلى إسطنبول مراعياً في ذلك تقاليد الدولة التي تستلزم إخبار الابن الأكبر للسلطان المتوفى ، وقد حسب الوزير الأعظم بأن جم سيصل إسطنبول قبل بايزيد ، ولكن الشخص الذي حمل الرسالة إلى جم قبض عليه من قبل والي الأناضول سنان باشا فلم تصل الرسالة إلى جم في وقتها ، وبالتالي علم بايزيد بالأمر وعاد مسرعاً إلى إسطنبول فوقعت الفتنة بين الانكشارية مناصري بايزيد وبين الصدر الأعظم محمد باشا القراماني والذين سارعوا بقتله⁽³⁾.

⁽¹⁾ Mithat Sertoglu , " Cem Sultan neden Padisah olamadi " Yillarboyu Tarih Mecmuasi , Sayii : 6 , sene 4 , Haziran 1981 , S . 10-12 .

⁽²⁾ محمد باشا القراماني : من أشهر الصدور العظام زمن محمد الفاتح ، تربى في قونيه ، وهو من نسل جلال الدين الرومي ، تتعلمذ علي يد علاء الدين علي جلبي أحد العلماء الكبار في عهده ثم صار صهراً له ، ترقى في المناصب حتى وصل إلى منصب الصداررة العظمى ، وقد نظم مجموعة قوانين ، عرفت باسم قانون نامه آل عثمان ، عين قاضياً للعسكر ، وكان بارعاً في الخط والرمادية والقوس . الموسوعة التركية - الوقف الديني بتركيا ، ج 1 ، د. ط ، إسطنبول ، 1988 م ، ص 133 .

⁽³⁾ محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص 179 . وديع أبو زيدون : مرجع سابق ، ص 69 . علي سلطان : مرجع سابق ، ص 72 ، 73 . أمانى جعفر الغازى : مرجع سابق ، ص 188 ، محمد سعيد طقوش . مرجع سابق ، ص 120 .

ثانياً : تفاصيل الصراع بين الأخوين . فقال :

"استولى جم على بروسه ، غير أنه هزم عند "ينشهر" في 26 ربيع الأول 886هـ / 20 يونيو 1481م، ففر إلى قونيه ثم إلى الشام فمصر ، وأدى بعد ذلك فريضة الحج ثم حاول أن يجرب حظه من جديد فعاود الهجوم وتقدم من حلب إلى قونيه ثم أتجه إلى أنقرة وفيها خذله جنوده فالتوجه إلى فرسان جزيرة رودوس ، وعمد بايزيد إلى البابا إسكندر السادس وأغراه على أن يخلصه من أخيه التسس ، وقد دفنه بعد موته ... بمقدمة مراد الثاني في بروسه "⁽¹⁾.

ولم تختلف مادة جم عن ما ورد في مادة السلطان بايزيد ⁽²⁾ حيث ركزت على صراعه مع أخيه بايزيد وأطوار هذا الصراع ، وقد قدم المادة مورتمان الذي أدخل فيها الكثير من التشويهات والترهات التي زادت من غموض الحدث وبعده عن الواقع .

وقد عرف جم خبر وفاة والده في وقت متأخر وبعد مبايعة أركان الدولة لبايزيد في اعتلاء العرش ، كما علم أيضاً بمقتل الوزير الأعظم الذي كان من أكبر مؤيديه فجمع حوله جيشاً قوامه أربعة آلاف مقاتل وتوجه نحو العاصمة العثمانية القديمة بروسه ، فارسل السلطان بايزيد الثاني جيشاً بقيادة إيسا باشا لصدّه ، وقد تقابل الطرفان في موقعة أينه جول عام 886هـ / 1481م انتصر فيها جم على جيش السلطان واستطاع أن يدخل بروسه حيث أُعلن فيها سلطنته ⁽³⁾

وقد مارس جم خلال سلطنته التي دامت ثلاثة وعشرين يوماً كل ما يثبت أنه سلطان الدولة العثمانية فقرأ خطبة الجمعة باسمه ، وسک العملة باسمه أيضاً. ⁽⁴⁾ ثم بعث رسالة إلى السلطان بايزيد الثاني طالباً منه تقسيم الأراضي العثمانية بينهما بشكل متساو ⁽⁵⁾ ، وبطبيعة الحال لم يكن هذا المطلب ممكناً فقام السلطان بتجهيز جيش قوي وتوجه صوب بروسه ،

⁽¹⁾ هيوار : مادة بايزيد الثاني ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 3 ، ص 330 .

⁽²⁾ مورتمان : مادة جم ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 7 ، ص 90 – 93 .

⁽³⁾ إسماعيل سرہنک ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص 57 . Hoca Sadreddin Efendi , Tevarih , II , S. 4

⁽⁴⁾ Ismail Galib , Takvim – I Meskukat – I Osmaniye , Istanbul 1307 , S . 61 ; Halil Eldem, Meskukat – I Osmaniye Istanbul 1334 , S . 134 – 135 .

⁽⁵⁾ Asikpasazade , Tevarih – I Al – I Osman , Istanbul 1332 , S . 221 ; Hoca Sadreddin Efendi , Tacu't – Tevarih , II , S . 10 ; Hadidi , Tevarih – I AL – I Osman , S . 313 . عبد اللطيف بن دهيش : مرجع سابق ; عبد اللطيف بن دهيش : مرجع سابق .

حيث هُزم جيش جم في المعركة التي وقعت في هضبة يني شهير ، وفر جم إلى قونيه⁽¹⁾ ، ومنها إلى خارج الدولة آخذًا معه أمه وولده وابنته وبعض رجاله الصادقين ، فوصل إلى القاهرة في 886هـ / 1481م فاستقبله هناك السلطان المملوكي قايتباي ، وبعد مكوثه هناك عدة شهور ذهب إلى الحجاز في موسم الحج حيث أدى فريضة الحج.⁽²⁾

وفي ذلك الوقت استغل حاكم الإمارة القرامانية قاسم بيك الوضع المتواتر في الدولة العثمانية فأعلن التمرد ضد السلطان ، كما قام بدعوة جم للعودة إلى الأناضول ، وتلبية لهذه الدعوة وبتحريض أصحاب الفتنة رجع جم إلى الأناضول⁽³⁾ ، فبدأت رحلة من النزاع جديدة داخل الأسرة العثمانية ، وفي الوقت الذي كان فيه جم في القاهرة أرسل إليه السلطان بايزيد رسالة وعده فيها بإعطائه مليون آفجة ذهب مقابل تخليه عن فكرة السلطنة ، ولكنه رفض طلب السلطان ، وبعد عودته إلى الأناضول طلب منه السلطان الشيء نفسه مرة أخرى وبطريقة مشفقة ، واقتراح عليه أن يأخذ مخصصاته السنوية ويقيم في القدس الشريف وأن يقسم على عدم طلبه عرش الدولة العثمانية فيما بعد ،⁽⁴⁾ ومرة أخرى رفض جم كل هذه الاقتراحات ووصل حتى مشارف قونية وحاصرها في 887هـ / 1482م وذلك بالتحالف مع قاسم بيك القراماني ، وعندما وصل جيش السلطان بايزيد الثاني إلى المنطقة اضطر جم إلى فك الحصار عند استشعاره الضعف وتوجه صوب أنقرة⁽⁵⁾ ولكنه فشل في دخولها فهرب إلى الأراضي القرامانية ، حيث كان ينوي مغادرتها إلى مصر ، ولكنه انتقل إلى جزيرة رودوس بدعوة من حاكمها ببير ريسون⁽⁶⁾ ، ووصل إليها على متن سفينة عام 887هـ / 1482م ، والجدير بالذكر أنه عند وصوله إلى رودوس أبرمت معاهدة بين جم وحاكم رودوس تضمنت بأن جم يستطيع مغادرة الجزيرة متى شاء ، لكنَّ الرودوسيين نقضوا عهدهم وأجبروه على موافقة حياة الأسر في الجزيرة . ولا شك أن لجوء جم إلى جزيرة رودوس

⁽¹⁾ Hoca Sadreddin Efendi , Tacu't – Tevarih , S . 15 .

⁽²⁾ عبد المنعم الهاشمي ، مرجع سابق ، ص 234 . .

⁽³⁾ Nisancizade Mehmed Ramazan , Mir 'at – I Kainat , II , Istanbul 1290 , S . 421-423

⁽⁴⁾ Feridun Bey , Munseat , I , S . 290 – 293 ; Hoca Sadreddin Efendi , Tacu't – Tevarih , S . 22 ;
حليم بك : مصدر سابق ، ص 72 .

⁽⁵⁾ Asikpasazade , Tevarih – I AL – I Osman , Istanbul , Istanbul 1332 , S . 221 .

⁽⁶⁾ Hadidi , Tevarih – I AL – I Osman , S . 314 ; Hoca Sadreddin Efendi , Tevarih , S . 15 ;

هيوار : مادة بايزيد الثاني دائرة المعارف الإسلامية ، ج 3 ، ص 330 .

(١) يعد حادثة سوداء بالنسبة لشخصية من أفراد آل عثمان للتاريخ العثماني على السواء ، ولا شك أن ترصد أعداء الدولة العثمانية بنظام ولادة العرش فيها ، ودعم الدول الأوروبية للنزاعات التي تنشأ بين الإخوة على الحكم ساعد على توسيع الفجوة بين الأخرين السلطان بايزيد الثاني وجُم . لقد دأب الأوروبيون على استغلال هذه المسألة حتى يضعفوا الجبهة الداخلية للدولة العثمانية .

وقد ظلت الدول الأوروبية بأنه قد حان الوقت للتغلب على الدولة العثمانية عقب لجوء جُم إلى أوروبا حتى إن هذه الدول قامت بالتشاورات الدبلوماسية فيما بينها لأجل تجهيز حملة صليبية جديدة ضد الدولة العثمانية ، وفي هذه الأثناء قام السلطان بايزيد الذي أدرك خطورة الموقف بإبرام معاهدة مع البندقية في عام 1487هـ / 1487 م تعهد بموجبها بإلغاء الجزية المفروضة على البندقة للدولة العثمانية ومقدارها ألف دوقية ذهب سنويًا ، كما احتوت المعاهدة على تخفيض مقدار الضريبة التي كانت تؤخذ من بضائع البندقية التي تدخل الأراضي العثمانية من خمسة بالمائة إلى أربعة بالمائة ، إضافة إلى إطلاق سراح الأسرى البندقة الذين أسرهم الجيش العثماني منذ زمان السلطان محمد الفاتح .

وعلى الرغم من أن هذه المعاهدة تظهر في صالح البندقة لأول وهلة ، غير أن السلطان بايزيد استطاع أن يضع البندقية خارج التحالف الأوروبي الصليبي بهذه المعاهدة لأنه أكتسب صداقتهم ، وبالفعل نرى أن البندقة لم يشتركوا في أية حركة ضد العثمانيين طيلة سبعة عشر عاماً من إبرام هذه المعاهدة ، هذا بالإضافة إلى أن السلطان كان يأخذ أخبار التحركات التي تحدث ضده في أوروبا بواسطة البندقة ويقوم بأخذ التدابير اللازمة في وقتها .

وفي هذه الأثناء طلب البابا إينوجينت الثامن من جُم اعتناق النصرانية ، لكنه رفض ذلك فائلاً : " لا أغير ديني لا لأجل السلطنة العثمانية فحسب إنما حتى لو أعطيتني سلطنة العالم كله " .

وقد توفي جُم في 9 جمادى الآخرة 901هـ / 25 فبراير 1495 م في الغربة نتيجة مؤامرة حاكها ضده البابا وألقى التهمة على بايزيد لكنه براء منها وأعلن السلطان بايزيد حداداً رسمياً لمدة ثلاثة أيام ، كما صلى عليه صلاة الغائب .^(٢) وقد وصى جُم قبيل وفاته

^(١) Solakzade Mehmed Hemdemi Celebi , Tarih , I , S . 364-384 ; Muneccimbası ; Tarih , S . 372-380.

^(٢) Feridun Bey , Munseat , I , S . 294 ; Hoca Sadreddin Efendi , Tacu't – Tevarih , S. 40 .

بدفنه في الأراضي العثمانية فطلب السلطان بايزيد الثاني نقل جثمانه ، لكن البابا رفض وطلب المال مقابل الموافقة ، وبعد ضغوط السلطان السياسية التي مارسها وافق ملك نابولي على إرساله حيث وصل إلى الأراضي العثمانية في 905هـ / 1499م ونقل إلى بروسيه ودفن بجانب أخيه مصطفى .⁽¹⁾ في وهذا أبلغ دليل على أنها مؤامرة من البابا لطمعه في المال .

ثالثاً : علاقته بماليك مصر . قال :

" أما في آسيا فقد أمر على الجيش أحمد باشا وجهه إلى تأديب مماليك مصر ولكنه هزم ... ولم يعقد الصلح بين الطرفين إلا عام 1491م ".⁽²⁾

لقد أورد هيوار الحديث دون ذكر أسباب أو خلفية عنه وهذا دأبه دائماً ليس هو فقط بل أغلب المستشرقين ، حيث أورد الحديث ناقصاً حتى يصعب تحديد الحقيقة ، أما عن السب الرئيس لإرسال السلطان بايزيد الثاني للقوات على الرغم من أنه محب للسلام ويميل لحقن الدماء ، فقد حدث أن المماليك أرادوا أن تكون بلاد الشام خالصة لهم إضافة إلى الاستيلاء على منطقة جوقور أوفا في الأنضول . بالإضافة إلى عن أنهم كانوا غير راضين عن قيام الدولة العثمانية بخدمة الحرمين الشريفين لأنهم اعتبروا هذه الخدمة حكراً لهم فقط ، وقد منعوا قبل ذلك محاولة السلطان محمد الفاتح ترميم طرق المياه في الحجاز ، كما فرضاوا الضرائب على الحاج الأتراك ، علمًا بأن العثمانيين طلبوا منهم الموافقة على القيام بخدمة الحرمين الشريفين دون أي مقابل ، حيث أن الأحواض والبرك وآبار المياه التي تقع على طول طريق قوافل الحج والتي يستقي منها الحاج قد تعرضت للدمار والخراب ، فأرسل السلطان الفاتح سفيراً إلى السلطان المملوكي يقترح تعمير وإصلاح هذه الأحواض والبرك وأوقف عليها أوقاف ، إلا أن المماليك اعتبروا هذا الأمر إساءة لهم ، وتدخل في شؤونهم الداخلية ، فرفضوا هذا الطلب .

علي محمد الصلاibi : مرجع سابق ، ص 269 .

⁽¹⁾ Ahmed Refik , Sultan Cem , Istanbul 1924 .

للمزید حول صراع السلطان بايزيد مع أخيه جم الرجوع إلى : صبحي عبد المنعم ، عبد الحميد سليمان : مرجع سابق ، ص 81 - 83 . علي محمد الصلاibi : مرجع سابق ، ص 267 - 269 . عبد المنعم الهاشمي : مرجع سابق ، ص 234 - 237 . علي سلطان : مرجع سابق ، ص 74 ، 75 .

⁽²⁾ هيوار : مادة السلطان بايزيد الثاني ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 3 ، ص 330 .

وقد تصاعد التوتر بين الدولتين زمن السلطان بايزيد الثاني إثر قبول المماليك التجاء جم لهم واستضافته وتقديم المساعدة له ، كما حدث أن قام الشاه محمود بهمني الذي جلس على كرسي الإمبراطورية الهندية بإرسال سفير إلى السلطان بايزيد الثاني ،⁽³⁾ لكن الوالي المملوكي في جهة أقصى القبض على السفير وأسره وصادر الأموال والهدايا التي كان يحملها معه إلى السلطان العثماني ، وعلى الرغم من أن السلطان المملوكي أمر بإرسال الهدايا إلى إسطنبول في وقت متأخر ، إلا أن هذه الحادثة سببت في حدوث شرخ في العلاقة بين الدولتين ونشوب نزاع كبير بينهم حيث أدى ذلك إلى وقوع اشتباكات عسكرية بين الطرفين منذ عام 890هـ / 1485م واستمرت ست سنوات .⁽¹⁾

وقد قامت القوات العثمانية لأول مرة بضم قلعة كوريك المملوκية⁽²⁾ ، ثم تم الصلح بين الطرفين عام 897هـ / 1491م عندما قام السلطان بايزيد بإرسال رسول من قبله للمماليك ، ومعه مفاتيح القلاع التي ضمها العثمانيين من الحدود المملوكية ، ولقد لقي هذا الأمر ترحيباً من قبل السلطان المملوكي فقام بإطلاق سراح الأسرى العثمانيين ، وبذلك أسهمت تلك السياسة في عقد صلح بين الطرفين، حيث أنهيت الحروب واستمر السلم حتى نهاية عهد السلطان بايزيد الثاني عام 918هـ / 1512م ، وأكّد هذا الصلح حرص السلطان بايزيد الثاني على سياسة السلم مع المسلمين .⁽³⁾

أثناء الخلافات والحروب التي وقعت بين الدولة العثمانية والدولة المملوκية، وصل إلى إسطنبول سفير دولة بنى الأحمر التي تأسست منذ زمن طويل في غرب أوروبا شبه الجزيرة الإيبيرية "الأندلس" ، وكانت عاصمتها غرناطة ، وقد حمل السفير رسالة من آخر ملوك بنى الأحمر أبو عبد الله محمد إلى السلطان العثماني بايزيد الثاني ، يطلب منه العون والدعم .⁽⁴⁾

تضمنت الرسالة أن غرناطة التي تعد القلعة الإسلامية الأخيرة في غرب أوروبا على وشك السقوط ، وأن دولة بنى الأحمر الإسلامية التي خدمت الحضارة الإسلامية قروناً طويلاً وجعلت من عاصمتها غرناطة مركزاً للعلوم والفنون بحاجة ماسة إلى المساعدة ، وقد كتبت

⁽³⁾ يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية ، ج 1 ، ص 189 . فاضل بييات : دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني ، ص 58.

⁽¹⁾ Solakzade Mehmed Hemdemı Celebi , Tarih , I , S . 399 – 405 ; Ibn lysi , Bedaiu'z – Zuhur FiVekayi'd – Duhur , II , S . 221 – 270 .

⁽²⁾ Nisancizade Mehmed Ramazan , Mir 'at – I Kainat , II , Istanbul 1290 , S . 425 .

كوريك Curlek بلده في الأناضول في ولاية أيدين لواء منتشه، علي أحد روافد نهر كيرنليس. س. موستاش: مرجع سابق، 430

⁽³⁾ Resat Ekrem , Osmanli Muahedeleri , S . 33 – 34 ;

هيوار : مادة السلطان بايزيد الثاني ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 3 ، ص 330 .

⁽⁴⁾ عبد المنعم الهاشمي : مرجع سابق ، ص 238 .

الرسالة باللغة العربية وعلى شكل أبيات شعرية بخط الشاعر أبي البقاء صالح بن شريف ، وهي بمثابة " رثاء لأندلس " ، فلبى السلطان بايزيد الثاني هذا الطلب وأرسل الأسطول البحري العثماني بقيادة كمال رئيس لمساعدة مسلميبني الأحمر وإنقاذهم من مظالم الأسبان النصارى.⁽⁵⁾

وفي هذا الحدث دلالة واضحة على أن مكانة السلطان بايزيد الثاني في ارتقاء مستمر بين مسلمي العالم ، حيث أصبحت الدولة العثمانية محط أنظار المسلمين والمنفذ لهم من شرور النصرانية ، ولم يتأثر هذا الموقف بالمشاكل التي عانى منها السلطان بايزيد الثاني أثناء حكمه .

فسار القائد كمال رئيس صوب المنطقة وقام بضرب جزر مالطة وجربة وصقلية وساردونيا وكورسيكا حتى وصل إلى سواحل إيطاليا وإسبانيا ، وضرب جميع الموانئ الإسبانية بالمدافع وأشعل فيها النيران ومحى القواعد العسكرية المرابطة فيها ، كما قام أيضاً بإخراج الجنود إلى البر في بعض المناطق لكنه مع هذا لم يتمكن من الصمود كثيراً لأن الحركة البحرية تحتاج إلى دعم ومساندة القوات البرية دائماً ، وأن وصول القوات البرية العثمانية إلى الأندلس يستغرق وقتاً طويلاً ، فلم يكن ذلك ممكناً وخاصة في الوقت الذي كانت الدولة العثمانية مشغولة بمشاكل كثيرة ⁽¹⁾، منها مشكلة صراع جم مع السلطان بايزيد الثاني والنزاع والخلاف مع المماليك ، وكانت النتيجة أن سقطت غرناطة على أيدي النصارى الأسبان في 897هـ / 1491م وأحرقت قصورها ومكتباتها .

رابعاً : وصف فتوحاته بالتخريب ، وأنها سلسلة من الهزائم . فقال :

" تخلى بايزيد عن حصار بلغراد لتوالي انتصار المجر ، ثم وجه همه إلى ألبانيا فخر布 ستيريا وكارنيولا ، وهزم الترك بالقرب من قلاتش ، وقتل قائهم ... ثم حاق الانكسار بال مجر بعد ذلك عند " أبدره " غزا السلطان مودوني ونافارينو وكورون ولكنه فشل في الاستيلاء على نوبليا وتحالف البنادقة مع البابا والمجر ، واجتاحوا الأرخبيل بمساعدة الأسطولين الفرنسي والإسباني ، وهددوا الجزائر وسقطت سانتا موره في يد الحلفاء ، غير أنها أعيدت إلى العثمانيين عندما تم عقد الصلح ".⁽²⁾

⁽⁵⁾ Ziya Pasa , Endulus Tarihi , I – II , S .357 ; Katip Celebi , Takvimü't – Tevarih , Istanbul 1146 .

⁽¹⁾ Ali Riza Seyfi , Kemal Reis ve Baba Oruc, Istanbul 1325 .

⁽²⁾ هيوار : مادة السلطان بايزيد الثاني ، ج 3 ، ص 330 .

في البداية ترجع قلة الفتوحات في عهد السلطان بايزيد إلى ميله للسلم وحقن دماء المسلمين ، وفضيله لحياة العلم والورع والتقوى وليس لضعف في شخصيته أو عدم قدرته العسكرية والحببية . وإنما يرجع ذلك إلى أنه استلم حكمًا مستقرًا واتسع الأرجاء من والده محمد الفاتح فطبعي أن يتجه إلى السلم حتى تأخذ بلاده فترة استقرار وثبتت هذه الانتصارات التي قام بها والده .

وكل ما في الأمر قامت بعض الدول الأوروبيية المجاورة باستغلال الوضع الناتج من مشكلة جم فنظمت غارات عسكرية على الأراضي العثمانية ، فقام السلطان بايزيد الثاني بتجهيز حملة عسكرية في ربيع الأول 888هـ / 1483م متوجهًا لبلاد الصرب عن طريق أدرنه ، حيث وصل بقرب بلغراد ، وأثناء مسيره قام بترميم وتحكيم جميع القلاع الواقعة في هذه المنطقة ، وعلى الرغم من عدم وقوع قتال عنيف في هذه الحملة التي استمرت سبعة شهور ، إلا أنها سببت في ارتباط هذه المناطق بالإدارة العثمانية ، كما أدت هذه الحملة إلى ازدياد مخاوف وقلق المجر ، فأسرع ملكها ماثياس الذي لم يجرأ على خوض الحرب بإبرام معاهدة الصلح مع العثمانيين ⁽¹⁾ في نهاية سنة 888هـ / 1483م ، كما جددت معاهدة الصلح التي كانت قد أبرمت سابقاً مع جمهورية البندقية ، وبهذا حقق السلطان بايزيد سلامة الدولة العثمانية في البلقان .

ثم قام الجيش العثماني بفتح قلعة بُغدان " ملدافيا " Bogndan بوغدان الواقعة على البحر الأسود في عام 889هـ / 1484م ، كما قام أيضًا بفتح قلعتي كيلي واكرمان الواقعتين على البحر الأسود ، وكان فتح هاتين القلعتين حدث مهم في التاريخين العثماني والأوروبي ، وقد أرسل ملوك العديد من الدول سفراء لتهنئة السلطان مثل ملك المجر سلطان مصر وشاه الهند . ⁽²⁾

بعد أن قام السلطان بايزيد الثاني بعقد معاهدة الصلح مع المماليك ، جهز حملة العسكرية الثالثة مستهدفاً فتح بلغراد ، وقد عين سليمان باشا لهذه المهمة ، ثم سار نحو ألبانيا حيث استطاع أن يفتح بعض القلاع التي كانت في حوزة البنادقة ، ⁽³⁾ وقد استمرت هذه الحملة ثلاثة شهور .

⁽¹⁾ Resat Ekrem , Osmanli Muahedeleri , S. 32 .

⁽²⁾ Hoca Sadreddin Efendi , Tacu't – Tevarih , S . 43 ; Hadidi – I AL – I Osman , S. 314 ; Nisancizade Mehmed Ramazan , Mir'at – I Kainat , II , Istanbul 1290 , S . 424 .

⁽³⁾ Solakzade Mehmed Hemdemi Celebi , Tarih , I , S . 411 – 412 .

لقد بدأت العلاقات العثمانية الروسية لأول مرة على عهد السلطان بايزيد الثاني ، حيث تمت اللقاءات بين سفراء القيسير الروسي إيفان الثالث والأمراء العثمانيين ⁽⁴⁾ ، وكان القيسير الروسي يرغب في قيام التجار الروس بممارسة الأعمال التجارية في الأراضي العثمانية ، فكتب رسالة إلى السلطان في عام 900هـ / 1492 م تضمنت العبارة الآتية :

" إن أباكم محمد الثاني كان حاكماً عظيماً ، ويبدو أنه كان يرغب في إرسال سفير إلينا ، ولكن لم يتحقق ذلك ، فلماذا لا نشاهد هذه الإجراءات في الوقت الحاضر ؟ ننتظر إجابتكم " .

ثم وصل أول سفير روسي إلى استانبول عقب هذه الرسالة بثلاثة سنوات ، وهو ميخائيل ب斯基ف ⁽¹⁾ ، لكنه طرد من استانبول بعد فترة قصيرة نظراً لسلوكه غير اللائق الذي لا يتناسب مع الآداب الدبلوماسية ، وقد بعث السلطان بهذا الخصوص رسالة عن طريق خان القرم منجي جيري ، جاء فيها ما يلي :

" إن السفير المرسل إلينا بعيد عن الآداب ، وسلوكه لا يتناسب مع صداقة القيسير الروسي ، لذلك طردناه وكذلك لا نرغب في إرسال سفير من طرفنا إليكم " وبناء على ذلك قام القيسير بإرسال سفير آخر إلى استانبول عام 905هـ / 1499 م ، كما طلب السماح للتجار الروس في الدخول إلى الأراضي العثمانية وممارسة أنشطتهم التجارية فيها . ⁽²⁾

وشهد عهد السلطان بايزيد الثاني - أيضاً - بداية ظهور وتأسيس الدولة الصفوية الشيعية في بلاد فارس ، فالدولة الصفوية الشيعية التي أسسها الشاه إسماعيل في بلاد فارس ⁽³⁾ عام 907هـ / 1501 م شكلت خطراً كبيراً على المسلمين والدولة العثمانية بالأخص ؛ وذلك للاختلاف المذهبي والنشاط الشيعي في الأراضي العثمانية .

وقد قام الشاه إسماعيل بالاستيلاء على العراق ونشر المذهب الشيعي فيها إضافة إلى قتل أهل السنة ، كما قام بإرسال الجواسيس إلى الأناضول لنشر المذهب الشيعي ، فبعث إليه السلطان بايزيد الثاني سفيراً يطلب منه الابتعاد عن الأفكار المعادية والمضادة للإسلام والتخلّي عن ظلم الأهالي ، ولكن الشاه قام بإعدام بعض علماء السنة أمام أعين السفير

⁽⁴⁾ إسماعيل سرهنك ، حقائق الأخبار في أعلى البحر ، ج 1 ، ص 524 . شكب أرسلان ، مصدر سابق ، ص 117 .

⁽¹⁾ محمد الصلاحي : مرجع سابق ، ص 270 .

⁽²⁾ Omer Faruk Yilmaz , Belgelerle Osmanli Tarihi , I , Istanbul 1999 , S . 499 .

⁽³⁾ Nisancizade Mehmed Ramazan , Mir'at – I Kainat , II , Istanbul 1290 , S . 433-434 .

العثماني مما أدى إلى غضب السلطان بايزيد الثاني ، ومن جهة أخرى كان الشاه إسماعيل يقوم بالتحالف مع بعض الدول الأوروبية ضد الدولة العثمانية ؛ يستهدف من وراء ذلك إسقاط الدولة العثمانية والاستيلاء على الأناضول .

وأرسل الشاه جيشاً إلى الأناضول بقيادة أخيه إبراهيم مرزا للاستيلاء على بعض المناطق ، فالتحق بالجيش العثماني بقيادة سليم بن السلطان بايزيد الثاني بالقرب من أرزنجان ، وفي نهاية المعركة هُزم الجيش الصفوی وأسر قائدہ .⁽¹⁾

وكان هذا الاحتكاك بداية للسلطان سليم الأول لمعرفة مدى الخطر الشيعي المحيق بالدولة العثمانية .

ولنا وقفة هنا من تاريخ السلطان بايزيد الثاني وهي موقفه من هجرة اليهود الفارين من ظلم الأسبان إلى أراضي الدولة العثمانية .

لقد أدت سياسة السلم التي اتبعها السلطان بايزيد الثاني إلى السماح لليهود بالهجرة إلى الدولة العثمانية بدون قيد أو شرط حيث أعطاهم الحرية التامة ، واستوطن قسم منهم في جزيرة ساقيز ⁽²⁾ ، وقد منحت سياسة السلطان هذه أملاً جديداً للسفاردية الأسبانية (اليهود الذين طردوا من إسبانيا) في العيش بأمان في أراضي الدولة العثمانية ، حيث أمر السلطان بايزيد الثاني ولاة الأقاليم العثمانية بالسماح لليهود في الدخول إلى أراضيهم وإبداء التسهيلات لهم.⁽³⁾

خامساً: التحدث في مسألة نزاع أبناءه على العرش دون ذكر الأحداث بشكل سليم .

" قامت الفتنة الداخلية في وجه بايزيد إلى جانب مشاغله في الخارج . وسبب ذلك أن ابنه سليم أستاء من أن والده قد عقد البيعة لأخيه أحمد فترك منصبه في آسيا وحارب أباه بمساعدة الإنكشارية إلا أن الدائرة دارت عليه .. فأحتمى بحمية خان القرم . وعلا نجمه في السنة التالية وذهب إلى القسطنطينية ثم تمكن بفضل الجيش من إجبار والده على التنازل عن العرش "⁽⁴⁾

⁽¹⁾ Omer Faruk Yilmaz , Belgelerle Osmanli Tarihi , I , Istanbul 1999 , S . 476 .

⁽²⁾ هدى درويش : العلاقات التركية اليهودية ، ج 1 ، ص 164 .

⁽³⁾ أحمد نوري النعيمي : مرجع سابق ، ص 28 .

⁽⁴⁾ هيوار : مادة السلطان بايزيد الثاني ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 3 ، ص 330 .

صحيح أن هiyor قد تناول الحدث صحيحاً لكن بصورة مخالفة قليلاً الواقع التاريخي ، ودون ذكر للأسباب الحقيقة لهذا التنازل .

والحقيقة هو أن فترة السلم الطويلة التي عاشتها الدولة العثمانية في عهد السلطان بايزيد ، جعلت الانكشارية - وهم الذين تعودوا على الفتوحات لنشر الإسلام - يتحينون الفرصة للخروج من هذا الركود ، والرجوع إلى حياة المعارك والفتاحات كما في عهد السلطان محمد الفاتح .

فواتتهم الفرصة عندما لمسوا الحماس في الأمير سليم الأول ، وأدركوا أنه الورقة الرابحة في الفتوحات والجهاد الإسلامي ، لذلك اتجهوا بتقليده لمساندته ، والعمل على توليه السلطة ، ولم يتأت ذلك لهم إلا بنقطة مهمة جداً ، وهي أن السلطان بايزيد نفسه قد عاف الحكم والسياسة ، نتيجة لفقده لابنه ، ولاشتداد المرض عليه ، وعجزه عن الحركة ، ففضل التنازل عن العرش لابنه سليم حقاً لدماء يجب أن لا تهدر ، بالإضافة إلى أنه يعرف أن الانكشارية ستكتسب المعركة لأنها لعبت معه هذا الدور قبل ذلك . كان للسلطان بايزيد الثاني ثمانية أبناء ، توفي خمسة منهم وهم صغار السن ، وبقي ثلاثة وهم أحمد وقرقوط سليم ، و كانوا مختلفي الأهواء ، فخشى والدهم من وقوع فتنة فيما بينهم ، فعمل على تفريقهم ، فعين أبناءه الثلاثة ولاده على ثلاث مقاطعات مختلفة وبعيدة عن العاصمة استانبول ؛ لأنه كان يعرف الخلافات الموجودة بينهم وتنافسهم على العرش ، فعين أحمد على أماسيا⁽¹⁾ ، و قرقوق على مغنسيا⁽²⁾ ، وسليم على طرابزون⁽³⁾ .

كان أحمد شخصية متزنة يحبها الأعيان وكبار رجال الدولة ، إضافة إلى أنه أكبر الأبناء فعينه ولينا للعهد ، أما قرقوق فقد كان ميالاً للعلم ومجالسة العلماء ومحباً للآداب ، فلم يتقرب منه الجندي ، وسليم فقد كان يمتلك صفات المحارب المتحمس ، فمال بشدة نحو الفتوحات الإسلامية ، وهذا ما جعل الجندي تميل إليه وخاصة الانكشارية .

⁽¹⁾ أماسيا : Amassia مدينة في الأناضول تقع على نهر بشيل إرمات ، في ولاية سivas . س . موستراس : مرجع سابق ، ص 104 .

⁽²⁾ مغنسيا : Manissa مدينة في الأناضول مركز لواء صاروخان في ولاية آيدن ، تقع عند سفح جبل مغنسيا طاغ ، وعلى الصفحة اليسرى لنهر كروس جابي . س . موستراس : مرجع سابق ، ص 466 .

⁽³⁾ طرابزون : Trabizaun مدينة في الأناضول مركز الولاية نفسها ، تقع على البحر الأسود ، وهي مركز تجاري مهم ، ففتحها السلطان محمد الفاتح عام 865هـ / 1460م . س . موستراس : مرجع سابق ، ص 346 .

وقد أصيب السلطان بايزيد الثاني بمرض شديد في أواخر حياته فضعف قوته وعجز عن إدارة الدولة خاصة بعد وفاة ابنه شاهنشاه ، وخسية من حصول الشقاق بين أبنائه أحضر علي باشا الخادم والي مورا وفرض إليه أمر الدولة ، ولما طال المرض بالسلطان أراد اتخاذ ابنه الأكبر أحمد ولیاً للعهد فوافقه الوزراء على ذلك ⁽¹⁾ ، فأرسل له لکی يبقى بالقرب منه إذا ما وفاه الأجل المحتموم ، فأغضب ذلك أبنيه الآخرين ، فسفر الابن الأوسط قورقود إلى مصر مظهراً أنه يريد تأدية فريضة الحج عن طريق مصر ، فقابلة السلطان المملوكي بالإعزاز والإكرام ، ولكنه عاد وندم على تهوره وقدم لوالده الاعتذار وطلب منه العفو ، فغاف عنه السلطان وأعاده على رأس ولايته . ⁽²⁾

أما الابن الأصغر سليم فقد طلب من والده تعينه في إحدى الولايات الأوروبية ليكون قريباً من إسطانبول ، فلم يقبل السلطان ذلك وأصرّ على بقائه في طرابزون فقام سليم بالتمرد على والده وجهز جيشاً واتجه صوب إسطانبول ، فأرسل السلطان - أيضاً - جيشاً لإيقافه ، ولما وجد بأن ابنه مُصرٌ على الحرب وافق على طلبه حقناً للدماء ، فعينه والياً على سمندرة وفيدين عام 917هـ/1511م ، وعندما سمع قورقود هذا الخبر انتقل إلى ولاية صاروخان واستلم إدارتها دون علم والده ليكون هو الآخر قريباً من إسطانبول ، ومن جهة أخرى توجه سليم نحو أدرنة وأعلن نفسه سلطاناً عليها ، فأرسل السلطان جيشاً وهزمه واضطرب إلى الفرار إلى بلاد القرم ، كما أرسل السلطان جيشاً آخر لتأديب قورقود فهزمه أيضاً .

ولكن السلطان اضطر إلى العفو عن ابنه سليم تحت تأثير قادة الجيش الانكشاري الذين كانوا يحيون سليماً لمهاراته في القتال وفنون الحرب ، وأنه أثبت جدارته الحربية في انتصاره على الجيش الصوفي عندما كان والياً على طرابزون . ⁽³⁾ ، فوافق السلطان على ذهابه مرة أخرى إلى سمندرة ليكون والياً عليها ، وعندما توجه سليم - وهو لم ينس أمر السلطنة خاصة مع إزدياد الخطر الشيعي - إلى سمندرة استقبله أركان الجيش الانكشاري في الطريق ، وأتوا به إلى إسطانبول باحتفال ضخم وساروا به إلى القصر الهمایوني ، حيث طلبوا من السلطان بايزيد الثاني التخلص عن العرش لابنه سليم ، وقد صادف ذلك هوى في

⁽¹⁾ عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 504 . محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص 127 . علي إبراهيم البوتيجي الشافعي : سلوك سهيل الرشاد لمولانا السلطان مراد يشتمل على تاريخ سلاطين آل عثمان ، محفوظة في مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى تحت رقم 675 تاريخ ، ورقة 23 . أمانى جعفر الغازي ، مرجع سابق ، ص 193 .

⁽²⁾ إبراهيم حليم : مصدر سابق ، ص 76 .

⁽³⁾ يلماز أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، ج 1 ، ص 210 .

نفس السلطان بايزيد حيث أنه كان قد ملّ حياة الحكم والسياسة ويرنو بعينيه لحياة الراحة والسلم فتازل عن السلطة في عام 918هـ / 1512م .⁽⁴⁾

توفي السلطان بايزيد الثاني في عام 918هـ / 1512م إثر مرضه الشديد عن عمر يناهز 62 عاماً ، بعد أن تنازل عن الحكم لابنه سليم وانسحب من الحياة السياسية للإقامة في بلدة ديموتيقا في ولاية أدرنة ، ولكنه توفي في الطريق ، ونقل جثمانه إلى استانبول حيث دفن في قناء مسجده المعروف باسمه .⁽¹⁾

لقد ظهرت مادة السلطان سليم الأول في نسختين من دائرة المعارف الإسلامية على يد كرامرز⁽²⁾ ، لكن لم تكن هناك أي فروق بين المادتين ، ولم يتم التعليق في النسخة الجديدة ، أو حتى تصحيح بعض المعلومات الخاطئة .

ارتكزت المادة على صراع سليم الأول مع الصفوين والمماليك ، ولم تذكر دوره في التصدي للصراع البرتغالي أو في الدفاع عن المذهب السنوي في الدولة العثمانية ، وتصوير حربه مع الصفوين على أنها صراع سعياً للسلطة فقط .

وعلى الرغم من طول المادة بالمقارنة مع الفترة الزمنية التي تولي فيها سليم الأول الدولة العثمانية ، إلا أنها لم تأتِ بجديد بل كررت وأعادت الحديث عن علاقته بالصفوين والمماليك .⁽³⁾

وفيها يلي النقاط الرئيسية التي دارت حولها المادة :

أولاً : عرض صورة الأحداث التي جرت عقب توليه العرش بشكل أقرب إلى الصحة ، لكن دون ذكر الحقيقة كاملة ودون الاعتماد على مصادر موثوقة .⁽⁴⁾ والملاحظ أن كرامرز استغل فرصة إغفال أغلب المصادر والمراجع العربية والتركية عن هذه الفترة الحرجة ، وبث السم في المعلومات التي ذكرها ، وأن معلوماته هي الوحيدة في هذا الصدد فقد اعتمد عليها الباحثون بعد ذلك .

⁽⁴⁾ إسماعيل سرهنوك: حقائق الأخبار في أعلى البحار : ج3 ، ص 331 . محمد فريد المحامي ، مصدر سابق ، ص 186-187.

⁽¹⁾ Hadidi , Tevarih – I Al – I Osman , S . 374 ;

ربيع عبد الرؤوف الزواوي ، مرجع سابق ، ص 62 .

⁽²⁾ كرامرز : مادة سليم الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 12 ، ص 121 .

⁽³⁾ كرامرز : مادة سليم الأول ، موجز دائرة المعارف الإسلامية ، ج 18 ، ص 570 .

⁽⁴⁾ كرامرز : مادة سليم الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 12 ، ص 122 .

ثانياً : تصوير حربه مع الدولة الصفوية وكأنها سعي لفرض الذات ، وأن السبب الرئيس لها هو أن العلاقات الودية سادت مع البندقية وال مجر وروسيا ، فلم تجد نزعة سليم الحربية متنفساً لها إلا في الشرق .⁽⁵⁾

ونكرر هذا المعنى - أيضاً - في مادة الترك حيث قدمها كرامرز أيضاً ، فأوضح أنها كانت لمقاومة المذهب الشيعي داخل آسيا الصغرى ، وامتدت لتشمل أمم أخرى - في نظرهم- لأنه بفضل هذه الحرب ضم سليم الأول مناطق جديدة.⁽¹⁾

ثالثاً: التحدث عن فتوحاته وخاصة ضم إمارة ذي القادر .⁽²⁾

رابعاً : لم يذكر كرامرز أسباب ضم السلطان سليم الأول لمصر والشام ، ولكن سرد الأحداث بطريقة توضح أنه مجرد استعراض قوة من السلطان سليم الأول.⁽³⁾

خامساً: اتخاذه لقب خليفة والرواية التي دارت حول هذا الأمر .⁽⁴⁾

والسلطان سليم الأول هو السلطان التاسع للدولة العثمانية ، وابن السلطان بايزيد الثاني. ولد في 875هـ / 1470 م في أماضيا⁽⁵⁾ ، وقد أرسله والده إلى إسطانبول منذ صباه فنشأ على يد جده السلطان محمد الفاتح ، تلقى دروساً في القرآن الكريم والتفسير والحديث النبوي الشريف ، كما تدرّب على فنون القتال والمصارعة والفروسية واستخدام السيف ، وتعلم اللغتين العربية والفارسية وكان يحب العلماء والأولياء ويحضر جلساتهم وحلقاتهم ، وكتب أشعاراً باللغتين العربية والفارسية ، وعيّن في شبابه والياً على طرابزون حيث تعلم هناك إدارة الدولة وفنون الحرب، كما أقام علاقات مع الدول المجاورة على البحر الأسود ، وقام بثلاث حملات عسكرية على جورجيا التي كانت تزعج أهالي طرابزون باستمرار ، ففتح قارص⁽⁶⁾ وأرضروم⁽⁷⁾ وارتويين⁽⁸⁾ عام 914هـ / 1508 م ، وكان نتيجة هذه الفتوحات أن

⁽⁵⁾ كرامرز : مادة سليم الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 12 ، ص 122 .

⁽¹⁾ كرامرز : مادة الترك ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 5 ، ص 172 .

⁽²⁾ كرامرز : مادة سليم الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 12 ، ص 123 .

⁽³⁾ كرامرز : مادة سليم الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 12 ، ص 124 .

⁽⁴⁾ كرامرز : مادة سليم الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 12 ، ص 127 .

⁽⁵⁾ Mehmed Sureyya , Sicil – I Osmani , I , Istanbul 1308 – 1311 , S. 38 ; Nisancizade Mehmed Ramazan , Mir'at – I Kinat , I Kinat , II , Istanbul 1290 , S . 103 – 122 .

⁽⁶⁾ قارص : "كورسه" مدينة حصينة في الأناضول على نهر يحمل نفس الإسم ، ومركز اللواء نفسه ، في ولاية أرضروم احتلها الروس أثناء حرب 1244هـ - 1246هـ / 1829 م - 1829 م ، ثم حاصروها ثانية عام 1270هـ - 1853 م . ولم تستسلم إلا بعد مقاومة مستينة .

س . موستراس : مرجع سابق ، ص 380 ، ص 381 .

أسلم جميع أهالي تلك المناطق ، ثم قام سليم بشن حملة على الجيش الصفوي حيث سجل انتصاراً عظيماً بالقرب من أرزنجان .⁽¹⁾

وقد ارتقى سليم على عرش الدولة العثمانية بعد تنازل والده السلطان بايزيد الثاني عن الحكم في سنة 918هـ / 1512م⁽²⁾ ، أرسل كلّ من حكام البنديقية والمجر وكذلك السلطان المملوكي وقيصر روسيا سفراً لتهنئة السلطان الجديد ، وقد أبرم السلطان مع ممثلي هذه الدول هدنة طويلة الأمد ليتمكن من التفرغ لمحاربة الصفوين .⁽³⁾

ونأتي إلى تفصيل ما سبق :

أولاً : الأحداث التي جرت عقب توليه العرش . فقال :

" استنفذ سليم السنة الأولى من حكمه في استئصال شأفة أخيه وأولاده .. أعدم خمسة من أولاد إخوته ، ... وبقبض على قورقود ... وقتلها ، وكان هذا هو المصير نفسه الذي لقيه أحمد . "⁽⁴⁾

ولا تستطيع الدراسة إنكار أن ما حدث في هذه الفترة كان حقيقياً ، في ظل غياب المصادر التي تنفي ذلك ، لكن ما تحب الدراسة أن تضيفه هو أن الأمير أحمد قتل على مشارف بروسه دون تدبير من سليم الأول ، وإنما من أحد الجنود الذين حاولوا التقرب من السلطان بالقضاء على أحد محاربيه .

أما الأمير قورقود فقد خاف عاقبة أعماله وخشي غضب السلطان ، فتتذرّك في زي مختلف عن زيه ، إلا أن أحد أفراد قبائل التركمان اكتشفه وتم قتله من قبلهم ، إن هذه الأحداث تركت أثراً عظيماً في قلب السلطان ، وقد قال في ذلك : " إن الذين ابتدعوا هذه

⁽⁷⁾ أرضروم : مدينة في الأناضول مركز ولاية ولواء يحملان الاسم نفسه تقع على سفح جبل غير بعيد عن نهر الفرات ، فتحها العثمانيون عام 914هـ / 1508م .
س. موستراس : مرجع سابق ، ص 44 ، 45 .

⁽⁸⁾ أرتوين : Artwin : تقع في الأناضول ، في ولاية أرضروم ، لواء جلدر ، على نهر جورك صو .
س. موستراس : مرجع سابق ، ص 39 .

⁽¹⁾ Latifi , Tezkire , Istanbul 1314 , S . 56 – 86 ; Yavuz Sultan Selim , Divan , Terceme : Ali Nihad Tarlan , Istanbul 1946 .

⁽²⁾ لقد سبق وأن تم عرض المعلومات التي أوضحت كيفية اعتلاء العرش في مادة السلطان بايزيد الثاني .

⁽³⁾ محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص 188 . إبراهيم حليم : مصدر سابق ، ص 79 .

⁽⁴⁾ كرامز : مادة سليم الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 12 ، ص 122 .

البدعة في أنجالنا بعيدين عن رحمة الحق " ، وحصل قاتلو الأميرين أحمد وقورقود على جزاءهم وعذابهم .⁽⁵⁾

ثم أن كرامر لم يورد وثيقة أو مصدرًا موثوقاً منه يؤكّد هذه الأفعال الإجرامية ، بل تغنى بها دون سند تاريخي .

ثانيًا : علاقته بالدولة الصفوية ، والصدام بينهم وأسبابه . فقال :

"احتفظت الدولة العثمانية بعلاقاتها الودية مع البندقية والمجر وروسيا نتيجة للمفاوضات التي قام بها المبعوثون الذين أنفتشم هذه الدول إلى الاستانة ، ووُجِدَت نزعه سليم الحربي متৎساً لها في الشرق ... وأخذ سليم مدفوعاً بكراهية لإسماعيل أو بغيرته على المذهب السنّي في اضطهاد الشيعة في دولته اضطهاداً ، كان مجموع من قتلهم أو ألقى بهم في غياوب السجون أربعين ألفاً حسبيماً أجمعـت عليه المصادر التركية ، ولم يكن بد من وقوع الحرب بين الطرفين بعد هذا".⁽¹⁾

في البداية لابد من التعرف على خلفية اتجاه السلطان سليم الأول لمحاربة الدولة الصفوية⁽²⁾ ، حيث بدأ الشاه إسماعيل الصفوي في تقوية نفوذه في شيروان⁽³⁾ والعراق وكردستان وببلاد ما وراء النهر ، وساعدـه في ذلك كثير من الحظ ، ثم بدأ في جمع القبائل التركمانية حوله ، فحظـي بينـهم بالتعظيم والتقديس ، وأخذ بـيث الدعاة لنـشر المذهب الشيعـي في الأرجـاء التركمانـية المجاورة للـدولـة العـثمـانـية ذات المذهب السنـي ، وحاـول فـرضـ المذهب الشـيعـي بـقـسوـة وـعـنـفـ حيث قـتـلـ كـثـيرـ من أـهـلـ السـنـةـ فيـ المـنـطـقـةـ ، مما أـثـارـ حـفيـظـةـ السـكـانـ منـ السـنـةـ وأـدـىـ إـلـىـ إـثـارـةـ الدـوـلـةـ العـثـمـانـيـةـ التيـ اـعـتـرـتـ هـذـاـ عـمـلـ جـهـدـاـ سـيـاسـيـاـ منـظـمـاـ موـجـهـاـ ضـدـهـاـ .

⁽⁵⁾ عبد الرحمن شرف : مصدر سابق ، ص 208 .

⁽¹⁾ كرامر : مادة سليم الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 12 ، ص 122 ، 123 .

⁽²⁾ الصـوفـيـينـ : يـنـسـبـ الصـوفـيـينـ إـلـىـ الشـيـخـ صـفـيـ الدـيـنـ الـأـرـبـيـلـيـ ، الجـ الأـكـبـرـ لـ الشـاهـ إـسـمـاعـيلـ الصـوفـيـ مؤـسـسـ الدـوـلـةـ الصـوفـيـةـ ، التـفـ حولـهـ عـدـدـ مـنـ الـمـرـيدـينـ الـذـيـنـ اـسـتـطـاعـواـ نـشـرـ دـعـوتـهـ لـيـرانـ فـقـطـ وإنـماـ فـيـ بـعـضـ أـقـالـيمـ الدـوـلـةـ العـثـمـانـيـةـ ، وجـاءـ إـسـمـاعـيلـ الصـوفـيـ ليـجـعـلـ الشـيـعـيـةـ مـذـهـبـاـ رـئـيـسـاـ لـدـوـلـهـ وـفـرـضـهـ بـالـقـوـةـ وـقـضـىـ عـلـىـ مـعـارـضـيـهـ بـعـنـفـ وـقـسوـةـ .ـ عـلـيـ مـحـمـدـ الصـلـابـيـ ، مـرـجـعـ سـابـقـ ، ص 293 ، 294 .

⁽³⁾ شـيرـوانـ : تـقـعـ فـيـ الـمـنـطـقـةـ الشـمـالـيـةـ الـغـرـبـيـةـ مـنـ إـيـرانـ الـمـتـاخـمـةـ لـأـرـاضـيـ السـوـفـيـيـتـ حـالـيـاـ ، محمدـ فـرـيدـ الـمـحـامـيـ : مصدرـ سـابـقـ ، ص 189 .

وقد استخدم إسماعيل الصفوي الأسلوب القسري في إرغام الأهالي على اعتناق المذهب الشيعي من قتل وسجن وتعذيب ، مما شكل صدمة جبطة معارضة من السكان ، ولعب علماء أهل السنة دوراً بارزاً في المعارضة ضد إسماعيل الصفوي .

ومن هنا كان لابد أن تظهر بوادر الصراع بين الطرفين خاصة وأن انتشار المذهب الشيعي يعد تحدياً للسلطة الدينية الإسلامية السنوية العثمانية ، بالإضافة إلى تحريض الشيعة القاطنين في الأناضول على التمرد ضد السلطان العثماني ، وأخيراً توجه الصوفيين لاحتلال بغداد وجنوب غرب إيران 914هـ / 1508م حيث أقام الشاه إسماعيل مذبح للسنة واسعة النطاق ، وهدم مساجدهم ومزاراتهم ، ولم يتعرض لليهود مطلقاً ، ولكن كل قسوته وجهت نحو أهالي السنة .

وآخر الأسباب التي جعلت وقوع الحرب بينهم حادثة لا محالة ، هو التحالف بين الصوفيين والبرتغاليين الذين احتلوا هرمز 913هـ / 1507م ، وهذا السبب جعل المماليك يبتعدون عن محالفاة إسماعيل ضد العثمانيين وتوجهوا للتحالف مع السلطان سليم الأول عام 919هـ / 1513م ، خاصة وأن الشاه إسماعيل الصوفي بدأ في نشر مذهب الشيعي في أملاكهم في بلاد الشام والجaz ، لذلك بدأ السلطان سليم الأول في تركيز كل قواته على جبهة القتال ضد إسماعيل بعد أن أطمأن إلى موقف المماليك .⁽¹⁾

ومن أهم النقاط التي يجب التوقيه إليها أن السلطان سليم الأول كان مدركاً تماماً لنوايا دعاة الشيعة ، وحساساً جداً من ناحيتهم منذ أن كان والياً على طرابزون في عهد والده السلطان بايزيد الثاني ، وهي منطقة نفوذ عثماني ، لكن تدخلت فيها أيدي الشيعة الصوفيين حتى في بلاطه ، وقد وقف بنفسه على حركة الشاه إسماعيل الصوفي في الأناضول وأرزنجان ، والذي كان يرسل عملاءه إلى كل طرف منها ، وعرفوا باسم "الخلفاء" ، ثم لم يلبث أن تطور الأمر وقامت جماعة منهم بتمرد عنيف في أنطاكيا العثمانية بناءً على أوامر الشاه إسماعيل الصوفي ، وقاد هذا التمرد شخص عُرف باسم شاه قولو "أي عبد الشاه" ، وكان تمرداً رهيباً استخدم فيه العثمانيون كل قوتهم لإخماده ، وذلك بسبب وصول الدعم الخارجي باستمرار لشاه قولو ، وانتهت الحركة بإعدام عبد الشاه ، ويعد هذا التمرد الشيعي

⁽¹⁾ محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص 189 ، 190 . عبد الرحمن شرف : مصدر سابق ، ص 206 . محمد سهيل طقوش: مرجع سابق ، ص 134 ، 135 . علي سلطان : مرجع سابق ، ص 80 ، 81 . عبد الفتاح أبو عليه : الدولة العثمانية والوطن العربي الكبير ، د. ط ، الرياض : دار المربخ ، 1429هـ ، ص 140 ، 141 . انظر الخريطة في الملحق .

بدء مرحلة مهمة في تاريخ الدولة العثمانية ، إذ بدأ السلطان بايزيد بعدها في معالجة الموقف بمرونة وحنكة سياسية ، خاصة أنه أمام فرقة دينية ذات عصبية عمياء وقوة حربية نامية ، وأرسل إلى الشاه إسماعيل الصفوي يحثه على عدم إرسال عمالاته وإثارة التمردات ثانية ، لكن بالطبع ضرب إسماعيل الصفوي بهذه النصائح عرض الحائط ، وقد تكأ السلطان بايزيد في حل هذا الأمر حبًا في السلم وحقنًا لدماء المسلمين ، مما جعل أنظار الجيش والشعب العثماني تتوجه لابنه سليم الأول خاصة وقد عُرف عنه أنه عدو للشيعة ومناهض لها ، لذلك عندما تولى سليم الأول العرش بدأ في تنفيذ خطته الرامية إلى تقليق نفوذ الصوفيين ، وإعداد العدة لذلك ، فلا غزو ولا جهاد في أوروبا طالما أن الدولة الصوفية تنمو وتكبر ، ومن هنا جاء الهدف الاستراتيجي لعصر سليم الأول وهو القضاء على الدولة الصوفية والنفوذ الشيعي في الأناضول .⁽¹⁾

وقد أرسل السلطان سليم الأول عدة رسائل إلى الشاه إسماعيل الصفوي يطلب منه الكف عن أعماله الهدامة ضد أهل السنة وترك الفتنة والتوبة⁽²⁾ ، ولكن الشاه لم يهتم بمطالب السلطان⁽³⁾ ، فجهز سليم الأول جيشاً كبيراً وسار على رأسه صوب الأناضول في 920هـ / 1514م لمقابلة الشاه ، وقد أرسل السلطان رسالة إلى الشاه يخبره فيها ببداية الحرب ويدعوه إلى ميدان القتال ، وبعد مسيرة أربعة شهور وصل الجيش العثماني بقيادة سليم الأول إلى وادي جالداران ، حيث كانت حشود الجيش الصوفي بقيادة إسماعيل الصفوي قد تجمعت في الجانب الآخر من الوادي ، وقدر عدد الجيش العثماني ما بين 120.000 - 140.000 وأصيب بجروح ، مما اضطره إلى الهروب صوب تبريز ومنها إلى المناطق البعيدة في إيران .⁽⁴⁾

⁽¹⁾ محمود حسن الصرف : معركة جالداران 920هـ / 1514م أولى صفحات الصراع العثماني الفارسي الأسباب والنتائج ، د.ط، مصر : مكتبة النهضة المصرية ، 1991م ، ص ص 23 - 27 . محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 29 ، 29 .

S.Tekindag : Sah kulu Baba Tekeli Tsyani , BTTD Belgelerle Turk Tarih Dergisi , 1/3 , 1967 , P. 34-39. 1/4 1968 , P. 54 - 59 .

⁽²⁾ لمزيد من تفاصيل الرسائل المتبادلة الرجوع إلى علي محمد الصلايبي : مرجع سابق ، ص 296-300 . محمود حسن الصرف : مرجع سابق ، ص 70-86 .

⁽³⁾ Feridum Bey ; Munseat , I , S . 374 .

⁽⁴⁾ Hoca Sa ' deddin Efendi , Tacu't – Tevarih II , S. 245 – 270 ; Lutfu Pasa , Tevarih – i Al – i Osman , S. 221 – 228 ; Solakzade , Tarih , S . 359 – 366 ; Muneccimbasi , Sahaifu'l – Ahbar , III , S . 451 – 454.

وعلى إثر ذلك سجل الجيش العثماني انتصاراً عظيماً في هذه المعركة ، وحصل على غنائم كثيرة بما في ذلك خزائن الشاه إسماعيل التي ما زالت تحفظ في متحف طوب قابي سراي بإسطنبول ، ثم توجه السلطان مع جيشه إلى العاصمة الصفوية تبريز . حيث دخلها بدون مقاومة وقام بأداء صلاة الجمعة في الجامع الكبير ، وقد قام السلطان بإرسال المئات من العلماء والأدباء والشعراء والفنانين الذين تجمعوا في تبريز إلى إسطنبول ،⁽¹⁾ ثم بدأ بترميم بعض المساجد في تبريز ، كما قام بإعلام انتصاره على الصفوبيين إلى كل دول العالم ، ثم عاد إلى إسطنبول مع جيشه .

ومن أهم نتائج معركة جالديران هو دخول منطقة شرق الأناضول تحت الحكم العثماني ، كما كانت هذه المعركة خطوة مهمة في تحقيق وحدة الأناضول ، حيث بدأ السلطان سليم الأول بتطهير هذه المناطق من المعتقدات الفاسدة التي دخلت مع الصفوبيين حاولت إفساد العالم الإسلامي ، وبعد أن عاد السلطان إلى إسطنبول بعث إليه الشاه إسماعيل سفيراً يطلب منه الصلح ، فلم يجب السلطان على طلبه .⁽²⁾ حقيقة لم تكن معركة جالديران حاسمة ولكنها أدبت الفرس وحدّت من انتشار مذهبهم في أرجاء العالم الإسلامي .

ثالثاً : الفتوحات التي قام سليم الأول بها ، وضم إمارة ذي القدر . فقال :

" هزم سنان باشا جيش ذي القدر ، وقتل علاء الدولة وقبض على أولاده الأربع وقتلوا ، وكان فتح بلاد ذي القدر ، بما فيها حصن البستان ومرعش ، من الأسباب التي أدت إلى نشوب الحرب بين سليم الأول والمماليك ".⁽³⁾

⁽¹⁾ إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار في أعلى البحر ، ج 1 ، ص 527 .

Hoca Sa' deddin Efendi , Tacu't - Tevarih II , S. 268 ; Feridun Bey , Munseat , I , S. 41 .

⁽²⁾ Hoca Sa deddin Efendi , Tacu't - Tevarih II , S . 323 .

لمزيد من التفاصيل عن حرب جالديران الرجوع إلى التالي : عبدالرحمن شرف : مصدر سابق ، ص 208 ، ص 215 . J.L.Bacque – Grammont : XVI , Yuzyilin ilk Yailsin da Osmanli lar ve Safeviler , Prof . Dr . Bekir Kotak Ogluna Armagan , Istanbul 1991 , S . 205 – 219 .

وانظر :

H.Sohrweide : Der Sieg der Saferiden in Persien und Seine Rückwirkungen auf die Schiiten Anatoliens in 16 . Jahrhundert , Der Islam , 41 . 1965 , P. 95 – 223 .

S. Tekindag : Yeni Kaynak ve vesikalarin Isigl Albinda Yauaz Sultan Selim in Iran Seferi , TD , XXII , 1968 , S , Ug- 78 .

H.inakik : Turkler (Osmanlilar) , Islam Ansklopedisi , XII , / 1 , S . 300-301 .

انظر أيضاً :

F.Demirtas (Sumer) : Bo2 – ulus Hakkirda , AUDTCFD , VII , 110 , 1949 , P. 29-60 .

⁽³⁾ كرامز : مادة سليم الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 12 ، ص 123 ، 124 .

إن مسألة ضم إمارة ذي القدر لم تكن بهذه القسوة وال بشاعة ، لقد جاء ضمها ضرورة حتمية وذلك لأجل تأمين سلامة وأمن الحدود الشرقية والجنوبية للدولة العثمانية ، قام السلطان سليم الأول بتجهيز حملة عسكرية لضم باقي القلاع في الأناضول وآسيا الصغرى ، ثم توجه إلى الأراضي التابعة إلى إدارة ذي القدر وضمها له ، وذلك لعدة أسباب ؛ أهمها أن حاكم ذي القدر وهو ذو القدر أو غلي علاء الدولة بك كان يقوم بعدة تحركات مقلقة ومزعجة ضد الدولة العثمانية خاصة أثناء حرب سليم الأول مع الصفوين ، قد وقف علاء الدين حاكمها موقفاً معادياً من العثمانيين بإيعاز من السلطان الغوري ، كما رفض تقديم المعونة أثناء مسيره إلى حرب الشاه إسماعيل ، فعد سليم الأول هذا العمل إعلان للعداوة بينهم ، مما لبث السلطان سليم الأول إلا أن ضم هذه الإمارة لأراضيه عام 921هـ / 1515م ، وأسفر هذا الأمر عن تفجر الموقف بين المماليك والعثمانيين وأظهر المماليك استنكارهم لهذا الضم عن طريق السفير الذي بعثوا به إلى السلطان العثماني ⁽¹⁾، ولم تذكر المصادر والكتب أنه قتل علاء الدين وأولاده فمن أين جاء كرامز بهذه المعلومة ؟ رابعاً : لم يذكر كرامز أسباب ضم مصر ، وسرد الأحداث بطريقة توضح أنه مجرد استعراض قوة . فقال :

"فكان البدائ بإرسال سفراً من قبله ، ولم يحسن قاصدوه استقبالهم أول الأمر ، بيد أنهم عادوا يحملون عرضاً بالتوسط في الحرب التي كانت ناشبة بين السلطان سليم والشاه إسماعيل ، ولم يقبل سليم هذا العرض ، بل فعل ما ينافي ذلك إذ أعاد رسولاً كان قد أوفده إليه سلطان مصر محقرًا نليلًا بعد أن قتل رفقاءه".⁽²⁾

إن كرامز عبر عن أحداث ضم مصر بمنتهى ضيق الأفق والسطحية ، ولم يذكر سبباً حقيقياً واحداً لهذه الحرب ، وكأنها قامت فقط بسبب عدم احترام مبعوثي الطرفين ، كما أنه لم يوضح العرض الذي قدمه الغوري بالتوسط بين الصفوين والعثمانيين ، خاصة عندما نعلم أن العلاقة بين الصفوين والمماليك لم تعد كونها تقارب لفترة من الزمن ، ولم تصل إلى حد التحالف فيما بينهما نظراً لاختلاف المذهب .

⁽¹⁾ عبد الرحمن شرف : مصدر سابق ، ص 214 ، 215 . علي سلطان : مرجع سابق ، ص 85 ، 86 . Ahmet Akgunduz , Guneydogu Meselesi ve Cozum Yollari , OSAV ; Istanbul 1994 , 24 – 33 Hoca Sa'deddin Efendi , Tacu't – Tevarih II , S . 298 – 314 .

⁽²⁾ كرامز : مادة سليم الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 12 ، ص 124 ، 125 .

أما الأسباب التي أغفلها تماماً ولم يذكر منها إلا نتفاً لا توصل لحقيقة الحدث فتتمثل فيما يلي :

(1) أكبر وأضخم سبب فجر الموقف بين الطرفين هي الحرب بين العثمانيين والصفويين ؛ إذ إن موقف السلطان الغوري لم يكن واضحاً تماماً بين الطرفين مما أثار حفيظة السلطان سليم الأول ، لأنه جزم أنه طالما أن الغوري سلطان دولة سنية فإنه سيقف حليفاً له ويدعمه أثناء الحرب، لكن خاب ظن السلطان سليم الأول ؛ لأن الغوري خاف من زيادة قوة العثمانيين لو انتصروا على الصفوبيين ، في الوقت نفسه لم يستطع التحالف مع الصفوبيين من أجل إضعاف العثمانيين للاختلاف المذهبي ، ولذلك وقف شبه متدرج على الموقف ، على الرغم من أنه لو تدخل لكان من الممكن أن يحل النزاع بين الطرفين ، ومما زاد الأمر سوءاً إلى حد بعيد عثور المخابرات العثمانية على خطاب⁽¹⁾ سري يؤكد العلاقة بين المماليك والصفويين ، وأحس سليم من ذلك ببواشر الخيانة ، ونظرًا لأنه أراد إعادة الكره على الصفوبيين ، رأى تأمين ظهره من المماليك في حربه مع الصفوبيين . فضلاً عن الرواسب القديمة ، وهي موقف المماليك العدائي القديم من العثمانيين ، حيث وقفت بجانب الأمراء العثمانيين الفارين من وجه سليم الأول ، وفي مقدمتهم الأمير أحمد أخ السلطان سليم ، وأرادت أن يكون هؤلاء أدلة لإثارة المزيد من المتاعب في وجه السلطان سليم .⁽²⁾

بالإضافة إلى أن سليم الأول لم ينس أنهم قدموه يد المساعدة لعمه جم في صراعه مع أبيه السلطان بايزيد الثاني الذي أحدث شرخاً في العلاقة بين الدولتين المسلمتين ، وظل هذا الشرخ يتسع تدريجياً حتى اندلعت الحرب بين الطرفين مع فارق بينهما في القوة والسيادة، ففي ذلك الوقت كانت الدولة العثمانية في أوج قوتها ، لها سمعة إسلامية باهرة وصلت إلى عنان السماء ، بفضل مقارعتها لنصارى أوروبا وتمكنها العسكري ، وجهدها المميز في نشر الإسلام ، خاصة أوروبا الشرقية .⁽³⁾

⁽¹⁾ محفوظ هذا الخطاب في أرشيف توب قابي سراي بإستانبول .

⁽²⁾ علي سلطان : مرجع سابق ، ص 85 . محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 30 . علي محمد الصلاحي : مرجع سابق ، ص 304 . فاضل بيات : دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني ، ص 59 – 61 .

⁽³⁾ عبد الفتاح أبو عليه : مرجع سابق ، ص 145 . فاضل بيات : دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني ، ص 58-60.

(2) نقش ظلم المماليك الذي تمثل في مخالفة الشرع الشريف مثل الاستيلاء على أموال الأوقاف ومصادر أموال كبار الموظفين وغير ذلك ، مما جعل أهالي مصر والشام يرحبون بالفاتحين ، ويتصلون بهم سرًا – كما سبق وأن أوضحت – .⁽⁴⁾

(3) إن الدولة العثمانية كانت الدولة الإسلامية الكبرى في ذلك ، فكان من الواجب عليها حماية حدود العالم الإسلامي ومقدسات المسلمين ، خاصة ضد الخطر النصراني الأوروبي الذي تشكل بوضوح بعد حركة الكشوف الجغرافية وتسلط القوى النصرانية " البرتغالية والأسبانية وإنجليزية والهولندية والفرنسية " على الشعوب الإسلامية ، وما تبع ذلك من تهديد البرتغال للحجاز ، وعدم قدرة المماليك من التصدي لهم رغم مساعدة العثمانيين ، حيث عانى المماليك من أزمات اقتصادية خطيرة ، أهمها انهيار النظام النقدي واحتفاء الذهب والفضة تقريرًا من الأسواق في السنوات الأخيرة ، وسيطرة العملات الأجنبية على السوق المحلية ، وانتشار الأوئلة والمجاعات التي كان لها أثر عميق على الناحية الاجتماعية ، ومع اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، تأثرت العائدات الجمركية للمماليك ، ترتب عليه تعسف المماليك في سياستهم الضريبية ، واللجوء إلى الاحتكار في الداخل والخارج .⁽¹⁾

(4) وما زاد من حدة الخلاف بين الدولتين الحدود المشتركة بينهما في طرسوس في المنطقة الواقعة بين الطرف الجنوبي الشرقي لآسيا الصغرى وبين شمالي الشام ، حيث تناولت في هذه المنطقة قبائل تأرجح ولاؤها بين العثمانيين والصفويين ، مما سبب توترًا في العلاقات بين الطرفين ومصدراً للنزاع ، فضلاً عن نقطة التماس بينهم هي إمارة ذي القدر الذي قامت فيه كل دولة بدور في تشجيع أمير تركمانى مختلفٍ ، حتى تطور الأمر إلى أن الأمير علاء الدين حاكم ذي القدر وقف موقفاً معادياً من العثمانيين بإيعاز من المماليك .⁽²⁾

(5) رأى علماء الدولة العثمانية بأن ضم مصر والشام يفيد الأمة الإسلامية في تحقيق أهدافها الاستراتيجية ؛ إذ إن الخطر البرتغالي قد وصل إلى البحر الأحمر والمناطق الإسلامية ، بالإضافة إلى زيادة خطر فرسان القديس يوحنا في البحر المتوسط ، هذا الأمر جعله يسرع

⁽⁴⁾ محمد عفيفي : عرب وعثمانيون رؤى مغايرة ، ط 1 ، مصر : دار الشروق ، 1426هـ / 2005م ، ص 10 .

⁽¹⁾ عبد الفتاح أبو عليه : مرجع سابق ، ص 144 ، 145 . محمد عفيفي : مرجع سابق ، ص 10 . فاضل بياع : دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني ، ص 59 .

⁽²⁾ محمد علي الصلايبي : مرجع سابق ، ص 305 . علي السلطان : مرجع سابق ، ص 84 ، 85 .

في التوجه إلى المشرق الإسلامي متعاوناً مع المماليك في البداية ، ثم تحمل العبء كاملاً بعد ذلك .⁽³⁾

هذه الأسباب جميعاً لم يكلف كرامر ز نفسه عناء البحث عنها إذا جزمنا بأنه مؤرخ صادق يريد نقل الحدث التاريخي كما حدث ، ولكن يبدو أنه مستشرق يهوى إخفاء الحقائق وتحويرها وإيرادها مبتورة ؛ فلم يذكرها نهائياً وكأنها لم تكن .

وعلى الرغم من اجتماع هذه الأسباب في يد سليم الأول ، إلا أنه بكى بكاءً حاراً في مسجد الصخرة بالقدس وصلّى صلاة الحاجة داعياً الله تعالى أن يفتح على يديه مصر ، استناداً لرواية المؤرخ سلاطينور صاحب مخطوطه فتح نامة ديار العرب ، وهو المؤرخ المصاحب سليم في حملته ؛ حيث إنه من الصعب جداً أن يحارب دولة مسلمة سنية ، وقد أحتاج لفتوى شرعية لخوض غمار هذه الحرب.⁽¹⁾

أرسل السلطان سليم جيشاً بقيادة الصدر الأعظم سنان باشا للهجوم على الصوفيين في سنة 922هـ / 1516م ، وبعد أن وصل الجيش إلى مرعش كان عليه أن يمر من ملاطية⁽³⁾ التابعة للدولة المملوكية ، فطلب سنان باشا إذناً للمرور ، ولكن السلطان قانصوه الغوري لم يكتف برفض الطلب فحسب ، بل تحرك على رأس خمسين ألف من العسكر صوب الشام ، فقام سنان باشا بإخبار الوضع إلى السلطان سليم الأول الذي قام بدوره بجمع أعضاء الديوان الهمایوني وطلب منهم الإفتاء على مشروعية الحملة على دولة إسلامية تقوم بإعاقفة حربه مع الدولة الصوفية التي تسيء إلى الصحابة الكرام رض وعلماء أهل السنة ، فأفتقى شيخ الإسلام زنبللي أفندي بمشروعية الحرب مع تلك الدولة الإسلامية بقوله : " يجب معاقبة الذين يقومون بدعم المفسدين " حيث إنه احتاج إلى إيجاد أرضية شرعية لهذا الأمر ، والحلولة دون تعرض سمعة دولته الجهادية إلى الإساءة ، خاصة أن تواجد آخر خليفة عباسي في مصر - كرأس العالم الإسلامي - منحت امتيازات كبيرة للمماليك ودورهم في رعاية آخر خليفة عباسي ، وقد استغل المماليك هذه الامتيازات الدينية لتحقيق مطامهم السياسية ، وكان هذا عائقاً أمام الدولة العثمانية التي كانت ترغب في سد متطلبات المسلمين وتسهيل مهمة الحج .

⁽³⁾ ذكر يا سليمان بيومي : مرجع سابق ، ص 10 .

⁽¹⁾ محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 30 .

⁽³⁾ ملاطية: Melatia تقع في الأناضول مركز اللواء الذي يحمل الاسم نفسه، وهي ولاية خربوت. س. موستراس: مرجع سابق، ص 468

تحرك السلطان سليم الأول على رأس جيشه من إسطنبول في 1516هـ / 922 م وانضم إليه في الطريق جيش الصدر الأعظم سنان باشا ، وحينما وصل إلى ملاطية علم بوصول الجيش المملوكي بقيادة السلطان قانصوه الغوري إلى حلب ، وقد بلغ عدد الجيش العثماني 60.000 مقاتلاً ، إضافة إلى الأسطول العثماني الذي تولى العتاد والمؤمن عن طريق البحر ، فيما بلغ عدد الجيش المملوكي 70.000 مقاتلًا مجهزين بأحدث أنواع الأسلحة .

وبدأت معركة حامية بين الطرفين في هضبة مرج دابق التي تبعد عن حلب 39 كيلومتراً ، وبعد قتال عنيف تقهقر الجيش المملوكي وقتل قائده السلطان قانصوه الغوري ، فاضطر إلى الإنسحاب حيث أحرز الجيش العثماني انتصاراً عظيمًا في المعركة .⁽³⁾

وكان آخر الخلفاء العباسيين في القاهرة (المتوكل الثالث) يرافق السلطان المملوكي في ساحة المعركة ، فوقع أسيراً من قبل الجيش العثماني ، وقد أبدى له السلطان سليم الأول احتراماً وتقديراً كبيرين وأرسله إلى القاهرة ، على الرغم من أنه لم يكن له أي صفة سياسية، وإنما مكانة روحية مستمدة من وضعهم قدماً .

ودخل السلطان العثماني حلب حيث قوبل من أهلها بالترحاب ولقي دفء الاستقبال للمسير إلى مصر ، ومن جهة أخرى قام القادة العسكريين المماليك الذين أنذروا أنفسهم وهرموا إلى القاهرة بانتخاب طومان باي سلطاناً على الدولة المملوكية⁽¹⁾ ، ثم قاموا بتجهيز جيش بقيادة جانبردي الغزالى - والذي بدأ يحس بأن كفة العثمانيين هي الأقوى والمماليك الأضعف - وأرسلوه في اتجاه غزة العريش لصد الهجوم العثماني ، وفي هذه الأثناء كان الجيش العثماني بقيادة الصدر الأعظم سنان باشا ينتظر في الرملة ، فالتحق الجيشان العثماني والمملوكي في موقع خان يونس في العام نفسه ، وبعد اشتباكات دامية انهزمت القوات المملوكية ، ودخل سنان باشا غزة ، وأرسل خبر النصر إلى السلطان سليم الأول الذي انتقل في هذه الأثناء إلى القدس الشريف يرافقه المؤرخ إدريس الباتليسي ، حيث أدى الصلاة في

⁽³⁾ Hoca Sa' deddin Efendi , Tacu't – Tevarih II , S. 350 – 355 ; Lutfu Pasa, Tevarih – i Al – Iosman, S.250 ;
يلمازا أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج1، ص223. فاضل بيات دراسات حول تاريخ العرب في العهد العثماني ، ص 61

⁽¹⁾ محمد أحمد بن إيس الحنفي : بدائع الزهور في واقع الدبور ، تحقيق : محمد مصطفى ، الطبعة 1 ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ج 5 ، ص 80-73 . علي سلطان مرجع سابق ، ص 87 ، 88 . عبد الرحمن شرف : مصدر سابق ، ص 218 - 222 . إبراهيم حليم : مصدر سابق ، ص 83 .

المسجد الأقصى ، كما زار قبر النبي إبراهيم عليه السلام الكائن في الخليل . وقبل أن يتوجه السلطان سليم الأول صوب مصر أرسل سفيراً إلى السلطان المملوكي الجديد طومان باي ، وطلب منه الخضوع له وذكر اسمه في الخطبة ، كما عرض عليه أن تكون مصر له ابتداءً من غزة ويكون والياً فيها من قبل الدولة العثمانية ، على شرط أن يدفع خراجاً سنوياً إلى الدولة العثمانية ، وحذر من مغبة الوقوع فيما وقع فيه سلفه قانصوه الغوري ، لأنه كان يريد ضم مصر دون حرب أو قتال حقناً لدماء المسلمين ، غير أن طومان باي رفض طلب السلطان سليم ، وسخر من السفير الذي حمل رسالته إليه وقام في نهاية الأمر بقتله .⁽²⁾

فتوجه سليم إلى غزة في بداية عام 923هـ / 1517م ، ومنها إلى صحراء سيناء التي هطلت على أرضها الأمطار مما سهل مرور الجيش بها ، ماراً من العريش والقاطبية والصالحية وبليبيس للوصول إلى العاصمة المملوكية القاهرة ، وفي الوقت نفسه كان الأسطول العثماني قد سيطر على البحر الأبيض المتوسط ، وبدأت الحرب بين الطرفين في موقع الراديانة القريبة من جبل المقطم حيث استشهد الصدر الأعظم سنان باشا ، ولكن الجيش العثماني استطاع أن يهزم الجيش المملوكي في هذه الحرب التي استمرت يومين ، وقد فرَّ كل من السلطان طومان باي والقائد جانبردي الغزالى من ساحة القتال ، فتقدمت القوات العثمانية نحو بولاق الواقعة شمال القاهرة واستقرت فيها ، وأقيمت الخيام على طول نهر النيل .

ثم دخل السلطان سليم الأول القاهرة بمراسيم فخمة وجلس على كرسى السلطنة وأعلن نفسه حاكماً على مصر ، وفي هذه الأثناء استسلم القائد المملوكي جانبردي الغزالى إلى السلطان طالباً منه الأمان ، ولم يكن خائناً لصالح العثمانيين وإنما انضم للجانب الأقوى ، فعفا عنه السلطان وأقطعه سنجقاً . أما السلطان المملوكي طومان باي فقد قبضت عليه القوات العثمانية وعقب بالإعدام .⁽¹⁾

⁽²⁾ فاضل مهدي بيات : دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني ، ص 75 - 76 . علي سلطان : مرجع سابق ، ص 88 . عبد الفتاح أبو عليه : مرجع سابق ، ص 148 ، 149 .

⁽¹⁾ محمد أحمد بن إيس الحنفي : مصدر سابق ، ج 5 ، ص 153-174 . عبد الفتاح أبو عليه : مرجع سابق ، ص 148 ، 149 .

ثم قام السلطان سليم الأول بإرسال خبر نصره إلى كافة دول العالم ، وقد مكث السلطان في مصر فترة 6 أشهر حيث قضاها في تأسيس النظم الإدارية العثمانية في مصر ، وأصدر قانون نامه مصر ليطبق بموجبه التنظيمات الإدارية في مصر .⁽²⁾

كما أمر بإرسال أفراد أسرة السلطان المملوكي - وكذلك الخليفة العباسي وأسرته بمنتهى الإعزاز والإكرام إضافة إلى بعض الشيوخ والعلماء - إلى إسطانبول عن طريق البحر. وهذا أمر طبيعي لأن إسطانبول هي العاصمة .

وقد أصدر السلطان سليم الأول عقب دخوله مصر فرماناً يتضمن منع اليهود من الهجرة إلى سيناء فسد بذلك الطريق أمامهم للتوجه نحو القدس الشريف.⁽³⁾

وعقب فتح مصر قام أمير مكة المكرمة الشريف أبو نمي برؤسات بإرسال مفاتيح مكة والمدينة ، والروضة المطهرة ، فضلاً عن مفاتيح قديمة للكعبة تعبيراً عن خضوع مكة والمدينة لهم سلみاً ، وبقية الأمانات المباركة مع ابنه الشريف أبي نميّ محمد إلى السلطان سليم الأول ، وقدم طاعته وخضوعه له ،⁽⁴⁾ وقد قوبل الشريف بإكرام بالغ واستضيف في مقر قائد الجيش هو ومرافقه الحجازيون ، ثم قابل السلطان سليم الأول وقدم له الأمانات السالفة ذكرها ، وبال مقابل قام السلطان بتقديم هدايا فاخرة لأبي نميّ ، إضافة إلى إرسال براءة الأمارة والهدايا القيمة إلى والده أمير مكة المكرمة ، إضافة إلى أنه أرسل كثيراً من الهدايا والأموال إلى أهالي الحرمين الشريفين .⁽¹⁾

وقد جلب السلطان الأمانات المباركة التي أرسلت له من قبل شريف مكة المكرمة معه إلى إسطانبول ، وشيد مبنياً خاصاً في قصر طوب قابي لحفظ فيه هذه الأمانات ، عرف باسم دائرة البردة النبوية الشريفة " خرقه شريف ".⁽²⁾

⁽²⁾ عبد الفتاح أبو عليه : مرجع سابق ، ص 166 ، 167 . يلماز أرتوна : تاريخ الدولة العثمانية ، ج 1 ، ص 226 ، 228 . محمد حرب ، العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 27 .

⁽³⁾ سعيد عبد الحكيم زيد ، واقع العالم الإسلامي ، ص 152 .

⁽⁴⁾ يلماز أرتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج 1 ، ص 233 .

⁽¹⁾ ابتسام محمد كشميري : مكة المكرمة من بداية الحكم العثماني إلى نهاية القرن 10هـ / 16 م ، رسالة دكتوراه غير منشورة 1422هـ / 2001م ، جامعة أم القرى ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، ص 17 .

⁽²⁾ يلماز أرتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج 1 ، ص 234 .

لمزيد من التفاصيل عن ضم السلطان سليم الأول لمصر الرجوع إلى الآتي :

S.Tekindag : Suveyste Turkler ve Selman Reisin Arizasi , BTTD , 11/9 . S77 – 80

وانظر أيضاً :

M.Yakub mughul : Kanuni Derri , Ankara , 1987 , S , 27 – 77 .

ولنرى ماذا ذكر كرامرز في هذه المعركة يقول : " وتعزى الهزيمة التي مني بها المصريون في هذه الواقعة " الريدانية " إلى خيانة جانبردي الغزالى الذى كان يعمل بالاتفاق مع خاير بك الذى كان فى جيش سليم ، ويقال إنهم توسلوا بالخديعة إلى شل حركة المدفعية المصرية التي كان يقوم عليها الأوروبيون " .⁽³⁾

إن هذا دين المستشرقين دائمًا فقد أرجعوا أي انتصار للعثمانيين إلى الخيانة والخديعة، وكأن الأمر أصبح قصة مكررة في كل فتح ، ولم يخرج كرامرز عن هذا النطاق مطلقاً ، بل أكد عليه ولم يذكر سبباً واحداً حقيقياً عن مسألة انتصار العثمانيين . ومن أهم أسباب نصر العثمانيين .

(١) التفوق العسكري لدى العثمانيين ؛ فسلاح المدفعية المملوكي كانت مدافعته ضخمة ثابتة لا تتحرك ، في حين كان سلاح المدفعية العثمانية يعتمد على مدفع خفيفة يمكن تحريكها في كل اتجاه .

(٢) كانت معنويات الجيش العثماني مرتفعة جداً نتيجة للتربية الجهادية الرفيعة التي تلقوها ، إضافة إلى اقتناعهم بأنها حرب عادلة ، بعكس القوات المملوكية التي فقدت تلك الصفات .^(١) فمثلاً نجد في بعض المعارك كمرج دابق 25 رجب 922هـ / 24 أغسطس 1516م أن المماليك استخدمو أسلحة نارية ليست في تطور وتفوق الأسلحة النارية العثمانية ، وفي هذه المعركة بالذات دخل قانصوه الغوري ليس بحرسهِ الخاص ، وإنما بالحرس الذين كانوا للسلطان من قبله ، مما جعل هذه الفئة العسكرية لا تحارب بالمستوى المطلوب ، وذلك لإحساسها بالإهانة وبمحاولة التخلص منه في مقابل المحافظة على حرس الغوري الخاص.^(٢)

1- Seyyid Muhammed es – Seyyid Mahmud: XVI , Asırda Misir Eyaleti , Istanbul 1990 , S , 48 , 57 ,ld.

2- Cl . Cahen : Islamiyet , Dogusundan Osmanli Devletinin Kurulusuna Kadar (trc . E. Nermi Erender), Istanbul , 1990 , P .231 .

3- A.Raymond : The Great Arab Cities in the 16 th – 18 th , Centuries , New York 1984 , B.Masters : The Origins of Western Economic Dominance in the Middle East , Merean Tilism and the Islamic Economy in Aleppo , 1606 – 1750 , New York 1988 , P . 11-19 .

⁽³⁾ كرامرز : مادة سليم الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 12 ، ص 125 .

⁽¹⁾ محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 31 .

⁽²⁾ عبد الفتاح أبو عليه : مرجع سابق ، ص 147 .

(٣) حرص الدولة العثمانية على الالتزام بالشرع في جميع نواحي سياستها ، واهتمامها باللغ بالعدل بين رعايا الدولة ، بعكس الدولة المملوكة التي انحرفت عن جادة الصواب والشرع ، ومارست الظلم على أهلها وذلك بشهادتهم .^(٣)

(٤) سلامه الخطط العسكرية العثمانية ، حيث استخدمو خططاً حديثة كاستدارة القوات العثمانية من خلف مدفع المماليك ثقيلة الحركة ، كما أن دخولهم القاهرة من ناحية المقطم شلَّ المدفعية وأحدث اضطراباً في صفوف الجيش المملوكي .

(٥) قناعة مجموعة قيادية من أمراء المماليك بالانضمام لجيش السلطان سليم ، لقد تعاونوا مع الدولة العثمانية وتحملوا مسؤولية الحكم تحت إطار الحكم العثماني ، أمثال خاير بك في مصر ، وجان بردي الغزالى في دمشق .^(٤)

لكن هذا لا يمنع ذكر نبذة بسيطة عن جان بردي الغزالى ليتضح للقارئ حقيقة شخصيته .
ردد كرامرز وغيره كثيراً خيانة جان بردي الغزالى للمماليك وتعاونه مع العثمانيين . وبداية من هو جان بردي الغزالى ؟

جان : بمعنى الروح ، بردي : بفتح الباء وسكون الراء بمعنى أعطي ، أما الغزالى نسبة إلى "منية غزال" في الشرقية بمصر ، وكانت ضيعة لـ "تغري بردي" وجان بردي الغزالى لم يكن عربياً ، وإنما كان سلافياً من كرواتيا ، يتحدث الكرواتية بطلاقة ، وقع أسيراً أثناء فتح البلقان في عهد السلطان بايزيد الثاني ، ثم أرسل مع مجموعة أخرى إلى السلطان المملوكي كهدية ثم اعتق ، وطغى طموحه على كل شيء حتى وصل إلى الإمارة ، فقد كان متقلباً ، يتحالف مع المتناقضات في سبيل الوصول إلى تحقيق طموحه . وكان ينضم مع الجانب الأقوى مثلما حدث عندما ساند العادل طومان باي ضد جان بلاط سيده القديم ، وصار من رجال طومان باي وتدرج في المناصب حتى قامت على الأخيرة ثورة ، وعندما لمس أن كفة الميزان كانت مع الثوار انضم لهم ، وأصبح من رجال الأشرف الغوري الذي تولى في أعقاب نهاية الثورة ، وهنا تولى منصب محجوبية الحجاب في حلب ، ثم نيابة صفد ، وأخيراً نيابة حلب 918هـ / 1512م .

^(٣) عبد العزيز نوار : مرجع سابق ، ص 93 .

^(٤) مرجع سابق ، ص 92 ، محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 31 .

وعندما أتضح له أن الصفوين هم الأقوى في المنطقة من المماليك ، أرسل إلى الشاه إسماعيل الصفوی رسولاً يخبره أنه يعلن ولاءه وطاعته الكاملة له ،⁽¹⁾ بشرط أن يمد بجيشه يؤازره ضد العثمانيين ، ورغم هذه الجهود التي بذلها ، لم يتحالف الصفوين مع المماليك .⁽²⁾

أما أثناء حرب العثمانيين مع المماليك في الشام فقد رأى أن كفتهم هي الرابحة، فآخر الوقف إلى جانبهم ، وعرض الأمر عليهم بواسطة خاير بك ، وأرسل إلى سليم الأول يطلب منه العفو والأمان فأمنه واستقبله في خيمته ، وأصدر قراراً بتعيينه والياً على القدس ، عام 923هـ / 1517م ، ثم صدر فرمان عثماني بتعيين جان بردي الغزالى 924هـ / 1518م على ولاية الشام مدى الحياة .⁽³⁾

من العرض السابق يتضح أنه شخصية وصولية ليس له مبدأ أو ولاء إلا للأقوى الذي سيجلب له مزيداً من النفوذ والجاه ، لذلك كان دائماً يسعى خلف الأقوى دون اهتمام بأي شيء، وبناءً على هذا طبيعياً جداً نراه يخون المماليك وينضم إلى جانب العثمانيين دون طلب من سليم الأول ، وأن الأخير افترض منه حسن النية والإخلاص فأعطاه ولاية الشام مدى حياته ؛ وذلك تقديرًا من جانب السلطان سليم الأول لجهوده ولائه ، لكن جان بردي الغزالى تأصل فيه طبع الوصوصية والسعى وراء النفوذ ، فقد انتهز فرصة وفاة السلطان سليم الأول وكاعتراف بالجميل من ناحيته أراد إعلان الإنقلاب على ابنه السلطان سليمان القانوني ! والانفصال ببلاد الشام وإعلان نفسه ملكاً عليها ، معتقداً أن السلطان الشاب ليس في قوة وحزم أبيه ، لكن ظنه قد خاب إذ أحبط السلطان سليمان القانوني محاولته ، وأرسل له جيشاً انتصر عليه في معركة المصطبة في 27 صفر 927هـ / 6 فبراير 1521م وأعدم على أثرها ، وبذلك أنهت حياة رجلٍ خان كل من عمل تحت رايتهن طمعاً في النفوذ .⁽¹⁾

أما عن مسألة انضمام خاير بك وإسهامه في إنهاء الحرب لصالح العثمانيين فلنا أن نلقي نظرة على الوقت الذي انضم فيه إلى السلطان سليم الأول ، في البداية تعرف على السلطان سليم الأول من خلال الرسائل التي كان يبعثها سليم الأول إلى قونصوه الغوري ،

⁽¹⁾ الوثيقة محفوظة في أرشيف متحف طوب قابي سراي تحت رقم 5469 / 19 .

⁽²⁾ محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 163 .

⁽³⁾ مرجع سابق ، ص 161 – 163 .

⁽¹⁾ محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 164 ، 165 .

فلمس منه قوة الموقف ، وكان خاير بك يأخذ موقعه في صفوف الجيش المملوكي في معركة مرج دابق لكن بعد تعرض المماليك للهزيمة حاول دخول قلعة حلب وأغلقتها على نفسه ، إلا أن يونس باشا أحد قادة سليم الأول قام بملحقته ، ففر إلى ناحية حمص ومعه بعض من أمراء المماليك ، عندما أدرك أنه لا يستطيع مقاومة السلطان وتوجه نحو دمشق ، وحينها دبَّ الخلاف بينه وبين الأمراء المماليك الذين معه ، فأرسل إلى يونس باشا يرجوه التوسط عند سليم الأول للدخول في خدمته ، وتنسنت له بعد ذلك مقابلة السلطان سليم الأول وانضم مع جميع رجاله في الجيش ، وبذلك نال حظوة عند سليم الأول .⁽²⁾

وفي أثناء ضم الشام ومصر طلب خير الدين ببروسا الذي انتشر صيته في البحر الأبيض المتوسط الانضمام إلى الأسطول العثماني ، فوافق السلطان على ذلك ، ثم عينه قائداً للأسطول العثماني .

غادر السلطان سليم الأول القاهرة مع جيشه في 923هـ / 1517م ، ومرَّ في طريقه في الصالحية والشام وحلب ومرعش وقيصرية وأفسراي وأفيون ، ووصل إلى إسطانبول في 924هـ / 1518م ، وقد استغرقت الحملة المصرية عشرة شهور ونصف ، استطاع السلطان خلالها أن يضم القسم الأغلب من قاريء آسيا وإفريقيا إلى الدولة العثمانية ، حيث دخلت مصر وببلاد الشام والجaz تحت السيادة العثمانية ، كما أصبحت الدولة العثمانية مسيطرة سيطرة تامة على البحر الأبيض المتوسط .⁽³⁾

وكان السلطان سليم الأول يهدف من وراء حركة توسعاته وإخضاعه جميع البلدان التي يقطن فيها المسلمون بما فيها بلاد فارس إلى تحقيق الوحدة الإسلامية ، ولهذا أرسل إلى حكام تلك البلدان سفراء لدعوتهم إلى الطاعة والخضوع تحت راية الدولة العثمانية ، وذلك قبل أن يقوم بحملاته العسكرية عليهم ، وكان السلطان سليم الأول قد شاهد الهزائم التي لحقت بالأساطيل المملوكية على يد الأساطيل البرتغالية التي كانت تطمع في تدمير العالم الإسلامي ، فقام بحماية الأماكن المقدسة من التسلط الصليبي الجديد ، حيث لم يتوجه إلى الغرب في فتوحاته كما فعل أسلافه من السلاطين ، إنما توجه نحو الشرق لأجل إنقاذ العالم الإسلامي

⁽²⁾ فاضل بيات : دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني ، ص 63 ، 64 .

⁽³⁾ يلماز أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، ج 1 ، 3/ب ، ص 239 .

Ceresler Katibi Yusuf , Tarih – i Sultan Selim Han , Suleymaniye Kutup . Esad Ef . Nr . 2146 , Varak 22b – 45b ; Celalzad Mustafa Celebi , Selimname , S . 173 – 210 ; Kesfi , Selimanme , Suleymaniye kutup . Esad Ef . Nr . 2146 , Varak 54a – 55 b .

بصفة عامة والقدسات الإسلامية بصفة خاصة من الموجة الصليبية الجديدة من جانب الأسبان في البحر الأبيض المتوسط والبرتغاليين في المحيط الهندي وبحر العرب والبحر الأحمر ، والذين بدأوا يطوفون العالم الإسلامي ، ويفرضون عليه حصاراً اقتصادياً كي يسهل سيطرتهم عليه ، وبالفعل عندما نجح السلطان سليم الأول في القضاء على المماليك وفي ضم مصر والجاز ومناطق أخرى من العالم العربي إلى الدولة العثمانية ، وحقق الوحدة الإسلامية استطاع أن يهزم الأساطيل البرتغالية وأن يبعد خطرهم عن العالم الإسلامي .⁽¹⁾

ومما هو جدير بالذكر هنا أن المشرق العربي رحب بالسلطان العثماني سليم الأول ، حتى يتخلصوا من ظلم وجور المماليك في آخر أيامهم ، وتعطيل الأحكام الشرعية ، وتمثل ذلك المنفذ في العثمانيين ، حيث كان علماء مصر يلتقدون سرّاً بكل سفير عثماني يأتي إلى مصر ، ويفضلون إليه شكواهم من جور الغوري ؛ لأنّه كان يخالف الشرع الشريف ، ويستهضون عدالة السلطان العثماني لكي يأتي ويضم مصر ، حتى أن المؤرخ "يانسكي" ذكر في كتابه عن السلطان سليم الأول أن علماء مصر كانوا يرسلون السلطان سليم الأول منذ توليه الحكم ، حتى يقدم إليهم ويخلاصهم من حكم المماليك .⁽²⁾

أما عن بلاد الشام فإن أهل حلب كانوا راضين تماماً عن الضم العثماني ، بسبب ما قاسوه من ظلم المماليك ، حتى إن الغوري عندما وصل حلب بجيشه لمقابلة جيش سليم الأول ، فوجئ بأن الأهالي لفظوا أطفالهم صيحة "ينصرك الله العظيم يا سلطان سليم" ، حتى إن العلماء والقضاة والأعيان في حلب اجتمعوا للباحث في حالهم ، وقرروا كتابة عريضة⁽³⁾ للسلطان سليم الأول يعرضون فيها ظلم المماليك وعدم اتباعهم الشرع ، وإذا فكر السلطان في السير نحو بلاد الشام فإنهم سيرحبون به وسيخرج جميع فنادق المجتمع إلى عينتاب البعيدة عن حلب ليتقوا به ، وطلبو أن يرسل لهم رسولاً من عنده ، وزيراً ثقة يقابلهم سرّاً ، ويعطيهم الأمان ، حتى تطمئن قلوب الناس .⁽¹⁾

⁽¹⁾ عبد اللطيف بن دهيش : مرجع سابق ، ص 58 . محمود محمد الحويري : مرجع سابق ، ص 208 ، 209 . أميرة مدادح : مرجع سابق ، ص 44 ، 45 .

⁽²⁾ محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 187 .

⁽³⁾ العريضة محفوظة في أرشيف توب قابي سراي في إسطنبول تحت رقم 11634 (26) .

⁽¹⁾ علي سلطان : مرجع سابق ، ص 87 . محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 188 .

أما في دمشق فقد استقبله الزعماء ورجال الدين بالترحاب والرضا التام ، وقد أرضاهم السلطان سليم الأول بإلغاء الضرائب الجديدة ، ووزع عليهم المال ، على جميع فئات العلماء والأهالي .⁽²⁾

ويتضح أن مسألة تقبيل المشرق للسلطان سليم الأول كانت قد بدأت بوادرها قبل خروج سليم من إسطنبول ؛ وهذا أمر طبيعي إذ إنه يمثل رأس أكبر دولة إسلامية اشتهرت بسياسة التسامح الديني ، وأصبحت ملاذ المسلمين الآمن فضلاً عن المسيحيين واليهود الفارين من الاضطهاد الديني .

سادساً : الخوض في مسألة انتقال الخلافة للسلطان سليم الأول . فقال :

" والمصادر المبكرة التي تكاد تتعاشر لا تكفل بأي حال من الأحوال صحة الرواية التي ظهرت بعد ذلك بقرنين ونصف قرن من الزمان ، ومؤداتها أن المتوكل تنازل رسمياً عن الخلافة إلى سليم ، ومن الواضح أن هذه الرواية قصد بها تبرير ادعاء سلاطين آل عثمان الحق في الخلافة " .⁽³⁾

إن الدراسة ليست بصدق تحديد مدى صحة الرواية من خطأها⁽⁴⁾، وإنما ما يهم الدراسة هو أنه ليس هناك ما يرغم السلاطين على تبرير اتخاذهم لقب خليفة ؛ لأنه من وجهة نظر الدراسة أنه طالما قد أعلن الحجاز الولاء والطاعة للسلطان سليم الأول سلبياً ، ودخل الأشراف تحت حكم الدولة العثمانية رغبةً منهم، فأصبح تلقائياً من حقه أن يلقب بـ لقب خليفة المسلمين ؛ لأنه سيطر على الحرمين الشريفين في الحجاز فضلاً عن المسجد الأقصى ، هذا إضافة إلى أن المنصب كان شاغراً ولم يشغل أحد منذ سقوط الدولة العباسية في بغداد على يد هولاكو ومقتل آخر خليفة عباسي المستعصم بالله عام 656هـ / 1258 .

ونتيجة لاستلام السلطان مفاتيح الكعبة المشرفة من أمير مكة المكرمة أصبح يلقب نفسه منذ ذلك الحين بـ " خادم الحرمين الشريفين " ، وقد حمل السلاطين الذين خلفوه هذا

⁽²⁾ علي سلطان : مرجع سابق ، ص 88 .

⁽³⁾ كرامز : مادة سليم الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 12 ، ص 127 ، 128 .

⁽⁴⁾ لمزيد من المعلومات عن هذه الورقة الرجوع إلى :

H.Trakik : The Ottoman and Caliphate , The Cambridge History of Islam , I , 1970 , P. 320 – 323 , H.Gibb , Lucfi Pasha on the Othoman Caliphate , Oriens , XV , 1962 , P. 287 – 295 .

اللقب أيضاً ، وصارت تقرأ أسماء السلاطين العثمانيين في خطبة الجمعة في كافة أنحاء العالم الإسلامي عقب فتح مصر ، ويشار إليهم بلقب " خادم الحرمين الشريفين " .^(١)

ومنذ ذلك الحين وقع على عاتق سليم الأول حماية الحرمين الشريفين وإرسال مخصصات مالية سنويًا ، ومن بعده السلاطين العثمانيين ، خاصة وأن الحرمين الشريفين كانوا معرضين للخطر البرتغالي .

إن مفهوم الخلافة عند العثمانيين اختلف إلى حدٍ ما عن مفهومها في العهد العباسى ، إذ إنَّ فكرة الخلافة عند العثمانيين اكتسبت مغزى جديداً تجلَّى في تأمين طرق الحج وحماية الأماكن المقدسة ، والدفاع عن الإسلام والمسلمين ، ووضعهم تحت مظلة الحماية العثمانية ، وامتزج ذلك المغزى بمقاييس مبدأ الجهاد ، حتى بات السلطان العثماني يستحق لقب خليفة لأنَّه بالجهاد الإسلامي والدفاع عن المقدسات الإسلامية ، وليس بالوراثة .

هذا الوضع دفع العثمانيين إلى التمسك بشكل صارم بمبادئ الشريعة الإسلامية ، والسعى لإضفاء الشرعية على القوانين والنظم المالية والإدارية ، وزاد تمسك العثمانيين بهذا اللقب خاصة في عهد التصدع والانهيار ؛ ليتأكدوا من هيمنتهم الإسلامية على جميع الشعوب الإسلامية في أنحاء العالم ، والحلولة دون تزعزع نفوذهم في قلوب المسلمين .

لقد أديرت منطقة الحجاز التي دخلت تحت الحكم العثماني عقب فتح مصر بموجب نظام خاص ، وقد أُغفت مكة المكرمة والمدينة المنورة من كل أنواع الضرائب ، وأرسلت إليهما سنويًا المعونة المالية ضمن موكب الصرة وذلك لسد متطلباتهما .

وعلى الرغم من أن الدولة العثمانية كانت تقوم بتعيين الولاة والإداريين على المنطقة، إلا أن أمراء مكة المكرمة كانوا هم أصحاب القول والكلمة في شبه الجزيرة العربية ، وقد استمرت إمارة مكة المكرمة حتى قرب سقوط الدولة العثمانية في سنة 1343هـ / 1924م ، وكانت أسماء الأمراء من أشراف مكة المكرمة تقرأ بعد أسماء السلاطين في خطبة الجمعة فقد تميزت الحجاز بما نسميه ثنائية السلطة وهذا يدل على أن العثمانيين فاتحين و ليسوا غزاة.

^(١) Evliya Celebi , Seyahatname , X , S. 116 , 124 – 125 ; Ahmed Rasim , Osmanli Tarihi , II , S . 338 ; Munecimbasi Sabaifu 1 – Ahbar , III , S. 567 .

ويرجع احترام وتقدير سلاطين آل عثمان لأمراء مكة المكرمة إلى سببين مهمين ، أولهما : حرمةً وتقديراً لنسبيهم الشريف ، ثانيهما : لقيامهم بحماية طريق الحج وتأمين سلامة وأمن الحاج المسلمين خلال رحلاتهم إلى الحجاز .

لقد أولت الدولة العثمانية اهتماماً بالغاً بالحرمين الشريفين ، فدائماً ما تقوم بترميم المسجد الحرام والمسجد النبوي الشريف ، بالإضافة إلى إرسال كسوة للكعبة المشرفة ، وقد صرُفت عليها مبالغ طائلة من حيث الصناعة ، إذ صنعت من أرقى أنواع الحرير واستخدم في تطريزها الذهب ، هذا إضافة إلى الأفوال والمفاتيح الخاصة بالكعبة المشرفة ، والتي أرسلها السلاطين بصورة متواصلة ضمن موكب الصرة .⁽¹⁾

ولم تقتصر خدمات الدولة العثمانية على سكان بشبه الجزيرة العربية فحسب ، إنما شملت جميع الحاج القادمين من الشام ومصر وعدن وبغداد والبصرة ، حيث كانت الدولة ترسل موظفيها إلى المنطقة لسد متطلبات الحاج من المياه والمؤن . وذلك أثناء خروج قوافل الحاج إلى الطريق ، وكان ولاة المنطقة يقومون بتعيين أمراء الحج على تلك القوافل ، يتولى حماية القوافل خمسة عشر ألف محافظ ، وعندما تصل قافلة الشام التي تحمل السننق الشريف إلى مداين صالح ، يستقبلها أمير مكة المكرمة أو من ينوب عنه ، وذلك بأمر من السلطان العثماني ، وتدخل القافلة مكة المكرمة برئاسة الأمير ، وبعد أن ينتهي الحاج من أداء فريضة الحج ويعودون إلى بلادهم ، يرسل الأمير خطاباً إلى السلطان العثماني يبلغه فيه قيام الحاج بأداء فريضة الحج في ظل الأمن ، وعودتهم إلى بلدانهم⁽²⁾ بسلام .

لقد توفي سليم الأول عام 927هـ / 1520م من جراء خراج صغير ظهر في ظهره ، وهو على رأس حملة متوجهة إلى إسطانبول ومنها إلى إسكيار ليخرج على رأس جيشه منها ، إلا أن الأطباء لم يفلحوا في علاجه ، فوايته المنية قبل أن يصل إسطانبول .⁽³⁾

⁽¹⁾ للمزيد من المعلومات المفصلة عن كسوة الكعبة المشرفة ومفاتيحيها أنظر : خولييا ترجان : أستار الحرمين الشريفين ، ترجمة : تحسين عمر طه أوغلي ، إسطانبول 1996م ، طرجان يلماز : الكعبة المشرفة ، ترجمة : عمر طه أوغلي ، إسطانبول ، 1993م .

⁽²⁾ Omer Faruk Yilmaz , Belgelerle Osmanli Tarihi , II , Istanbul 1999 , S . 57 – 58 .

⁽³⁾ عبد الرحمن شرف : مصدر سابق ، ص 225 : يلماز وزوتونا : مصدر سابق ، ج 1 ، ص 237 . محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 32 .

لقد توفي بعد أن غير الخريطة السياسية لبلاد المشرق الإسلامي تغيراً بقي بعد ذلك قروناً طويلاً ، إضافة إلى أنه ترك الحرية لأوروبا ولم يدخل معها في حروب ، وإنما نقل دولته إلى سياسة جديدة وهي التوجه نحو المشرق الإسلامي وأصبحت بذلك دولة عالمية ، ورسم ومهد الطريق للفتحات العظيمة في عهد ابنه السلطان سليمان القانوني .

بعد أن كشف العثمانيون عن قدرتهم السياسية في الشرق ، بدأوا بشكل حاسم في استئناف حركة الجهاد في أوروبا لنشر الإسلام في أراضي جديدة . فقد أصبح في وسعهم أن يهيأوا أنفسهم لكي يكونوا عنصر توازن جديد في السياسة العالمية ، وبهذا يبدأ عصر جديد جعل من الدولة العثمانية إحدى ثلاث دول عالمية في أوروبا ، وهي إمبراطورية آل هابسبورغ في ألمانيا ، وقيصرية روسيا ، والدولة العثمانية .

ولا شك أن النشاط السياسي والعسكري المكثف الذي وقع في عهد السلطان سليمان القانوني ، قد لعب دوراً مؤثراً في ذلك .

وعلى هذا فإن عهد السلطان سليمان القانوني ، يعد عهداً مهماً من حيث الشمول والتتنوع ووضوح الأسلوب والهدف ؛ إذ لم يكفل زمام السلطة عام 927هـ / 1520م حتى أصبحت الدولة العثمانية تمثل أحد أهم دول العالم من كل الجوانب تقريباً .

حتى غداً طوب قابي مركز السلطان سليمان القانوني ، وملتقى للسفراء القادمين من الشرق والغرب ، وصارت الدول الأوروبية والدول الإسلامية لا يتركون فرصة تقوتهم إلا وأرسلوا الهدايا الثمينة ، والسفراء إلى العاصمة إسطنبول ، ولم يكن من السهل على هؤلاء السفراء أن يقابلوا السلطان القانوني ، فإذا كان السلطان في إحدى حملاته وجّب عليهم أن يذهبوا إليه في تلك الحملة مما يتطلب إتصالات عديدة وإرسال سفراء من قبله أيضاً⁽¹⁾ .

لقد أجمع المؤرخون على أن عصره كان العصر الذي بلغت فيه الدولة العثمانية قمة مجدها وعظمتها ، ليس ذلك بسبب رقعتها الجغرافية وسياساتها تجاه أوروبا فقط ، وإنما بسبب النهضة العلمية التي صاحبت الاستكشافات العلمية والجغرافية الأوروبية والتقدم في الناحية المعمارية .⁽²⁾

⁽¹⁾ E.Kuran : Avrupada Osmanl , ikamet Elqilerinin kurulusu ve itk Eleilerin sigasi Faal yetleri (1793- 1821) , Ankara , 1988 , S , 25 .

⁽²⁾ ربيع عبد الرؤوف الزواوي : مرجع سابق ، ص 64 . محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 89 .

ولأهمية السلطان سليمان القانوني ، فقد أفردت له دائرة المعارف الإسلامية مادة طويلة بالنسبة للسلطانين الآخرين ، حيث تم تقديمها بقلم المستشرق كرامرز الذي أضاف في الحديث عنه وعن فتوحاته ، ولكنه أغفل عدة نقاط كالعادة ومنها :

(١) لم يتحدث مطلقاً على أسباب خوضه هذه الحملات ، وإنما ترجمها على أنها حملات توسعية لمد النفوذ السياسي فقط ، وليس للدفاع عن حدود الدولة العثمانية مثلًا أو مقاومة الأحلاف الصليبية .

(٢) لم يشير مطلقاً إلى دوره في نشر الإسلام أو في إحياء حركة الجهاد الإسلامي وتوجها نحو أوروبا .

(٣) عدلت المادة حملات سليمان القانوني فقط دون توضيح روح الشجاعة والجهاد التي تحلى بها السلطان ، خاصة وأنه كان يقود الحملات بنفسه .

وستقف الدراسة على النقاط التي ذكرها المؤرخ كرامرز ، ومنها :

أولاً : محاولة كرامرز التقليل من شأنه عندما كان والياً على مغنيسيا .^(١)

ثانيًا : أهمل كرامز تمامًا التمردات التي واجهت سليمان القانوني في بداية حكمه.

ثالثًا : المرور على أعظم فتوحات سليمان القانوني مروراً سريعاً ، ووصف الفتح العثماني بالتخريب والتدمير .^(٢)

رابعًا : ذكر كرامرز أسباباً خاطئة جداً عن ضم السلطان سليمان القانوني لبغداد وتب里ز .^(٣)

خامساً : إطلاق صفة القرصنة على الجهاد البحري في عهده .^(٤)

سادسًا : نسب جميع الأعمال التي قام بها إلى الرجال الأكفاء المحيطين به .^(٥)

والسلطان سليمان القانوني هو عاشر سلاطين الدولة العثمانية ، وثاني خليفة لها ،

ولد عام 900 هـ / 1494 م ، وعندما ولد أعطي له هذا الاسم نسبة إلى النبي سليمان عليه السلام .

، وقد تلقى منذ صغره العلوم العقلية والنقلية من العالم خير الدين أفندي ، ثم تعلم فن

الصياغة ، كما تربى على فنون الإدارة وال الحرب من خير قادة والده وجده ، وكان يجيد

اللغات الشرقية لا سيما العربية ، بالإضافة إلى أنه كان شاعراً وله ديوان رائع في الغزل ،

^(١) كرامرز : مادة السلطان سليمان الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 12 ، ص 146 .

^(٢) كرامرز : مادة السلطان سليمان الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 12 ، ص 147 ، 148 .

^(٣) كرامرز : مادة السلطان سليمان الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 12 ، ص 149 .

^(٤) كرامرز : مادة الترك ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 5 ، ص 147 ، 173 .

^(٥) كرامرز : مادة السلطان سليمان الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 12 ، ص 147 ، 153 .

بالإضافة إلى إتقانه لفن الخط حيث برع فيه واختص برسم الخط على الأحجار الكريمة ، أحب القراءة والمطالعة وكانت وسيلة الترويج لديه ، اتسمت أخلاقه بالورع والتقوى ، يستدل على روعه من نسخ القرآن الثمانية التي نسخها بنفسه ، وهي محفوظة في مسجد السليمانية ، ويتبين تمسكه بتعاليم السنة الشريفة في القصائد الكبيرة التي نظمها في ديوانه . أحب الصيد وتحمّس له ، كان يمثل الشخصية القوية للحاكم المسلم التي لا تقبل المقارنة والقياس إلا مع شخصيات قليلة. ⁽¹⁾

ونأتي إلى تفصيل النقاط السابقة:

أولاً : محاولة كرامرز التقليل من شأنه عندما كان والياً على مغنيسيا . فقال :

" ولني سليمان في عهد جده بايزيد سنجق كفة ، كما كان يعين في عهد سليم الأول في مغنيسيا والياً عليها ، بيد أنه لم يكن له أي شأن مهم في حكمها ". ⁽²⁾

حاول كرامرز هنا التقليل من شأن سليمان القانوني عندما كان أميراً على الولايات ، وهذا دأبه دائمًا إما أن يدخل القارئ في متأهلات الاختلاف حول سنة الولادة ، أو التقليل من شأن السلطان بأي صورة .

لقد سبق واتضح كيف أن جده اهتم بتربيته وتلقيه العلوم على يد خير العلماء والقادة ، وهذا ساعد على صقل شخصيته ، كما أنه تولى عدة مناصب إدارية ساعدت على ممارسته لشؤون الحكم في سن صغير مما أكسبه الكثير من الخبرة ، وقد أعتمد عليه والده السلطان سليم الأول كثيراً عندما أصبح السلطان ، فقد كان ينوب عنه مثلاً في العاصمة إذا خرج سليم الأول على رأس حمله . وهكذا كيف يتمنى لكرامرز أن يهون من أمره عندما كان أميراً ، وقد أراد بهذا التهوي أن لا يعطيه حقه وقيمةه .

منذ بلوغ السلطان سليمان القانوني سن الخامسة عشر بدأ في توسيع المناصب ، حيث عين والياً على قرا حصار ⁽³⁾ ، ثم والياً على بولي ⁽⁴⁾ ، وأخيراً على كفة سنة 915هـ /

⁽¹⁾ Nisancizade Mehmed Ramazan , Mir'at – I Kainat , II , Istanbul 1290 , S . 122-123 ; Munecibimasi , Tarih , II , Terceme : Ismail Erunsal , S. 511 .

ربيع عبد الرؤوف الزواوي : مرجع سابق ، ص 64 .

⁽²⁾ كرامرز : مادة السلطان سليمان الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 12 ، ص 146 .

⁽³⁾ قرا حصار : Kara – Hissari . مدينة في الأناضول مركز لواء قره حصار شرقي ، في ولاية طرابزون . س . موستراس: مرجع سابق ، ص 393 .

⁽⁴⁾ بولي : Bolou . تقع في الأناضول ، مركز اللواء الذي يحمل الاسم نفسه ، في ولاية قسطموني . س . موستراس: مرجع سابق ، ص 180 .

1509م ، وهذه المناصب قد أكسبته الخبرة لدرجة أن والده سليم الأول اعتمد عليه عندما اعتلى العرش ، فقد أرسل له لينوب عنه في غيابه عن إسطنبول ، وعين بعدها والياً على أماسيا⁽¹⁾ ، وحينما قام السلطان سليم الأول بحملته على بلاد فارس وببلاد الشام ومصر عامي 920هـ - 1514م - 923هـ / 1517م أقام الأمير سليمان في أدرنه لحماية منطقة الرومليي ، ثم أرسله مرة أخرى على أماسيا عقب عودة والده إلى إسطنبول . وأخيراً عين والياً على مغنيسيبا⁽²⁾ ، حيث ارتقى عرش الدولة العثمانية وهو والي عليها.⁽³⁾ ولا شك أن تولي إدارة العديد من المدن ساعده على أن ينجح تماماً في إدارة مغنيسيبا ويكون له شأن مهم في حكمها وليس مثلاً أشار كرامرز دون دليل أو استناداً لواقعة تاريخية.

ثانياً : إهمال كرامرز تماماً للتمردات التي واجهته . فقال :

لقد ابتدى سليمان في بداية حكمه بأربع تمردات عطلت حركة الجهاد الإسلامي ، إذ اعتقاد بعض الولاة الطموحين أن موت سليم الأول القوي ، وجلوس ابنه الحديث السن ، سيتيح لهم فرصة الاستقلال عن الدولة العثمانية ، فنجد أنه ما أن وصل خبر توليه العرش إلى بلاد الشام حتى أعلن جان بردي الغزالى الوالى هناك التمرد والعصيان على الدولة العثمانية . فقد أرسل جان بردي الغزالى رسالة⁽⁴⁾ إلى والي مصر خاير بك وأوضح له فيها أن الوقت حان لإعادة المماليك لحكم المنطقة من جديد ، إلا أن خاير بك أرسل هذه الرسالة إلى السلطان العثماني ، في الوقت الذي بدأ فيه الغزالى خطوات إعلان استقلال الشام حيث لقب نفسه بالملك الأشرف ، وقام بسك العملة باسمه ، بالإضافة إلى مراسلة الشاه إسماعيل الصفوى أكبر عدو للدولة العثمانية ، وسعى للتحالف مع الدولة الصفوية ، وفي إطار ذلك قام بإرسال رسالة⁽⁵⁾ ثانية للشاه إسماعيل الصفوى ، طلب منه التعاون السرى فيما بينهما ، ومجيء الشاه شخصياً للشام أو تقديم مساعدة عسكرية ضخمة له ، وقد حدث هذا الأمر في

⁽¹⁾ أماسيا : Amassia ، مدينة في الأنضول على نهر يشيل إرماق ، مركز لواء يحمل الاسم نفسه ، في ولاية سيواس . س. موستراس : مرجع سابق ، ص 104 .

⁽²⁾ مغنيسيبا Mantissa ، تقع في الأنضول مركز لواء صاروخان في ولاية أيدىن ، عند سفوح جبل مغنيسيبا . س . موستراس : مرجع سابق ، ص 466 .

⁽³⁾ Nis ancizade Mehmed Ramazan . Mir at – I Kainat , II , Istanbul 1290 , S . 123 .

⁽⁴⁾ الوثيقة محفوظة في أرشيف طوب قابي سراي .

⁽⁵⁾ الوثيقة محفوظة في طوب قابي سراي تحت رقم 5469 . قسم الأرشيف .

عهد سليم الأول، ولم يكن السلطان سليم الأول يدرك خطورة الأمر إذ إنه تم من خلف ظهره، فانتهز جان برمي الغزالى وفاة سليم الأول وتولى سليمان القانونى ، فعاوده الحلم القديم ، وثار على الدولة العثمانية ، حتى إنه طلب مساعدة عسكرية وأسلحة من فرسان القديس يوحنا برودوس ، لكن الفتنة لم يكتب لها الاستمرار حيث خرج جان برمي إلى حلب وحاصرها ، وهناك أرسلت قوة عثمانية قمعت الحركة وأعدم جان برمي عام 928هـ / 1521م وأرسلت رأسه إلى إسطنبول .⁽¹⁾ وبذلك لم يصل الشاه إسماعيل الصفوي إلى هدفه ومبتغاه في التحالف مع الغزالى ضد الدولة العثمانية .

والتمرد الثاني قام به والي مصر أحمد باشا عام 930هـ / 1524م الذي كان يطمح في أن يصبح صدرًا أعظم فلم يفلح ، فطلب من السلطان سليمان القانوني ولاية مصر فوافق السلطان ، وما أن دخل مصر حتى حاول استمالة الناس ، وأعلن نفسه سلطاناً مستقلاً منفصلاً بذلك عن السلطان سليمان القانوني . لكن أهل الشرع في مصر وجند الانكشارية لا يعرفون إلا سلطاناً واحداً وخليفة لكل المسلمين ، وهو السلطان سليمان القانوني ، لذلك ثاروا عليه وقمعوا الحركة وقتل الوالي أحمد باشا الذي عُرف بخيانته .

والتمرد الثالث كان تمرداً شيعياً علويَاً من الرافضة ، ترأسه بابا ذو النون 933هـ / 1526م ، حيث جمع حوله ما بين ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف ثائر ، وفرض الخراج على منطقة يوز غاد⁽²⁾، وقويت الحركة في ظل هزيمة بعض القادة العثمانيين الذين حاولوا قمع هذه الحركة ، حتى استطاع القانوني إخماد الحركة وأرسلت رأسه إلى إسطنبول .
والتمرد الرابع والأخير تمرد شيعي علوي أيضاً قام به قلندر جلبي في منطقتي قونيه ومرعش ،⁽³⁾ وخطورة هذه الحركة تكمن في أتباعه الذين سلطوا على المسلمين السنة في تلك المناطق ، حيث قاموا بقتل وتعذيب أهل السنة ، وكان شعار قلندر جلبي أن من يقتل

⁽¹⁾ محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 89 . محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص 199 . إبراهيم حليم : مصدر سابق ، ص 87 .

Ali , Kunhu'l – Ahbar , I . U. Kutup . Nr . TY , 5959 , Varak 217 a – 219 b ; Muneccimbasi , Tarih , III, Terceme : Ismail Erunsal , S . 511 .

يلمازا وزتنا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج 1 ، ص 261 .

⁽²⁾ يوز غاد : Yozghad تقع في الأناضول في ولاية لواء بوزاووق . س . موستراس : مرجع سابق ، ص 502 .

⁽³⁾ مرعش : Merasch ، مدينة تقع في الأناضول ، مركز اللواء الذي يحمل الاسم نفسه ، في ولاية أضنه . س . موستراس : مرجع سابق ، ص 461 .

مسلمًا سنّيًّا ويعتدي على امرأة سنّية يكون قد حاز على أكبر ثواب ، وفي النهاية استطاع الصدر الأعظم إبراهيم باشا قمع هذا العصيان وقتل فلندر جلي .⁽¹⁾

ولم يشر كرامرز إلى هذه الأحداث ليس لعدم أهميتها في تاريخ السلطان سليمان القانوني ، وإنما للتقليل من أهميتها قدر الإمكان .

ثالثًا : المرور على أعظم فتوحات سليمان القانوني مرورًا سريًّا ، ووصف الفتح العثماني بالتخريب والتدمير . فقال :

" كان أولها حرب بلغراد ، وهي الحرب التي أشعلها سوء معاملة ملك المجر لرسل الترك الذين جاءوا يسألونه أداء الجزية ، فقد أستولى الصدر الأعظم بيري باشا على بلغراد 1521م ، وصاحب قيام الجنود الترك بتدمير سرميه ".⁽²⁾

على الرغم من أهمية فتح بلغراد وانتشار الإسلام بها ، إلا أنه لم يعط الفتح حقه ، ولم يذكر الأحداث المصاحبة له .

كان المجريون يتولون حمايتها ، وقد توترت العلاقة بين العثمانيين والجريين في ذلك الوقت توًرًّا شديداً ، إذ إن ملك المجر لويس الثاني امتنع عن دفع الجزية السنوية للدولة العثمانية بعد وفاة السلطان سليم الأول ، فأرسل له السلطان سليمان القانوني رسولًا وهو بهرام جاوويش يعلمته بتولي سليمان الحكم ويطلب دفع الجزية ، فما كان من ملك المجر إلا أن قتل الرسول ، مما أغضب السلطان سليمان القانوني وجعله يعلن الحرب على بلاد المجر ، وبدأ في تجهيز جيش قوي وسار على رأسه صوب المجر عام 928هـ / 1521م وحاصرت القوات العثمانية بلغراد برًا ومن ناحية النهر ، وُسلمت المدينة بعد شهر واحدٍ من الحصار ، واتخذها العثمانيون قاعدة حربية تتطرق منها الفتوحات لقلب أوروبا ، وأثناء حرب بلغراد فتح العثمانيون العديد من القلاع المهمة في منطقة بلغراد مثل زمين ، ثم حول كنيسة بلغراد إلى مسجد حيث أدى فيه صلاة الجمعة ،⁽³⁾ وهو بذلك اقتدى بأعمال جده الفاتح .

وعين على حماية المدينة كل من يحيى باشا زاده وبالى بك ، وقد شارك في فتح بلغراد عدد كبير من العلماء والأولياء ، إضافة إلى طلبة العلم الذين يدرسون في مدارس

⁽¹⁾ علي محمد الصلايبي : مرجع سابق ، ص 327 . محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 91 .

⁽²⁾ كرامرز : مادة سليمان الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 12 ، ص 147 .

⁽³⁾ محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص 202 . يلمازا وزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج 1 ، ص 262 . يوسف النقفي : مرجع سابق ، ص 45 . محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 62 . إسماعيل سرهنوك حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج 1 ، ص 533 .

أدرنه وفليبيه وصوفيا ،⁽¹⁾ وقد أصبحت بلغراد منذ ذلك الحين الباب الكبير الذي انفتحت على أوروبا ، ولهذا عرفت بلغراد بدار الجهاد ، وبعد أن عاد القانوني إلى إسطنبول استقبل سفراء كل من راغوزا وروسيا والبندقية ، كما عقد معاهدات جديدة مع بعض الدول الأوروبيّة .

إن فتح بلغراد أدى إلى تأهب الدول الغربية المسيحية ضد الدولة العثمانيّة ، وقرر القانوني أن يجهز حملته الثانية على رودوس ، وأراد أن يجعل جمهورية البندقية خارج نطاق الحرب ، فعقد معاهادة مع السفير البندقي ماركو مثيو الذي جاء لتهنئته بمناسبة فتح بلغراد .

وعلى الرغم من أن هذه المعاهادة التي تكونت من 30 مادة اتصف بالطابع التجاري ، إلا أنها أمنت وقوف جمهورية البندقية موقف الحياد خلال حملة السلطان على رودوس .⁽²⁾

أما بالنسبة لتخريب سرميه فلم تذكر المصادر والمراجع التاريخية الموثوقة أمرًا عن هذه المدينة أو حتى موقعها ، فكرامرز ذكر حدثًا خاطئًا في معناه لمجرد أن يسمى فكرة فتح بلغراد بصفة عامة ، حيث لم تذكر المدينة مطلقاً إلا في مادته .

"وتم في العام التالي فتح جزيرة رودوس وانتزاعها من يد فرسان القديس يوحنا الذين ظلوا مدة طويلة خطرًا يهدد السيادة العثمانية ؛ لأنهم كانوا يساعدون القرصنة المسيحيين" .⁽³⁾

إن الخطر الذي شكله فرسان القديس يوحنا في رودوس لم يكن ليتأخّص في كلمتين لقد تشكّلت عدوّاتهم منذ استقرارهم فيها ، وقد قاموا بعدة أعمال عدائية ضد سائر المسلمين عامة ، ضد الدولة العثمانيّة خاصة .

في البداية مع إظهار عدائهم الشديد لل المسلمين إنها لـت عليهم التبرعات والأموال التي استغلوا معظمها لتحقّصين جزيرتهم التي صمدت أمام محاولات محمد الفاتح ، بالإضافة إلى اكتسابهم الكثير من الأموال الناتجة عن أعمال القرصنة التي مارسوها على الدوام ضد السفن

⁽¹⁾ إسماعيل سرهنوك : حقائق الأنباء عن دول البحر ، ج 1 ، ص 533 .

Fridun Bey , Munseat , I , S .507 – 509 ; Lutfi Pasa , Tevarih – I Al – I Osman , S. 303 ; Bostan , Gazavat – 1 Sultan Suleyman Han , Suleymaniye Kutup . Ayasofya , Nr . 3317 ; Varak 32 a – 34 b.

⁽²⁾ Resat Ekrem , Osmanli Muahedeleri , Istanbul 1934 , S . 39 .

⁽³⁾ كرامرز : مادة سليمان الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 12 ، ص 147 .

الإسلامية في البحر المتوسط ، لدرجة أن أصبحوا مصدرًا للفزع والرعب لكافة السفن الإسلامية الحاملة للتجارة والحجاج⁽¹⁾ ، بالإضافة إلى مساعدة فرسان رودوس للخارجين عن الدولة العثمانية مثل مساندتهم للأمير جم والترحيب به وتقديم المساعدة له واستغلاله وسيلة للضغط على السلطان بايزيد الثاني ، وقيامهم بإمداد جان برمي الغزالى بالأسلحة والعتاد خلال عصيانه ضد الدولة العثمانية ، ⁽²⁾ وعلى الرغم من صغر مساحة هذه الجزيرة إلا أنها هددت الدولة العثمانية بشدة .

ومما زاد ترصد سليمان القانوني بهم اتخاذ فرسان القديس يوحنا لرودوس وكراً للقراصنة إذ زادت هجماتهم على التجار المسلمين وسلب أموالهم ، وإلحاق الأضرار بالأهالي ، وساعدتهم على ذلك قرب الجزيرة من سواحل الأنضول ، وكان الأسير المسلم الذي يقع في أيديهم لا يتركونه ، فكانوا إما يبيعونه للبلدان الأخرى، أو إذا كان غنياً يطلبون مبلغًا لافتاءه ، وإذا كان الأسير فقيراً فمصيره السجن الدائم . والعذاب المستمر ، حيث يتلقى الأسرى وخاصة الأتراك أسوء معاملة ، وبالإضافة للتعذيب يكلفون بأشق الأعمال في النهار وفي الليل يلقون في السجن ، حيث لا يستطيعون الاستلقاء والاتكاء لأن جميع أجزاء جسمهم مقيدة بالحديد والسلسل ، وإذا طالبت بهم الدولة العثمانية رفضوا تسليمهم . ⁽³⁾

أما الهدف الجغرافي والاستراتيجي ، فقد تحم了 فتح رودوس من أجل تأمين سلامة طريق الحج ، والعمل على زيادة استقرار السيادة العثمانية في البحر المتوسط ؛ ⁽⁴⁾ لأنها تشكل خطراً فادحاً على الدولة العثمانية في منطقة البحر الأبيض المتوسط جعل الحملة العسكرية ضرورة حتمية .

وكان يحكم الجزيرة في ذلك فرسان سنجان ، وأرسل سليمان القانوني الأسطول العثماني المكون من 400 سفينة حربية صوب الجزيرة عام 1522هـ / 929م بقيادة

⁽¹⁾ كمال الدسوقي : العثمانيون وقراصنة رودوس ، مجلة البحث العلمي والتراث الإسلامي ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، جامعة الملك عبد العزيز ، العدد الثاني ، 1399هـ ن 169 ، ص 167 .

⁽²⁾ محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص 170 . كمال الدسوقي : العثمانيون وقراصنة رودوس ، ص 179 ، 180 . لمزيد من المعلومات عن استغلال قراصنة رودوس للأمير جم الرجوع : محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص 47 . كمال الدسوقي : العثمانيون وقراصنة رودوس ، ص ص 180-183 .

⁽³⁾ كمال الدسوقي : العثمانيون وقراصنة رودوس ، ص ص 179-181 .

⁽⁴⁾ محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص 170 . كمال الدسوقي : مرجع سابق ، ص 183 . Pecevi , Tarih , I , S 77 . Solakzade .. Tarin , S . 440 , fridun Bey , Munseat , I , S . 529 .

مصطفى باشا ومصلح الدين رئيس قورت أوغلي⁽⁵⁾ ، ثم انضمت إليهم 24 سفينة مصرية بقيادة بالي بك⁽¹⁾ ، ولحق بهم القانوني على رأس جيشه ، وقد وصل الأسطول العثماني على سواحل جزيرة رودوس بعد عشرين يوماً ونزل العساكر إلى البر ،⁽²⁾ كما نقلت القوات البرية التي وصلت إلى ميناء مرمريس⁽³⁾ ، وقد طلب السلطان تسليم الجزيرة مقابل ضمان أموال أهاليها وأرواحهم ، وإذا لم تتم الموافقة فسوف يضطر إلى دخول الجزيرة عنوة ، فرفضوا الطلب واستمر الحصار ، ثم استطاع الجيش العثماني اقتحام الجزيرة وبدأت اشتباكات عنيفة بين الطرفين ، حيث اضطر الفرسان إلى الاستسلام وطلب الأمان من السلطان⁽⁴⁾ ، وعلى الرغم من مقاومة الفرسان حتى اللحظة الأخيرة واضطرارهم إلى الإسلام أمام قوة الجيش العثماني ، فقد عفا عنهم السلطان القانوني ولم يعاملهم معاملة الأسرى ؛ لأنه أعجب ببسالتهم وشجاعتهم في الدفاع عن جزيرتهم⁽⁵⁾ ، وتم تسليم الجزيرة في نهاية عام 929هـ / 1522م، فخضعت جزيرة رودوس للحكم العثماني منذ ذلك التاريخ⁽⁶⁾ ، وقام العثمانيون عقب الفتح بإنقاذ حوالي 3000 من الأسرى المسلمين الذين احتجزهم القراصنة في الجزيرة ، كما قاموا أيضاً بإعمار الجزيرة . وبهذا الفتح سقطت دولة سانت جين⁽⁷⁾ الصليبية التي تعد الممثلة الأخيرة للبابوية في الشرق ، كما أنهت القرصنة في غرب الأنضوصون وانتشر الأمن والسلام في الطريق البحري الذي يربط بين إسطنبول وسوريا ومصر ، وكذلك في طريق الحج ، وقد أمر القانوني بتحويل كنيسة سانت جين إلى مسجد ، وصلى فيه صلاة الجمعة بإمامية الشيخ زنبللي علي أفندي الذي يعد الفاتح المعنوي لجزيرة

⁽⁵⁾ Pecevi , Tarih , I , S . 71 ; Solakzade , Tarih , S . 440 ; Fridun Bey , Munseat , I , S . 529 .

⁽¹⁾ Fridun Bey , Munseat , I , S . 531 .

⁽²⁾ Mehmed Sukru , Esfar – I Bahriye , I , Istanbul 1306 , S . 346 .

⁽³⁾ مرمريس : Marmariss . بلدة في الأنضوصون ، في ولاية أيدين ، لواء منتشرة ، تقع في عمق شرم صغير في الأرخبيل ، وتعد مرسى جيداً . س . موستراس : مرجع سابق ، ص 463 .

⁽⁴⁾ Fridun Bey , Munseat , I , S . 534 – 539 .

⁽⁵⁾ أورخان محمد علي روائع من التاريخ العثماني ، ص 73 .

⁽⁶⁾ Ali , Kunhu'l – Ahbar , I . U . Kutup . Nr . TY , 5959 , Varak 220 a ; Pecevi , Tarih , I , S . 71-73.

⁽⁷⁾ القوة العسكرية التي كانت تسيطر على رودوس أطلق عليها سانت جين Saint- Jean وهي قوة تأسست أثناء الحملات الصليبية في عكا ، لمحاربة المسلمين ، وهي تقوم بدورها بواسطة أسطولها القوي ، حيث تضرب في سفن المسلمين المارة بالبحر الأبيض المتوسط . يلمازا وزتونا : الدولة العثمانية ، ج 1 ، ص 262 .

، وقد ألحقت جزيرة رودوس إلى سنجق ميديلالي تحت إمرة الوالي العثماني ديزدار محمد جلبي .⁽⁸⁾

ولا شك أنضم سليمان القانوني لجزيرة رودوس جعل السيادة للدولة العثمانية في البحر الأبيض المتوسط ولو لفترة من الزمن ، وقد أثبت السلطان القانوني بتحويله لكنيسة سانت جين إلى مسجد أنه مثل جده الفاتح ؛ حيث أراد إثبات أن هدفه الأول من فتح رودوس هو نشر الإسلام ، وقد أصبحت نقطة ارتكاز مهمة زادت من تأثيرهم ورفعت من قدراتهم في أوروبا لقرنين أو أكثر من الزمان .

ويقول : " لقي عند موهা�كش الجيش المجري الذي كانت منازعات قواه قد أضيقته ، وقامت هناك موقعة حربية في 28 أغسطس 1526م قتل فيها لويس ملك المجر وتحطم مقاومة المجر ، فغدت البلاد مفتوحة أمام الغزو وبادر السلطان وواصل سيره دون توقف فاحتل المجر في سبتمبر 1526م القصبة بودا التي أصبحت طعاماً للنيران على الرغم من صدور الأوامر بتحاشي ذلك ، على أن هذا الاحتلال إنما كان احتلالاً موقوتاً ، وعبر الجيش التركي الدائوب ... مخرباً البلاد التي مر بها وقادياً على مقاومة القوات المتعددة التي صادفته ".⁽¹⁾

لم يهدأ بالملك المجر بعد فتح العثمانيين بلغراد عام 1521هـ / 921م فبعد هذا التاريخ بخمس سنوات أخذ الملك لايوش يأجج نار الحقد الصليبي بجمع القوى الأوروبية لقهر العثمانيين ، حيث راسل كلاً من شرلكان الإمبراطور الألماني فرديناند الأرشيدوق النمساوي يطلب منها التحالف معه ، وفي تلك الأثناء بدأ السلطان سليمان القانوني يعد العدة للحرب ضد المجر .⁽²⁾

قاد سليمان القانوني في ربيع الأول 1526م / 933هـ حملة عسكرية ضخمة تكونت من أكثر من 60 ألف جندي حتى وصل إلى سهول المجر ، وفي صحراء موهاج بال مجر التقى جيش القانوني بالجيش المجري بقيادة ملك المجر لايوش وهو أيضاً يلقب بلويس الثاني ، ودارت بينهما معركة من أضخم المعارك الإسلامية المسيحية ، استمرت

⁽⁸⁾ Fridun Bey , munseat , I , S . 534 – 538 .

لمزيد من أخبار فتح رودوس . يلمازا وزتونا : الدولة العثمانية ، ج 1 ، ص ص 262 – 265 . كمال الدسوقي : العثمانيون وقراصنة رودس ، ص 185 ، 192 .

⁽¹⁾ كرامز : مادة سليمان القانوني : دائرة المعارف الإسلامية ، ج 12 ، ص 148 .

⁽²⁾ محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 92 .

ساعتين من الزمن ، حقق فيها العثمانيون انتصاراً ساحقاً بفضل الله ﷺ حيث إن الهدف الأساسي هو نشر وتحويل هذه الأراضي إلى الإسلام ، ثم بفضل الخطة الموفقة من العثمانيين ، فقد أدى المدفعية العثمانية المتقدمة دورها في هذا النصر السريع الذي حققه الجيش العثماني بعد قطعه هذه المسافات الطويلة ، وقد لحقت بالجيش المجري خسائر فادحة على الرغم أنه كان من أرقى جيوش أوروبا ؛ فقد اشتهر بفرسانه المدرعين الذين مات كثير منهم في ساحة المعركة ، وفرت أعداد ضخمة منهم إلى المستنقعات في المناطق المحيطة ، ومن ضمنهم ملك المجر الذي لم يلق حتفه بحد السيف العثماني ، لكنه لاقاه عند هربه إلى المستنقعات حيث مات غرقاً فيها . وواصل الجيش العثماني سيره نحو العاصمة المجرية بشت (٣) التي استسلمت دون مقاومة تذكر ، حيث كانوا يريدون الحكم العثماني لما عُرف عنه من رحمة وتسامح .

ومنها أعلن السلطان سليمان القانوني خضوع مملكة المجر للحماية والإدارة العثمانية، ثم أصدر فرماناً بتعيين جون زابوليا (١) ملكاً عليها وهو أمير منطقة فيها ، وبعد نهاية الحملة عاد سليمان القانوني إلى إسطنبول وأرسل إلى الملوك والحكام يخبرهم بهذا الانتصار العظيم.(٢)

لم يشر كرامرز مطلقاً لحادثة هروب وغرق ملك المجر وذلك لأنها مخجلة تماماً ؛ حيث فر من أرض المعركة تاركاً جيشه يواجه الهزيمة بمفرده ، وقد تعثر أثناء هروبه بإحدى المستنقعات ومات غرقاً ، تغاضى كرامرز عن هذه الحادثة لأنها توصم الملك بالجبن وإنما وأشار أنه قُتل في هذه المعركة ليظهره بمظهر البطل المزيف .

وكملاحظة للدراسة فعلى من التاريخ السلاطين العثمانيين الأوائل الفاتحين الذين خاضوا المعارك على رؤوس جيوشهم لم يهربوا مطلقاً من أرض المعركة حتى ولو تأكدوا من الهزيمة ، وخير مثال على ذلك السلطان بايزيد يلدريم في موقعة أنقرة .

(٣) تحول بعد ذلك اسمها وأطلق عليها بودابست .

(١) جون زابوليا يُعرف في المصادر الشرقية باسم الملك يانوش .

(٢) إسماعيل سرہنک : حقائق الأخبار في دول البحار ، ج ١ ، ص ٥٣٥ ، ٥٣٦ . محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص ٩٢ ، ٩٣ . يلمازا وزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٢٦٦ ، ٢٧١ . محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ٢١٤ ، ٢١٥ .

Solakzade , Tarih , S . 453 – 457 ; Ahmed Refik , Sahaif – I Muzafferiyat – I Osmaniye , Istanbul 1325 , S. 339 – 403 ; Ali , Kunhul – ahbar , I U. Kutup . Nr . Ty , 5959 , Varak 227 a – 229 b .

وبدلاً من أن يذكر كرامرز هذه الحقيقة بدأ في صياغة أحداث ليس لها أساس من الصحة ولم تذكر مطلقاً في المصادر ، ومن ذلك حرق بشت أو المناطق التي حولها ، وكأنه يغطي على الحقيقة السابقة بكذبة واضحة تلقيتها .

إن أهم نتيجة لمعركة موهاج هي تمزيق أراضي المجر تدريجياً ثم ضمها نهائياً إلى الأراضي العثمانية .

ويقول : " في هذا الوقت قام التناقض بين فرديناند وجون زابوليا حول التاج المجري ، وأرسل كلاهما رسولاً إلى الآستانة ، واستطاع رسول زابوليا أن يكسب عطف السلطان ، وخرج السلطان في مايو عام 1529م بصحبة الرسول وبلغ موهاكس حيث اعترف سليمان بزابوليا ملكاً على المجر وأقبل زابوليا لتقديم فروض الولاء لمولاه " .⁽¹⁾

وهذا استهزاء آخر من كرامرز بالسلطان سليمان القانوني ، حيث صوره بأنه ضعيف الشخصية ، فالرسل تحكم به وكأن زابوليا هذا ليس من الموالين أصلاً للقانوني وهو الذي عينه والياً عليها - كما تقدم - .

بعد ثلاث سنوات من الحملة العثمانية التي فرضت الحماية العثمانية على مملكة المجر ، وصلت رسالة إلى السلطان سليمان القانوني من زابوليا " يانوش " تفيد بأن أرشيدوق النمسا فرديناند يقوم بإستعدادات عسكرية لأخذ المجر ، ونال تأييد كثير من أمرائها ليصبح ملكاً عليها بدلاً منه ، وبالفعل تحرك فرديناند إلى مدينة بودين وأعلن نفسه ملكاً عليها وفشل زابوليا في الدفاع عنها .

فتحركت الجيوش العثمانية عام 936هـ / 1529م ووصلت إلى بودين في المجر ، واستطاع سليمان القانوني استعادتها مرة أخرى ، وفي احتفال مهيب توج جون زابوليا ملكاً على المجر .⁽²⁾

⁽¹⁾ كرامرز : مادة سليمان الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 12 ، ص 148 .

⁽²⁾ يلمازا وزتونا : الدولة العثمانية ، ج 1 ، ص 272 ، 273 . إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج 1 ، ص 536 . محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 910 .

1- Gy . Kaldy – Nagy : Suleimans Angriff auf Europa , Acta Orientalia , xxvlll/2 , 1974 , P . 163 – 212; Gy . Szekely : la Hongrie et la Domination Othomane (xve – xvle Siecles) , Studia Turco – Hungarica , Budapest , 1975 , P . 38 vd .

وفي استعادة السلطان سليمان القانوني لمدينة بودين بمنتهى السرعة دلالة واضحة على رغبة أهالي المجر في الحماية العثمانية الإسلامية ، حيث لمسوا مدى التسامح الديني والأمن والاستقرار في ظل حاكم موالي لهم .

ورغم حماس كل من فرديناند وشريكان لحرب سليمان حيث توقيع القانوني أن يتحركا ضد للحصول مرة أخرى على بودين والانتقام منه ، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، فقد استولى الرعب على قلوبهم والخوف من مواجهته مرة أخرى ، وتكرر مأساة موهاج .

ويقول : " بدأ الجيش التركي حصار المشهور لمدينة فينا ، لكنه اضطر لرفع الحصار والارتداد عنها مخرباً في عودته أرباض المدينة ، وظل القتال دائراً في السنطين التاليتين مع النمسا ولم تفلح البعثات المختلفة التي أرسلها فرديناند في عمل أي شيء "⁽¹⁾ .

لكن القانوني أصر على محاربة فرديناند فحاول تتبعه ، وحاصر لذلك مدينة فينا عاصمة النمسا في العام نفسه حيث اشتراك في الحصار مائة وعشرون ألف جندي وثلاثمائة مدفعة ، لكن ملك النمسا قبل الحصار فر هارباً من عاصمتها ، وحدثت مناورات كبيرة أمام أسوار فينا لكن الجيش العثماني لم يتمكن من فتحها ، خاصة وأنه لم يكن هدف الحملة حصار فينا أصلاً ، فلم يستعد الجيش لذلك وترك جميع مدافعه الثقيلة في بودين ؛ إذ جاء الشتاء وبدأت المؤنة الغذائية تنقص . إضافة إلى قلة الاستعداد لحصار مثل ذلك ، فضلاً عن صعوبة الإمدادات في ظل المناخ القارص البرودة ، والتلوّج المنهرة ، وفي أثناء الحصار قامت قوات عثمانية أسمها " المغيرين " وهي وحدات خاصة في الجيش العثماني ، بالدخول إلى الحدود الألمانية حيث شنوا الغارات وأخذوا الغنائم وأسرموا الكثير ، ثم عادت جميع القوات إلى إسطنبول دون التمكن من فتحها . ⁽²⁾

ولعل هذه الإغارات الصغيرة على الحدود الألمانية هي التي صورت لكرامز أن الجيش العثماني أثناء انسحابه قد دمر وحرق أرباض المدينة ، لكن الجيش المنسحب كان في

⁽¹⁾ كرامز : مادة سليمان الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 12 ، ص 148 .

⁽²⁾ يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج 1 ، ص 272 ، 273 . محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 93 ، 94 .

H.G.Yardaydin : Kanuninin Culusu ve llk Seferi , Ankara , 1961 , S . 15-44 .

S . Turan : Radosun Zaptindan maha Muhasarasina , Kanuni Armagani , Ankara , 1970 , S . 57-72 .

S . Tekindage : Rodasun Febhi , BTTD , ll / 7 , 1968 , S , 58-65 .

حالة منهكة ويعاني من نقص شديد في المؤنة ، لذلك حتى ولو أغارت أو قام بمناوشات فإنما تكون لتأمين المواد الغذائية ، هي غارات ضعيفة جدًا ، خاصة وأنه لم يكن هدف الحملة حصار فيينا ، وإنما العثور على الجيش الألماني وإيادته . أما عن سبب الإغارات على الحدود الألمانية فقد كانت لأن أرشيدوق النمسا فرديناند يريد أن يعترض به القانوني ملكاً على المجر ، بل وحاصر بودين لهذا الغرض ، وقامت الحامية العثمانية هناك بالدفاع مع القوات المجرية عن المدينة لكنها لم تفلح ، لذلك قرر سليمان القانوني إرسال حملة سميت بحملة ألمانيا عام 940هـ / 1533م هدفها دحر القوات الألمانية .⁽³⁾

لقد علق كرامرز على هذه الفترة بأن البعثة التي أرسلها فرديناند لم تفلح، مصوراً السلطان سليمان القانوني بأنه حاكم رافض للسلم ويهدى المعارك والحروب ، بسبب عدم ذكره لهدف هذه البعثة ، وهو طلب الاعتراف بفرديناند ملكاً على المجر ، والتي هي أصلاً تحت الحماية العثمانية بل وحاصرها من قبل الأخير . وبعد وفاة زابوليا (يانوش) عام 947هـ / 1540م قامت النمسا بالتدخل في شؤون المجر ، فلم تستطع أرملاة الملك يانوش الدفاع عن حقوق ولدها الصغير فطلبت النجدة من السلطان القانوني الذي قام بإرسال الوزير محمد باشا وخسرو باشا على رأس القوات البرية ، وخير الدين باشا على رأس القوات البحرية إلى المنطقة ، ثم تبعهم على رأس جيشه واستطاع طرد الجيوش النمساوية والألمانية من المجر ، وقام بنصب ابن زابوليا الصغير ملكاً على المجر ، وتعيين مارتيشوز وصيّا عليه لحين بلوغ رشده .⁽¹⁾

وعلى الرغم من انتهاء الحدث عند هذا الحد إلا أن الأمر لم ينته وبقي فرديناند يتسلّل المساعدات من الدول الأوروبية والبابا في حربه ضد السلطان سليمان القانوني .

رابعاً : ذكر كرامرز أسباباً خطأة جدًا في مسألة ضم السلطان سليمان القانوني لبغداد وتبريز .

فقال : " وكانت الحملة السادسة من حملات سليمان موجهة ضد فارس ، وكان السبب فيها مطالبة الترك ببليس وبغداد ، واحتل الصدر الأعظم إبراهيم مدينة تبريز عام

⁽³⁾ محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 94 ، 95 .

لمزيد عن الصراع بين الطرفين الرجوع إلى :-

M.Guboglu : Kanuni Sultan Suleyman in Bagdan Seferi ve Zaferi (1538 M . / 945 H) . Belleten , L/198 , (1987) , P . 727 – 805 .

⁽¹⁾ إبراهيم حلبي : مصدر سابق ، ص 92 .

1534م ، ودخل السلطان بشخصه في شهر سبتمبر ، وسار الجيش التركي في تبريز إلى بغداد ماراً بهمدان دون أن يبدي الشاه طهماسب أية مقاومة . ⁽²⁾

لم تستطع الدولة الصفوية أن تقوم بأي عمل عدواني ضد الدولة العثمانية لمدة سنة وذلك بعد هزيمتها في معركة جالديران ، لكن الشاه طهماسب الذي خلف أبيه إسماعيل في الحكم بدأ حكمه بمظالم كبيرة تجاه أهل السنة ، كما قام بالتحالف مع الدول الأوروبية ضد الدولة العثمانية ، وفي هذه الأثناء قام والي بغداد ذو الفقار خان بإرسال مفاتيح بغداد إلى السلطان القانوني عام 936هـ / 1529م ، كما بدأ بذكر اسم القانوني في خطبة الجمعة ، إضافة إلى سك النقود باسمه ، ثم طلب العون من القانوني لحماية نفسه وأهل بغداد من الشاه طهماسب ، لكن القانوني لم يلقيت بعين الاهتمام إلى مطالبته لانشغاله بحملته العسكرية على فيينا . وهذه الأثناء قام الشاه طهماسب باحتلال بغداد وقتل الوالي ذا الفقار خان ، إضافة إلى تخريب أضرحة أهل السنة في بغداد بما فيها ضريح الإمام الأعظم أبي حنيفة ، وقد أدت هذه الحركات العدوانية الصفوية إلى أن يقوم السلطان القانوني بإنهاء حملته على النمسا ، ليتسنى له التوجه نحو معاقل الدولة الصفوية في الشرق ، فجهز جيشاً قوياً وسار على رأسه عام 941هـ / 1534م ، ودخل تبريز بدون أية مقاومة في العام نفسه ، وأرسل السلطان جيشاً قوياً بقيادة إبراهيم باشا إلى بغداد ، ثم تبعه السلطان بجيشه ودخلها منتصراً ، وقضى فصل الشتاء فيها ، حيث أمر بترميم مرقدى الإمام الأعظم والشيخ عبد القادر الجيلاني ، كما أمر ببناء دار لإطعام الفقراء بقرب القبر . وهكذا أنقذت بغداد من الطغيان الصوفي ودخلت هي والبصرة تحت الحكم العثماني .⁽¹⁾ ولا شك أن دخول الجيوش العثمانية لبغداد وتبريز دون مقاومة جاء نتيجة لرغبة الأهالي في الحكم العثماني ، وكالعادة كانت سمعة العثمانيين المتسامحة تسبقهم دائمًا .

ثم استغلت الدولة الصفوية انشغال السلطان القانوني بفتحاته العسكرية في أوروبا لمدة أثنتي عشر عاماً ، فاستولى الشاه طهماسب على بعض القلاع الواقعة على حدود الدولتين في الأناضول ، وقام بإرسال عمالئه إلى الأناضول لبث الدعاوى الشيعية فيها ، إضافة إلى القيام بقتل أهل السنة في بعض المناطق ، كما قام الصوفيون بتغيير الآذان وتحريف

⁽²⁾ كرامز : مادة السلطان سليمان الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 12 ، ص 149 .

⁽¹⁾ Tayyib Gokbilgin , Arz ve raporlarina gore Ibrahim Pasa nin Irakavn Seferindeki illk tedbirleri ve futuhati "

الفرائض، إضافة إلى شتم السيدة عائشة عليها السلام والخلفاء أبي بكر وعمر وعثمان عليهم السلام وقد أدت هذه الأعمال الهدامة إلى ردود فعل عنيفة عند المشايخ والعلماء والمفكرين في الدولة العثمانية، فقرر السلطان القانوني تجهيز حملة عسكرية ضخمة ، وتحرك على رأسها في عام 955هـ / 1548م ودخل القانوني تبريز ، لكنه لم يجد فيها الشاه طهماسب الذي هرب كعادته من ساحة المعركة ⁽²⁾ . وبعد أن مكث السلطان خمسة أيام في تبريز عاد إلى الأناضول ، وتوجه صوب حلب حيث قضى فصل الشتاء فيها ، وغادر السلطان حلب في عام 956هـ / 1549م إلى ديار بكر إذ مكث فيها مدة طويلة .

وفي هذه الأثناء قام بإرسال الوزير أحمد باشا إلى جورجيا للقيام بفتح لليقان بفتح بعض المناطق هناك ، وتوجه هو نحو إسطنبول ، وقد استغرقت هذه الحملة سنة وثمانية أشهر .

لكن الهدوء لم يستمر إذ قام الجيش الصفوي بشن غارات على القلاع العثمانية الواقعة على الحدود بين الدولتين في عام 958هـ / 1551م ، فاضطر السلطان القانوني تجهيز حملة أخرى على الدولة الصفوية ، خرج على رأسها عام 961هـ / 1553م حيث وصل حلب وقضى فصل الشتاء فيها ، وعقب وصوله إلى قارص في عام 962هـ / 1554م قام بدعاوة الشاه طهماسب إلى ميدان المعركة ⁽¹⁾ ، لكن الشاه كعادته لم يستجب لطلب السلطان و Herb من ساحة القتال ، وفي هذه الأثناء تم فتح بعض المناطق فعاد القانوني إلى أماسيا في العام نفسه لقضاء فصل الشتاء فيها ، وقد أدت تلك التحركات إلى زيادة مخاوف الشاه طهماسب فطلب الصلح عن طريق سفيراته الذين بعثهم إلى القانوني ، وبعد مشاورات بين الطرفين أبرمت معايدة الصلح في أماسيا في 18 رجب 963هـ / 29 مايو 1555م بين الدولتين العثمانية والصفوية ، وقد اقتسم الطرفان بعض المناطق الواقعة على الحدود ، كما اشترط القانوني عدم قيام الصفوين بشتم السيدة عائشة عليها السلام والخلفاء أبي بكر وعمر عثمان عليهم السلام بعد الآن . وقد وافق الشاه طهماسب على هذه الشروط ، وقدم هدايا ثمينة للقانوني وللوزراء العثمانيين ، فوعدهم القانوني بالسماح لهم بزيارة بغداد وكربلاء فيما إذا

⁽²⁾ Pecevi , Tarih , I , S . 267 – 284 .

⁽¹⁾ Fridun Bey , Munseat , II , S . 19 – 22 ; Pecevi , Tarih , I , S . 311 – 325 .

أوفوا بعهدهم ، ولكن الحاج عندما قدموا إلى بغداد نقضوا عهدهم حيث قاموا بنشر المذهب الشيعي سراً بين الأهالي .⁽²⁾

لقد استفاد العثمانيون كثيراً من تجاربهم في بلاد فارس ، فلم يفكروا مطلقاً في الظروف الصعبة المحيطة بتلك الأرضي ، وإنما كان هدفهم من هذه الحروب الإيفاء بواجب ديني مقدس لرفع الظلم عن مسلمي السنة في هذه البقاع ، وذلك بسبب تأكيد أحقيتهم في الخلافة الإسلامية على مسلمي العالم ، بالإضافة إلى حصر المذهب الشيعي في إيران .

وفي الوقت نفسه تأكّد لديهم يقيناً بأن سلطنتهم على تبريز لن تكون إلا عابرة ؛ نظرًا لأنها كانت تكلفهم ثمناً باهظاً في المؤن والعتاد ، وفي الغالب كان الهدف هو إرجاع الصفوين لحدودهم ، وثنيهم عن عزّهم في نشر مذهبهم الشيعي .

لقد كانت أغلب الفتوحات التي خاضها السلطان سليمان القانوني تقع تحت طائلة الدفاع عن الحدود أو استتجاد من أهالي المنطقة بحكم أنه السلطان العادل الرحيم ، وهي لم تكن خطط غزاه طافت في ذهبـه - كما ذكر كرامرـز قبل ذلك -⁽¹⁾ ولم يكن القانوني هو المبادر بالحرب مطلقاً ، وإنما كانت معاركه دائمـاً للدفاع عن المسلمين ، ويفرضها الواقع .

ولا شك أن عهد القانوني احتوى في طياته كثيراً من المعاني الإسلامية وكثيراً من الأحداث التي تعطيه الحق في أن يصبح من أعظم سلاطين الدولة العثمانية ؛ فيكتـيه فخرـاً ظهور حركة الجهاد الإسلامي البحري وتبلورها في عهـده .

خامساً : إطلاق صفة القرصنة على الجهاد البحري في عهـده . فقال :

⁽²⁾Reast Ekrem , Osmanli Muahedeleri , Istanbul 1934 , S . 45 ; Pecevi , Tarih , I , S . 336 – 340 .

لمعرفة المزيد عن تفاصيل الصراع العثماني الصوفي الرجوع إلى :

1- فاضل بيات : دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني ، ص 30 – 50 .

G.Veinstein : XVI , Yazyilda Karadeniz in Kuzeyindeki Steplerde Buluran Osmanli Kolonizasyon Ciftlikleri , (trc . Y . Cezar) , IFM , Ulgenere Armagan , XI III / 1-4 (1987) , 81 – 82 =

= F. Emecen : Kanani Devri , Dogustan Gunumuze Buyuk Islam ; Torihi , Istanbul , 1989 , x , S , 328 – 329 .

F. Kirzioglu : Osmanlilarin kafkas – ellerini Fethi (1451 – 1590) , Ankara , 1976 , S. 183 – 203 , F.Emecen : Kanuni Devri , S , 333 – 336 .

I . Sahin – F . Emecen : Amasya Antlasmasi , DiA , iii , S . 4-5 . F . Emecen : Kanuni Devri , S , 340 – 342 .

T . Gokbilgin : Ar2 ve Raporlarina Gore Ibrahim Pasanin Trakeya Seferindeki ilk Tedbirleri ve Futuhat , Belleten , xx 83 , 1987 , P . 449 – 482 .

- Grammont : Osmanlilar – Safeviler – P. 215 – 218 .

⁽¹⁾ كرامـز : مادة الترك ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 5 ، ص 160 .

" مغامرات بحرية قام بها ... خير الدين بربروسه .. فوطد بها سلطان الترك السياسي على ساحل إفريقيه الشمالي والمحيط الهندي ، بيد أن هذه الفعال لم تخلُّ قط من خلائق القرصان " .⁽²⁾

لقد تصادف مع النجاح العسكري العثماني في البر ، نجاحات أخرى في البحر ، فعقب عهد الفاتح تضاعفت القوة البحرية العثمانية وقطعت في ذلك شوطاً كبيراً وعظيماً خلال ق 10هـ / 16 م ، لا سيما مع جهود البحارة المهرة الذين تربوا على الإسلام وحب الجهاد والدفاع عن المسلمين .

لقد أطلق كرامرز كلمة قرصنة على الجهاد البحري الإسلامي ، دون توضيح لمعنى الكلمة ، وذلك لمجرد ترك ذهن القارئ يتخيّل أعمال السلب والنهب التي كانوا يقوموا بها ، ولكن في الحقيقة فهي قرصنة بمفهوم مختلف تماماً عن اللصوصية والسلب ، إذ هي كالكمائن البحرية التي يعدها الخصم لسفن أعدائه لمنع الصادرات والواردات ، والاستيلاء على ما يمكن لمجرد الإضرار بالعدو ، وهي بذلك تقترب من مفهوم الحصار الاقتصادي البحري في الوقت الحاضر ، وقد لعبوا دوراً مؤثراً في تحويل البحرية العثمانية إلى قوة مؤثرة ، وكان لأعمال الجهاد الإسلامي قوانين ونظم ، فمثلاً كانت تنتهي بانتهاء الحرب أو العداء القائم ، كما أن الجهاد الإسلامي راعى المعاهدات والقوانين المعمول بها بين الدول .⁽¹⁾

وقد ظهرت هذه الحركة ردة فعل طبيعية لأعمال القرصنة الأوروبية التي تحركت تحت المظلة الدينية ضد الممالك الإسلامية في الأندلس ، ثم انتقلت إلى شمالي إفريقيا ، وقوى عود الجهاد البحري الإسلامي في أعقاب طرد المسلمين من الأندلس ، حيث انضم إلى حركة الجهاد البحري الإسلامي الذين فروا من الأندلس والذين يعرفون في نفس الوقت أمور الملاحة وفنونها والمدربون على صناعة السفن .

⁽²⁾ كرامرز : مادة الترك ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 5 ، ص 173 .

⁽¹⁾ ذكرييا سليمان بيومي : مرجع سابق ، ص 79 - 80 . أميرة مراح : نظرة متأنية في تاريخ الدولة العثمانية ، ص 51 . كانت سفن القرصنة العثمانية ، تبحر لأجل (الجهاد وإعلاء كلمة الحق) للزديد انظر : الأرشيف العثماني برئاسة الوزراء بإسطنبول ، تصنيف BOA ، دفاتر مهمة ، الدفتر رقم 70 ، الحكم السلطاني ، رقم 416 ، والدفتر رقم 72 ، الحكم السلطاني رقم 264 ، 903 .

ولا شك أن الأخرين عروج وخير الدين ببروسا خير مثال على ترجمة فكرة الجهاد الإسلامي البحري ، حيث اتجهوا منذ صغر سنهم إلى الجهاد البحري في البحر المتوسط ، ثم إن حبهم للجهاد ، زاد من ضراوة الصراع بين القوى المسيحية في بلاد الأندلس والشمال الإفريقي وبين المسلمين ، فحققوا انتصارات على الأسبان والبرتغاليين ، ولم تكن هذه الانتصارات إلا تحت مظلة الدولة العثمانية التي احتضنهم وقدمت لهم الدعم المادي والعسكري .⁽²⁾

وهكذا يتضح أنهم أطلقوا عليها القرصنة الإسلامية ولكن شتان بين قرصنة الأوروبيين وقرصنة المسلمين التي ساعدت الهاربين وأغاثت الملهوفين ، بالإضافة إلى أن السلطان القانوني قد واجه البرتغاليين في المحيط الهندي وحاول التصدي لهم .

لقد قام البرتغاليون بإغراق السفن الإسلامية في المحيط الهندي وبقتل التجار المسلمين ، فأمر السلطان القانوني واليه على مصر سليمان باشا بإرسال حملة بحرية إلى الهند⁽¹⁾ ، لتلبية نداءات الذين تضررت مصالحهم التجارية وقعت تحت تهديد حملات البرتغاليين ، وقد تحرك سليمان باشا من ميناء السويس على رأس أسطوله المكون من 76 سفينة حربية و20.000 مقاتل في عام 945هـ / 1538م ، واستطاع أن يضم عدن في العام نفسه ، حيث عين بهرام بك والياً عليها ، ثم ضم زبيد وألحقها إلى ولاية اليمن وعين عليها والي غزة مصطفى بك. وفتح سليمان باشا قلاعًا عديدة في المنطقة ، وزود مسلمي الهند بالأسلحة والعتاد اللازم ليقوموا بحماية أنفسهم من البرتغاليين ، كما قام بمساعدة مسلمي إريتريا والصومال والحبشة في طريق عودته ، وأخيراً وصل الوالي سليمان باشا إلى جدة في عام 946هـ / 1539م حيث أرسل الأسطول إلى ميناء السويس ، وسار هو نحو مكة المكرمة للقيام بأداء فريضة الحج ، ثم عاد إلى إسطنبول ، ورفع تقريراً إلى السلطان القانوني حول حملته التجارية إلى المحيط الهندي التي استمرت عاماً واحداً⁽²⁾ ، وقد أدت هذه الحملة إلى تسهيل التجارة البحرية العثمانية وضمان استمرارها في منطقة المحيط الهندي .⁽³⁾

⁽²⁾ ذكر يا سليمان بيومي : مرجع سابق ، ص 80 – 85 . انظر الخريطة في الملحق .

G. Veinstein : les Preparatifs de la Campagne navale Franco – Turque de 1552 a travers les Orders du divan Othoman , Revue de l' occident musulman et de la mediterranee xxxix . 1985 , PP. 35 – 67 .

⁽¹⁾ Y . Mughnl : Kanuni Devri , S . 109 – 137 ;

C.Orhonlu : xvi , Asrin ilk Yarısında Kızıldeniz Sahillerinde Osmanlılar , TD , XVI , 1962 , S. 1-10 . Belleten , 1957 , Sayı 83 ; Lutfi Pasa , Tevarih – I AL – I Osman , S . 3050 – 360 .

⁽²⁾ Munecimbasi , Tarih , II , Terceme : Ismail Erunsal , S . 571 – 573 .

⁽³⁾ Katip Celebi , Tuhfetul – Kibar , S . 57 – 59 ; Pecevi , Tarih , I , S . 22 .

وأخيراً لابد من ذكر موقف مشرق له ، وهو موقفه من اليهود ، حيث ساندهم منذ فتح رودوس بكافة وسائل الدعم على اعتبار أنهم رعايا عثمانيون .

وقد قدم اليهود الذين كانوا قد استقروا في جزيرة ساقيز⁽⁴⁾ إلى رودوس عام 930هـ / 1523م ، فقام القانوني بمنحهم امتيازاً لتشغيل معدن كبريت إينجيرلي ، ثم فتح القانوني بودابست عام 933هـ / 1526م فنقل اليهود القاطنين في بودين وبودابست واسترجوت الذين كانوا يعانون من ضائقه مالية إلى إسطنبول ، كما أسكن بعضهم في سالونيك وفي مناطق أخرى من الدولة العثمانية .

وعندما قام القانوني بإعادة بناء أسوار القدس الشريف عام 969هـ / 1561م سنتحت الفرصة للإيجار باستيطان بعض أجزاء فلسطين ، كما منح السلطان الطيب اليهودي جوزيف ناسي امتيازاً على مدينة طبرية مقابل دفع مبلغ معين سنوياً ، فتمكن الأخير من استقدام اليهود وتوطينهم في المدينة مستغلاً ثقة القانوني به ، غير أن هذا الأمر لم يدم طويلاً لعدم إقبال اليهود على الإقامة في فلسطين في تلك الفترة وذلك لفقر المنطقة .

وعقب دخول القانوني إلى المجر استقدم أغلب اليهود الساكنين هناك واستوطنه في نيوبيولي وأدرنه ، فأصبحوا رعايا للدولة العثمانية ، ووصف اليهود معاملة السلطان القانوني تجاههم بقولهم : " لقد جاء المسيح المنقذ وجلب لنا السعادة "⁽¹⁾ وأوضحاوا أن الطريق إلى الدولة العثمانية هو طريق الحياة بالنسبة لهم .

وكما قام القانوني بإرسال رسالة إلى البابا باول الرابع عام 974هـ / 1566م حيث طلب منه إطلاق سراح بعض اليهود على أنهم مواطنون عثمانيون ، وقد لبى البابا مطالب السلطان فوراً .

وأخيراً لجأ اليهود الهاربين من الأندلس إلى قائد الأسطول العثماني على عهد القانوني، خير الدين بارباروس ؛ لينقذهم من المذابح التي تعرضوا لها في الأندلس ، فجلبهم القائد إلى الدولة العثمانية واستوطنهم في مختلف مناطقها .⁽²⁾

سادساً : " نسب جميع الأعمال التي قام بها إلى الرجال الأكفاء المحظيين به " فقال :

⁽⁴⁾ ساقيز : Sakiz جزيرة في بحر إيجه ، عرفت قديماً بجزيرة فيوس ، عاصمتها ساقيز على الساحل الشرقي منها . س . موستراس : مرجع سابق ، ص 291 .

⁽¹⁾ Abdurrahman Kucuk , Donmeler ve Donmelik Tarihi , Istanbul 1973 , S . 103 .

⁽²⁾ هدى درويش : العلاقات التركية اليهودية ، ج 1 ، ص 165 ، 167 .

" ومن العسير أن نحدد ما كان لسليمان من شأن في هذا التقدم ، على أننا نلاحظ أن تركيباً في عهده كانت حافلة بعد كبير من الرجال الأكفاء النابهين ... بيد أن كل واحد من هؤلاء كان له فيما يظهر شأن في محیطه الخاص ، ويبدو أنه كان ثمة نقص في الشخصيات العظيمة المتصلة مباشرة بالسلطان ، على أننا نستطيع أن نقول إن معظم الأسباب في تقدم الإمبراطورية العثمانية في عهد سليمان راجع إلى النظام السياسي الداخلي للدولة ، وقد وضع أساس هذا التقدم السلاطين السابقون".⁽³⁾

إن كرامر لا يعرف ماذا يريد أن يوصل للقارئ في هذه الفقرة حيث أنه أفرد صفحات لوصف فتوحات السلطان سليمان القانوني كان هو المبادر فيها طمعاً في توسيع حدود دولته أو اختلاف في وجهات النصر على حسب قوله ، إذ لم يذكر قط الأسباب الحقيقة للفتوحات ، ثم يعود ويناقض نفسه عندما ينسب هذا كله إلى رجال أكفاء حوله ، من هم إذا لم يذكر سوى قادة جيوشه والصدور العظام الذين يرافقونه ، فلو كانوا هم الفائزين بأمر هذه الفتوحات لما كلف السلطان نفسه وخرج على رأس كل حملة ، وإنما ترك هذا الأمر للرجال الدين حوله ، لقد حدث ذلك فعلاً ولكن في السنوات الأخيرة من حياته ، ولم يكن اعتماداً على رجال أكفاء وإنما لحاجته للراحة والاستجمام نظراً لكبر سنّه ، وعلى الرغم من ذلك فقد وافته المنية وهو على رأس إحدى الحملات ، لقد كان عظيماً في تجهيزاته العسكرية ، واستخدام أحدث الأساليب في القتال . وقد ناقض كرامر نفسه حين أورد في المادة نفسها ، أنه كان يدعو دعاءً حاراً ليلة معركة موهاج ، فضلاً عن أنه أظهر من الخشوع الكبير عندما حمل نعش الشهداء عقب فتح بودا .⁽¹⁾

وناقض نفسه أيضاً عندما أكد أن هناك نقصاً في الشخصيات . أيُّ نقص وهو أكد أن التقدم قام على أكتافهم ؟! إن أعمال السلطان سليمان القانوني وفتحاته السابقة الذكر لهي أبلغ دليل على عدم صدق أقوال كرامر الأخيرة .

لقد قام بإعادة تحريك عملية الجهاد الإسلامي حيث تخطى عقبتين من أهم ما واجهه أثناء حكمه وهما :

⁽³⁾ كرامر : مادة سليمان القانوني ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج12 ، ص 153 .

⁽¹⁾ كرامر : مادة سليمان الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج12 ، ص 152 .

الأولى : فتح بلغراد التي كانت بمثابة المدخل أمام الفتوحات العثمانية التي ستتقدم بعد ذلك إلى قلب أوروبا .

الثانية : فتح رودوس التي تمثل سداً طبيعياً يلزم اجتيازه بالنسبة لحركة الفتوحات العثمانية في البحر المتوسط ، لا سيما وأن الأخيرة كانت تحتل موقعاً متميزاً يمكنه قطع الارتباط مع مصر الولاية العثمانية الجديدة . إضافة إلى أن فرسان رودوس كانوا يشكلون خطراً عظيماً على الدولة العثمانية باعتبارهم وحدة الطلائع المسيحية الأقرب إلى سواحل الأناضول ، وكان قيام السلطان سليمان القانوني - وهو لا يزال في أوائل سنين حكمه - برفع راية الجهاد الإسلامي ضد بلغراد ورودوس التي شاء جده محمد الفاتح يوماً فتحها ، إنما هو إشارة إلى بداية عهد عظيم في الفتوحات العثمانية برياً وبحراً ، وكانت بمثابة نقاط ارتكانز مهمة زادت من تأثيرهم ورفعت من قدرتهم الحربية ، وأعطتهم المفتاح لنجاح العثمانيين بعد ذلك في الغرب الأوروبي.

لقد سار سليمان القانوني على مبدأ أسلافه فتوّج هذا النظام بإصدار قانونه الخاص الذي نسب إليه ، حيث كان سجلاً لأحكام الشرع في تنظيم الجيش ، والإقطاع الحربي ، وفيه بنود لإصلاح أحوال الرعية ، وقد استفتي شيخ الإسلام في كل بند من بنوده بحيث جاء عمل تشريعي متكملاً .⁽¹⁾

لقد بذل القانوني جهوداً مضنية لإقرار التطوير في الدولة العثمانية بأسلوب إسلامي ، حيث تحمل مسؤولية حماية العالم السنوي ، وهو واجب عده مقدساً ضد الصوفيين في الشرق ، بالإضافة إلى أنه أخذ على كاهله نشر الإسلام في قلب العالم المسيحي ، والسعى لوضع قوانين على الشريعة الإسلامية ، وتصدر جميع هذه الأمور العدالة والرحمة ، كل هذه الأمور جعلت من القرن 10هـ / 16م عصر السلطان سليمان القانوني .

لقد ترك القانوني بصماته الواضحة على مظاهر التقدم السياسي والثقافي والعماني ، ساعده على هذا التقدم ، الأسس والنظم التي وضعها السلاطين الذين سبقوه ، فأصبحت بحق قائمة على أساس نظام ثابت ومحدد للحكم .

⁽¹⁾ حسين مجتبى المصرى : مرجع سابق ، ص 7 . ربيع عبد الرؤوف الزواوى : مرجع سابق ، ص 655 .

وبلغت الأعمال العمرانية في عهده حداً يكاد يبلغ الكمال من حيث بناء المساجد والمدارس والأسبلة ، وعندما توفي تركها بدرجة لا يمكن قياسها مع تكامل أي دولة أوروبية خلال المدة نفسها .

ولم يكن عهده الذي وصلت فيه الحدود إلى أقصاها من الاتساع فحسب ، وإنما كان عهده العهد الذي تمت فيه إدارة أعظم دولة بأرقى شكل إداري .

مارس سياسة التسامح الديني بمنتهى البساطة ، ويعد أجرأ وأكرم من أنداده المسيحيين؛ إذ سمح للمسيحيين واليهود ممارسة شعائرهم الدينية في البلاد العثمانية بحرية تامة في الوقت الذي اعتبرت فيه الدول الأوروبية ممارسة أي مذهب من المسيحية مخالف لمذهب الدولة وجريمة يستحق عليها العقاب ، ويكتفي أنه أولى اليهود الفارين من بشاعةمحاكم التفتيش في الأندلس ، وعلى الرغم من ذلك كله إلا أنه عانى عيوبًا كثيرة في علاقته الأسرية.⁽²⁾

وقد وافته المنية عندما خرج على رأس حملته العسكرية عام 974هـ/1566م لفتح بلغراد على الرغم من مرضه الشديد ، حيث أقام عسكره في صحراء زملين مقابل بلغراد .

في هذه الحملة قام السلطان بفتح قلعة أرلوق التابعة للنمساويين والواقعة على حدود أردن ، وضمهما إلى أراضي الدولة العثمانية ، وإثر قيام حاكم زيجتوار بقتل بعض رجال الدولة العثمانية وبسلب ونهب أموالهم توجه السلطان صوب زيجتوار في العام نفسه ، وأرسل إليهم سفيرًا تعهد لهم بضمان أرواحهم مقابل دفع الجزية للدولة العثمانية ، وأعلن إعفاءهم عن الجزية في حالة اعتاقهم الدين الإسلامي .⁽¹⁾

ولكنهم رفضوا مطالب السلطان فبدأ الجيش العثماني بحصار زيجتوار ، وقد أشرف السلطان بنفسه على حركات الجيش وعمليات الحصار على الرغم من شدة مرضه ، واستطاع برتو باشا أن يفتح قلعة جيولا ، لكن مرض السلطان اشتد عليه وصار على فراش الموت ، فطلب من صوقللي محمد باشا أن يتولى قيادة الجيش في حالة وفاته ، كما أمر بتوفيق فرمانه الذي أعده يتضمن تعيين ابنه سليم خلفاً له ، ثم انتقل إلى رحمة الله عز وجل بعد منتصف ليلة 20 صفر 974هـ السادس من سبتمبر / 1566م بعد حكم دام 48 سنة .⁽²⁾

⁽¹⁾ ربيع عبد الرؤوف الزواوي : مرجع سابق ، ص 56 – 67 .

⁽²⁾ Omer Faruk Yilmaz , Belgelerle Osmanli , ll , Istanbul 1999 , S . 162 – 163 .

⁽²⁾ Pecevi , Tarih , I , S . 421 – 423 ; Ali , Heft Meclis , Istanbul 1316 , S . 1-40 .

كان رجلاً مهذبًا ، رحيمًا ، كريماً ، إنساناً عادلاً ، أحبه شعبه واحترمه ، لدرجة أنهم كانوا ينتظرون مروره أثناء ذهابه لتأدية صلاة الجمعة حتى يحيوه ويرد هو عليهم التحية بهدوء ، أتسم بعدم التحيز ، وإذ قارناه بنظرائه في الغرب وجدها أكثر تمدنًا وتحضرًا ، حتى وصل إلى أن عدّه فرنسوا الأول ملك فرنسا حاميه وحليفه ، وبوفاته انتهت مرحلة مشرقة ساطعة من مراحل التاريخ العثماني بلغت فيه الدولة العثمانية ذروة قمتها وقوتها .⁽³⁾

لقد جاءت مواد سلاطين العصر الذهبي في الدولة العثمانية في دائرة المعارف الإسلامية مخالفة تماماً لما هو متوقع ، فعلى الرغم من طول بعض المواد إلا أنهم لم يعطوا كل سلطان حقه في الكتابة عن تاريخ حياته فجاءت أغلب معلوماتها مهلهلة ، يغلب عليها الاختلاف بين المؤرخين والذي لا يشكل أهمية في سياق الأحداث ، مع إغفال كثير من الأحداث الصحيحة والثابتة في سير السلاطين ، ولم تأت الموارد على ذكرها مطلقاً .

وقد أغفلوا كثيراً من مزايا السلاطين ، وأغفلوا أيضاً الأحداث التي تدل على عظمة أخلاقهم ولم يعطوه حقهم في ذلك بل قدمو صور باهتة عن أخلاقهم وأفعالهم الإسلامية.

وقد دأب كتاب مواد دائرة المختصة بسلاطين عصر القوة على ذكر الأحداث صحيحة في بدايتها ، وذلك حتى لا يستشعر القارئ منهم الخديعة ، ثم يبدأوا بعدها في نسخ باقي الأحداث من خيالهم ومن واقع حياتهم وتاريخهم . مما أفقد الأحداث التاريخية مصداقيتها.

يتضح من موادهم أنهم لم يتحملوا عناء السفر والبحث والتقصي يوماً عن المصادر الصادقة والصحيحة كما صورو لنا ، وإنما اعتمدوا على خيالهم المريض المشوه على الإسلام ، والدليل أنهم لم يعتمدوا على مصادر عثمانية أو تركية إلا فيما ندر وفي معلومات محدودة جداً وليس ذات أهمية ، وكانت أغلب مصادرهم أجنبية .

لكن هذا الأسلوب سيتغير في سلاطين عصر الضعف حيث ستلون المادة بحسب سلطانها .

⁽³⁾ ربيع عبد الرؤوف الزواوي : مرجع سابق ، ص 67 .

المبحث الثالث :

رؤية المستشرقين في الكتابة عن ضعف الدولة العثمانية وأضحماتها :

نحن نقف الآن على عصر مختلف تماماً عما مرّ بنا في الصفحات السابقة، حيث انقضى العصر الذهبي للدولة العثمانية ، وذهب السلاطين الذين اهتزت أوروبا كلها تحت أقدام جيوشهم وحوافر خيولهم ، وببدأ عصر الضعف والانحلال، إلا من ومضات قليلة ظهرت تحت ضغوط أوروبية عظيمة .

فقد تغير ميزان القوى ، وأضحت الدولة العثمانية بين عشية وضحاها تعاني من الخمول الداخلي ، وسيطرة أصحاب المطامع والمصالح الشخصية ، وانتفت عن السلاطين صفات القوة والشجاعة والإقدام ، حتى إنهم ركزوا إلى حياة الرفاهية في القصور ، وتركوا قيادة الجيوش للوزراء والصدور العظام ، فتحول الجيش لأداة هدم ، وفقد صفة الإيمان وحب الجهاد ، وأصبح مأجوراً يتقاضى الأموال مقابل القيام بالواجب . وهذه سنة الله في خلقه ضعف من بعد قوّة .

وفي الجهة المقابلة ظهرت الدول الأوروبية وقد نفضت عنها الكسل والركود وتقدمت في فن الحرب والأسلحة الحديثة ، وبذلت تستدير على الدولة العثمانية تتنقم منها وتلتهم أراضيها القطعة تلو الأخرى ، بمنتهى القسوة والعنف عن طريق إثارة القوميات في بلاد أوروبا الشرقية ؛ حتى تضمن عدم التفات الدولة العثمانية مطلقاً إلى محاولة تحسين أحوالها وأوضاعها الداخلية من ناحية ، ومن ناحية أخرى يسهل عليها فصل تلك المناطق عن الدولة العثمانية مما يساعد على إضعافها ، بالإضافة إلى استمرار المعارك والحروب على الجبهات الخارجية، مما ضمن للدول الأوروبية عدم ثبات واستقرار الدولة العثمانية ، مما أثار حرباً دائمةً لا تهدأ ، نتائجها الخسارة الفادحة والدائمة للدولة العثمانية في المال والأنفس، مما أفقر الدولة العثمانية وحرمها الراحة والتقطط أنفاسها والالتقاط إلى الداخل والعمل على تحسين الأوضاع ونشر العلم والمعرفة والتطور ؛ لأن هذه الأمور لا تنمو تحت قصف المدافع .

ومع حلول القرن 12هـ / 18م أصبت الدولة العثمانية بهزائم متكررة ومتلاحقة ، كشفت بجلاء أن الدولة العثمانية بكيانها القديم لن تستطيع حماية وجودها أمام الدول الأوروبية، خاصة مع تنامي قوة أوروبا الاقتصادية والعسكرية ، وظهرت ضرورة إصلاح

النظم العسكرية بصورة ملحة جدًا ،⁽¹⁾ وبات على السلاطين المصلحين خوض صراع مرير مع الأنظمة القديمة البالية ، حتى يعم الإصلاح .

إن التراجع والتأخر الذي لحق بالدولة العثمانية جعلها تدفع الثمن غالياً ، وهو خساره أجزاء من أراضيها وتنقص حدودها في الجهات الأوروبية .⁽²⁾

وتفاقمت مشكلة الجيش وبالاخص الانكشارية ، فعندما أراد السلاطين إدخال النظم العسكرية الحديثة لم يكن أمر الإصلاح هيناً ؛ إذ واجه معارضة شديدة واستهلك قوة رجال الدولة وجهودهم لمدة تزيد عن نصف قرن ، وكانت العقبة أمام السلاطين المصلحين هي كيف أن أمة ظلت قرونًا طويلاً تكره أوروبا بشدة ، ثم تضطر في حقبة من تاريخها أن تأخذ منها أسباب التطور ؟! وما يزيد من غرابة الأمر أن الفئة التي حاولت الإصلاح هم السلاطين ، في الوقت الذي جرت العادة فيه أن الشعب هو من يطالب بالإصلاح ، وهنا تكمن غرابة الأمر حيث رفضته بعض فئات الشعب والانكشارية ، وبعض رجال هيئة العلماء من تسرب لهم الخلل ولهم مصالح في استمرار التأخر .⁽³⁾

ولعل من أبرز السلاطين العثمانيين الذين قادوا حركة الإصلاح ودفعوا حياتهم ثمناً لهذا الأمر ، هو السلطان سليم الثالث وهو خير من يمثل هذه المرحلة التي أحس فيها السلاطين العثمانيين بضرورة الإصلاح وإدخال الأساليب الحديثة المتقدمة التي جعلت أوروبا تصل إلى هذا المستوى من القوة .

وقد قدم المستشرق كرامرز مادة السلطان سليم الثالث ، لكنه - للأسف كدينه دائمًا - أمسك بأطراف موضوع واحد فقط ودار في حلقة دون الخروج بنتيجة مفيدة للفارئ ، وعلى الرغم من طول المادة إلا أنها لم تركز على إصلاحات السلطان سليم الثالث ، السياسية والإدارية والاقتصادية ، وركزت فقط على إصلاحاته العسكرية في الجيش ، والنظام الجديد الذي أدخله على الانكشارية ، والذي فشل بالطبع نتيجة لعدم ترك الدول الأوروبية للدولة العثمانية حتى تركز على هذا الإصلاح .

⁽¹⁾ أمانى جعفر الغازى : مرجع سابق ، ص318 .

⁽²⁾ أمانى جعفر الغازى : مرجع سابق ، ص319 .

⁽³⁾ أميرة علي مداح : نظرة متأنية في تاريخ الدولة العثمانية ، ص62 .

كما اعتمد كرامرز في مادته على تأقيق مجد مزيف لفرنسا ، حيث صور أن التطور الذي كاد أن يحدث في الجيش كان يقوم على أكتافها وبنصائحها فقط ، وليس لأن السلاطين رغبوا في الإصلاح أكثر من الشعب .

ويمكن تقسيم ما ورد في المادة إلى ما يلي :

أولاً : توليه الخلافة في فترة حرجة واستمرارها وقتاً طويلاً من حكمه ، وأطلق كرامرز على الحروب بأنها امتياز لعهده ونذير شؤم .⁽¹⁾

ثانياً : ذكر سبباً خطأً تماماً لمعاهدة الدولة العثمانية مع السويد .⁽²⁾

ثالثاً : لم يقدم شرحاً وافياً عن الخطر النمساوي على الدولة العثمانية ، و أرجعه لسبب خطأ هو عقد المعاهدة مع بروسيا .⁽³⁾

رابعاً : عدم إعطاء فكرة صحيحة عن الإصلاح وبرنامج إعادة الهيكلة العسكرية.⁽⁴⁾

وسليم الثالث هو السلطان الثامن والعشرون للدولة العثمانية ، وابن السلطان مصطفى الثالث ، ولد في جماد ثاني 1175هـ / ديسمبر 1761م في قصر طوب قابي بإسطنبول .⁽⁵⁾

تلقي السلطان سليم الثالث منذ صباه تعليماً عالياً ، إذ درس العلوم الإسلامية وتعلم اللغة العربية والفارسية ، وكان خطاطاً وشاعراً وملحناً وعازفاً على الناي .⁽⁶⁾

كما تربى على شؤون الإدارة ، وقام بدراسة سياسة الدول الأوروبية والتنظيمات الإدارية والعسكرية لهذه الدول بعد أن تولى السلطنة ، ليقوم بتحديث الجيش وأجهزة الدولة على غرار النظم الغربية ، ولهذا يعد سليم الثالث من أشهر السلاطين المجددين والمصلحين في التاريخ العثماني ، ومن جهة أخرى قام بأعمال كثيرة من أجل رفاهية الشعب وسعادته ، وقد أعرب عن خدماته للأمة والدولة - عندما كان ولياً للعهد - بهذه الأبيات الشعرية :

إن أصبحت سلطاناً في هذه الدنيا ستكون خدمة الأمة لي شعاراً

⁽¹⁾ كرامرز : مادة سليم الثالث ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 12 ، ص 135 .

⁽²⁾ كرامرز : مادة سليم الثالث ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 12 ، ص 135 .

⁽³⁾ كرامرز : مادة سليم الثالث ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 12 ، ص 135 .

⁽⁴⁾ كرامرز : مادة سليم الثالث ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 12 ، ص 136 ، 137 .

⁽⁵⁾ Mustafa Nuri Pasa , Netayicul – Vukuat , IV , Istanbul 1327 , S.22 .

⁽⁶⁾ يلماز أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، ج 1 ، ص 643 .

ومن أهم مميزاته أنه كان كثير التجول في أزقة إسطنبول متكرراً ، وقد ارتقى عرش الدولة العثمانية في يوم الاثنين 1203هـ / 8 إبريل 1789م وذلك إثر وفاة عمه السلطان عبد الحميد الأول ⁽¹⁾.

حين اعتلى العرش كانت الدولة العثمانية تمر بأحلك الأوقات ، حيث عمتها الفوضى ، واصطبغت أراضي ولاياتها بالدماء بسبب كثرة التمردات ، وأصاب الخلل جميع أجهزتها ، بالإضافة إلى أن اليأس دب في نفوس الأهالي بسبب تدهور أحوال البلاد ، فقد كانت الحرب مستعرة على الجبهة الأوروبيية ، حيث تحالفت روسيا مع النمسا وحققا انتصارات على العثمانيين في عام 1203هـ / 1788م .

وفيما يلي نقد النقاط التي وردت في المادة :

أولاً : توليه الخلافة في فترة حرجة واستمرارها وقتاً طويلاً من حكمه ، وأطلق كرامرز على الحروب بأنها امتياز لعهده ونذير شؤم قال :

" وقد امتاز عهد سليم بالحروب المشؤومة التي شنت على الدول الأوروبيية وبالفتنة التي هامت داخل البلاد مما دل على ضعف الدولة العثمانية " . ⁽²⁾

في الوقت الذي جلس السلطان سليم الثالث على كرسي الحكم كان الجيش العثماني يحارب في جبهتين هما النمسا وروسيا ، فقام السلطان بجمع الديوان في 2 رمضان 1204هـ / 16 مايو 1789م للتشاور مع موظفي الدولة من ذوي المناصب العليا ، من العسكريين والإداريين والسياسيين وخبراء الشؤون المالية ووضع الحلول المناسبة للحرب القائمة . ⁽³⁾

وفي هذه الأثناء كان وضع الجيش العثماني عسيراً في جبهة الحرب الروسية ؛ حيث قامت القوات الروسية بحصار قلعة بندر الواقعة على ضاف نهر دينستر ، وذلك عقب استيلائهم على قلعة أوزي ، كما تجمعت مجموعة من القوات الروسية والقوات النمساوية في البغدان ، ثم عبر الجيش الروسي نهر الطونة وهزموا الجيش العثماني في مدينة قالاس وأسرموا ما يقارب من ألفي جندي عثماني ، كما قاموا بتخريب المدينة وإحراقها ، وبعد أن

⁽¹⁾ Ahmed Cevdet , Tarih , IV , Istanbul 1309 , S. 234 ; Esad Efendi , Tesrifat – i Kadime , Istanbul , S.110-117 .

⁽²⁾ كرامر : مادة سليم الثالث ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 12 ، ص 135 .

⁽³⁾ Ahmed Cevdet , Tarih , IV, Istanbul 1309 , S. 280 .

سمع السلطان سليم الثالث بسقوط قالاس على أيدي الروس قام بعزل قائد الجيش العثماني في المنطقة يوسف باشا ، وعَيْن حسن باشا بدلاً عنه ، ولكن الأخير لم يتمكن كذلك من التقدم في جبهة الحرب وذلك لنقص العتاد والمؤن .

وفي هذا رد واضح على قول كرامرز بأن الحرب العثمانية ضد الدول الأوروبية في عهد السلطان سليم الثالث حروب مشؤومة شنتها الدولة العثمانية ضد الدول الغربية ؛ إذ إن هذه الحروب كانت مستمرة قبل ارتقاء سليم الثالث العرش ولم يكن هو سببها ، بل السبب الرئيس هو تهدي الجيوش الروسية على حدود الدولة العثمانية ومحاجمة المسلمين الآمنين ، وفي المقابل كان هدف الدولة العثمانية حماية ممتلكاتها من هجمات الأوروبيين والروس ؛ لأنَّ الدول الأوروبية روسيا هي التي كانت تبدأ التهدي خاصَّة في فترة ضعف الدولة العثمانية.⁽¹⁾ أما في عصر القوة فكان الهدف مختلفاً ألا وهو الجهاد في سبيل الله ونشر الإسلام.⁽²⁾

ثانياً : ذكر سبباً خطأً تماماً لمعاهدة الدولة العثمانية مع السويد ، فقال :

" وكانت المعاهدة التي عقدت مع السويد لمساعدة تركيا مادياً في حربها مع روسيا قليلة الجدوى ".⁽³⁾

لقد اقتنع السلطان سليم الثالث بأنه لا يمكن للدولة العثمانية أن تحرز النصر بمفردها في الجبهتين الروسية والنمساوية ، فعقد معاهدة صداقة مع السويد التي كانت أيضاً عدوة لروسيا ، وبحاجة إلى الأموال والنقوذ والدعم لتقوم بإعلان الحرب عليها ، وقد أبرمت المعاهدة العثمانية السويدية في 29 شوال 1204هـ / 11 يوليو 1789م ، ومن أهم المواد الأربعية التي تضمنتها المعاهدة الدعم المالي الذي تعهدت الدولة العثمانية بتقديمه إلى السويد بمقدار 20000 كيس ذهب خلال عشرة سنوات مقابل قيام السويد بإعلان الحرب على روسيا ، ودعم الدولة العثمانية إذا ما خاضت حرباً ضد روسيا .⁽⁴⁾

⁽¹⁾ Ismail Baykal , Selim III . Devrinde imdad – I Sefericin para basilmak user saraydan verilen altın ve gümüş eşya hakkında ' Tarih Vesikalari Dergisi , Ankara 1944 , III , Sayı : 13 , S. 36 – 50

⁽²⁾ علي حسون : مرجع سابق ، ص148 ، 149 .

⁽³⁾ كرامرز : مادة سليم الثالث ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج12 ، ص135 .

⁽⁴⁾ Ahmed Cevdet , Tarih , IV , Istanbul 1309 , S. 361 – 363 ; Mustafa Nuri Pasa , Netayicu'l – Vukuat,IV, Istanbul 1326 , S.28 .

ويتبين من ذلك أن من عاونت الأخرى مادياً هي الدولة العثمانية لا العكس، وليس كما ذكر كرامر ، حيث إن هذه المعاهدة كانت لتبادل المنفعة بين الطرفين ، ولكنَّ كرامر قلب الحقيقة تماماً وغير الحدث التاريخي .

ثالثاً : لم يقدم شرحاً وافياً عن الخطر النمساوي على الدولة العثمانية ، وأرجعه لسبب خاطئ هو عقد المعاهدة مع بروسيا فقال :

" وفي السنة التالية خف الخطر النمساوي وخاصة بعد عقد معاهدة التحالف مع بروسيا 31 يناير سنة 1790م ".⁽¹⁾

لقد وقف الملك الروسي فدرريك الثاني - حين جلس على كرسي الحكم في بروسيا عام 1201هـ / 1786م - موقفاً معادياً لسلفه من الملوك ضد النمسا وروسيا ، واقتراح التحالف مع الدولة العثمانية ، وبعد مشاورات طويلة أبرمت معاهدة التحالف بين الدولتين في جمادى الآخرة 1205هـ / فبراير 1790م ، وتضمنت المعاهدة خمس مواد ⁽²⁾ على الشكل الآتي :

أولاً : سوف تعلن بروسيا الحرب ضد النمسا وروسيا اعتباراً من ربيع 1205هـ / 1790م ، ولن تتراجع عن قرارها إلا بعد قيام الدولة العثمانية بعقد الصلح مع الدولتين المذكورتين .

ثانياً : تقوم الدولة العثمانية بمنح الامتيازات للسفن التجارية الروسية في البحر الأبيض المتوسط أسوة للامتيازات التي منحتها للدول الأخرى .

ثالثاً : في حالة قيام كل من روسيا والنمسا بإعلان الحرب على بروسيا وذلك بعد صلحهما مع الدولة العثمانية ، ستقوم الأخيرة بالاشتراك في الحرب بجانب بروسيا ضد روسيا والنمسا ؛ لأن حربهم ضد بروسيا تدل على خرقهم لمعاهدة الصلح مع العثمانيين .

رابعاً : في حالة عقد الصلح سيقوم ملك بروسيا بحماية الأرضي التابعة للدولة العثمانية وتقوم الأخيرة بمنح بروسيا نفس الامتيازات التي منحتها لفرنسا وبريطانيا.

⁽¹⁾ كرامر : مادة سليم الثالث ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 12 ، ص 135 ، 136 .

⁽²⁾ Mustafa Nuri Pasa , Netayicul – Vukuat , IV , Istanbul 1327 , S. 26 – 27 .

خامسًا : تتم المصادقة على هذه المعاهدة من قبل الطرفين العثماني والبروسي خلال خمسة شهور⁽³⁾.

من جهة أخرى قام الجيش النمساوي المؤلف من 30.000 مقاتل بقيادة الأمير فوبورغ بحصار قلعة بيركوي التابعة للدولة العثمانية ، لكن الجيش العثماني المرابط في القلعة استطاع أن يهزم الجيش النمساوي ويستولي على عتاده وأسلحته ، وقام السلطان سليم الثالث بمكافأة قائد القلعة عبدالله باشا ومنحة رتبة وزير وذلك لشجاعته وبسالته في حماية القلعة .⁽¹⁾

فطلبت الحكومة النمساوية الصلح مع الدولة العثمانية إثر هزيمة الجيش النمساوي في موقعة بيركوي ، حيث قام الإمبراطور النمساوي بمراجعة الملك البروسي ليقوم بالتوسط لدى الدولة العثمانية من أجل الموافقة على الصلح ، وبعد مباحثات طويلة عقدت معاهد الصلح بين الدولتين بتاريخ 9 محرم 1205هـ / 19 سبتمبر 1790م في ريجنبرغ الواقعة على الحدود النمساوية وبحضور مندوب من حلية بروسيا وهي بريطانيا⁽²⁾.

وتعهدت الحكومة النمساوية بمقتضى هذه المعاهدة بإعادة الأراضي التابعة للدولة العثمانية التي استولت عليها في المعركة ، وإنهاء حربها مع العثمانيين ، إضافة إلى اتخاذها موقفاً محايضاً في الحرب العثمانية الروسية ، ولن تقوم بتقديم أية مساعدة للروس .

وقد قرر السلطان سليم الثالث أن يكشف قواته العسكرية على الجبهة الروسية وذلك عقب إبرامه معاهدة الصلح مع النمسا ، وفي هذه الأثناء أحرزت السويد التي وقفت بجانب الدولة العثمانية انتصارات متواالية ضد روسيا في العام نفسه ، لكن ملك السويد قام فجأة بإبرام معاهدة الصلح مع روسيا وذلك بتوسط إسبانيا ، على الرغم من تحالفه مع العثمانيين ، مما أدى إلى قيام روسيا بنقل قواتها العسكرية المرابطة في الجبهة السويدية إلى الجبهة العثمانية مما أدى إلى إحرازها انتصارات عديدة على الجيش العثماني في 14 ربيع الثاني 1205هـ / 22 ديسمبر 1790م في عدة قلاع ، منها كيلي وطولجا واساقجي وإسماعيل ، حيث قام الروس بمذبحة مروعة وقتل 30.000 ألف شخص في قلعة إسماعيل بعد الاستيلاء عليها ، بدون التفريق بين رجل وامرأة وطفل وشيخ ، واستمر القتل والسفك والفتوك ثلاثة أيام

⁽³⁾ Mecmu – i Muahedat , I , S. 90 ; Vasif , Tarih , I.U. Kutup . Ty 5980 , Varak 120 a – 122b

⁽¹⁾ Mustafa Nuri Pasa, Netayici'l – Vukuat , IV , Istanbul 1327 , 27 .

⁽²⁾ Resat Ekrem , Osmanli Muahedeleri , S . 110 – 111 .

⁽³⁾ ، وقد تأثر السلطان سليم الثالث كثيراً إثر هذه الهزائم والخسائر في الجبهة الروسية ، فقام بعزل الصدر الأعظم شريف حسن باشا وتعيين قوجا يوسف باشا على منصب الصداره العظمى ، فقام بجمع شمل الجيش العثماني في صحراء شمنو ، وأرسل قوة مؤلفة من 6000 مقاتل لاسترداد قلعة إسماعيل ، لكن دون جدوى ، وفي هذه الأثناء قام الجيش الروسي باحتلال قلعة ماجين ، ولكنه فشل في الدخول إلى قلعة إبرائيل للمقاومة الشديدة التي أبدتها الحامية العثمانية، فاضطر إلى الانسحاب . ⁽¹⁾

لكن السلطان سليم الثالث رأى أن الوضع متآزم فأضطر إلى طلب الصلح مع كل من النمسا وروسيا بسبب الهزائم التي لحقت بالجيش العثماني في جبهات القتال ، فقام بإجراء مباحثات الصلح مع النمسا وذلك بتوسط حكومات بريطانيا وبروسيا والفلمنك ، حيث أبرمت معااهدة الصلح بين النمسا والدولة العثمانية في 4 ذو الحجة 1206هـ / 4 أغسطس 1791 في مدينة زيشتوف في الواقعه شمال بلغاريا .

وتضمنت المعااهدة عشر مواد ، من أهمها المواد الآتية :

أولاً : تعهدت حكومة النمسا بإعادة جميع المدن والقرى والقلاع التابعة للدولة العثمانية التي استولت عليها خلال الحرب .

ثانياً : ستبقى قلعة هوتين بيد النمسا إلى أن تبرم اتفاقية الصلح مع روسيا .

ثالثاً : تعهد الطرفين النمساوي والعثماني بإطلاق سراح الأسرى .

رابعاً : تقرر إعادة قلعة بلغراد إلى العثمانيين . ⁽²⁾

ومم لا شك فيه أن هذه المعااهدة كانت في صالح الدولة العثمانية التي خسرت المعارك في كل جبهات الحرب .

في الوقت ذاته قامت الدولة العثمانية بإجراء مشاورات الصلح مع روسيا وذلك عقب تأمين الصلح مع النمسا ، حيث عقدت اتفاقية أولية بين الطرفين في قالاس في 11 ذو الحجة

⁽³⁾ يوسف التقى : مرجع سابق ، ص 81 ، إسماعيل سرهنك ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص 239 . محمد سهيل طوش : مرجع سابق ، ص 303 .

Uasif , Tarih , I.U. Kutup . TY 5980 , Varak 73 a – 75 b .

⁽¹⁾ Mustafa Nuri Pasa , Netayicu'l – Vukuat , IV , Istanbul 1327 , S . 29 – 30 .

⁽²⁾ يوسف التقى ، موقف أوروبا من الدولة العثمانية ، ص 82 ; Mecmu – i Muahedat , I , S. 156 – 163 .

1206هـ/11 أغسطس 1791م ولمدة ثمانية شهور⁽³⁾. ثم بدأت محادثات الصلح النهائية بين الطرفين في مدينة قاش ، وأبرمت المعاهدة بداية عام 25 جماد الأولي 1207هـ/ 9 يناير 1792م .

وتضمنت هذه المعاهدة ثلاثة عشرة مادة⁽¹⁾، من أهمها ما يلي:

أولاً : يكون نهر دينستر حدوداً بين البلدين ، حيث تُعطى الأراضي الممتدة إلى مياه أوزي إلى روسيا ، أمّا الأرضي الواقعة على الجهة الأخرى للنهر التي استولت عليها روسيا خلال الحرب فتعاد إلى الدولة العثمانية ، مثل منطقة بوحاق وكيلي وآق كرمان وإسماعيل وبندر وبغدان .

ثانياً : يتعهد الطرفان بإطلاق سراح أسرى الحرب .

ثالثاً : تأسيس الصداقة بين الطرفين وإغفاء مذنبي الحرب .

وبعد إبرام هذه المعاهدة انتهت الحرب بين روسيا والدولة العثمانية ، بعد أن استمرت أربع سنوات من قبل تولي السلطان سليم الثالث عرش الدولة ، وبدأ الجيش العثماني بمعادرة جبهة الحرب والعودة إلى إسطنبول ، حيث قام السلطان سليم الثالث باستقبال الجيش في معسكر داود باشا⁽²⁾.

وفي عام 1213هـ / 1798م جاءت الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت إلى مصر ، فأرسل السلطان سليم الثالث الصدر الأعظم يوسف باشا على رأس الجيش العثماني لإنقاذ مصر وطرد الفرنسيين منها وصدرت الأوامر بإرسال الأسطول الحربي العثماني إلى مصر والبدء بتجهيزه فوراً ، وفي الوقت نفسه قامت الدولة العثمانية بعقد التحالف مع روسيا في 1213هـ / 1798م ، ومع بريطانيا في 1214هـ / 1799م ؛ للتصدي للفرنسيين ، ثم

⁽³⁾ Tahsin Oz , "Selim III. In sir katibi tarafindan tutulan ruzname" Tarih Vesikalari Dergisi , 1944, Sayı : 14, S. 103-105 .

⁽¹⁾ محمود شاكر : الخلفاء العثمانيون ، ط 1 ، المكتب الإسلامي ، 1424هـ / 2003م ، ص 225 .
Mecmu – i Muahedat , IV , S. 4 -5 ; Vasif , Tarih , I.U. Kutup . Ty 5980 , Varak 120 a – 122b
اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج 1 ، ص 644 .

Tahsin Oz , "Selim III . in sir katibi tarafindan tutulan ruzname " Tarih Vesikalari Dergisi , 1944 ,
Sayı : 14 , S.187 – 188 .
اسماعيل سرهنك : تاريخ الدولة العثمانية ، ص 239 .

أرسل السلطان سليم الثالث جيشاً آخر بقيادة قائد البحرية كوجوك حسين باشا ، أسفرت هذه الحملة عن قيام الفرنسيين بالجلاء عن مصر والرحيل عنها نهائياً .⁽³⁾

وقد أبلغت بريطانيا الدولة العثمانية عن إستعدادها الكامل لإرسال أسطولها العسكري والحربى مزوداً بالذخيرة وكافة المعدات والتجهيزات العسكرية ؛ لتقديم المساعدة في طرد الفرنسيين من مصر عن طريق البحر المتوسط ، وصدرت أوامر الدولة العثمانية بأنه لا بد أن توفر له كافة أسباب الحماية ، ويعامل بمنتهى الود والصداقة .⁽¹⁾

وقد ظهر هنا تعاون إنجليزي لأول مرة مع الدولة العثمانية ، ليس ذلك لأنها تريد انتصار الدولة العثمانية ، ولكن لأنها تريدبقاء مصر ضمن دائرة نفوذ الدولة العثمانية - ولو حتى اسمياً - لضمان استمرار مصالحها وعدم انقطاع خط مواصلاتها مع مستعمراتها في الهند ، لذلك أظهرت الحب والمودة للعثمانيين لحفظ على مصالحها ، لكن لم يكن السلطان سليم الثالث ليخدع بهذا الأمر حيث اعتمد على نفسه وجيشه لإخراج الفرنسيين من مصر بعدما أحس بأن إنجلترا تريد إخراج الفرنسيين لتدخل بدلاً عنهم ، وهذا ما حدث بالضبط حيث بدأت بريطانيا منذ بداية ق 13 هـ / 19 م بحركات عدائية ضد الدولة العثمانية ، على السواحل المصرية ، حتى إن الدولة العثمانية أصدرت أمراً بتحرك الأسطول البحري من رودس للتصدي لهم ،⁽²⁾ مما يدل على خطورة هذه الهجمات .

رابعاً : عدم إعطاء فكرة صحيحة عن الإصلاح وبرنامج إعادة الهيكلة العسكرية فقال :

" وقد دعا بعد ذلك بقليل عدداً من ذوي المكانة والمثقفين من صفوف الجيش ومن رجال الإداره والعلماء إلى تقديم بعض مشروعات الإصلاح ، وحملت المشروعات كلها إلى القصر ، والظاهر أن هذه المشروعات قد عولجت على نحو هيأ الفرصة للحزب المناهض للإصلاح لأن يجعل منها مادة للسخرية وأن يبدأ دعوته في مناهضتها " .⁽³⁾

وقال أيضاً :

⁽³⁾ للمزید عن الحملة الفرنسية على مصر الرجوع :
يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج 1 ، ص 648 – 652 . إسماعيل سرهنوك : تاريخ الدولة العثمانية ، ص 242 – 247 .
وديع أبو زيدون : مرجع سابق ، ص 213 . علي حسون : مرجع سابق ، ص 149 – 154 . تفاصيل الحملة
الفرنسية أرشيف رئاسة الوزراء . وثيقة C-A-S 42713 . أرشيف رئاسة الوزراء : وثيقة C.H.R 1417 .

⁽¹⁾ أرشيف رئاسة الوزراء : وثيقة C.H.R 1417

⁽²⁾ أرشيف رئاسة الوزراء : وثيقة C.H.R 236 .

⁽³⁾ كرامز : مادة سليم الثالث ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 12 ، ص 136 .

"وقد أسمهم الفرنسيون مساهمة كبيرة في إعادة تنظيم هذا الجيش ، وقيل أن بونابرت كان قد فكر 1794م في وضع نفسه على رأس المدفعية التركية ".⁽⁴⁾

كان السلطان سليم الثالث يفكر في إجراء الإصلاحات وتحديث الدولة منذ أن كان ولينا للعهد ؛ لأن الجيش الانكشاري قد فقد قوته وتأثيره ولم يعد صالحاً ومفيداً في الحروب وكثير فساده خاصة في الولايات العثمانية ، وظهر هذا الانحطاط في مستوى بشكل جلي في الحرب العثمانية الروسية ، فأصبح هناك حاجة ملحة إلى قوات برية وبحرية منظمة ، وبعد أن تولى السلطان سليم الثالث السلطنة قام بتنفيذ خطته في الإصلاحات وتحديث نظم الدولة العسكرية والإدارية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية على غرار النظم المتتبعة في الدول الأوروبية ، واستشار في ذلك وجوه وأعيان الدولة وطلب منهم رفع اللوائح المتتبعة والتقارير في هذا الخصوص ، ثم قام ببحث ومناقشة اللوائح الواردة في الديوان الهمایوني ، وأعد قانون الإصلاحات والتجديدات للانكشارية التي أصبحت خطرًا يهدد الدولة ، وذلك بما يتاسب مع النظم الإسلامية ،⁽¹⁾ ولأجل عدم الاصطدام مع فرقة الانكشارية قام السلطان سليم الثالث بإنشاء ثكنة السليمية وثكنة لوند في خارج إسطنبول للجيش النظامي الذي قرر تشكيله ، ثم أمر بتأسيس معسكرات وثكنات في الأناضول وفي الرومي للجيش النظامي الجديد الذي عين على رأسه القاضي عبدالرحمن ، كما قام السلطان بتخصيص خزينة خاصة من موارد وبنود سرية لهذا الجيش عرفت باسم " الإيرادات الجديدة "⁽²⁾، وبذل جهوداً مضنية لإنجاح هذا النظام

ثم أصدر السلطان "نظام الترسخانة" لأجل إصلاح وتحديث الأسطول العثماني ، وقام بتعيين حسين باشا قائداً للقوات البحرية العثمانية ، كما قام بتوسيع المهندسخانة البحرية التي تأسست زمن والده ، وأسس بجانبها المهندسخانة البرية ، وهما بمثابة كلية الهندسة في ذلك الوقت ، وقد تشكل أعضاء هيئة التدريس في هاتين المؤسستين من متخصصين محليين وأجانب ، ومن أهم رجال العلم العثمانيين الذين قاما بالتدريس في المهندسخانة : أسعد أفندي القريمي وإسحاق أفندي ، وأنشئت في المهندسخانة مكتبة مهمة تضمنت الكتب العلمية

⁽⁴⁾ كرامز : مادة سليم الثالث ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 12 ، ص 137 .

⁽¹⁾ Mustafa Necib Efendi , Sultan Selim – I Salis vekayi ine bir tarih , Istanbul 1280 , S 5-9 .

أمانى جعفر الغازى : مرجع سابق ، ص 335 ، 336 .

⁽²⁾ Omer Faruk Yilmaz , Belgelerle Osmanli Tarihi , Cilt 3 , Istanbul 2000 , S. 217 ;

إبراهيم حليم : مصدر سابق ، ص 191 . أرشيف رئاسة الوزراء : وثيقة 2787 / HAT - 64 .

باللغة التركية وباللغات الأجنبية ، كما تُرجمت الكتب العلمية من اللغات الغربية إلى اللغة التركية. ⁽³⁾

ومن أهم منجزات الإصلاحات والتحديث هو فتح السفارات الدائمة في الدول الأوروبية سنة 1208هـ / 1793م ؛ وذلك لأجل الحفاظ على العلاقات الطيبة ، وتنشيط العلاقات الخارجية مع أوروبا ، فتم تعيين آجاه أفندي سفيراً في لندن ، والسيد علي مورالي سفيراً في باريس ، ومنيب أفندي سفيراً في فيينا ، وعزيز أفندي سفيراً لدى روسيا. ⁽⁴⁾

ويتضح مما سبق أنه لم يكن لفرنسا في هذه الفترة بالذات أي دور في الإصلاح ، فain دليل كرامرز على قوله ذلك ، بل والأدهى أن بونابرت يريد أن يقف على المدفعية التركية ، كيف وهو الآن عدو للدولة العثمانية ويخطط للحملة الفرنسية؟!

لم يكن لهم دور إلا في إنشاء مصانع لصب المدافع الثقيلة والخفيفة ، حيث أُنشئت بخبرة فرنسية ، أما التدريب فكان على يد العثمانيين . ⁽¹⁾

ولا شك أن هذه الإصلاحات عمّ من خاللها الاستقرار والنظام داخل إدارة الدولة ، حتى إن الرعية أحسّت أنه لا يوجد ما يوجب الخروج على السلطان ، وأحسوا بأن لديهم استعداداً للمشاركة وبذل مزيد من الجهد لإنجاح الإصلاحات. ⁽²⁾

وفي الوقت الذي كان السلطان سليم الثالث منشغلًا بأعمال الإصلاحات في الداخل ، وبالحروب الدائرة على حدود الدولة العثمانية وعقد المعاهدات مع الدول الأوروبية في الخارج؛ للحفاظ على كيان الدولة العثمانية ، في ذلك الوقت بدأ أداء الإصلاحات والنظام الجديد بالعصيان والتمرد ضده ورفض استخدام الأسلحة الحديثة حتى على مستوى الأقاليم العثمانية ، وذلك بتحريض من بعض رجال الدولة المناوئين لسياسة السلطان ، وقام أحد أعضاء الجنود الاحتياط الجفة الغلاظ (اليماق) المدعو مصطفى قباقجي ⁽³⁾ في 1222هـ

⁽³⁾ Mustafa Nuri Pasa , Netayicu'1 – Vukuat , IV, Istanbul 1219 , S. 24 .

⁽⁴⁾ إسماعيل سر هناك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج 1 ، ص 645 . أرشيف رئاسة الوزراء بإسطنبول : وثيقة HAT.11971470324. لمزيد من التفاصيل الرجوع إلى وثيقة أرشيف رئاسة الوزراء بإسطنبول 48261 / 1241 Tarih , 1210 .

⁽¹⁾ أمانى جعفر الغازى : مرجع سابق ، ص 338 .

⁽²⁾ أرشيف رئاسة الوزراء بإسطنبول : وثيقة BOA / HAT 42 / 2157 . A.mkt MTA 317/98 . أرشيف رئاسة الوزراء بإسطنبول : وثيقة

⁽³⁾Ahmed Refik , Kabakci Mustafa , Istanbul 1331 , S. 1-23 .

/ 1807م بجمع المتمردين والعصاة حوله ، وقاد حركة الثورة ضد السلطان ؛ لأنهم رفضوا ارتداء الزي النظامي ، مما جعل السلطان يعمد إلى إلغاء النظام الجديد خشية تصعيد الحركة وتوسيعها .

ولكن العصاة لم يتخلوا عن حركتهم ، بل تجمعوا في ساحة الخيول (آت ميداني) القريبة من قصر طوب قابي ، وطلبوا رؤوس عشرة أشخاص من أركان الدولة المؤيدين للنظام الجديد ⁽⁴⁾ ، فرضخ السلطان لطلبهم كي لا تسفك مزيد من الدماء ، فقام العصاة بتعذيب هؤلاء الأشخاص وقتلهم ، ولم يكتفوا بهذا ، بل قام رئيسهم مصطفى قباقجي بدعاوة شيخ الإسلام إلى ساحة الخيول وأجبره على إصدار فتوى في أباحة خلع السلطان سليم الثالث من الحكم ، وأرسل الفتوى مع وفد إلى السلطان في ظل تظاهرات معادية وهتافات تقول: "لا نريد السلطان سليم" . وقد اضطرر السلطان إلى قبول الأمر الواقع بكل حزن وأسى حتى إن بعض الحاشية اقتربوا عليه سحب الجيش النظامي من جبهة الحرب إلى إسطنبول لقمع العصيان ، لكنه رفض ذلك قائلاً : "لو عاد الجيش إلى إسطنبول سوف يقوم الروس بالاستيلاء على أراضي الدولة العثمانية" . ⁽¹⁾ وهذا يدل على أن السلطان كان يفكر في مصلحة الدولة والبلاد أكثر مما يفكر في سلطنته وعرشه .

ولا شك أن عناصر كثيرة كانت ترفض الإصلاح بل وتعمل على عرقلته، حتى إن فكرة القضاء على الانكشارية في عهد سليم الثالث كانت مرفوضة تماماً ، حتى من كبار شخصيات الدولة، مثل أمين الترسخانة وكتخدا الدولة العثمانية . ⁽²⁾

وبعد أن تنازل السلطان سليم الثالث عن الحكم 1222هـ / 1807م ، قام العصاة بتنصيب ابن عمه مصطفى الرابع على عرش الدولة العثمانية ، وبدأ سليم الثالث في موافلة حياته منعزلاً تحت الرقابة في غرفة من غرف القصر ، ثم حاول أنصار سليم الثالث بقيادة مصطفى باشا بيرقدار إنقاذه من العزلة وإعادته إلى العرش ، فهاجموا طوب قابي سراي في 4 جماد الآخرة 1223هـ / 28 يوليو 1808م ، ولكن المحاولة فشلت . ⁽³⁾ وقام بعض الطغاة في القصر بقتل سليم الثالث وكان عمره آنذاك 47 عاماً ، وقد أدى مقتله إلى حزن

⁽⁴⁾ يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج 1 ، ص659 . إبراهيم حليم : مصدر سابق ، ص195 .

⁽¹⁾ Mithat Sertoglu , " Ucuncu Selim ' in hal' I ve Alemdar Mustafa Pasa "Hayat Tarih Mecmuasi , Ocak 1975 , Sayi : I , S . 17 – 24 ; 393 . محمد فريد بك المحامي ، مصدر سابق .

⁽²⁾ أرشيف رئاسة الوزراء بإسطنبول : وثيقة 119 / 36 . YEE

⁽³⁾ Muterci Ahmed Asim , Asim , II , Istanbul , S. 191 – 208 .

كبير في كافة أنحاء الدولة العثمانية ، وشيع جثمانه في حفل رسمي في 5 جمادى الآخرة / 29 يوليو ، ودفن داخل ضريح والده السلطان مصطفى الثالث الكائن بجنب جامع لاله لي بإسطنبول ، ⁽⁴⁾ ولم يخلف السلطان سليم أولاً ؛ لأنّه كان عقيماً ، وبوفاته انفرض فرع مصطفى الثالث واستمر فرع عبد الحميد الأول. ⁽⁵⁾

والحق أن عصر سليم الثالث يعدُّ بداية جديدة للإصلاح ، حيث كان حريصاً على بعث وإحياء فريضة الجهاد كما كانت ، وقد دفع حياته ثمناً لذلك ، ولم يكتب لحركة الإصلاح الاستمرار في عهده وإنما وئدت قبل أن ترى النور ، وأثبتت الانكشارية أنه لابد من القضاء عليها نهائياً ؛ لأنها أصبحت كالسد أمام أي إصلاح وكأنها عدو داخلي للدولة العثمانية .

وبوفاة سليم الثالث تسلم راية الإصلاح ابن أخيه محمود الثاني الذي يُعدُّ مجدداً للجيش العثماني ، ودفع سليم الثالث حياته ثمناً لمحاولته الجريئة الفريدة .

عزل السلطان سليم الثالث وقتل ولم يحقق من خططه الإصلاحية الكثير ، لكن السلطان محمود الثاني - وهو من تولى بعد الفترة المضطربة التي سادت الدولة العثمانية بين عزل سليم الثالث ومقتل مصطفى الرابع - استطاع أن ينفذ هذه الخطط بمنتهى الدقة ، حيث استفاد من إقامته مع السلطان سليم الثالث في فترة عزله ، واطلع على خطوات سليم الثالث في الإصلاح وحفظها ، وحاول أن يطبقها .

وتكمّن أهمية السلطان محمود الثاني في أنه تولى الحكم في فترة حرجة جداً من تاريخ الدولة العثمانية ، لكن إصلاحاته وأعماله زادت من عمرها سنين طويلة وارتبطت حركة الإصلاح باسمه .

أما عن مادة السلطان محمود الثاني في دائرة المعارف الإسلامية ، فقد أطل علينا بها المستشرق ليفي ، ولأول مرة نتناول مادة بقلمه ، وهي المرة الوحيدة التي سنطلع على أسلوبه ، واللاحظ أن طريقة عرضه أفضل من كرامرز وهيوار ، إلا أن مادته - على الرغم من طولها - لم تذكر أبداً من أعماله الإصلاحية باستثناء القضاء على الانكشارية ، وتركزت المادة على سلسلة الحروب التي خاضتها الدولة العثمانية في عهد السلطان محمود

⁽⁴⁾ Mithat Sertoglu , " Ucuncu Selim in hal' I ve Alemdar Mustafa Pasa " Hayat Tarih Mecmuası, Ocak 1975 , Sayı : I , S . 17-24 .

للأستزادة عن مقتل سليم الثالث الرجوع إلى أمانى جعفر الغاري : مرجع سابق ، صص 349 – 354 .

⁽⁵⁾ يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج 1 ، ص 643 .

الثاني والمعاهدات التي عقدها ، كما أنه سار على طريقة كرامرز ، يذكر الحدث دون ذكر الأسباب التي أدت إلى حدوثه ، وكأنه قرار أر عن وليد اللحظة .

أما عن مصادر مادته فقد اعتمد على مجموعة وثائق من أرشيف رئاسة الوزراء بإسطنبول ، وبعض المراسلات والقارير الصادرة من المندوبين المقيمين في الدولة العثمانية ، وهو في هذا قد أجاد واعتمد على المصادر الموثوقة ، لذلك جاءت مادته أقل تشويهاً من غيرها .

وتركزت مادته حول النقاط التالية :

أولاً : ذكر ليفي عدد إخوة السلطان محمود الثاني خطأ وأنه كان أصغرهم⁽¹⁾.

ثانياً : إرجاع تولية العرش لحركة انقلابية دون سرد للأحداث الصحيحة حسب التسلسل الزمني⁽²⁾.

ثالثاً : يذكر الحدث ناقصاً تماماً دون ذكرخلفية الحقيقة له ، مما أسهم في تغيير معنى الاتفاقية التي عقدها محمود الثاني مع الأعيان وولاة الأقاليم⁽³⁾.

رابعاً : إرجاع انقلابات إسطنبول عام 1223هـ/ 1808م إلى انتفاضة شعبية بقيادة الانكشارية .⁽⁴⁾

خامساً : أطلق على معاهدة 1224 عام / 1809 مع بريطانيا معاهدة سلام ، على الرغم من أنها كانت معاهدة مجحفة في حق الدولة العثمانية .⁽⁵⁾

سادساً : استئناف الحرب مع روسيا ، وعدم ذكر الأحداث الصحيحة⁽⁶⁾.

⁽¹⁾ A.Levy : mahmud II , the encyclopaedia of islam , Volume VI . Leidenen E.J. Brill, 1997 , P.58.

⁽²⁾ A.levy : mahmud II , the encyclopaedia of islam , Volume VI , P. 58 .

⁽³⁾ A.levy : mahmud II , the encyclopaedia of islam , volume VI , P. 58 .

⁽⁴⁾ A.levy : mahmud II , the encyclopaedia of islam , volume VI P , 58 .

⁽⁵⁾ A.Levy : mahmud II , the encyclopaedia of Islam , Volume VI , P. 58 .

⁽⁶⁾ A.Levy : mahmud II , the encyclopaedia of Islam , Volume VI , P. 58 .

سابعاً : تصويره لحرب الدولة العثمانية مع بلاد فارس على أنها مناورات حدودية. ⁽⁷⁾

ثامناً : علاقة السلطان محمود الثاني مع محمد علي باشا والي مصر . ⁽⁸⁾

تاسعاً : القضاء على الانكشارية . ⁽⁹⁾

عاشرًا : حقيقة معركة ميناء نوارين . ⁽¹⁰⁾

الحادي عشر : لم يذكر المستشرق أي شيء عن وفاة السلطان محمود الثاني.

ومحمود الثاني هو السلطان الثالثون للدولة ، وابن السلطان عبد الحميد الأول ولد في الثالث عشر من رمضان 1199هـ / 20 يوليو 1785م ، وتولى الحكم بعد أخيه السلطان مصطفى الرابع في 6 جمادى الآخرة 1223هـ / 30 يوليو 1808م. ⁽¹¹⁾

أنهى دراسته العلمية في إسطنبول ، حيث تلقى العلوم الدينية والتاريخ والآداب والحساب على يد علماء عصره ، واهتم السلطان سليم الثالث بنفسه وبإبن عمّه محمود الثاني بتعليمه وتهذيبه وتربيته ، فعلمته كيفية إدارة الدولة من الناحية السياسية ولقنه العلوم العسكرية الحديثة ، من خلال تجاربها في محاولة إصلاح أمر الجيش ، وحتى بعد أن عُزل سليم الثالث كان يلتقي به وينصحه ويتحدث معه عن تجاربها في الحكم والإدارة ؛ كي يستفيد منها عند اعتلاء للعرش.

كان شاعراً وخطاطاً ومؤلفاً ، كتب قصائده باسم مستعار " عدلي " ، امتاز بقوّة الشخصية وتمتع بالشجاعة والجسارة والصبر والطبيعة المصممة ، وفي نفس الوقت كان حليماً وذا عزيمة جباره ، أكثر اهتماماته العمل بما يعود على الدولة العثمانية بالمنفعة والقوّة ، وكان لا يفصح عن نوایاه إلا إذا أخرجها إلى أرض الواقع. ⁽²⁾

⁽⁷⁾ A.Levy : mahmud II , the encyclopaedia of Islam , Volume VI , P. 58 .

⁽⁸⁾ A.Levy : mahmud II , the encyclopaedia of Islam , Volume VI , P. 59 .

⁽⁹⁾ A.Levy : mahmud II , the encyclopaedia of Islam , Volume VI , P. 59 .

⁽¹⁰⁾ A.Levy : mahmud II , the encyclopaedia of Islam , Volume VI , P. 59 .

⁽¹¹⁾ محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص 398 . محمود شاكر : مرجع سابق ، 233 . عبد القادر ده ده أوغلي : مرجع سابق ، ص 77 ، عدنان العطار : مرجع سابق ، ص 137 .

⁽²⁾ عبد القادر ده ده أوغلو : مرجع سابق ، ص 77 . علي حسون : مرجع سابق ، ص 178 . Ahmed Refik , " Mahmud – I Sani' nin validesi" , TOEM , 87 (10) . S. 218-224 .

ويعد السلطان محمود الثاني سلطاناً مصلحاً ومجدداً ، حيث اهتم بالعلوم والفنون والصناعات التقنية ، وبعث الطلاب إلى الدول الأوروبية لدراسة العلوم العسكرية وتعلم استخدام الأسلحة الحديثة ؛ لأن الإسلام لا يمنع منأخذ علوم الغرب إلا إذا مسّت الشريعة الإسلامية ؛ لذا قام بإلغاء فرقة الانكشارية وبتشكيل الجيش الجديد ، وجلب الخبراء من أوروبا لتدريب هذا الجيش ، وقام بتغيير جذري في أزياء الجيش وأزياء موظفي الدولة من المدنيين ، وأسس أيضاً المدفعية العثمانية ، كما قام بفتح المدرسة البحرية والمدرسة الطبية العسكرية واستقدم المتخصصين من أوروبا للتدريس فيها . كما أسس دائرة للترجمة ؛ وذلك لترجمة المؤلفات الأجنبية في العلوم والهندسة .

ثم بدأ بإرسال الطلاب إلى الخارج في بعثات علمية لإدراكه أهمية تعلم اللغات الأوروبية في الاقتباس من حضارة ونهضة أوروبا ، وحرص على ترجمة الكتب إلى اللغة التركية ، وقد سافر إلى أوروبا ، وزار العاصمة فيها ليقف بنفسه على أحوال التقدم ، وأثرت هذه الجهود بظهور عدد من المترجمين ، أهمهم وصف بأنه دائرة معارف لقيمه بترجمة عدد كبير من الكتب الإيطالية إلى التركية، وهو المؤرخ "شاني زاده" ، وظهر أيضاً أول عالم رياضيات وفيزياء وهو إسحق أفندي .

هذا بالإضافة إلى قيام السلطان محمود الثاني بتوثيق العلاقات الدبلوماسية مع الدول الأوروبية، فأرسل السفراء والقناصل إلى عواصم تلك الدول لتمثيل الدولة العثمانية ، وقد صدرت في زمنه جريدة "نقويم الواقع" في 22 ربى الآخر 1247هـ / 1 أكتوبر 1831م ، كما صدرت الطبعة الفرنسية للجريدة لتوزيعها في الدول الأوروبية .

ومن أهم إنجازات السلطان محمود الثاني إحداث نظارة الأوقاف وتشكيل مجلس الأحكام العدلية للنظر في القضايا المهمة للشعب والحكومة ، وللعمل على تنظيم القوانين العثمانية والأنظمة . إضافة إلى تشكيل دائرة الشورى العسكرية للنظر في الشؤون العسكرية ، وكذلك تأسيس مؤسسة البريد وإنشاء طرقها ودوائرها في كافة الولايات العثمانية . وأصبح المواطنون في زمنه يحملون تذكرة المرور خلال رحلاتهم داخل حدود الدولة ، ويحملون جوازات السفر الممنوحة لهم من نظارة الخارجية العثمانية وذلك أثناء رحلاتهم إلى الدول الأجنبية ، كما قام السلطان باستيراد السفن التجارية من الدول الغربية ، حتى إنه وضع أساس الموسيقى العسكرية "المارش" واعتمدت للجيش بصفة دائمة في عهده .⁽¹⁾

⁽¹⁾ أرشيف رئاسة الوزراء بإسطنبول : وثيقة AH.UMUN 124/165

وقد تم تعداد السكان بالشكل العلمي الصحيح لأول مرة زمن هذا السلطان عام 1247هـ / 1831م ، كما تأسس في العام نفسه نظام الحجر الصحي ، واستقدام الخبراء من أوروبا لهذا الغرض ، وتأسست الجمعية الصحية العثمانية.⁽²⁾

لقد شكلت هذه الإصلاحات والتغيرات الجذرية التي قام بها السلطان محمود الثاني نقطة تحول مهمة في التاريخ العثماني ، ففي الوقت الذي قام السلطان بهذه التجديدات في سبيل رقي الدولة والأمة على الغرار الأوروبي الحديث ، بقي كذلك محافظاً على التقاليد الإسلامية التي ورثها من آجداده ، وسار في الطريق المتوازن بين العلم والإيمان ، وبين العقل والوجدان ، وكان متديناً يمنح العطایا والهدایا إلى الذين يعتقدون الإسلام من أهل الذمة .

وقد اهتم السلطان محمود الثاني كذلك بإعمار البلد وتأسيس المنشآت الدينية والعلمية والاجتماعية . ومن أهم منجزاته في هذا المجال :

جامع النصرية وجامع العدل وجامع الهدایة وجامع التوفيقية ، وبرج الحريق في ميدان بايزيد ، وجسر المحمودية على خليج القرن الذهبي ، وقصر جراغان في الساحل الأوروبي من مضيق البوسفور ، بالإضافة إلى ذلك قام السلطان بترميم بعض الجوامع المهمة في إسطنبول ، مثل جامع وضريح الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري الكائن في أحد الأحياء القديمة في إسطنبول، وجامع القادرية ، كذلك قام عام 1236هـ / 1820م بإهداء شمعدان ثمين إلى الحجرة المطهرة في المدينة المنورة⁽¹⁾.

والملاحظ أن هذه الأعمال والإصلاحات المتطورة لم يتطرق لها ليفي ، إلا ببعض الكلمات المختزلة ، على الرغم من أن محمود الثاني هو من دفع بحركة التجديد إلى الأئم بمعتقدات إسلامية وشكل أوروبي .

ونتج عن هذه الإصلاحات والتطور والنظرة المفتوحة على أوروبا من قبل السلطان محمود الثاني تكوين علاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية .

ويرجع تاريخ تأسيس الولايات المتحدة الأمريكية إلى عام 1198هـ / 1783م ، لكن علاقتها مع الدولة العثمانية بدأت عقب نشاطاتها التجارية في ما وراء البحار ، وذلك بعد

⁽²⁾ أرشيف رئاسة الوزراء بإسطنبول : وثيقة 68/36 A.MET. MHW .
Omer Faruk Yilmaz , Belgelerle Osmanli Tarihi , III , Istanbul 2000 , S. 307 – 313 .

عبد المنعم الهاشمي : مرجع سابق ، ص403 ، 431 .

⁽¹⁾ Omer Faruk Yilmaz , Belgelerle Osmanli Tarihi , III , Istanbul 2000 , S. 307 – 315 .

عبد المنعم الهاشمي : مرجع سابق ، ص403 ، 431 .

وصول سفنها التجارية إلى حدود السواحل العثمانية . وكانت العلاقات الأولى بين الدولتين تجارية وليس سياسية .

ففي البداية قامت الولايات المتحدة الأمريكية بالاتجار مع الولايات التابعة للدولة العثمانية كالجزائر وتونس وطرابلس الغرب ، ثم بدأت في الاقتراب من الدولة العثمانية التي كانت تحكم بأجزاء كبيرة من سواحل البحر الأبيض المتوسط . وطلبت الولايات المتحدة الأمريكية من الدولة العثمانية فتح قنصلية لها في إزمير عام 1217هـ / 1802م ، وذلك إثر تطور تجاراتها في شرق البحر الأبيض المتوسط ، لكن الدولة العثمانية رفضت الطلب الأمريكي نظراً لعدم وجود معااهدة تجارية بين البلدين ، فكانت السفن التجارية الأمريكية تحمل العلم البريطاني عند عبورها من المياه العثمانية ، ولأجل تلافي هذه المضائق طلبت الولايات المتحدة الأمريكية هذه المرة بتعيين أحد التجار الأمريكيين قنصلاً في إزمير عام 1226هـ / 1811م ، وعلى الرغم من قيام هذا القنصل بوظيفته فإن الدولة العثمانية لم تعترف به بصفة رسمية إلا في عام 1246هـ / 1830م ، وبعد ذلك التاريخ استطاعت السفن التجارية الأمريكية أن تجوب في المياه العثمانية بحرية تامة حاملة العلم الأمريكي .

ثم طلبت الحكومة الأمريكية من السلطان محمود الثاني عقد معااهدة الصداقة والتجارة بين البلدين ، وبعد مباحثات طويلة أبرمت المعااهدة في 1246هـ / 1830م ، وقامت الدولة العثمانية بموجب هذه المعااهدة بمنح التجار الأمريكيان الامتيازات نفسها التي منحتها إلى تجار الدول الغربية الأخرى ⁽¹⁾ ، ومن هنا أطلقت يد الولايات المتحدة الأمريكية داخل الأراضي العثمانية مما نتج عنه نشاط في الحركة الاستشرافية - كما اتضح سابقاً - ومع كل ما بذله السلطان محمود الثاني من جهود إلا أنه واجه عند اعتلاء العرش عدة أزمات خطيرة من أهمها :

- ١) قوة الانكشارية .
- ٢) اشتداد العصيان في الولايات العثمانية .
- ٣) تعاظم شأن الدعوة السلفية في الحجاز .
- ٤) عدوانية روسيا ونشاطها في إثارة بلاد البلقان وقومياتهم ضد الدولة العثمانية ⁽²⁾ .

⁽¹⁾ Ibrahim Baybura , Amerika , Tarihcesi , Turk – Amerika Tarihi Munasebetleri , S. 151 – 155 .

⁽²⁾ عبد المنعم الهاشمي : مرجع سابق ، ص 425 .

ولو أن السلطان محمود الثاني واجه نصف هذه الأخطار أو أكثر بقليل ، لكان تغير وجه الدولة العثمانية لفترة من الزمن ، لكن هذه الأزمات خنقـت إصلاحات محمود الثاني . ولنلقي نظرة عن كيفية معالجة ليفي للأحداث التي عصفـت بتاريخ السلطان محمود الثاني .

أولاً : ذكر ليفي عدد إخوة السلطان محمود الثاني خطأ ، وأنه كان أصغرهم . فقال :

" كان أصغر أبناء السلطان عبد الحميد الأول البالغ عددهم إثنى عشر ابناً " ⁽³⁾

لقد أورد ليفي معلومة صادقة لكنه بتراها ولم يكملها ، فهو لم يوضح وضع الأبناء الأحد عشر وقت تولي محمود الثاني الحكم ، تاركاً الأمر لخيال القارئ ، الممتلىء بخلفية سوداء عن قانون قتل الإخوة المزعوم ، والصراع على الحكم .

وحقيقة الأمر أنه توفي من الأبناء الإثني عشر تسعـة في حياة عبد الحميد الأول ، بالإضافة إلى وفاة 12 ابنة في سن الطفولة ، ولم يعش من أبنائه سوى سليمان ومحمد اللذين توفيا - أيضاً - بعد وادهم عبد الحميد الأول بفترة قصيرة، وبقي مصطفى الرابع الأكبر سنـاً من محمود الثاني والأخير ، ولم يصبحوا أولياء عهد في حياة والدهم حيث كان ولـي عهـد سليم الثالث ابن أخيه السلطان مصطفى الثالث الذي بقـي في منصب ولاية العهد طوال فترة حكم عمه عبد الحميد الأول والتي دامت 15 سنة وشهرين . ⁽¹⁾

وهكـذا صورـه ليفـي وكـأنه أصغر أخـوه ومع ذلك تـولـى الحكم ، على الرـغم من أنه لم يـصبح ولـيـاً للـعـهـد إـلا فـي عـهـد أـخـيهـ الأـكـبرـ مـصـطـفـيـ الـرـابـعـ ، ⁽²⁾ وـعـنـدـماـ تـولـىـ الحـكـمـ لمـ يـكـنـ هناك ذـكـرـ غـيرـهـ منـ آلـ عـشـانـ .

ثانياً : إرجـاعـ تـولـيـهـ العـرـشـ لـحـرـكـةـ انـقلـابـيةـ دونـ سـرـدـ لـلـأـحـدـاثـ الصـحـيـحةـ حـسـبـ التـسـلـسلـ الزـمـنـيـ .ـ فـقـالـ :

" خـلـفـ السـلـطـانـ مـصـطـفـيـ الـرـابـعـ بـتـارـيخـ 28ـ يولـيوـ عـقبـ وـقـوعـ انـقلـابـ عـسـكريـ بـقـيـادـةـ الـحاـكـمـ الإـقـلـيمـيـ مـصـطـفـيـ بـيرـقـدارـ مـسـتـهـدـفـاـ إـعادـةـ تـنـصـيبـ السـلـطـانـ سـليمـ الثـالـثـ إـلـىـ الـعـرـشـ الـذـيـ سـبـقـ وـخـلـعـ مـنـهـ ،ـ إـلـاـ أـنـهـ أـثـنـاءـ تـلـكـ الـعـمـلـيـةـ الـانـقلـابـيـةـ اـغـتـيـلـ سـليمـ معـ خـلعـ الـحاـكـمـ مـصـطـفـيـ الـرـابـعـ وـأـصـبـحـ مـحـمـودـ الـمرـشـحـ الشـرـعـيـ الـوـحـيدـ فـأـعـلـنـ سـلـطـانـاـ عـلـىـ الـبـلـادـ ،ـ

⁽³⁾ A.Levy : mahmud II , the encyclopaedia of islam , volume VI , P . 58 .

⁽¹⁾ يـلـمـازـاـ وـرـنـونـاـ :ـ مـصـدرـ سـابـقـ ،ـ جـ 1ـ ،ـ صـ 633ـ ،ـ 643ـ .

⁽²⁾ عبدالـقـادـرـ دـهـ أـوـغـلـوـ :ـ مـرـجـعـ سـابـقـ ،ـ صـ 73ـ .

وحتى تاريخ اعتلائه العرش كان محمود يعيش طول حياته في عزله وذلك وفقاً للتقاليد العثمانية⁽³⁾.

إن دأب ليفي ذكر الحوادث صحيحة لكن دون ذكر الأسباب الحقيقة وراء ذلك الحدث والجذور التي أدت إلى تغيير تلك الثورة .

والواقع أن السلطان مصطفى الرابع الذي تولى الحكم بعد خلع سليم الثالث لم يتمكن من تحقيق الأمن والاستقرار في العاصمة إسطنبول ، ومن جهة أخرى تجمع بعض رجال الدولة وأركانها - من مؤيدي الإصلاحات - تحت راية مصطفى باشا بيرقدار ؛ وذلك لإعادة سليم الثالث إلى كرسي السلطنة⁽⁴⁾ ، فقام بيرقدار بالاقتراب من السلطان مصطفى الرابع والصدر الأعظم مصطفى باشا الجلبي ، حتى أتيح له قتل مصطفى القباقجي زعيم المتمردين الذي قاد حركة الثورة ضد سليم الثالث عام 1223هـ/1808م ، وقتل جميع الطغاة الذين شاركوا في تلك الحركة .⁽¹⁾

وقد أدت إجراءات مصطفى بيرقدار إلى استياء الصدر الأعظم مصطفى جلبي باشا الذي طلب منه أن يغادر إسطنبول ، مما جعل مصطفى بيرقدار يهاجم بجيشه البالغ 15000 جندي مقر الصدر الأعظم ، حيث قبض على جلبي باشا واستولى على ختم الصدار ، ثم توجه بجيشه نحو طوب قابي سراي للقيام بخلع السلطان مصطفى الرابع وإعادة السلطان المخلوع سليم الثالث إلى الحكم .

ومن جهة أخرى قام السلطان مصطفى الرابع تحت ضغوط الطغاة بإصدار فرمان يجيز قتل أخيه محمود وابن عمه سليم الثالث⁽²⁾ ، كما قام بإبلاغ مصطفى بيرقدار بعد تفكيره في الاعتزال ، وبناء على ذلك استخدم مصطفى بيرقدار القوة في اقتحام القصر وبدأ جيشه بكسر المدخل الرئيس له ، ومن المؤسف أنه في هذه الأثناء قام الطغاة بقتل سليم الثالث الذي كان منشغلاً بالعبادة ، لكن محمود استطاع أن ينفذ نفسه من أيدي الطغاة وذلك بفضل مساعدة بعض خدمه المخلصين ، حيث هجموا عليه ولكنه دافع عن نفسه ، وافتداه الخدم حتى استطاع الهروب من نافذة غرفته إلى السطح ثم الفناه حيث جنود مصطفى

⁽³⁾ A.Levy : mahmud II , the Encyclopaedia of Islam , Volume VI , P. 58 .

⁽⁴⁾ Mutercim Ahmed Asim , Asim Tarihi , II , Istanbul , S. 191 – 208 .

⁽¹⁾ Mustafa Nuri Pasa , Netayicu'l – Vukuat , IV , Istanbul 1327 , S. 55-56 .

⁽²⁾ Mutercim Ahmed Asim , Asim Tarihi , II , Istanbul , S. 191 – 208 . Mustafa Nuri Pasa , Netayicu'l – Vukuat , IV , Istanbul 1327 , S. 56-57 .

ببيرقدار، وعندما دخل الأخير إلى القصر واستولى على الوضع وقام بخلع السلطان مصطفى الرابع ، كان الأوّان قد فات ؛ لأنّه شاهد جثة سليم الثالث أمامه ، فما كان عليه ألا أن يقوم بتنصيب محمود الثاني الذي نجا من القتل على عرش السلطة ، حيث بدأ بتنظيم مراسيم البيعة له أمام باب السعادة في القصر وذلك بمشاركة أركان الدولة والعلماء .⁽³⁾

وعقب تولية محمود الحكم قدم ختم الصداررة العظمى إلى مصطفى باشا البيرقدار⁽⁴⁾ كما طلب منه معاقبة الطغاة الذين أسهموا في مقتل سليم الثالث ، وشاركوا في التمرد

والعصيان ضد اصلاحات هذا السلطان .⁽¹⁾

وبذلك تم تعيين البيرقدار مصطفى باشا في الصداررة العظمى من قبل السلطان الجديد محمود الثاني ، وأوكل له أمر معاقبة المتسبيين في مقتل السلطان سليم الثالث ؛ تقديراً ل موقفه، وإدراكه لضرورة إصلاح الجيش والنظم في الدولة العثمانية .

وقد تولى المنصب بناء على تقديم ختم الصداررة العظمى له ، وليس من تلقاء نفسه كما أورد ليفي .⁽²⁾

إن حركة البيرقدار أوضحت للعيان مدى اكتساب النظام الجديد الذي وضع أساسه السلطان سليم الثالث لمؤيدين على نطاق واسع بين أوساط الشعب ، مما هيأ الجو بعد ذلك لإصلاحات محمود الثاني .

تبقى نقطة أخيرة وهي أن محمود الثاني لم يبق حبيس القصر لا يعرف ما يدور حوله، وإنما درس كل الأحداث التي جرت حوله ، وكان تلميذاً لابن عمّه السلطان سليم الثالث ووارثاً لجميع أفكاره .

⁽³⁾ Mustafa Nuri Pasa , Netayicu'l – Vukuat , IV , Istanbul 1327 , S. 56-57 .

محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص 399 .

⁽⁴⁾ إسماعيل سرہنک ، حقائق الأخبار ، ج 1 ، ص 660 .

⁽¹⁾ يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج 1 ، ص 664 .

لمعرفة المزيد عن ثورة البيرقدار مصطفى باشا الرجوع إلى : التحفة الحليمية ، مصدر سابق ، ص 206 . يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج 1 ، ص 662 – 664 . إسماعيل سرہنک : تاريخ الدولة العثمانية ص 262 – 265 .

⁽²⁾ A.Levy : mahmud II , the encyclopaedia of Islam , Volume VI , P. 58 .

لقد كشف سليم الثالث توصياته السياسية لمحمود الثاني ، خلال الأربعة عشر شهرًا من سلطنة مصطفى الرابع ، حيث كان يلتقي به بحجة تعليمه الموسيقى ، لكنه كان يورثه الأفكار الإصلاحية وسرد له معظم أخطائه أثناء حكمه ، وأوصاه بعدم الوقوع فيها مرة أخرى ، وقد استفاد السلطان محمود من هذه الوصايا والأخطاء لأنه أحب السلطان سليم الثالث حبًا شديداً⁽³⁾ ، وتضافرت أفكار عديدة في ذهن ولی العهد الشاب ، فولدت داخله السلطان المصلح.

ثالثاً : مرة أخرى يذكر الحدث ناقصاً تماماً دون ذكرخلفية الحقيقة ، مما أسهم في تغير معنى الاتفاقية التي عقدها محمود الثاني مع الأعيان وولاة الأقاليم فقال :

" كانت السلطة الحقيقية تمارس من قبل "بيرقدار" الذي عين نفسه كبير الوزراء ، وقد شكل مجلساً يتالف من حكام الأقاليم في إسطنبول الذي قام بإقرار وثيقة الاتفاقية ، كانت هذه الوثيقة ترمي إلى تغيير الإطار الدستوري للإمبراطورية من خلال تقليص سيادة السلطان وتأسيس نظام سياسي شبه إقطاعي . علاوة على ذلك كانت تهدف أيضاً إلى إحياء إصلاحات العسكرية التي وضعها السلطان سليم الثالث ".⁽¹⁾

يتضح هنا أن السمة الغالبة لليفي هي ذكر الأحداث مبتورة تماماً ، وكأنها كلمات مقاطعة لا يخرج منها القارئ بشيء واضح .

إذا كانت الوثيقة أعطت للأعيان نفوذاً ، فإنها حققت السلام ، وفي الوقت الذي تحقق فيه الأمن والاستقرار في العاصمة إسطنبول بارتقاء السلطان محمود الثاني العرش ، استمرت الفوضى في الولايات العثمانية في الأناضول والروملي وبغداد وحلب والجزائر ، وغيرها من الولايات ، وفي الوقت نفسه كانت بريطانيا تحارب ضد روسيا ، كما كانت روسيا وفرنسا تخططان لتقسيم الدولة العثمانية . وكانت ميزانية الدولة العثمانية تعاني عجزاً مالياً كبيراً حيث كانت الخزينة على وشك الإفلاس ، وكان الجيش العثماني منقسمًا فيما بينه ، كما ضعفت القوات البحرية العثمانية ضعفاً كبيراً ، وقد حدث كل ذلك خلال سنة واحدة ، فضاعت إصلاحات سليم الثالث وإجراءاته هباءً . ولأجل تحسين أمور الدولة وإيجاد الحلول لهذه المشاكل قام الصدر الأعظم مصطفى باشا بيرقدار بدعاوة أعيان الدولة إلى عقد اجتماع

⁽³⁾ يلمازا وزتنا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج 1 ، ص 664 .

⁽¹⁾ A.Levy : mahmad II , The Encyclopaedia of Islam , Volume VI , P 58 .

طارئ، فقام الجميع بتلبية طلب الباشا الذي كان يتمتع بشخصية مؤثرة عليهم ، وعقد الاجتماع في 7 شعبان 1223هـ / 29 سبتمبر 1808م في كوشك (قصير) جاغليان بمنطقة جاغدحانة بإسطنبول وبحضور السلطان محمود الثاني ، وقد أكد البيرقدار باشا في الاجتماع على ضرورة تأسيس الجيش النظمي لأجل دوام الدولة العثمانية ، وفي نهاية المباحثات أبرم سند الاتفاق المكون من سبعة بنود بين الدولة والأعيان ، وقد تأثر السلطان محمود الثاني من هذا الاتفاق الذي أرغمه على إبرامه مع الأعيان الذين وقفوا ضد الدولة العثمانية وحاولوا الاستقلال عنها بولاياتهم ، وقد ظهر تأثيره عند حديثه إلى أمين العاصمة إبراهيم أفندي بهذه الكلمات : " على الرغم من أن هذه الشروط ليست في صالح مقام السلطنة ، لكنني اضطررت إلى قبولها ، وسأقوم في فترة قصيرة بإيقاظ المقام السامي من هذه القيود " .⁽²⁾

ويمكن القول أن الدولة العثمانية قد اضطررت إلى قبول نفوذ الأعيان بشكل رسمي عند إبرامها لهذا الاتفاق ، ولكن في الوقت نفسه أدى هذا الاتفاق إلى تحقيق السلام وتأمين الهدوء في ولايات الدولة العثمانية ، كما شكل خلفية قوية لإلغاء فرقه الانكشارية في المرحلة القادمة التي كانت تعد مصدراً للفتنة والقلاقل والفوضى .

ويمكن إيجاز بنود سند الاتفاق في التالي :⁽¹⁾

- ١) تفيد أوامر السلطان ، وتقديم فروض الإخلاص والولاء من قبل الأعيان له.
- ٢) يقوم الأعيان بجمع الجنود والعساكر للجيش العثماني وقت الحروب .
- ٣) إطاعة أوامر الصداررة العظمى التي تتوافق مع القانون والعدالة .
- ٤) يجب على أركان الدولة والأعيان مراعاة شروط الاتفاق وفي حالة المخالفة تقوم الدولة العثمانية بتأديبيهم .
- ٥) في حالة حدوث أي تمرد أو عصيان من قبل الانكشارية والفرق المعادية الأخرى يقوم الأعيان بدعم الدولة في قمع التمرد وإخماده .
- ٦) تنظيم ضرائب الدولة بشكل يحقق الواردات للخزينة .
- ٧) تخفيض مقدار الضرائب المفروضة على الشعب .⁽²⁾

⁽²⁾ Mutercim Ahmed Asm , Asim Tarihi , II , Istanbul , S . 191 – 208 .

⁽¹⁾ Ahmed Cevdet Pasa , Tarih , Istanbul 1292 , IX , S. 2-9 .

ولا شك أن هذا الاتفاق ساعد على علو نجم الصدر الأعظم مصطفى باشا، بالإضافة إلى ذيوع صيته في خارج الدولة العثمانية ، لكن هذا جعل المفسدين يحرضون الانكشارية ضد السلطان محمود الثاني ، ودفع الثمن مصطفى باشا الصدر الأعظم .

رابعاً : إرجاع حركة عام 1808م إلى انتفاضة شعبية بقيادة الانكشارية فقال :

" وفي منتصف شهر نوفمبر عام 1808م أقيمت حكومة " بيرقدار " نتيجة لانتفاضة شعبية بقيادة المجندين الجدد في إسطنبول ، وكان ذلك حصيلة حركة مناولة للإصلاحات بجانب إسقاط عناصر من حكام الأقاليم على رمam الحكومة المركزية ".⁽³⁾

إن الافتراء واضح منذ بداية الجملة ، حيث سبق وأن أوضحت الدراسة أن النظام الجديد الذي أسسه سليم الثالث كان قد اكتسب شعبية كبيرة وعريضة خارج هيئة العلماء والانكشارية ، اكتسبها من الأهالي الذين أدركوا أهمية إدخال الإصلاحات في النظم العسكرية، وعليه فإن حركة 1223هـ/1808م لها أسباب واضحة وصريرة ، وهي ليست انتفاضة شعبية بز عامة الانكشارية . لأن الانتفاضة تأتي من ظلم صريح على الأهالي ، فain الظلم في إدخال النظم الحديثة على الجيش العثماني؟! إن الظلم هو ما كانت تقوم به الانكشارية ضد الرعية .

لقد فهم السلطان بأن فرقة الانكشارية أصبحت وكرًا للفوضى والتمرد فيجب التخلص منها ، وأراد أن يعيد إصلاحات السلطان سليم الثالث والنظام الجديد الذي قام بتأسيسه ، لكن لم يكن من الممكن أن ينفذ ذلك بنفس الاسم القديم الذي وضعه سليم الثالث لما قد يسببه من فتن ، مما سيغضب الانكشاريين ، فقام بتأسيس جيش نظامي جديد تحت اسم السكبان الجديد في 22 شعبان 1223هـ/14 أكتوبر 1808م حيث بدأ الجيش بالتدريب والتعليم في ثكنة لوند أولاً ، ثم في ثكنة السليمية ، وقام السلطان بتعيين الدفتردار بهيج افندي ناظراً على أمور الجهاد، وتعيين والي الأناضول سليمان آغا قائداً لجيش السكبان الجديد ، كما قام بتجهيز الجيش بالزي العسكري الحديث على غرار الأزياء الأوروبية ، وقام الصدر الأعظم بمنح الراية والشارع والطبل إلى الجيش الجديد لتتمتع بالصفة الرسمية ، فأصبح الجيش الرسمي للدولة العثمانية .⁽¹⁾

⁽²⁾ Mustafa Nuri Pasa , Netayicu'l – Vukuat , IV , Istanbul 1327 , S . 58 – 59 .

⁽³⁾ A.Levy : mahmad II , The Encyclopaedia of Islam , Volume VI , P 58 – 59 .

⁽¹⁾ Ahmed Cevdet Pasa, Tarih , VII ,S. 289 – 291 .

وقد أغضبت هذه الإجراءات الانكشاريين فأشعلوا نار الثورة مرة أخرى على الصدر الأعظم مصطفى باشا بيرقدار ، حيث هاجموا مقره ، ولكن مصطفى بيرقدار لم يستسلم للانكشاريين ، وقد سادت الفوضى مرة أخرى في إسطنبول حيث استولى العصاة على المدينة، وبقي السلطان محمود الثاني محصوراً في طوب قابي سراي ، إذ كان هدف العصاة قتل محمود الثاني وإعادة السلطان المخلوع مصطفى الرابع إلى الحكم ، لكن الصدر الأعظم مصطفى بيرقدار ، تصدى لهم ودافع عن السلطان ، فحاصروه في قصره وأضرموا النيران فيه لإجباره على الفرار ، ففضل الموت على الاستسلام لمطالب الفئة الثائرة ، وهذا يدل على مدى شجاعته واقتناعه بالمبدأ الذي عاش يدافع عنه ، ثم أمر السلطان محمود الثاني الأسطول العثماني بقصف مقر قائد الانكشارية ، وبعد أن علم الطغاة بعدم استطاعتهم الوقوف أمام قوة السلطان محمود الثاني التجأوا إلى العلماء، وطلبوا منهم الصلح ووعدوهم بأنهم سيخضعون لقرارهم ، ولأجل تحقيق الأمن والسلام في الدولة ، قرر العلماء ما يلي : "وقف إطلاق النار بين رجال الدولة والانكشاريين ، وعودة الانكشاريون إلى ثكناتهم ، وقيام السلطان بإلغاء جيش السكبان الجديد" ، فوافق السلطان على ذلك فأمر بتسيير الجنود المسجلين في هذا الجيش في 29 رمضان 1223هـ/1808م وإرسالهم إلى بيوتهم ، كما قام بمنح وظائف مدنية إلى ضباط الجيش المنحل⁽¹⁾.

ومع هذا فقد استمرت النيران التي أشعلها الانكشاريون في إسطنبول ، حيث احترقت آلاف الدور السكنية وال محلات التجارية والمعسكرات ، وقد قام المتمردون العصاة بالتجمع حول محمد القاندر الذي استولى أثناء التمرد على الترسخانة (مقر صناعة السفن) والطوبخانة (معسكر المدفعية العثمانية) ، كما طالبوا بعزل الصدر الأعظم مميش باشا ، وتنصيب يوسف ضياء باشا بدلاً عنه.⁽²⁾

ويمكن القول بأن عهد السلطان محمود الثاني شهد ثورات وتمردات داخلية مكثفة استهدفت إخفاق الحركات الإصلاحية ، كما شهدت محاولات أجنبية تستهدف تمزيق الدولة العثمانية ، ومع هذا لم تتكسر شوكة السلطان محمود الثاني وعزمه في موصلة أفكاره الإصلاحية وكفاحه ضد الطغاة وأعداء الدولة وأرجأ فكرة إصلاح الجيش لفترة من الوقت . خامساً: أطلق على معاهدة عام 1224هـ/1809م مع بريطانيا معاهدة سلام ، على الرغم من أنها كانت معاهدة مجحفة في حق الدولة العثمانية فقال :

⁽¹⁾ Ahmed Refik , kabakci Mustafa , Istanbul 1331 , S . 112 – 142 .

⁽²⁾ Mustafa Nuri Pasa , Netayicu'l – Vukuat , IV , Istanbul 1327 , S . 60-61 .

"في شهر يناير عام 1809م أبرمت معاهدة سلام مع بريطانيا بالرغم من المعارضة الشديدة من فرنسا النابليونية".⁽³⁾

الأقرب إلى الصحة هي أنها معاهدة صلح⁽⁴⁾، وليس معاهدة سلام⁽⁵⁾؛ لأن بنودها كانت تشمل على رد الطرفين لبعضهما الأموال والقلاع والسفن وما إلى ذلك.

في الوقت الذي كانت الدولة العثمانية منشغلة بالأحداث الداخلية ، كانت روسيا وفرنسا تخططان لتقسيمها ، مما اضطر السلطان محمود الثاني إلى طلب الصلح مع بريطانيا ، وبعد مباحثات طويلة أبرمت في 3 محرم 1224هـ/5 يناير 1809م معاهدة الصلح بين الدولتين ، وقد تعهدت بريطانيا بموجب هذه الاتفاقية المتضمنة 12 بنداً بإعادة القلاع العثمانية التي استولت عليها خلال الحرب ، فيما تعهدت الدولة العثمانية بإعادة السفن والأموال التي استولت عليها أثناء الحرب ، كما وافقت على تمديد مدة الامتيازات التي منحتها لبريطانيا .

وقد نصت المعاهدة - أيضاً - على أن يتمتع قناصل كلتا الدولتين بالحقوق نفسها . إضافة إلى قيام بريطانيا بدعم الدولة العثمانية في حالة قيام فرنسا بإعلان الحرب عليها ، وتعهدت بريطانيا بالقيام بدور الوسيط لتأمين الصلح بين روسيا والدولة العثمانية في حالة قيامها بالصلح مع روسيا ، وذلك لأجل تحقيق وحدة الأراضي العثمانية .⁽¹⁾ وتعد هذه المعاهدة ضربة قاضية لمطامع فرنسا في الشرق الإسلامي ، خاصة بوجود الدولة العثمانية ، كما أنها وضعت - إلى حد ما - حداً فاصلاً للتدخل الروسي في شؤون المنطقة على الرغم من استمرار الحرب مع الدولة العثمانية.

سادساً : استئناف الحرب مع روسيا ، وعدم ذكر الأحداث الصحيحة فقال :

"غير أن المفاوضات مع الروس الذين احتلوا منطقة مولدافيا وولاشيا عام 1806م قد أخفقت في إبريل 1809م ، واستأنفت الحرب مع روسيا بشن هجوم على المنطقة الواقعة جنوب الدانوب ، قوبيل العثمانيون بهزائم في عددٍ من المعارك إلا أنهم أفلحوا في حصر

⁽³⁾ A.Levy : mahmad II , The Encyclopaedia of Islam , Volume VI , P 58 .

⁽⁴⁾ معاهدة الصلح : بضم الصاد ، هو إنهاء الخصومة بين طرفين ، والإتفاق بعد النزاع ، وأما إصطلاحاً : عقد الصلح هو عقد للسلام والتراخي بين دولتين ويكون العمل على طبق ما أتفقا عليه وما ورد من بنود في المعاهدة ، وهو لازم على الطرفين .

⁽⁵⁾ معاهدة سلام : مخففة اللام ، وهو عقد معاهدة بين طرفين ، معاهدة أمن وأمان وتحية وصلح ، وهي تعبير عن الوفاق والوئام والأمان والإطمئنان ببني الطرفين .

المعاني - قاموس متعدد اللغات ، مصطلحات عربي عربي ، 1/2 1432هـ . <http://www.Almaany.com>

⁽¹⁾ Mecmu – i Muahedat ; Vasif , Tarih , I.U. Kutup . Ty 5980 , Varak , I , S. 266 .

محاولة الروس في الاستيلاء على "شوملا" وأيضاً الزحف باتجاه جبال البلقان ، وفي ظل التوجس من المخاطر المتصاعدة من شن حرب مع فرنسا كان الروس على استعداد للدخول في مساومة ، انتهت الحرب باتفاقية بوخارست في يوم 28 مايو 1812م التي بموجبها حصل الروس على منطقة بيراريبا في حين استعاد العثمانيون منطقتي مولدافيا وولاشيا".⁽²⁾

إن روسيا (الدب القطبي) كانت دائمًا متربصة بالدولة العثمانية ، مستهدفة احتلال أجزاء من أراضيها ولم تتوانَ عن تحقيق الهدف ، واستغلت كل الظروف في سبيل الوصول إلى المياه الدافئة .

لقد وجد السلطان محمود الثاني في تحركات روسيا القيصرية خطورة على المناطق المتاخمة لحدوده معها ، خاصة الصرب الذين بدأوا فعلاً في إشعال الثورات والقلائل في أوائل القرن 13هـ / 19م ، وأصل هذه الثورات كانت موجهة ضد فساد الانكشارية ،⁽³⁾ ولكن بمرور الوقت نشأ لدى الصرب فكرة القومية ، وبعث الشعب الصربي بشكوكه ومندوبيه إلى السلطان محمود الثاني ، لكن الأخير كان منشغلًا بمشاكله الداخلية ، فلم يرد عليهم سريعاً، مما جعل الصرب يتوجه إلى روسيا التي كانت توافقه للتدخل في شؤون الدولة العثمانية ، فتأزم الموقف بين الدولة العثمانية وروسيا .⁽¹⁾

وفي الوقت الذي أبرمت فيه المعاهدة العثمانية البريطانية ، كان هناك وفد عثماني آخر يجري مفاوضات مع روسيا ، وقد استغلت روسيا الأحداث الداخلية في إسطنبول فطلبت البغدان والأفلاق من الدولة العثمانية ، فترك الوفد العثماني مفاوضاته وعاد إلى إسطنبول وفشل المفاوضات ، فيما قام الجيش الروسي بالتقدم نحو قلاع عثمانية واستولى عليها ، وقام السلطان محمود الثاني إثر التهديدات الروسية بجمع مجلس الشورى في جامع الفاتح لتقرير مبدأ الدفاع عن الدولة العثمانية ، والعمل على إزالة الخلافات والتآلف الداخلي ، والمضي قدماً في الإصلاحات حتى يتم النصر للدولة العثمانية ، وأعلن النفير العام داعياً عن الدولة والأمة والدين ، فقام جمع غير من المتطوعين من كافة أرجاء الدولة العثمانية ، - وكان فيهم عدد كبير من طلاب المدارس - بالمشاركة في الجهاد ، حيث انضموا إلى الجيش

⁽²⁾ A.Levy : mahmad II , The Encyclopaedia of Islam , Volume VI , P 58 .

⁽³⁾ لمزيد من المعلومات حول تعرضات الانكشارية لأهالي الصرب الرجوع إلى . أمانى جعفر الغازى : مرجع سابق ، ص 304-308 .

⁽¹⁾ عبد المنعم الهاشمى : مرجع سابق ، ص 431 ، 432 .

العثماني الذي تحرك من إستانبول في 9 جماد الثاني 1224هـ / 23 يوليو 1809م بقيادة الصدر الأعظم يوسف ضياء باشا ، ومن جهة أخرى قام القيصر الروسي الكسندر بارسال الجيش الروسي صوب إستانبول، إذ التقى الجيشان في موقع قرب قرية تاتاريجة، (2) ونشبت بينهما معركة دامية أدت إلى استشهاد ألف جندي من الجيش العثماني ، وموت عشرة آلاف جندي من الجيش الروسي الذي تقهقر في ميدان المعركة واضطرب إلى الفرار . (3)

وفي هذه الأثناء كان الإمبراطور الفرنسي نابليون بونابرت يخطط في الهجوم على روسيا ، مما جعل القيصر الروسي الكسندر يطلب الصلح من السلطان محمود الثاني لايستطيع التصدي للهجوم الفرنسي على أراضيه ؛ لكن السلطان لم يوافق على ذلك ، بل أرسل جيشاً آخر إلى شمنو⁽⁴⁾ بقيادة لاز أحمد باشا الذي الحق هزيمة كبيرة بالجيش الروسي ، مما اضطر قائدءه إلى طلب عقد هدنة بين الطرفين ، لكن المباحثات التي جرت بين الطرفين لم تثمر بنتيجه ما وامتدت إلى 15 جمادى الأولى 1227هـ / 28 مايو 1812 وأبرمت حينها المعاهدة الثانية بين روسيا والدولة العثمانية معااهدة بخارست والمكونة من 16 بنداً⁽¹⁾ ، وبموجب هذه المعاهدة أعيدت البغدان والأفلاق إلى الدولة العثمانية ، وقامت الدولة العثمانية بإصدار العفو العام عن العصاة والمتربدين الصربي ، كما وافقت على منح الحكم الذاتي للصربي تحت السيادة العثمانية ، واحتفظت روسيا بإقليم بساربيا وأحد مصبات نهر الدانوب.⁽²⁾

4 ثم أبرمت معااهدة أخرى بين السلطان محمود الثاني والقيصر نيكولا الأول في ربيع الأول 1242هـ / في 7 أكتوبر الأول 1826م ، وقد منحت الدولة العثمانية بموجب هذه المعاهدة امتيازات للتجار الروس من جهة ، وامتيازات للصربي من جهة أخرى . (3)

⁽²⁾ تاتاريجه Tatar مدينة في بلغاريا حالياً . س. موستراس : مرجع سابق ، ص 211 .

⁽³⁾ أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول : وثيقة 20 / 71 y.EE . إبراهيم حليم : مصدر سابق ، ص 207 .

Mustafa Nuri Pasa , Netayicul – Vukuat , IV , Istanbul 1327 , S. 64-65 .

⁽⁴⁾ شمنو Shoumnna ، هي مدينة حصينة في تركيا الأوروبيّة ، في بلغاريا ، وهي مدينة ذات موقع عسكري استراتيجي قوي . س. موستراس : مرجع سابق ، ص 320 .

⁽¹⁾ إسماعيل سرهنك ، حقائق الأخبار ، ج 1 ، ص 664 Mecmu – i Muahedat , IV; Vasif , Tarih , I.U. Kutup . Ty 5980 , S49

⁽²⁾ علي محمد الصلايبي: مرجع سابق ، ص 541 ، 542 ، 542- ، 542 Mustafa Nuri Pasa , Netayicu 1 – Vukuat 1327 , S.68- ، 69

⁽³⁾ Mecmu– i Muahedat ,IV,; Vasif , Tarih , I.U. Kutup . Ty 5980 , Varak 120 a – 122b , S. 58 , 69.

أما عن الصرب فقد دخلت فكرة القومية في أذهانهم بفضل روسيا وبدأ الصربيون يطالبون بالانفصال عن الدولة العثمانية في أوائل القرن التاسع عشر وذلك بتحريض من فرنسا وروسيا وبريطانيا ، وقام الروس خلال الحرب العثمانية الروسية بدعم الصرب بالأسلحة والأموال ، وفي معايدة بخارست التي تطرقنا إليها أعلاه منح الحكم الذاتي للصرب ، فانفتح أمامهم طريق الاستقلال ، إذ قام الصربيون بحركة استقلالية مستغلين الضعف الذي تعاني منه الدولة العثمانية ، لكن الحركة قُمعت من قبل القوات العثمانية حيث اضطر قادها الفرار إلى النمسا، ثم تولى ميلوش أوبرانويفيچ قيادة الحركة الصربية ، فقام الروس هذه المرة بعقد المصالحة بين ميلوش والحكومة العثمانية ، حيث نقرر تعين ميلوش والياً على الصرب من قبل الدولة العثمانية عام 1232هـ / 1816م ، ويقتصر عمل الدولة العثمانية على المراقبة والتمركز مع حمايتها في الحصون والقلاع ، وإدارة البلاد عن طريق مجلس منتخب مؤلف من إثنى عشر عضواً ينتخبون رئيساً من بينهم ، كما منحت الدولة امتيازات كثيرة إلى الصرب وأصبحت شبه مستقلة ، وعلى الرغم من ذلك فقد بدأ الصربيون فيما بعد بقتل المسلمين والتمرد ضد الدولة العثمانية ، فاضطر السلطان محمود الثاني إلى قبول استقلال الصرب عام 1246هـ / 1830م.⁽¹⁾

لقد بقيت روسيا دائماً تنظر بعين المحتل للأستانة ، وتهدد بذلك ، وأطلق القيصر الروسي على الدولة العثمانية " الرجل المريض الذي لا يرجى شفاءه " حتى تهبي الأذهان لاقتسام ممتلكات هذه الدولة المريضة .

سابعاً : تصوير ليفي لحرب الدولة العثمانية مع بلاد فارس على أنها مناورات حدودية فقال:

"تطورت المناوشات الحدودية مع إيران عام 1820م إلى حرب شاملة ، وبعد حرب ضروس لبعض سنين تمكّن الغريقان من التوصل إلى اتفاقية صلح بين الطرفين عام 1823هـ"⁽²⁾

⁽¹⁾ Mustafa Nuri Pasa , Netayiu'l – Vukuat , IV , Istanbul 1327 , S. 69 .

عبد المنعم الهاشمي : مرجع سابق ، ص 432 ، 433 . محمود شاكر : مرجع سابق ، ص 233 ، 234 .

⁽²⁾ A.Levy : mahmad II , The Encyclopaedia of Islam , Volume VI , P 58 .

إن الحرب التي دارت رُحْاها بين الدولة العثمانية وبلاد فارس ، كان السبب الرئيس فيها دسائس روسيا ، وإدخال جواسيسها في أرجاء العالم الإسلامي لخلق جو من التوتر والنفور ضد الدولة العثمانية . وشيئاً فشيئاً زادت الفتنة والعصيان وامتدت لستين .⁽³⁾

وفي الوقت الذي كانت الدولة العثمانية منشغلاً بحروبها ومشاكلها في أوروبا ، قامت القوات الفارسية بالاعتداء على الحدود العثمانية ، إذ بدأ عباس مرتز ابن الشاه فتح علي ، الهجوم على الجانب الشرقي من الأناضول ، فيما قام محمد علي مرتز ابن الآخر للشاه ففتح على بالهجوم على منطقة العراق ، ولم تتمكن الدولة العثمانية من إرسال جيش مجهز بالشكل الذي يدافع عن حدود الدولة لانشغلتها بمشاكل أخرى ، فاستغل الإيرانيون ذلك وقاموا بالاستيلاء على العديد من قلاع وحصون في المنطقة .

وفي هذه الأثناء انتشر وباء الكولييرا بين الجيش الفارسي مما أسفى عن كثير من الضحايا في الجيش بما فيهم قائدتهم محمد علي مرتز ، فاضطر شاه فارس إلى طلب الصلح من الدولة العثمانية والانسحاب من الأراضي التي استولى عليها الجيش الفارسي ، وعقد الصلح بين الدولتين في 1 ذو الحجة 1239هـ / 28 يوليو 1823م⁽¹⁾ ، وبهذا نجت الدولة العثمانية من الخطر الفارسي بفضل العناية الإلهية ، ثم بفضل وباء الكولييرا الذي خف من الحرب والمناوشات ، وحقن دماء المسلمين .

لا شك أن حرب إيران ضد الدولة العثمانية كانت بسبب الوشايات الخارجية التي أسهمت بدرجة كبيرة في تردي العلاقة بين الطرفين .

ثامناً: علاقة السلطان محمود الثاني مع محمد علي باشا والتي مصر . فقال عنها: " وبينما لم يزل محافظاً على ولاته للسلطان محمود الثاني قام محمد علي بتحويل مصر تدريجياً إلى دولة كبيرة ".⁽²⁾

إن التناقض واضح جداً في الجملة السابقة ، فكيف يكون محمد علي على ولائه للسلطان محمود الثاني ، ويسعى إلى تحويل مصر تدريجياً إلى دولة كبيرة ، إن في ذلك دليل واضح على أنه سعى لأن تصبح مصر والشام دولته القادمة المستقلة عن الدولة العثمانية ، في الوقت نفسه حاول المستشرق ليفي أن يحسن من صورة محمد علي باشا ، فلم يصوّره

⁽³⁾ إبراهيم حلبي : مصدر سابق ، ص 208 .

⁽¹⁾ Sanizade Ataullah Efendi , Tarih – i Sanizade III , Istanbul 1291 , S. 127 – 129 , 145 – 146 ; IV , S. 48 – 49 .

⁽²⁾ A.Levy : mahmad II , The Encyclopaedia of Islam , Volume VI , P 59 .

كعدو للدولة العثمانية وذلك من أجل أن لا يلقي الضوء على الدور الذي لعبه محمد علي باشا مع أوروبا ضد الدولة العثمانية .

إن بوادر خروج محمد علي عن سيطرة السلطان محمود الثاني بدأت مبكراً فمنذ أن بدأ يبالغ في إظهار نفسه كخادم مطيع للسلطان محمود الثاني ، أدرك أبعاد موقفه ، فأمر بنقله من ولاية مصر ، لكن العلماء وأعيان مصر تدخلوا لثبيته في الولاية ، فأصدر السلطان فرماناً آخر بذلك لإعادته على ولاية مصر في 24 شعبان 1221هـ / 6 نوفمبر 1806م⁽³⁾.

وهنا بدأ محمد علي تدعيم مركزه الشخصي وثبت نفسه على ولاية مصر ، وليس من المستبعد بل ومن المؤكد أن فرنسا كانت تساند محمد علي ليكون شوكة في ظهر الدولة العثمانية ، فطبيعة الدول الأوروبية في هذه الفترة تشجع الحركات الإنفصالية وتاريخهم يظهر ذلك بوضوح لضعف الدولة وفتح جبهة جديدة عليها ، لأنه قد ثبت تماماً استعانته بهم لتحديث النظم في مصر وجعلها كأوروبا ، وقد كانت الصحف الفرنسية تدعم موقفه وتحاول أن تصوره على أنه حليف قوي للعثمانيين على اعتبار أنه أعد مصر على النظم الأوروبية مما يعطيها تميزاً عن باقي ولايات الدولة العثمانية .⁽¹⁾ هذه حقيقة موقفه من السلطان العثماني ، وقد اتضح مع مرور الزمن .

ويظهر هذا الموقف بوضوح عند القضاء على الدولة السعودية الأولى ، حيث أرجع إبراهيم باشا الحجاز للدولة العثمانية ، لكن لكي ينفذ حلم والده في تكوين دولة مستقلة عن الدولة العثمانية أستمر بالمسير إلى عاصمة الدولة السعودية الأولى الدرعية وحاصرها بمنتهى القسوة والعنف ، ولم يقبل بشروط الصلح التي عرضها الإمام عبد الله بن سعود وانتهى الأمر باستسلام الأخير لإبراهيم باشا وتمير الدرعية تماماً ، ونهبها وإلحاق الضرر بالأهالي ، على الرغم من أن مرسوم السلطان العثماني اقتصر فقط على تخليص الحرمين الشريفين والوصية بالدرعية والتجار ، لكن محمد علي لم يلتزم بهذا الأمر وضرب به عرض الحائط ، وتقديم في سبيل تحقيق أهدافه وذلك في عام 1234هـ / 1818م ، لقد كان محمد

⁽³⁾ محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص 391 .

⁽¹⁾ علي محمود الصلاibi : مرجع سابق ، ص 546 . أرشيف رئاسة الوزراء بإسطنبول : وثيقة D - 40958 / 954 . HAT

علي من الولاية العثمانيين الذين وجها ضربات موجعة للدولة العثمانية ، وهو كما قال عن نفسه : " شخص بعقل أفرنجي وهو يلبس القبعة العثمانية " .⁽²⁾

إن موقفه في القضاء على الدولة السعودية يعد ظهوراً مبكراً جدًا لأطماع محمد علي باشا الاستقلالية ، تتضح صورتها مع إخماد الثورة اليونانية ثم حرب الشام الأولى والثانية . تاسعاً : القضاء على الانكشارية . فقال :

" وفي محاولة لإضفاء موافقة عالمية عليها عمد النظام إلى تسميتها بعبارة الواقعة الخيرية وعهد إلى مؤرخ المحكمة أسعد أفندي بأن يدون ذلك القرار الرسمي للأجيال القادمة ، وتمت طباعة المدونة التاريخية التي أعدها أسعد أفندي عام 1828م تحت عنوان أَسْ ظَفَر " .⁽³⁾

صور ليفي الحدث على أنه عديم الأهمية وأن المؤرخ أسعد أفندي هو من أعطاه الأهمية بإخراج المدونة التاريخية " أَسْ ظَفَر " علماً بأن مسألة تاريخ حدث بهذه الأهمية هو عادة لجميع الحكام ولا يحتاج لسخرية من العلماء ، لأن كل حاكم كان يقوم بحمله أو عمل مهم يورخ له مباشرة ، وأبلغ دليل على ذلك حملة نابليون بونابرت والعلماء الذين رافقوه إلى مصر وأرخوا لكل شاردة وواردة فيها .

لقد كان السلطان محمود الثاني يفكر منذ توليه الحكم في حل الفرقة الانكشارية التي أصبحت في الفترة الأخيرة مصدرًا للمشاكل والخلاف والفوضى ، لكنه كان ينتظر الفرصة المواتية لذلك ، وعندما سُنحت له الفرصة في 23 ذي القعده 1242هـ/ 15 يونيو 1826 أمر بقصف معسكر الانكشاريين الواقع في ميدان الخيول " آت ميدان " القريب من طوب قابي سراي ، وقد توفي في هذا القصف المدفعي حوالي سبعة آلاف من الانكشاريين ، وفرّ الذين نجوا من الموت إلى خارج إسطنبول ، وبهذا تخلصت الدولة العثمانية من مكرهم ، وكان هذا الحادث في صالح الدولة والمجتمع على السواء ، ولذلك عرف في التاريخ باسم " الواقع الخيرية " ،⁽¹⁾ وقد تبع إلغاء الانكشارية إلغاء العديد من الرتب والوظائف العسكرية داخل الدولة العثمانية .⁽²⁾

⁽²⁾ علي محمد الصلايبي : مرجع سابق ، ص 554 – 574 .

⁽³⁾ A.Levy : mahmad II , The Encyclopaedia of Islam , Volume VI , P 59 .

⁽¹⁾ أرشيف رئاسة الوزراء بإسطنبول وثيقة HAT.H 17393: نقاً عن أمانى جعفر الغازى : مرجع سابق ، ص 375 .

أرشيف رئاسة الوزراء بإسطنبول وثيقة HAT.H 17354: نقاً عن أمانى جعفر الغازى : مرجع سابق ، ص 382 . Mustafa Nuri Pasa , Netayicu'l – Vukuat , Istanbul 1327 , S. 76 – 77 .

⁽²⁾ أرشيف رئاسة الوزراء بإسطنبول وثيقة L – 43944 / 1076 HAT –

إن مسألة القضاء على الانكشارية كانت ضرورة حتمية حتى تستمر الدولة العثمانية ؛ نظراً لتأريخهم الطويل في التمردات ورفض النظم العسكرية الحديثة، وتعذيباتهم وظلمهم للأهالي في الولايات ⁽³⁾، ولم يكن ممكناً إصلاحهم ، فكان القضاء عليهم هو الحل الأفضل لإدخال النظم العسكرية الحديثة في الجيش العثماني ، ليصبح لديه القدرة على مواجهة التحديات الأوروبية .

لقد أسسَت العساكر المنصورة المحمدية على أحدث طراز ، وتوفّرت لها جميع الإمكانيات والمستلزمات والدعم المادي ⁽⁴⁾، والذي لم يكن ليوجد بهذه الصورة إذا بقيت الانكشارية ، لذلك وبالقضاء على الانكشارية دفعت حركة الإصلاح ودب النشاط في أجزاء الدولة العثمانية ، وسرع تكوين العساكر المنصورة على النظم الأوروبية ، حتى إنه خُصصت لهم خزينة خاصة ودرّبت على الأسلحة الحديثة خاصة المدفعية ، وذلك بمساعدة من بروسيا. ⁽⁵⁾

لكن المؤسف في الأمر أن الدول الأوروبية لم تعط السلطان محمود الوقت الكافي لجني ثمار هذا الإصلاح ، حيث عقدت بريطانيا وفرنسا وروسيا الحلف الثلاثي عام 1243هـ / 1827م الذي من أهدافه إكراه السلطان محمود الثاني على منح بلاد اليونان استقلالها .

ثم كان انقطاع علاقة السلطان محمود الثاني بمحمد علي باشا ، فزادت الهوة بينهما ، ورفض الأخير مساعدة السلطان محمود الثاني في إرسال خبراء عسكريين لتدريب العساكر المنصورة ، مما جعل السلطان يستشعر الريبة منه.

ثم كانت جاءت معااهدة أدرنة الحزينة التي أرغم السلطان محمود الثاني على توقيعها عام 15 ربيع أول 1245هـ / 14 سبتمبر 1829م والدموع تماماً؛ عينيه لأنها بحق كانت أسوأ معااهدة في التاريخ العثماني . ⁽¹⁾

فكيف بعد هذه الأحداث تظهر نتائج الإصلاح؟! إن إصلاحاته طُمرت تحت كم الأطماع الأوروبية ، في الوقت نفسه عبر كرامز عن الواقعة الخيرية في مادة الترك : " ومع

⁽³⁾ أرشيف رئاسة الوزراء بإسطنبول : وثيقة L - HAT - 426 / 21862

⁽⁴⁾ أرشيف رئاسة الوزراء بإسطنبول : وثيقة 28938 - HAT - 589

⁽⁵⁾ أرشيف رئاسة الوزراء بإسطنبول : وثيقة A - HAT - 1209 / 47374

⁽¹⁾ أمانى جعفر الغازى : مرجع سابق ، ص 386 - 391 .

ذلك فقد دلت الحوادث على أن فعلة محمود الثاني هذه كانت أقرب إلى التخريب منها إلى التعمير".⁽²⁾

وذلك في محاولة منه لوصف إصلاحات محمود الثاني بالتخريب وعدم الفائدة ، على الرغم أنه لو نقب قليلاً في المراجع لاكتشف مدى خطأ رأيه ، وأن بلاده كانت السبب في عدم ظهور نتائج هذه الواقعة الخيرية ، وعلى الرغم من المواقف العسيرة التي مر بها عهد السلطان محمود الثاني إلا أن الإصلاحات التي قام بها أدت إلى إعادة الصبط والربط والهدوء في الولايات وبين الأهالي .⁽³⁾

عاشرًا : حقيقة معركة ميناء نوارين . فقال :

"فإن الكارثة التي حلت باليونانيين أدت إلى تدخل الأوروبيين فعرضت كل من بريطانيا وفرنسا وروسيا التوسط في القضية ، إلا أن العثمانيين رفضوا هذا العرض باعتبار أن النزاع هو شأن داخلي ، واجه الأوروبيون هذا الموقف بإرسال أسطولهم البحري إلى اليونان ، وفي يوم 20 أكتوبر 1827م وفي ميناء "تافرینو" قاموا بتدمير أسطول عثماني - مصرى مشترك "⁽¹⁾

ظلت أوروبا حريصة دائمًا على تمزيق الدولة العثمانية ، وذلك بإثارة الفتن الطائفية الدينية وتجيير الثورات الداخلية بدعمها المادي والمعنوي المتواصل وإنشاء الجمعيات السرية بدعم روسي ، وبتشجيع من القيصر إسكندر الأول نفسه، وأهمها جمعية في أوديسا فيبلاد اليونان على اعتبار أنها جزء من الدولة العثمانية، وهدفت هذه الجمعيات إلى إحياء الإمبراطورية البيزنطية تحت إدارة البطريركية الأرثوذوكسية الرومية في إسطانبول ، أما القيصر الروسي فبدأ تحين الفرصة للتدخل في شؤون الدولة العثمانية وافتعال الأزمات ، وبدأ رجال الدين باستخدام نفوذهم على الشعب والعمل على تحريكه للثورة ضد الدولة العثمانية ، خاصة وأنهم على علاقات وثيقة برجال وسياسيين في أوروبا ، مما سهل نقل موجة الكره والحقد على الدولة العثمانية إلى أوروبا وخاصة الولايات العثمانية منها .⁽²⁾

وهذا ما اتضح سابقاً عن دور رجال الدين في دعم الكراهية والحقد على الدولة العثمانية .

⁽²⁾ كرامز : مادة الترك ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 5 ، ص 184 .

⁽³⁾ أرشيف رئاسة الوزراء بإسطانبول : وثيقة A . 46746 / 434 - HAT - 1185 .

⁽¹⁾ A.Levy : mahmad II , The Encyclopaedia of Islam , Volume VI , P 59 .

⁽²⁾ عبد المنعم الهاشمي : مرجع سابق ، ص 433 ، 434 . علي محمد الصلاحي : مرجع سابق ، ص 574 ، 575 .

واشتعلت الثورة في بلاد اليونان بناءً على المعطيات السابقة ، وطلب السلطان محمود الثاني من الوالي محمد علي باشا والي مصر بأن يخضع بلاد اليونان ويعيدها إلى حكم الدولة العثمانية ، واستطاع إبراهيم باشا القيام بهذا الأمر لتحقيق مأرب خاصة بمحمد علي باشا ، وإجهاض حركة التمرد في المورا ، ودخل أثينا عام 1241هـ / 1823م رغم وقوف بريطانيا وروسيا في صف اليونان .⁽³⁾

وهنا بدأ الإعلام القيام بدوره ، فأشاعت الصحافة الأوروبية أن إبراهيم باشا يذبح اليونانيين ، ويبيع الباقى عبیداً ، ويحل محلهم فلاحين مصرىين ، فهاج الرأى العام الأوروبي وطالب أوروبا بضرورة التحرك لإنقاذ اليونان من نيران المستعمر التركى .⁽⁴⁾

لقد أدى قيام الدولة العثمانية بقمع الحركة التمردية في بلاد المورا إلى تعاطف الدول الغربية مع الروم ، فاجتمعت كل من بريطانيا وفرنسا وروسيا بلندن في 1 محرم 1243هـ / 6 يوليو 1827م ، وكشفت عن وجهها الحقيقي ، وأعلنت حمايتها لليونان ، بل إن روسيا كان تدعم التمرد اليوناني علناً ، ورأى أن الفرصة سانحة لدخول إسطنبول وإعادتها إلى عهدها السابق مركزاً للصلبية والوثنية ، ووقف الإنجليزي إلى جانب روسيا ، وقررت إنجلترا استخدام الضغط على الدولة العثمانية للانسحاب من بلاد المورا ، وبدأت القوات البحرية المشتركة لهذه الدول بمحاربتها ، وفي هذه الأثناء كان الأسطول العثماني مرابطًا في ميناء نوارين وهدد قائد الأسطول البريطاني قائد الأسطول العثماني إبراهيم باشا بأنه إذا لم يغادر بلاد المورا سيفصف الأسطول ، لكن الباشا لم يستجب لهذا التهديد ، فهاجمت القوات البحرية الصليبية ميناء نوارين في 24 محرم 1243هـ / 1827م وقامت بصف الأسطول العثماني لمدة ثلاثة ساعات ونصف الساعة بحيث تحطم الأسطول العثماني وغرقت سفينه عثمانية واستشهد 8000 من القوات البحرية العثمانية .⁶⁷

فاحتاجت الدولة العثمانية وأخرجت سفراً الإنجليز والفرنسيين والروس من إسطنبول ، وطلبت الغرامة من تلك الدول لأنها هاجمت الأسطول العثماني في حالة السلم ، ولكن تلك الدول أرادت الهروب من المسؤولية واتهمت قادة قواتها البحرية بأنهم قاموا بذلك الهجوم بدون إذن من دولهم ، ثم عزلت الحكومة البريطانية قائد الأسطول البريطاني من منصبه .

⁽³⁾ محمود شاكر : مرجع سابق ، ص 240 ، 241 . علي محمد الصلايبي : مرجع سابق ، ص 582 .

⁽⁴⁾ علي سلطان : مرجع سابق ، ص 281 .

والحقيقة أن بريطانيا وفرنسا اكتفتا بما حدث في نوارين وما كانتا تريدين الدخول في حرب مع العثمانيين ، لكن القبصر الروسي نيقلا استغل خسائر الأسطول العثماني في نوارين وضعف الجيش العثماني فقام بإعلان الحرب على الدولة العثمانية في 20 شوال 1244هـ / 26 إبريل 1828م ، حيث بدأ الجيش الروسي بالتلغل داخل البلقان والقفقاس وهدفه المواصلة إلى إسطنبول ، فاجتمع الديوان الهمایونی العثماني برئاسة السلطان محمود الثاني وقرر إعلان الحرب على روسيا وعين والي بروسة آغا حسين باشا قائداً عاماً للجيش⁽¹⁾ ، وقد تقدمت الجيوش الروسية بسرعة فائقة فوصلت مشارف أدرنة من جهة ، واستولت على قارص وأرضروم واردahan من جهة أخرى ، وهنا حاول بالدولة العثمانية خطر كبير من الغرب والشرق ، لكن التقدم الروسي كان يعارض المصالح الفرنسية في المنطقة ، فقادت فرنسا بإقليم روسيا بعقد الهدنة مع الدولة العثمانية ، ومن جهة أخرى كان القبصر نيقلا يعاني من المشاكل الداخلية التي ظهرت في روسيا في تلك الفترة ورأى أن لا يبقى الجيش بعيداً عن العاصمة الروسية فوافق على فكرة الصلح مع الدولة العثمانية ، وأبرمت معاهدة السلام بين الدولتين في أدرنة في 15 ربيع الآخر 1245هـ / 14 سبتمبر 1829م وذلك بتوسط فرنسا ، ⁽¹⁾ وقد تعهدت روسيا بموجب هذه المعاهدة بإعادة كافة المدن التي استولت عليها خلال الحرب باستثناء الجزر الواقعة على مدخل نهر طونة ، والانسحاب من الأفلاق والبغدان وبلغاريا ، فيما تعهدت الدولة العثمانية بمنح الامتيازات إلى البغدان والأفلاق ، كما تعهدت بمنح السفن الروسية حق العبور من المضائق التركية ، إضافة إلى الامتيازات التي منحتها إلى التجار الروس ، ودفع غرامة مالية إلى روسيا .

وفي الحقيقة أن فرنسا استفادت من وقوع الدولة العثمانية في مضائق إثیر هزيتها أمام روسيا ، فقادت بإحتلال بلاد المورا عقب إنهاء وجود الأسطول العثماني فيها ، وتبع ذلك انفصال اليونان من الدولة العثمانية وإعلان استقلالها في 16 صفر 1245هـ / 15 أغسطس 1829م . ⁽²⁾

⁽¹⁾ علي محمد الصلابي : مرجع سابق ، ص 852 .

Lutfi , Tarih , I , S . 402 – 403 , II , S. 86 .

⁽²⁾ إسماعيل سرهنوك ، حقائق الأخبار ، ج 1 ، ص 684 .

Mecmu – i Muahedat , IV ; Vasif , Tarih , I.U. Kutup . Ty 5980 , , S. 70 .

⁽²⁾ Ahmed Lutfi Efendi , Tarh – i Lutfi , II , Istanbul 1290 , S . 4-5 .

وأعقب ضياع بلاد المورة ، إحتلال فرنسا للجزائر حيث بدأت فرنسا تلتهم بلاد المغرب العربي ، وذلك لأن الثمرة نضجت .

لقد قاوم والي الجزائر داي حسين باشا الإحتلال الفرنسي بالاستيلاء على السفن التجارية الفرنسية ، ثم قام بإحتقار السفير الفرنسي الذي قدم للتفاوض معه حول إخلاء السفن. فقامت فرنسا بتوجيه إنذار إلى الدولة العثمانية ، وفي الوقت نفسه قام الأسطول الفرنسي المكون من مائة سفينة حربية بالهجوم على الجزائر في 2 محرم 1246هـ / 12 يونيو 1830م ، فلم يتمكن الوالي من الصمود أمام هذه القوة ، كما لم تستطع الدولة العثمانية إرسال معونة عسكرية إلى الجزائر لعجزها العسكري نتيجة الحروب المتعددة مع الدول الأوروبية ، وبعد الجزائر عن مركز الدولة ، وبذلك بدأ الاحتلال الفرنسي الغاشم ، والمظالم الفرنسية على الشعب الجزائري المسلم . فبدأ الشعب الجزائري النضال والجهاد ضد الفرنسيين بزعامة المجاهد عبد القادر الجزائري . وبعد وفاة هذا المجاهد عام 1264هـ / 1847م، واصل الجزائريون كفاحهم ضد الفرنسيين الذين حکموهم بالدم وال الحديد ، حتى أنهم قتلوا في سنة 1288هـ / 1871م مائة ألف مسلم جزائري .⁽³⁾

أن الفرنسيين الذين يزعمون أنهم شعب متمدن ، وأنهم هم الذين نشروا العدل والحقوق والمساواة والحرية في العالم ، وأصلوا ظلمهم وطغيانهم على الشعب الجزائري المسلم أكثر من قرن وربع القرن من الزمن .

وعلى الرغم من قوة السلطان محمود الثاني والإصلاحات التي قام بها ، إلا أنه ابْتلي بعدة كوارث أجهضت الحركة الإصلاحية التي قادها ، أهم أسباب هذا الإجهاض كان تربص روسيا المستمر الذي تُرجم في سياسة هدفت إلى تعطيل نتائج الإصلاحات قدر الإمكان ، وذلك عن طريق الحروب المستمرة وتكتيلها بالمعاهدات المجنفة في حق العثمانيين ، وصارت الدولة العثمانية تدور في محور هيمنة روسيا ، وارتکز منها الخارجي على التشاور بين الدول الأوروبية ، ويأتي دور فرنسا الفعال في التهام أجزاء من الدولة العثمانية بعد تفتح شهيتها .

وحلَّت كارثة جديدة بعد ضياع الجزائر على السلطان محمود الثاني ، وهي قيام الوالي محمد علي باشا بالانفصال رسميًا عن الدولة العثمانية ، وإعلان استقلال مصر تحت

⁽³⁾ Ali Riza Pasa , Miratu'l – Cezayir , terceme : Ali sevki , Istanbul 1293 , S . 52 – 55 .

زعامته عام 1249هـ / 1833م ، فبدأ في مصر - منذ ذلك التاريخ - حكم محمد علي باشا وأسرته من بعده .⁽¹⁾

الحادي عشر : لم يذكر المستشرق أي شيء عن وفاة السلطان محمود الثاني :

لم يوضح المستشرق ليفي كيفية وفاته ، أو الأسباب التي أدت إلى ذلك وكأن الأمر لا يخص إصلاحاته التي قضى عمره فيها ، ولم ير نتائجها .

للأسف كانت حياته سلسلة من الكفاح القاسي للإنجاز شيء في بلاده ، لكنه أصيب بخيبة أمل حيث لم يجن ثمار أعماله لأنها خُفت في المهد ، ولم تز النور .

لقد توفي كعمه وأبيه نتيجة للأثار السيئة التي تركتها الحرب الروسية في صحته ، حيث أصيب ببعدي مرض السل ، وانحرفت صحته بشدة ، قبل ظهور أعراض المرض عنده بخمسة أشهر ، فأشار عليه الأطباء بتبدل الهواء ، فنقل إلى مصيف جامليجة في ضواحي إسطنبول ، لكن المنية عاجله في 19 ربيع الآخر 1255هـ / 1 يوليو 1839م ، ولم يتجاوز ذلك 53 بـ 11 شهراً و 12 يوماً ، دامت سلطنته 31 عاماً قضاها في محاولة مستمرة لمد عمر الدولة العثمانية.⁽¹⁾

انتهى عصر السلطان محمود الثاني الذي بدأ فيه حركة الإصلاح على الطريقة الغربية مع التمسك بأسس وقواعد الشريعة الإسلامية ، واستمر في هذه السياسية ابناء السلطان عبد المجيد الأول ، والسلطان عبد العزيز ، ولا شك أنه من الضروري فهم تداعيات عهد السلطان عبد العزيز وإزالته الغموض عنه لربط أحداث عهده بما حدث قبله وبعده ، خاصة إذا ما علمنا أن أغلب المراجع والمصادر القديمة كثيراً ما أهملت عهده لاتصافه بالغموض في بعض الأحيان .

وحتى مادة السلطان عبد العزيز نتعرف فيها على مستشرق جديد لأول مرة يقدم لنا مادة وهو كارل ، الذي قدم المادة في دائرة المعارف الإسلامية بشكل جيد نوعاً ما ، كما أنه كان واضحاً وصريحاً في عرض المادة العلمية وبمنتهى السهولة ، لكن الأمر لا يخلو من إدخال بعض الأفكار المنحرفة قليلاً عن صحة الحدث التاريخي ، لكن تشويهه للأحداث لم يصل إلى حد من سبقوه مطلقاً .

⁽¹⁾ إسماعيل سرهنوك ، حقائق الأخبار ، ج 1 ، ص 686 - 688 .

⁽¹⁾ يلمازا أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج 2 ، ص 23 . علي حسون : مرجع سابق ، ص 178 .

ومع ذلك فهي تعتبر أفضل مادة قدمت عن سلطان في نظر الدراسة ، إذ خلت في كثير من الأحيان من الشوائب التي أُلصقت ببقية السلاطين . وستتفاوض الدراسة المادة من خلال نقطتين :

- أولاً : إبراد الثورات والتمردات التي حدثت في عهده دون تفصيل للأحداث ⁽²⁾ .
- ثانياً : ذكر الأسباب الصحيحة لعزله ، ثم أردها بأسباب من وحي خياله ، وجزم إلى حدٍ ما بصحة انتصاره . ⁽³⁾

وعبد العزيز هو السلطان الثاني والثلاثون للدولة العثمانية ، وابن السلطان محمود الثاني ، ولد في 23 شعبان 1246هـ/ 7 فبراير 1830م بإستانبول ⁽⁴⁾ ، تلقى العلوم الدينية والعلوم الثابتة منذ صباه على يد كبار العلماء ، وتعلم اللغة العربية والفارسية ، وتدرّب على ركوب الخيل والمصارعة واستخدام السيف ورمي الرماح ، إضافة إلى استخدام الأسلحة النارية الحديثة ، وبُويع له بالسلطنة في 17 ذي الحجة 1277م / 20 يونيو 1861م عقب وفاة أخيه السلطان عبد المجيد . ⁽¹⁾

وعلى الرغم من أنه تولى الحكم في عصر أحاطت فيه بالدولة العثمانية كثير من الأزمات والثورات إلا أنه حاول قدر الإمكان عمل كثير من الإصلاحات لحماية عرش أجداده . لكن الدول الأوروبية ظلت متربصة بهذه الإصلاحات حتى قضت عليها .

لقد أقر إصلاحات مالية وإدارية كانت قد بدأت قبل توليه الحكم ، بل وأضاف عليها الكثير ، وكان يرسل بتعليماته الخاصة للولايات لإتمام اللازم . ⁽²⁾

لقد ارتقى السلطان عبد العزيز العرش في وقت كانت فيه خزينة الدولة تعاني من نقص في الموارد المالية كبير ، واستمرار الدول الغربية بالتدخل في شؤون الدولة العثمانية ، كما زادت الأقليات - القاطنة داخل حدود الدولة العثمانية - من حركات التمرد والعصيان لمحاولة الانفصال عنها .

⁽²⁾ E.Z.Karal : Abd Alaziz , the Encyclopaedia of Islam , Volume I , Leiden E.J. Brill : 1968 , P. 56 .

⁽³⁾ E.Z. Karal : Abd Alaziz , the Encyclopaedia of Islam , Volume I , Leiden E.J. Brill : 1968 , P. 56 .

⁽⁴⁾ Mahmud Celaleddin Pasa , Mir'at – i Hakikat , I , Istanbul 1326 , S . 121 .

⁽¹⁾ Ahmed Cevdet Pasa , Ma'ruzat , nsr : Yusuf Halacoglu , Istanbul 1980 , S. 30-33 .

⁽²⁾ أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول : وثيقة 57 / HR – TO 122

وأول ما قام به السلطان عبد العزيز هو إنقاذ الدولة من العجز المالي الذي وقعت فيه، فقرر تخفيض مرتبه الخاص ، كما أمر بجمع القطع الذهبية والفضية الموجودة في القصر وأرسالها إلى دار الضرب لصهرها وتحويلها إلى نقود ، هذا بالإضافة إلى أنه قام بتقليل عدد موظفي البلاط العثماني ، كما قام بتخصيص ثلث واردات الخزينة الخاصة لخزينة الدولة ، فبدأت أمور الدولة المالية تتحسن تدريجياً نتيجة هذه الإجراءات والتدابير ، ومن أهم منجزات السلطان عبد العزيز قيامه في سنة 1281هـ / 1864م بإصدار قانون لتنظيم حكومات الولايات ⁽³⁾، وتجديد الجيش والأسطول العثماني وتجهيزه بالأسلحة الحديثة . ⁽⁴⁾ كما قام بتشكيل ديوان الأحكام العدلية وإصدار "المجلة" المتكونة من مقدمة و 16 مجلداً لتطبيقها والعمل بها في المحاكم العدلية ⁽⁵⁾ ، وفي عام 1285هـ / 1868م أسس مجلس الدولة للشوري "شواري دولت" على غرار المجالس الفرنسية ، وذلك للنظر في الشؤون المالية والميزانية . ⁽¹⁾

واهتم السلطان عبد العزيز كذلك بال التربية والتعليم ، حيث أصدر قانون المعارف عام 1286هـ / 1869م ، وجعل التعليم الابتدائي إلزامياً على جميع المواطنين ، واشترط أن يكون موظفو الدولة من خريجي المدارس العالية ، وقام بإنشاء ثانوية "غلطه سراي" التي كان التعليم فيها باللغة الفرنسية ، كما تأسست في زمانه - أيضاً - داراً للمعلمين العالية وداراً للمعلمات العالية في إسطانبول ، ثم افتتحت كلية اللغة في عام 1281هـ / 1864م ، وكلية الطب في عام 1283هـ / 1866م ، وكلية الصيدلة في العام نفسه ، وكلية الهندسة في عام 1285هـ / 1868م، وكلية البحرية في 1287هـ / 1870م ، ثم كلية العلوم والآداب في العام نفسه .

وببدأ السلطان عبد العزيز بإيفاد الطلاب للدراسة في الجامعات الأوروبية، للعمل في الكليات التركية ، وأنشأ السكة الحديدية بين الولايات العثمانية ، وبين إسطانبول وبعض المدن

⁽³⁾ أميرة مراح : نظرة متأنية في تاريخ الدولة العثمانية ، ص 74 . لمزيد من المعلومات الرجوع إلى : عبد الفتاح أبو عليه : مرجع سابق ، ص 340 ، 341 .

⁽⁴⁾ ربيع عبد الرؤوف الزواوي ، مرجع سابق ، ص 68 .

⁽⁵⁾ أحمد صائب بك: وقعة السلطان عبد العزيز ، ترجمة : محمد توفيق جانا ، مصر : مطباع هندية بالأزبكية ، 1319هـ ، ص 54 ، 55 . إسماعيل سر هنك ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص 331 .

⁽¹⁾ أحمد صائب بك : مرجع سابق ، ص 50 . أميرة مراح : نظرة متأنية في تاريخ الدولة العثمانية ، ص 74 . علي محمد الصلاibi : مرجع سابق ، ص 621 ، 622 .

الأوروبية ، كما قام أيضاً بتوسيع شبكة التلغراف (البرق)؛ وذلك من أجل تسهيل الاتصالات ، وبإنشاء النفق الذي يمر منه الترام لأجل سرعة المواصلات داخل إسطنبول ، وأنشأ جسر حديدي على خليج القرن الذهبي، وبدأ بتشييد قصر جراغان على ضفاف الجانب الأوروبي في مضيق البوسفور ، وقصر بكاربكي على الساحل الآسيوي من مضيق البوسفور .

على الرغم من الإصلاحات والتجديفات التي أحدثها السلطان عبد العزيز لأجل تطور الدولة من النواحي التربوية والإدارية والعسكرية ووصولها إلى مستوى الغرب في المجالات المذكورة ، إلا أنه كان يجاهد من جهة أخرى على إلغاء بعض البرامج التي تخالف الشريعة الإسلامية لأنه كان متمسكاً بالدين الإسلامي الحنيف .

وقد قام السلطان عبد العزيز برحلة إلى كل من مصر وأوروبا بصحبة بعض وزرائه وبعض أبنائه ، حيث سافر أولاً إلى القاهرة عام 1280هـ / 1863م وذلك بدعوة من الخليوي إسماعيل باشا ، ثم سافر إلى باريس عام 1284م / 1867م ، وذلك بدعوة من الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث ، ثم انتقل من باريس إلى لندن في العام نفسه بدعوة من الملك إدوارد السادس ، وأنثاء عودته إلى إسطنبول مرّ على بلجيكا وبروسيا والنمسا .⁽¹⁾

لقد قام السلطان عبد العزيز بكثير من الإصلاحات وأعاد جوهر بناء الدولة العثمانية ، ولكن داخل إطار الشريعة الإسلامية ، ولو قدر للإصلاحات السابقة الذكر أن تجني ثمارها لكان وضع الدولة العثمانية أفضل مما آلت إليه ، خاصة أن إصلاحاته شملت جميع النواحي الإدارية والقضائية والتعليمية والاقتصادية ، لكن الدول الأوروبية تأبى أن يتنفس الصعداء فكانت تقف له بالمرصاد ، حيث أحجمت هذه الإصلاحات ، ولم تسمح لها بالاستمرار ، بالإضافة إلى اختناق الخزينة العامة بالديون ، وكثرة المصاريف التي صرفت على هذه الإصلاحات ، مما أدى إلى القضاء على هذه الإصلاحات ، وعزل السلطان عبد العزيز وقتله . ولنقلني نظرة على نقد النقاط التي وردت في مادة السلطان عبد العزيز :

أولاً : إيراد الثورات والتمردات التي حدثت في عهده دون تفصيل للأحداث. فقال:

⁽¹⁾ علي حسون ، مرجع سابق ، ص199 ، إبراهيم حليم : مصدر سابق ، ص 218 ، 219 . علي محمد الصلايبي : مرجع سابق ، ص622 .

Ma'ruzat , nsr : Yusuf Halacoglu , Istanbul 1980 , S. 57 – 61 ; Ali Kemal Aksut , Sultan Aziz'in Misir ve Avrupa Seyahati , Istanbul 1944 .

" في وقت كانت دولته محاطة بالثورات والإنقلابات في دول البلقان والهرسك والبوسنة وببلغاريا وصربيا وكريت " .⁽²⁾

لقد حدثت بالفعل حركات التمرد في عهد السلطان عبد العزيز ، لكنه أغفل تماماً الأسباب والملابسات كذب المستشرقين دائماً فلماذا الإحجام عن ذكر الحقيقة ، ويعود ذلك إلى أن الأسباب الرئيسية لحركات التمرد هي دسائس من أوروبا نفسها ، لذلك لن يعترف بها المستشرقون يوماً ؛ لأنه لو اعترف المستشرق بذلك لذكر الحقيقة التي تدل على مدى طغيان أوروبا التي ينتمي لها ، وفي هذا تبرئة لساحة الدولة العثمانية وإظهار للحقائق التي أبعد ما يكون المستشرق حريراً على ذكرها .

أما عن حركات التمرد فلها ملابسات خاصة بها فمثلاً نجد أنه في بلغراد بدأ الصربيون في عام 1279هـ / 1862م وبدعم من الدول الأوروبية باضطهاد المسلمين وإجبارهم على مغادرتها ، وكانوا يهددون من وراء ذلك الاستيلاء على جميع القلاع العثمانية الواقعة في المنطقة ، حيث قاموا بتعزيز قواتهم العسكرية حول هذه القلاع فاتخذت الدولة العثمانية التدابير اللازمة ضد الحركة الصربية ، وفي تلك الأوقات بدأ النزاع بين الأهالي المسلمين والنصارى في المنطقة ، وبدأ الصربيون بقتل المسلمين وتشريدهم ، فقامت الدول الأوروبية وعلى رأسها فرنسا بدعوة الدولة العثمانية إلى عقد مؤتمر لحل القضية الصربية ، وقد عقد المؤتمر في 12 ربيع الأول 1279هـ / في 8 سبتمبر 1862م في إسطنبول ، وصدرت القرارات الآتية :

- (١) إعطاء بعض القلاع العثمانية إلى الصرب .
- (٢) إلغاء مراكز الشرطة العثمانية الكائنة في بلغراد .
- (٣) إخراج المسلمين من بلغراد مع منحهم ضمانات مالية مقابل ممتلكاتهم . وقد أرغمت الدولة العثمانية بالموافقة على قرارات هذا المؤتمر .

ولم يكتفى الصربيون بهذا ، بل أخذوا يطالبون ببقية القلاع التركية وذلك بمساندة كل من فرنسا وبريطانيا ، فاضطر السلطان عبد العزيز إلى إصدار فرمان في 25 ذي القعدة 1284هـ / 20 مارس 1867م يتضمن إخلاء جميع القلاع التركية ومنحها إلى الصرب بما

⁽²⁾ E.Z.Karal : Abd Al Aziz , the Encyclopaedia of Islam , Volume I , P. 56 .

فيها بلغراد التي كانت تعرف بدار الجهاد عند العثمانيين ، وتعُد مركزاً للجيوش العثمانية في الحملات التي كانت تقوم بها في أوروبا الوسطى .⁽¹⁾

ثم بدأت روسيا بتحريض أهالي قراطاغ⁽²⁾ بالعصيان ضد الدولة العثمانية ، وبدأ القراطاغيون بالاشتراك مع عصاة الهرسك ل القيام بأعمال الشغب ضد الدولة العثمانية ، فأرسل السلطان عبد العزيز جيشاً لقمع هذه الحركات التمردية في قراطاغ والهرسك ، مما اضطر العصاة والمتمردين إلى الفرار أمام المدفعية العثمانية في موقعة ريقا ، وقد وجهت كلٌ من فرنسا وبريطانيا والنمسا وروسيا وإيطاليا في 17 صفر 1279هـ / 15 أغسطس 1862م إنذاراً إلى الدولة العثمانية لإيقاف الحرب .⁽³⁾ ومن جهة أخرى اضطر القراطاغيون إلى طلب الصلح من الدولة العثمانية إثر تقدم الجيش العثماني صوب العاصمة القراطاغية جتبينة ، فأبرمت معااهدة السلام بين الطرفين في إيسكودرا في 4 ربيع الأول 1279هـ / 31 أغسطس 1862م ، وتضمنت المعااهدة 14 بنداً ، من أهمها:

- ١) يتعهد القراطاغيون بعدم القيام بالحركات التمردية خارج حدود قراطاغ .
- ٢) يتعهد القراطاغيون بعدم استيراد الأسلحة والعتاد من الخارج .
- ٣) تشكيل نقاط تفتيش عسكرية عثمانية على طول الطريق بين قراطاغ والهرسك .
- ٤) في حالة حدوث مشاكل مع الدول الواقعة على حدود قراطاغ ستقوم الدولة العثمانية بحسمها .
- ٥) اشتراط حمل جواز السفر العثماني للداخلين إلى قراطاغ .

ثم قام أمير قراطاغ نيكولا بترويج بمراجعة السلطان عبد العزيز ، حيث طلب منه تخفيف شروط المعااهدة ، فوافق السلطان على ذلك معأخذ التدابير اللازمة.⁽¹⁾

ثم جاء دور أهالي كريت⁽²⁾ من النصارى حيث بدأوا بالتمرد ضد الدولة العثمانية وذلك بدعم من فرنسا وروسيا واليونان . وقاموا بتنظيم عريضة في

⁽¹⁾ يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج 2 ، ص 66 . Ali Suvi , Ali Pasa nin siyaseti , 1325 , S. 34.

⁽²⁾ قراطاغ : Montenegro ، ويطلق عليها العثمانيين قره طاغ ، أما الصربيون فيطلقوا عليها الجبل الأسود ، وهو إقليم صغير في يوكوسلافيا ، يقع على شاطئ البحر الأدرياتيكي إلى الشمال من ألبانيا ، أستقل عن الحكم العثماني عام 1295هـ / 1878م ، بموجب معااهدة برلين وأصبح مملكة عام 1328هـ / 1910م ، وأنضم إلى يوكوسلافيا عام 1336هـ / 1918م ، وعاصمتها تيتوكراد . محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص 532 .

⁽³⁾ Cevdet Pasa , Tezakir cuz 13 – 20 , Yayin : Cavid Baysun , TTK , Ankara 1986 , S. 142 – 144 , 151-153 .

⁽¹⁾ Ali Suvi , Ali Pasa nin siyaseti , Istanbul 1325 , S. 32 – 33 .

1 محرم 1283هـ / في 14 مايو 1866م تتضمن مطالبهم ، وأرسلوا نسخة منها إلى السلطان عبدالعزيز ، كما أرسلوا نسخاً عديدة منها إلى قناصل الدول الأجنبية،⁽³⁾ إلا أن الحكومة العثمانية وافقت على بعض المطالب ، ورفضت بعض المطالب الأخرى ، فقام المتمردون من النصارى بإشعال نار الثورة في 15 ربيع الآخر 1283هـ / 2 سبتمبر 1866م ، وقتلوا الأهالي المسلمين ، وطالبوها بإلحاقة جزيرة كريت باليونان ، وقد أثرت هذه الحركة على بقية الجزر الواقعة على بحر إيجة أيضاً.⁽⁴⁾

لكن الجيش العثماني الذي أرسله السلطان عبد العزيز استطاع قمع الثورة وإخمادها ، فرمت الدول الأوروبية التي خططت لحركة التمرد هذه وساندتها بالأموال والأسلحة ، وذلك بتوجيهه إنذار إلى السلطان عبد العزيز لإيقاف الحركات العسكرية في كريت ، كما اقترحت بتشكيل مجلس أوروبي لحل هذه القضية ، لكن السلطان الذي أكد عدم تخليه عن جزيرة كريت أرسل الصدر الأعظم علي باشا إلى الجزيرة لجسم المشكلة لصالح الدولة العثمانية .⁽¹⁾ فقام الباشا فور وصوله في 4 أكتوبر 1867م / 23 جمادى الأولى 1283هـ بمنح الحكم الذاتي جزئياً للجزيرة بناءً على رغبات الدول الأوروبية فتخلى العصاة عن أسلحتهم في انتظار الفرصة المواتية للانفصال عن الدولة العثمانية.⁽²⁾

لقد خاب أمل اليونانيين بمنح الدولة العثمانية الحكم الذاتي كاملاً لجزيرة كريت ، لأنهم كانوا يهدفون إلى إلحاقة الجزيرة باليونان وطالما خططوا لهذا الأمر ، فواصلوا دعمهم العسكري للمتمردين ل القيام بأعمال الشغب مما أدى إلى قتل عدد من المسلمين في الجزيرة ، عبرت الدولة العثمانية احتجاجاً على ذلك بطرد السفير اليوناني من إسطنبول ، واسترجاع سفيرها من أثينا ، وقطع العلاقات الدبلوماسية مع اليونان ، كما أغلاقت الموانئ التركية أمام السفن اليونانية ، ووجه السلطان عبد العزيز إنذاراً إلى الحكومة اليونانية وذلك لأجل حسم القضية الكريتية بشكل جذري.⁽³⁾

⁽²⁾ كريت : Crete – Cairid ، جزيرة في البحر المتوسط ، كثيرة الجبال ، ذات طبيعة قاسية ووعرة ، خضعت لحكم الإغريق ، ثم الرومان ، ثم حكمها المسلمون ، ثم الجنوبيون بعدهم البنادقة ، وفتحها العثمانيون عام 1080هـ / 1669م . س. موستراس : مرجع سابق ، ص 421 ، 422 .

⁽³⁾ Enver Ziya Karal , Osmanli Tarihi , VII , TTK , Ankara 1977 , S . 20

⁽⁴⁾ Lutfi , Tarih , XI , Yay . M.Munir Aktepe , TTK , Ankara 1989 , S . 56 – 58 .

⁽¹⁾ Ali Fuad , Rical – i Muhime – i Siyasiye , S . II ; Cemal Tekin , " Girit " IA , IV , S. 797 .

⁽²⁾ Ziya Pasa , Sultan Abdulziz elayiha , Istanbul 1327 , S. 18 .

⁽³⁾ Enver Ziya Karal , Osmanli Tarihi , VII , TTK , Ankara 1977 , S. 35 .

وفي الوقت نفسه قامت السفن الحربية العثمانية بحصار المناطق الساحلية لليونان ، فتدخلت الدول الأوروبية لحل القضية خشية من وقوع الحرب بين الدولة العثمانية واليونان ، فعقدت مؤتمراً في باريس في 17 ذي القعدة 1286هـ / 18 فبراير 1869م بمشاركة كلٌ من النمسا وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا وروسيا ، قررت فيه حل النزاعات القائمة بين الدولة العثمانية واليونان على شرط سحب الدعم اليوناني للحركة التمردية في كريت⁽⁴⁾.

وقد أكد على هذه الحقائق المستشرق كارل نفسه في المادة ، حيث أظهر الأسباب الحقيقة لتمردات كريت وهي مساندة الدول الأجنبية لاقتصاد كريت حتى جعلته يتمنى مع الوقت ليصبح أكثر قوة في مواجهة الدولة العثمانية ، وعلى رأس هذه الدول روسيا وفرنسا وإنجلترا .⁽⁵⁾

وأخيراً فإن آخر منطقة قامت بإعلان العصيان ضد الدولة العثمانية بتحريض الدول الأوروبية هي بلغاريا⁽⁶⁾ ، وقد أشعل البلغار نار الثورة في 6 ربيع الآخر 1293هـ / 2 مايو 1876م ، وبدأوا بقتل المسلمين وإحراء قراهم وذلك بدعم من المخابرات الروسية والصربيّة ، وقد أرسل السلطان عبد العزيز جيشاً لإخماد الثورة وقمع حركات التمرد .⁽¹⁾

لقد مرت جميع حركات التمرد بدعم من الدول الأوروبية ولم يكن دعماً معنوياً فقط بل ساندتها بالمال والأسلحة والتنظيم والأفكار ، بداعي الحقد الصليبي على الإسلام الذي لم ينسوه يوماً وبسبب دخول الإسلام ممثلاً في العثمانيين إلى البلاد الأوروبية ، مع ازدياد التدخل الروسي ضد الإصلاحات العثمانية والعمل على إرباك الدولة العثمانية داخلياً وخارجياً؛ داخلياً بمحاربة رجال الإصلاح وإثارة النصارى الشرقيين ضد الدولة العثمانية مما أحدث هذا الإرباك من خلال ما يقوم به هؤلاء من تمردات وحركات انقلابية ، وهدف روسيا من ذلك تقطيع وحدة الدولة العثمانية وإضعافها ومن ثم يسهل القضاء عليها .

أما خارجياً ، فقد تولت بريطانيا بالفعل التدخل في شؤون الدولة العثمانية فكانت ترمي دائماً إلى إضعاف تدخلات روسيا في سياسة الدولة العثمانية وحتى لا تتفرد روسيا وحدها بتركة الدولة العثمانية ، لكنها في الوقت نفسه بدأت في إضعاف سلطة السلطان

⁽⁴⁾ Cemal Tekin , "Girit" , IA , IV , S. 797 .

⁽⁵⁾ E.Z. Karal : Abd Al Aziz , th Encyclopaedia of Islam , Volume I , P. 56 .

⁽⁶⁾ Ahmed Cevdet Pasa , Ma ruzat , nsr : Yusuf Halacoglu , Istanbul 1980 , S . 224 – 225 .

⁽¹⁾ Mahmud Celaleddin Pasa , Mir'at – I Hakikat , 1 , Istanbul 1326 , S. 59 – 62 .

العثماني ، ومحاولة تكبيل الدولة العثمانية بمعاهدات مجحفة في حقها ، وأخيراً احتضانها للأحزاب المناوئة للحكومة العثمانية ، مثل حزب تركيا الفتاة الذي سيلعب دوراً بارزاً بعد ذلك .

وقد أكد كارل على موقف روسيا هذا بقوله : " كان السفير الروسي دائمًا ما يعرض وجهات نظره على محمود نديم باشا ، وروسيا كانت دائمًا تشجع على فصل الموانئ الألبانية عن جسم الدولة العثمانية حتى الموانئ العربية والمصرية " .⁽²⁾

لقد أثبتت روسيا القيصرية أنها من أكثر الدول المعادية للإصلاحات العثمانية ، وعليه فقد ركزت على شخصية الوزير الأول محمود نديم ، وعملت على تدعيم موقفه كأول وزير للسلطان عبد العزيز ، ومن جهة أخرى فقد رأى السلطان عبد العزيز اتفاق الدول الأوروبية وتأمرها على الدولة العثمانية ، ومحاولة إثارة الفتنة والقلائل عن طريق المسيحيين داخل الدولة العثمانية ، فحاول الاستفادة من الخلاف القائم بين دول أوروبا وروسيا لمصلحة الدولة العثمانية ، فبدأ يكثر من دعوة السفير الروسي أكتناتيف الذي أعطاه السلطان مكانة لديه ، لينفذ ما يراه في مصلحة الدولة العثمانية ، لكن أوروبا لم يعجبها هذا الأمر وبدأت تكشف جهودها لتدمير السلطان والدولة العثمانية ⁽¹⁾.

وهو بذلك اعترف ضمنياً بالدور الخطير الذي أدته روسيا لتقويض دعائم الدولة العثمانية .

ثانياً : ذكر الأسباب الصحيحة لعزل السلطان عبد العزيز ، ثم أردها بأسباب من وحي خياله، وجزم إلى حدٍ ما بصحة انتحارة . فقال :

" وكان الوضع الاقتصادي السيئ في الدولة العثمانية والأزمات المالية والثورات والانقلابات في منطقة البلقان أسباباً في صعوبة تطبيق الإصلاحات التي كان يسعى إليها السلطان عبد العزيز ، مما جعل القوى العظمى في العالم غير راضية عن ذلك . وفي نفس الوقت كان كبار السن والشخصيات التركية يرون أن هذه الإصلاحات غير متوافقة مع الدين ، وصغر السن والشعب يرونها غير كافية وغير مرضية ، وكانت النتيجة بصفة عامة عدم

⁽²⁾ E.Z. Karal : Abd AL Aziz , the Encyclopaedia of Islam , Volume I , P. 56 .

⁽¹⁾ علي محمد الصلايبي : مرجع سابق ، ص 623 . عبد الفتاح أبو عليه : مرجع سابق ، ص 345 . محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص 575 .

**رضاء الشعب على السلطان عبد العزيز . وتم عزل السلطان في 30 مارس 1876م
وهناك اعتقاد قوي بأنه انتحر بعد عدة أيام من عزله .⁽²⁾**

لا شك أن الإصلاحات الكثيرة التي قام بها السلطان عبد العزيز قد أرهقت الخزينة العثمانية وأدخلتها في دوامة الديون ، مما أثار الرأي العام على السلطان والحكومة ، وهذا ما جعل الأطراف المعادية للإصلاح ، تستغل هذا الأمر وتمسك بزمام الأمور ثم بدأت الصحافة الأوروبية تلعب دورها هنا بمنتهى الدقة .

لقد استشعرت أوروبا الخوف من الدور الذي بدأ يلعبه السلطان عبد العزيز وهو التقارب مع روسيا ، فبدأت تشيع الشائعات عن تبذيره وإسرافه وعدم صلاحيته لإدارة مهام الحكم ، وأنه أغرق الدولة في الديون ،⁽³⁾ وقد وجدت هذه الشائعات أصداءها في داخل الدولة العثمانية ، وبدأ مدحت باشا⁽¹⁾ في العمل مع أعوانه للتخطيط لعزل السلطان عبد العزيز ومن ثم قتله متى استطاع إقناع الوزراء وشيخ الإسلام بضرورة عزله .

لقد بالغت الصحف كثيراً ومن بعدها الكتب وحتى مادة السلطان عبد العزيز ، في تصوير الأزمة المالية ، بالطبع كانت موجودة ، لكن السلطان عبد العزيز لم يتركها هكذا دون حل ، فقد أظهر حبه للعدل والإصلاح ، وقام بإصلاحات مالية ، حيث أمر بوضع ميزانية منضبطة وألغيت القوائم المالية ، وقضيت بذلك جميع ديون الدولة العثمانية ، وانتظمت الأحوال المالية ، لكن هذا الأمر هال الدول الأوروبية ، واستغربوا قيام السلطان عبد العزيز بتسوية الأمور المالية في وقت قصير مما سيعرقل خططهم للقضاء على الدولة العثمانية ، لذلك رأوا تدبير مؤامرة خلعه ثم قتله .⁽²⁾

ونجحت المؤامرة التي قادها مدحت باشا الذي رأوا فيه الشخصية المميزة للقيام بهذا الدور وساعدته أعوانه لعمل انقلاب في الحكم ، وذلك بمساندة الدول الأوروبية ودعمها ، وليس لعدم رضا طبقات الشعب العثماني - كما ذكرت المادة - حيث عزل في 7 جمادى

⁽²⁾ E.Z. Karali Abd Al Aziz , the encyclopedia of Islam , Volume 1 , P 56 .

⁽³⁾ علي محمد الصلايبي : مرجع سابق ، 623 . محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص 575 ، 576 .

⁽¹⁾ مدحت باشا : من أشهر يهود الدولة ، وقد روجت له الدعاية الماسونية في أنحاء العالم الإسلامي ، وصورته على أنه حامل لواء الإصلاح والحرية ، وسمته "أبو الدستور" وسخرت له أسباب الدعاية في الصحف والمجلات والإذاعة ، حتى وصل إلى منصب الصداررة العظمى بعد تنقله في الولايات العثمانية أهمها سوريا ، وهو ابن حاخام مجرى يهودي ، اشتهر مدحت باشا بالمكر والدهاء ، استطاع أن يكون أقوى يهودي يتمكن من بذر الفتن داخل الدولة العثمانية ، منظاهراً بالإسلام ومبيناً يهوديته الحافظة الماكنة . مجدى عبد المجيد الصافوري : مرجع سابق ، ص 88 . علي محمد الصلايبي : مرجع سابق ، ص 624 .

⁽²⁾ علي حسون : مرجع سابق ، ص 205 ، 206 .

الأولى 12193هـ / 30 مايو 1876م ، وخلع من عرشه وتولى بعده السلطان مراد الخامس ، ولكن بعد ذلك بعده أيام وتحديداً في 12 جمادى الأولى 1293هـ / 5 يونيو 1876م أُعلن انتحار السلطان المخلوع عبد العزيز .⁽³⁾

وعلى الرغم من إعطاء صبغة الانتحار لحادث وفاة السلطان ، لكن كل الدلائل تشير إلى أنه قُتل بمؤامرة دبرتها (تركيا الفتاة) ⁽⁴⁾ مع مدحت باشا ، وقد تم قتله بصورة توضح أنه انتحر ، لكن أحداً لم يقطع يومها بهذا الأمر ، حيث أعلنت الدولة العثمانية خبر انتحاره رسمياً ، لكن الشعب لم يصدق وبكاه الجميع ، وكانت أسباب انتحاره كما أعلن عدم انتظام قواه العقلية بعد عزله ، لكن الأمر ظل معلقاً لعدم كفاية أدلة انتحاره على الرغم من أنهم ساقوا الأدلة لتأكيد أنه انتحر ، مثل تقرير أطباء القناصل الأوروبية ، لكن صورة الحدث في النهاية تؤكد بأنه قتل من قبل مؤامرة لمدحت باشا ، وجذور المؤامرة ترجع إلى تخفيط مدروس من قبل القناصل وممثلي الدول الأوروبية في إسطنبول ، ونفذوها عن طريق عملائهم الذين شربوا بالأفكار الهدامة من رجال الدولة ، وما يؤكّد هذا القول اعتراف مدحت باشا نفسه بهذا الأمر أثناء محاكمته ، حيث اعترف بتدبير مؤامرة عزل وقتل السلطان عبد العزيز ، وهذا أمر معروف تاريخياً ومدون في الوثائق ، وقد ذكره السلطان عبد الحميد الثاني في مذكراته ،⁽¹⁾ لكن السلطان عبد الحميد الثاني قرر محاكمة المتأمرين الذين تورطوا في قتل عمه السلطان عبد العزيز ، وقام بتشكيل محكمة يليز ⁽²⁾ في 29 رجب 1298هـ /

⁽³⁾ عبد القادر ده ده أوغلي : مرجع سابق ، ص80 ، علي حسون : مرجع سابق ، ص200 ، 201 . عبد المنعم الهاشمي : مرجع سابق ، ص480 هـ . Mahmud Celaleddin Pasa, Mir'at – Hakikat , 1 Istanbul 1326 S. . 100 .

⁽⁴⁾ تركيا الفتاة أو الأتراك الشباب (بالتركية : Turkler Jon) هو اتحاد لمجموعات عديدة ماسونية تسعى لإثارة القومية التركية الطورانية التي كان شعارها الذئب الأخضر ، وكانت تسعى لمجموعة أهداف منها الإطاحة وتفكيك السلطنة العثمانية عن طريق إثارة القوميات لكل الأمم التي كانت تحكمها السلطنة العثمانية كرد فعل على ترتير الأتراك . ومن المعلوم أن كل قادة الجمعية هم ماسونيون وليس منهم مسلم واحد . أدت الحركة إلى الجبهة الاستورية الثانية بواسطة ثورة تركيا الفتاة . في عام 1307 هـ / 1889م بدأت الحركة في صفوف الطلاب العسكريين وأمدت بعدها لتشمل قطاعات أخرى ، وكانت بدايتها كمانعة للسلطة المطلقة للسلطان عبد الحميد الثاني . عند تأسيس جمعية الاتحاد والترقي في 1324هـ / 1906م ، ضمت الجمعية معظم أعضاء = تركيا الفتاة . بنت الحركة واقعاً جديداً للانشقاقات التي صاحت الحياة الثقافية ، السياسية والفنية للإمبراطورية العثمانية في الفترة الأخيرة قبل إلغائها كرد فعل للحركة تم إنشاء جمعية العربية الفتاة على يد مجموعة من الطلاب العرب في باريس عام 1327هـ / 1909م . ويكيبيديا : الموسوعة الحرة ، 17/1/2010 . ، تركيا الفتاة .

⁽¹⁾ محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص 575 – 577 ، ربيع عبد الرؤوف الزواوي : مرجع سابق ، ص68 . أرشيف رئاسة الوزراء بإسطنبول : وثيقة 101 / 167 . YA – HUS .

Omer Faruk Yilmaz , Belgelerle Osmanli Tarihi , IV , Istanbul , 2000 , S. 72-73 .

⁽²⁾ السلطان عبد الحميد : مذكرات السلطان عبد الحميد ، ترجمة : محمد حرب ، ص 88 .

27 يونيو 1881م ، وعين على رئاستها سروري أفندي الذي كان يشغل منصب رئيس محكمة الاستئناف ، وكانت هذه المحكمة علنية بحيث أعطى لجميع المواطنين حرية الدخول فيها للإطلاع والمتابعة ، وعلى الرغم من إصدار المحكمة قرار الإعدام في حق تسعه أشخاص من بينهم الصدر الأعظم الأسبق محدث باشا وشيخ الإسلام خيري أفندي، الا أن السلطان عبد الحميد لم يوافق على تنفيذ حكم الإعدام ، بل قام بتخفيف الحكم، حيث سجن بعضًا منهم في إسطنبول ، وسجن بعضاً الآخر مثل محدث باشا وخيري أفندي ونوري باشا ومحمود باشا في منفاه بمدينة الطائف .⁽³⁾ وتفاصيل المحاكمة مسجلة بوثائق ترجمت إلى عدة لغات ونشرت في الصحف وقت المحاكمة ، حتى إن الصحف بدأت تشيع أن السلطان لن ينتظر انتهاء المحاكمة وسيعدم المتهمين لكن هذا الأمر لم يحدث مطلقاً وإنما جاء في إطار تشويه صورة السلطان عبد الحميد عن طريق الصحف والإعلام .⁽⁴⁾

ومع ذلك فإن خلفه مراد الخامس لم يستطع ملء فراغ عمّه عبد العزيز الذي كانت الرياح الأوروبيّة أقوى منه ، وكان الذنب الوحيد الذي ارتكبه - فلقي هذا المصير الذي لا يليق بخليفة المسلمين - أنه تمكّن بأسس قواعد الشريعة الإسلامية، حيث رفض الدساتير الغربية ، والعادات الأوروبيّة ، ووصل الأمر أن فشلت الدولة العثمانية في بعض الأحيان الأخذ بأسباب التقدّم الأوروبيّي بسبب مخالفته للشريعة الإسلامية ، وهذا ما حدث للسلطان عبد العزيز ، فلم يستطع تحقيق التوازن بين الإصلاح والشريعة الإسلامية ، فدفع حياته ثمناً لذلك.

أما بالنسبة لمادة السلطان عبد الحميد الثاني فهي تعد أهم مادة في البحث؛ نظراً لكثرة التشويه والافتراء الذي تعرض له هذا السلطان ، فهو السلطان المفترى عليه .

ويعد السلطان عبد الحميد الثاني من أكثر السلاطين الذين استحوذوا على كم كبيرٍ من الدراسات في أوروبا ، وهذا ما أكد عليه المستشرق جان ديني الذي قدم لنا المادة .

وللدراسة ملحوظات عديدة على مادة السلطان عبد الحميد الثاني:

(1) صغر وقصر المادة العلمية المقدمة عنه ، والظاهرة بوضوح تام مقارنة بمدة حكمه التي تجاوزت الثلاثين عاماً ، بالإضافة إلى كم الأحداث التي عصفت بالدولة

⁽³⁾Omer Faruk Yilmaz , Belgelerle Osmanli Tarihi , IV , Istanbul 2000, S.159-164 ,

⁽⁴⁾أرشيف رئاسة الوزراء بإسطنبول : وثيقة 525 / 67 . HR. TO

العثمانية والعالم الإسلامي في عهده ، فالمادة لا تليق به مطلقاً ، ليس من ناحية الأحداث التاريخية المواكبة لعهده، بل أيضاً من ناحية شخصيته وأعماله التي خدمت الأمة الإسلامية .

(٢) لم تذكر المادة مطلقاً أي شيء عن مقابلته التاريخية مع (تيودور هرتزل) زعيم الحركة الصهيونية ، أو حتى إشارة عابرة بسيطة عن علاقته واحتقاره باليهود .

(٣) ركزت المادة على الحروب التي نشببت في عهده وأرجعها المستشرق جان ديني إلى أسباب تافهة كسوء الطالع والشوم الذي ساد عصره ، وليس لتناقض الدول الأوروبية عليه .

(٤) جاءت النهاية باردة مقتضبة لا ترقى لمستوى ضخامة الأحداث التي صاحبت عزله وخلعه ، وكان هذا الحدث نتيجة طبيعية لأعماله الشريرة كما يزعمون .

(٥) أما عن مراجع المادة فهي في أغلبها أوروبية بأقلام مستشرقين بإستثناء عدد قليل جداً من المصادر العثمانية ، يأتي على رأسها " تاريخ دولة عثمانية " لعبد الرحمن شرف و " السلطان عبد الحميد الثاني " لأحمد رفique إستانبول 1908 م .

(٦) لم تشر المادة إلى إصلاحاته أبداً ، وكأنه بقي في الحكم 33 عاماً دون أن يقوم بأي عمل لصالح الدولة العثمانية ، أشار فقط إشارة صغيرة مبهمة لمشروع سكة حديد الحجاز ، أما عن فكرة الجامعة الإسلامية ، فلم يتطرق لها المستشرق جان ديني مطلقاً .

والنقطات التي جاءت في المادة هي كالتالي :

أولاً : ذكر ترتيبه بين أبناء السلطان عبد المجيد الثاني خطأ .^(١)

ثانياً : الإساءة إلى السلطان عبد الحميد الثاني في مرحلة صباح^(٢)

ثالثاً : لم يعط الأحداث التي واجهها السلطان عبد الحميد الثاني في بداية حكمه حقها من التحليل و الدراسة.^(٣)

(١) جان ديني : مادة عبد الحميد الثاني ، موجز دائرة المعارف الإسلامية ، ج 23 ، ص 7114 .

(٢) جان ديني : مادة عبد الحميد الثاني ، موجز دائرة المعارف الإسلامية ، ج 23 ، ص 7114 .

(٣) جان ديني : مادة عبد الحميد الثاني ، موجز دائرة المعارف الإسلامية ، ج 23 ، ص 7114 .

رابعاً : أكد أن الدولة العثمانية هي التي شنت الحرب على روسيا واليونان في عهد السلطان عبد الحميد الثاني .⁽⁴⁾

خامساً : لم يذكر السبب الرئيس لخلع السلطان عبد الحميد الثاني ، وفي الوقت نفسه لم يشر مطلقاً لدوره مع الحركة الصهيونية وتصديه للخطر اليهودي .⁽⁵⁾

سادساً : اتهامه بالاستبداد ، وأنه شجع التجسس وسيطر عليه الشك .⁽⁶⁾

سابعاً : لم يعطِ فكرة واضحة عن الجامعة الإسلامية ولم يعطها حقها من الشرح وإنما ركَّز فقط على أنها إرجاع للشيعة إلى مذهب السنة .⁽⁷⁾

ثامناً : إرجاع فكرة خط سكة حديد الحجاز لشخص لا علاقة له بالأمر .⁽⁸⁾

تاسعاً : مناقشة قضية الأرمن ، والاعتراف بدور الصحافة في تشويه صورته .⁽⁹⁾

السلطان عبد الحميد الثاني يعد بحق آخر عظماء الدولة العثمانية ، وهو السلطان

الرابع والثلاثون فيها وال الخليفة السادس والعشرون من الخلفاء العثمانيين ، ولد في يوم الأربعاء 16 شعبان 1258هـ / 22 سبتمبر 1842م ، في قصر جراغان بإسطنبول ، وهو الابن الثاني للسلطان عبد المجيد الأول ، حيث ولد بعد السلطان مراد الخامس بستين ، ومنذ ولادته كان ولـي عهد ثالث ، وبقي كذلك طوال سلطنته والده ، وولي عهد ثان لـعمه السلطان عبد العزيز ، وولي عهد أول لأخيه السلطان مراد الخامس ، وعند ولادته احتفل به والده بإطلاق المدافع خمس مرات يومياً لمدة سبعة أيام ؛ ابتهاجاً بمولد الأمير الصغير .⁽¹⁾

اعتلى العرش في يوم الخميس 11 شعبان 1293هـ / 31 أغسطس 1876م أي قبل يوم مولده الرابع والثلاثين بأربعة أيام ، على إثر خلع أخيه السلطان مراد الخامس الذي لم يكمل مائة يوم على العرش ، وبوبيع بالخلافة من قبل الوزراء والأعيان وكبار الموظفين

(4) جان ديني : مادة عبد الحميد الثاني ، موجز دائرة المعارف الإسلامية ، ج 23 ، ص 7114 .

(5) جان ديني : مادة عبد الحميد الثاني ، موجز دائرة المعارف الإسلامية ، ج 23 ، ص 7114 .

(6) جان ديني : مادة عبد الحميد الثاني ، موجز دائرة المعارف الإسلامية ، ج 23 ، ص 7114 .

(7) جان ديني : مادة عبد الحميد الثاني ، موجز دائرة المعارف الإسلامية ، ج 23 ، ص 7115 .

(8) جان ديني : مادة عبد الحميد الثاني ، موجز دائرة المعارف الإسلامية ، ج 23 ، ص 7117 .

(9) جان ديني : مادة عبد الحميد الثاني ، موجز دائرة المعارف الإسلامية ، ج 23 ، ص 7118 .

(1) يلماز وزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج 2 ، ص 95 . عمر فاروق يلمظ : التاريخ العثماني الموثق ، ج 4 ، د.ط ، إسطنبول ، د. ت ، 107 . عمر فاروق يلمظ : السلطان المظلوم السلطان عبد الحميد الثاني بالوثائق ، ترجمة : طارق عبد الجليل السيد ، مراجعة : الصفصافي أحمد المرسي ، د. ط ، إسطنبول : دار نشر عثماني ، د. ت ، ص 25 . Abdurrahman ,Seref , Sultan Abdulhamid – I Sani'ye dair , Istanbul 1918 , S. 3-4 .

من مدنيين وعسكريين، وهنأه بالخلافة رؤساء الطوائف المختلفة ، وقد أطافت المدافع بسائر أطراف السلطنة احتفالاً بهذه المناسبة .⁽²⁾

لقد تولى السلطان عبد الحميد الثاني الحكم في وقت كانت الدولة العثمانية تعاني من الاضطرابات والمشاكل الداخلية ، إضافة إلى العجز المالي في ميزانية الدولة وبالتالي خزانة مفلسة ، ودولة غارقة في الديون .⁽³⁾

وقد بدأت حركات التمرد والعصيان في البوسنة والهرسك ، وخرج الجيش العثماني خاسراً من حربه في قراطاغ ، كما كانت الحرب مستمرة في جبهة الصرب ، إضافة إلى استمرار الفلاقل في جزيرة كريت ، وتمرد الجبل الأسود فضلاً عن وقوف روسيا في وجه انتصارات العثمانيين في الحرب .⁽⁴⁾

كما ظهرت في عهده الجمعيات والأحزاب السياسية التي وقفت ضده ، بل إن أعضاء هذه الأحزاب طالبوا الدول الأوروبية بالعمل على إنهاء حكم السلطان عبد الحميد الثاني ، وتعُد "جمعية الاتحاد والترقي" التي تأسست بصورة سرية عام 1308هـ / 1890م من أهم تلك المنظمات⁽¹⁾ ، وقد كان معظم أعضاء هذه الجمعية من منتسبي المحافظة الماسونية⁽²⁾ .

أما في إطار العلاقات الخارجية ، فقد كانت الدول الغربية تنظر إلى الدولة العثمانية نظرة الرجل المريض ، واستمرت روسيا بتحريض النصارى القاطنين في الدولة العثمانية على التمرد ضد الدولة ، مستهدفة تمزيقها وإقامة دول صغيرة في البلقان والشرق الأوسط ، ومن جهة أخرى كانت بريطانيا وفرنسا تعملان لتحقيق مطامعهما في أراضي الدولة العثمانية ونقومان بمنافسة روسيا في هذا المجال .

لقد حكم السلطان عبد الحميد الثاني ثلاثة وثلاثين عاماً ، حاول خلالها إنقاذ الدولة العثمانية من الانهيار والتمزق على أيدي الدول الغربية ، وواجه الحركات القومية في بلاده ،

⁽¹⁾ Mahmud Es'ad Ibn Emin Seydisehri , Asar ve muberrat – i hilafetpenahı , Izmir 1311 , S . 9

، محمد علي الصلايبي : مرجع سابق ، ص 633 .

⁽²⁾ محمد مصطفى الهلالي : السلطان عبد الحميد الثاني بين الإنصاف والجحود ، ط ١ ، دمشق : دار الفكر ، 1425هـ / 2004م ، ص 27 .

⁽³⁾ عبد الحميد الثاني: مذكرات السلطان عبد الحميد ، ترجمة: محمد حرب ، ص 45 . سعيد عبد الحكيم زيد: مرجع سابق ، ص 161 .

⁽⁴⁾ عبد الحميد الثاني : مذكرات السلطان عبد الحميد ، ترجمة : محمد حرب ، ص 56 .

⁽⁵⁾ زكريا سليمان بيومي : مرجع سابق ، ص 210 .

إضافة إلى الحركة الماسونية التي انتشرت في زمنه انتشاراً واسعاً .⁽³⁾ كما تصدى للمخططات الصهيونية التي ظهرت في عهده كانت تهدف إلى إقامة دولة يهودية في فلسطين ، وفي الوقت نفسه يواجه الرأي العام الأوروبي المتعاطف مع النصارى والمعادي للدولة العثمانية وللمسلمين ، وكانت الصحافة الأوروبية في عهده تقوم بالدعائية المغرضة ضده وضد الإسلام ، وتسعى لتحريض ملوك ورؤساء الدول الأوروبية لهدم وإسقاط الدولة العثمانية التي أطلق عليها الأوروبيون اسم "الرجل المريض" آنذاك . وباختصار تولى الحكم والدولة العثمانية في النزع الأخير ، لا تقوى على مواجهة الأخطار ، إلا أنه حاول - قدر الإمكان - إعطائها قليلاً من الأمل ، حيث أدارها بطريقة مميزة وبدأ في إصلاحها .

أما عن إصلاحاته التي لم يتمكن ديني ويذكر منها شيئاً ، فهي كثيرة جداً ومنها على سبيل المثال اهتمامه الخاص بالتعليم ، حيث أن الرحلة التي قام بها لأوروبا مع عمه عبد العزيز - والتي سيأتي ذكرها لاحقاً - قد أفادته كثيراً وجعلته يطلع عن قرب على مدى تطور التعليم هناك ، فأولاًاه اهتماماً ورعاية خاصة ، حيث طور مدرسة العلوم السياسية "المملكة الشاهانية" وأسس كلية العلوم والآداب والحقوق "مكتب حقوق شاهانه" وأكاديمية للفنون الجميلة "مكتب شاهانه" ، صناع نفيسة" وكلية الهندسة العالية ، ومدرسة المالية ، ومدرسة عليا للتجارة حيث أصدر القانون التجاري للدولة العثمانية "المدرسة التجارية الحميدية" التي تطورت إلى أكاديمية العلوم الاقتصادية والتجارية عام 1301هـ / 1883م بهدف تخريج متخصصين في الاقتصاد والتجارة ، وطور - أيضاً - المدرسة الحربية حتى أصبحت الكلية الحربية ، ووضمت بين جنباتها مدرسة القوات البرية ومدرسة البحرية ومدرسة المهندسين ، ومدرسة الطب بالإضافة إلى إنشاء مدارس للجمارك والبيطرة والزارعة وقطع الغابات والتعدين ، كما اهتم بإنشاء مدارس لإعداد المعلمين ، والمعلمات ، ومدارس للغات ، وأنشأ مدارس متخصصة للصم والبكم والعمى ، ومدرسة الفنون النسوية . واهتم بإنشاء المدارس الابتدائية والمتوسطة والثانوية على الطريقة الأوروبية الحديثة في كافة الولايات وجعل تعليم اللغة إلزاماً في المرحلة الإعدادية وافتتح عدة مؤسسات ثقافية ، من أهمها :

⁽³⁾ عمر فاروق يلمظ : السلطان عبد الحميد الثاني بالوثائق ، ص 147 .

متحف الآثار القديمة ومكتبة بايزيد - المتحف العسكري ، مكتبة يلدز ، ثانوية حيدر باشا . وأقام مدارس عليا في كل من دمشق وبغداد وسالونيك وقونيه وغيرها ، وسمح بدخول الكتب والمجلات والصحف ، وأرسل البعثات العلمية إلى كل من فرنسا وألمانيا .⁽¹⁾

أما عن إصلاحاته الأخرى فقد بني مستشفى للأطفال وداراً للعجزة من ماله الخاص وهو الذي نعتوه بالشحيم ومركزًا للبريد العام وداراً للفنون وداراً للنفوس العامة ، ومد أنابيب للمياه وأنشأ لها خزانات على الجبال ، مما نتج عنه إنشاء مؤسسة حديثة للمياه التي أجرت إصلاحات لبعض منابع المياه القريبة من إسطنبول ، وتم نقل المياه منها إلى إسطنبول بواسطة الأنابيب وأسس البلديات ، وبدأ في بناء غواصة ، وأنشأ غرف للصناعة والتجارة والزراعة وأنشأ مصنعاً للفيشاني والنحارة ، وأقام الخطوط للبرق ، وأنشأ إدارة للبريد ، ثم مد خط سكة حديد للحجاز وخطوطاً لنقل العربات الكهربائية (الtram) ، واهتم بتدعم المواقع العسكرية في الدردنيل ، مما انعكس على انتصار القوات العثمانية على الأساطيل المغيرة في موقعة الدردنيل مشهورة خلال الحرب العالمية الأولى ، ودمرت أساطيل الحلفاء ومنعوها من دخول الدردنيل ، كما أنه جهز الجيش بالأسلحة الحديثة والمتقدمة ، وقد أرسل بعثات عسكرية إلى ألمانيا وأمريكا .⁽²⁾

كل هذه الإصلاحات باختصار قام بها في فترة حكمه الطويلة حيث عمل ليلاً نهار النهضة بالدولة العثمانية ، لقد تميز بشخصية فريدة جداً فبجانب هذه الإصلاحات اهتم بمشاكل العالم الإسلامي ، وسعى لتوحيد الأمة الإسلامية في كافة أرجاء العالم في ظل الجامعة الإسلامية التي بذل جهوداً كبيرة في تأسيسها ، والتي كانت تحت شعار " يا مسلمي العالم أتحدو " .

- ومن أهم منجزات السلطان عبد الحميد ، هو إنشاء سكة حديد إسطنبول - بغداد - البصرة ، ثم إنشاء سكة حديد الحجاز التي تربط الشام بالمدينة المنورة ومكة المكرمة لكن الخط لم يكتمل وتوقف عند المدينة المنورة ، وذلك لتسهيل المواصلات بين الولايات العثمانية، وبصفة خاصة لتسهيل مهمة الحج للحجاج المسلمين.

⁽¹⁾ هدى درويش : الإسلاميون وتركيا العلمانية ، ص 171 السلطان عبد الحميد : مذكرات عبد الحميد ، ترجمة : محمد حرب ، ص 27 . محمد مصطفى الهلالي : مرجع سابق ، ص 121 .

⁽²⁾ محمد مصطفى الهلالي : مرجع سابق ، ص 121 ، 122 . السلطان عبد الحميد . مذكرات السلطان عبد الحميد ، ترجمة : محمد حرب ، ص 27 . ربيع عبد الرؤوف الزواوي : مرجع سابق ، ص 71 .

ولقد جاء في الدائرة النصوص التالية :

أولاً : ذكر ترتيبه بين أبناء السلطان عبد المجيد الأول خطأ . فقال :

" وهو الطفل الخامس من بين ثلاثة ولاداً للسلطان عبد المجيد " .⁽¹⁾

لقد ذكر عدد الأبناء جزاً هكذا ، فطبيعة المستشرقين أغفال الحقائق ، ومن ضمنها السجلات الرسمية لمواليد السلاطين وكأنها ليست موجودة على الإطلاق .

إن السلطان عبد الحميد هو الابن الثاني للسلطان عبد المجيد الأول ، ولد بعد السلطان مراد الخامس بستين بالضبط ، ولد الساعة الخامسة من صباح يوم 16 شعبان 1258هـ / 22 سبتمبر 1842م ، وقد ولد للسلطان عبد المجيد الأول " أحد عشر ابناً ، وخمس عشرة ابنة ، أي أن مجموع عدد أبنائه 26 طفلاً ، توفي منهم تحت عمر الثلاث سنوات ، وفي حياة والدهم 10 أطفال ما بين ذكر وأنثى ، ولذلك لم يكن عدد إخوته ثلاثة أخاً ، وإنما 26 أخاً وأختاً ، ولم يكن ترتيبه الخامس ؛ إذ إنه كان ثالثي مولود ذكر للسلطان عبد المجيد الأول ، فقد ولد السلطان مراد الخامس 21 جمادى الآخرة 1256هـ / 22 أغسطس 1840م ، ثم ولدت السلطانة بهية في 1 محرم 1257هـ / 22 فبراير 1841م لكنها توفيت صغيرة السن في 1 رجب 1264هـ / 3 يونيو 1847م ، ثم ولدت السلطانة رفيعة في 2 محرم 1258هـ / 12 فبراير 1842م، وبعدها ولد السلطان عبد الحميد الثاني ، لذلك كان ترتيبه ولد العهد الثالث منذ ولادته ، فقبله ولد العهد الأول السلطان عبد العزيز ، ثم ولد العهد الثاني مراد الخامس ، والثالث السلطان عبد الحميد الثاني ، فكان على المؤرخ ديني أن يوضح أن عدد الأبناء كانوا 26 طفلاً وعندما اعتلى عبد الحميد الثاني العرش لم يكونوا جميعهم على قيد الحياة ، هذا إذا ما تناسينا أن من بينهم عدداً كبيراً من الإناث الذين لا يدخلون في عدد الأبناء لأنهم لا يكونوا ضمن ترتيب ولاية العهد .⁽¹⁾

إن إدخال الحقائق وسط الأكاذيب يفقد الحقيقة معناها ويريقها وهذا ما حدث في الفقرة السابقة ، ذكر أرقام مقاربة ، لكنه أراد بها خلط الأمر على القارئ ، وإظهار السلطان عبد الحميد الثاني وكأنه مغتصب العرش من إخوته الأربع السابقين ، ولم يوضح من هم هؤلاء الثلاثين أو حتى هل هم على قيد الحياة أم لا .

⁽¹⁾ جان ديني : مادة عبد الحميد الثاني ، موجز دائرة المعارف الإسلامية ، ج 23 ، ص 7114 .

⁽²⁾ يلمازا وزتنا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج 2 ، ص 62 ، 63 . عبد القادر ده ده أوغلو : مرجع سابق ، ص 78 . لمزيد عن تواريخ ولادة أبناء وبنات السلطان عبد المجيد الأول الرجوع إلى يلمازا وزتنا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج 2 ، ص 62 ، 65 .

ثانياً : الإساءة إلى السلطان عبد الحميد الثاني في مرحلة صباه . فقال :

" المعروف عنه في مرحلة صباه أنه كان طفلاً خجولاً سريعاً الاستياء ، وبالرغم من ذكائه الحاد إلا أنه لم يتلق نصيحة من التعليم ، ويقال أنه بعد أن قضى شباباً عاصفاً عاش حياة عائلية مقتضدة جعلت الناس يعنونه " بحميد البخيل " وقد أظهر منذ وقت مبكر ميلاً شديداً لمصاحبة الأتقياء والزهاد والمتصوفة والعرفانيين وأصحاب الحيل ".⁽²⁾

" أما ملبيه فكان بسيطاً غاية البساطة كما كان في حد ذاته مجموعة من المتناقضات ، تناهيه نوبات غضب عنيفة لكنها سرعان ما تهدأ وتتلاشى ".⁽³⁾

ليس هناك أي نسبة من الصدق في الفقرة السابقة ، حيث صوره على أنه طفل مختل داخلياً وغير ثابت عاطفياً ، وفي الوقت نفسه جاهل لم ينل قسطاً من التعليم ، وهذا أمر مخالف للواقع تماماً ، يكفي أنه قام بجميع الإصلاحات التي ذكرت سابقاً وأولى التعليم إهتماماً خاصاً ، فلو أنه لم يدرس لما أدرك أهمية التعليم في نقدم الأمم ، ففائد الشيء لا يعطيه ، والإصلاحات السابقة خير دليل على ذلك .

ولعل مسألة تربيته يتيمًا أعطت المجال للمستشرقين ليخوضوا في نشأته وظروف تعليمه ، على الرغم من أن أباه السلطان عبد المجيد الأول عُرف عنه ولعه الشديد واهتمامه بأبنائه وتهيئة الظروف الصحية لنشأتهم والسؤال الذي يطرح نفسه : كيف نشأ هذا السلطان دون أن يتلقى التعليم وهو مرشح لمنصب ولد العهد الثالث - على الأقل لإعداده كي يكون خليفة وسلطاناً للمسلمين - في حين أن أقرانه نالوا التعليم الكافي ؟!

أمّا والدته فاسمها " تيري موجكان "⁽⁴⁾ وكانت قد بلغت التاسعة عشر من عمرها عندما أنجبته ، ولأنها أحاطته بحبها ورعايتها فقد نما أسرع من أترابه ، ولم تتوقف عن تعذيبه روحياً وأخلاقياً ، وما أن بلغ الرابعة حتى بدأ يسأل أسئلة تدل على ذكائه وفطنته المبكرة ، ولذلك نشأ على الحب والقدرة على استيعاب ما حوله ، مما انعكس على توازن

⁽²⁾ جان ديني : مادة عبد الحميد الثاني ، موجز دائرة المعارف الإسلامية ، ج 23 ، ص 7114 .

⁽³⁾ جان ديني : مادة عبد الحميد الثاني ، موجز دائرة المعارف الإسلامية ، ج 23 ، ص 7118 .

⁽⁴⁾ تيري موجكان : " تيرموزغان " كانت في غاية الأدب والظرف ورهافة الحس ، تنسب إلى قبيلة " شابسيخ " الشركسية ، وقد ولدت في القوقاز ثم نزح أهلها إلى إسطنبول عام 1255هـ / 1839م ثم انضمت إلى الحرير بعد ذلك ، توفيت في قصر بكلر بكى حيث حزنت بشدة على وفاة اثنين من أطفالها مما جعل مرض السل يهاجمها ، ونقلت لها هذا القصر لتغير الهواء ولكن دون فائدة ، ودفنت بضريح مسجد " بكى جامع " كان يقول عنها " توفيت في ريعان الشباب وصورتها إلى اليوم لا تفارقني ، ولم أستطع نسيانها يوماً فقد كانت شديدة الحب لي ". أنظر عمر فاروق يلماز : السلطان عبد الحميد الثاني بالوثائق ، ص 24 . يلماز وزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج 2 ، ص 95 .

M.Cagatay ulucay : Padisahlarin Kadinlari ve Kizlari , S. 141 .

شخصيتها وقوتها ، كما تأثر بطبيعتها المرحة والطريقة فالدفء والحنان الذي أحاطته به أمه في سنوات عمره الأولى جعل منه طفلاً ذكياً هادئ الطابع ، جيد الإصغاء والملاحظة ، وكثيراً ما يبلغ والدته بالأشياء التي يلاحظها فكانت تسر لذكائه ، لكن هذا الحال لم يستمر طويلاً ، حيث فجع الأمير الطفل وهو في سن الحادية عشرة بوفاة والدته وقد حزن عليها كثيراً ، لكن أباه السلطان زاد من رعايته له واهتمامه ، وعهد بتربيته إلى إحدى زوجاته التي لم تتجب أبداً وهي "بره ستو".⁽²⁾ ويدرك أن عبد الحميد بكى على أمه كثيراً بعد وفاتتها ، وبعد شهر دعاه السلطان عبد المجيد الأول وتحدى معه ونصحه ، وخيّباه بعد ذلك تحت ردائه ، وذهب إلى دائرة بروستو خاتون وقال لها : " انظري يا زوجتي لقد أتيت لك ولدًا جميلاً " ثم أخرج عبد الحميد من تحت ردائه وسلمه إياها ، وقال لعبد الحميد : " إن هذه المرأة هي أمك بعد اليوم فقم بتقبيل يدها يا ولدي " ثم قال لبره ستو خاتون: " أنهأمانة بيديك بعد الله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ" وطلب منها تقبيل الطفل فقبلته ، وهكذا أصبحت هي والدته ، وانضم إلى اخته جميلة التي توفيت والدتها دوز ديديل خاتون وهي دون الثانية من عمرها ، وقد رعاتها برسو خاتون أيضاً وقد أحسنت تربيتها ، لذلك كان السلطان عبد الحميد الثاني يذكر اخته جميلة كثيراً لأنها رفيقة صباح وهنا للدراسة وفقة ، فكون أنه تربى يتيم الأم لا يعني هذا أنه لم يكن متوازناً وأن تعليمه أهمل ، فإن هذا مخالف للواقع لأن زوجة أبيه كانت بمثابة الوالدة له ،⁽¹⁾ حيث ربته وأحسنت معاملته ، فكانت بمثابة الأم الحنون العطوف التي لم تهمله يوماً ، وقد أحبها كثيراً حتى إنها عند وفاتها أوصت له بميراثها ، وقد تأثر السلطان عبد الحميد الثاني

(2) برسو خاتون : هي الزوجة الرابعة للسلطان عبد المجيد الأول ، قامت بتربية عبد الحميد الثاني وأخته جميلة بعد وفاة والده كل منهما ، تتسب لقبيلة أو بوخ من شراكسة القفقاس ، لم تكن تتجب الأبناء ، وهي إمراة نحيفة ناعمة الملامح زرقاء العيون ، تميزت بالإحتشام والوقار ، نذرت حياتها لتربية عبد الحميد وأخته جميلة ، لقد أحبها السلطان عبد الحميد الثاني كثيراً ، وعندما كان يفتح الحديث عنها بعد وفاتها ، كان يقول : " لو كانت أمي على قيد الحياة ، لكان ربتي ورعايتها بنفس القدر الذي قامت به برسو خاتون" كان يتحدث عنها بكل حب وتقدير ، وأصبحت السلطانة الوالدة على الرغم من أنها لم تتجب السلطان ، كانت إمراة نقية لم تضر أحداً ، تميزت بالصدق والإستقامة في أعمالها، تقضي أيامها بالعبادة ومساعدة الفقراء ، وقد أهدي لها السلطان عبد العزيز زمن سلطنته داراً كبيرة ، في منطقة ماجقا ، حيث كان يزورها بين حين وآخر ، توفيت في دارها هذه ، عن عمر فوق الثمانين ، ودفنت في الضريح الذي كانت قد شيدته في حي أيوب ، وقد كان لها أعمالٌ خيرية ، حيث شيدت سبيل لتكية بالا في منطقة سيلبوري قالي عام 1309هـ / 1891م ، وشيدت شمسة " صنبور مياه " للتكمية نفسها عام 1313هـ / 1895م.

انظر : . M.Cagatay ulucay : Padisahlarin Kadinlari ve Kizlari , S . 143 , 144

(1) يلمازا وزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج 2 ، ص 95 . محمد مصطفى الهلالي : مرجع سابق ، ص 21 .
M.Cagatay ulucay : Padisahlarin Kadinlari ve Kizlari , S . 143 , 144 .

ب بهذه التربية ، وأعجب بوقارها وتدينها وصوتها الخفيض الهادئ ، وكان لهذا إعكاس واضح على شخصيته طوال حياته .⁽²⁾

وقد حدث في اليوم التالي لتنصيبه سلطاناً على الدولة العثمانية أن قابل زوجة والدة التي ربته وفبّل يدها وقال لها : " بحنانك لم أشعر بفقد أمي ، وأنت في نظري أمي لا تفترقين عنها ، ولقد جعلتكم السلطانة الوالدة ، لكنني أرجوك بإصرار ألا تتدخلي بأي شكل من الأشكال في أي عمل من أعمال الدولة"⁽³⁾ وانصاعت هي لهذا الأمر تماماً .

كانت بيرستو قادين من صاحبات أعمال الخير ، حيث أنشأت أسلبة عديدة لتوزيع المياه المجانية للفقراء ، وقضت حياتها في مساعدة النساء والبنات الفقيرات ، وكانت ذات خلق لين ومتواضعة وفقيرة ، وهي السلطانة الوالدة الوحيدة التي لم تتجب .⁽⁴⁾

أما بالنسبة للتعليم الذي تلقاه السلطان عبد الحميد الثاني فكان كثيراً فتعددت معارفه ، وليس كما ذكرت مادة دين ديني بالدائرة ، حيث بدأ في تلقى التعليم بشكل منتظم في القصر السلطاني على أيدي نخبة ممتازة من العلماء ومن أشهر رجالات زمانه خلقاً وعلماء ، حيث تلقى تعليمه الأول من إتقان اللغة العثمانية قراءة وكتابه على يد المعلم " عمر أفندي " واللغة العربية على يد " فريد أفندي " و " شريف أفندي " . أما اللغة الفارسية فأخذها عن " علي محوى أفندي " والصدر الأعظم " صفت باشا " وعلوم التفسير والحديث والفقه من العالم " عمر خلوصي أفندي " ، وقد أتقن الفرنسية من " أدهم باشا " و " غاردت باشا " ، أما بالنسبة للتاريخ فقد أظهر ميلاً شديداً نحوه وخاصة التاريخ الحديث ، حيث تعلم التاريخ العثماني على يد مؤرخ الواقع قاضي العسكر " لطفي أفندي " وقد كان يؤمن تماماً بأن التاريخ مرآة العبر والعظات ، لذلك أمر بإعداد ملفات خاصة لكل الأحداث التي تقع في عهده ، عُرف عنه أنه كان يكن احتراماً شديداً لرجال العلم والفكر ، حيث كان يأخذ مشورتهم دائماً ويقربهم منه .

⁽¹⁾ ثم إنَّ مسألة حفظ أحداث عهده للأجيال القادمة تدل على مدى وعيه وسعة أفقه بالإضافة إلى بعد نظره ، وهذه الملفات موجودة إلى الوقت الحالي في أرشيف رئاسة الوزراء

⁽²⁾ علي محمد الصلاibi : مرجع سابق ، ص 629 .

⁽³⁾ السلطان عبد الحميد : مذكرات السلطان عبد الحميد ، ترجمة : محمد حرب ، ص 43 .

⁽⁴⁾ يلمازا وزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج 2 ، ص 96 ، 97 .

⁽¹⁾ يلمازا وزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج 2 ، ص 97 . عمر فاروق يلمظ : التاريخ العثماني الموثق ، ج 4 ، ص 108 ، 109 . عمر فاروق يلمظ : السلطان عبد الحميد الثاني بالوثائق ، ص 25 / 26 . علي محمد الصلاibi : مرجع سابق ، ص 629 ، 630 ،

بإسطنبول تحت تصنيف يلدرز . وهذه الملفات وغيرها من الوثائق لم يطلع عليها المؤرخ ديني أبداً قبل الخوض في كتابة مادة هذا السلطان المظلوم ، لقد أغفلت المادة تماماً تعليمه السابق وكأنه لم يكن ، على الرغم من حفظ هذه الأمور في السجلات الرسمية والمخطوطات . وبإضافة للتعليم السابق ، حفظ القرآن وعدداً كبيراً من الأحاديث النبوية الشريفة ، وقطعاً من الشعر القديم ، بجانب إتقان عدد من اللغات بجانب العربية الفصحى والعثمانية ، والفارسية والفرنسية والإنجليزية .⁽²⁾

لقد ركز ديني في مادته على مسألة ملازمته للأتقياء والزهاد والمتصوفة والعرفانيين وأصحاب الحيل فقط ، وما ذلك إلا مجرد دسٍ وكلام ليس له أصل في الحقيقة ، والحقيقة أنه تلقى تعليم بعض الطرق الصوفية في بداية شبابه ، ومال لصاحبة العلماء - كما ذكر سابقاً - لاحترامه الشديد لهم ومحبة أخذ مشورتهم في كل الأمور .⁽³⁾

كما أنه لم يكن من عادة السلاطين العثمانيين أن يضموا لرفقتهم العرفانيين وأصحاب الحيل ، فلماذا السلطان عبد الحميد الثاني يشذ عن هذه القاعدة ، لقد كان السلطان عبد الحميد الثاني تقىً ورعاً يحفظ القرآن الكريم وكثيراً من الأحاديث النبوية الشريفة ، فلن يقنع بأعمال الحواة والعرفانيين . فضلاً عن أنه كان ملتزماً بواجباته الدينية لدرجة أن له سلوكاً خاصاً في تعبده يراعي فيه عبادة الله وطاعته والإخلاص له ، حيث إنه يؤدي صلاته في وقتها ، ويقرأ القرآن بانتظام ، وكان يخرج أيام الجمعة إلى جامع يلدرز والجوانع القريبة من القصر ، مهما كان الطقس ، وكان يسلم على الموجودين حتى إنه نبه في أوامر رسمية على الشعب بأن يدققوا في أمور عباداتهم .⁽⁴⁾ وهذا دليل على مدى التزامه بمبادئ الشريعة الإسلامية حيث لم يظهر عليه تقصير مطلقاً في أداء واجباته الدينية وكذلك واجباته نحو الدولة ، وأعماله خير برهان على ذلك .

⁽²⁾ محمد مصطفى الهلالي : مرجع سابق ، ص 22 .

⁽³⁾ عمر فاروق يلمظ : السلطان عبد الحميد الثاني بالوثائق ، ص 76 .

⁽⁴⁾ عمر فاروق يلمظ : السلطان عبد الحميد الثاني بالوثائق ، ص 163 . عمر فاروق يلمظ : التاريخ العثماني الموثق ، ج 4، ص 111، ذكر المرجع السابق أن السلطان عبد الحميد الثاني ، أدى فريضة الحج سراً ، ولم يكشف عن شخصه في الحج ، وكافأ دليله بدار = كبيرة ومعاش شهري طوال حياته ، لكن لا توجد وثيقة تؤكد هذه المعلومة ، كما أن اسم المطوف مجهول ، وذكرت في كتاب : الأمن الذي نعيشه ، حسين عبد الحي قراز ، مكة المكرمة ، 1989م ، ص 391 ، 392 . وأكد على أنه نزل ضيفاً في بيت آل نصيف ، لكن للدراسة تعليق هو أنه لو حدث هذا الأمر لكان ذكر في كتاب مذكراته الشخصية ، أو مذكرات بناته عائشة وشادية ، ولكن الحدث لم يذكر في أي مصدر عثماني .

وبالإضافة إلى التعليم السابق مارس هو اياته بدقة حيث أتقن النجارة والخط وامتلك ورشة نجارة ومزارع خاصة به ، وقد صنع بيده كثيراً من الأعمال الثمينة منها الدواليب الخشبية والمناضد والصناديق ، وكثيراً ما صنع بيده تحفأ قدمها هدايا لبعض أصدقائه من ملوك أوروبا ، وأحب تربية الأغنام ، وشغل المعادن ، واكتسب من هذه الأعمال ثروة بسيطة أفق معظمها على خدمة الدين الإسلامي والدولة العثمانية ، واهتم بالهندسة المعمارية والفنون الجميلة ، حيث امتلك حساً فنياً ، كما شيد مختبراً كيميائياً يحل فيه المشروبات المشتبه بها بنفسه ، فضلاً عن إتقانه إصلاح الساعات وجمع الكتب النادرة ، حيث أسس مكتبات زودها بالكتب النادرة والمخطوطات ، إضافة إلى حبه لممارسة الرياضة وركوب الخيل ، والاطلاع على الصحف المحلية والأجنبية .⁽¹⁾

لقد جمع في داخله شخصية الخليفة المسلم والشخص البسيط الذي يعيش على عمل يديه ، فهو يعد شخصية نادرة قلما أنجب التاريخ مثلها .

ونظراً لذكائه وميوله السياسية ، اصطحبه عمّه عبد العزيز في رحلته إلى مصر عام 1280هـ / 1863م ، وإلى أوروبا 1284هـ / 1867م ، حيث التقى في بلاد أوروبا برجال دولها ، واطلع على المخترعات الحديثة واستفاد منها ، واستورد بعضًا منها من أجل تطوير دولته .⁽²⁾

أما عن مسألة بخله ، فقد أصرفت به هذه التهمة ؛ لأنّه مال إلى البساطة في مأكله ومشربه ، حتى ملابسه ، كان لديه نوعان من الملابس ، ملابس بسيطة للأوقات العادية ، ويعلق عليها بعض نياشين الدولة العثمانية ، أما في الأوقات الرسمية فيرتدي ملابس رسمية عليها نياشين الدولة العثمانية كلها .⁽³⁾

تميزت حياته ببساطة والبعد عن البذخ ؛ وذلك لأنّه عاش طفولة سعيدة ومستقرة وال الصحيح أن البساطة لم تكن يوماً تعبيراً عن البخل والشح وإنما عن فناعة في النفس ، ورضا بنعمة الله تعالى .

⁽¹⁾ محمد مصطفى الهلالي: مرجع سابق ، ص 24 ، 25 . عمر فاروق يلمظ : السلطان عبد الحميد الثاني بالوثائق ، ص 26 .27،

⁽²⁾ عمر فاروق يلمظ : السلطان عبد الحميد الثاني بالوثائق ، ص 27 .

⁽³⁾ عمر فاروق يلمظ : السلطان عبد الحميد الثاني بالوثائق ، ص 27 .

وقد كان يفرح ويسر عندما يرى وزراءه وكبار رجال دولته يقلدونه في ملبيه البسيط، وفي طعامه المتواضع ، ويعزى تلك البساطة إلى الدين الإسلامي، وكثيراً ما انتقد رجال دولته الذين يبذرون الأموال ويصرفون الكثير على المأكل والملابس ولا يميلون إلى البساطة في عيشهم ، وفي الوقت نفسه يعيب على جهاز الحكومة الذي هو على رأسه كثرة كبار الموظفين فيه ومن هم أصحاب رواتب ضخمة دون حاجة لهم فقد سار على تعاليم ديننا الحنيف التي تأمر بعدم الإسراف والتبذير ، وتدعوا إلى البساطة في كل شيء .⁽¹⁾

لقد كره التبذير والإسراف فعاش ضمن حدود ريعه من المزارع الخاصة به ، ولم يأخذ من خزينة الدولة مطلقاً ، بل كان يتبرع من ماله الخاص لكثير من المشاريع الخيرية كبناء المدارس والجواجم والمستشفيات حتى بلغ عددها 1552 بناية، كما أنه افتتح التبرع لخط سكة حديد الحجاز ، وهذا يعني أنه كان يجمع ماله لخدمة دولته وعرشه ، لقد كره حياة البذخ والترف نظراً للنتائج المؤسفة التي شاهدها عن قرب في سنوات شبابه ، وما جره التبذير والبذخ ، على الدولة من ضائقة مالية . لذلك أخضع ميزانية الدولة للمحاسبة الدقيقة والاستثمار المعقول حتى أمكنه أن يصل إلى تخفيض ديون الدولة العثمانية .⁽²⁾

لذلك لم تكن سياسة البساطة والاقتصاد في الصرف ذات وبال على الدولة العثمانية ، بل خفت نسبة الديون بشكل كبير .

لقد تولى الدولة العثمانية وهي متقلة بالديون ، فالدخل العام للدولة أخذ يقل عاماً بعد آخر ، والإنتاج المحلي يتضاءل بمرور الوقت ، مما أوقعه في موقف يحتاج إلى الحنكة السياسية والخبرة الاقتصادية ، فاتبع سياسة لمعالجة قضية الديون ، إذ بلغت عند توليه الحكم ما يقرب من 300 مليون ليرة ذهبية عثمانية ، فبدأ في إستقدام الخبراء الماليين ، ووضع خطة لتسديدها بشكل منتظم ،⁽¹⁾ وشكل إدارة للديون العامة وبدأ العمل على تلافي العيوب السابقة ، وقرر حصر الوظائف وجميع التشكيلات العسكرية ، وتوفير جميع الإمكانيات لها ،

⁽¹⁾ محمد مصطفى الهلالي : مرجع سابق ، ص 137 .

⁽²⁾ للاستزادة عن سياساته المالية الرجوع إلى جدول ميزانية الحكومة العثمانية لسنة 1316هـ / 1898م ، حيث يوضح النفقات والإيرادات ، محمد مصطفى الهلالي : مرجع سابق ، ص 138 ، 139 .

⁽¹⁾ عبد الحميد الثاني : مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني ، ترجمة : محمد حرب ، ص 68 - 69م . ربيع عبد الرؤوف الزواوي : مرجع سابق ، ص 74 .

وأهم من ذلك وضع أنساً وقانوناً لموازنة المصاريف بالإيرادات ، وترتيب هذه الأمور مع جميع الأطراف المعنية لوضع اللائحة التنظيمية التي ستصدر بهذا الشأن .⁽²⁾

وقد استطاع عن طريق هذه الإجراءات أن يخفض ديون الدولة العثمانية إلى 30 مليون ليرة عثمانية ، وذلك بعد دفع ما طلبه معركتان كبرitan وإحمد بعض حركات التمرد الداخلية ، كذلك تمكن من تقليل مصروفات الدولة العثمانية على مر سنين حكمه.⁽³⁾

أما عن مسألة غضبه والنوبات التي تتتابع وتهداً سريعاً ، فهي دون أساس أو واقع يمكن أن يستند عليه المؤرخ ديني ؛ لأن السلطان عبد الحميد الثاني عُرف بقوه الإرادة ورباطة الجأش ، وتملك النفس عند الغضب ، ولم يكن يثير غضبه سوى أمور تمس الشريعة الإسلامية .⁽⁴⁾ ، وما يدل على ذلك طول مدة حكمه التي واجه فيها أكثر مشاكل الدولة العثمانية تعقیداً ، ومع ذلك استطاع حلها بكل ذكاء وحنكة وهدوء .

ثالثاً : لم يعطي الأحداث التي واجهها السلطان عبد الحميد الثاني في بداية حكمه حقها ، فقال :

" ورغبة من السلطان عبد الحميد الغازي في وضع حد لتدخل القوى الكبرى في مجريات الأمور السياسية العثمانية فإنه عقد بالتشاور مع مدحت باشا مؤتمراً دولياً في إسطنبول ، فلما كان يوم افتتاحه 23 ديسمبر 1876م أصدر خطأ همايوينا يعلن للناس فيه قيام أول دستور للبلاد ويسمى " بقانوني أساس " .⁽⁵⁾ وتوضيحاً لما حدث نجد أن السلطان عبد الحميد الثاني قد إصطدم في بداية حكمه بعدة مشاكل جعلته يرضخ لمسألة إعلان الدستور⁽⁶⁾ وذلك حتى يستجمع قواه ويرى تعريف الأمور بطريقة مناسبة .

فكان روسيا تعد نفسها حامية لدول البلقان ، فقامت في عام 1293هـ / 1876م بتحريض الصرب للقيام بإعلان الثورة ضد الدولة العثمانية ، وقد قام أمير الصرب ميلان بانتزاع البوسنة والهرسك من الدولة العثمانية ، ولكن الجيش العثماني تمكن من قمع هذه الحركة ، وبعد هزيمة قصيرة ، عاد الجيش الصربي بقيادة القائد الروسي جرناييف في 3

⁽²⁾ أرشيف رئاسة الوزراء بإسطنبول : وثيقة 20 / EE 71 بتاريخ 26 ذي الحجة 1294هـ .

⁽³⁾ عبد الحميد : مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني ، ترجمة : محمد حرب ، ص 68 . ربيع عبد الرؤوف الزواوي : مرجع سابق ، ص 74 .

⁽⁴⁾ محمد مصطفى الهلالي : مرجع سابق ، ص 25 .

⁽⁵⁾ جان ديني : مادة عبد الحميد الثاني ، موجز دائرة المعارف الإسلامية ، ج 23 ، ص 7115 .

⁽⁶⁾ انظر تعريف المنشروطية ، ص 690 .

رمضان 1293هـ / 22 سبتمبر 1876م وهج على الجيش العثماني ، وقد استطاع العثمانيون من تحقيق الانتصار على الجيش الصربي الذي اضطر جنوده إلى الفرار من ساحة القتال ، كما تمكن الجيش العثماني من استرداد بعض المناطق التي استولى عليها الجيش الصربي وفي هذه الأثناء قامت كل من بريطانيا وروسيا بمراجعة السلطان عبد الحميد الثاني لإيقاف تقدم الجيش العثماني ومنع تغلقه داخل الصرب ، ولقبول عقد الهدنة معهم ، وقد وافق السلطان على عقد الصلح باشتراط تخلي الصربين عن عصيانهم ، وقيامهم بدفع التعويضات للدولة العثمانية ، وقيام الأمير الصربي ميلان بتقديم الطاعة للسلطان ، وعقدت الهدنة بين الطرفين في 11 رمضان 1293هـ / 1 أكتوبر 1876م .⁽¹⁾

كادت الأحداث التي وقعت في الصرب وقراطاغ أن تتحول إلى حرب لا مفر منها ، حيث كان الجيش العثماني على وشك الدخول إلى بلغراد ، فقام السفير الروسي في إسطنبول بتوجيه إنذار إلى الدولة العثمانية ، كما قامت بريطانيا بدعوة الدول المشاركة في مؤتمر باريس عام 1273هـ / 1856م إلى عقد مؤتمر في إسطنبول ، فعقد المؤتمر في 15 شوال 1293هـ / 5 نوفمبر 1876م في مبنى نظارة البحريمة العثمانية (الترسخانة) الواقعة على خليج القرن الذهبي ، وقد حضر في هذا المؤتمر الذي عرف في التاريخ العثماني باسم " مجلس المقالمة " ممثلو الدول المذكورة وسفراؤهم في إسطنبول ، وتناول المؤتمر الأحداث الجارية في الصرب وقراطاغ وبلغاريا والبوسنة والهرسك ، وقام باتهام الدولة العثمانية باختلاق هذه الأحداث .⁽²⁾ وعلى الرغم من إدراك الدول الأوروبيية خاصة بريطانيا وفرنسا ومعهم روسيا أنها هي المحرضة على نشوب نار هذه الثورات والفتنة ، إلا أنها كانت - في تلك الفترة - تمتلك قناعة خاصة وهي تمزيق ممتلكات الرجل المريض ، وللأسف لم يكن السلطان عبد الحميد الثاني يملك الرفض في بداية حكمه .

ثم جاء إعلان المشروطية⁽¹⁾ الأول ليقلق حكم عبد الحميد الثاني في بدايته ، لقد كان مدحت باشا الذي عين بمنصب الصداررة العظمى في 2 ذي الحجة 1293هـ / 19 ديسمبر

⁽¹⁾ عمر فاروق يلمظ: التاريخ العثماني الموثق ، ج 4 ، ص 114 ، 115. محمد علي الصلاحي : مرجع سابق ، ص 643 – 645.

Ali Fuad , Osmanli – Rus Seferi , Istanbul 1326 , I , S . 176 – 180 .

⁽²⁾ عمر فاروق يلمظ : التاريخ العثماني الموثق ، ج 4 ، ص 118 .

Omer Faruk Yilmaz , Belgelerle Osmanli Tarihi , IV , Istanbul 2000 , S . 118 – 120 .

⁽¹⁾ المشروطية mesrutiyet هو الدستور الذي أصدره السلطان عبد الحميد الثاني في الرابع من ربيع الأول عام 1294هـ / 16 مارس 1877م وعلى أساسه تم تشكيل أول مجلس نيابي في الدولة العثمانية " المبعوثان " . وقد أصدر السلطان عبد الحميد الثاني فرمان في الحادي عشر من صفر 1295هـ / 14 فبراير 1878م بتعليق المجلس لأجل غير مسمى بسبب ما نشب في

1876م يعتقد بأن إعلان المنشروطية (النظام البرلماني) هو السبيل الوحيد في إنقاذ الدولة العثمانية من المضائقات التي تعاني منها ، فقام مع بعض زملائه بالعمل على إصدار القانون الأساسي ، فتشكل لهذا الغرض مجلس برئاسته ، وتكون من 28 عضواً من المسلمين وغير المسلمين ، وبعد مباحثات طويلة استطاع هذا المجلس إصدار القانون الأساسي المتضمن 144 بندًا. والحقيقة أن هذا القانون كان مستوحى من الدستور البلجيكي ،⁽²⁾ وقد وافق السلطان عبد الحميد الثاني رغم رغبته على القانون الأساسي ، وذلك بعد إجراء بعض التعديلات فيه ، كما قام بإلغاء بعض البنود حيث خفضها إلى 117 بندًا ، ثم تبع ذلك قيام السلطان عبد الحميد الثاني في 5 ذي الحجة 1293هـ / 23 ديسمبر 1876م بإعلان المنشروطية الأولى بموجب هذا القانون الذي يعد الدستور الأول للدولة العثمانية ، وافتتح أول برلمان عثماني باسم "مجلس المبعوثان" الذي كان أعضاؤه من المسلمين والنصارى والأرمن واليهود وذلك في 4 ربيع الأول 1294هـ / 19 مارس 1877م في قصر ضولمة باغجة برئاسة أحمد وفيق باشا ، وقد قام رئيس المابين (التشريفات) سعيد بك بإلقاء كلمة السلطان عبد الحميد الثاني في افتتاح المجلس ، وانتهت الجلسة الأولى بقراءة الأدعية وإطلاق المدافع.⁽³⁾

لكن هذا الدستور الأول تم إعداده دون التفكير في الظروف التي تمر بها الدولة العثمانية ، ولم يكن متواهماً مع بنية الدولة العثمانية ، مع أن من صنفه اعتقد أنه نظم كل شيء ، لكن عن تطبيق الدستور على أرض الواقع ظهر فشله ، فألغاه السلطان عبد الحميد الثاني عندما أتيح له ذلك .

رابعاً: أكد على أن الدولة العثمانية هي التي شنت الحرب على روسيا واليونان في عهد السلطان عبد الحميد الثاني . فقال :

المجلس من خلافات بين الأعضاء . وهذه هي المنشروطية الأولى ، أما الثانية فهي الفرمان الذي أصدره السلطان عبد الحميد الثاني في 2 جمادى الآخرة 1326هـ / 24 يوليو 1908م بإعادة المجلس بعد تعطله أكثر من ثلاثة علاماً . سهيل صابان : المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية ، ص 209 .

⁽²⁾ يوسف حسين عمر : أسباب خلع السلطان عبد الحميد الثاني 1876 - 1909م ، إربد : دار الكتاب التقافي ، 1426هـ / 2005م ، ص 23 . عمر فاروق يلقط : التاريخ العثماني الموثق ، ج 4 ، ص 121 ، 122 .

⁽³⁾ أرشيف رئاسة الوزراء بإسطنبول : وثيقة Boa / Du it 10/62 ، إسماعيل سرهنوك ، حقائق الأخبار ، ج 1 ، ص 729 . Hatt - i Humayun - u Serif ve Kanun - i Esasi , Istanbul 1297 , S . 62 .

" ولقد شنت تركيا في عهد السلطان عبد الحميد حربين إحداهما على روسيا 1877م - 1878م والأخرى على اليونان واستمرت من 18 ابريل حتى 5 يونيو 1897م".⁽¹⁾

والحقيقة أن روسيا كانت قد كسرت عن أن iyابها وبدأت تمزق الدولة العثمانية ، وهذه الحرب لم تكن إلا حلقة في سلسلة طويلة ضربت بها كيان الدولة العثمانية ، في الوقت نفسه لم يكن السلطان عبد الحميد الثاني يمتلك زمام الأمور أو لديه نفوذ حتى يمنع نشوب هذه الحرب ؛ نظراً لأنه بالكاد كان قد تولى العرش، وكان يعلم مقدار الدمار والخراب الذي ستتركه حربهم مع روسيا .

و جاء دور مدحت باشا الذي كان يساعد أوروبا ضد الدولة العثمانية ، فقد أثار الشعب وكبار رجال الدولة بأقواله وأفعاله ، وصور الحرب مع روسيا على أنها أمر لا مفر منه ، لذلك عندما أعلنت روسيا الحرب رسميا ، وجدت صداتها عند الناس، خاصة وأن أخبار تحركات روسيا ضد الأهالي المسلمين كانت ترد بكثرة على حكومة عبد الحميد الثاني⁽²⁾ .

وأعلنت روسيا في 9 ربيع الآخر 1294هـ / 24 ابريل 1877م الحرب ضد الدولة العثمانية ، وبما أن هذا التاريخ وافق سنة 1293هـ في التقويم الرومي ، فقد عرفت هذه الحرب في التاريخ العثماني بـ "حرب 93" ، وقد ضم الجيش الروسي جنوداً من الأرمن في هذه الحرب التي استمرت تسعة شهور ، ودار القتال بين القوات العثمانية والقوات الروسية في جبهات متعددة ، من أهمها جبهة بيلونه ، حيث دافع القائد التركي عثمان باشا عن القلعة ببسالة وشجاعة على الرغم من قلة العتاد والعتاد ، ثم وقع أسيراً بيد الروس ، وأمام تلك الهزائم وسط السلطان عبد الحميد الملكة فيكتوريما للصلح حتى وافقت روسيا عليه ، واتفقت الدولتان على عقد الهدنة بين الطرفين في سان ستيفانو في 29 صفر 1295 / 3 مارس 1878م ، وخسرت الدولة العثمانية في هذه الحرب أراضي كثيرة في البلقان والأناضول .⁽³⁾

⁽²⁾ جان ديني : مادة عبد الحميد الثاني ، موجز دائرة المعارف الإسلامية ، ج 23 ، ص 7115 .

⁽¹⁾ عمر فاروق يلمظ : السلطان عبد الحميد الثاني بالوثائق ، ص 47 - 50 .

⁽²⁾ يلمازا وزتنا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج 2 ، ص 107 - 116 . علي محمد الصلاحي : مرجع سابق ، ص 648 .
Gazi Ahmed Muhtar Pasa , Anadolu' da Rus Muharebesi , Istanbul 1328 , S . 5-11 .

وقع المعاهدة "صفوت باشا" عن الدولة العثمانية وهو يبكي؛ وذلك لأن شروطها كانت مجحفة جداً في حقها، حيث قدم المندوب الروسي شرطاً مسبقاً وطلب التوقيع عليها مباشرة وإلا تقدم الجيوش الروسية وتحتل إسطنبول، ولذلك لم يبق خيار للعثمانيين إلا الموافقة على التوقيع. ومن أهم بنودها:

- (١) تعيين حدود للجبل الأسود لإنها النزاع، وتحصل هذه الإمارة على الاستقلال.
 - (٢) استقلال إمارة الصرب.
 - (٣) استقلال بلغاريا استقلاً ذاتياً، وتدفع مبلغاً محدوداً للدولة العثمانية.
 - (٤) تحصل رومانيا على الاستقلال التام.
 - (٥) يتبعه الباب العالي بحماية الأرمن والنصارى من الأكراد والشركس.
 - (٦) يقوم الباب العالي بإصلاح أوضاع النصارى في جزيرة كريت.
 - (٧) تدفع الدولة العثمانية غرامة حربية مقدارها 245 مليون ليرة ذهبية، ويمكن لروسيا أن تتسلم أراضي مقابل هذا المبلغ.
 - (٨) تبقى المضائق مفتوحة أمام سفن روسيا في السلم وال الحرب.
 - (٩) يمكن ل المسلمين بلغاريا أن يهاجروا إلى حيث يريدون من أراضي الدولة العثمانية.
- (١)

لقد مزقت معاهدة "سان ستافانو" أجزاء الدولة العثمانية، وأفقدتها كثيراً من أراضيها، بل وأدخلتها في دوامة الغرامات المالية، في المقابل أعطت القوة لروسيا لممارسة مزيد من الضغوط على الدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد.

اقتنع السلطان عبد الحميد الثاني بعدم فائدة النظام البرلماني للدولة، فقام بإصدار فرمان في 9 صفر 1295هـ / 13 فبراير 1878م ألغى بموجبه مجلس المبعوثان.^(٢) لم يكن السلطان عبد الحميد الثاني راضياً عن دخول الحرب ضد روسيا أصلاً، وبالتالي لم يصدق على هذه المعاهدة، فبدأ القيام بجهود سياسية ودبلوماسية مكثفة حتى اقنع

^(١) علي محمد الصلابي: مرجع سابق، ص 649، 650.

^(٢) Mahmud Celaleddin Pasa, Mir'at – i Hakikat, III, S. 62.

بريطانيا أخيراً للوقوف بجانبه ، وبذلك ضمن عقد مؤتمر آخر وهو "مؤتمر برلين" لتخفييف آثار معاهدة سان ستيفانو من ناحية ، وإخافة روسيا بمنافستها بريطانيا من ناحية أخرى ، حتى تصرف النظر عن استمرار الحرب، وبذلك استطاع تحقيق مكاسب للدولة ، وتقليل البنود المجنحة في حق الدولة العثمانية في المعاهدة الأولى ، في الوقت نفسه حاول أن يساعد ضحايا الحرب بالإتفاق عليهم من ماله الخاص ، والسعى لإيجاد مأوى وسبل الإعالة لهم، ووسائل للتخفيف عن هؤلاء المهاجرين الضحايا نتيجة لهجمات الروس على قراهم.⁽¹⁾

فدعوت كل من بريطانيا وألمانيا الدول التي وقعت على مؤتمر باريس عام 1273هـ

/ 1856م لحضور مؤتمر برلين وذلك لمناقشة معاهدة الصلح التي أبرمت بين العثمانيين والروس في سان ستيفانو بتاريخ 29 صفر 1295هـ/ 3 مارس 1878م ، وابلغنا القرار إلى الدولة العثمانية ، فزاد السلطان عبد الحميد الثاني تقربه من بريطانيا لتقوم الأخيرة بمساندة الدولة العثمانية في مؤتمر برلين ، لكن بريطانيا استغلت الموقف وقامت بطلب جزيرة قبرص من العثمانيين مقابل دعمها لهم ، وأبرمت اتفاقية سرية بين الدولة العثمانية وبريطانيا 2 جمادى الآخرة 1295هـ / 4 يونيو 1878م ، أعطيت بموجبها قبرص مؤقتاً إلى بريطانيا، وبالفعل قامت بريطانيا بالدفاع عن الدولة العثمانية في مؤتمر برلين ، وأرغمت روسيا على قبول بنود المؤتمر التي نصت على تخفييف شروط معاهدة سان ستيفانو وقد استغرقت مفاوضات مؤتمر برلين الذي شاركت فيه ألمانيا والنمسا وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا وروسيا والدولة العثمانية شهراً واحداً برئاسة المستشار الألماني بسمارك ، وانتهى في 13 رجب 1295هـ / 13 يوليو 1878م وانتهى المؤتمر على ما يلي :⁽²⁾

١) إعطاء مقدونيا إلى الدولة العثمانية .

٢) تقسيم بلغاريا إلى شطرين ، ليكون أحدهما إمارة تابعة للدولة العثمانية ، والآخر دولة مستقلة باسم الرومي الشرقي .

٣) انتزاع البوسنة والهرسك من الإدارة العثمانية .

٤) المصادقة على استقلال كل من رومانيا والصرب وقراطاغ .

٥) القيام بعمل تعديلات في الحدود العثمانية اليونانية لصالح اليونان على الرغم من عدم دخول اليونان الحرب أو المؤتمر .

⁽¹⁾ علي محمد الصلايبي : مرجع سابق ، ص 651 . السلطان عبد الحميد : عبد الحميد الثاني ، ترجمة محمد حرب ، ص 72

⁽²⁾ Omer Faruk Yilmaz , Belgelerle Osmanli Tarihi , IV , Istanbul 2000 , S . 157 – 159 .

٦) قيام الدولة العثمانية بعمل إصلاحات في المناطق التي يسكنها الأرمن في شرق

الأناضول ، مع قيامها بتزويد الدول الأوروبية بمعلومات حول الموضوع .^(١)

وبهذا لم تكن نتائج مؤتمر برلين مرضية بالنسبة للدولة العثمانية ، إذ ثبت خسارتها نفس المناطق التي خسرتها بموجب معاهدة سان ستيفانو وبقاء الغرامنة المالية ، لكن سُجل لبريطانيا وفرنسا رغبتهما في المحافظة على ممتلكات الدولة العثمانية مؤقتاً ، في الوقت الذي كشفت فيه عن نواياها الاستعمارية ، فقد احتلت فرنسا تونس عام 1299هـ / 1881م نظير احتلال بريطانيا لقبرص ، واحتلت بريطانيا بعد ذلك مصر عام 1300هـ / 1882م معلنة احتلالها مؤقتاً.^(٢)

وما يدلل على النوايا الاستعمارية ، أنه في كواليس مؤتمر برلين عرض بسمارك تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية على مذبح السلام الأوروبي ، حيث عرض على بريطانيا مصر ، أما فرنسا فعرض عليها تونس والشام ، وكانت البوسنة والهرسك من نصيب النمسا ، أما روسيا فتحتل البوغازين "البسفور والدردنيل" ، لكن هذه العروض كانت خفية ولم تدرج في مقررات المؤتمر^(٣) ، ولكنها نفذت بعد ذلك - كما رسمت - وبدأت تظهر المشاكل الداخلية في طرابلس وتونس ، حتى إن الدولة العثمانية أرسلت لهم المساعدات والذخيرة لمساعدتهم في حل هذه المشاكل.^(٤)

لقد فقدت الدولة العثمانية كثيراً من أراضيها بموجب مؤتمر برلين الذي انعقد عقب الحرب العثمانية الروسية ، وقد أعطيت بعض المناطق إلى اليونان ، لكن اليونان لم تكتف بذلك ، وإنما بدأت تطالب بجزيرتي يانيا وكريت - أيضاً - وذلك بدعم الدول الأوروبية ، وترجمت ذلك بالهجوم والاستيلاء على جزيرة كريت في 20 شعبان 1313هـ / 16 فبراير 1895م وبقتل المسلمين القاطنين في الجزيرة ، وكانت اليونان تستهدف من وراء ذلك سحب الدولة العثمانية إلى الحرب ، فاضطر السلطان عبد الحميد الثاني بإعلان الحرب على اليونان في 14 ذي القعده 1315هـ / 17 إبريل 1897م دفاعاً عن الدولة العثمانية ، وبدأ الجيش العثماني بالتغلغل داخل الأراضي اليونانية ، حيث سجل انتصاراً عنيفاً على الجيش اليوناني، فطلبت اليونان مساندة الدول الأوروبية مما حدا بروسيا والدول الأوروبية الأخرى توجيه

^(١) أكمل الدين أوغلي : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 119 .

^(٢) علي محمد الصلاحي : مرجع سابق ، ص 653 .

^(٣) أحمد عبد الرحيم مصطفى : مرجع سابق ، ص 195 .

^(٤) أرشيف رئاسة الوزراء بإسطنبول : وثيقة 67 / 525 HR.TO

إنذار إلى السلطان عبد الحميد الثاني لأجل إيقاف الحرب ، وقد وافق السلطان على ذلك بشرط قيام اليونان بدفع غرامة الحرب، وانسحابها من المناطق التي احتلت مؤخراً . وأبرمت معااهدة السلام في 18 ربيع الآخر 1315هـ / 16 سبتمبر 1897م بين الدولة العثمانية واليونان⁽¹⁾ ، وقد لُقب السلطان عبد الحميد الثاني بـ(الغازي) عقب انتصارات الجيش العثماني في الحرب العثمانية اليونانية . كما منح السلطان الغازي وسام النصر إلى القادة الذين اشتركوا في هذه الحرب.⁽²⁾

خامساً: لم يذكر السبب الرئيس لخلع السلطان عبد الحميد الثاني ، وفي الوقت نفسه لم يشير مطلقاً لدوره مع الحركة الصهيونية وتصديه للخطر اليهودي . فقال:

"فإن المسألة المقدونية المعقدة أدت إلى تدخل أوروبي بالإجماع انتهى بالإطاحة بالسلطان عبد الحميد وقيام ثورة "تركيا الفتاة" ... ثم كانت الحركة الانقلابية التي تزعمها الرجعيون وبعض العسكر الذين اتسموا بالتعصب والتي قادها مارشال محمود شوكت ، وانتهى الأمر بصدور قرار بخلع السلطان عبد الحميد الثاني ، وقد اتخذ هذا القرار المجلسان اللذان عقدا فيما بينهما يوم 28 أبريل 1909م جلسة مشتركة ، واعتمد هذا الخلع على "فتوى" صدرت في اليوم ذاته اتهمته بتحريمه كتب الشرع وحرقه إليها وتم خلعه بمقتضى هذه الفتوى".⁽³⁾

لقد شهد عصر السلطان عبد الحميد الثاني تبلور الحركة الصهيونية بزعامة تيودور هرتزل⁽⁴⁾ الذي سعى بشتى الطرق خلف السلطان عبد الحميد الثاني لطلب موافقته على فتح باب الهجرة إلى فلسطين لكن السلطان رفض ، وقال : لا، فدفع ثمن هذه الكلمة غالياً عرشه وسمعته وتاريخه .

⁽¹⁾ Kasim bin Ahmed ، 1897 Turk – Yunan Savasi (Teselya Tarihi) ، Yayina Haz . Bayram Kodaman, TTK , Ankara 1993 ، S . 36 – 50 ; Mahir Mehdi , Bedreka – i Zafer , Yayina Haz . Bayram Kodaman , TTK , Ankara 1993, S.107 – 111 .

⁽²⁾ Kasm bin Ahmed ، 1897 Turk – Yunan Savasi (Teselya Tarihi) ، Yayina Haz . Bayram Kodaman, TTK , Ankara 1993 , S . 61 , 105 .

⁽³⁾ جان ديني : مادة عبد الحميد الثاني ، موجز دائرة المعارف الإسلامية ، ج 23 ، ص 7115 ، 7116 .

⁽⁴⁾ تيودور هرتزل : 1276هـ / 1860م – 1322هـ / 1904م ، مؤسس الحركة الصهيونية ، ومن أبرز قادة اليهود ، وهو أول رئيس للمنظمة الصهيونية العالمية ، ولد في بودابست ثم انتقل إلى فينا واستقر بها ، أخرج كتاب "الدولة اليهودية" الذي طلب فيه بإنشاء وطن قومي خاص لهم ، بدأ نشاطه في باريسوسيرا عام 1315هـ / 1897م حيث خرجت المنظمة الصهيونية للنور ، حاول الحصول على موافقة الدولة العثمانية لإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين ، واستتجد بالدول الأوروبية لتحقيق ذلك ، ولكن كل محاولاته باعدت بالفشل ، وتوفي متأثراً بمرض القلب ودفن في جبل باسمه قرب القدس . أحمد عبد الله الزغبي : مرجع سابق ، ج 3 ، ص 11 ، 12 .

لقد سارت جهود الصهيونية بزعامة تيودور هرتزل لتحقيق الوطن القومي اليهودي في فلسطين في اتجاهين متكاملين :

الاتجاه الأول :

محاولة إقناع السلطان العثماني عبد الحميد الثاني - باعتبار أن فلسطين ضمن أملاك الدولة العثمانية - بقبول المشروع الصهيوني في فلسطين .

الاتجاه الثاني :

مناشدة الدول الأوروبية الكبرى - وهي بريطانيا والنمسا وألمانيا وإيطاليا وحتى الولايات المتحدة الأمريكية - كي تبذل مساعدتها لدى السلطان العثماني حتى يقبل بالمشروع الصهيوني في فلسطين .⁽¹⁾

ومنذ أن عقد مؤتمر بال في سويسرا عام 1897هـ / 1315هـ وبعد صدور كتاب تيودور هرتزل انفتح المجال للعمل في مواجهة العالم الإسلامي وخاصة الدول العثمانية ، وفي الوقت نفسه ، زادت علاقات تيودور هرتزل بالشركات الأوروبية الاحتكارية وخصوصاً شركة آل روتشلد حيث لعبوا دوراً بارزاً في تدعيم السيطرة المالية اليهودية على الدولة العثمانية ؛ وذلك لتكبيلها حتى ينفذوا مخططهم .⁽²⁾

والحق أن معاملة السلطان عبد الحميد الثاني لليهود لم تختلف عن سلفه من سلاطين آل عثمان ، حيث تمعن هؤلاء بكمال حقوقهم ، وقام السلطان بدفع رواتب لكتاب الحاخامات بانتظام ، وبذلك أصبحوا في مكانة مسؤولة في الدولة العثمانية ، وكانت الأموال توزع على العائلات اليهودية الفقيرة ، ولهم أيضاً حق التصويت في أي انتخابات مثل أي أقلية دينية أخرى ، وأنثاء معاناتهم في روسيا ، وتشردآلاف من الأسر دون مأوى عام 1300هـ / 1282م حاول السلطان عبد الحميد الثاني التخفيف عنهم بكل ما في وسعه، وفي عام 1301هـ / 1283م منح الوسام العثماني الكبير ل الكبير حاخامي إسطنبول "موشي ليفي" معتبراً عن تعاطفه مع اليهود وأسفه وحزنه على ما أصابهم من اضطهاد في الدول

⁽¹⁾ أحمد عبد الله الزغبي ، مرجع سابق ، ج 3 ، ص 12 .

⁽²⁾ نهدي صبحي الحمصي : العثمانيون والمشروع الصهيوني ، تاريخ العرب والعالم ، سنة 20 ، العدد 187 سبتمبر - أكتوبر 2000م ، جماد الآخرة - رجب 1421هـ ، ص 81 .

الأوروبية، حتى إنه سمح لهم بالعمل في السلك الدبلوماسي ، فكان هناك قرابة 15 فنصلًّا ومستشاراً من اليهود في داخل وخارج الدولة العثمانية .⁽¹⁾

وحققة الأمر أن اليهود بدأوا بتشكيل مراكز زراعية في أراضي فلسطين منذ عام 1287هـ / 1870م ، ثم قاموا بتأسيس جاليات تجارية أيضاً ، وقد أبدى السلطان عبد الحميد الثاني اهتماماً بالغاً بفلسطين عندما شعر بالخطر اليهودي المندفع نحو الأراضي المقدسة ، فرفض في سنة 1293هـ / 1876م عروض حاييم غوديلا لشراء مساحات من الأراضي في فلسطين ، وذلك لإسكان المهاجرين اليهود فيها .⁽³⁾

واتسم موقف السلطان عبد الحميد الثاني بالمعارضة الشديدة لهجرة اليهود ، ويتبين ذلك عندما طلب جمعية "أحباء صهيون" في عام 1300هـ / 1882م من القنصل العثماني العام في أوديسا أن يمنح المهاجرين اليهود تأشيرات دخول إلى فلسطين بغرض الاستيطان فيها ، ولفت نظر القنصل العثماني عدد المهاجرين الكبير ، فأرسل يسأل عن رأي السلطان في هذا الأمر ، فرد عليه بعدم السماح لليهود بالاستيطان في فلسطين إلا بعد نيلهم للجنسية العثمانية ، مع موافقة السلطان شخصياً باستطانتهم في ولايات أخرى غير فلسطين ، شريطة أن يكونوا رعايا عثمانيين وأن تطبق عليهم القوانين العثمانية ، وبمرور الوقت طلبت السلطات العثمانية عدم السماح لليهود الذين يحملون أي جنسية أخرى من الدخول إلى متصرفية القدس ، وعدم منح أوامر الإقامة في القدس لهم إلا إذا دخلوا في الدين الإسلامي أو المسيحي ، فقلعوا أن يكونوا رعايا عثمانيين ، ويسمح لهم الدخول في فترات الحج فقط ،

⁽¹⁾ يوسف حسين عمر : مرجع سابق ، ص 155 ، 156 .

⁽²⁾ فاضل مهدي بيات : در اسات في تاريخ العرب في العهد العثماني ، ص 451 .

⁽³⁾ محمد سعيد طقوش : معجم سائية ، ص 482 .

وكان السلطان عبد الحميد الثاني قد بدأت تساوره الشكوك في الحركة الصهيونية ، لكن الأمر لم يخلُ من دخولهم متحايلين بدفع الرشاوى وشراء الذمم .⁽¹⁾

وقد أصدر السلطان عبد الحميد الثاني بعد ذلك ثلاثة فرمانات متعاقبة منع بموجبها هجرة اليهود إلى فلسطين ، وقيد زياراتهم وحددها إلى القدس في عام 1309هـ / 1891م . وقد أصدر السلطان عبد الحميد الثاني في عام 1309هـ / 1892م قانوناً بحرب بيع أراضي الحكومة إلى اليهود من كل الجنسيات ، حتى لو كانوا رعايا عثمانيين .⁽²⁾

لقد استشعر السلطان عبد الحميد الخطر القادر من الحركة الصهيونية وحاول التصدي ل تلك الحركة لها بقدر ما يمتلك من قوة ، لكن التيار كان أقوى منه .

وعقب هذه النشاطات اليهودية استطاع اليهودي تيودور هرتزل – وهو من ترأس الحركة الصهيونية في أواخر القرن التاسع عشر – أن يصل إلى مجلس السلطان عبد الحميد الثاني عام 1319هـ / 1901م بتوسط الدول الغربية الحليفة للصهاينة ، وطلب منه الموافقة على تأسيس دولة يهودية في فلسطين ، مقابل تسديد جميع القروض المتراكمة على الدولة العثمانية ،⁽³⁾ وقد تمت المقابلة الأولى في 1314هـ / 1896م ، والثانية في 1320هـ / 1902م وفي كلتا المقابلتين رفض السلطان عبد الحميد الثاني اقتراحات هرتزل وأعوانه ، ورد عليه بهذه الكلمات : " أنا لا أبيع شبراً واحداً من أرض الوطن ، علمًا أن هذا الوطن ليس ملكاً لي ، إنما هو ملك للأمة ، وقد أخذت أمتى هذه الأراضي بدمائهم ، وهم يدافعون عنها إلى الأبد بدمائهم أيضاً ، فليحتفظ اليهود بمالبيتهم لأنفسهم . ولن يستطيعوا سلب أراضي فلسطين منا إلا بعد سقوط دولتنا ، ولكن في الوقت الذي لا نزال نحن فيه على قيد الحياة والدولة باقية فإنهم لا يستطيعون سوى تمزيق أجسادنا " وبعد إنتهاء كلامه أمر بطرد هرتزل من مجلسه .⁽⁴⁾

⁽¹⁾ محمد سرحان : النظام العثماني " الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، 1492م - 1952م ، ط 1 ، دمشق : دار دمشق ، 1993م ، ص 30 ، 31 .

⁽²⁾ ليلي عبد اللطيف أحمد : مرجع سابق ، ص 30 .

⁽³⁾ أحمد عبد الله الزغبي : مرجع سابق ، ج 3 ، ص 13 - 14 . ليلي عبد اللطيف أحمد : مرجع سابق ، ص 34 - 35 . زياد أبو غنيمة : جوانب مضيئة في تاريخ الأتراك العثمانيين ، ص 44 - 45 . علي حسون : مرجع سابق ، ص 246 . Omer Faruk Yilmaz , Belgelerle Osmanli Tarihi , IV , Istanbul 2000 , S. 200 .

⁽⁴⁾ فاروق عمر يلمظ : التاريخ العثماني الموثق ، ج 4 ، ص 50. نهدي صبحي الحمصي : العثمانيون والمشروع الصهيوني ، 89 .

وهنا بدأ السلطان عبد الحميد الثاني بأخذ التدابير الضرورية اللازمة لأجل حماية فلسطين من الأعداء والخونة ، فأرسل فرقة عسكرية لحماية أرضها وحدودها ، كما أسس المؤسسات الزراعية لحماية الفلاحين الفلسطينيين ، وأنشأ السكة الحديدية في المنطقة ؛ وذلك من أجل راحة الأهالي المسلمين وسرعة إيصال القوات في حالة أي تهديدات من اليهود ، ومن جهة أخرى أمر السلطان بمنع بيع العقارات والأراضي لليهود في فلسطين ، وبمنع هجرة اليهود إلى فلسطين وتحديد زيارتهم إلى القدس ، كما جلب بعض المسلمين من القفقاس والبلقان وأسكنهم في المنطقة ، وذلك بغرض ازدياد عدد المسلمين .⁽¹⁾

وإذاء هذه التغيرات والتدابير التي اتخذتها السلطان ضد اليهود بدأ الصهيوني هرتزل بتغيير شكل نشاطاته ، فبدأ بتحريض الروم والأرمن والمعارضين الأتراك للخلافة الإسلامية بالثورة ضد السلطان عبد الحميد الثاني ، ومن جهة أخرى طلب من الإنجليز الضغط على الدولة العثمانية لقيام بإعلان المشروطية الثانية (النظام البرلماني) .⁽²⁾

ويظهر لنا سبب آخر أسلهم بقوة في عزل السلطان عبد الحميد الثاني -والذي أغفلته ولم تركز عليه أغلب الكتب والمراجع التي تناولت حياته - ويتمثل في منعه التقيب عن آبار البترول ، فقد فطن السلطان عبد الحميد إلى أن أغلب البعثات التي كان عملها ظاهرياً التقيب عن الآثار والأواني القديمة أو حتى المياه الجوفية ، لم يكن هذا هو هدفها الأساسي ، وإنما ستار يختبئ وراءه الهدف الرئيس من الحملة وهو التقيب عن البترول ، وهذا ما رفضه السلطان عبد الحميد بشدة ، بل عمل على إغلاق الآبار التي نقب عنها الإنجليز في الموصل وبغداد ، فتأثر الإنجليز لذلك وأثاروا فتنة ضده في كريت ، بل بدأوا جدياً في العمل على إسقاطه من فوق عرشه ، والتخطيط فعلياً بالتعاون مع الأطراف الأخرى لإزالة هذه العقبة من أمام مصالحهم الاقتصادية ، وقد اتفق الألمان مع إنجلترا في هذا الأمر ، حيث صحب الإمبراطور الألماني في زيارته لـ إسطنبول بعض العلماء الذين هدفهم التقيب عن البترول خلف غطاء البحث عن الآثار ، وقد تلقى السلطان عبد الحميد تقريراً يفيد بأن البعثة الألمانية تقوم بعمل البعثة الإنجليزية نفسه ، وكان لا يزال الإمبراطور ضيفاً في إسطنبول ، وقد

⁽²⁾ ربيع عبد الرؤوف الزواوي ، مرجع سابق ، ص 76 – 79 . محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 37 ، سعيد عبد الكريم زيد ، مرجع سابق ، ص 164 : هدى درويش ، تاريخ العلاقات التركية اليهودية ، ج 1 ، ص 377 – 378 .

⁽³⁾ مجدي عبد المجيد الصافوري : مرجع سابق ، ص 84 .

رفض السلطان عبد الحميد هذا الأمر ولغاه ، واعترف أنه تأثر بهذا الموقف ، فلو أن الإمبراطور تحدث في الأمر مباشرة ، لأعطاه الموافقة على أساس بعض الشروط .⁽³⁾
وقد طلب السلطان عبد الحميد من اليابان وفداً متخصصاً في التقيب عن البترول ، ووافقت اليابان على إرسال البعثة ، نظراً للعلاقات الدبلوماسية الرسمية بين البلدين ، لكن الأمر لم يكتمل لاستبعاده عن العرش بعد ذلك بقليل .⁽¹⁾

ومما لا شك فيه أن موقف السلطان عبد الحميد الثاني ضد تنفيذ رغبات الصهيونية كان أحد أهم الأسباب التي أدت إلى عزله ، ووضعه تحت الإقامة الجبرية ، ومعاملته بمنتهى القسوة والمهانة في المنفى .

وما يبلور المعلومة السابقة أن المتآمرين الذين قاموا بخلعه لم يكونوا سوى يهود وأداة بيد المنظمات الصهيونية وال MASONIYAH التي استخدمتهم لتحقيق أطماعها الاستعمارية بالقضاء على الخلافة العثمانية .⁽²⁾

لقد اضطر السلطان عبد الحميد الثاني نتيجة للضغوط الغربية عليه بإعلان المشروطية (النظام البرلماني) للمرة الثانية ، إذ افتتح مجلس المبعوثان (المجلس البرلماني) الذي يضم 266 عضواً من المسلمين وغير المسلمين في 22 ذي القعدة 1325هـ / 17 ديسمبر 1908م ، وبعد فترة لا تتجاوز خمسة شهور ، أي في 5 ربيع الثاني 1327هـ / 27 إبريل 1909م اجتمع مجلس المبعوثان في ظل الاتحاديين الذين دعمتهم المنظمات الماسونية والصهيونية والقوى الاستعمارية الغربية لأجل إنهاء حكم السلطان عبد الحميد الثاني .⁽³⁾

إن المصير الذي لقيه مدحت باشا ، لم يردع اليهود والصهيونية ، بل طفقوا يكتفون جهودهم ، حتى وتبوا على السلطة في عام 1326هـ / 1908م ليبدأوا في تنفيذ مخططاتهم

⁽³⁾ السلطان عبد الحميد : مذكرات السلطان عبد الحميد ، ترجمة : محمد حرب ، ص 154 – 157 . رفيق شاكر النتشة : السلطان عبد الحميد الثاني وفلسطين ، ط 1 ، بيروت ، د. ت ، ص 135 ، 136 .

⁽¹⁾ السلطان عبد الحميد : مذكرات السلطان عبد الحميد ، ترجمة : محمد حرب ، ص 158 . أرشيف رئاسة الوزراء بإسطنبول : وثيقة 1836/41 AH-MKT .

⁽²⁾ هدى درويش : العلاقات التركية اليهودية ، 391 . Yusuf can , " Arz – i Mev'ud Fitnesi " , Tarih ve Medeniyet Dergisi , Sayı 32 , Kasm 1996 , S . 23-27 .
⁽³⁾ زكريا سليمان بيومي : مرجع سابق ، ص 272 ، 273 .

في القضاء على السلطان عبد الحميد الثاني ، وإقصائه عن الحكم ⁽⁴⁾ بالتعاون مع جمعية الاتحاد والترقي .

وأثناء ذلك كانت هناك عدة أسباب جعلت من جمعية الاتحاد والترقي تُبقي السلطان عبد الحميد الثاني على العرش ، ومنها :

(١) لم يكن لدى الاتحاد والترقي القوة الكافية لعزله عام 1326هـ / 1908م.

(٢) سياسة المرونة التي اتبعها معهم السلطان عبد الحميد ، حيث نفذ رغباتهم وأعاد الدستور .

(٣) زيادة ولاء العثمانيين لشخص السلطان ، خاصة بين الجيش ، حيث لم تستطع جمعية الاتحاد والترقي نشر دعايتها السيئة بينهم ، لأنهم كانوا يبجلونه تماماً . ^(١)

لكن الصهيونية والاتحاد والترقي عملوا في الخفاء متعاونتين لتحقيق هدفهم الأساسي ، وأيضاً تحقيق مكاسب في فلسطين ، لذا لابد أولاً من التخلص من السلطان عبد الحميد ، فحاكت المؤامرة وخططت لأحداث 30 ربيع الأول 1327هـ / 21 إبريل 1909م ، وقد ترتب على هذه الفتنة اضطراب كبير في العاصمة ، وقتل عدد من عسكر جمعية الاتحاد والترقي ، وُعرفت هذه الحادثة في التاريخ بأحداث 31 مارس ، وقد تمت بخطيط صهيوني مع الاتحاد والترقي ، وبمساعدة أوروبا وعلى رأسها بريطانيا ، حتى إن السلطان لم يستخدم القوة العسكرية أو وحدات يلذر لإخماد الفتنة ؛ خوفاً من إراقة الدماء ، وألصقت به التهمة على الرغم من ثبوت براءته منها من خلال الوثائق التاريخية ، حتى إنه ذكر ذلك في مذكراته ، والحادث لا يحمل أي صفة دينية ، وإنما هدفه إيجاد علة لعزل السلطان عبد الحميد الثاني . ^(٢)

بناءً عليه وجهت للسلطان عبد الحميد الثاني التهمة بتدبير أحداث 31 مارس وحرق المصاحف ، والإسراف والتبذير ، فضلاً عن الظلم وسفك الدماء ، ونجح المغارضين في عزله بمنتهى القسوة ، حيث انعقد مجلس الأعيان والنواب يوم الثلاثاء في 5 ربيع الآخر 1323هـ / 27 إبريل 1909م واعتلى المنبر أحمد مختار باشا ، وتقدم باقتراح حول خلع

^(٤) زياد أبو غنيمه : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ، ص 71 .

^(١) أحمد نوري النعيمي : مرجع سابق ، ص 168 .

^(٢) محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 50 . عمر فاروق يلمظ : السلطان عبد الحميد الثاني بالوثائق ، ص 131 . عبد الحميد الثاني : مذكرات السلطان عبد الحميد ، ترجمة : محمد حرب ، ص 185 .

السلطان عبد الحميد الثاني من الحكم. بأسلوب اوضح منه أن الأمر قد تقرر سلفاً ، وبعد أن وافق أغلبية أعضاء المجلس على ذلك ، أشار الباشا إلى وجوب استناد قرار الخلع إلى فتوى صادرة من شيخ الإسلام وأمين الفتوى ، فكتب أحد أعضاء البرلمان وهو من النواب ، ويدعى "المالي حمدي يازار" مسودة الفتوى ، ثم دعى أمين الفتوى الحاج نوري أفندي إلى المجلس للتوقيع على الفتوى ، لكنه رفض ذلك في أول الأمر ، مبيناً براءة السلطان من التهم التي ألقواها به في نص الفتوى ، ولكنه أجبر في النهاية على توقيعها.⁽¹⁾ كذلك أحضر شيخ الإسلام محمد ضياء الدين أفندي⁽²⁾ إلى المجلس ، حيث قام هو الآخر بالتوقيع على فتوى الخلع مجبراً على ذلك ، وقرر المجلس إرسال وفد من أعضائه إلى قصر يلديز لإبلاغ قرار الخلع إلى السلطان ، وتقرر اختيار الوفد الذي يعدّ من الأحداث المؤلمة والمخزية في التاريخ العثماني ؛ إذ إن الوفد الذي أنيط به تبليغ قرار خلع سلطان الدولة العثمانية وخليفة المسلمين كان يتتألف من : عمانوئيل قراصو اليهودي ،⁽³⁾ وأسعد طوطانى الألبانى ،⁽⁴⁾ وآرام أفندي

⁽¹⁾ عمر فاروق يلمظ : السلطان عبد الحميد الثاني بالوثائق ، ص143 .

Ali fuad Turkgeldi , Gorup Isittiklerim , TTK , Ankara 1951 , 37 – 38 .

⁽²⁾ محمد ضياء الدين أفندي: هو المفتى الذي وقع على قرار خلع السلطان عبد الحميد الثاني ، عاش في الفترة 1263هـ - 1335هـ / 1847 - 1917 م ، وهو محمد ضياء الدين بن عثمان نوري الأرنيلي ، والده رئيس المسؤولين في دار الفتوى ، آخر شيوخ الإسلام في عهد عبد الحميد الثاني ، عمل في دار الفتوى وتدرج في المناصب حتى وصل إلى مشيخة الإسلام وعين لفترتين 1327هـ / 5/5 - 2/14 / 1909م . لم يستمر طويلاً وعزل على خلفية أحداث 31 مارت ، لكن أعيد تعيينه مرة أخرى في نفس اليوم بناءً على أوامر السلطان عبد الحميد الثاني ، عندما جاء الأمر بتوقيع فتوى عزل السلطان رفض ، وتعلل بأنه مريض ، ولا يقوى على تحمل مسؤوليتها ، إلا أنه رغم إرغامًا على توقيعها ، وقد كان يقم بأفضل الفتاوي في عهد السلطان عبد الحميد الثاني ، ولم يبق في المنصب كثيراً بعد عزل السلطان ، حيث أُغفى من منصبه بعد 21 يوماً وتوفي عام 1335هـ/1917م ، انظر أحمد صدقى شقيرات : مرجع سابق ، ج 2 ، ص 302 – 329 .

⁽³⁾ عمانوئيل قراصو: هو يهودي أسباني ونائب سالونيك في مجلس "المع بوثان" يعتبر من أوائل المشتركون في حركة تركيا الفتاة ، وكان من رواد إثارة الشغب وتحريضه على السلطان عبد الحميد الثاني ، ومسؤولًا عن ذلك أمام جمعية الاتحاد والترقي ، كما أن له دور في التحرير ضد ، وتأمين التخابر بين سالونيك وإستانبول ، درس المحاماة وعمل في المجلس البابلي العثماني نائباً عن سالونيك مرة وعن إستانبول مرتين . وعمل أثناء الحرب العالمية الأولى مفتشاً للإعاقة ، حيث جمع أموالاً من هذا المنصب لحسابه الخاص ، لعب دوراً مهماً في احتلال إيطاليا لليبيا نظير مبلغ من المال دفعته له إيطاليا ، ونتيجة لهذه الخيانة هرب إلى إيطاليا وحصل على حق المواطن فيه عام 1353هـ / 1943م . كان أستاذًا للمحفل الماسوني في سالونيك ، وهو صهيوني حتى النخاع ، وهو الشخص الذي اقترح تقديم رشوة للسلطان عبد الحميد الثاني مقابل تأسيس دولة يهودية في فلسطين . وطرده السلطان آنذاك من حضرته . انظر : عمر فاروق يلمظ : السلطان عبد الحميد الثاني بالوثائق ، ج 4 ، ص 144 . محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 51 .

⁽⁴⁾ أسعد طوطانى : هو ألبانى الأصل ، نائب في مجلس المع بوثان عن منطقة دراج . لقد عاش في نعيم السلطان لكنه خانه وجده وخان الأتراك . انظر : علي محمد الصلاي : مرجع سابق ، ص 724 . عمر فاروق يلمظ : السلطان عبد الحميد الثاني بالوثائق ، ص 144 .

الأرمني ،⁽⁵⁾ وعارف حكمت باشا التركي⁽⁶⁾ الذي عمل مرافقاً للسلطان عبد الحميد الثاني سنوات طويلة،⁽⁷⁾ وعندما وصل أعضاء الوفد قصر يلدوز ، وبينوا سبب محبيهم إلى رئيس (التشريفات) حيث أعلم الأخير السلطان بذلك مع ذكر أسماء أعضاء الوفد ، فعندئذ غضب السلطان ، ومن بين حزنه وأسفه ، قال : "لم يجدوا شخصاً آخر لإبلاغ قرار خلع سلطان الدولة العثمانية وخليفة المسلمين سوى شخص يهودي وآخر أرمني وآخر الباني ، وآخر تركي انتهازي وناكر الجميل ".⁽¹⁾

وكان اليهودي الصهيوني عمانوئيل قراصو من أنشط أعضاء الحركة الماسونية في سالونيك ، كما كان عدواً لدوّاً للأتراك المسلمين ، والأعضاء الآخرون في الوفد لم يكونوا أقل عداوة من قراصو للدولة العثمانية والخلافة الإسلامية.

وفي أثناء مقابلة السلطان لأعضاء الوفد ، قال الناطق باسم الوفد أسعد أفندي للسلطان: "لقد فررت الأمة عزلك" فقال له السلطان : "أظن أنك أردت أن تقولي لي : لقد فررت الأمة خلعاً".

والمعلوم بأن كلمة "العزل" تستخدم للوزراء وأركان الدولة ، بينما تستخدم كلمة "الخلع" للسلطانين ، وكان المتحدث باسم الوفد يجهل ذلك ، فقام السلطان بالإشارة إلى ذلك ليضرب جهله في وجهه .

ثم قام أسعد أفندي بقراءة الفتوى ، وبين أسباب الخلع ، فغضب السلطان وهتف في وجوه أعضاء الوفد ، قائلاً : "عقاب الله تعالى أعدائي ولعنهم ".⁽²⁾

⁽⁵⁾ آرام أفندي:أرمني الأصل عضو في مجلس الأعيان العثماني. عمر فاروق يلمظ:السلطان عبد الحميد الثاني بالوثائق ، ص 144 .

⁽⁶⁾ عارف حكمت باشا : ليس له عرق معين واحد للنعمة التي نالها من السلطان حيث كان من مرافقه وعضو مجلس الأعيان ، وهو كرجي العراقي . انظر : علي محمد الصلايبي : مرجع سابق ، ص 722 .

⁽⁷⁾ علي محمد الصلايبي : مرجع سابق ، ص 718 . عمر فاروق يلمظ : السلطان عبد الحميد الثاني بالوثائق ، ص 143 ، 144 .

Ali fuad Turkgeldi , Gorup Isittiklerim , TTK , Ankara 1951 , 37 – 38 .

⁽¹⁾ علي حسون : مرجع سابق ، ص 261 . عمر فاروق يلمظ : عبد الحميد الثاني بالوثائق ، ص 144 . Galip Pasa'nin Hatiraları , Hayat Tarih Mecmuası , Sayı 8 , Eylül 1966 , S . 77 – 84 .

⁽²⁾ علي حسون : مرجع سابق ، ص 261 . عمر فاروق يلمظ : عبد الحميد الثاني بالوثائق ، ص 144 . Galip Pasa'nin Hatiraları , Hayat Tarih Mecmuası , Sayı 8 , Eylül 1966 , S . 77 – 84 .

لقد وجهت للسلطان عبد الحميد لهم لعزله لا أساس لها من الصحة ، فقد أثبتت الوثائق التاريخية أنه لم يتسبب في أحداث عصيán 31 مارت ، أما عن تحرير وإحراق الكتب الدينية، فإن قوة إسلامه وحفظه على صلاته والتزامه بتعاليم الشريعة الإسلامية هي التي ترد على ذلك ، أما الإسراف والتبذير ، فقد كانت الصحافة والإعلام دائمًا يتهموه بالبخس والشح ، فكيف ينقلب فجأة إلى مسرف؟!

إن عزله بهذه التهم الباطلة دليل واضح على عدم صدقها ، حتى من كتبها يدرك ذلك ، لكن الاتحاديين تمادوا في غيهم لتحقيق هدفهم .

سادساً :اتهامه بالاستبداد ، وأنه شجع التجسس وسيطر عليه الشك . فقال عنه:

" أما فيما يتعلق بالاستبداد فيلاحظ أنه على الرغم من أن سلطنة أسلاف عبد الحميد كانت مطلقة إلا أن تدخلهم في أمور الحكومة كان قليلاً نسبياً ، ... ، وقد أراد السلطان عبد الحميد أن يوجد وسيلة للسيطرة تنفذ كل مآربه ورقابته الشخصية وبذلك تكون سلطنته " القصر " أو البلد هي المنفذ ، ولكن من وراء ستار ، وبعد نجاته من محاولة أرمنية ذُبّرت لاغتياله ازداد خوفه وشكه الجارف في كل من حوله ، وهو شك سيطر على كل جوانب حياته ، ولذلك فتح أنفنه لكل نمام ، وشجع التجسس حتى صار كل واحد عيناً على الآخر مما أسفه عن قيام شبكة جاسوسية معقدة تعقیداً لا يمكن لأحد أن يتصور مداها ، وتكون شيء جديد يعرف " بالخفية " وما هو في الواقع إلا " هيئة شرطة " أصبحت تضم في النهاية جميع الوشاة والمخبرين السريين ... وقد بلغت قسوة هذه الرقابة درجة كبيرة من البعد عن العرف والأخلاقيات لا يمكن تصديقها لولا ورود الخبر الذي يؤكدها في الوثائق " ⁽¹⁾ .

إن كلمة عهد الاستبداد الحمدي قد عبأت أغلب المراجع ، ولا يكاد يخلو منها كتاب أو مقال دون الإسناد إلى واقعة تاريخية صحيحة أو وثيقة صادقة ، إن تاريخ السلطان عبد الحميد الثاني بدأ تشويهه منذ أن كان على رأس الحكم ، وانتشرت الشائعات حوله ، وقامت الصحافة والإعلام بدور بارز في ذلك .

⁽¹⁾ جان ديني : مادة عبد الحميد الثاني ، موجز دائرة المعارف الإسلامية ، ج 23 ، ص 7116 ، 17117 .

وبسبب ذلك وقوفها أمام الصهيونية العالمية ، ورفضه لها ، فلهذا عُزل ، وعُوْمِل بقسوة بل والأدهى أن شوه تاريخه لدرجة أن الحقائق دفت تحت أطنان من النسيان .

إن من يعرف سياسة السلطان عبد الحميد الثاني الصحيحة الصادقة ، يكتشف أنه أبعد ما يكون عن الاستبداد ، لقد كان عدد كبار الموظفين في عهده في ازدياد ، ويتقاضون أعلى الرواتب دون الحاجة لهم في العمل ، فلو كان مستبدًا لعزل أكثرهم وما أبقى عليهم .⁽²⁾

ثم إنه كان دائم التفكير في خير الرعية ، حيث صرف كثيراً - ومن جيئه الخاص - على حل مشاكل الأهالي ؛ إذ إن نفقاتهم وعلاجهم وحتى تدفؤتهم لم تفارق ذهنه مطلقاً ، إذ عَدَه الخدمات التي كان يقدمها واجباً فرضته عليه الخلافة الإسلامية .⁽³⁾

ولو كان سلطاناً مستبداً - كما يقولون - لما فكر يوماً في تدفئة الدوائر الحكومية تدفئة مركزية ؛ وذلك لكي يحقق الراحة للموظفين بالحصول على درجة حرارة متوازنة ، بالإضافة إلى تقليل النفقات التي كانت تصرف على توفير الفحم والحطب اللازم للمدافئ التقليدية ونقله.⁽¹⁾

كما أنه كان حريصاً على متابعة شؤون شعبه بنفسه في جميع مناحي الحياة الصحية والتعليمية ، فهناك وثيقة ذكرت بأنه عُرض على السلطان خبر خلط الزيت بماء غريبة - في بعض الأماكن - أثناء تصنيعه ، فأمر باتخاذ ما يلزم لحفظه على صحة الشعب ، وحماية الزيت من التلف .⁽²⁾

لم يكن السلطان عبد الحميد الثاني يتدخل في جميع شؤون الدولة - كما صورته المادة وإنما كان يترك بعض الأمور لأهل الإختصاص ، فمثلاً عند تعيين طائفة من القضاة ، لم يكن يتدخل في اختيار أحدهم أو ترشيحه ، وعندما تعرض عليه الأسماء يوافق دون تردد ، على الرغم من حساسية هذا المنصب وأهميته ، لكنه كان يثق في اختيار من حوله .⁽³⁾

⁽²⁾ محمد مصطفى الهلالي : مرجع سابق ، ص 145 ، 146 .

⁽³⁾ ربيع عبد الرءوف الزواوي : مرجع سابق ، ص 82 .

⁽¹⁾ BoA , irade Hususi nr . 81 , 27 R 1379 نقلاً عن عمر فاروق يلمظ : السلطان عبد الحميد الثاني بالوثائق ، ص 273 .

⁽²⁾ BoA , Irade Hususi nr , 16 , 132u Ng نقلاً عن عمر فاروق يلمظ : السلطان عبد الحميد الثاني بالوثائق ، ص 273 .

⁽³⁾ محمد مصطفى الهلالي : مرجع سابق ، ص 145 ، 146 .

لو كان حقاً مستبداً وقاسياً في الحكم ، لأمعن في الانتقام من أعدائه ، ولكن نجده دائمًا يخف حكم الإعدام حتى على من يتأكد من خيانتهم ، وخير دليل على ذلك تخفيفه حكم الإعدام عن مدحت باشا على الرغم من ثبوت تدبيره لمؤامرة مقتل عمه السلطان عبد العزيز ، وأبدلها بالنفي إلى الطائف لمجرد أنه تذكر بعض الخدمات التي قدمها مدحت باشا للدولة العثمانية ، وقد خفت في عهده الكثير من أحكام الإعدام إلى النفي أو السجن المؤبد .⁽⁴⁾

لقد امتلاً قلبه بالرحمة والشفقة على الفقراء ، فكان دائم التفكير في غذائهم وتدفنتهم ، والأرشيف العثماني مليء بالأوامر التي كان يصدرها لشراء مواد التدفئة وتوزيعها على الفقراء ، حتى يستطيعوا إكمال شهور الشتاء القارصة البرودة .⁽⁵⁾ لا شك أن الصاق تهمة الاستبداد بالسلطان عبد الحميد الثاني مرده إلى عامل مهم وهو :

الدور الإعلامي النشط الذي قادته الصهيونية لتشويه صورة حكم السلطان عبد الحميد الثاني ، عن طريق تفسير أي أعمال سياسية له بطريقة مغایرة تماماً للحدث ، بغرض إشعال الفتنة في الأقاليم العثمانية ، وتشويه صورته حتى يزيد النفور منه ، وبالتالي تفشل سياسة الجامعة الإسلامية .

لقد وقفت الصحافة ضد السلطان عبد الحميد الثاني في جميع أنحاء الدولة العثمانية ، فمثلاً نجد أن الصحافة في مصر كانت حريصة على تغيير رأي الشعب المصري تجاه الدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد الثاني ، ففي أثناء حرب الدولة العثمانية مع روسيا عام 1315هـ / 1897م زعمت صحيفة مصر - عندما أدركت - حماسة المصريين لمساندة الدولة العثمانية وتأييد الخليفة العثماني عبد الحميد الثاني - بأن " الدولة العثمانية ليست بحاجة إلى هذه المساعدات ، وإذا كان لابد من التبرعات فليكن ذلك باسم غير اسم الجامعية الإسلامية . ولم يقتصر الأمر على صحيفة مصر بل تعداه إلى الصحف النصرانية الأخرى ، فقد سلكت صحيفة " المقطم " المؤيدة للسياسة البريطانية هذا المسلك أيضاً ، والتي بدأت على الطعن في سياسة الدولة العثمانية ، وابرز رجالاتها ، حيث أفسحت المجال لأعضاء حزب الاتحاد والترقي الفارين إلى مصر بالكتابة في صفحاتها ، ومهاجمة السلطان عبد الحميد واتهامه بالاستبداد ، وعارضت كل أساليب الدعم التي أبدتها المصريين نحو الدولة العثمانية ، هذا بالإضافة إلى صحيفة الضياء التي أنشأها إبراهيم البازجي في القاهرة عام 1316هـ

⁽⁴⁾ مرجع سابق ، ص 146 .

⁽⁵⁾ عمر فاروق يلمظ : السلطان عبد الحميد الثاني بالوثائق ، ص 277 .

/ 1898م وكانت سيفاً على العثمانيين ، وصحيفة "المشير" التي أصدرها سليم سركيس في الإسكندرية عام 1312هـ/1894م ، وقد كانت هذه الصحيفة شديدة جداً على الحكم العثماني، والجامعة الإسلامية ، وكانت ترى ضرورة هدم الكيان العثماني، وأيضاً صحيفة "المقطف" و"الهلال المصرية" كانت هذه الصحف تستثمر لصالح إقصاء الخليفة عن الخلافة العثمانية، وفي الوقت نفسه تعمل على تنفيذ المخطط الصهيوني من خلال حملات إعلامية منظمة ضد السلطان عبد الحميد الثاني ، ومن الصحف السورية التي عارضت الجامعة الإسلامية متخذة كل السبل لتشويه صورة السلطان عبد الحميد الثاني صحيفة "تحرير سوريا" ⁽¹⁾

وظهر كثير من الكتاب الذين ناهضوا الحكم والخلافة العثمانية ، مثل نجيب العازوري الذي أصدر مجلة شهرية بالفرنسية تحت عنوان "الاستقلال العربي" نادى من خلالها إلى نزع الخلافة من العثمانيين ونقلها إلى العرب ، والصحف النصرانية السورية التي ناوأت الحكم العثماني مثل صحيفة "الجنان" التي أنشأها بطرس البستاني ، وصحيفة مرآة الأحوال التي أسسها "رزق الله حسون" . ⁽¹⁾

وقد كانت بعض هذه الصحف توزع في أوروبا وتنشر أخباراً ملقة عن السلطان عبد الحميد الثاني لتشويه صورته في نظر المسيحيين الخاضعين للحكم العثماني .

ولم يقتصر الأمر على الصحف العربية التي توزع في أوروبا ، وإنما تعداد إلى الصحف الأوروبية نفسها التي كانت تنشر أخباراً عن إجراءات تعسفية يقودها السلطان عبد الحميد الثاني ضد رعيته ، مثل صحيفة "ديلي نيوز Daily News" ، وكانت السفارة العثمانية في لندن ترسل تلغيرات دائمة بهذه الأفكار لإحاطة الدولة العثمانية بما يحدث . ⁽²⁾

ووصل الأمر إلى أنه في بعض الأحيان تمنع بعض الصحف من الدخول إلى الولايات العثمانية ، نتيجة لنشرها أخباراً مغلوطة عن سياسة السلطان عبد الحميد مثلاً حدث من جريدة "ديلي نيوز Daily News" في عددها الصادر بتاريخ 7 يونيو 1892م ، عندما نشرت مقالة فيها إساءة لسياسة السلطان عبد الحميد الثاني ، وذلك بتصويره بالسلطان الغادر القاسي في قمع التمردات والثورات الداخلية ، على الرغم من أن إخماد هذه الثورات يتم

⁽¹⁾ عبد الحميد الثاني : مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني ، ترجمة : محمد حرب ، ص 237 ، 238 .

⁽¹⁾ عبد الحميد الثاني : مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني ، ترجمة : محمد حرب ، ص 239 .

⁽²⁾ أرشيف رئاسة الوزراء بإسطنبول : وثيقة 116 / 261 - HUS - YA تلغراف رقم 130 7 يونيو 1892م .

بإجراءات هادئة جداً لا تشمل القتل أبداً ، وفي الوقت نفسه تضر هذه المقالات بسياسة الجامعة الإسلامية ، مما دفع بالسفارة العثمانية في لندن إلى نشر تكذيب للأخبار في الصحيفة نفسها في 14 ذي القعدة 1309هـ / 28 مايو 1892م ، ومنع دخولها للولايات العثمانية.

(3)

وهذا لا يعد استبداداً لأن مقالات بعض الصحف بها سخرية واضحة من السلطان عبد الحميد وشخصيته و سياساته ، كما أنها تساعد على نشر أفكار قومية و خاطئة تضر بسياسة الداخلية للدولة العثمانية ، أقربها ضرب فكرة الجامعة الإسلامية ، و تشويه صورة السلطان عبد الحميد الثاني في نظر رعاياه و شعبه .

ولم يقتصر الأمر على الصحافة فقط ، بل تعدى الأمر إلى إصدار الروايات المشوهة عنه ، التي تصوره على أنه السلطان البخيل المحب لسفاك الدماء (السلطان الأحمر) ، والذي يظلم الأبرياء ، و خير دليل على هذه الروايات ، رواية جورجي زيدان " الإنقلاب العثماني" ، التي احتوت على كل ما استطاع جورجي زيدان إلصاقه بالسلطان العثماني ، و صدرت الطبعة الثانية من هذه الرواية عام 1408هـ / 1988م من دار الجيل بيروت .

ولعل الجمل التالية التي قيلت في حقه توضح أن اليهودية والصهيونية هي وراء تشويه تاريخ السلطان عبد الحميد الثاني ووصفه بالمستبد والشاك ، فقد كتبت صحافة سالونيكي اليهودية عنه : " عبد الحميد مضطهد إسرائيل ... عدو إسرائيل " أمّا هرتزل زعيم الصهيونية فقال عنه : " أرى عبد الحميد سلطاناً ماكراً جداً ، خبيثًا جداً ، ولا يثق بأحد " ورأى حسام الدين أرتورك - العقيد في الجيش التركي - أن مقاومة عبد الحميد الثاني للصهيونية أطاحت به حيث قال : " إن تصرف عبد الحميد تجاه الحركة الصهيونية معناه أن يتسبب في هدم تاجه و هدم عرشه " .

والكاتب والمؤرخ التركي نظام الدين تبه دنلي أوغلو أشار إلى المعنى نفسه فقال : " إن تصرف السلطان عبد الحميد اتجاه هرتزل كان - كما فطن السلطان - من شأنه جعل هرتزل واليهود يعملون على تدعيم أعداء السلطان " .

وأخيراً فضحت صحيفة " أورور " اليهودية نفسها عندما أطلقت عليه الألفاظ نفسها التي روّجت لها الصهيونية بعد ذلك حيث جاء فيها " كان على المؤتمرات اليهودية أن تواجه

(3) أرشيف رئاسة الوزراء بإسطنبول : وثيقة 116 / YA – HUS 261 .

سلطة مستبدة لشخص واحد ، وعیناً طاغية مرتبة هو عبد الحميد " ، وجاءت الجملة في افتتاح المؤتمر الصهيوني التاسع .⁽¹⁾

إن صفة الاستبداد أصقت بالسلطان عبد الحميد الثاني ، لدرجة أن كل المستشرقين اتفقوا على اتصافه بالاستبداد ، وأكَدَ كرامر على هذا الأمر ، حيث كتب في مادته " فضل السلطان عبد الحميد الثاني أن يستبدل بالحكم كأسلافه ، ... ووجه همه إلى الاحتفاظ بمكان السلطان وقوية نفوذه ، فتوسل إلى هذا بتسمية ذلك النظام ، نظام الرقابة والتجسس الذي جعل هذه الأيام تعرف في تاريخ تركيا باسم " دور الاستبداد " .⁽²⁾

ونظام الجواسيس أو التجسس والرقابة ، لم يكن مستحدثاً في عهده ، فكل حاكم كان لديه عدد من العيون والمراقبين حتى ينقلوا له الأخبار ، ويطلع بذلك على أحوال رعيته ، فسيدنا عمر بن الخطاب رض كان يسير بنفسه في أزقة المدينة المنورة متذكرة حتى يعرف أمور المسلمين ويحاول أن يلبي رغباتهم . إنها طريقة قديمة لمساعدة الحاكم على حفظ الأمن والاستقرار ، وتحسّن أخبار الرعية .

وعندما تحدث السلطان عبد الحميد عن جهاز مخابراته ، قال إنه للتعرف على تفكير الرعية وشكواهم ، وأن هؤلاء كانوا منتشرين في التكايا وبين الدراوיש والمشايخ ، وهو في ذلك سار على خطى جده في توسيع دائرة العيون لتشمل الدراوיש والشيوخ الرحّل ، وعلى الرغم من ذلك ، فلم يكن يريد أن تتحول المسألة إلى زح التهم على الناس بالباطل ، فعندما يعلم أن فلاناً يقدم معلومة لمجرد العائد المادي ، كان يرفض الأمر برمته ، فهدفه الأصلي من إنشاء هذا الجهاز هو حماية الدولة من الأخطار الخارجية بعد تكالب تلك الدول للإطاحة بالدولة العثمانية ، فقد اكتشف أن السر عسُكر حسين عوني باشا - مثلاً - ، يتسلّم نقوداً من إنجلترا للإدلاء بمعلومات عن الدولة العثمانية . فكيف يحس بالأمان والأعداء وصلوا إلى الصدور العظام .⁽¹⁾

قرر إنشاء جهاز مخابرات مرتبط بشخصه مباشرة ، وهو فعلًا جهاز قوي جدًا ، استطاع النفاذ إلى أعماق أوروبا ومؤسساتها ، بحيث كانت تصل إليه كل أخبار ما تدبره الدول الأوروبيّة ضد الدولة العثمانية ، وكان يتخد الخطط الناجحة الكفيلة بمجابهة هؤلاء ،

⁽¹⁾ هدى درويش : العلاقات التركية اليهودية ، ج 2 ، ص 18 - 19 .

⁽²⁾ كرامر : مادة الترك ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 5 ، ص 188 .

⁽³⁾ عبد الحميد : مذكرات السلطان عبد الحميد ، ترجمة : محمد حرب ، 158 ، 159 .

فقد أستطاع أن يخمد كثيراً من حركات التمرد والعصيان على مدى ثلاثين عاماً ، وبمنتهاه البساطة - حتى قبل أن تبدأ - بفضل جهاز المخابرات هذا .⁽²⁾

لقد أسس السلطان عبد الحميد الثاني هذا الجهاز ، ورصد له الميزانيات الضخمة حتى يؤدي الناس عملهم دون الإضرار بأحد ، وكل ولاية لها ميزانية خاصة لصرف على رجال الشرطة السريين .⁽³⁾

لقد أسسه لا ليكون أداء ضد المواطن ، ولكن لكي يعرف ويتعقب الذين يخونون الدولة العثمانية ويتسلمون رواتبهم من خيراتها .⁽⁴⁾

ولابد من الأخذ في الاعتبار أنه لم يكن يجزم بصحة كل ما يرد إليه ، ولا يأخذ بصحة تقاريرهم إلا بعد أن يتأكد من صحتها ، وقد ساعد ذلك على معرفة تحركات واتصالات ومؤامرات أعدائه من اليهود وجمعية الاتحاد والترقي ، مما أدى إلى اتخاذ الإجراءات السليمة في أغلب الأحيان .⁽¹⁾

وفي نهاية الأمر ، فإذا كان السلطان عبد الحميد الثاني يميل إلى الشك في الأشخاص ، ولا يثق بأحد ، ولذلك أسس هذا الجهاز وربطه بشخصه ، فإن له الحق في ذلك ؛ لأنه تعرض لأكثر من محاولة اغتيال كان من الممكن أن تنجح إحداثها ، لذلك كان حريصاً على أخذ الحذر حتى من أقرب الأشخاص له ، وهذه نتيجة طبيعية للأحداث التي مر بها .⁽²⁾

كما إن ما قيل عن جهاز المخابرات هذا الخاص بالسلطان العثماني عبد الحميد الثاني ، ما هو إلا نتاج للدعائية المغرضة ضده ، ومحاولة تسويه أعماله ثم إن ما كتب عنه لا يتجاوز 10% من حقيقة الجهاز .

ولا يستطيع أحد أن ينكر أن السلطان عبد الحميد الثاني قد بث العيون ونشر الجواسيس وذلك لمراقبة اليهود والصهاينة وأعداء الدولة العثمانية وعملاء الدول الأوروبية ،

⁽²⁾ علي محمد الصلايبي : مرجع سابق ، ص 642 . محمد مصطفى الهلالي : مرجع سابق ، ص 143 .

⁽³⁾ أرشيف رئاسة الوزراء بإسطنبول : وثيقة 17 / 1372 Mkt – AH .

أرشيف رئاسة الوزراء بإسطنبول : وثيقة 26 / 1380 Mkt – AH .

⁽⁴⁾ عبد الحميد الثاني : مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني ، ترجمة : محمد حرب ، ص 160 .

⁽¹⁾ محمد مصطفى الهلالي : مرجع سابق ، ص 143 .

⁽²⁾ مرجع سابق ، ص 144 .

فتلك الدول استخدمت جيوشاً من المخابرات داخل الدولة العثمانية وخارجها ، هدفها ضرب الخلافة الإسلامية ، فأين جهاز مخابراته من مخابرات روسيا وبريطانيا وفرنسا الذين تسللوا داخل الدولة العثمانية من قبل حكم السلطان عبد الحميد الثاني بمئات السنين وكأن الأمر متاح لهم هم فقط ، بينما لا يجوز للأخرين الدفاع عن أنفسهم .⁽³⁾

لقد اتخذوا من الكنائس ، والسفارات والقنصليات وكرّا لتجسسهم على الدولة العثمانية ، والأمثلة على ذلك كثيرة في الدراسة فليس عيباً أن يقابل السلطان عبد الحميد الثاني هذه الجيوش من الجواسيس بجهاز مخابرات لحماية دولته وشعبه .

سابعاً : لم يعطِ فكرة واضحة عن الجامعة الإسلامية ولم يعطها حقها من الشرح وإنما ركز فقط على أنها إرجاع للشيعة إلى مذهب السنة . فقال :

" كان عظيم التقدير لجمال الدين الأفغاني الذي يدين له بالشكر لتوقيفه في إرجاع الشيعة إلى حظيرة السنة ، على أن هذه السياسة العقيمية ، بل والخطيرة كانت قائمة في الغالب على وهم باطل مؤداته أنه قادر على الاعتماد على وفاء أطفاله الذين أفسدتهم التدليل (وهم العرب) وعلى ولائهم له ".⁽¹⁾

والحقيقة أن تصوير فكرة الجامعة الإسلامية جاء خطأ تماماً ، فلم تكن لارجاع الشيعة لمذهب السنة ، لأن هذه النقطة غير مطروحة للنقاش ، ولكن فكرتها أعمق أثراً وأبعد مدى من التقسير القاصر للمستشرق جان ديني .

ولم تختلف فكرة كرامرز عن جان ديني ، حيث أرجعها كرامرز في مادته الترك إلى النورة الإسلامية .⁽²⁾

ولم تظهر فكرة الجامعة الإسلامية في مسرح السياسة إلا في عهد السلطان عبد الحميد الثاني ، إذ أرتى أنه لابد من توحيد جميع المسلمين سنة وشيعة ، ترك وعرب وأكراد ، ومختلف الأعراق والمذاهب جميعاً تحت مظلة واحدة وهي الإسلام ، ونقوية أواصر العلاقة بينهم ، لمواجهة الخطر الأوروبي المتربص بالإسلام عامة والدولة العثمانية خاصة ، تحت شعار " يا مسلمي العالم اتحدوا " لذلك رأى ضرورة امتداد تأثير الوحدة

⁽³⁾ مرجع سابق ، ص 141 ، 142 .

⁽¹⁾ جان ديني : مادة عبد الحميد الثاني ، موجز دائرة المعارف الإسلامية ، ج 23 ، ص 7117 .

⁽²⁾ كرامرز : مادة الترك ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 5 ، ص 189 .

الإسلامية إلى كل مسلمي آسيا بما ولا سيما مسلمي آسيا الوسطى ؛ لأن جبهة الدولة العثمانية وحدها لا تكفي في مواجهة الخطر الصليبي ، والعمل على تعميق روابط الإخوة الإسلامية بين كل مسلمي العالم ، فعمل على تدعيم مركز الخلافة لدى المسلمين عن طريق الإسلام ، وجعله يقف في مواجهة الأفكار الأوروبية .⁽³⁾

لقد أدرك السلطان عبد الحميد الثاني بثاقب نظره أن عدم وجود لغة تفاهم مع المسلمين بإيران لهو أمر مؤسف حقاً ، وربط التصدي لأطماع بريطانيا وخطر روسيا بضرورة وجود تقارب إسلامي على أعلى مستوى ، وقد وضح هذا الأمر في عدة مناسبات أثناء حديثه عن علاقة الدولة العثمانية بإنجلترا ، حيث أشار أنها تضع العراقيل أمام الوحدة الإسلامية ، وتريد أن تسيطر على الجزيرة العربية وتصبح تحت حميتها ، فضلاً عن رغبتها في السيطرة على مدن المسلمين المقدسة لتحقيق هدفين ، هما: إضعاف تأثير الإسلام أولاً ، ونقوية نفوذها ثانياً.⁽¹⁾ وقد كاد أن يحدث تقارب بين إيران والدولة العثمانية والأرمن ، لكن الأمر لم يتعد التوقعات، حتى حدث التناقض بين الأطراف الثلاثة وساعت العلاقات بينهم .⁽²⁾ وقد بدأ السلطان عبد الحميد الثاني يفكر في تشكيل جامعة إسلامية في سبيل وحدة المسلمين تحت مظلة الخلافة الإسلامية بشعار " يا مسلمي العالم اتحدوا " وقد أرسل عدة رسائل بهذا المعنى إلى الجماعات الإسلامية في كافة بقاع العالم يدعوهم فيها للانضمام إلى هذه الجامعة .

كما أرسل السفراء والوفود إلى مسلمي الهند وأفغانستان وروسيا وبخارى وسميرقند وإفريقيا وعمان وزنجبار والكونغو والحبشة والصين ، لهذا الغرض أيضاً بصفته خليفة المسلمين ،⁽³⁾ ونتيجة لهذه العلاقات والاتصالات أصبح اسم السلطان عبد الحميد الثاني يذكر في خطب الجمعة في كافة مساجد العالم تقريباً .

وقد وصل العالم الإسلامي إلى شعور قوي زمن السلطان عبد الحميد الثاني، وبدأ الإسلام بالانتشار في اليابان وأمريكا وفرنسا وإنجلترا ، واستطاع السلطان كذلك شراء

⁽¹⁾ عبد الحميد الثاني : مذكرات السلطان عبد الحميد ، ترجمة : محمد حرب ، ص 22 . محمد مصطفى الهمالي : مرجع سابق ، ص 37 ، 38 .

⁽²⁾ عبد الحميد الثاني : السلطان عبد الحميد ، ترجمة : محمد حرب ، ص 23 .

⁽²⁾ أرشيف رئاسة الوزراء بإسطنبول : وثيقة 15 / 26 PR K EEA Y .

⁽³⁾ ربيع عبد الروهف الزواوي ، الدولة التي ظلمتها التاريخ ، ص 71 .

Taha Toros , Abdulhamid' in Cin'e gonderdigi Turk Nasihat Heyeti , Yillarboyu Tarih Dergisi , Sayi 3. Haziran 1987 , S . 11 .

الصحف التي كانت تنشر مقالات ضد الإسلام ، وجعلها مناصرة للإسلام حيث بدأت تكتب عن عدالة الإسلام ورحمته وأخلاق المسلمين.

كما تمكّن السلطان عبد الحميد الثاني - بصفته خليفة المسلمين - من منع عرض بعض المسرحيات التي كانت على وشك بدء عرضها في باريس وروما ولندن التي تضمنت أقوالاً ضدّ الرسول ﷺ والشخصيات الإسلامية الأخرى.⁽⁴⁾

نتج عن ذلك إقامة علاقة ودية إلى حدٍ ما مع شيعة إيران ، كما أنَّ هذه الأعمال والنشاطات الإسلامية - من قبل السلطان عبد الحميد الثاني - حفّت الوحدة بين أجزاء العالم الإسلامي والأمة الإسلامية .

وقد نتج أيضاً عن هذه السياسة أن أصبحت إسطنبول مركزاً للعلماء والزعماء المسلمين ، وأخذ السلطان يلتقي ببعض هؤلاء العلماء والداعية ويتعرف على شؤونهم وأحوال أخوانهم المسلمين في بلادهم واحتياجاتهم ، في الوقت نفسه راسلوا السلطان يعرضون فيها ما يحتاجون لبناء مدارس وجامعات أو طلبات لمصاحف وكتب دينية ، وكان السلطان عبد الحميد الثاني يحرص بنفسه على الرد وتتنفيذ هذه الطلبات ، ولعل من أطرف هذه ال الطلبات ، عندما بنى أهالي ساحل الذهب " غانا " مسجداً ، لكنهم احتاجوا كتب دينية ومصاحف ، فأرسلوا لسلطان الدولة العثمانية - بوصفه خليفة المسلمين في العالم - يناشدوه المعونة والإرشاد ، وعندما وصلت رسالتهم للسلطان عبد الحميد الثاني أستعرض الخريطة للتعرف على موقع ساحل الذهب " غانا " ولم يمنعه كونها خارج إطار الدولة العثمانية من تقديم المساعدة لهم ، وإرسال المصاحف والكتب الدينية ونماذج للخطب يوم الجمعة ، ووجه دعوة رسمية لملكهم لزيارة إسطنبول ، وقد خصص لهم معونة سنوية ، انقطعت بسقوط الدولة العثمانية .⁽¹⁾

وقد انتشر الإسلام في الصين على نطاق واسع حتى وصل إلى إنشاء مدارس إسلامية وبناء المساجد ، التي يدعون فيها بالعربية لل الخليفة العثماني السلطان عبد الحميد الثاني وذلك في بكين وغيرها من مساجد الصين ، حتى إنهم أسسوا جامعة إسلامية في بكين أطلقوا عليها " دار العلوم الحميدة " أو " الجامعة الحميدة في بكين ".⁽²⁾

⁽¹⁾ Ahmed Ucar "Bati , Tatih ve II : Abdulhamid " Tarih Medeniyet Dergisi , Sayı : 40 , Istanbul 1997 , S.33 – 37 ; Ziya Ebuzziya , " Sultan II. Abdulhamid' in Avrupa' da yasaklattigi piyesler "Turk Edebiyati Dergisi , Nisan 1986 , S . 6 – 11 ; Ziya Ebuzziya – M.Emin Gerger , Ikinci Abdulhamid'in Islami Korumadaki Kudreti , Batida yasaklattigi piyesler , Istanbul 1998 , S . 19 .

⁽²⁾ محمد مصطفى الهلالي : مرجع سابق ، ص 40 ، 41 .

⁽²⁾ علي محمد الصلايبي : مرجع سابق ، ص 674 .

هذا بخلاف طباعة آلاف النسخ من القرآن الكريم وأمر بتوزيعها في أنحاء العالم الإسلامي ، وأكثر من افتتاح المدارس الدينية في أقاليم الدولة العثمانية .⁽³⁾

تماشى كل ذلك مع أهم نقطة ، وهي تشكيل علاقات وطيدة مع أشهر رجالات الدعوة الإسلامية في مختلف بقاع العالم الإسلامي ، أمثال جمال الدين الأفغاني ، والشيخ أبو العهد الرفاعي ، إضافة إلى عدد من أشراف مكة المكرمة ، مثل الحسين بن علي ، وعلى حيدر ، وعبد الإله باشا ، وعهد بمناصب عالية في الدولة إلى كثير من العرب وصلت إلى منصب الوزارة وقيادة الجيش .⁽⁴⁾

وعلى الرغم من الاختلاف الفكري بين السلطان عبد الحميد وجمال الدين الأفغاني⁽¹⁾ ، إلا أنه استفاد منه كثيراً في الدعاية إلى الجامعة الإسلامية ، حيث أيده جمال الدين الأفغاني وقدم مشروعات للسلطان عبد الحميد الثاني أكثر بكثير من طموحه ؛ لأن الأخير لم يكن يأمل في أكثر من وحدة هدف بين الشعوب الإسلامية ، ووحدة حركة بينهما ، وهي في النهاية وحدة شعورية عملية. في ذات الوقت تكون الخلافة فيها ذات هيبة وقوة ، لكن الأفغاني عرض على السلطان مشروعاً يرمي إلى توحيد أهل السنة مع الشيعة ، ولم تكن نظرة السلطان عبد الحميد الثاني ترمي إلى ذلك ، بل أراد فقط توحيد الحركة السياسية بين الفريقين لمواجهة الاستعمار الخارجي .⁽²⁾

وهنا يتضح أكثر أن هذا المشروع كان فكرة جمال الدين الأفغاني ، وليس السلطان عبد الحميد الثاني - كما ذكر ديني - حيث أن هدف السلطان عبد الحميد من الجامعة الإسلامية بمنتهى البساطة هو تكوين جبهة صلبة أمام العدو الأوروبي.

وبعد ذلك حدثت الواقعة بين السلطان عبد الحميد وجمال الدين الأفغاني بوشایة الأعداء - كما أشار الأخير -.⁽³⁾ لكن بمرور الوقت انقضت أوروبا وخاصة بريطانيا خوفاً من نتائج سياسة الجامعة الإسلامية حيث كسب السلطان المشاعر الدينية من مسلمي الدولة العثمانية ومسلمي العالم الذي يخضع أغلبه للنفوذ الاستعماري ، وقد أدى تحول مشاعر

⁽¹⁾ محمد مصطفى الهلالي : مرجع سابق ، ص 42 .

⁽²⁾ محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص 745 .

⁽³⁾ للتعرف على أوجه الاختلاف بينهم الرجوع إلى علي محمد الصلايبي ، مرجع سابق ، ص 660 – 662 .

⁽¹⁾ عبد الحميد الثاني : مذكرات السلطان عبد الحميد ، ترجمة : محمد حرب ، ص 25 . علي محمد الصلايبي : مرجع سابق ، ص 660 . أرشيف رئاسة الوزراء بإسطنبول : وثيقة 9 / Y.EE 20 .

⁽²⁾ أرشيف رئاسة الوزراء بإسطنبول : وثيقة 9 / Y.EE 20 .

ال المسلمين إلى الخلافة في إستانبول ، إلى تهديد بريطانيا في الهند ، وفرنسا في المغرب ، والوجود النمساوي في ألبانيا ، وروسيا في بلاد التتر والأكراد .

وبما أن منصب الخلافة بيد السلطان عبد الحميد الثاني ، فأصبح هاجساً وأمراً مقلقاً بالنسبة لإنجلترا ؛ وذلك لما يتمتع به من نفوذ وسلطة على المسلمين خاصة في الهند ، فبدأت بريطانيا كالعادة بالتحرك لتدارك الأمر قبل وقوع المحظور .

وكان بريطانيا هي من أفسدت علاقة العرب مع الدولة العثمانية ، وليس الدلال الذي تحدث عنه جان ديني ، عندما لوحوا للشريف حسين بمنصب الخلافة، مقابل أن يخلع ولاءه للدولة العثمانية⁽¹⁾، ونجحوا - لأسف - في مساعهم عن طريق جاسوسهم "لورانس" ، لكن النتيجة لم يبن الشريف حسين الخلافة ، ولم يبق عبد الحميد الثاني في الخلافة ، وانتهى الأمر بخسارة المسلمين والقضاء على منصب الخلافة الإسلامية .

لقد نجحت بريطانيا في مسعها ، حيث ردت إشاعات عن الاستعمار العثماني للبلاد العربية ، وأيدت بيانات تدعى العرب ليتحدوا ضد العثمانيين ، لدرجة أن وصلت الدعاية إلى المدارس والصحف ، وعلى قدر ما حاول السلطان عبد الحميد الثاني اتخاذ التدابير اللازمة لمنع مثل هذه الدعاية ، كثفت بريطانيا جهودها حتى نجحت ،⁽²⁾ واستمراراً لسياسية الجامعة الإسلامية ولدت فكرة خط سكة حديد الحجاز ، وذلك ليتخذ السلطان وسيلة لتنفيذ فكرة الجامعة الإسلامية .

ثامناً : إرجاع فكرة خط سكة حديد الحجاز لشخص لا علاقه له بالأمر . فقال :

" ومن الأمور العجيبة أن " فامبرى " الأرمني المترنح الذي كان من يهود المجر ، ومن أكبر مشجعي عبد الحميد الثاني على هذه الاتجاهات ، وأسفرت ميلوه الطيبة نحو العرب عن نتيجة محمودة واحدة فقط ، تلك هي أنها حفظه على إنشاء سكة حديد الحجاز التي تصل إلى الأماكن الإسلامية المقدسة ".⁽³⁾

حاول هنا ديني نسبة فكرة سكة حديد الحجاز لليهودي فامبرى وأعتبره صديق مقرب للسلطان عبد الحميد الثاني . وهو أمر بعيد فمنذ متى كان اليهود أصدقاء للسلطان عبد الحميد

⁽¹⁾ عمر فاروق يلمظ : التاريخ العثماني المؤتقة ، ص 170 ، 171 . عبد الحميد الثاني : مذكرات السلطان عبد الحميد ، ترجمة: محمد حرب ، ص 24

⁽²⁾ عمر فاروق يلمظ : التاريخ العثماني المؤتقة ، ص 194 ، 195 .

⁽³⁾ جان ديني : مادة عبد الحميد الثاني ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 23 ، ص 7117 .

الثاني وهم ألد أعدائه؟! ولا شك أن معلومة ديني هذه مقدمة لقراء لا يعرفون شيئاً عن التاريخ العثماني ، فأبجديات التاريخ العثماني توضح موقف السلطان عبد الحميد الثاني العدائي من الصهيونية ، كما لم يعط ديني دليلاً على قوله ، إن كل ما في الأمر أن اليهودي "أرمينيوس فامبرى" رئيس جامعة بودابست قد زار إسطنبول عام 1308هـ / 1890م وقابل السلطان عبد الحميد الثاني ، وأعجب بشخصيته ومدحه⁽⁴⁾ فاعتبر ديني هذا الأمر صدقة وتبادلًا للآراء ، وجزء من محض خياله أنها فكرة فامبرى ؛ وذلك رغبة منه في نفي فائدة وبراعة هذه الفكرة عن السلطان عبد الحميد ونسبها لشخص آخر ، لمجرد التهويين من أمر السلطان عبد الحميد الثاني .

لقد قصد السلطان عبد الحميد الثاني من إتمام هذا الخط تقوية الرابطة بين المسلمين ، وتقدير الخدمات لهم .⁽¹⁾

وهو يعد استمراراً لسياسة الجامعة الإسلامية حيث قام عزت باشا العابد⁽²⁾ بدور بارز في مشروع سكة حديد الحجاز الممتدة من دمشق إلى المدينة المنورة ، وعدّ السلطان عبد الحميد الثاني المشروع من الوسائل التي أدت إلى إعلاء شأن الخلافة ، وساعدت على نشر فكرة الجامعة الإسلامية ، حيث بدأ تنفيذ هذا المشروع في عام 1319هـ / 1901م وانتهى في منتصف عام 1326هـ / 1908م وقد ربط إسطنبول بالمدينة المنورة مخترقاً سورياً من الشمال إلى الجنوب، واستهدف السلطان عبد الحميد الثاني من وراء هذا المشروع تحقيق عدة أهداف هي :

- (1) ربط أجزاء الدولة العثمانية المتباude ، مما ساعد على نجاح فكرة الوحدة العثمانية تحت مظلة الجامعة الإسلامية .
- (2) إجبار الولايات على الاندماج في الدولة والخضوع لقوانين العسكرية التي تتبع على وجوب الاشتراك في الدفاع عن الخلافة بتقديم المال والرجال.

⁽⁴⁾ محمد مصطفى الهلالي : مرجع سابق ، ص 156 .

⁽¹⁾ عبد الحميد الثاني : مذكرات السلطان عبد الحميد ، ترجمة : محمد حرب ، ص 24 ، 25 .

⁽²⁾ استقطب السلطان عبد الحميد الثاني عدد من العرب حوله من ضمنهم عزت باشا العابد عينه في عدة مناصب عليا ، ونال حظوة عند السلطان وهو من أهالي الشام ، وأصبح مستشاره في الشؤون العربية . علي محمد الصالabi : مرجع سابق ، ص 676 .

٣) تسهيل مهمة الدفاع عن الدولة في آية جبهة من الجبهات التي تتعرض للهجوم ؛ لأن مد الخطوط الحديدية يساعد على سرعة توزيع القوات العثمانية وإيصالها إلى الجبهات.

٤) خفض المدة الزمنية للمسافرين والحجاج والتي تستغرقها رحلة القوافل بـأو بـحراء إلى أكثر من النصف ، لذلك فإن خط سكة حديد الحجاز يحقق خدمة حجاج بيت الله الحرام ويسهل وصولهم إلى مكة والمدينة .

٥) خلق المشروع في أنحاء العالم الإسلامي حماسة دينية كبيرة ، وجواً من العطف والصدقة مع دولة الخلافة .⁽¹⁾

إن لنجاح خط سكة حديد الحجاز - بلا شك - آثار إيجابية مما جعل أعداء الدولة العثمانية يملء صدورهم الحقد ، سواء إنجلترا أم اليهود ، وبالتالي سعت جميع الأطراف لإعاقبة هذا المشروع ، والعمل على تعطيله ، حتى لا يحقق أهدافه، فنجد بريطانيا تسرع في الضغط على مسألة الخلافة مع الشريف حسين ، وفي ذات الوقت تدعم الأعمال التخريبية لنصف هذا الخط .

أما عن المبالغ التي صُرِفت عليه فلم تكن كما ذكر ديني : "المبالغ التي صرفت على مده ، فقد جمعت كلها من المسلمين ومن دخول " طابع الجهاز ".⁽²⁾

بالفعل قام هذا المشروع على تبرعات المسلمين ، وأولهم السلطان عبد الحميد الثاني الذي افتح قائمة التبرعات بشراء عدد كبير من الأسهم من جيشه الخاص ، والتي أصدرتها الدولة العثمانية بقصد جمع أموال لهذا المشروع ،⁽³⁾ ثم تم دفع مبلغ "مائة ألف ذهباً عثمانياً" من صندوق المنافع ، وبدأ تسابق المسلمين على إرسال التبرعات حتى وصلت لأكثر من ثلث مبلغ تكلفة البناء ، كما كان للشخصيات المهمة دور فعال في التبرع ، حتى موظفين الشركات قدموا تبرعات كل على حسب مقدراته ، مثل ما تبرع به موظفو شركة البوآخر العثمانية ، وموظفو الولايات ، كما شارك القصر الحاكم في مصر بإرسال التبرعات لهذا المشروع ، وألفت لجنة خاصة بهذا الأمر ، ولم يتوقف الأمر على البلاد العربية ، بل تعداه

⁽¹⁾ علي محمد الصلايبي : مرجع سابق ، ص 676 . محمد مصطفى الهلالي : مرجع سابق ، ص 43 . عمر فاروق يلمظ : السلطان عبد الحميد الثاني، بالوثائق ، ص 218 .

⁽²⁾ جان ديني : مادة عبد الحميد الثاني ، ج 23 ، ص 7117 .

⁽³⁾ عبد الحميد الثاني : مذكرات السلطان عبد الحميد ، ترجمة : محمد حرب : ص 229 .

إلى إيران حيث تبرع شاه إيران بمبلغ ضخم ، وتبرع أمير حيدر آباد بالهند بمبلغ مالي كبير خصص فقط لإنشاء محطة المدينة المنورة .⁽⁴⁾

إن هذه التبرعات تدل على مدى عمق الشعور الإسلامي الذي عم العالم الإسلامي زمن السلطان عبد الحميد الثاني ، كما تدل على مدى أهمية مثل هذا المشروع الذي لم تسمح بريطانيا بإكماله ، وكالعادة دمرته ولم يعد يعمل في يومنا هذا .

وقد أولت نظارة المالية اهتماماً خاصاً بميزانية هذا المشروع ، حيث صدرت أوامر من السلطان عبد الحميد الثاني بتشكيل لجنة خاصة ، مهمتها الإشراف المالي ومراجعة الحسابات الخاصة به ، وذلك ليتم المشروع على أكمل وجه ، وكان أول أعمال هذه اللجنة زيادة رواتب العاملين في هذا المشروع تيمناً واستبشاراً بافتتاحه ، وتم ضبط الرواتب في سجل الرواتب السلطانية ، لتبثيتها.⁽¹⁾

ولا شك أن هذا الأمر قد ترك أثراً طيباً على أهالي الحجاز والعاملين في مد خط سكة حديد الحجاز وعلى المسلمين عامة ، وأظهر مدى ترابطهم وقوتهم .

تاسعاً: مناقشة قضية الأرمن والاعتراف بدور الصحافة في تشويه صورته. فقال:

"لقد اتهمت الصحافة الأوروبية وراسامو الكاريكاتير الأوربيون السلطان عبد الحميد بالتعصب للأعمى ونعتوه بالسلطان الأحمر بسبب ما نسبوه إليه من العنف والقسوة في إخضاع الثورات ، وما أتهموه به من تدبير المجازر الدموية التي جرت في مقدونيا وكريت وأخصها ما كان في أرمينية عام 1894م - 1895م ، وفي الهجوم على البنك العثماني سنة 1896م ، على أن أقل ما يمكن أن يقال في الدفاع عنه - في هذا الصدد - إنه لم يتخد أي إجراء لوقف هذه العذاب الفظيعة ".⁽²⁾

لا شك أن ديني قد اعترف في البداية بحقيقة مهمة ، وأصاب من ذكرها ، وهي أن الصحافة الأوروبية أسهمت بشكل كبير في إشعال نار الفتنة ضد العثمانيين ، تارة بالمقالات التي كانت تنشرها ، وتارة بالرسوم الهزلية التي كانت تسعى لتشويه صورة السلطان عبد الحميد الثاني ، ومن أبرز الألقاب التي نعتوه بها لقب "السلطان الأحمر " .

⁽⁴⁾ محمد علي الصلايبي : مرجع سابق ، ص 677 ، 678 .

⁽¹⁾ أرشيف رئاسة الوزراء بإسطنبول : وثيقة 35/204 MTV .

⁽²⁾ جان ديني : مادة عبد الحميد الثاني ، موجز دائرة المعارف الإسلامية ، ج 23 ، ص 7118 .

وقد أطلق الأرمن هذا اللقب على السلطان إشارة إلى أنه كان يستخدم أسلوب العنف والقسوة في إخماد التمردات. ⁽³⁾

وقد التصقت به هذه التهمة على مدى سنوات طويلة ، حتى بعد وفاته وسقوط الدولة العثمانية ، وأصبحت بالنسبة لكثيرين حقيقة لا يرتقي إليها الشك أبداً ولا تقبل النقاش . وعلى الرغم من ظهور مذكراته الشخصية ، ووثائق حديثة ، ومذكرات شخصية لأناسٍ عاشوا وعاصرعوا فترة حكمه ، وأزالت ذلك الكم الكبير من التشويه والافتراء وأوضحت حقائق لم تكن معروفة من قبل ، ⁽¹⁾ إلا أن التهمة لا تزال متصلة به في أذهان بعضهم .

وربما كانت صفة الرحمة الزائدة التي أتصف بها ، من أبرز نقاط ضعفه التي أدت في نهاية الأمر إلى عزله ، يكفي أنه كان يخفف أحكام الإعدام إلى السجن المؤبد ، أو السجن لمدة عشرين عاماً ، وفي الحالات القصوى يتم نفيه إلى خارج إسطنبول ، وهذه الأحكام مثبتة في الوثائق الموجودة منذ عهده ⁽²⁾ ، فليس هناك حجة لعدم الاطلاع عليها .

حتى أكثر الرجال عداوة للسلطان عبد الحميد الثاني وهم رجال الاتحاد والترقي ، عندما ثبت تآمرهم على الدولة أكثر من مرة وألقي القبض عليهم ، وقدموا للمحاكمة العسكرية، صدرت بحقهم أحكاماً مختلفة بالسجن فقط ! ثم لم يلبث أن عفى عنهم السلطان "الأحمر" كما يزعمون ، وعندما ألقي القبض عليهم مرة أخرى في 1313هـ / 1895م متلبسين - مرة أخرى - بمؤامرة واضحة لحركة انقلاب، ماذا فعل السلطان الأحمر القاسي القلب المتسلط المستبد ، اكتفى بنفي بعضهم وتبدل وظائف جماعة أخرى ، ولم يعدم أحداً منهم . ⁽³⁾

إذا كان مستبداً ومتعطشاً للقتل ، لماذا لم يقم بإعدامهم فوراً؟! ، لكنَّ الحقيقة التي أخفاها المستشرقون أنه لا وجود لتلك الصفات الفاسية ، وإنما هي تهم وأكاذيب أطلقها المستشرقون نتيجة للحقد الأعمى الذي سكن قلوبهم فجعلهم يفسرون الأحداث والأفعال وكأنها رئيس إقطاع أوروبي ، يعاقب بعضاً من عبيده.

⁽³⁾ سعيد عبد الكري姆 زيد : مرجع سابق ، ص 163 .

⁽¹⁾ محمد مصطفى الهلالي : مرجع سابق ، ص 152 .

⁽²⁾ سعيد عبد الكريمة زيد : مرجع سابق ، ص 163 . محمد مصطفى الهلالي : مرجع سابق ، ص 152 ، 153 .

⁽³⁾ محمد مصطفى الهلالي : مرجع سابق ، ص 153 ، 154 .

وخير دليل على رحمة السلطان عبد الحميد الثاني وعطفه وطيبة قلبه ، أنه لم ينفذ حكم الإعدام في محدث باشا - كما سبق وأن ذكرت - .

وقد ذكر أحد الأشخاص كان يعمل كاتباً في قصر يلدز - وهو رشيد باك - أنه أثناء فترة عمله التي امتدت أربعة عشر عاماً في وظيفة الكتابة في القصر صدر ما يجاوز المئة حكم بالإعدام لأشخاص ارتكبوا أعمال إجرامية ، لكن السلطان عبد الحميد كان دائماً ما يستبدلها بسجن مؤبد لمدة 20 عاماً . وهذا مثبت في الوثائق الرسمية .⁽⁴⁾

إن هذه المسألة تعيننا مرة أخرى إلى تصدر الصحافة الأوروبية للحملة الشعواء على السلطان عبد الحميد الثاني ، فقد كانت تهاجمه بشكل دائم وتحرض الرأي العام ضده ، حتى غدت المسألة الأرمنية من المسائل التي تشغّل الرأي العام العالمي .⁽¹⁾

والحقيقة أنه لم يكن هناك مشكلة مطلقاً من ناحية الأرمن ، حيث شكلوا نسبة 5% من سكان الأناضول ، وكانوا من رعايا الدولة العثمانية ، الأرثوذكس ، والكاثوليك ، وقد وصفهم السلطان عبد الحميد بأنهم أفضل من يبنون الدولة العثمانية ويدعمون وحدتها بكل ما تحويه من عناصر وأعراق مختلفة ، وخير من يمثلها حيث إنهم خدموا حضارة الدولة العثمانية وحافظوا على الدولة ، وقد شغلوا عدة مناصب مهمة حتى وصلوا إلى نظارة الخارجية ، وظهر بينهم عثمانيون متذمرون بخدماتهم مثل الأطباء ، وحملوا التراث التركي في طيات حياتهم وكانوا خير أصدقاء للسلطان ولم تكن للأرمن أي شکوى من العثمانيين .⁽²⁾

لكن للأسف لم تترك الدول المعادية للدولة العثمانية هذه العلاقات الطيبة ، فبدأت في توريط تورط الأرمن في حركات عصيان بدعم خارجي ، وخاصة من قبل إنجلترا وروسيا اللتين عرفتا بعدائهما الشديد للأتراب والمسلمين وكانتا دائمًا - تسعين لتمزيق الدولة العثمانية ووحدتها ، وفي إطار هذا الأمر فقد خشيت بريطانيا بصفة خاصة من سياسة السلطان عبد الحميد الثاني التي تهدف إلى تحقيق الوحدة الإسلامية بين مسلمي العالم ، وقد أدركوا أن هذه الوحدة هي عبارة عن وحدة معنوية ، وأكبر وأقوى من القوة المادية ، فقاموا بتمزيق هذه القوى الكبرى بكسر نفوذ السلطان بشتى الوسائل ، حيث حرضوا الصحافة الأوروبية

⁽⁴⁾ مرجع سابق ، ص 153 ، 154 .

⁽¹⁾ عبد الحميد الثاني : مذكرات السلطان عبد الحميد ، ترجمة : محمد حرب ، ص 128 .

⁽²⁾ عبد الحميد الثاني : مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني ، ترجمة : محمد حرب ، ص 123 ، 124 . يلمازا وزنونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج 2 ، ص 240 ، 241 .

والتركية ضد السلطان عبد الحميد الثاني ، وبدأوا في تحريض الأرمن القاطنين في شرق الأناضول وأعطتهم بريطانيا الدعم اللازم ، مما ولد في نفسيهم الجرأة لقتل المسلمين والتعدي عليهم وإعلان الثورة والتمرد على السلطان عبد الحميد الثاني .

وبدعم بريطانيا قام الأرمن بمحاولة اغتيال للسلطان عبد الحميد ، حيث استطاعوا تفجير قنبلة أمام جامع يلديز في 17 جمادى الأولى 1323هـ / 21 يوليه 1905م ، وذلك أثناء خروج السلطان من صلاة الجمعة ، وقد نجا منها السلطان ، لكن توفي فيها 26 مواطناً ، وجرح 58 شخصاً .⁽³⁾

أما عن روسيا فإن آمالها عريضة جداً في انتزاع أراضي من الدولة العثمانية ، فقد بدأوا في إرسال جواسيس لهم بصحبة قساوستهم ومعلميمهم إلى الأرمن ، وبدأ هؤلاء يثرون الفتنة ويأذبون الأرمن ضد الدولة العثمانية، فضلاً عن تأثير المنصرين البروتستانت والأرثوذكس الذين استفزوا المسلمين بأعمالهم.⁽¹⁾

ولم ترد عليهم الدولة العثمانية - للأسف - على اعتبار أنهم رجال دين .

في الوقت نفسه بدأت فرنسا تعمل بدورها على إثارة الأرمن على الدولة العثمانية ، فأرسلت "ببيركيار" إلى إسطانبول عام 1311هـ / 1893م للعمل في مدارس الأرمن مدرساً، والذي بدوره بدأ يلقي دروساً في الفلسفة وتاريخ الأدب ، ونجح نجاحاً باهراً في تلقين أطفال الأرمن الأفكار الثورية ، وقد اشتبه فيه رجال الأمن وقبضوا عليه ، لكن السفارية الفرنسية تدخلت وأخلت السلطان عبد الحميد الثاني سبيله ، وغادر بعدها إسطانبول بعد ما أتم مهمته .⁽²⁾

وبدأت هذه المدارس تطبق ما لقناها ببير كيار من أفكار ثورية وتمردية ، فحاولت الدولة العثمانية إغلاق هذه المدارس الأرمنية التي تدعو إلى الثورة ، فثار الأرمن وطالبوها بعدم إغلاقها وذهبوا إلى إسطانبول لمناقشة الأمر ، في تلك الأثناء كانت روسيا بدأت تقوم بدورها في الأحداث حيث استغلت خلو جبهة القفقاس من الحامية العثمانية عام 1310هـ / 1892م وبدأت تسرب الأسلحة للأرمن مشجعة لهم على الثورة ، حتى شكلوا عصابات في ساسون سنجق موش في ولاية تبليس ، وأخذت هذه العصابات تُغير على القرى والقصبات

⁽³⁾ عبد الحميد الثاني : مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني ، ترجمة : محمد حرب ، ص 123 ، 124 .

⁽¹⁾ عبد الحميد الثاني : مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني ، ترجمة : محمد حرب ، ص 124 . محمد مصطفى الهلالي : مرجع سابق ، ص 55 .

⁽²⁾ عبد الحميد الثاني : مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني ، ترجمة : محمد حرب ، ص 121 .

السلمة ، وينتهكون الحرمات وينفذون مذابح مروعة في المسلمين ، لا يفرقون بين أطفال ونساء وشيوخ ، فارتکبوا مذابح شنيعة اتسمت بالتعذيب للMuslimين وحرقهم وهم أحياء ، وفي الوقت نفسه امتنعوا عن دفع الضرائب ، وبالتالي وصلت هذه الأخبار إلى الدولة العثمانية ، والغريب في الأمر أن الصحافة لم تكتب عنهم أبداً ، ولم تذكر كيف أنهم ذبحوا المسلمين ، واستحلوا حرماتهم ، وكأن الأمر طبيعي أن يحدث ، بل من المفروض أن يكون كذلك ، وقد أرسل السلطان عبد الحميد الثاني جيشاً لإخماد هذا التمرد وتأديبهم ، وقد حدث أن ذهل الجيش الروسي من شناعة المذابح التي ارتكبواها في حق المسلمين لدرجة أن طالبهم بعض الضباط الروس وقف هذه المذابح ضد المسلمين ، ولم يستطعوا البقاء في تلك المناطق لرؤيه هذه المذابح وخرج الجيش الروسي منها بعد أن دخلها وسلمها للأermen .⁽¹⁾

وهنا قامت الصحافة ولم تهدأ ، فبدأت رحلتها في تشويه وتضخيم عمل الحملة العثمانية التي ذهبت لإخماد الثورة الأرمينية ، وقلبت صورة المذابح الدموية على العثمانيين ، وبدأت تروج أنهم هم من قام بها ، بل وصدقوا أنفسهم ، فبدأت أوروبا تطالب الدولة العثمانية بمنح الأرمن الحكم الذاتي . وببدأ ببيركيا بالترويج لقضية الأرمن والمذابح التي يعانون منها ، حتى إنه عمل مراسلاً إخبارياً صحيفياً لصحيفة إيللو سترايسون لنقل أحداث الذبح الدموية .⁽²⁾

ومن الصحف التي ترأست نشر أخبار الأرمن صحيفة ديلي نيوز news daily والتي نشرت كثيراً من المقالات توضح مدى قسوة الدولة العثمانية في إخماد حركات التمرد الأرمينية ، وكانت سفارة الدولة العثمانية تراسل نظارة الخارجية دائمًا بهذه الأخبار .⁽³⁾ إن الأرمن الذين كانوا يعيشون في إقليم القفقاس أستاعوا كثيراً من أعمال إخوانهم في إقليم القفقاس ؛ لأنه لم يكن لهم علاقة بالأمر ، فالجمعيات الثورية التي أسست في الخارج وأولها في باريس ، ومنظمة ثورية أخرى في أثينا هي من قادت هذه المذابح ، وفي هذا دليل قوي على أن حركة الأرمن كانت بدعم خارجي ، ومارست هذه الجمعيات ضغوطاً قوية على جميع الأرمن حتى يندرجوا تحت لواء الثورة.⁽⁴⁾

⁽¹⁾ يلمازا وزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج 2 ، ص 240 ، 2412 . محمد مصطفى الهلاي : مرجع سابق ، ص 55 .

⁽²⁾ عبد الحميد الثاني : مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني ، ترجمة : محمد حرب ، 122 .

⁽³⁾ أرشيف رئاسة الوزراء بإسطنبول : وثيقة 116 / 261 - HUS - YA نظارة الخارجية تلغراف رقم 131 بتاريخ 7 يونيو 1892 م .

⁽⁴⁾ عبد الحميد الثاني : مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني ، ترجمة : محمد حرب ، ص 125 ، 126 . محمد مصطفى الهلاي : مرجع سابق ، ص 56 .

ومما يزيد من صقل المعلومة السابقة ، هو أن الأرمن ارتدوا زي الأتراك ، وراحوا يقتلون الأرمن الذين يحجرون عن تقديم المساعدة لهم ؛ حتى يثبتوا التهمة على العثمانيين ، وكانوا حريصين على مداومة إثارتهم حتى يصلوا إلى مبتغاهم⁽⁵⁾.

وطبعاً لم يفت اليهود أن يخوضوا في إثارة الأرمن ضد الدولة العثمانية ، حيث شجع اليهود والصهيونية الأرمن على الاتصال ببعض الدول الأوروبية لتأمين صلات تجارية معهم ، وفي الوقت نفسه يرسلون إلى السلطان عبد الحميد الثاني رسائل ووشایات بتحركات الأرمن ضد الدولة العثمانية ، حتى يتخلصوا من أرمن إسطنبول ؛ لأنهم كانوا يعملون في الاقتصاد واليهود يريدون السيطرة على هذا المورد المهم ، لذلك سعوا خلف تحريض الدولة العثمانية ضدهم ، وما أن بدأت مجازر الأرمن ضد المسلمين ، حتى وجهوا الصحافة ووسائل الإعلام لتشويه صورة السلطان عبد الحميد وتصويره بمغضظه الأقليات الدينية ، لكن السلطان عبد الحميد الثاني كان أذكي منهم ، وأصدر تشريعات تنظم وتحفظ حقوق الأقليات الدينية ، لكن مسلسل مهاجمة الصحف الأوروبية استمر دون توقف .⁽¹⁾

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل استمرت استفزازات الأرمن ، في سبيل تحقيق الحكم الذاتي لأنفسهم ، على الرغم من انقسامهم هم أنفسهم إلى أرثوذكس وبروتستانت وكاثوليك والصراع بينهم لا زال قائماً ، لذلك لم يستطيعوا مطلاقاً الاستقلال وتأسيس دولة⁽²⁾.

أما بالنسبة لمسألة الهجوم على البنك العثماني فإن الأرمن قاموا بهذا العمل في إطار التمرد والفتن التي بدأوها ، حيث استولت جماعة من الأرمن في 10 ربيع الأول 1314هـ / 20 أغسطس 1896م على البنك العثماني في حي جالطة في إسطنبول ، وقد ألقيت قنابل في الشوارع العامة ، في محاولة منهم لشد انتباه الدول الأوروبية إلى قضية الأرمن ، وتسبب ذلك في حدوث ردة فعل عنيفة عند العثمانيين ، فعمت المذابح شوارع إسطنبول ،⁽³⁾ وكان هذا نتيجة طبيعية لأعمال الأرمن في العاصمة العثمانية .

⁽⁵⁾ عبد الحميد الثاني : مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني ، ترجمة : محمد حرب ، ص 126 .

⁽¹⁾ محمد سرحان : مرجع سابق ، ص 22 .

⁽²⁾ محمد مصطفى الهلالي : مرجع سابق ، ص 56 .

⁽³⁾ محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، ط 1 ، القاهرة ، 1396هـ / 1976م ، ص 302 .

وأخيراً صدق ديني عندما أورد أن السلطان لم يقم بعمل لمنع هذه المذابح ؛ لأنه لم تكن هناك مذابح ضد الأرمن ، وإنما المذابح كانت ضد المسلمين ، الذين دفعوا حياتهم ثمن تأثر ردة فعل السلطان عبد الحميد على المذابح التي ارتكبت في حقهم بعد أن كانوا آمنين في قراهم .

وللأسف كان السلطان عبد الحميد الثاني آخر الخلفاء العثمانيين العظام ، حيث لفظت الدولة العثمانية أنفاسها الأخيرة بعده بقليل ، ولم يتمتع أي واحد من خلفائه بنصف ذكائه وشجاعته وقوته .

وبهذا انتهت سلطنة عبد الحميد الثاني التي دامت ثلاثة وثلاثين عاماً ، حيث نفي مع بقية أفراد أسرته وبعض مرافقيه إلى سالونيك في قصر أحد اليهود ، وأقام هنالك تحت رقابة شديدة وصارمة من الاتحاديين ثم جئ به إلى إسطنبول في سنة 1912م ، حيث عاش تحت الإقامة الجبرية في قصر بكيركي الكائن في الجانب الآسيوي من مضيق البوسفور ، ومنع الاتصال به بل وحجبوا عنه أولاده وأخضعواه لرقابة شديدة ، وأخيراً سمح له بمقابلة أفراد عائلته ، بناته وأولاده وأحفاده مرة كل سنة في عيد الأضحى من الساعة الواحدة حتى الساعة الرابعة . وحين اشتد عليه المرض - وكان يشكو من ضيق التنفس واحتناق - سُمح لأفراد عائلته بإلقاء النظرة الأخيرة عليه ، ووافاه الأجل المحتموم يوم الأحد 29 ربيع الآخر 1336هـ / 10 فبراير 1918م ، وهو في الرابعة والسبعين من العمر ، ودفن داخل ضريح جده السلطان محمود الثاني الواقع في منطقة جمبرلي طاش بإسطنبول .⁽¹⁾

كان السلطان عبد الحميد الثاني حاكماً مسلماً تربى على الثقافة الإسلامية، ولم يكن ضد التقدم وإنما كان معتملاً في تطبيق العلوم التقنية والصناعات الأوروبية والعلوم الحديثة ، وقد أكد دائماً على أن عدم الأخذ بالجديد في العلوم من أسباب تأخر الدولة العثمانية ، واقتنع بضرورة تحديث الدولة العثمانية عن طريق التعليم ، حيث طور المدارس وأرسل البعثات للدراسة في الخارج ، في الوقت نفسه وقف بالمرصاد للأطماع الصهيونية .⁽²⁾ لقد كان بحق سلطاناً جاء في غير زمانه .

⁽¹⁾ محمد مصطفى الهلالي : مرجع سابق ، ص 235 ، 236 .
Omer Faruk Yilmaz , Belgelerle Osmanli Tarihi , IV , Istanbul 2000 , S . 236 .

⁽²⁾ هدى درويش : الإسلاميون وتركيا العلمانية ، ص 169 .

وأفضل من تولى بعده كان السلطان محمد السادس "وحيد الدين" الذي تولى عام 1337هـ / 1918م وهو آخر سلاطين آل عثمان، حمل لقب "سلطان" ولقب "خليفة" في آن واحد.

وقد خاض الأخير صراعاً مريضاً مع الكماليين حاول أثناءه إثبات سلطته على البلاد والتمسك بحكم أجداده ، لكن حكومة أنقرة كانت قد خططت لعزله منذ توليه السلطنة ؛ وذلك لأنه رفض أن يكون ملكاً رمياً فقط لا علاقة له بالحكم .

لقد وقفت أوروبا خلف مصطفى كمال أتاتورك ⁽¹⁾ حتى وصل إلى رأس حكومة أنقرة، ثم بدأت في وضع اللمسات الأخيرة لنجاح هدفها ، وهو إقصاء آل عثمان عن إسطانبول ، وإنهاء وجود الدولة العثمانية ، فدعت إلى عقد مؤتمر لوزان عام 1340هـ / 1922م من أجل معايدة الصلح ، وهنا رأى أتاتورك أن الوقت قد حان لإعلان فصل السلطة عن الخلافة، ولما لم يوافقه المجلس على ذلك في أنقرة ، أذاع أن الموافقة بالإجماع من تقاء نفسه ، وهدد بقتل من يعلن رفضه ، وهكذا أعلن فصل السلطة عن الخلافة ، وصار منصب الخليفة العثماني مجرد صورة شكلية ليس له أي حق في ممارسة سلطة شرعية ، وكان ذلك في 11 ربيع الأول 1330هـ / 18 نوفمبر 1922م ، وبعد هذا التاريخ بخمسة أيام جرى انقلاب إسطانبول الذي عُزل على إثره السلطان محمد وحيد الدين ، ونفي إلى جزيرة مالطة ، ونودي بابن عمه عبد المجيد خليفة المسلمين ⁽²⁾.

هذه هي الصورة الحقيقة للأحداث في إسطانبول عندما تولى آخر خليفة عثماني عرش السلطنة العثمانية .

أما الخليفة عبد المجيد الثاني فجاءت مادته قصيرة جداً ولم تحوِ الكثير من الأحداث المهمة في حياته ، وإنما تحدثت عن دور كمال أتاتورك في إعلان جمهورية تركيا الحديثة وكأنها مادته ، فضلاً عن أنها لم تذكر موقفه من الأحداث الجارية حوله ، وكان يفترض

(1) مصطفى كمال أتاتورك : من مواليد سالونيك عاش ما بين 1299هـ - 1938م - 1881م ، لقب نفسه بأتاتورك أي أبو الأتراك ، كثرت الشكوك حول نسبه ، حيث ثبت أنه ابن غير شرعي للسيدة زبيدة من نساء سالونيك التي عرفت بسوء سيرتها ، وهو من يهود الدونمة ، عمل بالجيش وتدرج في مناصبه ، واتصل بالإنجليز أثناء الحرب العالمية الأولى ؛ حتى يمهدوا له الطريق للسيطرة على الحكومة ، فمثلت معه بريطانيا مسرحية أنها هزمت أمامه مرتين حتى كسب الرأي العام ، واحبه الشعب واعتبروه المخلص لهم من الاحتلال الأجنبي ، ثم انتخبه الجمعية الوطنية الكبرى رئيساً شرعياً للحكومة ، فألغى الخلافة الإسلامية العثمانية ، وأعلن قيام تركيا الحديثة ، انظر : علي حسون ، مرجع سابق ، ص 251 - 254 .

(2) إسماعيل ياغي : مرجع سابق ، ص 228 - 230 . عبد الفتاح أبو عليه : مرجع سابق ، ص 417 - 421 .

بالمادة أن تتناول جميع مراحل حياته ، ولكنها ركزت فقط على الفترة القصيرة التي بقي فيها على كرسي العرش ، ولم تأت على ذكر باقي أحداث حياته بعد النفي وكأنها ليست جزءاً منه، واكتفت بذكر تاريخ وفاته الذي كان بعد 20 عاماً من عزله ، ولم يهتم المستشرق الذي قدم المادة بذكر أحداث حياته في المنفى .

كما أن المادة مؤلفها مجهول ، مع أن الدراسة ترجح أنه المستشرق جان ديني على اعتبار أنه كاتب مادة السلطان عبد المجيد الأول غالباً - في الدائرة - ما يتناول المستشرق الواحد السلاطين متشابهي الأسماء .

وأخيراً فإن المادة لم ترجع لأي مصدر أو مرجع تاريخي يتناول تاريخ الدولة العثمانية أو سيرة سلطانها ، وإنما عادت - كما دأب المستشرقون - إلى مراجع تختص بمصطفى كمال أتاتورك .

والحقيقة أن قصر المادة وعدم ذكر أحداث حياته كاملة ، بالإضافة إلى عدم الرجوع إلى مراجع مختصة ، تحير لشأن آخر خليفة عثماني وعدم إلقاء الضوء عليه ، وإظهار مصطفى كمال أتاتورك بمظهر البطل الذي أنقذ تركيا.

أما الموضع الذي نقضت فيه الدراسة مادة عبد المجيد الثاني فهو :

أولاً : تصوير المسلمين حوله بالمنافسين .⁽¹⁾

ثانياً : ذكر أحداث خيالية لم تحدث ، وهي أن الخليفة غادر إسطنبول على متنه سفينة حربية بريطانية⁽²⁾.

الخليفة عبد المجيد بن عبد العزيز بن محمود الثاني ، ولد في إسطنبول عام 1283هـ / 1866م ، بويع بالخلافة وهو في سن سبعة وخمسين عاماً⁽³⁾ ، وهو آخر خليفة عثماني وبخروجه انتهى حكم آل عثمان .

سلم دفة الحكم بعد تنازل محمد وحيد الدين ونفيه ، وقد تميز عهده بازدياد نجم مصطفى كمال أتاتورك الذي هيمن على مقدرات الدولة تماماً .⁽⁴⁾

⁽¹⁾ J.Deny : ABD AL- MADJID II , The Encyclopaedia of Islam , Volumei , Leiden , London , 1960, P.75 .

⁽²⁾ J.Deny : ABD AL- MADJID II , The Encyclopaedia of Islam , Volumei , Leiden , London , 1960, P.75 .

⁽³⁾ محمود شاكر : مرجع سابق ، ص 314 .

⁽⁴⁾ عدنان عطار : مرجع سابق ، ص 177 .

كان رجلاً مهذباً ومتقدّماً ، جُرد من كل سلطة حقيقة ، لكن كان على يقين تام بأمان مصيره ، حيث كان مطئناً أن الخلافة ليست في خطر محقق ، معتمداً في ذلك على تأييد العالم الإسلامي للخلافة العثمانية من جهة ، ومن ألقٍ حوله من الوطنين والمسلمين من جهة أخرى .⁽¹⁾

وللنقي نظرة على المواد التي تم نقضها :

أولاً : تصوير المسلمين الملتفين حوله بالمنافسين . جاء في الدائرة : " خلال بعض الأشهر التالية التفَّ كل المنافسين للحكومة والتي أثبتت بطريقة عادلة ، بدأت في أنقرة على يد مصطفى كمال أتاتورك حول الخليفة عبد المجيد الثاني الذي في الواقع لم يكن له أي سلطة فعلية " .⁽²⁾

وسلم عبد المجيد الثاني الخلافة بعد إلغاء السلطنة مباشرة ، وجُرد الخليفة من السلطات السياسية كافة .

والواقع أن حكومة إسطنبول " الدولة العثمانية " لم يعد لها وجود ، وأصبحت المدينة بيد الحلفاء وهم يطهرون حيادهم التام ، وقد ظهر نجم مصطفى كمال ولمع وكأنه بطل شعبي سينقذ البلاد من الاحتلال الأجنبي ، في الوقت نفسه كانت الجمعية الوطنية قد أبقت على الخلافة لأن الاتجاه السائد هو الاحتفاظ بالخلافة في محاولة لتهيئة معارضة الفئات الدينية للتغيرات السياسية التي أدخلتها حكومة أنقرة ، وعلى الرغم من أن الخليفة عبد المجيد الثاني لم يحاول أن يمارس السلطة السياسية بشكل جدي ، لكن سرعان ما اقتصر مصطفى كمال أن بقاء زعيم ديني يلتف حوله المسلمين والفئات الدينية سيشكل له منافسة حقيقة تكون نقطة التقائه لجميع هذه الفئات ، وربما تعصف بالمكانة التي حققها في أنظار الشعب التركي ، وتحيي مركز الخلافة الروحي الإسلامي .

ومما ساعد على تقوية مركز مصطفى كمال أنه بعد ثلاثة أيام من توليه الخليفة عبد المجيد الثاني الخلافة عقد مؤتمر " لوزان " وحضره وفد أنقرة فقط ، ووضع رئيس الوفد الإنجليزي " كرزون " أربعة شروط للاعتراف باستقلال تركيا ، وهي :

(1) نجدة فتحي صفوة : مراسل " التايمز " في إسطنبول يصف مغادرة أحد الخلفاء العثمانيين عاصمته ، تاريخ العرب والعالم ، السنة 21 ، العدد 193 ، جماد الآخر - رجب 1422هـ / سبتمبر - أكتوبر 2001م ، دار النشر العربية للدراسات والتوثيق ، لبنان ، ص80 .

(2) J.Deny : ABD AL- MADJID II , The Encyclopaedia of Islam , Volumei , Leiden , London , 1960, P.75 .

(١) إلغاء الخلافة الإسلامية .

(٢) طرد الخليفة من بني عثمان خارج الحدود .

(٣) إعلان علمانية الدولة .

(٤) مصادر أموال بني عثمان .

ورفض " عصمت إينونو "^(١) رئيس الوفد التركي هذه المطالب وعاد إلى بلاده ، لكن موقف كمال أتاتورك أختلف وقرر تنفيذ مقررات مؤتمر " لوزان " ، حيث بدأت المؤامرات والدسائس ، وأحلت الجمعية الوطنية التي كانت ضد تصرفات مصطفى كمال ، ومارس الأخير الضغط وسياسة القتل للمعارضين ، وتم التوقيع على معاهدة " لوزان " عام 1342هـ / 1923م التي نصت على عودة السيادة التركية على كل الأراضي التي تشمل تركيا الحالية وألغيت الإمتيازات الأجنبية .

ونتيجة لذلك انسحبت قوات الحلفاء ودخلت القوات التركية إسطانبول ، ودعى المجلس الوطني لعقد جلسته ، وتقرر أن تكون أنقرة عاصمة للدولة بدلاً من إسطانبول ، وصدر - أيضاً - قرار إعلان تركية دولة جمهورية برئاسة مصطفى كمال أتاتورك ، ثم تبعه بقرار إلغاء الخلافة العثمانية عام 1343هـ / 1924م ، وأمر الخليفة عبد المجيد الثاني بمغادرة البلاد وإعلان علمانية البلاد ، وأصدر أيضاً أمراً بإلغاء الوظائف الدينية ، وامتلاك الدولة للأوقاف ، وهكذا نفذ أتاتورك كل مطالب مؤتمر " لوزان " لتحقيق مصالحة الشخصية (٢) .

لقد استطاع أتاتورك قلب صفحة الدولة العثمانية ومسحها من على الخريطة السياسية بعد أن عاشت أكثر من 600 سنة تقدم للإسلام كل الحماية .

^(١) عصمت إينونو : 1301هـ - 1392هـ / 1884م - 1972م ، عسكري وسياسي تركي ، تولى رئاسة أركان حرب الجيش التركي ، ثم تولى رئاسة الوزراء ، وخلف أتاتورك في رئاسة جمهورية تركيا الحديثة عام 1357هـ / 1938م ، سار على خطى سلفه ، لكنه سمح بإنشاء حزب معارض وهو الحزب الديمقراطي ، الذي فاز في الانتخابات الرئاسية ، مما حمل إينونو على الاستقالة عام 1369هـ / 1950م . انظر أحمد عبد الله الزغبي : مرجع سابق ، ج 3 ، ص 258 .

^(٢) إسماعيل أحمد ياغي : مرجع سابق ، ص 231 . محمود شاكر : مرجع سابق ، ص 312 . عبد الفتاح أبو عليه : مرجع سابق ، ص 421 ، 422 . أحمد عبد الله الزغبي : مرجع سابق ، ج 3 ، 256 ، 257 .

ثم أين الحكومة التي أنشئت بطريقة عادلة ، أليست هي الحكومة نفسها التي أخذت ثورة 1925هـ / 1925م بمنتهى القسوة والعنف وكان مطلبها الوحيد إعادة الشريعة الإسلامية لتركيا ، وإعادة السلطان وال الخليفة المخلوع .

لقد ضرب هذه الثورة بعنف ودون رحمة ، وشكل "محاكم الاستقلال" لمحاكمة المتمردين ، وهذه دورها أشاعت الرعب في البلاد ، ثم أصدر قانوناً بمنع أي تيار سياسي غير تيار السلطة ، وهكذا تحول حكم مصطفى كمال إلى دكتاتورية مكشوفة ، حيث علق المشانق في كل مكان ، وقتل المئات من المعارضين ، حتى أُخْرَسَتْ كل معارضة تقريباً .
(1)

إن الطريقة التي أنشئت بها ، هي القضاء على الإسلام في تركيا بكل الوسائل من قتل واضطهاد سياسي وتعنيف وممارسة الإرهاب على أوسع نطاق .

ثانياً : ذكر أحداث خيالية لم تحدث ، وهي أن الخليفة غادر إسطنبول على متن سفينة حربية بريطانية . جاء في الدائرة :

"غادر إسطنبول تحت الحماية البريطانية على متن سفينة حربية بريطانية".⁽²⁾

لقد مر بنا فيما سبق كيف أن بريطانيا اشترطت للانسحاب إلغاء الخلافة العثمانية وطرد الخليفة عبد المجيد الثاني ، فكيف يخرج تحت حمايتها بل وعلى إحدى سفنها ؟!

إن من واقع مراسل جريدة "التايمز" Times وهو يصف مغادرة عبد المجيد يتضح، أنه لم يترك له فرصة إعداد أغراضه للسفر ، وإنما أبلغ بقرار العزل والنفي ، وطلب منه السفر قبل بزوغ النهار ، ثم استأذن أن يصحب معه زوجته وابنته ، وركب سيارة مع أسرته وانطلقت بهم إلى "جطالجه" ومن هناك ركبت أسرة آخر خليفة عثماني قطاراً "سمبلون - أوريانت إكسبرس" مغادرة أراضي الدولة العثمانية نهائياً دون رجعة متوجهة إلى برن . ولم يستطع أن يحمل معه الكثير من الأموال أو الممتلكات ، وإنما أخذ ما استطاع حتى إنه لم يتجاوز مجوهرات بقيمة 50 ألف ليرة تركية ، وهو ما يعادل 5900 جنيه إسترليني ، وقد كان متأثراً عاطفياً بال موقف ، وأرسل برقية إلى أتاتورك في اللحظة التي غادر فيها

⁽¹⁾ رياض العالى : مصطفى كمال أتاتورك بين الأساطير والحقيقة ، تاريخ العرب والعالم ، العدد 49 ، تشرين الثاني ، 1982م ، ص 72.

⁽²⁾ J.Deny : ABD AL- MADJID II , The Encyclopaedia of Islam , Volumei , Leiden , London , 1960, P.75 .

البلاد ، قال له إنه سعى لخير تركيا على الدوام . ومن ثم أجبر أمراء آل عثمان على مغادرة إسطنبول خلال يومين ، والأمارات خلال أسبوع .⁽³⁾

ثم انتقل الخليفة العثماني إلى نيس في جنوب فرنسا على ساحل البحر المتوسط ليعيش هناك ، وتوفي في باريس 1 شعبان عام 1360هـ / 23 أغسطس 1941م ، عن عمر يناهز السابعة والسبعين .⁽¹⁾

ولا شك أن خروج آخر خليفة عثماني من إسطنبول كان له عدة تداعيات ، أهمها تغير وجه تركيا الإسلامي تماماً ، وحل مكانه وجه العلمانية بصورته السافرة ، وضياع آخر أمل لبقاء ملك آل عثمان الإسلامي .

ومن ثم خاضت تركيا الحديثة الصراع لإثبات أنها أوروبية تماماً ولا تمت للإسلام بصلة ، وأصبحت متأرجحة في مهب الريح ، حيث اقتلت جذور تاريخها الإسلامي العثماني ، وحاولت أن تبني تاريخاً علمانياً لم ينجح قط .

و طوى مصطفى كمال أتاتورك صفحة حكم الدولة العثمانية الذي امتد إلى ما يقارب الستة قرون ، حمت خلالها البلاد الإسلامية والإسلام بكل ما أوتيت من قوة ، لكن قوة أوروبا والصهيونية كانت أكبر وأعظم جبروت.

⁽³⁾ نجدة فتحي صفوة : مراسل "التايمز" في إسطنبول يصف مغادرة آخر الخلفاء العثمانيين عاصمتهم ، ص80 ، 81 .

⁽¹⁾ محمود شاكر : مرجع سابق ، ص 316 .

نستخلص من عرض مواد الدائرة عن السلاطين العثمانيين سواء في عصر النشأة وعصر القوة وعصر الضعف عدة نقاط ترتكز على عدم صحة ما جاءوا به في دائرة المعارف الإسلامية ، ويتبين ذلك فيما يلي :

- (١) لم تتحدث أغلب المصادر عن الأتراك قبل اعتناقهم للإسلام مما أسمهم بشكل كبير في إطلاق الحرية لأقلام المستشرقين ليصيغوا ما يريدون ، حيث صوروا حياة السلاطين الأوائل ممتزجة بالأساطير ، والواقع أنه لا يشوبها الأساطير والغموض ، وإنما قد تدر فيها المعلومة الصحيحة ، مما يعطى إحساس للقارئ بأن تاريخهم الأول غامض .
- (٢) ثبت بالدليل القاطع إسلام الأتراك المبكر ، منذ القرن ١٧هـ / ٧م وقد حسن إسلامهم ، وأنبعوا على المذهب السنوي ، ولم يختلط يوماً مذهبهم السنوي مع الشيعي .
- (٣) إن فتوحات السلاطين العثمانيين في فترة قيام الدولة العثمانية ، كان محركها الأول الإسلام ، أي الجهاد في سبيل الله ، وإعلاء رايته في بقاع جديدة ، ومواد الدائرة لم تعطي الفتوحات العثمانية حقها من الدراسة والتحليل ، والاكتفاء فقط بإيرادها بإشارات عابرة وصغيرة ، وهذا دأب المستشرقين دائماً ومن أبرز مناهجهم ، وذلك لكي لا يعطوا الحدث الأهمية اللازمة له ، والعمل على تصغيره .
- (٤) صور كرامر الأحداث التي جاءت في مادة الترك بدائرة المعارف الإسلامية أغلبها صور خاطئة ولا تمت للواقع بصلة ؛ حيث سلك فيها كل السبل لإقناع القارئ بصدق آراءه بحجج واهية . كمحاولة التشكيك في نسب السلاطين ، وقد ثبت عكس هذه التهم بالأدلة الدمنعة .
- (٥) أغلب المصادر والمراجع التي رجعوا إليها أجنبية ، سواء أكانت إنجليزية أم فرنسية أم ألمانية ، وحتى العربية قليلة جداً ، وإذا رجعوا إليها أو لبعض المراجع التركية والعثمانية ركزوا على الكتب التي تجمع روایات مختلفة من كتب أهل البدع والأهواء والملل . وأما الكتب التركية فقد أخذوا المعلومات منها من مواضع عادية ظاهرة لا تحتمل اللبس أو الاختلاف ، وأخذوا منها ما يناسب الأحداث التي يكتبون فيها ،

وتخدم أغراضهم وآرائهم وأهوائهم . وأغلب مراجعهم رديئة وضعيفة لا تمت للحدث التاريخي بصلة .

٦) في بعض الأحيان يكتبون العامود المكون للمادة العلمية كله حقيقة وموثق، ولكن في آخر الفقرة والعامود يضع المستشرق جملة صغيرة جداً لا يكاد الباحث أو القارئ يأخذها بعين الاعتبار، ويكون فيها كل التشويه والافتراء ، أو تكون قلباً لمعنى ما سبقه .

٧) مخالفتهم للمنهج العلمي في الأخذ من المصادر المعتمدة في كل فن، فمثلاً يستدلون على أحداث وقعت في التاريخ العثماني ، ويدعون أنها حاسمة ، يعتمدون في ذلك على حادثة فردية لها أسباب وظروف خاصة، فيتم تعيمها على العصر العثماني كله، بل ويدعون صدور فرمانات سلطانية بهذا الشأن مثل قانون قتل الإخوة ، ولا يذكرون حتى رقم تصنيف الفرمان ، أو وضع صورة منه ، ومثلاً يرسمون الشخصيات العثمانية في إطار قصصي مثل ألف ليلة وليلة .

٨) عدم ذكرهم في كثير من الأحيان للمصادر والمراجع التي استخلصوا منها آراءهم المشبوهة عن أي شخصية حاكمة أو حدث ، ويكتفوا بالقول ذكر مؤرخ مجهول ، أو ورد في مخطوط مجهول وهكذا ، دون ذكر الحقيقة وهي أن الرواية من خيالهم .

٩) اختلف أسلوب المستشرقين في تناول سلاطين عصر الضعف حيث قل الدس والتشويه، وصغرت المادة العلمية ، وليس مثل سلاطين عصر القوة .

١٠) ركزت الدائرة على تشويه بعض الشخصيات التي شكلت منعطفاً خطيراً في الدولة العثمانية في عصر الضعف مثل السلطان عبد الحميد الثاني ، مع إظهار دور الإعلام والصحافة الأوروبية في تشويه سيرة هذا السلطان .

١١) اتضاح دور روسيا وأوروبا في إثارة كثير من الفتن داخل الدولة العثمانية بغية تفكك أراضيها ، وتکبيل الدولة بمزيد من المعاهدات لشد القيد حولها . وهذا الأمر تزامن مع تطور وتبلور الحركة الصهيونية في ق 13 هـ / 1914م ، والتي ساهمت بأطماعها بدفع الرياح ضد الدولة العثمانية .

١٢) إدخال القارئ في متاهات اختلاف المؤرخين حول تاريخ ولادة معين أو حدث ليس له أي أهمية ، وذلك لتتشتت ذهن القارئ عن الأحداث المهمة التي قاموا بتشويهها وإلقاء التهم حولها .

(١٣) جاءت بعض معلوماتهم مخالفة تماماً للحقيقة ، وكان المستشرق لم يطلع مطلقاً على التاريخ الصحيح للسلطان الذي يكتب عنه . فيعمل على إدخال كثير من الأحداث غير المهمة وتضخيمها حتى تغطي مساحة أكبر لا تستحقها . مع إدخال بعض الألفاظ غير المناسبة لكتابه بها عن السلطان ؛ وذلك للاستهزاء به والتحفظ من شأنه ، على الرغم من أن الأعمال التي قام بها هؤلاء السلاطين تعكس غير ذلك .

الفصل الرابع رؤيه المستشرقين في بعض النظم العثمانية

المبحث الأول :
النظم العسكرية " نظام الانكشارية وضربيه الغلمان أنموذجًا "

المبحث الثاني :
النظم الاجتماعية " نظام الحرير أنموذجًا "

المبحث الثالث :
النظم الشرعية " هيئة العلماء أنموذجًا "

المبحث الأول :

النظم العسكرية "نظام الانكشارية وضربيّة الغلمان نموذجاً"

يعد النظام العسكري العثماني من الطراز الإسلامي الأول ، إذ حوى داخله كل التعاليم الإسلامية السمحاء بخصوص أنظمة الحرب والقتال ، كان جيش الدولة العثمانية جيشاً إسلامياً بحق ، تخلق جنوده بأخلاق الفاتحين الأوائل ، وإذا كانت لهم هفوات أو تعديات فهي لا تتعذر أي هفوات جيش مسلم آخر .

لقد كان جنود الجيوش العثمانية مثالاً يحتذى به للجندي الإسلامي ، إذ عاش الجندي العثماني حياة المعارض والفتحات مئات السنين ، احتفظ خلالها بكافة الفضائل الإسلامية الحربية الرائعة في كل الظروف ، مما جعلته نموذجاً مثالياً للجندي الإسلامي المحارب ، لكن الجيش العثماني ككل الجيوش الإسلامية والعالمية لابد أن يتعرض لكثير من المحن أثناء مسيرته الطويلة ، وتظهر عليه أعراض الفساد والانحراف ، ومع ذلك بقي في داخله عاملٌ ثابت ومفهومٌ صادقٌ لم يتغير عبر الزمن وهو الإيمان بنشر الإسلام وحماية الدين والدفاع عنه. ولهذا السبب بالذات حُشد كل أبناء الدولة العثمانية ورجالها ليحملوا على عاتقهم حماية الإسلام ونشره .⁽¹⁾ وبشهادة العالم الغربي إذ قالوا عنه : الجيش الذي لا يقهر.

وقد أسس العثمانيون جيشاً ، أصبح منذ عام 1396هـ / 799م ثاني أقوى جيش في العالم بعد جيش تيمور ، وفي عام 1447هـ/ 851م أصبح هو الجيش الأول في العالم ، ثم فقد صفتة هذه في 1185هـ/ 1771م وحتى عام 1288هـ/ 1871م كان الجيش الثالث،⁽²⁾ ويعود هذا التراجع إلى الضعف الذي أصاب جميع أجهزة الدولة العثمانية، وليس فقط النظام العسكري ، هذه سنة الله في خلقه لقوله تعالى ﴿سَنَّ اللَّهُ فِي الدِّينِ خَلَوْا مِنْ قَبْلِ وَلَنْ تَجِدَ لِسَنَّةَ اللَّهِ تَبِدِيلًا﴾⁽³⁾. وعلى الرغم من ذلك بقي ردحاً من الزمن تهابه كل أوروبا وتحسب له ألف حساب.

⁽¹⁾ بسام العسلي : فن الحرب الإسلامي في العهد العثماني ، د. ط ، دار الفكر ، د. ت ، ج 5 ، ص 519 .

⁽²⁾ يلماز أوزرنو : تاريخ الدولة العثمانية ، ج 2 ، ص 374 .

⁽³⁾ سورة الأحزاب : آية 62 .

وتعد فرقة الانكشارية من أهم فرق الجيش العثماني وذلك لأنها حملت مسؤولية فتح البلاد ونشر الإسلام على عانقها ، جاهدت في سبيل الله ، وحملت روحها على أكفها في ساحات المعارك لنشر دين الحق بين شعوب أوروبا المسيحية قلباً وقالباً . فكان الجندي الانكشاري يدخل المعركة وهو يحمل روحه على كفه ، إما الانتصار أو نيل الشهادة .

ولهذا السبب بالذات ركزت كتابات المستشرقين على فرقة الانكشارية ، لما لها من أهمية حقيقة في الجيش العثماني ونظامه العسكري .

أحاط بتاريخ الانكشارية في كتاباتهم كثير من الافتراء والتشويه بل واحتلقت أحداث لم تكن موجودة أصلاً ؛ لإخراج صورة عن الانكشارية مغايرة للواقع والحقيقة .

وخير دليل على ذلك كتابات المستشرقين عن الانكشارية من خلال دائرة المعارف الإسلامية ، حيث أفردت لهادائرة الكتابة في اربع مواد تناولت فيها كل ما يختص بالانكشارية ، وهي مادة الانكشارية وإيج أوغلان وكلاهما كتبهما المستشرق كليمان هوار ، ومادة دوشرمة كتبها المستشرق مورتمان وأخيراً مادة جندره لي للمستشرق جيس . وقد شملت المواد الحديث عن تربية الأطفال ، وجمعهم وصولاً إلى أنظمتهم، مع إضافة الكثير والكثير من الأحداث المختلفة والافتراءات المختلفة ، بل والتأكيد على وجود ما يسمى بضربية الغلمان التي جعلوا صداتها يتتردد في خيال المؤرخ المسلم والعربي وحتى القارئ المطلع غير المتخصص مقترباً بشدة وتعسف الحكم العثماني ، وجعلوها رمزاً لقوته وجبروته وسلطته على أهالي القرى المسيحية. وتکاد هذه الصورة تأتي في جميع الكتب التي تناولت تاريخ الدولة العثمانية لدرجة أنها أصبحت جزءاً قوياً من صميم التاريخ العسكري العثماني ولا يمكن فصلها عنه .

ويمكن تقسيم الموضوعات التي ورد فيها الافتراء والتشويه على الانكشارية في دائرة المعارف الإسلامية على النحو التالي :

أولاً : تعريف كلمة "دوشرمة" ⁽¹⁾

ثانياً : محاولة التشكيك في أن السلطان أورخان هو صاحب فكرة تأسيس الانكشارية والدوشرمة ، والعمل على نسبتها إلى أي طرف آخر غيره. ⁽²⁾

⁽¹⁾ مورتمان : مادة دوشرمة ، دائرة المعارف الإسلامية : ج 9 ، ص 319 .

ثالثاً : نقلهم لصورة مخالفة تماماً لواقع الانكشارية والدوشمة ، إذ شوهو بقدر إمكانهم طريقة جمع الأطفال وتقسيمهم ، وإكراههم على اعتناق الإسلام .⁽¹⁾

ومواد الدائرة ركزت على طريقة جمع الغلمان بصفة عامة ، بل واستفاضت في الحديث عن حرمان هؤلاء الغلمان من ذويهم ، وتصوير معاناة الآباء والأمهات وذرف الدموع ، وخاطبت في كثير من اللعنة الذي لا طائل منه ولا فائدة سوى التشويه ، مثلاً من صاحب فكرة إنشاء فرقة الانكشارية ؟ ، أو في أي الأعوام بدأت ؟؟
وستبدأ الدراسة بالرد على الافتراضات التي وردت حسب الترتيب السابق الذكر :

أولاً : تعريف معنى كلمة "دوشمة" :

"دوشمة" باليونانية تغنى جمع الغلمان ، هو الاسم الذي يدل على حمل أولاد النصارى قسرًا على الانخراط في فرقه الانكشارية وعلى الخدمة في القصور السلطانية⁽²⁾

هذا المصطلح له علاقة وثيقة بالانكشارية ، وقد ركزت مادة دوشمة في تعريفها للمصطلح على أنه فقط يعني جمع الغلمان بالقوة وقسرًا ، وإرغامهم على الانخراط في فرقه الانكشارية والخدمة في القصور السلطانية ، وهم بذلك بعدها تماماً عن المعنى الحقيقي للكلمة.

في محاولة من المستشرق مورتمان تأكيد أن معنى كلمة دوشمة جمع الغلمان بالقوة والجبروت للانخراط في الانكشارية بهدف إرساء تشويه الانكشارية .

وفي واقع الأمر أن كلمة دوشمة كلمة تركية تكتب هكذا (Dos,orme) بمعنى الجمع والاقتاف ، وتطلق على جمع الجنود وإحضارهم لأداء الخدمة العسكرية في الجيش

⁽²⁾ جيس: مادة جندره لي ، دائرة المعارف الإسلامية : ج 2 ، ص 119. كليمان هوار : مادة الانكشارية ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 3، ص 76-78. مورتمان : مادة دوشمة ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 9 ، ص 319.

⁽¹⁾ كليمان هوار : مادة آيچ أو غلان ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 3 ، ص 185 . كليمان هوار : مادة الانكشارية ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 3 ، ص 77 . مورتمان : مادة دوشمه ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 9 ، ص 320 .

⁽²⁾ مورتمان : مادة دوشمة ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 9 ، ص 319 .

العثماني ، واستخدمت الكلمة صفة للجندي المجلوب .⁽³⁾ وكلمة ديوشـم تعني أيضاً في الفارسية جمع الثمار والنفاطها .⁽⁴⁾

و Dersime هي أيضاً مصطلح عسكري ، أطلق على أبناء المسيحيين المشردين في الشوارع ، وكانوا يجمعون من طرقات البلاد المسيحية التي تم فتحها حديثاً ، وقد هؤلاء الأطفال ذويهم إما قتلوا في الحرب أو هربوا مخلفين أبناءهم خلفهم . وخاصة من بلاد البلقان وذلك بهدف الالتحاق بالانكشارية والجيش عموماً ، أو للعمل في السراي .⁽¹⁾

كما فسرت بمعنى الاسقط أو السقوط ، وهي كلمتان الأولى تعني إسقاط الأم لجينها قبل إتمام شهور الحمل التسعة ، وهي لا تطلق على المواليد وإنما على الذين يموتون في الشهور الأولى من الحمل ، أما السقوط فهو يعني سقوط شيء من على علو سواء كان إنساناً أم جماداً ، وتطلق على الشيء المعنوي كالسقوط في هاوية الرذيلة أو ما شابه ذلك من تعبيرات .⁽²⁾

وتطلق الكلمة أيضاً على الأطفال اللقطاء الذين يولدون في السر ، ويُلقى بهم في قارعة الطريق أو على أبواب المساجد والملاجئ ، أو يصبحون مشردين في الطرقات وليس لهم ولی يعودون إليه .⁽³⁾

ومن هذا يتضح أنها تعني الجمع والالتقاط ، فضلاً عن أنها تعني أيضاً الأطفال المشردين في الطرقات ولا مأوى لهم ، نتيجة لعدة أسباب - ذكرت سابقاً - ولهذا فالمنطق يحتم أن يكون لفظ الدوشـم أطلق على جمع الأطفال المشردين فقط ، وليس جمع الغلمان الكبار بل وقسرًا من ذويهم ، وعليه فإن مادة دوشـم لم تعرف الكلمة كاملة وإنما اكتفت فقط بالذى أراد المستشرق مورتمن تقديمـه للقارئ ، وهو جمع الغلمان فقط وبنـى عليه بعد ذلك المعلومات التي أرادـها ، وترك الأمر لخيال القارئ الغارق في تشويه الانكشارية و الدوشـم .

⁽³⁾ حسين مجتبى المصرى : مرجع سابق ، ص 60 .

⁽⁴⁾ محمد الأرناؤوط : دراسات ووثائق حول الدوشـم ، ط 1 ، عمان : دار قدسية ، 1991م ، ص 35 .

⁽¹⁾ الصفارى أحمد المرسى : مرجع سابق ، ص 55 .

⁽²⁾ زياد أبو غنيمة : جوانب مضيئة في تاريخ الأتراك العثمانيـين ، ص 126 - 127 .

⁽³⁾ مرجع سابق ، ص 127 .

ثانياً : محاولة التشكيك في أن السلطان أورخان هو صاحب فكرة تأسيس الانكشارية والدوشمة ، والعمل على نسبتها إلى أي طرف آخر غيره .

" يقال إن السلطان أورخان هو أول من سن هذه السنة ... على أنه يحتمل أن يكون قد حدث لبس بين هذه السنة وبين إنشاء فرقه الانكشاريه بتزويدها بأسرى الحرب عملاً بaitawa الـ " بنجه " وهو النظام الذي ينسب إلى هذا السلطان . وفي عام 1438م / Bartholomaeus de Jane (برثلومباوس ده يانو) ذكر كاتب موثوق به هو (أن مراد الثاني قد أنشأ ما يعرف " بنظام عشرة الصبيان " في حين تذكر المصادر التركية أن كل ما فعله هذا السلطان هو إحياء هذه السنة بعد أن أهملت إبان اضمحلال الإمبراطورية . ومهما يكن من الأمر فالثابت أن نظام الدوشمة كان قائماً في عهد مراد الثاني ")⁽¹⁾.

وقدم المستشرق جيس في مادة جندره لي ليؤكد على معلومة أنها ليست من أفكار أورخان وإنما من أحد وزرائه ، يقول :

" لا نعرف على التحقيق هل كان لقرا خليل بالفعل شأن هام في عهد أورخان وهل كان إنشاء فكرة الانكشارية من بنات أفكاره ؟ ... وجاء في رواية الكاتب القديم الذي لا نعرف اسمه - وأنا بحسب نشر كتابه - أن قرا رستم القرمانى لا قرا خليل هو الذي أوصى بإنشاء فرقه الانكشارية " .⁽²⁾

وفي مادة الانكشارية لклиمان هوار نسب الأمر إلى قر جاندارلي وكأنه أمر مسلم به " وفي الوقت الذي كانت تعم أوروبا فيه العصابات المسلحة كون قرا جاندارلي لأول مرة كتائب منظمة من المشاة " .⁽³⁾

لقد حاولت مواد دائرة سحب مسألة تأسيس الانكشارية من السلطان أورخان وذلك لتقليل من شأنه ، وصحة قراراته ، وفي نسبة أفكاره لغيره دلالة واضحة على تشتيت ذهن القارئ ، ومحاولة إشعاره بأن الأعمال العظيمة للسلطانين العثمانيين ليست من أفكارهم وإنما بنات أفكار وزرائهم .

⁽¹⁾ مورمان : مادة دوشمة ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 9 ، ص 319 .

⁽²⁾ جيس : مادة جندره لي ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 12 ، ص 119 .

⁽³⁾ كليمان هوار : مادة الانكشارية ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 3 ، ص 76 ، 77 .

وللردد على هذا الافتراض لابد من توضيح حقيقة مهمة وهي أن السلطان أورخان عندما ورث الحكم عن والده كانت الدولة العثمانية لا تزال وليدة ، فكانت دولة ليست لها قوانين أو عملة ، أو حدود واضحة ويحيط بها جiran أقوى منها ، فوقع على عاته تنظيم هذه الدولة الناشئة ، والتوسع على حساب جiranه ، فبدأ في إحداث التنظيمات الضرورية لتحويل إمارته الصغيرة إلى دولة متaramية الأطراف، وطبعي جدًا أن يوجه عناته الخاصة للجيش .⁽⁴⁾

فبدأ في الاستزادة عن كيفية تنظيم شؤون الحكم والسياسة وحتى العسكرية بقراءة الكتب والتثقف فاطلع على كتاب سفر نامه لنظام الملك الوزير السلاجوقى وهو كتاب يتحدث عن فن الحكم ، وتجاربه ، والأنظمة والدواوين ، وقد شرح نظام الملك تفصيلاً عن الطريقة المثالية لإيجاد قوة محاربة ، إذ أشار إلى اختيار عدد من الأولاد في سن مبكرة ، وتقوم الدولة بتعليمهم والعناية بهم ، وتقينهم مبادئ الإسلام وفنون الحرب واللغات والتاريخ والمنطق ، وهكذا بدأ أورخان في البحث عن مصادر جديدة للقوة المحاربة .⁽¹⁾

وقد استحسن هو وأخيه علاء الدين⁽²⁾ هذا النظام وشرعوا في التفكير جدياً في إنشاء جيش نظامي من المشاة يعتمد بالدرجة الأولى على الأطفال ويسمى الانكشارية .⁽³⁾ ينى تجرى (الجيش الجديد) .⁽⁴⁾

ومن هنا رأى السلطان أورخان الاستفادة من الأطفال المشردين ، فضلاً عن أعداد من الأسرى الذين تم إلحاقهم بخدمة الدولة العثمانية . خاصة وأن انتقال الأتراك إلى الأراضي الأوروبية ضاعف فتوحاتهم في منطقة الرومالي ، فزادت حاجتهم إلى الجنود ،

⁽⁴⁾ عبد الرحمن شرف : تاريخ دولة عثمانية ، ط 1 ، إسطنبول : معارف نظارات جليلة مطبعة سي ، 1309هـ ، ج 1 ، ص 70 . محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص 24 ، 25 . أحمد عبد الرحيم مصطفى : مرجع سابق ، ص 38 . خلف الونيناني : مرجع سابق ، ص 82 .

⁽¹⁾ عبد الرحمن شرف : مصدر سابق ، ج ، ص 72 . أميره مداح : مرجع سابق ، ص 20 .

⁽²⁾ جاء في الروايات المتداولة أن تنظيم الجيش والتشريع العثماني كان في بداية الدولة العثمانية على يد الأمير علاء الدين الذي كان رجل علم وثقافة وسلام ، حيث اعتزل العالم في سن الصبا ، ولم يشترك في قتال ، ورفض اقتسام ممتلكات أبيه مع أخيه أورخان ، واكتفى بمنصب الصدر الأعظم ، ولقب باشا . انظر : أحمد عبد الرحيم مصطفى : مرجع سابق ، ص 38 .

⁽³⁾ عبد الكريم رافق : العرب والعمانيون ، ط 1 ، دمشق ، 1947م ، ص 35 .

⁽⁴⁾ أميرة مداح : نظرة متأنية في تاريخ الدولة العثمانية ، ص 19 .

فاتجهوا لأجل هذا إلى الاستفادة من أسرى الحرب ، وذلك تحت مصطلح بنجيك Pencik (5).

وبمروز الزمن عرف باسم (بنجيك قانوني) أي قانون الخمس ويحمل أنه صدر عام 765هـ / 1363م ، وينص على أن تحصل الدولة على خمس أسرى الحرب أو الغنائم حق مشروع للسلطان حسب الشريعة الإسلامية وهي ليست قانوناً وإنما تشريع إسلامي ، وفي البداية كان يلحقوا بالإنكشارية بعد فترة تدريب قصيرة ، وعندما رأوا المحاذير في ذلك قرروا أن يسلم هؤلاء الفتيا من أسرى الحرب للأسر التركية في الأناضول ، بذلك يمكن لهؤلاء أن يتلذموا الزراعة لقاء أجر ، ويتلذموا في الوقت ذاته العادات والتقاليد الإسلامية والتركية.⁽¹⁾

وإذا نظرنا إلى ظروف الفتح الإسلامي العثماني للمدن البيزنطية ، نجد أن عدداً كبيراً من الأطفال فقدوا آباءهم وأمهاتهم وأسرهم لموتهم في المعارك التي صاحبت الفتح ، أو أثناء هروب الأسر من مدينة إلى أخرى- كما ذكر سابقاً - فضلاً عن أن كثيراً من العائلات المسيحية تعرضت لخطر الهالك جوعاً ، وهذا الأمر يصاحب كل ضم ، وبالتالي بقي أولئك الأطفال مشردين في الطرقات يتامى بلا مأوى أو مكان يسترهم ، فسعت الدولة العثمانية لاحتضان هؤلاء الأطفال ، وتأمين مستقبل كريم لهم ، ولا يتوفّر هذا المستقبل إلا في ظل الإسلام .⁽²⁾ ولو لا الله سبحانه ثم الدولة العثمانية ل تعرض الأطفال للهالك أو الانحراف .

وبناءً على ذلك يتضح أن فكرة تجميع الأطفال المشردين وأسرى الحرب من المعارك ، كانت فكرة السلطان أورخان من البداية ولم يرد ذكر قرا رستم أو قرا خليل جندره لي ، وقد بدأ جمع الأطفال فعلاً في عهد أورخان ، لكنها تبلورت وأخذت الشكل المنظم مع

(5) بنجيك : تحريف الكلمة بينج بك الفارسية التي تعني الخمس ، وقد اصطلاح العثمانيون على استخدامها للدلالة على خمس الأسرى المأخوذين من الحرب وتسجيлем في أوحاق المستجدين بموجب القانون الخاص به ، ليتحقّقوا بخدمة الدولة العثمانية بعد تدريبهم . انظر . سهيل صابان : المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية ، مراجعة : عبد الرزاق محمد برگات ، ط 1 ، الرياض : مكتبة الملك فهد الوطنية ، 1421هـ / 2000م ، ص 66 .

(1) أبو الفاروق : تاريخ أبو الفاروق - تاريخ عثمانية ، ط 1 ، مطبعة أموي ، 1329هـ ، ج 1 ، ص 71 . Nesri : Tarih, I, S197 . 199 .

(2) زياد أبو غنيمه : جوانب مضيئة في تاريخ الأتراك العثمانيون ، ص 128 ، 129 . عمر عبد العزيز عمر : محاضرات في تاريخ الشعوب الإسلامية في العصر الحديث ، د. ط ، الإسكندرية : دار المعرفة الجامعية ، 1999م ، ص 38 .

صدور قانون بنجيك في عهد السلطان مراد ، ومن هنا جاء خلط المستشرقين بين أطفال الدوشرمة وتأسيس الانكشارية .

أما عن مسألة حُمس الغنائم فهي قبل أن تكون قانوناً في عهد السلطان مراد، كانت تشرعياً إلهياً من رب السموات والأرض للحاكم في الإسلام لقوله تعالى : « وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ خُمُسُهُ وَلِرَسُولِ اللَّهِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنِ السَّبِيلِ »⁽³⁾

إن تفسير الآية واضح وصريح ، حيث أن المفسرين أجمعوا على أن الغنيمة تقسم خمسة أقسام ، القسم الأول يقسم إلى خمسة أسماء ، الأول للرسول ﷺ ، والثمن الثاني الذي القربى ، والثالث لليتامى ، والثمن الرابع للمساكين ، والثمن الخامس لابن السبيل ، وبباقي الغنيمة تقسم على الغانمين.⁽⁴⁾

وعليه فإن نصيب السلطان العثماني سهم من الخمسة أقسام الأولى ، وهو بالمقارنة بحجم الغنيمة يكون قليلاً جداً وليس بالضرورة أن يكون أطفالاً صغاراً، أو أن نصيبه أسرى حرب فقط ، فمن الجائز أن يكون متاعاً أو أسلحة أو أموالاً أو حتى مواشي ، مما يؤكد أن مسألة أسرى الحرب وإطلاق لفظ إتاوة على قانون البينجك هي محض افتراط دون الاستناد إلى واقع صحيح.⁽¹⁾

ويتحلى هنا بوضوح أسلوب المستشرقين إذ أنهم يعتمدون على حدث أو لفظ صحيح في البداية ثم تبدأ صياغة الحدث وفق هواهم المريض وأغراض تشويههم ، حيث ذكروا كلمة بینجک وأسرى الحرب لكن شرحهم للحدث خاطئ تماماً ومخالف للواقع على الرغم من اعتمادهم على ألفاظ صحيحة .

وإذا ما سلمنا بأن السلطان العثماني استفاد من الأسرى في جيش الانكشارية ، فغالباً الأسرى يكونوا رجالاً كباراً لا يستطيع السلطان العثماني تغيير دينهم وجعلهم يحملون السلاح للمحاربة في جيش المسلمين ، إذ إنه لا يجوز لغير المسلم حمل السلاح والدفاع عن الإسلام والجهاد في سبيله ؛ فهذا ضدان لا يجتمعان .

⁽³⁾ سورة الأنفال آية : 41 .

⁽⁴⁾ محمد علي الصابوني : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 506 .

⁽¹⁾ أمانى جعفر الغازى : مرجع سابق ، ص 122 .

أما الأسرى الأطفال فأعدادهم ليست كثيرة ، وعدهم أقل من المعتاد دائمًا، لذا من غير المعقول أن يعتمد السلطان أورخان على أطفال أسرى الحرب فهم قلة – كما سبق أن ذكرنا – أما الأسرى الكبار فهم الذين لا يستطيعون حمل السلاح للذود عن الإسلام .

ومنذ عهد السلطان أورخان ونحن نجد أن أغلب المدن البيزنطية فتحت سلميًّا ، إما بسبب إسلام أهلها أو فرار حاميتها وحاكمها ، فيحكمهم العثمانيون بالعدل والمساواة ، فيسلم أكثر أهلها والباقي يدفع الجزية ، أما المدن التي تختر الحرب ، فيفتحها الله عليهم بعد قتال . والشاهد من هذا أنه لا يوجد أسرى دائمًا ، كما أنه من سياسة عثمان وأورخان عدم أخذ أسرى الحرب ، وإذا وُجد فإن العلماء يتعهدونهم بال التربية الإسلامية . أو يتم عقد مهادنة بين الطرفين يتم على إثرها تبادل الأسرى.⁽²⁾

ولكن هذا الوضع اختلف مع زيادة الفتوحات العثمانية في بلاد الروملي وزيادة تدفق الأسرى بأعداد وفيرة إلى العاصمة .⁽¹⁾ وإذا لم يتم تبادل الأسرى فإن هؤلاء يبقوا في العاصمة ، مما أدى إلى إيجاد فكرة الاستفادة منهم في الزراعة أو الصناعة ، ومن يكون سنه مناسبًا يؤخذ لينضم إلى صفوف الانكشارية.

ولذلك من الخطأ أن نعتمد على قول مادة دوشرمة من أن أسرى الحرب هم قوام الانكشارية بموجب إتاوة "البينجك" وذلك لما اتضح سابقاً من أنه ليس جميعهم يذهبون إلى الانكشارية ، أو إلى الدوشرمة . فضلاً عن الأطفال المشردين الذين يعيشون دون مأوى كان عددهم أخذًا في التزايد مع زيادة الفتوحات ، وهؤلاء مسؤولون من الحاكم الإسلامي ، وهو السلطان العثماني فمن الطبيعي أن يبحث عن حل للاستفادة منهم وتربيتهم على النهج الإسلامي .

إن مسألة أسرى الحرب قد ناقها الإسلام كثيراً ، وذهبها من الشوائب والزوابئ تهذيباً لم تسبقه إليه شريعة من الشرائع أو قانون من القوانين ، بل وضع للرق والاسترافق شروطاً وواجباتٍ ، فمثلاً جعل من مصارف الزكاة إنفاقها في الرقاب ، أي فك الأسر ، ويحسب له من الفيء والغنيمة حق غيرهم من الجنود ، وتحث المسلمين على قبول فدية الأسير أو من

⁽²⁾ زياد أبو غنيمة : جوانب مضيئة في تاريخ الأتراك العثمانيين ، ص 134 ، 135 . كامل باشا : التاريخ السياسي للدولة العلية العثمانية منذ تأسيسها وحتى الفترة الأخيرة للسلطان عبد الحميد ، ج 1 ، د. ط ، إسطنبول : مطبعة إحسان ، 1324هـ ، ص 13 .

⁽¹⁾ أحمد زين دحلان : الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية ، ج 2 ، ط 1 ، بيروت : دار صادر ، 1417هـ ، ص 120 .

أوليائه لقوله تعالى : « وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَا تُبْوِهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَأَنَّوْهُمْ مِنْ مَالٍ
اللهُ الَّذِي أَتَكُمْ » (2)

وَجَعَلْ عَنْ الرِّقْبَةِ كُفَّارَ لَكِثَرٍ مِّنَ الْمَعَاصِي ، (3) وَسَارَتِ الدُّولَةِ العُمَانِيَّةِ عَلَى
هَذَا النَّهَجِ وَعَقَدَتِ الْهَدْنَ وَالْاِتْفَاقِيَّاتِ لِتَبَادُلِ الْأَسْرَى وَفَكِ أَسْرَاهَا ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي كَانَ
الْدُولَ الْأُورُوبِيَّةُ لَا تَشْغُلُ نَفْسَهَا بِرَجَالِهَا الْمَأْسُورِينَ ، حِيثُ يَبْقَى أَسِيرُهُمْ فِي الرِّقِ حَتَّى
يَفْتَدِي نَفْسَهُ .

ثم حاول المستشرق مورتمان في مادته دوشرمة إقحام إسم السلطان مراد الثاني في مسألة جمع الأطفال وإحياء سنة مهملة .⁽⁴⁾

إن السلطان مراد كما هو معروف اشتهر بنشاطه العسكري وحذكته السياسية واستقامته ، مما ميز عهده بكثرة الفتوحات العثمانية وتدفق الأسرى عليه من جميع الجهات ، مما جعل المستشرقين يلصقون به تهمة إحياء سنة كانت قد اضمحلت مع مرور الوقت وضعف الإمبراطورية البيزنطية ^(١) ، وهو في ذلك مصر إصراراً عجيباً على نسبة فكرة تربية الأطفال تربية إسلامية صحيحة خالية من القسوة والعنف إلى الإمبراطورية البيزنطية ، ولا تستطيع الدراسة إنكار وجود هذه السنة - على حد قولهم - في الإمبراطورية البيزنطية ، لكن هذه السنة جاءت مذهبة في الدولة العثمانية خالية من القسوة ومليئة بأحكام الشريعة الإسلامية.

وصورتها الحقيقة وُجدت في القسطنطينية تحت الإمبراطورية البيزنطية التي كانت إذا غزت بلاد الإسلام سبت الأطفال فقط وربتهم على النصرانية لِيقاتُلوا المسلمين بعد ذلك ، ويوجد أكثر من دليل ، فمثلاً عندما استولى نقوّر فوكاس على حلب سبى عشرة آلاف غلام من أهلها ، ورباهم على المسيحية في دار ملكه ، حتى صاروا ضمن جنده ، وكذلك ما حدث عندما سقطت أنطاكيا عام 359هـ / 969م في يد البطريرق ميخائيل إذ سبى من أولاد

⁽²⁾ سورة النور : آية 33 .

⁽³⁾ عبد الجليل شلبي : صور استشرافية ، ط٢ ، القاهرة : دار الشروق ، 1406هـ / 1986م ، ص 358 .

⁽⁴⁾ مورتمان : مادة دوشرمة ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 9 ، ص 319 .

⁽¹⁾ أمانى، جعفر الغازى بمراجعة سابق ، ص 138 .

ال المسلمين عشرة آلاف، ورباهم على النصرانية في القسطنطينية ، فصاروا نصارى ، وجندوا في الجيوش البيزنطية.⁽²⁾

وبشكل عام كلهم كانوا أسرى حرب لكن الفارق بين العثمانيين والبيزنطيين كبير جدًا؛ فالبيزنطيون نصروهم وغيروا دينهم إلى الكفر ، أما العثمانيون فقد هدومهم إلى الإسلام والجنة.

وقد تكررت فكرة مورمان نفسها في مادة الانكشارية بقلم المستشرق كليمان هوار " ويرجح أن الذي أوحى إلى الترك أن يعززوا فرسانهم بجنود مشاة مدربين هو ما شاهدوه من فرق الجيوش البيزنطية ، وإن كانت في ذلك الحين قد فقدت مجدها القديم . ولكن الترك ساروا في جمع الجنود المشاة على طريقة تخالف الطريقة التي سار عليها غيرهم كل المخالفة حتى كان نظام الجنود الانكشارية لا نظير له في التاريخ "⁽³⁾

ولكنه اعترف أن طريقة العثمانيين التي ساروا عليها في جمع الجنود خالفت كل طرق من سبقوهم ، حتى كان نظام الانكشارية لا نظير له في التاريخ .

لكن اعترافه هذا ليس إنصافاً أبداً ، فللوهله الأولى يظن القارئ أنهم أنصفوا الانكشارية بوصفها نظاماً لا نظير له في التاريخ ، لكن جملتهم هذه تُخفي من الخبرة ودس السموم والأفكار المشوهة الكثير بين الكلمات الرطبة ، وهو أسلوب من أساليب المستشرقين المتعددة والكثيرة في الكتابة عن التاريخ العثماني . وجملته مطاطية تحتمل معنيين في فهم القارئ ، الأول : أن يكون اعترافاً بالحقيقة وأنه لم يتم جمع الغلمان بالقوة والجبروت ، وإنما جمع الغلمان الذين لا مأوى لهم بسهولة ويسر ، أما المعنى الثاني : فهو المقصود ، وهو أن طريقة جمع العثمانيين للغلمان جاءت فيها من القسوة والشدة والتسلط الكبير وافقوا من سبقوهم في هذا ، لذلك جاء نظام الانكشارية لا نظير له في التاريخ .

ولكن على الجانب الآخر نجد أن روبير مانتران كتب أن السلطان العثماني إذا فتح مدينة يقوم بترحيل جزء من السكان إلى إسطانبول ، ويُدخل رجالاً كثيرين في سلك الخدمة الخاصة به أو بخدمة وزرائه .⁽¹⁾

⁽²⁾ شكيب أرسلان : مصدر سابق ، ص 59 .

⁽³⁾ كليمان هوار : مادة الانكشارية ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 3 ، ص 77 .

⁽¹⁾ روبير مانتران : تاريخ الدولة العثمانية ، ترجمة : بشير السباعي ، ط 1 ، القاهرة : دار الفكر للدراسات والنشر ، 1993م ، ج 1 ، ص 135 .

وتؤكد الأحداث التاريخية أن السلطان محمد الفاتح كان إذا فتح بلداً تخير من أهلها رجالاً أشداء أعلنوا إسلامهم لينضموا إلى صفوف الانكشارية .⁽²⁾

وهذا يعني ليس بالضرورة أن يكونوا أطفالاً وإنما رجالاً بالغين لهم الحق تماماً في الدفاع عن الإسلام والذود عنه .

ثالثاً : نقلهم لصورة مخالفة تماماً للواقع إذا شوهو بقدر الإمكان طريقة جمع الأطفال ، وتقسيمهم ، والبلاد التي يجمعوا منها .

وقد تكرر الأمر في مادتي دوشرمة - والانكشارية ومادة إيج أوغلان ، إذ كلها جاءت فيها الفريدة على نسق واحد بإختلاف تفاصيل صغيرة.

وفي مادة الانكشارية كتب كليمان هوار أن "حكومة آل عثمان كانت تفرض على الشعوب المسيحية التي تتغلب عليها جزية من الأولاد يحملونهم على الإسلام ويعلمونهم في مدارس خاصة بهم ، وظلوا يعتبرون رقيقاً للسلطان ، وكان أبناء الانكشارية يتزوجون نساء من أهل البلاد في الولايات غير المتحضرة وأبناؤهم يسمون (قول أوغلي) أي أبناء الأرقاء ، على أن مثل هذا النظام كان مخالفًا للشريعة الإسلامية التي لا تبيح للحاكم أن يرغم الذميين على أن يسترق أبناءهم ، وكان يباح إنشاء فرق الانكشارية بقانون يصدره الحاكم (العرف) غير مقيد بأحكام الشريعة".⁽¹⁾

مادة إيج أوغلان كررت الفكرة نفسها ولكن بأسلوب آخر حيث كتب هوار أيضاً " كانوا عادة من الأطفال المسيحيين الذين يسبون في الحرب أو يقدمون جزية من أوروبا وحدها ، ذلك لأن الترك كانوا لا يجمعون مثل هؤلاء الغلمان من سكان آسيا . ويختار أجملهم وأعادلهم قواماً وأكثرهم نجابة واستقامة خلق ، فتسجل أسماؤهم وأعمارهم وأوطانهم ثم يحولون إلى الإسلام ويختتنون ويعملون تعليماً منظماً تحت إشراف الخصيان أربعة عشر عاماً ".⁽²⁾

(2) أيمن أحمد العقبي : آراء المستشرق "جوزيف هامر" حول شخصية السلطان محمد الفاتح من خلال كتابه "تاريخ الدولة العثمانية" رسالة ماجستير لم تطبع ، قسم الاستشراق ، كلية الدعوة ، جامعة الإمام محمد بن سعود ، 1419هـ ، ص 37 .

(1) كليمان هوار : مادة الإنكشارية ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 3 ، ص 77 .

(2) كليمان هوار : مادة إيج أوغلان ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 3 ، ص 185 .

وفي مادة دوشرمة صور لنا المستشرق مورتمان الأمر وكأنه مشهد من فيلم سينمائي " وما إن يصدر فرمان سلطان بتجنيد الغلمن حتى يشخص ضابط الانكشارية الموكى بتتنفيذه، في صحبته عدد من السائقين (سرجوji) إلى الأحياء التي تخصص له ، ويقوم بجمع غلمن القرية الذين تتراوح أعمارهم ما بين العاشرة والخامسة عشرة ، وفقا لقائمة يعدها شيخ القرية النصارى ليتمكنوه من أن يختار أكثر الغلمن صلاحية للخدمة العسكرية".⁽³⁾

تلعبت مواد الدائرة على لفظ جزية بصورة جمع الغلمن ، وصُورتها على أنها جزية فرضتها الدولة العثمانية على الأمة المهزومة تأخذها من أبنائها ، إلا أنَّ الأدلة والبراهين على عدم صدق إِذْعائهم كثيرة ، أولها تناسي المستشرقين تماماً لترسخ الإسلام في نفوس العثمانيين ، إذ إن إسلامهم جاء في فترة مبكرة جداً على المذهب السنوي ، مما هذب أخلاقهم وأوجد فيهم حب الجهاد في سبيل الله ونشر الإسلام ، وبذلك صارت الدولة العثمانية دولة إسلامية سنية أخذت على عاتقها حماية الإسلام والمسلمين والجهاد في سبيل الله طبقاً لأحكام الشريعة الإسلامية.⁽⁴⁾

لقد تحلى السلاطين العثمانيون بكل الأخلاق الإسلامية وحاولوا قدر إمكانهم تنفيذ أحكام الشريعة الإسلامية ، لذا فمن غير المعقول أن الله ﷺ يمُنُ على السلاطين العثمانيين الفاتحين الأوائل بالنصر والفتحات الإسلامية ونشر الإسلام في أصقاع جديدة ، ثم يقابلوا هذه النعمة بفرض جزية على النصارى ليس لها أصل في الشريعة الإسلامية.

والمشروع في الإسلام أن يؤخذ من أهل الذمة جزية مادية على حسب المستوى الاقتصادي للمدينة المفتوحة حديثاً ، وذلك مقابل إقامتهم في ديار الإسلام كل عام لقوله تعالى: « حَتَّى يُعْطُوا الْجِرِيَةَ عَنْ يَدِ وَهُمْ صَاغِرُونَ »⁽¹⁾ ومن السنة النبوية الشريفة : " أن المغيرة بن شعبه قال لجند كسرى يوم نهاوند أمرنا نبينا رسول ربنا أن نقاتلكم حتى تعبدوا الله وحده أو

⁽³⁾ مورتمان : مادة دوشرمة ، دائرة المعارف الإسلامية : ج 3 ، ص 320 .

⁽⁴⁾ أمانى جعفر الغازى : مرجع سابق ، ص 115 .

⁽¹⁾ سورة التوبة ، آية 29 .

تؤدوا الجزية " وإن التزموا بدفع المبلغ المالي المقرر يحرم قتالهم والاعتداء عليهم ، وهي تؤخذ من أموال القادرين فقط ، فلا تجب مثلاً على المرأة والصبي والفقير .⁽²⁾

وإذا كان الأمر كذلك فمن باب أولى ألا يؤخذ الصبي نفسه من أهل الذمة؛ إذ لا يغلب أهل الذمة على صبيانهم ولا نسائهم سواء أكانوا أغنياء أم فقراء ، بل إن الفقراء يعُفون من أداء المقرر من الجزية تسامحاً معهم، فكيف يضع المستشرون فرية بهذا الشكل ، مع وضوح عدم صدق إدعائهم وعدم واقعية الكلام .⁽³⁾ فلو بحث القارئ عن مدى صدق معلوماتهم في الكتب قليلاً لاكتشف كمية الكذب والخداع التي صبواها على الجزية المنسوجة من خيالهم .

أضف حقيقة مهمة جداً ، أغفلها المستشرون تماماً ألا وهي أن العائلات المسيحية كانت تتسابق على تقديم ابنائها طواعية للانخراط في الديوشمة ، والدليل على ذلك أن الجيش قد زاد عدده بسرعة فائقة في أول أمره وذلك لتطوع كثير من المسيحيين أنفسهم الذين أعلنوا إسلامهم ؛ حيث وجدوا أن هذه أفضل وسيلة للتخلص من خطر الهلاك جوعاً أو بسبب اليتم ، ولم يورد أي من المستشرقين الثلاثة أي وثيقة ولو حتى واحدة تشير أو تؤيد هذا القول ، أو تدل على أن العثمانيين مارسوا أي وسيلة للضغط على الأسر المسيحية لاختطاف ابنائها ، لقد نظرت تلك الأسر للانكشارية على أنها نوع آخر للفروسيّة ، فاق فروسيّة أوروبا في العصور الوسطى ، إضافة إلى أن التسامح الديني ونظام أهل الذمة الذي طبقته الدولة العثمانية ، وعدّ جزءاً أساسياً من نظمها الإسلامية ، بهرت به أوروبا في وقت انعدمت عندهم الحرية الدينية ، بل إنَّ إقبال الأسر المسيحية على تقديم عدد كبير من ابنائها للانكشارية دفع بالسلطان أورخان إلى إصدار خط شريف بـألا يقبل منهم إلا من الابن السادس إلى الابن العاشر في الأسرة الواحدة.⁽¹⁾

وقد ذهب توماس أرنولد إلى أنه لم يكن ثمة ما يدعو القادة الذين كانوا يجمعون العدد المعين من الأبناء إلى استخدام القوة والإكراه ، ذلك أن الآباء كانوا مشتاقين في الغالب إلى

⁽²⁾ ابن أبي شيبة : مصنف ابن أبي شيبة ، د.ط ، د.م ، د.ت ، ج 13 ، ص 9 . الموفق ابن قدامة : المغني ، ج 1 ، د.ط ، بيروت: دار الكتاب العربي ، د.ت ، ص 567 .

⁽³⁾ أمانى جعفر الغازى : مرجع سابق ، ص 116 .

⁽¹⁾ أميره مداح : مرجع سابق ، ص 20 . حسين عزوzi : ملاحظات حول مسألة التسامح الديني في العهد العثماني ، ص 356 عبد اللطيف البحراوى : من خصائص تاريخ العثمانيين وحضارتهم ، مجلة الدارة ، العدد الرابع ، السنة 13 ، 1408هـ / 1988م ، ص 204 ، 205 . خلق الودينانى : مرجع سابق ، ص 95 ، 96 .

تقديم أبنائهم للدوشمة ، لأنها تهيء لهم في كثير من الأحيان حياة سعيدة وعيشة رغدة ناعمة مريحة ، وفي النهاية يعد هؤلاء الصغار هم أولاد السلطان نفسه .⁽²⁾ وكان الآباء في نهاية الأمر موقنين من أن أبناءهم سيظفرون برتبة راقية وثقافة رفيعة وأن مستقبلاً زاهراً ينتظرون عندما يتخرجون؛ إذ سيتقلدون المناصب الرفيعة ، وتحيط بهم أسباب السعادة والثراء .⁽³⁾

ويقال إن الأمر وصل إلى حد أن القرويين الفقراء كانوا يتطوعون ويلتمسون من رقيب التجنيد أخذ ابنهم بدلاً من ابن الجار .⁽⁴⁾

وهناك أمر وهو أن عادة بيع الأبناء المسيحيين أرقاء كانت معروفة ومنتشرة على نطاق واسع في ذلك الوقت ، مما جعل حركة التجنيد هذه أقل إثارة للدهشة والرفض ، ولذلك لم يكن هذا الأمر بالشيء الجديد ، وما هو إلا استمرار لنظام ساد في أوروبا في العصور الوسطى في ظل الدولة العثمانية ، حيث اعتاد الآباء والأمهات على فراق أبنائهم ، كما أن كثرة الحروب الطاحنة في أوروبا وما تخلفه وراءها من دمار ، إضافة إلى انتشار الأمراض القاتلة والأوبئة الفتاكـة ، ساعد على دعم هذا الإحساس في نفوس الأهالي .⁽⁵⁾

ويؤكد كريزي أنه لم يرد أي حـدث يـدلـلـ على حدوث إـكـراهـ لـلـأـسـرـ المـسـيـحـيـةـ عـلـىـ تـقـديـمـ أـبـنـائـهـ ، بل إنـ الـآـبـاءـ أـنـفـسـهـمـ كـانـواـ يـسـعـونـ لـإـلـاـحـاقـ أـبـنـائـهـمـ فـيـ الـانـكـشـارـيـةـ .⁽⁶⁾

وللدراسة ملاحظة مهمة ، وهي أن هؤلاء الأطفال كانت أعمارهم تتراوح ما بين التاسعة والخامسة عشر ، فهل من المعقول أن ينسى هؤلاء أسرهم وهم في هذه الأعمار الناضجة ، ولنفترض أنه أكره على البقاء والتدريب العسكري فكيف ينسى قريته ورفاقه؟ لا يوجد لدى المستشرقين رد على ذلك خاصة أنه لا توجد حادثة واحدة على الأقل تدل على أن الغلام الذي حرم من أهله صغيراً عاد إليهم كبيراً ، أو أنه ساعد أهله وأرسل لهم معونة ، أو حتى ساعد أهل قريته أو قدم لهم خدمات مميزة ، خاصة أن بعض هؤلاء الغلمان قد تولوا مناصب عالية مرموقة بدءاً بالمراتب العسكرية ومروراً بالوزارة ومنصب الصدر الأعظم وانتهاءً بمناصب الولاية في الأقاليم ، ولم يثبت في المصادر والمراجع التاريخية أنه قامت

⁽²⁾ حسين عزوzi : ملاحظات حول مسألة التسامح الديني ، ص 356 .

⁽³⁾ عمر عبد العزيز عمر : مرجع سابق ، ص 39 .

⁽⁴⁾ حسين عزوzi : ملاحظات حول مسألة التسامح الديني في العهد العثماني ، ص 357 .

⁽⁵⁾ أمانى جعفر الغازى : مرجع سابق ، ص 117 ، عمر عبد العزيز عمر : مرجع سابق ، ص 38 ، 39 .

⁽⁶⁾ محمد عبد اللطيف البحراوى : حركة الإصلاح العثماني في عصر محمود الثاني ، ط 1 ، القاهرة : 1398هـ / 1978م ، ص 51 نقاً عن كريزي .

ثورة أو تمرد أو قُدُّم طلب للدولة العثمانية من الأسر المسيحية القروية يتضمن احتجاجاً على انتزاع الأطفال ويطالب بإلغاء ذلك ، كما أنه في بعض الأحيان يكون الغلام تجاوز العاشرة وهذا سن يستطيع فيه الطفل مقاومة آخذه أو حتى الهرب منهم بعد ذلك .

ثم لماذا تحمل الدولة العثمانية عناء انتزاع الأطفال المسيحيين وتربيتهم والصرف عليهم مادياً ، بل القيام بتنظيم بعثات دورية يصطحبها عدد من السائقين (سروجي) والحراس حتى يشنوا حملة شعواء على أطفال القرى المسيحية ويروّعوا الآمنين وينتزعوا الأطفال من أحضان أسرهم ؟! الإجابة أنه لا يوجد سبب عقلي لجعل الدولة العثمانية تحمل هذا العناء ، إن انتظار أطفال صغار حتى يكبروا ويستطيعوا حمل السلاح لهو انتظار سنوات طويلة ، فما الداعي لها طالما أنه يوجد أطفال المسلمين الذين تربوا أصلاً على تعاليم الدين الإسلامي ، والجهاد في سبيل الله وإعلاء رأية الإسلام .

وتوجد وثيقة تدعم أن المسألة كانت مجرد جمع جنود قادرين على حمل السلاح وإرسالهم إلى أدرنة للانخراط في سلك الانكشارية ، وذلك في إطار التجنيد الإجباري المتبعة في أغلب دول الإسلام عبر التاريخ ، وليس انتزاع الأبناء المسيحيين من ذويهم .⁽¹⁾

وهذا يدل بوضوح على أن عملية الانتزاع لم تتم أصلاً ، وإن تمت فلم تكن بتلك القسوة التي تحدثت عنها مواد الدائرة .

أما بالنسبة لتقسيمهم بناء على جمال الوجوه واعتداł القوام وظهور علامات الفطنة والذكاء فهذا أمر طبيعي جداً ؛ لأنه ليس كل الأطفال الأيتام يتم إلحاقة بالانكشارية ، المناسب وغير المناسب ، كما أنه لابد وأن يُنقَّى من هؤلاء الأطفال من يرشح ليعمل في سرائي القصر ، والذين لابد أن يكونوا على قدر من الذكاء والوسامة ؛ لأن من سيخرج منهم من المدرسة الخاصة سيصل إلى أعلى مناصب الدولة كالوزراء والصدور العظام ، وكانوا جميعاً يخضعون للتدريب ، رغم صرامته ، إلا أنه اتسم بالإنسانية ، والغاية من تلك الصرامة خلق رجال شجاعان على قدرِ من الكفاءة والتميز ، حتى أن السلطان سليمان القانوني 926هـ - 1566م كان يتفقد أطفال مدرسة القصر ليلاً ليطمئن على أحوالهم بنفسه⁽¹⁾

⁽¹⁾ وثيقة 8265 أرشيف رئاسة الوزراء بإسطنبول. خط همايوني 011011 نقلًّا عن أمانى جعفر الغازى: مرجع سابق ، ص139.

⁽¹⁾ أمانى جعفر الغازى: مرجع سابق ، ص 55-56 .

أما عن مسألة أن الانكشارية كانوا يتزوجون من نساء أهل البلاد في الولايات غير المتحضرة ، ويطلق على أبنائهم أبناء الأرقاء فإنَّ الخداع والتزيف واضح تماماً ؛ لأنَّه من المعروف بين كل المؤرخين والمستشرقين وثبت تاريخياً أن أحد أهم القوانين الخاصة بالانكشارية هي عدم زواجهم مطلقاً ، فمن أين جاء كليمان هوار بهذه المعلومة الغربية والشاذة ، إنَّ السلاطين الأوائل لم يسمحوا بزواج الانكشارية وذلك خوفاً من نمو الروابط الأسرية التي قد تؤدي إلى تقاعسهم عن الجهاد ، وتجعلهم يعيشون خارج ثكناتهم العسكرية . وهذه الحقيقة أكدتها جميع الكتب والمخطوطات ، فكيف يتزوجون بل وينجذبون أبناء يسمون **أبناء الأرقاء؟!**

سبق وأوضحت الدراسة أنَّهم لم يكونوا أرقاء ولا مرتفقة فكيف يطلق على أبنائهم أبناء الأرقاء؟! إنَّ أي مراجع لتاريخ الانكشارية يكتشف أنَّ أغلب ثوراتهم وتمرداتهم كانت طلب زيادة الأعطيات والرواتب ، فكيف يكونوا أرقاء؟! إنَّ كليمان هوار قد وقع في افتراء مفتوح ولا يخفى على دارس التاريخ .

وللدراسة تعليق على عدم السماح للانكشارية بالزواج ، فهذا قرار ليس من أحكام الشريعة بشيء ؛ لأنَّه عندنا دليل في التاريخ الإسلامي وهو صحابة الرسول ﷺ حيث كانوا متزوجين ولديهم أبناء ولكن ذلك لم يثبُّت عن حبِّ الجهاد والاستشهاد في سبيل الله . وعليه فإنَّ هذا القانون يعد العيب الوحيد في الانكشارية لأنَّه ينافي الفطرة الإنسانية التي جبل الناس عليها .

وأخيراً خاص المستشرقون في مسألة فقهية واضحة في الشريعة الإسلامية، ولا تغفل عن أي مؤرخ أو مجرد مسلم عادي ألا وهي إكراه الأطفال على الإسلام، إنَّ حكم الإسلام في هذا الأمر واضح وصريح لا غبار عليه لقوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشُدُ مِنَ الْغَيْرِ﴾⁽¹⁾

وهذه قاعدة شرعية ثابتة ، وهي من مبادئ الإسلام ، ومبادئ السلاطين العثمانيين المسلمين كذلك ؛ إذ لا يجوز إجبار أحدٍ أو إكراهه على دخول الإسلام ؛ فالدين يرفض هذا الأمر رفضاً تاماً ، واتضح هذا الأمر في الآية الكريمة السابقة الذكر.⁽²⁾

⁽¹⁾ سورة البقرة : آية 256 .

⁽²⁾ محمد علي الصابوني : مصدر سابق ، ج 1 ، ص 163 .

وإذا كان الإسلام يمنع الإكراه على الإسلام فكيف يسوّغ أن يسمح بانتزاع الأطفال من أحضان أسرهم ، كما أن الإسلام يحرض على تنشئة الأطفال في كنف أسرهم وتوفير البيئة النفسية الملائمة لنموهم الصحي .⁽³⁾

ولا يمكن إكراه إنسان على اعتقاد شيء وترسيخه في قلبه الذي يمتلكه بين ضلوعه ، خاصة وأنه تجاوز العاشرة ووصل إلى الخامسة عشرة من العمر ، فهذا يعني أن المسيحية متأصلة في نفسه ، فهل يعقل أن ينسى تعاليم ديانته الأولى ويعتقد ديانة أخرى ، بل ويحمل السلاح ليدافع عنها ضد أبناء دينه ؟ إن ذلك أمر يصعب تصديقه ، وقد أورد المستشرقون المعلومة تلك دون سندٍ تاريخي أو حتى تفكير في أنه من الممكن أن يستوعبها ذهن قارئ عادي .

إنه لأمر واضح تماماً فكذبهم وافترائهم وخبثهم المتجلّي في هذه المعلومة لا يمكن تصديقها ، حتى إنهم أوردوا ذلك بين السطور ؛ لكي لا يتتبّع لها القارئ ، وتمر عليه كأمر حقيقي واقعي .

ثم إن إرغام شاب في الخامسة عشرة على تغيير معتقده واعتباشه للإسلام لهو مسألة صعبة ، لأنه من الممكن أن يتظاهر بالإيمان ، ولكن يظل في قراره نفسه رافضاً له ، وراغباً في الانضمام إلى صفوف الأعداء ، ليحارب ضد العثمانيين؛ لأنّه يحدّد عليهم ويكره دينهم ، لأنّه أكره على اعتباشه ، لكن ذلك لم يحدث قط ، وإن حدث ذلك كانت أفلام المستشرقين الحادة أول من أبدع في الكتابة عن هذه الأحداث . بل على العكس تماماً كان الجندي الانكشاري يحلم بالشهادة دائمًا ، ويرى جنات ربه وهو يتلوى محترقاً تحت سيل من الزيت المغلي الذي تصبه قوات الأعداء المدافعة عن الأسوار ، وإذا انفتحت ثغرة في تلك الأسوار كانت الأصوات ترتفع بتکبير يتردد في المعسكر العثماني وكأنه زلزال الحشر ، وبروح فدائمة حقة كانت القوات العثمانية تريد كسب الانتصار أو الاستشهاد في سبيل الله .⁽¹⁾

لقد أعلن الجنود الانكشاريين الإسلام بمحض إرادتهم ولم يفرض عليهم ، وقد حسن إسلامهم وكانوا أثناء القتال يتوقون إلى الشهادة ، ويندفعون في القتال لينالوها ؛ وذلك لأنّهم اقتنعوا منذ صغرهم بمبادئ الجهاد الإسلامي ، وقابلوا القتال بقوة وعزم وثقة بالنصر .

⁽³⁾ زياد أبو غنيمة : جوانب مضيئة في تاريخ الأتراك العثمانيين ، ص 128 .

⁽¹⁾ عبد العزيز نوار : تاريخ الشعوب الإسلامية العصر الحديث ، د. ط ، القاهرة : دار الفكر العربي ، 1419هـ / 1998م ، ص 13 .

أكَد كرامرْز في مادة الترَك على مسألة إِكراه الأطفال النصارى على الدخول في الإسلام ، على الرغم من أن سياسة الدولة العثمانية قد جرت على التسامح الديني مع اليهود والنصارى .⁽²⁾ إلا أنهم أصرُوا على رأيهم على الرغم من أن الدلائل التاريخية توضح أن الانكشارية كانوا كثلاً واحداً تشعر بواجبها الإسلامي وبالمهمة التي أعدُوا من أجلها ألا وهي الجهاد في سبيل الله ، السيف سلاحهم ، ودعوة الحق شعارهم ، يذهبون إلى ساحات القتال وهم يحملون أرواحهم على أكفهم ، إما غازٍ وإما شهيد ، وقبل دخولهم أي معركة كانوا يتظاهرون ويصلون ، ويطيلون السجود في صلاتهم خشوعاً لبارئهم واستعداداً للشهادة .⁽³⁾

إن ملوك الفرس اعترفوا بشجاعة الانكشارية ، والدليل أنه أثناء حرب الدولة العثمانية مع بلاد فارس كان القادة يسألون عيونهم وجواسيسهم عن الجنود الذين يکثرون السجود ، وهم بذلك يقصدون الانكشارية .⁽⁴⁾

وعليه فإن الانكشارية حسن إسلامهم واقتعوا به ودافعوا عنه ، بل ووصلوا إلى تمني الشهادة في سبيل الله ، فكيف يكتب المستشرقون أنهم أكرهوا على الإسلام ونصدّقهم ، لو أنهم أسلموا بالإِكراه دون افتتاح لوجدهنا صورة الانكشارية تغيرت تماماً في كتب التاريخ وأقلّها أنهم لن يحققوا أعظم الانتصارات في التاريخ العثماني .

والصبي إذا لم يكن له والدان أو كانا غير معلومين فإنَّ التبعية في الدين تنتقل إلى تبعية الدار ، (أي البلد) وبما أن كثيراً من الصبيان لم يكونوا على علم بأبائهم فإنَّ التبعية تكون للدولة العثمانية المسلمة صاحبة الدار ، وكذلك إن انتقل الصبي من دار أخرى إلى دار الإسلام بسبب الحروب التي كانت سائدة في ذلك الوقت ، فإنَّ الصبي يتبع الإسلام ، فهو مسلم بالتبعية لانتقاله إلى دار الإسلام .⁽¹⁾

ويتضح من هذا أنه لا يوجد حكم شرعي في الإسلام يوجب الإسلام على الأطفال بالإِكراه ، وليس من المعقول أن السلطان أورخان المتدين التقى يوجب الإسلام بالإِكراه على الأطفال لمجرد أنه حصل عليهم ، وقد كان معروفاً أيضاً عن أخيه علاء الدين العلم الواسع

⁽²⁾ كرامرْز : مادة الترَك ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 5 ، ص 174 .

⁽³⁾ ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ط 2 ، بيروت : دار العلم للملايين ، 1960م ، ص 17 . خلف الوزيناني : مرجع سابق ، ص 96 .

⁽⁴⁾ أحمد جودت : تاريخ جودت ، تحقيق : عبد للطيف محمد الحميد ، ط 1 ، لبنان : مؤسسة الرسالة ، 1420هـ / 1999م ، ص 195 .

⁽¹⁾ الكاساني الحنفي : بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ، ط 1 ، بيروت : دار الكتاب العربي ، 1402هـ ، ج 7 ، ص 104 .

بالشريعة والتعفف عن الدنيا وزينتها ، فكيف يشير أو يوافق لأخيه أورخان على شيء مخالف للشريعة الإسلامية؟ !⁽²⁾

ثم ما العبرة في أن الدولة العثمانية تجمع هؤلاء الغلمان من أوروبا وحدها دون آسيا؟ لا يوجد مصدر يوثق هذه المعلومة وقد جُمع الأطفال المشردون واليتامى من أوروبا؛ وذلك لأن الفتوحات العثمانية كانت تدور في شرق أوروبا ، ولأنَّ أغلب مناطق آسيا التي دخلت تحت الحكم العثماني دخلت سلماً فلم ينبع عن الضم أطفال يتامى بلا مأوى ، لهذه الأسباب جمعت الدولة العثمانية هؤلاء الغلمان من أوروبا وحدها دون آسيا .⁽³⁾

وأخيراً فإن فكرة نظام الانكشارية في أساسها عبارة عن مؤسسة تقوم بتربيه الأطفال وتدريبهم تدريباً عسكرياً وتعلمهم الدين الإسلامي ، وهو ليس نظاماً قهرياً استبداً - كما صوره المستشرقون - ولا أدلة للتحول القسري للإسلام . ولم يكن جنود الانكشارية مرتفقة أبداً ؛ لأنهم - ببساطة شديدة - كانوا ينالون رواتب وأعطيات .

ولهذه الدراسة الحق في التساؤل من أين استقى هؤلاء المستشرقون روایتهم؟ فهم لم يذكروا مصادرهم أو الوثائق التي اعتمدوا عليها ، كما أنه لم ترد معلومات عن الانكشارية في المخطوطات العثمانية -كما ذكروها- فمن أين لفقوا هذه التهمة الخطيرة لسلطان الدولة العثمانية؟! ثم أليس ذلك من مقتضيات البحث العلمي؟! لقد حملت التهمة بين طياتها دليل بطلانها ؛ لأنها لم توثق علمياً ، وافتقدت للتوثيق التاريخي ، وافتقد المستشرقون أول سمة للمؤرخ وهي الأمانة العلمية .

وبناءً عليه نكتشف حقيقة مهمة هي عدم استناد المستشرقين إلى أيٌّ سند تاريخي أو مصدر أو وثيقة أو مخطوطة وإنما يتولد لدى القارئ الوعي إحساس بأن ذلك من تأليف المستشرق نفسه ، وفي نهاية الأمر لا نجد مصدرًا موثوقاً يعتمد عليه للجزم بصحة الفريدة .

والغريب في الأمر أن المؤرخين المسلمين اعتمدوا على المستشرقين في نقل هذه الفريدة والتشويه ، ولم يكُلُّفوا أنفسهم عناء البحث عن مدى صحتها أو مصدرها ، بل عدّها بعضهم أمراً مسلماً .

⁽²⁾ زياد أبو غنيمة : جوانب مضيئة في تاريخ الأتراك العثمانيين ، ص 144 – 153 .

⁽³⁾ كليمان هوار : مادة أيج أوغلان ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 3 ، ص 185 .

وإذا دققنا النظر في أنظمة الجيوش في التاريخ ، نكتشف أن العثمانيين ليسوا مبتدعين ، أي أنهم لم يبتدعوا أو يأتوا بشيء غير مألوف في ذلك الوقت أو حتى مخالف للشريعة الإسلامية أو العرف والتقاليد ، وذلك حينما أنشأوا جيش الانكشارية ؛ إذ إنَّ فكرة إيجاد جيش محترف فكرة عسكرية عصرية ، مارستها كل شعوب العالم .⁽¹⁾

وخير مثال على ذلك جيش إسبرطة عند الإغريق ، ومن اللافت أنَّ أنظمته مماثلة تماماً لما صاغه المستشرقون في فريتهم على الانكشارية ، وكأنهم أخذوا نظام جيش إسبرطة ونسبوه للعثمانيين بكل ما فيه، ولغوا نظام الانكشارية الصحيح وفيه يُفصل الطفل عن أهله وذويه منذ السابعة من العمر ، ويربَّى من قبل الدولة في ثكنات عسكرية خاصة ، ويقسم الصبيان إلى مجموعات تحت إشراف مدرب ، وبذلك تقطع أواصر الصلة والمحبة بينهم وبين أسرهم نهائياً ، ويتم تدريبهم بمنتهى القسوة ، مفتقدين لأبسط المعاني الإنسانية؛ حتى يشبوا على القسوة والجبروت ، ويصبحون جنوداً أقوىاء - في نظرهم - للدفاع عن إسبرطة .⁽²⁾

وفي الواقع من الغريب جداً أن يهاجم المستشرقون نظام الانكشارية ، بل وينسبون له الافتراءات ، دون أن يأتوا على ذكر نظام إسبرطة أو حتى الإشارة إليه ، وكأنه لم يكن موجوداً أبداً .

ولماذا نذهب بعيداً ، ففي كتب التاريخ الحديث الأمثلة كثيرة ، فنجد مثلاً أن بلاد المستشرقين أنفسهم ، سيرت جيواً من أبناء المستعمرات ليحاربوا الأعداء ، ولو لا جيوش المستعمرات الإنجليزية والفرنسية لما استطاعت هذه الدول الصمود أمام الدولة العثمانية ؛ إذ ساق الإنجليز جيواً من الهند وغيرها من المستعمرات لخوض المعارك ، أما فرنسا فقد كانت مقدمة جيشه من المغاربة والجزائريين وإفريقيا السوداء ، وبالطبع هم من يتلقى الصدمة الأولى .⁽¹⁾

ولم يذكر المستشرقون - للأسف - في موادهم أي شيء عن دورهم الناصع في الفتوحات الإسلامية العثمانية ، ونشر الإسلام ، وكيف تدرجوا في المناصب حتى استطاعوا

⁽¹⁾ محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص 768 .

⁽²⁾ محمد كامل عياد : تاريخ اليونان ، ج 1 ، ط 3 ، دمشق : دار الفكر ، 1993 / 1414هـ - 189 - 186 .

⁽¹⁾ محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص 769 .

أن يخطوا في أحيان كثيرة تاريخ الدولة العثمانية ، وانحصر دورهم في بث أفكار مشوهة هم - أصلاً - واضعواها ، وكذلك قيامهم بالتمردات والثورات ضد السلاطين ، وللأسف فقد صدقوا في هذه النقطة وصوّروا تلك الثورات والتمردات بدقة متناهية. وكأن حياتهم دائماً هكذا ، بالإضافة إلى وضوح تقسيماتهم وأنظمة حياتهم الداخلية ، وأنواع أسلحتهم المستخدمة .

وإذا كان المستشركون قد نقدوا هذا النظام ، ورقت قلوبهم الحادة على الإسلام لهؤلاء الأطفال اليتامي ، فإنه لا يصل مطلقاً لما قامت بهمحاكم التفتيش ضد مسلمي الأندلس من تعذيب واضطهاد وتخيير ما بين النصرانية والموت ، أو ما فعلته دول المستشركون أنفسهم بالزنوج الأفارقة في عهد الاسترقاق المروع ، أو تخريب الدول الاستعمارية بالبلاد المستعمرة مثل مصر والجزائر والمغرب والشام وغيرها ، وإذا كان المستشركون قد صوروا الانكشارية بشكل سيء في دائرة المعارف الإسلامية ، فإنهم نسوا تماماً تاريخ أوروبا المليء بالخزايا والظلم، ونسوا أن هذا النظام كان مقبولاً في تلك الفترة.

أليس العثمانيون فكرة تربية الأطفال المشردين والأيتام لباساً نظامياً وشرعياً يحترم حرية الفرد ، حيث أعطته حياة كريمة وعيشة رغدة بدلاً من التشريد والضياع ، وفي الوقت نفسه لم تحرمه من ذويه ؛ لأنهم - حقيقة - ليسوا موجودين .

المبحث الثاني :

"النظم الاجتماعية" نظام الحرير أنموذجًا

يعد موضوع الحرير العثماني من أكثر موضوعات التاريخ العثماني صعوبة في البحث وجمع المعلومة الصادقة ؛ وذلك بسبب افتقاره إلى المعلومات الصحيحة من مصادر موثوقة ، بالإضافة إلى أنَّ موضوع المرأة في المجتمعات الإسلامية من أكثر النقاط المثيرة للجدل والحساسية ؛ ويعود ذلك إلى التهميش الكبير لدور المرأة المسلمة في الكتابات الإسلامية، والتركيز على الجانبين السياسي والاقتصادي في التاريخ الإسلامي عامه .

لكن هذا الإهمال من قبل المؤرخين المسلمين قابله اهتمام ملحوظ من قبل المستشرقين بالكتابة عن الحرير العثماني ، وإخراجه بالصورة التي ترضي ذوقهم حتى وإن كانت مخالفة تماماً ل الواقع التاريخي ؛ إذ يعد بالنسبة لهم من أكثر المعلومات إثارة وتشويق . كما يعد أيضاً ضرباً من الخيال ؛ لأنَّه لم يكن مسمواً لأي أحد دخول الحرير السلطاني فسجوا من وحي خيالهم المريض الكثير من الأمور .

قدَّم المستشرقون المرأة الشرقية وخاصة الحرير العثماني للمجتمعات الغربية كما يتوقعونها ، وبصورة تؤكِّد المفاهيم السابقة عنهن ، والتي تعتمد في الأصل على نماذج من نساء ليسوا من الحرير العثماني أو من عشن فيه ، وإنما يلقط المستشرق معلوماته ويستقيها من أفواه نساء عاديَّات جداً قابلهن صدفة ، بالإضافة إلى أفكار من وحي خياله ، وبيني عليها صورة المرأة في الحرير العثماني ، ثم يأتي من بعده من يعتمد عليها ، ويتسع نطاقها حتى تكاد تصبح هي الواقع والحقيقة وما عداها ضرب من الخيال . وهناك مصدر خصب للمستشرقين وهي لوح الفنانين الذين تخيلوا المرأة في الحرير العثماني ، وترجموها على لوح عالمية استقى منها المستشرقون بعد ذلك حياة الحرير العثماني .

لقد عمل الاستعمار دائمًا ومن ورائه الاستشراق على ترسيخ الصورة القديمة للمرأة في الشرق ، وذلك بربطها بصورتها في العهود السحرية ، ورفض تماماً إمكانية تغييرها أو تطورها ، والمستشرقون جميعاً مهما اختلفت مذاهبهم ينطلقون من الإيمان الثابت بالصورة الجامدة عن الشرق ، وفي إطار هذه الصورة تبقى المرأة كما هي إلى الأبد ، كائناً مسلوب الإرادة والفكر ، وهم بذلك ينكرون التطور التاريخي. ⁽¹⁾ وال الصحيح أن وضع المرأة تغير مع

⁽¹⁾ إدوارد سعيد : الإشتراك ، المفاهيم الغربية للشرق ، ص 29 ، 30 .

تقدّم الزّمن ونالت حرّيتها بالإسلام ، والصورة التي اعتمد عليها المستشرقون هي صورة المرأة في عصر معين وثقافة معينة ليست لها علاقة بالعصور الإسلامية .

في الوقت نفسه تعمد المستشرقون إغفال العديد من الكتابات المنصفة عن المرأة ، وخاصة في العهد العثماني ، ومنها على سبيل المثال أقوال اللّيدي ميرى ورثى مونتاج (1103هـ - 1688م / 1177هـ - 1762م) وهي زوجة السفير البريطاني في إسطنبول ، والتي اعترفت بأن المرأة التركية بالرغم من الحجاب واليشمك كانت تتمتع بقدر كبير من الحرية في الدولة العثمانية ، لماذا ؟ لأن لها الحق في تملك الممتلكات وإدارتها ، ولها حق الوراثة أيضًا ، وهو حق لم تحصل عليه المرأة الإنجليزية إلا في القرن العشرين⁽²⁾.

وتقّدم وثائق المحاكم الشرعية والأوقاف معلومات مهمة حول أوضاع المرأة في العصر العثماني ، وبصفة عامة فيما يتعلق بالأحوال الشخصية ، والحالة الاقتصادية للمرأة ، وهذه الوثائق تقدّم العديد من النماذج حول كيفية صيانة المرأة لأوضاع أسرتها من خلال تفهمها لطبيعة عقد الزواج في الإسلام ، فهو عقد بين طرفين يحمل وضع العديد من الشروط التي تصبح ملزمة طالما ارتضاها الطرفان .

من هنا رصدت لنا الوثائق العديد من الحالات التي اشترطت فيها الزوجة على زوجها أنه " متى تزوج عليها زوجة ثانية بأي شكل من الأشكال أو سافر أكثر من مرة في العام أو ارتحل بعيداً للتجارة ، أو ضربها ضرباً مبرحاً يترك أثراً ، فمن حقها طلب الطلاق . "

كما تقدّم لنا الوثائق معلومات مهمة حول " الخلع " وهو حق المرأة في طلب الطلاق للضرر من زوجها . فعندما تقدّم الزوجة إلى القاضي لطلب الخلع ، يرفض الزوج أحياناً ، ويطلب الزوج أن تعوضه زوجته عن الصداق وتتنازل عن النفقة ، وغالباً ما يتم النقاش حول المبلغ المطلوب في المحكمة للوصول إلى اتفاق ، وفي هذه الحالة لا يستطيع الزوج رد زوجته إلى عصمتها خلال الثلاثة أشهر التي تسمح بها الشريعة الإسلامية ، ولا يتم الوفاق فيما بينهما إلا على أساس عقد زواج جديد ، وبشروط جديدة وصادق جديد . والخلع حق

⁽²⁾ محمد عيفي : مرجع سابق ، ص 81 .

شرعى أصيل للمرأة كان مطبّقاً طيلة العصر العثماني .⁽¹⁾ فالمرأة في العهد العثماني نالت جميع حقوقها الشرعية ولم ينقص منها شيء ، وقباساً عليه الحريم العثماني .

لقد تناولت دائرة المعارف الإسلامية موضوع الحريم العثماني بشيء من الاختصار في المواد ، حيث ورد ذكرهن في ثلاثة مواد فقط ، الأولى كلمة حريم⁽²⁾ والثانية في مادة خرم سلطان⁽³⁾، وأخيراً مادة ماه بكير كوسن⁽⁴⁾.

كل مادة تناولها مستشرق مختلف ، وكلُّ يقدم آرائه على حسب خلفياته الثقافية . أما عن مادة الحريم فقد تناولت الحريم العثماني من ناحية :
أولاً : تعريف كلمة حريم وحصره في معنى مختصر جداً .
ثانياً : محاولة إثبات اختفاء السيدة الحرة المعروفة منذ القدم نظراً لعدد الزوجات والجواري.⁽⁵⁾

قدم المادة المستشرق E.D وهو لم يحرر في الدائرة مواد كثيرة ، وإنما اكتفى بعدد قليل . من أهم المواد التي كتبها (مادة حريم) التي تميز أسلوبه فيها بالاختصار الشديد والخلط بين المعلومات ، فعندما كتب عن حريم المسلمين جاءت معلوماته مبالغ فيها ، وكأنه يتحدث عن حريم القصور الأوروبية ، ولا يوجد أي ترابط بين معلومات المادة ؛ فكل معلومة من فترة زمنية مختلفة ، فضلاً عن أنه نسب المعلومات إلى مصادر خاطئة ليثبت صحة معلوماته ، وهو مستشرق مجهول لم يكتب اسمه بالكامل وكأنه دخيل على المستشرقين .

وفيما يلي نقد النقاط التي أحنت علیها مادة الحريم :

أولاً : تعريف كلمة حريم وحصره في معنى مختصر جداً .

" مصطلح يطلق على تلك الأجزاء من الدار التي يحرم الدخول إليها ، كما يطلق بالأخص على أجنة الحريم "⁽⁶⁾.

⁽¹⁾ محمد عفيفي: مرجع سابق ، ص 81 ، 82 .

⁽²⁾ E.D : Harim , the Encyclopaedia of Islam , Leiden , 1971 , III , p.209 .

⁽³⁾ هيوار : مادة خرم ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 8 ، ص 297 .

⁽⁴⁾ M.Cavid Baysun : Kosem Sultan , the Encyclopaedia of Islam , Leiden , 1991 , VT , P . 272 .

⁽⁵⁾ E.D : Harim , The Encyclopaedia of Islam , III , P. 209 .

⁽⁶⁾ E.D : Harim , The Encyclopaedia Of Islam , III , P . 209 .

والتعريف في هذه الصورة مختصر جدًا لا يعبر عن حقيقة الكلمة ، فهي كلمة يندرج تحتها الكثير من المعلومات التي تعطي الصورة الحقيقة عن الحريم بصفة عامة .

أ) المعنى العام للحريم

يشتق لفظ الحريم من كلمة الحَرَم . وحرَم الرجل ما يقابله عنه الرجل ويدافع عنه ويحميه . والحرمة ما لا يحل انتهاكم من ذمة أو حق ، وأيضاً بمعنى المرأة ، وأهل الرجل . وعليه فإنَّ معنى الحريم لغة : هو حُرْمَة فلا ينتهك . وحريم الدار هو ما أضيف إليها من حقوقها ومرافقها ، وهن ما يغلق عليهم في الدار .⁽¹⁾

وبهذا المعنى أطلق لفظ الحريم في معناه العام على الجزء المخصص من البيت الذي يعيش فيه الرجل مع أهل بيته من النساء والأبناء والقائمات على خدمتهن ، ولا يحق للأجانب من الرجال انتهاك حرمتهم ودخوله ، وهي تسمية ذات دلالة حضارية عمّا يكتنف هذا المكان من مظاهر الاحترام .⁽²⁾

ب) معنى الحريم عند العثمانيين

انتقلت كلمة الحريم بهذا المدلول الحضاري إلى العثمانيين ، وأصبحت تعني في المصطلح التاريخي العثماني واحداً من ثلاثة أقسام يتكون منها القصر ، وهذه الأقسام هي : القسم الخارجي ، والقسم الداخلي ، والحرم أي الحريم . ويعني الحريم في هذا المصطلح الجزء الخاص من القصر الذي يعيش فيه السلطان مع أهل بيته من النساء ومن يقوم على الخدمة الداخلية فيه من النساء أيضاً . وأشهر قسم للحريم العثماني هو حريم قصر " طوب قابي " ، وقد اتخذه السلاطين العثمانيين سكناً لهم ومقرًا للحكم منذ عهد السلطان سليمان القانوني 927هـ-1520م / 1566م حتى زمن السلطان عبد المجيد 1255هـ-1278هـ-1839م⁽³⁾ ، وقد أخذ الحريم عند العثمانيين عدة ألفاظ كلها تدل على الحريم العثماني .

- حرِم همايوني : هي إدارة (دائرة الحريم) : وهي إدارة مخصصة لإدارة قسم الحريم في القصر السلطاني العثماني .

⁽¹⁾ المعجم الوجيز : نخبة من العلماء ، ج 2 ، ط 1 ، القاهرة : دار الكتب العلمية ، 1401هـ / 1980م ، ص 147 . حسين محب المصري : مرجع سابق ، ص 48 .

⁽²⁾ ماجدة مخلوف : الحريم في العصر العثماني ، ط 1 ، القاهرة : دار الأفاق العربية ، 1418هـ / 1998م ، ص 10 .

⁽³⁾ ماجدة مخلوف : الحريم في العصر العثماني ، ص 10 .

- حرم آغاسي : هو الآغا الخادم الذي يُسمح له بالدخول والخروج على الحريم في قسم الحريم داخل القصر السلطاني العثماني .

- حريم : هو المكان المحترم والمصون والممنوع فيه دخول أي شخص.

- حريم خاص: هو الإداره الخاصة لإدارة قسم الحريم في بيوت كبار الذوات .⁽¹⁾

- دائرة الحريم (حريمك) أو (حريم دائرة سبي) :

حريمك : كلمة تركية مكونة من مقطعين هما :

حريم : معناها الحريم أو النساء ، وهي كلمة عربية الأصل .

لك : وهي لاحقة تركية تدخل على الاسم فتعطيه معنى المصدرية .⁽²⁾

دائرة : بمعنى إدارة الحريم أو المكان المخصص لحريم السلطان العثماني بالقصر السلطاني .

و (دائرة الحريم) أو (إدارة الحريم) ، مصطلح عُرف في التاريخ العثماني باسم (الحرم السلطاني أو الهمايوني) ، وهو القسم أو المكان الذي يشغل مكاناً في القسم الخلفي من القصر السلطاني ، ويكون موقعه على يسار المساحة الثانية في قصر أو سراي (طوب قابي) المعروف بإسطنبول ، وهو يطل على خليج البوسفور أو القرن الذهبي .

ويتكون حريم السلطان أو دائرة الحريم من عدة غرف وأجنحة وممرات وشقق ومبانٍ للخدمة ، وهو مغطى بقباب ، وقد غُلِفت جدرانه بأثمن أنواع الرخام والقيشاني ، وزُينت بأجمل أنواع الخطوط والكتابات البديعة بالإضافة إلى تزيينها بالأيات القرآنية .⁽³⁾ وهو منظومة من المباني التي تشكل الدار الخاصة لإقامة السلطان العثماني .

والحريم اصطلاح تاريخي معروف منذ القدم في العالم الإسلامي ، وقد استخدم القسم المخصص منه لإقامة النسوة وحدهن في السرايات والبيوت الكبيرة ليكون مقابلًا لقسم السلاملك . ولأنَّ (طوب قابي) سراي كان المكان الذي أقام فيه السلاطين العثمانيون ، فقد

⁽¹⁾ شمس الدين سامي : مصدر سابق ، ص 545 ، 546 . يلماز أوزتونا : مادة : (الحريم) ، موسوعة التاريخ الكبرى ، د. ط ، إسطنبول : الغروب ، د. ت ، ص 251 .

⁽²⁾ شمس الدين سامي : مصدر سابق ، ص 546 .

⁽³⁾ للتعرف على كافة النقش الكتابية الخاصة بالسراي وتاريخ عمارته ، انظر : S.H.Eldem – Feridun Akozan : Topkapi Sarayi , 53-55 .

أكمل الدين إحسان أوغلي : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 154 .

أطلقوا اسم (الحرم الهمایونی) على القسم المخصص لأفراد عائلة السلطان والنسوة اللائي يقمن على خدمته .

وسيد هذا المكان هو السلطان العثماني ، ولهذا فإنَّ تسلسل المراتب وأوضاع المباني القائمة وأثاثها والمسافات الواقعية بينها قد تحددت كلها على أساس (دائرة السلطان) . وعلى ذلك نرى أن دائرة أو دوائر إقامة والدة السلطان والخاصية (زوجاته) والأمراء والأميرات والقفالوات (المعاونين لهم من مدرسين وغيرهم) والجواري ، كل ذلك الدوائر كانت تأخذ مكانها داخل الحريم ضمن ترتيب محدد .

وينقسم المقيمون في الحريم إلى قسمين : أحدهما يُخدم ، وهم : السلطان وزوجاته وبناته وأولاده ، والقسم الآخر يقوم بالخدمة كالقفالوات والجواري وغيرهن .⁽¹⁾

وأهم ما يميز الحريم العثماني هو عدم وجود ملكة في الدولة العثمانية ، وذلك لكثره نساء السلطان مما يتذرع معها اختيار ملكة منها .⁽²⁾

وعلى هذا فإنَّ معنى الحريم ليس المكان المحرم الدخول إليه فقط ، وإنما تحوي الكلمة معاني عديدة تشير بوضوح لحياة الحريم العثماني بصفة خاصة .

ثم خاص المستشرق E.D في صورة معيشة الحريم العثماني مطلقاً عليهم، أسماء لا تتطبق عليهم مطلقاً ، وهي محظيات وأتباع وخصيان ، وهذا يظهر تماماً خلفيته الثقافية المتأثرة بالنساء في قصور ملوك أوروبا ، حيث امتلأت بالعشيقات والأطفال غير الشرعيين وما إلى ذلك من صور الفساد ، وهو بذلك يحاول قدر الإمكان طبع هذه الصورة على الحريم العثماني في قصور وسرایات الدولة العثمانية ؛ لأنَّه لا أحد من الأجانب استطاع دخول هذا المكان فكانت كتابتهم مبنية على خيال وليس على واقع .

ثانياً : محاولة إثبات اختفاء السيدة الحرة المعروفة منذ القدم نظراً لتنوع الزوجات والجواري .

"الطبقات الغنية استفادت من النصيب الشرعي من الزوجات ، واتخذته مقارن للمحظيات والأتباع والخصيان والحراس وأصبح هذا الوضع الطبيعي في المجتمع الإسلامي خلال العصور الوسطى".⁽³⁾

⁽¹⁾ يلمازا وزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج 2 ، ص 295 . يلمازا وزتونا : مادة الحريم ، موسوعة التاريخ الكبرى ، ص 252 .

⁽²⁾ حسين مجتبى المصرى : مرجع سابق ، ص 48 .

⁽³⁾ E.D : Harim , The Encyclopaedia of Islam , III , P. 209 .

إلا أن قوله هذا مجحف جدًا لحقيقة نظام الحريم العثماني ، فقد كان له نظام دقيق روعي فيه جميع نظم الشريعة الإسلامية ، مع التكفل بحماية النساء من المخاطر الخارجية ، دون الإخلال بحقوقهن الشرعية .

وقد كان مسكن زوجات السلاطين والنساء في القصر العتيق الكائن في منطقة بايزيد بإسطنبول ، حيث كان قصر طوب قابي مقرًا للسلطان وحاشيته ، ومركزًا للإدارة . ثم بنيت دائرة الحريم في ق 10هـ / 16م مع بداية انتقال خرم سلطان زوجة السلطان سليمان القانوني إلى طوب قابي سراي ، في أجمل مكان من القصر ؛ إذ يطل على البحر ، وتحيط به الحدائق التي تحتوي على أحواض للسباحة وجداول المياه . وقد بنيت هذه الدائرة من قبل أشهر المهندسين المعماريين ، وزخرفت جدرانها من قبل أشهر النقاشين والخطاطين الخزفيين ، وحليت الجدران من الداخل بالخطوط والكتابات الجميلة ، وطلبت بأنواع فاخرة من الخزف ، كما طاعت بالصدف وبالأحجار الكريمة الأخرى ، بحيث يشعر الإنسان بين هذه الجدران بالهدوء والبهجة والطمأنينة .

إن قسم الحريم في القصر السلطاني مخصص لسكن السلطان ونسائه ، والقائمات على الخدمة ، وتحيط به الأسوار العالية ، والجدران السميكه مما يحول تماماً دون تطلع أحد من الخارج إلى ما يدور بداخله ، وبذلك يصبح الحريم عالماً مستقلاً تماماً عن كل ما يدور خارجه ، وقد أعدت بداخله حدائق واسعة مزينة بكل أنواع الزهور ونافورات المياه وذلك لنزهة الحريم . ويكون قسم الحريم من عدة أجنة، كل جناح منها يسمى (دائرة) ، ويغلق على الأجنحة كلها بباب رئيس يتولى حراسته من الخارج الأغوات .

أما غرف قسم الحريم وكذلك غرفة نوم السلطان فتزينها الآيات القرآنية ، كما أن كل أبوابه تعلوها الآيات القرآنية مما يضفي على المكان كله وقاراً واحتراماً ، ولهذا القسم من القصر العثماني تنظيم دقيق يخضع له كل جواري الحريم بلا استثناء سواء كن من نساء السلطان أم من الموظفات .⁽¹⁾

لقد كانت أسرة السلطان في مركز الدائرة بالنسبة لجميع العاملات في الحريم ، وكانت تخصص عدة أجنة في قصر الحريم لسكن والدة السلطان ، وجناح مستقل لكل

⁽¹⁾ ماجدة مخلوف : الحريم في العصر العثماني ، ص11 . يلمازا ورتونا : مادة الحريم ، موسوعة التاريخ الكبير ، ص252 . Cengiz Koseoglu , Harem , Istanbul 1979 , S . 14 .

زوجة "قادين" من زوجات السلطان يطلق عليه دائرة ، وكل ذلك في شكل مبانٍ مستقلة ، وقد فرشت بأجمل الأثاث والرياش وتعددت الحجرات والقاعات فيه .⁽²⁾

أما بالنسبة لترتيب الحريم العثماني⁽¹⁾ فإنه يعتمد بصفة عامة على الترتيب الهرمي ، مثله مثل باقي التشكيلات العثمانية ، وقد روعي في هذا الترتيب تنظيم درجات ووظائف الحريم في القصر العثماني ، إذ اعتمدت كل الوظائف على الحريم فقط ؛ لأنه لا يمكن لرجل أن يخطو إلى الحريم باستثناء السلاطين وأبناء السلاطين والأمراء ، والمعلمين والأطباء . وتنقسم الجواري داخل الحريم إلى قسمين ، هما : نساء السلطان والقائمات على الخدمة والإدارة . وتأتي والدة السلطان على قمة نساء الحريم ، ثم زوجات السلطان، ثم المستوليات ، ثم المحظيات .

أما المسؤوليات عن الخدمة والإدارة فلهم سلك آخر ، تأتي على قمته كبيرة المسؤوليات عن خزينة السلطان ، ثم الرئيسيات ، ثم النائبات ، ثم المستجدات من الجواري ، وهؤلاء يمثلن قاعدة الشكل الهرمي ، وكل فئة من هذه الفئات رئيسيات ومساعدات .

أما الخدمة الخارجية لهذا القسم ، فموكلاً إلى عدد من الرجال لهم أيضاً درجات ذات ترتيب هرمي ، يطلق على الواحد منهم اسم "أغا"⁽²⁾ ، ومهمتهم تنظيم علاقة قسم الحريم بالعالم الخارجي ، ويرأس هؤلاء الأغوات "أغا البنات" (قيزلر أغاسي)⁽³⁾ ، ويعرف أيضاً

⁽²⁾ عبدالعزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 435 .

⁽¹⁾ انظر ترتيب الحريم داخل القصر السلطاني في الملاحق ص 670 .

⁽²⁾ أغا : وهو المنطقى التركى لكلمة (أغا) الفارسية وتعنى السيد ، رئيس الأسرة ، الأخ الأكبر ، وهو لقب من ألقاب التعظيم ، وليس معروفاً متى بدأ استخدام الأغوات داخل القصر في قسم الحريم ، لكن المرجح أنه منذ عهد السلطان مراد الثاني ، ويتم تربية الأغوات داخل القصر السلطاني منذ نعومة أظافرهم لإعدادهم للإعداد اللازم ثم يجري توزيعهم على القصور العثمانية ، ومن الطبيعي أن يكون مكان الأغوات خارج أبواب القصر ولا يمكنهم الدخول مطلقاً ، فمهمنهم الأساسية منع دخول أي شخص بما فيهم أنفسهم إلى داخل قصر الحريم وفتح الأبواب صباحاً وإغلاقها مساءً ، وحراسة أبوابه ، ولاحظة الداخلين والخارجين منه ، ومرافقه عربات الحريم أثناء النزهة ، ولابد أن يتوفّر فيهم الصدق والأمانة وغض البصر ، ومن يضبط وهو يختلس النظر إلى أي واحدة في الحريم فإنه يعاقب بشدة انظر :

C. agtay ulusay , Harem . Ankara 1980 S. 20 .

حسين مجتبى المصرى : مرجع سابق ، ص 18 . يلمازا وزتونا : مادة الحريم موسوعة التاريخ الكبير ، ص 252 .

⁽³⁾ "أغا البنات" "قيزلر أغاسي" : لقب وظيفي يتكون من أغا دار السعادة ، وهو أكبر موظفي القصر السلطاني ، يعمل تحت أمرته مئات من الموظفين ، عمله الأساسية تلبية احتياجات الحريم ويتأمر بأمره جميع الجواري في الحريم ، حيث يقوم بإدارتهم ، وفي الاحتفالات الرسمية يأتي بين شيخ الإسلام والوزراء ، لقد حظي باهتمام مميز من السلاطين ، ونانوا نفوذاً سياسياً وجمعوا ثروة طائلة ، ولم يكونوا كلام زنوجاً بل كانوا من أعرق الأجناس ، وعندما يتم تغيير السلطان جرت العادة أن يستأند أغا دار السعادة من السلطان ويكمّل حياته في القاهرة ومتىًّاً بين مكة والمدينة فهم متدينون كثيراً بصفة عامة ، ومنهم من له تفاصيل في العلوم والفنون ، وفي بعض الأحيان يكمّل حياته في الإشراف على أوقاف السلطانة الوالدة ، في مكة والمدينة . ولهم نظارة أوقاف

باسم "أغا دار السعادة"⁽¹⁾ (دار السعادة أغاسي)، ويتمتع بدرجة رفيعة في البروتوكول العثماني تعادل درجة الوزير في التنظيم المدني، ودرجة المشير في التنظيم العسكري، وهو المسؤول الأول عن تنظيم علاقات الحرير بخارجه.

وتتحدد مكانة الجارية عند التحاقها بالحرير، وهل ستتحقق بالخدمة والإدارة أم بالقسم الآخر من الحرير، تبعاً لعدة معايير أهمها ذكاؤها وجمالها اللذان قد يؤهلانها لأن تترقى في سلك موظفات الحرير حتى تصبح كبيرة المسؤولات عن خزينة السلطان، وقد يبتسم لها الحظ من ناحية أخرى فتصبح محظية أو مستولدة أو زوجة للسلطان، أو والدة سلطان وهي أرقى ما يمكن أن تصل إليه الجارية في الحرير.⁽²⁾

السلطانة والدة سلطان

هي الرئيسة الشرفية لقسم الحرير؛ لكن هذه الرئاسة لا تعطيها حق التدخل في النظام الخاص بالحرير، حيث أن هناك موظفات داخل الحرير وموظفين خارجه مهمتهم حفظ هذا النظام وقوانينه وتقاليد.⁽³⁾

ويطلق عليها بالتركية اسم (سلطانة والدة) La Sultane Valide، وهي أم السلطان الجالس على العرش، كما عُرفت في المصادر التاريخية بلقب (مهد علّيّي سلطنت) أي (مهد السلطنة العالى). وكان يطلق عليها في البداية اسم (خاتون) استمراراً للتقاليد السلجوقيّة⁽⁵⁾، ثم بدأت تعرف منذ القرن السادس عشر باسم (سلطانة) وحملته والدة السلطان سليمان القانوني السلطانة حفصة، ولم تحصل على لقب (والدة سلطان) من أمهاهات السلاطين العثمانيين البالغ عدهن ستة وثلاثين إلا ثلاثة وعشرون سلطانة⁽⁶⁾، أما الأمهاهات

الحرمين الشريفين وهو المشرف على الدولاب (الاسم الذي يطلق على خزانة أوقاف الحرمين)، وقد عظم نفوذه في ق 12هـ - 13هـ / 17 - 18م، وكانت رتبته تلي رتبة الصدر الأعظم وشيخ الإسلام، وكان يخاطب رسمياً في المكاتبات بـ "سيدي حضرة صاحب الدولة والغاية". مصطفى برकات : الألقاب والوظائف العثمانية ، ط 1 ، القاهرة : دار غريب ، 2000م ، ص 183 . يلمازا وزتنا : مادة الحرير موسوعة التاريخ الكبرى ، ص 252 ، 253 .

(1) "أغا دار السعادة": الاسم الأصلي لقسم الحرير في القصر العثماني هو دار السعادة، لكن غلت عليه التسمية العربية (حرملك) وصارت هي السائدة لدى العثمانيين . ماجدة مخلوف . الحرير في القصر العثماني ، ص 12 .

(2) ماجدة مخلوف : الحرير في العصر العثماني ، ص 12 ، 13 .

(3) ماجدة مخلوف : الحرير في العصر العثماني ، ص 13 .

(4) شمس الدين سامي : قاموس الأعلام ، مصدر سابق ، ص 1484 .

(5) المصدر السابق ، ص 565 .

(6) أكمل الدين أوغلي : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 155 .

الأخريات فقد توفين قبل أن يعتلي أبناؤهن العرش . وواحدة فقط أصبحت السلطانة الوالدة دون أن تكون أم السلطان وهي (بيرستو سلطان) زوجة السلطان عبد المجيد الأول وهي الأم المعنوية التي ربّت السلطان عبد الحميد الثاني .

والسلطانة الوالدة تلقب أيضاً بـ " تاج المستورات " وعلى من ترید المثول أمامها أن تغض الطرف وتحني الرأس وتضع اليدين على الصدر .⁽¹⁾

والدّة السلطان هي أكثر السيدات نفوذاً داخل السراي وأكثرهن اتصالاً بنّي في خارجه حيث تتمتع بمكانة رفيعة بين كل الحرّيم ، فكانت السلطانة التي يعتلي ابنها العرش تتنقل من السراي القديم إلى سراي طوب قابي في موكب يُعرف باسم (والدة آلاي) أي (موكب السلطانة الوالدة) ، وتصبح منذ تلك اللحظة وعلى امتداد سلطنة ابنها أوسع السيدات نفوذاً داخل الحرم الهمایوني ، وتخاطب بلقب "صاحبة الدولة" و"صاحبة العصمة" وتعيش في جناح خاص بها ، ويقوم على خدمتها عدد من الجواري⁽²⁾ ويقوم "أغا باب السعادة" بإدارة أمور السلطانة الوالدة خارج السراي⁽³⁾.

وكانت تحظى باحترام عظيم من كافة المقيمين في الحرّيم وعلى رأسهم السلطان نفسه، ومن العلماء ورجال الدولة وكبار الضباط ، ومنهن من اتجهن إلى الخوض في السياسة واستخدمن نفوذهن بما جلب الضرر على الدولة العثمانية ، ومن هذه النماذج السيئة السلطانة (نور بانو) والسلطانة (ماه بيكر كوسن)⁽⁴⁾ .

وكانت السلطانة الوالدة تتنقل إلى السراي أو القصر العتيق الكائن في منطقة بايزيد مع خادماتها في حالة وفاة السلطان أو خلعه من الحكم، حيث كانت تترك مكانها إلى والدة السلطان الجديد .⁽⁵⁾

وكان للسلطانة الوالدة إيرادات تأتيها من أماكن شتى من أنحاء الدولة العثمانية ، وهي من ريع أراضي الخاصة السلطانية التي تعرف بإسم "باشمقلق"⁽⁶⁾ ومخصصات كثيرة صيفية وشتوية . فضلاً عن أنه تصرف لها مخصصات عينية وأخرى نقدية مباشرة من دار

⁽¹⁾ حسين مجتبى المصرى : مرجع سابق ، ص48 .

⁽²⁾ أكمل الدين أوغلى : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 155 .

⁽³⁾ شمس الدين سامي : مصدر سابق ، ص 38 .

⁽⁴⁾ أكمل الدين أوغلى : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 155 .

⁽⁵⁾ Mualla Anhegger – Eyuboglu , Topkapi Sarayihde Padisah Evi (Harem) Istanbul , S . 33 .

⁽⁶⁾ شمس الدين سامي : مصدر سابق ، ص 266 .

سُك العملة ، وهن بذلك حقن ثراءً واسعًا وثروات طائلة ، ولم يقتصر هذا الثراء على السلطانة الوالدة فقط ، بل طال زوجات السلاطين وجواربهم ، وبناتهم ، فبدأن في توجيه هذه الأموال للإنفاق على المؤسسات الخيرية والأوقاف المختلفة وبناء المدارس والمساجد والأسبلة ، والمستشفيات مع تقديم العلاج المجاني والأدوية للفقراء ، كذلك أوقفن أموالهن على قراءة القرآن وتوزيع الطعام على الفقراء ، وغيرها من الأعمال الخيرية في إسطنبول وببلاد الحرمين الشريفين والقدس ، وقد شكلت الهدایا التي كن يتقينها من كافة أمراء وملوك الدول الأجنبية ومن رجالات الدولة العثمانية - هذا فضلاً عن هدايا السلطان لهن - جزءاً كبيراً من الثراء الذي حققنه .⁽¹⁾

وقد وصلت نسبة أوقاف حريم القصر السلطاني العثماني 30% من نسبة الأوقاف عامة ، حتى أنشئت نظارة خاصة لإدارة هذه الأوقاف .

ولأن أمهات السلاطين كن في الأغلب جواري ، فقد حصلن في الغالب على نصيب وافر وكافٍ من التعليم ، وكن على دراية بأصول البروتوكول العثماني.⁽²⁾

زوجات السلطان :

تسمى الواحدة منهن "قادين" وهي أعلى درجة من درجات نساء السلطان ، وأطلق عليها أيضاً "السيدة حرم السلطان" "قادين أفندي" ، وتحاطب الزوجة بلفظ "ذات العصمة" "عصمتلو" وهو لقب حفيدات السلطان نفسه.⁽³⁾

وعادة لا يزيد عدد الزوجات عن أربع ، أي لا توجد حالات طلاق إلا فيما ندر ، وهذا الترتيب ليس مبعثاً على أفضلية إداهن على الأخرى ، وإنما يدل على أقدميتها بالنسبة لزواجهما من السلطان ، وكن زوجات السلاطين في الأغلب من الجواري ، غير أن السبعة السلاطين الأوائل قد تزوجوا بحرائر ، أميرات في بعض الأحيان ، لكن منذ عهد سليم الأول بدأ السلاطين الزواج من الجواري .⁽⁴⁾

⁽¹⁾ أكمل الدين أوغلي : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 155 . للتعرف على أسماء السلطانات الوالدات وعلى الأعمال الخيرية التي قمن بها ، انظر : (الحريم السلطاني) .

Cagatay ulucay : Harem II . Ankara 1971 , S . 61 – 66 .

⁽²⁾ للتعرف على رسائل السلطانة صفية إلى الملكة إليزابيث ، انظر :

Skilliter : Three Letters from the Othoman "Sultana Safiye to Queen Elizabeth I , Oriental Studies III, Documents from Islamic chancelleries , Oxfrd 1965 . P . 119-157 .

⁽³⁾ Yilmaz Oztuna : Turk Tarihinde Yaprakar , Istanbul , 1958 , S 215 .

⁽⁴⁾ باستثناء السلطان عثمان الثاني حيث تزوج من عقبة هانم بنت شيخ الإسلام أسعد أفندي وكانت حرة انظر :

وعادةً الجارية التي يقع عليها الاختيار عند انضمامها للحريم ، حتى تصبح زوجة للسلطان أو إحدى نسائه ، فإنها لا تكلف بأي عمل في الحريم ، وتوجه العناية كلها لتربيتها وتهذيبها وتعليمها مبادئ قواعد الدين الإسلامي ، وآداب الحريم ، بالإضافة إلى تلقينها دروساً في اللغات والآداب والموسيقى .

ولم تكن زوجة السلطان في العادة تجب أكثر من ثلاثة أطفال إلا في حالات نادرة ، وتتولى بنفسها تربيتهم ، وإذا توفيت تسند المهمة إلى زوجة أخرى للسلطان تسمح ظروفها بتربيتهم وعندئذ يدعونها " الأم الثانية " ويعاملنها بنفس الحب والاحترام .⁽¹⁾ مثلاً حدث للسلطان عبد الحميد الثاني ، حيث ربته زوجة أبيه التي كانت لا تجب ، وكان يحبها حباً جماً بسبب إحسانها له وعطفها عليه .

ويصرف لكل زوجة راتباً شهرياً وكميات عينية كافية من الطعام والفاكهه ، فضلاً عن صرف المستلزمات الخاصة باستخدامهن من الصابون والشمع وغير ذلك بصفة دورية.⁽²⁾

المستولدات :

وتسمى الواحدة منهن " إقبال " وتأتي بعد الزوجات في الترتيب ولقبها " هانم " ، وليس بالضرورة أن يكون لكل سلطان مستولدات ، حيث لا نجد هؤلاء النساء إلا لدى ستة سلاطين فقط هم : أحمد الثالث ، محمود الأول ، سليم الثالث ، محمود الثاني ، عبد المجيد الأول ، عبد الحميد الثاني .

ويخضعن لنفس ترتيب الزوجات من حيث الأقدمية ، ويحق للسلطان أن يتزوج بإداهن فتصبح زوجة " قادين " وتثال جميع حقوقهن .⁽³⁾

ماجدة مخلوف : الحريم في القصر العثماني ، ص 15 . عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، د. ط ، القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، 1980 م ، ج 1 ن ص 442 .

⁽¹⁾ ماجدة مخلوف : الحريم في القصر العثماني ، ص 15 - 16 .

⁽²⁾ Cagatay ulugay , Harem , S . 54 .

⁽³⁾ Cagatay ulucay , Pudisaharim kadinlari ve kizlari , Ankara , 1980 , S , 38 .

المحظيات :

وتسمى الواحدة منهن " كوزده " وتأتي بعد المستولدة ، ويمكن للمحظية أن تترقى في المناصب حتى تصبح زوجة سلطان .⁽¹⁾

وإذا توفي السلطان تقل قاديناته إلى القصر القديم ما عدا الباش فادين إذا تولى ابنها العرش تتغير مكانتها وتصبح والدة سلطان .⁽²⁾

الأميرات بنات السلاطين :

كان يطلق عليهن بوجه عام لقب " سلطانة " ، وهو لقب كان يأتي بعد أسمائهن الخاصة ، وأصبح علمًا عليهن منذ عهد السلطان محمد الفاتح ، والملاحظ على أسماء بنات السلاطين بوجه عام أنهن يتسمين بأسماء إسلامية مثل : عائشة وفاطمة وخديجة وأمينة وزينب ورقية وأم كلثوم ، أما زوجات السلاطين فكن يحملن في الغالب أسماء فارسية مركبة يتم تغييرها من قبل السلطان في أغلب الأحيان .⁽³⁾

وانعكست بعض الأحداث المهمة في حياة الأميرات بنات السلاطين على مصادر التاريخ العثماني ، فرأتها تصف المواكب التي تقام احتفالاً بيادهن وعرفت باسم (بشيك آلاي أي موكب المهد) ، وتصف الاحتفالات الفخمة والضخمة التي كانت تقام لتجهيزهن وأعراسهن وأعمال الخير التي قمن بها ، غير أن لأعراسهن موقفاً متميزاً بين تلك الأحداث⁽⁴⁾ ، وقد قام السيد (Cagatay Ulucay) بدراسة ذلك الموضوع باستفاضة ، معتمداً في ذلك على الوثائق المحفوظة في أرشيف سراي طوب قابي⁽⁵⁾ .

وكانت الأميرة تقضي حياتها داخل دائرة الحريم السلطاني حتى تبلغ سن الزواج ، يقوم على خدمتها عدد كبير من الجواري .

⁽¹⁾ ماجدة مخلوف : الحريم في القصر العثماني ، ص 17-18 .

⁽²⁾ عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 458 .

⁽³⁾ أكمل الدين أوجلي : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 157 .

⁽⁴⁾ M.Cagatay ulucay : Padisahlarin Kadinlar , ve Kizlar , 41 – 42 .

⁽⁵⁾ لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع ، انظر :

M.Cagatay Ulucay : Padisahlarin Kadinlar , ve Kizlari . 43-46 .

ولمزيد من التفاصيل حول زواج السلطانات " بنات السلطان وإخواته " الرجوع إلى يلمازا وزتنا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج 2 ، ص 288 – 291 .

وحيثما تبلغ سن التعلم تبدأ في التحصيل الدراسي ، وكان يُعقد لها احتفال كبير ، يُعرف باسم (بدء بسمة) أي (البدء باسم الله) . ويقوم على التدريس لها أشهر المعلمات ، وفي أحيان كثيرة يحضر السلطان العثماني بنفسه بعض الدروس، وكانت الأميرة تتلقى العلوم الدينية وعلى رأسها القرآن الكريم ، بالإضافة إلى الخط والتاريخ والجغرافيا ، فضلاً عن اللغات. ولا زالت هناك بعض من رسائل الأميرات محفوظة إلى اليوم في أرشيف (طوب قابي سراي) بإسطنبول ، وهي تدلنا دلالة كبيرة على إجادتهن للغة التركية إملاءً وتعبيرًا ، غير أنَّ أغلب النماذج الموجودة من تلك الرسائل ترجع إلى ق 12هـ / 18م ، وفي عهد التنظيمات ، بدأ يتألقين دروساً أخرى في الموسيقى ولا سيما على آلة البيانو، وتظل الأميرات في القصر حتى يتم تزويجهن إلى أحد كبار رجال الدولة، وعندها تغادرن القصر بعد إتمام مراسم الزفاف .⁽¹⁾

أما عن ترتيب القائمات على الخدمة داخل الحريرم فهذه لمحه سريعة عن تنظيمهن :

لقد كان هناك عدد كبير من الجواري يقمن على أعمال الخدمة والإدارة داخل قسم الحريرم ، فهن موظفات لهن درجات وترقيات ، وتصرف لهن رواتب شهرية حسب درجتهن ، ثم يُحلن إلى التقاعد وتصرف لهن مكافأة نقدية في نهاية الخدمة ، والمسؤولات ترأسن جميعاً :

١) كبيرة المسؤولات عن خزينة السلطان " باش خزينة دار " .

٢) الخبرات " أوسطى " وهن المسؤولات عن المطبخ والقهوة والتمويل .

٣) المسؤولات عن التشريفات والمراسيم داخل الحريرم .

٤) النائبة " قالفة " وهي المسئولة عن الجواري داخل الجناح الواحد .

٥) المستجدات ، ويطلق عليها " عجمي " وهي الجارية الحديثة في الحريرم.⁽²⁾

⁽¹⁾ لمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع ، انظر :

عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 462

- Ulucay , Cagatay : Harem , II , S 67 – 115 .
- I . H . Uzun Carsili : Saray Teskilati , (Osmanli , Devletinde Sarauy Teskilat , Ankara , 1984 , S. 158 – 166 .

- Uzun Carsili , Ismail Hakki : Osmanli Devletirde Saray Teskilat , Ankara 1984 ,

⁽²⁾ يلمازا وزتونا : مادة الحريرم ، موسوعة التاريخ الكبرى ، ص 254 ، ص 255 . ماجدة مخلوف : الحريرم في القصر العثماني ، ص 18 – 24 . يلمازا وزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج 2 ، ص 296 ، 297 .

وقد امتنّ السلاطين العثمانيون لأحكام الشريعة الإسلامية في معاملتهم للجواري ، فأحسنوا تعليمهن وأسسوا لهن القصور وزوجوهن ، ومنهن من أدت فريضة الحج ، حتى أصبح الحريم العثماني حلم يراود الفتيات الشركسيات منذ نعومة أظافرهن ، ووصل الأمر إلى أن أهالي القوقاز بيدرون ببيع بناتهن بمحض اختيارهن ، وهذا ما لبث أن نشطت تجارة الرقيق حتى أصدر السلطان عبد المجيد الأول مرسوماً في عام 1263هـ / 1846م يأمر بمنع هذه التجارة رسمياً في الدولة العثمانية ، ومع ذلك استمر أهالي القوقاز في تقديم بناتهن هدايا للقصر السلطاني .⁽¹⁾

وتبدأ رعاية السلاطين العثمانيين للجارية عقب التحاقها بالحريم العثماني مباشرة ، حيث يختار لها السلطان اسمًا جديداً ذا دلالة جميلة ؛ لأنّ أغلب الجواري من أصول غير مسلمة فتغيّر أسماؤهن .

ولكي تصبح الجارية جديرة بحياة الحريم فإن إعدادها يمر بعدة مراحل من تربية وتنقيف وإعداد للحياة القادمة ، فتبدأ في تعلم القراءة والكتابة على أيدي الجاريات المسنات ، مع مبادئ الإسلام وحفظ سور القرآن لأداء الصلاة وتعلم أدب وأصول البروتوكول العثماني ، ثم تبدأ الجارية بعد هذه المرحلة - إذا كان لديها استعداد عقلي للدراسة النظرية - في تعلم الفارسية أو العربية ثم التاريخ الإسلامي والعثماني والجغرافيا والحساب وقراءة الشعر ، ويتعلمن الحياكة والتطریز والموسيقى والعزف على الكمان والعود والدف وغيرها من الآلات الموسيقية ، والنّقش والحرف اليدوية ، ومنهن من تعلمن فن الخط وبلغن درجة رفيعة في إتقانه ، وصارت لوحاتهن الخطية تزيّن بعض غرف الحريم ، وسمح لهم بمطالعة الصحف وخاصة نساء السلطان .⁽²⁾

وكان مجموع عدد سكان دائرة الحريم يعادل 1000 ألف شخص تقريباً ، وقد شكل عدد الجواري أغلبية ساحقة فيها ، بحيث كان هذا العدد يفوق أسرة السلطان كثيراً . وكان لكل سيدة من أفراد دائرة الحريم مرتب خاص بها يدفع من خزينة الدولة ، إضافة إلى توفير متطلباتها الضرورية والهدايا والعطایا في المناسبات المهمة .⁽³⁾

⁽¹⁾ ماجدة مخلوف : الحريم في العصر العثماني ، ص 24 – 25 .

Cagatay Ulucay , Padisahlarin , S 1 .

⁽²⁾ ماجدة مخلوف : الحريم في العصر العثماني ، ص 25 . مع الكتاب الأجنبي .

Mualla Anhegger – Eyuboglu , Topkapi Sarayinda Padisah Evi (Harem) , Istanbul , S . 33 .

⁽³⁾ M.Cagatay Ulucay , Padisahlarin Kadinlari ve Kizlari , Ankara 1980 , S . 1 .

وكان السلاطين يعدون أنفسهم مسؤولين أمام الله عن تعليم الجواري ، فيأتون بالمعلمات إلى الحرير لهذا الغرض ، ولابد أن تتصف المعلمة بالوقار والخلق الرفيع وإلا أُقيمت من عملها .

ومثال على ذلك حين علم السلطان محمد رشاد أن المعلمة التي تعلم الحرير قراءة القرآن الكريم كانت تدخن أثناء الدرس ، وتجلس بطريقة لا تتناسب مع حرمة القرآن ، فدفع لها راتب سنة مقدماً ومبلغاً من المال وأغافاها من مهمتها .

لذا كانت المعلمة تحظى باحترام خاص ، ومعاملة متميزة داخل الحرير ، احتراماً لعلمهها ، أما تلميذاتها من الأمراء فكن يقبلن يدها ، وكان السلطان ينهى المعلمة عن الركوع تحية له ، ويستقبلاها وافقاً تقديرًا لعلمها .

وتتضمن مذكرات من عملن داخل الحرير أمثلة تعبّر عن عمق الشعور الديني لدى حرير القصر ، وخير مثل على ذلك أن الموظفات الكبيرات في السن كن يتّعلمن قراءة القرآن محبة في قراءاته صحيحًا دون أخطاء .⁽¹⁾

اعتداد السلطان العثماني أن يعتق عدداً من الجواري بين الحين والآخر ، ولذلك فعندما تنتهي مدة خدمة الجارية داخل الحرير وهي مدة لا تزيد عن تسع سنوات ولم تصبح من نساء السلطان ، فيكون من حقها أن تعتق وتزوج بمن ترغب من خارج القصر السلطاني ، ويتولى السلطان تجهيزها وتخصيص بعض المال لها الذي يكفل لها حياة كريمة ، وينطبق هذا الأمر أيضاً على الجواري اللائي بلغن الخامسة والعشرين ، ولم يتحدد مستقبلاها بعد ، فمن حقها الخروج من السراي والزواج ، ويكتب بذلك صك عتق للجارية " عتق نامه " وتعطى مبلغاً مالياً وهو " جراغ إيديلر " ، وفي أغلب الأحوال كان الرجال ذوي المكانة الرفيعة يسعون للزواج من الفتيات اللائي عملن في الحرير ، وذلك لما يتميزن به من صفات وجمال ، وهن دائماً على درجة فائقة من الثقافة والأدب والأخلاق ، ويجدن كثير من الأعمال كفن الحياكة والتطرير فضلاً عن إتقان الطهي ، والعزف على الآلات الموسيقية ، وأهم من ذلك تتمتعن بقدر من الثراء حيث أنهن وفرن رواتب شهرية لمدة تسع سنوات ، بخلاف الهدايا والمجوهرات التي تعطى لهن ، وكن يعتبرن بنات معنويات للسلطانة الوالدة أو للباش

⁽¹⁾ ماجدة مخلوف : الحرير في القصر العثماني ، ص 30-28 . عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 455 ، 456 . يلمازا وزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج 2 ، ص 292 .

قادين ، ولا يقطعن صلتهن بالحريم حتى بعد الزواج ، إذ يزرن الحريم دائمًا ، ويطلق عليهن "سرابلي خانم" أي سيدات القصر .⁽¹⁾

ولم تكن تقطع رعاية السلطان للجواري حتى بعد زواجهن وخروجهن من الحريم ، إذ يشملهم بحبه وعطفه ، فمثلاً إذا تقدم العمر بزوج إداهن ولم يعد قادرًا على العمل ، أو توفي ، فإنه يصرف لهن مخصصات يومية من مطبخ القصر ، ويستمر صرف هذه المخصصات حتى بعد وفاتها لأبنائهما ، ويضم الأرشيف العثماني الأوامر والفرمانات بهذا الخصوص .⁽²⁾

وهذه تعد أبلغ صور التكافل الاجتماعي للجواري اللائي يعتبرن السلطان بمثابة الأب لهن.

وإذا رغبت الجارية في التقاعد أو العنق ، فإنها تكتب رسالة للسلطان ترجوه فيها أن تحال إلى التقاعد وتعتق ، عندئذ تجهز الأوراق الخاصة بتقاعدها وعشقها وتسمى هذه الأوراق " عتق نامه " ، وتمت هذه الإجراءات بكل سرعة وترحيب من جانب السلطان ، وبعض الجواري كن يعتقن دون طلب منها ، فكن يمزقون ورقة العنق ويفضلن التقاعد مع البقاء في الحريم . وعندئذ يسمح لها بالتفريغ للعبادة وتنال التكريم والعناية خاصة من يتقدم بها العمر ، فقد كان السلطان يهتم بالجواري الكبيرات في السن اللائي يفضلن البقاء في الحريم ، فكان يدعوهن من حين لآخر لسؤالهن عن أحوالهن واحتياجتهن ، ومن تتوافر قبل عشقها يكتب صك العنق ويوضع على صدرها وتُدفن به .⁽³⁾

وللحياة داخل الحريم قواعد وأداب تحكم السلوك الشخصي لهن ، حيث تدور في إطار ما أمر به الإسلام من نظافة وطهارة وحسن المظهر ، فالجواري كلهن نظيفات ، يحضر عليهن السير حافيات مثلاً ، أو التأواب على الماء ، فضلاً عن توفر الحمامات

⁽¹⁾ يلمازا وزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج 2 ، ص 292 .

Gagatay ulucay , Harem ,S , 67. Yilmaz Oztuna , Turk Tarihinde , S 300 .

⁽²⁾ Gayatay ulucay , Padisuhlarin Kadinlarive Kizlari , S 31 .

⁽³⁾ Gagatay ulucay , Pudisuhlarin Kadinlarive Kizlari , S 22 .

ولم تكن رغبة البقاء داخل الحريم العثماني في حريم السلطان وحده لكن في قصور العثمانيين الآتراك ؛ وذلك لحسن معاملتهم للجواري حيث نجد أن الجواري اللائي يصبحن حرائر كن يرفضن عشقهن ويفضلن عليهن البقاء في قصور أسيادهم ، فهن لا يعرفن لهن مأوى آخر ، وتبقى حرة في بيت سيدتها . ماجدة مخلوف : الحريم في القصر العثماني ، ص 32 نقلًا عن : حلمي أحمد شلبي: الأقليات العرقية في مصر في ق 19م ، ط 1 ، القاهرة ، 1993م ، ص 69 .

ونظافتها وترتيبها ، بالإضافة إلى التزامهن بآداب السلوك العامة ، ومنها عدم التكلم بصوت مرتفع ، ولابد الالتزام بهذه القواعد ، وكن يؤذين العادات على أكمل وجه من صلاة الجماعة والصيام والاستغفار والأدعية والمحافظة عليها خاصة خلال شهر رمضان الذي يسوده جو ديني عميق، إذ تقام صلاة التراويح كل ليلة مع الالتزام بقراءة القرآن ليل نهار ، وفي ليلة 15 رمضان تزور والدة السلطان وبنته وزوجاته حجرة الخرفة النبوية الشريفة ، وكن يؤذين صلاة العصر كل يوم في أحد المساجد في الأماكن المخصصة لهن .⁽¹⁾

يتضح مما سبق أنه ليس كل الحرير ملكاً للسلطان فهناك بنته ، وزوجات أبنائه ، والموظفات القائمات على الإداره والخدمة ، وليس كما يتصور المستشرقون بأن الحرير كلهم ملك يمين للسلطان ، أو أنه يملك أعداداً كبيرةً منها ، إن الواقع الصحيح مختلف تماماً. وتحصر معاشرة السلطان للجواري الالتي أهلن للتعامل معه فقط فيصبحن زوجاته ومستولدات أو محظيات ، بشرط أن تلقى قبولاً عنده ، أما التي ترفض معاشرته فلا يحق لها أن يجبرها ويحترم رغبتها في الامتناع ، ثم يساعدها على اختيار زوج آخر لها ، وقد أوردت الأميرة شادية بنت السلطان عبد الحميد الثاني أن إحدى الجواري تمنعت عن أبيها السلطان عبد الحميد الثاني لمدة خمس سنوات ؛ لرغبتها أن تكون الزوجة الوحيدة لمن تتزوجه ، فاحترم السلطان رغبتها ، واختار لها زوجاً يليق بها من رجال القصر ، وأسس لها قصرًا في أحياء إسطنبول .⁽²⁾

وقد أصبح زواج السلاطين العثمانيين من الجواري أمراً مستقرًا منذ زمن السلطان سليم الأول ، حين تزوج من الجارية حفصة أم السلطان سليمان القانوني. ولا يؤثر في زواج السلطان من الجارية العرق الذي تحدى منه ، وأشهرهن (ماه بيكر كوسن) زوجة السلطان أحمد الأول وكانت ابنة قسيس رومي ، أمّا خرم سلطان زوجة سلمان القانوني فتحدى من عرق سلافيّ ألباني . وبصفة عامة فإن أمهات السلاطين العثمانيين ابتداءً من سليم الثاني كلهن من الجواري وينحدرن من أصول غير تركية . ولم يكن السلطان يتقييد بضرورة العقد الشرعي، يكفي أن يقال أن فلانة زوجته ، حتى تصبح زوجته الشرعية⁽¹⁾ ، وفي ذلك إشمار الارتباط بينهم.

⁽¹⁾ ماجدة مخلوف : الحرير في القصر العثماني ، ص 33-38 .

⁽²⁾ مرجع سابق ، ص 26 .

⁽³⁾ ماجدة مخلوف : الحرير في العصر العثماني ، ص 26 . حسين مجتبى المصرى : مرجع سابق ، ص 49 . أميرة مداح : خيرات ماه بيكر كوسن والدة سلطان ووقفيتها لخدمة الحرمين الشريفين . صورة للتضامن الاجتماعي والدينى خلال العصر

وكانت لعلاقة السلطان بنسائه قواعد وآداب لا تهاون فيها ، فمثلاً عندما يريد السلطان زياره قصر الحريم أو أحد أجنحته فإنه ينتعل حذاء له نعل معدني حتى يسمع وقع أقدامه ويخلو الطريق من أمامه .⁽²⁾

هذا الواقع الذي عشنه الحريم العثماني بكل ما فيه من أنظمة وأنشطة اجتماعية وثقافية، الواقع الذي لم ينقله المستشرقون سواءً عرفوه أم لم يعرفوه ، وإنما كتبوا ما صوره لهم خيالهم من واقع قصور ملوكهم وأمرائهم ، وخلفيتهم الثقافية البعيدة تماماً عن أي تعاليم للشريعة الإسلامية .

وإذا ألقينا نظرة سريعة على بلاط ملوك فرنسا فإنه يحوي من الخليلات والعشيقات العدد الكثير وبصوره تكاد تكون رسمية ، وما ينبع عن هذه العلاقات من أبناء غير شرعيين فإنه لا يقارن بما كان في قصور بعض الأمراء أو السلاطين الشرقيين ، ولا يوجد مجال للمقارنة بين قصور السلاطين العثمانيين وقصور الأسر المالكة في الممالك الأوروبية كقصر فرساي في فرنسا ، وباكنجهام في إنجلترا ، فضلاً عن قصور قياصرة روسيا وملوك النمسا وأباطرة ألمانيا ، بل إنها لا تقارن بقصور البندقية ونابولي وروما وغيرها ، وعلى الأقل سار السلاطين العثمانيون في علاقتهم بالحريم في إطار الشريعة الإسلامية .

وإذا كانت هناك بعض القيود أو النواقص في نظام الحريم فإن ذلك سببه في المقام الأول حمايتهم من أعين الفضوليين ؛ لما لهن من مكانة عالية ولا يجب النظر إليهن .

والمادة الثانية التي تناولت مسألة الحريم العثماني في دائرة المعارف الإسلامية ، مادة " خرم " وفي مادة مختصرة جداً ، بالنسبة لأول امرأة من الحريم العثماني استطاعت أن تدخل أنفها في السياسة العليا وتدير دفتها على هواها ، ولم تُشير المادة إلى الأعمال الخيرة التي قدمتها إلا بإشارات عابرة ، وحتى دورها في المؤامرات والدسائس لم يلحقوها به الأسباب . وقدّم المستشرق هيوار صورة عنها، تمثلت في جانبين :

أولاً : إرجاع نسبها إلى روسيا ، وأنها محبوبة السلطان سليمان القانوني .⁽¹⁾

ثانياً : دورها في المؤامرات والدسائس .⁽²⁾

العثماني ، المؤرخ المصري دراسات وبحوث في التاريخ والحضارة ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، العدد 24 ، يناير ، 2001م ، ص292.

⁽²⁾ ماجدة مخلوف : الحريم في القصر العثماني ، ص 27 . عبد العزيز الشناوي ، مرجع سابق ، ج 2 ، ص 437 .

⁽¹⁾ هيوار : مادة خرم ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 8 ، ص 297 .

لقد بدأت الحريم التدخل في إدارة الدولة العثمانية وسياستها ، وأصبحن صاحبات السلطة والنفوذ في البلاط العثماني بعد ظهور خرم سلطان على مسرح التاريخ⁽³⁾ في عهد السلطان سليمان القانوني ، وبعد أن كانت زوجات ونساء السلاطين الأوائل بعيدات عن السياسة والإدارة ، بدأت خرم سلطان بكسر العادة القديمة ، وفتحت عهداً جديداً في حياة المرأة ودورها الإيجابي في المجال السياسي والإداري ، بحيث أصبحت المرأة تقوم بدور مهم في تعيين الوزراء والصدور العظام ، وعزلهم ، وكذلك في تنصيب السلاطين وخلعهم ، وأسهمت المرأة في إصدار القرارات الخاصة بالدولة باسم السلاطين . ويمكن القول أن مهندسة هذا التطور الذي حصل في الدولة العثمانية هي خرم سلطان التي استغلت حب زوجها السلطان سليمان القانوني الجم لها ، ووقوعه تحت تأثيرها .

وقد فتحت خرم سلطان الطريق لنساء وزوجات السلاطين اللاتي أتين من بعدها للتدخل في شؤون الدولة ، وللقيام بالمؤامرات والدسائس من أجل تقوية نفوذهن وتنصيب أبنائهن على عرش السلطنة ، ومنع أبناء أزواجهن من النساء الآخريات من الجلوس على العرش ، وقتلهم إذا اقتضى الأمر ، وإن أدى ذلك إلى ضرب مصلحة الدولة والوطن .

ومن أبرز النساء اللاتي أخذن خرم سلطان قدوة لهن وحدن حذوها في سياسة الدولة وإدارتها ، وفي المؤامرات والمكائد التي قمن بها ، كوسن سلطان زوجة السلطان أحمد الأول التي أصبحت في قمة الدولة خلال سلطنة أبنيتها وحفيدتها⁽⁴⁾ .

إن خرم سلطان امرأة عظيمة تميزت برجاحة العقل وسداد الرأي ، على الرغم من أنها ليست جميلة كثيراً ، إنما تميزت بالجاذبية ، لقد أحبها السلطان سليمان القانوني من شغاف قلبه ، ووقع تحت تأثيرها ، حيث استحوذت على أفكاره ، فكان لا يرد لها طلباً ، ويعمل بنصيتها في كل الأمور ، كانت امرأة شديدة الطموح ، بعيدة النظر ، دامت على كل شيء في سبيل أن تحقق طموحها ، وهي بحق مثالاً متجسداً لسلط الحريم العثماني وقوة نفوذهم في فترة من أهم فترات التاريخ العثماني .⁽¹⁾

⁽²⁾ هيوار : مادة خرم ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 8 ، ص 298 .

⁽³⁾ Yilmaz Oztuna " Kanuni ' nin Turk ve Dunya Tarhindeki Yeri " Kanuni Armagani , Ankara 1970, S.43 – 44 .

⁽⁴⁾ M.Cagatay Ulucay , Padisahlarin Kadinlari ve Kizlari , Ankara 1980 , S . 48 .

⁽¹⁾ حسين مجتبى المصرى : مرجع سابق ، ص 66 .

وهي أول امرأة اشتهرت في الأسرة العثمانية ولعبت دوراً بارزاً ومهمّاً في تحديد مقدرات الدولة العثمانية .⁽²⁾

ومع ذلك فإن هiyor المستشرق الذي قدم المادة لم يعطها حقها أبداً ، فقد جاء كلامه عنها مختصراً جداً لا يحوي الكثير إلا المؤامرات والدسائس فقط .

ونأتي إلى تفصيل ما ذكره المستشرق هiyor :

أولاً : إرجاع نسبها إلى روسيا ، وأنها محبوبة السلطان سليمان القانوني .

"محبوبة" خاصكي "السلطان العثماني سليمان القانوني ، ... وكانت خرم جارية من أصل روسي "⁽³⁾

و Kourrem هي لفظه تركية معناها الباسمة أو ذات الوجه الباسم .⁽⁴⁾

و خرم : معناها السرور ، السعيد ، الفرح ، المرح .⁽⁵⁾

خاصكي : صيغة تركية للكلمة الفارسية "خاصكي" المأخوذة من الكلمة العربية "خاص" وهي تطلق على العاملين في الخدمة الشخصية للسلطان العثمانيين ، ثم تطور اللفظ وأصبح يستخدم لمن يعمل في خدمة القصر العثماني منذ 16هـ/10م ، وأول من استعمله من نساء السلاطين كانت خرم خاصكي زوجة السلطان سليمان القانوني ، ثم صار يطلق على الزوجة أو المستولدة التي تتجب ولد ذكرًا .⁽⁶⁾

أما عن مسألة أصلها فقد وقع خلاف كبير بين المؤرخين ، حيث رجح بعضهم أنها من أصل روسي ، وأبوها قس روسي ، مستدلين بذلك من اسمها روكسلانه الذي يعني الروسي⁽¹⁾ ، وأكد بعض المؤرخين أنها تحدّر من أصول إيطالية أو فرنسية⁽²⁾ ، لكن هذا

⁽²⁾ Gagatay ulucay , Padisahlarin Kadinlaive kizlari , S 34 .

⁽³⁾ هiyor : مادة خرم ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 8 ، ص 297 .

⁽⁴⁾ شمس الدين سامي : قاموس الأعلام ، ص 579 .

⁽⁵⁾ عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 477 .

⁽⁶⁾ للاستزادة عن معنى خاصكي الرجوع إلى ما يلي :

- P.Rycaur : The present state of the ottoman Empire , London , 1668 , PP . 40-41
- Spandonyn : Petu Trade' de l'origine des Turcz , Cantacasin , Paris , 1896 , PP . 321 – 322 .
- J . Von Hammer : Staatver Jassung und staatsver – Waltung des Osmanischen Reichs , 1963 , Vol II , P. 69 , 1072 , 196 , 204 .
- D'Ohsson : Tableau general de L'Empire Ottoman , Paris , 1824 , Vol . VII .
- Gibb & Bowen : Islamic Society and the west , London 1951 – 1957 , Vol . I , P. 321 , 322 , 350
- A.D.Alderson : The Structure of the Ottoman dynasty Oxford 1956 , P . 80 , 81 , 106 .

⁽¹⁾ عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 477 .

⁽²⁾ Gagatay ulugay , Padisahlarin kadinlarive kizlari , s 34 .

احتمال ضعيف حيث أنه لم يكن من السهل الإيقاع بهن في الأسر، كما أنهن لا يقدمن كهدايا للقصر السلطاني حتى يصلن إلى الحرير العثماني ، فضلاً عن أنه في تلك الفترة لم يكن هناك معارك دائرة مع هاتين الدولتين حتى يصبح من المحتمل سقوط بعض الأسيرات منهن .

وعلى الرغم من هذه الاختلافات ، فإن المرجح رأيان :

أولهما : أنها وقعت أسييرة بيد القائد إبراهيم باشا في إحدى الحملات العسكرية على بلاد السلاف ، وعندما التمّس منها الفطنة والذكاء قدمها هدية إلى السلطان سليمان القانوني .⁽³⁾

ثانيهما : أنها وقعت أسييرة أيضاً في أيدي تatar القرم في إحدى غاراتهم ، وهي ابنة راهب كاثوليكي أوكراني من أصل سлавي فقير الحال يعيش في منطقة روغاتين التابعة لدولة بولندا ، وفي الوقت الحاضر هذه المنطقة تابعة لأوكرانيا ، واسمها الحقيقي الكسندر السيوسكا ، وقد ورد اسمها في المصادر الغربية على شكل : روسا ، روزا ، روسانا ، رفريا ، روكلانه ، وهذا النطق الأخير الأكثر شيوعاً واستخداماً ، ثم قدمت هدية إلى القصر السلطاني.⁽⁴⁾

وهذا الرأيان أكثر الآراء رجاحة فقد اتفقا على أنها وقعت أسييرة ، ثم قدمت كجارية للقصر السلطاني ، وكانت صغيرة السن ومن أصل سлавي من أوكرانيا .

وقد وصلت إلى البلاط العثماني بصفة جارية في عمر يتراوح بين 14-17 سنة ، ويشار إلى أنها ولدت عام 910هـ / 1504م وأطلق عليها اسم خورم لأنها تميزت بالمرح ، وخفة الظل ، على الرغم من أنها لم تكن جميلة ، لكن لياقة جسمها وبياض بشرتها ، وعيونها الزرقاء والشعر الأحمر الذي يحيط برأسها في صغيرتين صغيرتين عوض عن عدم جمال ملامحها بالإضافة إلى تتمتعها بحدث ساحر وفكاهة حاضرة ونظارات مليئة بالمعاني تلفت إليها الانتباه فوراً . وقد قدّمت هدية إلى الأمير سليمان بن السلطان سليم الأول من قبل حفظه سلطان "والدة سليمان وزوجة سليم الأول ".⁽¹⁾

أما بالنسبة لمسألة أنها محبوبة السلطان سليمان القانوني ، فهي محبوبته وزوجته أيضاً ، عشقها القانوني منذ أن وقع نظره عليها ، فأنجبت له محمداً ابنه عام 927هـ /

⁽³⁾ Gagatay ulugay , Padisahlarin Kadinlarive Kizlari , S 34 .

⁽⁴⁾ ماجدة مخلوف : الحرير في القصر العثماني ، ص 47 .

Turkiye Diyanet Vakfi Islam Ansiklopedisi , cilt 18 , Istanbul 1998 , S . 498 – 499 .

⁽¹⁾ حسين مؤنس : الجارية روكلانه تتزوج السلطان الفاتح ، د. ط ، القاهرة : دار ومطبع المستقبل ، د. ط ، ص 5 .
Gagatay ulugay , Padisahlarin Kadinlarive kizlari – S 43 .

1521م . ثم أنجبت ابنتها مهرماة ، وأولادها عبدالله وسلیماً وبایزید وجهانجیر ، وتوفي عبد الله وهو لا يزال صغير السن ، ثم أرادت أن ترتفع مكانتها أكثر فألحت أكثر على السلطان القانوني حتى يعقد نكاحه عليها مخالفًا بذلك التقاليد السائدة ووافق أخيراً على طلبها ، وهذا يدل على مدى الحظوة التي نالتها في قلب السلطان .

لقد أقيمت الإحتفالات والولائم احتفالاً بهذا الزواج ، ومن ضمنها توزيع إفطار الزواج. وهو خبز وزيتون للفقراء ، وخبز وجبن ومربي للمقدرین ، طوال الأسبوع ، وقد ازدانت إستانبول بالزينة والورود والأعلام ودارت المواكب في أنحاء شوارعها ، وأقيمت العروض الترفيهية والألعاب العسكرية والرياضية كالطعن بالرماح والمصارعة في المسرح البيزنطي القديم ، الذي يحضره السلطان وفي ختام العرض توزع النقود على الحاضرين، وزوّدت الأشربة على المارة ، وقدمت لهم الهدايا من جميع أنحاء العالم من فضة ونحاس وفراء وغيرها ، وقد تحاكي الأهالي عن هذا الزواج كثيراً.⁽²⁾

ثانياً : دورها في المؤامرات والدسائس .

" اتهمت بأنها دبرت مقتل مصطفى ... على أن براحتها في تدبير المؤامرات دفعتها إلى اقتراف الجرائم " ⁽³⁾

وفي حقيقة الأمر فقد أجمعت جميع المصادر والمراجع التركية والعربية على أنها المحرك الرئيس في المؤامرة التي أودت بحياة الأمير مصطفى الابن البكر للسلطان سليمان القانوني ، وهذه المؤامرة التي مهدت لها فترة طويلة نجحت في تنفيذ هدفها الأول ألا وهو إخلاء السبيل أمام تولي أحد أبنائها السلطنة بعد القانوني ، إما الأمير سليم أو الأمير بایزید الثالث .

وفي تدبيرها لهذه المؤامرات تعبّر عن شخصية المرأة المتسلطة التي تزيد تولي أحد أبناءها السلطة بأي ثمن حتى ولو بقتل الأبرياء ، فجعلت تدبر الخطة وتزيل العوائق من وجهها حتى تصل إلى متبتغها وتحقق غايتها ، فعملت على التخلص منه .

⁽²⁾ حسين مجتبى المصرى : مرجع سابق ، ص66 ، 67 . حسين مؤنس ، مرجع سابق ، ص44 ، 45 .
Gagatay ulugay Padisahlarin Kadinlarire Kizlari , S 34 .

⁽³⁾ هيوار : مادة خرم ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 8 ، ص298 .
لمعرفة المزيد من تفاصيل مقتل الأمير مصطفى الرجوع إلى
Gagaay ulugay Padisanlarin Kadinlarive Kizlari , S 34 – 35 .
عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج 1 ، ص478 .

و هذه حيلة المرأة على مر العصور وهي الاعتماد على جمالها و ذكائها لتحقيق مأربها، فهي لم تأتِ بجديد بل مارست ما اعتبرته حقاً لها ، ولكن للأسف وضعت أساساً لسلط الحريم العثماني بعد ذلك .

لقد أدى حب السلطان القانوني لخرم واهتمامه بها إلى وقوع نزاع شديد ومنافسة بينها وبين "ما هي دوران جولبهار سلطان" ، الزوجة الأولى للقانوني ، ووالدة ابنة البكر الأمير مصطفى ، مما نتج عنه إرسال السلطان القانوني زوجته الأولى ماهي دوران جولبهار سلطان إلى مغnesia لتقيم عند ابنها مصطفى الذي كان والياً على تلك المدينة ، وذلك عقب وفاة حفصة سلطان والدة القانوني ، التي كانت دائماً تعمل على إقامة التوازن بين الزوجتين ، ولم يكتفى القانوني بذلك ، بل قام بعقد نكاحه على خرم سلطان ، علمًا أنه لم يكن هناك - حتى ذلك الحين - عادة عقد النكاح مع الجواري .⁽¹⁾

وفي الحقيقة أن خرم سلطان قد كسبت حب السلطان في مدة قليلة من الزمن ، كما استطاعت أن تسيطر عليه ، وتجعله تحت تأثيرها ، ويتجلّى حب القانوني لخرم سلطان بصورة واضحة في الرسائل التي كان يبعثها لها خلال رحلاته العسكرية وبعده عن إسطنبول⁽²⁾ كما كانت خرم سلطان تجيب على تلك الرسائل بأبيات شعرية جميلة ، وتكتب في أسفلها اسمها على شكل "الفقيرة الحقيرة جاريتكم" ، لتوضيح حبّها للسلطان ، ولتأمين استمرارية ذلك الحب الذي وصل إلى درجة العشق ، وكانت خرم سلطان تقوم كذلك بتقديم الهدايا الجميلة للسلطان لتكسب ودّه وتربطه بها فقط وتبعده عن سائر نسائه وجواريه.⁽³⁾ وبعد أن تخلصت خرم سلطان من منافستها "ماهي دوران جولبهار سلطان" ، بدأت تخطط وتكافح في سبيل تنصيب أحد أبنائها لولاية العهد ليخلف السلطان القانوني في الحكم ، وكان الأمير مصطفى النجل الأكبر للقانوني من زوجته الأولى "ماهي دوران جولبهار سلطان" يشكل عائقاً أمام خرم سلطان في تحقيق أهدافها ، خاصة وأنه نال تأييد الصدر الأعظم مقبول إبراهيم باشا حيث كان ينظر إليه نظرة ولـي العهد إضافة إلى أنه كان محبوباً من قبل أفراد الجيش والشعب على السواء ، وتويد الرسائل المتبادلة بين الصدر الأعظم

⁽¹⁾ Turkiye Diyanet Vakfi Islam Ansiklopedisi , cilt 18 , Istanbul 1998 , S . 499 .

⁽²⁾ M.Cagatay Ulucay , Oamanli Sultanlarina Ask Mektuplari , Istanbul 1950 , S . 5-47 .

⁽³⁾ Turkiye Diyanet Vakfi Islam Ansiklopedisi , cilt 26 , Istanbul 2002 , S . 271 .

مقبول إبراهيم باشا والأمير مصطفى خلال تواجد الأخير في مغنيسيا مدى التقارب القائم بينهما.⁽¹⁾

وقد بدأت خرم سلطان بتنفيذ خطتها بإبعاد رجال الدولة المقربين من الأمير مصطفى، وما ساعد على زيادة نفوذها وفاة والدة السلطان القانوني حفصة سلطان في عام 941هـ/1534م ، وما فتح المجال أمام خرم سلطان لتحقيق أهدافها ، والوصول إلى مطامعها ؛ لأنها أصبحت سيدة القصر الأولى وصاحبة الكلمة المطلقة فيها.

وقد تمكنت خرم سلطان من التدخل في شؤون الدولة بشكل أوسع وذلك بعد مقتل الصدر الأعظم مقبول إبراهيم باشا ، ففي بداية عام 948هـ/1541م نقلت دائرة الحرير التي كانت حتى ذلك الحين في القصر العتيق في منطقة بايزيد إلى توب قابي سراي مقر السلطان والباطل العثماني ، فصارت بذلك تتبع الأحداث عن قرب ، ثم قامت خرم سلطان بابعاد الأمير مصطفى من مغنيسيا إلى أماسيا لضمان بعده عن الأنظار وعن العاصمة إسطانبول ، كما أدت خرم سلطان دوراً مهما في إرتقاء رستم باشا "زوج ابنتها مهرماه" إلى رتبة وزير ، ثم إلى منصب الصدر الأعظم ، وذلك خلال فترة زمنية قصيرة .

وكانت خرم سلطان ترغب في أن يكون ابنها الأكبر الأمير محمد ولیاً للعهد ، لكن وفاة الأمير المفاجئة في مغنيسيا عام 950هـ /1543م جعلها تفك في ابنها الآخرين لولاه العهد ، وهو بايزيد وسليم ، وكانت تفضل بايزيد لهذه المهمة نظرًا لتربيته ونشأته الجيدةمنذ صغره ، وكان ولیاً على قرمان ، فيما كان سليم ولیاً على مغنيسيا .⁽²⁾

وقد حثت خرم سلطان القانوني على منح بايزيد وسلام مناصب عليا في إدارة الدولة وقيادة الجيش ؛ كي يتمنى لهما كسب حب وتقدير الجيش والشعب وأركان الدولة ، وليثباتن جدارتها بمهام ولاية العهد . وبالفعل عندما قام السلطان القانوني بحملته العسكرية على إيران عام 955هـ /1548م أُسند إلى بايزيد قيادة إحدى الفرق العسكرية في الجيش العثماني ، وعيّن سلیماً على ولاية أدرنة القريبة من إسطانبول ليقوم بحماية العاصمة من المخاطر الآتية من الغرب . ويلاحظ هنا أن السلطان القانوني لم يوجه أي مهام لابنه الأكبر مصطفى الذي كان ولیاً على أماسيا ؛ لبعده عن الأنظار ، ويدل أيضًا على التقليل من شأنه .

⁽¹⁾ Cagatay Ulucam , "Kanuni Sultan Suleyman ve Ailesi ile ilgili Bazi Notlar ve Vesikalar " Kanuni Armagani , Ankara 1970 , S . 232 , 256 – 257 .

⁽²⁾ Meral Altindag , Osmali da Harem , Altin Kitaplar , Istanbul 1993 , S . 113 ; Turkiye Diyanet Vakfi Islam Ansiklopedisi , Cilt 18 , Ista . 498 – 499 nbul .

ثم لعب الحلف الثلاثي المكون من خرم سلطان ، وابنته مهرماه سلطان ، وصهرها " زوج مهرماه سلطان " رستم باشا دوراً مهماً في المؤامرة التي أدت إلى مقتل الأمير مصطفى في ضواحي قونية خلال الحرب العثمانية الإيرانية في عام 961هـ / 1553م ، بعد أن قاموا بنشر الشائعات حول نية مصطفى في القضاء على والده والجلوس على عرش السلطنة .

وقد أدى مقتل مصطفى إلى استياء ونفور شديدين بين قادة الجيش العثماني وأركان الدولة العثمانية ، مما جعل السلطان القانوني يعزل رستم باشا من منصب الصداررة العظمى ويعين الوزير قرا أحمد باشا في هذا المنصب ، ونجا رستم باشا من الموت بفضل خرم سلطان التي طلبت من السلطان العفو عنه .

وبعد مقتل الأمير مصطفى بأشهر قليلة ، توفي الأمير جهانجir النجل الأصغر لخرم سلطان في حلب ؛ وذلك لحزنه العميق على مقتل مصطفى الذي كان يحبه كثيراً مما أحزن خرم سلطان حزناً شديداً على وفاة ولدتها الأصغر .⁽¹⁾

وعلى الرغم من الدور السيئ الذي لعبته في مؤامرة مقتل الأمير مصطفى ، إلا أنها كانت أول امرأة من الحرير العثماني تمارس شؤون السياسة والحكم ، حيث أسهمت خرم سلطان ببعض النشاطات الدبلوماسية فقد راسلت أخت الشاه طهماسب الصفوي ، وعندما أرسل الشاه طهماسب الهدايا إلى السلطان القانوني بمناسبة افتتاح جامع السليمانية في إسطانبول ، قامت خرم سلطان بكتابة خطاب الشكر له .⁽²⁾

في ذات الوقت كان لخرم سلطان أعمال خيرية وحسنة ، حيث شيدت كثير من المؤسسات الخيرية والأوقاف لرعاية الفقراء والمحاجين ، من أهمها : جامع الخاصكي الذي يضم حوله مدرسة وداراً لإطعام الفقراء ، وداراً للشفاء ، ولا يزال الحي الذي بني فيه الجامع يعرف بحي الخاصكي ، وقامت كذلك بتجديد تكية للمحتاجين حولتها إلى مدرسة ،⁽³⁾ إضافة إلى تشييدها حماماً يعرف باسم حمام الخاصكي بالقرب من طوب قابي سراي ، كما قامت بحفر الآبار الخيرية في مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف ، وأنشأت أوواقاً تضمن إيرادات عالية لتلك الأعمال الخيرية .⁽¹⁾

⁽¹⁾ Ali , Kunhu I u Ahbar , I . U . Kutup . Nr . 5959 , Varak 431 a . Gagaay Ulugay : Padisanlarin Kadinlarive Kizlari , S . 34 – 35 .

⁽²⁾ Feridun Bey , Munseat , II , S . 65 .

⁽³⁾ Baltaci , Osmanli Mdreseleri , S . 234 .

⁽¹⁾ Omer Barkan , Istanbul Vakiflari Tahrir Defteri , Istanbul , S . 434 – 435 .

وحوت الوقية الخاصة بها على تفاصيل مفيدة جدًا عن كيفية إدارة أوقافها، حيث أسست مؤسستين خيرتين في مكة المكرمة والمدينة المنورة ، وأوقفت عليهما كثيراً من الأراضي في قرى مصر للإنفاق عليها من ريعها ، وكثيراً من الدور والحوانيت في مكة المكرمة بكل ما فيها من أدوات ومخازن وغيرها ، بالإضافة إلى بئر ماء وصهريج ، وأخيراً سفينتين في قناة السويس مع جميع آلاتهما وأدواتهما ولوازمها لنقل الغلال التي تنتجهما القرى الموقوفة في مصر إلى مينائي بنبع وجدة ، مع جميع لوازم المؤسستين الخيرتين في مكة والمدينة .⁽²⁾

توفيت خرم سلطان في إسطنبول في 6 رجب 966هـ/1558م، وكان عمرها 55 عاماً ، ودفنت في فناء جامع السليمانية ، ثم قام السلطان سليمان القانوني بإنشاء قبة ضخمة على قبرها .⁽³⁾ وهذا بالطبع مخالف للشرع ولكنها كانت عادة لديهم .

والمادة الثالثة التي تناولت حياة الحرير العثماني هي مادة "ماه بيكر كوسن" التي تناولها المستشرق كافيدبيسون ، وهي المادة الوحيدة التي ستتقىدها الدراسة له.

أما عن النقاط التي ستتناولها الدراسة فهي :

أولاً : الجزم بأنها تعود إلى أصول يونانية ، على الرغم من عدم ثبوت ذلك .⁽⁴⁾

ثانياً : عرفت المادة حياتها السياسية بصورة صحيحة إلى حدٍ ما ، تكاد تخلو من التشويه والافتراء ، ولكن بطريقة متداخلة غير واضحة .⁽⁵⁾

ثالثاً : المرور على قضية مقتلها دون توضيح.⁽⁶⁾

رابعاً : لم تفصل المادة الكثير من أعمالها الخيرية ، وفي ذلك هضم للجانب الخيري فيها .⁽⁷⁾ جاءت مادتها مقتضبة وصغيرة ومشوشة ، وأسلوبه متداخل وخفيف للحقائق ، وعلى الرغم من ذلك لم تحو كثيرة من الافتراء أو التشويه ؛ ويعود ذلك لأن حياة "ماه بيكر كوسن" كانت مليئة بالدسائس والمؤامرات أصلاً ، والعيب الوحيد في المادة أنها لم تركز كثيراً على

⁽²⁾ Tahsin Omer Tahaoglu , Istanbul' da Osmanli Turbelerinin Tipolojisi , I , U . Doktora Tezi , 1988, S . 127 – 133 .

⁽³⁾ ماجدة مخلوف: أوقاف نساء السلاطين العثمانيين – وحقيقة زوجة السلطان سليمان القانوني على الحرمين الشريفين ، ص 16.

⁽⁴⁾ M.Cavid Baysun : Kosem sultan , the Encyclopaedia of Islam , Volume VI , Leiden : e. J . Brill , 1997 , S . 272 .

⁽⁵⁾ M. Cavid Baysun : Kosem Sultan , The Encyclopaedia of Islam , Volume VI , S . 272 .

⁽⁶⁾ M. Cavid Baysun : Kosem Sultan , The Encyclopaedia of Islam , Volume VI , S . 273 .

⁽⁷⁾ M. Cavid Baysun : Kosem Sultan , The Encyclopaedia of Islam , Volume VI , S . 273 .

الجانب الخير في شخصية صاحبة المادة، حيث أهمل كافيد بيسون الأعمال الصالحة والخيرة التي قامت بها "ماه بيكر كوسن" لمساعدة المحتاجين والقراء والمساكين ، وخاصة أوقافها للحرمين الشريفين .

إن ظهور "ماه بيكر كوسن" على مسرح الأحداث السياسية ، يعطي دلالة واضحة على أن الحريم العثماني لم يكن قط منعزلاً عن الحياة السياسية ، وإنما تدخلوا بها وفكروا وقادوا مقدرات الدولة العثمانية في فترة من الزمن .

وللتعمق نظرة على نقد نقاط مادة ماه بيكر كوسن :

أولاً : جزم بأنها تعود إلى أصول يونانية ، على الرغم من عدم ثبوت ذلك .
"كوزم سلطان وهي زوجة السلطان أحمد الأول ووالدة السلطان مراد الرابع وإبراهيم الأول، كانت يونانية بالميلاد" ⁽¹⁾

تعد من أشهر حريم الأسرة العثمانية على الرغم من اسمها ماه بيكر وفقاً لعادات وتقالييد الأسرة العثمانية ، يعني ضوء القمر ، إلا أنها عُرفت عموماً باسم "كوسن سلطان" . وقد ورد اسم ماه بيكر في أغلب المصادر العثمانية التاريخية عند الحديث عنها ، ونالت هذا الاسم لجمالها وظرفها وذكائها ، أما عن اسم كوسن والذي شاع استخدامه في القصر السلطاني ، فهو يدل على أنها كانت ذات بشرة بيضاء ناعمة وملساء خالية من الشعر ، هذا إضافة إلى أن كلمة كوسن تعني أيضاً الكبش الذي يسير في مقدمة الأغنام ، مما يشير إلى مطامحها في الرئاسة والقيادة . ⁽²⁾

لا تتوفر معلومات وافية عن طفولتها أو أسرتها ، أو عن زمن دخولها ووصولها إلى القصر العثماني ، أما عن أصلها فقد اختلف حوله المؤرخون ، فمنهم من أرجع أصلها إلى الروم وأنها ابنة أحد القساوسة الرومان الذي يمتلك مقاطعة قرب إسطنبول ، وكان اسمها أناستيا . أما الفريق الثاني ، فيرجح أنها ابنة قسيس أرثوذكسي من البوسنة ، وأن آغا البنات أحضرها من أحد ولاة البوسنة .

ومن المحتمل أن ولادتها تصادف عام 988هـ / 1589م ، ووصولها ودخولها إلى القصر العثماني في حدود عام 1018هـ-1609م / 1019هـ-1610م ، وقد أهديت إلى

⁽¹⁾ M.Cavid Baysun : Kosem sultan , the Encyclopaedia of Islam , Volume VI , S . 272 .

⁽²⁾ M. Cagatay Ulucay , Padisahlarin Kadinlari ve Kizlari , S . 48

أميرة علي مداد : خيرات ماه بيكر كوسن والدة سلطان ، ووفيتها لخدمة الحرمين الشريفين ، ص 294 .

القصر العثماني من قبل والي بوسنة في زمن السلطان محمد الثالث ، وكان عمرها آنذاك في حدود 6-7 سنوات .⁽¹⁾

عرف عنها ظرفها وحفة دمها ولطفها في معاملة الآخرين ، وقد جلبت بهذه الصفات إضافة إلى عن جمالها انتباها السلطان أحمد الأول ، عقب توليه العرش بعد وفاة والده السلطان محمد الثالث ، وتفوقت على حريم القصر ، فتزوجها السلطان ، وقد لمع نجمها أكثر عقب ولادة ابنها مراد ثم إبراهيم ، وأخيراً ابنها قاسم ، وأنجبت من البنات فاطمة وعائشة ، وبذلك زاد نفوذها وتفوقت على جميع نساء القصر ، وبحسب التقاليد العثمانية أرسلت عقب وفاة زوجها السلطان أحمد الأول إلى القصر القديم الكائن في منطقة بايزيد ، لكن إقامتها هناك لم تطل أكثر من ستة سنوات⁽²⁾ عادت بعدها والدة سلطان لتمارس سلطات سياسية تاقت نفسها لها .

ثانياً : عرضت المادة حياتها السياسية بصورة صحيحة إلى حد ما ، تكاد تخلو من التشويه والافتراء ، ولكن بطريقة متدخلة غير واضحة .⁽³⁾

بعد أن أصيب السلطان أحمد الأول بمرض الحمى المميت ، بدأت "ماه بيكر كوسن سلطان" القيام بنشاطات مختلفة لأجل إعداد أولادها لتولي الحكم ؛ لأن السلطان أحمد كان له ولدان أكبر في العمر من أبنائها ، فحاولت الاقتراب من كبار رجال الدولة بشتى الطرق وذلك لاستمالة تأييدهم ودعمهم ، وعقب وفاة زوجها السلطان أحمد في 23 ذو القعدة 1026هـ / 23 نوفمبر 1617م ، قامت كوسن سلطان بدور كبير في تنصيب الأمير مصطفى شقيق السلطان أحمد الأول على عرش السلطة بدلاً من الأمير عثمان أكبر أبناء السلطان أحمد الأول من زوجته الأولى "ماه فيروز" ؛ وكانت كوسن سلطان تمهد الطريق أمام أولادها الذين كانوا في سن صغيرة في ذلك الوقت ؛ لأنها تعلم أن مصطفى لا يستطيع

⁽¹⁾ Yilmaz Oztuna , Osmanli Hareminde Uc Haseki Sultan ; Istanbul 1988 , S . 80 .

أميرة علي مدام : خيرات ماه بيكر كوسن والدة سلطان ، ووفيتها لخدمة الحرمين الشريفين ، ص 294 .

⁽²⁾ M. Cagatay Ulucay , Padisahlarin Kadinlari ve Kizlari , S . 48

أميرة علي مدام : خيرات ماه بيكر كوسن والدة سلطان ، ووفيتها لخدمة الحرمين الشريفين ، ص 294 .

M.Gavid Baysun : Kosem Sultan , the Encyclopaedia of Islam , Volume VI , P . 272 .⁽³⁾

* أنظر المادة في الملاحق .

الاستمرار كثيراً في الحكم لأنَّه ضعيف الشخصية ، بالإضافة إلى أنه كان عقيماً ، فالحاكم سيرجع إلى إبنته آجلاً أم عاجلاً .⁽¹⁾

وبالفعل لم تدم سلطنته كثيراً ؛ إذ خلُّع وجاء بعده النجل الأكبر للسلطان أحمد الأول وهو عثمان الثاني ، من زوجته الأولى ماه فiroز .

وقد أقامت كوسن سلطان في القصر العتيق خلال حكم السلطان مصطفى والسلطان عثمان الثاني ، وانشغلت بتربية أولادها وإعدادهم للسلطنة . وبعد فترة قصيرة لم تدم أكثر من خمس سنوات خلع السلطان عثمان الثاني ، ثم قتل إثر مؤامرة غادرية ، فافتتح الطريق أمام الأمير مراد لتولي الحكم في 15 ذو القعدة 1032هـ / 9 سبتمبر 1623م ، فانتقلت كوسن سلطان إلى طوب قابي سراي ضمن مراسيم خاصة ورسمية وفخمة بصفتها والدة السلطان مراد الرابع الذي كان في الثانية عشرة من العمر عند ارتقائه العرش ، وكان عديم التجربة والخبرة السياسية ، ثم حدث أن توفيت " خاندان خاتون " والدة السلطان أحمد ففتح بذلك المجال أمام " ماه بيكر كوسن سلطان " وغدت صاحبة السلطة في الدولة العثمانية لمدة عشر سنوات ، بحيث كانت تشارك في الاجتماعات مع أركان الدولة ، وتتولى حل شؤون الدولة وإصدار القرارات ، وقد تربى السلطان مراد الرابع على يد أم قوية الشخصية لا تتردد في عمل أي شيء في سبيل السياسة والسلطة ، وكان السلطان الصغير يرافق والدته في هذه الاجتماعات ليتعلم أمور الدولة ، وهو ينتظر من جهة أخرى اليوم الذي يتسلم فيه الإدارة من والدته ، لكن كوسن سلطان لم تكن تتوى أبداً تسليم إدارة الدولة إلى ابنها السلطان ، ومع ذلك فإن الأحداث الداخلية التي تطورت في إستانبول والأوضاع أدت إلى عزل الصدر الأعظم خسرو باشا ، وتعيين طوبال رجب باشا في منصب الصدارة ، والذي قام بمناورات عديدة لكسر نفوذ كوسن سلطان وإعطاء الإدارة إلى السلطان مراد الرابع ، ونجح في ذلك عام 1041هـ / 1631م ، ومع هذا كان السلطان يستمع إلى والدته ، إذ إنه لم يكن قد تخلص من تأثيرها ، حتى أنها كانت أثناء رحلاته الخارجية هي التي تدير شؤون الدولة العثمانية ، وفي الوقت ذاته حاول منها من التدخل في السياسة ، بل وهددتها بإعادتها إلى القصر العتيق . وبعد وفاة السلطان مراد الرابع عام 1050هـ / 1640م اعتلى عرش الدولة العثمانية ابن الآخر لكونه سلطان ، وهو إبراهيم ، إلا أنه كان يعني من مرض الشقيقة الذي جعله عصبياً دائماً لا يستطيع القيام بعمل أي شيء ، وهذا ما جعل المستشرقين يتهموه

⁽¹⁾ Meral Altindag , Osmanli ' da Harem , Altin Kitaplar , Istanbul 1993 , S . 100 .

بالجنون، وحقيقة الأمر أنه كان يصاب بصداع شديد لا يتحمل. مما أدى إلى تصاعد مسؤولية كوسم سلطان ، حيث بدأت تمسك إدارة الدولة بيدها مرة أخرى ، وقد قامت بتقديم عدد كبير من النساء والجواري إلى ابنها السلطان لينجب ذكرًا ؛ وذلك لأنه كان الرجل الوحيد المتبقى من نسل آل عثمان ، وإذا لم ينجب ضاع ملتهم ، وهي بذلك قدمت خدمة للدولة العثمانية بالحفاظ على نسل آل عثمان ، ولكن الازدياد المفرط في عدد النساء والجواري أدى إلى تدخل بعضهن في شؤون الدولة العثمانية مما أضعف سلطة كوسم سلطان في البلات العثماني ، أضف إلى ذلك أن السلطان إبراهيم الأول أصبح لا يستمع إلى والدته نتيجة وقوعه تحت تأثير نسائه وجواريه وعلى رأسهم خديجة تورخان ، إذ قام بإبعاد والدته وإجبارها على الإقامة في جنينة أسكندر جلبي . وهنالك رواية تفيد بأن السلطان أراد أن ينفي والدته إلى جزيرة رودوس للتخلص من تدخلها في شؤون السياسة وهذه الرواية التي ترجمتها الدراسة ، حيث قامت كوسم سلطان بالاتفاق مع رجال الدولة وشيخ الإسلام بخلع السلطان إبراهيم بحجة جنونه في 16 رجب 1058هـ / 8 أغسطس 1648م، وبتولية حفيده محمد بن السلطان إبراهيم الذي كان عمره سبع سنوات في مقام السلطنة .⁽¹⁾

ومع حبها للحكم والسياسة ، تميزت بالخبرة والمعرفة والحنكة السياسية ، فنجد أنها عالجت كثيراً من مشاكل الحكم والإدارة بشخصية قوية وعقل مفكر ، فمثلاً استطاعت أن تقضي على تمرد للانكشارية في عهد ابنها السلطان مراد الرابع ، حينما لم تدفع لهم العطايا المتبرعة نظراً للقصور المالي في خزينة الدولة ، فأمرت الصناع بأخذ مقدار من الأوانى الذهبية والفضية من القصر السلطاني وصهرها لتحويلها إلى نقود منحتها للانكشارية ، وبذلك قضت على تمرد اعتمدوا عليه .⁽²⁾

ثالثاً: المرور على قضية مقتنتها دون توضيح .

" إن نفوذ السيدة خديجة تورخان خاتون ومعاونيها شكل تكتلاً ضدّها ، أدى هذا الصراع إلى سوء تفاهم بين مسئولي الدولة ومعاوني والدة سلطان " خديجة تورخان " وخلق جو من التوتر في إسطنبول فقررت ماه بيكر كوسم ، ومعاونيتها إستبدال السلطان

⁽¹⁾ Yilmaz Oztuna , Osmanli Hareminde Uc Haseki Sultan ; Istanbul 1988 , S . 104 .

يلمازا وزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج 1 ، ص 489 . عبد المنعم الهاشمي : مرجع سابق ، ص 346 ، 347 . m. Gagalay ulucay : Padisahlarin . kadinlari ve Kizlai , s. 49 .

⁽²⁾ أميرة علي مداح : خبرات ماه بيكر كوسم والدة سلطان ووفقيتها لخدمة الحرمين الشريفين ، ص 296 .

محمد أخيه سليمان ، وعندما علمت "تورخان سلطان" بهذه النوايا أخذت بزمام المبادرة ، وقامت بشنق "ماه بيكر كوسن" مستخدمة حبال الستارة".⁽¹⁾

كان التقليد السائد في البلاط العثماني يقرّ انتقال والدة السلطان المتوفى أو المخلوع إلى القصر العتيق الكائن في منطقة بايزيد ، وعلى سحب يدها من شؤون الدولة ، حيث تأخذ مكانها وصلاحياتها والدة السلطان الجديد ، ولكن كوسن سلطان لم تفعل ذلك ، إنما بقيت في طوب قابي سراي كجدة السلطان الجديد محمد الرابع ذي السبع أعوام ؛ إذ أصبحت صاحبة السلطة في القصر ، وواصلت تدخلها في شؤون الدولة في السنوات الأولى من حكم حفيدها . بينما كانت خديجة تورخان سلطان والدة السلطان محمد الرابع شابة وعديمة التجربة ، فلم تتمكن من الوقوف أمام رغبات كوسن سلطان .

وببدأ الناس يحترمونها أكثر وخوطبت باسم "والدة المعظمة" فكانت تدير الدولة العثمانية كما تشاء ، ونالت دعماً من الانكشارية ، لكن بمرور الزمن استناعت خديجة تورخان والدة السلطان محمد الرابع من تسلط ودكتاتورية كوسن ؛ لأن خديجة تورخان بدأت بالتدخل تدريجياً في أمور الدولة العثمانية على اعتبار أنها والدة السلطان ، ولكن لأنها عديمة الخبرة السياسية ، فقد ظهر التناقض الشديد بين الجدة والوالدة ، مما أدى إلى نشوب الاضطرابات في الحريم العثماني الذي انعكس سلباً على إدارة الدولة العثمانية ، وقد انقسم رجال الدولة إلى قسمين : قسم يساند ماه بيكر كوسن ، وقسم آخر يساند خديجة تورخان سلطان ، في الوقت نفسه قامت الأخيرة باتصالات سرية مع بعض أركان القصر لكسب تأييدهم ودعمهم لها ووقفهم ضد ماه بيكر كوسن ،⁽²⁾ ومحاولة إبعادها عن توب قابي سراي وليس قتلها كما أوحى بذلك المادة - .

في الوقت نفسه علمت ماه بيكر كوسن بتلك المؤامرة فخططت لخلع محمد الرابع وتولية السلطنة لأخيه سليمان ، وخططت أيضاً للتخلص من خديجة تورخان سلطان بالقتل ، وذلك بالاتفاق مع أنصارها من رجال الدولة ، لكن المحاولة باعت بالفشل عندما نقلت إحدى الجواري خبر المؤامرة لخديجة تورخان سلطان التي بدأت ت سابق الزمن وتسبق "الوالدة المعظمة" فوظفت أحد الحراس للتخلص منها ، فتوجه مع فرقه من جنوده إلى جناح الجدة العجوز ، وما أن وقعت عيناه عليها حتى قتلتها في غرفتها بدائرة الحريم في 16 رمضان

⁽¹⁾ M. Cavid Baysun : Kosem Sultan , the Encyclopaedia of Islam , volume VI , P. 272 .

⁽²⁾ M. Gagalay ulucay : Kosem Sultan , Padisanlarin Kadirlari ve Kizlari , S 49. Naima , Tarih, V,S.166

1061هـ / 2 سبتمبر 1651م ، وقد دفت داخل ضريح زوجها السلطان أحمد الأول الكائن في إحدى أركان جامع السلطان أحمد .⁽¹⁾

وذكرتها المصادر العثمانية كذلك بألقاب مختلفة ، فبالإضافة إلى لقب الوالدة المعظمة لقبت بالوالدة الكبيرة التي تعني جدة السلطان ، وأم المؤمنين ، وصاحبة المقام ، ومهد العلي ، والوالدة العتيقة .⁽²⁾ ولكنها ذكرت بعد وفاتها بلقب "الوالدة الشهيدة" و"الوالدة المقتولة".⁽³⁾

وقد قامت بجدارة بدور أساسي في المؤامرات السياسية لإبان سيطرتها على الحكم ، إذ كانت ذكية إلى درجة استثنائية ، ماكرة ومرأوغة ، أستاذة في صنع الخطط السياسية والمؤامرات متعددة الوجوه ، مؤثرة ومقنعة في كلامها ، اعتنت بإرضاء الشعب ، لذا تركت كثير من المؤسسات الخيرية التي استفادت منها شريحة عريضة من الفقراء والمحاجين .

رابعاً : لم تفصل المادة الكثير من أعمالها الخيرية ، وفي ذلك هضم للجانب الخير فيها .

"أن جانبًا كبيراً من ثروتها كان يُصرف في الأعمال الخيرية وغيرها من الأعمال الإنسانية ، مثل بناء المساجد"⁽⁴⁾

على الرغم من الحياة السياسية التي عاشتها ماه بيكر كوسن ، والمكائد والدسائس التي خاضتها في سبيل الوصول إلى تحقيق أهدافها ومطامحها داخل القصر السلطاني ، إلا أنها تركت خلفها أعمالاً خيرية كثيرة تلقي بضوئها على الجانب الخير والحسن في شخصيتها .

لقد كانت ماه بيكر كوسن ذات ثراء واسع ، حيث امتلكت كثيراً من الأراضي الزراعية في أماكن عديدة من الدولة العثمانية وخاصة في الأناضول وقبرص ، كانت تهدي إليها من الدول المجاورة ، إضافة إلى أنها عند وفاتها انتقلت صناديق مجوهراتها القيمة

⁽¹⁾ يلمازا وزتنا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج 1 ، ص 497 . عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 492 . Katib Celebi , Fezleke , II , S. 376 . Tahsin Omer Tahaoglu , Istanbul' da Osmanli Turbelerinin Tipolojisi , I . U . Doktora Tezi , 1988 , S . 224 – 231 .

⁽²⁾ Turkiye Diyanet Vakfi Islam Ansiklopedisi , cilt 26 , Istanbul 2002 , S . 275 .

⁽³⁾ M. Cagatay Ulucay , Padisahlar Kadinlari ve Kizlari , S . 49 .

⁽⁴⁾ M. Cavid Baysun : Kosem Sultan , the Encyclopaedia of Islam , Volume VI , S . 273 .

وأموالها التي يقال أنها بلغت عشرين صندوقاً مليئاً بالعملات الذهبية "السلطاني" إلى خزينة الدولة العثمانية .⁽⁵⁾

كانت تؤدي الأعمال الخيرية بنفسها حيث تذهب سنوياً لزيارة السجون ، وتقوم بتسديد فروض المساجين لإنقاذهم من العقوبة ، بالإضافة إلى توزيع الأعطيات والهدايا عليهم ، كما أن حبها للخير دفعها أيضاً إلى أن تؤدي دور الأم الحنون للفتيات الفقيرات المقربات على الزواج ، إذ تقوم بإعداد جهاز العرس ، والإشراف على تزويجهن ولم يقتصر الأمر على الفتيات الفقيرات فقط بل حتى الجواري اللاتي يعملن بخدمتها ، حيث تزوجهن على نفقتها الخاصة .⁽¹⁾

كما أُسست مؤسسة خيرية باسم "عطايا السادات" كان يستفيد منها حوالي 200 فقير ومسكين ، هذا بالإضافة إلى عدد كبير من الأسبلة التي أنشأتها في مختلف أحياء إسطنبول ، مثل سبيل بجوار جنيلي جامع "جامع الخرف" وسبيل بجوار تكية أبو الهدى ، وسبيل آخر بجوار تكية معمار عجم ، بالإضافة إلى سبيل كوسن سلطان في حي يني قابي ، وأخيراً سبيل ملحق بمسجد الصدر الأعظم أو زد ميرأ وغلي عثمان باشا ، فضلاً عن تأسيسها أوقافاً في قبرص ومديلاي⁽²⁾ واكريبيوز.⁽³⁾

وأنشأت جنيلي جامع Cinili Comi Kulliyesi أي جامع الخرف 1050هـ / 1640م ، وقد أحاطته بمدرسة ومكتبة وخصصت أعمالاً خيرية للصرف على أجور الأئمة ، أما عن المدرسة فقد أدت دورها العلمي ، وألحقت بها مدرسة للأطفال ودار للحديث ، وأنشأت حماماً مزدوجاً بجوار الجامع ، وهو مقسم إلى قسمين : قسم للنساء وقسم للرجال ، وأنشأت مسجد قواغي في نهاية الأناضول بجانب البسفور ، وأنشأت كذلك نزلًا عُرف باسم "والدة خاني" قدم خدمات لكل الأشخاص والقوافل ، دون النظر إلى لون أو دين أو لغة أو

⁽⁵⁾ أميرة علي مدام : خيرات ماه بيكر كوسن والدة سلطان ووفيتها لخدمة الحرمين الشريفين ، ص 296 .

⁽¹⁾ M . Cagatay ulucay , Padisahlarin Kadinlari ve Kizlari , Ankara , 1980 , S . 49 .

⁽²⁾ مديلاي : midillon ، جزيرة في الأرخبيل ، وهي مركز ولاية الجزر العثمانية في البحر المتوسط ، اشتهرت الجزيرة قديماً بكثرة مدنها ، فتحها العثمانيون عام 1462هـ / 1462م ، وبها ميناء ومدينة بنفس الاسم وهي عاصمة جزر الأرخبيل العثماني . س. موستراس: مرجع سابق ، ص 456 – 459 .

⁽³⁾ اكريبيوز Egri-Gueuz : بلدة في تركيا الآسيوية ، الأناضول في ولاية حذاوندكار ، لواء كوتاهية ، س . موستراس : مرجع سابق ، ص 88 انظر :

Turkiye Diyanet Vakfi Islam Ansiklopedisi , cilt 26 , Istanbul 2002 , S . 275 .

أميرة علي مدام : خيرات ماه بيكر كوسن والدة سلطان ووفيتها لخدمة الحرمين الشريفين ، ص 301 .

ثقافة ومذهب . فضلاً عن أعمال خيرية موسمية توزع على أكثر من مائتي رجل وامرأة في الأشهر المباركة شعبان ورمضان .⁽⁴⁾

وقد ذكرت المادة أوقافها التي أوقفتها على الحرمين الشريفين فقط - حتى هذه المعلومة لم تعط حقها من الشرح - حيث خصصت مبالغ معينة لأعمال عينية، وجزءاً آخر لأعمال معنوية كقراءة القرآن الكريم ، وقامت بتمويل مشاريع الري في مصر ، بالإضافة إلى إنشائها لخزانات مياه في طريق الحجيج ، حتى لا يهلك الحاج نتيجة لقلة المياه وشدة الحرارة ، وترسل الأموال إلى مكة والمدينة لمساعدة الفقراء والمساكين مع الصرة سنوياً ، وكانت ترسل الكسوة لمائة فقير من فقراء مكة ومتلها لفقراء المدينة حتى إنها كانت تقدم إعاقة للحجاج .⁽¹⁾

ورغم أن ماه بيكر كوسن والدة سلطان كانت متسطة ومستبدة ، فإن هذا لا يمنع أنها أحست بشدة بحاجات الفقراء والمحاجين وصرفت جزءاً كبيراً من أموالها على أعمال الخير، وهذا ما يجب أن يذكره لها التاريخ .

بعد تناول مسألة الحرير في العصر العثماني من أصعب الموضوعات في تاريخ الدولة العثمانية وذلك لسبعين :

- أ) لم يكن مسموحاً مطلقاً لأي شخص الدخول إلى الحرير إلا بإذن شخصي من السلطان، وبالتالي أغلب كتابات المستشرقين جاءت من محض خيالهم ، ومن وجهة نظرهم عن وضع المرأة الأوروپية وليس عن وضع الحرير العثماني الصحيح .
- ب) قلة المصادر والمراجع الصادقة في هذه المسألة مما أسهم في ندرة المعلومة الصحيحة .

لم تنقل مادة حرير ، الصورة الحقيقة الواقع الذي عشه ، فقد صورتهم على أنهم فئة محجوب عنها أي أحداث خارجية ، ولا يتفاعلون مع المجتمع المحبيط بهن ، والحقيقة أن الحرير كان على اتصال دائم بالحياة الاجتماعية ومتطلبات المجتمع ، ولم يعشن في عزلة كما تصور المستشرقون ، وإنما تفاعلوا مع المجتمع في إطار الشريعة الإسلامية عن طريق الأوقاف التي أسهمت في الكثير من الأعمال الخيرية .

⁽⁴⁾ أميرة علي مداح : خيرات ماه بيكر كوسن والدة سلطان ووقفيتها لخدمة الحرمين الشريفين ، ص 297 – 302 .

⁽¹⁾ أميرة علي مداح : خيرات ماه بيكر كوسن والدة سلطان ووقفيتها لخدمة الحرمين الشريفين ، ص 297 – 302 .
M.Cavid Baysun : Kosem Sultan the Encyclopaedia of Islam , Volume VI , P. 273 .

لطالما حاول المستشرقون إخفاء حقيقة الحرير والجزم بحقيقة وصحة ما هو عكسها تماماً ، مخفين واقعها الحقيقي ، وهي أن جميع الحرير ملك للسلطان يتحكم بمقدراتهن كيما شاء ، لكن الحقيقة عكس ذلك ، فهناك موظفات وعاملات قائمات على الخدمة والنظافة وغيره، وجميعهن يقضين مدة في العمل ثم يتلاعن ، ويحصلن على صك العنق ، ويبقين على صلة دائمة بالحرير العثماني ، لدرجة أن السلطان هو من يتولى تزويجهن ، إذ يعتبرونه الأب الروحي لهن .

والخطر الذي يكمن خلف صورة المستشرقين هذه ، أن أغلب المؤرخين المسلمين استقوا معلوماتهم عن موضوع الحرير العثماني خاصةً ، من كتابات مستشرقين ، وهي كتابات خاطئة وحاذفة على الإسلام ، فجاءت كتابات المسلمين ترجمة لصور خاطئة دفعها المستشرقون في الأذهان ، وانتقلت عبر الأجيال .

إن نظام الحرير ليس وليد الدولة العثمانية وإنما يعود بجذوره إلى أنظمة الدول الإسلامية السابقة على الدولة العثمانية ، ومن قبلهم جميعاً قواعد الشريعة الإسلامية .

المبحث الثالث :

"النظم الشرعية" هيئة العلماء أنموذجاً

اعتمدت الدولة العثمانية منذ أن كانت إمارة صغيرة على الشريعة الإسلامية في تسيير أمورها ، فقد تشكلت علاقة العثمانيين بالدين الإسلامي منذ فترة مبكرة جداً ، ومن هذا المنطلق حازت هيئة العلماء على مكانة عالية ومرموقة .

ومنذ بداية الدولة العثمانية وتشكلها كإمارة صغيرة حظيت الشريعة الإسلامية باعتراف وجود واستمرار ، ذلك أن اهتمام العثمانيين بالجانب الديني الإسلامي جاء ضمن إطار اجتماعي سياسي يخدم الدولة العثمانية. الواقع أن القانون في قلب الكيان السياسي للعثمانيين كان محصوراً بالتشريع الإسلامي ، واستمر رجال الدين الإسلامي بشكل عام يشكلون جزءاً أساسياً من منظومة الدولة العثمانية .⁽¹⁾

وعليه فقد غلت النزعة الدينية على العثمانيين ، حتى صبغوا كل مظاهر الدولة بالصبغة الدينية ، وخصوصاً العلماء والفقهاء بكثير من الاهتمام والولاء ، حيث أخذوا عليهم العطايا والاهتمام ، وانعكس هذا بدوره على أعمال الدولة العثمانية اليومية ، إذ أصبح التشريع الإسلامي والمفتشين مما المحوران اللذان تدور حولهما حياة الدولة العثمانية ، وازداد تعلق الناس بالعلوم الشرعية وأصبح الناس على اختلاف ميولهم وتعدد أصولهم وأعراقهم متصلين بالشريعة الإسلامية.⁽²⁾

وبمرور الوقت صارت الحياة اليومية في أنحاء الدولة العثمانية مرآة تعكس نظم الشريعة الإسلامية وقواعدها .

ومما يؤكد المعلومة السابقة النفوذ الكبير الذي حاز عليه العلماء وذلك بسبب طبيعة مراكزهم الدينية والقضائية ، ومناصب الإفتاء ، حيث جاءوا في المرتبة الثانية في الدولة بعد السلطان العثماني والصدر الأعظم ، وقد انقسمت هيئة العلماء إلى :

(1) شيخ الإسلام .

⁽¹⁾ أحمد صدقي شقيرات : تاريخ مؤسسة شيوخ الإسلام في العهد العثماني ، ج ١ ، ط ١ ، الأردن ، 1423هـ / 2002م ، ص 83.

Sehabehin Tekindag : Medrese Donemi , Cumburiyetin 50 . Yilnda Istanbul universitesi Istanbul , 1973, S, 3-4 .

⁽²⁾ أحمد صدقي شقيرات : مرجع سابق ، ص 84 .

- (٢) القضاء العثماني " قاضي عسكر الرومي - قاضي عسكر أناضولي وقضاء المدن الكبرى مثل إسطنبول - القاهرة - مكة المكرمة " .
- (٣) المفتون " دار الفتوى " .
- (٤) معلمو السلطان .
- (٥) نقيب الأشراف .
- (٦) هيئات التدريس في المدارس الإسلامية .
- (٧) رئيس الأطباء " حكيمباشي "
- (٨) رئيس المنجمين " منجم باشي "
- (٩) خازن الكتب " خزندار "
- (١٠) يلحق بالهيئة الدينية الإسلامية الإداريون في القطاع الديني .^(١)

وهكذا جاء ترتيب شيخ الإسلام الثاني بعد الصدر الأعظم في هرم وظائف الدولة العثمانية ، فهو موظف كبير قدرًا ومقامًا .

وقد جاء تأسيس مشيخة الإسلام نتيجة للوضع القائم على الساحة العثمانية ، وهو رعاية القطاع الديني الإسلامي في الدولة ، في عهد السلطان مراد الثاني المتدين المتصرف ، الذي أنشأ الكثير من المنشآت الخيرية المتعددة ، وهو لم يكن رجلاً تقىً ورعاً فحسب ، بل كان أيضًا سياسياً موهوباً وناضجاً ، استطاع خلال عشرين عاماً أن يعيد الدولة العثمانية إلى سابق قوتها بعد أن دمرها تيمور لنك . ونعود إلى مشيخة الإسلام التي أُنشئت نتيجة أمرتين :

الأول : جاء تقليداً لما كان موجوداً ومعروفاً أصلاً في الدول الإسلامية ، لذا جاء منصب شيخ الإسلام تقليداً لما هو موجود أصلاً في ديار الإسلام ، مثل المفتى والقاضي ، وذلك ضمن مجموعة من المناصب والمؤسسات التي نقلها العثمانيون عن الدول الإسلامية .

الثاني : أنه جاء بعد تطور طويل لمنصب المفتى .^(٢)

^(١) Ismail Hakkı uzuncarsili : Osmanli Devleti teskiyatından 2 " التشكيلات علمية " Baskı , Ankara, Turk Tarih Kurumu Basimevi , 1984 , S 60 – 80 .

عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 310 ، 311 . أكمل الدين إحسان أوغلي : مرجع سابق ج 1 ، ص 299 ، 306 .

أحمد صدقى شقيرات : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 183 .

^(٢) أحمد صدقى شقيرات : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 86 – 89 .

وفي عهد السلطان عثمان الأول وعلى الرغم من صعوبة تعقب تطور الناحية العلمية في عهده إلا أنه كان يرفع من شأن رجال العلم والمشايخ والعلماء ، وقد أحاط مجلسه وديوانه عدد من المشايخ الذين استمروا مع ابنه أورخان الذي كان يستشير العلماء والمشايخ

ورجال العلم من حوله في كل ما يتعلق بأمور الدولة الداخلية والخارجية .⁽¹⁾

وتحققت الاستفادة من المشايخ ورجال العلم إبان قيام الدولة في أشكال مختلفة ، تأتي الاستشارة في مقدمتها ، إذ كان سلاطين الدولة العثمانية يتباخثون مع العلماء والمشايخ في كل الأمور التي تهم الدولة العثمانية ، ثم يصدر السلطان القرار بعدها . وهذا الأسلوب كان يأخذ شكل مجلس استشاري غير رسمي ، وفي المقابل استفاد علماء الدولة ومشايخها - من ناحية أخرى - من هذه الاستشارات بتعيينهم بالفعل في عضوية الديوان الهمايوني ، فكان منهم الوزير والصدر الأعظم وقضاة العسكر وغيرها من المناصب المهمة في النظام العثماني ،⁽²⁾ حيث إن أغلب هذه المناصب تولوها رجال علم ومشايخ منذ البداية .

ونظراً لهذه الأهمية العظيمة الذي حاز عليها شيخ الإسلام على اعتبار أنه رئيس هيئة العلماء ، اهتمت دائرة المعارف الإسلامية بمنصب شيخ الإسلام وأفردت له مادة طويلة في الجزء الثالث عشر ، حيث قدمها المستشرق كرامرز ، وجاءت طويلاً متعلقة في جوانب المنصب على مر العصور الإسلامية .

إلا أن الدائرة أهملت تماماً باقي أفراد هيئة العلماء ، حيث لم تعرف إلا لشيخ الإسلام وحكيم باشي ، وقدمت تعريفاً متواضعاً عن خازن الكتب ، ذكرت فيه تطور المنصب عبر الدول الإسلامية حتى توقفت المادة عند العهد المملوكي ولم تأت على ذكر فترة الدولة العثمانية مطلقاً.⁽³⁾

وعلى الرغم من أن هيئة العلماء مقسمة إلى عدة أقسام - كما ذكر سابقاً - فإن الدائرة أهملت هذا التقسيم متعمدة ولم تشر له أصلاً للحط من قدر هيئة العلماء وشيخ الإسلام ، وعدم إعطاء القارئ إحساساً بأهمية هذه الهيئة ومناصبها، وحصرها في شخصية شيخ الإسلام فقط وكأنه هو المسيطر على جميع الشؤون الإسلامية .

⁽¹⁾ ويظهر ذلك بوضوح في وصية عثمان الأول لابنه أورخان ، أنظر ص 352-353.

- Aydin Taneri : Osmanli Devletinin Kurulus Doneminde Hukumdarlik Kurumunun Gelismesi ve Saray Hayati Teskilati , Ankara 1978 , S . 269 .

⁽²⁾ Kanunnname-i Ali Osmani , Seuy , 13- 15 eki (1329 – 1330) .

⁽³⁾ Orhonlu : Khazine , The Encyclopaedia of Islam ,1990 , Volume T V , LEIDEN , D . 1183-1186.

ولنلقي نظرة على مادة شيخ الإسلام من دائرة المعارف الإسلامية التي احتوت على الاقرارات التالية :

(١) أولاً : لم يورد كرامرز تعريفاً مفصلاً لكلمة شيخ الإسلام .

(٢) ثانياً : تصويره لأهمية منصب شيخ الإسلام .

(٣) ثالثاً : محاولة الحط من شأنه ، وذلك لأنه لا يحضر جلسات الديوان السلطاني .

(٤) رابعاً : صورة كرامرز على أنه لا يلتزم بإرادة السلاطين ، والدليل على ذلك أنه اتخذ لقب شيخ الإسلام من تلقاء نفسه .

(٥) خامساً : أرجع كرامرز نظام شيخ الإسلام إلى التأثير بطبقات رجال الدين النصارى .

(٦) سادساً : تصوير كرامرز لبعض السلاطين بأنهم استهانوا بشخصية شيخ الإسلام ، لتحقيق رغبات ومصالح خاصة بهم وإصدار فتاوى مخالفة للشرع .

(٧) سابعاً : قدم كرامرز أمثلة عن الفتاوى التي كان يصدرها شيخ الإسلام ، دون توضيح للظروف الصحيحة لهذه الفتوى .

(٨) ثامناً : أرجع تدهور الدولة العثمانية إلى رجعية مشيخة الإسلام .

(٩) تاسعاً : أرجع كرامرز الفضل في التعبير عن أي فكرة لشيخ الإسلام لكتاب الأوروبيين النصارى .

وعلى الرغم من ذلك فقد تميزت المادة التي قدمها كرامرز بتعمق شديد في أشياء مكررة وشرح تطورات هذا المنصب ، ومتى أخذ اللقب ومن أول من أطلق عليه ، لكن يعاب عليها إدخال القارئ في اختلافات ليس لها طائل ، والتركيز فقط على الجانب السيئ في منصب شيخ الإسلام ، وعدم ذكر حسناته مطلقاً أو حتى حقيقة مهامه ، وكررت المادة

(١) كرامرز : مادة شيخ الإسلام ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 13 ، ص 471 .

(٢) كرامرز : مادة شيخ الإسلام ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 13 ، ص 473 .

(٣) كرامرز : مادة شيخ الإسلام ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 13 ، ص 474 .

(٤) كرامرز : مادة شيخ الإسلام ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 13 ، ص 474 .

(٥) كرامرز : مادة شيخ الإسلام ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 13 ، ص 474 .

(٦) كرامرز : مادة شيخ الإسلام ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 13 ، ص 474 .

(٧) كرامرز : مادة شيخ الإسلام ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 13 ، ص 476 .

(٨) كرامرز : مادة شيخ الإسلام ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 13 ، ص 476 .

(٩) كرامرز : مادة شيخ الإسلام ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 13 ، ص 477 .

الإساق التهم بمنصب شيخ الإسلام ، وعدته المساعد الأول لتنفيذ رغبات ونزووات السلطان عن طريق إصدار الفتاوى التي تتماشى مع هفوات السلاطين .

وعلى الرغم من أن المادة امتلأت بكثير من النواقص إلا أنه أعيد طباعتها كما هي في الطبعة الحديثة التي صدرت من مركز الشارقة للإبداع الفكري ، ولم يوضع عليها أي تعليقات أو حتى إعادة صياغة للأخطاء الفادحة التي احتوتها.⁽¹⁾

أما مادة " حكيم باشي " فقد تركزت حول أبرز من تولى هذا المنصب ، بالإضافة إلى مسؤولياته في علاج سكان القصر السلطاني ، وأوضحت المادة الرواتب التي كان يتلقاها وأبرز مهامه ، من تعين وعزل الأطباء والجراريين ، وفي حقيقة الأمر جاءت شاملة لجميع نواحي هذا المنصب ، ولم تحتو على افتراضات أو تشويهات ؛⁽²⁾ ويعود ذلك لعدم وصول أهمية منصب حكيم باши لأهمية منصب شيخ الإسلام ، لذلك لم تركز عليه الدائرة .

وفيما يلي نقد النقاط التي جاءت في مادة شيخ الإسلام :

أولاً : لم يورد كرامرز تعريفاً مفصلاً لكلمة شيخ الإسلام ، واكتفى بأن أطلق عليها لقب من ألقاب التشريف .

" لقب من ألقاب التشريف التي ظهرت أول ما ظهرت في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري "⁽³⁾.

لم يعرض كرامرز له أي تعريف على الرغم من وجود هذه التعريفات في كتب اللغة والتاريخ العثماني أيضاً .

الشيخ : من أصل الفعل " شاخ " ويأتي منه - أيضاً شيخاً وشيوخية وشيخوخية ، وجميعها تعني صار شيخاً أو أدرك الشيخوخة ، ويقال : شاخ الإنسان ، أي سن وكبر في العمر ، والشيخوخة غالباً عند سن الخمسين .

والجمع منها مشايخ أو أشياخ ، وتطلق عرفاً على الكبار في السن ، وعلى العلماء وذوي المكانة والعلم والفضل أو رئاسة من كبار العلماء ورجال الآداب والدين والحكم .⁽⁴⁾

⁽¹⁾ موجز دائرة المعارف الإسلامية : مرجع سابق ، ج 20 ، ص 6365 - 6376 .

⁽²⁾ M.Tayyib Gokbilgin : Heim – Basai , The Encyclopaedia of Islam , 1974 VolumeIII , LEIDEN , P339 , 340 .

⁽³⁾ كرامرز : مادة شيخ الإسلام ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 13 ، ص 471 .

⁽⁴⁾ أحمد صدقى شقيرات : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 126 . مصطفى برकات : مرجع سابق ، ص 216 .

أما ظهور لقب شيخ الإسلام في الدولة العثمانية فيعود إلى أن أول من حمل هذا اللقب من العثمانيين هو شيخ الإسلام المولى نجم الدين أبو الحفص عمر النسفي ،⁽¹⁾ إلا أن الموضوع لم يأخذ أهميته في المصادر كلقب رسمي إلا بعد إطلاقه على رئيس الجهاز الشرعي الديني في الدولة العثمانية ، كما حمل لقب "المفتى" أو "المفتى الأكبر" وكان أول ظهور للقب بشكل جلي في عهد محمد الفاتح في أعقاب فتح القسطنطينية .⁽²⁾

ويُعدُّ شيخ الإسلام من أهم رجال الدولة ، وهذا المنصب أحد أهم مناصبها ، وهو ينوب عن السلطان العثماني في كل الأمور العلمية ، ومنها مثلاً ما يتعلق بأعمال الطلاب في المدارس والنظر في أمور المحاكم الشرعية ، وكل ما يتعلق بالأمور الدينية .

والإدارة التي يشرف عليها شيخ الإسلام ويجلس فيها يطلق عليها شيخ الإسلام "كابو" أي باب شيخ الإسلام أو إدارة شيخ الإسلام .⁽³⁾

وهو المفتى الأول ورئيس العلماء ، ثم يليه مباشرة قاضي عسكر الرومي ، الذي يشرف على التعليم والقضاء والإفتاء في أرجاء ممتلكات الدولة العثمانية في أوروبا ، ويوارزيه في الأهمية قاضي عسكر أناضولي الذي يشرف بدوره على التعليم والإفتاء في كل أنحاء الدولة العثمانية غير الأوروبية ، ثم يليه قضاة المدن الكبرى في إسطنبول والقاهرة والقدس ثم مكة المكرمة "مولاسي" أي قاضي مكة ومثله في المدينة المنورة .⁽⁴⁾

ثانياً : تصويره لأهمية منصب شيخ الإسلام ، حيث قال :

"اكتسب منصبه في دولة سلاطين آل عثمان بمرور الزمن أهمية سياسية ودينية لا نظير لها في الدول الإسلامية الأخرى" .⁽⁵⁾

في البداية يظهر لنا بوضوح كيف أن القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة كثيراً ما امتدح العلم وحث على طلبه ، كما رفع من شأن العلماء وأعطاهم مكانة مميزة ، وجاءت تطبيقات الرسول ﷺ تزيد من رفعة قيمة العلم والعلماء واستمرت هذه النظرة نفسها في جميع الدول الإسلامية بخلافها وسلطاناتها ، ونال العلماء والمشايخ مكانة مرموقة بمرور الزمن ،

⁽¹⁾ نجم الدين أبو الحفص عمر النسفي : فقيه حنفي ، ماهر في الكلام عاش في سمرقند ، أهم مؤلفاته العقائد النفسية ، وتاريخ بخاري توفي عام 537هـ / 1142م . انظر : أحمد صدقى شقيرات : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 133 .

⁽²⁾ أحمد صدقى شقيرات : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 133 .

⁽³⁾ شمس الدين سامي : مصدر سابق ، ج 1 ، ص 792 ، 793 .

⁽⁴⁾ أميرة مداح : مرجع سابق ، ص 57 .

⁽⁵⁾ كرامز : مادة شيخ الإسلام ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 13 ، ص 473 .

لكن طريقة عرض كرامز صورتها وكأنها تهمة أصقت بالمنصب دون النظر إلى الخلفيات الإسلامية لأهمية مكانة العلماء والمشايخ .

إن منصب شيخ الإسلام ظهر بعد 125 عام على قيام الدولة العثمانية بتعيين المولى شمس الدين الفناري ⁽¹⁾ مفتياً عام 828هـ / 1425 أيام السلطان مراد الثاني وانتهى المنصب مع استقالة شيخ الإسلام محمد نوري أفندي ⁽²⁾ عام 1341هـ / 1922م وهو يعد آخر مشايخ الإسلام العثمانيين ، وهذا يعني أن دائرة مشيخة الإسلام استمرت قوية منذ عام 828هـ / 1425م حتى عام 1341هـ / 1922م أي لمدة 497 عام ، وهي فترة تقرب من خمسة قرون ، ⁽³⁾ بقيت خلالها قوية بل ازدادت خطورة قراراتها إلى أن وصل الأمر إلى أنها تعزل وتعين السلاطين .

لقد بدأت بشكل متواضع ثم لم تثبت أن حظيت بالتقدير والاهتمام والاحترام والمكانة العالمية . ⁽⁴⁾

وعلى اعتبار أهمية منصب شيخ الإسلام فقد كان وضعه استثنائياً ، وهو أحد أهم مناصب هيئة العلماء ، وقد أطلق لقب شيخ الإسلام على مفتى العاصمة نظراً للمسؤوليات

⁽¹⁾ محمد شمس الدين فناري أفندي : يعد الفناري أول شيخ للإسلام في الدولة العثمانية " 751هـ - 1351م - 834هـ / 1431م بدأت المؤسسة الدينية الكبرى على عهده هو محمد شمس الدين بن حمزة بن محمد الفناري الرومي ، نسبة إلى فنار إحدى القرى تقع على بحر إيجه ، كان عارفاً بأصول الدين والعلوم الدينية وعلم القراءات والعلوم العربية والمعاني والبيان ، أدى فريضته الحج عام 822هـ / 1419م،مشيخته 828هـ-1331م، وهو أول من أطلق عليه لقب "مفتى العرش العثماني" له عدة مؤلفات في مختلف العلوم الدينية والفلسفية والمنطق. انظر: أحمد صدقي شقيرات: مرجع سابق، ج 1، ص 301-305.

⁽²⁾ محمد نوري أفندي المدني : 1276هـ - 1346هـ / 1859م - 1927م ، يعد آخر شيخ إسلام في الدولة العثمانية ، حيث أُغتيلت عند استقالته ، وهو محمد نوري عثمان كامل محمد رشيد الطربوسى ، نسبة إلى مدينة طرسوس ، ينتمي إلى عائلة تولى عدد من أفرادها منصب شيخ الإسلام ، نال تعليمه الأساسي ، ثم عمل مدرساً في مدارس إسطنبول وتدرج في الوظائف حتى وصل إلى منصب قاضي في مصر في 19 صفر 1327هـ / 12 مارس 1909م ، عين في مشيخة الإسلام لفترتين 1339هـ - 1341هـ / 1920م - 1922م ، وبعد إسقاطه من منصبه للمرة الثانية بقي معزولاً في بيته حتى توفي في 29 محرم 1346هـ / 29 يوليو 1927م وكان رجلاً فاضلاً عُرف عنه مساعدته للفقراء والمحاجين ، فضلاً عن علمه وثقافته الواسعة .

انظر: . أحمد صدقي شقيرات: مرجع سابق ، ج 2 ، ص 480 - 489 .

⁽³⁾ أكمل الدين إحسان أوغلي : الدولة العثمانية ، ج 1 ، ص 302 .

⁽⁴⁾ أكمل الدين إحسان أوغلي : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 302 .

لا يزال موضوع شيخ الإسلام بعيداً عن الدراسة الشاملة ، إلا ثلاثة رسائل علمية تناولته من جوانب مختلفة ، وهي :

- Repp : the mufti of Istanbul , Oxford 1988 .
- Ekrem kaydu : Die institution des sheyh-u Islam in Osmanisehen staat , Erlanger 1971 .
(وهي رسالة دكتوراه لم تطبع)
- I.S. Sirma : L' institution et les biographies des shah al – Islam Sous le regne du Sultan Abdulhamid II (187 b – 1909) Strasbourg 1973 .
(رسالة دكتوراه لم تطبع) .

الكبيرة الملقاة على عاتقه ، حيث كان السلطان نفسه يأخذ برأيه في كل المسائل المهمة ، منها أخذ رأيه في القضايا الجنائية التي يكون حكمها في الأغلب بالإعدام ، وهذا الإجراء كان يستهدف الاطمئنان إلى صحة القرآن والأدلة وبالتالي صحة حكم الإعدام ، وأيضاً أخذ رأيه في القوانين الوضعية ومدى مطابقتها للشريعة الإسلامية ، ولم يكن يصدر شيخ الإسلام فتوى دون موافقته شخصياً ، ولابد أن تتماشى مع الشريعة الإسلامية ، وكان شيخ الإسلام إذا رفض أمراً لا يملك السلطان إرغامه عليه خاصة في عصر القوة .⁽¹⁾

ولشيخ الإسلام اختصاص مهم يتصل بالسياسة العليا للدولة ، لم يكن يقدم السلطان على أي حرب دون أن يستصدر من شيخ الإسلام فتوى ، يقرر فيها أن أهداف هذه الحرب لا تتعارض مع الدين ، وأن لها أسباباً قوية لا تتعارض مع وجهة النظر الإسلامية⁽²⁾.

وقد حدث ذلك بالفعل في حرب السلطان سليم الأول مع الشاه إسماعيل الصفوي في بلاد فارس حين تمردت الانكشارية رفضاً للحرب على اعتبار أن الشيعة مسلمين ، فأصدر شيخ الإسلام والعلماء فتوى ببطلان مذهب الشيعة لأنهم أحلو ما حرم الله ، وحرموا ما أحل الله وبذلك يحل للسلطان محاربتهم .⁽³⁾

ويصدر شيخ الإسلام فتاوى بشأن تنازل الدولة العثمانية عن أقاليم لها لصالح دولة أجنبية والفتاوی التي تجيز عزل السلطان وتولية آخر .⁽⁴⁾

ولذلك فمن الطبيعي أن ينال أهمية سياسية ودينية بمرور الوقت ليس تعدياً منه وأخذ حق ليس له ، وإنما فرضت هذه المكانة نتيجة لطبيعة المهام الملقاة على عاتقه .

ثالثاً: محاولة الحط من شأنه ، وذلك لأنه لا يحضر جلسات الديوان السلطاني .

" كان قاضياً العسكري لا يزدليان لهما السبق عليه لأنهما كانوا يجلسان في الديوان السلطاني ، أما المفتى فكان لا يجلس فيه ".⁽⁵⁾

⁽¹⁾ عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 311 . أكمل الدين إحسان أوغلي : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 302 . أحمد صدقى شقيرات : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 126 . صبحي عبد المنعم . عبد الحميد سليمان ، مرجع سابق ، ص 236 .

⁽²⁾ عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 311 .

⁽³⁾ أمانى جعفر الغازى : مرجع سابق ، ص 255 ولمراجعة نص الفتوى الرجوع إلى : أمانى جعفر الغازى : مرجع سابق ، ص 425 .

⁽⁴⁾ عبد العزيز الشناوى : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 311 .

⁽⁵⁾ كرامز : مادة شيخ الإسلام ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 13 ، ص 474 .

إن هذه الكلمة حق أريد بها باطل ، فعلاً في البداية كان لا يحضر شيخ الإسلام "المفتى" جلسات الديوان السلطاني ، ولكن ذلك ليس للتقليل من شأنه ، أو عدم أهميته ، وإنما لأنه كان يستطيع الدخول على السلطان وقتما يريد لاستشارته في أحد الأمور ، لقد تبوا مشايخ الإسلام مكانة رفيعة من الناحية السياسية ، وليس معنى أنه لم يكن عضواً في الديوان الهمایونی أنه محظوظ عليه حضور جلساته ، بل على العكس تماماً فقد كان يدعى وقت الحاجة إلى الديوان الهمایونی ، وفي مقدوره أيضاً أن يتوجه هو إلى الديوان وقتما يريد لعرض أمرٍ من الأمور المستجدة .

لقد احتل المرتبة الثانية بعد الصدر الأعظم ، وفي بعض الأحيان كان بعض السلاطين يقدمون مشايخ الإسلام على الصدر الأعظم نفسه ، ثم تطور الأمر في أواسط القرن 13هـ / 19م في عهد التنظيمات ، وعندما بدأت الدولة العثمانية تتخذ نظام مجلس الوزراء على الطريقة الأوروبية ، صار شيخ الإسلام عضواً فيه .⁽¹⁾

إن منصب شيخ الإسلام ظهر متأخراً بالنسبة لمنصب مفتى السلطنة ، ومنذ تأسيس الديوان الهمایونی كان يضم بين أعضائه في البداية قاضياً واحداً للعسكر ، ثم زاد العدد إلى اثنين للاضطلاع بالقضاء الشرعي ، وهما عضوان بارزان في الديوان ، وركاناً من أركانه الأساسية ، وكان لكل مجالٍ من يمثله ويضطلع بأموره ، ومن ثم فإن التمسك بمحدودية عدد الأعضاء في الديوان جعلهم لا يرون ضرورة لاشتراك عضو آخر يكون مسؤولاً ثانياً عن أمور القضاء الشرعي .⁽²⁾

ونظراً لأن منصب الإفتاء جاء متأخراً عن منصب قاضي العسكر ، لم توجد ضرورة لتعيين شيخ الإسلام في الديوان طالما أن أموره تسير على ما يرام ، وليس معنى أن قاضي العسكر هو الذي يحضر الديوان الهمایونی وأن شيخ الإسلام لا يحضره أنه ليس هناك من يمثل الجانب الشرعي ، فإن قاضي العسكر يمثل قوة الشرع الشريف والقانون .⁽³⁾

⁽¹⁾ أكمل الدين إحسان أوغلي : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 302 ، 303 .

⁽²⁾ مرجع سابق ، ج 1 ، ص 303 .

⁽³⁾ لمعرفة المزيد عن منصب قاضي العسكر ومهامه الرجوع إلى الآتي :

- Halil Sahilli Oglu : " Askeri " DiA Istanbul , 1991 , C. III , S , 488 – 489 .
- A.Mumcu : Hukuksal ve Siyasal karar Organı olarak Divan-1 Humayun , Ankara 1976 , S . 131-133.
- Uzuncarsili : Ilmiye Teskilati , Ankara 1963 , S , 125 .
- Omer Lutfi Barkan : XV ve XVI . Asrlarda Osmanli Imparator , Lugunda zirai Ekorominin Hukuki ve Esasları Kanunlar Istanbul 1943 , s . 123 .

وابتداءً من أواخر القرن السادس عشر ، أخذ يتضاعف نفوذ شيخ الإسلام أمام نفوذ قضاة العسكر ، حتى أصبح أمر تعين قاضي العسكر نفسه منوطاً بطلب من شيخ الإسلام ، وفي القرن التاسع عشر دخل منصب قاضي العسكر ضمن كيان باب المشيخة (أي المشيخة الإسلامية) ، واستمر بقاؤه حتى نهاية الدولة كمنصب ورتبة تمنح لرجال الهيئة العلمية .⁽¹⁾

وفي النهاية أغلب من تولوا منصب شيخ الإسلام كانوا قد تولوا منصب قائد العسكر ، وعليه فإن قاضي العسكر لابد أن يكون عالماً بالشريعة والفقه الإسلامي، لذلك يكتفي الديوان به .

رابعاً : صوره كرامز على أنه لا يلتزم بإرادة السلاطين ، والدليل على ذلك أنه اتخذ لقب شيخ الإسلام من تلقاء نفسه .

" ارتفاع شأن مفتى إسطنبول - على أيام حال - أمرٌ متعلق بشخصه لا تفرضه إرادة السلاطين السامية ، ويتجلى ذلك في اتخاذه من تلقاء نفسه لقب شيخ الإسلام "⁽²⁾.

كان شيخ الإسلام يتمتع بمركز مرموق للغاية وكان السلطان والصدر الأعظم والوزراء في أحيان كثيرة يتلمسون منه المشورة في المسائل المهمة ، ويعرضون عليه مشروعات القوانين قبل إصدارها بشكل رسمي ونهائي ، ويطلبون منه الرأي في مدى مطابقتها لمبادئ الشريعة الإسلامية ، ومن أهم مهامه إحالة بعض القضايا الجنائية له .

وأخيراً كانت أهم اختصاصاته إصدار الفتاوى ذات الطابع السياسي ، فمثلاً السلطان لا يقدم على حرب دون أن يستنصر من شيخ الإسلام فتوى بأن أهداف هذه الحرب لا تتعارض مع الدين الإسلامي ، بل أن أسبابها قوية من وجهة نظر الشريعة الإسلامية ، وكان شيخ الإسلام يوفد الوعاظ إلى سائر أنحاء الدولة العثمانية ليوضحا للشعب أن يقفوا صفاً واحداً مع الدولة العثمانية ، وكذلك كان شيخ الإسلام يصدر الفتاوى التي تجيز عزل السلاطين.⁽³⁾

وفيما سبق - أيضاً - رد على كرامز الذي أورد أن شيخ الإسلام لم يكن له سلطان قضائي ، وإنما يمثل ضمير الناس " وهي سنة كانت تقتضي أن يقوم إلى جانب السلطة

⁽¹⁾ M. Ipsirli : Osmanli Imparator Lugunda kadiaskerlik Muessesesi , Istanbul 1982 , 226 – 228 .

⁽²⁾ كرامز : مادة شيخ الإسلام ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 13 ، ص 477 .

⁽³⁾ عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 311 .

الزمنية سلطة دينية ليس لها سلطان قضائي ، ولكنها تمثل ما نستطيع أن نسميه الضمير الديني للناس " .⁽¹⁾

والمقصود بالسلطة الزمنية هي سلطة السلطان العثماني ، لكننارأينا سلطة كلا الشخصين محاطة بقيود لا يستطيعون كسرها ، وهي قواعد ونظم الشريعة الإسلامية ، وهي النقطة الأساسية التي لا يسعها كرامرз وغيره من المستشرقين مطافاً .

أما بالنسبة للقب شيخ الإسلام فقد وقع حوله لغط كثير وإختلاف في الوقت الذي أطلق فيه هذه اللقب ،⁽²⁾ لكن مهما وصلت درجة الاختلاف لا يمكن أن يكون قد أطلقه شيخ الإسلام على نفسه من تلقاء نفسه .

ومن الثابت تاريخياً أن المشيخة العثمانية قد تأسست عام 828هـ / 1425م، إلا أن لقب شيخ الإسلام جاء بعد فترة ليست قصيرة نسبياً ، حيث أطلق في البداية على رئيس هذه المؤسسة في الدولة العثمانية لقب " مفتى " ، " المفتى الأكبر " ، " مفتى التخت " أو " مفتى العاصمة " ، " مفتى الأنام " إلا أن لقب شيخ الإسلام أطلق على مفتى العاصمة بعد حوالي 28 عام على الأقل ، عندما ظهر لقب شيخ الإسلام في قانون السلطان محمد الفاتح " فاتح قانون نامه " الذي صدر بعد فتح القدسية ، ثم في الفترة ما بين 857هـ - 886هـ / 1453م - 1481م بدأ يأخذ اللقب حيزاً شيئاً فشيئاً ، حتى أصبح خلال ق 10هـ / 16م لقباً رسمياً يطلق على رئيس المشيخة أو رئيس قطاع الشؤون الشرعية والدينية في الدولة العثمانية ، وتلاشت أمامه بقية الألقاب .⁽³⁾

وقدحظى شيخ الإسلام باحترام خاص من السلطان ، حيث أن أكبر الامتيازات التي حصل عليها في استقبال السلطان له في المراسم أن له الحق في الإمساك بيدى السلطان أو كتفه .

وتقبيل ياقه ثوب السلطان ، ويكون السلطان بذلك احترم الدين والعلم والعدالة في شخص شيخ الإسلام . وحتى في عصر ضعف الدولة العثمانية تمسك السلطان العثماني باحترام الإسلام في شخص شيخ الإسلام ، وقد كان السلطان يصطحب شيخ الإسلام في

⁽¹⁾ كرامر : مادة شيخ الإسلام ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 13 ، ص 474 .

⁽²⁾ لمعرفة المزيد عن هذا الإختلاف الرجوع إلى عبد العزيز الشناوي ، ج 1 ، ص 312 ، 313 .

⁽³⁾ أحمد صدقي شفيقات : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 123 .

حملاته وفتوحاته ، وكانت الدولة العثمانية تتيح له التقدم حتى على الصدر الأعظم في الاجتماعات واللقاءات ^(١).

ومن اللافت للنظر هنا أن شيخ الإسلام كان الموظف الوحيد الذي يتمتع بحصانة مقدسة ، وقلما يجرؤ السلطان العثماني على المساس به ، ولم يحدث أن تعرض شيخ الإسلام لأي اضطهاد إلا في أحوال نادرة جداً حتى أصغر الموظفين في هيئة العلمية ت茅عوا بهذه الحصانة المكتسبة . ^(٢)

وظيفته الأصلية الإفتاء ، ولانشغاله بأمور كثيرة يحضر الفتوى التي تطلب منه ، موظف في الهيئة العلمية بدرجة قاضي عسكر ، ويسمى " فتوى أميني " "أمين الفتوى " الذي يعرضها دوره على شيخ الإسلام للمصادقة عليها ، وأمين الفتوى يكون من أعظم فقهاء عصره ، ويحق لأي مواطن أن يطلب الفتوى من المشيخة ، فإن طلبه يجاب بصورة أكيدة. ^(٣)

وعادة ما يكون المفتين والقضاة هم من درسوا القانون والإفتاء وتقدموا في دراستهم وبعد إكمال الدراسة يعينون في المدن المهمة ، ومن يبقى منهم فإنهم يوزعون أئمة على المساجد ، وكان يحق لجميع العثمانيين الدخول في هيئة العلماء ، وهي قاعدة عامة في الدولة العثمانية ، ولا تقتصر على طبقة معينة ، وكانوا يدرسون تحت مسمى صوفت " تلميذ " في مدارس ملحقة بالمسجد ، والمتقدمون والمتتفوقون في دراستهم يعودون لمناصب القضاء ، وهؤلاء يجتازون مراحل مطولة وامتحانات متعددة تستغرق سنوات طويلة حتى يصل لمرحلة الإفتاء . ^(٤)

أما من حيث المنصب فهو منصب ديني وعلمي ، يسلك من يرغب العمل به التعلم في المدرسة التي كانت عبارة عن المؤسسة الإسلامية التقليدية المستقرة لدى العثمانيين ، وبعد أن يحصل الطالب على القدر اللازم من التحصيل العلمي والديني ، ينال شهادته

^(١) يلمازا وزنونا : مصدر سابق ، ج 2 ، ص 475 . علي سلطان : تاريخ الدولة العثمانية ، ط 1 ، دمشق : منشورات مكتبة طرابلس العلمية العالمية ، 1991م ، ص 151 .

^(٢) علي سلطان : مرجع سابق ، ص 152 .

^(٣) يلمازا وزنونا : مصدر سابق ، ج 2 ، ص 476 .

^(٤) أميرة علي مداح : مرجع سابق ، ص 57 . علي سلطان : مرجع سابق ، ص 153 ، 154 .

وإجازته ويتخرج ، ثم يشغل إحدى الوظائف القضائية أو الدينية أو بعض المواقع المهمة في مجال تخصصه ، ولا شك أن كل المنخرطين في هذا المجال من العثمانيين المسلمين .

وحافظت هذه الفئة على تقاليدها جيداً ، وتمسك بصلاحياتها وامتيازاتها .

المراحل التي مرت بها المناصب الدينية في الدولة العثمانية :

هناك أربع مراحل أساسية مرت بها هذه المهنة :

(١) دور التشكّل مع الخصائص المميزة لها على مسار التاريخ .

(٢) دور النضج .

(٣) دور الضعف .

(٤) دور محاولات استجمام القوة فالانكماش .

وفي المرحلة التي بدأت من أواسط ق ٩١٥هـ / 15 م التي استمرت حتى أوائل ق ١١٧هـ / 17 م شكلت نظرة مهنية سليمة ، إذ حدثت تطورات مهمة على من يتولى المنصب ، مثل تحديد الدرجات المقررة في مجال التعليم والقضاء ، وتحديد وظائف العلماء الدينية والتشريعية وإطار عملهم وصلاحياتهم ومسؤولياتهم . واستمر ذلك التطبيق حتى أواسط القرن ١٣٩هـ / 19 م ، ثم لم يلبث أن أخذ في الانكمash بعد عام ١٢٣٦هـ / 1820 م ، غير أن الميزة الأساسية التي ميزت مرحلة النضج هذه ، هو أن مكانة العلماء وشيوخ الإسلام الإيجابية المتماسكة قد ظهرت بوضوح واستشعرتها الدولة وكل طبقات المجتمع العثماني . أما في القرن ١١٧هـ / 17 م فقد بدأ شيخ الإسلام يدخل شيئاً فشيئاً في معمعة السياسة ؛ نظراً لتغير الظروف داخل وخارج الدولة العثمانية .^(١)

خامساً : أرجع نظام شيخ الإسلام إلى التأثر بطبقات رجال الدين النصارى .

" نجد أن تنظيم علماء الدولة العثمانية تحت رئاسة شيخ الإسلام من رجال الدين قد يكون متأثراً من جهة بطبقات رجال الدين النصارى في الإمبراطورية البيزنطية يرأسهم بطريق يشرف على شؤون النصارى جميعاً ." ^(٢)

^(١) أكمل الدين أحسان أوغلي : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٣٣٥ - ٣٣٨ .

^(٢) كرامز : مادة شيخ الإسلام ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج ١٣ ، ص ٤٧٤ .

إن دأب المستشرقين دائمًا إرجاع أي تنظيم إسلامي إلى التنظيمات النصرانية ، دون إبراد وجه الشبه بينهم أو أدله وبراهم لتثبت صحة أقوالهم، وإنما الحديث فقط في ترهات متكررة دون سبب واضح .

ومن الأمثلة الكثيرة في ذلك إرجاعهم نظام شيخ الإسلام وما معه من رجال إلى التأثر بطبقات رجال الدين النصارى في الإمبراطورية البيزنطية ، ولا تعرف الدراسة على أي شيء استند أو ما هي أدلته التاريخية ؛ إذ لا يوجد مجال أو شكل للمقارنة بينهم .

فالهيئة الدينية الإسلامية في الدولة العثمانية تختلف تماماً في طبيعتها وتكونيتها عن جميع الهيئات الدينية المسيحية في أوروبا ، فالدين الإسلامي لا يعترف بوجود طبقية دينية ، فالناس سواسية ، ويتميز الإسلام بالبساطة والسماعة والبعد عن التعقيدات ، ولا يضع وسيطاً بين العبد وربه ، وهناك أفراد تفهوا في الدين الإسلامي وشريعته السمحاء ، وهم العلماء الذين لا يشكلون طبقة خاصة أو مغلقة ، وإنما يكفي الشخص أن يتعلم أصول الدين الإسلامي حتى يصبح قادرًا على الأذان وإماماة الناس في الصلاة أو قول الخطبة ، أو أداء أي من الأعمال التي تتصل بإقامة الشعائر الدينية ، ولا يشترط مكاناً معيناً لأداء هذه الشعائر ، كما لا يشترط كما لا يشترط أن تؤدي من قبل شخص بعينه ، ولا يحكم ببطلانها إذا أداها أي شخص عادي .⁽¹⁾

وهناك أمر آخر يفرق بين الهيئات الإسلامية والمسيحية ، وهو أن رجال الكنيسة في أوروبا يضعون القوانين من عند أنفسهم ، وكانوا مستبدین بقوة في تنفيذ هذه القوانين الوضعية باسم التشريع ، وفي المقابل نجد علماء الإسلام يعتمدون على الاجتهاد ، وليس لهم حق التشريع أبداً ؛ لأن الإسلام تشريع سماوي من عند الله تعالى فسلطة التشريع في إخراج الأحكام فقط وليس ستها .⁽²⁾

كما أن رجال الكنيسة الأوروبية يتكلمون وكأنهم يمسكون بمصائر الناس ، فهم يمنحون الغفران لمدة محدودة إذا قاموا بعمل يحقق مصالح شخصية ومادية لرجال الكنيسة،⁽³⁾ والشعب كأنه آلات مسخرة لخدمة الكنيسة ، في الوقت الذي يعطي فيه علماء الدين الإسلامي الطمأنينة والسكينة والفهم الحقيقي للشريعة الإسلامية .

⁽¹⁾ عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 310 .

⁽²⁾ مصطفى حلمي : مرجع سابق ، ص 106 ، 107 .

⁽³⁾ ذكر بعض الأمثلة عن صكوك الغفران في الفصل الأول المبحث الثاني .

والشكل الحقيقي لمشيخة الإسلام هو في منتهى البساطة وبعيد عن التعقيد فمشيخة الإسلام عرفت في الاصطلاح العثماني باسم (باب مشيخت) أو (فتواخانه)⁽⁴⁾ ، وتضم عدداً كبيراً من موظفي الهيئة العلمية ، يشتغلون بالأمور الإدارية والعلمية والدينية ، ثم يجعلونها جاهزة حتى يطلع عليها شيخ الإسلام . ويأتي على رأس هؤلاء الموظفين أمين الفتوى (فتوا أميني)⁽¹⁾ ، بينما كانت دور الإفتاء في الأيات والسنائق والأقضية هي الأجهزة التابعة لمنصب المشيخة خارج العاصمة . وكما كان لشيخ الإسلام صلاته الوثيقة بالسلطان الحاكم وكبار رجال الدولة ، والأهالي ، كان المفتون أيضاً خارج العاصمة على الصلة نفسها مع الإداريين والأهالي حيث يعملون .⁽²⁾

سادساً : تصوير كرامرز لبعض السلاطين بأنهم استهانوا بشخصية شيخ الإسلام، لتحقيق رغبات ومصالح خاصة بهم وإصدار فتاوى مخالفة للشرع .

"بلغ الأمر بالسلطان عثمان الثاني أن حرم المفتى جميع امتيازاته لرفضه إصدار فتوى بتحليل أن الأخ يقتل أخيه".⁽³⁾

كل المستشرين - تقريباً ودون استثناء - تحدثوا عن أمر قتل الإخوة ، لكنّ أحداً منهم لم يورد نصاً صحيحاً عن هذا الأمر ، أو حتى وثيقة أو نص فتوى ، وإنما يرددون الفرية دون سند تاريخي ، وقد أخذ كرامرز يردد الكلام نفسه محض تأليفه الخاص .

وسبق أن رأينا كيف حظي شيخ الإسلام بمكانة متميزة عند السلاطين ، ولم يتجرأ أحد أن يتعدى على هذه المكانة إلا فيما ندر ، ويوجد في التاريخ العثماني كثير من الأمثلة عن مدى احترام السلاطين لشخص شيخ الإسلام .

ولكن في البداية لابد من توضيح أمر مهم ، وهو أنه من خلال البحث والاطلاع على سيرة حياة الشيخ محمد أسعد ، وهو شيخ الإسلام المقصود من الفقرة السابقة ،⁽⁴⁾ يتضح أنه

⁽⁴⁾ شمس الدين سامي : مصدر سابق ، ص982 .

⁽¹⁾ شمس الدين سامي : مصدر سابق ، ص982 .

⁽²⁾ أكمل الدين إحسان أوغلي : مرجع سابق ، ج 1 ، ص303 .

⁽³⁾ كرامرز : مادة شيخ الإسلام ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 13 ، ص474 . 476 .

⁽⁴⁾ محمد أسعد أفندي : 978هـ - 1034هـ / 1570م - 1625م ، تولى مشيخة الإسلام في عهد السلاطين : أحمد الأول - مصطفى الأول - عثمان الثاني - مراد الرابع مشيخته الأولى 1024هـ - 1031هـ / 1615م - 1622م ، الثانية 1032هـ - 1034هـ / 1623م - 1625م ، هو محمد أسعد محمد سعيد الدين حسن التبريزي ولد في عائلة تولى أفرادها مشيخة الإسلام ، فوالده وأخيه شيوخ إسلام . كان عالماً متبحراً في العلوم ، متدين ومتقنًا للفارسية والعربية والتركية ، أحسن علماء عصره ، عمل

لم يطلب منه إصدار فتوى بهذه أبداً لأنه لم يرد ذكر مثل هذا الأمر في سيرة حياته ، وإذا حدث كان لابد أن تذكر هذه الحادثة على الأقل في دفاتر فتاویه الموجودة إلى اليوم ؛ لأنها على درجة عالية من الأهمية ، وتحمل تهمة خطيرة في طياتها لسلطان مظلوم ، كما أن محمد أسعد تولى مشيخة الإسلام مررتين ؛ الأولى في عهد السلطان عثمان الثاني ما بين عامي 1024هـ - 1615م / 1031هـ - 1622م ، وعزل عن منصبه نتيجة حادثة مقتل السلطان عثماني الثاني ، ولم يذكر مطلقاً أنه جُرد أثناءها من امتيازاته، ورغم أن علاقته بالسلطان عثمان الثاني لم تكن حسنة ، لكن هذا لا يعني الاستهانة بقدسيّة منصبه⁽¹⁾ ، بالإضافة إلى أن السلطان عثمان لا يستطيع طلب فتوى بهذه تضييع باقي العلاقة الطيبة بينهما. وإذا كان كرامرز حريصاً على تأكيد هذه المعلومة ، فلماذا لم يورد نص الفتوى؟! فإمكانه الرجوع إلى دفاتر الفتاوى المحفوظة في دور الأرشيف لكنه لم يكلف نفسه عناء البحث ، وإنما اكتفى فقط برمي التهم خطأ .

" وقد أمر مراد الرابع بقتل المفتى أخي زاده حسين دون أن يرعى حرمة لجلال المنصب " .⁽²⁾

لقد حدث هذا الأمر فعلاً ، لكن كرامرز لم يكلف نفسه عناء شرح سبب وقوع مثل هذه الحادثة ، وهي واقعة قتل شيخ الإسلام ، فقد آلم الشيخ أخي زاده⁽³⁾ والعلماء جميعاً قرار السلطان مراد الرابع إعدام قاضي إيزنيق ؛ وذلك لكثره ظلمه وجوره على الأهالي

بالتدريس في بداية حياته ، ثم سلك القضاء حتى وصل إلى منصب قاضي عسكر الأناضول ، أدى فريضة الحج ، وبعدها مباشرة تولى منصب شيخ الإسلام ، عزل على إثر مقتل السلطان عثمان الثاني ، وأهم فتواه بشأن عدم لزوم حج المسلمين ، حتى لا تقع فتنة ، وذلك عندما أعلن السلطان عثمان الثاني رغبته في أداء فريضة الحج . ولله عدة مؤلفات أهمها ، تاج التواريخ ، وترجمة الرسالة الفشيرية ، بالإضافة إلى تركه عدداً من اللوح لأنه كان خطاطاً ماهراً . أحمد صدقى شيرات : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 462 – 466 .

⁽¹⁾ أحمد صدقى شيرات : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 462 ، 465 . الموسوعة التركية : الوقف الديني بتركيا ، ج 1 ، إسطنبول 1995م ، ص 340 ، 341 .

⁽²⁾ كرامرز : مادة شيخ الإسلام ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 13 ، ص 474 .

⁽³⁾ حسين أفندي أخي زاده : أول شيخ إسلام يقتل في عهد السلطان مراد الرابع 980هـ - 1043هـ / 1572م - 1634م . هو حسين محمد نور الله بن يوسف المعروف بأخي زاده ، كان أحد أعم العلماء في الفضل والذكاء والمعرفة وأعجبوه وقته في التبحر في الفنون والعربية ، ولد في إسطنبول ونشأ بها وعمل بالتدريس ثم عين في القضاء حتى تولى منصب شيخ الإسلام عام 1041هـ - 1632م / 1043هـ - 1634م في فترة عصيبة جداً حيث عمّت شوارع إسطنبول حركة تمردية من الإنكشارية والصدر الأعظم رجب باشا ، ودعم من والدة سلطان ماه بيكر كوسن واستمر في منصبه على الرغم من صعوبة الفترة التي تولى بها ، وانتهى الأمر بمقتله بدسسه من والدة سلطان ماه بيكر كوسن في 1 رجب 1043هـ / 7 يناير 1634م . أحمد صدقى شيرات : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 477 – 482 .

فشكوه للسلطان ، وبعد التحقيق في الشكوى أمر بإعدامه ، في الوقت نفسه أرسل الشيخ أخي زاده إلى السلطانة الوالدة ماه بيكر كوسن يرجوها أن تتصح ابنها بالامتناع عن الإقدام على هذا الأمر ؛ نظراً لأن النظام العثماني لا يقر إعدام أي فرد من العلماء ، والاكتفاء بعزله أو نفيه ، لكن المفسدون وشوا به عند السلطانة الوالدة ، فاعتقدت أن شيخ الإسلام يخطط لخلع ابنها السلطان ، فسارعت بإرسال رسالة لابنها السلطان لحثه على العودة ؛ لأنه كان في طريقه إلى بروسيا ، وضمنت معها رسالة شيخ الإسلام ، فعاد السلطان مراد الرابع مسرعاً ، وأمر بإعدام الشيخ أخي زاده شيخ الإسلام .⁽¹⁾

ولا شك أن إعدام شيخ الإسلام يعد خطوه جريئة من السلطان مراد الرابع، وتؤكد أنه لا يوجد امتياز عنده لأي صنف من الأصناف ، حتى ولو كان رئيس الهيئة الدينية في الدولة ، مع ضرورة التتبه إلى أن السلطان كان واقعاً تحت تأثير والدته بشكل مباشر .

وفي ذلك أيضاً إخطار للعلماء الذين أصبحوا أدلة عمياء في يد الطامعين في السلطة، وذلك في أعقاب مقتل السلطان عثمان الثاني .⁽²⁾

هذه وجهة نظر سلطان أراد أن يحافظ على حياته وعرشه من أي خطر ، ولم يكن يريد أن تطاله أيدي الأشقياء كما طالت من سلفه ، ويتحقق أنه لم يكن أمراً عابراً وإنما جاء نتيجة وشایة مغرضة .

وعند الحديث عن علاقة السلاطين بشيوخ الإسلام لابد من إدراك حقيقة مهمة ، وهي أن شيوخ الإسلام نالوا احترام السلاطين العثمانيين على مدى التاريخ العثماني ، ولم يكن هناك إلا استثناءات قليلة ركز عليها كرامز وكأنها أساس العلاقة بين الطرفين وترك الأصل دون ذكر أبداً .

وللعميق هذه النظرية لابد من التعرف على حادثة تاريخية ذات مغزى عميق وقعت في أوائل القرن 10 هـ / 16 م ، توضح لنا مدى اهتمام سلاطين الدولة العثمانية بالعلماء والمشايخ ، وكانت تلك الحادثة عام 898هـ / 1492م إبان عهد بايزيد الثاني ، حينما دخل أحد الشيوخ على مجلس يجتمع فيه كل الوزراء ورجال الدولة العثمانية ، فاجتاز ذلك العالم الديني كل رجال الدولة حتى وصل إلى جانب الصدر الأعظم ثم جلس إلى جواره، وأخذ كل رجال الدولة من وزراء وغيرهم يتطلعون والحقيقة تأخذهم إلى ذلك القاضي الشاب وهو

⁽¹⁾ أحمد صدقى شقيرات : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 482 .

⁽²⁾ يلمازا أوزوننا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج 1 ، ص 472 .

يجلس في موقع يفوق كل الرتب والمناصب الوزارية حينذاك ، وحينما سأله الجميع عن تلك المكانة التي جعلت هذا العالم وغيره من العلماء ينالون الاحترام ، كانت الإجابة بأن رتبة العلم والدين أعلى الرتب .⁽³⁾

إن هذه النظرة إلى رجل الدين ومكانته في المجتمع العثماني الأول ، والاحترام الكبير الذي ناله داخل القصر السلطاني منذ بدايته ، جعلت العديد من النماذج في المجتمع العثماني تبني على هذه النظرة في وقت لاحق .

والواقع أن أصحاب هذه المهنة التي كانت تجمع بين العلم والدين ، وخاصة الذين تخصصوا في القضاء والإفتاء كانوا حتى أوائل القرن 11هـ/17م يفرضون وجودهم على كافة قطاعات المجتمع ؛ بفضل ما كانوا يتحلون به من العلم والأخلاق ، ثم لم يلبثوا بعد ذلك التاريخ أن استنزفت قواهم وفقدوا اعتبارهم ومكانتهم السابقة بسبب الفساد والانحطاط في أساليب تعليمهم ، والأحداث التي زلت بهم في تيار السياسة .⁽¹⁾

لقد جاء في قانون نامه الفاتح قوله : " لقد فوضنا إصدار الأحكام تحت نظر ائنا الشريفة إلى ثلاثة جهات ، فالأحكام التي تتعلق بأمور العالم تكتب إلى العموم بأمر من وزيري الأعظم ، والأحكام التي تتعلق بأموالنا تكتب بأوامر دفتردارينا ، وأحكام قضايا الشرع الشريف تكتب بأوامر من قضاة عسكرنا" .⁽²⁾

ومعنى ذلك أن كافة شؤون الحكم دنيوية أم دينية كان تُجرى باسم السلطان ، واعتماداً على ذلك يمكننا القول إن السلطان كان يفوض الصدور العظام في استخدام صلاحياته الدينية، أما صلاحياته الدينية فكان يفوض عليها قضاة العسكر في البداية ، ثم فوض فيها شيخ الإسلام فيما بعد .

فالمعروف أن عمليات التعيين والعزل التي تُجرى لهذين المنصبين كانت من صلاحيات السلطان المطلقة ، كما أن كافة القرارات الصادرة عن الديوان الهمایوني كان لابد

⁽³⁾ Arif Bey : Devlet-I Osmaniye nin Teessus ve Takarruru Devrinde ilim ve Ulema Darulfunun Edebiyat Fakultesi Mecmuası , Sayı II , İstanbul 1332 , S. 137 – 144 .

⁽¹⁾ أكمل الدين إحسان أوغلي : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 282 .

⁽²⁾ Abdulkadir Ozcan : Fatihin Teskilat Kanunname ve Nizam – 1 alem iqin kardes katli meselesi . TD. İstanbul 1982 , SY . 33 , S . 36 .

من عرضها على السلطان للتصديق عليها عقب اجتماعاته، وهذا يؤكّد أنّ السلطان كان المرجع النهائي في كل الأمور .

ولكن يجب الإشارة إلى وجود ثوابت تحد من صلاحيات السلاطين العثمانيين الذين اعتقدنا أنهم أصحاب صلاحيات مطلقة ، لأن أقوى السلاطين العثمانيين أنفسهم مثل سليم الأول وسليمان القانوني قد أدركوا من خلال حوادث كثيرة كيف أن سلطاتهم محدودة ، وب يأتي على رأس تلك الثوابت قواعد التشريع الإسلامي ، وهو الأمر الذي تعرض له المفتى المشهور أبو السعود أفندي ⁽¹⁾ في بعض فتاواه المتعلقة بإدارة الدولة بقوله : " لا يصح الأمر السلطاني فيما لا يقره الشرع " ⁽²⁾ .

ويكفي أن نلقي الضوء على علاقة بعض السلاطين الأقواء بشيوخ الإسلام، فنجد مثلاً السلطان سليم الأول عندما نما إلى علمه مدى المشكلات التي تسببها الأقليات غير المسلمة الموجودة في إسطنبول ، من إثارة الفتنة والقلق، فغضب لذلك ، وأمر بأن تُسلم جميع الأقليات أو يضرب عنق من يرفض.

وعندما علم شيخ الإسلام " زمبيلاي علي أفندي " ساعده ذلك جدًا ، إذ كيف يكره الناس على اعتناق الإسلام ، وفي ذلك مخالفة للشرع ، فأصر على التصدي لسليم الأول ، فقابلته وشرح له كيف أن هذا الأمر فيه مخالفة صريحة للنصوص الشرعية ، وضرب له مثلاً على تسامح السلطان محمد الفاتح أثناء فتح إسطنبول ، حتى افتعل السلطان سليم الأول الذي أدخل

(١) الشيخ أبو السعود أفندي : 896هـ - 1491م - 1574هـ / تولى مشيخة الإسلام في عهد السلطان سليمان القانوني وسليم الثاني ، وهو من أشهر شيوخ الإسلام على الإطلاق ، والعلماء أيضًا داخل الدولة العثمانية وخارجها ، برع على جميع علماء عصره هو الشيخ محمد أبو السعود محي الدين مصطفى أبو السعود العمادي ، ولد في قرية ديركلويلي بالقرب من بلدة إسكيليب ، والده من علماء المتصوفة ومقرب للسلطان بايزيد الثاني ، نشأ في كتف والده طالباً لراتب العلوم الشرعية ، ونقل عدة كتب وبرع في الأدب ، ثم بدأ في التدريس ، حتى تولى قضاء بروسة عام 939هـ / 1532م ، ثم تدرج إلى منصب قاضي عسكر الروم إيلي ، ثم تولى منصب المشيخة في شعبان 952هـ / أكتوبر 1545م ، تميزت علاقته بالسلطان القانوني بالعمق والحب الشديد أسمهم في تطوير المنصب والمهام الموكلة إليه ، وساعد على صياغة القوانين التي وضعها القانوني واستندت على المذهب الحنفي وعرفت باسم " قانون نامه " واستمر في منصبه إلى عهد السلطان سليم الثاني ، من أشهر مؤلفاته : إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ، مجموعة الفتاوى الخاصة به ، بضاعة القاضي في الصكوك ، تحفة الطالب في المنازرة ، حسم الخلاف في المسح على الحفاف ، قصة هاروت وماروت . وغيرها مؤلفات عده ما يقارب 13 مؤلفاً . توفي في يوم الأحد 5 جماد الآخر 982هـ / 23 أغسطس 1574م ، وقد حزن عليه السلطان سليم الثاني حزنًا شديداً . انظر : أحمد صدقي شقيرات : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 386 - 400 .

(٢) M.Ipsirli : Insan Haklari ve Sasyal Aaisindar Osmanli Fetualari ، Turklerde insani Degerler ve insane Haklari ، II ، Istanbul 1992 ، S ، 115-117 .

الحرمين الشريفين للحكم العثماني بقرار شيخ الإسلام ، وتراجع عن قراره ولم يكره أحداً على الإسلام .⁽³⁾

سابعاً : قدم كرامر أمثلة عن الفتاوى التي كان يصدرها شيخ الإسلام ، دون توضيح للظروف الصحيحة لهذه الفتوى .

"الفتوى التي أصدرها على جمالي في شأن الحرب التي شنت على مصر 1516م والفتوى التي أصدرها أبو السعود بخصوص الحرب على البندقية 1570م".⁽¹⁾

بالنسبة لفتوى الأولى التي صدرت بشأن حرب الدولة العثمانية على الدولة المملوكية 922هـ - 1517م فقد حررها شيخ الإسلام علاء الدين بن علي الجمالي⁽²⁾، والمشهور زنبيلي على أفندي شيخ الإسلام في عهد السلاطين بايزيد الثاني وسليم الأول وسليمان القانوني ، وهناك اختلاف حول اسمه حيث ذكرت بعض المصادر أن اسمه الأول على ومصادر أخرى أنه علاء الدين⁽³⁾، فكان الأولى ب Kramerz أن يذكر اسم شهرته ، ولا يحاول هذه المحاولة الملفقة الواضحة للتلوين من أمر شيخ الإسلام الذي أصدر هذه الفتوى ، فقد اكتفى بذكر اسمه الأول الذي هناك اختلاف حوله .

أما بالنسبة لفتوى التي أصدرها الشيخ زنبيلي على أفندي ، فهي ثلاثة فتاوى صدرت مستندة إلى قواعد الشريعة الإسلامية لتجيز حرب المماليك⁽⁴⁾ ، وليس فتوى واحدة كما ذكر Kramerz وجاءت صحيحة تماماً من الناحية الشرعية.

⁽³⁾ أورخان محمد علي : مرجع سابق ، ص 56 - 58 .

⁽¹⁾ كرامر : مادة شيخ الإسلام ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 13 ، ص 476 .

⁽²⁾ زنبيلي على أفندي : 932هـ / 1525م ، من أشهر شيوخ الإسلام ، عاش زمن السلطان بايزيد الثاني ثم سليم الأول ثم سليمان القانوني ، وهو من أشهر مؤرخي الدولة العثمانية ، هو علاء الدين علي ، أحمد محمد الجمالي جمال الدين ، الاقسرا أبي محمد التبريزى ، المشهور بـ "زنبيلي أفندي" أخذ العلم والفقه والدين من علماء عصره ، وحفظ كثيراً من كتب الحديث ، درس العلوم الشرعية والعلقانية ، وكعادة شيوخ الإسلام عمل بالتدريس ثم تولى أمر الفتوى في أماكنها وبروسه ، أدى فريضة الحج ، ثم عين في منصب شيخ الإسلام 908هـ - 1503م ، وأهم فتاواه تلك التي أصدرها لتحليل قتال المماليك في مصر والشام والدولة الصفوية في بلاد فارس ، استمر في منصبه حتى بعد تولي سليمان القانوني الحكم . من أشهر مؤلفاته : "المختارات" وهو كتاب لطيف جداً في مختارات المسائل الفقهية ، ومجموعة من الفتاوى التي أصدرها ، توفي وهو على رأس

المشيخة . أحمد صدقي شفيرات : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 345 - 353 .

⁽³⁾ أحمد صدقي شفيرات : مرجع سابق ، ص 345 .

⁽⁴⁾ أحمد صدقي شفيرات : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 350 ، 351 .

أما الفتوى الثانية فلها ظروف مختلفة لم يوضح منها كرامرز شيئاً ، وهذا دينه دائمًا الاكتفاء بالإشارة دون توضيح ، وفي الوقت نفسه هذه الإشارة تعطي عكس المعنى تماماً .

والمعروف أن العثمانيين استعنوا بالفتاوی في العلاقات الدولية ، فعندما عزموا على فتح جزيرة قبرص كانت بينهم وبين البندقية معاهدة صلح ، فطلبوها الفتوى حول وجود هذه المعاهدة ، وهل تشكل عائقاً أمام الفتح أم لا ؟ فكان الرد من أبي السعود أفندي : أن قبرص كانت في أيدي المسلمين قبل ذلك ، وأن فتحها واجب ، وأن معاهدة الصلح القائمة لا تحول دون ذلك ، ثم ضرب مثلاً بأن الرسول ﷺ كان قد تعاون مع أهل مكة على الصلح لمدة عشر سنوات في العام السادس للهجرة ، وأن الإمام علي رضي الله عنه ، قدم لهم المعاهدة ، ومع ذلك قام المسلمون بفتح مكة بعد عامين ، أي في العام الثامن للهجرة ، فقدم بهذه الفتوى مثلاً نموذجياً على منحه ، (١) مع توضيح أمر مهم جداً وهو عدم التعرض للأمنين وقتلهم دون وجہ حق .

وفي عام ١٢٥٠هـ / ١٧٩٠م عقدت الدولة العثمانية تحالفاً مع بروسيا ، فكان هو التحالف الأول الذي عقدته مع دولة غير مسلمة ، وكان العلماء قد اعترضوا على ذلك بدعوى أنه يخالف الشريعة الإسلامية ، فأصدر شيخ الإسلام حميدي زاده مصطفى أفندي (٢) فتواه بحوار ذلك ، فتم عقد التحالف ، كما أرسل حميدي زاده خطاباً إلى الصدر الأعظم حول الموضوع ، ذكر فيه أن الدخول في تحالف مع دولة مسيحية جائز شرعاً ، وأن هناك أمثلة عليه ، وأن العلماء إنما يعبرون عن رأيهم في المسائل الشرعية ، ثم أشار إلى أن القرار في ذلك إنما يصدر بطلب من الصدر الأعظم وأمر من السلطان العثماني نفسه ، كاشفاً عن أمر طريف في كيفية سير المعاملات في مثل هذا الموضوع . (٣)

ثامناً : أرجع تدهور الدولة العثمانية إلى رجعية مشيخة الإسلام .

(١) كاتب جلبي : تحفة الكبار في أسفار البحار ، إسطنبول ، ١٣٢٩هـ ، ص ٨٨-٨٩ .

(٢) حميدي زاده مصطفى أفندي : ١١٤٤هـ - ١٢٠٨هـ / ١٧٣١م - ١٧٩٣م تولى المشيخة في عهد سليم الثالث ، هو مصطفى محمد حميدي زاده الأسبارطي لم يعرف مكان والدته ، كان مجتهداً بالتعليم وحصل على شهادة ، والده أحد أبرز قضاة القاهرة ، أما هو فمن كبار علماء الصوفية النقشبندية . عمل في أول أمره معلماً في السرايا ثم تولى قضاء إسكندر ونال عدة رتب ، ثم تولى مشيخة الإسلام في ٢٧ محرم ١٢٠٤هـ / ١٧ أكتوبر ١٧٨٩م ، انشغل بأمور العبادة والدعاء أثناء مشيخته حتى عزل في ٨ رجب ١٢٥٥هـ / ١٣ مارس ١٧٩١م ؛ عاش حياته المتبقية في مغنيسيا وتوفي بها . أحمد صدقى شقيرات : مرجع سابق ، ج ٢ ، ص ١٢٥ ، ١٢٦ .

(٣) أرشيف رئاسة الوزراء بإسطنبول ، تصنيف (خط همايوني H.H) وثيقة رقم ١٠٩٥ ، وأنظر أيضاً .
Kemal Beydilli : 1790 Osmnli Prusya ittifaki Istanbul ، 1992 .

" ويُعَزِّى تَدْهُورُ الدُّولَةِ العُثْمَانِيَّةِ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ إِلَى رُوحِ الرِّجْعَيَّةِ التِّي يَتَسَمُّ بِهَا نَظَامُ مُشِيقَةِ الإِسْلَامِ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ مِنَ الْأَمْوَارِ الْوَاجِبِ ذِكْرُهَا أَنَّ الْمُفْتَيَيْنِ بَدَوَا أَقْلَى رِجْعَيَّةً مِنْ عَمَّمِ رِجْعَيَّةِ رِجَالِ الدِّينِ " ⁽⁴⁾

كثيراً ما يصف المستشرقون أي شخصية تتمسك بالشريعة الإسلامية بالرجعية والتأخر ورفض التجديد . وقد سبقت الإشارة كيف أن السلاطين العثمانيين كانت سلطتهم محدودة وليس مطلقة ؛ فهم محكومون بقواعد الشريعة الإسلامية ، وهذه القواعد دليل الرجعية عند المؤرخين ! .

فأولى أن يكون شيخ الإسلام يسير وفق تعاليم الإسلام ، لا يستطيع مخالفتها أبداً فهل تعتبر هذه رجعية في نظر المؤرخين ؟

والصحيح أن تدهور الدولة العثمانية لا يرجع إلى تمسك شيوخ الإسلام بقواعد الشريعة الإسلامية ، ولكن له عدة أسباب أهمها على الإطلاق انحراف العثمانيين عن جادة الطريق ، وتركهم الحكم بتعاليم الشريعة الإسلامية ، وسعدهم خلف القوانين الأوروبية . أما عن السبب في أن المفتى أقل رجعية من رجل الدين - على حد قوله - فهو أن المفتى متافق في الدين وعلى مستوى عالٍ فيه ، لذلك فهو يتصرف بالمرونة والتسامح أكثر من عالم الدين .

تاسعاً : أرجع كرامز الفضل في التعبير عن أي فكرة لشيخ الإسلام لكتاب الأوروبيين النصارى .

" أَنَّ أَوَّلَ مَنْ عَبَرَ عَنْ فَكْرَةِ مَا لَشِيفَخِ الإِسْلَامِ مِنْ أَهْمَىَّ كَبَرِيَّ فِي نَظَرِ الْعَالَمِ الإِسْلَامِيِّ بِأَسْرِهِ هُمُ الْكِتَابُ الْأَوْرُوبِيُّونَ النَّصَارَى " ⁽¹⁾

يبدو أن كرامز عندما كتب هذه الجملة لم يدرك مدى خطأه ، لأنَّه لو اطلع قليلاً على سير شيوخ الإسلام لوجد أنَّ أغلبهم - إن لم يكن جميعهم - تركوا مجموعة من المؤلفات والكتب التي تناولت جوانب هذه المؤسسة العريقة ، بالإضافة إلى ترك جميع الشيوخ لمجموعات من فتاواهم ، تمثل أهم منجزات مشيخة الإسلام على الصعيد العملي في الحياة الاجتماعية والقانون ، حيث تطرق هذه الفتوى إلى مختلف النواحي من قضايا اجتماعية ، وأحوال شخصية ، وجُمعت كثيراً من الفتاوى في مجلدات خاصة ، محفوظة في

⁽⁴⁾ كرامز : مادة شيخ الإسلام ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 13 ، ص 476 .

⁽¹⁾ كرامز : مادة شيخ الإسلام ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 13 ، ص 477 .

دار الأرشيف برئاسة الوزراء بإستانبول ، ودار الكتب المصرية ،⁽²⁾ ولو أن كرامر أطلع عليها لأدرك مدى بعد الكتاب النصاري عن أي فكرة عن هذا المنصب ؛ لأن أصحاب المنصب قد تركوا إرثاً يعطي صورة واضحة عنهم .

ومن أهم الفتاوى التي جمعت على نطاق واسع فتاوى الشيخ أبي السعود أفندي ، وفتاوي زنبيلي علي أفندي ، والفتاوي السعودية للشيخ سعد الله جلبي أفندي ،⁽¹⁾ وغيرها.⁽²⁾ بالإضافة إلى أنه في عام 1286هـ / 1869م شكلت لجنة في الدولة العثمانية خاصة لتتبع شيوخ الإسلام برئاسة جودت باشا ،⁽³⁾ وشرعت بوضع أول قانون مدنى عثماني يستند إلى أحكام الشريعة الإسلامية ، ثم صدر الكتاب ويطلق عليه كتاب "البيع" ، ثم توالت صدور هذه الكتب حتى بلغ عددها 16 كتاباً عام 1293هـ / 1876م ، وتضم هذه الكتب بين صفحاتها 1851 مادة ، وترجمت إلى العربية والإنجليزية والفرنسية.⁽⁴⁾

إضافة إلى الكثير من المؤلفات العثمانية التي لابد أنها تتناولت ولو القليل عن بعض ملامح هذه المؤسسة التي زاد ظهورها في ق 13هـ / 19م . بالإضافة إلى سالنامه التي يسهل الوصول إليها في أرشيف رئاسة الوزراء أو المكتبات بإستانبول .

عندما كتب كرامر مادته عن شيخ الإسلام جاءت كبقية مواده إذ ينقصها الدراسة الكاملة والفهم التام للشخصية التي يتناولها أو المنصب .

إن مادة شيخ الإسلام لم تعط الصورة الحقيقة مطلقاً لهذا المنصب ، بل جردته من كل المعاني الجميلة فيه ، وأخرجته بشكل جاف خارٍ من الداخل ، ولم تكن مادة شيخ الإسلام

⁽²⁾ أحمد صدقى شقيرات : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 121 .

⁽¹⁾ سعد الله جلبي أفندي : 945هـ / 1539م . شيخ إسلام في عهد سليمان القانوني هو سعد الله بن عيسى أمير خان التامى الطاطي الحنفى الرومى المشهور بـ "سعدى" أو جلبي ، ارتحل مع والده إلى إستانبول وتلقى تعليمه الأول فيها ، ثم أصبح قاضياً في إستانبول عام 930هـ / 1523م ، ثم عمل في التدريس ، وفي 3 شوال 940هـ / 17 إبريل 1534م تولى المشيخة وبقي فيها حتى وفاته في 2 شوال 945هـ / 22 فبراير 1539م . أهم مؤلفاته : له العديد من الرسائل والتعليقـات والكتب والحواشـى ، ومجموعة من الفتاوى المجموعـة باسمـه . أحمد صدقى شقيرات : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 387 - 369 .

⁽²⁾ أحمد صدقى شقيرات : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 121 .

⁽³⁾ جودت باشا : 1238هـ - 1313م / 1895 - 1822م ، هو أحمد جودت باشا شاعر وأديب ومؤرخ وسياسي عثماني ، أشرف على قطاع التعليم النظمـي في الدولة العثمانـية في بداية عهد الإصلاحـات ، أشرف على إعداد مجلـة الأحكـام العـدلـية العـثمـانـية

⁽⁴⁾ تولى نظارة العدـلـية العـثمـانـية 5 مرات ، أهم مؤلفاته " تاريخ وقائـي دولـي عـلـيـه " والمعـروـف باـسـمـ تـارـيـخ جـودـتـ فـي 12 مجلـد . أحمد صدقى شقيرات : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 122 ، يـلـماـزاـ وزـتوـنا : تـارـيـخ الدـولـة العـثمـانـية ، ج 2 ، ص 503 ، 504 . أكـملـ الدين إحسـانـ أوـغـلـىـ : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 517 ، 518 .

بأفضل حال من مثيلاتها من مواد كرامرز ؛ إذ جاءت كلها على شاكلة واحدة ، فأهم ما يميزها نقص المعلومة الكاملة الصحيحة الموثقة .

وأخيرًا فقد تم إلغاء المشيخة الإسلامية من على أرض الواقع ، ودخلت هذه المؤسسة الكبيرة في التاريخ ، عندما أُلغيت السلطنة في 11 ربيع الأول 1341هـ / 1 نوفمبر 1922م ، وأُسقطت حكومة السلطان محمد وحيد الدين السادس ، فغادر البلاد وسقطت مشيخة محمد نوري أفندي آخر شيخوخ الإسلام في الدولة العثمانية ، وانتهت دائرة المشيخة التي استمرت 513 سنة .⁽¹⁾

وهكذا أُسدل الستار على مؤسسة من أعرق المؤسسات الدينية على مستوى التاريخ الحديث والمعاصر ، ولم يعد هناك من يحمل لقب شيخ الإسلام كما كان في الدولة العثمانية .

⁽¹⁾ أحمد صدقي شفيرات : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 480 .

ومن العرض السابق لمواد تختص بالنظم العثمانية من دائرة المعارف الإسلامية

يتضح ما يلي :

(١) المشروع في الإسلام أن أهل الذمة تؤخذ منهم الجزية فقط مقابل الإقامة في ديار الإسلام بأمان ، وإذا أذوا الجزية نقداً حُرِّم فتالمهم أو الاعتداء عليهم ، كما أنها تؤخذ من القادرين فقط ، ويفى منها الفقير والمرأة والصبي ، فلا يغلب أهل الذمة على صبيانهم ولا نسائهم ، فكيف يقال أن العثمانيين كانوا يأخذون الصبيان من أهل الذمة . فبأي حق إذ لا يوجد نص شرعي يوجب هذه الضريبة الغريبة . لم تنتزع الدولة العثمانية أطفالاً بل اعتمدت على ما تقدمه الأسر المسيحية طوعاً من أبنائها للانخراط في الانشكارية ، بل لا توجد وثيقة واحدة تشير صراحة إلى هذا القول ، أو تدل على أن الدولة العثمانية مارست أي ضغوط على الأسر المسيحية . في المقابل توجد وثائق تدعم أن المسألة كانت مجرد جمع جنود وإرسالهم إلى أدرنه للانخراط في الانكشارية ، وذلك في إطار التجنيد الإجباري المتبع دائماً في أغلب الدول الإسلامية عبر التاريخ .

(٢) الأولاد الذين أدعوك الفريسة أنهم انتزعوا من ذويهم تراوحت أعمارهم ما بين العاشرة والخامسة عشر عاماً . فهل من المعقول أن ينسى هؤلاء أهلهم وقرابهم وحياتهم السابقة ؟! إذ لا توجد حادثة واحدة أو وثيقة تدل على أن أحدهم اعترض على جمع أبناء قريته المسيحية فيما بعد ، أو تقديم المساعدات المالية لقريته بعينها ، على الرغم من أن بعضاً من هؤلاء يمتلك القوة للقيام بهذا الأمر ؛ لأن بعضهم وصل إلى مرتبة وزير وصدر أعظم ، ولم يتجرأ أحد المستشرين وأورد دليلاً واحداً أو مصدراً أو وثيقة أو حادثة تدل على وجود هذه الضريبة . و هذا - لا شك - من مقتضيات البحث العلمي ؛ فرواية بهذه تحمل في طياتها تهمة لشعب بأسره .

(٣) أن خمس الغنائم للحاكم حق مشروع في الإسلام وليس انتزاعها ، لقوله تعالى : ﴿أَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِرَسُولِهِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾^(١) الآية واضحة وصريرة ، فالغنيمة تقسم على من حدتهم الآية ، وليس من الضروري أن يكون نصيب الحاكم أطفالاً صغاراً ، بل يمكن أن تكون متاعاً أو مالاً

^(١) سورة الأنفال : آية ٤١ .

أو دواب . فما الذي يجعل غنيمة الحاكم أطفالاً صغاراً فقط وتجمع كل سنة ؟ إن الغنيمة تجمع في وقت الحرب فقط ، لا تنتزع بصفة دورية .

(٤) لا يوجد شيء اسمه الإكراه في الإسلام ، فالقاعدة الشرعية في هذا الأمر واضحة لا غبار عليها : « لَا إِكْرَاهٌ فِي الدِّينِ قُدِّمَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيْرِ »^(٢) فالآلية واضحة إذ لا يجوز إجبار أحد ولا إكراهه على الدخول في الإسلام، فكيف بانتزاع الأطفال من ذويهم ؟ ثم أنهم إذا أكرهوا على الإسلام فمن البديهي أن تبقى النصرانية في قلوبهم ، وعند أول معركة يخوضونها سينضمون لصفوف العدو من أبناء ملتهم ، ويتركون العثمانيين ، لكن ما حصل على العكس تماماً ، فالجندي الانكشاري كان دائماً يحلم بالشهادة .

فليس هناك سبب منطقي يجعل الدولة العثمانية تتحمل عنااء انتزاع الأطفال وصرف الجهد والمال والوقت في انتظار أن يكبروا هؤلاء الأطفال ويستطيعوا حمل السلاح ، في الوقت الذي يوجد فيه شباب المسلمين الذين تربوا أصلاً على حب الجهاد في سبيل الله .

(٥) أشارت (مادة حرير) للحرير العثماني باختصار لدرجة أنه أخل بالسياق العام ، ولا يستطيع القارئ الخروج منها بمعلومة مفهومة ، وإنما شذرات عن وضع الحرير عبر العصور الإسلامية التي هي أيضاً خاطئة في أصلها ، وبالتالي طمست الحقيقة تماماً . ولم تذكر المادة أي معلومة عن أنظمتهم الداخلية أو علاقتهم وإنما اكتفت فقط بالإشارة إليهم بكلمات متقطبة ومخالفة للواقع تماماً .

(٦) لم يستطع أحد المستشرقين الدخول يوماً إلى الحرير العثماني ، أو حتى استراق النظر إليه ، وحتى النساء الأوروبيات اللائي استطعن الوصول إليه لم يدخلن إلى جميع المناطق فيه ، وإنما بعض الصالات المخصصة لاستقبال الضيوف وليس لمعيشة الحرير ، مما لا يعطي صورة واضحة ، وإنما أثارت خيالهم فقط ، مما زاد من قوة تخيلهم في الاتجاه الخاطئ تماماً عندما تناولوه بالكتابة . مع اقتناع المستشرقين بأن أي نماذج تختلف ما كتبوه أنها شواذ عن القاعدة .

(٧) أغلب المصادر الموثوقة التي تناولت الحرير العثماني اعتمدت على مذكرات شخصية لحرير سبق لهن العمل في الحرير العثماني ، أو مقابلات شخصية معهن على اعتبار أنهن معاصرات للأحداث ، أو من خلال الخطابات التي تبودلت بين سيدات القصر

^(٢) سورة البقرة : آية 256 .

العثماني وبعض الأمراء الأوروبيات أو بين الحرير بعضهن البعض ، ولم يكفل المستشرق نفسه عناه البحث عن أي معلومة صحيحة ، وإنما اعتمد على خياله المريض، ولوحات الفنانين الذين صور لهم خيالهم الحرير العثماني بصورة خاطئة ، ومعلومات النقاطها من مجتمعات نسائية خاصة لأسر ليس لها علاقة بالحرير العثماني.

(٨) للأسف ركزت دائرة المعارف الإسلامية على نماذج متسلطة للحرير العثماني ، تلك النماذج استخدمت نفوذها لدى السلطان زوجها أو السلطان ابنها لتنفيذ رغباتها ، أي نماذج مستبدة ، ولم تذكر نماذج عن نساء سلاطين بعيدات عن الحياة السياسية أو لهن أعمال خيرية واضحة ، أو حتى من كن على علاقات مع أمراء أو ملكات في أوروبا .

(٩) لقد أغفلت مادة شيخ الإسلام حقائق مهمة عن علاقة السلاطين بشيوخ الإسلام ومدى احترامهم ومكانتهم في الدولة العثمانية . حيث ركزت المادة فقط على ذكر نماذج لفتاوی تختص بالمعارك وخوض الحروب ، ولم تذكر فتاوى عن التسامح الديني مثلاً ، ولم تذكر أن فتاوى شيخ الإسلام كانت تستند دائمًا إلى الشريعة الإسلامية .

(١٠) محاولة كرامرز إقحام نظام رجال الدين والمؤرخين النصارى في المادة بشكل أو آخر ، حتى جاءت الجمل التي ذكرها ركيكة جدًا ويتضح فيها الدّس .

(١١) وصف كرامرز النظام بالرجعية ؛ وذلك لالتزام شيوخ الإسلام بقواعد وأسس الشريعة الإسلامية ويعاب عليه تكرار الافتراضات نفسها دون سند تاريخي موثق ، مثل الفتوى التي تبيح قتل الإخوة لدرجة أن الأمر أصبح مملاً من كثرة التكرار .

(١٢) تأكيد كرامرز على عدم وجود مصادر واضحة لمنصب شيخ الإسلام ، على الرغم من قلة هذه المصادر إلا أنها ليست معروفة ، ولو بحث كرامرز قليلاً لوجد الكثير ، يكفيه فقط (الشقاقي النعمانية) وهو كتاب ترجم لشيوخ الإسلام .

التصيات

التوصيات

إن وجود الاستشراق على مائدة الفكر العالمي ونشاطه يفرض على المسلمين جميعاً مسئولياتٍ ضخمة في سبيل المواجهة العلمية للمؤسسة الاستشرافية العالمية؛ وذلك من أجل تصحيح المفاهيم وإثبات الحضور الإسلامي على المستوى العلمي في الغرب، ولا يتأتى هذا الأمر إلا باتباع عدة خطوات تستهدف في النهاية تعریف غير المسلمين بالإسلام وحضارته، ومن ثم إعادة بناء صورة هيكل الإسلام المتهالك في الغرب، بالإضافة إلى تنقيف أبناء المسلمين الذين يعيشون في الغرب مما سيعطّيهم حصانة فكرية وثقافية عند الاطلاع على مؤلفات المستشرقين، فيصبح الطريق أمامهم واضحاً ومنيراً لهم وللأجيال القادمة.

ومما لا شك فيه أن دور المملكة العربية السعودية الرائد بقيادة خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز - حفظه الله - في الدعوة إلى حوار الأديان له دليل ساطع على بداية اتخاذ المملكة لهذه المبادرة، وهي إظهار الإسلام بصورةه الحقيقة للغرب، فنحن اليوم أحوج ما نكون إلى الإسلام لا سيما في ظل الظروف الراهنة، ولعل زيارة الملك عبد الله بن عبد العزيز - حفظه الله - إلى الفاتيكان تدل على مدى حرص المملكة على سلوك هذا الاتجاه، وتعریف الغرب بصورة الإسلام الحقيقة الحالية من الشوائب، والعمل على تقریب وجهات النظر بين الغرب والإسلام.

ويمكن تلخيص التوصيات في النقاط التالية:

(١) العمل على إنشاء جيل مسلم قادر على محاورة المستشرقين والرد عليهم، ليكونوا مؤسسة إسلامية تتفق في مواجهة مؤسسة الاستشراق.

(٢) ومن الأولويات العلمية إصدار موسوعة معارف إسلامية جديدة، إذ لا يجوز أن نظل - إلى الآن - نستقي فكريًا من دائرة المعارف الإسلامية التي قام بإعدادها المستشرقون قبل الحرب العالمية الثانية، إذ لابد أن يكون هناك حضورًا إسلاميًا على المستوى العلمي في الغرب، وتكون هذه الموسوعة بأقلام إسلامية أصيلة خالصة، وأن يكون أصحاب الاختصاص في الموضوعات الإسلامية ذوي طبيعة عالمية بالإسلام، تحتوي على وجهات النظر الإسلامية، لتشكل قاعدة عريضة للرد على الكثير من المزاعم الاستشرافية.

(٣) تنقية التراث الإسلامي مما فيه من إسرائيليات وغيرها.

(٤) إعادة مفاهيم التاريخ على أسسه السليمة الدقيقة.

(٥) إعادة بناء الشخصية المسلمة ضرورة حتمية ، وبناءها مرتبط بالتراث الإسلامي ، وبعث العادات والتقاليد والأخلاق الإسلامية والتلذة ، وذلك من خلال الاهتمام بالمناهج الدراسية والبرامج الفكرية .

(٦) الاهتمام بتصحيح الحقائق التاريخية ، وإضفاء صبغة الدراسة والموضوعية واتباع المنهج العلمي للقضاء على كل ما يزيل الحقائق التاريخية الثابتة.

(٧) مواجهة ما صنعه الاستعمار في الشعوب المسلمة التي استعمروها ، حيث لم يمكنهم الاستعمار من تأسيس قاعدة فكرية قوية لها قدرة على التخطيط للمستقبل ، مما أدى إلى نشأة أجيال تعاني من التناقض الفكري والتشوش الداخلي المتضمن عدم اكتراثهم بالتاريخ الإسلامي بل واستقاءه من مواد الاستشراق ، فكانت النتيجة حصولهم على تاريخ إسلامي مشوه مختلط لا يمت ل الواقع بصلة .

(٨) من واجب المسلمين أن يدرسوا ويفهموا موقف الغرب من الإسلام ، وأن يأخذ علماؤنا المسلمون زمام الأمور بيدهم ، فقد انقضت المرحلة التي كنا نقف فيها من المستشرق موقف المقلد ؛ فقد تهيأت للباحثين سبل البحث والتحقيق بعدما كانت مسالكها وعرة على الباحث قبل النهضة العربية ، وعلماء المسلمين أدرى بأسرارهم وأقدر على تقسير ذلك وتطبيقه ، وأعلم بما يحقق رسالته في حضارة الشرق والغرب .

(٩) تقع مسؤولية تحسين صورة التاريخ الإسلامي على عاتق الدعاة والمؤسسات التربوية والعلمية ، وأجهزة الإعلام ؛ إذ لابد أن تقابل الحجة بالحجة المتنائية؛ لمواجهة أهداف الاستشراق المغرضة من خلال وسائل الإعلام ، فالاستشراق يهدف إلى إبقاء الأمة الإسلامية تحت سيطرة أفكار ومعتقدات تضمن استمرار مصالح الغرب والصهيونية العالمية .

(١٠) استعراض مؤلفات المستشرقين العلمية ومحاسبتها في ضوء الحقيقة والواقع حتى يكشف الغطاء عن آرائهم المشوهة ، وأخطأهم في فهم النصوص وتبيين المعنى الحقيقي لها ، مما يُظهر للناس ضعف مصادرهم التي يعتمدون عليها ، وخطأ النتائج التي يستبطونها منها ، ويطلع الرأي العام المسلم على ما يضمرونه كثير من هؤلاء في نفوسهم من عداء واضح للإسلام من خلال كتاباتهم ، وما يكتونه من أغراض سياسية ودينية في خفايا كتاباتهم وأبحاثهم .

- (١١) إصدار موسوعة للرد على المستشرقين تختص فقط بالتاريخ الإسلامي ، تتتوفر فيها جميع الموصفات التي ذكرت بالنسبة لموسوعة المعارف الإسلامية - السابقة الذكر - ولا يغيب عنـا أنه " توجد موسوعة للرد على المستشرقين " ولكنها موسوعة محدودة في إطار الرد على شبهات معينة أثارها المستشرقون ، ومناقشة هذه الشبهات وتفنيدها ، أما دائرة المعارف الإسلامية المطلوبة فهي عامة و شاملة لكل جوانب الإسلام والفكر الإسلامي والحضارة الإسلامية .
- كما يلزم أن تحيط هذه الموسوعة بالموضوعات العلمية ، وتقدم للعالم الإسلامي المعلومات الإسلامية المؤكدة ؛ لسد تأثير المستشرقين السلبي من جهة ، وإصلاح الفساد الذي أحدثوه في هذه الموضوعات من جهة أخرى ، ومراعاة لجوانب المحمودة التي يمتاز بها المستشرقون ، ولابد أن تتصف هذه الموسوعة بأصالة موادها ، وصحة تحقیقاتها وسعة الدراسة وعمق النظر ، وتأكد على ذلك باعتمادها على المصادر الأصلية والاستدلال القوي ، بعيدة عن الناقص العلمية ومصححة للمعلومات .
- وعلى الأقل تقف على مستوى دائرة المعارف الإسلامية نفسه ، من حيث التخطيط والتنظيم ، بل لابد أن تتفوق عليها علمياً ، وتشتمل على فروع الدراسات الإسلامية المختلفة ، وتقدم بعده لغات عالمية ؛ لتنتقل وجهة النظر الإسلامية والعربية إلى المسلمين وغير المسلمين .
- (١٢) إنشاء لجان علمية متخصصة لرصد الكتب والدوريات الاستشرافية الجديدة والرد عليها .
- (١٣) إنشاء دوريات بلغات متعددة ونشرها في البلدان الغربية لتعريف الناس بالإسلام بصورة الحقيقة ، وتبیان الأخطاء التي تخلل كتاباتهم .
- (١٤) عقد المؤتمرات العلمية في البلدان الغربية التي يشارك فيها العلماء المسلمون المهتمون بالاستشراف ، ويدعى لها المستشرقون البارزون . وفي هذه المؤتمرات تكون فرصة لإقامة صلات علمية بهم ، لمحاولة إفهامهم الجوانب التي أخطأوا في فهمها أو عرضها . وفي المقابل يتم دعوة هؤلاء المستشرقين لحضور مؤتمرات علمية تعقد في البلدان الإسلامية .
- (١٥) تبني أعداد من الرسائل العلمية في الجامعات الإسلامية موضوعات تختص بالرد على أخطاء وافتراضات المستشرقين ، ثم تتولى دور نشر إسلامية متخصصة نشرها بل وترجمتها إلى عدة لغات عالمية .

وأخيراً كلمة حق وإن صاف لابد أن تقال في حق الدولة العثمانية :
العثمانيين لم يكونوا يوماً مستعمرین وقد مثلوا الإسلام بكل ما تحتويه الشريعة
الإسلامية من نظم وشرائع ونومايس ، خاصة في العصر الأول للدولة .
لقد حاول المستشرون زرع الكلمة الاستعماري العثماني في أذهان المسلمين وحتى
البلاد التي استعمروها ، حيث صورت أوروبا نفسها أنها المنقذ من المستعمر التركي ، رغم
أنّ أوروبا هي المستعمر الحقيقي للبلاد الإسلامية .
وجاءت هذه الكلمة في كل كتب المستشرين ومقاتلتهم وبالتأكيد وردت في دائرة
المعارف الإسلامية على نطاق واسع .

إن العثمانيين حكموا البلاد الإسلامية العربية مثلهم مثل الأمويين والعباسيين
والفاطميين والأيوبيين فلم نطلق عليهم مستعمرین ، فلماذا نطلق على العثمانيين مستعمرین ؟!
إذا سقطت عن هؤلاء ، فإنها تسقط تلقائياً عن العثمانيين .

إن سياسة التسامح الديني التي حكم بها العثمانيون البلاد الأوروبية لهي نجمة ساطعة
في جبهة التاريخ العثماني وقد كانت - للأسف - أحد أسباب سقوط الدولة العثمانية .
وقد كان من نتائج هذه السياسة أن وصلت عناصر غير تركية إلى أرقى المناصب ،
فكيف نطلق عليهم مستعمرین رغم أنهم لم يكونوا يوماً كالدول الاستعمارية الكبرى التي
تمتص خيرات البلاد وتسوق العبيد في الجيوش لتلتقي الضربة الأولى ، أو لبناء أضخم
القصور والكنائس في العواصم الأوروبية ، ولم يتعاملوا مع البلاد التي استعمروها إلا
بالضغط والاضطهاد والعنف والقوة .

أما بالنسبة لإسلامهم فإن خير دليل على وضوح هذا الدين لديهم هو وصية السلطان
عثمان الأول عند وفاته ، فقد حوت النقاط الأساسية التي سار عليها السلاطين بعد ذلك ،

(١) وعندما مالوا عن جادتها فقدوا ملکهم .

(١) انظر نص الوصية الفصل الثالث المبحث الثاني .

الملحق

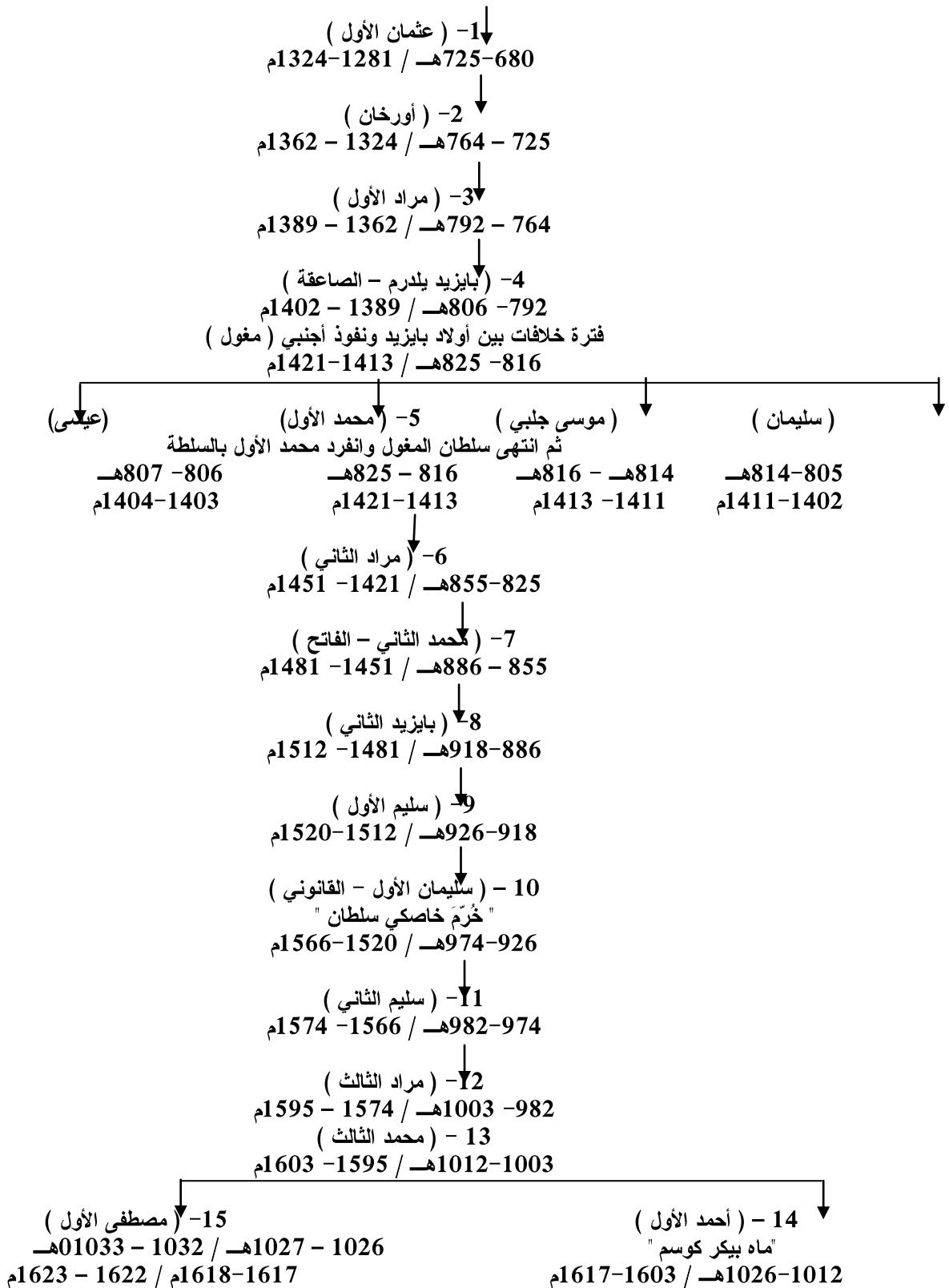
نص الفتوى الشرعية التي تم بموجبها عزل السلطان عبد الحميد الثاني

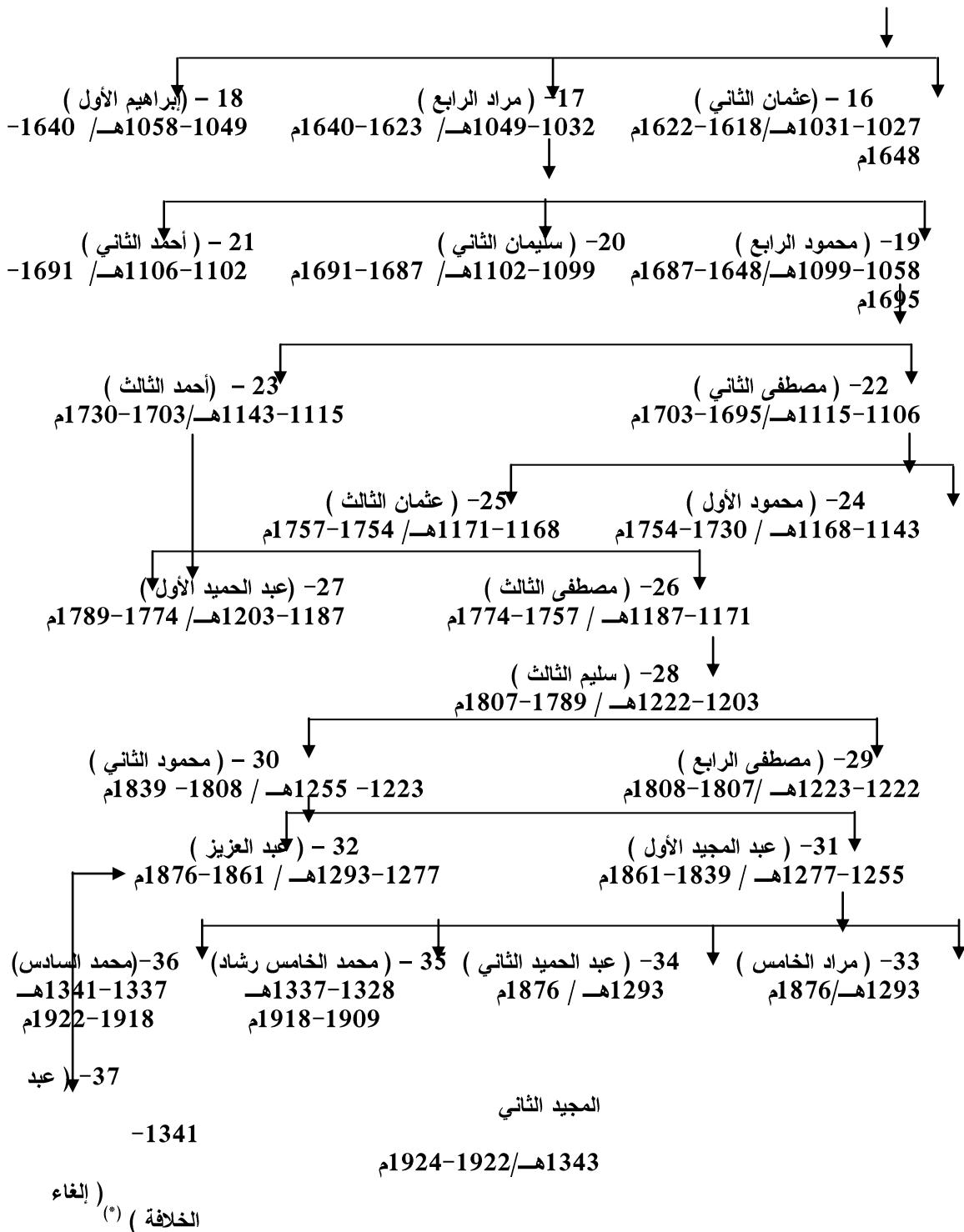
"الموقع عليها من شيخ الإسلام محمد ضياء الدين أفندي ووافق عليها مجلس المبعوثان بالإجماع" إذا قام أمم المسلمين زيد فجعل دينه طي وإخراج المسائل الشرعية المهمة من الكتب الشرعية وجمع الكتب المذكورة والتبذير والإسراف من بيت المال واتفاقية خلاف المسوغات الشرعية وقتل وحبس وتغريب الرعية بلا سبب شرعي وسائل المظالم الأخرى ثم أقسم على الرجوع عن غيه ثم عاد فحنث وأصر على أحداث فتنة ليخل بها وضع المسلمين كافة فورد من المسلمين من كافة الأقطار الإسلامية بالتكرار ما يشعر باعتبار زيد هذا مخلوعاً فلواحظ أن في بقائه ضرراً محققاً وفي زواله صلاحاً فهل يجب على أهل الحل والعقد وأولياء الأمور أن يعرضوا على زيد المذكور التنازل عن الخلافة والسلطنة أو خلعه من قبلهم . الجواب . نعم يجب " ⁽¹⁾

⁽¹⁾ علي محمد الصلابي: الدولة العثمانية ، عوامل النهوض وأسباب السقوط ، ط ١ ، بيروت : دار البيارق ، 1420 هـ / 1999م، ص 721.

شجرة سلاطين آل عثمان

أرطغرل





(*) أكمل الدين إحسان أوغلي : الدولة العثمانية - تاريخ وحضارة ، ترجمة : صالح السعداوي ، د. ط ، إسطنبول ، 1999 م .



* من وضع الباحثة مع الاستعارة بكتاب : ماجدة صلاح مخلوف : طبعة 1 ، مصر : دار الآفاق العربية ، 1418هـ / 1998م.

ماه بيكر كوسن :-

"كوزم واليدي" أو (كوزم سلطان) وتدعى أيضاً "ماهبايكار" (1589-1651م) وهي زوجة السلطان أحمد الأول العثماني ووالدة السلطان مراد الرابع وإبراهيم الأول. كانت يونانية بالميلاد ، ونُقلَّت السلطة في الدرجة الأولى عبر "الحرم" الذي كان يتمتع بتأثير حاسم على مجريات شؤون الدولة خلال حكم إبنتها وحفيدتها محمد الرابع .

إن الآراء المقدمة بشأن أصولها وأسمها الأول "ناسيا" المنسوب إلى "آنستاسيَا" لا تبدوا واقعية . وبحسب المؤلف "بيسترو ديلا فالي" في كتابه بعنوان "فوياجزن روين 1645م" فقد كانت تكنى باسم "كوزم" بسبب بشرتها الملساء الخالية من الشعر (كلمة كوزى تعني أملس دون شعر) . بالإضافة إلى أنه أطلق عليها هذا الاسم (كوزم) بسبب مقدرتها القيادية وحكمها العادل .

ومن خلال جمالها وذكاؤها كانت "كوزم واليدي" محل إعجاب السلطان أحمد الأول حيث تصدرت في مكانتها زوجات لهن الأسبقية في القصر . وقد أنجبت للسلطان أربعة أبناء وهم : مراد وسليمان وإبراهيم وفاسق إضافة إلى ثلاثة بنات وهن : عائشة وفاطمة وجوارخان (راجع كتاب "فون هامر") . وقد استخدمت هؤلاء البنات لاحقاً لتعزيز موقعها السياسي من خلال زيارات إستراتيجية وتزويجهن لمختلف الوزراء .

عقب وفاة السلطان أحمد الأول بتاريخ 22 ذو القعدة 1026هـ الموافق 23 نوفمبر 1617م ، ساندت خلافة أخيه مصطفى الأول فاستطاعت تحت إدارته الضعيفة أن تمارس سلطة فاعلة في شؤون الدولة . لكن تحية السلطان مصطفى من الحكم بعد مضي ثلاثة شهور فقط كان نكسة بالنسبة لها حيث أودعت القصر القديم (سرایه إیسکی) بمنطقة بايزيد تحت إمرة الإبن الأصغر للسلطان أحمد المدعو عثمان الثاني إلا أنها سرعان ما عادت إلى الواجهة مرة أخرى حينما تم إقصاء السلطان عثمان وإعدامه ليعود السلطان مصطفى إلى الحكم لفترة وجزية (9 رجب 1031هـ / 20 مايو 1622م) .

بلغ تأثيرها منتهاه حينما تولى العرش إبنتها الأصغر مراد الرابع عام 1032هـ / 1623م ونُقلَّت رسمياً لقب "والدة سلطان" لتحكم نيابة عنه لمدة خمسة سنوات حتى يبلغ إبنتها السن القانونية لتولي مقاليد الحكم بنفسه . حتى بعد تلك الحقبة الزمنية كان السلطان مراد يحترم آراء والدته التي كان لها اهتمامات لصيقة بشؤون الدولة عندما يكون السلطان خارج العاصمة . وقد أبلغت السلطان بعدم موافقة "شيخ الإسلام / أخیزادی حسين إیندی" على القرار الذي اتخذه السلطان مراد بإعدام قاضي "إیزنیک" . فعلى إثر ذلك وفي طريقه

إلى "بورسا" عاد على الفور إلى إسطنبول وقام بشنق "أخيزادي حسين" علماً بأن هذا الإجراء قد حدث ثلاث مرات فقط عبر التاريخ العثماني.

أسهمت والدة السلطان في إنقاذ السلالة العثمانية من الانفراط بمنعها السلطان مراد من قتل أخيه إبراهيم بعد أن قتل إخوته الثلاثة الآخرين بمن فيهم سليمان وقاسم. أصبحت "والدة السلطان" أكثر نشاطاً بالتعاون مع كبير الوزراء "مصطفى باشا" خاصة بعد أن تولى إبنها إبراهيم العرش عقب وفاة السلطان مراد الرابع بتاريخ 16 شوال 1049هـ / 9 فبراير 1640م . وما ساعدتها في إحكام قبضتها على مقاليد الحكم إشغال إبنها مع خليلاته من النساء غير الشرعيات وتداعيات المنصرفات الهائلة على علاقاته بهن التي أرهاقت خزينة الدولة . وفي وقت لاحق وقع تحت تأثير النساء في قصور أخرى مما أفقد "كوزم والدة" فرصة تبوء مقاليد الحكم لتغادر قصر السلطان المعروف باسم "سرایه جيدي عامر" لتعيش بمنزل صيفي خارج مدينة "توبكابي" .

عندما علم السلطان إبراهيم بأن والدته بقصد التخطيط مع كبير الوزراء صالح باشا للإطاحة به من العرش قام بنقلها إلى حديقة "إسكناندا سلي" بمنطقة فلوريا ثم أعدم كبير الوزراء صالح . إندررت شؤون الدولة نحو الأسوأ نتيجة لضعف حكم السلطان إبراهيم في الوقت الذي كانت فيه حرب "كريت" تتصاعد لخلق شعوراً عاماً ضدّه . قام مسئولي المجندون المستجدين تحت إشراف "كارا مراد أغا" ومصلح الدين وبكتاش أغا بقتل كبير الوزراء أحمد باشا هزرباري وقرروا عزل السلطان إبراهيم من الحكم .

حصل كبير الوزراء الجديد المدعو "سوفو محمد باشا" وشيخ الإسلام عبدالرحيم أفندي بصحبة مسئولين آخرين بارزين على موافقة "كوزم والدة" بعد الاجتماع بها بمدينة "توبكابي" لإزاحة السلطان إبراهيم من الحكم ثم قاموا باستبداله بأكبر أبنائه البالغ من العمر سبع سنين الأمير محمد وذلك بتاريخ 18 رجب 1058هـ / 8 أغسطس 1648م . بعد مضي عشرة أيام قام المدعو "كارا علي" بشنق السلطان إبراهيم خوفاً من أن الأطراف المتعاونة معه قد تحاول استعادة أمجادها بموافقة والدته وبفتوى قد تصدر من شيخ الإسلام (راجع كتاب كارا سليبي زادي)

عندما تولى السلطان محمد الرابع مقاليد الحكم بدأت "خوزم والدة" تستعيد نفوذها حيث لقيت بألقاب عديدة مثل : "بيوك والدة" أي جدة السلطان - "الوالدة المعظمة" - "أم المؤمنين" - "صاحبة المقام" - "الوالدة العتيقة" - أخ .. إلا أن تأثيرها لم يكن دون حدود ، إذ أن نفوذ المجندون المستجدين وكذلك "ترخان سلطان" ووالدة السلطان محمد

وأرملة السلطان إبراهيم شكلوا تكتلاً ضدها . أدى هذا الصراع المحموم وسوء التفاهم بين مسئولي الدولة والمجندين المستجدين إلى خلق جو متوتر في اسطنبول والأناضول . قررت " كوزم والدة " ومعاونيها استبدال السلطان محمد بأخيه سليمان والذي كانت والدته " ديلاشوب سلطان " تعتبر غير مكترثة بشئون الدولة .

علمت " ترخان سلطان " بهذه النوايا فأخذ بزمام المبادرة وقامت بشنق " كوزم والدة " مستخدمين حبال الستارة على يد المجندين المستجدين . كان الشخص الذي قام بإعدامها يدعى " كويوك " أو " كوشيو " محمد (راجع كتاب ريكوت هستوار دى لي إيتا بريست ..) ثم نقل جثمانها من مدينة " توبكابي " إلى قصر " إيسكي سراي " ودفنت بضريح زوجها السلطان أحمد الأول .

مارست " كوزم والدة " السلطة في الشؤون العامة لفترة امتدت نحو ثلاثون عاماً . وقد خلفت ورائها ثروة وأملاك كبيرة ، وأن جانياً كبيراً من ثروتها كان يصرف في الأعمال الخيرية وغيرها من الأعمال الإنسانية مثل بناء مسجد لصلوات الجمعة بمدينة " اسكودار " الذي اكتمل بناؤه عام 1060هـ / 1650م ومسجد " والدة خان " في اسطنبول الذي تم تشييده عام 1056هـ / 1646م إلا أن هذا المبنى الأخير قد انهار في شهر مارس 1926م . ومن عائدات هذه الإيرادات كانت تمويل مشاريع الري في مصر وقدمت المساعدات للفقراء في مكة المكرمة . في واقع الأمر فإنها قد تركت في أذهان عامة الأتراك سمعة تتسم بالعظمة والسخاء والذكاء الحاد .

الوثائق

وثائق عن سكة حديد الحجاز

Y.MTV 204 /35

ناظرة الأمور المالية :

حضره ولی النعم الذي يعد من أعظم الغایات أصدر الفرمان والأمر العالی من أجل القيام بتمدید وتأسیس خط حديد الحجاز ما بين الحجاز وسوریا وذلك لتسهیل مأموریة فریضة الحج الشریف والتي تعد من أشرف الأمور التي نالت عناية سلطان البلاد .
ولقد صدرت الأوامر العليا للصدارة العظمى بمخاطبة نظارة المالية الجليلة للقيام بتسویة كل المبالغ المالية والمصروفات التي كلفها ذلك المشروع العظيم . والذي سوف يكون له دور بارز في إبراز قوۃ المسلمين وحمیتهم ، وهو ما يستدعي من أجله صرف وبذل الجهد والأموال من أجله .

ولذلك فقد صدرت الأوامر بتشكيل لجنة من الأعضاء تحت رئاستي تكون من مهامها الإشراف المالي والحسابات على هذا المشروع والذي بدأ جلساته في الانعقاد أمس لمناقشة زيادة رواتب العاملين في هذا الإجتماع تیمناً واستبشاراً بافتتاح هذا المشروع .
وقد تم تسجيل هذه المعاشات والرواتب في سجل الرواتب السلطانية متضمناً المضبوطة الخاصة بالمجلس مع رسالة شکر تم تقديمها لولي الأمر والأمر معروض وإن الأمر والفرمان لحضره من له الأمر .

7 ربیع الأول 1318ھـ

21 حزیران 1316 رومی

رئيس لجنة إعانة خط

سكة

حديد الحجاز وناظر المالية

لقد شرفت الأوامر السلطانية بالصدور ، والأوامر العليا بالإحسان بتقديم المساعدة والإعانة لتخصيص رواتب سلطانية همايونية تكرماً من خليفة المسلمين والذي تضمن زيادة في هذه المعاشات بأمر من أشرف العالم وذلك ضمن تسوية المصارف الإنسانية للخط الحديدي الذي قام السلطان العثماني بإصدار أوامره العالية والفرمان العالي بخصوص تأسيس وتمديد خط سكك حديد الحجاز ما بين أطراف الحجاز وبدأ في الموقع الشريف داخل سوريا وذلك تسهيلاً على المسلمين لآداء فريضة الحج والتي نالت كل عنابة واهتمام من ولی النعم وخليفة المسلمين وأصبح عصره الهايوني كله مقرون بالسعادة .

ومما لا شك فيه أن هذا الأمر السلطاني والفرمان الهايوني العالى قد ترك أثراً طيباً لدى المسلمين وأظهر قوتهم . وقد صدرت الأوامر السلطانية العليا بتشكيل لجنة تشرف على جمع الإعانات المالية والمساعدات من الولايات العثمانية لإكمال مشروع تمديد وإنشاء سكك حديد الحجاز ليكون مفخرة للمسلمين ، وسوف يتم فتح سجل همايوني مخصص للإعانات المالية التي سيتم جمعها والصرف منها على المشروع السابق ورواتب العاملين فيه ، وقد كلفت بأمر رئاسة هذه اللجنة ، وسوف يثبت الجميع من خلال وظيفته في هذه اللجنة كدليل على صدق وغيرها على الدولة ، مما يستوجب التوجّه بالدعاء والآيات الخيرة للسلطان والدولة ، وتوجيهه الشكر والشكران لولي النعم .
والأمر معروض كما سبق ، وإن الأمر والفرمان لحضره ولـي الأمر .

محاسب الحسابات	عضو ومحاسب الديوان	ناظر المالية ورئيس لجنة إعالة
المالية العمومية	العمومية في الخزينة المالية	خط سكك حديد الحجاز
السيد محمد الصياد	محمد مسعود	السيد أحمد رشاد

التوقيعات

العضو معاون مستشار العضو محاسب الحسابات القديمة
ناظرة المالية للخزينة المالية
محمد سعيد بن لامع السيد عبد الله بهجت

كاتب لجنة التفتيش

ومدير شعبة سجلات حسابات
المالية العمومية
محمد عثمان مظفر

8 ربيع الأول سنة 1318هـ
21 حزيران 1316 رومني

رفض نظام الجيش الجديد

إلى طرف القيادة العسكرية

طبقاً للأخبار الواردة مؤخراً من قنصلية النمسا الموجودة في جزيرة رودس إلى دار السعادة باستانبول ، فإن جنود المدفعية المحليين الذين يخدمون في نظام الجيش الجديد ، قاموا بترك أسلحتهم راضيين الاستمرار في العمل بالخدمة العسكرية . واستطاع كبار الضباط هناك الغيورين على الدولة أن يقوموا بإعادة هؤلاء الجنود مرة أخرى للعمل بالخدمة وتعود الأمور للاستقرار والسكنون مرة أخرى ، وبناءً على هذا التخوف من الباب العالي ، فقد تم إبلاغ الأمر حيث لم يبلغ الأمر مرحلة الخطورة . ومع ذلك فإن الأمر سوف يتم الاعتناء والاهتمام به لعدم تكراره مرة أخرى .

ظلم الإنكشارية

صاحب السعادة والعناية والمرحمةولي النعم وكثير اللطف والكرم أفندينا " عرض التغراف المرسل من السيد عط الله آغا أحد الأغوات العاملين في (أيزورين) " الدعاء للدولة والسلطان بدوام العمر والنصر ، ونعرض هذا التغراف عليكم بمعرفة لطيف بك وبمعرفة صاحب السعادة ذو الفقار باشا متصرف سنحاق أيزوريتي وبعض من الأهالي هناك ، حيث أن هؤلاء المشار إليهم قاموا بالنظر في الدعوى المقدمة في محكمة أيزوريتي الشرعية ، وبعد تلاوة الدعوى حرفاً بحرف ، وأداء اليمين فيها ، فإنه صدر القرار في رفع الظلم والتعدى على الأهالي في الآيالة المذكورة ، وقد صدر الفرمان العالى لرئيس الجنود الإنكشارية بالخروج من القلعة ، وكف يده عن الظلم الواقع على الجنود والأهالي . وصدر الأوامر للإدارة الكائنة هناك بالنظر في الدعاوى الشرعية المقدمة والمرفوعة من الأهالي والتحقيق فيها والثبت منها والعمل بالأحكام الصادرة في شأنها وأن الأمر والفرمان لصاحب العناية والسعادة والرحمة وولي النعم حضرة سلطانا .

عط الله بك

أوزرتين

العساكر المنصورة

المحمدية

تقرير من ناظر المدفعية العamerة :

إن الضباط والجنود العاملين طبقاً لدستور العمل الذي تم تطبيقه على النظام الجديد الصادر في عام 1207هـ والخاص بسلاح المدفعية والمركبات ، فإنه نظام يسير طبقاً للأصول والنظام في كل موقع من مواقع الدولة .

وفيماً ومقارنة بالمعسكر الذي تم الاستغناء عنه طبقاً للقانون السلطاني الذي تم تنظيمه في التاريخ المشار إليه فلقد تم تنظيم الاصطلاح حول صنف الجنود (الأوجاق) وكذلك تشكيلات الضباط وهيئتهم وما يطلق عليه اصطلاحاً (الأورطة) . وإلى الآن فإن الضباط المشار إليهم ما زالوا مستمرون في العمل والخدمة العسكرية ، وال موجودين في معسكراهم والجنود التي يطلق عليها بالعسكر المنصورة ، فقد تم استبدالهم وربطهم بنظام وأصول جديدة ، وطبقاً للمذكرة المرفوعة من أغوات سلاح المدفعية والمركبات فإن عدد الفرق الموجودة في سلاح المدفعية يمرين حوالي 82 من المشاة ، وآخرين حوالي 41 فرقة يسار ، بحيث يكون الجانب اليمين يبدأ من الفرقة الأولى ثم الثانية ، وكذلك على اليسار الفرقة الأولى ثم الثانية وهكذا في الترتيب حتى يصل إلى العدد 41 .

ولقد تم أيضاً في الجيش الجديد استخدام ما يطلق عليه ضابط رئيس الأغوات ، وأغا الشورباجي . وفي داخل النظام الجديد للعساكر المنصورة يوجد نظام الطعام والشراب لهؤلاء الجنود وغيرها من الأمور الحياتية للجنود ، ولذلك تم توفير وتدبير وظائف مناسبة لهم مثل حامل العلم (علمدار) ، وكيل الخرج (مسؤول المصاروفات) .

ومن بين الوظائف التي يمكن استخدامها في هذه المنظومة العسكرية الجديدة ، ما يطلق عليه رئيس الطباخين ومقدمي الشوربة ، والحمد لله يوجد الان في المعسكرات هؤلاء العاملين طوال 24 ساعة خدمة متواصلة ويتبادلون أوقات أعمالهم .

كما يوجد جنود مخصوصون لسقاية أفراد الجيش ، كما يوجد شرطة عسكرية داخل سلاح المدفعية والمركبات ، ويوجد في كل سلاح من الأسلحة السابقة خمسة جنود لطبع الشوربة واليختن في المدفعية وخمسة غيرهم للغرض نفسه في المركبات ويوجد على كل نقطة حراسة وسجن ضابط ، على ما يقرب من ثلاثين جندي يعملون في مركز الشرطة تحت خدمته ، ويمكن الاستغناء عن أعداد مراكز الشرطة الفرعية الكثيرة والإبقاء فقط على أربعة مراكز كبيرة للشرطة ، واثنين في المدفعية يعملون تحت إدارتها ، ومخزنين للسلاح يعمل طوال 24 ساعة ولا يجوز تحصيل أية أموال أو الاستيلاء عليها من أي شخص يتم حبسه.

ولا يجوز التدخل في صدور حكم بالحبس بعد اتخاذ كافة الإجراءات القانونية لحبسه ويمكن زيادة عدد الجنود السقا والطباخين لسلاح الفرسان والمدفعية والعمل على زيادة رواتب هؤلاء الطباخين ، بحيث يحصل كل واحد منهم على 12.510 أثنا عشر ألف وخمسمائة وعشرة قروش شهرية .

ولقد تمت الموافقة على بنود المواد السابقة من قبل القيادة العسكرية العليا طبقاً لدستور العمل العسكري والذي تم إضافته لقانون المدفعية والمركبات الهايوني ، ولن يتم العمل به فور الإبلاغ عنه وتعميمه على كل الأسلحة والأمر والفرمان لحضرته من له الأمر .

ناظر المدفعية العamerة

HAT - 1185 / 46746 - A

الأمان والهدوء في عهد محمود الثاني

معروض علی حضراتکم ما یلی :

الدعاء بدوام الدولة والسلطان ولِي النعم الذي وَهْبَهُ اللهُ النعم الكثيرة والعقل الكامل
المدبر ، ومدير شؤون العالم .

نود إبلاغكم بأنه تم العودة إلى الضبط والربط بين إدارات الدولة المختلفة مما جعل الانضباط والأمان والهدوء يعود بين الرعية ، وذلك بفضل الأنظمة الخيرية التي تم إقرارها والموافقة عليها من سلطانا ، مما أدى بكل الصحف العالمية الأجنبية أن تشيد بها وخاصة في أوروبا التي لديها دراية كاملة عم يحدث داخل الدولة العثمانية ، فاستوجب المدح والثناء عليها.

وهذا للعلم وعلى كل حال فإن الأمر والفرمان لحضرته ولـي الأمر

5 ربيع الأول 1254هـ

رفعت محمد پافت

HAT 1076 / 43944 - L

الغاء بعض الوظائف في عهد

السلطان محمود الثاني

صاحب السعادة والمكرمة سلطاني العظيم :-

لقد تم الاستعلام من أصحاب الفخامة الوزراء العظام وكبار رجال الدولة عن النظام العسكري الجديد ، وعن بعض الوظائف التي سيتم إلغاؤها ورفعها من السلك العسكري مما يستوجب عودة النظام والانضباط للدولة ، وعلى أية حال ، فإنه لم يرد أية ردود على ذلك حتى الآن .

ولذلك فلابد من ضرورة الموافقة على الأصول والنظم التي سيتم التعامل معها داخل دولتنا العلية ، والاستعلام عن رتب صف الضباط والشاوشية التي سيتم الاستغناء عنها ، وقد تم إبلاغ جميع الوزراء العظام بهذا الأمر حتى يتسرى الانتهاء في أقرب وقت ليتم تسجيله والتصديق عليه .

6 رمضان 1245 هـ

عبدكم محمد

**خلاصة ترجمة بعض الأحداث التي وردت ونشرتها بعض
الصحف الفرنسية بتاريخ 21 كانون ثاني الشهر الماضي**

نعرض ما ورد إلينا من محررينا المقيمين في الدولة العلية . وفي رسائلني السابقة التي أرسلتها بهذا الشأن ، أبلغت أن سلطان دولتنا العلية ، يبذل كل ما في وسعه من مساعي حميدة بصفته ملك البلاد ومنظم شئون العباد ليضع كل الأمور تحت سيطرته وإدارته خاصة أنه سلطان البلاد الإسلامية وهو ما ترك آثاراً مستحسنة لدى الحكومات الأجنبية المختلفة الموجودة لها سفارات في (باريس) ، وحينما كانت تسعى إدارة الدولة العثمانية في وضع أصول للنظام والحكم في الولايات التي تحت إدارتها ، تصادف أن محمد علي باشا في مصر كان حريصاً كل الحرص لدى الدول الأوروبية أن يثبت لها أيضاً حرصه الشديد على إتباع الوسائل الحديثة في النظم والإدارة وطبقاً للأصول المتتبعة في تلك البلاد ، وهو ما أدى بسلطان البلاد العثمانية من وضع كل التسهيلات لتنفيذ أصول هذه النظم في البلاد . وكان نتيجة ذلك أنه لم تجد حكومة مصر حينذاك أية معارضة أجنبية تجاه ذلك بل على العكس من ذلك تماماً ، وجدت مصر كل معاونة ومساعدة من تلك البلاد الأجنبية في كل النواحي حتى أنه كان هناك فروقاً شاسعة بين ما يحدث في مصر من نظام حديث ومعاصر ، وبين ما يحدث في بقية الممالك الإسلامية الأخرى داخل الدولة العثمانية ، وهذا ما يميز أهالي مصر على مدى السنين عن بقية أهالي البلدان الإسلامية في قوتها تحملهم للصعاب والمشاق وذلك بفضل ما بدأه والتي مصر محمد علي باشا المشار إليه في الأخذ بأسباب التحديث والنظام الجديدة ، والذي لم يجد أية معارضة من الأوروبيين .

وإنه بسبب إلغاء بعض الأوجاقات (الفرق) العسكرية في الدولة العثمانية ، وفائه بسبب المفاسد الكثيرة نحو الإدارة العثمانية ، فإنه تناح الفرصة للعديد من الدول المجاورة لاستخدام الدسائس والمكائد نحو الدولة العثمانية .

وإن ما فعله محمد علي باشا والي مصر في ولايته كان يستحق كل المدائح والاستحسان من قبل الإدارة العثمانية التي تنظر إليه بعين الاهتمام . وعلى أية حال فإن محمد علي باشا يعتبر ذو عقل ومدبر ورجل حكيم ، وأن ما يشاع عن قيام محمد علي باشا بتنصيب ابنه إبراهيم باشا خلفاً له هو كذب وافتراء بل إن إبراهيم باشا ما هو إلا قائد عسكري ، وأنه لا يوجد من بين أولاد محمد علي من يستطيع أن يتحمل المسئولية بعد وفاة أبيهم ، ولذلك فإنه يقوم بتقسيم أراضيه في حال حياته بين أولاده حيث أعطيت برية الشام على إبنه إبراهيم باشا والبقية الأخرى لأكبر أولاده وأحفاده والذي يتراوح عمره بين 15-16 سنة ، مما دعى إبراهيم باشا لإعلان غضبه واعتراضه على ذلك سراً .

والحقيقة أن الأهالي في تلك المناطق سواء كانوا معترضين أم غير ذلك فإن أمر التقسيم قادم لا محالة ، وهو ما سيتم تحقيقه في نهاية الأمر وإن كل آمال أي سلطان وحاكم عثماني أن يسود الأمن والأمان والطمأنينة داخل الولايات الإسلامية .

وإن قوة محمد علي باشا هي في الوقت نفسه قوة للدولة العثمانية وأن الإدارة العثمانية تؤيد وتقدم كل العون لمحمد علي باشا نحو قيامه بتحديث قوته وزيادتها ، وأن ما يقوم به هو تدعيم لقوة الدولة العثمانية العسكرية واستقراراً في الوقت نفسه وتدعيمًا لحكمه وولايته .

الباب العالي

نظارة الخارجية الجليلة

غرفة الترجمة

مسألة المحاكمة ومناقشتها

مقتل عبد العزيز

ترجمة الرسالة التي نُشرت من قبل دار السعادة

بتاريخ 13 تموز 1281 وطبع في صحيفة (كافور)

المطبوعة في (مارسيليا)

فيما يتعلق بالمحاكمة التي تمت في قصر (يلديز) والتي أثارت النفور والكراهية ومهما يكن من رفض الناس لأي ظلم ، إلا أنه يجب توضيح الأمور ، لأنه لم يكن هناك شخص إلا وتعجب من القرار الصادر من محكمة التمييز (ديوان التمييز) . لأن الديوان المشار إليه قد أصدر حكمه الأول وكل شخص كان يعلم أنه مركب من (لوباردمون) و(جفريس) ، ومع ذلك كان هناك بعض الاستثناءات فيه ، حيث أنه في المحكمة الأولى كان يوجد حاكماً مستقلاً ، وهو (أمين افندي) .. وشاعت حوله إشاعات في أنه أقدم على الانتحار بسبب خلافاته مع زملائه ، وأشارت الصحف العثمانية إلى تلك التهديدات التي وجهها (ناظر عدم العدالة) جودت باشا وأنه سوف يقوم بعزله ولقد تم التصديق على الحكم الصادر في حق كل من رشدي أفندي وأحد النصارى ويدعى (أقياديس) أفندي في محكمة الجنایات المشار إليها .

ومن أجل قيام أعضاء مجلس ديوان التمييز وعددهم 12 عضواً ، بإعلان أحکامهم من داخل قصر يلدیز ، أغلقت أبواب القصر حينذاك وكان (جودت) الغير آدمي موجوداً في تلك المحاكمة ، حيث وجه حديثه إلى الأعضاء المشار إليهم قائلاً لهم (إن الأوراق المتعلقة بالمحكومين قد تم التصديق عليها في الحكم الأول الصادر بشأنهم وضدتهم دون استكمال إجراءات التحقيق والبحث حولهم ومعهم)

ولذلك تم إحضار تسعه من الأعضاء المعروف عنهم بقوتهم وصرامتهم من أجل القيام بتهديدهم والدفع بأسباب إصدار حكم الإعدام ضدهم وهو ما أدى بسکوت الفائلين وترك الفرصة للدفاع أن يتحدث في المحكمة .

وإن شهدي أفندي كان على صلة وعلم بعائلة مدحت أفندي جيداً ومن المعلوم أن شهدي أفندي هو المحامي الموكل بالقضية ، ولقد تم تعين شيخ الإسلام الأسبق خير الله أفندي والأخ الصدر الأعظم الأسبق محمد رشدي باشا لاستكمال المحاكمة بدلاً من قاضيين اعتذرا عن استكمال المحاكمة بسبب ضيق التفسس داخل قاعة المحاكمة داخل قصر يلدوز ، وإن هذا لمن الأسباب التي أشارت إليها إحدى الصحف الرسمية الصادرة في الدولة ويطلق عليها (صحيفة دقت) ، بأنه لا بد من إعادة المحاكمة على المتهمين مرة أخرى في تلك القضية ، وهو ما تنتظره الأهالي بفارغ الصبر وحينما جرت المحاكمة المتهمين لم يكن هناك شاهد واحد في المحكمة .

ولم يكن هناك سوى شاهد واحد هو الدكتور فاسطرو ، وهو ما كان على غير قبول واستحسان من قبل المدعي العام وأعضاء المحكمة ولقد نالت الهيئة المشكلة التي يطلق عليها اسم (مجلس الأعيان العثماني) كل سخرية واستهزاء ولقد كان اجتماع المحكمة في اليوم السابع والعشرين من شهر (حزيران) .

وكان المدعي العام هو لطيف بك والذي كان أحد المقربين من وكيل (السلطان المنتم) والذي كان يقصد به المرحوم السلطان عبد العزيز في حضور تلك المحكمة . ثم صدرت بعد يومين أوامر بتحديد إقامته وحبسه في مكان آمن وتم السعي وراء الحصول على أية أخبار عن الشهود وخاصة فيما يتعلق بالسيد ماسطرد الذي كان محظياً من الإنجليز ، والذي غادر البلاد راكباً إحدى البوارح يوم الأربعاء الماضي وهو يهزأ قائلاً (ومحرقاً إستانبول بلد خلافة عبد الحميد - السلطان عبد الحميد الثاني) .

وإنه محتمل صدور مثل هذا القرار والآن يوجد ما يقرب من إحدى عشر شخصاً محبوسون داخل قصر المابين الهمايوني . وعلى أية حال فإن من بين الإشاعات التي أثارت جنون مدحت باشا ، أنه أشيع عنه نفسه أنه كان " أكثر قدرة من الظالم نفسه " وأنه لا بد من القيام بحماية عقلية بقدر كاف . ولقد أبنتي المشار إليه بنوبة الأرق وعدم التمكن من النوم لدرجة أنه لم يستطع النوم لمدة أربعة أيام متواصلة نتيجة الاضطراب والقلق الذي كان فيه . ولقد صدرت الموافقة السلطانية على إجراء الكشف الطبي والمعاينة عليه ، مما دعاه لتوجيه الشكر إليه . وفجأة توفيت والدة محمود باشا متاثرة تماماً بما حدث لكريمة وإينة مدحت باشا في مرضه .

وإن عدم القيام بتتأمين إعدام الكثير من المتهمين لسوف يؤدي إما للتدخل الأوروبي أو حتى لمدحت باشا نفسه . وخاصة أن تلك الاضطرابات قد تركت أثراًها بحق أخوه وأخت

مدحت باشا التي كانت موجودة بالقرب من زوجة طوسون باشا والي (أشقدرة) السابقة

ولقد أشارت صحيفة (نيم = النصف) الرسمية إلى هذا التدخل الصارم ، وإن هؤلاء لسوف يقومون بالتحقيق بالمحكوم عليهم من ناحية ، وبالإشارة إلى عدم جرأتهم وشجاعتهم من ناحية أخرى .

ولقد نشرت في صحيفة الحوادث بعض ما يتعلق بهذه المسائل ، حيث جاء فيها "إن هؤلاء لا يريدون أن يروا أي شيء طيب على أوروبا ، ويجب أن يكون محرري هذه الصحيفة على درجة عالية جداً ، نحن لا نريد من الأتراك أي شيء ولقد قامت القوانين العثمانية باستكمال قوانينها واقتباسها من القوانين الأوروبية وأشارت الجريدة إلى أنه لابد من عدم التخلّي عن الانتقام " ولقد وجّهت هذه الاتهامات لكافة الأهالي المرهقين من العمل والفقراء .

ولقد قامت صحيفة استانبول المطبوعة في (غلطة) بأن كلاً من كمال كرمي وعزت قاما بالدفاع عن مدحت باشا وتجاوزاته وكان الهدف مما جاء في كل الجرائد والصحافة حينذاك هو توجيه التحقيق الكامل ، وإن سوف يتم اتخاذ كافة التدابير اللازمة نحو هذه الصحف الصادرة والذي سوف يقوم بذلك هو مدير المطبوعات (بك أوغلي) .
ويجب بحث ما يتم تدبيره من دسائس وفتن تتعلق بهذه المسألة من الباب العالي في طرابلس وتونس . حتى أنه يمكن حساب ما يصدر من حاكم تونس بمفرده حوالي 200 عمل تقريباً وأنه لا شك من القيام بإرسال مسئول إلى الذات الشاهانية لعرض دوام الصداقة والتابعية له وللدولة .

ولقد تم إبلاغ ذلك وهذه المعلومات وعرضت على الحضرة السلطانية في اليوم الأول من شهر (تموز) حيث أبلغ بالقيام بإرسال الآلاف من البنادق (المارتيني) وثلاثمائة صندوق من الذخيرة إلى طرابلس عن طريق الباخرة (مجيدي) .

ولأنه بسبب القيام بتقوية الأفكار الهائجة والثائرة في طرابلس وتونس ، فقد تقرر القيام بإرسال آلاف الجنود على خمس سفن إلى هناك وأن المقربين من حضرة السلطان ، فقد قالوا بأن ما سوف يتم إرساله من آلاف ومئات الآلاف من الجنود إلى طرابلس إنما هو الهدف منه التوجه نحو حل مسألة اليونان صلحًا وتسويتها سلماً .

ولقد تم استكمال الأسطول العثماني الحربي بإرسال خمسين ألف جندي وشخص وتم نقلهم على ثلات قطع حربية منها . وإنه مما لا شك فيه أن هدف السلطان من ذلك هو التوجّه وصرف الانتباه عن الدولة .

وفي العنوان الرئيسي هذا الصباح لجريدة (ترجمان حقيقة) الصادرة هذا الصباح (إننا لن نحارب فرنسا) ويبقى السؤال بلا إجابة ولكن مضطرين للإجابة على هذا السؤال أنه سوف يتم تعيين (هوبار باشا) قائداً للأسطول العثماني الحربي في البحر الأبيض المتوسط حيث يتمتع هذا القائد بخبرة عسكرية بحرية واسعة يتشرف بها كل الأتراك .

أما فيما يتعلق بامتياز المعادن في سنجاق (قره حصار) الموجودة في الأناضول للاستفادة منها في البرنامج السياحي الواقعة في لندن فقد قامت صحيفة (لندن) بنشر إعلان عنه في صفحاتها وذلك لما سيعود على الدولة من منافع كبيرة .

وسوف يتواجد في مجلس الإدارة مع (هوبار باشا) اثنين من العلماء والوكلاء وسوف يكون لرأس المال الفرنسي من الفرنسيين دور كبير في ذلك .

الباب العالى

نظارة الخارجية الجليلة

غرفة الترجمة

المعلومات المنشورة في جريدة (سمافور) المطبوعة في مارسيليا والتي تتعلق بمحاكمة

قتلة السلطان المرحوم عبد العزيز

كان قرار محكمة الاستئناف هو منع دخول الدكتور (قاسطرو) وهو من أعضاء مجلس الأعيان من دخول قصر يلديز الهمایونی خلال أوقات المحكمة التي تنظر في قضية المتهمين والمحكوم عليهم وخاصة على أعضاء المحكمة التي تنظر تلك القضية .

ولقد تم إبلاغ هذا القرار الخاص المشار إليه إلى سفارته من قبل (محسن خان) ، وقد تم تقديم عريضة إلى السلطان العثماني بذلك . حتى أن ابنة مدحت باشا قامت بمراجعة سفارة إنكلترا لاحتمال توقيع عقوبة عليها ، وهو ما أشارت إليه الصحف الرسمية وهو ما توجه به بعض موظفي البنوك النصارى في البنوك الروحية .

ولقد تصادف يوم ميلاد السلطان مع اليوم المخصوص بالفرنسيين في إسطنبول يوم الرابع عشر من شهر تموز والذي تم فيه تعيين هربارت باشا قائداً عاماً على الأسطول العثماني البحري في بحر سفید (الأبيض المتوسط) ، وذلك لإرسال الجنود والأسلحة إلى طرابلس مرة أخرى .

ولم يكن أحد متعجبًا مما يحدث من المحاكمة التي جرت في سراي يلدوز من طرف ديوان التمييز وخاصة من قبل رجال الأعلام . ولم يكن أحد يصدق ويؤيد من قبل أعضاء محكمة الجنایات بأمر الانتحار سوى أمين أفندي فقط ، حتى أن كل المطبوعات والصحف الصادرة باللغة التركية وجهت كل التوبيخات الشديدة لوزير العدالة . وب مجرد قيام ديوان التمييز بإصدار قراره ، قام كل من العضوين من أعضاء ديوان التمييز وهما رشدي أفندي وأكياووس أفندي بعدم التصديق على هذا القرار وبمنتهى الوضوح ، بل وقاما بالتشكيك فيه . وأغلقت المحكمة من قبل أعضاء الديوان المشار إليه على المتهمين الضعفاء في قصر يلدوز السلطاني . حتى أن عديم الوفاء والرحمة والخائن جودت باشا ، قال لنفسه " أنه لم يكن هناك بحث ولا إطلاع حتى على أوراق المتهمين ولكن لابد من ضرورة قيام الأعلام بتصديق ما ينسب ضدهم من أحكام " .

وقابل المحامون عن المتهمين الأمر بالصمت والسكوت حتى أن محامي مدحت باشا وأشار بأنه سوف يبحث الأمر والموضوع مع عائلته .

وحتى لو أن عائلة المشار إليه مدحت باشا قامت بالبحث عن محامي غيره ، فإنه أمر غير مقبول ، وإن هذه المرة هو إثبات كاف لهدف هذه المحاكمة أصلًا .

وبقيت المحاكمة كل من خير الله أفندي ورشدي باشا الآن ولم يكن هناك شاهد واحد فقط خلال المحاكمة المشار إليهما ولكن كان الدكتور فاسطرو فقط هو الشاهد الوحيد الذي يؤمل فيه أن يوجد خلاف بشأنه ما بين المدعي العام وأعضاء المحكمة في شهادته . حيث أن المشار إليه مؤمن تماماً بأن السلطان عبدالعزيز هو الذي قام بالانتحار ولم يكن هناك من يقتله .

ولكن بعد يومين قام المشار إليه بالفرار عن طريق إخفائه لدى أحد التجار الإنجليز قبل أن يصدر أمر بشأن تحديد إقامته ومنعه من السفر خارج البلاد وحبسه ، إلا أنه قام يوم الأربعاء بالفرار عن طريق ركوبه إحدى السفن .

ومهما يكن من ترويج الإشاعات حول قيام السلطان بإعدام المتهمين أو نيته في ذلك ، فإنه لابد أن يأتي قيام أورووبا بالاعتراض على ذلك ولفت النظر إليه .

فمن ناحية سوف تقوم أوروبا بطرح الأسئلة حول قيام السلطان العثماني بالانتظام وتنفيذ الإعدام بنية الأخذ بالثأر ، ومن ناحية أخرى سوف يقوم السفراء الأجانب بتوجيهه اللوم على عدم انتظام المحاكمة طبقاً للأصول المتبعة في أوروبا وإبلاغ الحكومة العثمانية بذلك . ولكي لا يحدث سوء تأثير على هذه الناحية ، فقد قام وزير الخارجية وناظرها البasha باختيار حضرة محسن خان لكي يقوم بعرض وثيقة السفاراة والسفراء وعرضها على الحضرة السلطانية حيث أن لديه لغة يستطيع استخدامها للترجمة في هذا الشأن .

إصلاحات عبد الحميد الثاني للمالية

إنه من أجل التمكّن من تأدية الديون فإنه سوف يتم تلافي العيوب فيما سبق من أجل الاستقرار وحسن التأسيس للمواد القانونية الأساسية الخاصة بتنظيم عمل الضبط والربط للشرطة ، وتقرير الوظائف وجميع التشكيلات التي سوف تكون أساساً للإدارة المدنية ولتوفير احتياجات العصر في بعض المسائل القانونية من أجل إتمام إجراءات المحاكمات الخاصة بالتقسيم والتحصيل والتقسيم في شكل يوافق الثروة ودفع الضرائب المكلّف تحصيلها على كل نوع منها .

وسوف يتم التفضيل بطرح كل الوسائل والقوانين والمحاسبات وما يتعلق بها من وظائف والديوان العالى ومجلس الوكلاء والوكلاء والانتخابات العمومية وأصول المحاكمات القانونية التي سيتم طرحها من أجل التهيئه والإعداد والتنظيم في شورى الدولة وإن الأمل المعقود على ذلك .

ولقد تم إبلاغ الجميع بضرورة المسارعة للبدء في عرض الأمر والاهتمام به وخاصة فيما سيتم اتخاذه نحو استكمال الإجراءات المطلوبة حسب الوظيفة من أجل قانون الموازنة للسنة القادمة وفيما يتعلق بالمسائل المختلفة المتعلقة ببعض القوانين المذكورة سابقاً في الاجتماع السابق والبحث من جميع الأطراف المشتركة في اللائحة التنظيمية التي ستصدر بشأن ذلك .

وعلى كل حال فإن الأمر والفرمان لحضرته ولـي الأمر والإحسان يا سيدنا .

26 ذي الحجة 1294هـ / كانون أول 1292 رومي

مطابقة للأصل

هيئة الأعيان

1294هـ

جمال الدين الأفغاني

Y.PRK. EEA 15/26

إن الانفعال الشديد جداً للشيخ جمال الدين الأفغاني والموجود في لندن والذي سبق وأن تم تقديمها حول قيامه بتفسيير مقصد الأرمن من طرف بعض المحبوبين وملوك خان ، فقد أظهر أمس لي سوء نيته بعض الشيء .

وبناءً على حالة الانفعال الصادرة من دولة إيران تجاه الاثنين المشار إليهما معاً ، فإننا نرى أن هذا الحدث سوف يكون له شأن في خدمة فكرة الجامعة الإسلامية لما ينجم عنه من اتحاد في الحس . وعلى أية حال فإنه من أجل ما جاء في الصحف وما نشر خاص بمحاولة تخلص هؤلاء أو قيامه هو نفسه بذلك في إيران ، فإن ذلك ليس معناه أن هناك اختراق دولة الأرمن عن الممالك العثمانية المحروسة .

فربما أن يكون أي مسلم موجود في المغرب أو إيران أو بلاد الهند يريد الالتحاق بالممالك المحروسة ، له هدف آخر غير الذي يدور في نفسه . فعلى سبيل المثال فإن الهدف من وراء قيام الإنجليز باحتلال مصر والجازر واليمن ربما يدور في فكرهم نحو تلك المناطق لا يعلم به أحد .

ولقد نشرت مقالات كثيرة في صحيفتي (باريس) و (تيرزبورغ) ، ضد الاحتلال الإنجليزي العسكري بناء على ما يدور في فكر الإنجليز وأثبته التاريخ نحو بلاد اليمن والجازر أو حتى أي دولة في مصر .

وسوف يتم توجيه الوسائل المختلفة نحو تلك المسألة وأنه من أجل الضغط على الإنجليز وإجبارهم على الخروج من مصر ، فإنه لابد من توحيد الصف بين العالم الإسلامي لتدبير الحلول والأسباب اللازمة لتحقيق ذلك ، وسوف تقوم الدولة العثمانية بالسعى في ذلك والأمر لحضره السلطان حفظه الله .

لندن / 4 فبراير 1307 رومي = 16 فبراير 1892 م

عبد الحق حامد

عهد السلطان عبد الحميد الثاني (إعلان القانون الأساس)

سياسته مع المبعوثان

معروض من عبدكم ما يلي :

أنه من الطبيعي أن تاريخ اجتماع المجلس العمومي لمناقشة القانون الأساس سوف يكون مع بداية شهر مارس . وسوف يكون التأسيس فور صدور الفرمان السلطاني العالى بهذا الشأن . وبمقتضى أصول المشورة فقد صدر الفرمان العالى بدوام الوظائف الخاصة بهيئة الأعيان والمبعوثان وظهور الدليل العلنى والفعلي والرغبة الحقيقية فى الإصلاحات الداخلية وال موجود داخل سياسة الدولة العثمانية فوق العادة .

وبناءً على الحماس الزائد للإحساس الموجود في المجلس العمومي فإن كل السعادة والسرور وكمال التقدير للوafd العالى الذى يبذل مساعيه المشكورة نحو هذا الإصلاح . وإنه حسب ما يراه المجلس المشار إليه عند إصدار و النطق بالقانون الأساس وعدم كفاية الوظائف التي يتضمنها المجلس العمومي حسب الأصول المرعية والتي يكتسبها الأحوال العمومية لحياتنا هذه الأيام ، فإن له الحق في تصور المدة المطلوبة لتحديد أو تقصير مدى الاجتماعات الخاصة بهذه المسألة ، فقد صدر الأمر السلطانى العالى بهيئة مجلس الأعيان والمبعوثان بضرورة بذل كل الجهد لعدم تعطيل ما يقتضي عمله بهذا الشأن ، وقد تم إبلاغ الفرمان السلطانى العالى لكل من الهيئة وهى هيئة رؤساء وأعضاء مجلس المبعوثان والأعيان والأمر والفرمان لحضره ولـى الأمر .

DUCT /10/62

إنه لمن المعلوم أن الإجراءات التي تم اتخاذها تماماً سواء من ناحية مناقشة المذكرات والأبحاث الخاصة بصدور اللائحة الأصلية للقوانين الأساسية بوظائف مجلس العلوم الذي صدر بشأنه الأمر العالي ، أنه من الطبيعي أن يكون هناك تبادل في الأفكار حول هذا الموضوع بين هيئة الأعيان والمعوقثان مع وكلاء الدولة في الأحوال والأزمة العادية ، ومع هذا فقد ظلت سياسة الدولة وحركتها في شكل غير عادي .

وإنه لا يمكن الاستغناء عن المعاملات التي تجرى في الأوقات غير العادية وخاصة أنه لابد من إبلاغ المبعوثان والأعيان بأسس القرارات التي تم اتخاذها بين الوكالء في الإدارة الداخلية أو في السياسة وفي الأحداث التي تظهر كل ساعة وربما كل يوم والتي يداوم عليها مجلس العلوم وبشكل مستمر .

ومع هذا فإنه لا يمكن لأي طرف من الأطراف السابقة أن يعرض على مجلس العلوم في أي وقت أو زمان نتائج المباحثات التي جرت مع الدول المشتركة معنا بأحوال فوق العادة وبصرف النظر عن قطع المساعدات أو المصالح في أي وقت.

وسوف يبقى المجلس الآن في ختام اجتماعه لمدة شهر واحد ولحضوره السلطان كل الصالحيات في تحديد أو إنفاص مدى اجتماع المجلس العمومي طبقاً للقانون الأساس وأحكامه وهذا الأمر منوط للسلطان العثماني وحده وإن كل الأمور قاطبة والأمر والفرمان لحضرته من له الأمر .

10 صفر 1295هـ

عبد اللطيف صبحي - محمد كافي - السيد محمد سعيد - محمد نامق - السيد خليل

الباب العالي

دائرة الصداررة

الديوان الهمایونی

لقد تم القيام باتخاذ الإجراءات اللازمة نحو إبلاغ سفارة الدولة العثمانية في (لندن) من أجل القيام بتكييف ما ورد في صورة التعارف المنشور والمؤرخ في السابع من شهر حزيران افرنجي في جريدة (ديلي نيوز) وذلك بمنع دخول هذه الجريدة إلى الممالك السلطانية العثمانية أو إلى أي إدارة تحت إدارة الولايات السلطانية العثمانية أو حتى إلى إسطانبول . وهذا ما تم عرضه على نظارة الخارجية الجليلة متضمناً صورة من الأمر السلطاني العالي في هذا الشأن .

14 ذي القعده 1309هـ الصدر الأعظم والبار والأكرم
28 مايو 1308هـ رومي جواد

الباب العالى

دائرة الخارجية

قسم الرسائل

إلى حضرة الصداررة العظمى

معروضي ما يلى :

يُشاع أن الإجراءات المتخذة ضد الأشخاص الذين لديهم شبهة أنهم منسوبى لفرقة الحكومة المشروطة ، يحيدون عن الحق بصفة دائمة . وأما فيما يتعلق بأمر إرسال جنود لمنع الثورات القائمة في مناطق موشى وصامون ضد الإدارة العثمانية فإن تخوف الولايات العثمانية الأخرى ودار السعادة أدى إلى القيام بإرسال وإبلاغ سفاراة الدولة العثمانية في لندن بإرسال تلغراف بتاريخ 7 حزيران 1292 رومي .

والذى تلقته السفاراة هناك ويشمل ويتضمن طلب معلومات حول ما قامت به جريدة (ديلى نيوز) في عددها الصادر بتاريخ 74 يونيو من عام 1292 رومي والذي يتضمن حول هذا الموضوع .

وقد صدرت الأوامر السلطانية العليا بمنع دخول هذه الجريدة إلى أي ولاية من الولايات التي تكون تحت إدارة الدولة العثمانية والقيام بتكذيب ما ورد فيها وإبلاغها إلى السفاراة المشار إليها .

ناظر الخارجية

13 ذي القعدة 1309 هـ

27 مايو 1308 رومي

الباب العالي

نظارة الأمور الخارجية

غرفة الترجمة

الأرمن وإثارة الصحافة

(ترجمة التلغراف رقم (131) الوارد من السفارة السنوية للدولة العثمانية في (لندن) بتاريخ 7 حزيران (يونيو) 1892م إلى نظارة الخارجية :

نظراً للتلغراف الذي تم إدراج نسخة منه اليوم حول ما نشرته جريدة (ده يلي نيوز)، فقد ظهرت بعض الاضطرابات والثورات في سناجق صامون وموشى وخاصة بين الأهانى والأرمن الذين يعيشون في الولايات العثمانية .

ولمنع مثل هذه الثورات في المناطق المشار إليها ، فقد تم إرسال جنود إليها .
وبناءً على ذلك فقد التمسنا بإرسال تلغراف يطلب المزيد من المعلومات من كل الأطراف حول حقيقة هذه المسألة .

الباب العالي

نظارة الأمور الخارجية

غرفة الترجمة

ترجمة التغريف رقم (130) والوارد من السفاره السنديه

للدولة العثمانيه في (لندن) بتاريخ 7 حزيران

يونيه 1892م إلى نظارة الخارجية

لقد تم نشر ما أوردته إحدى الأعداد الصادرة في هذا التاريخ من صحيفة (ده يلي نيوز) حول ما يشاع من أن الحكومة العثمانية مستمرة في إجراءات التعسفية والظالمه ضد الأشخاص المنصوبين ضد فرقه الحكومة المشروطة .

وهذا محرر تحت أصول الإداره التي نالت كل تعجب ودهشهه في الولايات السلطانية أو أي دولة أخرى .

مسودة تلغراف إلى نظارة الخارجية

AH- MKT

اسم كاتب المسودة / بهاء الدين

1836/41

تاريخ التسويق / 11 مايو 1307 رومي

تاريخ التبييض : 17 شوال 1308 هـ = 14 مايو 1307 رومي

الوقد العثماني إلى اليابان خلال عهد سلطان عبد الحميد الثاني

فيما يتعلق بإبلاغ نظارة الخارجية بما أفادت به نظارة المحاسبة والذي يتضمن إصدار الفرمان السلطاني العالى والذى بمقتضاه يتم تكريم ست من الرجال الأفاضل سبقت لهم الخدمة الرسمية بصورة طيبة خلال إقامتهم في طوكيو وياكوناما ضمن الهيئة الدبلوماسية الرسمية لسفارة الدولة العثمانية المرسلة إلى اليابان .

ناظرة الداخلية

إلى الصدارة العظمى

10 جمادى الأولى 1309هـ = 29 كانون الأول 1307رومى

سفينة ارطغرول التي غرقت في طريقها إلى اليابان

خلال عهد السلطان عبد الحميد الثاني

لقد ورد إشعار من نظارة المالية الجليلة مقابل إجراء المعاملة الالزمة والإجراءات المحسوبة في صورة التخصصات الداخلية عن عام 1306 رومي وذلك بمنح مبلغ مائة وتسعة ألف وخمسمائة قرش (109500) قروش تصرف بمقتضى الإرادة السلطانية بواسطة البنك الموجود في اليابان وذلك لعدد ست ضباط وثلاث وستين جندي كهبة وذلك بعد إنقاذهم من السفينة السلطانية (ارطغرل) التي غرقت في (قصاز) وسوف يتم تسوية هذه المبالغ المشار إليها من موازنة الداخلية وعلاوة على فتح الموازنة وتسويتها فقد تم استئذان نظارة المحاسبة للبدء في تنفيذ ذلك .

إلى نظارة المالية :

بناءً على التذكرة التي تم تحويلها إلى نظارة المحاسبة بتاريخ 13 أغسطس 1307 رومي فإنه سوف يتم تحديد التاريخ الذي سيتم فيه سداد هذه المبالغ في الفترة التي تزيد فيها الموازنة .

رسالة جمال الدين الأفغاني

إن قلبي مطمئن لما سوف تقوم به الخلافة العثمانية في حفظ وصيانة حقوق الإسلام التي تتعرض لهجوم الأعداء من كل صوب وجها .

ويجب أن نقوم بحماية كافة المسلمين الموجودين على وجه الكرة الأرضية الضعفاء من أي تعرض يتعرضون له . وسوف يتم ذلك وبسهولة إذا كان ذلك تحت سيطرة الدولة العثمانية . إن فكري المشغول باستكمال أسباب نشر وتعظيم هدفه على أقطار العالم ، أرى من خلال عيوني أن الأمر غير مستحسن على كل الوجوه مما أراه من تلك المعاملة التحقرية الآن . لأن من أجل سلامة الإسلام ، فإنه يجب أن نتحمل ما نلاقيه من آلام وما يعترضنا من ابتلاء . لأنه لا يمكن بأي حال من الأحوال التعرض من قريب أو بعيد للخلافة العثمانية العظمى .

إننا يجب أن نرى الوجه المنير للخلافة العثمانية ، وقبل أن نعتني بها ، سواء من ناحية المقام السلطاني أو من ناحية مقام الخلافة ، فإنه لابد أن نؤمن بأن تأييد وتصديق وتقديس السلطان والخلافة هو أمر وفرضية دينية بكل تأكيد .

وخلال وجودي في أوروبا ، نشرت ذلك في صحفة (باريس) وروسيا العمومية ، وكتبت أيضاً في جريدة (العروة الوثقى) العديد من المقالات التي تشير إلى ضرورة تقدیس الخلافة العثمانية بالقلب والروح . ولكن كان في الوقت نفسه هناك بعض الأشخاص عديمي الذمة وضعيفي النفوس ممن يتعرضون للخلافة بالسوء وملأوا أعينهم بالواسوس والهواجس نحو الخلافة والسلطان والحمد لله فقد نلت من الشرف والفضيلة المادية والمعنوية الكثير .

ولقد كنت أتمنى أن أثبت حسن صدقى وإخلاصى فى هذا الوجود ولكن يا أسفاه لم يكن هذا ميسراً لي . بل إن ما قامت به يدي كسيف مسلط ضد أعداء الدولة العثمانية في الداخل والخارج أمثال ذو الفقار حيدر كرار لم يجد قبولاً ولا استحساناً .

ولقد قمت بعرض وتقديم كل ما أستطيع بذلك من جهد للخلافة العثمانية وبمقتضى الإرادة السنوية ، و كنت مسروراً لدرجة أنني تخيلت أن أبواب الجنة العثمانية قد فتحت لي من أجل توحيد كلمة الإسلام والمسلمين .

وإلى الآن لم تخرج كلمة واحدة تصنفني وتؤيد ما بذلته من مجهد بل خرج علينا أصحاب المصالح الفاسدة ينيران حقدمون ونعاقيم علينا وصوبوها تجاهنا ، أو خرج أصحاب العقول في آخر الزمان بسوء تقديرهم لما نفعه ولجعل خليفة المسلمين أنني كنت أدفع عن الخليفة والخلافة بكل صدق من روحي وقلبي .

ومن المعلوم أن مسيو غارجينو لديه من الأحقاد والضغائن الظاهرة والخفية ضد الخليفة والمسلمين وربما أنه يعمل ذلك بتعليمات من الإنجليز الذين يحملون كل كراهية الخليفة والخلافة . وهل هناك شك آخر في سبب قيام الملعون غارجينو بأنكار ما قلته أو أخبرت به !؟

ولكن تظاهر هذه الحقيقة كان لابد من عقد المواجهة معه . ولكي لا يتم ذلك كان لابد من استخدامه لنشر الإشاعات والأكاذيب . ولا يمكن أن أنساب أية أمور مخالفة لخليفة رسول الله والعقل الملهم من الله في أرضه .

وإنني أعلم جيداً أن جباررة شمر الأشقياء يستخدمون كل الدسائس ضدي لآخر نفس لديهم . وإن الله يعلم كم يتعلق قلبي وروحي من أجل خدمة العالم الإسلامي . وإنه لحرام عليّ أن أبذل وقتى وجهدى من أجل الهذيان . وأنني أستودع الخليفة المقدسة أمانة في يد الله .

الداعي / جمال الدين الأفغاني

إعلان حرب روسيا دولياً على الدولة العثمانية

اللهم وفق جناب السلطان العالى وسهل أمره في كل الأمور الخيرية والإعمارية وإنه من أجل علو همة الدولة والخلافة ، فقد تقرر توجيه الشكر على صدور الأمر السلطاني في يوم السابع من شهر ذي الحجة الشريفة واليوم الأول من شهر كانون الأول (الخميس) من مجلس العموم بحضور السلطان العثماني بشأن دراسة الأحوال الحاضرة وتجهيز كل ما يلزم من مواد مهمة وبحث كل المسائل .

ولقد تضمن ذلك الأمر السلطان أن الدولة العثمانية مضطورة للدفاع عن نفسها بمجرد قيام دولة روسيا بإعلان الحرب عليها ، ولكي تمضي هذه الأزمة على خير ، فقد تقرر التبليغ على كل الأهالي والمواطنين بالتعامل مع الأزمة بكل مسؤولية ووطنية وبعد عن كل خصام وتناقر بينهم ، وليشعر المواطنين بمدى خطورة الموقف لكي يعود على كل ممالك المحروسة بالنفع والخير .

وبمجرد قيام دولة روسية قيامها بإعلان الحرب على الدولة العثمانية انتشرت معها الأكاذيب ومنذ فترة طويلة . ولم يكن هناك أدنى شك في أن هناك العديد من الذين استغلوا الأزمة والموقف بشكل عدائى مع الدولة والخلافة ، لدرجة استعدادهم لسفك الدماء .

وكما تسعى الدولة العثمانية وتحتاج في استكمال كل الاستعدادات العسكرية والحربيه للجند السلطانية واستكمال تشكيلاتهم العسكرية ، وبما يتمتع به هؤلاء العساكر من فداء وبطولة للوصول إلى أعلى مستوى حربي ، فإنه أيضاً لابد من تألف القلوب وارتباطها بعضها البعض في أفضل صورة من التعاون والصداقه .

لأن كل فرد وشخص يعيش تحت ظل الخلافة العثمانية واثق تمام الثقة في أن الدولة تبحث عن كل ما يجلب الراحة والأمن والأمان وإننا كلنا أمل في أن يعيش الوطن في راحة ومدنية وأمان .

ولابد للحصول على كامل الحرية والسعادة واستغلال الوطن المحترم والمحافظة على ذلك . ولذلك صدرت الأوامر السلطانية العليا للوقوف ضد أية تجاوزات أو تعدي سواء مادي أو معنوي ضد الوطن والأهالي .

ومن بين الأحوال الحاضرة التي تم بحثها ومناقشتها في الاجتماع هو استكمال أسباب الإصلاحات التي تجري بالفعل ، وإزالة كل العوائق عن استكمالها وسوف يتم في المستقبل القريب تلافي كل الأخطاء السابقة .

وإن الاجتماع الذي تم في العام الماضي ، أشرت إلى توجيه الشكر في العريضة المقدمة إلى المجلس ، وإن ما قامت به الخلافة العثمانية لخير دليل عادل وشاهد على تاريخ الأمم السابقة ، وما تفعله هذه الخلافة من أعمار وإصلاح وإعادة الأمان والأمان للأهالي والمواطن ، وأن العالم الإسلامي يسعى على الدوام وعلى العموم بكل اهتمام وجذب وجهد لإعادة الحق والعدل والقانون والاعتصام بالشرع الشريف الذي هو مصدر نصرهم وتوفيقهم. وكما أن الله اصطفى أراضي وجبال وأنهار وسواحل الملك المحمودة بالدولة العثمانية وحفظها من كل سوء ، وكذلك حفظ أهلها وساكينها وكل التابعين فيها من أي ضرر سوء ، قادر أيضاً على أن يحفظ الدولة والخلافة من أية أفكار أو سوء نية في كل زمان ومكان ، حتى يتفرع أهلها لكل خطوات الإصلاح والأعمار المدنية واستكمال ثرواتها ، وذلك بإصدار الأوامر السلطانية الموجهة لكل أهالي الملك المحمودة . لتوجيه طاقاتهم المادية والمعنوية لاستكمال خطوات الإصلاح .

إلى الصداررة العظمى

AH – MKT 1372 / 17

التشكيلات السرية

عهد عبد الحميد الثاني

تاریخ کتابة المسودة = 15 ذي القعده 1303هـ

الذی قام بإصلاحها : رائق بك

تاریخ التبیض : 15 محرم سنة 1304هـ = 2 تشرين أول 1302هـ

إنه من أجل تحقيق ما يتلائم مع أحوال الروم ايلی الشرقية وبلاد البلغارستان فقد تم الإبلاغ عن ولاية (أدرنه) بضرورة القيام بتخصيص تشكيل من رجال الشرطة السرية والقيام بصرف مبلغ 15000 خمسة عشر ألف قرش راتباً شهرياً ومصروفات الطريق لهذا التشكيل .

وبناءً على ما سبق اتخاذه من قبل ومعرفة لجنة التفتيش في بلغارستان من تحقيقات ونتائجها التي تعود على بلغارستان وبناءً على ما يستلزم فعله في الولاية المشار إليها ، فقد تم صرف مبلغ 50000 خمسون ألف قرش ضمن الموازنة الداخلية المقرر لهذا العمل . وبمقتضى الإرادة السنوية الصادرة ، فقد تقرر ضم مبلغ 10.000 عشرة آلاف قرش للمبلغ السابق لتنفيذ المهام المكلفين فيها .

وفي حالة عدم كفاية المبالغ السابقة ، فإنه يستلزم إبلاغ ذلك للصدارة العظمى لكي يتم إضافة مبالغ أخرى للمبالغ السابقة . وفي حالة عدم كفاية الموازنة المقرر لعام 1301 رومني لهذه الميزانية ، فإنه يتم ترحيل ما يستكمل من أموال من ميزانية 1302 رومني .

إلى ولاية آدرنه

AH- MKT_1380/26

رد على السابقة

تاریخ التسويید : 20 صفر 1303هـ

كاتب المسودة : شوکت أفندي

تاریخ التبییض : 28 صفر 1304هـ = 13 تشرین ثانی 1302 رومي

لقد تم القيام بتشكيل هيئة شرطة سريعة من أجل تحقيق الأمان المناسب وإعادة الأحوال إلى بلغارستان والروم ايلی الشرقية ، ولذلك فقد تقرر صرف مبلغ 15000 قرشاً كراتب شهري للعاملين في هذه الهيئة ، ومصروفات طريق لتنفيذ المهام المكلفين بها . وهذا ما ورد من الولاية المشار إليها وسوف يتم تنفيذ ذلك بمعرفة لجنة تفتيش بلغارستان ، وسوف يتم الصرف عليها من موازنة بلغارستان ، أما الروم ايلی الشرقية فسوف يتم تخصيص مبلغ 50000 قرش كموازنة لها لتنفيذ ما يعهد إليه من مهام . وقد صدرت الأوامر السلطانية لزيادة الميزانية المخصصة لها من 10000 عشرة آلاف قرش لتصل إلى 60000 ستين ألف قرش وذلك حسب أوامر الصداررة العظمى وإن هذه الإرادة السنوية متوقفة على رأس مجلس شورى الدولة .

YA – HUS
261 – 116

الباب العالي
نظارة الخارجية الجليلة
غرفة الترجمة

عبد ميلاد عبد الحميد الثاني

الإبلاغ عن قيام السفراء وقدومهم إلى المابين الهايوني بالقصر السلطاني من أجل تقديم التهنئة والتبريك الذي تصادف يومهم غداً مع يوم ولادة السلطان العثماني ، وهذا للعلم .

لقد طلب المشار إليه القدوم إلى دار السعادة (استانبول) مع معيته ولقد واصلت جريدة (استانبول) في قيامها بالدفاع عن مدحت باشا والتصدي لذلك ، واستمرت أيضاً جريدة (النهار الرسمية) في التعرض به . والآن يجب أن يقوم الباب العالي بالبحث حول الفتنة والدسائس المشتعلة في كل من طرابلس وتونس . وأنه لا يمكن السماح بأن يحدث ذلك وغير مقبول من بقوات تونس ، ولقد قاموا بإرسال موظف من طرفهم إلى السلطان العثماني لإظهار صداقتهم نحوه .

ولقد أرسلت إلى طرابلس عدد ثلاثة صندوق من الذخيرة وعدة آلاف من البنادق والأسلحة محملة على سفينة (الشام) ولقد تقرر إرسال عدد عشرة آلاف جندي محملين على السفن الحربية العثمانية من أجل التصدي للأفكار الثورية الموجودة في كل من تونس وطرابلس . وسوف يتم من أجل ذلك تعيين هوبار باشا قائداً عاماً على الأسطول العثماني الموجود في (بحر سيف = الأبيض المتوسط) .

ولقد تصادف غالباً يوم الرابع عشر من شهر تموز أن يلتقي هذا اليوم بين عيد الفرنسيين وعيد ميلاد السلطان عبد الحميد الثاني ولذلك فقد كان يوماً مناسباً لسفراء الدول الأجنبية للقدوم إلى القصر السلطاني لتقديم التبريك والتهنئة .

ولقد صدرت الأوامر السلطانية بالتعامل بما فيه الرحمة والإنسانية والشفقة تجاه كل المتهمنين . وقد حدث ذلك في المضبوطة التي تم تحريرها يوم الأحد الماضي . وإن الأمر شورى ، ولسوف يؤثر الحكم بالإعدام على المتهمنين ويترك أثراً بالغاً إلى مala نهاية . ولقد تم تلاوة الأحكام المعروضة على المجلس وال خاصة بالمتهمنين ، حيث أن البعض منهم محكوم عليه بالإعدام والبعض الآخر محكوم عليهم بالنفي . ولقد صرف النظر عن تناول قيام البدو بإعلان عصيانهم على الدولة .

وفيما يتعلّق بحالة الجنون التي ارتبطت مدحت باشا ، نجد أنه الأساس والأصل في كل ما خرج من إشاعات وحوادث .

ولقد تأثرت كريمة مدحت باشا حزناً بوفاة والده محمود باشا كما كان ذلك له تأثير على أخت مدحت باشا نفسه وبعض من أقاربه وإنه لن يكون هناك إعدام لمدحت باشا ولا لكثير من المتهمين معه وسوف يتم الحصول على ضمان بذلك . ولقد تناولت العديد من الصحافة الرسمية الصادرة في إسطنبول المهمتين ، ببعض من التحقيق .

ولقد جاء في جريدة (الحوادث) " إن أوروبا سعيدة بالمواد القانونية التي يتناولها قانون بلدنا " ونحن لا نريد أن نكون مادة خبرية يتناولها الغير عن الأتراك هكذا ، لأن القوانين العثمانية في أبهى صورة دستورية لها ، وتتصف بالتمام والكمال . ولكن تحتاج الدولة العثمانية فقط لتبدل في السلوك والأخلاق فلقد قام المدعو (خرستاكي أفندي) من إحدى الصحف الصادرة بأن قام بوصف ما يحدث بأنه (أخلاق السراي أو القصر) .

الباب العالي

نظارة الخارجية الجليلة

غرفة الترجمة

ما يتعلّق بوفاة السلطان عبد العزيز

صورة التغراّف الوارد بتاريخ 4 حزيران 1281 رومي

إلى مقام نظارة الخارجية الجليلة

أنقل إليكم الرسالة التي قام بإرسالها إلينا رجل يُدعى (قله مانتي فالي بدرى) كما يلي :

" أورد إليكم الكثير من المعلومات التي وقفت عليها المتعلقة بنتائج التحقيقات التي ظهرت وأجريت في دار السعادة (إستانبول) اليوم المتعلقة بوفاة السلطان عبد العزيز رحمة الله .

وإنني أعلم تماماً الأشخاص الذين قاموا بقتل السلطان المشار إليه وتسبّبوا في تلك النكبة التي يمر بها وطننا العزيز وقاموا بتخريب وهدم الدولة العثمانية ولا بد من عرض الأمر سريعاً على مجلس شورى الدولة حتى يُساق المتهمين إلى العدالة لينالوا عقابهم .

وإن كافة المعلومات التي سوف تحقق العدالة على المتهمين متوافرة لدى ولكن هذه المعلومات المذكورة قد أبلغها لي أشخاص وقد أوردتها وأبلغتها لدار السعادة ، وسوف يتم التنسيق في هذا العمل هنا مع سفراء الدولة الأجنبية في إستانبول . وسوف يتم القيام بتعيين بعض الموظفين من قبل حكومة اليونان ، وسوف يتم تشكيل لجنة وهيئة مختلطة وسوف يكونون منهم ، ومع أنني رفضت أن أكون أحد أعضاء هذه اللجنة إلا أنني مضطر لأن أقوم بمراجعة ما تداوله الصحف اليومية من أجل نشر الحقيقة على الشعب والأهالي "

ولقد أرّخ هذا المكتوب أو هذه الرسالة في الثالث من شهر حزيران وكان التوقيع باسم (قله ماني فالي بدرى) وسوف أدوام على البحث والتحري حول هذا الموضوع .

ولو تم إحضار المشار إليه إلى السفارة ، فإنه سوف يخرج على الناس لإعلان كل الحقائق . وعلى أية حال فيما يتعلق بهذا الموضوع فإنني انتظر الأوامر العليا من النظارة (الخارجية) الجليلة .

ترجمة التلغراف الوارد من سفاره الدولة العثمانية إلى مقام نظارة الخارجية الجليلة بتاريخ 10 حزيران 1279 رومي .

فيما يتعلق بالتحريرات السامية التي تم التفضل بإرسالها إلى الهيئة العليا في الدولة العثمانية والتي وردت لي مع الأحداث التي صاحبت (بارون هوفمان) فلقد أرسلت التعليمات المفصلة الخاصة بهذا الموضوع والتي تتعلق بقيام المرحوم السلطان عبد العزيز خان ببعض الإصلاحات في عهده ، كما أنه أعتمد لائحة الإصلاحات التي قبلت في عهد السلطان مراد خان وإنه لابد بالالتزام بالمواد التي أضيفت عليها والعمل بتنفيذها . ولقد قمت بعرض تلك المعلومات عليكم كما وردت إلينا . كما أنه تأكّدت من مصادر موثوقة لدينا ، بأنه سوف يتم إرسال الذخيرة والأسلحة اللازمة من أجل التصدّي للأشقياء في الدولة وامتثالكم لأوامركم ، وأنهم لن يستطيعوا الوقوف هذه المرة أمام العساكر السلطانية .

(إلى والي مصر)

القانون الأساسي في عهد السلطان محمود الثاني

لقد قام السلطان العثماني بتشكيل المجلس العالي كنوع من التجديد في عهد الدولة من أجل التجديد المستمر في الأسس التنظيمية في الأنظمة والقوانين العثمانية التي تقتضي التحكيم والإصلاح مع التنظيم والترتيب للأحكام الموجودة حالياً في القانون وخاصة فيما يتعلق بالمعاملات الأساسية للأقوام والرعايا في الدولة وإن تبني قاعدة أساسية للأمور الإدارية المدنية الأساسية .

ولقد عُرض الأمر على المجالس العالية العمومي للبحث في الأمر ومناقشته خلال جلساته طبقاً لأصول النظم والقوانين ، وطبقاً لدستور العمل في الدولة . وقد تم طباعة نسخ متعددة من هذه التعديلات القانونية حسب الأوامر السلطانية الصادرة في هذا الشأن ، وسوف يتم نشرها وإعلانها وبمجرد اليوم الذي سيتم فيه الإعلان عن النظام الجديد فسوف يتم إرسال مائة نسخة منه إليكم . وعلى كل حال فإن الأمر والرمان لمن بيده الأمر .

16 رجب / 1331هـ

HH.UMUN 124 /195

وثائق عن التحديث في الموسيقى العثمانية

خلال عهد السلطان محمود الثاني

الباب العالى

ناظرة الداخلية

المديرية العامة للادارة الداخلية

حضره سلطاناً العظيم

فيما يتعلّق بالموافقة على المارش (الموسيقى العسكرية) العثمانية وبصورة دائمة والذى كان مشهوراً به من الغرفة الموسيقية العثمانية التي تم الموافقة عليها لأول مرة خلال أحداث النظام العسكري الجديد الذى قام به المرحوم السلطان محمود الثاني ، فقد صدرت الأوامر السلطانية والتذكرة السامية بأن يكون هذا المارش (الموسيقى العسكرية) هو المارش المعتمد لدى الدولة العثمانية والعمل به .

وليتم تعميم هذا الأمر والبدء في تفيذه على الفور

ذى القعدة 1336هـ ناظر الداخلية باسم

المستشار أغسطس 1334 رومي

وليتم تقديمها إلى المديرية العليا للأمور المحلية / في الولايات العثمانية

BOA , / HAT
24/2157

إصلاحات سليم الثالث :

صاحب الدولة والسعادة حضرة أفندينا معروض عليكم ما يلي :
بعد الحمد والثناء والدعاء بدوام الدولة والسلطان ، ومن أجل إعادة الأمان والانضباط للدولة
في كل ولاية من ولاياتها ، وطلبًا للاستقرار الإداري فيها ، فقد صدرت الأوامر العليا
والفرمانات السلطانية من أجل استكمال أسباب النظام والانتظام في الدولة .
وقد تعاهد الرعية على عدم الخروج عن طاعة السلطان والدولة ، لأن ذلك مخالف
للدين وخروج عن العقيدة ، وأن الجميع لديه استعداد لبذل الروح والجسد من أجل إعادة هيبة
الدولة واستقرارها .
ولكن معلوماً أنه تم استدعاء والتي سلسيرة محمد باشا الذي توجه إلى استانبول ليقدم
طاعته للدولة العثمانية والسلطان .
وعلى كل حال فإن الأمر لوي النعم سلطانا

3 جمادى الآخرة 1221هـ

مصطفى

علاقات الصداقة بين الدولة العثمانية وإنجلترا - تعين السفراء

**خلاصة ترجمة العريضة الواردة إلينا بتاريخ 15 شهر كانون الثاني
من طرف خادمنا بانقة ماورو باني**

حضره سلطاناً ، إنه بعد رؤيتنا لرئيس وكلاء دولة إنجلترا ومما يتصف به من رزانة عقل وحزم واستقامة ، فقد وعدنا بأنه سوف يشارك في جهود الدولة الإصلاحية والتنظيمية ، وأنه لن يكون مثل أسلافه من الوكلاء السابقين عديمي الذمة والانحراف وسوف يقوم برعایة روح القوانين العثمانية الأساسية في البلاد ، وأنه مبدئياً موافق على كل خطوات الدولة في التعديلات القانونية والنظم الأساسية التي تقوم بها الدولة ، وأنه موافق أيضاً على فكرة انضمامه إلى عضوية مجلس المبعوثان ، وأن تلك المسألة التي كانت الدولة تعاني منها خلال تعاملها مع الوكلاء السابقين وال الحاليين سوف يتضح ذلك خلال انعقاد المجلس في الثامن من شهر فبراير القادم ، وسوف تأتي خطوات الإصلاح من خلال التعامل مع هؤلاء الوكلاء ومما سيترتب على معايشتهم للأمور والقضايا التي تهم الأمور الداخلية والخارجية في البلاد .

ومن الأمور التي يمكن بحثها هو الحفاظ على العلاقات الدولية مع دولة النمسا وإنجلترا كعلاقة دولية متوازنة لما بين البلدين من تقارب جغرافي وسوف تكون النتيجة في العلاقات الدولية بينهما طيبة حسب الهدف والغرض والمصالح المشتركة بيننا وبينهما . حيث كان هناك تأثير على جانب النمسا حينما قررت إنجلترا من خلال الحدود المشتركة بالتصدي عليها ولذلك فإنه سوف يتم تلافي ذلك مقرراً فيما بعد وإزالة آثار هذا التعدي .
بعد اللقاء مع السفراء في لندن ، ومن ناحية أخرى فسوف يكون هناك تفهم للحالة الاقتصادية التي تمر بها بلاد النمسا ، والسعى وراء تخفيض القروض المالية عليها ، ومحاولة أيضاً تخصيص التجهيزات العسكرية كتخفيض عدد الجنود لديها .
والآن فإن العلاقات العثمانية الروسية وكذلك مع إنجلترا ، تعد من أهم العلاقات السياسية التي تحرص الدولة العثمانية على ربط أو اصرها بالصداقة الدائمة ، وسوف يتم

تعيين سفير لدى الدولة في باريس ولندن على أعلى مستوى من الخبرة والدرأية السياسية والدولية .

فمنذ أربعين سنة تقريباً وخلال عهد بونابرت قامت السفن الحربية الفرنسية بالاعتداء على سفن التجار التابعين للولايات المتحدة الأمريكية ، مما أوقع عليهم خسارة وضرراً كبيراً وقد تم إعادة مراكب وسفن التجار الأمريكيان مرة أخرى ، وقد تعهدت جمهورية فرنسا بأداء مبلغ 2000 كيسة من العملة الفرنسية لهؤلاء التجار تعويضاً على هذه الخسارة التي لحقت بهم.

خلاصة ترجمة التحريرات التي قام بتقاديمها سفير بروسيا

إنه سوف يتم إجراء الإصلاحات الازمة في العساكر السلطانية المنتظمة فلقد كان من الصواب السعي نحو إلغاء فرقـة الإنكشارية التي سعت فساداً وكراهيـة إلى يوم الساعة . ولـكي يتم استكمـال نظام الجنـود المنـتظـمة ، فإـنه قد تـقرـر جـلب ضـبـاطـ من بـروـسـياـ كـمـعـلـمـينـ لهـؤـلـاءـ الجنـودـ السـلـطـانـيـةـ حيثـ أـنـهـ عـلـىـ درـايـةـ بـكـلـ جـديـدـ فـيـ التـعـلـيمـ العـسـكـريـ والـتـدـرـيـبـ عـلـىـ الأـسـلـحـةـ الـحـدـيـثـةـ ،ـ ماـ سـيـجـلـبـ المـنـفـعـةـ لـلـدـوـلـةـ ،ـ حـيـثـ أـنـ تـجـدـيدـ العـسـاـكـرـ المـنـظـمـةـ لـمـ يـكـنـ مـنـ عـهـدـ بـعـيدـ ،ـ وـلـذـكـ فـسـوـفـ يـتـجـدـيدـ لـكـلـ أـسـلـحـةـ الجـيـشـ سـوـاءـ الضـبـاطـ أوـ الجنـودـ أوـ المـدـفعـيـةـ أوـ الفـرـسـانـ وـالـمـشـاةـ أـيـضـاـ ،ـ وـبـهـذـاـ أـسـلـوبـ اـسـتـطـاعـ إـمـبرـاطـورـ روـسـياـ (ـبـتـرـوـ)ـ التـغلـبـ عـلـىـ مـلـكـ أـسـوـجـ الـمـلـكـ شـارـلـ الثـانـيـ عـشـرـ ،ـ وـهـذـاـ مـاـ نـأـمـلـ مـنـ حـدـوـثـ مـنـ نـتـائـجـ طـيـبـةـ وـمـتـوقـعـةـ فـيـ تـدـرـيـبـ هـذـهـ الطـائـفـةـ مـنـ الجنـودـ .ـ لـأـنـهـ مـنـ الـمـعـلـومـ أـنـ العـسـاـكـرـ السـلـطـانـيـةـ يـمـكـنـ أـنـ تكونـ مـنـ عـدـةـ مـلـلـ وـطـوـائـفـ مـخـتـلـفةـ .ـ فـمـنـهـ الرـوـمـ وـالـأـرـمـنـ وـالـيـهـودـ ،ـ وـنـحنـ فـيـ اـحـتـيـاجـ لـلـشـيـابـ مـنـ هـؤـلـاءـ وـالـذـينـ سـيـصـلـونـ بـنـاـ إـلـىـ نـتـائـجـ طـيـبـةـ وـأـنـ مـنـاقـشـةـ مـثـلـ هـذـاـ الـأـمـرـ مـعـ وـكـلـاءـ الدـوـلـةـ فـيـ الـعـنـمـانـيـةـ لـمـنـتـهـيـ الـعـقـلـ وـلـابـدـ مـنـ تـطـوـيرـ الجنـودـ وـضـبـاطـهـمـ فـيـ أـسـلـحـةـ الجـيـشـ المـخـتـلـفـةـ سـوـاءـ فـيـ المـدـفعـيـةـ أوـ المـشـاةـ أوـ الفـرـسـانـ لـأـنـ ذـلـكـ سـوـفـ يـسـاعـدـ عـلـىـ الـاسـتـقـرـارـ العـسـكـريـ لـلـدـوـلـةـ فـيـ الـمـمـالـكـ الـعـنـمـانـيـةـ الـمـخـتـلـفـةـ .ـ وـلـابـدـ مـنـ اـسـتـكـمـالـ إـلـإـنـشـاءـاتـ الـخـفـيـفـةـ وـإـنـشـاءـ مـعـسـكـراتـ بـجـانـبـ الـقـلـاعـ فـيـ مـنـطـقـةـ الرـوـمـ اـيلـيـ ،ـ وـخـاصـةـ لـجـنـودـ المـشـاةـ مـنـ الجنـودـ السـلـطـانـيـةـ ،ـ وـسـوـفـ يـرـأسـ تـدـرـيـبـ هـؤـلـاءـ الضـبـاطـ موـظـفـ أـجـنبـيـ عـلـىـ درـايـةـ وـخـبـرـةـ عـسـكـرـيـةـ كـافـيـةـ وـلـيـتمـ نـشـرـ هـذـهـ الـأـوـامـرـ الـعـسـكـرـيـةـ .ـ

HAT – 6412787

تناول الوثيقة بعض أمور الفساد وأصحابه في ولاية (أدرنه) بتركيا بتاريخ 2 جمادى الأولى 1221هـ ، وذلك بعد إلغاء محاولة إصلاح فرقـة الإنكشارية وتحديث الجيش بالنظام العسكري الجديد والمحاولات المبذولة التي تم التصدي لها في مناطق أدرنه والروم أيلـي .

رفض مسألة إلغاء الإنكشارية

فيما يتعلّق بتناول لائحة النّظام الجديد الخاصة بالمشار إلّي السّلطان سليم خان ، فلقد صدرت الأوامر لكل من الحاج إبراهيم أفندي أمين الترسانة وإبراهيم نسيم أفندي تتخذ الدولة بالبحث حول هذا الموضوّع . ولقد أشار إبراهيم أفندي بأنّ مسألة إلغاء فرقـة الإنكشارية واستبدالها بالنّظام العسكري الجديد هو أمر غير مقبول ويجب البحث حوله ومناقشته ، لأنّه منذ أربعـمائة سنة تقريباً من الآن فقد ارتبطت فرقـة الإنكشارية بالدول والأمم الإسلامية ارتباطاً وثيقاً ، مما كان له لفت نظر لدى الدول الأوروبيـة ، وكان له الأثر الكبير في ارتباط تلك الممالك الإسلامية .

وأنّ مسألة إلغاء فرقـة الإنكشارية واستبدالها بالنّظام الجديد ، سوف يلاقي العـديد من المشاكل التي ستـعوق الأمر ، منها مثلاً على سبيل المثال تعداد السـكان في الممالك العـثمانية والذي يعاني من نقص شـديد في هذا النـظام وإثبات العـديد من المجهولـين فيه ، ولكن من خلال العمل بالنـظام الجديد وتحـريـر تعداد السـكان في الدولة ، سوف يكشف لنا تعداد سـكان المسلمين من الدول الأجنـبية بالرغم من قلة عـددهم ولكن فإنه في النـهاية فإنـ القيام بإلغاء ومحـو فرقـة الإنكشارية يـعد من الأمور غير العـقلانية التي تمـ التـصديق عليها . ومن المعلوم أنـ الفرقـة المشار إلـيـها وبعد حادـثة التجـسس المعروـفة في التاريخ كان العـقاب عليهم شـديداً أسوـاً من نـاحـية الهجـوم على معـسـراتـهم وإـحرـاقـها بالـنـيران ومحاـولة إـبـادـتهم وهو من الأمـور غير الإنسـانية التي تمـ التعـامل بها معـ المـوضـوعـ والمـسـأـلةـ .

1417 C.HR

موقف الدولة العثمانية من تهدي فرنسا على مصر و موقف الإنجليز من ذلك

أواخر شهر صفر 1213 هـ

إلى شريف مكة المكرمة الشريف غالب بن مساعد

من المعلوم أن بين الدولة العثمانية وإنجلترا أواصر صدافة وود ، وعلى العكس من ذلك فإن ما بين الدولة العثمانية وفرنسا العديد من العداوة والخصومة . حيث قام الفرنسيون بالهجوم على (مصر) بغتة عن طريق الإسكندرية ، ومنها تمكنا من الوصول إلى القاهرة معلنة الحرب على الدولة العثمانية ، وسوء نيتها تجاه الباب العالي والدولة العلية . ولذلك فقد صدرت الأوامر بإرسال أسطول حربي وعسكري عثماني إلى هناك ، والبدء في تجهيزه على الفور ، وقد أخطرتنا وأبلغتنا دولة إنجلترا بأن أسطولها العسكري والحربى جاهز لتقديم المساعدة لطرد الفرنسيين من مصر ، وسوف يتقدم الأسطول التابع لدولة إنجلترا نحو البحر الأبيض المتوسط ، وسوف يأتي إلى سواحل الجزيرة ولذلك فقد صدرت الأوامر بتجهيز كل المستلزمات العسكرية والاستعداد بالذخيرة وغيرها ، وتدبرى الأموال اللازمة لتنفيذ تلك الاستعدادات ولا بد من القيام بحماية وصيانة الجزر والسواحل العثمانية .

وللعلم ، فإن الأسطول البحري العسكري التابع لإنجلترا ، يتكون من ثلاثة قطع بحرية كبيرة ، وسوف ترسو تلك السفن في ميناء السويس حسب الظروف ، وسوف تأتي أيضاً إلى نواحي موانئ جدة ، ولذلك فقد صدرت الأوامر السلطانية العالية بأن يتم تقديم كل المعونة لهذه السفن والأسطول التابع لإنجلترا ، ومعاملتها بكل صدافة وود ، والتصريح لها باستكمال كل التجهيزات الحربية وغيرها في تلك الموانئ سواء من الناحية المالية أو الناحية المادية والإمدادات المختلفة وتوفير الميزانية المالية المناسبة لذلك . ولقد صدرت مثل هذه الأوامر الشريفة لكل من والي جهة الأسبق ومحافظ المدينة المنورة الحالي الحاج الوزير يوسف باشا وأرسلت له الفرمانات الصادرة مكتوبة . وهذا للعلم

236 C.HR

احتلال الإنجليز لمصر في بداية القرن 19 وبعد خروج الفرنسيين من مصر

عام 1215هـ

صاحب العزة الدفتر دار :

في تلك الأثناء قامت دولة إنجلترا بحركات عدائية ضد الدولة العثمانية حيث قامت بالتجهيز نحو السواحل المصرية للتعدي عليها واحتلالها ولذلك فقد صدرت الأوامر العالية والفرمان السلطاني بأن يتم تجهيز الأسطول الحربي العثماني محملاً بالجنود من جزيرة (رودس) ويصاحبهم بعض العاملين من الجنود لا يقل عددهم عن 300 جندي وتوفير الميزانية المالية لذلك .

18 رجب 1215هـ

قائمة المصادر والمراجع

ثبات المصادر والمراجع

أولاً: الوثائق :

(1) وثائق غير منشورة :

أ) أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول .

(1) تصنيف BoA ، دفاتر مهمة . الدفتر رقم 70 ، الحكم السلطاني رقم 416 - الدفتر رقم 72 ، الحكم السلطاني رقم 264 ، 903 .

(2) تصنيف دفاتر الطابور " سجلات الأراضي " ، " بوزاق " المؤرخ في 1556 م .

(3) دفاتر الطوائف غير المسلمة في أرشيف الدولة العثمانية، دفتر 25,26

(4) وثيقة رقم 48261 / 141 AAT 1210 هـ Tarih

(5) وثيقة رقم 17 / 1372 AH – MKT

(6) وثيقة رقم 1380/26 AH – MKT

(7) وثيقة رقم 41 / 1836 AH – mkt

(8) وثيقة رقم 86/36 A.met mhw

(9) وثيقة رقم 98 / 317 A.MKT mta بتاريخ 26/2/1276 هـ .

(10) وثيقة رقم 10/62 BOA / Duit

(11) وثيقة رقم 2157 HAT / 24 BoA ,

(12) وثيقة رقم 42713 C-A-S

(13) وثيقة رقم 236 C. HR

(14) وثيقة رقم 1417 C.HR

(15) وثيقة رقم 2787 HAT / 64

(16) وثيقة رقم 21862 – D HAT / 0426

(17) وثيقة رقم 28938 HAT / 589

(18) وثيقة رقم 40958 D HAT / 954

(19) وثيقة رقم L HAT / 43944

(20) وثيقة رقم A HAT / 46746 1185

(21) وثيقة رقم 470324 HAT / 1197

HAT 1209 / 47374 A (22) وثيقة رقم
 H.H. . (23) وثيقة رقم 8265 خط همايوني
 H.H (24) وثيقة رقم 1095 خط همايوني
 H.H umun 124 / 165 (25) وثيقة رقم
 HR – To 122/57 (26) وثيقة رقم
 HR – TO 525 / 67 (27) وثيقة رقم
 Y.E.E 71/20 (28) وثيقة رقم
 Y. EE 9/20 (29) وثيقة رقم
 Y. EE71/20 (30) وثيقة رقم
 Y.mtv 204 / 35 (31) وثيقة رقم
 Y.PRK. EEA 15/26 (32) وثيقة رقم
 YA – Hus 167 / 101 (33) وثيقة رقم
 YA - Hus 261/116 (34) وثيقة رقم
 YEE 36/119 (35) وثيقة رقم

ب) أرشيف طوب قابي سراي :

- . 1) وثيقة رسالة جان برمي الغزالى إلى الشاه إسماعيل الصفوي. 5469 .
- 2) وثيقة رسالة جان برمي الغزالى إلى خاير بك .

وثائق منشورة : 2

- 1- A.G.e No : 8748 . Tarihli , 1213 . 1217 H .
- 2- A.G.e . No : 1766377 , Tarihli , IB 1265 H .
- 3- BoA . " TR.DH. Tasnifi " No : 11063 , T. 27 Ga . 7265 H .
- 4- BoA .Cavdet Tasnifi , Hariciye , No : 9111 , Tarinli , Ca . 1157 H.
- 5- BoA " DHSYS . Tasnifi " , No 1/31 Tarinli , 71 1328 H .
- 6- BoA." Cavdet Tansifi , Dahiliyel , No : 6599 , Tarihti , 24Z. 1236 H .
- 7- BoA. " DH . mui . Tasnifi " , No : 911129 T . 16 Ga 1330 H.
- 8- BoA . " DH . SYS . Tasnifi " No : 2127 , Tarihli , 19 m . 1332 H.
- 9- BoA . " Ir . DH. Tasnifi " No : 71063 Tarihli , 27 ca 1265H.
- 10- BoA . " DH . ID . Tasnifi " No : 421116 " Tarihti , 24 c .

- 11- Boa " IR.DH . tasnifi " No : 1106317 HB . 7265 H .
- 12- Boa " Y.DRK Azi . Tasnifi " No : 53 / 51 , T.7.Z. 1323 H .
- 13- BoA " YPPIK . EsA . Tasnifi " No : 45 / 14 , 1 . 26m 1309H.

ثانياً : المخطوطات :

أ) المخطوطات العربية :

(1) على إبراهيم البوتيجي الشافعي : سلوك سبيل الرشاد لمولانا السلطان مراد يشتمل على تاريخ سلاطين آل عثمان ، محفوظة في مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى ، تحت رقم 67 تاريخ .
 مؤلف مجهول : الأتراك العثمانيين . (2)

ب) المخطوطات العثمانية :

- 1- Abdülgaffar Kırımı , Umdatü'l – Ahbar , Süleymaniye Kütp. Esat Efendi , Nr. 2331
- 2- Bostan Çelebi , Gazavat - ı Sultan Süleyman Han , Süleymaniye Kütp. Ayasofya , Nr. 3317
- 3- Celalzade Mustafa Çelebi , Selimname , TSK , Revan Kütp. Nr. 1274
- 4- Cenabi , El – Eylemu'z – Zahir Nuruosmaniye kütp. Nr. 3102/11
- 5- Cerkesler Katibi Yusuf , Tarih – i Sultan Selim Han , Süleymaniye Kütp. Esad Ef. Nr. 2146
- 6- Cizyedarzade , Tarih , Sülemaniye Kütp. Esad Ef. Nr. 2403
- 7- Hadîdî , Tevârih – i Âl – i Osman , Süleymaniye Kütp. Esad Efendi , Nr. 2081
- 8- İbn Kemal , Tarih – i Feth – i Kostantiniyye , Süleymaniye Kütp . Şehid Ali Paşa , Nr . 2720 / 14
- 9- İdris – i bitlisi , Heşt Behişt , Topkapı Sarayı , Bağdat Kütp. Nr. 196
- 10- Karamanlı Nişancı Mehmet Paşa , Tevârihü's – Selâtîni'l – Oamaniye , Süleymaniye Kütp. Ayasofya , Nr. 3204
- 11- Keşfi , Selimname , Süleymaniye Kütp. Esad Ef. Nr. 2146
- 12- Nişancı Hamza , Takdim-i Zikr - i Ensâb ve Tefhim-i İntisâb , Süleymaniye Kütp. Esad Efendi , Nr. 2362
- 13- Osmanzâde ahmed Tâib , Hadikatü'l – Mülük , Bayezid Kütp. Veliyüddin Efendi , Nr. 1414 / 1
- 14- Sarı abdullah Efendi , Münseat , Süleymaniye Kütp. Nr. 3333
- 15- Şükrullah , Behcetü't – Tevaârih , Nuruosmaniye Kütp. Nr. 3059
- 16- Vasif , Vasif Tarih , I.U.Kütp . Ty 5980

ثالثاً : المصادر :

- أ) المصادر العربية :**
- ١) إبراهيم حليم : *التحفة الحليمية* ، ط ١ ، مؤسسة الكتب الثقافية ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .
 - ٢) ابن أبي شيبة : مصنف ابن أبي شيبة ، د.ط ، د.م ، د.ت ، ج ١٣.
 - ٣) أحمد فارس الشدياق : *ذيل الفارياق* ، ط ١ ، د.م ، د.ت .
 - ٤) أحمد بن حنبل : *مسند الإمام أحمد بن حنبل* ، د.ط ، د.م ، د.ت ، ج ٤ .
 - ٥) إسماعيل سر هنك : *تاريخ الدولة العثمانية* ، مراجعة : حسن الزين ، د.ط .
 - ٦) لبنان : دار الفكر الحديث ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .
 - ٧) ————— : *حقائق الأخبار عن دول البحار* ، ج ١ ، د.ط ، القاهرة ، ١٩٤٦م .
 - ٨) شكيب أرسلان : *تاريخ الدولة العثمانية* ، تحقيق : حسن السماحي ، ط ١ ، دمشق : دار ابن كثير ، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م .
 - ٩) صحيح مسلم - باب من سن سنة حسنة أو سيئة ، ج ١٣ .
 - ١٠) صحيح مسلم من حديث ابن مبارك : *كتاب شعب الإيمان* ، الباب ٢٦ ، باب الجهاد ، ج ٦ .
 - ١١) الطبراني : *المعجم الكبير* ، د.م ، د.ت ، ج ٢.
 - ١٢) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون: مقدمة ابن خلدون ، تحقيق : أ.م كاترمير ، ح ١ ، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، مجلد ٢ ، بيروت : مكتبة لبنان ، عن طبعة باريس ١٨٥٨م ، د.ت .
 - ١٣) الكاساني الحنفي : *بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع* ، ج ٧ ، ط ١ ، بيروت: دار الكتاب العربي ، ١٤٠٢هـ .
 - ١٤) محمد بن أحمد بن أبياس الحنفي : *بدائع الزهور في وقائع الدهور* ، تحقيق: محمد مصطفى ، ج ٢ ، د.ط ، مصر : الهيئة العامة لقصور الثقافة ، د.ت.
 - ١٥) محمد علي الصابوني : *صفوة التفاسير* ، ط ١ ، لبنان : دار القرآن الكريم ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

(١٦) محمد فريد المحامي : تاريخ الدولة العثمانية ، تحقيق : إحسان حقي ، ط ٧ ، لبنان : دار النفائس ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م .

(١٧) محمد كرد علي : الإسلام والحضارة العربية ، ط ٣ ، مصر ، ١٩٦٨م .

(١٨) محمد مختار : التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنجية ، تحقيق : محمد عماره ، ط ١ ، الدار العلمية للدراسات ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .

(١٩) الموفق ابن قدامه : المغني ، ج ١ ، د. ط ، بيروت : دار الكتاب العربي ، د.ت .

ب) المصادر العثمانية :

(١) أبو الفاروق : تاريخ أبو الفاروق - تاريخ عثمانىده ، د ٥ ، ج ١ ، ط ١ ، إسطانبول : مطبعة أموي ، ١٣٢٩هـ .

(٢) أحمد رفيق : بیوک تاریخ عمومی ، د. ط ، إسطانبول ، د. ت .

(٣) عبد الرحمن شرف : تاريخ دولت عثمانية ، ج ١ ، ط ١ ، إسطانبول : معارف نظارات جلية سنك ، مطبعة سی ، ١٣٠٩ م .

(٤) كاتب جلبي : تحفة الكبار في أسفار البحار ، إسطانبول ، ١٣٢٩هـ .

(٥) كامل باشا : التاريخ السياسي للدولة العثمانية منذ تأسيسها وحتى الفترة الأخيرة للسلطان عبد الحميد ، ج ١ ، د. ط ، إسطانبول: مطبعة إحسان ، ١٣٢٤هـ .

ج - المصادر المترجمة :

(١) أحمد جودت : تاريخ جودت ، تحقيق : عبد اللطيف محمد الحميد ، ط ١ ، لبنان: مؤسسة الرسالة ، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م .

(٢) يلمازا وزتنا : تاريخ الدولة العثمانية ، ترجمة : عدنان محمود سليمان ، مراجعة : محمود الأنصاري ، د. ط ، إسطانبول : منشورات مؤسسة فيصل للتمويل ، ١٩٨٨م .

د) المصادر التركية المطبوعة قبل سنة 1900م

1- Abdurrahman Şeref , Tarih – i Devlet – i Osmaniyye , I – II, İstanbul 1309 – 1312

2- Abdurrahman Şeref , Sultan Abdülhamid – i Sani'ye dair , İstanbul 1918

- 3- Ahmed Cevdet Paşa , Tarih – i Cevdet , İstanbul 1309
- 4- Ahmed Vasif , Mehasinü'l – Asar ve Hakayiku'l - Ahbar , İstanbul 1219
- 5- Ali Rıza Paşa , Miratü'l – Cezayir , terceme : Ali şevki , İstanbul 1293
- 6- Asie Pendant Les Annes , 1803 – 1807 , Paris, 1814 Tome , I .
- 7- Cevdet Paşa , Tarih , Tertib – i Cedid , I, İstanbul 1309
- 8- D ' Ohsson : Tablean general de l'Empire ottoman . Paris , 1824 , vol . VII .
- 9- Feridun Ahmed Bey , Münseatü's - Selatin , I – II, Dersaadet 1264 – 1265
- 10- Ferik Mehmed Mesud Paşa , Mecmua – i Muahedat , I - IV, İstanbul 1294 – 1307
- 11- Halil Edhem , Mesukat – ı Osmaniye , İstanbul 1297
- 12- Hatt – i Humayun – u Serif ve Kanun – i Esasi , İstanbul 1297
- 13- Hayrullah Efendi , Tarih - i Osmani , 1 – XVIII, İstanbul 1273 – 1292
- 14- Hoca Sa'deddin Efendi , Tacü't -Tevarih , I – II, İstanbul 1280
- 15- İbrahim Peçevi , Peçevi Tarih , İstanbul 1281
- 16- Imam Ahmed b . Hanbel , Musned , Kahire 1313
- 17- İsmail Galib , Takvim – i Mesukat – ı Osmaniye , İstanbul 1297
- 18- Katip Çelebi , Fezleke – i Tarih – i Osmani , I - II, İstanbul 1286 – 1287
- 19- Katip Çelebi , Takvimü't – Tevarih , İstanbul 1146
- 20- Katip Çelebi , Kitab – ı Cihannuma , Kostantiniyye 1145
- 21- Latifi , Tezkire , İstanbul 1314
- 22- Mustafa Naima , Naima Tarihi , İstanbul 1147
- 23- Mustafa Necib Efendi , Sultan Selim – i Salis asrı vekayı'ne bir tarih , İstanbul 1280
- 24- Mahmud Es'ad Ibn Emin Seydisehri , Asar ve muberrat – i hilafetpenahı , Izmir 1311
- 25- Mecdi Efendi , Şakayık Tercümesi , İstanbul 1269
- 26- Mehmed Süreyya , Sicil – i Osmani , I - IV, İstanbul 1308 – 1311
- 27- Mehmed Şükrü , Esfar – ı Bahriye – i Osmaniye , İstanbul 1306
- 28- Nişancızade Mehmed Ramazan , Mir'at – ı Kinat , İstanbul 1290
- 29- Solakzade Mehmed Hemdemî Çelebi , Solakzade Tarihi , İstanbul 1298
- 30- Şanizade Ataullah Efendi , Tarih – i Şanizade , İstanbul 1291

رابعاً : المراجع :

أ) المراجع العربية :

- (١) إبراهيم بدوي البيلاني : فن الترجمة وعلوم العربية ، د. ط ، القاهرة ، ١٩٧٣م.
- (٢) أبو الحسن علي الحسين الندوي : الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين ، د. ط ، مؤسسة الرسالة ، د.ت .
- (٣) أحمد صدقي شقيرات : تاريخ مؤسسة شيوخ الإسلام ، في العهد العثماني ، ج ١ ، الأردن ، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م .
- (٤) أحمد زيني دحلان : الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية ، ج ٢ ، ط بيروت : دار صادر ، ١٤١٧هـ .
- (٥) أحمد سعيد نونو : الأكلة حول القصعة ، ط ١ ، مصر : الروضة الثقافية ، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م .
- (٦) أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ط ٢ ، مصر: دار الشروق ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م .
- (٧) أحمد عبد الله الزغبي : العنصرية اليهودية وآثارها في المجتمع الإسلامي والموقف منها ، ط ١ ، الرياض : مكتبة العبيكان ، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م ، ج ٣.
- (٨) أحمد عزت عبد الكريم : دراسات في تاريخ العرب الحديث، د. ط، بيروت، ١٩٧٠م .
- (٩) أحمد فهمي بهنسي : الحدود في الإسلام ، ط ١ ، القاهرة ، د. ت .
- (١٠) أحمد نوري النعيمي : اليهود والدولة العثمانية ، ط ٢ ، بيروت : مؤسسة الرسالة، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م .
- (١١) إسماعيل علي محمد : مفتيات المستشرقين وعملائهم على الإسلام رد على كتاب محمد واليهود ، ط ١ ، مصر : دار النيل ، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٠م.
- (١٢) إسماعيل ياغي : الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث ، ط ٢ ، الرياض : العبيكان ، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م .
- (١٣) أمانى جعفر الغازى : دور الانكشارية في إضعاف الدولة العثمانية، ط ١ ، القاهرة: دار القاهرة ، ٢٠٠٧م .
- (١٤) أميرة علي مداح : نظرة متأنية في تاريخ الدولة العثمانية ، ط ١ ، الطائف: دار الحارثي ، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م .

- (١٥) أنور الجندي : أصالة الفكر العربي الإسلامي في مواجهة الغزو الثقافي ، ط ٣ ، القاهرة : دار الصحوة ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م .
- (١٦) _____: سمو الاستشراق والمستشرقين ، ط ٢ ، بيروت ، دار الجيل، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .
- (١٧) _____: كيف يحطم المسلمون قيد التبعية والحسار ، ط ١ ، لبنان : مؤسسة الكتب الثقافية ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .
- (١٨) أورخان محمد علي : روائع من التاريخ العثماني ، ط ١ ، القاهرة : دار الصحوة، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م .
- (١٩) بسام العсли : فن الحرب الإسلامي في العهد العثماني ، د. ط ، دار الفكر، د.ت، ج ٥ .
- (٢٠) جمال زكرييا قاسم : الخليج العربي – دراسة لتاريخ الإمارات العربية – ١٩٤٠م-١٩١٤م ، القاهرة : جامعة عين شمس ، ١٩٦٦م .
- (٢١) جمال سلطان : الغارة على التراث ، ط ١ ، مكتبة السنة ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م .
- (٢٢) جميل عبدالله المصري : حاضر العالم الإسلامي ، ط ٨ ، جدة : العبيكان ، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م .
- (٢٣) حسين مؤنس : الجارية روكلسانه تتزوج السلطان الفاتح ، د. ط ، القاهرة: دار مطابع المستقبل ، د. ت .
- (٢٤) حلمي أحمد شلبي : الأقليات العرقية في مصر في ق ١٩١٩م ، ط ١ ، القاهرة، ١٩٩٣م .
- (٢٥) خلف خضر الوديناني : الدولة العثمانية والغزو الفكري ، ط ١ ، مكة المكرمة ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م .
- (٢٦) رأفت الشيخ : تاريخ العرب الحديث ، د. ط ، القاهرة : دار الثقافة للطباعة والنشر ، ١٩٩١م .
- (٢٧) ربيع عبد الرؤوف الزواوي : الدولة التي ظلمها التاريخ ، ط ١ ، القاهرة: دار الثقافة ، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م .
- (٢٨) رفيق شاكر النتشه : السلطان عبد الحميد الثاني وفلسطين ، ط ١ ، بيروت، د. ت.
- (٢٩) رفيق شاكر النتشه : السلطان عبد الحميد الثاني وفلسطين ، ط ١ ، د.م ، د.ت .

- (٣٠) ريزقان : الحج قبل مائة عام ، الرحلة السرية للضباط الروس عبد العزيز دولتشين إلى مكة المكرمة 1898-1899م ، ط 2 ، بيروت : دار التقرير بين المذاهب الإسلامية ، 1414هـ / 1993م .
- (٣١) زكريا سليمان بيومي : قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين ، ط 1 ، جدة : عالم المعرفة ، 1411هـ / 1991م .
- (٣٢) زياد أبو غنيمة : السلطان المجاهد محمد الفاتح ، ط 1 ، إربد : دار الفرقان، 1403هـ / 1983م .
- (٣٣) _____: جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين ، ط 2 ، إربد : دار الفرقان، 1406هـ / 1986م .
- (٣٤) ساطع الحصري : البلد العربية والدولة العثمانية ، ط 2 ، بيروت : دار العلم للملاليين ، 1960م .
- (٣٥) سالم الرشيدی : محمد الفاتح ، ط 1 ، مصر : دار البشير ، 1420هـ/2000م.
- (٣٦) سعيد عبد الحكيم زيد : واقع العالم الإسلامي بين تغريب التعليم وكشف تخريب المتآمرين ، ط 1 ، مصر : مكتبة وهبه 1418هـ / 1998م .
- (٣٧) سيد محمد السيد محمود : إنهايـار الدولة العثمانية "الأسباب" ، ط 1 ، القاهرة: مكتبة الآداب ، 2003م .
- (٣٨) شفيق شحاته : تاريخ حركة التجديد في النظم القانونية في مصر منذ مطلع القرن التاسع عشر ، ط 1 ، القاهرة ، 1961م .
- (٣٩) شوقي أبو خليل : أصوات على مواقف المستشرقين والمبشرين ، ط 2 منشورات جمعية الدعوة الإسلامية ، 1999م .
- (٤٠) صبحي عبد المنعم ، عبد الحميد سليمان : دراسات في تاريخ الدولة العثمانية ، ط 1 ، الرياض : الرشد ناشرون ، 1425هـ/2004م .
- (٤١) الصفاصي أحمد المرسي : إستانبول عبق التاريخ وروعة الحضارة ، ط 1 ، دار الآفاق العربية ، 1419هـ / 1999م .
- (٤٢) عبد الجليل شلبي : الإسلام والمستشرقون ، د. ط ، مصر : مطبوعات الشعب ، د. ت .
- (٤٣) _____: صور استشرافية ، ط 2 ، القاهرة : دار الشرق ، 1406هـ / 1986م .

- ٤٤) عبد الحميد صالح حمدان : طبقات المستشرقين ، د. ط ، مصر : مكتبة مدبولي ، د. ت .
- ٤٥) عبد الرحمن حنبله الميداني : أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها - التبشير ، الاستشراف ، الاستعمار ، ط ٦ ، دمشق : دار القلم ، ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م.
- ٤٦) عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، د. ط، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٨٠ م .
- ٤٧) عبد العزيز العمري : الفتوح الإسلامية عبر العصور ، ط ١ ، دار إشبيليا ، ١٤١٨ هـ / ١٩٧٩ م .
- ٤٨) عبد العزيز سليمان نوار : تاريخ الشعوب الإسلامية في العصر الحديث، ط ١ ، القاهرة : دار الفكر العربي ، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م.
- ٤٩) عبد العظيم الديب : المستشرقون والتراث ، ط ٢ ، مصر : دار الوفاء للطباعة والنشر ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م .
- ٥٠) عبد العظيم المصطفى : الإسلام في مواجهة الاستشراق العالمي ، ط ١ ، جدة : دار الوفاق ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .
- ٥١) عبد الفتاح أبو عليه : الدولة العثمانية والوطن العربي الكبير، د.ط ، الرياض : دار المريخ ، ١٤٢٩ هـ .
- ٥٢) عبد الكريم رافق : العرب والعثمانيون ، ط ١ ، دمشق ، ١٩٤٧ م .
- ٥٣) عبد الكريم علي الباز : افتراءات فيليب متى وكارل بروكلمان على التاريخ الإسلامي ، د. ط ، جدة : تهامة للنشر ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .
- ٥٤) عبد اللطيف بن دهيش : قيام الدولة العثمانية ، ط ١ ، مكة المكرمة: النهضة الحديثة ، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٨ م .
- ٥٥) عبد اللطيف بن محمد الحميد : موقف الدولة العثمانية تجاه مأساة المسلمين في الأندلس ، ط ١ ، الرياض : العبيكان ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م .
- ٥٦) عبد الله التل: جذور البلاء ، ط ١ ، المكتب الإسلامي ، ١٤٠٨ هـ .
- ٥٧) عبد المنعم الهاشمي : الخلافة العثمانية ، ط ١ ، لبنان : دار ابن حزم ، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م .
- ٥٨) عدنان العطار : الدولة العثمانية من الميلاد إلى السقوط ، ط ١ ، دمشق : دار وحي القلم ، ١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م.

- (٥٩) عدنان محمد وزان : الاستشراق والمستشرقون، وجهة نظر ، د.ط ، مكة المكرمة: إدارة الصحافة والنشر ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤ .
- (٦٠) علي محمد جريشه وآخرون : أساليب الغزو العسكري للعالم الإسلامي ، دار الاعتصام ، د.ت .
- (٦١) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ط ٣ ، مصر : المكتب الإسلامي ، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤ .
- (٦٢) علي حسين خربوطلي : المستشرقون والتاريخ الإسلامي ، مصر : مطبع الأهرام ، د. ط ، ١٩٧٠ م .
- (٦٣) علي سلطان : تاريخ الدولة العثمانية ، ط ١ ، دمشق : منشورات مكتبة طرابلس العلمية العالمية ، ١٩٩١ .
- (٦٤) علي محمد الصلايبي : الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط ، ط ١ ، دار البيارق ، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩ .
- (٦٥) عماد الدين خليل : المستشرقون والسيرة النبوية ، ط ١ ، بيروت : دار ابن كثير للطباعة والنشر ، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م .
- (٦٦) عمر عبد العزيز عمر : تاريخ المشرق العربي ، د. ط ، مصر : دار النهضة العربية ، د. ت .
- (٦٧) _____: محاضرات في تاريخ الشعوب الإسلامية في العصر الحديث ، ط ١ ، الإسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٩٩ .
- (٦٨) غازي محمد فريج : النشاط السري اليهودي في الفكر والممارسة ، ط ١ ، بيروت: دار النفائس ، ١٤١١هـ / ١٩٩٠ .
- (٦٩) فاضل مهدي بيات : دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني ، ط ١ ، دار المدار الإسلامي ، ٢٠٠٣م .
- (٧٠) فرج عبدالباري أبو عط الله : الاختراق اليهودي في المجتمعات الإسلامية نشأته وتطوره ، ط ١ ، القاهرة ، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢ .
- (٧١) فؤاد بخش : الحضارة الإسلامية ، ط ١ ، مصر : مطبعة الحلبى ، ١٩٦٠م .
- (٧٢) قاسم السامرائي : الاستشراق بين الموضوعية والانفصالية ، ط ١ ، الرياض : ١٤٠٣هـ .

- (٧٣) _____: الفهرس الوصفي للمنشورات الاستشرافية ، جامعة الإمام سعود ، ١٤٠٨هـ .
- (٧٤) ١، قيس جواد العزاوي : الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط ، ط ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م .
- (٧٥) ٢، ليلى عبد اللطيف أحمد : موقف الدولة العثمانية من مطامع اليهود في فلسطين ، ط ١، مصر : دار الكتاب العربي ، ١٩٨٧م .
- (٧٦) ١، ماجدة مخلوف : الحرير في القصر العثماني ، ط ١ ، القاهرة : دار الآفاق العربية ، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م .
- (٧٧) ١، سليمان القانوني ، ط ١ ، القاهرة : دار الآفاق العربية ، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م .
- (٧٨) مازن مطبقاني : الاستشراف المعاصر من منظور الإسلام ، ط ١ ، الرياض: دار إشبيليه ، ١٤٢١هـ .
- (٧٩) مجدي عبد المجيد الصافوري : سقوط الدولة العثمانية وأثره على الدعوة الإسلامية ، ط ١ ، القاهرة : دار الصحوة ، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م .
- (٨٠) محمد أبو زهرة : الجريمة ، ط ١ ، القاهرة ، د. ت .
- (٨١) _____: تاريخ المذاهب الإسلامية ، د. ط ، مصر ، ١٤١٩هـ.
- (٨٢) محمد أحمد دياب : أضواء على الاستشراف والمستشرقين ، ط ١ ، دار المنار ، ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م .
- (٨٣) محمد الأرناؤوط : دراسات ووثائق حول الدوشترمه ، ط ١ ، عمان : دار قديسة، ١٩٩١م .
- (٨٤) محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي ، د. ط ، القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، د. ت .
- (٨٥) محمد بن عبود : مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية ، ج ١، د. ط، المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم ، د. ت .
- (٨٦) ١٢، محمد البهبي : الفكر الإسلامي الحديث و صلته بالاستعمار الغربي ، ط القاهرة: مكتبة وهبة ، د. ت .
- (٨٧) ١، محمد جلاء إدريس : الاستشراف الإسرائيلي في المصادر العربية ، ط القاهرة: العربي للنشر والتوزيع ، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م .

- ٨٨) محمد حرب: السلطان عبد الحميد آخر السلاطين العثمانيين الكبار ، ط دمشق: دار القلم ، د. ت .
- ٨٩) _____ : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ط ٢ ، دمشق: دار القلم ، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م .
- ٩٠) محمد خليفة حسن أحمد : آثار الفكر الاستشرافي في المجتمعات الإسلامية، ط ١ ، القاهرة : عين للدراسات والبحوث الإنسانية ، ١٩٩٧م .
- ٩١) محمد سرحان : النظام العثماني " الهجرة اليهودية إلى فلسطين " ١٤٩٢م - ١٩٥٢م ، ط١، دمشق ، ١٩٩٣م .
- ٩٢) محمد سليمان العبد : تعليق على التعصب الأوروبي أم التعصب الإسلامي، مئة مشروع لتقسيم الدولة العثمانية ، ط ١ ، الرياض : دار طيبة، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م .
- ٩٣) محمد سهيل طقوش : العثمانيون من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، ط ١ ، لبنان : بيروت المحروسة ، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م .
- ٩٤) محمد عبد الفتاح عليان : أصوات على الاستشراق ، ج ٢ ، ط ١ ، الكويت: دار البحوث العلمية ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .
- ٩٥) محمد عبد اللطيف البحراوي : حركة الإصلاح العثماني في عصر محمود الثاني، ط ١ ، القاهرة : ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .
- ٩٦) محمد عبد اللطيف هريدي : الحروب العثمانية الفارسية وأثرها في إنسار المد الإسلامي عن أوروبا ، القاهرة : دار الصحوة للنشر ، ط ١ ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.
- ٩٧) محمد عفيفي : عرب وعثمانيون رؤى مغایرة ، ط ١ ، مصر : دار الشروق ، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م .
- ٩٨) محمد الغزالى : التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام ، د.ط ، الكويت: دار البيان ، د. ت.
- ٩٩) محمد فتح الله الزيادى : الاستشراق أهدافه ووسائله ، ط١، دار قتبة ، د.ت.
- ١٠٠) محمد فهيم بيومي : مخصصات الحرمين الشريفين في مصر إبان العصر العثماني ، ط ١ ، القاهرة: دار القاهرة للكتاب ، ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م .

- (١٠١) محمد قطب : المستشرقون والإسلام ، د. ط ، القاهرة : مطبعة وهبة ، ١٩٩٩م
- (١٠٢) محمد كامل عياد : تاريخ اليونان ، ج ١ ، ط ٣ ، دمشق : دار الفكر ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م .
- (١٠٣) محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، ط ١ ، القاهرة ، ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م .
- (١٠٤) محمود حسن الصراف : معركة جالداران ٩٢٠هـ / ١٥١٤م أولى صفحات الصراع العثماني الفارسي الأسباب والنتائج ، د. ط ، مصر: مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٩١م .
- (١٠٥) محمود حسن منسي: تاريخ المشرق العربي الحديث ، ط ١ ، مصر، د.ت.
- (١٠٦) محمود حمدي زقزوق : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، ط ١ ، مصر : دار المعارف ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م .
- (١٠٧) محمود محمد الحويري : تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوسطى ، ط ١ ، القاهرة : المكتب المصري ، ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م .
- (١٠٨) محمود شاكر : الخلفاء العثمانيون ، ط ١ ، المكتب الإسلامي ، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٢م .
- (١٠٩) مصطفى السباعي : الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم ، ط ١ ، لبنان : دار الوراق ، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م .
- (١١٠) _____ : السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ، ط ٢ ، بيروت: المكتب الإسلامي ، ١٩٧٨م .
- (١١١) مصطفى محمد حلمي: الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية، ط ١، مصر : دار ابن الجوزي ، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م .
- (١١٢) مصطفى الخالدي، عمر فروخ: التبشير والاستعمار في البلاد العربية ، ط ١ ، القاهرة ، د. ت ، ص ٣١٩ مبحث سير المستشرقين.
- (١١٣) نجيب عقيقي : المستشرقون ، ط ٣ ، د. م ، د.ت .
- (١١٤) نخبة من العلماء المسلمين : الإسلام والمستشرقون ، ط ١ ، جدة : عالم المعرفة، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .

- (١١٥) هدى درويش : الإسلاميون وتركيا العلمانية ، ط ١ ، القاهرة : دار الآفاق العربية ، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م .
- (١١٦) _____: العلاقات التركية اليهودية وأثرها على البلد العربية ، ط ١ ، دمشق : دار العلم ، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م .
- (١١٧) وديع أبو زيدون : تاريخ الإمبراطورية العثمانية من التأسيس إلى الاستقلال ، ط ١ ، الأردن : الأهلية للنشر والتوزيع ، ٢٠٠٣م .
- (١١٨) يوسف حسين عمر : أسباب خلع السلطان عبد الحميد الثاني ١٨٧٦م - ١٩٠٩م، إربد : دار الكتاب الثقافي ، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م .
- (١١٩) يوسف علي الثقي : موقف أوروبا من الدولة العثمانية ، ط ١ ، الطائف : دار الحارثي ، ١٤١٧هـ .

ب) المراجع التركية المطبوعة بعد سنة ١٩٠٠ م :

- 1- Abdulkadir Ozcan : Fatihin Teskilat Kanunnane ve Nizam Alem icin Kardes Katli meselesi , Istanbul , 1982
- 2- Abdurrahman Küçük , Dönemeler ve Dönemelik Tarihi , İstanbul 1973
- 3- Ahmed Akgündüz – Said Öztürk , Bilinmeyen Osmanlı , İstanbul 1999
- 4- A.D. Alderson : The structure of the ottoman dynasty . Oxford 1956
- 5- A . S. Atiye , Nigbolu Haçlılar Seferi , Çev. Esat Uras , Ankara 1956
- 6- Ahmedî , Dasitan Tevarih – i Muluk – i Al – i Osman , Haz. Nihad Sami Baranlı , İstanbul 1936 .
- 7- Ahmedî , İskendername , Tıpkıbasım ,nşr .İsmail Ünver, TTK. Ankara 1983
- 8- Ahmed Akgündüz , Güneydoğu Meselesi ve Çözüm Yolları , OSAV ; İstanbul 1994 ,
- 9- Ahmed Akgunduz : Osmanlı Kanunnameleri ve Hukuki Tahlilleri , I, İstanbul 1993
- 10- Ahmed Özel , İslam Hukukunda Ülke Kavramı : Darulislam – Darulharb , İstanbul 1998
- 11- Ahmed Cevdet Paşa , Ma'ruzat , nşr : Yusuf Halaçoğlu , İstanbul 1980
- 12- Ahmed Lütfi , Tarih , Yay . M.Münir Aktepe , TTK , Ankara 1989
- 13- Ahmed Muhtar , Feth – i Celil – i Kostantiniyye , İstanbul 1340

- 14- Ahmed Rasim , Osmanlı Tarihi , İstanbul 1330
- 15- Ahmed Refik , Kabakçı Mustafa , İstanbul 1331
- 16- Ahmed Refik , Meşhur Osmanlı Kumandanları , İstanbul 1318
- 17- Ahmed Refik , Sahaif – i Muzafferiyat – 1 Osmaniye , İstanbul 1325
- 18- Ahmed Refik , Sultan Cem , İstanbul 1924
- 19- Ahmet Mumcu , Hukuksal ve Siyaset Karar organı Olarak Divan-i Humayun , Ankara 1986
- 20- Alastair Hamilton : William Bebwel the Arabist 1563 – 1632. Leiden , 1985
- 21- Ali Fuad , Osmanlı – Rus Seferi , İstanbul 1326
- 22- Ali Fuad , Rical – i Mühime – i Siyasiye , İstanbul 1928
- 23- Ali Rıza Seyfi , Kemal Reis ve Baba Oruç , İstanbul 1325
- 24- Ali Suvi , Ali Paşa'nın siyaseti , İstanbul 1325
- 25- Aydin Taneri : Osmanlı Devletinin Kurulus Doneminde Hukumdarlık Kurumunun Gelişmesi ve saray Hayati Teskilatı , Ankara 1978
- 26- Ali fuad Türk geldi , Görüp İşittiklerim , TTK , Ankara 1951
- 27- Ali , Mustafa b. Ahmed , Künhü'l – Ahbar , Yay.Haz. M.Hudai Şentürk , TTK . Ankara 2003
- 28- Aşıkpaşazade , Tevarih – i Al – i Osman , Miralay Âlî Bey Neşri , İstanbul 1332
- 29- Benjamin Braude : Foundation myths of millet system , Ghristians and Jews in the ottoman Empire , New York , 1982, Vol I .
- 30- C . Cahen : le probleme du shiisme dansi , Asie mineure Preottomane , le shiisme imamate , Paris , 1970 .
- 31- Chehata : Precis de Droit musulman , Paris , 1970
- 32- Christians and Jews in the ottoman Empire , New York , 1982 . Vol .
- 33- Cengiz Köseoğlu , Harem , İstanbul 1979
- 34- Cevdet Paşa , Tezakir , cüz 13 – 20 , Yayın : Cavid Baysun , TTK , Ankara 1986
- 35- Colin İmber , Osmanlı İmparatorluğu 1300 – 1650 , Çev. Şiar Yalçın , İstanbul 2006 ,
- 36- Derviş Mehmed b. Şeyh Ramazan , Subhatü'l – Ahbâr , Tıpkıbasım Doğan , İstanbul 1968
- 37- Dursun Bey , Tarih – i Ebu'l – Feth , Haz. Mertol Tulum , İstanbul 1987
- 38- Enver Behram Şapolyo , Osmanlı – İnkılap ve Avrupa Tarihi Özü , Ankara 1946

- 39- Enver Ziya Karal , Osmanlı Tarihi , TTK , Ankara 1977
- 40- Ernst Werner , Büyük Bir devletin Doğu , Çev. Orhan Esen – Yılmaz Öner , İstanbul 1986
- 41- Esad Efendi , Teşrifat – ı Kadime , Tıpkıbasım , Neş. Çağrı , İstanbul 1979
- 42- Fahreddin kizioglu : Osmanlilarin kafkas – ellerini fethi (1451- 1590), Ankara , 1976
- 43- G . Ostrogorsky : Bizans Devleti Tarihi, (Trc . F. Isiltan) , Ankara , 1981
- 44- G . Spillmam : Napoleon I Islam Paris , Edit . L. LA.P. 1969.
- 45- Gibb – H.A.R – Harold Bowen , Islamic Society and west, London 1969 Vol 11 .
- 46- Gibb & Bowen : Islamic Society and the west . London 1951- 1957 , Vol . I ,
- 47- Ercüment Kuran , Avrupa'da Osmanlı ikamet Elçiliklerinin Kuruluşu ve İlk elçilerin Siyasi Faaliyetleri 1793 – 1821 , Ankara 1988
- 48- E.Zachariadou: Pachymeres on the Amourioi of Kastamonu , III , Byzantine and modern Greed Stubies , 1977
- 49- E . Zachariadou : Suleyman Celebi in Rumelia and the Ottoman Chronicles , Derislam , Lx , 1983 .
- 50- E . Zachariadou : the conquest ed Adrian ople by the Turks, studi veneziani , 1970 .
- 51- E.Z.Karal : Abd Al Aziz , the Encyclopaedia of Islam, Volume I .
- 52- Edmon Howie : the American university ad Beirn I . 1951
- 53- El . Abbassi Ali Bay : Voyages d' Ali Bay el Abbassi en Arique et en Ph.k. Hilti : Lebanon in Histery , 1957 .
- 54- Enver Behram Şapolyo , Osmanlı – İnkılap ve Avrupa Tarihi Özü , Ankara 1946
- 55- Enveri , Düstürname , Mükrimin Halil neşri , İstanbul 1928
- 56- Evliya Çelebi , Evliya Çelebi Seyahatnamesi , İstanbul 1928
- 57- Gazi Ahmed Muhtar Paşa , Anadolu'da Rus Muharebesi , İstanbul 1328
- 58- H . De . Castires : Napoleon et le maroe dons Revue Hebdomadaire , Nib, 8 avril , 1908
- 59- H . G. Yardaydin : Kanuninin Culusu ve ilk Seferi , Ankara , 1961
- 60- H . Inalcik : Fatih Devri , uzerinde Tetkikler ve Vesikalar, TTK. Ankara 1954
- 61- Herbert Adams Gibbons , Osmanlı İmparatorluğunun kuruluşu , çeviren : Hüseyin Dağ – Bülent Arı , Ankara 1998

- 62- Heyet , Mufassal Osmanlı Tarihi , İstanbul 1957
- 63- H . Atik : Edirne'nin 600 . Fethi Yildoumu Armagan Kitabi , Ankara , TTK .1993
- 64- HAR. Gibb – Harold Bowen : islamic society and the west, Londen , 1969 . vol .
- 65- Ibn Battuta , Şerefeddin Ebu Abdullah , Seyahatname ,1- 3, Terc. Mehmed Şerif Paşa , İstanbul 1333 – 1338
- 66- Ismail Hakki uzuncarsili : Osmanli Devletinde merkez ve Bahriye teskilati, İstanbul , 1979
- 67- Ismail Hakki uzuncarsili : Osmanli Tarihi , Ankara , 1983, Vol II .
- 68- Ismail Hakki uzuncarsill : Osmanli Devleti Teskiatindan İlmiye Teşkilatı " 2 Baski Ankara : Turk Tarih Kurumu Basimevi , 1984
- 69- Ismail Hakkı Uzunçarsili : Saray Teskilati , Cosmanli Devletinde Saray Teskilati Ankara , 1984
- 70- Ismail Hami Danismend : İzahlı Osmanli Tarihi , İstanbul 1950
- 71- J . Schmidt : The Egri Campaign od 1596 , military History and the problem of sources . Habsburgische O smanische Beziehumgen , ciepo , Vieme , 1985 .
- 72- J . Von Hammer : Staatves Jassung und staatsver – wafting des Osmanischen Reichs , 1963 , vol II ,
- 73- Kasım bin Ahmed , 1897 Türk – Yunan Savaşı (Teselya Tarihi) , Yayına Haz. Bayram Kodaman , TTK , Ankara 1993
- 74- Kemal Beydilli : 1790 Osmanli Prusya ittifaki İstanbul , 1992
- 75- Kemal Pasa Zade : Tevarih – I AT – I Osman , Ankara , 1957
- 76- Katip Çelebi , Tuhfetü'l – Kibar fi Esfari'l – Bihar , İstanbul 1329
- 77- Kılami , Fetihname – i Sultan Mehmed , Hazırlayan : Fransız Babinger , İstanbul 1955
- 78- Lütfi Paşa , Tevarih – i Al – i Osman , İstanbul 1341
- 79- M . Brendei – G . Veinstein : Reglements Fiscauy de Province de Bender Aqkerman 1570 . cahiers du monde Russe et sovietique .
- 80- M , Gağtay ulucay , Harem , Ankara , 1980
- 81- M. Çağatay Uluçay , Padişahların Kadınları ve Kızları , Ankara 1980
- 82- M.Cağatay Uluçay , Oamanlı Sultanlarına Aşk Mektupları , İstanbul 1950
- 83- M . Ipsirli : Insan Haklari ve Sosyal Asisindan Osmanli : Fetualari , Turklerde insani Degerler ve Insan Haklari , II , İstanbul 1992
- 84- M.ipsirli: Osmanli Imparatorlugurda Kadiaskerlik Muessesesi, İstanbul 1982

- 85- Mahir Mehdi , Bedreka – i Zafer , Yayına Haz. Bayram Kodaman , TTK , Ankara 1993
- 86- M . Brendei – G . Veinstein : Reglements Fiscauy de Province de Bender Aqkerman 1570 . cahiers du monde Russe et sovietique .
- 87- Mark A . Epstein : the Jeadership of the ottoman jews in fifteenth centuvies , Christians and Jews in the ottoman Empire , New York , 1982
- 88- Meral Altındağ , Osmanlı'da Harem , Altın Kitaplar , İstanbul 1993
- 89- Mahmud Celaleddin Paşa , Mir'at – ı Hakikat , I - II, Nşr. İsmet Miroğlu , İstanbul 1980
- 90- Mehmed Neşri , Neşri Tarihi, I – II, yay. Mehmet Altay Köymen , TTK , Ankara 1983
- 91- Mehmet Zeki Pakalin : Osmaili Tarih Deyimleri Sözlüğü , I - III .
- 92- Mustafa guler , osmainli Derletinde Haremeyin Vabiflare , İstanbul , 2002
- 93- Mualla Anhegger – Eyüboğlu , Topkapı Sarayında Padişah Evi (Harem) , İstanbul 1986 .
- 94- Müneccimbaşı Ahmed Dede b. Lütfullah , Câmiu'd – Düvel Hazırlayan : Ahmet Ağırakça , İstanbul 1995
- 95- Memduh Turgut Koyunluoğlu , İznik ve Bursa Tarihi ,Bursa1935
- 96- Mütercim Ahmed Asım , Asım Tarihi , I - II, İstanbul , tarihsiz
- 97- Mustafa Nuri Paşa , Netayicü'l – Vukuat , I - IV, İstanbul 1327
- 98- Nizameddin Şami , Zafername , Çev. Necati Lugal , TTK, Ankara 1949
- 99- Nicolae Yorga , Osmanli Tarihi , Terc. Bekir Sıtkı Baysal , Ankara 1948
- 100- Omer Lutfi Barkan : XV ve XVI Asrlarda Osmanli imporatorlugunda zirai Ekoraminin Hukuki ve Esaslari Kanunlar İstanbul 1943
- 101- Ömer Lütfi Barkan – Ekrem Hakkı Ayverdi , İstanbul Vakıfları Tahrir Defteri , İstanbul 1970
- 102- Ömer Faruk Yılmaz , Belgelerle Osmanlı Tarihi, IV cilt, İstanbul 1999
- 103- Oruç Bey , Tevarih – i Al – i Osman , nşr. Fransız Babinger , Hannover 1925
- 104- Paul wittek : mentese Beyligi , Trc. O.Ş. Gökyay , TTK, Ankara 1944.
- 105- P . Rycaur : The present state of the ottoman Empire , London, 1668.

- 106- Resad Ekren Kocu , Yeniceriler İstanbul , 1964
- 107- Runciman : the fall of Constantinople , Cambridge , 1965 .
- 108- Rıfat Okyay,Osmalı Devleti'nin Kuruluşu , İstanbul 1996
- 109- Reşat krem Koçu,Osmalı Muahedeleri ve Kapitülasyonlar 1300–1920 ve Lozan Muahedesı 24 Temmuz 1923, İstanbul 1934
- 110- S.H Eldem – Ferldun Alcozan : Topkapi Sarayı , İstanbul 1981
- 111- Seha . meray : Devletler Hukukuna Giriş, Ankara, 1968
- 112- Spandonyn : petu Trade de L'orgine des turcqz ; Cantacasin, Paris, 1896
- 113- Sabahettin Doras , Osmanlı Zaferleri , İstanbul 1992
- 114- Samih Nafiz Tansu , İki Devrin Perde Arkası , İstanbul 1964
- 115- Selahattin Tansel , Fatih Sultan Mehmed'in Siyasi ve Askeri Faaliyetleri , İstanbul 1971
- 116- Şehabettin Tekindag : medrese Donemi , İstanbul , 1973
- 117- Şehabettin Tekindag : Berkuk Derrinde memluk Sultandig , İstanbul 1961
- 118- Şem'dâniżâde Fındıklı Süleyman Efendi , Müri't – Tevarih , I – II, Yay.Haz. M. Münir Aktepe , İstanbul 1976
- 119- Şerif Baştay , Bizans İmparatorluğu Tarihi (Son devir 1241 – 1461) , Ankara 1989
- 120- Tacizade Cafer Çelebi , Mahrusa – i İstanbul Fetihnamesi , Sadel. Şeref Kayabogaz , İstanbul 1953
- 121- Tahsin Ömer Tahaoğlu , İstanbul'da Osmanlı Türbelerinin Tipolojisi , İ.U. Doktora Tezi , 1988
- 122- Uriel Heyd:studies in old ottoman criminal law axhard , 1973
- 123- Yavuz Sultan Selim , Divan , terceme : Ali Nihad Tarlan , İstanbul 1946
- 124- Yılmaz Altuy : Yabancıların Hukuk Durumu , İstanbul . 1971
- 125- Yılmaz Öztuna , Osmanlı Hareminde Üç Haseki Sultan , İstanbul 1988
- 126- Yılmaz Oztuna : Turk Tarihinde Yaprakar , İstanbul, 1985
- 127- Ziya Nur Aksun , Osmanlı Tarihi , 1- 3 , İstanbul 1994
- 128- Ziya Paşa , Endülüs Tarihi , Haz. Yasemin Ödük – Kazım Masumi – Fatma Şahin , İstanbul 2004
- 129- Zahra freeth and H.V.F . winstone : Explorere of Arabla , Londan , George Allen and unwin , 1975
- 130- Ziya Paşa , Sultan Abdülziz'e Layiha , İstanbul 1327

ج) المراجع المترجمة :

- (١) أحمد صائب بك : *وقعة السلطان عبد العزيز* ، ترجمة . محمد توفيق جانا، مصر : مطابع هندية بالأزبيكية ، 1319هـ .
- (٢) إدوارد سمير : *الاستشراق ، المفاهيم الغربية للشرق* ، ترجمة : محمد عناني ، ط ١ ، لبنان : دار رؤية ، 2006م .
- (٣) أغناطيوس كراتشوفسكي : *من تاريخ الاستشراق في الاتحاد السوفيتي* ، ترجمة : أندولينا ، سلسلة كتب الثقافة المقارنة ، 1987م .
- (٤) أكمـل الدين إحسـان أوـغـلي : *الـدولـة العـثمـانـيـة ، تـارـيخ وـحـضـارـة* ، ج ١ ، تـرـجمـة: صالح سـعدـاوي ، ط ١ ، إـسـتـانـبـول : مرـكـز الأـبـاحـاث لـلتـارـيخ وـالـفنـون وـالـثقـافـة ، 1999م .
- (٥) بول كولنـز : *الـعـثمـانـيـون فـي أـورـوـبا* ، تـرـجمـة: عبد الرحمن عبد الله الشـيـخ ، ط ١ ، القـاـهـرـة ، 1993م .
- (٦) بيـتر برـنيـت : *بـلـاد الـعـرب القـاصـيـة رـحـلـات الـمـسـتـشـرـقـين إـلـى بـلـاد الـعـرب* ، تـرـجمـة: خـالـد أـسـدـ عـيـسىـأـحمد غـسان سـبـانـو ، ط ١ ، بـيـروـت : دار قـتـيبة ، 1411هـ / 1990م .
- (٧) توـمـاس أـرنـولـد : *الـدـعـوـة إـلـى إـلـسـلـام* ، تـرـجمـة: حـسن إـبرـاهـيم حـسـن ، ط ١ ، القـاـهـرـة ، 1957م .
- (٨) ثـرـيا شـاهـين : *دور الـكـنـيـسـة فـي هـدـم الـدـوـلـة العـثمـانـيـة* ، تـرـجمـة: محمد حـرب ، ط ١ ، جـدة : دـار الـمـنـارـة لـلنـشـر وـالتـوزـيـع ، 1418هـ / 1997م .
- (٩) جـاكـلـين بـيرـين : *اكتـشـاف جـزـيرـة الـعـرب* ، تـرـجمـة: قـدـري قـلـعـجيـ، دـ.ـطـ، الـرـيـاضـ: الـفـاخـرـيـة ، دـ.ـتـ .
- (١٠) خـوان غـويـستـولـو : *في الـاسـتـشـرـاق الـأـسـبـانـي* ، تـرـجمـة: كـاظـم جـهـاد ، دـ.ـطـ، بـيـروـت ، 1987م .
- (١١) خـوليـان نـزـجانـ: *أـسـتـارـ الـحـرمـين الشـرـيفـين* ، تـرـجمـة: تـحسـين عمر طـهـ أوـغـليـ، إـسـتـانـبـول ، 1996م .
- (١٢) روـبـيرـ مـانـتـرانـ: *تـارـيخ الـدـوـلـة العـثمـانـيـة* ، تـرـجمـة: بشـير السـبـاعـيـ ، ج ١ ، ط ١ ، القـاـهـرـة : دـار الـفـكـر لـلدـرـاسـات وـالـنـشـر ، 1993م .

- (١٣) رودي بارت : الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية – المستشرقون الألمان منذ تيودور نولدكه ، ترجمة : مصطفى ماهر ، ط ١، مصر : دار الكتاب العربي للطباعة ، ١٩٦٧م .
- (١٤) س . موستراس : المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية ، ترجمة : عصام محمد ، ط ١ ، بيروت : دار ابن حزم ، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م .
- (١٥) السلطان عبد الحميد : مذكرات السلطان عبد الحميد ، ترجمة : محمد حرب ، ط ٤ ، دمشق : دار القلم ، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م .
- (١٦) سنوك هُرخرونیه : صفحات من تاريخ مكة المكرمة ، ترجمة : علي عوده الشيوخ ، ط ٢ ، الرياض : دارة الملك عبد العزيز ، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م .
- (١٧) طرجان يلماز : الكعبة المشرفة ، ترجمة : تحسين عمر طه أوغلي ، إسطانبول ، ١٩٩٣م .
- (١٨) عبد القادر ده ده أوغلو : ألبوم العثمانيين ، ترجمة : محمد جان ، د.ط ، إسطانبول : الدار العثماني للنشر ، د. ت .
- (١٩) عمر فاروق يلمظ: السلطان المظلوم السلطان عبد الحميد الثاني بالوثائق ، ترجمة : طارق عبد الجليل السيد ، مراجعة : الصفارصافي أحمد المرسي ، د.ط ، إسطانبول : دار نشر عثماني ، د. ت .
- (٢٠) فان فولتن : السيادة العربية ، ترجمة : حسن إبراهيم حسن ، د. ط ، مصر ، د. ت .
- (٢١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة : منير بعلبكي ، ط ١٢ ، دار العلم ، ١٩٩٣م .
- (٢٢) لو ثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامي ، تحقيق : شكيب أرسلان ، د.ط ، القاهرة : الفكر العربي ، د. ت .
- (٢٣) ماري ملز باتريك : سلاطين بنى عثمان ، ترجمة : هنا غصن ، كامل مروه – كامل صموئيل مسيحه ، د. ط ، د. م ، ١٩٣٣م .
- (٢٤) محمد أسد : الإسلام على مفترق الطرق ، ترجمة : عمر فروخ ، د.ط، لبنان : دار العلم للملايين ، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .

(٢٥) محمد فؤاد كوبريلي : قيام الدولة العثمانية ، ترجمة : أحمد السعيد ، د.ط، القاهرة ، ١٩٦٧ م .

(٢٦) يوهان فوك : تاريخ حركة الاستشراق ، ترجمة : عمر لطفي سالم ، ط ٢، لبنان : دار المدار الإسلامي ، ٢٠٠١ م .

خامساً : الموسوعات :

أ) الموسوعات العربية :

(١) حسين مجيب المصري : معجم الدولة العثمانية ، ط ١ ، مصر : الدار الثقافية للنشر ، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤ م .

(٢) خير الدين الزركلي : قاموس الأعلام وترجم ، ج ٦ ، ط ٦ ، بيروت: دار العلم للملائين ، ١٩٨٤ م .

(٣) سهيل صابان : المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية ، مراجعة: عبد الرازق محمد حسن برkat ، د. ط ، الرياض : مكتبة الملك فهد الوطنية ، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠ م .

(٤) عبد الرحمن بدوي : موسوعة المستشرقين ، ط ٤ ، الأردن : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ٢٠٠٣ م .

(٥) مانع حماد الجنهى : الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ، ط ٣ ، الرياض : دار الندوة العالمية للطباعة ، ١٤١٨هـ ، ج ٢.

(٦) مصطفى برkat : الألقاب والوظائف العثمانية ، ط ١ ، القاهرة: دار غريب ، ٢٠٠٠ م .

(٧) الموسوعة العربية العالمية : ج ٢٧ ، ط ٢ ، الرياض : مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر ، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩ م .

(٨) نخبة من العلماء : المعجم الوجيز ، ج ١ ، ط ١ ، القاهرة : دار الكتب العلمية ، ١٩٨٠ م .

(٩) وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية : الموسوعة الفقهية ، ج ٧ ، ص ٢١ ، الكويت: دار السلسل ، ١٤٢٧هـ .

- (١) يلمازا وزتونا : مادة الحريم ، موسوعة التاريخ الكبرى ، د.ط ، إستانبول : الغروب ، د.ت .
- ب) الموسوعات التركية :
- (١) شمس الدين سامي : قاموس تركي ، د. ط ، إستانبول : دار السعادة ، ١٣١٧هـ .
 - (٢) الموسوعة التركية : الوقف الديني بتركيا ، ج ١ ، د. ط ، إستانبول ، ١٩٨٨م .
 - (٣) عمر فاروق يلمظ: التاريخ العثماني الموثق ، ج ٤، د. ط، إستانبول ، د.ت.

ج) الموسوعات الأجنبية المترجمة :

- (١) مجموعة من المستشرقين : دائرة المعارف الإسلامية ، ترجمة : أحمد الشنناوي ، إبراهيم زكي خورشيد ، عبد الحميد يونس ، ط ١ ، القاهرة : دار الفكر ، ١٩٣٣م .
 - (٢) مجموعة من المستشرقين : موجز دائرة المعارف الإسلامية ، ترجمة: مجموعة من الباحثين ، ط ١ ، الشارقة : مركز الشارقة للإبداع الفكري ، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م .
- د) الموسوعات الأجنبية :

1- The Encyclopaedia of Islam Leiden , E.J . Brtll , London , Luzacsco , New York , 1936 . 1960 , 1977 , 1993 .

سادساً : الرسائل الجامعية :

- (١) إيتسام محمد كشميري : مكة المكرمة من بداية الحكم العثماني إلى نهاية القرن ١٦هـ / ١٦٠م ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م، جامعة أم القرى ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية .
- (٢) أمين أحمد العُقبي : آراء المستشرق " جوزيف هامر " حول شخصية السلطان محمد الفاتح من خلال كتابة " تاريخ الدولة العثمانية " ، رسالة ماجستير لم تطبع ، قسم الاستشراق ، كلية الدعوة ، جامعة الإمام محمد بن سعود ، ١٤١٩هـ .

- (٣) خالد عبد الله القاسم : العقيدة الإسلامية في دائرة المعارف الإسلامية ، رسالة دكتوراه لم تطبع ، جامعة أم القرى ، كلية الدعوة وأصول الدين ، 2002م.
- (٤) زيد أحمد العبلان : الدراسات الاستشرافية في ضوء العقيدة الإسلامية ، رسالة ماجستير لم تطبع ، جامعة أم القرى ، كلية الدعوة وأصول الدين ، 1406هـ .
- (٥) سهيل صابان : الأوضاع الثقافية في تركيا في القرن الرابع عشر الهجري، رسالة دكتوراه لم تطبع ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض، 1415هـ / 1994م .

سابعاً : الدوريات :

أ) الدوريات والمجلات العلمية العربية :

- (١) أحمد سالم : الرحلات الأوروبية وتأثيراتها على المنطقة والجزيرة العربية، بحث منشور في مجلة دارة الملك عبد العزيز ، الرياض.
- (٢) إسماعيل أحمد عمايره : المستشرقون وتاريخ صلتهم بالعربية ، مجلة المنهل، العدد 471 ، السنة 55 ، المجلد 50 - رمضان - شوال 1409هـ / إبريل - مايو 1989م .
- (٣) إسماعيل أحمد ياغي : جهاد شعب فلسطين ضد الهجرة اليهودية والصهيونية، مقال منشور بمجلة الدارة ، الرياض ، السنة 14 ، العدد الثاني ، محرم - ربيع الأول 1409هـ / أغسطس - أكتوبر 1988م .
- (٤) أميرة علي مداح : الأوقاف العثمانية بمكة ودور المرأة فيها ، رسالة الم الشرق، مركز الدراسات الشرقية ، جامعة القاهرة ، العددان الثالث والرابع، 2005 .
- (٥) _____: خيرات ما بيكر كوسن والدة سلطان ووقفيتها لخدمة الحرمين الشريفين صورة للتضامن الاجتماعي والديني خلال العصر العثماني، المؤرخ المصري دراسات وبحوث في التاريخ والحضارة ، كلية الآداب - جامعة القاهرة ، العدد 24 ، يناير 2001م .
- (٦) _____: مكانة مكة المكرمة لدى المسلمين العثمانيين وأوقاف نسائهم فيها ، مجلة الأمانة ، العدد 33 شوال / ذو القعدة 1426هـ .

- ٧) بلقاسم سعد الله : رحلة كيون روش إلى الحجاز 1841م - 1842م ، بحث ضمن بحوث ندوة الرحلات شبه الجزيرة العربية، الرياض ، 24 - 27 رجب 1421هـ / 24-21 أكتوبر .
- ٨) جورجي زيدان : تاريخ الجندي العثماني ، مجلة الهلال ، ج ٨ ، ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٩م .
- ٩) حسن عزوzi : ملاحظات حول مسألة التسامح الديني في العهد العثماني ، ج ١، بحوث المؤتمر الدولي حول العلم والمعرفة في العالم العثماني ، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، ط ١ ، إسطنبول : ٢٠٠٠م .
- ١٠) رياض العلي : مصطفى كمال أتاتورك بين الأسطورة والحقيقة ، تاريخ العرب والعالم ، العدد ٤٩ ، تشرين الثاني ، ١٩٨٢م .
- ١١) سلمى أحمد : وعد بلفور - وقفة تأمل ، مجلة المنطق العدد ٧ ، محرم ، ١٤٠٠هـ .
- ١٢) سهام عبد العظيم : التحضر الإسلامي والبربرية الصليبية ، بحث منشور في مجلة الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة المنيا ، العدد ٢٦ أكتوبر ، ٢٠٠٢م .
- ١٣) شكري النجار : لم الاهتمام بالاستشراق ، مجلة الفكر العربي ، بيروت ، العدد ٣١ مارس ، ١٩٨٣م .
- ١٤) عبد العزيز سعد الدغither : المستشرقون والعرب ، مقال منشور في المجلة العربية ، العدد ٣٣٤٤ ، السنة ٢٩ ، ذو القعدة ١٤٢٥هـ / يناير ٢٠٠٥م.
- ١٥) عبد الله عبد الرحمن الريبيعي : السياسة الصليبية تجاه البحر الأحمر من عام ٤٩٢هـ - ١٠٩٩م / ١١٨٨م ، دراسة في التاريخ العسكري والاقتصادي . مقال منشور في مجلة الدارة ، الرياض ، العدد ٣ ، السنة ٢٩ ، ١٤٢٤هـ .
- ١٦) عبد اللطيف البحراوي : من خصائص تاريخ العثمانيين وحضارتهم ، مجلة الدارة ، الرياض ، العدد الرابع ، السنة ١٣ ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.
- ١٧) عبدالقادر طاش : الجذور التاريخية للصورة النمطية للإسلام والعرب في التراث الغربي ، مجلة المنهل ، العدد ٤٧١ ، السنة ٥٥ ، المجلد ٥٠ ، رمضان - شوال ١٤٠٩هـ / إبريل ١٩٨٩م.

- (١٨) علي عبد العليم محمود : الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام ، بحث منشور ضمن مجموعة أبحاث مقدمة لمؤتمر الفقه الإسلامي بإشراف جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ، عام ١٣٩٦هـ ، إصدار الجامعة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤ .
- (١٩) عمر فروخ : الاستشراق ماله وما عليه ، مجلة المنهل ، جدة ، العدد ٤٧١ ، السنة ٥٥ ، المجلد ٥٥ ، رمضان - شوال ١٤٠٩هـ إبريل مايو ١٩٨٩م .
- (٢٠) فؤاد أحمد فرسوين : المسافة بين الدراسات الإقليمية والدراسات الاستشرافية ، مجلة المنهل ، جدة ، العدد ٤٧١ ، السنة ٥٥ ، المجلد ٥٥ ، رمضان - شوال ١٤٠٩هـ / إبريل مايو ١٩٨٩م .
- (٢١) فاضل مهدي بيات : التعليم في العهد العثماني دراسة تاريخية على ضوء السالنامات العثمانية ، المجلة التاريخية العدد ٥٧ - ٥٨ ، تموز ، ١٩٩٠م.
- (٢٢) فهد عبد الله السماري : مراكز دراسات الشرق الأوسط وعناتها بال المسلمين، بحث مقدم للمؤتمر الإسلامي الثاني ، لندن ، ربيع الآخر ١٤١٤هـ.
- (٢٣) كارل شميث كروته : الرحالة الألمان في الجزيرة العربية (١٦٠٠م - ١٩٠٠م) ، بحث ضمن بحوث ندوة الرحلات شبه الجزيرة العربية ، الرياض ٢٤-٢٧ رجب ١٤٢١هـ / ٢١-٢٤ أكتوبر ٢٠٠٠م .
- (٢٤) كمال الدسوقي : العثمانيون وقرارصنة رودوس ، مجلة البحث العلمي والتراث الإسلامي ، العدد الثاني ، ١٣٩٩هـ ، كلية الشريعة الدراسة الإسلامية ، جامعة الملك عبد العزيز .
- (٢٥) محمد الدسوقي : الاستشراق والفقه الإسلامي ، بحث ضمن حولية كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، جامعة قطر ، ج ٥ ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.
- (٢٦) محمد حرب : ليس بالاستشراق نفهم تاريخنا ، المجلة العربية ، المملكة العربية السعودية ، العدد ١ رجب - مارس ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .
- (٢٧) محمد محمود السروجي : أثر الاستعمار في تشويه تاريخ الأمة العربية والإسلامية ، مجلة التاريخ العربي ، جمعية المؤرخين المغاربة ، العدد الأول ، رجب ١٤١٧هـ / نوفمبر ١٩٩٦م .

- (٢٨) محمود حمدي زقزوق : الأرمنة التي نشط فيها الاستشراق ، مجلة المنهل ، جدة، العدد 471 ، السنة 55 ، المجلد 50 ، رمضان ، شوال 1409هـ / إبريل 1989 م .
- (٢٩) نادية وليد الدوسري: محاولات التدخل الروسي في الخليج 1297م - 1325هـ / 1880م - 1907م ، مطبوعات دارة الملك عبدالعزيز بالرياض ، 1422هـ .
- (٣٠) نجدة فتحي صفوة : مراسل " التايمز " في إسطنبول يصف مغادرة آخر الخلفاء العثمانيين عاصمته ، تاريخ العرب والعالم ، لبنان : دار النشر العربية للدراسات والتوثيق ، السنة 21 ، العدد 193 ، جماد الآخرة - رجب 1422هـ / سبتمبر - أكتوبر 2001م .
- (٣١) نهدي صبحي الحمصي : العثمانيون والمشروع الصهيوني ، تاريخ العرب والعالم ، سنة 20 ، العدد 187 ، سبتمبر - أكتوبر 2000م ، جماد الآخرة - رجب 1421هـ .
- (٣٢) نور الدين حاطوم : نشاط البعثات الأجنبية الدينية في العالم العربي ، محاضرات ألقاها على طلاب قسم الدراسات التاريخية ، معهد الدراسات العربية العالمية ، 1959م - 1960م .
- (٣٣) ولتر دوستال : الرحالة النمساويون في جنوب الجزيرة العربية ، بحث ضمن بحوث ندوة الرحلات شبه الجزيرة العربية ، الرياض ، 24-27 رجب 1421هـ / 24-21 أكتوبر .

ب) الأبحاث والدوريات التركية :

- 1- Ahmed Refik , " Mahmud – I Sanin in validesi " TOEM , 87(10) .
- 2- Ahmed Uçar , " Batı , Tatih ve II. Abdülhamid " , Tarih Medeniyet Dergisi , Sayı : 40 , İstanbul 1997 .
- 3- Ali , " Birinci Murad'ın Sikkeleri" , TOEM , XIV/ 4 , 1981.
- 4- Atilla Çetin , " Osman Gazi'nin sikkesini bulan adam" , Tarih ve Medeniyet Dergisi , 12, 1995 .
- 5- Arif Bey : "Devlet-i Osmaniye'nin Teessus ve Takarruru Devrinde ilim ve Ulema" , Darulfunun Edebiyat Fakultesi Mecmuası , Sayı II , İstanbul 1332 .

- 6- C.Orhonlu : xvi,Asrin illk Yarısında Kizildeniz Sahillerinde Osmanlilar , TD , XVI , 1962 .
- 7- Cemal Tekin , " Girit " , IA , IV .
- 8- Çağatay Uluçay ,” Kanuni Sultan Süleyman ve Ailesi ile ilgili Bazı Notlar ve Vesikalar “,Kanuni Armağanı, Ankara 1970 .
- 9- G.Veinstein :Les Preparatifs de la Campagne navale Franco-Turque de 1552 a travers les orders du divan ottoman; Revue de l'occident musulman et de la mediterranee xxxix.
- 10- G.Veinstein: XVI, Yazyilda karadeniz in kuzeyindeki Steplerde Buluran Osmanli Kolonizasyon Ciftlikleri, (trc.Y.Cezar),IFM , Ulgenere Armagan, Xi III / 1-4 (1987).
- 11- Gy . Kaldy – Nagy : Suleimans Angriff auf Europa , Acta Orientalia , xxxvlll / 2 , 1974 .
- 12- Gy . Szekely ; la Hongrie et la Domination Ottomane xve– xvle Siecles) , Studia Turco – Hungarica , Budapest , 1975 .
- 13- Halil Inalcik : Murad II , Islam Ansiklopedisi , Istanbul 1990 , vol . VII .
- 14- H.inalc,k : Turkler (Osmanlilar).iA , Islam Ansiklopedesi, Istanbul , 1977 , Cilt X 11/2 .
- 15- H , Inalcik " Bayezid " , Diyanet islam Ansiklopedisi , Istanbul , 1997 , Cilt 5 .
- 16- H . kaleshi : “Turklerin Balkanlara Girs ve islamlastirma” (Trc.K.Beydilli) , TED , Say 10-11 , (1981) .
- 17- H . Sohrweide : Der Sieg der Saferiden in Persien and Seine Ruckwirkungen auf die Schiiten Anatoliens in 16 . Jahrhandert. Der Islam , 41 . 1965 .
- 18- Iskender Hoci,"Sehzade Halil' in Serguzesti"TOEM , 1/4 .
- 19- İsmail Baykal ,” Selim III. Devrinde imdad – ı sefer için para basılmak üzere saraydan verilen altın ve gümüş eşya hakkında”,TarihVesikaları Dergisi, Ankara 1944, III, Sayı: 13 .
- 20- I.Sahin–F.Emecen:“Kanuni Devrinde Amasya Antlaşması”, Dia , III.
- 21- J.L.Bacque – Grammont : XVI , yuzyilinilk Yallsin da Osmanlilar ve Safeviler , Prof . Dr . Bekir Kot Ogluna Armagan , Istanbul 1991 .
- 22- M. Akif Aydin: Batılılaşma , Dia , İstanbul 1992 , Vol . 5 .

- 23- M.H.N. Sarkar : Islam and muslims in Mongolia , The muslim world league journal , vol . 30 , No , "Jumad AL Aakhiran 1423- August 2002" .
- 24- Melek Colak : Osmanli devletinde mormonlar , tarit ve Toplum, 35 No , 210 , jun2001 .
- 25- Mithat Sertoğlu , “ Cem Sultan neden padişah olamadı” , Yıllarboyu Tarih Mecmuası , Sayı : 6 , sene 4 , Haziran 1981.
- 26- Mithat Sertoğlu , “ Üçüncü Selim'in hal'i ve Alemdar Mustafa Paşa”, Hayat Tarih Mecmuası , Sayı : 1 Ocak 1975.
- 27- Ö.L.Bakan : Osmanli imperator bir islcan ve kolonizasyon metodu olarak vakiflar ve temlikler , istila dewinin kolonizatir Turk Dervisliri , vakillar Dergisi, II , 1942 .
- 28- Paul Wittek : Ankara Bozgunundan Istanbul ‘ un Zaptin trc.H.inalcik, Belleten , Sayı 27 , Ankara 1943 .
- 29- S.Tekindag : Sah kulu Baba Tekeli Isyani, BttD (Belgelerle Turk Tarih Dergisi, 1/3 , 1967) 1/4 1968 .
- 30- S. Tekindag : Yeni Kayrak ve Vesikalarin Tsigi Albinda Yauuz Sultan Selim in Iran Seferi TD , XXII, 1968 .
- 31- Skilliter : Three Letters from ottoman "Sultana Sagiy'e to queen Elisabeth" , oriental studies III , Documents from Islamic Chancelleries oxford , 1965 .
- 32- Şerafettin Turan : Radosun Zaptindan malta Muhasarasina , Kanuni Armagain , S. 47 - 117 Ankara , 1970 .
- 33- Taha Toros , Abdulhamid in Cine gonderdigi Turk Nasihat Heyeti , Yıllarboyu Tarih Dergisi , Sayi 3 . Haziran 1987.
- 34- Tahsin Öz , “ Selim III.'in sir katibi tarafından tutulan rüzname” , Tarih Vesikalari Dergisi , 1944 , Sayı : 14 .
- 35- Tayyib Gökbilgin , “ Osman Gazi” , İslam Ansiklopedisi , IX ,
- 36- Tayyib Gökbilgin , “ Arz ve raporlarına göre İbrahim Paşa'nın Irakayn seferindeki ilk tedbirleri ve fütühati” , Belleten , Sayı 83 , Ankara 1957 .
- 37- Y. Holasogla : Turkish Settlemets in Rumelia (Bulgaria) in the 15 th and 16 th Centuries , Town and village population , JTS . / V/2 , 1989 .
- 38- Yılmaz Öztuna , “ Kanuni'nin Türk ve Dünya Tarihindeki Yeri “ , Kanuni Armağanı , Ankara 1970 .
- 39- Yusuf can , “ Arz – 1 Mev'ud Fitnesi “ , Tarih ve Medeniyet Dergisi , Sayı 32 , Kasım 1996 .

- 40- Ziya Ebuzziya , " Sultan II. Abdülhamid'in Avrupa'da yasaklılığı piyesler " , Türk Edebiyatı Dergisi , Nisan 1986 .
- 41- Ziya Ebuzziya – M. Emin Gerger , İkinci Abdülhamid'in İslami korumadaki Kudreti , Batıda yasaklılığı piyesler , İstanbul 1998 .

ثامناً : موقع الشبكة العنكبوتية :

- (١) الاستشراق الروسي . الاستشراق الجامعي ببطرسبورغ ، كراسى الاستشراق فى روسيا ، 2008/8/20 م ، 132 . 85 . 209 . http://www.2008/8/20
- (٢) البدايات الأولى للاستشراق . سلسلة كتاب الأمة ، 2008/5/24 م ، http://www.islam.gov.ga.
- (٣) الاستشراق . الموسوعة الحرة لخلق وجمع المحتوى العربي ، المعرفة ، 2008/6/28 م ، http://www.Marefa.org
- (٤) ظافر يوسف . الاستشراق الألماني إلى أين ، مجلة التراث العربي ، العدد 68 ، 2008/4/21 م ، http://www.dahsha.Com
- (٥) بحث الاستشراق والمستشرقين ، شذرات ، 2008/11/15 م . http://www.Shatharat.net
- (٦) يوسف الباز بلغيث . ماهية الاستشراق ، أسواق مربد ، 2008/1/26 م . http://www.Merbad.Net
- (٧) ناظم الديراوي . صورة الإسلام في الاستشراق المبكر ، الحوار المتمدن ، العدد 1846 ، 2008/2/27 م . http://www.Ahewar.Org
- (٨) حسين الأنصارى . منجزات الاستشراق في ظل المعلوماتية . الصباح ، 2009/10/13 م . http://www.Alsabaah.Com
- (٩) الاستشراق . الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، 2009/5/19 م . http://www.Saadid.net
- (١٠) وسائل المستشرقين.التوحيد.2008/8/17 م . http://www.eltwhed.com
- (١١) مدارس الاستشراق . المدرسة الإيطالية - الألمانية - الفرنسية - الإنجليزية - الأسبانية - الأمريكية - الهولندية . 2009/2/1 م . http://www.Madinacenter.com
- (١٢) أنور محمود زناتي . التحقيق من آراء المستشرق البريطاني مرجليوث في اللغة العربية والشعر الجاهلي . 2009/10/31 م . http://www.doroob.Com
- (١٣) أنور محمود زناتي . التحقيق من آراء المستشرق البريطاني مرجليوث في اللغة العربية والشعر الجاهلي . 2009/10/31 م . http://www.doroob.Com
- (١٤) أنور محمود زناتي . التحقيق من آراء المستشرق البريطاني مرجليوث في اللغة العربية والشعر الجاهلي . 2009/10/31 م . http://www.doroob.Com
- (١٥) أنور محمود زناتي . التحقيق من آراء المستشرق البريطاني مرجليوث في اللغة العربية والشعر الجاهلي . 2009/10/31 م . http://www.doroob.Com

- (١٦) مازن مطبقاني . أسئلة وأجوبة حول الاستشراق 2008/8/17 .
http : // medinacenter.org (١٧)
- (١٨) بسام عمار . تدريس العربية في الجامعات الغربية ، 2008/12/15 ، http :// www. Awu-dam. Org
- (١٩) الاستشراق الروسي . مصادر الاستعراب الروسي ، 2009/5/7
http : // www. awu – dam . org . (٢٠)
- (٢١) مؤتمرات المستشرقيين . وسائل المستشرقيين ، 2008/12/25 .
http : // www. eltwhed. Com (٢٢)
- (٢٣) صلاح الصيفي . المستشركون اليهود في الغرب ومحاولات هدم الحضارة
الإسلامية ، برلين : علي نتفه ، 2009/5/25 .
http : // www. Saaid . net . (٢٤)
- Forums . Show Post , January . 17 / 2008 . http : // sauid net (٢٥)
lferaq .
- (٢٦) عبد العالي المتقى . حركة الاستعراب الإسباني والاهتمام بالتراث العربي ،
http : // www. Doroob . com . 2009/11/11
- (٢٧) ناصر عبد الرزاق الملا جاسم . تأسيس مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية ،
جامعة الموصل ، 2009/4/1 .
http : // www. Adabihail . com . (٢٨)
- (٢٩) محمد سليمان حسن . كراتشوفسكي والشرق الإسلامي ، 2008/8/17 ،
http : // www. Awu- dam. Org .
- (٣٠) وسائل الاستشراق . شذرات ، 2009/8/24 ،
http : // www. Shatharat.net . (٣١)
- (٣٢) أنور محمد زناتي . الاستشراق الأسباني ، 2009/1/5 .
http : // www. alnoor . se . (٣٣)
- Word press . 19 march 2009 , http : // Islame ofy . wordpress (٣٤)
.com .
- (٣٥) الموسوعة الحرة . معركة ساحة الدم ، 2008/12/9 .
http : // ar . wikipedia.org. (٣٦)
- (٣٧) المعاني - قاموس متعدد اللغات ، مصطلحات عربي عربي ، 1432/1/2 .
ht:// www. Almaany. Com .

فهرست

المقدمة	أ.....
التمهيد	1.....
الفصل الأول: أثر قيام الدولة العثمانية في ازدياد حركة الاستشراق	27.....
المبحث الأول: تنامي أعداد كراسي الاستشراق في الجامعات الأوروبية	28.....
المبحث الثاني: دور البابوية في تشجيع حركة الاستشراق	86.....
المبحث الثالث: أصداء الفتح العثماني في أوروبا ، ودور المستشرقين في إذكاء روح العداء	112.....
المبحث الرابع: أثر التسامح الديني للمسلمين في نمو حركة الاستشراق	146.....
خاتمة الفصل الأول	206.....
الفصل الثاني: تاريخ دائرة المعارف الإسلامية	209.....
المبحث الأول: التعريف بدائرة المعارف الإسلامية	210.....
المبحث الثاني: المستشرقون الذين كتبوا في دائرة المعارف الإسلامية عن الدولة العثمانية ، دراسة وتحليل	230.....
المبحث الثالث: دور اليهود في توجيه منهج الكتابة التاريخية عن الدولة العثمانية	249.....
خاتمة الفصل الثاني	289.....
الفصل الثالث: آراء المستشرقين في كتابة التاريخ العثماني	292.....
المبحث الأول: رؤية المستشرقين في تناول قيام الدولة العثمانية.....	293.....
المبحث الثاني: رؤية المستشرقين في الكتابة عن العصر الذهبي والشخصيات العثمانية التي أثرت في تاريخ أوروبا.....	347.....

المبحث الثالث: رؤية المستشرين في الكتابة عن ضعف الدولة العثمانية واضمحلالها	468
خاتمة الفصل الثالث	572
الفصل الرابع: رؤية المستشرين للنظم العثمانية	574
المبحث الأول: النظم العسكرية "نظام الانكشارية وضربيه الغلمان نموذجاً"	575
المبحث الثاني: النظم الاجقاعية "نظام الحريم أنموذجاً"	596
المبحث الثالث: النظم الشرعية "هيئة العلماء أنموذجاً"	632
خاتمة الفصل الرابع	656
الوصيات	659
الملاحق	664
قائمة المصادر والمراجع	672
الفهرست	705